حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨

(الرّواية الإسرائيليّة الرّسميّة)

ترجمه عن العبريّة : أحمد خليفة
قدّم له : وليد الخالدي
راجع الترجمة : سمير جبّور

مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة

ḥarb Filasṭīn 1947-1948: al-riwāyah al-isrā'īlīyah al-rasmīyah.
tarjamat Aḥmad Khalifah

The Palestine War 1947-1948: An Official Israeli Account.
Translated by Ahmad Khalifah

سلسلة الدراسات رقم ٦٥
Monograph Series, No. 65

ص.ب ٥٦٥٨، نيقوسيا — قبرص
الطبعة الاولى، ١٩٨٤
الطبعة الثانية، ١٩٨٦

حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨

(الرّواية الإسرائيليّة الرّسميّة)

ترجمه عن العبريّة : أحمد خليفة
قدّم له : وليد الخالدي
راجع الترجمة : سمير جبّور

مؤسّسة الدّراسات الفلسطينيّة

المحتويات

تاريخ حرب الاستقلال ٤٩٩

تقديم

تضع مؤسسة الدراسات الفلسطينية بين ايدي القراء العرب من باحثين ومؤرخين ومعنيين بتاريخ الصراع العربي ـ الصهيوني بعامة، والقضية الفلسطينية بخاصة، هذا المجلد الذي يتضمن ترجمة عن اللغة العبرية للرواية الاسرائيلية عن حرب فلسطين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨. وقد اخذت تفاصيل هذه الرواية من مصدرين: الاول، «تاريخ الهاغاناه» الذي وضعه في ثمانية مجلدات تغطي الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٤٨، الكاتب والمؤرخ الصهيوني يهودا سلوتسكي* وأشرف على تحريره هيئة من المؤرخين والخبراء الذين واكبوا تلك الحرب من الجانب الصهيوني. وقد استغرق إعداد هذا العمل من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٧٢. وقد قمنا بترجمة «الكتاب الثامن» و«الكتاب التاسع» من القسم الثاني ـ المجلد الثالث، اللذين يبحثان في دور «الهاغاناه» في الحرب والاستعدادات العسكرية والسياسية الصهيونية منذ صدور قرار التقسيم في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ حتى اعلان قيام اسرائيل في ايار/مايو ١٩٤٨ (من صفحة ١١٩٣ ـ ١٦٠٠).

أما المصدر الثاني فهو كتاب «تاريخ حرب الاستقلال» الذي وضعه فرع التاريخ في الاركان العامة للجيش الاسرائيلي وقدّم له دافيد بن ـ غوريون وصدر عن دار النشر «معراخوت» التابعة للجيش الاسرائيلي. وقد اخترنا من هذا الكتاب ترجمة الجزء الذي يبحث في تفاصيل الحرب وتطوراتها العسكرية منذ حزيران/يونيو ١٩٤٨ حتى ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨ (من صفحة ١٦٥ ـ ٣٧٠) من وجهة النظر الاسرائيلية. ووجدنا ان هذا الجزء مكمل للرواية الاسرائيلية في المصدر الاول.

---

* استاذ زميل سابق في جامعة تل ابيب، وعضو في جمعية التاريخ الاسرائيلية وفي رابطة الكتاب اليهود. ولد في الاتحاد السوفياتي (١٩١٥)، وهاجر الى فلسطين سنة ١٩٢٥، وتخرّج من مدرسة المعلمين ومن الجامعة العبرية في القدس. وله عدة مؤلفات ابرزها: «مدخل الى تاريخ حركة العمل الاسرائيلية» (١٩٧٣)، و«الصحافة اليهودية الروسية في القرن التاسع عشر» (١٩٧٠)، وسلسلة من كتب الاطفال.

وقد اعتبرت المؤسسة ان هذين المصدرين يشكلان رواية اسرائيلية رسمية للحرب، على الرغم من ان المصدر الاول لم يصدر عن هيئة رسمية مثل المصدر الثاني. غير ان «تاريخ الهاغاناه»، بتفاصيله الدقيقة واستناده الى وثائق وخرائط وتقارير ارشيفية رسمية وغير رسمية وشهادات وتصريحات للمسؤولين السياسيين والعسكريين الصهيونيين خلال تلك الحقبة، يعتبر مرجعا اساسيا معتمدا لنشاطات منظمة «الهاغاناه» ودورها في الحرب. ناهيك بأن إعداد هذا المرجع استغرق ٢٠ عاما تقريبا.

لقد حرصنا على ترجمة الرواية الاسرائيلية بدقة وأمانة علمية، اذ احتفظنا فيها بالتسميات والمصطلحات والتعبيرات اياها التي استخدمها المؤلفون انفسهم، باعتبارها تعكس جزئيا التكوين اللغوي والايديولوجي والعنصري للعقل الصهيوني. كما حرصنا على ذكر الاسماء العبرية للمنظمات والمؤسسات السياسية والاجتماعية والتشكيلات العسكرية في اول مرة ترد فيها في النص وأتبعناها بترجمة عربية لمعانيها ومدلولاتها، كي نسهل على القارىء عملية المتابعة والمقابلة بالنصوص الاخرى باللغات المختلفة. وحيث ارتأينا اضافة شروحات او ترجمات موسعة لبعض التسميات والمصطلحات وضعناها ضمن قوسين مركنين [ ].

ونظرا الى الطبيعة المرجعية للكتاب ارتأينا ان نثبت في النص المترجم ارقام الصفحات في النص العبري، وهي موجودة في الهوامش بأرقام اجنبية. كما ابقينا على صفحات الاحالات الواردة في النص الاصلي الى أحداث سبق ذكرها في المجلدات السابقة لـ «تاريخ الهاغاناه» تسهيلا للباحث الذي قد يرغب في العودة اليها في النص الاصلي.

وقد اضفنا الى النص المترجم في بداية الكتاب تعريفا بمؤسسات وتنظيمات ومصطلحات وردت في النص بأسمائها العبرية وفق الترتيب الابجدي، وأتبعناها بقائمة لترجمات هذه الاسماء بالعربية وفق الترتيب الابجدي ايضا، لكي يسهل على القارىء الرجوع الى تعريف المصطلح سواء ورد باسمه العبري او بترجمته العربية.

وأضفنا في نهاية الكتاب بعض الخرائط الواردة في الاصل العبري ولها احالات في النص، علاوة على خرائط اخرى اضفناها على الرغم من انه ليس لها احالات، وذلك لأهميتها.

وقد ألحقنا بالكتاب ثلاثة فهارس: فهرست اعلام، وفهرست مؤسسات وهيئات، وفهرست اماكن وبلدان، واستخدمنا فيها نظام الاحالات في حال ورود بعض الاماكن بتسميات حينا عبرية وحينا عربية. وهذا ما ينطبق على اسماء الاعلام التي يرد بعضها بأشكال مختلفة، اذ وضعنا الاسم السابق للشخص بين قوسين.

وتسجل المؤسسة كلمة عرفان وتقدير للاستاذ احمد خليفة للجهد الكبير الذي بذله في

ترجمة النصوص العبرية الى العربية. وتنوه المؤسسة ايضا بالجهود التي قام بها الاستاذ سمير جبور بتدقيق الترجمة واعداد قائمة بالتعريف بالمؤسسات والهيئات والمصطلحات، وبالعمل الدؤوب الذي بذله السيد سمير الديك الذي اعد الكتاب لغويا وطباعيا ووضع فهارسه.

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تموز/يوليو ١٩٨٤

مُقـــدّمـــة

قد يتساءل القارىء العربـي: ما الفائدة من العودة الى الوراء ونشر رواية العدو عن حرب ١٩٤٨ بعد ان حدث كل ما حدث منذ ذلك الحين؟ أَوَلم يكتب ما فيه الكفاية عن تلك الايام السود، أَوَلم تطغَ النكبات التي توالت وما زالت تتوالى على هذا «التاريخ القديم» وتنسخ اية عبرة كامنة فيه؟ أَوَليس اجدر بنا ان نركز اهتماماتنا على مجريات اليوم واحتمالات الغد؟ وهل القارىء العربـي بحاجة فعلا الى معلومات جديدة عن عدو اضحت طبيعته موضع تجربة رهيبة حتى لدى اطفالنا، إن في القـدس او الضفة او القـطاع او الاغوار او الجولان او لبنان؟ وهل من الحكمة ان نفسح المجال لرواية العدو عن النكبة الاولى لكي تنساب الى ذهن القارىء العربـي ونحن على ما نحن عليه من حيرة وضياع؟

الجواب في رأينا هو: بلى؛ فعلى الرغم من هذه التساؤلات ثمة فائدة، كل الفائدة، من نشر هذا الكتاب وفي هذا الظرف بالذات لأسباب نلخصها كما يلي:

• يعالج الكتاب اخطر مـرحلة فاصلة في تـاريخ القضيـة الفلسطينيـة والصراع العربـي ــ الصهيوني منذ بدء المد الصهيوني سنة ١٨٨٢. فهو يتناول الاشهر الستة ما بين توصية الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ ونهاية الانتداب البريطاني على البلاد في ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨؛ فقد شكلت أحداث هذه الفترة في آن **النهاية** المنطقية لكل ما سبق، كما شكلت نقطة **البداية** لكل ما تلا في ساحة الصراع العربـي ــ الصهيوني.

• انتقلت الصهيونية في هذه الاشهر الستة من نهج الغزو غير المباشر تحت المظلة البريطانية، عن طريق الهجرة المكثفة والاستيطان وإنشاء المؤسسات الاقتصادية وغيرها، الى الغزو العسكري المباشر بالتواطؤ مع الحكومة البريطانية التي اسرعت في تصفية وجودها في البلاد مع اصرارها على انها المسؤولة عن الامن والادارة فيها حتى تردع الجيوش العربية النظامية عن التدخل في القتال قبل نهاية الانتداب الرسمية في ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨.

• لأول مرة منذ بدء المد الصهيوني سنة ١٨٨٢ التقى الطرفان الفلسطيني والصهيوني في هذه الفترة وجها لوجه في مجابهة عسكرية، اذ ان السلطة البريطانية كانت، طوال عهد الانتداب والى ذلك الحين، الطرف الثالث العازل بينهما كما شكلت الدولة العثمانية قبل ذلك هذا الطرف العازل ولو على مضض.

● اتخذت هذه المجابهة الفلسطينية ــ الصهيونية العسكرية الاولى شكل الحرب الكلية (total war) بين مجتمعين، على خلاف الحرب بين الدول العربية واسرائيل التي تلت ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨ والتي غلب عليها طابع القتال بين جيوش نظامية.

● كان اثر المجابهة الفلسطينية الصهيونية الاولى اشد وطأة على الشعب الفلسطيني وعلى تماسك مجتمعه ومؤسساته وصلته بتراب آبائه وأجداده من اثر الحرب النظامية التي تلتها؛ ذلك بأن تشتيت الشعب الفلسطيني بدأ في اثناء هذه المجابهة واتسع، كما أُعلن قيام دولة اسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطيني في نهاية فترة المجابهة وقبل دخول الجيوش العربية النظامية.

● شكل الاسلوب الصهيوني في التعامل العسكري مع الشعب الفلسطيني خلال هذه الفترة نموذجا اقتدت اسرائيل به في مجابهاتها مع الشعب الفلسطيني منذ سنة ١٩٤٩، إن ضد القرى الحدودية ما بين ١٩٤٩ و١٩٦٧، او في حربها ضد الوجود الفلسطيني في الاغوار ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٠، او في حربها ضد الوجود الفلسطيني في لبنان ما بين ١٩٦٩ و١٩٧٨، او في اثناء غزو لبنان سنة ١٩٧٨، او في اثناء حرب الافناء وحصار بيروت سنة ١٩٨٢.

● من ناحية اخرى، بقي طابع القتال بين جيوش نظامية هو الغالب على المجابهات بين اسرائيل والدول العربية منذ سنة ١٩٤٨، باستثناء حرب الاستنزاف في القناة ١٩٦٨ ــ ١٩٧٠ والتعامل الاسرائيلي العسكري مع الشعب اللبناني في جنوب لبنان منذ سنة ١٩٨٢.

● يشكل النهج الصهيوني خلال الفترة التي يعالجها هذا الكتاب (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ ــ ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨) نموذجا متكاملا (لا يقتصر على الناحية العسكرية) للاستراتيجية التي اعتمدتها اسرائيل في جميع ازماتها التالية مع الدول العربية؛ فالعناصر الاساسية لهذه الاستراتيجية التي نجدها للمرة الاولى في الفترة التي يعالجها هذا الكتاب، هي ذاتها التي «باغتت» الدول العربية في الحرب النظامية بعد ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨، وهي ذاتها التي استمرت في «مباغتتنا» منذ ذلك الحين.

● أما العناصر الاساسية هذه، فهي:

ــ وضوح الهدف.
ــ توفر الارادة لتحقيق الهدف.
ــ حشد الموارد اللازمة لذلك.
ــ دقة التخطيط والتنظيم.
ــ إدراك دور التفوق العسكري.
ــ إحكام الربط بين الوسيلة العسكرية والوسيلة السياسية عن طريق التنسيق المسبق مع قوى دولية فاعلة.

- إدراك دور الحرب النفسية عن طريق التغلف بذرائع الدفاع عن النفس تغطية لأعمال هجومية.
- حسن التوقيت.

• الدلائل على هذه العناصر في الكتاب اكثر من ان تحصى. وسنشير الى بعض منها فقط على سبيل المثال:

اولا: يبين الكتاب بصورة قاطعة ان قبول الزعامة الصهيونية بالدولة اليهودية بحسب قرار هيئة الامم المتحدة بتقسيم البلاد لم يكن سوى مناورة تظهر الصهيونية امام الرأي العام الغربي بمظهر «الموافق» على قرار دولي، بينما الهدف الحقيقي كان احتلال البلاد من النهر الى البحر. فمثلا، بالنسبة الى القدس التي كانت واقعة خارج كل من الدولتين بموجب قرار التقسيم، كانت أوامر بن - غوريون في شباط/فبراير ١٩٤٨ ان يتم احتلال القدس بكاملها، وكذلك المناطق المحيطة بها من «البحر الميت حتى باب الواد، ومن غوش عتسيون حتى عطروت» (صفحة ٢٥٦).

ثانيا: يتبين هذا الهدف بوضوح اكثر في الخطط المفصلة التي وضعت ما بين سنة ١٩٤٦ وآذار/مارس ١٩٤٨، وخصوصا «خطة ايار/مايو ١٩٤٦» (صفحة ٨٤) و«خطة دالت» (صفحة ٣٤٦). فمثلا، بالنسبة الى خطة ايار/مايو، كان المقصود ألا تشكل الاعمال الصهيونية الانتقامية: «دائما ردا ضد منفذي عملية معينة، وانما ايضا ضد جهات نشيطة اخرى او ضد من يقدم لها المساعدة. وكان من المرغوب فيه ان تتم هذه العمليات في المؤخرة العربية، وتزعزع امن العرب. . . . وذكرت كأهداف: ضرب الزعامة السياسية، والمحرضين، ومنفذي العملية والذين قدموا لهم المأوى، والضباط والموظفين العرب الكبار الذين قدموا المساعدة؛ ضرب المواصلات العربية، والمرافق الاقتصادية (الماء ومطاحن القمح)؛ هجمات على القرى، والاحياء والمزارع المستخدمة قواعد. . . . ؛ ضرب النوادي، والمقاهي، والتجمهرات، والاجتماعات، وما شابه ذلك. . . . وكان على «الهاغاناه»، لتنفيذ هذه العمليات، ان تستخدم أفرادا او مجموعات من «المستعربين» الذين يستطيعون دخول المناطق العربية والانسحاب منها بسرعة».

أما بالنسبة الى «الخطة دالت»، فبالاضافة الى احتلال المناطق الواقعة داخل حدود الدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم، «كان واضحا ان جميع المستعمرات اليهودية القائمة خارج حدود الدولة، بحسب مشروع الامم المتحدة للتقسيم، لن تترك ولن تخلى من سكانها، وستفعل «الهاغاناه» كل ما في وسعها لتنظيم صمودها».

وتضمنت الخطة «القيام بعمليات ضد التجمعات السكانية للعدو، الموجودة داخل، او بالقرب من نظام دفاعنا. . . . وتضمنت هذه العمليات: تدمير مثل هذه القرى. . . . وفي حال المقاومة ابادة القوة المسلحة وطرد السكان الى خارج حدود الدولة. . . .». أما في المدن،

فكان «على (الهاغاناه) ان تسيطر على الاحياء العربية المنعزلة المسيطرة على طرق الخروج من المدن والدخول اليها. وأيضا، في هذه الاحياء، يطرد السكان. . . .».

ووزعت «خطة دالت» مهمات معينة على كل من الالوية التي تكونت منها «الهاغاناه»، فأوكلت الخطة الى لواء «غولاني» احتلال مخافر الشرطة في المطلة والخالصة والنبـي يوشع وصفد وطبريا وسمخ وبيسان والعفولة واللجون، والسيطرة على القرى العربية في المنطقة، وفرض الحصار على الناصرة.

وكُلف اللواء «كرملي» احتلال الاحياء العربية في حيفا والسيطرة على قرى الطيرة والمزار وجبع وإجزم وعين غزال، واحتلال البصة والزيب، وفرض الحصار على عكا.

وكُلف اللواء «ألكسندروني» احتلال عشرين قرية «في منطقة العدو» منها: طولكرم وقلقيلية وقاقون وقلنسوة والطيبة والطيرة وجلجولية وكفرعانا.

وكُلف اللواء «كرياتي» احتلال المنشية وأبو كبير وتل الريش، و«توجيه ضربة قاصمة الى يافا وسلمة ويازور».

وكُلف اللواء «غفعاتي» السيطرة على طريق يافا ـ القدس حتى اللطرون من خلال السيطرة على المسميه، وعلى طريق تل ابيب ـ النقب من خلال السيطرة على القسطينة وجولس. كما كُلف السيطرة على مطار اللد ومعسكر صرفند، وفرض الحصار على مدينتي اللد والرملة.

وكُلف اللواء «عتسيوني»، اضافة الى احتلال القدس بكاملها وكذلك ضواحيها، فرض الحصار على بيت لحم وبيت جالا.

ثالثا: ربما اكثر ما يلفت النظر في هذا الكتاب هو الشواهد على دور الولايات المتحدة، الرسمي وغير الرسمي، المباشر وغير المباشر، الضمني والصريح، في مساعدة الصهيونية في مجالات التمويل والتسلح والطاقة البشرية العالية المستوى.

فبالنسبة الى التمويل نكتفي بالاشارة الى زيارة بن ـ غوريون للولايات المتحدة في حزيران/يونيو ١٩٤٥ التي يأتي الكتاب على ذكرها (صفحة ٥٩)، حيث اجتمع الزعيم الصهيوني الى ١٩ شخصا من كبار متمولي اليهود الاميركيين، وعرض عليهم «تصـوره السياسي والامني، وطالب بجباية خاصة لتغطية جميع متطلبات الدفاع والهجرة اللاشرعية ـ وضمن ذلك: شراء معدات لصناعة السلاح من المصانع الاميركية التي كانت على وشك التصفية مع انتهاء الحرب. . . . ووعد الحاضرون بالمساعدة. . . . واتفق على ان يرسل نصف أموال حملة الجباية الى ارض ـ اسرائيل، وأن يوزع النصف الآخر بالتساوي بين «مؤسسة الهجرة» ومشتريات السلاح» ـ هذا مع العلم ان السلطات الاميركية تعفي التبرعات لصندوق الجباية اليهودية من ضريبة الدخل بحجة انها أموال تنفق في الاعمال الخيرية.

يبرز دور اميركا ايضا في تسليح الصهاينة منذ ذلك الحين؛ فقد انشئت في الولايات المتحدة، بعيد انتهاء الحرب، وكالة حكومية باسم «ادارة موجودات الحرب» (War Assets Administration) اشرفت على عملية الانتقال من الصناعة العسكرية الى الصناعة المدنية، وقد بيعت بواسطتها الآلات الصناعية الضخمة بأبخس الاثمان، على اساس كونها خردة؛ «فالآلة التي كانت كلفتها ١٠,٠٠٠ دولار ووزنها ٥ أطنان بيعت - عادة - بـ ١٢٥ دولارا. . . .» (صفحة ٦١). وقد سمحت الادارة الاميركية لعملاء الصهاينة بالاشتراك في مزادات هذه الوكالة، وتمكن هؤلاء من شراء معامل بكاملها لصنع الاسلحة تم شحنها وادخالها الى فلسطين لتصبح نواة الصناعة العسكرية الاسرائيلية الحديثة، ولتلعب دورا حاسما خلال حرب سنة ١٩٤٨.

ويؤكد الكتاب ان الولايات المتحدة كانت المصدر الاهم للطاقة البشرية العالية المستوى في الخبرات العسكرية: فربابنة السفن التي نقلت المهاجرين غير الشرعيين كانوا من الذين خدموا في السابق في البحرية الاميركية؛ وقادة الطائرات التي نقلت السلاح من تشيكوسلوفاكيا الشيوعية الى فلسطين كانوا من الذين خدموا سابقا في سلاح الطيران الاميركي؛ والسرب المحارب الاول في سلاح الطيران الاسرائيلي كانت طواقمه اميركية؛ كذلك كان قائد الجبهة الوسطى (اللطرون) الكولونيل الاميركي اليهودي المتقاعد دافيد ماركوس؛ وكانت بعض وحدات الجيش الاسرائيلي تنطق كليا بالانكليزية. وبرز دور الاميركيين كذلك في مجال الطب العسكري؛ وكان تجنيد الاميركيين للخدمة في فلسطين يجري علنا في مكتب انشىء في الولايات المتحدة باسم «الارض والعمل لفلسطين» (Land and Labor for Palestine).

رابعا: ومما يشير اليه الكتاب بوضوح ايضا تصميم القيادة الصهيونية على احراز التفوق العسكري عن طريق التسلح الكمي والنوعي، انطلاقا من وعي هذه القيادة الكامل للدور المهيمن للطاقة العسكرية في صراع كالصراع العربي - الصهيوني.

فالكتاب يورد تفاصيل عديدة لبرامج الصناعة العسكرية وللأسلحة التي كان يتم صنعها في المصانع المحلية، اضافة الى الصفقات الضخمة لشراء الاسلحة من الخارج، والى خطة شراء الاسلحة من فلسطين وأسواق العالم العربي حتى لا تسقط هذه الاسلحة في الايدي الفلسطينية، وكذلك الى خطة الحيلولة دون تسلم الدول العربية للسلاح الذي تشتريه من الخارج.

لقد كانت المصانع اليهودية المحلية تنتج منذ سنة **١٩٣٩** الرشيشات (ستن / Sten) ومدافع الهاون وذخائرها. وعشية التقسيم في ٦ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، اصدر بن-غوريون الامر الى هذه المصانع لتنتج بأسرع وقت ٢٠,٠٠٠ بندقية، و ١٠,٠٠٠ رشاش، و ٥٠٠٠ مسدس، و ٥٠٠٠ رشيش مع ٤,٥ ملايين رصاصة.

أما بالنسبة الى الصفقات، فقد جاءت الطائرات في باديء الامر (آذار/مارس ١٩٤٨) من اميركا، وكان عددها ثلاث عشرة طائرة. وفي الشهر نفسه، تم شراء ٥٠ مجنزرة من اميركا ايضا على انها «معدات زراعية». ويقول الكتاب: ساهم مئات الاميركيين، من اليهود وغير اليهود، في هذه الصفقات فساعدوا بتقديم المال أو المواد او بصفتهم خبراء، وكانت اعمالهم هذه ضد قوانين البلاد، لكنهم حتى لو اعتقلوا كانوا دائما يلقون معاملة لينة من المحاكم الاميركية (صفحة ٤٢٥).

وكانت الاسلحة تتدفق قبل ذلك من فرنسا وايطاليا بواسطة اليهود الاميركيين في الجيش الاميركي، وكذلك بواسطة رجال الفرقة اليهودية العاملة في صفوف الجيش البريطاني المرابط في اوروبا. وبلغ عدد الاسلحة التي وصلت الى البلاد عن هذا الطريق: ٢٠٠٠ بندقية، و ٥٠٠ رشيش، و ٢٠٠ مدفع رشاش (برن)، و ٥٠٠ مسدس، ادخلت جميعها الى فلسطين قبل نهاية سنة ١٩٤٧.

ولعل اهم صفقة عقدت محليا في هذه الاثناء مع الحكومة البريطانية، كانت شراء ٢٠ طائرة Auster بمبلغ ٨٥٠٠ جنيه فقط للطائرات العشرين. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، تمت الصفقة مع تشيكوسلوفاكيا وقوامها: ٢٤,٥٠٠ بندقية، و ٥٠٠٠ رشاش، و ٥٤ مليون رصاصة، و ٢٥ طائرة ميسرشميدت (Messerschmidt) الالمانية الحربية. وفي نيسان/ابريل ١٩٤٨ تم شراء ٢٥ مدفعا مضادا للطائرات من فرنسا، و ٥٠ مدفع ميدان، الخ، الخ.

هذا قليل من كثير، كان البعض منا يعلم بعضه ويستنبط البعض الآخر استنباطا، فجاء هذا الكتاب بالخبر اليقين على لسان مؤرخين اسرائيليين رسميين يستهدفون في كتاباتهم باللغة العبرية الجمهور العبري من دون غيره، فحرصنا نحن في مؤسسة الدراسات الفلسطينية على ان نطّلع على ما يفترض الاّ نطّلع عليه حتى نضعه بين يدي القارىء العربي؛ ذلك بأن اسرائيل درجت على تقنين المعلومات المتوفرة عن حرب سنة ١٩٤٨ لدى غير الملمين بالعبرية حتى تبقى على صورتها التي لم تضعها جانبا إلا مؤخرا على انها الطرف المهاجَم والمحاصَر والمهدد بالفناء والذي ينتصر دوما على أعدائه بفضل ايمانه وقيمه المعنوية التي يتبجح بها هذا الكتاب في فصوله الاولى والتي يستحسن على القارىء العربي ألا يأخذها على محمل الجد.

* * *

كلمة لا بد منها عن مترجم هذا الكتاب: فهو الصديق والزميل الاستاذ احمد خليفة الباحث المحلل والمناضل الصامت الهادىء الذي انتصر على سجّانه الاسرائيلي عندما امضى

وقته في سجن العدو في دراسة العبرية؛ فالشكر له على هذه الترجمة الدقيقة السلسة، وفقه الله.

* * *

وبعد، فلا يضير العرب ولا يضرهم ان يزدادوا معرفة وتعمقا في نهج الصهيونية؛ فعدو العرب اولا وآخرا ليس المعرفة ولا المزيد منها.

وليد الخالدي

واشنطن، تموز/يوليو ١٩٨٤

تعريف بمؤسسات وتنظيمات ومصطلحات سياسية وعسكرية صهيونية *

اسيفات هنفحاريم (جمعية المنتخَبين)

الهيئة التمثيلية العليا ليهود فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني. تأسست في نيسان/ابريل ١٩٢٠ اذ انتخبها اعضاء ما كان يسمى «كنيست يسرائيل» ـ الجمعية السياسية التي كانت تشمل ممثلين عن جميع السكان اليهود في فلسطين بأحزابهم وطوائفهم.

وقد حُددت مهمات «اسيفات هنفحاريم» بأنها «المؤسسة العليا لتحسين الاوضاع العامة الوطنية للشعب اليهودي في ارض ـ اسرائيل وممثله الوحيد في الداخل والخارج»، وبأنها صاحبة الصلاحيات التشريعية والقانونية ازاء جميع مجالات عملها.

وفي شباط/فبراير ١٩٤٩ حلّت الجمعية وتحولت الى الكنيست ـ البرلمان الاسرائيلي الحالي.

اغودات يسرائيل (عصبة اسرائيل)

منظمة عالمية دينية وسياسية مكونة من اليهود المتدينين. تأسست سنة ١٩١٢ في كاتوفيتس (بولونيا) متبنية مبدأ حل جميع مشكلات اليهود وفقا للتوراة. وقد حاربت اغودات يسرائيل الصهيونية، وقاطعت المنظمة الصهيونية ومؤسسات يهود فلسطين الرسمية. لكنها عادت بعد قيام اسرائيل فغيرت موقفها من الصهيونية والتحقت بمؤسسات السكان اليهود، واشتركت في اول انتخابات برلمانية في اسرائيل. ومنذ ذلك الحين وهي تشترك في الائتلاف الحكومي.

«ألكسندروني» (لواء عسكري)

اللواء الثالث من ألوية «الهاغاناه» الستة التي انشئت في بداية حرب ١٩٤٨. وكان اللواء ينشط في المنطقة الوسطى من فلسطين. وأبرز عملياته العسكرية احتلال مدينة يافا في ٢٥ نيسان/ابريل ١٩٤٨. وساهم ايضا في العمليات العسكرية في الجنوب ـ في الفالوجة وعراق سويدان. وبعد قيام الجيش الاسرائيلي انخرط لواء «ألكسندروني» في هذا الجيش كلواء ممكنن. وشارك في احتلال مرتفعات الجولان سنة ١٩٦٧.

---

* المعلومات التي تتضمنها هذه التعريفات مستقاة، في الاساس، من المراجع الصهيونية ـ موسوعات سياسية وعسكرية ـ في اطار السياق الذي وردت فيه ضمن الكتاب.

ايتسل (ايرغون تسفائي ليئومي / المنظمة العسكرية القومية)

منظمة سرية ارهابية تأسست في القدس في ربيع سنة ١٩٣١، عندما انشق بعض اعضاء «الهاغاناه»، وعلى رأسهم أبراهام تهومي قائد فرع «الهاغاناه» في القدس، نتيجة أحداث سنة ١٩٢٩ والمشاحنات بين المعسكر العمالي والمعسكر اليميني التصحيحي بزعامة زئيف جابوتنسكي.

انتهجت الايتسل خطا ارهابيا عسكريا متطرفا، اذ نفذ اعضاؤها بعد أحداث سنة ١٩٣٩ عشرات العمليات الارهابية ضد العرب وضد مؤسسات الانتداب البريطاني. وبالتعاون مع منظمة ليحي نفذت الايتسل مذبحة دير ياسين في ٩ نيسان/ابريل ١٩٤٨.

وفي ٢٠ ايلول/سبتمبر ١٩٤٨، اصدر يغئيل يادين، اول رئيس اركان للجيش الاسرائيلي، أمرا بحل الايتسل التي تحولت الى حزب سياسي متطرف هو حزب «حيروت» بزعامة مناحم بيغن.

بريت شالوم (حلف السلام)

جمعية يهودية سياسية فلسطينية كانت تدعو الى التوفيق بين العرب واليهود. وقد أنشأها سنة ١٩٢٦ جماعة من المفكرين والمثقفين والنشيطين السياسيين اليهود في القدس. وكان من الاهداف المعلنة لهذه الجمعية: «شق الطريق امام التفاهم بين العرب واليهود على نهج حياتي مشترك في فلسطين ــ عبر المساواة الكاملة للحقوق السياسية للشعبين....» وفي سنة ١٩٣٠ طالبت «بريت شالوم» باقامة «دولة ثنائية القومية» على اساس حقوق سياسية متساوية للشعبين، بغض النظر عن الناحية العددية. وقد حاول بعض قادة الجمعية انشاء جمعيات ذات اتجاهات سياسية شبيهة، مثل: «رابطة التقارب اليهودي والعربي»، و«ايحود» [الوحدة].

بريغيدا يهوديت (هحايل / الفرقة اليهودية)

تنظيم عسكري تأسس رسميا في ايلول/سبتمبر ١٩٤٤ بقرار من مجلس وزراء الحرب البريطاني، وذلك رغبة من الحكومة البريطانية في التضامن مع المطالب اليهودية بانشاء وحدات عسكرية يهودية مميزة للقتال الى جانب الحلفاء ضد دول المحور خلال الحرب العالمية الثانية.

ويعود انشاء هذه الفرقة الى سنة ١٩٣٩، عندما تسجل ١٣٠,٠٠٠ من يهود فلسطين كمتطوعين في الخدمة العسكرية ضد دول المحور. وقد حارب الكثيرون من هؤلاء المتطوعين المدربين في صفوف «الهاغاناه». كما شكل قسم كبير من الجنود والضباط الذين تدربوا في اطار الفرقة اليهودية نواة الجيش الاسرائيلي فيما بعد.

بلماح (بلوغوت ماحتس / القوة الضاربة)

تنظيم عسكري، وهو بمثابة «الجيش الدائم» لـ «الهاغاناه». وقد انشىء سنة ١٩٤١ في ظل «خطر السيطرة النازية على الشرق الاوسط». وفي البداية حظي البلماح بتأييد البريطانيين، ثم اشترك في محاربة سلطة الانتداب البريطاني. وحتى شهر كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧، كان البلماح اللواء الاقليمي المجند الوحيد لمنظمة «الهاغاناه».

وخلال سنة ١٩٤٧ اشترك البلماح في محاربة منظمتي المنشقين: ايتسل وليحي. ونفذ العديد من العمليات العسكرية، وخصوصا في النقب والشمال. وكان عدد اعضائه ٢٢٠٠ مجند و ٩٠٠ رجل احتياط.

وفي بداية حرب ١٩٤٨ كان البلماح يقوم على مستوى كتائب، ثم على مستوى ألوية، منها ألوية «يفتاح» و «هنيغف» [النقب] و «هارئيل». وفي هذه الحرب قُتل ٩٩٩ عضوا من اعضاء البلماح من مجموع القتلى البالغ ٤٤٧٠ قتيلا. وقد شكلت ألوية البلماح النواة العسكرية الضاربة للجيش الاسرائيلي، بعد صدور امر بحلها في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨.

بلوغوت ساديه (سرايا الميدان)

وحدات عسكرية انشئت سنة ١٩٣٧ في اطار «الهاغاناه» لمحاربة المناضلين العرب. وفي سنة ١٩٣٨ تطورت الى قوة اقليمية انيطت بها مهمة حماية المستعمرات اليهودية. وفي سنة ١٩٣٩ حلت سرايا الميدان وانضم قسم منها الى قوة الحرس السيّار.

بلوغوت هلايل هميوحدوت (الوحدات الليلية الخاصة)

وحدات كوماندو خاصة انشئت سنة ١٩٣٦ لحماية خط انبوب نفط العراق ــ حيفا. وكانت تسمى ايضا «بلوغوت هئيش» (سرايا النار). وقد انشأها الضابط البريطاني تشارلز وينغيت الذي كان متعاطفا مع الصهيونية. وضمت هذه الوحدات جنودا بريطانيين ومتطوعين يهودا من اعضاء «الهاغاناه». وقد حلت وحدات الكوماندو هذه في تموز/يوليو ١٩٣٩.

بليم (بلوغا ياميت / الكتيبة البحرية)

وحدة كانت تابعة للبلماح، وكانت الذراع البحرية لـ «الهاغاناه». ومارست نشاطها في مجال الهجرة اليهودية اللاشرعية، والعمليات التخريبية ضد المرافق البحرية البريطانية وسفن الاسطول البريطاني التي كانت تطارد المهاجرين غير الشرعيين القادمين الى فلسطين.

وقد تشكلت نواة الكتيبة البحرية سنة ١٩٣٤ من البحارة الذين عملوا في خدمة «الهاغاناه» مع بدء الهجرة اللاشرعية المنظمة.

بيتار (بريت يوسف ترومبلدور / حلف يوسف ترومبلدور)

تنظيم الشباب التابع للصهيونيين التصحيحيين، وبعد ذلك لحركة «حيروت». ويوسف ترومبلدور كان رئيس حركة «هحلوتس» (الرائد) في روسيا، هاجر الى فلسطين وقتل في معركة تل حاي سنة ١٩٢٠. ومن أهداف هذا التنظيم تثقيف الشبان المنتمين الى حركة «حيروت» بفكرة انشاء اسرائيل الكبرى، او كما يطلق عليها «تكامل الوطن» و«جمع المنفيين». وكان لهذا التنظيم خلال الثلاثينات فروع في ايطاليا وفرنسا وجنوب افريقيا ونيويورك.

بيلو (بيت يعقوف لخو ونيليخا / يا بني يعقوب تعالوا لنذهب)

تنظيم للشبان اليهود القوميين تأسس في روسيا بعد الاضطرابات ضد اليهود سنة ١٨٨١. وكان يدعو اليهود الى الهجرة الى فلسطين، وهدفه المعلن: «نهضة سياسية ـ اقتصادية وقومية ـ روحية للشعب اليهودي في سورية وأرض ـ اسرائيل». وفي سنة ١٨٨٤ اسس اعضاؤه القلائل مستعمرة غديره.

تساهل (تسافا هغاناه ليسرائيل / «جيش الدفاع الاسرائيلي»)

انشىء في ٣١ ايار/مايو ١٩٤٨، وتشكل من «الهاغاناه» والايتسل وليحي ومن المتطوعين الآخرين.

ويتألف الجيش الاسرائيلي من «الجيش الدائم» ـ المجندون الذين يمارسون الخدمة الاجبارية مدة عامين ونصف العام ـ ومن «الجيش النظامي» الذي يتألف اساسا من المكلفين بالخدمة الاجبارية والمجندين المحترفين والضباط في الخدمة الدائمة، ومن «جيش الاحتياط» الذي يضم جميع المسرحين من الخدمة النظامية حتى سن الخمسين. وكان رجال الاحتياط يستدعون الى الخدمة شهرا في السنة، وبعد حرب ١٩٧٣ تم تمديد الخدمة في الاحتياط الى بضعة اشهر.

تنوعاه لأحدوت هعفوداه (حركة وحدة العمل)

حزب صهيوني اشتراكي للعمال اليهود في فلسطين، كان هدفه توحيد العمال في حزب واحد. تأسس في بيتح تكفا سنة ١٩١٩، وانضم الى الاتحاد العالمي لحركة «بوعالي تسيون» (عمال صهيون). وفي سنة ١٩٣٠، اتحدت الحركة مع حركة «هابوعيل هاتسعير» (العامل الفتى) وشكلا معا حزب ماباي (حزب عمال ارض ـ اسرائيل).

وفي سنة ١٩٤٤، انشق الجناح اليساري في ماباي لمعارضته مواقف الاكثرية، وأسس حزب احدوت هعفوداه الذي اندمج سنة ١٩٦٨ مع ماباي ورافي وشكلوا حزب العمل.

تنوعاه هعام (حركة الشعب)

حركة سياسية يمينية متطرفة انشقت عن الحركة التصحيحية. اسسها بنيامين لوبوتسكي (ايلياف) سنة ١٩٤٤. وكان احد ابرز مبادئها المطالبة بالعودة غير المشروطة لحركة التصحيحيين الى المؤسسات الصهيونية ومؤسسات الييشوف. وقد بقيت هذه الحركة نشيطة حتى سنة ١٩٤٨.

تنوعاه هميرد (حركة التمرد)

«حركة العصيان والتمرد» التي قام بها يهود فلسطين ضد سلطات الانتداب البريطاني في اعقاب الحرب العالمية الثانية، احتجاجا على «القيود» على «الهجرة والاستيطان». وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٥، عقد زعماء الييشوف مؤتمرا طارئا وأعلنوا ان «الييشوف سيقاتل بكل الوسائل المتوفرة لديه لتحقيق الاستقلال السياسي لشعب اسرائيل في ارض ــ اسرائيل».

وفي ١ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٥، بدأت «حركة التمرد» سلسلة اعمال تخريبية ضد المرافق العامة والجسور والقطع البحرية البريطانية التي كانت تعترض السفن التي كانت تقل المهاجرين غير الشرعيين. وفيما بعد تلاشت «حركة التمرد» وخلفتها الايتسل وليحي في عمليات التخريب الى ان تم حلهما سنة ١٩٤٨.

توخنيت دالت (الخطة «د»)

اول خطة «استراتيجية» وضعتها «الهاغاناه» بغرض «احتلال مناطق على نطاق قطري والسيطرة عليها». وقد بدىء بتنفيذ الخطة في ١٠ آذار/مارس ١٩٤٨. وكانت تنطوي على «جانب عملياني ــ نظري»، وجانب تنظيمي لجهة تعيين القوات. وتم وضع هدف الخطة: «السيطرة على مناطق الدولة العبرية، وحماية حدودها وكتل الاستيطان، وحماية السكان اليهود من خارج الحدود، ضد عدو نظامي او شبه نظامي وصغير، يعمل من قواعد خارج حدود الدولة اليهودية او من قواعد موجودة داخلها».

واشتملت الخطة ايضا على: «قطع طرق مواصلات العدو، والاستيلاء على مواقع تشرف على الطرق، ونسف الجسور، وتطهير القرى العربية الموجودةعلى مقربة من التجمعات اليهودية والسيطرة على تلك القرى.... والاستيلاء على جميع الخدمات والاملاك الحكومية.... وطرد العرب من المناطق المختلطة وحتى من احياء معينة». أما المدن التي استهدفتها الخطة فهي: صفد وطبريا وحيفا وتل ابيب ويافا والقدس ونيس تسيونا.

حعان (حيل عيزر لنشيم / الجيش النسائي المساعد)

القوة العسكرية التي شكلت من الاناث اللواتي خدمن في صفوف «الهاغاناه» والبلماح

والايتسل وليحي. والمهمات التي كانت تتولاها الاناث هي: عاملات لاسلكي، سائقات سيارات اسعاف، ممرضات وطبيبات، ضابطات استخبارات ومقاتلات. وكانت المجندات ترافقن القوافل بالمصفحات.

وفي ٢٦ ايار/مايو ١٩٤٨ اقيم رسميا سلاح النساء، وأطلق بن-غوريون عليه تسمية «سلاح النساء المساعد» على غرار ما هو متبع في الجيش البريطاني.

حغام (حينوخ غوفاني مورحاف / التربية البدنية الموسعة)

اطار للتربية البدنية للشبيبة اليهودية قبل مزاولتها اي نشاط عسكري. وقد بدىء بتعميم هذه التربية في المدارس الثانوية سنة ١٩٤٠. وكان التلاميذ يتدربون في جميع الفروع الرياضية التطبيقية، ليشكلوا قوة احتياط لـ «الهاغاناه». وفي صيف سنة ١٩٤٠ افتتحت اول مدرسة لإعداد معلمين للتربية البدنية.

حوما ومغدال (السور والبرج)

تسمية تطلق على حملة انشاء ٥٢ مستعمرة محصنة اقامتها المؤسسات اليهودية و«الهاغاناه» وحركات الكيبوتس والكيرين كاييمت وكيرين هيسود، خلال أحداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، لخلق حقائق منتهية على الارض، وخصوصا في اعقاب صدور «الكتاب الابيض».

وكانت هذه المستعمرات عبارة عن مواقع عسكرية تقام بين ليلة وضحاها، تبدأ بالاستيلاء على قطعة من الارض يجري تسييجها بألواح خشبية وبينها طبقات من الجص واقية من الرصاص (سور). وكانت تقام داخل السور أكواخ خشبية ومواقع عسكرية وبرج مراقبة يعلوه كاشف ضوئي. ومن هنا جاءت التسمية: السور والبرج.

حيس (حيل ساديه / قوة الميدان)

احد اسلحة «الهاغاناه»، وكان يضم شبانا تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٢٥ عاما.

كانت المهمة الاساسية لقوة الميدان مزاولة النشاطات العسكرية خارج تخوم المستعمرات، وشكلت قوات مساندة على مستوى الاقاليم. وقبيل صدور قرار التقسيم سنة ١٩٤٧، غيرت «الهاغاناه» بنية قوة الميدان وأخرجتها من نظام الدفاع الاقليمي، لتسهيل نقلها من مكان الى آخر وفق الحاجة. وقد ضمت وحدات قوة الميدان الى الالوية العسكرية القتالية. وكانت قوة الميدان تضم ١٠,٠٠٠ مقاتل.

حيفر هكفوتسوت (جمعية الكيبوتسات)

جمعية قطرية للكيبوتسات انشئت سنة ١٩٢٥ وضمت المستعمرات اليهودية الاولى في

فلسطين مثل دغانيا أ و ب وكنيرت وغيرها. وفي سنة ١٩٥١ اشتركت «حيفر هكفوتسوت» و «اتحاد الكيبوتسات» الذي انشق عن الكيبوتس الموحد التابع لحزب احدوت هعفوداه، وأقاما «ايحود هكفوتسوت وهكيفوتسيم» (اتحاد الكيبوتسات).

حيم (حيل مشمار / قوة الحراسة)

احد اسلحة «الهاغاناه»، وكان يتولى حماية اليهود داخل المستعمرات، وكان منظما في مناطق وقطاعات ومواقع. ولدى نشوب حرب ١٩٤٨ كانت هذه القوة تضم ٣٠,٠٠٠ رجل فوق سن الثلاثين. وكان أفرادها يشكلون قوة مساندة لقوة الميدان ولوحدات الجيش الاسرائيلي فيما بعد.

سيزون (الموسم)

التسمية التي اطلقت على فترة نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين التي تخللها صراع شديد بين «الهاغاناه» والمنظمتين المنشقتين: الايتسل وليحي.

شاي (شيروت يديعوت / جهاز الاستخبارات)

«جهاز المعلومات» الذي انشأته «الهاغاناه» منذ سنواتها الاولى، لجمع المعلومات عن العرب وعن نشاط سلطات الانتداب البريطاني. وقد استخدمته «الهاغاناه» بعد ذلك لجمع المعلومات عن المنظمتين المنشقتين: الايتسل وليحي.

ومع بدء أحداث الثورة العربية ١٩٣٦ – ١٩٣٩، لم يكن جهاز الاستخبارات فعالا. لكن في تلك الاثناء جرى توسيعه وتقويته بانشاء «الدائرة العربية» في «الهاغاناه» برئاسة رؤوفين شيلواح. ومع اتساع الهجرة اليهودية اقيمت فروع له في الخارج، وأخذ يتولى مهمة التنصت على الاتصالات اللاسلكية البريطانية.

وخلال حرب ١٩٤٨ تم تطوير «شاي» وأقيمت فيه دوائر عديدة ومتفرعة. وهذه شكلت بعد قيام اسرائيل نواة لأجهزة الاستخبارات والتجسس الاسرائيلية، بأنواعها المختلفة.

شبات شحورا (السبت الاسود)

الكنية التي اطلقت على يوم السبت الواقع في ٢٩ حزيران/يونيو ١٩٤٦، اذ قام البريطانيون خلاله بحملة عسكرية وسياسية واسعة ضد المنظمات اليهودية التي اعلنت العصيان والتمرد احتجاجا على «أحكام الكتاب الابيض». وقد اطلق البريطانيون على حملتهم هذه اسم «Broad Side».

وقد فرضت سلطات الانتداب الحصار على العديد من المستعمرات اليهودية، وقامت بعمليات تفتيش عن الاسلحة والمطلوبين، واكتشفت مخازن اسلحة كبيرة لـ «الهاغاناه».

شيروت هآفير (مصلحة الطيران)

القوة الجوية التي انشأتها «الهاغاناه» قبيل اعلان قيام اسرائيل. وكانت هذه القوة تتكون من أفراد قسم الطيران التابع للبلماح، ومن خريجي مدرسة الطيران التابعة لشركة «افيرون»، وكذلك من الشبان اليهود الذين خدموا في سلاح الطيران الملكي البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية.

وعندما تأسست «شيروت هآفير» في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧ كانت تضم ٣٥ طيارا و ١١ طائرة خفيفة. وكانت ابرز مهماتها الربط بين المستعمرات اليهودية المعزولة، ونقل الامدادات والذخيرة والبريد، والتصوير، ومرافقة القوافل.

وفي نيسان/ابريل ١٩٤٨ كانت مصلحة الطيران تضم ١٩ طائرة و ٣٧ طيارا وسربين جويين اطلق عليهما «النقب» و «الجليل».

«عتسيوني» (لواء عسكري)

سمي ايضا لواء القدس، وهو تابع لـ «الهاغاناه»، انشىء في منطقة القدس خلال حرب ١٩٤٨. وهو احد الالوية الستة الاولى التي انشأتها قيادة «الهاغاناه». وبلغ عدد أفراده في شباط/فبراير ١٩٤٨، ٢٦٣٣ مجندا. وقد فشل هذا اللواء في الصمود بمنطقة القدس في اثر سقوط مستعمرات «غوش عتسيون».

غاحل (غيوس حوتس لأرتس / التجنيد في خارج البلد)

تنظيم يضم «متطوعين ــ مهاجرين» كانت «الهاغاناه» تجندهم في معسكرات المهاجرين غير الشرعيين في قبرص ومعسكرات اللاجئين اليهود في اوروبا الشرقية والغربية وشمال افريقيا. وكان بينهم مقاتلون يهود حاربوا خلال الحرب العالمية الثانية. وكان يشرف على التدريب العسكري في المعسكرات في الخارج ضباط يهود خدموا في جيوش الاتحاد السوفياتي وبولندا وتشيكوسلوفاكيا. وبعد انتهاء التدريب، كان المجندون يتوجهون الى فلسطين بطريقة غير شرعية للقتال في صفوف «الهاغاناه».

غادناع (غدودي نوعر / كتائب الشباب)

تنظيم عسكري وظيفي تابع للجيش الاسرائيلي، يمارس في اطاره شبان المدارس الثانوية اليهودية التدريب العسكري قبل التحاقهم بالخدمة العسكرية الالزامية بالتنسيق بين الجيش ووزارة الثقافة والتربية ومديري المدارس.

وتعود جذور الغادناع الى حغام [انظر حغام] «التربية البدنية الموسعة» التابع لـ «الهاغاناه» والذي كان يتولى إعداد الشبان بدنيا للقيام بمهمات عسكرية.
وخلال فترة الحرب، ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، كان يتم تدريب شبان الغادناع على النشاطات العسكرية كقوات مساندة للجيش. وتضم قيادة الغادناع اربعة اقسام: العمليات، والتربية، والادارة، والمستودعات.

«غولاني» (لواء عسكري)

انشىء في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٤٨ في اثر إلغاء لواء «لفنانوني» التابع لـ «الهاغاناه» وانشاء لواءين بدلا منه: «كرملي» و «غولاني».
وكان لواء «غولاني» يتألف من ست كتائب، بينها كتيبة اغارة ميكانيكية. وكان مسرح نشاطه العسكري: الجليل الاعلى والجليل الشرقي، ومرتفعات الجليل الاسفل، والسهول.
وبعد انشاء الجيش الاسرائيلي اصبح لواء «غولاني» من اهم ألويته، اذ اشترك في كثير من «العمليات الانتقامية»، وفي حروب ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣.

فعدات X (لجنة X)

لجنة سرية تشكلت في بداية نشاط ما عرف بـ «حركة التمرد» التي قادتها «الهاغاناه» سنة ١٩٤٦ ضد سلطات الانتداب.
ففي البداية تشكلت لجنة سياسية عامة «لاقرار جميع الاعمال التي كان لها دلالة سياسية ودولية من الدرجة الاولى». وكان عدد اعضائها ثلاثة اشخاص هم: دافيد بن-غوريون رئيس ادارة الوكالة اليهودية، وعضوا الادارة موشيه سنيه وموشيه شابيرا. لكن بعد فترة قصيرة، شكلت لجنة اخرى تمثلت فيها هيئات عامة مختلفة لم تكن ممثلة في ادارة الوكالة اليهودية. وقد اطلق على هذه اللجنة التي كان عدد اعضائها ستة اشخاص اسم لجنة X دلالة على سريتها. وكانت مهمتها اقرار كل خطة عسكرية لضرب المرافق البريطانية يرفعها الى اللجنة رئيس القيادة القطرية لـ «الهاغاناه»، من دون ذكر تفاصيل الخطة.
وقد توقف نشاط لجنة X سنة ١٩٤٧، وبقرار من بن-غوريون تحولت الى لجنة امنية «تشرف على قضايا الامن العامة»، وعرفت فيما بعد باسم «اللجنة الامنية».

فعدات يروشليم (لجنة القدس)

لجنة انشأتها «الهاغاناه» والمؤسسات اليهودية الاخرى في ربيع سنة ١٩٤٨، وأطلق عليها «لجنة المؤسسات لشؤون القدس» (وباختصار: لجنة القدس) برئاسة دوف يوسف عضو الوكالة اليهودية.

وكان الغرض من تأليف هذه اللجنة توفير الامدادات والمواد الغذائية والمياه لسكان القدس اليهود المحاصرين. وأشرفت اللجنة على توزيع حصص الطعام والماء.

«كرملي» (لواء عسكري)

اللواء الثاني من ألوية «الهاغاناه» الستة. انشىء في بداية حرب ١٩٤٨، وكان جزءا من لواء «لفنانوني». لكن عندما حل هذا اللواء في شباط/فبراير ١٩٤٨، اقيم لواء «غولاني» ولواء «كرملي» الذي نشط في حيفا والجليل الغربي. وكان قائد اللواء موشيه كرمل، ومن هنا جاءت تسميته. وتولى لواء «كرملي» احتلال القرى والمدن العربية في الجليل الغربي، بما في ذلك عكا والناصرة. وبعد انشاء الجيش الاسرائيلي اصبح لواء «كرملي» لواء ميكانيكا، واشترك في احتلال مرتفعات الجولان السورية سنة ١٩٦٧.

«كرياتي» (لواء عسكري)

اللواء الرابع من ألوية «الهاغاناه» الستة، انشىء خلال حرب ١٩٤٨. وكان مجال عمله العسكري تل ابيب وضواحيها. واشترك قسم من قواته في عملية «نحشون» على طريق القدس، وفي عملية محاصرة مدينة يافا واحتلالها. وخلال حرب سيناء سنة ١٩٥٦، احتل لواء «كرياتي» الصبحة والقسيمة.

كنيست يسرائيل (مجمع اسرائيل)

الاسم الذي اطلق على المنظمة العامة ليهود فلسطين خلال حكم الانتداب البريطاني، وكانت تضم معظم ابناء الطائفة اليهودية. وعقدت الجمعية العمومية الاولى للمنتخبين لكنيست يسرائيل سنة ١٩٢٠، واعترفت حكومة الانتداب بها سنة ١٩٢٨. وكانت اعلى مؤسستين لكنيست يسرائيل هما: «اسيفات هنفحاريم» (جمعية المنتَخَبين) و«هفاعد هلئومي» (المجلس القومي). وبعد قيام اسرائيل اصبحت الجمعية تعرف باسم الكنيست ـ اي البرلمان ـ ويضم ١٢٠ عضوا.

كوبات حوليم (صندوق المرضى)

مشروع للضمان الصحي الشامل تابع للهستدروت (الاتحاد العمالي)، تأسس سنة ١٩١١ من قبل ما كان يسمى «اتحاد عمال يهودا»، وذلك لمواجهة أضرار البطالة بين يهود فلسطين والامراض التي تفشت بين اليهود اليمنيين.

وبعد انشاء الهستدروت سنة ١٩٢٠، دمج صندوقا المرضى التابعان لحزبي «احدوت هعفوداه» و«هاشومير هاتسعير» في الصندوق الاساسي. ومنذ ذلك الحين اصبح هناك صندوق مرضى واحد تابع للهستدروت، اذ كان يوفر تغطية كاملة للمهاجرين الجدد.

ويعتبر كل عضو في الهستدروت عضوا في كوبات حوليم تلقائيا، فتحسم رسوم الضمان الصحي من اجره مباشرة.

كول هماغين (صوت المُدافع)

محطة اذاعة محلية انشأتها «الهاغاناه» في أوائل سنة ١٩٤٨ في القدس بعد توقف وصول الصحف العبرية من تل ابيب. وكانت هذه المحطة تبث برامجها بثلاث لغات: العبرية والعربية والانكليزية. وكانت تبث، بالاضافة الى الاخبار، تعليمات للسكان اليهود خلال محاصرة القدس بشأن توزيع المواد الغذائية والمياه وتعليمات تتعلق برفع معنوياتهم.

كيبوتس آرتسي (الكيبوتس القطري)

اتحاد للمزارع الجماعية تأسس سنة ١٩٢٧ باسم «هكيبوتس هآرتسي شيل هاشومير هاتسعير» (الكيبوتس القطري للحارس الفتى). وكان الهدف من انشائه تطبيق الفكرة الصهيونية والاشتراكية الماركسية في حياة الكيبوتس.

ومن المعروف عن كيبوتس آرتسي انه لا يقبل في صفوفه إلا من كان منتميا الى حركة «هاشومير هاتسعير» (الحارس الفتى). وينتمي الكيبوتس القطري سياسيا الى حزب مابام (حزب العمال الموحد).

كيبوتس ميئوحاد (الكيبوتس الموحد)

حركة للمزارع الجماعية انشئت سنة ١٩٢٧ بمبادرة اعضاء كيبوتس عين حارود وبقايا منظمة «كتائب يوسف ترومبلدور للعمل والدفاع». وكان الغرض من انشاء الكيبوتس الموحد إعداد الكيبوتسات لاستيعاب العمال في قرى جماعية تقوم على الزراعة والصناعة. وفي سنة ١٩٤٤ اسست الحركة حزب «احدوت هعفوداه» (وحدة العمل).

وكان الكيبوتس الموحد على ارتباط وثيق بالبلماح، عسكريا واقتصاديا.

كيرين كاييمت ليسرائيل (الصندوق القومي اليهودي)

صندوق لشراء الاراضي في فلسطين، تعود فكرة انشائه الى المؤتمر الصهيوني الاول في بازل (١٨٩٧)، وأقر رسميا سنة ١٩٠٧، اذ جرى تسجيله وفق قانون الشركات البريطانية. وقد قام الكيرين كاييمت بدور مهم في انشاء المستعمرات اليهودية وامتلاك الاراضي في فلسطين بشتى الوسائل. وله فروع في الدول التي فيها تجمعات يهودية. وهو احدى مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية.

وخلال الحرب العالمية الثانية، كان اكثر من نصف أموال الكيرين كاييمت يأتي من يهود الولايات المتحدة.

كيرين هبرزيل (الصندوق الحديدي)

صندوق مالي اقامته منظمة الايتسل في أوائل سنة ١٩٤٨، في اعقاب فشلها في السطو على مصرف باركليز البريطاني بتل ابيب. وبسبب الضائقة المالية التي واجهتها الايتسل قام رجالها بحملة جباية لمرة واحدة، وأطلقوا عليها «كيرين هبرزيل» (الصندوق الحديدي). وكانوا ينافسون في ذلك حملة الجباية التي قامت بها «الهاغاناه» والتي اطلق عليها اسم «عام لهاغاناتو» (من اجل الدفاع عن الشعب).

كيرين هيسود (الصندوق التأسيسي)

احدى المؤسسات الرئيسية التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية من اجل جمع الاموال والتبرعات. وقد اسسه سنة ١٩٢٠ المؤتمر الصهيوني في لندن لمواجهة الاعباء المالية للمنظمة في فلسطين بعد صدور وعد بلفور (١٩١٧). وقد حدد مؤتمر لندن مهمة «الصندوق التأسيسي»: «تمويل الهجرة والاستيطان في فلسطين». وكان الصندوق يفرض على اليهود في جميع انحاء العالم التبرع بصورة ضريبة سنوية. وفي سنة ١٩٢١ سجل كشركة بريطانية. وخلال الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٨ كانت الوكالة اليهودية تستخدم أموال الصندوق في الانفاق على «الهجرة، والاستيطان الزراعي، والتعليم، والخدمات الاجتماعية، والسكن».

«لفنانوني» (لواء عسكري)

احد الالوية الاقليمية الاولى التي انشأتها «الهاغاناه» في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧. وسمي ايضا لواء «الشمال». وكان يتألف من خمس كتائب. وأنيط به القيام بالعمليات العسكرية في منطقة الجليل والسهول ومنطقة حيفا. وفي شباط/فبراير ١٩٤٨، قسم اللواء الى اثنين: «غولاني» و«كرملي» وتم إلغاؤه.

ليحي (لوحامي حيروت يسرائيل / المقاتلون من اجل حرية اسرائيل)

منظمة سرية ارهابية متطرفة اسسها سنة ١٩٤٠ أبراهام شتيرن، احد قادة الايتسل الذي اشتهر بأساليبه الارهابية. وكانت ليحي تسمى ايضا «جماعة شتيرن». وكان شعارها: الحرب من اجل «حرية الوطن» ــ والقصد: فلسطين بأكملها. وقد انشق رجال ليحي عن الايتسل بسبب معارضتهم اسلوب الايتسل ورفضهم وقف النشاط الارهابي ضد البريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية.

ومن ابرز العمليات الارهابية التي قام بها رجال ليحي اغتيال اللورد موين الوزير البريطاني لشؤون الشرق الاوسط سنة ١٩٤٤، واغتيال الكونت برنادوت وسيط الامم المتحدة في ايلول/سبتمبر ١٩٤٨. كما نفذ اعضاء ليحي عددا كبيرا من العمليات الارهابية ضد

عرب فلسطين، ابرزها الهجوم على العمال العرب في مصافي التكرير بحيفا، والمذابح التي اقترفوها ضد القرى العربية مثل دير ياسين بالاشتراك مع الايتسل في ٩ نيسان/ابريل ١٩٤٨ حيث قتلوا ٢٥٠ من سكان القرية، بمن فيهم النساء والاطفال، رميا بالرصاص. وكذلك المذابح التي نفذوها ضد قريتي الشيخ مونس ويازور.

وفي اليوم التالي لمقتل الكونت برنادوت اصدرت الحكومة الاسرائيلية الموقتة أمرا بحل ليحي.

ماحل (متندفي حوتس لأرتس / متطوعون من خارج البلد)

حملة للتطوع قامت بها المنظمات الصهيونية و«الهاغاناه» لتجنيد شبان يهود مدربين عسكريا في الجيوش الاجنبية، من اجل ارسالهم الى فلسطين للقتال في صفوف «الهاغاناه». وأرسل خلال هذه الحملة نحو ٣٠٠٠ متطوع. وكان يجري اختيار ذوي التدريب العالي، وخصوصا طيارين وبحارة. وكان اول سرب جوي اقامته «الهاغاناه» مكونا من هؤلاء المتطوعين. وكان معظم المتطوعين يرسلون الى فلسطين بأسماء مستعارة وبصورة غير شرعية، لأن تطوعهم كان مخالفا لقوانين الدول التي جاؤوا منها.

ماغين دافيد ادوم (نجمة داوود الحمراء)

مؤسسة لتقديم الخدمات الطبية الطارئة على غرار مؤسسات الصليب الاحمر والهلال الاحمر. اسسها الاطباء من اعضاء «الهاغاناه» سنة ١٩٣٠ في تل ابيب، وسنة ١٩٣١ في حيفا، وسنة ١٩٣٤ في القدس. وفي سنة ١٩٣٥ اعلنت كمؤسسة قطرية. وقامت بدور عسكري ـ طبي مهم خلال نشاط «الهاغاناه» في فلسطين.

وفي سنة ١٩٥٠، اصدر الكنيست «قانون نجمة داوود الحمراء» وحدد مهماتها. وقد رفضت منظمة الصليب الاحمر الدولية قبول «نجمة داوود» عضوا فيها بسبب شعارها (النجمة السداسية الحمراء)، وقبل ممثلوها في المنظمة الدولية بصفة مراقبين.

مشطيرت هيشوفيم هعفريم (شرطة المستعمرات العبرية)

[انظر: نوطروت ـ نوطير]

مشمار إزراحي (الحرس المدني)

هيئة تطوعية اقامتها «الهاغاناه» في شباط/فبراير ١٩٤٧ لـ«مساعدة الشرطة اليهودية في حماية المستعمرات والمحافظة على الامن الداخلي»، وكذلك «نشر الوعي بين الجماهير بأن على المواطن الاسرائيلي الاشتراك في حماية منزله ومساعدة الحكومة والجهاز الامني في المحافظة على امنه وأمن عائلته وأملاكه». وقد حُل «الحرس المدني» سنة ١٩٤٩.

مشمار هعام (الحرس الشعبي)

وحدة من المتطوعين من يهود القدس، اقامتها في ايلول/سبتمبر ١٩٤٧ لجنة الطائفة اليهودية في المدينة من اجل «المحافظة على النظام العام في المدينة، وتنظيم الجمهور واعداده للانضمام الى صفوف الهاغاناه». وكان ينضم الى «الحرس الشعبي» رجال متقدمون في السن، او اشخاص لم يتمكنوا لأسباب صحية او غيرها من الاشتراك في اعمال «الهاغاناه». ثم اقيمت وحدة من «الحرس الشعبي» في مدينة حيفا ايضا.

منهيلت هعام (الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب)

الهيئة العليا، الادارية والتنفيذية، للسكان اليهود في فلسطين بعد انتهاء الانتداب البريطاني. وقد انبثقت هذه الهيئة من «مجلس الشعب» كهيئة تنفيذية موقتة، وكان عدد اعضائها ١٣ يتولون ادارات على غرار وزارات الحكومة.

موشاف / موشافيم (مستعمرة / مستعمرات تعاونية زراعية)

مستعمرة تعاونية زراعية تقوم على مبادىء العمل الذاتي والتعاون المتبادل والملكية الخاصة للمزرعة، وكل عضو يملك منزلا خاصا به وقطعة من الارض يعمل فيها مع ابناء عائلته. ويجري تسويق المنتوج والتزود بالمعدات بواسطة مؤسسات تعاونية.

وقد عرف هذا النوع من المستعمرات خلال ما يسمى الهجرة الثانية قبل الحرب العالمية الاولى.

موشفاه / موشفوت (قرية / قرى زراعية)

اقدم أنواع المستعمرات الزراعية وتعرف بالقرية الزراعية الخاصة، اذ اقيمت اول واحدة في فلسطين سنة ١٨٧٨ وسميت «بيتح تكفا» [بوابة الامل] خلال «الهجرة الاولى».

وتقوم الموشفاه على مبادىء منح اعضائها حرية الانتماء السياسي او الحركي، والانسحاب منها من دون اذن، والملكية الفردية للأرض والانتاج. وخلافا للموشاف والكيبوتس فان الموشفاه لا تقوم على اساس ايديولوجي او انتماء سياسي بل على اساس اقتصادي.

موعيتست هعام (مجلس الشعب)

الهيئة العليا ليهود فلسطين التي انشئت لدى انتهاء الانتداب البريطاني. وكان عدد اعضاء «مجلس الشعب» ٣٧ عضوا: ١٤ عضوا من «المجلس القومي» (هفاعد هلئومي)، و ١٢ من الوكالة اليهودية، و ١١ ممثلا عن منظمات وهيئات مختلفة. وقد انتخب «مجلس

الشعب» هيئة تنفيذية مكونة من ١٣ عضوا سميت «منهيلت هعام» (ادارة الشعب). وبعد اعلان اقامة اسرائيل تحول «مجلس الشعب» الى موعيتست همديناه هزمانيت» (مجلس الدولة الموقت).

موعيتست همديناه هزمانيت (مجلس الدولة الموقت)

المؤسسة التشريعية الموقتة التي انشئت لدى اعلان قيام اسرائيل، ثم تحولت الى الكنيست الاول (البرلمان) سنة ١٩٤٩. وكان تركيبها على غرار تركيب «مجلس الشعب» الذي سبقها. وأنيط بـ «مجلس الدولة الموقت» صلاحية وضع انظمة الحكم والقضاء، والاشراف على اعمال الهيئة التنفيذية، والاعداد للانتخابات الاولى.

نطوري كارتا (حراس المدينة)

جماعة متعصبة ومتطرفة دينيا من اليهود المتدينين في فلسطين. ويقطن معظم اعضاء هذه الجماعة، الذين لا يتجاوز عددهم المئات، في حي «ميئاه شعاريم» في القدس. واستمدت الجماعة اسمها من التلمود الذي يتضمن دعوة اليهود المتدينين الى تعلم التوراة وسموا بـ «حراس أسوار المدينة».

ولا يعترف اعضاء «نطوري كارتا» بـ «دولة اسرائيل»، ويعارضون استخدام اللغة العبرية في المخاطبة، ويتهمون الصهيونية بأنها اقامت مجتمعا علمانيا لا يتّبع تعاليم التوراة والشريعة اليهودية. وبعد اعلان قيام اسرائيل نظمت الجماعة تظاهرات احتجاج صاخبة، وبعثت برسالة الى الامين العام للأمم المتحدة اعربت فيها عن معارضتها اقامة دولة يهودية في فلسطين. وتنادي «نطوري كارتا» بتدويل مدينة القدس.

نوطروت ـ نوطير (قوة الخفارة ـ الخفير)

قوة حراسة خاصة اقيمت سنة ١٩٣٦ خلال الانتفاضة العربية في فلسطين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩). وقد مارست الوكالة اليهودية الضغط على حكومة الانتداب البريطاني للترخيص لرجال «الهاغاناه» باستخدام الاسلحة لحماية المستعمرات. وقد اصدرت السلطات البريطانية تراخيص خاصة لرجال «الهاغاناه» باسم «رجال شرطة اضافيين» كانوا يحصلون على رواتبهم وملابسهم العسكرية من الشرطة البريطانية، ومهمتهم الاساسية حماية المستعمرات، وقد بلغ عددهم ٢٨٠٠ خفير. وأطلقت السلطات البريطانية على قوة الخفارة في المستعمرات الزراعية اسم «شرطة المستعمرات العبرية» (Jewish Settlement Police). ثم شكلت وحدات قطرية لمهمات مختلفة وخاصة اطلق عليها: خفر القطارات، وخفر المطار، وخفر السواحل، وغيرها. وفي أوائل سنة ١٩٣٧ وافقت حكومة الانتداب على مشروع الوكالة اليهودية بزيادة

عدد الخفراء، وتحويل قوة الخفارة الى قوة شرطة منظمة في تنظيم عسكري. وجرى تنظيم «شرطة المستعمرات العبرية» في عشر كتائب وفق التقسيم الاقليمي لـ «الهاغاناه».

هاشومير (الحارس)

منظمة لـ «الحراسة والدفاع» عن المستعمرات اليهودية في فلسطين. تأسست في مستعمرة كفار تافور (المسحة) في نيسان/ابريل ١٩٠٩، على يد «رواد» من «الهجرة الثانية» ونشيطي منظمة «الدفاع الذاتي» اليهودية في روسيا. وكان معظم اعضاء «هاشومير» من حزب «عمال صهيون». وكانت «هاشومير» حركة سرية يقتصر نشاطها على الحراسة ثم تجاوزها، في وقت لاحق، الى اقامة مستعمرات. فأقامت المنظمة مستعمرتي تل عداسيم في مرج ابن عامر، وتل حاي في الجليل الاعلى.

وعندما اتسع نشاط الهجرة واقامة المستعمرات، بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٨)، تقرر اقامة منظمة اكبر حجما وأكثر شمولا لمواجهة المقاومة العربية. واجتمع مؤتمر «هاشومير» في ايار/مايو ١٩٢٠، وأعلن حل المنظمة وانشاء منظمة «الهاغاناه» بدلا منها. الا انه بقيت لـ «هاشومير» خلايا سرية. وعندما بدأت الاضطرابات سنة ١٩٢٩، سلم اعضاء هذه الخلايا جميع اسلحتهم لـ «الهاغاناه».

هاشومير هاتسعير (الحارس الفتى)

اتحاد عالمي للشبيبة الصهيونية، تأسس في غاليتسيا (مقاطعة كانت تحت حكم النمسا والمجر) وبولونيا سنتي ١٩١٣ و١٩١٤، وضم اتحاد الكشافة «هاشومير» ومجموعات من «تساعيري تسيون» (شبان صهيون). وفي سنة ١٩١٦، اتحدت الحركتان وشكلتا معا حركة «هاشومير هاتسعير». ومن أهدافها: نشر التربية الصهيونية، والهجرة الى فلسطين، وتحقيق الحياة الجماعية. وقد هاجر أوائل اعضاء الحركة الى فلسطين سنة ١٩١٩، وأقاموا اول كيبوتس لهم. وفي سنة ١٩٢٧ اسست في فلسطين حركة «هكيبوتس هآرتسي هاشومير هاتسعير». وفي سنة ١٩٤٦ تحولت الحركة الى حزب سياسي اصبح يعرف سنة ١٩٤٨ بحزب مابام.

هتسوهر (هتسيونيم هاريفزيونستيم / اتحاد الصهيونيين التصحيحيين)

حزب صهيوني يميني متطرف انشأه زئيف جابوتنسكي في باريس سنة ١٩٢٥. وتعكس هذه التسمية مطالب هذا الحزب بتصحيح السياسة «المتساهلة» للمنظمة الصهيونية العالمية بزعامة حاييم وايزمن تجاه حكومة الانتداب البريطانية، وبانتهاج سياسة متشددة لاستبدال الانتداب البريطاني في فلسطين «على ضفتي نهر الاردن» بدولة يهودية ذات اكثرية يهودية،

وذلك باستخدام القوة العسكرية ضد البريطانيين والعرب والهجرة اليهودية الجماعية وتوسيع الاستيطان من دون مراعاة لأية اعتبارات سياسية.

وفي سنة ١٩٣١ انسحب العمال «التصحيحيون» من الهستدروت وأنشأوا «منظمة عمال هتسوهر وبيتار». وفي سنة ١٩٣٣، انسحب جابوتنسكي وأتباعه من المنظمة الصهيونية العالمية، ثم عادوا اليها سنة ١٩٤٦. وبعد قيام اسرائيل اندمجت هتسوهر في حركة «حيروت» التي انشأها اعضاء الايتسل بعد حلها كمنظمة عسكرية سرية.

هتنوعاه هميئوحيدت (الحركة المتحدة)

منظمة للشبيبة اليهودية في فلسطين اقامها سنة ١٩٤٥ اتحاد اعضاء حركة «غوردونيا ــ همكابي هتساعير» (حركة دافيد غوردون للشبيبة اليهودية العالمية، انشئت سنة ١٩٢٥) وانضم اليها اعضاء انشقوا عن ماباي والكيبوتس الموحد. وبعد قيام اسرائيل وسعت الحركة نشاطاتها. وفي سنة ١٩٥٤ اندمجت مع حركة «هبونيم» (البناة) وشكلتا حركة «هبونيم ــ هتنوعاه هميئوحيدت». وفي سنة ١٩٥٩، اتحدت هذه الحركة مع «منظمة الشباب الذي يعمل ويتعلم».

هحلوتس (الرائد)

منظمة عالمية للشبان اليهود الذين أعدوا انفسهم للهجرة الى فلسطين وانشاء المستعمرات فيها. وقد ظهرت اول مجموعة من هذه المنظمة سنة ١٩٠٥ في مدينة اوديسا (اوكرانيا). وفي سنة ١٩١١، نشأت حركة «هحلوتس» في الولايات المتحدة. لكن الاطار التنظيمي الواسع للمنظمة اقيم سنة ١٩١٧ في روسيا ودول اوروبا الشرقية. ومن بين مؤسسي المنظمة في روسيا يوسف ترومبلدور الذي ساهم في انشاء «الكتائب العبرية» في فلسطين. وقامت مبادىء «هحلوتس» على التربية البدنية، وبث الروح العسكرية في نفوس الشبان، ونشر اللغة العبرية.

بلغ عدد اعضاء «هحلوتس» في بداية الحرب العالمية الثانية ١٠٠,٠٠٠ عضو تقريبا. وكان لها فروع في بلاد كثيرة. وخلال الاحتلال النازي لأوروبا تشتتت المنظمة، وأخذ اعضاؤها يعملون في تهريب اليهود من مناطق الاحتلال النازي الى بلاد مختلفة وخصوصا الى فلسطين. ثم تلاشى الاطار العام لمنظمة «هحلوتس» وأنشئت في المنظمة الصهيونية العالمية «دائرة الشبيبة والرواد».

هستدروت هعوفديم هعفرييم (الهستدروت / اتحاد العمال اليهود)

منظمة قطرية للعمال اليهود في فلسطين، تأسست سنة ١٩٢٠ لتضم وترعى مصالح جميع العمال اليهود، من سن الثامنة عشرة فما فوق.

ولم يقتصر دور الهستدروت منذ انشائه على معالجة الشؤون العمالية، وإنما كانت له نشاطات متنوعة على صعيد انشاء المستعمرات اليهودية، والنشاطات الاقتصادية، والهجرة، والنشاط العسكري وارتباطه بالـ«الهاغاناه»، والنشاطات الثقافية والتربويـة ونشر اللغـة العبرية.

وأعضاء الهستدروت منظمون في نقابات واتحـادات مهنية قـطرية، وفق الفـروع الاقتصادية وفروع الخدمات.

وللهستدروت مرافق اقتصادية وشركات كبرى ومؤسسات اجتماعية مثل: «كوبات حوليم» (صندوق المرضى). وكان له، ولا يزال، صحيفة ناطقة باسمه هي صحيفة «دافار».

هسوخنوت هيهوديت ليسرائيل (الوكالة اليهودية)

هيئة تعمل باسم يهود العالم، تأسست سنة ١٩٢٩ بناء على صك الانتداب البريطاني لفلسطين (١٩٢٠) الذي اقرته عصبة الامم سنة ١٩٢٢، اذ ورد في البند الرابع من صك الانتداب وجوب انشاء «وكالة يهودية» تمثل «الشعب اليهودي امام حكومة الانتداب وتتعاون معها على انشاء الوطن القومي اليهودي». وقد منح هذا البند المنظمة الصهيونية العالمية مكانة «وكالة يهودية». لكن ورد ايضا في البند المذكور ان المنظمة الصهيونية ستسعى لاقامة وكالة يهودية واسعة لـ «ضمان تعاون جميع اليهود الذين يرغبون في المساعدة على اقامة الوطن القومي اليهودي».

عقد المؤتمر التأسيسي للوكالة اليهودية في زوريخ سنة ١٩٢٩، وضم ٥٠٪ من اعضائه عن المنظمة الصهيونية العالمية، و ٥٠٪ عن المنظمات والشخصيات اليهودية غير الصهيونية من ٢٦ بلدا.

وقد حددت مجالات عمل الوكالة اليهوديـة: تنظيم الهجـرة، وضمان استيعـاب المهاجرين اليهود في فلسطين، وانشاء المستعمرات، ورعاية الاطفال والشبان وتوفير الثقافة لهم في اطار «هجرة الشبيبة».

وتحصل الوكالة اليهودية على أموالها من «الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحدة»، ومن الصندوق التأسيسي في ٦٠ بلدا.

ان المؤسسة العليا للوكالة اليهودية هي الجمعية العمومية التي يجري اختيار ٥٠٪ من اعضائها من قبل المنظمة الصهيونية العالمية، و ٣٠٪ تختارهم «الجباية اليهودية الموحدة في الولايات المتحدة»، و ٢٠٪ يختارهم الصندوق التأسيسي في الدول المختلفة. وتنتخب الجمعية العمومية مجلس امناء مكونا من ٤٠ عضوا. وقبل انشاء اسرائيل كانت الوكالة اليهودية، بزعامة بن-غوريون، اعلى سلطة سياسية للسكان اليهود في فلسطين.

هعبالاه ـ معبيليم (الهجرة اللاشرعية ـ المهاجرون غير الشرعيين)

تعني كلمة «هعبالاه» المغامرة او الاقدام وتسلق الجبال، وهي الكنية التي اطلقت على عملية احضار اليهود من مختلف ارجاء العالم الى فلسطين خلال فترة الانتداب بصورة غير شرعية، وذلك لتجاوز القيود التي فرضتها سلطات الانتداب على الهجرة اليهودية نتيجة مقاومة عرب فلسطين لهذه الهجرة. وقد اشتركت جميع المؤسسات الصهيونية في عمليات تهريب اليهود الى فلسطين، وخصوصا منظمة «الهاغاناه». وانشئت مؤسسة خاصة لهذا الغرض سميت «مؤسسة الهجرة». وقد تصاعدت الهجرة اللاشرعية بعد الحرب العالمية الثانية الى ان بلغت ذروتها في ايار/مايو ١٩٤٨، حين وصلت الى شواطىء فلسطين ٦٤ سفينة تقل ٧٠,٠٠٠ مهاجر غير شرعي.

«هغناه» (ارغون ههغناه هعفري بإرتس يسرائيل ـ «الهاغاناه» / منظمة الدفاع العبرية في ارض ـ اسرائيل)

كان يطلق عليها ايضا «المنظمة العسكرية السرية ليهود ارض ـ اسرائيل في فترة الانتداب البريطاني». تأسست في مؤتمر «احدوت هعفوداه» (حركة العمل الموحد) في طبريا يوم ١٢ حزيران/يونيو ١٩٢٠. وسميت ايضا «هشورا» (الطابور العسكري) و«الارغون» (المنظمة).

وكانت «الهاغاناه» اكبر منظمة عسكرية ليهود فلسطين، ومرتبطة منذ البداية بالاتحاد العام للعمال (الهستدروت) وبأعضاء حركة العمل، مع ان أبوابها كانت مشرعة امام جميع اليهود. وكانت المنظمة الوحيدة الخاضعة مباشرة لأمرة «هفاعد هلئومي» (المجلس القومي) ـ مقارنة بمنظمتي المنشقين: الايتسل وليحي.

وفي البداية كان لـ«الهاغاناه» طابع تطوعي (ميلشيائي) على غرار منظمة «هاشومير» (الحارس)، اذ تعتبر «الهاغاناه» خليفتها. وفي الوقت ذاته انتهجت «الهاغاناه» اساليب الجيش النظامي مثل نظام الدفاع الثابت.

ومع الوقت تطورت «الهاغاناه» من تنظيمات محلية الى تنظيمات قطرية. فخلال الثلاثينات شكلت «القيادة العامة» ثم «القيادة القطرية» وهيئة الاركان. وخلال حرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ اصبح لها ستة ألوية اقليمية. وكانت المهمة الرئيسية لـ«الهاغاناه» احتلال اكبر قسم من فلسطين العربية حتى خارج حدود التقسيم. لكن بعد سقوط آخر المستعمرات اليهودية في ضواحي القدس في ١٤ ايار/مايو ١٩٤٨، حصرت القيادة السياسية الصهيونية «تطلعاتها الاقليمية داخل حدود الدولة اليهودية التي اقترحتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧». إلا ان هذه القيادة «تركت لنفسها امكانات تغييرات اقليمية، اذ انها لم تعين في ميثاق الاستقلال الحدود المستقبلية لدولة اسرائيل».

لكن القيادة العامة كانت قد حددت في ١٨ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨ أهداف «عمليات المبادأة الانتقامية والهجومية» بالاغارة على التجمعات السكنية العربية (قرى وأحياء وضواح)، والمرافق الاقتصادية (مياه ومستودعات بضائع حيوية وورش صناعية)، والمواصلات العربية (وسائل المواصلات وجسور وطرق عربية صرف وقرى ومدن عربية مجاورة للطرق اليهودية).

وبعد انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨، واصلت «الهاغاناه» احتلال المزيد من المناطق العربية في الجليل والنقب والمثلث. وفي ٢٦ ايار/مايو ١٩٤٨، تحولت «الهاغاناه» الى جيش نظامي، اذ اعلن رسميا انشاء الجيش الاسرائيلي.

هموساد لعلياه (مؤسسة الهجرة)

مؤسسة انشأتها «الهاغاناه» في الخارج لتنفيذ عمليات الهجرة اللاشرعية. وقد انشئت هذه المؤسسة سنة ١٩٣٩ بعد ازدياد حجم الهجرة اللاشرعية. وكان العاملون فيها، ومعظمهم من جنود الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني في اوروبا، يهربون اليهود من مختلف الاقطار ويجمعونهم في «معسكرات تأهيل» لنقلهم بالسفن الى فلسطين. وأبرز هذه المعسكرات كان في قبرص.

ويزو ـ WIZO (المنظمة العالمية للنساء الصهيونيات)

الحروف الاولى للكلمات التي يتكون منها الاسم باللغة الانكليزية Womens International Zionist Organization (المنظمة العالمية للنساء الصهيونيات)، تأسست في لندن سنة ١٩٢٠، وأهدافها: تنظيم النساء من اجل العمل الصهيوني وإعداد المرأة اليهودية والفتاة اليهودية في فلسطين للقيام بالأعمال «البناءة»، ورعاية الشؤون الصحية والثقافية للأطفال اليهود. وللمنظمة عشرات الفروع في مختلف البلاد، باستثناء الولايات المتحدة حيث تقوم منظمة «هداسا» بدلا منها. والمنظمة عضو دائم في المؤتمر الصهيوني ورئيستها عضو في المجلس الصهيوني.

«يفتاح» (لواء عسكري)

احد ألوية «الهاغاناه». اقيم في ربيع سنة ١٩٤٨، وكان يتكون من كتيبة «البلماح» الاولى («هعيمك») والثالثة («الجليل»). وفي وقت لاحق ضمت اليه الكتيبة الثانية (من لواء النقب). وفي ٢٥ نيسان/ابريل ١٩٤٨، ارسل قائد البلماح يغآل آلون الى الجليل للسيطرة على منطقة «تل حاي» بالقرب من صفد، ومواجهة جيشي سورية ولبنان. ومن هنا جاءت تسمية هذا اللواء «يفتاح»، وهي الحروف الاولى للاسم الكامل لقائد البلماح (يغآل

فايكوفيتس آلون) ولاسم المكان (تل حاي). وبعد انشاء الجيش الاسرائيلي اصبح لواء «يفتاح» احد ألويته الرئيسية.

«ييشوف» (الييشوف / مستوطنة)

تسمية اطلقت على السكان اليهود في فلسطين حتى قيام اسرائيل. ولهذه التسمية دلالة خاصة إذ كانت ترمز الى اضفاء طابع التمايز للسكان اليهود عن السكان العرب في فلسطين. ولذا كانت عبارة «الييشوف» تستخدم في سياق سعي اليهود لحكم ذاتي له مؤسساته الخاصة به.

وكان «الييشوف» ينقسم الى فئتين عبر حقبتين من الزمن: الييشوف القديم قبل سنة ١٨٨٢، ويرمز الى انتهاء السكان اليهود الى طائفتين دينيتين: «الاشكنازيم» و«السفاراديم»، يعيش أفرادهما على تبرعات يهود العالم وفق نظام «الحالوكاه» (توزيع الحصص)؛ «الييشوف» الجديد ١٨٨٢ ــ ١٩١٨، ويرمز الى بلورة انتهاء السكان اليهود الى «هوية قومية» لا الى طائفة دينية. وبالتالي شرع في انشاء مستعمرات يهودية لها طابع الاستقلالية.

وخلال فترة الانتداب ١٩١٨ ــ ١٩٤٨ انشئت مؤسسات لها طابع الحكم الذاتي في اطار السعي لانشاء «الوطن القومي».

قائمة المؤسسات والتنظيمات والمصطلحات السياسية والعسكرية الصهيونية بحسب الأبجدية العربية

اتحاد الصهيونيين التصحيحيين: هتسوهر
اتحاد العمال اليهود: هستدروت هعوفديم هعفرييم
التجنيد في خارج البلد: غاحل
التربية البدنية الموسعة: حغام
جمعية الكيبوتسات: حيفر هكفوتسوت
جمعية المنتخَبين: أسيفات هنفحاريم
جهاز الاستخبارات: شاي
«جيش الدفاع الاسرائيلي»: تساهل
الجيش النسائي المساعد: حعان
الحارس: هاشومير
الحارس الفتى: هاشومير هاتسعير
حراس المدينة: نطوري كارتا
الحرس الشعبي: مشمار هعام
الحرس المدني: مشمار إزراحي
حركة التمرد: تنوعاه هميرد
حركة الشعب: تنوعاه هعام
الحركة المتحدة: هتنوعاه هميئوحيدت
حركة وحدة العمل: تنوعاه لأحدوت هعفوداه
حلف السلام: بريت شالوم
حلف يوسف ترومبلدور: بيتار
الخطة «د»: توخنيت دالت

---

* وضعت هذه القائمة تسهيلا لرجوع القارىء الى قائمة التعريف اعلاه، المرتبة بحسب الاسماء العبرية.

الرائد: هحلوتس
السبت الاسود: شبات شحورا
سرايا الميدان: بلوغوت ساديه
السور والبرج: حوما ومغدال
شرطة المستعمرات العبرية: مشطيرت هيشوفيم هعفرييم
الصندوق التأسيسي: كيرين هيسود
الصندوق الحديدي: كيرين هبرزيل
الصندوق القومي اليهودي: كيرين كاييمت ليسرائيل
صندوق المرضى: كوبات حوليم
صوت الـمُدافع: كول هماغين
عصبة اسرائيل: اغودات يسرائيل
الفرقة اليهودية: بريغيدا يهوديت
قوة الحراسة: حيم
قوة الخفارة: نوطروت
القوة الضاربة: بلماح
قوة الميدان: حيس
كتائب الشباب: غادناع
الكتيبة البحرية: بليم
الكيبوتس القطري: كيبوتس آرتسي
الكيبوتس الموحد: كيبوتس ميئوحاد
لجنة X: فعدات X
لجنة القدس: فعدات يروشليم
مؤسسة الهجرة: هموساد لعلياه
متطوعون من خارج البلد: ماحل
مجلس الدولة الموقت: موعيتست همديناه هزمانيت
مجلس الشعب: موعيتست هعام
مجمع اسرائيل: كنيست يسرائيل
مصلحة الطيران: شيروت هآفير
المقاتلون من اجل حرية اسرائيل: ليحي
منظمة الدفاع العبرية في ارض ــ اسرائيل: «هغناه»
المنظمة العالمية للنساء الصهيونيات: ويزو

المنظمة العسكرية القومية : ايتسل
الموسم : «سيزون»
نجمة داوود الحمراء : ماغين دافيد ادوم
الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب : منهيلت هعام
الوحدات الليلية الخاصة : بلوغوت هلايل هميوحدوت
الوكالة اليهودية : هسوخنوت هيهوديت ليسرائيل

قائمة الخرائط

تاريخ الهاغاناه

(سيفر تولدوت ههاغاناه)

المجلد الثالث

من النضال إلى الحرب

بقلم
يهودا سلوتسكي

القسم الثاني

اصدار عام عوفيد ، تل أبيب - ١٩٧٢

1191

الكِتَابُ الثّامِن

عَشِيّة حَرب الإسْتِقلال

الفصل الثامن والخمسون
الإنكليز والعرب في سنوات النضال

السلطة البريطانية في سنوات النضال

كانت السمة البارزة لطابع السلطة البريطانية في البلد، في سنوات ١٩٤٥ ــ ١٩٤٨، هي زيادة خضوعها المباشر للسلطة المركزية في لندن. فمشكلة ارض ــ اسرائيل تحولت الى مشكلة سياسية مركزية للامبراطورية، وانتقلت معالجتها من سلطة وزارة المستعمرات الى سلطة وزارة الخارجية. وبدأت اعتبارات سياسية شاملة وخطرة، مثل الوضع في الشرق الاوسط والعلاقات بين بريطانيا وبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، تصبح العوامل المقررة لا بالنسبة الى الخطوط العامة للسياسة البريطانية ازاء ارض ــ اسرائيل فحسب، وانما بدأت تصبح عوامل مؤثرة ايضا في قراراتها فيما يتعلق بكل شأن صغير يخص البلد.

وكانت السمة الثانية هي الانكماش المتزايد للسلطة المدنية وتعاظم وزن السلطات العسكرية. فالمؤسسات المدنية لم توقف حقا نشاطها الاداري واستمرت في ادارة الشؤون المالية والاقتصادية، إلا ان الشؤون الامنية انتقلت الى سلطة الجيش، وأصبحت المؤسسات الحكومية في نهاية الفترة بمثابة وسيط بين الييشوف* المدني وسلطات الجيش في كل ما له صلة بالامن.

وبعد خروج النساء والاطفال البريطانيين من البلد في كانون الثاني/يناير ١٩٤٧ (انظر ص 920)، تحولت ايضا حياة موظفي الحكومة وباقي المدنيين البريطانيين الى حياة معسكر جيش. ويعبر عن مشاعر البريطانيين، في ربيع سنة ١٩٤٧، مراسل «سبكتيتر» [*Spectator*] الذي كتب:

«في الطرقات تسير مجموعات من الشبان اليهود، مفعمين بالصحة وسعداء، يغنون اناشيدهم الوطنية. البشرة التي لوحتها الشمس، نظرات الحقد، حقائب الظهر والسراويل القصيرة، الكبرياء والثقة بالنفس، وحتى الشعر الاشقر ــ كل شيء كما كان في ألمانيا هتلر. ــــ ووجّه اليّ كل صبي يهودي نظرة حقد صريحة. وكان كل واحد منهم يعرف

* الييشوف: الكلمة العبرية التي كانت تطلق على السكان اليهود في فلسطين خلال فترة الانتداب البريطاني. (المترجم)

اللغة العبرية فقط. لقد اتت الفاشية الى ارض ــ اسرائيل، والشاب اليهودي يمكن ان يكون اخطر من جندي الصاعقة [النازي]، اذ انه يفوقه ثقافة. ـ ـ ـ وقد انسحبت حكومة ارض ــ اسرائيل وتحصنت وراء الاسلاك الشائكة. وفقدت الشرطة وأجهزة الخدمات الاساسية كل اتصال بالسكان. وبما ان الحكومة اصبحت محصورة ضمن حدود مناطق الامن في القدس، فانها لم تعد قادرة على العمل». واذا تجاهلنا ادعاءات الكاتب الغريبة ان حقائب الظهر والنطق بالعبرية هما دلالتان على الفاشية، فان امامنا شهادة امينة بالنسبة الى وضع البريطانيين ومشاعرهم في تلك الايام.

لقد حدّد الخط السياسي العام تجاه البلد الى حد كبير وزير خارجية بريطانيا، إرنست بيفن. وهو شخص متصلب، ارتقى الى منصبه الرفيع من وسط الشريحة المهنية في حزب العمال، ولم يكن يألف الاساليب الدبلوماسية لخريجي المدرسة الارستقراطية، التي امدت الحكومات السابقة بأغلبية الاشخاص الذين أمسكوا بدفة الحكم في بريطانيا. ولم يكن يتمتع بموهبة تغليف النوايا السيئة بالالفاظ العذبة، حتى انه كان احيانا يفقد السيطرة على مشاعره المعادية للسامية، التي كانت من دون شك تنبض في قرارة نفسه، والتي ربما كان مصدرها كونه ابن الطبقة الفقيرة التي تحسد اليهود الغرباء، ابناء الطبقة الوسطى الذين أثْروا في انكلترا الخاصة به. وكانت المسائل المعقدة جدا، المتعلقة بالمشكلة اليهودية وبالسياسة البريطانية في الشرق الاوسط، غريبة عنه حقا. فمن جهة، لم يستطع ان يفهم لماذا لاتُحل مشكلة اللاجئين اليهود، مثلما حُلت مشكلات اللاجئين من باقي شعوب العالم. ومن جهة اخرى، قبل ــ كحقيقة راسخة ــ همسات موظفي وزارته ووزارة المستعمرات القدامى، الذين أكدوا له اهمية العامل العربي الحاسمة من اجل المحافظة على مواقع بريطانيا في الشرق. وبعد ان قبل رأيهم، تحول الى أداة في أيديهم قوية وثقيلة الوطأة نفذوا بواسطتها، من دون مرونة زائدة، سياسة معادية للصهيونية ومعادية لليهودية، اعتقد انها صحيحة وحتمية من زاوية مصالح الامبراطورية البريطانية. ووجد وزير المستعمرات جورج هول، وبعده، من تشرين الأول/اكتوبر ١٩٤٦ فصاعدا، آرثور كريتش ــ جونز، اللذان كانا في عداد اصدقاء الصهيونية في مجلس الوزراء البريطاني، نفسيهما عاجزين كلية عن التأثير فيه. وحاولا احيانا ان يغلفا حبة الدواء المر بطبقة من السكر وأن يقنعا قادة الحركة الصهيونية بابتلاعها من دون مقاومة.

1194

وحل في ارض ــ اسرائيل محل اللورد غورت، الذي رفض ان يأخذ على عاتقه تنفيذ السياسة المخادعة الجديدة للحكومة البريطانية، مندوب سام جديد هو السير ألن كننغهام (Cunningham) اللفتنانت جنرال البريطاني، الذي تميز بتهذيبه وصبره الفائق، وحاول قدر استطاعته التخفيف من التصادم اليهودي ــ البريطاني، إلا ان نفوذه كان ضعيفا جدا.

وقد قام بدور اكثر اهمية في هذه السنوات السكرتيران الرئيسيان للحكومة. وكان اولهما في هذه الفترة السير جون شو، الذي استقال من منصبه بعد كارثة فندق «الملك داوود».

وخلفه السير هنري غيرني (Gurny)، الجديد على البلد، وهو «موظف ماكر وحذر، رجعي حتى العظم، معجب بقوة الذراع الغاشمة، ويحمل مشاعر معادية للسامية» (دوف يوسف). «ولم يكن يتمتع بالاستقامة والصدق اللذين تميز بهما المندوب السامي» (زئيف شارف). وقد فاق نفوذه في السنة الأخيرة للحكم البريطاني في البلد نفوذ المندوب السامي، وأضفى موقفه السلبي من الييشوف والحركة الصهيونية طابعا خطرا جدا على هذا النفوذ.

لكن السلطة الاساسية في البلد كانت، كما سبق ان ذكرنا، بيد العسكريين. وكان قائد الجيش في البلد، في البداية (حتى كانون الثاني/يناير ١٩٤٧)، السير ايفلين باركر الذي اشتهر بجموحه المعادي للسامية في اثر كارثة فندق «الملك داوود» (انظر ص 901). وخلفه اللفتنانت جنرال مكميلان. وبلغ عدد الجنود البريطانيين المعسكرين في البلد، في خريف سنة ١٩٤٧، ٧٧,٠٠٠ جندي اضافة الى اكثر من ٤٠٠٠ شرطي بريطاني، وتشكيلين عسكريين عربيين تحت القيادة البريطانية: «الفيلق العربي» بأفراده الـ ٧٤٠٠، و «سلاح الحدود لشرق الاردن» الذي كان قوامه ٣٠٠٠ رجل. وينبغي لنا ان نضيف الى ذلك وحدات الاسطول الملكي، التي غزت جميع انحاء البحر الابيض المتوسط مطاردة سفن «مؤسسة الهجرة»، واشتبكت في «حرب» معها.

وكان الرأي السائد هو ان الجيش البريطاني يتصرف، بصورة عامة، باعتدال وضبط للنفس نسبي ازاء اعمال الاستفزاز الصادرة عن الييشوف بمجمله، وفي الاساس ازاء اعمال المنظمتين المنشقتين. وعندما كانت تحدث احيانا تفجرات خطرة كانت القيادة البريطانية تعمد دائما الى ايقافها. وساد الرأي في اوساط الييشوف ان اي جيش آخر كان سيرد بعمليات انتقامية قاسية على اعمال من نمط: قتل الجنود في معسكر الجيش في تل ابيب (انظر ص 914)، جلد الضباط (انظر ص 879)، او شنق الرقباء في نتانيا (انظر ص 925). ولا شك في ان أوامر صارمة من لندن هي التي قررت سلوك الجيش البريطاني. وقد نبعت هذه الاوامر من اعتبارات متعلقة بالسياسة الخارجية البريطانية، وخصوصا انها توخت مراعاة الرأي العام الاميركي، إلا ان من الواضح انه تكشف هنا ايضا برود الاعصاب والصبر اللذان يعتبران من السمات المميزة للامة البريطانية.

عشية «الفوضى»

مع اعلان كريتش ــ جونز، في ١٩٤٧/٩/٢٦، نية بريطانيا سحب قواتها العسكرية من ارض ــ اسرائيل، حدث تغير في موقف السلطات البريطانية. فمنذ تلك اللحظة فصاعدا، احتل مكان الصدارة في اهتمامات السلطة موضوع تصفية شؤونها في ارض ــ اسرائيل. واضافة الى ذلك، تكشفت نية خفية لترك البلد في حالة من الفوضى

والاضطراب حتى يتوق السكان الى الحكم البريطاني «الجيد»، الذي ساده حتى ذلك الوقت، ويطلب جزء منهم ــ ربما ــ بقاء البريطانيين في البلد او عودتهم اليه.

وظهر اول مؤشر لهذا التوجه الجديد في البيان الذي ادلى به المندوب السامي امام الصحافيين الاجانب في ١٩٤٧/١٠/٨، وذكر فيه انه اذا غادرت بريطانيا البلد من دون ان يتوصل العرب الى اي اتفاق مع اليهود، فان الامر سيؤدي الى «تفكك وكارثة اقتصادية وفوضى، وربما ايضا الى سفك الدماء». وادعى المندوب السامي انه «لا يوجد ادراك، كما يبدو، في هذا البلد للفوضى والاسى والكارثة الاقتصادية التي من شأنها ان تحل في اعقاب الجلاء البريطاني». وبعد ايام من ذلك استدعى المندوب السامي د. بن ــ غوريون «وعبر عن اندهاشه لان الجمهور لا يتقبل بجد اعلان الحكومة البريطانية بشأن مغادرتها البلد» (ز. شارف). وفي ١٩٤٧/١١/١٣، كرر ممثل بريطانيا في الامم المتحدة هذا الاعلان، وذكر ان الجيش البريطاني سيغادر ارض ــ اسرائيل في موعد اقصاه اول آب/اغسطس ١٩٤٨. وقد قالت غولدا مئيرسون [مئير]، في ردها على اعلان المندوب السامي، ان «هناك في قمة الجهاز الاداري من ينوي ان يحدث فوضى في البلد، ولسان حاله يقول: ليس هناك من يمكن ان نسلمه زمام الامور، وبالتالي ليس هناك ما نسلمه. وعليه، فان مغادرة البلد ــ كما قال المندوب ــ سينجم عنها فوضى: لا بريد، لا سكة حديد، لا دائرة أراض ولا أموال».

وفي المناقشات التي جرت في تلك الايام في المؤسسات القومية، ورد مرات كثيرة ذكر قضية باكستان. ففي اثر تقسيم الهند البريطانية الى الهند وباكستان سنة ١٩٤٧، نشبت حروب دامية بين الهنود والمسلمين، واضطرت باكستان في نهاية الامر الى طلب المساعدة من بريطانيا. وكان هناك اساس للافتراض ان البريطانيين يريدون تكرار قضية باكستان ايضا في ارض ــ اسرائيل: ان يتركوا البلد في حالة تسيب كي يضطر الطرف الاضعف (بطبيعة الحال: اليهود) في الحرب الاهلية التي ستنشب فيه الى طلب مساعدة البريطانيين، وطلب عودتهم الى حيفا وتل ابيب والقدس كمخلّصين ومنقذين. وكانت تلك رؤيا لا تبعث على السرور. «في امكانكم ان تتخيلوا اي حمام دم سيكون ذلك» ــ قال عضو هفاعد هلئومي [المجلس القومي] أبراهام كاتسنلسون ــ «ان هذا مخرج مدهش بالنسبة الى الانكليز. ــ ــ واذا كان القصد من الكتاب الابيض تصفية الصهيونية، فان القصد هذه المرة حقا هو تصفية الييشوف، او على اية حال تعريضه لخطر التصفية من ناحية الوجود المادي».

وتعززت هذه الشائعات عندما اخطر السكرتير العام غيرني احد معارفه اليهود، بصورة غير رسمية، بأن «البريطانيين سيكونون مستعدين للبقاء على الرغم من بيانات المغادرة المتكررة، اذا توجه اليهم اليهود وطلبوا مساعدتهم. انما ينبغي لليهود، من اجل ذلك، ان يتخلوا عن مشروعهم لاقامة دولة يهودية على جزء من ارض ــ اسرائيل، وأن يقترحوا حلا يحافظ على وحدة البلد، مع خلق مساواة في العدد والسكان والحكم، تحت سلطة بريطانية من نمط ما» (ز. شارف).

ان الانطباع الاولي الذي يمكن ان يخرج به الدارس لفترة الصراع بشأن مجريات الامور في الوسط العربي، هو انطباع بالهدوء والاطمئنان. فاليهود يجلبون المهاجرين غير الشرعيين، ويهاجمون مخافر الشرطة، ويلقى القبض عليهم وتجرى محاكمتهم بأعداد غفيرة، والعرب غير مبالين. إلا ان هذا الانطباع الظاهري خاطىء ومضلل، بدليل الانفجار الكبير للأحداث الدامية الذي اعقب مباشرة قرار الامم المتحدة بتقسيم البلد. ويعزز التفحص الاساسي لمجريات الامور في المجتمع العربي، في ابان سنوات الصراع، هذا الدليل.

هناك اربعة اسباب رئيسية لضبط النفس الذي أبداه العرب ازاء الخارج في تلك السنوات: أ ــ السياسة البريطانية التي على الرغم من التنازلات الصغيرة هنا وهناك، تمسكت بسياسة «الكتاب الابيض» المعادية للصهيونية. فمن هذه الزاوية فاز العرب وتولى الآخرون العمل بدلا منهم، وبكامل القوات العسكرية والسياسية الموجودة في تصرفهم؛ ب ــ الدعم المكشوف والخفي من جانب الدول العربية، التي تحولت بعد الحرب العالمية الى قوة سياسية دولية لا بأس فيها، وعلق عرب ارض ــ اسرائيل آمالا كبيرة على مساعدتها؛ ج ــ التخوف من اثارة ردة فعل يهودية قوية قبل حلول أوان الحسم؛ د ــ الصراع الداخلي في المجتمع العربي. فالعناصر المتطرفة في الحركة العربية القومية، التي اعتبرت الحاج امين الحسيني، مفتي القدس السابق، زعيما لها ضعفت جدا في سنوات الحرب، وفر معظم قادتها من البلد او طردوا منه، وخاب املها في رؤية البلد محتلا من قبل الايطاليين والالمان. وكان هدفها الرئيسي في السنوات التي اعقبت الحرب اصلاح اوضاعها، وتقوية نفسها، واعادة قادتها، وعلى رأسهم المفتي الذي كان في قيد الاقامة الجبرية في منزله بفرنسا. وكان املها ان يصدر الانكليز عفوا عنه، ويعترفوا به زعيما للعرب في البلد، وربما يسمحوا له حتى بالعودة اليه. وبعد حلول السلام مباشرة بدأت هذه العناصر بحملة مساع من أجل اطلاق سراح المفتي واعادته، بادعاء انه «لم يكن ــ بحسب رأيها ــ إلا زعيما مناضلا، لم يسع في نضاله إلا لخدمة بلده». وكلما راود هذا الامل افئدة المفتي وأنصاره، وشعروا بأن ليس لهم اليد الطولى في الشارع العربي، كانوا غير معنيين باثارة اضطرابات وثورات من شأنها ان تفسد تطور الامور في الاتجاه الذي كانوا يرغبون فيه.

ويعتبر موقف العرب في ارض ــ اسرائيل من حركة الهجرة غير الشرعية نموذجا لسلوكهم في تلك السنوات. ومن نافل القول ان معارضتهم لكل هجرة يهودية كانت حادة جدا، إلا انها لم تكتسب في تلك السنوات اي تعبير عملي. فقد ساد الجمهور العربي الاحساس بأن قوات الشرطة والجيش وسفن الاسطول البريطاني تقوم بعملها باخلاص، واعتبر قادته ان مهمتهم هي اسماع ادعاءات وانتقادات لاذعة، الهدف منها فقط الضغط على البريطانيين كي لا يتراجعوا عن موقفهم المتصلب والوحشي من اللاجئين اليهود. وفي اثر هجرة السفينتين «وينغيت» و«تل حاي» في نهاية آذار/مارس ١٩٤٦، كتبت «فلسطين»:

«خلال ٤٨ ساعة وصلت سفينتان تقلان مُهرَّبين الى شاطىء الامان. ونزل منهما شبان مدربون يحملون لافتة كُتب عليها: نحن مهاجرون غصبا ورغم أنوفكم. وابتدأ اليهود ايضا بجمع الاموال لشراء سفن او استئجارها لنقل المهربين الى ارض ــ اسرائيل. ان هذا عمل خطر جدا، ولا نعلم ما اذا كانت حكومة لندن ومعها حكومة ارض ــ اسرائيل تقدران نتائجه الصعبة ومدى خطورته. ان العرب لا يفهمون كيف تساعد الحكومة هؤلاء الاشخاص على انتهاك قوانين البلد وأنظمته. ان العرب لا يفهمون كيف تنقل سفن الاسطول المهرَّبين الى البر، وتساعدهم بذلك على الاستمرار في عملية التهريب. ولا يفهم العرب ايضا لماذا لا يعتبر هؤلاء المهاجرون أشخاصا اجتازوا الحدود بصورة غير شرعية ولا يعادون الى المكان الذي قدموا منه؟» وأنهت «فلسطين» مقالها بالتحذير من «المؤامرة الانكليزية ــ الصهيونية الهادفة الى تجميع الشبان اليهود المدربين، من اجل خلق اكثرية في مواجهة عرب البلد ومن ثم تحقيق اقامة الدولة اليهودية، وبعد ذلك تأتي مغادرة العرب لمساكنهم في البلد». 1197

وقد استقبل الجمهور العربي «السبت الاسود» (انظر ص 112) بتحفظ شديد. وأعلن الناطقون بلسان «الهيئة العربية العليا» على الملأ ان العمليات ضد اليشوف العبري «جاءت متأخرة جدا، وأن الامر لن يلحق الاذى بهم». ووصفت «الدفاع» الحملة بأنها «عملية غير موفقة»، وذكرت ان «بن ــ غوريون عرف كيف يتغيب عن البلد».

بروز آل الحسيني مجددا

خلال سنوات الحرب العالمية الثانية تزايد، في اوساط الجمهور العربي، نفوذ «الاستقلاليين» والعناصر المعتدلة التي انتهجت سبيل النضال الاقتصادي والبناء ضد اليشوف اليهودي، وتمحور نشاطها حول «صندوق الامة» بزعامة احمد حلمي باشا (انظر ص 112). وقد أملت هذه الاوساط في ان تؤدي سياسة «الكتاب الابيض»، والدعم السياسي من جانب الدول العربية، والتنظيم الاقتصادي للمجتمع العربي، الى هيمنة العرب على ارض ــ اسرائيل. . وبرز في الايام الاخيرة للحرب موسى العلمي الذي كان مدعيا عاما في الجهاز القضائي الرسمي في البلد، واستقال من منصبه في سنوات الاحداث ليكرس نفسه للنشاط السياسي في وسط الجمهور العربي. ومع قيام «الجامعة العربية» انتخب العلمي ممثلا للاحزاب العربية في البلد لدى الجامعة. وانشأ بمساعدتها مكتبي دعاية في لندن وواشنطن ومكتبا رئيسيا في القدس. وتجمع في هذه المكاتب شبان يجيدون اللغة الانكليزية، قادوا حملة دعاية مؤيدة للعرب في المهرجانات والصحف. وترأس مكتب القدس احمد الشقيري، وبرز في لندن العربي المسيحي إدوار عطية. وتحملت الدول العربية ميزانيات المكاتب. وعندما تعزز مركز «العلمي» افتتح مشروعا منافسا لـ «صندوق الامة» باسم «المشروع الانشائي».

وهذا المشروع لا يهدف الى المحافظة على الاراضي العربية فحسب، بل ايضا الى ادخال اساليب زراعية حديثة لرفع مستوى الحياة في القرية العربية. وقد اعتبر «الاستقلاليون» ان القصد من المشروع هو النيل من «صندوق الامة»، بينما دعمه آل الحسيني بهدف إضعاف خصومهم.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تجدد العمل لاقامة «الهيئة العربية العليا»، وقد مال آل الحسيني الذين كان قادتهم لا يزالون خارج حدود البلد الى رفض الامر. ولم يوافقوا على المشاركة في الهيئة إلا بعد قدوم وفد يمثل «الجامعة العربية» الى البلد، وحصولهم على وعد بأن تنشط «الجامعة العربية» بسرعة لاطلاق سراح جمال الحسيني، الساعد الايمن للمفتي، وعودته الى البلد. وفي ١٩٤٥/١١/٢٠، اقيمت «هيئة عربية عليا» مشكلة من ١٢ عضوا، بينهم خمسة من آل الحسيني، وعضو واحد لكل حزب من الاحزاب العربية التقليدية الاخرى، وعضوان محايدان (موسى العلمي وأحمد حلمي باشا). وأبقي منصب رئيس «الهيئة العليا» شاغرا ومحفوظا للشخص الذي اعتبره آل الحسيني الزعيم الاوحد لعرب البلد، وهو المفتي الحاج امين الحسيني. ولم تكن هذه الهيئة صالحة للعمل، ولم يشارك اعضاؤها من غير آل الحسيني والاستقلاليين في مجالسها.

وفي شباط/فبراير ١٩٤٦، اعاد البريطانيون جمال الحسيني من منفاه، واستقبل بمسيرات وتظاهرات تعبر عن الفرح في مدن البلد وقراه، ودعا العرب في خطاب ألقاه امام ١٢,٠٠٠ شخص، الى الاتحاد من اجل المحافظة على ارضهم، ووعدهم بـ «أنكم في المستقبل القريب ستشاهدون بينكم زعيمكم المفتي الاكبر». وبعد ذلك توجه جمال الحسيني الى بلد الشيخ وزار قبر الشيخ القسام. وعين جمال الحسيني هيئة عربية جديدة، حاول ان يشرك فيها، ظاهريا، عناصر جديدة وخصوصا من الشباب. ولم تمنح اوساط المعارضة الهيئة الجديدة ثقتها، وشكلت «الجبهة العربية العليا» كثقل مضاد لـ «الهيئة العربية العليا». وانضم الى «الجبهة» ايضا الشيوعيون العرب، الذين كان خطهم السياسي في تلك الايام يدعو الى الاتفاق مع اليهود المقيمين في البلد (ولكن ليس مع «الصهيونيين») من اجل التوصل الى اخراج بريطانيا من ارض ــ اسرائيل. لكن وزن آل الحسيني ازداد من شهر الى آخر. ويمكن الافتراض ان النضال اليهودي ضد البريطانيين اثار مخاوف العرب، ورص صفوفهم حول المتطرفين بينهم. وعلى اية حال، فقد فاز في الانتخابات التي اجريت في ربيع سنة ١٩٤٦ في نابلس، المعقل الاساسي للمعارضة في البلد، انصار المفتي بأغلبية المقاعد في المجلس البلدي.

1198

وفي الوقت نفسه فر المفتي من معتقله في فرنسا، ووصل الى القاهرة في ١٩٤٦/٦/١٩، وحل ضيفا على الملك فاروق. وكانت حكومة يوغسلافيا قد طالبت بتسليم المفتي اليها بصفته مجرم حرب، اذ انه حرض المسلمين في البوسنة والهرسك على القمع والتنكيل باخوانهم المسيحيين. لكن اعتبارات سياسية عليا اتاحت للمفتي، بموافقة خفية من

بريطانيا كما يبدو، القدوم الى مصر والحلول ضيفا محترما عليها. وقد احدثت عودته هزة في اوساط الرأي العام العربي في ارض ـ اسـرائيل. وأقام حـزب آل الحسيني احتفالات استمرت ثلاثة ايام، جرت خلالها مسيرات وتظاهرات شاركت فيها أعداد غفيرة في جميع المدن العربية في البلد. وأصدرت السلطات توجيهات الى مخافر الشرطة بعدم التعرض للجماهير المحتفلة ما دامت لا تهدد السلامة العامة. وشارك في الاحتفالات رجال شرطة وموظفون حكوميون عرب. واتخذت اجراءات لمنع الشغب، وتولى منظمون خاصون مهمة الحؤول دون ان تلحق الجماهير الملتهبة حماسة الاذى باليهود الذين وُجدوا بالمصادفة في اماكن الاحتفال. «ان الرأي العام العربي» ـ ورد في تقرير لـ «شيروت هيديعوت» (شاي) [جهاز الاستخبارات] ـ «لا يصدق ان الهرب (فرار المفتي) تم من دون معرفة الانكليز وضد ارادتهم، حتى انه يجري الحديث الآن عن طائرة بريطانية». وفي الاوساط المؤيدة للبريطانيين اهتزت الثقة بالحكم، ومالت الجماهير الى اتباع الزعيم الماهر الذي عرف كيف ينجو من مصير باقي شركاء هتلر، وعاد الى الشرق الاوسط للاستمرار في نشاطه التآمري.

وفي الوقت ذاته، عقد مجلس «الجامعة العربية» جلسة في بلودان في لبنان* (انظر ص 115)، وعين هيئة عربية عليا لعرب ارض ـ اسرائيل. وأبقي منصب الرئاسة شاغرا لأمين الحسيني. كما عين جمال الحسيني قائما بأعماله. وكان الاعضاء الثلاثة الآخرون هم: الدكتور حسين الخالدي من المقربين الى «الاستقلاليين»، وأحمد حلمي باشا والمسيحي اميل الغوري، من الموالين للمفتي. وأقصت «الجامعة العربية» موسى العلمي عن ادارة المكاتب العربية، ووضعتها تحت سلطة «الهيئة العليا» الجديدة، التي انضم اليها بعد نحو نصف عام خمسة اعضاء آخرون عززوا مركز آل الحسيني في الهيئة. وعلى الرغم من ان المعارضـة لآل الحسيني لم تتوقف، فان انتصارهم كان كاملا، وتولوا تمثيل العرب في البلد تجاه «الجامعة العربية».

وحاولت «الهيئة العربية العليا» تقليد المؤسسات اليهودية، فأُنشئت دائرة للأراضي ودائرة للصحافة ودائرة مالية ودائرة اقتصادية وما شابه، لكن كل هذه كانت لافتات من دون محتوى. وتركز النشاط الرئيسي على السياسة والتهيئة للتمرد العربي. ولم تتخذ اية خطوة مهمة من دون مشورة المفتي. وكان اعضاء «الهيئة العربية العليا»، جميعهم او قسم منهم، يسافرون من حين الى آخر الى القاهرة لعقد جلسات او لاجراء مشاورات مع زعيمهم المنفي.

---

* هكذا في الاصل.

كان احد القرارات المهمة التي اتت بمبادرة من «الجامعة العربية» وأيدتها الاحزاب العربية في البلد جميعا، قرار مقاطعة اليهود. وقد اتخذ القرار، بحسب خطة منظميه، طابعا اجتماعيا واقتصاديا. وترتب على العرب قطع صلاتهم باليهود في العمل والتجارة والمواصلات. وكان هدف المقاطعة مزدوجا: أ ــ الاضرار بقوة اليهود الاقتصادية ونبذهم اجتماعيا في البلد والشرق الاوسط؛ ب ــ تشجيع الصناعة والتجارة العربيتين.

وقد اعلن البدء بتنفيذ المقاطعة في مطلع سنة ١٩٤٦. وفرضت الدول العربية رقابة مشددة على الصادرات من ارض ــ اسرائيل اليها، مما ادى الى تقلصها كثيرا. لكن الارقام الرسمية لم تعكس الوضع على حقيقته. ففي عالم كان لا يزال جائعا الى البضائع، بعد سنوات الحرب الطويلة، كان من الصعب فرض المقاطعة. وتطورت بسرعة شبكة تهريب نشيطة، وبيعت منتوجات الصناعة العبرية ــ بتغطيات مختلفة ــ في أسواق الدول العربية. إلا انه لم يكن في وسع تجارة غير شرعية تغطية القضاء المبرم على التجارة العادية بين الاقتصاد اليهودي والدول العربية.

وتمثلت المقاطعة في ارض ــ اسرائيل بفصل اليهود القلائل الذين كانوا يعملون لدى عرب عن اعمالهم، وتحريض العمال العرب على التوقف عن العمل لدى مستخدميهم اليهود. وكف المرضى العرب عن زيارة الاطباء اليهود. وامتنع المشترون من التسوق من الحوانيت اليهودية. وتوقف العرب في المدن المختلطة عن استخدام خطوط المواصلات اليهودية وارتياد المقاهي والمطاعم اليهودية.

ولم يكن من السهل قطع الروابط التي تشكلت مجددا خلال السنوات الست منذ توقف الاحداث [١٩٣٩]، لكن حيث لم يُجدِ الاقناع استخدم العنف لمساعدته. وأشرف الشبان والصبية على مراقبة الالتزام بالمقاطعة، وفرضوها على الرافضين بالتهديد والضرب. وساعد الشرطة العرب وموظفون في الحكومة أيضا في تنفيذ المقاطعة قدر استطاعتهم.

ولم تكن القيمة الفعلية للمقاطعة، كما يبدو، قليلة مع انه لأسباب مفهومة لم يعترف الجانب اليهودي بذلك في تلك الايام. وعلى اية حال، لم تجر حتى الآن دراسة جادة لتقصي الأضرار التي ألحقتها المقاطعة بالاقتصاد اليهودي، لكنها لا تقل أهمية عن قيمتها الاقتصادية، وربما فاقتها في ذلك قيمتها كأداة لتكتيل الجماهير العربية للعمل. ففي الفترة التي كان الزعماء العرب غير معنيين في اثنائها باثارة الاضطرابات، شغلت نشاطات المقاطعة الشبان العرب، وساهمت في إعداد مجموعات منظمة استخدمت أداة فعالة لسيطرة المتطرفين من أتباع المفتي على الشارع العربي، وأمكن تحويلها بسهولة في الوقت الملائم الى عصابات للعمل ضد اليشوف اليهودي.

«النجادة» و «الفتوة»

احتلت حركات الشبيبة مكانة قليلة الشأن في حياة العرب، وكانت اهمها حركة الكشافة، التي قامت بأدوار معينة في مدن البلد الكبرى، وخصوصا يافا، وبرز اعضاؤها بصفتهم منظمين وأدوات ارتباط في ايام الشغب والاضطرابات. وفي سنة ١٩٤٥، انسحبت أفواج من الكشافة العرب من المنظمة الرسمية للكشافة، التي كانت قائمة في اطار جهاز التعليم الحكومي، وانشأت اتحادا قطريا للافواج العربية القومية بقيادة فوزي النشاشيبي. «في هذه الافواج» ـ ذكر يعقوب شمعوني ـ «يشيعون من دون شك روحا قومية متطرفة ـ ـ ويقومون بتدريبات ميدانية وتمارين على النظام والتربية البدنية. وهناك من يقول انه لا ينقص ايضا تدريب ما على السلاح ـ ـ ويجب ألا ننسى انه في أفواج الكشافة يشترك ايضا كثير من البالغين».

وفي سنة ١٩٤٦، برزت ايضا منظمات شبه عسكرية للراشدين. وكانت أولاها «النجادة» التي اسسها المحامي محمد نمر الهواري في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٥. وكانت هذه المنظمة غير حزبية، كما كان مدربوها وموجهوها ضباطا عربا من الذين خدموا في أفواج سلاح مشاة ارض ـ اسرائيل. وكان مركز هذه المنظمة يافا، ووصل عدد أفرادها في صيف سنة ١٩٤٦ الى ٢٠٠٠ رجل. وتدل حقيقة ان شخصا غير معروف تقريبا نجح، خلال فترة قصيرة نسبيا، في اقامة منظمة انتشرت في مدن كبيرة وصغيرة كثيرة وجذبت اليها أعدادا كبيرة من الشبان ـ هذه الحقيقة تدل على ان الجمهور العربي استفاق لضرورة التنظيم ضد اليهود. وقد ذكر في المنشور الاول «الى الشعب العربي في فلسطين» ان هدف «النجادة» هو «توحيد الشباب، وايقاظ مشاعره القومية، وتنشئته على الانضباط والنظام والتضحية، وربط فلسطين بالدول المجاورة». ووصمت الصهيونية بأنها «ابشع جريمة معروفة في التاريخ». وكان شعار «النجادة» الذي تكرر في جميع منشوراتها وظهر على رايتها: «ارض العرب للعرب».

1200

وفي حملة آل الحسيني، من اجل السيطرة على الجمهور العربي، لم ينسوا «النجادة». فلدى عودة جمال الحسيني عينه الهواري نائبا للقائد الاعلى للمنظمة (القائد الاعلى: المفتي)، لكن هذا التعيين كان رمزيا. وعندما تأكد آل الحسيني من ان الهواري يرفض قبول سلطتهم الكاملة، أحيوا في ايلول/سبتمبر ١٩٤٦ منظمتهم التي تأسست في سنوات الأحداث وتفتتت في اثناء الحرب، تحت اسم «الفتوة»، وأُنشئت فروع لها في القدس والقرى المجاورة. وترأس المنظمة كامل عريقات، وهو ضابط سابق في الشرطة السرية في القدس. وكان رمز المنظمة الجديدة فارسا يحمل بيده راية، واشتمل قسمها على: عهد بالمحافظة على عروبة فلسطين، ومقاومة الوطن القومي اليهودي، والاخلاص للوطن والموت في سبيله.

وكانت العلاقات بين المنظمتين متوترة. ولم تنجح المحاولات المتواصلة لتوحيدهما. وبدأت كلتاهما بالاكثار من المسيرات والاستعراضات في شوارع المدن، بالزي الرسمي. وفي اثر احتجاجات من جانب اليهود حظرت السلطات، في ١٩٤٦/١١/٢١، ارتداء الزي الرسمي

وأرسل تعميم الى موظفي الحكومة حظر بموجبه عليهم الانتهاء الى «النجادة» و «الفتوة» و «الاخوان المسلمين» والمنظمات المشابهة.

وفي آذار/مارس ١٩٤٧، سافر عدة مئات من اعضاء «النجادة» و «الفتوة» للمشاركة في «عيد الشعلة» في مصر. وظهروا هناك كممثلين لفلسطين، المعرضة لخطر سيطرة اليهود عليها.

وازداد ضغط آل الحسيني لتصفية «النجادة» التي اعتبروها نقطة تجمع لمعارضيهم. وفي ايار/مايو ١٩٤٧، عين المفتي ضابطا مصريا متقاعدا، محمود لبيب، قائدا اعلى لـ «منظمة الشبيبة العربية». وحضر لبيب الى البلد، ومورس ضغط شديد على «النجادة» للانضمام الى المنظمة الجديدة. وفي ١٩٤٧/٦/١٤، اعلن الهواري دمج منظمته في منظمة الشبيبة العامة، التي عين كامل عريقات رئيسا لها. وبعد فترة قصيرة اضطر محمود لبيب الى مغادرة البلد، بعد ان رفضت السلطات البريطانية تمديد اذن اقامته. لكن سيطرة آل الحسيني على منظمات الشبيبة العربية باتت كاملة.

وفي اثر التوحيد تضاءل نشاط جمعيات الشبيبة العربية. فزعماء النجادة لم يكونوا معنيين بالعمل لمصلحة خصومهم الذين فرضوا عليهم الدمج. واكتفى آل الحسيني بتحطيم المنظمة الخصم التي كان من الممكن ان تتطور الى عامل سياسي مستقل، وأهملوا النشاط التنظيمي في اوساط الشبيبة.

واتضح في اثناء حرب الاستقلال [١٩٤٨] ان نشاط جمعيات الشبيبة العربية كان ضئيلا جدا. فهي لم تجمع سلاحا كثيرا، ولم تقم بنشاط تدريبي يستحق الذكر، ولم تنجح في تغيير النمط العربي، الذي كان السلاح بموجبه ملكا خاصا للمقاتل يستخدمه وفقا لارادته وفهمه. 1201

التحريض والارهاب الداخلي

ابقى على التوتر الداخلي بين العرب عاملان: التحريض المنفلت من عقاله ضد اليهود؛ والارهاب الوحشي ضد اولئك الذين لم يتمكن التحريض من اقناعهم.

وقد تصدرت الصحافةُ حملةَ التحريض والدعاية. كتب تقرير عنها، يعود عهده الى تلك الأيام، انها «أداة تحريض خطرة. فبدءا بالعنوان الرئيسي ومرورا بالافتتاحية والانباء والوقائع وانتهاء بالامور الصغيرة، تلهب الصحافة غرائز الجمهور. ان المشكلة الرئيسية للصحافة العربية هي الصهيونية. وهي تردد على مسامع العرب، صباحا ومساء، ان اليهود يسلبونهم المراكز التي هي من حقهم. وأن اليهود اناس لا أخلاقيون، تتجاوز صفاقتهم ومكائدهم كل حد، وأن لا رغبة لهم إلا في طرد العرب من ارض ـ اسرائيل. ـ ـ وتبرز الصحافة وتضخم كل ضرر فعلي او وهمي ـ ـ تنتقد وتبرز

ظواهر «الخيانة»، مثل: بيع الاراضي لليهود، وخرق انظمة المقاطعة، ومساعدة المهاجرين غير الشرعيين، والمساس بالقوميين، ومظاهر «الفوضى» الاخرى في المجال القومي. وقد تصرفت الرقابة الحكومية بتسامح ازاء هذا التحريض. وما تجنبته صحافة ارض ـ اسرائيل خشية الرقابة، فاضت به الصحف القوية التأثير الآتية من الدول المجاورة، وخصوصا مصر، والتي لم تفرض عليها اية قيود تقريبا».

واستمر هذا التحريض في المساجد والمهرجانات والاجتماعات. وقام بدور معين فيه «الاخوان المسلمون» ـ منظمة دينية قومية متطرفة أصلها في مصر. وقد بدأت هذه المنظمة، في السنوات التي اعقبت الحرب، القيام بنشاط كبير في ارض ـ اسرائيل، ودعا مبعوثوها العرب الى رفع راية التمرد ووعدوهم بالدعم بالسلاح والمال من مصر. وعلى الرغم من احتجاجات المؤسسات القومية اليهودية، فقد استمرت زيارات هؤلاء المتعصبين من دون عرقلة تقريبا.

وتزايد الارهاب العربي الذي تجدد في اثر نشاطات «صندوق الامة» واستهدف في البداية بائعي الاراضي وسماسرتها، ثم بعد ذلك كل عربي حاول اقامة صلات باليهود. وكان من بين ضحاياه اولئك الذين رفضوا الانسياق وراء آل الحسيني. ففي ١٩٤٦/١١/٢٣ اغتيل فوزي درويش الحسيني، قائد مجموعة «فلسطين الجديدة». وكان كل ذنبه انه اقام صلات بأوساط «عصبة التقارب والمشاركة اليهودية ـ العربية» التي اسسها اعضاء «بريت شالوم» [حلف السلام] و«هاشومير هاتسعير» [الحارس الفتى]. وكان من ضحايا هذا الارهاب الداخلي ايضا زعيم اتحاد العمال العربي اليميني سامي طه، الذي اغتيل في حيفا في ١٩٤٧/٩/١٢. وقد قيل عنه انه قبل ايام من اغتياله قال في خطاب ألقاه امام اعضاء اتحاده، انه «سواء كان اليهود في البلد كثرة او قلة، فسيتوجب علينا التعاون معهم، ومن الافضل ان نبدأ بالتفكير في ذلك في وقت مبكر» (غرايفس).

وبدأت تتشكل مجددا عصابات في قرى البلد المختلفة. وطُلب من الاشخاص احضار سلاحهم معهم او شراؤه على حسابهم. وكانت العصابات مرتبطة بجمال الحسيني، وتلقت منه مخصصات مالية.

وكان تعاظم قوة آل الحسيني ـ من الناحية السياسية ـ مؤشرا لغلبة الخط المتطرف، الذي لا يعرف التسويات، بين العرب. وكانت معارضة «الهيئة العربية العليا» للمشروع المضاد الذي قدمته الدول العربية ردا على مقترحات موريسون (انظر ص 828) تصرفا نموذجيا بالنسبة الى هذا الخط. فقد رفضت «الهيئة العربية العليا» النسبة العددية لتمثيل العرب واليهود في الحكومة الفلسطينية المرتقبة. اذ حددتها «الجامعة العربية» بـ ١:٢، وطالبت الهيئة بأن تكون النسبة ١:٦، اي النسبة العددية التي كانت قائمة، بحسب ادعاءاتها، قبل وعد بلفور. «نحن مستعدون» ـ ادعى اميل الغوري ـ «للاعتراف فقط باليهود الذين دخلوا البلد قبل سنة ١٩١٩ كأصحاب حقوق متساوية. أما اولئك الذين

1202

قدموا بعد تلك الفترة فسنعتبرهم لاجئين ومهاجرين غرباء». واشترطت «الهيئة» لمشاركتها في مؤتمر لندن، بين امور اخرى، دعوة المفتي الى المؤتمر بصفته ممثلا لعرب ارض ـ اسرائيل.

وفي التصريحات العلنية التي نشرت في الصحافة وأذيعت من محطات الاذاعة في الدول العربية، اعلن آل الحسيني بصورة صريحة انهم «يعتقدون ان مشكلة فلسطين لن تحل إلا عن طريق إراقة الدماء»، وعن طريق «الابادة الكاملة لأحد الطرفين المتنازعين»؛ وأن العائق الوحيد هو نقص الاموال لشراء السلاح وتغطية النفقات الاخرى. واضطرت العناصر الاخرى في الجمهور العربي ايضا الى منافسة آل الحسيني. وأعلن محمد نمر الهواري، قائد «النجادة»، انه «ستجري معركة حاسمة ذات أبعاد لم يسبق لها مثيل»، ورفع الشعار: «فلسطين للعرب، والفناء للصهيونية».

وفي تموز/يوليو ١٩٤٧، اعلن فوزي القاوقجي ان «المعركة بين اليهود والعرب هي معركة شاملة، والامكان الوحيد هو الابادة التامة لكل يهودي، سواء في البلد او في جميع الدول العربية». وكان واضحا ان سنوات اقامة القاوقجي في ألمانيا النازية لم تذهب عبثا. فقد تعلم زعيم العصابات في سنة ١٩٣٦ شيئا ما من هتلر وحاشيته.

وقد عبر القوميون العرب عن استيائهم من ممثلي الدول التي ايدت اقامة دولة يهودية على جزء من البلد، في اثناء مناقشة مصير ارض ـ اسرائيل في الامم المتحدة، بالقيام بأعمال تخريبية ضد قنصلياتهم. ففي ١٩٤٧/٩/١٧، وضعت قنبلة امام بوابة القنصلية السويدية احتجاجا على القاضي السويدي ساندستروم، رئيس لجنة التحقيق التابعة للامم المتحدة. وفي ١٩٤٧/١٠/١٢، وضعت قنبلة مماثلة امام مدخل القنصلية البلجيكية احتجاجا على تأييد حكومتها لتقسيم البلد. وفي اليوم التالي، ألقيت قنبلة يدوية على باحة قنصلية الولايات المتحدة في القدس، وجرح عدد من موظفيها.

تقوض الامن

مع ان اوساط الزعامة العربية قد سادها الوعي بضرورة تجنب الصدام المكشوف مع اليشوف اليهودي الى حين موعد الحسم، فانها لم تستطع منع اعمال الشغب هنا وهناك. فالصراع اليهودي ضد البريطانيين جر في اعقابه توترا في جميع انحاء البلد، ولم يكن ممكنا إلا ان يثير ذلك المشاعر في اوساط العرب. وكانت قوات الامن الحكومية منهمكة في مجابهة نضال اليهود المزعج والطويل الذي فرض عليها اعباء كثيرة.

وفي الوقت ذاته، كان في حيازة عناصر مجرمة في القرى والمدن العربية سلاح كثير. وظهرت عصابات من اللصوص عملت، في اغلب الأحيان، من اجل الكسب في مناطق مختلفة، وبدأت بأعمال سلب وسطو كثيرا ما رافقتها اعمال قتل. وكان معظم الناشطين في هذه الجماعات مجرمين سابقين، بدواً وعناصر اخرى، مستعدين دائما لاقتناص

الفرصة الملائمة، وبدا لهم ان سلطة الحكم قد زالت وفي الامكان الاستفادة من الوضع السائب. كما ان تراخي الحراسة في المستعمرات اليهودية بعد ثمانية أعوام من الهدوء النسبي، دفع تلك العناصر الى العمل. وقد وصلت اعمال القتل في المستعمرات اليهودية في الشفيلا والشارون* الى ذروتها في عملية القتل في حديقة هاواي في آب/اغسطس ١٩٤٧ (انظر ص 1334)، وتسببت بتوتر وردات فعل من جانب اليهود، وكان يمكن ان تنشب أحداث دامية لولا ان الزعامة العربية كبحت جماح أتباعها الى حين حلول الوقت الملائم.

مساعدة الدول العربية

1203

كانت الدول العربية ــ مصر، العراق، سورية، لبنان، السعودية، اليمن، وفيما بعد شرق الاردن ــ مثقلة في الاعوام الاولى التي تلت الحرب العالمية الثانية بمشكلات داخلية خطرة، ومرتبطة بمعاهدات ومواثيق مع بريطانيا والولايات المتحدة. ومع ذلك كانت لديها قوة كبيرة لمساعدة الحركة العربية القومية في ارض ــ اسرائيل، وخصوصا في حقل السياسة الدولية. وقد نصبت نفسها ناطقة باسم عرب ارض ــ اسرائيل في كل منبر دولي وفي منظمة الامم المتحدة، وعرض ممثلوها وسفاراتها حجج عرب ارض ــ اسرائيل امام كل دولة في الامكان استخلاص اي نفع منها من اجل الامر الذي ناضلوا في سبيله.

ولم تكن «الجامعة العربية»، التي عبرت عن الاتجاهات العروبية في اوساط الجمهور العربي (ونشطت في تلك الاعوام كأداة واضحة للسياسة البريطانية في الشرق الادنى)، مجرد مكتب لاتحاد فدرالي ضعيف جدا بين عدة دول، وانما ايضا هيئة قائمة في حد ذاتها سعت لزيادة نفوذها وتقليص الاتجاهات الانفصالية التي نبعت من المصالح المتناقضة للدول المشاركة فيها. وكانت مشكلة ارض ــ اسرائيل احدى المشكلات التي يمكن ان تقوي تماسك الدول العربية. ولم تظهر الخلافات التي كانت قائمة في شأنها بين دول الجامعة، على اية حال ازاء الخارج، ما دامت هذه المشكلة لم تصل الى مرحلة حل فعلي.

ولم يكن سرا ان الامير عبد الله، الذي أصبح منذ أيار/ مايو ١٩٤٦ ملكا على شرق الاردن تحت الرعاية البريطانية، كان يطمح الى التوصل الى حل ما لقضية ارض ــ اسرائيل بالطرق السلمية. وقد ادعى عبد الله انه لا توجد هناك فرصة لنجاح ثورة عربية ضد بريطانيا، وأن القوة التنظيمية والمادية لليهود في ارض ــ اسرائيل تفوق قوة العرب. ومن الافضل، في ضوء ذلك، السعي لحل متفق عليه بالتعاون مع بريطانيا. ورفض تأييد القيام باضطرابات معادية لبريطانيا او معادية لليهود، ولم يسمح للمتطرفين باقامة قواعد لنشاطاتهم

* الشفيلا: المنطقة الواقعة بين منحدرات جبال القدس بالقرب من اللد والطرف الشمالي من النقب. الشارون: السهل الساحلي الفلسطيني الاوسط. (المترجم)

في بلده. وقد اعتبر المفتي وأنصاره متطرفين خطرين، وكان مستعدا لتأييد تقسيم البلد، بشرط ان يضم الجزء العربي الى مملكته، وعلى ان يرتبط الجزء اليهودي معها بمعاهدة اقتصادية. إلا ان عبد الله كان يعرف ان الجو العربي العام لا يحتمل إلا آراء المتطرفين جدا، وأن باقي الدول العربية لن يحبذ اي مشروع قد يزيد في قوة المملكة الهاشمية وحجمها، ولذا حاذر اسماع آرائه هذه على نطاق واسع.

وفي حزيران/يونيو ١٩٤٦، بعد فترة قصيرة من اعلان قرارات اللجنة الانكلو ــ اميركية (انظر ص 820)، عقد مجلس الجامعة العربية جلسة في بلودان الواقعة في لبنان*، طرح فيها جمال الحسيني مشروعا لانشاء جيش عربي كبير لقمع اليهود وانتزاع البلد من البريطانيين. وكان من المفروض ان تتشكل قيادة الجيش العربي المعد لاحتلال البلد، بحسب هذا المشروع، من وزراء دفاع الدول العربية. وقد رفض هذان الاقتراحان، وقررت الجامعة بدلا من ذلك تأليف «لجنة دائمة» تمثل فيها جميع الدول العربية، ويكون مقرها القاهرة، ومهمتها معالجة قضية «فلسطين» (مقررات بلودان). كما عينت الجامعة هيئة عربية عليا جديدة (انظر ص 1198)، وقررت تشديد المقاطعة ضد اليهود، وزيادة الجهود لمنع بيع الاراضي لليهود. وجرى الحديث ايضا عن قطع النفط السعودي والنفط العراقي عن الدول الغربية، لكن الدولتين المعنيتين لم تبديا ميلا الى التنازل عن ارباح النفط التي شكلت اساس مكانتهما المالية.

وتم في ذلك المؤتمر ايضا صوغ قرارين سريين، نص احدهما على ان «الوضع في فلسطين يتجه نحو تصادم حاد بسبب وجود المنظمة العسكرية الصهيونية والمنظمات الارهابية، وبسبب اعتياد الصهيونيين على استخدام القوة لتحقيق أهدافهم. ويلزم هذا الامر عرب فلسطين باتباع وسائل مماثلة للدفاع عن انفسهم. ونتيجة لذلك يحتمل ان يقع صدام يضع الدول العربية في موقف حساس جدا، اذ انها لن تستطيع منع ابناء شعوبها من التطوع لمساعدة اخوتهم في فلسطين بجميع الوسائل: بالمال والسلاح والرجال». وألزم القرار الثاني الدول العربية بتأزيم العلاقات بالولايات المتحدة وبريطانيا، اذا ما صادقتا على توصيات اللجنة الانكلو ــ اميركية، ومن ضمن ذلك النظر في «إلغاء الامتيازات التي تتمتع بها هاتان الدولتان في الدول العربية».

1204

وشاركت الدول العربية بصورة فعالة في المباحثات السياسية التي جرت في لندن (انظر ص 830)، ومثلت فيها عمليا عرب ارض ــ اسرائيل. وازداد نفوذها جدا مع نقل النقاش الى منظمة الامم المتحدة. وفي مقابل اليهود، الذين لم يكن لهم في الجمعية العامة للامم المتحدة وفي جميع مؤسساتها مندوبون رسميون، كان للعرب بصورة دائمة ستة مندوبين استخدموا جميع الحيل الدبلوماسية ومارسوا نفوذهم، علنا ومن وراء الستار، لاحباط وعرقلة اية خطوة لمصلحة حل ايجابي لمشكلة ارض ــ اسرائيل.

---

* هكذا في الاصل.

وعندما لم ترضِ استنتاجات لجنة الامم المتحدة مطالب العرب، اجتمعت اللجنة السياسية لـ «الجامعة العربية» في منتصف ايلول/سبتمبر ١٩٤٧ في صوفر بلبنان، وقررت منع تنفيذ هذه الاستنتاجات بكل الوسائل السياسية والعسكرية المتوفرة لها. وأعلن الأمين العام لـ «الجامعة العربية»، عبد الرحمن عزام، في مؤتمر صحافي عقده في لندن وهو في طريقه لحضور الجلسة الحاسمة للجمعية العامة للامم المتحدة، ان «كل محاولة لفرض توصيات اللجنة او اي مشروع مشابه سيجابه بمعارضة مطلقة من جانب العرب. وينبغي ألا يكون هناك أدنى شك في ان العرب سيحاربون من اجل فلسطين، اذا اضطروا الى ذلك».

وفي بداية تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، اجتمع مجلس «الجامعة العربية» في عاليه بلبنان. وبعد جلسة الافتتاح استأنف المجلس مناقشاته بصورة سرية. وشارك في هذه المناقشات المفتي السابق وفوزي القاوقجي. وقد كان في عاليه بلبنان، في تلك الايام ايضا، البريغادير ي.ن. كلايتون من مكتب الشرق الاوسط البريطاني في القاهرة، والذي كان بمثابة «مندوب» غير رسمي لبريطانيا لدى «الجامعة العربية»، ونشط بالتأكيد في المؤتمر من وراء الستار. وفي ختام المناقشات صدر بيان ذُكر فيه انه ازاء اعلان الحكومة البريطانية انها ستسحب يدها من الانتداب وتجلي جيشها ومؤسسات الحكم المدني عن ارض ـ اسرائيل، وبالنظر الى وجود قوات صهيونية مسلحة ومنظمات ارهابية يهودية تهدد سلامة العرب في ارض ـ اسرائيل، فان المجلس يقرر ان الوضع يحتم على الدول العربية اتخاذ اجراءات عسكرية على طول حدود هذا البلد. وأوصى المجلس بأن تتخذ الدول العربية قبل فوات الاوان الاستعدادات المطلوبة، وأن تمكن الدول المتاخمة لأرض ـ اسرائيل الدول التي لا حدود مشتركة لها مع هذا البلد، من المشاركة في أداء الواجب المشترك. وستنفذ القرارات السرية التي اتخذت في مؤتمر بلودان، والتي غايتها التدخل المسلح من جانب الدول العربية في مجريات الامور في ارض ـ اسرائيل، في حال اتخذت الامم المتحدة قرارا بتقسيم البلد.

وشكل المجلس لجنة فنية ـ عسكرية، انيط بها البحث فيما هو مطلوب للدفاع عن العرب في ارض ـ اسرائيل والاشراف على النفقات المالية. وتقرر فتح اعتماد بقيمة مليون جنيه مصري لأغراض الدفاع عن البلد. واختير للمشاركة في اللجنة: اللواء اسماعيل صفوت من العراق، والعقيد محمد* الهندي من سورية، والمقدم شوكت شكري من لبنان، وعين ممثل لعرب ارض ـ اسرائيل (في البداية: صبحي الخضراء، ولاحقا: عزت دروزة).

وفي المذكرات الاولى التي قدمتها اللجنة العسكرية الى مجلس الجامعة ذُكر ان اليهود في ارض ـ اسرائيل يتمتعون بتفوق مطلق على العرب. وقد قُدر عدد المقاتلين اليهود الممكن تجنيدهم بين ٥٠,٠٠٠ و ٧٠,٠٠٠ رجل. ونُوه بتنظيمهم الجديد بالثناء، وذُكرت امكانات جلب تعزيزات يهودية من الرجال والعتاد من وراء البحار. وجرى التعبير بصراحة عن

1205

* هكذا ورد الاسم في الاصل، والصحيح هو: محمود. (المترجم)

التخوف من ان عرب ارض ـ اسرائيل لن يستطيعوا إحراز الانتصار بقواهم الذاتية. وأوصت المذكرات بتشكيل جيش متطوعين كبير، يتمركز على مقربة من حدود البلد، وباقامة قيادة موحدة لجميع القوات العربية التي ستحارب في ارض ـ اسرائيل، وبالمساهمة مبدئيا بـ ١٠,٠٠٠ بندقية وكمية كافية من المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والمتفجرات للعرب في البلد.

وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، اجتمع في منزل فوزي القاوقجي في دمشق عدد من زعماء العصابات السابقين، ووجهوا مذكرة الى رئيس سورية اقترحوا فيها البدء فورا بتجنيد المتطوعين وتسليحهم وتدريبهم. وعينت الحكومة السورية الفريق طه الهاشمي للاشراف على تدريب المتطوعين وتسليحهم وتجهيزهم. وخصص في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر معسكر تدريب عسكري سري في قطنا من اجل تجميع المتطوعين.

العملية العسكرية الاولى

ان تصريحات البريطانيين بشأن مغادرة ارض ـ اسرائيل، وتلميحاتهم الى حالة الفوضى التي ستسود البلد، شجعت دول الجامعة العربية على البدء بالاعداد لعمليات عسكرية في ارض ـ اسرائيل، حتى قبل مغادرة البريطانيين. وبشرت محطات الاذاعة العربية بانشاء جيش الجامعة العربية الذي سيضم وحدات مشاة من لبنان، ودبابات وعربات مدرعة من شرق الاردن والعراق، وسلاح فرسان من سورية، وربما حتى طائرات من العربية السعودية. وفي الوقت نفسه، وصلت انباء عن تمركز قوات عسكرية مصرية وسورية ولبنانية على حدود البلد، وظهرت الصحيفة المقدسية «الوحدة» حاملة العنوان الرئيسي: «لا تخافي بعد اليوم يا فلسطين: الجيوش العربية على الحدود بانتظار ساعة الحسم». وقد كان الهدف من هذا النشاط، الذي جرى في نهاية تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، ممارسة ضغط سياسي على مجرى النقاش في الجمعية العامة للأمم المتحدة. إلا انه على الرغم من ذلك لم يكن من الممكن الاستخفاف بهذه التهديدات، سواء لجهة عدم امكان التنبؤ بكيفية تصرف حكومة ارض ـ اسرائيل، التي لـمّحت الى تنصلها من مسؤولية ما يجري في البلد، او لجهة توقع العرب غزو القوات العربية فورا. ولذا وضعت «الهاغاناه» قواتها على اهبة الاستعداد (انظر ص 988).

وكان من الواضح ان وضع الدول العربية السياسي والعسكري، في تلك الايام، لم يكن يسمح لها بأي امكان للمساس بسيادة بريطانيا في ارض ـ اسرائيل. لكن كان من الممكن التخوف من عمل متسرع يقدم عليه هذا القائد او ذاك بموافقة خفية من البريطانيين او من دون موافقتهم. وزاد في حدة هذه الشكوك سحب الجنود البريطانيين من منطقة الحولة، ونقل مهمة المحافظة على الامن فيها الى عاتق وحدات سلاح الحدود لشرق الاردن.

وفي ۱۹٤٧/١٠/٢٠، حدث الاختبار الاول. فقد عبرت وحدة من حرس الحدود السوري الحدود واحتلت مواقع في تل القاضي، المواجه لكيبوتسي دان ودفنه. وأخطرت القيادة البريطانية بذلك. وفي اليوم التالي، ارسلت وحدات مدرعة من حرس الحدود ومن كتيبة بريطانية كانت معسكرة في الجليل. واستسلمت القوات السورية من دون ان تطلق رصاصة واحدة، وسلمت نفسها للبريطانيين الذين اعادوها الى ما وراء الحدود.

وبذلك عبر البريطانيون عن رأيهم في ان اللحظة لم تحن بعد لتدخل الدول العربية عسكريا بصورة مكشوفة في شؤون ارض ــ اسرائيل. وساد هدوء مشوب بالتوتر مجددا على امتداد حدود البلد، وهدأت المشاعر في اوساط العرب داخل البلد لفترة ما. وانتظر البلد بكامله نتائج المناقشات في الجمعية العامة للامم المتحدة في ليك سكسيس البعيدة.

الفصل التاسع والخمسون

اليشوف العبري عشية حرب الاستقلال

اليشوف العبري ــ مستودع قوة الامة العبرية

في نهاية سنة ١٩٤٧ كانت جميع الاطراف المعنية بالامر ــ اليهود والعرب والانكليز ــ قد شعرت بأن من المحتمل ان يتقرر مصير ارض ــ اسرائيل في صدام دموي بين الشعبين القاطنين في البلد، بينما يتلقى السكان العرب في الحاضر وسيتلقون ــ بالتأكيد ــ في المستقبل مساعدة حقيقية من جانب دول عربية عديدة. وكان واضحا ان هذه الحرب ستكون شاملة، وأن السلاح لن يكون وحده الحاسم فحسب وانما ايضا مجمل قوى الجانبين المادية والروحية.

واتضح ان القاعدة الحقيقية والاساسية التي ستستند اليها حرب اليهود في العالم كله من اجل حقهم في وطن خاص بهم، هي اليشوف العبري، ثمرة عمل وجهود سبعين عاما من الاستيطان، وأن حدود الدولة اليهودية سيقررها الى حد كبير مدى انجازات هذا الاستيطان. فكل قطعة ارض اشتريت، وكل مستعمرة جديدة اقيمت، وكل مجموعة شبان هاجرت الى البلد، عززت بصورة ما هذه القاعدة، وزادت في فرص الانتصار في الصراع الوشيك الوقوع، ووسعت مدى انجازات هذا النصر.

عشية الحرب العالمية الثانية بلغ عدد سكان اليشوف، بحسب تقدير الوكالة اليهودية، ٤٧٤,٦٠٠ نسمة (٣١٪ من مجموع سكان البلد). وفي نهاية سنة ١٩٤٥، قدر عدد اليهود بـ ٥٩٢,٠٠٠، وفي منتصف سنة ١٩٤٨ بـ ٦٥٥,٠٠٠.

وقد توزع الـ ٦٥٥,٠٠٠ يهودي في مناطق البلد المختلفة بصورة غير متساوية. وشكل اليهود الاغلبية في المدن الثلاث الكبرى. وقدر عددهم في تل ابيب ويافا بـ ٢٢٦,٠٠٠ في مقابل ٧٠,٠٠٠ عربي، وكان هناك في القدس ١٠٣,٠٠٠ يهودي في مقابل ٦٥,٠٠٠ من غير اليهود (بينهم نحو ٥٠٠٠ مسيحي غير عربي، تعاطف معظمهم حقا مع المسألة العربية وكانوا مرتبطين بالعرب بصلات اقتصادية واجتماعية، لكن من دون ان يكونوا مستعدين ــ في اغلبيتهم ــ لخوض معركتهم). وكانت نقطة الضعف في القدس هي البلدة القديمة، التي انخفض عدد السكان اليهود فيها الى ٢٠٠٠ في مقابل ٣٠,٠٠٠ من غير اليهود، وفي حيفا الكبرى (المشتملة على القرى المجاورة) كان هناك ٨٩,٠٠٠ يهودي في مقابل

٧٠,٠٠٠ عربي تقريبا. وكانت هناك اغلبية يهودية صغيرة (٥٣ ٪) في طبريا. وانخفض عدد اليهود في صفد الى ٢٣٠٠ (١٨,٣ ٪).

وكان اكثر من ٦٦,٠٠٠ يهودي يعيشون في تجمعات مدينية صغيرة، اكبرها: رامات غان (١٢,٥٠٠ نسمة)، بني براك (٧٥٠٠) وغفعتايم (٧٠٠٠). وكانت هذه جميعها واقعة في مساحة متصلة الى الشمال الشرقي من تل ابيب في اطار كتلة «غوش دان». والى الجنوب من تل ابيب، بنيت حولون (٦٠٠٠ نسمة)، وفي وسط سهل شارون تطورت البلدة الصغيرة نتانيا (٦٥٠٠).

وكبرت المستعمرات القديمة هي ايضا، وتحولت الى تجمعات شبه مدينية. فبلغ عدد سكان بيتح تكفا (التي اكتسبت مكانة بلدية سنة ١٩٣٧) ٢٠,٠٠٠ نسمة، ورحوفوت ١١,٠٠٠، وريشون لتسيون ١٠,٠٠٠، والخضيرة ٨٠٠٠، وهيرتسليا ٥٥٠٠. 1207

لكن اغصان ـ جذور اليشوف، المنتشرة في انحاء كثيرة من البلد، كان عددها نحو ٣٠٠ مستعمرة صغيرة، يقطن فيها جميعها ١٠٠,٠٠٠ نسمة تقريبا. وكانت هذه المستعمرات موزعة من دان حتى جنوبي بئر السبع، وكان مستقبل حدود الدولة العبرية القادمة يعتمد، الى حد كبير، على قوة صمودها.

وكانت كثرة من هذه المستعمرات حديثة العهد وصغيرة جدا، وبحاجة الى مساعدة كبيرة كي تثبت ويشتد ساعدها. وكان الوضع مقلقابصورة خاصة في مناطق الحدود؛ ففي أواخر سنة ١٩٤٧، لم يكن في النقب سوى ٢٥٠ شخصا في ١٢ مستعمرة جديدة: كان في الجنوب نحو ٢٢٣٠ شخصا في ١٧ مستعمرة. وفي منطقة جبال يهودا، التي كانت صلة الوصل بين القدس والشفيلا* واشتملت على المستعمرات الاربع في غوش عتسيون في الطريق الى الخليل، كان يقطن اقل من ٢٠٠٠ شخص في ١٣ مستعمرة.

بنية اليشوف من ناحية الأعمار

ان وزن اليشوف، من ناحية وضعه الاقتصادي وقدرته الامنية، تقرر الى حد كبير بفعل تركيب الاعمار فيه، الفريد في نوعه والناجم عن الهجرة. فقد كان يشتمل على نسبة عالية من الرجال والنساء في سن العمل والخدمة العسكرية (٢٠ ـ ٤٤)، وهذا قلص بصورة لا يستهان بها الفجوة بين عدد اليهود وعدد العرب في مجموع السكان العام.

فمن بين الـ ٦٤٥,٠٠٠ يهودي كانت نسبة الاشخاص في سن العمل والخدمة العسكرية ٤٤ ٪، اي ٢٨٤,٠٠٠ شخص، منهم نحو ١٤٧,٠٠٠ من الذكور. أما بنية

---

* الشفيلا: المنطقة الواقعة بين منحدرات جبال القدس بالقرب من اللد والطرف الشمالي من النقب. (المترجم)

الاعمار، في اوساط السكان العرب، فكانت مختلفة كليا. فهنا كان العامل الغالب هو النسبة العالية للاولاد، بسبب نسبة الولادة العالية بين العرب المسلمين. وقد كانت نسبة الاعمار ٢٠ ـ ٤٤ هي ٢٨,٥ ٪ فقط، وبلغ عدد الاشخاص المنتمين الى هذه الفئة في نهاية سنة ١٩٤٨ مقدار ٣٨٥,٠٠٠ شخص بين السكان البالغ عددهم ١,٣٥٠,٠٠٠، انما كان هناك فائض في عدد الذكور، ويمكن تقديرهم بـ ٢٠٠,٠٠٠ شخص.

ويستنتج من ذلك، انه على الرغم من كون السكان اليهود يمثلون ثلث مجموع السكان فقط، فان نصيبهم من الاشخاص المنتمين الى فئة الاعمار ٢٠ ـ ٤٤ كان ٤٢ ٪. واذا اضفنا الى ذلك ميزات التنظيم والثقافة والاخلاص لقضايا المجموع، فان اهمية الفجوة العددية تتناقص اكثر فأكثر.

لكن في المقابل كان يقف وراء العرب في ارض ـ اسرائيل الاحتياطي الهائل المتوفر لاخوتهم في الدول العربية الاخرى، الذين كان من المحتمل ان يرسلوا المساعدات للعرب في ارض ـ اسرائيل، كما حدث فعلا في ابان حرب الاستقلال في سنتي ١٩٤٨ و ١٩٤٩.

تنظيم البيشوف

ان تنظيم البيشوف الذاتي ضاعف وزنه العددي بضع مرات. فالادارة الذاتية للبيشوف، التي تعود بدايتها الى الاستقلال الداخلي للمستعمرات العبرية في فترة الحكم التركي، تجلت في التنظيم الداخلي، «كنيست يسرائيل» [الجمعية العمومية لاسرائيل]، الذي ضم اغلبية البيشوف في البلد، باستثناء الاوساط المتدينة المتطرفة. وقد تعاون الجزء الاكبر من هذه الاوساط، المنضوي تحت لواء «اغودات يسرائيل»، مع المؤسسات القومية منذ سنة ١٩٤٠ فصاعدا. وبقيت خارجا فقط جماعة «نطوري كارتا» القليلة العدد التي قطن أفرادها في عدة احياء من شمال القدس.

وقد قبل «كنيست يسرائيل» ومؤسستاه ـ «أسيفات هنفحاريم» [جمعية المنتَخَبين] و«هفاعد هلئومي» [المجلس القومي] ـ السلطة السياسية للوكالة اليهودية التي تحولت، بحسب تعريف معارضيها من بين البريطانيين، الى «دولة داخل الدولة». ولم تنجح المنظمتان المنشقتان، الايتسل وليحي، في تقويض سلطة المؤسسات القومية. وتجسد انشقاقهما عن المجموع في المجالين السياسي والعسكري فقط، وحتى في هذين المجالين لم تنجح المنظمتان في الاضرار بنفوذ المؤسسات القومية الحاسم. ولا داعي الى القول انه لم يكن في نيتهما ولا في استطاعتهما الانشقاق في المجال الاقتصادي والصحي والتعليمي، وما شابه.

1208

وقد عزز وقوف منظمات اخرى تابعة للبيشوف الى جانب المؤسسات، وفي الاساس المنظمة الاقوى: «هستدروت هعوفديم هعفرييم» (الهستدروت) [اتحاد العمال اليهود]، من سلطة المؤسسات ونفوذها.

وكان عدد أعضاء «الهستدروت» في نهاية سنة ١٩٤٧ نحو ١٧٦,٠٠٠ عضو، ذكورا واناثا. وقد وضع عشرات الآلاف من اعضاء «الهستدروت» انفسهم تحت امرة المؤسسات القومية العامة، بما في ذلك منظمة «الهاغاناه» وأجهزتها المختلفة، وشكلوا اغلبية اعضاء هذه المنظمة.

وشكل الحكم المحلي اطارا تنظيميا آخر في الييشوف، وضم شبكة البلديات والمجالس المحلية التي اقر الحكم البريطاني حقها في الادارة الذاتية، وفي سن القوانين المحلية وفرض الضرائب وتعيين حراس في نطاق سلطتها، وما الى ذلك.

وقد قدمت هذه البلديات والمجالس مساعدة كبيرة في مجال تعبئة الييشوف اليهودي لأغراض الحراسة والدفاع من ناحية الوسائل المالية والقوة البشرية. وأبرزت السلطات المحلية اليهودية الطابع اليهودي لمناطق كثيرة في البلد، ومثلت اليشوف القاطن في منطقة صلاحياتها امام السلطات، وأخذت على عاتقها مهمات وصلاحيات رسمية.

واحتلت مقاما فريدا بلدية تل ابيب، اول وأكبر بلدية عبرية. وكانت هذه مملكة يهودية، تجاوزت ميزانيتها السنوية آنذاك المليونين ونصف المليون من الجنيهات الفلسطينية، وأدارت نظام ضرائب متشعبا، وحصلت على قروض كبيرة لانجاز عملها، واكتسبت سلطة ونفوذا كبيرين على اليهود المقيمين داخل حدودها، على الرغم من ان قيادتها المدنية لم تقبل، من دون تحفظ وفي كل الظروف، خط المؤسسات القومية السياسي.

وقد ارتفع عدد البلديات والمجالس المحلية والمجالس الاقليمية الاخرى، من ١٣ في بداية الحرب العالمية الى ٢٧ في سنة ١٩٤٦. وكانت هناك مجالس ذات طابع قروي واضح، تغطي مناطق تشتمل على أراض زراعية، مساحتها عشرات الآلاف من الدونمات (عيمك حيفر، ايزوري أفرايم، builtارديس حانه، بيتح تكفا القروية، ريشون لتسيون). كما كانت هناك مجالس تميزت بكثرة عدد سكانها (بيتح تكفا، رامات غان، رحوفوت). وقد رعت البلديات والمجالس شؤون التعليم، وتوصل كثير منها الى توفير تعليم عام لجميع السكان المقيمين داخل حدود صلاحياتها. وأنفقت آلاف الجنيهات على المعونات الاجتماعية والخدمات الصحية، وانشأت مشاريع خاصة بها ومشاريع مياه، ومجارير الخ.. وحتى لجان كتل المستعمرات (غوشيم) التي لم يكن قد اعترف بها بعد رسميا، اعترفت بها السلطات العليا ممثلا معتمدا للسكان اليهود (غوش هغليل هعليون [كتلة الجليل الاعلى]، عيمك هايردين [وادي الاردن]، حارود، يزراعيل [مرج ابن عامر] الخ..).

وكانت احدى المهمات الرئيسية لكل بلدية ومجلس محلي تأمين حراسة المنازل والاراضي والطرقات الواقعة في نطاق صلاحيته. ومنحت المجالس صلاحية تعيين حراس وخفراء، وانشاء جهاز مطافىء، وتقديم خدمات اسعاف اولي «ماغين دافيد ادوم» [نجمة داوود الحمراء] الخ.. كما منحت صلاحية فرض الضرائب وجباية التبرعات لتمويل هذه الخدمات. وقد استغلت فروع «الهاغاناه» هذه الاطر الشرعية لتنفيذ جزء كبير من نشاطاتها.

فمدربو «الهاغاناه» خدموا حراسا وخفراء، وكان معظم جمعيات رجال المطافىء، الذين قاموا بعملهم في الغالب على اساس تطوعي، خاضعا لاشراف قادة «الهاغاناه» المحليين. وفي اوقات الطوارىء كانت المجالس والبلديات تضع مقارها، وأجهزتها، ومؤسساتها، وشبكات الهاتف الخاصة بها، وامكاناتها القانونية والمالية، في خدمة «الهاغاناه».

وكان هناك مقدار معين من انعدام التنسيق بين جزء كبير من المجالس وبين المؤسسات القومية. وكان السبب في ذلك هو ان المؤسسات القومية استندت، في الاساس، الى هيئة ناخبين تجمعها روابط طوعية، وكان النفوذ فيها لحزب عمال ارض ـ اسرائيل وأحزاب اخرى متحالفة معه، بينما كانت البلديات والمجالس قائمة على انتخابات جرت وفقا لقانون متخلف، وضعه البريطانيون، وضمن سيادة نفوذ وسيطرة أحزاب اليمين المدنية في كثير منها. 1209

وقد شجع البريطانيون قيام هذا التمايز بين القوى المسيطرة على المؤسسات القومية والموجهة لها، وبين القوى المسيطرة على بلدية تل ابيب ومجالس اخرى كبيرة، وحاولوا ان ينظموا في داخل الييشوف قوة «معتدلة» خاضعة لنفوذهم ويمكن استخدامها كقوة مضادة، وربما حتى بديلة، للوكالة اليهودية. كما انه كانت هناك، من ناحية اخرى، جهات في اوساط اليمين المدني في المجالس، تطلعت الى المنظمتين المنشقتين وأيدتها خفية، لا بدافع من تماثلها مع نشاطاتها بل بالعكس: فهذه الجهات، التي كانت ممثلة في المؤسسات الادارية لـ «الهاغاناه» (بنسبة ٥٠ ٪ من تركيبها)، طالبت بصورة عامة بانتهاج سبل نشاط ونضال معتدلة، لكنها ارتأت ضرورة قيام قوة موازنة لـ «اليسار»، الذي كان نفوذه في «الهاغاناه» حاسما ولا يتلاءم مع التكافؤ الذي كان قائما في ادارة القيادة القطرية.

وقد كان إلقاء القبض على رؤساء بلديات تل ابيب وبيتح تكفا ونتانيا، ورئيس مجلس رامات غان في صيف سنة ١٩٤٧، الى حد ما، بمثابة ردة فعل يائسة من جانب الحكام البريطانيين ازاء موقف رؤساء المجالس، اذ جربوا ــ على مدى سنوات كثيرة ــ تحويلهم الى حلفاء لهم ضد المؤسسات القومية، لكنهم ظلوا في نهاية الامر مخلصين لمصلحة الييشوف القومية العليا وخيبوا امل البريطانيين تماما. كما عكس هذا الاعتقال ايضا الاهمية السياسية التي توصلت البلديات والمجالس اليهودية الى اكتسابها في تلك الفترة.

وكانت ثمة منظمات في الييشوف اليهودي القروي اعظم قوة من المؤسسات المذكورة. ففي نهاية سنة ١٩٤٧ كانت هناك ١٧٦ مستعمرة كيبوتسية، يقطن فيها ٢٨,١٢٦ عضوا وعاملا من غير الاعضاء. وكان هؤلاء منظمين في اطار اربع منظمات قطرية: «هكيبوتس هميئوحاد»، و «حيفر هاكفوتسوت»، و «هكيبوتس هآرتسي»، و «هكيبوتس هداتي» [الكيبوتس الموحد، وجمعية الكيبوتسات، والكيبوتس القطري، والكيبوتس الديني]. وكانت كل مستعمرة من هذا النمط، بحكم طبيعة نظام حياتها، قاعدة جاهزة ومضمونة لـ «الهاغاناه». كما كانت «حركة الموشافيم»، بمستعمراتها الـ ٦٣ وأعضائها الـ ٨١٤٥، في وضع مشابه كجسم منظم مستعد حقا لتلقي أوامر المؤسسات القومية و «الهاغاناه».

ازدياد ملكية اليهود للاراضي

منذ نشر «الكتاب الابيض» تعرقلت عملية فداء الارض بصورة خطرة، لكنها لم تتوقف كليا. ففي نهاية سنة ١٩٣٩، كان في حيازة اليهود ١,٥٣٣,٤٠٠ دونم، وفي السنوات الثماني التي اعقبت ذلك تم شراء نحو ٢٧٠,٠٠٠ دونم آخر، وعشية حرب الاستقلال ازدادت مساحة الارض التي كانت في حيازة اليهود الى ١,٨٠٢,٤٠٠ دونم تقريبا.

وكان النشاط من اجل فداء الارض قد اصبح محصورا تقريبا في «هكيرن هكييمت ليسرائيل» [الصندوق القومي اليهودي]، لأن مؤسسة قومية لا تتوخى الربح كانت هى فقط القادرة على تحمل المتاعب والصدمات التي كان مشتري الاراضي اليهودي مضطرا الى تحملها في «الوطن القومي» اليهودي. وقد اشترى «الصندوق القومي اليهودي» ايضا أراضي اليهود التي اوشكت ملكيتها على الانتقال الى ايد غريبة. وافتدى في السنوات التي تلت «الكتاب الابيض» اكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دونم، وازدادت حصته من الاراضي التي يمتلكها اليهود في البلد من ٣٠٪ في بداية تلك الفترة الى ٤٨٪.

ولم يتغير توزع الاراضي في المناطق المختلفة في البلد. ففي قضاء طبريا كان في حيازة اليهود اكثر من ٤٤٪ من أراضي القضاء (١٩٣,٨٠٠ دونم)، وفي قضاء يافا ٤٢٪ (١٤١,٦٠٠ دونم)، وفي قضاء حيفا ٤٠٪ (٤٠٧,٥٠٠ دونم)، وفي قضاء بيت شان [بيسان] ٣٧,٣٪ (١٣٤,٧٠٠ دونم). كما كان لهم نصيب محترم في اقضية: صفد (٢٧,٣٪: ١٩٠,٢٠٠ دونم)، والناصرة (٢٥,٢٪: ١٢٥,٩٠٠ دونم)، وطولكرم (١٩٪: ١٥١,٠٠٠ دونم)، والرملة (١٤,٨٪: ١٢٨,٨٠٠ دونم). 1210

وفي مقابل ذلك، دق اليهود وتدا صغيرا فقط في اقضية: غزة (٥,٣٪: ٥٩,٧٠٠ دونم)، والقدس (٣,٦٪: ٥٧,٤٠٠ دونم)، وعكا (٣,٢٪: ٢٦,٢٠٠ دونم). كما كانت الـ ١٦٨,٥٠٠ دونم التي اشتراها اليهود في النقب، مع انها شكلت ١,٣٪ فقط من مساحته الكبيرة، تشكل موطىء قدم حقيقيا نظرا الى طابع المنطقة الصحراوي، اذ كانت اغلبية الأرض مشاعا، وتتجول فيها العشائر البدوية المختلفة فقط.

غير ان تقصيرا كبيرا في شراء اليهود للأراضي تكشف في الاقضية الاربعة الرئيسية: جنين ونابلس ورام الله والخليل، التي لم يكن لليهود فيها تقريبا أراض (باستثناء كتلة صغيرة منعزلة في جبال الخليل وغوش عتسيون، بأراضيها التي تبلغ مساحتها ١٢,٧٠٠ دونم). وقد دفع اليهود ثمنا باهظا لاهمالهم هذه المناطق خلال سنوات الاستيطان اليهودي، اذ قضي عليها بالبقاء خارج اي مشروع حقيقي لدولة يهودية قابلة للحياة.

وقد كان توزع الاراضي ذاك هو الذي قرر، الى حد كبير، مستقبل وحدود الدولة العبرية التي قامت في اعقاب حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨. لكن شراء الاراضي لم يكن كافيا. فمهما تكن عملية الشراء صعبة ومعقدة، فان عملية توطين تلك الاراضي كانت اصعب منها أضعافا، وهذا ما جعل حقا الارض يهودية فعلا.

سير الاستيطان في سنوات النضال

انشئت في السنوات الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية الى حرب الاستقلال ٤٧ مستعمرة. ولم يكن الاستيطان في سنتي ١٩٤٥ و١٩٤٦ (١٥ نقطة) قد اكتسب بعد طابع الاحتلال الواضح. وكانت احدى القوى المحركة للاستيطان، في هاتين السنتين، منظمات الجنود المسرحين من الخدمة. وكان هذا الاستيطان جزءا من عملية اعادة تأهيل عشرات الآلاف من الجنود المسرحين من الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني. وكانت المؤسسات القومية قد انشأت في صيف سنة ١٩٤٤، بينما رحى الحرب لا تزال دائرة، «دائرة توطين الجنود». وأقام الجنود انفسهم «اتحاد الجنود المسرحين».

وقد قدمت «دائرة توطين الجنود» المساعدة للجندي منذ الايام الاولى لتسريحه من الخدمة، مكملة بذلك المساعدة الحكومية. ووجد جزء كبير منهم عملا بسرعة، وعاد الى الحياة المدنية من دون ان يحتاج الى مساعدة الحكومة والجمهور.

وقد أنهى مئات من الجنود دورات للتدريب على مهن مختلفة، وأُنشئت تعاونيات حرفية وصناعية، وأُلحق جنود بالتعاونيات ومستعمرات العمال التعاونية القائمة. لكن من زاوية مصلحة الييشوف، كانت هناك قيمة خاصة لتوطينهم في نقاط استيطان زراعية جديدة. ومن بين هذه المستعمرات (الموشافيم) التي اقيمت: كفار موناش في سهل حيفر الشرقي (وادي كوباني)، وكفار كيش قرب جبل الطور، وبتسره وبني درور في الجزء الجنوبي من الشارون، ورغباه في الجليل الغربي، ومخمورت على شاطىء البحر قرب مصب وادي الاسكندر.

أما الاستيطان في سنتي ١٩٤٧ و١٩٤٨ (٣٢ نقطة) فقط اتسم بكونه اكثر اضطرابا وذا طابع احتلالي. وقد جرى وصفه بالتفصيل في الفصل السابق. وكان هذا الاستيطان الى حد كبير هو الذي ضمن لاسرائيل الجنوب والنقب، وهو الذي عزز الييشوف القروي القليل العدد في جبال يهودا (عين تسوريم، ورفاديم، ونفيه ايلان).

وقد استخدمت الـ ٣٠٠ مستعمرة الصغيرة، والتي ازداد عددها في ابان سنوات النضال بنسبة ٢٠٪، قواعد و«معاقل» لـ «الهاغاناه» ووحداتها الضاربة: لواء البلماح.

الاقتصاد اليهودي

1211

حكم تطور الاقتصاد اليهودي في ارض ـ اسرائيل في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ عاملان. وقد كان التأثير الاكبر في السنة الاولى للعامل الاول، وهو الانتقال من اقتصاد حربي الى اقتصاد سلمي. أما في السنة الثانية، ١٩٤٧، فقد بدأ بالتأثير عامل ثان، هو المقاطعة العربية أو، بالاحرى، المقاطعة التي فرضتها الدول العربية على الاقتصاد اليهودي في ارض ـ اسرائيل.

في سنوات الحرب العالمية تكيف الاقتصاد اليهودي بسرعة مع الضرورات الخاصة

للحرب. وتطورت صناعة كبيرة، عملت من اجل الجيش الكبير المعسكر في المنطقة (انظر اعلاه، الفصل ١٤)، ومن اجل تزويد المنطقة التي تزعزعت روابطها بالعالم الواسع بحاجاتها. وكانت الظروف مريحة؛ فلم تكن هناك أية منافسة، ودفع الجيش بسخاء، وتقبلت السوق المدنية ايضا برضى كل سلعة قدمت اليها. إلا ان هذه الظروف الاصطناعية اختفت بعد الحرب. وقد صفيت مشاريع عديدة، لكن مشاريع اخرى حاولت تكييف معداتها وخبرتها مع الظروف الجديدة، ظروف السوق الحرة والمنافسة، التي اصبحت اصعب فأصعب بمقدار ما استردت الصناعة في اوروبا عافيتها.

وقد اضطرت صناعة الالماس، التي تطورت في البلد بعد ان شلت مراكزها في هولندا وبلجيكا في اثناء الحرب، الى الوقوف في وجه منافسة هاتين الدولتين اللتين اعادتا ترميم اوضاعهما بسرعة. وانخفضت قيمة تصدير الالماس، من ٥,٩٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٥، الى ١,١٥٧,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٧، ومرت الصناعة الناشئة سنة ١٩٤٧ بأزمة حادة ادت الى اغلاق مصانع صقل الالماس موقتا.

وانعكست الفترة الانتقالية بصورة مختلفة في فرع الحمضيات. ففي سنوات الحرب اهملت بساتين كثيرة، وتلف جزء منها وأصبح جزء آخر بحاجة الى عناية فائقة ليدر محصولا فعليا. وتناقصت المساحة المزروعة بالحمضيات في الاقتصاد اليهودي من ١٥٢,٠٠٠ دونم الى ١٢٠,٠٠٠ دونم. وفي سنة ١٩٤٧ فقط، بدأ فرع الحمضيات باسترداد عافيته. وارتفع حجم تصدير الحمضيات في موسم سنة ١٩٤٨، وهو الأخير قبل نشوب الحرب، الى ١٥ مليون صندوق، بينما بلغ حجم التسويق سنة ١٩٤٦: ٥,٧٠٠,٠٠٠ صندوق، وسنة ١٩٤٧: ٧,٦٠٠,٠٠٠ صندوق. وكان التوقع لموسم سنة ١٩٤٨ هو ١٢ مليون صندوق، إلا ان حرب الاستقلال شوشت التقديرات.

كما اثرت ثلاثة عوامل، في المرتبة الثانية من الاهمية، بدورها على الاقتصاد اليهودي، وكان تأثيرها قويا، على الاقل في المدى القصير المتمثل في السنتين او الثلاث سنوات التي دار في اثنائها الصراع ضد البريطانيين على مصير البلد:

أ ــ في السنوات الاولى التي اعقبت الحرب العالمية الثانية نشأ في منطقة كتلة الاسترليني، التي شملت الامبراطورية البريطانية وعددا من الدول الاخرى، نقص كبير في الدولارات، اثقل على اقتصاد الامبراطورية عامة وعلى الاقتصاد البريطاني خاصة. وهنا حول سيل التبرعات الذي تدفق على الصناديق القومية اليهودية والمؤسسات العبرية في ارض ــ اسرائيل، وتصدير الالماس الى اميركا، ارض ــ اسرائيل الى احد المصادر المهمة لتدفق الدولارات على منطقة العملة البريطانية. ففي سنة ١٩٤٦، مثلا، دخل ارض ــ اسرائيل اكثر من ستين مليون دولار، وهو مبلغ لا يقل كثيرا عما حصلت عليه انكلترا في مقابل صادراتها الى الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٤٥.

ب ــ العامل الثاني اتسم بشيء من التناقض الظاهري: فالوضع المتوتر في

ارض ــ اسرائيل ارغم البريطانيين على الاحتفاظ بجيش كبير للمحافظة على النظام وحماية المنشآت العسكرية في البلد. كما ان زيادة حدة الحرب الباردة بين الدول الغربية والاتحاد السوفياتي تطلبت بدورها انفاقا من اجل تعزيز وضع بريطانيا العسكري في الشرق، الذي اصبح احدى المناطق التي ازدادت فيها المنافسة السياسية على السلطة في العالم. وقد اجبر ذلك بريطانيا على مواجهة نفقات عسكرية كبيرة شبيهة تقريبا بالنفقات في زمن الحرب. وقدرت هذه النفقات، فيما يتعلق بأرض ــ اسرائيل، بـ ٢٣,٥ مليون جنيه فلسطيني، وتدفق جزء من الاموال على الاقتصاد اليهودي.

1212

ج ــ كان العامل الثالث هو الانتعاش الكبير في قطاع البناء. ففي سنوات الحرب توقف البناء المدني كليا تقريبا. وقد قدر النقص في المساكن بعد انتهاء الحرب بـ ١٠٠,٠٠٠ غرفة. وزادت الهجرة والزيادة الطبيعية في هذا النقص. وفي السنوات ١٩٤٥ ــ ١٩٤٧ تم في المدن والمستعمرات اليهودية، بحسب تقدير موثوق به، بناء نحو ٤٣,٠٠٠ غرفة، استثمر في بنائها ٢٥ مليون جنيه فلسطيني تقريبا.

ان هذه العوامل مجتمعة رجحت الكفة ضد الاتجاهات السلبية التي رافقت فترة الانتقال. وكان الوضع في سوق العمالة عشية حرب الاستقلال متينا جدا. اذ انه على الرغم من تسريح نحو ٢٠,٠٠٠ رجل وامرأة من الجيش خلال عام واحد، وعلى الرغم من هجرة عشرات الآلاف، فانه لم ينشأ نقص في الاعمال، بل حتى انه لمس نقص في الايدي العاملة في قطاعي البناء والزراعة.

وقد اضاف الوضع الاقتصادي الجيد وزنا لمطالبة الييشوف بفتح أبواب البلد امام فلول الناجين من الحرب. ولم يكن في وسع الحكومة التهرب متذرعة بحجج اقتصادية. وكان واضحا للجميع ان سوء النية فقط، الذي كان ثمرة حسابات سياسية، هو العامل الوحيد لاغلاق أبواب البلد في وجه اليهود. ولم يتخط الوضع الاقتصادي الجيد المجتمع العربي ايضا. وتقدم الاقتصاد العربي وفاق تقدمه من ناحية نسبية الاقتصاد اليهودي. فارتفع اجر العامل العربي عدة أضعاف، وتكاثرت ودائع العرب في المصارف، وتفتحت بواكير صناعة عربية، وتقلصت الفجوة الاقتصادية بين الطوائف في البلد بالتدريج. وكان هذا الوضع الاقتصادي ايضا من العوامل التي ساهمت في الهدوء النسبي الذي عم بين العرب واليهود طوال فترة النضال المضطربة بين الييشوف العبري والبريطانيين.

وقد حقق الاقتصاد الزراعي اليهودي انجازات كثيرة في السوق الداخلية. فالحرب ادت الى زيادة الانتاج الزراعي، ووصل الاقتصاد الزراعي اليهودي في السنوات التي اعقبتها الى مستوى اصبح فيه قادرا على تزويد الييشوف بجزء كبير من غذائه، من دون الاضطرار الى الاستيراد والى اللجوء الى منتوجات الاقتصاد الزراعي العربي. وانتهت تماما تبعية الييشوف اليهودي فيما يتعلق بحاجاته الغذائية الاساسية، تلك التبعية التي شكلت عاملا معينا في العلاقات بين الطائفتين في العشرينات. وارتفع انتاج الحليب من ٣٥ مليون ليتر سنة

١٩٣٩ الى ٨٢ مليون ليتر سنة ١٩٤٧، وانتاج البيض من ٦٠ مليونا سنة ١٩٣٩ الى ١٧٤ مليونا سنة ١٩٤٧، وانتاج الخضروات والبطاطا من ١٨,٠٠٠ طن سنة ١٩٣٩ الى ٧٥,٠٠٠ طن سنة ١٩٤٧.

وفي العامين الاخيرين قبل حرب الاستقلال كانت قد بدأت بالظهور علامات التأثير المدمر للمقاطعة العربية على الصناعة اليهودية. وكانت هناك فروع معينة تضررت فورا. فتصدير الزجاج انخفض من ١٣٢,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٥ الى ٣٤,٧٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٦، وتصدير الملبوسات الجاهزة من ٢٠١,٠٠٠ جنيه فلسطيني الى ٤,٦٠٠ جنيه فلسطيني، وتصدير الادوية من ١٥٤,٠٠٠ جنيه فلسطيني الى ١٠,٥٠٠ جنيه فلسطيني. وانخفضت الصادرات الصناعية بمجملها من ١١ مليون جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٥ الى ٩,١ ملايين جنيه فلسطيني في السنة التالية، اي انخفاض يفوق السدس. وكانت نسبة الصادرات الى الدول العربية سنة ١٩٤٥ نحو ٢٦ ٪ من اجمالي الصادرات الصناعية العامة، فانخفضت في السنة التالية الى ٨,٣ ٪، واضطرت الصناعة العبرية الى التفتيش عن أسواق جديدة لمنتوجاتها.

وقد واجه الاقتصاد اليهودي في ارض ـ اسرائيل ثلاث مهمات حيوية:

أ ـ غزو السوق في البلد من خلال مزاحمة المنتوجات الاجنبية ومنافستها؛

ب ـ تخفيض أسعار المنتوجات عن طريق المكننة وزيادة انتاجية العمل، من اجل النفاذ الى السوق العالمية؛

ج ـ التغلب على المقاطعة العربية.

1213

وكان تنفيذ هذه المهمات يتطلب استخدام وسائل حكومية، ويتطلب وجود دولة. ان السياسة البريطانية الاستعمارية في ارض ـ اسرائيل لم تحبذ منذ بدايتها تطور اقتصاد يهودي عصري في البلد، وعارضت بصورة خاصة التطور الصناعي. وكانت ارض ـ اسرائيل، بحسب هذه السياسة، جزءا من اقتصاد الامبراطورية العام، وينبغي للبلد وفقا له ان تزود بريطانيا بالحمضيات والمواد الخام (البوتاس، والبروم). وعزز تدهور العلاقات بين السلطات والييشوف اليهودي، بسبب الصراع، موقف الحكومة السلبي من الاقتصاد اليهودي.

ومن الامثلة البارزة لذلك، موقف الحكومة من المقاطعة التي فرضتها الدول العربية على المنتوجات اليهودية. اذ ان الحكومة لم تبد اي اهتمام بافشال المقاطعة، ولم تمارس الضغط السياسي المقبول من اجل ارغام الدول العربية على الغاء المقاطعة، ولم تتخذ اية عقوبات اقتصادية مضادة لايقافها. وقد تصرفت دائما تجاه الاقتصاد اليهودي تصرف زوجة الاب تجاه ابناء زوجها. وبعد ان نما هذا الاقتصاد وتطور في سنوات الحرب، بدعمها ومساعدتها، كانت مستعدة للتخلي عنه وتركه يتدهور اكثر فأكثر، على امل ان يضعف التدهور الاقتصادي قوى الصمود السياسي للييشوف ويرغمنا ذلك على الخضوع التام لسياستها.

لكن على الرغم من كل التقلبات والتحولات التي حدثت في الاقتصاد، وعلى الرغم

من الازمة الداخلية والخارجية التي مر بها، وعلى الرغم من موقف الحكومة العدائي، فقد اصبح هذا الاقتصاد في نهاية الاربعينات قوة راسخة الجذور، متينا وايجابيا وينتظره مستقبل زاهر. وحرر التطور الزراعي اليشوف من الاعتماد على جيرانه العرب، كما جعل التطور الصناعي والخبرة التقنية المكتسبة معه امكان صمود اليشوف في وقت الطوارىء أمرا واردا.

ان اليشوف، الذي كان على وشك ان يأخذ على عاتقه عبء الصمود عشية حرب الاستقلال، كان مختلفا كليا، وأنضج كثيرا، ومدربا اكثر كثيرا، وقويا اكثر كثيرا من اليشوف الذي واجه «التمرد العربي» قبل اثنتي عشرة سنة تقريبا. وكانت امكاناته العسكرية كبيرة، ويزخر بالقوى والادوات والحيوية. وكُلِّفت زعامة اليشوف وقيادة «الهاغاناه» استغلال هذه القوى بكامل طاقاتها في الحرب التي دارت على ارض ــ اسرائيل سنة ١٩٤٨ لتقرير مصير الشعب.

الفصل الستون

عضو "الهاغاناه" عشية حرب الاستقلال

«الهاغاناه» ـ حركة شعبية

ماذا كانت «الهاغاناه» من الناحية التاريخية؟ للوهلة الاولى يبدو انه كان علينا ان نطرح هذا السؤال في مطلع الكتاب وليس الآن ونحن نقترب من نهاية رواية تاريخ «الهاغاناه». لكن من طبيعة الهيئات العامة، التي تنبري لتقديم رد على قضايا الامة الحياتية الرئيسية في فترات حاسمة من تاريخها، ان تسبق نشأتها تشكل صورتها الكاملة، وأن تكتسب صورتها الناضجة والنهائية فقط في اثر نقاشات داخلية ومحاولات وفشل متكرر.

هل كانت «الهاغاناه» منظمة عسكرية؟ ان بنيتها التنظيمية الظاهرية كما تبلورت في الاربعينات ونُظُم التدريب والمذهب القتالي الخاص بها ـ كل هذه، بالتأكيد، وُضعت من خلال الطموح الى إعدادها لتكون جيش الدولة العبرية المزمع انشاؤها. وقد سهلت هذه الاشكال التنظيمية كثيرا عملية التحول من «الهاغاناه» الى «جيش الدفاع الاسرائيلي» عندما آن الاوان لذلك. لكن «الهاغاناه» كانت تفتقر الى قوة الاكراه وقوة الانضباط المتوفرة في جميع جيوش الدول ذات السيادة. وحتى في جيش المتطوعين لا يستمر دافع التطوع إلا الى اللحظة التي يقرر الشخص فيها التطوع في الجيش. ومنذ تلك اللحظة فصاعدا يصبح خاضعا لسلطة القيادة العسكرية. بينما في «الهاغاناه» كانت لحظة التطوع تستمر حتى الى ما بعد ان يصبح الشخص عضوا في المنظمة. وتشهد ظاهرة الانسحاب في حد ذاتها، التي رافقت «الهاغاناه» بأشكال مختلفة منذ ايامها الاولى، على طابع المنظمة التطوعي. وفي مقابل ذلك، لم تكن سنوات عضوية الشخص في «الهاغاناه» محددة كما هي الحال في الجيش. فقد كان عضو المنظمة يلتحق بـ «الهاغاناه» بطرق مختلفة. فابن البلد كان يصل اليها عندما يصبح عمره ١٥ ـ ١٦ عاما بتوصية من اصدقائه الذين كانوا قبله اعضاء في المنظمة، او بتوصية من مدربه في التربية البدنية، او بتوصية من حركة الشبيبة. وكان المهاجر الجديد يصل الى «الهاغاناه» عن طريق انضمامه الى تنظيم استيطاني (كيبوتس او موشاف)، او بتوصية من اصدقائه في مكان عمله. وكان بعد الالتحاق يتدرب، ويؤدي مهمات في اوقات الطوارىء، ويتلقى دورات مختلفة الخ.. ويلتحق بوحدات احتياطية، ويظل تحت امرة «الهاغاناه» في جميع الاوقات.

هل كانت «الهاغاناه» منظمة سرية؟ طبعا، لم يعترف رسميا بقيام «الهاغاناه» وحقها في حيازة السلاح وتدريب اعضائها. وكان الاعضاء الذين يلقى القبض عليهم وفي حيازتهم سلاح يحكم عليهم بالسجن بضع سنوات، وأحيانا لسنوات طويلة. لكن حتى هنا ايضا كانت هناك فترات مختلفة: فترات تجاهلت السلطة في اثنائها ــ ظاهريا ــ وجود «الهاغاناه» (سنوات ١٩٢٠ ــ ١٩٣٦)، وفترات قام خلالها تعاون عملي بين السلطات و«الهاغاناه» بصورة تشكيلات شرطة وتشكيلات عسكرية شرعية (١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، ١٩٤١ ــ ١٩٤٣)، وفترات لوحقت في اثنائها «الهاغاناه» بقسوة (١٩٤٠، ١٩٤٤ ــ ١٩٤٧) وزج عدد كبير من اعضائها في السجون ومعسكرات الاعتقال. لكن، خلافا للتنظيمات السرية التي تضم أعدادا قليلة من الاعضاء المختارين، كانت «الهاغاناه» منظمة جماهيرية، وفي مناطق ريفية معينة كان تقريبا جميع الرجال والنساء من فئات الاعمار الملائمة مرتبطين بالمنظمة.

1215 ولذا يبدو ان التعريف الادق لـ«الهاغاناه» هو: حركة شعبية، نبعت من الضرورة الحيوية والنفسانية لجماهير الشعب والمهاجرين والشبيبة، من اجل المحافظة على حياتهم وشرفهم والدفاع عنها، والنضال من اجل مستقبلهم في الوطن. ان «المنظمة» ــ قال يسرائيل غاليلي في محاضرة امام ضباط إعلام «الهاغاناه» في نهاية الحرب العالمية الثانية ــ «وضعت لنفسها هدف استخلاص كل القوة الدفاعية الكامنة في الييشوف ادراكا منها انه اذا انضم كل اليهود في الييشوف الى «الهاغاناه»، فمن الممكن ان يصبحوا كافين لتحقيق هدفنا: الدفاع عن الحياة والممتلكات والشرف».

منابع «الهاغاناه» الروحية

لا تستطيع الحركة الشعبية ان تنهض وتتطور وتستمر في البقاء سنوات كثيرة، إلا اذا كانت جذورها مغروسة في اعماق روح الجماهير.

لقد شعر المهاجرون اليهود، بقدر ما كانت جذورهم مغروسة في التراث اليهودي او تثقفوا بالروحية الصهيونية، انفسهم منذ اليوم الاول لوصولهم الى البلد بأنهم ليسوا غرباء، بل عائدون الى ديارهم ووطنهم. ولم يكن وعد بلفور وصك الانتداب على ارض ــ اسرائيل سوى مصادقة على هذا الوعي الذي لم يكن خاصا باليهود وحدهم فحسب، وانما شمل ايضا أجزاء كبيرة من امم العالم التي تربت على التوراة. وقد عبر د. بن ــ غوريون حقا عن ذلك في شهادته امام اللجنة الملكية في شتاء سنة ١٩٣٧ بقوله: «ان التوراة هي صك انتدابنا».

وقد فجرت العودة الى الوطن في قلب اليهودي ينابيع من اليأس والبطولة، كان مضطرا في المنفى الى اخفائها، او الى ايجاد قناة خارج الحياة اليهودية لتصريفها. من جهة، اندفعت الى البلد تلك العناصر من الامة التي فتشت عن متنفس لبطولتها وآمنت بأنها ستجده في

ارض ــ اسرائيل. ومن جهة اخرى، فقد انطبق على كثيرين ممن جاؤوا من المنفى، وهم محطمون ومسحوقون ويمتلكهم الخوف، قول النبي: «ويقول الضعيف: انا بطل».

ان حركة الدفاع عن النفس في المنفى، التي كانت اولا وقبل كل شيء تعبيرا عن يقظة العبقرية القومية، اصطدمت فور يقظتها بالقوة الحديدية للأغلبية الغريبة والدولة الغريبة، وقمعت من دون رحمة. لكن تراث افعالها ومآثرها بقي حيا بين رجال «الهاغاناه» في ارض ــ اسرائيل. وتحول [كتابا] «التأبين» لـ م. ي. برديتشيفسكي و «هو قال لها» لـ ي. ح. برنر الى ذخر ابدي في ادب «الهاغاناه» في ارض ــ اسرائيل.

وتعاظمت يقظة البطولة اليهودية، التي بشر بها منذ بداية حركة العودة الى صهيون شعراء جيل البعث: ايمبر، وبياليك، وتشرنيخوفسكي، و ي. كوهين، وآخرون (انظر المجلد الاول، الفصل السادس)، نتيجة اصطدام اليهود بمعارضة العرب من سكان البلد لهجرتهم واستيطانهم.

وتشكل هجرة اليهود وتجذرهم واستيطانهم في البلد اساس تاريخ الييشوف العبري الحديث، منذ تأسيس بيتح تكفا حتى قيام دولة اسرائيل. لكن في اللحظة التي كانت فيها هذه اهجرة، او الاستيطان، يصطدمان بالحدود التي أرادت ان تعينها لهما القوى الغريبة، العرب او البريطانيون، كان يبدأ نشاط سري يهودي. وكان هذا النشاط السري، بقدر ما يتخذ شكلا منظما يجد له تعبيرا في حركة «الهاغاناه». ولم تكن نشاطات «الهاغاناه» مقتصرة على عمليات الدفاع عن النفس ضد الجيران المعادين فحسب، وانما اشتملت ايضا على جميع تلك النشاطات المنظمة للييشوف، التي خرجت عن النطاق المسموح به رسميا من قبل الحكام الغرباء، او التي لم تتلق الدعم الامني الذي هو من حق كل مواطن في دولته، مثل: الهجرة غير الشرعية والاستيطان الاحتلالي.

1216 ان تقدم الييشوف في اتجاه الاستقلال السياسي، الذي تجسد في مؤسسات الحكم الذاتي والتعليم والصحة والمؤسسات الأخرى التي أقامها، وجد تعبيرا قويا جدا له في منظمة «الهاغاناه». «ان اساس التجربة الاولى للعضوية في «الهاغاناه» ــ قال يسرائيل غاليلي ــ «هو احساس وادراك العضو انه ينتمي الى قوة ليست معتمدة على موافقة القانون، وليست معتمدة على اذن السلطة، ولا هي واقعة تحت رحمة الحكومة. انه ينتمي بارادته الى قوة يهودية مستقلة وحرة، خاضعة فقط لرغبتها في البقاء ورغبتها في بقاء شعبها. وشرط بقائها: ان تكون مخفية عن الانظار، وألا تكون مكشوفة تجاه مطاردة السلطة ورجال الشرطة. وهدف هذه القوة التملص من الحظر، وأن تكون قوة حرة، ولا يمكن ان يتحقق هذا الهدف إلا بالاستقلال السياسي لليهود في البلد».

تغذت «الهاغاناه»، مثل كل الحركات الشعبية الكبيرة، من تراث الماضي وأوجدت على مر السنين ايضا تراثا خاصا بها.

فالحركة الصهيونية، الام الروحية لـ «الهاغاناه»، اخرجت قيمة البطولة العبرية من مخابئها، حيث اختُزنت ونسيت في ايام المنفى الرديئة، ووضعتها بين قيمها المتجددة. واحتل سفر يهوشواع ــ القضاة وثورة المكابين وبطولة الغيورين ــ مكانا مركزيا في التربية العبرية الحديثة، وعرضت مآثر ابطال الماضي نماذج للجيل الشاب. لقد ركزت كتب التاريخ اليهودي الكلاسيكي، في عرضها لتاريخ شعب اسرائيل، على قوانين التقييد وأعمال الاضطهاد، بينما حاولت الحركة القومية ان تبرز التوق الى الخلاص، وأن ترفع من شأن ومضات البطولة اليهودية. وعلاوة على «كتاب الدموع» لمؤلفه شمعون بيرنفيلد، وبايحاء احد الآباء الروحيين لحركة «الهاغاناه» بيرل كاتسنلسون، وضع يسرائيل هايلبرين «كتاب البطولة» (١٩٤١) جامعا بين دفتيه كل ذكر ورد عن الصمود البطولي اليهودي خلال الحملات الصليبية سنة ١٦٤٨ وسائر القوانين التقييدية والمذابح. كما اشاد الكتاب ببطولة دفاع اليهود عن انفسهم في المنفى. وقد جرى دمج بين هذا كله وبين نضال الشعب من اجل وطنه: ارض ــ اسرائيل.

«ان بطولة شعب اسرائيل» ــ كتب ب. كاتسنلسون في مقدمة «كتاب البطولة» ــ «مكنونة في حرز الحياة السرمدية للامة. ــ ــ ان عنصر البطولة هو من صلب جوهر سر الوجود الاسرائيلي. ولا يمكن لشعب اسرائيل ان يعيش حياته بين الاديان المهاجمة، وبين الممالك المتصارعة، وبين الطبقات المتنازعة، وداخل الثورات، ودائما بين أشداق الخطر من دون البطولة. ولولا هذه البطولة العنيدة، هل كان لدينا القوة لتوقع النصر في يوم من الايام؟ فمن الفتية الغيورين، الذين تفنن جلادوهم في انزال شتى صنوف التعذيب المريعة بهم ومزقوا لحمهم نتفا مطالبين اياهم بأمر واحد فقط: ان يعترفوا هم انفسهم بأنهم يقبلون نير امبراطورية القيصر، فما خضع اي واحد منهم ولا لفظت شفتاه ان القيصر سيده، الى الفتية الغيورين في ايامنا هذه، الذين يحافظون على الجمرة العبرية متقدة في الحركة السرية والاسر ــ انهم الفتيل نفسه الدائم الاشتعال، وان كان ثمة ضمانة فهم ضمانتنا».

وفي ارض ــ اسرائيل كانت الجبال والاطلال تعيد ذكرى بطولة شعب اسرائيل في الايام الغابرة. فالحارث في الجليل كان يشاهد قمة جبل الطور التي انطلق منها براك وديفوراه لحربهما، وكان ناحل حارود مرتبطا بذكرى حرب جدعون ضد المِدْيَنيين، وفوق جبل غلبواع كانت ترفرف روح الملك شاؤول، وفي جدول كيشون غاصت مركبات سيسرا. وكانت موديعين وبيتار ومساده اماكن تؤمها الشبيبة وأعضاء «الهاغاناه» لاحياء ذكرى بطولة المكابيين والغيورين ورجال باركوخفا.

وشيئا فشيئا بدأت الحركة تخلق تراثا خاصا بها. وشكلت اسطورة «هاشومير»

1217 [الحارس] المدماك الاول في هذا التراث. وأدى مؤلَّف «يزكور» المخصص لاحياء ذكرى شهداء الحراسة والعمل العبري، رسالة مهمة في المنفى اليهودي. وأضيف اليه سنة ١٩٣٦ مجلد «هاشومير» وقصص اخرى عن الحرس.

وألهبت قصة الكتائب العبرية ايضا خيال الكثيرين. لكن حقيقة ان الكتائب عملت في المحصلة ضمن اطار اجنبي، وأن كتيبة ارض ــ اسرائيل لم يتسن لها الاشتراك في احتلال البلد واراقة دمها من اجل تحريره، قللت من تأثير هذه القصة.

وتحول يوم تل حاي، ١٩٢٠/٢/٢٩، الى يوم لاحياء ذكرى البطولة العبرية في ارض ــ اسرائيل. وأصبح «يزكور» لـ ب. كاتسنلسون (انظر المجلد الاول، ص 583)، ويوميات ي. ترومبيلدور، وأغاني تل حاي، ذخرا مشتركا للحركة الصهيونية بكل اجنحتها. وأُرسي في تل حاي المبدأ الذي ساد الحركة حتى ايام حرب الاستقلال، انه لن يتخلى عن نقطة يهودية من دون معركة دفاع الى اقصى حدود المستطاع.

وساهمت أحداث آب/اغسطس ١٩٢٩، بدورها ايضا، في خلق تراث «الهاغاناه». فهناك من ناحية، مذبحتا الخليل وصفد، ومن ناحية اخرى صمود كل من خولده وبئير طوفيا. وتناقلت الالسن بعض اعمال البطولة، وبات كثيرون مقتنعين بضرورة قيام منظمة «دفاعية» دائمة مهمتها الاعداد لوقت الضيق.

إلا انه على الرغم من ذلك استوحت الحركة حتى أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ إلهامها الاساسي من المنفى. ففي سنة ١٩٣٢ نظم مركز «الهاغاناه» معرضا متنقلا عن «بطولة يسرائيل»، انتقل من كتلة [مستعمرات] الى اخرى ومن مستعمرة الى اخرى. وكان منظم المعرض ابن [مستعمرة] ناعان، موشيه برسلافسكي (برسلافي)، الذي قدم الى البلد وهو لا يزال يافعا وتثقف فيه، ومع ذلك غلبت على المعرض الموضوعات المستمدة من المنفى. وكان الدافع الرئيسي وراء اقامة المعرض هو غرس الوعي لدى جيل «الهاغاناه» في البلد بأنه ينبغي عدم السماح بأن تتكرر المذابح الوحشية التي حدثت بالمنفى في ارض ــ اسرائيل.

ومع أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ اضيف مدماك جديد الى التراث. واحتلت «الهاغاناه» المكان المركزي في حياة الييشوف، ولم يبق رجل او امرأة إلا وعقد او عقدت صلة، عن هذه الطريق او تلك، مباشرة او مداورة، بنشاطاتها. وذاق كل تجمع يهودي طعم الاحداث، وشاركت جماهير واسعة في نشاطات الحراسة والدفاع الروتينية، وهجرات الاحتلال الكثيرة. وأضيفت الى تراث الماضي، من دون ان تنسى ذكره، اسطورة طيرات تسفي وحانيتا، وأساطير «هنوديدت» [القوة الجوالة]، و«بلوغوت هسديه» [سرايا الميدان]، و«بلوغوت هئيش» (سرايا النار) [الوحدات الليلية الخاصة او وحدات الكوماندو الليلي] التي شكلها وينغيت.

وأتت الحرب العالمية الثانية ومعها الكارثة النازية. ان الكارثة كانت، وستبقى، حسرة

كاوية في فؤاد كل انسان يهودي. وانهارت الاوهام التي ترعرعت في وسط الامة منذ عهد الثورة الفرنسية بشأن حياة آمنة في المنفى. ومع ان النضال، الحافل بخيبات الامل وحتى المهانات، من اجل حق المتطوعين اليهود من ارض ـ اسرائيل في محاربة النازيين، انتهى في الختام بتعويض ما باقامة الفرقة اليهودية، إلا انها تركت هي ايضا مذاقا مرا. ولم تستطع ملاحم مقاتلي الغيتوات وسيرة المظليين ـ مع كل البطولة اليائسة التي ارتبطت بها ـ ان تبعث العزاء في النفوس. ومن هنا المرارة التي رافقت الصراع ضد الانكليز في سنتي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩.

وفي تلك الفترة أُرسي المدماك الاخير: الهجرة غير الشرعية والكفاح المسلح. وتحولت كل عملية الى معلم طريق ومصدر تشجيع، والشهداء الى شخصيات رمزية لأبطال سقطوا على مذبح وطنهم.

وعشية حرب الاستقلال كان قد اصبح لـ «الهاغاناه» تراث تاريخي مبلور، هيأ عشرات الآلاف من الاشخاص لتقبل نير الحرب، لا بحكم اطار عام إلزامي نشأ في اثناء الحرب بالذات فحسب، وانما ايضا بفعل احساس بالواجب القومي، مصدره التثقيف والجو العام والتراث السائد في وسط الييشوف.

ان واجب المشاركة الشخصية في الدفاع عن البلد والييشوف، والوعي انه يجب عدم التراجع او الخضوع، وأن كل تراجع او خضوع نهايته الفناء والدمار، نفذ الى سويداء القلوب. وفقدت الاعتبارات المبنية على الحسابات وعلى ما بدا ظاهريا انه منطقي، والتي كانت تطرح بين حين وآخر من قبل دوائر معتدلة، قيمتها. كما فسح هذا المناخ المجال لحدوث اعمال غير مدروسة، لا لزوم لها وخطرة، اقدمت عليها احيانا المنظمتان المنشقتان عن «الهاغاناه»، اللتان كانتا تفقدان احيانا كل احساس بالواقعية وكان بين صفوفهما من تصرفوا كدون كيشوتيين يصارعون طواحين الهواء. وتكمن اهمية منظمة «الهاغاناه» ايضا في انها عرفت كيف تحافظ، في هذا المناخ، على المدى المطلوب من الواقعية.

1218

رجل «الهاغاناه»

لقد كان العضو «العادي» في «الهاغاناه»، قبل كل شيء، ابن الييشوف اليهودي، وكانت صفات كثيرة فيه هي الصفات نفسها المميزة لانسان الييشوف العادي في تلك السنوات. وكان الييشوف اليهودي آنذاك اكثر تجانسا مما هو الآن. واذا استثنينا شريحة معينة من الييشوف القديم، انغلقت على ذاتها في مناطق معينة في القدس والمدينتين المقدستين صفد وطبريا، واستثنينا قسما من ابناء الطوائف الشرقية لم يكن قد اندمج بعد في الييشوف بمجمله (وينبغي لنا ان نذكر ان نسبة اليهود الاشكنازيين في الييشوف بلغت، في تلك السنوات، ٧٧٪)، فان اغلبية الييشوف كانت متحدرة من شرق اوروبا ووسطها، ومرت في بوتقة

الحركة الصهيونية بصورتها السياسية ــ الاجتماعية كما تشكلت في تلك البلاد. وعلى الرغم من الخلافات في الرأي بشأن أمور الدين والمجتمع، فانه كانت تجمع الكل لغة مشتركة. وقد اقاموا المشروع الاستيطاني في البلد بأشكاله المختلفة، وأرسوا مشروع التربية العبرية الذي لقن خريجيه لغة واحدة وقيما قومية مشتركة، وكان يربط الجميع هدف نهائي واحد.

وقد شكلت الشبيبة نسبة عالية جدا في الييشوف اليهودي، وأضفى ذلك دينامية على طرائق تفكير الييشوف ونشاطاته. كما امتلك قيما اساسية كافح من اجلها: العمل العبري، واللغة العبرية، والهجرة غير المقيدة. وأصبحت اللغة العبرية لغة الحياة اليومية على الرغم من منافسة اللغات الرسمية الاخرى ولغات المنفى. وساد العمل العبري بصورة حاسمة في المدن والصناعة ومستعمرات العمال، وحقق انتصارات كبيرة في معظم الموشافوت. وفي شأن مسألة الهجرة، كان جميع ابناء الييشوف متحدين فيما يتعلق بالاعتراف بحق اليهودي في الهجرة الى ارضه بجميع الوسائل. واحتل الدفاع مكانة مرموقة بين جميع هذه القيم.

وقد تقبل ابن الييشوف واجب الدفاع والحراسة كأمر مسلم به. وكرس عشرات الآلاف من الاشخاص في المدينة والقرية، بروحية طيبة وعالية، ساعات وأياما للتدريب والحراسة. وخسر العمال ايام عمل، وترك اصحاب الاعمال الحرة اشغالهم الخاصة من اجل «الهاغاناه». وكان التطوع اساس الحركة. وعندما اتسعت المهمة وأصبحت اكثر تعقيدا، نشأت ضرورة لأن يكرس اشخاص كل وقتهم للعمل في «الهاغاناه» ويتلقوا أجرا على ذلك. ولم يكن هذا الانتقال سهلا، وحتى عند حدوث ذلك تم جزء كبير من العمل على اساس تطوعي، او تم انخراط الاشخاص في نظام الحراسة الرسمي وتلقوا رواتبهم او جزءا منها من الحكومة.

ولم ينبع الانضباط في «الهاغاناه» من الخوف من القائد او المنظمة، وانما من ادراك داخلي لضرورته. وكانت العلاقات بين اصحاب الرتب المختلفة ودية ورفاقية، ولم يعلق اصحاب الرتب ــ حتى حرب الاستقلال ــ شارات خارجية تدل على رتبهم (كان ذلك، طبعا، ايضا حتميا بسبب مقتضيات السرية).

ان سياسة «الهاغاناه»، القاضية باستخدام كل اطار شرعي ممكن ــ الشرطة والحراسة والخدمة العسكرية ــ لزيادة القوة الدفاعية للييشوف وتنمية الخبرة الحرفية ــ العسكرية لاعضائها، ادت في كثير من الاحيان الى زج اعضائها، الذين خدموا بموافقتها وبايعاز منها في هذه الوحدات، في حالات من «الولاء المزدوج». وكان موقف «الهاغاناه» في مثل هذه الحالات واضحا: «في كل حالة ينشأ فيها تناقض بين القيادة الرسمية، التي مصدر صلاحيتها هو الحكم غير اليهودي، وبين المصلحة اليهودية والقيادة اليهودية» ــ قال يسرائيل غاليلي في احدى محاضراته امام قادة «الهاغاناه» ــ «يكون للقَسَم الذي أداه الشخص العامل في الجيش او الشرطة او الحرس امام القيادة اليهودية العليا افضلية على القسم الآخر ويحله من اية عهود اخرى». 1219

وقد كان تأثير الحركة العمالية عامة والحركة الكيبوتسية خاصة على اعضاء «الهاغاناه» كبيرا، وحتى على اولئك الذين لم ينتموا اليها رسميا. وكانت الحركة التصحيحية [حركة جابوتنسكي]، بكل زخمها الايديولوجي والعاطفي، قد خرجت من «الهاغاناه» في بداية الثلاثينات. وكانت الاوساط المدنية الاخرى ضحلة من الناحية الايديولوجية. واذا كان لديها ما تقوله في المجال السياسي والاقتصادي، فان صورتها في «الهاغاناه» كانت على الاغلب باهتة جدا حقا. أما الاوساط الدينية فانها بمقدار ما شاركت في «الهاغاناه»، لم يكن مفهومها الاجتماعي مختلفا عن مفهوم الحركة العمالية، وقد اتى كثيرون من أفرادها من حركة «هابوعيل همزراحي» او كانوا قريبين منها. وكانت المشكلات التي تطلبت حلا احيانا، هي فقط المشكلات النابعة من مراعاة الشرائع الدينية في ظروف الحراسة والدفاع.

وكان رجل «الهاغاناه» بصورة عامة من الذين يكفيهم القليل، وكانت الزمالة مع اخوته في السلاح تتأتى له بصورة طبيعية، ولم يكن الانتقال من ظروف السكن في البيت الى ظروف السكن في مواضع الحراسة صعبة عليه، وكان يلتقي في كل مكان اشخاصا قريبين منه ويجد معهم لغة مشتركة.

وباستثناء وجود البلماح كلواء مجند بأمرة هيئة الاركان العامة، لم تتجاوز «الهاغاناه» ـ في اغلبيتها الساحقة ـ مستوى الميليشيات المحلية والميليشيات التابعة لمجموعات مستعمرات، اذ لم يكن لدى هذه الميليشيات سوى مخازن اسلحة خاصة بها.

وقد اثر طابع «الهاغاناه» الميليشيائي على صورة اعضائها. اذ عرف رجل «الهاغاناه» انه بأدائه مهمة الحراسة انما يدافع بصورة مباشرة عن أفراد عائلته، زوجته وأبنائه وأصدقائه. ولم يكن ممكنا ان تخطر بباله فكرة الانسحاب او التخلي عن المواقع، وحمل هذه الخصلة معه عندما ارسل الى اماكن بعيدة عن مكان سكنه الدائم.

وكان عشرات الآلاف من اعضاء «الهاغاناه» يكنون لها ولاء نموذجيا. فلم يكن هناك خونة او جواسيس. واذا وجد قلائل من هؤلاء فقد كانوا من صغار النفوس. وكانت معلومات السلطات عما يجري في «الهاغاناه» قليلة وغير دقيقة. ويبدو انها بالغت كثيرا في تقدير قوة المنظمة، وعدد رجالها، ومستوى تدريبها، وكميات السلاح الذي كان في حيازتها.

وكانت خصال رجل «الهاغاناه» هي: التواضع، والاخلاص، والمحافظة على السر، وروحية التطوع، والجرأة، والاستعداد، والانضباط الصادر عن الوعي.

تأثير فترة النضال على الاعضاء العاديين

على الرغم من ان «الهاغاناه» كانت منظمة غير شرعية منذ أيامها الاولى، فان الحكم البريطاني لم يعتبرها ـ بصورة دائمة ـ منظمة معادية حتى صدور «الكتاب الابيض» سنة

١٩٣٩. ومنذ تلك اللحظة فصاعدا بدأت فترة الملاحقات، التي اتخذت أشكالا مختلفة في اوقات مختلفة، وأصبح السجن لفترات قصيرة وطويلة من نصيب الكثيرين. ان اعمال العنف والقسوة التي مارسها البريطانيون ضد الناجين من بطش النازية، الذين فروا من اوروبا وسعوا للقدوم الى البلد، زادت في مشاعر المقاومة والكره للبريطانيين، الذين تحولوا في نظر البيشوف من حلفاء الى محتلين اجانب ومعادين.

ومع تجدد الصراع بين البيشوف والبريطانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأ اعضاء «الهاغاناه» من الالوية المختلفة، رجال البلماح، ورجال الصناعة الحربية ومشتريات السلاح، وآخرون، يصلون الى المحاكم والسجون ومعسكرات الاعتقال التابعة لحكومة الانتداب بأعداد متزايدة. وعندما اشتدت حدة الصراع، توصلت «الهاغاناه» الى الادراك العام ان «الخصم لا يستطيع ان يكون قاضيا بالنسبة الى من يخوض الحرب ضده — ان القوانين، وحتى قوانين الطوارىء، ليست إلا مهزلة، يعرف جيدا كل مشارك فيها قيمتها وجوهرها. وبنود الاتهام ليست سوى ورقة تين فوق أكداس الحقيقة، التي تنقض كل قانون وكل حكم» («البلماح»).

1220

«ان كل من يقع في قبضتهم اسير وليس سجينا» (المصدر نفسه). «على كل من يجرى التحقيق معه ان يصمت لأنه، اضافة الى المنطق الخاص الذي يستدعي الصمت (الكلام يورط فقط ولا يخفف)، هناك ايضا المنطق القومي: عدم الاعتراف بحق الحاكم في إجراء التحقيق» (المصدر نفسه).

وللمرة الاولى أتيح لأسرى «الهاغاناه» ان يمثلوا امام المحاكم ليس وراء قناع الذرائع والتهربات، وانما «بمظهر المحاربين والمدافعين، الذين لا يعترفون بحق اي كان في محاكمتهم على خطيئة كونهم عبريين مرفوعي الرؤوس في بلدهم» («البلماح»).

وقد توجب على هذا الجيل الجديد من الاسرى ان يتكيف مع ظروف الحياة الاستثنائية ويدرسها. وقد حُذر الاعضاء «من التذمر من وجودهم في الأسر — وأيضا من المبالغة في اهميته، تلك المبالغة المتمثلة في الرغبة في جعل هذا الامر يحتل مكان الصدارة في الحرب» («البلماح»). «ان اعضاءنا» — ورد في نشرة البلماح — «يعتبرون وجودهم في الأسر أداة لمهمة، واستمرار لحياتهم كمجندين».

1221

وقد التقى اسرى «الهاغاناه»، في السجون ومعسكرات الاعتقال، اسرى الايتسل وليحي، ونجم تخوف من ان يؤدي وجودهم معا في سجن واحد وظروف الاعتقال المتشابهة، الى طمس المعالم بين الطرفين. «ثمة ضرورة لابراز المعركة الفكرية في اثناء حياة الاسر المشتركة» — ذكرت نشرة البلماح. لكن الاتصال الدائم بين المعتقلين وبين البيشوف اليهودي و «الهاغاناه» استمر بطرائق مختلفة ايضا عبر جدران السجون، وحال دون انحراف المعتقلين الى سبل المنشقين.

وكان تأثير عمليات المنشقين على الاعضاء العاديين كبيرا، وخصوصا في العام الاخير

من الصراع مع البريطانيين. ولم يوافق عدد كبير من خيرة الاعضاء على تقليص الصراع بعد «السبت الاسود». وكان ما حال دون انسحاب كثيرين من الاعضاء من صفوف «الهاغاناه»، هو التثقيف الممتد على أعوام عديدة والاطار التنظيمي المحكم فقط. وقد عُزز الجهد الاعلامي في تلك الفترة. والى جانب الكراريس الاعلامية المطبوعة، كان هناك إعلام شخصي وشفهي.

«من حين الى آخر» ــ كتب رئيس القيادة القطرية لـ «الهاغاناه» يسرائيل غاليلي في توجيه لطاقم القيادة ــ «يجب إجراء محادثة شخصية مع اعضاء مشوشين فكريا. ولا تتطابق دائما موهبة القيادة مع موهبة الاقناع الفكري لدى العضو، وقد يحدث ان يكون قائد الوحدة المباشر غير أهل لاجراء حديث وتقديم ايضاح للشخص المحتاج الى ايضاح وجواب». وبناء عليه جند في كل منطقة «اعضاء ملائمون لاجراء احاديث رفاقية اعلامية وتثقيفية» وأرسلوا لمقابلة «المشوشين فكريا».

لكن المخرج من «التشويش» اتى مع حرب الاستقلال؛ فهي التي وضعت الييشوف وجها لوجه امام عدو جديد، كان النهج السياسي والتكتي للمنشقين ازاءه عاجزا وضارا، وفتحت اعين هؤلاء الاعضاء وأعادت اليهم ثقتهم بصواب النهج التاريخي لـ «الهاغاناه».

«الهاغاناه» والجيل الشاب

لم تكن «الهاغاناه» في بداية نشوئها، في العشرينات، تشتمل على اطر خاصة لاستيعاب الشباب وتدريبهم. فقد اعتبر «الدفاع» آنذاك شأنا بالغ الجد، والكبار من سن ١٨ ــ ٢٠ فما فوق هم الجديرون فقط بشغل انفسهم بممارسته. وقد ألحق فتية نشيطون، هنا وهناك، بنشاطات الاشخاص الموكلة اليهم شؤون الدفاع، من دون ان يتفحص هؤلاء شهادات ميلادهم. لكن هؤلاء كانوا من الشواذ.

وتشكلت في العشرينات مجموعات «ضباط الارتباط» الأولى في تل ابيب (اسم التحبب الذي اطلق عليهم هنا كان «بوبسيكيم»)، وفي حيفا (انظر المجلد الثاني، ص 271). وبعد أحداث آب/اغسطس ١٩٢٩، وسع الاطار وأنشئت وحدات للشباب في جميع مدن البلد (انظر المجلد الثاني، الفصل ٣١، ص 556 و 564 و 571).

ولم يتم في التجمعات القروية ومناطق الاستيطان العمالي حتى أحداث سنة ١٩٣٦، اي عناية منظمة بالشباب، اذا استثنينا كفار غلعادي، حيث حوفظ على تقليد «هاشومير» الذي كان الفتى بموجبه يتلقى مسدسا هدية بمناسبة احتفال بارمتسفاه [بلوغه سن الثالثة عشرة وممارسته الشعائر الدينية]. وقد عارض زعماء القوم، في اماكن كثيرة، مشاركة الشباب في تدريبات «الهاغاناه». «في سنوات ١٩٣٢ ــ ١٩٣٤» روى ى غيورا (غورا) شينانسكي، من عيمك هايردين ــ «توجهت بطلب الى المدرسة المشتركة في عيمك هايردين لتنظيم الفتيان

الكبار في المدرسة من اجل التدريب، لكن لم يوافق على ذلك بسبب معارضة المعلمين وقسم من المزارعين، بحجة التخوف من العسكرية الفاسدة. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٣٨، في ذروة الاحداث الدامية، عارض اعضاء لجنة التربية في دغانيا (أ) نشاطات «الهاغاناه» في المدارس للسبب نفسه. وفي غوش حارود تقرر «تأجيل الانضمام الى صفوف [الهاغاناه] الى ما بعد انتهاء الدراسة» (يسرائيل بن ـ إلياهو). وقد اقامت قيادة كتلة المستعمرات معسكرا على مستوى الكتلة لخريجي المدرسة، جرى فيه تدريب الفتية لمدة تتراوح بين اربعة وخمسة اسابيع على مهمات ميدانية، وعلى معرفة البلد وطوبوغرافيته، وعلى «الاسلحة الخفيفة». وكان الفتى ينضم الى صفوف [الهاغاناه] بعد المعسكر» (المصدر المذكور اعلاه). 1222

أما في نهلال فقد حلت المشكلة من دون اية نقاشات خاصة. «لقد ربط الفتية بالعمل الدفاعي بصورة طبيعية جدا» ـ روى قائد كتلة [المستعمرات] عمانوئيل ماركوفسكي (مور) ـ «وشكلت نهلال المصدر الرئيسي للقوى الفتية في المرج حتى سنة ١٩٣٦، وكان الصبية فيها فتية كبارا، خلافا لباقي المستعمرات التي كان الصبية فيها أولادا صغارا. وكان هؤلاء الشبان سندا مهما للكتلة، وكان يكفي ان اصفر لهم او اصدر اية اشارة اخرى ليجيئوا مسرورين، مستعدين وجاهزين للقيام بأي عمل يطلب منهم. وكانت المشكلة تكمن في كيفية كبحهم، لأن حيوية الشباب كانت تغلي فيهم وارادة العمل قوية ومنفلتة من عقالها».

وفي الاربعينات، حدث انقلاب كامل في نهج «الهاغاناه» ازاء العناية بالشباب. كما حدثت تغييرات مهمة في الرأي العام وفي وجهات نظر المربين ازاء تدريب الشباب فيما يتعلق بشؤون الامن والدفاع. فقد فعل درس سنوات الأحداث فعله، وبرهن تسلم الفاشية سدة الحكم في اوروبا على ان نهاية افكار العدل والحرية وغيرهما، التي لا تساندها القوة، هي الهزيمة والدمار. وقد جرى التعبير عن هذا التحول في الرأي العام في مقالة يتسحاق تبنكين «المدرسة والحرب»، التي نشرت في مجلة «مبفنيم»، الناطقة بلسان «الكيبوتس الموحد» في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٢ (انظر ص 317).

وقد انشئت في هذه السنوات الاطر الخاصة باستيعاب الشبيبة: منظمات التربية البدنية الشرعية، والغادناع غير الشرعية (انظر الفصل الثامن عشر). وقد ادت ضرورة خوض الصراع ضد المنظمتين المنشقتين من اجل كسب الشبيبة، الى زيادة الجهد وتعميقه. وقامت حركات الشبيبة بدور فائق الاهمية في مد جسر بين الشبيبة و«الهاغاناه»، كما بُذلت جهود استثنائية لاستيعاب الشبيبة غير الحزبية وشبيبة الاحياء الفقيرة في المدن. وشكل واجب الخدمة الوطنية (الفصل الثالث والثلاثون) ايضا وسيلة مهمة لتوجيه الشبيبة الاكثر رشدا الى «الهاغاناه». وأعطى كل نشاط من هذا القبيل ثمرة مفيدة بجلبه الى صفوف المنظمة مقاتلين متفانين ومخلصين ومتحمسين. وقد برز خريجو وحدات الغادناع في صفوف سلاح المدرعات والبلماح، وساهموا بدورهم في الكادر القيادي.

وبالنسبة الى الشبيبة التي نمت في تلك السنوات في ارض ـ اسرائيل، كانت الخدمة في

«كتائب الشبيبة»، والمشاركة في نشاطات «الهاغاناه» وفي النضال، بصفتهم حراسا ومرسلي اشارة وضباط ارتباط وما شابه، التجربة الاعظم التي مروا بها في حياتهم. ويصور عمانوئيل مرغليت، ابن تل ابيب، الذي انضم الى الغادناع في سن السادسة عشرة وسقط بعد ذلك بثلاثة أعوام في معارك ابو كبير (١٩٤٨)، القَسَم الذي أداه لمنظمته في غابة هيرتسل في بن شيمن، على النحو التالي:

«بعد حلول الظلام، توجهنا الى مكان إجراء الطقس داخل غابة هيرتسل. والى جانب قبر الحارسَيْن، الذي كان مغطى بالاعلام الزرق ــ البيض ومحاطا بالمشاعل، انتصبت وحدة حرس مشكلة من ستة شبان، ثلاثة من كل جانب وبنادقهم في أيديهم ــ وانتظمنا في مربع مواجه للقبر. وبعد ان جاءت القيادة، وبعد شرح قصير، تلي القسم ورددناه كلمة كلمة... «أُقسم ان اكون مخلصا للمنظمة... حتى مماتي... وأن اكون مستعدا لكل خدمة فعلية في اي وقت أُدعى الى ذلك»... وكانت تلك لحظة لن انساها: الغابة الموحشة، وفي مواجهتك قمر باهت يظهر احيانا وتحجبه الغيوم الداكنة احيانا اخرى، وأمامك ستة شبان، يختفون احيانا وراء لهب المشاعل، وبنادقهم في ايديهم. وملأني المشهد ذو الروعة والجلال، في تلك اللحظة، باحساس عظيم: في لحظة ترديد القسم، شعرت بأنني مفعم بالقوة والعزيمة، ومستعد لأداء كل ما يطلب مني حتى آخر يوم في حياتي»...

1223

الانثى العضو في «الهاغاناه»

منذ ايام بيلو*، وقفت المرأة جنبا الى جنب مع الرجل في الصفوف الاولى لمعسكر الطلائعيين العبريين. لكن توجب عليها، بصورة خاصة، ان تقتحم مكانها في الحراسة والدفاع بنفسها. فالوضع العام للمرأة في الشرق لم يكن مريحا لظهورها بصورة مقاتلة ضد الرجال. ولم تشرك «هاشومير» الاناث من اعضائها في الحراسة. ولا شك في ان نهج «هاشومير» قام بدور رئيسي في هذا المسلك، اذ كان خاضعا لمقتضيات واقع تلك الفترة، فلاءمت «هاشومير» اساليب عملها ومظهرها الجماهيري مع العادات المألوفة لدى الجيران العرب الذين اعتبروا ظهور المرأة كمقاتلة أمرا شاذا.

وقد كان هناك، في فترة الكتائب العبرية، اناث من الاعضاء ناشطات في حركة التطوع لكتيبة ارض ــ اسرائيل، وبحثن حتى عن سبل للانضمام الى الجيش في وحدات «الصليب الاحمر» وما شابه، لكن لم يستجب لطلبهن. وفي ايام تل حاي (١٩٢٠) شاركت

* بيلو: الاحرف الاولى للشعار بالعبرية الذي استمدت منه منظمة الشبيبة اليهودية الروسية التي هاجرت الى فلسطين سنة ١٨٨٢ اسمها، والذي يعني: «لننهض ونذهب اليك يا بيت يعقوب [فلسطين]». (المترجم)

الاناث من الاعضاء في الدفاع عن النقاط المحاصرة في الجليل الاعلى، وسقطت اثنتان منهن ـ ساره تشيجيك وديفوراه دركلر ـ في ١٩٢٠/٢/٢٩.

ولدى انشاء منظمة «الهاغاناه» انضمت شراذم من الاناث الى صفوفها، لكن لم توكل اليهن مهمات محددة. وقد تدربن على استخدام المسدسات (كان التدرب على استخدام المسدسات يتم لغرض الدفاع عن النفس في اوقات الضرورة)، وعلى الاسعاف الاولي. وعهد اليهن بنقل السلاح من مكان الى آخر، على افتراض ان الشرطة لن تقدم على تفتيش متاع المرأة. وقد طمحت الاناث من الاعضاء منذ بداية نشأة المنظمة، الى أداء مهمات متكافئة مع مهمات الشبان، واصطدمن احيانا كثيرة بنظرة استخفاف وعدم ثقة وعدم تفهم من جانب اعضاء كثيرين في «الصفوف» والقيادة.

وفي أحداث سنة ١٩٢٩، شاركت الاناث من الاعضاء في الحراسة في المواقع. وقد اورد قائد مدينة تل ابيب، أبراهام ايكار، في مذكراته ان «التجربة اثبتت انه ساد الموقع الذي كانت توجد فيه انثى عضو جو لطيف ومنزلي، وروح رفاقية حسنة. وأدى الاعضاء مهماتهم بصورة كاملة، وتناولوا الطعام في الوقت المحدد، واستحموا وقرأوا كتابا وتحادثوا، ولم يلحقوا بأنفسهم رجسا بلعب الورق وسرد النكات».

ومع نمو «الهاغاناه»، في بداية الثلاثينات، احتلت الانثى العضو مكانا محترما في الخدمات المختلفة، وخصوصا في الخدمات الطبية وخدمات الاتصال والاشارة. وكانت عضوية نساء الكيبوتس والموشاف العمالي في «الهاغاناه» تلقائية تقريبا. كما كانت هناك مئات الاناث من الاعضاء المتطوعات من نساء المدن والموشافات في المنظمة، وأصبحت هناك حتى وحدات خاصة بالاناث من الاعضاء.

وقد أثار مدى مشاركة الانثى العضو نقاشا حادا حين نشبت أحداث سنة ١٩٣٦، عندما اصبحت الحراسة والوجود في المواقع، وفيما بعد الخروج الى ما وراء السياج، الخبز اليومي للاعضاء في المنظمة. وبرزت هذه المشكلة بصور متباينة في اماكن مختلفة. ففي المدينة والموشافاه كان الامر على الاغلب شأنا فرديا لهذه الانثى العضو او تلك، التي اصرت على حقها، والتي بمقدار ما أصرت استجيب لطلبها. أما في الموشاف [المستعمرة التعاونية] والكيبوتس، فقد كانت المناقشات والحوار اكثر شمولا. ونوقشت المسألة فيها ايضا من الناحية المبدئية، من خلال إصرار الاناث من الاعضاء بشدة على حقهن في المشاركة الكاملة في الدفاع عن النقطة، وحدثت حالات حرمن فيها هذا الحق الى حد إبعادهن بالقوة عن المواقع والاماكن الخطرة.

«أليس لنا الحق في حراسة النقطة التي نعيش فيها؟» ـ كتبت ايماما ليفن من مشمار هعيمك ـ «هل نحن حقا شيء ثمين يجب حمايته، او ربما نشبه الاولاد الغِضاض المحتاجين الى سواعد الرجال؟ من ثنايا ضغط الظروف وحرارة اللحظة ينبثق مطلب ملح، هو حقنا في المشاركة في الحرب بالنار، حق الحراسة والدفاع».

«لم ننطلق في بداية دربنا كنساء محميات» ـ كتبت ايفا تبنكين من عين حارود ـ «لا في هومل ولا في وارسو ولا في نقاطنا الاولى في البلد، ولا يمكن التصور ان اولادنا، الذين تربوا على العمل والمسؤولية القائمين على المساواة وانضموا لدى خروجهم من المدرسة الى معسكر البالغين وأوكلت اليهم مهمة الحراسة المنطوية على مسؤولية، سيفرزون فجأة الى معسكرين: المدافعين والمدافَع عنهن. ــ يجب ان نفرز بحسب القوة الجسدية والروحية لا بحسب الجنس، وأن نعد ونثقف بناتنا وأعضاءنا من الشابات في البلد والخارج للدفاع عن انفسهن وعن اولادهن».

«لا أوافق ولن اقبل ان يجازف الآخرون في حياتهم من اجلي» ـ قالت غيئولا شرتوك من غفعات برينر ـ «لا أوافق ولن اسمح ــ بأن يدوس شخص ما محبتي لوطني ويسد امامي الطريق الى تلك القطعة من الارض، التي يربط بنو الانسان مصيرهم بها للحياة او الموت».

«سبق خروجي الى الحراسة» ـ كتبت حاسيا من كفار يحزقئيل ـ «نقاشات عامة وعائلية، ولم يغب ايضا الاستهزاء الظاهر والخفي».

وفي مقابل الاعضاء والقادة في «الهاغاناه»، الذين عارضوا الخدمة الفعلية للاناث من الاعضاء في المنظمة، مستندين في الاساس الى ما هو مقبول حتى ذلك الوقت في العالم ولدى الجمهور، كان هناك من وقف الى جانبهن. كتب مردخاي حداش، من طبريا، عضو لجنة الامن التابعة للكيبوتس الموحد، الى الاناث من الاعضاء المناضلات من اجل حقهن في عين حارود: «ليس هناك ما هو اخطر من ان تعتاد الانثى العضو على هذا المصير وتسلم به، لانها اذا فعلت ذلك فلن تقبل بذهاب ابنها لمواجهة الخطر، انها ستحميه بكل القوى وكل الوسائل التي تمتلكها الام المحبة، وتجره وراءها غريزيا الى الارض». وفي نهاية رسالته كتب م. حداش:

«ثلاثة امور ستحدث الانقلاب في وضع الانثى العضو في «الهاغاناه»: إصرار الاناث من الاعضاء، واستعداد الاعضاء لتدريب زميلاتهم، والمشاركة الفورية للاناث من الاعضاء في الحراسة».

وفي ١٩٣٦/٧/١، قررت الجمعية العامة لأعضاء كيبوتس عين حارود «إلزام لجنة الحراسة باشراك الاناث من الاعضاء في الحراسة والمواقع»، وأُلحقت انثى واحدة من الاعضاء بلجنة الحراسة التابعة للكيبوتس. وأصبحت مشاركة الاناث من الاعضاء حقيقة واقعة في معظم المستعمرات في البلد. وعقدت في صيف سنة ١٩٣٧، في غفات، دورة مركزية اولى للمدربات وقائدات المواقع تحت امرة يوسف روخيل (افيدار). وتدربت الاناث من الاعضاء، في هذه الدورة، على استخدام البندقية والرشيش والمسدس والقنبلة اليدوية، بتدريبات ميدانية (اشتهرت هذه الدورة في المنظمة باسم التحبب الممزوج بقليل من السخرية: «كورساه»). وقد شاركت نيسياه غولوفوف (برينر)، من معوز حاييم، في احدى الدورات المعدة لتخريج قادة جماعات في سرايا الميدان، والتي عقدت في حانيتا صيف سنة

١٩٣٨ (انظر المجلد الثاني، ص 879)، وتخرجت قائدة جماعة في سرايا الميدان. وكان ذلك حقا حدثا فريدا في نوعه في اطار سرايا الميدان.

وبدت مسألة المشاركة انها قد حلت تماما، لكن اتضح في السنوات اللاحقة ان مسألة مكان ومهمة الاناث من الاعضاء كانت تثار كلما اخذت «الهاغاناه» على عاتقها عبء مهمة جديدة. وقد نبع النقاش الحاد الذي ثار في اوساط الجمهور العبري و«الهاغاناه»، بشأن تجنيد النساء في الجيش البريطاني، من التخوف من ألا تستوعب المجندات بصورة ملائمة في الاطار الاجنبي. وقد دحضت التجربة هذه التخوفات، وأدت النساء العبريات الخدمة بشرف في كل وحدات سلاح الخدمات البريطاني في الشرق الاوسط وخارجه، وتطوعت اناث في مجموعات المظليين التي ارسلت الى اوروبا سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤، وتوفيت اثنتان منهن، حانه سانش وحبيبه رايك، في اثناء أدائهما مهمتهما.

وثارت مشكلة مشاركة الاناث من الاعضاء مرة اخرى مع انشاء البلماح، الذي كانت توكل فيه احيانا الى اعضاء «الهاغاناه» الشبان مهمات اخطر ومهمات تتطلب قدرة جسدية اكبر كثيرا من المطلوب في العمليات السابقة لـ«الهاغاناه» (انظر اعلاه، الفصل ٢٣). وقد حلت المشكلة في البلماح، بصورة عامة، عن طريق السماح للاناث من الاعضاء بالقيام بالمهمات التي كن قادرات على اخذها على عاتقهن. وكان بينهن من احتللن مراكز مهمة في الخدمات العسكرية المختلفة (السكرتارية، والخدمات الطبية، والمستودعات)، ومن شاركن في الخدمة الفعلية وخرجن الى المعركة سوية مع زملائهن، كمجندات وكأفراد في الدوريات وكقائدات. وأنهت سبع منهن الدورة المركزية لقادة الفصائل. وقد سقطت قائدة الفصيل، براخا بولد، في «ليل وينغيت» بتل ابيب (انظر ص 876).

1225

وفي التظاهرات التي جرت في اثر نشر قانون الاراضي في ربيع سنة ١٩٤٠، والتي ادت الى مصادمات دامية مع الشرطة (انظر الفصل العاشر)، سارت الاناث من اعضاء «الهاغاناه»، بناء على أوامر من القيادة، في المقدمة، وتلقت أوائلهن مرات كثيرة لطمات رجال الشرطة البريطانيين في اثناء تفريق التظاهرات.

ومع التوسع المتزايد لـ«الهاغاناه» واضطلاعها بمهمات جديدة، اتضح انه لا بد من استغلال كل القوة البشرية الموجودة في تصرف الييشوف اليهودي. وكانت احدى الوسائل لذلك: التجنيد الواسع للنساء وتدريبهن على الخدمات العسكرية المختلفة. وقد ورد في المخطط الموضوع لـ«الهاغاناه» بتل ابيب، في سنة ١٩٤٣، انه «تقرر من حيث المبدأ ان تشكل الاناث من الاعضاء ثلث القوة الدفاعية في الموقع، وبذلك امكن تحرير قسم كبير من قوات «الهاغاناه» ــ الذكور ــ للالتحاق بسلاح المدرعات والبلماح» (نيوتا هالبرين).

وبمرور الوقت تحدد مكان الاناث من اعضاء المنظمة بصورة طبيعية. وفسح لهن مجال المشاركة في الخدمة الفعلية في الاطر الخاصة بذلك، وخصوصا في اطار البلماح. ومارست اكثرية الاناث من الاعضاء مهمات توافق قدرتهن الجسدية، وألحقن بالخدمات الطبية

ووحدات الاتصال والاحصاء وخدمات الاستخبارات والحراسة من دون سلاح، وبالعمل في الصناعة العسكرية والتسليحية. وأقيمت بين حين وآخر دورات خاصة للمدربات في مركز التدريب التابع للمنظمة في جعارة.

وقد حدد امر صدر عن هيئة الاركان العامة في ١٩٤٣/١٢/٢١، «بناء على التجارب التي تراكمت في السنوات الاخيرة»، مكان الانثى العضو في التنظيم وفقا للأصول التالية:

«**أ ــ من ناحية المهمة**: يجب أن تكلف الانثى العضو، بصورة عامة، مهمات قتالية تستطيع ان تظهر فيها فاعلية قصوى تتلاءم مع اهليتها وقدرتها الجسدية. ويكون ذلك، في الاساس، في الدفاع عن المواقع الموكل امره الى قوة الحراسة. وبالنسبة الى الوحدات التي يشكل القتال المتحرك اساس نشاطها القتالي، تناط بالاناث من الاعضاء مهمات مساعدة في الخدمات على اختلاف أنواعها، وأعمال في هيئة الاركان، وما شابه.

«**ب ــ من ناحية التدرب والتدريب**: برهنت التجربة على ان افضل الانجازات تم التوصل اليها في وحدات التدرب المنفصلة (الخاصة بالاناث من الاعضاء). فالفوارق في الاهلية والقدرة الجسدية تسببت، في الغالب، بـ«تنافس» بين الذكور والاناث من الاعضاء كانت نتيجته تدريبا زائدا عن اللزوم اوعجزا عن اللحاق بالعضو، وكلاهما نجم عنه إضرار بجسد الانثى العضو وقوتها. وفي المقابل، تم التوصل في التدريب المنفصل والموجه بما يتلاءم مع قدرة الانثى العضو، الى مستوى في الانجاز لا يقل في المتوسط عن مستوى العضو».

وبناء على هذه النتائج تحددت قواعد خاصة بتدريب المجندات والقائدات:

«المجندات: ١ ــ يجري التدريب الاولي للمجندات في مجموعات تدريب منفصلة، تجمع بينها وحدة ادارية خاصة، يعتمد حجمها على عدد الاناث من الاعضاء في مجال قيادي معين. ــــ ٢ ــ بعد فترة التدريب هذه واجتياز الامتحان المطلوب، توزع الاناث من الاعضاء على الوحدات التكتية النظامية (مختلطة) لأداء مهامهن المختلفة، وتنفذ المناورة التكتية والتدريب المتقدم بصورة مختلطة».

وفي المقابل، كان تدريب القائدات يتم في دورات مختلطة، «لكن» ــ حدد الامر ــ «ينبغي الاهتمام بأن تشكل الاناث من الاعضاء في اطار الدورة مجموعات تدريب منفصلة من اجل اتاحة توجيه تدريبهن وقيادتهن».

ان هذه التوجيهات والاوامر التي اتت، كالعادة، لتقر عرفا تقرر في اثر تجارب المنظمة في السنوات السابقة، حددت مكان الاناث من الاعضاء في المنظمة ومهماتهن. 1226

وقد كان احد التعبيرات عن المشاركة الكاملة الحقوق للانثى العضو في «الهاغاناه»، هو اشراك اناث من الاعضاء في عمل القيادة العليا لـ«الهاغاناه». فقد شاركت بات شيفع حايكينا من كيبوتس ياجور، منذ بداية الاربعينات، في القيادة القطرية لـ«الهاغاناه». وضمت شولاميت كليفنوف الى هيئة الاركان في تموز/يوليو ١٩٤٢ كـ«ضابطة ركن لشؤون الاناث

من الاعضاء». وكانت احيانا تعقد اجتماعات خاصة في المناطق لمناقشة وتوضيح مشكلات عامة وخاصة بوضع الاناث من الاعضاء في المنظمة. وعينت في كل مدينة وفي جميع الموشافوت الكبيرة قائدة مسؤولة ومدربة عامة وضابطة إعلام.

وقد بلغ عدد الاناث من اعضاء المنظمة عشية حرب الاستقلال ١٠,٠٠٠ عضو، شكلن خمس عدد الاعضاء تقريبا. وأعطى عمل المنظمة والتدريب في ايام السلم ثماره في ايام حرب الاستقلال. ففي المدن والطرقات والمستعمرات الزراعية في الجليل والنقب، كانت آلاف الاناث من الاعضاء يؤدين مهمات مختلفة وحيوية بشجاعة وذكاء. واستمر النضال من اجل حق المرأة في المشاركة، بصورة اكمل، في النضال والقتال ايضا في تلك الايام بالذات. لكن لم تكن هناك تقريبا اية جبهة او اي موقع خطر لم تشارك نساء «الهاغاناه» في القيادة المشرفة عليها او عليه.

وانتقل تقليد «الهاغاناه» هذا بأكمله الى وريثها: «جيش الدفاع الاسرائيلي»، الذي يشكل سلاح النساء جزءا عضويا من تركيبه. ان انشاء سلاح النساء وتنظيمه والروحية السائدة فيه، هي استمرار مباشر لمشاركة نساء الييشوف في منظمة «الهاغاناه» في الفترة السابقة لقيام الدولة.

صورة رجل «الهاغاناه»

تجمعت مادة كثيرة حول صورة رجل «الهاغاناه» في مئات الكتب المخصصة لاحياء ذكرى شهداء «الهاغاناه» وحرب الاستقلال، والتي صدرت في اثناء قيام «الهاغاناه» والفترة اللاحقة لذلك. وقد اشتملت هذه الكتب والكراريس على ذكريات وتقويمات كتبها الاعضاء، وعلى انطباعات ومقاطع من يوميات ورسائل، عكست العالم الداخلي لابن الجيل السابق لقيام الدولة، الذي سقط كثير من أفراده في سبيل اقامتها.

ان هذه المادة الغالية والقيمة، وهذا الموضوع المهم، يستحقان جهدا اكثر شمولا واكتمالا، وسنتطرق في كتابنا هذا الى النزر اليسير منهما فقط.

تحدثنا في المجلد السابق، في نهاية الفصل الرابع والثلاثين، عن الدوافع الروحية التي رسمت صورة رجل الدفاع في العشرينات وبداية الثلاثينات. وتصلب في بوتقة أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ اعضاء قدامى، وشبان وصبية سينضمون الى صفوف «الهاغاناه» في السنوات اللاحقة. كتب الشاعر موشيه تبنكين، من عين حارود، في الايام الاولى للأحداث:

مرتع صبا غريب جدا،
في وهج حقول تأكلها النيران ــ
جلال مريع، مغلف بالأسى،

يتوشحه سهل، غريب جاحد ــ ـ
مشلولي القبضة، جمدتنا المأساة،
نشخص صامتين الى ما يجري،
الى مشهد وطن يقسو
في وهج حقول تأكلها النيران.

1227 لقد ذاق آلاف الشبان في المواقع، وفي وحدات قوة الميدان ووحدات الكوماندو الليلي، وفي غابات الكرمل وحانيتا، طعم العمادة الاولى بالنار، وخرجوا منها أشد صلابة أضعافا مضاعفة.

«في الضوء الباهت نغير على الجبل». ــ كتب باروخ سفيتلمان، من ناعان، حول خدمته العسكرية في حانيتا ــ «امام صف من الاعضاء في وقفة استعداد، وأمام صف من البنادق المشرعة الى الاعلى، تنحت كلمات قليلة وتنقش في الذاكرة. الجميع يصغي، موقف لا ينسى يتسلل الى اعماق النفوس: الانسان ليس مجرد غبار، حتى في ومضة الموت، وحتى عندما تنغرس الرصاصات في الجسد ــ ليس غبارا، وسيقف الانسان العبري مرفوع الرأس امام القدر».

وأحدثت فترة الحرب العالمية، بكل ما رافقـهـا من أحداث، تغييرا جذريا في نفسية الشبيبة. كتب اساف كاتس، من ياجور، الى احدى الصديقات سنة ١٩٤٢:

«توصلت الى نتيجة صعبة وخطرة جدا، تقود المرء الى شفا هاوية سحيقة فاغرة فاها: الخزي لدعاة السلام في ايامنا. اننا يجب ان نثقف جيلنا على التسلح استعدادا للمعركة. ليست الفترة ولا الوقت ملائمين لمحبة الانسان، والجميع من حولنا يشحذون السكين ونحن كبش الفداء الابدي، التعيس في نظر العالم. نحن سلاح هتلر السري. ــ ـ واذا كان لنا في هذا البلد مثل اعلى، وهو الدولة العبرية، فينبغي لنا ان ننشىء صغارنا على السلاح منذ طفولتهم، على السلاح لا عـلـى محبة الانسان التي يمكن ان تقودنا الى الانهزامية. وعلى الرغم من الاسى الذي ينطوي عليه هذا الامر، فان الحقيقة تصفعنا على وجوهنا».

وارتبط الاتصال بالتاريخ العبري ومرأى البلد بتأثيرات ايام الحرب المخيفة: «نحن الآن هنا في اعلى القلعة» ــ كتب اساف كاتس عن زيارته جبل مساده في ايار/مايو ١٩٤٧ ــ «ثمانون شخصا، ندب كالنمل هنا وهناك. يملؤنا جميعا الانفعال من رهبة هذا المكان الموحش، اذ انه يشعرك بشيء من سحر القدماء عندما تطؤه قدماك؛ ذلك المكان الذي حارب دفاعا عنه قبل ١٨٠٠ عام اخوتنا بنو اسرائيل، الذين كانوا متعطشين الى الحرية والذين ازدروا الموت دفاعا عنها، ونرى انفسنا عمليا استمرارا لهم، ونمتلىء اعجابا واجلالا لكل صخرة ولكل اثر باق من السور الذي قاتل عنده اخوتنا دفاعا عن شرف شعبهم».

وكتب عاموس تسوريف، خريج «بني عكيفا»، من عين زيتيم في الجليل: «تتهامس الظلال في اودية جبال الجليل، التي عاش فيها يوحنان من غوش حلاف وباقي الابطال. ــ ـ

ويدخل في روع المرء كما لو ان هؤلاء الابطال يرتفعون ويطفون في ضباب الغروب، وعندما تفيض السماء الارجوانية بنور ضارب الى الحمرة يبدو الابطال متلفعين بأثوابهم الرائعة المشوبة بالحمرة، متقلدين سيوفا لامعة مطلية بذهب الغروب. . .».

وفي قصيدة يتسحاق بوحاس، من بيتح تكفا، «داوود في مواجهة جوليات»:

ها انت حقا، داوود الفتى، تبدو لنا
في عتمة الليل تملأ هادئا مرة اخرى جرابك،
ومرة اخرى تظهر بقوة ولا ترتعش يدك،
ومرة اخرى تدمر العالم، وينبعث الوطن.

وقد خلف احتكاك الآلاف من ابناء البلد والمترعرعين فيه بالكارثة [النازية] في المنفى، في نفوس ابناء الجيل، ندبة لا تمحى. من الجبهة في ايطاليا كتب رجل الفرقة اليهودية، نُواح كرومر (ايتان): «طلقنا المنفى وقضاياه طلاقا لا رجعة فيه ــ وهذا عهد قطعناه على انفسنا مدى الحياة». وفي موضع آخر: «في اعماقنا بهجة للحرب، ولن يفهم اجنبي هذا الشعور ــ وهذه البهجة نابعة من رؤية ألماني قتيل، ألماني سفاح يموت على يد يهودي. ــ لقد اصبحنا وحوشا ضارية، وحسنا اننا صرنا كذلك».

«كلما تعرفت أكثر فأكثر الى الجمهور اليهودي الذي تبقى لنا بعد الابادة المرعبة» ــ كتب يتسحاق كامينسكي، من حيفا، الذي نشط في اوساط بقايا الناجين في القطاع البريطاني من ألمانيا ــ «اصل مرة اخرى الى نتيجة وحيدة، هي خلاصة ما اكتسبته من معرفة في هذه الحياة: قيمة الحل الصهيوني لمحنة اليهود واليهودية. عمليا يمكن ايجاز وتلخيص امنية كل اليهود القاطنين هنا، او القادمين الى هنا، بكلمة واحدة: موطن!! يريدون ان يبنوا لأنفسهم ولأبنائهم من بعدهم موطنا يستطيعون ان يحيوا فيه بسلام، وينسجون فيه برد حياتهم مثل جميع الناس في العالم». ويضيف في الرسالة نفسها قائلا: «يتملكني منذ الآن احساس بأنني حين اعود الى البلد سأكون انسانا مختلفا عما كنته حين غادرته». 1228

في اعقاب قضية السفينة «كنيست يسرائيل» (انظر ص 1141) كتب زئيف فلاديميرسكي، خريج «بني عكيفا» وعضو «الهاغاناه» في حيفا منذ صباه:

اشعلنا التمرد، دعونا الى الانتقام
باسم دمك الطاهر، الفوار!
كنيست يسرائيل، يا سفينتي الكسيرة القلب
يا حصني، اشتعل اللهيب
بالقسم المقدس، ذراعنا ممدودة:
سنسحق ونحطم هذا الخوف

وبعد «السبت الاسود» (انظر ص 891) كتب اهرون شتولتسبرغ، قائد فصيل في البلماح: «لم يكن اشد ما آلمني في تلك الايام الضرر الفعلي الذي لحق بنا ــ وانما الاهانة

اللاذعة المتمثلة في اخضاع ياجور، بدءا بتجريدها من السلاح وانتهاء باقامة الغيتو. واذ كانت ساورتني الشكوك، في المرة الماضية (القصد هو عملية نسف الجسور التي سقط فيها اثنا عشر شخصا من رجال البلماح قرب الزيب، ي. س.)، فيما اذا كان ثمة شيء يبرر تمزق انسان الى قطع بحجم قبضة اليد على الاكثر، فانه اتضح لي الآن، بعد حادثة ياجور، ان حياة كالتي عاشتها الاناث من الاعضاء والاولاد في ياجور لمدة اسبوع ليست حياة، ومن الافضل ان يسقط المرء في المعركة ضد الاضطهاد والاهانة من ان يعيش بعد ذلك على هذا النمط ـــ لكن لن ينجحوا في تحويلنا كلنا الى ياجور ما دمنا في قيد الحياة».

ومن خلال تجارب الدفاع والهجرة غير الشرعية والصراع «تعمد وتتئذ بالدم» ـ على حد تعبير يوسف براش، من يسود هامعليه ـ حلف بين المقاتل اليهودي ومشروع بعث اسرائيل. وكتب مئير رفائيل من بيت هعرفاه: «اذا لم نساعد انفسنا فلن يفعل الآخرون شيئا». كما كتب آشر هارشكوفيتس، خريج «عليات هانوعر»، الى والديه في رومانيا: «عنادنا وقوتنا الخلقية سوف ينتصران ـــ نحن موجودون في موطننا، ويجب التمييز بين اضطهاد اليهود في المنفى وبين الصراع في موطننا نحن». وأضاف في رسالة اخرى قائلا: «انتصارنا يعتمد على قوة الارادة لتحقيقه».

وقد ادى هذا الادراك الى استعداد عام للتطوع، وطموح الى المشاركة في المعركة. «اذا حدث امر ما ولم اكن موجودا في البلد» ـ كتب زروبابل هوروفيتس، عضو البلماح الذي تطوع في الفرقة اليهودية مع انتهاء الحرب ـ «فسوف اعاني من وخز الضمير لفترة طويلة جدا من الوقت». «قررت انه يجب ان اذهب» ـ كتب زوهر (زوريك) دايان من نهلال الى أفراد عائلته بعد ان تطوع سنة ١٩٤٦ للفرار من الجيش والبقاء في المنفى من اجل العمل في «التهريب» والهجرة غير الشرعية ـ «عدم الذهاب: معناه حقا هروب من المعركة. عدم الذهاب: معناه حقا انني لست زوريك، لست دايان، لست من نهلال، لست ابن البلد ولست يهوديا». وكتب دافيد طاش، عضو الغادناع، وابن السبعة عشر عاما، في يومياته: «فقط عن طريق الاستعداد لبذل كل شيء، للتضحية بكل شيء من اجل الهدف الاسمى، هناك فرصة امامنا لتحقيق املنا». وبعد ثلاثة أعوام من ذلك سقط مع زملائه الـ ٣٤ في الطريق الى كفار عتسيون.

«هل الحسابات الباردة هي التي اوصلتنا الى انجاز شيء ما في البلد» ـ يقول موشيه ألبرت (يتسهار) من نهلال، عضو عين حارود ومن أوائل رجال البلماح، في رسالة بعث بها من حلوتساه في النقب ـ «او ان كل ما قمنا بـه، فعلناه من دون حساب؟ من الواضح لي ان الاستجابة والتضحية والخطوات الجسورة في مواجهة الهوة بكامل وعينا للخطر، هي التي حمتنا من الخطر والسقوط في الهوة». 1229

من هنا الثقة والشجاعة والبطولة التي خفقت في افئدة ابناء هذا الجيل، الذي ارتقى الى المذبح من اجل تحقيق الهدف الصهيوني. «من الصعب هزيمة اشخاص مثلنا ومثل زملائي

في جميع انحاء البلد» ـ كتب أبراهام دوفنو، ابن الـ ٢١، في رسالة الى صديقته ـ «انهم لا يستطيعون خنقنا فحسب وانما ايضا القضاء علينا قضاء مبرما».

على هذا النحو كانت تأملات وأمنيات آلاف وعشرات الآلاف من ابناء اليشوف العبري ـ قـدامى ومهاجرين جدد ومواليد البلد ـ في تلك الايام. والتوق الى الهدف الاسمى، الذي سعت له الحركة الصهيونية طوال سبعين عاما، توهج في قلوب الكثيرين. وكانت «الهاغاناه» احدى الادوات الرئيسية التي تبلور فيها هذا التوق وترعرع وترسخ. وهذه الروح التي خفقت في افئدة الاعضاء كأفراد هي التي جعلت في الامكان قيام هذا التنظيم العسكري ـ المدني، الذي قام وتطور وعمل من دون وجود دولة تتمتع بسلطة الاكراه. ان روحية التطوع وتكريس الذات والاستعداد للتضحية، التي توفرت في عشرات الآلاف من اعضائه، هي التي امدتهم بالعزم على الوقوف في وجه أعداء تفوقوا عليهم عددا وعدة في اثناء حرب الاستقلال من اجل حرية اسرائيل سنة ١٩٤٨.

الفصل الحادي والستون

تسليح "الهاغاناه" عشية حرب الاستقلال

الصناعة العسكرية في سنوات النضال

في سنوات النضال، استمر عضوا القيادة القطرية: يسرائيل غاليلي ويسسكار سيتكوف، في الاضطلاع بمسؤولية الاشراف على الصناعة العسكرية. ولم يكن انسحاب حاييم سالفين من ادارة الصناعة العسكرية في شتاء سنة ١٩٤٤ (انظر ص 286) في مصلحة تطور المشروع، لكن لم يكن هناك مفر من ذلك. وقد استمر العمل في المشروع، على الرغم من ذلك، وفقا للخطة والتنظيم اللذين ارسيا اسسه. وبعد إيسر بيرنتسفايغ (باري) انتقلت ادارة الصناعة العسكرية، في سنتي ١٩٤٥ و١٩٤٦، الى يوسف روخيل (افيدار)، ثم نُقلت مسؤولية القيادة القطرية عن الصناعة العسكرية في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ الى يوسف يزراعيلي، من أفيكيم، الذي تولى ادارة المشروع الفعلية.

وفي اثناء فترة النضال ازداد الخطر على المؤسسات الكثيرة التابعة للصناعة العسكرية، التي كانت موزعة في زوايا مختلفة من المدن والقرى. ان مطاردة السلطات لرجال «حركة التمرد»، ومراقبة الساحل لمنع هجرة المهاجرين غير الشرعيين، وعمليات المنشقين التي تمت منذ خريف سنة ١٩٤٦ من دون تنسيق مع «الهاغاناه» ـ كل ذلك ادى الى احتمال افتضاح امر «المؤسسات» ووقوعها في قبضة السلطات. ونجمت ضرورة لتعزيز اساليب التغطية والتمويه والحذر. وهكذا، على سبيل المثال، اقيم في مدخل «المؤسسة أ» ـ وهي المؤسسة الرئيسية للصناعة العسكرية، وكانت موجودة في مصنع الجلود الخاص بالاخوة ليفكوفيتس شمالي تل ابيب ـ مشروع لصناعة الملابس الداخلية، وعين حارس «المؤسسة» مالكا لـ «المشروع» الجديد وعاملا وحيدا فيه. وزود المشروع بمنتوجات مختلفة من صنف «مدني» و «مسموح به» تماما مع تصميمات ملائمة لتضليل الشرطة السرية، فيما لو اقتحمت المكان يوما ما.

وقد اعتبرت المستعمرات الزراعية الجماعية (الكيبوتسيم) افضل الاماكن ملاءمة لـ «مؤسسات» الصناعة العسكرية. لكن نجمت عن ذلك، بمرور الوقت، مشكلات مختلفة. فقد كان من الصعب اخفاء امر وجود «المؤسسة» في المستعمرة لفترة طويلة، وكان عدد الرجال العارفين بوجودها يتزايد باستمرار. كما كانت القيادة القطرية تضطر احيانا، بسبب

اعتبارات امنية، الى التدخل في شؤون المستعمرة الداخلية، مثل: قبول الاعضاء الجدد، واستيعاب المهاجرين، والضيوف، وما اليه. ومع التفتيش والاعتقالات ازداد التوتر في المستعمرات التي آوت «المؤسسات»، الى حد ان طبيبا في احدى المستعمرات اوصى بنقل «مؤسسة» الى مكان آخر نظرا الى التوتر المتراكم الذي سببه وجود هذه «المؤسسة» لفترة طويلة فيها.

«حدث اكثر من مرة» ــ روى يسرائيل غاليلي في شهادته ــ «ان ادعت مستعمرات ان «دورها انتهى»، وتطلب الامر ان يمارس اعضاء القيادة العليا نفوذهم وحتى ان يظهروا في اجتماعات عامة لاقناع المستعمرات والحصول على موافقتها على التمديد فترة اضافية، لتجنب التأخير والتشويش المرافقين للانتقال من مكان الى آخر».

وقد ركز يوسف روخيل كل جهوده على التوصل الى انتاج ذخيرة للرشيش من طراز ستن. واستخدمت من اجل ذلك الآلات القديمة، التي جلبها أرزي من بولندا (انظر المجلد الثاني، ص 980)، والتي خلصت من مستودعات ميناء بيروت بمساعدة البريطانيين على اساس انها آلات صناعية. كما تم طلب آلات اخرى للخراطة من بريطانيا بالطرائق التجارية العادية. وفي شتاء سنة ١٩٤٦، تكللت التجارب بالنجاح وبدىء بانتاج المجموعة المصنعة الاولى من الرصاص من عيار ٩ ملم في «الحانوت» (اسم احدى «المؤسسات») التابع للصناعة العسكرية في تل ابيب.

1231

وشرع فورا في بناء «مؤسسة» جديدة خاصة بانتاج العيارات النارية، وأطلق عليها اسم «مؤسسة ايلون». وقد جرى بناء «المؤسسة» من قبل معماريين من اعضاء «الهاغاناه» في تلة الكيبوتسيم بالقرب من رحوفوت. وكان المبنى غائصا في الارض بعمق ٥,٥ امتار (ثلاثة امتار ارتفاع «المؤسسة»، ومتران غطاء من التراب فوق السقف). «انجز المبنى: قاعة كبيرة وبجانبها غرف؛ غرف عازلة للمادة المتفجرة الخطرة، وأخرى لعمليات الانتاج الخاصة. وكانت سعته كافية لجميع الآلات والمدربين وعشرات العمال العاملين في التصنيع» (أبراهام فينبرغ). «كان مجهزا كوحدة مستقلة، وتمت فيه كل اعمال الانتاج والتحضير للانتاج. وكان يشتمل على اقسام مختلفة: قسم الآلات، وقسم الافران، وورشة حدادة، وقسم الفحص، وقسم التجارب للرماية، إلخ.. وغرف خدمات للعمال (حمامات وما شابه)».

ومن اجل إمداد «المؤسسة» بالعمال اجرت القيادة العليا محادثات مع كيبوتس الحركة الكشفية، الذي كان مخيما في بارديس حانه، ونقلته الى تلة الكيبوتسيم. وأقام الكيبوتس معسكره حول المشروع. وأقيمت المصبغة والمخبز التابعان له فوق «المؤسسة». وكان الدخول والخروج يتمان عبر المصبغة، والمسؤول عن المصبغة هو حارس «المؤسسة». وقد عمل في انتاج العيارات النارية نحو ٤٠ شخصا بادارة بيسح أبراموفيتس، وكانت قلة منهم خبراء ومحترفين، يأتون من تل ابيب، والاغلبية من اعضاء الكيبوتس الذكور والاناث. وكان العمال ينزلون في الصباح، ويخرجون ظهرا لاستراحة قصيرة يعودون بعدها الى العمل حتى

المساء. «وبما ان العمال كانوا محصورين في المبنى تحت الارض، فانهم كانوا يتلقون غذاء خاصا وأشعة كوارتز عوضا عن اشعة الشمس» (يعقوب زكاي). وقد زود المشروع بجهاز انذار قائم على مصابيح تضاء وتطفأ. وشغل هذا الجهاز مرتين في اثناء قيام «المؤسسة»: مرة عندما اطلق انذار تجريبي من دون علم العمال، باستثناء مدير العمل والحارس، ان الانذار يدل على خطر وهمي؛ ومرة عندما نسف رجال الايتسل خط سكة الحديد الواقع على بعد مسافة ضئيلة فقط من تلة الكيبوتسيم. وقد خرج اعضاء من الكيبوتس فورا لتقديم اسعاف اولي الى الجنود الجرحى. وربما كان ذلك هو السبب في ان الجيش لم يجر تفتيشا في المكان.

وكانت اجراءات الحيطة في «المؤسسة»، التي اضطلع بمسؤوليتها عضو الكيبوتس مئير زارودينسكي (زوريع)، العائد لتوه من الفرقة اليهودية، مشددة جدا؛ فقد كان العمال يخضعون لفحص دقيق جدا لدى خروجهم من «المؤسسة»، للتأكد من عدم بقاء رصاص او قطع منه في ملابسهم. كما كانت نعال احذيتهم تخضع لفحص خاص لانها كانت تلتقط نفاية النحاس وجزئيات دقيقة من الرصاص. وأنشئت في نهاية الامر ورشة خاصة في الكيبوتس لاصلاح احذية عمال «المؤسسة». وكان الكيبوتس بأكمله في عزلة تامة؛ «كان هناك حارس يقف دائما امام البوابة، ليلا نهارا، وكانت البوابة دائما مغلقة. —— وفي اثناء النهار كان عمال «المؤسسة» يختفون في باطن الارض، ويظهرون جميعا فجأة في اوقات وجبات الطعام. —— وكان قدوم الضيوف في تلك الفترة نوعا من الكابوس الدائم. فقد كان من الضروري الوقوف بالمرصاد وعدم السماح لهم بالتجول في الساحة» («في شركنا»).

وكانت الحاجة الى الذخيرة ماسة جدا الى درجة ان العمل بدأ قبل اتمام المبنى. وفي اثناء حصار تل ابيب (انظر ص 902)، وفي ضوء عدم تمكن الخبراء من الخروج من المدينة، ارسل بن تسيون كوتلر للاشراف على الانتاج الى حين اطلاق حرية المديرين الدائمين. وقد انتجت «المؤسسة»، منذ بداية عملها في صيف سنة ١٩٤٦ حتى نهاية ايلول/سبتمبر ١٩٤٧، نحوا من مليوني رصاصة ستن.

وفي الوقت نفسه، استمر العمل العادي في باقي «مؤسسات» الصناعة العسكرية على جري عادته. فأنتج عام ١٩٤٥/١٩٤٦ اكثر من مئة مدفع هاون عيار ٢ بوصة و ٤٤,٥٠٠ قذيفة هاون. كما استمر انتاج الرشيشات بكامل طاقته. فتم في ايار/مايو ١٩٤٦ انتاج الدفعة الاولى (٤٥٠ رشيشا)، وحتى نهاية سنة ١٩٤٦ — الدفعة الثانية (١٠٠٠ رشيش)، وبدىء فورا بانتاج الدفعة الثالثة واشتملت على: ٣٣٠٠ ستن.

1232

وفي عام ١٩٤٦/١٩٤٧، شرع في انتاج قنابل يدوية من طراز ميلز على نطاق واسع في «مؤسسة» خاصة انشئت لهذه الغاية في تل موند، انتجت خلال عام واحد ما يزيد على ٥٣,٠٠٠ قنبلة. وأنشئت سنة ١٩٤٦ في حانيتا «مؤسسة» خاصة لانتاج اجهزة مختلفة. وقد انتجت فيها اجهزة لصنع كبسولات قدح، وستنات وعيارات نارية، وأجريت تجارب الرماية بالستن في الكهوف المجاورة.

ويمكننا اخذ فكرة عامة عن حجم العمل في الصناعة العسكرية من ارقام الاستثمارات المالية فيه، التي قفزت من ١٠٩,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٥ الى ١٥٥,٤٤٧ جنيها فلسطينيا سنة ١٩٤٦، والى ١٥٨,٠٥٧ جنيها فلسطينيا سنة ١٩٤٧. وارتفعت قيمة انتاج الصناعة العسكرية من ٧٧,٥٣٨ جنيها فلسطينيا سنة ١٩٤٥ الى ١١٤,٢٣٥ جنيها فلسطينيا سنة ١٩٤٦، والى ١١٧,٥١٥ جنيها فلسطينيا سنة ١٩٤٧. كما ارتفع عدد ساعات العمل من ٢٩٧,٠٧٥ ساعة سنة ١٩٤٥ الى ٣٦٩,٩٢٠ ساعة سنة ١٩٤٦، والى ٣٨٠,٦٦٣ ساعة سنة ١٩٤٧. وكان السبب في ضآلة الزيادة في عام ١٩٤٦/١٩٤٧ الضربة التي وجهتها السلطات البريطانية الى «مؤسستي» الصناعة العسكرية الرئيسيتين في صيف سنة ١٩٤٧.

البريطانيون يوجهون ضربة الى الصناعة العسكرية

لم ينجح البريطانيون في الوقوف على مدى حجم الصناعة العسكرية وكشف شبكة مصانعها، مع انه كانت تكتشف بين حين وآخر كميات من السلاح او قنابل يدوية من صنع محلي. لكن نظام التفتيش الصارم الذي اتبع سنة ١٩٤٧ ادى الى كشف «مؤسستين» رئيسيتين للصناعة العسكرية في تل ابيب، وذلك من دون ان تبحث السلطات عنهما بصورة خاصة، اذ تم الامر مصادفة نتيجة عمليات اخرى.

في اثناء حملة التفتيش الكبرى التي جرت في تل ابيب في آب/اغسطس ١٩٤٦ (انظر ص 902)، وصلت وحدات من الجيش الى مصنع الجلود، الذي كان يضم «المؤسسة أ» التابعة للصناعة العسكرية. واستدعي مدير العمل في المصنع الى المكان ودخل الجنود الى المبنى بحضوره، وأجروا تفتيشا دقيقا لكنهم لم يجدوا شيئا. وعندما وصلوا الى الباب المفضي الى «المؤسسة»، شرح لهم المدير ان هذا الباب يقود الى خارج المبنى فاكتفوا بهذا الشرح ولم يطلبوا منه فتح الباب. لكن المعجزات لا تحدث كل يوم.

ففي اثر اكتشاف نفق بيت هدار (انظر ص 956) اجرى البريطانيون تفتيشا دقيقا في الجوار للتأكد من عدم وجود أنفاق اخرى في المنطقة. وفي اثناء هذا التفتيش وصلوا، في ١٩٤٧/٦/١٩، الى «الحانوت»، احدى اهم «مؤسسات» الصناعة العسكرية. وكان موجودا في «الحانوت» في تلك اللحظة ــ مرحلة الطلاء ــ أجزاء مفككة لآلاف الرشيشات من طراز ستن. ووقف العمال في «الحانوت» يقظين ومستعدين وجاهزين لمواجهة اي طارىء. وعندما اتضح ان الشرطة تقترب من «الحانوت» بذل جهد فائق لاخفاء جميع المنتوجات الممنوعة، ونقلت القوالب والادوات التي امكن تفكيكها بسهولة. ولما اوشك البريطانيون على اقتحام باب «الحانوت» انصرف العمال من المبنى عن طريق السقف، لكن بقيت تحت السلالم عدة براميل مملوءة بمقابض الستنات، لأن الشخص الذي يعرف بوجودها لم يكن في المبنى ذلك اليوم. ووجدت الشرطة التي اقتحمت القاعات المملوءة بالآلات المبنى خاليا من

العمال. ووضعت على الفور حراسات على المبنى، وزرعت الالغام في امكنة عديدة، عند الشبابيك وقرب الابواب، وأخذت سيارات الشرطة تجول حول المكان من آن الى آخر.

وكلفت القيادة العليا يوسف روخيل (افيدار) انقاذ «البضاعة» والآلات في المبنى المطوق، ومعه شلومو بوغارد ويعقوب زكاي وموشيه بارون، من رجال الصناعة العسكرية. واتضح ان الشرطة السرية لم تنجح، على الرغم من التفتيش الدقيق، في اكتشاف المخبأ السري الذي كان مبنيا بين جدارين. وفي مساء ذلك اليوم بالذات، تسلل رجال «الهاغاناه» 1233 الى الدكان المجاور لحائط «المؤسسة»، ونفذوا منه الى المخبأ السري. وكان عليهم ان يعملوا بحذر شديد، لا بسبب دوريات الجيش والشرطة التي كانت تتجول قرب المكان فحسب، وانما ايضا بسبب وجود كميات من المواد المتفجرة في المخبأ السري واحتمال انفجارها في اثناء العمل ومعالجة الامر. وبعد ان فتحت الثغرة حشد صف طويل وكثيف من الرجال، ونقلت كل موجودات المخبأ بسرعة الى مخازن غليكمان القريبة وحملت على سيارات شركة «همانيع»، التي نقلتها الى ساحة مصنع «هـأرغاز». ومن هناك نقلت قطع الستنات في سيارات المنظمة الى الرمال الواقعة بين حولون وريشون لتسيون حيث دفنت في حفر اعدت لهذا الغرض. وبعد إفراغ المخزن اغلقت الثغرة وطليت بطبقة من الجص. ودامت كل هذه العملية ثلاث ساعات. وفي الليلة التالية، تسلل شبان الى قاعات المصنع، وفي مقدمتهم خبير بالمتفجرات من قوة الميدان لفحص الطريق وازالة الالغام. وقد أخرجوا قوالب الستن وقطعه، وخمسة براميل كبيرة(وزن كل واحد منها ٣٠٠ كلغ) كانت تحتوي على قطع ستنات، والاهم من ذلك: الآلة الخاصة بقص مادة الكورديت المتفجرة، التي كانت الوحيدة من نوعها في البلد. وقد نجحت العملية نجاحا فاق التصور، وأقامت القيادة العليا حفلة للمشاركين فيها، ألقى فيها يسرائيل غاليلي ويعقوب دوري خطابين بالمناسبة.

ولم تنته عملية الانقاذ عند هذا الحد. اذ جرى اتصال عن طريق الرقيب في قوة الحراسة، يهودا مولخو (كرميئيل)، بعدد من رجال الشرطة البريطانيين من المسؤولين عن حراسة «الحانوت»، ووافقوا على «بيع» بقية الآلات المحتجزة فيه: «سيارات تلو اخرى كانت تصل الى هدفها» ـ روى أ. فينبرغ ـ «وفي اليوم التالي، بناء على اتفاقية جنتلمان، كانوا يدفعون لهم ما اتفق عليه». وقد تم شراء بقية تجهيزات «الحانوت» من مخازن الشرطة السرية البريطانية في يافا في الايام الاولى لحرب الاستقلال.

وبعد شهر من افتضاح امر «الحانوت» وقع في قبضة البريطانيين «الصنيف» [الفرع] التابع للصناعة العسكرية، والذي كان موجودا في ساحة المعرض. وكان هذا «الصنيف»، الذي عمل منذ بدايته كمشروع مرخص له، قد بلغ مستوى رفيعا من التطور سنة ١٩٤٧. اذ نقل اليه في شتاء تلك السنة «المختبر» الخاص بالصناعة العسكرية، مما جعله «مشروعا موحدا رائعا من اكثر المشاريع تطورا في البلد، في تصرفه معدات وأدوات وأجهزة قياس نموذجية» (آرييه فريدمان). وكان مدير المشروع، شالوم ليفن، قد سجله تحت اسم «حراشي برزيل»

المحدودة، بصفته شركة حدادة مرخصا لها يمتلكها عدد من مستعمرات غور الاردن. ففي ١٩٤٧/٧/١٠ زارت المشروع دورية حراسة متنقلة تابعة للشرطة البريطانية كانت مارة، على جري عادتها، في الجوار. وفي الليلة نفسها نُظف المشغل تماما، وأُخلي من كل ما يحتمل ان يثير الشك. وفي اليوم التالي، طوقت أعداد كبيرة من الشرطة المشروع وداهمت المكان، وفتشته، ووجدت بسرعة «ما كان يجب ألا تجده» (أ. فينبرغ). ذكر البيان الرسمي انه عثر على «اربعة تصاميم لرشيشات ستن ـــ ولرشيشات ستن شبه مكتمل، وأدوات لمقابض الستن، وأخرى لنصاب مخزن العيارات النارية ومخازن عيارات. وعثر في احدى الغرف على ثلاثة نوابض ستن. كما وجد في مخزن قريب من المدخل، تحت مكبس، جهاز للثقب يستخدم في انتاج الستن ـــ وعثر في اثناء التفتيش على يهودي مشغول باعداد جهاز لسبطانة ستن. كما عثر على ١٨ جهازا آخر على مقعد قرب الآلة». وباختصار، اكتشفت مادة كافية لمحاكمة كل الموجودين في المبنى، الذين بلغ عددهم ٢٤ شخصا كانوا قد فشلوا في التسلل الى الخارج.

لكن السلطات لم تلجأ الى الاجراءات القضائية. وربما كان السبب في ذلك هو الاحساس بالضعف العام وانهيار النظام الذي بدأ في تلك الفترة. وأُطلق المعتقلون بكفالة، وأبقي رهن الاعتقال فقط المهندس آرييه فريدمان الذي بدا في نظر البريطانيين مسؤولا عن المشروع، لكنهم ما لبثوا ان اطلقوه بكفالة بعد عدة اسابيع. ولم يستأنف التحقيق، وانطوى الموضوع في «الفوضى» التي رافقت ايام بداية حرب الاستقلال. وأكثر من ذلك، فان المشروع نفسه لم يتضرر. اذ ان البريطانيين سلموا العتاد بكامله الى اصحابه المسجلين: الكيبوتسات في غور الاردن. لكن ادارة الصناعة العسكرية قررت تفكيك الآلات ونقلها الى مكان آخر. وقد تم تفكيك الـ ٥٠ آلة الموجودة في «الصنيف» خلال ٤٨ ساعة، وحملت على سيارات ونقلت الى مخازن سرية.

ولما كان الانتاج في الصناعة العسكرية قائما على اساس العمل المتكامل بين الفروع، فان افتضاح امر «الحانوت» و«الصنيف» ادى الى تفكك حلقتين مهمتين في السلسلة، وأصيب العمل بضرر بالغ. وتقرر في تلك الايام، من دون ان يكون للامر صلة بهاتين الكارثتين، اعادة حاييم سالفين الى ادارة الصناعة العسكرية وكلف، من بين باقي مهماته، اصلاح الضرر الذي لحق بالمشروع.

رحلة حاييم سالفين الى الولايات المتحدة

في تلك الفترة، التي استمرت في اثنائها الصناعة العسكرية في عملها السري، تعمل وتتطور في حدود الامكانات الضئيلة التي خصصت لها وتغير بين الحين والآخر مدراءها، كان يجري فيما وراء المحيط الاطلسي نشاط قيض له ان يغير وضعها من اساسه. وقد ارتبط هذا النشاط باسم المهندس حاييم سالفين.

ففي الأشهر الاخيرة من الحرب العالمية الثانية، وجه سالفين رسالة الى القيادة العليا، ابدى فيها رأيه في انه مع انتهاء الحرب ستنشأ فرص هائلة لشراء معدات من فائض القطاع الاقتصادي الحكومي في الولايات المتحدة، ولتأسيس مشروع كبير للصناعة العسكرية على نطاق تصنيعي.

واتخذ قرار في اوساط القيادة العليا باستغلال مواهب وخطط سالفين واقامة «مشروع مواز (لمشروع الصناعة العسكرية القائم) على نطاق تصنيعي، ومتلائم مع الحاجات والظروف الامنية». وتمت الموافقة على سفر سالفين الى الولايات المتحدة لشراء المعدات المطلوبة من اجل تحقيق هذا المشروع. لكن تنفيذ القرار تأخر لاعتبارات عديدة، اهمها معارضة القيمين على شؤون الصناعة العسكرية، الذين اعتبروا مهمة سالفين انها تمس صلاحياتهم كونها خارج اطار المشروع القائم.

ولم تبرز اهمية سالفين إلا في خريف سنة ١٩٤٥. فقد توصل دافيد بن ــ غوريون، في اثر محادثاته مع الزعماء البريطانيين في لندن بعد انتهاء الحرب العالمية، الى نتيجة مفادها ان انكلترا قد لا تلغي سياسة «الكتاب الابيض»، وأن اليishوف اليهودي في البلد سيضطر الى ان يأخذ على عاتقه مهمة الوقوف في وجه الشعب العربي، وربما ايضا في وجه هجوم قد تقوم به الجيوش العربية. وهناك مجال للافتراض ان بن ــ غوريون اطلع على رسالة سالفين الى القيادة العليا وأثارت اهتمامه.

وفي حزيران/يونيو ١٩٤٥، وصل د. بن ــ غوريون الى الولايات المتحدة، حيث دعا ١٩ شخصا من المتمولين والزعماء من انصار المشروع الصهيوني الى الاجتماع اليه. وحضر الاجتماع، الذي عقد في ١٩٤٥/٧/١، ايضا أليعيزر كابلان المسؤول المالي للوكالة اليهودية، ورؤوفين زسلاني (شيلواح). وعرض بن ــ غوريون امام الحاضرين تصوره السياسي والامني، وطالب بجباية خاصة لتغطية جميع متطلبات الدفاع والهجرة اللاشرعية ــ وضمن ذلك: شراء معدات لصناعة السلاح من المصانع الاميركية التي كانت على وشك التصفية مع انتهاء الحرب. ان هذه المعدات ستباع ــ كما يبدو ــ بأسعار رخيصة لكن، مع ذلك، «سيتطلب الامر مئات الآلاف وربما الملايين». ووعد الحاضرون بالمساعدة بطيبة وبحماسة شديدة، وألفت لجنة برئاسة هنري مونتور ورودلف زونيبورن (Sonneborn). واتفق على ان يرسل نصف أموال حملة الجباية الى ارض ــ اسرائيل، وأن يوزع النصف الآخر بالتساوي بين «مؤسسة الهجرة» ومشتريات السلاح. وبناء على ذلك، ارسلت برقية الى حاييم سالفين طلب منه فيها القدوم الى الولايات المتحدة. وهنا رأى سالفين المدخل الى تحقيق احلامه. فعين إلياهو ساخاروف، الذي اطلق سراحه من السجن قبل عدة أشهر، مساعدا له في ارض ــ اسرائيل، ووصل الى نيويورك في ١٩٤٥/١٠/٢٥، وفي جعبته مشاريع مهمة، وعلى لسانه كلمات انكليزية قليلة، وفي جيبه بضع عشرات من الدولارات.

1235

وفي لقائه الاول مع مجموعة المتبرعين اليهود في منزل هنري مونتور بنيويورك، شرح

للمجتمعين ــ بلغة ايديش ركيكة وعدد من الكلمات الانكليزية ــ انه جاء الى الولايات المتحدة للحصول على معدات كاملة لمصانع للسلاح ومدافع رشاشة وبنادق وعيارات نارية وما شابه، وأنه غير معني ببقايا عتاد او شراذم آلات «لا قيمة لها باستثناء قيمة وزنها». ويروي رؤوفين زسلاني في تقريره ان المشروع الذي احضره سالفين معه، و«مظهر [سالفين] وشخصيته احدثت أثرا هائلا في هنري (مونتور) ورودلف (زونيبورن) والآخرين الذين احتكوا به. وما يأسر القلوب، بصورة خاصة، ان المشروع كان عمليا وذا صبغة رسمية [من عمل دولة]». وشرع سالفين بعد ذلك مباشرة في البحث عن مساعدين ذوي دراية بالشؤون التقنية وانتاج السلاح واقامة صلات بتجار الآلات المستعملة. وتلمس طريقه في بداية العمل في الظلام. وحال جهله باللغة الانكليزية، وعدم معرفته بسوق الآلات الاميركية، بينه وبين تحقيق هدفه. وصادف احيانا كثيرة محتالين ومبتزين، وأكثر من هؤلاء: «مخادعين» مدعين. وببطء شديد فقط عثر على مجموعة مساعدين مخلصين كان على رأسهم مهندس يهودي شاب، هو فيليب ألبير، الذي كلفه سالفين متابعة المنشورات التقنية الاميركية، وخصوصا الصحف التقنية وقص المقاطع المتعلقة بآلات صنع السلاح وانتاج المواد المتفجرة، وما اليه. «الآلات في المنشورات كانت كما تريدون، لكن كيف تُشترى؟ كيف نُحزم؟ كيف تُرسل؟ كيف تُختار من بين المئات والآلاف، وكيف تُدفع النقود؟».

لكن مشروع شراء السلاح بدأ ينتظم بسرعة. ووصل يعقوب دوستروفسكي (دوري) الى الولايات المتحدة في كانون الثاني/يناير ١٩٤٦، وترأس بعثة «الهاغاناه» التي كلفت تولي امر نشاطات الاعلام وجمع الاموال وشراء السفن للهجرة غير الشرعية وشراء السلاح، وفي الاساس الآلات والمعدات اللازمة لانتاج الاسلحة والذخيرة لحساب الصناعة العسكرية. وألحق سالفين بالبعثة بحكم مهمته، وكان باقي اعضائها: مينا روغوجيك التي سرحت في تلك الفترة من الخدمة في سلاح المرأة (A.T.S.)؛ وزئيف شيند وهو من نشيطي «مؤسسة الهجرة»؛ ورؤوفين دفني من المظليين. وقد عملت البعثة بارتباط وثيق مع اشخاص يهود بقيادة زونيبورن. وفي سنة ١٩٤٧، مع تزايد دعاية الايتسل في الولايات المتحدة، انشئت منظمة للاعلام وجمع الاموال باسم Americans for Hagana [اميركيون من اجل الهاغاناه].

1236

كتب يعقوب دوستروفسكي في احدى رسائله في أوائل سنة ١٩٤٦: «في مجال نشاطات شيفح (سالفين) هناك نتائج مشجعة جدا ـــ والتقدم في جميع بنود عمله كبير جدا. ـــ هناك امكانات غير عادية، والامور اسطورية تقريبا». وكان من الامور المهمة جدا نجاحه في ايجاد لغة مشتركة مع فريق من المساعدين الاوفياء من الاميركيين. «على الرغم من الجنون والصعوبات الهائلة المقترنة بالعمل مع شيفح» ــ كتب ي. د. دوستروفسكي ــ «فانه يكسبنا شرفا ومكانة في نظر الجميع، اضافة الى المشروع الضخم الذي يتشكل بالتدريج».

وبحث سالفين ومساعدوه عن الآلات المعروضة علنا للبيع وفي مزادات من قبل

مصانع صفت اعمالها بسبب انتهاء الحرب ورغبتها في التحول من الصناعة العسكرية الى الصناعات المدنية، وخصوصا المعروضة من قبل الوكالة الحكومية الخاصة التي انشئت لهذه الغاية «War Assets Administration». وقد بيعت الآلات آنذاك على اساس انها خردة، وبحسب وزنها. فالآلة التي كانت كلفتها ١٠,٠٠٠ دولار ووزنها ٥ اطنان، بيعت ـ عادة ـ بـ ١٢٥ دولارا. وكان يضاف الى سعر الآلة التي تحتوي على محرك نحو ٣ ـ ٥ دولارات لكل قوة ـ حصان. وقد قدم سالفين، في نهاية سنة ١٩٤٥، ميزانية تقديرية للمشتريات بلغت مليونا من الدولارات تقريبا. ووافق له كابلان على مخصصات مقدارها ٦٠٠,٠٠٠ دولار، تصرف على دفعات شهرية مقدار كل دفعة ١٠٠,٠٠٠ دولار.

ومن اجل تولي شراء الآلات انشأ سالفين ومساعدوه اربع شركات وهمية. وقام سالفين من حين الى آخر ـ بصفته ممثلا لهذه الشركات ـ بزيارة للمصانع التي كانت برسم التصفية. وكانت مبيعات التصفية تتم غالبا بأحجام ضخمة، وتضمنت عقود البيع شروطا بغرامات كبيرة في حال عدم اخلاء البضاعة خلال اسابيع من تاريخ الشراء. وقد تم شراء ٥٠ آلة لفحص العيارات النارية بمبلغ ١٢٠ دولارا، مع ان سعر الواحدة منها ١٨,٠٠٠ دولار، وذلك لأنها كانت موجودة في قبو ومن الصعب إخراجها ولم يتحمس احد لشرائها. ولما كان حجم الصناعة العسكرية في ارض ـ اسرائيل لا يسمح بتشغيل اكثر من آلة واحدة او آلتين، فقد باع سالفين معظم الآلات، واكتفى بارسال عشر منها الى ارض ـ اسرائيل. والى جانب آلات انتاج السلاح، التي كانت تباع بحسب الوزن، اشترى سالفين ايضا آلات اخرى، كان في الامكان تحويلها بسهولة الى صناعات اخرى، مثل آلات خراطة، ثمنت بوصفها آلات مستعملة بثلث قيمتها. لكن حتى هذا الثلث بلغ عدة آلاف من الدولارات لكل آلة.

وصف سالفين احدى عمليات الشراء على النحو التالي: «وقفنا بين مئتين او ثلاثمئة تاجر، جميعهم في يقظة تامة. لقد كانت امام كل واحد منهم فرصة لاتمام صفقة شراء ناجحة وتحقيق ربح وفير. لم اكن معنيا بالربح وانما بالآلات... وكانت الآلات موجودة في اماكن تشغيلها، منزّلة من على قاعدتها او غير منزلة. وكانت هناك على كل آلة بطاقة بطول ٣٠ سم وعرض ٣٠ سم، سجل عليها اسم الآلة وعدد سنوات او ساعات تشغيلها، الخ. وكان جميع هؤلاء الرجال يتراكضون كالخيول، ومن يمسك بالبطاقة وينتزعها تصبح الآلة له. وخلال نصف ساعة كنت احصل على آلة قيمتها ١٤ ـ ١٥ ألف دولار بـ ٤ ـ ٥ آلاف دولار. وكان علي ان اقرر ما اذا كان في مخطط هذا المصنع في ارض ـ اسرائيل، الذي لم يكن قائما بعد، ثمة مجال لآلة كهذه وكم آلة من كل نوع سأحتاج اليها، وما اذا كان من المجدي بالنسبة الي ان اشتري الآلة من هنا، او ربما ستسنح لي فرصة خاصة. وكان الوقت المتاح لي لاتخاذ القرار بشأن كل ذلك نصف لحظة: إما ان اترك البطاقة وإما ان انتزعها! وأنتزع البطاقة، وأضعها تحت ذراعي وتصبح الآلة ملكي. وخلال نصف ساعة اشتريت ٢٥ آلة بـ ٨٥,٠٠٠ دولار. وعندما خرجنا من هذا المجهود الكبير، هذه المعمعة ـ بدأت

1237 بالتقيؤ وأغمي علي. واستدعوا لي طبيبا فزرقني حقنة، لكنني تشبثت بالبطاقات ولم يكن في الامكان انتزاعها مني».

وبعد شراء الآلات الاولى اتضح انه ينبغي تخزينها الى حين ارسالها، وكان استئجار مخازن في نيويورك يكلف عشرات الآلاف من الدولارات. وبعد بحث مطول تم شراء مخزن كبير ذي رصيف من الاسمنت في احدى ضواحي نيويورك بسعر معقول، وبدأ سالفين ومساعدوه بتجميع البضاعة التي اشتروها. وجمعت في مخازن كهذه، خلال سنة وربع السنة، ٢٠٠٠ آلة تقريبا من أنواع مختلفة.

وأدرجت في جدول الاعمال مشكلة نقل الآلات الى ارض ــ اسرائيل. وأرسلت الآلات التي كان في الامكان ارسالها بوصفها آلات صناعية عادية، مباشرة الى عناوين خاصة بمشاريع صناعية في ارض ــ اسرائيل. وقد ارسلت بهذه الطريقة، مثلا، أفران حرارية بلغ وزنها ١٣ طنا. لكن الأصعب كان تنظيم شحن الآلات التي لا يمكن اخفاء وصفها كأجهزة خاصة بالصناعة العسكرية. وقد جرى تفكيك قسم منها الى أجزاء، وتم توضيب كل جزء وأعطي رقما وسُجِّل في بطاقة خاصة، ذكرت عليها مهمته وموضعه في الآلة. وأعدت على هذا النحو بطاقات لـ ٦٠,٠٠٠ جزء. وأرسلت نسخة من كل بطاقة الى إلياهو ساخاروف في ارض ــ اسرائيل. وأرسلت أجزاء الآلات المفككة في صناديق كبيرة. وكانت الآلات وأجزاؤها تمر بعملية فحص دقيق لاستخراج أجزاء السلاح والذخيرة، التي من المحتمل أن تكون قد بقيت فيها بعد توقفها عن العمل. وعلى الرغم من ذلك، فقد حدثت احيانا عثرات. «عندما انزلت الآلة الاولى لخراطة السبطانات في ميناء حيفا» ــ روى سالفين في مذكراته ــ «وقعت من الصندوق سبطانة بندقية. واعتقد الشاب (ممثل الصناعة العسكرية) الذي كان يراقب عملية التفريغ من بعيد، ان هذه ستكون نهاية العالم ــ ومر شاب يهودي ــ وشاهد السبطانة فألقى بها في الماء قبل ان يتاح للعامل العربي ان يرفع طرفه».

وقد تم استلام الشحنات في البلد بتفان كبير من قبل فريق من عمال الميناء اليهود في حيفا، نظمه إلياهو ساخاروف. وقام بالدور المركزي في هذا الفريق إلياهو بيرنشتاين، مدير شركة «شيروتي يام» [الخدمات البحرية]، الذي كان آنذاك موظفا كبيرا في قسم الجمارك الحكومي وضليعا في الاجراءات الحكومية.

وكان الحصول على رخص للاستيراد الى ارض ــ اسرائيل مشكلة تتطلب حلا غير عادي. وتوجه ساخاروف ومساعدوه الى الصناعيين من اصحاب المشاريع الخاصة («مصانع زاكس»، ويروشلمي، وآخرون) والى «سوليل بونيه»، وحصلوا منهم على حصص معينة من كوتا الاطنان المسموح لهم باستيرادها. «يجدر ان ننوه» ــ كتب إ. ساخاروف في مذكراته ــ «بمدى تجاوب هؤلاء الصناعيين، الذين لولاهم لما كان هناك امل باستيراد المعدات. وينبغي لنا ألا ننسى ان العمل ذاته كان محفوفا بمخاطر جسيمة وفادحة، اذ ان افتضاح امر الشحنات كان كفيلا بالحاق كارثة بهم وبمشاريعهم». وعلى الرغم من التغطية «الشرعية» للعملية ــ في

الولايات المتحدة والبلد ــ فان إ. بيرنشتاين واجه صعوبات مختلفة من جانب موظفي الجمارك الكبار، «لكن بفضل العلاقات والرشاوى معا» (ساخاروف)، توصل المسؤولون عن تخليص الآلات الى تفادي الكشف على البضاعة كليا، ومرت حمولات تزن مئات الاطنان بسلام عبر الميناء. وبما انها وصلت بوصفها معدات للتطوير الصناعي، فانه حتى لم تدفع عليها رسوم جمركية لحكومة الانتداب.

ومع تزايد المشتريات اتضح انه لن يصبح في الامكان اقامة نظام متكامل للانتاج من دون شراء عدد من الآلات الجديدة. وأنشئت شركة جديدة تولت طلب آلات جديدة وشراءها. وتم شراء نحو ٣٠٠ ــ ٤٠٠ طن من أنواع الفولاذ، شحنت الى البلد تحت ستار رخص لشراء آلات نسيج. وبذلت جهود لشراء مواد صناعية مساعدة (مثل حامض النتريك) ومواد متفجرة، وشحنت ــ ضمن مواد اخرى ــ ٥ اطنان من المواد المتفجرة الباليستية المخصصة لقذائف الهاون. وقد اشتريت المادة في احدى الدول الاوروبية، وأرسلت بطرائق مختلفة الى الولايات المتحدة وعبئت في براميل لمسحوق الآجر المقاوم للحرارة. ووصلت الى البلد في خريف سنة ١٩٤٧، بعد فترة طويلة من عودة سالفين، وأفادت منها صناعة القذائف في حرب الاستقلال فائدة جمة. 1238

ومع اتساع العمل ازدادت المشاريع. ففي كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٦، بدأ سالفين يهتم بشراء معدات لانتاج مدافع رشاشة. واتصل بمهندس سلاح اميركي متقاعد يدعى كارل ايكدل، وبناء على مشورته وقع الاختيار على نموذج المدفع الرشاش الاميركي الخاص بسلاح البحرية: «جونستون». وتعهد المهندس باعداد الاجهزة المطلوبة لانتاج المدفع الرشاش، والتي يبلغ عددها ٥٠٠٠ تقريبا. وتم انتاج الاجهزة في كندا، حيث كانت اجور اليد العاملة ارخص كثيرا من الولايات المتحدة. وأقيمت من اجل هذه الغاية ورشة كبيرة في مصنع لقطع الغيار في تورنتو. وقد وصلت الورشة الى مرحلة انتاج المدفع الرشاش. لكن نماذج وتصاميم الآلات لم تصل الى البلد إلا بعد قيام الدولة.

بعد سنة وربع السنة من العمل المكثف جدا، دعي سالفين الى العودة الى البلد. وكانت قد وصلت الى البلد بسلام حتى ذلك الوقت ١٣ شحنة، تضمنت ٧٠٠ ــ ٨٠٠ صندوق، وما يقارب الـ ٩٥٪ من جميع المعدات اللازمة لاقامة مصنع للرصاص والمواد المتفجرة. وكان يعمل مع سالفين وقتئذ فريق من الاشخاص على رأسهم ايلي شليط وفيليب ألبير. وقد عمل جميع هؤلاء الاشخاص، من صغيرهم الى كبيرهم، من دون حساب للوقت او الاجر. وكان يعاونهم عدد من المساعدين والمستشارين اليهود من رجال الاعمال والعلاقات العامة، بينهم هاري ليفاين ودواي ستون، و «كانوا مجرد يهود يعدون بالمئات، غير مستعدين للدخول في امور كبيرة لكنهم كانوا يتقدمون للمساعدة في كل مرة» (سالفين). كما لقي القائمون على العمل موقفا متعاطفا من جانب اميركيين مسيحيين كثيرين، منهم من كان على علم بالهدف الذي هم في خدمته، ومنهم من أراد ان يساعد المشروع اليهودي في

ارض ـ اسرائيل، من دون ان يعرف تماما الهدف من وراء النشاط الذي يشارك فيه. وقد كانت للخبرة المكتسبة من جراء القيام بشراء الآلات وتوضيبها قيمة كبرى، وخصوصا المعلومات المتعلقة بانتاج المواد المتفجرة التي قدمها ايغناتس غراغيروف، وهو مهندس يهودي من اصل روسي، عمل ٣٠ عاما في هذه المهنة، وقدم كل خبرته «هدية لشعب اسرائيل»، على حد تعبير سالفين.

في نهاية سنة ١٩٤٦، عاد سالفين الى ارض ـ اسرائيل. واستمر مساعداه، فيليب ألبير وايلي شليط، في القيام بعمله تحت اشراف بعثة «الهاغاناه»، التي ترأسها بعد عودة ي. دوستروفسكي (دوري) الى البلد، شلومو رابينوفيتس (شامير).

وقد مر سالفين في طريق عودته الى ارض ـ اسرائيل بسويسرا حيث التقى، في اثناء عقد المؤتمر الثاني والعشرين في بازل، بن ـ غوريون وباقي زعماء «الهاغاناه»، وقدم لهم تقريرا عن نشاطه. ولم يدرك الاشخاص، في ذلك الوقت، كم كانت قريبة ساعة الحسم. «اعتقدت انه ما زال امامنا وقت يمتد الى عدة سنوات» ـ كتب سالفين في مذكراته ـ «وخططت لتطور مداه خمس سنوات».

عودة سالفين الى الصناعة العسكرية

عاد سالفين الى البلد وفي جعبته مشاريع ثورية لتوسيع الصناعة العسكرية. ولم تكن هذه المشاريع قابلة للتنفيذ في «المؤسسات» الصغيرة الموزعة على الورش الصناعية في انحاء عديدة من البلد. ولذا، خطط لاقامة شعب غير شرعية لصناعة السلاح، مرتبطة بمصانع لديها ترتيبات تمويه ومخابىء سرية، ويمكن ان تخفى فيها عدة مئات من الاطنان من المادة «المحرمة» خلال نصف ساعة. لكن تقرر، كمشروع بديل، اقامة مصنعين كبيرين تحت الارض. وكان احد الاماكن التي اختارها سالفين لهذا الغرض الحفرة الكبيرة الخاصة بمصنع «سيليكت»، التي كانت قائمة وقتئذ بجوار الموضع الذي تقع فيه حاليا ساحة تسينا ديزنغوف بتل ابيب. 1239

وكانت الصناعة العسكرية، كما ذكرنا اعلاه، تعمل بادارة يوسف يزراعيلي. وبدت مشاريع سالفين، بالنسبة الى ميزانية المنظمة، غير واقعية وحتى مبالغا فيها، وأثارت عودته الى العمل المخاوف على الرغم مما تنطوي عليه من روحية اندفاع واقتحام. ولم تكن بينه وبين يوسف يزراعيلي لغة مشتركة. واستمرت شحنات الآلات والمواد في الوصول من الولايات المتحدة بصورة منتظمة. «لم يعد ثمة مكان للآلات» ـ روى سالفين ـ «وامتلأت جميع المساحات تماما، وبدلا من استخدام هذه الآلات الضخمة وهذه المواد وهذه المخططات لانشاء صناعة، تحولتُ الى عامل يشغل نفسه ببناء مستودعين متواضعين!». وأنشىء احد

المستودعين في مصنع الورق الذي يملكه تايفر قرب هيرتسليا، والثاني في حولون، تحت ستار مصنع «بليز».

وحاول سالفين، في جلسة للقيادة العليا، ان يقنع الحاضرين بضرورة البدء فورا باقامة المشروع، اذ انه لا بد من مضي وقت طويل وثمين قبل ان تركب الآلات ويبدأ الانتاج. لكن قيل له ان الانتقال الى الانتاج بالآلات التي جلبها مرتبط بقفزة اكبر من المستطاع، وان ميزانية المنظمة لا تسمح بتنفيذ مشروعه. ويجدر بنا ان نذكر انه ايضا بعد مرور فترة من الوقت، عندما بدىء باقامة المشروع، كان هناك فنيون ومهندسون هزوا رؤوسهم وتساءلوا عن ضرورة مشروع بهذا الاتساع لبلد صغير مثل ارض ــ اسرائيل.

مع عودة بن ــ غوريون الى البلد تجدد النقاش حول تطوير الصناعة العسكرية، لكن سالفين لم يشارك فيه. وأبديت آراء مفادها انه «ينبغي اقامة المشروع الجديد (للصناعة العسكرية) بموازاة المشروع القائم، وعدم ايقاف العمل القائم دفعة واحدة» (م. سنيه). وقيل عن سالفين انه «رجل مزاجي متقلب الاهواء، يمكن ان يثور في كل لحظة. ويجب ان تكون الادارة مشكّلة بحيث تستطيع ان تعمل ايضا من دون «هيلل» (سالفين)؛ انه لا نظير له كخبير، ولا يمكن لأحد ان يحل محله في هذا المضمار، لكن في الامكان العثور على اداري» (رئيس القيادة القطرية، ز. فاينشتاين).

وفي تموز/ يوليو ١٩٤٧، انشئت ادارة لمشروع الصناعة العسكرية الجديد، من بين اعضائها: سالفين ودوستروفسكي ومردخاي كابلان، وبدىء بالبحث عن شخص [لتولي امر] العلاقات بين المستخدمين والعمال».

ومع افتضاح امر «الحانوت» واعتقال العمال في «الصنيف» (انظر ص 1233)، تزعزع نظام الانتاج في الصناعة العسكرية. وسارعت الادارة، التي عرفت كيف تدير شؤون الصناعة العسكرية في ظل سير الامور بصورة طبيعية، الى استدعاء سالفين، لا من اجل اقامة المشروع الجديد وانما من اجل حل المشكلات المرتبطة بالازمة التي شلت صناعة السلاح التابعة للمنظمة. وعاد سالفين الى العمل في آب/اغسطس ١٩٤٧، وخصصت له بناء على طلبه ميزانية اولية مقدارها ٢٥,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وكان الغرض من هذه الميزانية الانتهاء من انتاج الـ ٣٣٠٠ ستن التي لم تكن جاهزة، وأيضا إعداد ١٠,٠٠٠ كرة باليستية للقذائف من عيار ٣ بوصات الموجودة في مخازن الصناعة العسكرية.

وأقيمت بسرعة، من اجل انجاز تركيب الستنات، مؤسسة تحت الارض باسم «شومرياه»، قرب كيبوتس يكوم الذي كان يقع آنذاك في ناحية نائية من الشارون [السهل الساحلي]، لا تصل اليها اية طرق. وحفرت الجرارات والجرافات الحفرة من اجل المبنى، الذي شيد وفقا للتجربة التي تم اكتسابها في «مؤسسة ايلون». وجلبت قطع الستنات من مخابئها في رمال حولون الى المكان. وهنا تم تركيبها، وهنا ــ في باطن الارض ــ تم اختبارها وتخزينها.

لكن الامور تطورت الآن بسرعة فائقة. وما لم يفعله إدراك الانسان وخياله، فعله الزمان. واتضح فجأة ان اليشوف يقف امام احتمال نشوب حرب، وأن كل لحظة ثمينة. وحصل سالفين على الموافقة على البدء باقامة مشاريع الصناعة العسكرية باستغلال المعدات التي جلبها من الولايات المتحدة. وأعفي المهندس يوليوس فايلر، الذي ترك الصناعة العسكرية مع سالفين، من عمله في شركة الكهرباء بناء على طلب الوكالة اليهودية، وكُلِّف انشاء مكتب فني تولى التخطيط لاقامة مشاريع انتاج السلاح والمواد المتفجرة. وتحددت اماكن مباني هذه المشاريع، وبدأ الاعداد لاقامتها وتجنيد فريق العمال لتركيب الآلات بسرعة محمومة. وفي ١٩٤٧/١٠/٦، اخطر بن ـ غوريون سالفين «بأن يطلب كل ما هو لازم فورا، والاموال موضوعة في تصرفه». وطلب سالفين مليوني جنيه فلسطيني: ٨٠٠,٠٠٠ للمواد (فولاذ ونحاس ومواد كيماوية)، و ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني لـ ٢٠,٠٠٠ بندقية، و ١٠,٠٠٠ مدفع رشاش، و ١٠,٠٠٠ مسدس، و ٥٠٠٠ رشيش، ونحاس من اجل ٤,٥٠٠,٠٠٠ رصاصة. وبناء على التجربة المكتسبة في الولايات المتحدة، انشئت شركة للتمويه باسم «بالايندنت» من اجل تنفيذ الطلبات والمشتريات، وسجل يوليوس فايلر مديرا لها.

المشاريع الكيماوية

اثار قرار قيادة المنظمة باعادة سالفين الى منصب مدير الصناعة العسكرية غضبا شديدا بين العمال. وأعلنت مجموعة رجال الصناعة العسكرية، وعلى رأسها الدكتور آشر شفايغر (شمغار) وشلومو بوغارد اللذان كانا من بين المشرفين على فرع الصناعة الكيماوية في الصناعة العسكرية، بوضوح انها لن تعمل مع سالفين. ولم يكن في وسع «الهاغاناه» الاستغناء عن خدمات هؤلاء الاشخاص، الذين كانوا يمتلكون افضل الخبرة المتوفرة للمنظمة في حقل علم القذائف النارية وصناعتها. وكُلِّف ليفي شكولنيك (اشكول) ايجاد حل وسط. لكن اتضح ان لا سبيل الى ذلك إلا باخراج قسم المواد المتفجرة من نطاق صلاحيات سالفين ووضعه في عهدتهم. وأنشىء مشروع مواز تابع للصناعة العسكرية، باسم المشاريع الكيماوية، في مقابل مشروع سالفين الذي دعي باسم مشاريع انتاج السلاح. وعين رعنان فايتس وشلومو غرزوفسكي (غور) مديرين إداريين للمشروع، وشفايغر وبوغارد مديرين فنيين. وقسمت تركة الصناعة العسكرية القديمة عمليا بين المشروعين من دون تقيد بتعريف دقيق. فبقي انتاج القنابل اليدوية بأكمله، مثلا، تابعا لسالفين، بينما اقام رجال المشاريع الكيماوية ارتباطا بالمهندس جنكا راتنر، الذي جلب معه تصاميم لانتاج الـ «بيات» [مدفع مضاد للدروع]. ووضع مصنع الصناعة العسكرية في كفار فيتكين في تصرف رجال المشاريع الكيماوية، وبدأوا بتجديده وتوسيعه. وبدىء بانشاء مؤسسة مركزية في بارديس ابريليه قرب رامات غان، دعيت باسم «اوسم»، وعين يوسف حريط مديرا لها. وكانت المهمة المركزية التي

اوكلت الى المشاريع الكيماوية هي انتاج المواد المتفجرة، التي كان النقص القائم فيها يضغط على «الهاغاناه» بصورة متواصلة. وكان الدور الذي تعين على المشاريع الكيماوية ان تقوم به في الاشهر الاولى لحرب الاستقلال كبيرا. وقد عملت بارتباط وثيق مع المختبر المركزي التابع للصناعة العسكرية، الذي كان الدكتور شفايغر مديره.

ودقت الساعة الثانية عشرة، وكان وقت ثمين جدا قد مضى. وغرق البلد لاشهر في خضم حرب دامية، وبدىء باعادة بناء الصناعة التسليحية لـ «الهاغاناه» على اسس عصرية، عمليا، في ابان ايام الحرب.

شراء السلاح في ارض ـ اسرائيل

لم يتوقف المصدر الثاني الذي استمدت منه «الهاغاناه» سلاحها ـ شراء السلاح من البلد والخارج ـ عن التدفق وتوفير الاسلحة الثمينة حتى في اثناء سنوات النضال.

فمع انتهاء الحرب، تراكمت صعوبات كثيرة في طريق الاشخاص العاملين في مجال شراء السلاح. وأدت العلاقات المتوترة بين اليهود والبريطانيين، وليس على المستوى الرسمي فقط وانما ايضا على المستوى الشخصي، الى انقطاع الصلات وزيادة الشكوك والرقابة. وكان ظهور المنظمتين المنشقتين في سوق السلاح، الذي ادى الى تنافس معين، احد العوامل التي عرقلت عملية شراء السلاح. لقد «شعر العرب، الذين كانوا الباعة الرئيسيين» ـ ذكر تقرير لقسم التسليح ـ «فورا بظهور هؤلاء الزبائن في السوق، واستغلوا الوضع على افضل وجه».

1241 لكن مع نقل فائض السلاح العائد الى ايام الحرب وتصفية المخازن، وقعت اسلحة كثيرة في يد اليهود والعرب، ووصل جزء منها الى مخازن «الهاغاناه» الرئيسية. وقد ترأس نشاط شراء السلاح من البلد في تلك الفترة بنحاس فازيه، من كيبوتس روحاما («بينيك»). ويورد تقرير خاص بقسم التسليح حول مشتريات السلاح من البلد في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧، الارقام التالية:

نوع السلاح	سنة ١٩٤٦	سنة ١٩٤٧
مدافع رشاشة متوسطة	٦	٤
مدافع رشاشة	٨	٢٩٦
بنادق	٢١	٦٦٦
رشيشات	٢١	٤٧٤
مسدسات	٥٠	٣٢٤
عيارات نارية	١١٠,٤٠٠	٢٤٦,٣٠٠

ان الانخفاض قياسا بسنوات الحرب واضح جدا، وخصوصا في سنة ١٩٤٦. وفعلا،

فقد انتقل النشاط الرئيسي بالنسبة الى شراء السلاح في هاتين السنتين الى خارج البلد. ومع ذلك، فقد ظل السببان القديمان لاستمرار شراء السلاح من البلد واردين، وهما: أ ــ الاحتفاظ بعلاقة دائمة بتجار السلاح المحليين، لعلها تثمر في حال توقف تدفق السلاح من خارج البلد؛ ب ــ تقليل كمية السلاح الموجودة في حيازة العرب كي لا توجه ضد اليیشوف العبري.

تجدد شراء السلاح من اوروبا

تجددت نشاطات شراء السلاح من اوروبا بكامل طاقتها بعد انتهاء الحرب العالمية فقط. لكن حتى في اثناء الحرب بدأ يتسحاق ليفي ــ من قدامى العاملين في شراء السلاح، والذي اضطر الى الفرار من البلد الى ايطاليا بعد إلقاء القبض على اثنين من عملائه الانكليز (انظر ص 269) ــ ينشط على غرار «الأنصار». اذ انتقل الى فرنسا بعد جلاء الجيوش الالمانية عنها وأنشأ مخابىء سرية للسلاح في مؤسسة لتأهيل الفتيان في مرسيليا. «اخترنا هذا المكان» ــ كتب في مذكراته ــ «لكونه منعزلا وبسبب اقبيته ومبانيه التي وجدناها ملائمة لتخزين السلاح وللهجرة الثانية». وكانت بداية نشاطه شراء قطع سلاح على نطاق ضيق بمساعدة جنود يهود في جيش الولايات المتحدة. وقد تم تحقيق الارتباط معهم بمساعدة حاخام عسكري دعا الجنود اليهود جهارا، تقريبا، «الى جمع الملابس وتجهيزات الاسرة والاسلحة» من اجل تجهيز الطلائعيين الذين ينوون الهجرة الى البلد. وتم نقل ارساليتين صغيرتين، اشتملت كل منهما على ٢٠ ــ ٣٠ مسدسا، في متاع جنود اميركيين قاموا بزيارة ارض ــ اسرائيل. وبدأت مجموعات الجنود، التي كانت متركزة في وحدة النقل ٤٦٢ وتولت مساعدة اللاجئين ومنظمات الهجرة اللاشرعية، بتجميع اسلحة من اجل نقلها الى البلد. وأتاحت الفوضى وتدهور المعنويات، اللذان سادا جيش الاحتلال البريطاني في ايطاليا لدى انتهاء الحرب، فرصا كبيرة للعاملين في مجال شراء السلاح. وجرى تجميع السلاح في «مزرعة التأهيل» في ماجينتا، التي كانت بمثابة واحدة من القواعد التي استخدمتها المجموعة.

وفي أواخر سنة ١٩٤٥ تقابل ليفي و د. بن ــ غوريون، الذي قدم لزيارة اوروبا. وكانت هناك في تلك الفترة خطة موضوعة لتوسيع النضال الذي جرى في ارض ــ اسرائيل ليمتد الى الاراضي الاوروبية ويثير حركة تمرد في مخيمات اللاجئين، تتخذ طابع هجرة مهاجرين غير شرعيين مسلحين. وكانت تلك فكرة د. بن ــ غوريون منذ سنة ١٩٣٩ (انظر ص 78). وأصدر هذا أوامره الى ليفي بزيادة نشاطه في شراء السلاح، وبالتوقف عن ارساله الى البلد وتجميعه في مستودعات معينة ليكون جاهزا للاستخدام عند الضرورة. وأصدر بن ــ غوريون تعليمات الى المسؤولين عن أموال الوكالة في اوروبا بوضع مبالغ معينة في تصرف ليفي استخدمت في شراء ٢٠٠ رشيش جرى تخزينها في المخبأ السري في مرسيليا.

1242

وكان الجنود في الوحدات البريطانية المختلفة يرسلون ايضا شحنات صغيرة من السلاح في مناسبات مختلفة. وقد ارسل الجنود اليهود المعسكرون في رودس اجهزة اتصال ومسدسات في صناديق من المفروض ان تحتوي، بحسب الظاهر، على كتب للمكتبة الوطنية في القدس.

وفي خريف سنة ١٩٤٥، اوفد المجلس المركزي لـ «الهاغاناه» احد العاملين في مجال شراء السلاح، مئير (مونيا) مردر (مردور) الى اوروبا. ووصل الى بلجيكا، حيث كانت تعسكر الفرقة اليهودية، بواسطة هوية اصلية خاصة بجندي ارض ـ اسرائيل. وقابل هناك شلومو شامير، الذي كان مسؤولا من قبل «الهاغاناه» عن اعضائها في الفرقة. وفي تلك الاثناء، كان القيمون على السياسة الصهيونية لا يزالون يأملون بعودة الفرقة اليهودية الى ارض ـ اسرائيل لتشكل فيها هيئة عسكرية دائمة. ولذا، فان عمليات غير شرعية لشراء الاسلحة كان من شأنها ان تسيء الى هذه الآمال. وكان بعض الضباط اليهود في الفرقة مترددين وحائرين فيما اذا كان من المجدي تأييد هذا النشاط، حتى انهم كانوا احيانا يعرقلون تنفيذه. وبعد محادثات مع شلومو شامير ورفاق آخرين، كانت لهم مكانة معينة بين جنود الفرقة، تقرر انه لا يجوز تفويت الفرص الكبيرة التي تكشفت في اوروبا. وكُلِّف مردخاي ماكليف القيام بمهمة ضابط الاتصال بين الفرقة والعاملين في شراء السلاح. وانضم الى المجموعة يسرائيل كارمي، من قدامى العاملين في شراء السلاح، والذي كان برتبة رقيب أول في احدى كتائب الفرقة. كما انضم اليها عدد من الجنود (حاييم لاسكوف، ومئير زارودينسكي [زوريع، «زارو»]*، ويسسكار شبيغل، وآخرون). وكان معظمهم قد عمل في شراء السلاح، بارتباط مع مئير مردور، منذ ان كانوا معسكرين مع كتائبهم في ارض ـ اسرائيل، وحتى قبل تجنيدهم في الجيش. وانضم الى هذه المجموعة ايضا يتسحاق ليفي مع مستودعه. وأظهرت دراسة سريعة وجود مستودعات سلاح كثيرة في أمكنة متفرقة في بلجيكا. وكان هناك مستودع كبير للسلاح يحتوي على مئات الآلاف من أنواع مختلفة: رشاشات وبنادق ومدافع مضادة للدروع وما شابه ذلك، موضوعا تحت حراسة وحدة جنود تابعة للفرقة اليهودية بأمرة مئير زارودينسكي. وبدىء بتهيئة سبل الارسال. واتضح بسرعة ان ارسال السلاح عن طريق موانىء بلجيكا، التي كان يسيطر عليها وقتئذ البريطانيون، غير ممكن. وكانت الطريقة الوحيدة هي ارسال السلاح الى موانىء البحر الابيض المتوسط في فرنسا او ايطاليا. وأجريت دراسة لمراكز الحدود بين فرنسا وبلجيكا فاتضح ان معظم السيارات العسكرية البريطانية يمر من دون تفتيش دقيق. ووسع يتسحاق ليفي شبكة المخابىء السرية في جنوب فرنسا. فأعد مخبأ في مبنى جمعية العناية باللاجئين ويتامى الحرب، التي اسستها الحركة السرية اليهودية في فرنسا في تولوز، ومخبأ آخر في مزرعة تابعة للجمعية نفسها بالقرب من بلدة فيل فرانس دو لوراجيه في جنوب غرب فرنسا، جنوبي تولوز. وقد

* هكذا في الاصل.

قام ببناء المخبأين السريين في هذين المبنيين شابان هولنديان مسيحيان، من اعضاء الحركة المعادية للنازية، وعملا في مجال انقاذ اليهود في اثناء سنوات الاحتلال النازي واعتبرا عملهما في مساعدة الهجرة اليهودية وتسليحها استمرارا لعملهما في سنوات الحرب. وجهزت سيارات تابعة للفرقة وجُمعت من اجل نقل السلاح المؤشر عليه «للبيع». لكن في نهاية آذار/مارس ١٩٤٦، عندما اصبحت القافلة جاهزة لتنفيذ المهمة، استدعي كارمي ومردور الى باريس لمقابلة موفد «مؤسسة الهجرة»، شاؤول مئيروف، وكُلِّفا تسليم السيارات لاستخدامها في نقل ٨٠٠ لاجىء يهودي من ألمانيا الى السفينة «تل حاي»، التي كانت تنتظر قرب ساحل مرسيليا (انظر ص 1122).

وبعد ذلك مباشرة تجدد النشاط. وحفزت الانباء، فيما يتعلق بالحل الوشيك للفرقة اليهودية، الشباب على الاسراع في عملهم. وتـم تجميع السلاح المقتنى في مزرعة كبيرة خصصت للاجئين اليهود في نامير. وهناك جرى تحميله في سيارات الفرقة اليهودية التي انطلقت في اتجاه المستودعات في جنوب فرنسا (على بعد نحو ٥٠٠ ــ ٨٠٠ كلم) بشكل قافلة عسكرية نظامية، تتقدمها شرطة عسكرية من راكبي الدراجات النارية. وبذلت كل الجهود حتى لا تشعر السلطات العسكرية البريطانية بغياب السيارات. وعلى هذا النحو جرى نقل نحو ١٢٠ طنا من الاسلحة من بلجيكا الى فرنسا في ثلاث قوافل: الاولى الى مرسيليا، والثانية الى تولوز، والثالثة ــ وهي الكبرى ــ الى فيلنيف.

1243

عراقيل خطرة في نشاط شراء السلاح في فرنسا

في ١٩٤٦/٦/٢ وقع حادث خطر ادى الى كشف امر شبكة تهريب السلاح في فرنسا. وكان للأمر صلة بقافلة السيارات الاخيرة المشكلة من ١٥ شاحنة، والقادمة الى فيلنيف. فقد ضلت هذه القافلة طريقها ووصلت الى المكان في يوم انتخابات مجلس النواب بالذات، في وقت كانت فيه المشاعر ثائرة وجماهير السكان تجوب الشوارع. وكان هناك في الجوار سجن كبير فيه نحو ٢٠٠٠ من المتعاونين مع النازيين. وأدخل السلاح الى المستودعات بسلام وعادت القافلة. لكن سرت في الجوار شائعة بأن عناصر مؤيدة للفاشية تجمع السلاح في المكان من اجل اقتحام السجن واطلاق السجناء الموجودين فيه. ووضعت الشرطة يدها على السلاح، وبدأت تحقيقاتها، وكشفت امر المستودع في تولوز. وأعلنت الصحف الفرنسية بعناوين كبيرة اكتشاف السلاح وثارت شكوك في انه يخص منظمة صهيونية سرية.

وكان شاؤول مئيروف موجودا في تلك الفترة في فرنسا، من اجل معالجة امر سفن الهجرة غير الشرعية التي احتجزت في ميناء لاسبيزيا (انظر ص 1123). وشاور شاؤول على الفور د. بن ــ غوريون الذي كان موجودا في باريس. وعندما نحت الامور منحى خطرا جدا، توجه الى السياسي اليهودي الفرنسي المحامي اندريه بليمل. ونصح بليمل لرجال

«الهاغاناه» بالاتصال فورا بالسلطات الفرنسية واطلاعها على الحقيقة. وبدت المشورة في البداية غريبة جدا في نظر رجال المنظمة المعتادين على التآمر والابتعاد عن السلطة. ولم يقدروا، بصورة كافية، مدى نفور الفرنسيين من البريطانيين في تلك الفترة. وجرت محاولة لانقاذ السلاح بتسليم جزء منه للمنظمة الاسبانية الجمهورية التي كانت تتمتع بتأييد حكومة فرنسا، لكن الاسبانيين تراجعوا عندما عرفوا بكمية السلاح التي تفوق كثيرا توقعاتهم. واضطر يتسحاق ليفي الى مغادرة فرنسا. وألقي القبض على القائم بأعماله، شفارتز، من رجال الفرقة اليهودية، بتهمة التجسس. وازداد الوضع خطورة، وبدأت ترد انباء سيئة عن اكتشاف مخابىء سرية اخرى للسلاح المعد لـ «الهاغاناه». واضطر شاؤول مثيروف وزملاؤه الى الاخذ بمشورة بليمل. وأسندت الى رعنان فايسمان (بن–نون)، من رجال الفرقة اليهودية، ابن الاسكندرية الملم جيدا باللغة الفرنسية، والذي شارك قبل تطوعه في الفرقة في المقاومة السرية الفرنسية، مهمة مقابلة الفرنسيين. وقدمه بليمل الى رئيس الشرطة الفرنسية كممثل لـ «الهاغاناه» ومسؤول عن السلاح المكتشف وصديق له. وشرح فايسمان في اللقاء الذي تم مع رئيس الشرطة، وشارك فيه ايضا وزير داخلية فرنسا، للفرنسيين مشكلات «الهاغاناه» والامن في البلد، ووعدهم باخراج السلاح من فرنسا في اول فرصة تسنح. وعندما اصطدم بمعارضة الاثنين، اللذين ادعيا انهما متعاطفان مع اليهود لكنهما لا يستطيعان العمل ضد القانون، انفجر فايسمان قائلا: «لقد قتل ستة ملايين يهودي في اوروبا، سقطوا ضحية وحشية النازيين، والعالم كله متعاطف معهم. اننا لا نحتاج الى هذا التعاطف. ان الهدف من هذا السلاح هو انقاذ اليهود من الذبح والسطو. واذا اخذتم هذا السلاح منا فستكونون مسؤولين عن موت يهود لا احد يعرف كم سيكون عددهم. لكن لتعلموا ان الشعب اليهودي، وخصوصا يهود ارض – اسرائيل صمموا على الدفاع عن حياتهم والقتال حتى آخر رجل». وقد أدت هذه الفورة العاطفية، بعد مرور يوم او يومين، الى تغيير موقف الفرنسيين. فأطلقوا سراح شفارتز، حتى انهم قرروا اعادة السلاح الى «الهاغاناه». إلا انهم أعلنوا انهم لا يستطيعون العمل جهارا، لأن الامر مخالف لسياستهم المعلنة بصفتهم حلفاء الانكليز. ولذا طالبوا باخراج السلاح خلال اسبوعين او ثلاثة اسابيع من الاراضي الفرنسية. 1244

وفي لقاء بين فايسمان ومدير شرطة الامن الفرنسية وضعت في النهاية خطة لاخراج السلاح، يحضر بموجبها رجال «الهاغاناه» الى مستودعات المنطقة، حيث كان السلاح محفوظا، وهم يرتدون الزي العسكري البريطاني ويقودون سيارات بريطانية، كأنهم قادمون لاسترداد سلاح مسروق من مستودعاتهم. وبعد ذلك يجب ان يخرجوا السلاح من فرنسا بالطريقة التي يرتؤونها.

وتقرر نقل السلاح الى ايطاليا. ووافق يهودا أرزي، الذي كان يشرف على نشاط الهجرة الثانية في ذلك البلد، على استلام السلاح واخفائه. ولم تتم اعادة قسم من السلاح

كان قد سلم الى الجيش الفرنسي. واشتمل هذا القسم، من بين اشياء اخرى، على اكثر من ثلاثة ملايين رصاصة وعدد كبير من القنابل اليدوية ومدافع الهاون والبنادق. ونقل السلاح الذي كان محفوظا في المستودعات في تولوز وباريس، والسلاح الذي لم يكتشف في مستودعات مرسيليا، الى ايطاليا بواسطة سائقي «مؤسسة الهجرة» في ميلانو. وكانت هذه المجموعة قد عملت تحت غطاء مدني كوحدة مساعدة تابعة لـ «جوينت» [الجباية اليهودية الموحدة] (انظر ص 1130)، إلا انه كان من الضروري من اجل تهريب السلاح صبغها بصبغة عسكرية. «دهنّا السيارات» ــ روى آفي هوروفيتس في شهادته ــ «وعلقنا لوحات ارقام عسكرية، وألصقنا على الباب اشارة وحدة الـ .R.A.S.C، وارتدينا الزي العسكري، ورتبنا لكل سائق بطاقة جندية ودفتر مدفوعات، وتحولنا ثانية الى جنود بريطانيين». وقد استلم السائقون في تولوز ما يربو على ٥٥ طنا من السلاح، اشتملت على ٣٠٠ مدفع برن؛ وفي مرسيليا: ٣٠ ــ ٤٠ طنا من السلاح. بينما نقلت ثلاث سيارات كمية السلاح القليلة التي كانت موجودة في مستودعات في ضواحي باريس.

وفي تلك الايام بالذات اكتشفت الشرطة الفرنسية بفضل الاجهزة الممتازة التي كانت تمتلكها محطات الارسال غير الشرعية التابعة لـ «الهاغاناه» الموجودة داخل حدود فرنسا (انظر ص 1095). وقد حلت هذه المشكلة ايضا بطريقة مبتكرة. فقد كان احد رجال اجهزة الاستخبارات الفرنسية، ممن كانت تصلهم بصورة روتينية الاخبار عن هذا الموضوع، يحذر رجال «الهاغاناه» مسبقا، وكان هؤلاء ينقلون جهازهم الى مكان آخر. واضطر رجال «الهاغاناه»، في مقابل ذلك، الى اعطاء جهاز الاستخبارات ذاك الشيفرة التي يستخدمونها. «ليس واضحا ما اذا كانوا حلوا جميع برقياتنا ام لا» ــ كتب ش. افيغور في سجلاته ــ «لكنهم لم يستغلوا قط معلوماتهم عنا للاساءة الينا. ــ وقد قالوا لنا بصراحة وحزم اننا ما دمنا نحارب الانكليز فسوف يساعدوننا. لكن اذا اتضح لهم اننا نتدخل في شؤون فرنسا الداخلية، فانهم لن يترددوا في اتخاذ اقصى الاجراءات ضدنا. وطمأناهم نحن طبعا وظلوا اصدقاءنا وسندنا طوال تلك الايام السود، والى حين تأسيس الدولة». وقد دعانا اندريه بليمل، جريا على العادة الفرنسية، الى وليمة لم تغب عنها، طبعا، المشروبات. وحضر من جانب «الهاغاناه»: شاؤول افيغور وايهود افريئيل، ومن الجانب الفرنسي: اثنان من رؤساء اجهزة الاستخبارات. وأوضحت الامور وحددت من خلال التفاهم والصداقة، ومن ناحية الفرنسيين بجد كبير.

وقد اشتمل السلاح، الذي نقل من الفرقة اليهودية الى مستودعات «الهاغاناه» في البلد، على ٣٠٠ مدفع برن، و ٦٠٠ بندقية بريطانية، و ٣٠٠ مسدس، ومدفعين مضادين للدروع، و ٥٠٠ رشيش ستن، و ٤,١٥٠,٠٠٠ رصاصة من أنواع مختلفة.

نقل السلاح من ايطاليا الى ارض ـ اسرائيل

جرى تخزين السلاح المنقول الى ايطاليا في مزرعة ماجينتا في جوار ميلانو، حيث كان مخزونا ايضا السلاح الذي اشتري بعد انتهاء الحرب من «مخلفات الجيش البريطاني» في ايطاليا نفسها. وتوجب الآن ايجاد طريقة لنقله الى ارض ـ اسرائيل. وتقرر ذلك فعلا بواسطة الجهاز الذي نقل في ذلك الوقت بنجاح فائق آلات انتاج السلاح من الولايات المتحدة الى ارض ـ اسرائيل (انظر ص 1237). لكن اتضح ان الامر ليس بهذه السهولة. فآلات انتاج السلاح كان في الامكان تمويهها كآلات نسيج، لكن كان من غير الممكن تمويه سلاح حقيقي على هذا النحو. وكان لا بد من اللجوء الى اساليب يهودا أرزي في فترة شراء السلاح من بولندا في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية (انظر المجلد الثاني، ص 973-968)، وتركيب آلات وأجهزة صالحة لاخفاء السلاح. لكن العلاقات التجارية العادية بالايطاليين لم تكن قد تجددت بعد. «لم يكن من المألوف بعد ارسال آلات من ايطاليا» ـ كتب إلياهو ساخاروف ـ «ولم تكن هناك في البلد مشاريع صناعية مزودة برخص لاستيراد آلات من ايطاليا. وزيادة على ذلك ـــ فهمنا انه لا يجوز لنا، من الناحية الخلقية، تعريض المشاريع الصناعية في البلد لأخطار كبيرة من هذا النوع، إلا اذا اتضح ان جميع المنافذ الاخرى قد سدت في وجوهنا».

1245

كما كانت هناك اعتبارات سياسية؛ «نظرا الى الظروف السياسية المحيطة بالييشوف في ذلك الوقت، فان تجديد ارساليات السلاح كان ينطوي على مجازفة كبيرة جدا. وبصعوبة نجح اعضاء القيادة القطرية في الحصول على موافقة المؤسسات [اليهودية في فلسطين]. وكان من المحتمل ان يؤدي افتضاح امر ارسالية سلاح موجهة الى الييشوف الى تأزيم العلاقات بينه وبين حكومة الانتداب التي كانت اصلا تمر بأزمة خطرة جدا وقتئذ» (إ. ساخاروف). ولذا لم توافق القيادة القطريةعلى نقل السلاح من ايطاليا إلا بعد ان قدمت لها خطة تفصيلية، يمكن ان تضلل حكومة البلد حتى في حال افتضاح امرها.

وأُسندت الى نائب ب. فازيه، أبراهام بورشي، مهمة الحصول على رخص استيراد آلات لحساب مؤسسات تجارية عربية وهمية في يافا وحيفا. واستئجار صناديق بريد باسمها، وفتح اعتمادات في المصارف. واستعان على ذلك برجل «الدائرة العربية» يروحام كوهين، الذي تنكر بصورة رجل اعمال عربي متمرس. وأُوكلت الى تسفي سيلفر، من مواليد انكلترا ومن حاملي الجنسية البريطانية، مهمة السفر الى ايطاليا والقيام بدور الوكيل المخول شراء آلات وانجاز كل الاعمال العلنية المتعلقة بشحن البضاعة. وتولى مونيا مردور تنظيم الجانب غير الشرعي في العملية؛ فأخفي السلاح المعد للارسال في ماجينتا داخل معدات (آلات ضغط الهواء، ومراجل بخارية، وآلات اسمنت، وما شابه ذلك)، هيئت خصوصا لهذه الغاية في ورشة عمل يملكها رجل ايطالي اطلق عليه رجال المشتريات العسكرية اسم «مونتي». وقد أُنجز توضيب السلاح بعدد قليل من رجال المشتريات العسكرية. فجرى

تفكيك القطع (الرشيشات، والستينات) الى الاجزاء المكونة لها، وأُرفق كل جزء برقم من اجل تسهيل عملية تركيبه في البلد. وكانت الارسالية الاولى ــ الارسالية التجريبية ــ صغيرة جدا، ووصلت الى حيفا في مطلع شتاء سنة ١٩٤٧ بعد ان عبرت الحواجز الجمركية بسلام.

وبعد الارسالية الاولى تقرر اقامة اتصال دائم بمونتي. وكان مونتي يشتري آلات مستعملة وفقا لتعليمات رجال المشتريات العسكرية، فيجهزها بمساعدة ٤ ــ ٥ عمال يثق بهم، ويصلحها بحيث تبدو جديدة، ثم ينقلها بمعاونة سيلفر ومردور الى مزرعة ماجينتا، التي ارسلت اليها نواة لاعداد الطلائعيين، كان رجالها يعملون في المزرعة، بينما كان «المسؤولون عنهم والموثوق بهم من بينهم» ــ روى إ. ساخاروف ــ «يشاركون في العملية المقدسة المتمثلة في تنظيف السلاح وتوضيبه، وباقي النشاطات السرية».

ومع اتساع العمل ارتأى رجال المشتريات العسكرية انه ينبغي تركيز جميع نشاطات توضيب السلاح في ماجينتا. فأُنشئت ورشة في المزرعة، وأرسلت المنظمة [«الهاغاناه»] يتسحاق شيفريس، من كيبوتس ناعان ومن رجال الصناعة العسكرية القدامى وأحد الخبراء ببناء المخابىء السرية، الى هناك. واقتنى شيفريس معدات كاملة للورشة، ودرب عددا من الاشخاص على العمل، وجهز رافعة متطورة في وسعها تحميل اية آلة، يصل وزنها الى ٥ اطنان، خلال دقائق معدودة وبقوة ٢ ــ ٣ اشخاص. كما جهزت منجرة صغيرة لصنع الصناديق لتعبئة الآلات. واضطر رجال نواة إعداد الطلائعيين المشاركون في هذا العمل الى تأجيل هجرتهم الى البلد الى حين الضرورة. «بمساعدة الورشة» ــ كتب إ. ساخاروف ــ «توصلنا الى اكتفاء ذاتي، شامل على افضل نحو كان في الامكان التوصل اليه في ظل الظروف في بلد أجنبي». 1246

وكانت احدى المراحل الصعبة والمعقدة في هذه العملية، الحصول على رخص التصدير من ايطاليا التي كانت خاضعة لنظم الرقابة على العملة الصعبة. وهنا استعان الرجال بصديق ايطالي لقبوه «دومينو» ــ وهو تاجر محترم ساعد كثيرا رجال «مؤسسة الهجرة» ايضا ــ سهل لهم الأمور في دوائر الجمرك والتصدير الايطالية.

ولدى وصول الارساليات الى ميناء حيفا، تولى الجهاز الذي قام بتخليص شحنات العتاد الاميركي، ايضا تخليص هذه الارساليات وتسليم السلاح الى قسم التسليح في «الهاغاناه». وقد وصلت الى البلد، حتى نهاية سنة ١٩٤٧، ست ارساليات. واشتملت، من بين قطع اخرى، على ٣٠٠ مدفع برن وقطع غيار لها، و ٢٠٠٠ بندقية انكليزية وألمانية، و ٤٠٠ رشيش، و ٥٠٠ مسدس، ونحو ١,٥٠٠,٠٠٠ رصاصة. وقد وصلت الشحنة الاخيرة من ماجينتا بعد اندلاع حرب الاستقلال واصطدم استلامها بصعوبات نابعة من تلك الفترة (انظر الفصل السادس والسبعين).

بداية التحول في نظام شراء السلاح

في نهاية سنة ١٩٤٧، اتضح ان وتيرة شراء السلاح لا تتلاءم مع الحاجات المحتمل ان تظهر، فيما لو نشبت في البلد حرب فعلية بين العرب واليهود. فالشراء كان يتم بصورة عفوية، وقطع السلاح لم تكن تساوي دائما قيمتها، والكميات كانت محدودة. وكان لا بد من ايجاد مصادر للسلاح اكبر وأكثر ضمانا. وقد اتخذت الخطوة الاولى من اجل توسيع النشاط بفصل شعبة شراء السلاح في قسم التسليح التابع للأركان العامة وتحويلها الى شعبة مستقلة تابعة للقيادة القطرية برئاسة مونيا (مئير) مردور. وفي ١٩٤٧/٩/٣٠، استدعي مردور لمقابلة بن ــ غوريون، الذي سلمه قصاصة ممهورة بتوقيعه «الى جميع الاعضاء في اوروبا» تتضمن أمرا بتقديم «كل المساعدة التي يحتاج اليها لأداء مهمته، التي تحتل في هذا الوقت وفي ظل الظروف التي نعيشها المكانة الارفع في عالمنا ومركز حياتنا». وقد زود مردور من اجل تمويه مهمته بتوصية من الغرفة التجارية ووثائق اضافية من مشاريع صناعية مثل: «ميشي [حرير] زاكس»، و «نعمان» ومشاريع اخرى، تتضمن تسميته وكيلا لها والتفويض اليه تمثيلها في الدول الاوروبية المختلفة.

وفي ابان الايام الاولى لأعمال الشغب العربية في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، ذهب ايهود افريئيل ويهودا أرزي، من نشيطي «المؤسسة» ومن اصحاب الخبرة بالعمل السري في الخارج، الى اوروبا والولايات المتحدة بعد ان تلقيا أمرا بالسفر فورا الى هناك والحصول، بكل الوسائل الممكنة، على ١٠,٠٠٠ بندقية و ٤٥٠ مدفعا رشاشا، ودراسة امكانات شراء مدافع وطائرات. وقد زود افريئيل باعتماد قيمته ٧٥,٠٠٠ دولار. وبهذا المبلغ، الذي كان ضخما جدا بالنسبة الى اسعار السلاح في تلك الايام، وضئيلا الى حد مضحك بالنسبة الى المتطلبات الفعلية للحرب، انطلق الاثنان في العالم بحثا عن مصادر للسلاح والذخيرة.

وضع «الهاغاناه» من ناحية التسليح عشية حرب الاستقلال

خلال ايام النضال استمر قسم التسليح التابع لـ «الهاغاناه» في عمله، وتولى تجميع السلاح الوارد من مصادر الصناعة العسكرية وعن طريق الشراء، وتخزينه وتوزيعه على المستعمرات ووحدات الدفاع المختلفة (البلماح وقوة الميدان).

وتسبب «السبت الاسود» بحدوث هزة عنيفة في عمل القسم. اذ صودر سلاح كثير في اثناء عمليات التفتيش، وخصوصا في ياجور. وكان بين القطع المصادرة: ١١٤ مدفع هاون عيار ٢ بوصة، و ٣٠٠ بندقية، و ٦٧٢٧ قذيفة مدفع هاون عيار ٢ بوصة، وأكثر من ٦٧٠٠ قنبلة يدوية وبندقية، و ٣٣٠,٠٠٠ رصاصة. وانكشف ايضا بعض اساليب القسم في التخزين، فكلف رجاله ايجاد اساليب جديدة للاخفاء. فجرى قبل كل شيء تفكيك جميع

1247

وسائل التمويه المشابهة لتلك التي انكشفت في ياجور ومستعمرات اخرى. وقد اضر هذا التفكيك، بصورة خاصة، بنظم التهوية في المستودعات. وبعد ذلك «بدىء بنقل السلاح بسرعة من داخل المخازن المبنية الى صناديق كبيرة (صناديق من الصفيح بسعة ٣ ـ ٤ م^{3}) دفنت في باطن الارض. وكانت سعة كل صندوق مترين مكعبين، وكان مغلقا بإحكام، وكان كل مستودع رئيسي مكونا من ٦ ـ ١٢ صندوقا كهذا ـ ـ وصدرت تعليمات بـ «دفن» الصناديق خارج السياج على بعد يقع ضمن «مرمى النظر»، من اجل التمكن من حراسة المحتويات بصورة دائمة» (تقرير قسم التسليح). «نقلنا قطع السلاح وأخفيناها في مناطق مكشوفة، في الحقول والمزارع» ـ ذُكر في اجتماع للقادة في شتاء سنة ١٩٤٨ ـ «بظروف تخزين صعبة، تسببت بالحاق أضرار جسيمة بالسلاح وخصوصا الذخيرة» (كتاب البلماح). وقد بحثت القيادة عن وسائل اخفاء «محمية قدر الامكان، من عمليات التفتيش والتلف» (المصدر نفسه). وشرع في انشاء مستودعات في باطن الارض في ايليت هشاحر وبيت هاشيطه ورامات يوحنان ومشمار هشارون. كانت قائمة على مبدأ الاغلاق المحكم وليست بحاجة الى نظم تهوية. لكن بناءها لم ينته قبل قيام الدولة، ولذلك لم تستخدم قط.

وفي ربيع سنة ١٩٤٧، عندما ازدادت التخوفات من ان يفجر العرب الوضع، صدر امر بنقل الصناديق الى ساحات المستعمرات. وفي خريف سنة ١٩٤٧، عندما اصبح خطر تسلل عصابات من وراء الحدود ملموسا جدا (انظر ص 1339)، قام قسم التسليح بارسال السلاح والذخيرة الى مناطق الحدود في الجليل الاعلى، وسهل بيت شان، وفي جوار القدس، ومستعمرات النقب. وقد اشتملت هذه الارسالية، التي دعيت باسم «تعزيزات، المرحلة أ» على ١٠ مدافع هاون عيار ٣ بوصات، و ٧٥ مدفع هاون عيار ٢ بوصة، و ٣٠ مدفعا رشاشا متوسطا و ٩٢ خفيفا، و ٢٠٩ بنادق، و ٣٦٣ رشيشا، و ٥٧٤٠ قنبلة يدوية. وقد سلم جزء كبير من الارسالية الى وحدات البلماح وقوة الميدان. وبعد ذلك مباشرة بدىء بارسال «تعزيزات المرحلة ب» الى المستعمرات والى قوة الميدان المعبأة والبلماح، والتي اشتملت في الاساس على ٧٧٠ ستنا، ورصاصات ستن (٧٧٦,٠٠٠) وقنابل ميلز (٣١,٦٠٠). وقد تم الانتهاء من توزيع هذه الارسالية على المناطق المختلفة، في الايام الاولى من حرب الاستقلال.

وقد كانت كميات السلاح التي بقيت في حيازة «الهاغاناه» حتى يوم اعلان تقسيم ارض ـ اسرائيل في الامم المتحدة (١٩٤٧/١١/٢٩)، بحسب تقرير قسم التسليح، على النحو التالي:

	مدافع هاون ٣ بوصات	مدافع هاون ٢ بوصة	بنادق مضادة للدروع	رشاشات متوسطة	رشاشات	بنادق	مسدسات	رشيشات	قنابل يدوية
مستعمرات	٨	٢٢٩	٢	٣٢	٤٤٠	٨٨٩٩	٣٢٩٦	١٥٧٩	٦٠٣٧
قوة الميدان المعبأة	٢٠	١٠٢	—	٣٠	٩٦	٥١٧	١٣٤	٥٩٤	٥٢٢٨
البلماح	١٢	٤٧	٢	١١	٧٤	٦٥١	١٠٠	٣٥٨	٣٣٨٦
قواعد مركزية	٤٤	٢٢٢	١٢	٨٤	١٦٥	٥٩٥	٣٠٠	١١٣١	٣٩,١٠٠
المجموع	٨٤	٦٧٠	١٦	١٥٧	٧٧٥	١٠,٦٦٢	٣٨٣٠	٣٦٦٢	٥٣,٧٥١

وينبغي ان يضاف الى هذه الكميات السلاح الشرعي الذي كان وقتئذ في حيازة «شرطة المستعمرات العبرية» (٤٨ مدفعا رشاشا، و ٦٨٤٠ بندقية). وكانت الذخيرة قليلة جدا. وخصصت ٥٠ رصاصة للبندقية فقط، و ٦٠٠ ـ ٧٠٠ قذيفة للمدفع الرشاش. كما خصصت كميات اقل من الذخيرة للمدافع الرشاشة المتوسطة «شورتسلوزه» التي شكلت نحو ٤٠ ٪ من المدافع الرشاشة التي كانت في حيازة «الهاغاناه» (٦٧ وحدة).

1248

ونعرض، كمثال، مجموع كميات الاسلحة في احد الفروع المهمة: فرع القدس. ففي ١٩٤٧/١١/٢٩، كان في مستودعات «الهاغاناه» في مدينة القدس ٢ مدفع هاون عيار ٣ بوصات مع ١٠٠ قذيفة و ٣٦ مدفع هاون عيار ٢ بوصة مع ٢٠٤٥ قذيفة، و ٢ بندقية مضادة للدروع (٥٠ قذيفة) ، و ٦ مدافع رشاشة «شورتسلوزه» (٢٠,٠٠٠ رصاصة)، و ١٦ مدفع برن، و ٥ لويس ـ جن، و ١٦٩ بندقية، ونحو ٨٥,٠٠٠ رصاصة، و ١٩٦ رشيش ستن، و ٩ رشيشات اخرى، و ١٩٤,٠٠٠ رصاصة عيار ٩ ملم (للرشيشات)، و ٦١٣٨ قنبلة يدوية من انتاج الصناعة العسكرية، و ٣٠٠٠ بندقية هجومية، و ٤٠٢ من المسدسات. ولا يشتمل هذا التقرير عن الوضع التسليحي على اسلحة الحراس (٥١ بندقية بريطانية، و٥٣ ايطالية، و ٢٠ بندقية صيد) وذخيرتها، ولا على اسلحة وحدات البلماح التي كانت معسكرة في الجوار، ولا على اسلحة المستعمرات الزراعية في منطقة القدس (في مستعمرات مختلفة كان هناك سلاح اضافي اشتري بوسائل محلية ومن مصادر عرضية، ولم يكن مركز «الهاغاناه» يـخطر دائما بشأنه).

كان ذلك هو وضع عتاد «الهاغاناه» عشية الامتحان الكبير. وربما كانت هذه الكمية من الاسلحة والذخيرة كافية من اجل الدفاع ضد هجوم من جانب عرب ارض ـ اسرائيل، لكنها لم تكن كافية على الاطلاق لحسم سياسي فيما يتعلق بمستقبل البلد في صراع داخله، وليست كافية ـ بالاحرى ـ للصمود في وجه غزو محتمل من جانب وحدات عسكرية من الدول العربية المجاورة. وقد أدرك ذلك جيدا قادة المنظمة في تلك الايام.

«ان المشكلة الاكثر اهمية في نظري» ـ قال يسرائيل غاليلي قبل ٤٠ يوما من نشوب حرب الاستقلال ـ «هي مشكلة زيادة قوتنا التسليحية وتزودنا بالعتاد. ـ ـ واذا كانت هناك مشكلة في مدى الرماية، فلا يمكن لأي مجموعة أدوات ان تتغلب عليها، إلا بأداة ملائمة»، وهذا ينطبق على المدرعات التي كان وجودها في حيازة القوات العسكرية العربية، كـ «الفيلق العربي» وسلاح الحدود، أمرا معروفا جيدا. «لا يمكن التغلب على ذلك إلا اذا تم الحصول على مدفع مضاد للدروع».

وفي اللحظة الاخيرة تماما شرع في اقامة مشروع للصناعة العسكرية يفوق في حجمه كل ما عرفته «الهاغاناه» حتى تلك الفترة. وكان هذا المشروع هو الذي انقذ اليشوف في الايام الحاسمة سنة ١٩٤٨.

الفصل الثاني والستون

القيادة العليا عشية حرب الاستقلال

قيادة «الهاغاناه» سنة ١٩٤٧

ان «الهاغاناه»، مثل اية منظمة عسكرية سرية، كانت بحاجة الى قيادة يضع الاعضاء ثقتهم فيها ويقبلون سلطتها. وكان اعتراف اعضاء «الهاغاناه» بسلطة القيادة الشرط الاساسي لنشاطها، الذي كان قائما على التطوع والانضباط غير المستندين الى الاكراه والاجر.

وقد تعرضت سلطة القيادة للاختبار، في الاساس، ايام المحن وحتى في الفترة التي طلب فيها من اعضاء «الصف» ضبط النفس والتحمل وكبح غضبهم، سواء تجاه السلطات البريطانية او تجاه العرب في اوقات الاعتداءات وعمليات القتل.

وكان إلياهو غولومب، من دون شك، هو قائد «الهاغاناه» المعترف به والمبجل، على الرغم من انه لم يتوج في اي وقت من الاوقات او يعين رسميا في منصب القائد الاعلى لـ «الهاغاناه».

وبسبب كون غولومب احد الناطقين البارزين باسم الحركة العمالية في ارض ـ اسرائيل، وبسبب الرغبة في اسناد قيادة المنظمة الى شخص غير مشارك في الصراعات العامة الداخلية الجارية، فضل ممثلو الحركة العمالية في ادارة الوكالة اليهودية تعيين شخص آخر لمنصب رئيس القيادة. وقد تم هذا الامر ايضا بموافقة إلياهو نفسه وبناء على مشورته. وقد اعترف الاشخاص الذين عينوا في منصب رئيس القيادة القطرية لـ «الهاغاناه» خلال حياة إلياهو غولومب (ي. راتنر، وي. رايزر، وم. سنيه) بسلطته الحاسمة، على الرغم من ان هذا المنصب لم يسند اليه بحسب الأصول المتبعة.

وقد كان لغياب إلياهو غولومب، نتيجة وفاته، تأثير ملموس جدا، وأثقل كثيرا (على المنظمة) في ايام الصراع الصعبة والمعقدة مع البريطانيين.

وثمة عامل آخر اثر الى حد ما في قيادة المنظمة، مع ان وحدتها وتماسكها ظلا قائمين طوال تلك الفترة، هـو الانشقاق الذي حدث في «حزب عمال ارض ـ اسرائيل». لقد كان اعضاء منظمة «الهاغاناه» منضوين تحت لواء أحزاب مختلفة، لكن تأثير ماباي في «الهاغاناه»، حتى الانشقاق سنة ١٩٤٤، كان حاسما، كما كان عليه الحال بالنسبة الى باقي المؤسسات

القيادية لليشوف العبري. وكانت تجرى في جلسات اللجنة المركزية لمباي او لجنته السياسية مناقشة قضايا المنظمة العامة ووجهة نشاطها (ضبط النفس او العمليات الانتقامية، الشروط السياسية للتجنيد في الجيش البريطاني، اساليب الصراع ضد البريطانيين وما شابه ذلك). وكان ممثلو الحزب يترجمون بصورة عامة قرارات اللجنة المركزية والنتائج التي توصلت اليها، الى لغة الافعال في مؤسسات الييشوف وأيضا في «الهاغاناه». وقد سادت في حزب ماباي تناقضات حادة بين الجناح المعتدل والجناح الذي دعا الى اتباع سياسة متشددة. لكن الحزب، بعد ان كانت تتخذ القرارات في مؤسساته، كان ينشط بصورة عامة في اتجاه واحد ــ مع ان الصراع الفكري كان يستمر في لجنته المركزية.

وقد اصاب الانشقاق الذي حدث في ماباي الجناح الداعي الى اتباع السياسة المتشددة، والذي انضم قسم كبير من رجاله الى الكتلة ب، او كما دعيت بعد فترة: «هتنوعاه لأحدوت هعفوداه» [حركة وحدة العمل]. وكان ينتمي الى هذا الجناح، او كان قريبا في آرائه منه، كثيرون من قادة «الهاغاناه» الكبار، وخصوصا من بين اعضاء البلماح. وقد ادت الخلافات والانشقاق في الحزب الى إضعاف نفوذ اكبر حزب في الييشوف وسلطته على المنظمة [«الهاغاناه»]، اذ كان هذان النفوذ والسلطة مستمدين من لجنته المركزية الى حد ما. إلا انه مع ذلك، ازدادت في ماباي قوة العناصر المعتدلة التي تحالفت مع الاوساط المعتدلة في الاحزاب الاخرى فعززت مكانتها بصورة ملحوظة. وربما يمكن القول: ان سلطة د. بن ــ غوريون البالغة التأثير والحسم كانت هي فقط التي ساعدت في المحافظة على قوة ماباي والتوجه المتشدد لسياسته. 1250

وقد اصاب الانشقاق في ماباي التماسك النفساني بين رجال الصف القيادي في «الهاغاناه» ــ ان شيئا ما تصدع، شيئا ما تشوه في العلاقات الشخصية، وكانت لذلك تأثيرات في اوساط صفوف «القاعدة» العريضة.

ومع ذلك تغلبت مشاعر الاحساس بالمسؤولية عن المشروع [الصهيوني] وتقاليد الماضي المشترك، واستمر العمل الجماعي والنشاط المشترك على الرغم من التوترات التي نمت ــ بطبيعة الحال ــ على خلفية الانفصال السياسي. وخلاصة القول، انه في الحساب الختامي لم يتضرر بصورة خطرة تماسك «الهاغاناه» ايضا في الظروف المستجدة.

واشتد الوضع خطورة بعد «السبت الاسود». وفي السنة الاولى بعد وفاة إلياهو غولومب، كانت سلطة رئيس القيادة القطرية موشيه سنيه، هي الطاغية اذ تعززت بحكم كونه عضوا في ادارة الوكالة اليهودية. لكن بعد سفر سنيه الى الخارج، خضعت الاركان العامة لعدة هيئات لم تعمل دوما من خلال تنسيق وارتباط وثيق. وقد سيطرت عليها بصورة مباشرة القيادة القطرية، لكنها كانت ايضا خاضعة لقرارات لجنة X (انظر ص 856)؛ وثالثا، لادارة الوكالة اليهودية التي اعتبرتها «الهاغاناه» حكومة الدولة العبرية القادمة.

وفي مرحلة لاحقة متأخرة، بدأ يعلو النفوذ الشخصي ليسرائيل غاليلي الذي كان مقبولا

من القادة الشباب، وخصوصا قادة البلماح. لكن انتماء غاليلي الى حزب صغير في الييشوف و «المستدروت» («هتنوعاه لأحدوت هعفوداه») اضعف مكانته وحدّ من مدى تأثيره.

القيادة القطرية

خلال سنوات الحرب وفي الفترة اللاحقة لها، تبلورت القيادة العليا لـ «الهاغاناه» وتحولت الى مؤسسة متشعبة ومركبة، ينقسم عملها الى دوائر وأقسام مختلفة. وكان في تصرفها في ربيع سنة ١٩٤٧ جهاز دائم في الوسط والمناطق يضم نحو ٢٠٠ موظف.

وكانت القيادة العليا مشكلة من مؤسستين: القيادة القطرية وهيئة الاركان العامة، وأضيفت اليهما لجنة X (انظر ص 856)، التي أُلفت للمصادقة السياسية على عمليات «حركة التمرد العبري»، لكن كان لها في النطاق العملياني تأثير كبير على عمل القيادة العليا كله.

وكان رئيس القيادة القطرية هو السلطة العليا في «الهاغاناه»، كما كان صلة الوصل بادارة الوكالة اليهودية، والذي ينقل قرارات القيادة العليا الى رئيس هيئة الاركان لتنفيذها. ولم تكن تنقل اية أوامر الى المنظمة ووحداتها المختلفة عن طريق غير طريق رئيس الاركان. وقد ساهمت المحافظة الشديدة على هذه المبادىء في تعزيز طابع «الهاغاناه» العسكري. ولم يُقم اعضاء «الهاغاناه» وقادتها (بصورة دائمة)، من دون استثناء، أي اتصال إلا بهيئة الاركان العامة ودوائرها.

وكانت جميع موضوعات العمليات، والتخطيط، والتدريب، والتمرينات، والتسليح من اجل تنفيذ العمليات، والخدمة الطبية، وخدمات الاتصال، وأجهزة رسم الخرائط، والتجنيد، والغادناع، وتشكيل الوحدات، والتحصينات ــ اي الموضوعات الفنية العسكرية ــ داخلة في نطاق سلطة عمل هيئة الاركان العامة بدوائرها وأقسامها المختلفة.

وكانت موضوعات المالية، والصناعة العسكرية، وشراء السلاح، والتخزين، والاعلام، والمحاكمات، وخدمات الاستخبارات، داخلة في نطاق سلطة عمل القيادة القطرية.

1251 وكان رئيس هيئة الاركان يشارك في جلسات القيادة القطرية كلما طلب منه إبداء رأي فني في موضوع ما. كما كانت تعقد لقاءات منتظمة بين رئيس القيادة القطرية ورئيس الاركان العامة، ولقاءات بينهما وبين رؤساء الدوائر وقادة المناطق والوحدات.

وقد شارك في القيادة القطرية، في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية، ممثلو الاحزاب والهيئات المختلفة التالية اسماؤهم: شاؤول مئيروف (أفيغور)، يسرائيل غاليلي، يوسف يزراعيلي، زئيف فاينشتاين (شيفر) (حل محله لاحقا مردخاي نميروفسكي ــ نمير)، ومئير رابينوف من اليسار؛ غداليا جوخوفيتسكي، يوسف يعقوبسون، يسسكار سيتكوف (حل محله لاحقا جاد مخنس، من بيتح تكفا)، زليغ روستسكي من اليمين؛

وشمعون فاسرمان من «هبوعيل همزراحي». وبعد استقالة رئيس القيادة القطرية موشيه سنيه في خريف سنة ١٩٤٧، عين مكانه زئيف فاينشتاين، من أييليت هشاحر، وبقي في منصبه هذا حتى حزيران/يونيو ١٩٤٧، ثم حل محله يسرائيل غاليلي.

وكانت القيادة القطرية مقسمة الى اربع دوائر. وكان يرئس كل دائرة شخصان: واحد من ممثلي الهستدروت، وواحد من الاوساط المدنية.

الدائرة أ: الصناعة العسكرية والتسليح (يوسف يزراعيلي ويسسكار سيتكوف).

الدائرة ب: التعيينات والعمليات وشؤون عامة (يسرائيل غاليلي ويوسف يعقوبسون).

الدائرة ج: الاعلام والشبيبة (غداليا جوخوفيتسكي ويوسف يزراعيلي).

الدائرة د: المالية (باروخ رابينوف وزليغ روستسكي)، وتولت الشعبة د ايضا معالجة شؤون قوة الحراسة.

وكانت القيادة القطرية تعقد بصورة عامة جلسة واحدة في الاسبوع، في الساعة الرابعة من بعد الظهر، للبحث في القضايا الجارية. وكان في تصرفها مكتب خاص بها، بادارة الضابط المساعد يعقوب يانوفسكي (يناي). وقد انهيت اعمال هذا المكتب بعد «السبت الاسود»، وصارت القيادة تعقد جلساتها في منازل أفراد موثوق بهم وعلى صلة بشؤون الامن في اليشوف، وأيضا في مكاتب اللجنة التنفيذية لـ «الهستدروت» في شارع أللنبي. وكان الضابط المساعد لرئيس القيادة القطرية وقتئذ اهرون روتبرغ (سيلع)، وبعده: ناحاميا ارغوف.

هيئة الاركان العامة

كانت احدى الازمات الخطرة التي مرت بها القيادة العليا في اثر وفاة إلياهو غولومب مباشرة، الاجازة التي اخذها رئيس الاركان يعقوب دوستروفسكي (دوري).

فعلى امتداد سنوات عدة، كانت هناك مشاحنات بين رئيس القيادة القطرية موشيه سنيه وبين رئيس الاركان، اذ ادعى يعقوب دوستروفسكي ان موشيه سنيه يتدخل في شؤون تقع في نطاق سلطته ويحسم امرها وفقا لتقديره. وفي المقابل، ادعى رئيس القيادة القطرية ان هناك مشكلات كثيرة، تبدو بحسب الظاهر محض فنية انما لها تأثيرات سياسية، ومن حق رئيس القيادة القطرية اتخاذ القرار في شأنها، بصفته ممثلا للوكالة اليهودية. وبما انه كانت لرئيس القيادة القطرية سيطرة كبيرة على ميزانية المنظمة، التي كانت تعاني لسنوات كثيرة عجزا ماليا مزمنا، فانه كانت هناك اهمية كبرى لاعتباراته. وكثيرا ما كان القادة يتوجهون بطلباتهم ومقترحاتهم الى رئيس القيادة القطرية مباشرة. وقد تصرف على هذا النحو، بصورة خاصة، قادة البلماح الذين كانوا يشكلون الجزء الاكثر دينامية في «الهاغاناه»، واعتبروا ان تطوير لوائهم وتوسيعه هما الاكثر اهمية في نظر القيادة العليا.

ومن اجل الحؤول دون هذه التناقضات، جرت محاولة لتخصيص ايام اجتماعات بمشاركة رئيس القيادة القطرية ورئيس الاركان، يستطيع خلالها السلك القيادي عرض مشكلاته امامهما. إلا ان هذا الترتيب لم يستمر طويلا، وبلغت الامور حدا اعلن معه كلاهما الاستعداد للاستقالة في سبيل المصلحة المشتركة.

1252 وبعد مناقشة الامر في الهيئات الحزبية والعامة، التي كانت تدعم «الهاغاناه»، تقرر ايفاد يعقوب دوستروفسكي الى الولايات المتحدة لادارة حملة جباية من اجل شراء عتاد وسلاح لـ «الهاغاناه». وبناء على طلب د. بن ـ غوريون، عين يتسحاق ساديه قائما بأعمال يعقوب دوستروفسكي.

ولم تؤد هذه التغييرات الى تحسين الجانب الاداري. فقد كان يتسحاق ساديه مقبولا جدا لدى الشرائح الشابة في المنظمة، وأخصب وطور الفكر العسكري والتخطيط والتأهب العملياني للمنظمة. وبوصفه رجلا ملهما، فانه ايقظ في الشباب حس المسؤولية والتشبث بمهماتهم. إلا انه لم يكن رجل نظام وروتين اداري، وهما خصلتان لا بد من توفرهما فيمن يدير منظمة متشعبة ومعقدة كمنظمة «الهاغاناه».

وقد عمل مع رئيس هيئة الاركان العامة نائبه يوسف روخيل (افيدار) الذي قام عمليا بالجزء الاكبر من العمل الاداري الخاص بهيئة الاركان العامة، وتسفي لشتسينر (إيلون) ـ مكتب الرقابة؛ و ز. فون فريدمان (افيسار) ـ مكتب التخطيط؛ ويهوشواع غلوبرمان ـ مكتب التدريب. وشغلت مركز سكرتيرة هيئة الاركان العامة يفاه افرات (حيفتس) وخلفتها حانه يوسيلفيتس.

وكانت تعمل في هيئة الاركان العامة دوائر وأقسام، من بينها: دائرة امانة الصندوق وترأسها مردخاي كيكيون (كيكي)، ومعه مثير عيروني؛ دائرة الاعلام والعاملان فيها هما اهرون تشيرنتسكي («زئيف») وأهوفيا ملكين؛ دائرة الشبيبة وترأسها دافيد رافسكي (ريشف)؛ دائرة الحراسة برئاسة آشر («اشركا») فاينبرغ (بيلد)؛ دائرة الاتصالات بادارة 1253 يعقوب يانوفسكي («يان»)؛ قسم التخطيط الذي عمل فيه مبرمجون ومصممون (من بين العاملين فيه: يسرائيل بار وبنحاس اوبتيكمان)؛ قسم التدريب وعمل فيه موشيه باسترناك («مونديك») وعكيفا فايتنبيرغ (عتسمون) ورفائيل شابيرا ومكابي موتسيري ويتسحاق دوفنو.

وترأس قسم مشتريات السلاح مئير (مونيا) مردور، وخلفه بنحاس فازيه.

وكانت هيئة الاركان العامة، الى جانب النشاطات الروتينية مثل الصراع ضد البريطانيين والمنظمتين المنشقتين، منغمسة ـ في الاساس ـ في مشاغلها الرئيسية في تلك الفترة: المحافظة على اطار المنظمة، وتطوير فروعها ووحداتها وتزويدها بالسلاح والذخيرة، والاعداد لمواجهة المشكلات التي كان من المحتمل ان تواجهها مع تطور الوضع السياسي مثل: نشاطات العرب القتالية، او هجوم البريطانيين على المنظمة.

وتقدم رواية يوسف افيدار عن ايام اعلان «الوضع العسكري» في منطقة تل ابيب في آذار/مارس ١٩٤٧ (انظر ص 916)، نموذجا لتنظيم هيئة الاركان العامة في اوقات الطوارىء. فقد كان يوسف افيدار موجودا في حيفا عندما بلغه اعلان «الوضع العسكري». وكان يعرف ان يتسحاق ساديه، القائم بأعمال رئيس هيئة الاركان، موجود في تل ابيب في المنطقة المعزولة. وعلى الفور اصدر أمرا بواسطة عامل جهاز اللاسلكي التابع لمنطقة حيفا بأن [صلاحية] القيادة انتقلت موقتا اليه وأنه ابتداء من الساعة ١٠ ستنشط هيئة الاركان العامة من كيبوتس مرحافيا. وهيأ موشيه مونتغ (مان)، قائد منطقة المرج، غرفا لعمل الهيئة وأتى اعضاء هيئة الاركان والقيادة القطرية، الذين كان معظمهم موجودا خارج منطقة «الوضع العسكري» الى مرحافيا فدرسوا الوضع وتلقوا التقارير وأصدروا الاوامر الى مناطق البلد جميعا. وأقيم اتصال ــ عن طريق الرسائل والطرود ــ بين هيئة الاركان التي شكلت ارتجالا وبين تل ابيب المحاصرة، بواسطة ارساليات الحليب والاغذية التابعة لشركة «تنوفاه».

وعندما رجع يعقوب دوستروفسكي الى البلد، في ١٩٤٧/٦/١٦، عاد الى تولي مهمات منصبه كرئيس لهيئة الاركان العامة.

«خطة ايار/مايو ١٩٤٦»

اعتبرت القيادة العليا «الخطة ب»، التي اصبحت سارية المفعول في بداية سنة ١٩٤٥ (انظر ص 239)، خطة الدفاع الاساسية في مواجهة ثورة عربية. لكن التطورات السياسية في العالم العربي وفي اوساط الجمهور العربي في البلد، اوجبت ادخال تغييرات في الخطط التي تجلت بمجملها في خطة ايار/مايو ١٩٤٦، التي لم تطرح كخطة جديدة وانما بصفتها ملحقة بـ «الخطة ب».

فقد اتضح انه «بينما كان في حيازة العرب في أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ اسلحة لا تتجاوز من ناحية فاعليتها البندقية وذخيرة سيئة، فانه ينبغي اعتبارهم الآن مزودين ايضا بكميات كبيرة من الاسلحة الحديثة، بما في ذلك: سلاح آلي، وقنابل يدوية من مختلف الانواع، ومواد متفجرة، وذخيرة جديدة، ووسائل تقنية مختلفة». كما انه اصبح للعرب في البلد «جنود وقادة، تدربوا في الجيش، وفي قوة الحراسة، وفي سلاح الحدود، وفي «الفيلق العربي»، وأيضا في وحدات خاصة في ألمانيا، وتعلموا استخدام وسائل قتالية وأساليب حديثة». وكان من الواضح انه في حال تجدد اعمال الشغب العربية، فان العرب لن يكرروا ما قاموا به في سنوات الأحداث، وانما سينشطون وفقا لخطة موضوعة. «ومن المحتمل ان يقوموا بمحاولات لضرب أهداف حيوية في مجال الاقتصاد والصناعة، من اجل ايقاف تطور مشروعنا في البلد». وفي هذه المرة لم يكن هناك ايضا امل كبير بأي تعاون مع قوات الامن البريطانية، كما حدث في سنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، وستكون «امكانات عمل القوات الشرعية (الحراس والآخرون) محدودة».

وقد حددت الخطة الجديدة اربعة أهداف: «أ ـ حماية المواقع الاقتصادية الحيوية من التخريب؛ ب ـ حماية السكان من النشاطات الارهابية المحتملة؛ ج ـ الاهتمام، بصورة خاصة، بتقوية نقاط الحدود والأحياء المنعزلة؛ د ـ اتخاذ اجراءات لانتزاع زمام المبادرة من يد العرب وسد الطريق امام انقضاضهم قبل وقوعه». 1254

وكانت المواقع الاقتصادية الحيوية الرئيسية هي: منشآت شركة الكهرباء «التي من شأن الإضرار بها ان يشل جزءا مهما من الصناعة»؛ مشاريع المياه «التي سيؤدي شلها الى عرقلة العمل الزراعي»؛ مراكز صناعة مواد البناء («نيشر»، ومقالع حجارة، وأفران الكلس) «التي يمكن ان يتسبب الإضرار بها بايقاف حركة البناء؛ المرائب ومواقف الباصات، «التي من شأن الإضرار بها ان يعرض حياة اليشوف الاقتصادية للخطر».

ومن اجل تأمين حراسة هذه المنشآت تقرر تعيين قادة في كل منها، ووضع خطط مفصلة للحراسة ليلا نهارا، وتنظيم وحدات دفاع خاصة مشكلة من عمال المشاريع تقوم في مركزها «وحدة للعمل الفوري»، تضم حراسا وخفراء وغيرهم مرتبطين بالمشروع. وفرض على المشاريع «شراء الاسلحة اللازمة لحمايتها وفقا للقواعد المقررة»، وتمويل نفقات الحراسة المعززة.

وأعطي اهتمام خاص للخطة المتعلقة بنقاط الضعف في نظام الدفاع عن السكان، وهي نقاط الحدود والأحياء المدينية المنعزلة وخصوصا تلك التي لم تكن قوتها البشرية وتسليحها كافيين للصمود في وقت الطوارىء. وتقرر ان يخصص لها «سلاح ثقيل» (اي مدافع رشاشة ومدافع هاون من عيار ٣ بوصات)، وزيادة عدد مدافع الهاون من عيار ٢ بوصة، وزيادة مخصصات الذخيرة، وضمان ارسال وحدات نجدة من المناطق الوفيرة السكان. وفرض عليها الاهتمام بتوفير احتياطي دائم من الاغذية والمياه تحسبا لعزل النقطة عن باقي اليشوف.

ووضعت خطط لمنع اعمال الارهاب في مناطق المدن الكبرى. وكان الهدف «احباط هذه المحاولات سلفا بأساليب حماية ملائمة». والمقصود: مراقبة المسافرين والامتعة في الباصات المسيَّرة في المدن، وتفتيش رواد دور السينما وأماكن اللهو الاخرى، و«حراسة الشوارع الرئيسية والاماكن التي تحتم الحياة الاقتصادية حركة مختلطة كبيرة فيها»، مثل: الاسواق المختلطة، ومراكز البريد الرئيسية، وشوارع كشارع يافا في القدس وشارع الملوك في حيفا. ومن اجل حراسة مثل هذه الامكنة، كلف قادة «الهاغاناه» المحليون الاهتمام بارسال «دوريات افرادية او ثنائية او ثلاثية، مزودة بسلاح ملائم (سلاح غير ناري)، لتتبع المشبوهين والقبض عليهم قبل تنفيذ العملية»، وأيضا تركيز وحدات احتياطية في نقاط مموهة، تكون مزودة بسلاح ناري «للعمل في حال حدوث اشتباك» او «كقوة لاغلاق الطرق ومطاردة المعتدين». وتقرر تخصيص دوريات لمرافقة الباصات في الأحياء والمناطق العربية.

وكان الجزء الاهم من الخطة هو الجزء المتعلق بـ «الاجراءات المضادة» التي هدفها «ان

يتم في بداية نشوب العمليات العربية ضرب كل عنصر، من شأن ضربه ان يردع مسببي الأحداث ويمنع تعاون الجماهير العربية ومساندتها». وجرى تداول تنظيم عمليات انتقامية لا تشكل «دائما ردا ضد منفذي عملية معينة، وانما ايضا ضد جهات نشيطة اخرى او ضد من يقدم لها المساعدة». وكان من المرغوب فيه ان تتم هذه العمليات في المؤخرة العربية، و«تزعزع امن» العرب.

وتقرر في الخطة ان تتم تجزئة العمليات المضادة الى: عمليات تحذير، تأتي ردا على ضربات عربية صغيرة اومنفردة، و«تنفذ على الاغلب في المنطقة نفسها التي نشط فيها العدو»، على ان تحاط بضجة اعلامية واسعة قدر الامكان؛ والى ضربات موجعة هدفها المعاقبة على عملية خطرة، وتنفذ في مدى ارحب ــ اقليمي او قطري.

وذكرت كأهداف للاقتصاص: ضرب الزعامة السياسية، والمحرضين، ومنفذي العملية والذين قدموا لهم المأوى، والضباط والموظفين العرب الكبار الذين قدموا المساعدة؛ ضرب المواصلات العربية، والمرافق الاقتصادية (الماء ومطاحن القمح)؛ «هجمات على القرى والاحياء والمزارع المستخدمة قواعد للقوات المسلحة العربية»؛ ضرب النوادي، والمقاهي، والتجمهرات، والاجتماعات، وما شابه ذلك. 1255

وكان على «الهاغاناه»، لتنفيذ هذه العمليات، ان تستخدم أفرادا او مجموعات من «المستعربين»، الذين يستطيعون دخول المناطق العربية والانسحاب منها بسرعة. وقد صدرت الاوامر الى منفذي جميع هذه العمليات بتجنب إلحاق الاذى بالأبرياء والنساء والاطفال قدر الامكان. وجرى التشديد على ضرورة إبعاد الاشخاص عن المنشآت قبل نسفها، والسيارات قبل تدميرها.

ملحقا «خطة ايار/مايو ١٩٤٦»

كلما تدهورت العلاقات بين اليشوف وقوات الجيش البريطاني، اتضح ان اقصى ما يمكن توقعه من البريطانيين خلال الاشتباك مع العرب هو موقف حيادي عدائي. وبناء على ذلك، اضيف في ١٤/١٠/١٩٤٦ الى «خطة ايار/مايو ١٩٤٦» ملحق يشير الى هذا الخطر، [والى ضرورة] ألا تساهم قوات الامن الحكومية في نشاطات العصابات العربية، وألا يسمح لأفراد او جماعات منها بالعمل، بسلاح اومن دون سلاح، ضدنا او ان توجه القوات البريطانية نشاطها ضد تجمعات سكانية يهودية بالتحديد في اثناء وقوع اعمال شغب عربية، عن طريق اجراء عمليات تفتيش في التجمعات التي تنشط فيها «الهاغاناه»، ومطاردة قوات «الهاغاناه» بعد قيامها بعملية ما، او تقييد نشاط الحراس اليهود وما شابه. وكلف كل قائد ان يضمّن خطته «خطة مفصلة للرد على تدخلات قوات السلطة».

وفي مرحلة لاحقة، في ٢/١٢/١٩٤٦، اضيف ملحق ثان الى «خطة ايار/مايو»،

جرى الحديث فيه عن احتمال نشوء تعاون بين البريطانيين والعرب، على غرار التعاون بين اليشوف وقوات السلطة سنة ١٩٣٨. وأعطي امر بأنه اذا طلبت السلطات تسليم السلاح الشرعي، فينبغي اخفاؤه وابعاده تماما كالسلاح غير الشرعي.

وقد كان هذا التحول من تنظيم اعتبر مهمته الدفاع عن اليشوف ــ الى عهد قريب من خلال التعاون مع السلطة البريطانية ــ الى تنظيم يتحمل المسؤولية الكاملة عن امن اليشوف، أمرا صعبا من الناحية النفسية. وقد قال رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي في ايلول [عبري] ١٩٤٧: «في السنوات الماضية كان اساس خطتنا الدفاعية: الصمود في كل مستعمرة او مجموعة مستعمرات الى حين قدوم نجدة من الشرطة او الجيش. وكانت هذه النجدة تأتي حقا متأخرة، لكن لم نقف بعد وجها لوجه لفترة طويلة امام عدوان عربي وحدنا، من دون ان تصل ــ مهما تأخرت ــ نجدة ما من الشرطة او الجيش، وتساعد على شل كل هجوم عربي محلي. وكان كل قائد في «الهاغاناه» يعرف ان المهمة الملقاة على عاتقه هي الدفاع الى حين قدوم هذه النجدة، حتى لو تأخرت. وقد حدد هذا الامر بالنسبة الى المستعمرات مدة المهمة، والمفاهيم المتعلقة بمخصصات الذخيرة والسلاح ومخصصات التعزيز من ناحية القوة البشرية».

وكانت «خطة ايار/مايو ١٩٤٦» مع ملحقيها نوعا من بداية التحرر من هذه النظرة. وقد شكلت اساس استعدادات «الهاغاناه» لمواجهة انفجار عربي في البلد، الى ان تم استبدالها في ابان فترة حرب الاستقلال بخطة جديدة، هي «الخطة د»، التي بدىء باعدادها سنة ١٩٤٧.

دمج العائدين من الجيش في «الهاغاناه»

انطلق نحو ٢٦,٠٠٠ من خيرة شباب وفتيات اليشوف في سنوات الحرب، للخدمة في الوحدات اليهودية في اطار الجيش البريطاني. وكان قسم كبير منهم من اعضاء منظمة «الهاغاناه»، والذين لم يكونوا اعضاء فيها ذهبت اكثريتهم الساحقة الى الجيش باسمها وبتكليف منها وأخذوا على عاتقهم في الجيش سلطة مبعوثيها. وقد خبر هؤلاء الاشخاص في الجيش البريطاني ظروف الخدمة والتدريبات في جيش نظامي. وخدموا في كل فروعه. واكتسب كثيرون منهم خبرة قتالية، ووصل كثيرون الى مراتب قيادية مختلفة: من رقباء الى قادة سرايا وكتائب. ولدى انتهاء الحرب وبدء عملية تسريحهم وعودتهم الى الحياة المدنية، اعتبرت القيادة العليا ان من واجبها الاهتمام بارجاع هؤلاء الجنود واستيعابهم في منظمتهم الام ــ «الهاغاناه» ــ على ان يتم انجاز عملية الاستيعاب بصورة تتيح استخلاص الفائدة القصوى الممكن استخلاصها من التجربة المهمة التي اكتسبها هؤلاء الاشخاص خلال سنوات خدمتهم في الجيش.

1256

وفي الايام الاخيرة لوجود الفرقة [اليهودية]، ارسل ممثل «الهاغاناه» في اوروبا ناحوم كرمر (شدمي) «سجلا مفصلا ودقيقا بجميع رجال الفرقة، مع تفاصيل المهنة والمؤهل والسلوك». وكانت هذه المعلومات ضرورية لاستخدامها اساسا لاعادة استيعاب العائدين من الجيش في صفوف «الهاغاناه».

ولم يعد المسرحون من الجيش الى البلد دفعة واحدة وانما بالتدريج، آلافا ــ آلافا كل شهر، الى ان انتهت عملية التسريح في منتصف سنة ١٩٤٦. وقد غادروا فرادى الى بيوتهم، وهم يشعرون بأنهم أدوا واجبهم. وكان معظمهم فريسة للقلق فيما يتعلق بترتيب اوضاعه من جديد وعودته الى الحياة المدنية. ولم يكونوا متقدين حماسة، في الاساس، للاسراع في الدخول في اطار المنظمة الذي معناه الاستمرار في الواجبات العسكرية. وحتى المنظمة لم تقم، من جانبها، بنشاط واسع على المستوى القطري لاحتوائهم ضمن اطارها، بل تركت ذلك للفروع.

لكن بعد فترة، بعد ان خف الى حد ما تعب الجنود وتدبروا امورهم قليلا او كثيرا، ألحق كثير منهم او التحقوا هم بوحدات قوة الحراسة او قوة الميدان في اماكن سكناهم. وقد تم الامر في المستعمرات العمالية بصورة تلقائية، مباشرة بعد عودة العضو الى مزرعته. وفي المدن، انشئت ضمن اطر قوة الميدان وحدات خاصة كانت مشكلة بمجموعها، جنودا وقادة، من الجنود المسرحين.

وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٦، عينت القيادة العامة متتياهو (ماتي) كورنفلد (داغين)، الذي كان برتبة رائد في الفرقة، مسؤولا عن استيعاب مسرحي الجيش في المنظمة. ووضع في تصرفه سجل بطاقات لـ ٢٥,٠٠٠ جندي (وكان نصف البطاقات تقريبا يشتمل على تفاصيل تذكر وحدات الجيش التي خدم فيها الجندي، والدورات التي مر بها في الجيش، والعمليات التي شارك فيها). ولم يكن من السهل العمل وفقا لهذه البطاقات. فقد كان كثير من العناوين قد تغير وتبدل، وكان كثير من الجنود من غير اعضاء «الهاغاناه» عند انضمامهم الى الجيش، وكان بينهم من يميل الى المنظمتين المنشقتين، لكن العائق الاكبر امام داغين كان: عدم تخويله التوجه الى الاشخاص وتجنيدهم، وعدم وضع جهاز في تصرفه للقيام بذلك.

ولا شك في ان احد مسببات بطء العملية كان النقص الدائم في الاموال الذي لازم «الهاغاناه» في تلك الايام. اذ كانت الميزانيات المحدودة التي وضعت في تصرف القيادة العليا لا تكاد تكفي فروع النشاطات القائمة، ولم توفر امكانات كافية للعمليات الجديدة.

استيعاب الضباط المسرحين

أما المشكلة الاخطر من ذلك فكانت مشكلة استيعاب الضباط المسرحين من الجيش البريطاني، ودمجهم في «الهاغاناه» ومراكز القيادة والتدريب.

فقد كان هؤلاء مجموعة من الاشخاص، كانوا جميعا من خريجي «الهاغاناه» التي ارسلتهم خلال سنوات الحرب للخدمة في الجيش، فدرسوا في كليات عسكرية بريطانية، 1257 ورُفعوا من رتبة الى اخرى، وقاموا بمهمات عسكرية ـ فنية وقتالية ـ واكتسبوا خبرة ومعرفة لم يكن حتى في قدرة «الهاغاناه» توفيرهما. وبعد انقطاع سنوات عن البلد وعن المنظمة، عاد هؤلاء الاشخاص الى بيوتهم. ولم يكن احساس الكثيرين منهم مشجعا، وكانت هناك اسباب عدة لذلك.

عندما ذهبوا للانخراط في الجيش كان هناك، اضافةالى الهدف غير المباشر ـ وهو محاربة النازيين ـ هدف آخر ايضا: تجديد التحالف السياسي مع البريطانيين، هذا التحالف الذي تزعزع بصورة خطرة في اثر نشر «الكتاب الابيض» سنة ١٩٣٩. والى حين انتهاء الحرب العالمية، ولعدة اشهر بعدها، املت القيادة الصهيونية وجزء كبير من الييشوف بحدوث تغيير حاسم في السياسة البريطانية تجاه المشروع الصهيوني. وقد تلاشى هذا الامل تماما خلال العام الاول من انتهاء الحرب، وبدأ التجنيد في الجيش البريطاني ـ من هذه الناحية على اية حال ـ وكأنما كان أمرا لا لزوم له ولا فائدة منه لقضية الشعب اليهودي. وكانت هناك حالات اصطدم فيها جنود وضباط عائدون من الجيش [البريطاني] باستخفاف وبالسؤال: «من قال لكم ان تذهبوا الى الجيش البريطاني».

وقد اعتبر قسم كبير من ضباط ارض ـ اسرائيل ان رسالته انما هي التفوق في أداء مهمته العسكرية. بل كان هذا التفوق جزءا من المشروع السياسي الصهيوني العام في سنوات الحرب، اذ انه كان من المفروض ان يستخدم بروز ونجاح ابناء الييشوف في الجيش البريطاني برهانا على اهلية الييشوف لاقامة جيش خاص به، يدافع عن قضاياه بعد انتهاء الحرب. وقد اصطدمت النشاطات التي قامت بها مجموعات من الجنود لشراء السلاح و«الهروب» والهجرة اللاشرعية، في احيان كثيرة، بالتزامات وواجبات الضابط اليهودي المسؤول عن الوحدة. وما لم يكن سهلا الى حد ما بالنسبة الى جندي عادي يحارب النازيين، كان اكثر تعقيدا بالنسبة الى ضابط في هذا الجيش. ولم يعرف الضابط اليهودي دائما كيف يجد مخرجا من هذا الوضع المعقد، وكيف يتخذ موقفا ملائما تجاه نشاط الحصول على السلاح بصورة «تشبع الذئب وتبقي النعجة سليمة». ونشأت احيانا وضعيات مشحونة بالتوتر والمصادمات غير السارة. وبعد ان عاد هؤلاء الضباط الى البلد، وجد من ذكرهم بولائهم المفرط لمناصبهم العسكرية وعيّرهم بذلك.

وجاء التحفظ تجاه اسناد مناصب رئيسية في «الهاغاناه» اليهم من جانب كثير من الضباط انفسهم. ففي اثناء سنوات خدمتهم في الجيش البريطاني، اكتسبوا مفاهيم جديدة

ومختلفة فيما يتعلق بالخدمة في الجيش وأساليب تنظيمه وادارته. ولم يكونوا راضين عن اساليب القيادة والتدريبات والوسائل الاجرائية والنظام في المنظمة. «هناك ازدراء من قبل رجال الجيش للمنظمة» ــ ذكر موشيه سنيه. وحدثت حالات طلب فيها من ضباط تولي مهمات توجيهية او تدريبية، فطالبوا بتمكينهم من تنفيذ هذه المهمات بحسب الاساليب التي اكتسبوها من الجيش البريطاني، والبرهنة على فعالية هذه الاساليب. إلا ان القيادة العليا لم تقبل هذه المطالب، مما جعل هؤلاء الضباط يرفضون العمل ما داموا خاضعين لانظمة بدت لهم غير فعالة وليس في قدرتهم تغييرها.

وقد قال المسؤولون عن ادارة نشاطات التوجيه والتدريبات في «الهاغاناه»، ان مفاهيم الضباط الوافدين من الجيش البريطاني ملائمة لظروف العمل في جيش نظامي، تتوفر لديه امكانات تنظيمية ومالية غير متاحة لمنظمة سرية غير شرعية؛ فقد كانوا مستعدين لتسليمهم مهمات معينة لتحقيق اندماجهم في الاطار القائم. وقد بقيت «الهاغاناه»، في الاساس، حركة شعبية قائمة على التطوع الحر لاعضائها، وينبغي لها ان تعمل وفقا لأساليب نابعة من طابعها الخاص. كتب يعقوب دوري، الذي عاد في حزيران/يونيو ١٩٤٦ لتولي منصبه كرئيس للاركان، في مذكراته: «وجدت في تلك الفترة نظاما معقدا من العلاقات المتوترة بين ما بدا انه كتلتان من قادة «الهاغاناه»: الكتلة الاولى، قادة تجندوا وخدموا في الجيش في الحرب العالمية الثانية؛ والكتلة الثانية، قادة كانوا في تلك الفترة المصيرية يؤدون واجبهم في الدفاع عن الوطن. وكان هؤلاء وأولئك من خيرة القادة الذين نشأوا وترعرعوا في صفوف «الهاغاناه»». ويضيف ان هذا الانقسام «اوجد شعورا سيئا في المعسكر كله، وولد شكوكا في تفضيل فريق على آخر، وحسدا وتعاليا من جانب على الجانب الآخر». 1258

وقد ادى سوء التفاهم هذا، بين الضباط الوافدين من الجيش [البريطاني] وبين السلك القيادي القائم في «الهاغاناه»، الى عدم تحقق امل المسؤولين في القيادة العليا بأنه بعد الحرب ستزداد «الهاغاناه» قوة نتيجة انخراط العائدين من الجيش في صفوفها. وقد بذلت فعلا جهود لتجنيد قسم منهم في نشاطات «الهاغاناه»، لكن عددا قليلا فقط استجاب لذلك. وقد نجح د. بن ــ غوريون، بعد دخوله في ربيع سنة ١٩٤٧ معترك مشكلات الامن بكل شموليتها، في استخدام عدد من قادة الضباط الذين خدموا سابقا في الجيش البريطاني (انظر ص 1330). لكن العرقلة التي حدثت في عملية دمج واستيعاب الضباط والعائدين من الجيش انعكست، الى حد ما، في مسار تحول «الهاغاناه» الى جيش رسمي في ايام حرب الاستقلال.

نشاطات التدريب في سنوات النضال

كان المضمون الرئيسي لحياة عضو «الهاغاناه»، في اوقات الهدوء النسبي، التدريبات. لكن نشاط التدريب المنهجي تضرر الى حد ما في ايام النضال الاولى، عندما استجمعت المنظمة قواها لضرب منشآت الجيش البريطاني. إلا انه في نهاية سنة ١٩٤٦، تجدد النشاط بقوة. وأنجز قسم التدريب في تلك الفترة إعداد العمود الفقري لـ «الهاغاناه»: ضباط وجنود استطلاع وضباط استخبارات. كما تولى القسم تطوير اساليب التمرين على السلاح والقتال الميداني. وأعيد تنظيم القسم وعين رئيسا له موشيه باسترناك («موندك»)، من كبار قادة المدربين في «الهاغاناه». وكان «موندك» قد خدم في الجيش، وعاد سنة ١٩٤٦ من خدمته في اوروبا. وأفرز للعمل معه حاييم لاسكوف، الذي كان ضابطا في الفرقة [اليهودية].

وقد جلب المسرحون من الجيش [البريطاني] معهم مفاهيم جديدة وأفقا اكثر رحابة، لكنهم اصطدموا ـ كما ذكرنا اعلاه ـ بالتقليد الذي نما في «الهاغاناه» والبلماح، وهو تقليد شدد في الاساس على تكتيك الحرب الصغيرة على غرار وينغيت وقوة الميدان.

وفي نهاية سنة ١٩٤٧ نظمت دورة لقادة الفصائل بقيادة «موندك»، وكان المدرب الرئيسي فيها تسفي («تسفيكا») هوروفيتس. وقد تقرر ان تقيم القيادة مقرها في كيبوتس غنيغار. ونظرا الى عدد المتدربين الكبير (قرابة الـ ١٢٠ منهم، و ٣٠ من رجال البلماح)، وزع الاشخاص على مستعمرتي جنجار وساريد، وتدربوا في الاحراج المحيطة بهاتين المستعمرتين. وقد اتخذت الدورة ازاء الخارج سمة معسكر للتمرينات البدنية خاص بـ «هابوعيل». وكان المتدربون قد تلقوا المراحل الاولى من تدريباتهم في الاقضية وفي البلماح. وكان من المقرر ان يتضمن برنامج الدورة كل المعلومات والتدريبات التي يتلقاها الضباط في سلاح المشاة في الجيش العادي، بما في ذلك استخدام مدافع الهاون والمدافع الرشاشة.

وقد تفقد بن ـ غوريون الدورة. وحاول في احاديثه مع المدربين ان يستوضح، في الاساس، ما اذا كان خريجو الدورة سيصبحون قادرين على قيادة وحدات عسكرية نظامية ومواجهة وحدات نظامية.

وفي عيد «سمحات توراه» [اليوم الثامن من عيد المظال] في ١٩٤٧/١٠/٦، جاء الى حرج جنجار ١٥ جنديا بريطانيا. وبعد تفتيش قصير، وصلوا الى المغارة التي كانت تحفظ فيها الرشاشات التي كان الشبان يستخدمونها في التدريب. وبناء على امر من تسفي هوروفيتس طوق نحو ٦٠ شخصا من أفراد الدورة الانكليز وأمروهم بتسليم سلاحهم والانصراف، فانسحب الجنود على الفور وتواروا عن الانظار.

وبتعاون وثيق مع رجال المستعمرتين، نقل كل عتاد المعسكر (باستثناء الخيم)، مع السلاح الشخصي للمتدربين والمدربين بواسطة شاحنات الى جعارة. وقد جرى تنفيذ عملية

*1260 النقل وفقا لـ «مناورة التمويه» التي كانت جزءا عضويا من برنامج التدريب في كل دورة من هذا النوع. «بهذه المناسبة» ــ روى تسفي هوروفيتس ــ «اود ان انوه بالاولاد الصغار في المستعمرة الذين ساعدوا خصوصا في تجميع لوازم الدورة، ومشطوا المعسكر للتأكد من عدم بقاء اي اثر يدل على تدريب عسكري». وبعد ثلاثة ارباع الساعة من انسحاب الجنود، طوق مئات من الجنود البريطانيين جنجار. وأجري تفتيش دقيق لم يسفر عن اية نتائج. وفي الوقت نفسه كان معسكر التدريب في ساريد قد اخلي بدوره.

وقد استمرت الدورة حتى اليوم التالي في جعارة وفقا للبرنامج الموضوع. وكانت هذه هي الدورة الاخيرة لقادة الفصائل قبل حرب الاستقلال، وقام خريجوها بدور فعال في الايام الاولى للحرب، وسقط كثير منهم فيها.

واستمرت نشاطات التوجيه والتدريبات على مستويات ادنى من دون توقف. وانشىء سنة ١٩٤٧ في شفياه معسكر دائم من الاكواخ من اجل اقامة دورات لقادة الفصائل. وكان قائد المعسكر يوسف فريسمان، من كفوتسات عيانوت.

وقد اقيمت دورة مهمة [للتدريب] على الاعمال التخريبية في اشدوت يعقوف بقيادة حاييم زينغر، الضابط المسؤول عن عمليات التخريب في البلماح، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. وكان المدرب الرئيسي في الدورة مردخاي شاروني، الرقيب الاول في سلاح الهندسة البريطاني في اثناء الحرب. وقد تلقى المشاركون في هذه الدورة معلومات عن اساليب التخريب الحديثة التي كانت متبعة في الجيش البريطاني. وقد انغمس الـ ٦٠ خريجا من هذه الدورة، وجلهم من رجال الاحتياط في البلماح، في معارك حرب الاستقلال فور انتهائهم من تدريباتهم. وشارك عدد منهم في عمليات التخريب الجريئة في الاشهر الاولى من الحرب، اذ كُلِّفوا التسلل الى مواقع العدو في مسعى لسد النقص القائم في المدافع في تلك الايام عن طريق هذه العمليات. وسقط كثير منهم في اثناء أدائهم لمهماتهم. وشكل عدد منهم، لدى قيام الدولة، النواة الاولى لمدارس التخريب التابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي.

وفي ١٩٤٧/٨/٢١، عقد اجتماع كبير جرى فيه توزيع شهادات التخرج على ٥٠٠ من اعضاء «الهاغاناه»، من خريجي دورات قادة الفصائل. وقد قال رئيس الاركان العامة، يعقوب دوري، في حفل التخرج:

«انتم الواقفون هنا، ٥٠٠ من قادة الفصائل، تتحملون مسؤولية قيادة ٥٠٠٠ شاب وفتاة من اسرائيل. ان ٥٠٠٠ من جمهرة الشبيبة العبرية في هذا البلد سيخضعون لأوامركم ـــ وعلى عاتقكم يقع واجب توجيه هذا المعسكر الضخم وتدريبه وتحويله الى معسكر محاربين معتمد؛ معسكر لا يعرف التردد والوجل، ولا يألو جهدا ولا يوفر عرقا ودما ولا أية تضحية من أجل الدفاع عن البلد وتحرير الشعب؛ معسكر يقف صامدا بأمرة

---

* الصفحة 1259 في الاصل تحتوي على رسم خاص بالتدريبات. (المترجم)

السلطة الوطنية العليا، المعتمدة والوحيدة؛ معسكر يصد ويقهر كل عدو من الخارج، ويخضع ويشل كل متآمر ومخرب من الداخل».

وقد حدد البرنامج الذي وضعه قسم التدريب لسنة ١٩٤٨، هدفا له اقامة كليات دائمة لتدريب قادة فصائل وقادة آخرين «من اجل توفير قوة قيادية وتدريبية ذات اسلوب عمل قيادي وتدريبي موحد في جميع الاختصاصات». وكان من المفروض ان تخرج هذه الكليات نحو ٩٠٠ قائد فصيل في السنة، اضافة الى عشرات من القادة والمدربين في مجالات التخريب والقنص والاستطلاع. لكن الحرب التي نشبت في شتاء سنة ١٩٤٨، غيرت كليا النشاطات التدريبية وأبعادها.

محليكيت شيروت هيديعوت [دائرة الاستخبارات]

ادت ضرورات النضال الى تطور كبير في دائرة الاستخبارات التابعة لـ «الهاغاناه»، التي تحولت في نهاية الاربعينات الى جهاز كبير يستخدم عاملين كثيرين وجيشا من المتطوعين. وقد كانت هذه المؤسسة مشتركة بين دائرة الامن التابعة للوكالة اليهودية، التي ساهمت بـ ٦٠ ٪ من ميزانيتها، وبين الهاغاناه». وقد ترأس الدائرة في الفترة التي نحن في صددها دافيد شلتيئيل، وكان نائبه ايسر بيرنتسفايغ (باري). وأشرف على الدائرة من جانب الوكالة اليهودية رؤوفين زسلاني (شيلواح). 1261

واشتملت الدائرة على ثلاث شعب: العربية، والسياسية، والداخلية.

وقد ترأس الشعبة العربية زلمان زليغسون (زياما ديفون). وكانت لها صلة بنحو ٦٠ مخبرا عربيا، منتشرين في جميع مناطق البلد. كما كانت تعد بصورة دائمة تلخيصا للصحف العربية. وكانت تستعين بـ «محليكيت هشاحر» («المستعربون») في البلماح. وكانت دراسة الاوضاع في الدول العربية المجاورة آنذاك في عنفوانها، واستندت في الاساس الى التقارير المقدمة من قبل مبعوثي الوكالة اليهودية وخبرائها بشؤون الشرق الاوسط.

وكانت الشعبة السياسية هي الاحدث عهدا في مركز جهاز الاستخبارات، وتعود بدايتها الى بداية النضال. وكانت تتولى مراقبة ما يجري في القيادة والجيش، وترأسها بوريس غوريئيل. فقد ادى توتر العلاقات بين اليهود والبريطانيين الى اقصاء الموظفين والعمال اليهود عن مصادر المعلومات. ونشأت ضرورة لاقامة صلات مباشرة بضباط وموظفين بريطانيين. وازداد هذا الامر صعوبة من يوم الى آخر مع انقطاع الصلات الاجتماعية بين ابناء الشعبين، ودخول البريطانيين الى «الغيتوات». إلا ان هذه الصلة لم تنقطع على الرغم من ذلك. ويجدر التنويه بأن قسما كبيرا جدا من ناقلي المعلومات البريطانيين فعل ذلك لا من اجل المكافأة بل بدافع من موقفه المتعاطف مع النضال اليهودي والمشروع الصهيوني.

وكانت الشعبة على صلة وثيقة بالوكالة اليهودية، وكرست جزءا كبيرا من عملها لأمور تتعدى نطاق شؤون الامن بمفهومها الضيق (شؤون سياسية وقانونية واقتصادية).

وبمرور الوقت، وسعت الشعبة نشاطها ليشمل متابعة الصحافيين والقنصليات والجمعيات الدولية. وقد قامت هذه الشعبة بنشاط مزدوج يجمع بين المتابعة وجمع المعلومات في اثناء وجود اللجان الدولية في البلد (اللجنة الانكلو ـ اميركية ولجنة الامم المتحدة). كما حصلت الشعبة على تصاميم الجسور القائمة على حدود البلد من دائرة الاشغال العامة التابعة للحكومة، وسلمتها الى اولئك الذين أعدوا لعملية «ليل الجسور» (انظر ص 880). كما اسندت الى الشعبة مهمة الحصول على هويات وأذونات مرور مختلفة وما شابه ذلك، مما كان رجال «الهاغاناه» يحتاجون اليه في ممارسة نشاطهم ضد السلطات.

أما الشعبة الداخلية، برئاسة ايسر هالبرين (هارئيل)، فقد تولت متابعة ما يجري في اوساط المنشقين من اليمين واليسار (الشيوعيون). وكان من مهماتها: منع تسلل هذه العناصر الى صفوف «الهاغاناه».

وكان جهاز الاستخبارات (شاي) مقسما بحسب تقسيمات المنظمة الى ستة اقاليم، في كل اقليم ضابط استخبارات اقليمي. وكان هناك ايضا ضابط على مستوى القضاء في كل قيادة قضاء، ورجل استخبارات في كل منطقة. وكانت شعبة الامن التابعة للبلماح مرتبطة بجهاز الاستخبارات. وكان ضباط الاستخبارات خاضعين لسلطة رئيس جهاز الاستخبارات، الذي كان خاضعا بدوره لرئيس القيادة القطرية ومدير شعبة الامن التابعة للوكالة اليهودية.

وقد طور ضباط الاستخبارات المحليون، كل في منطقته، اساليب عمل خاصة بهم. فكان منهم من تخصص باقامة صلات بالعرب في الاطار المحيط به. وكانت هناك مناطق وجه النشاط الرئيسي فيها لكشف ما يجري في اوساط السلطات البريطانية العسكرية والمدنية (بما في ذلك، طبعا، الشرطة). وقد تعاون كثير من رجال الشرطة اليهود مع جهاز الاستخبارات منذ انشائه، واستمروا في ذلك الى حين قيام دولة اسرائيل.

وقد انشئت شبكة متطوعين من بين اعضاء المنظمة لتزويد جهاز الاستخبارات بالمعلومات. ويعود اساس هذه الشبكة التي دعيت باسم «موديعين عمامي» واختصاره مداع [الاستخبارات الشعبية]، الى التقليد السائد في «الهاغاناه» منذ ايامها الاولى، والذي تعين بموجبه على كل عضو ان يخطر قائده المباشر بكل نبأ جديد يصل اليه، بمقدار ما له صلة بشؤون امن الييشوف، وكان هذا ينقل النبأ عبر قنوات القيادة المعتادة الى مركز «الهاغاناه». 1262 وكانت هذه الشبكة الاستخباراتية متطورة على افضل وجه في اقليم تل ابيب، اذ كان يرتبط بها نحو ٢٠٠ من اعضاء المنظمة. وأنشىء في هذا الاقليم قسم خاص لمتابعة ما يجري في المصانع (محريش)، والاحياء السكنية، والضواحي («مشكون»).

وجرت محاولة لتنظيم هذا الجهاز بطريقة منهجية. «عقدت الدورة الاولى لمداع في البلماح، وفيها تعلم المشاركون اول مرة كيفية اشراك عدد كبير من الاشخاص في عمل جهاز الاستخبارات الشعبي» (البلماح). وفي المنطقة الوسطى، حيث كانت توجد مراكز مهمة

للمنشقين (نتانيا، بيتح تكفا، رامات غان)، ارتكز مداع في الاساس على الشبيبة. وفي المنطقة الشمالية كان النشاط الرئيسي لجهاز الاستخبارات موجها لمتابعة ما يجري في اوساط العرب.

وقد اتسع نشاط جهاز مداع بعد «السبت الاسود». وعين في كل وحدة رقيب من قبل مداع طلب من الاعضاء ان ينقلوا اليه «كل خبر في مجالات واسعة جدا، بدءا بالعرب والجيش وقوات الشرطة والشرطة السرية، والاخباريات، وانتهاء بمعلومات قد تنقذ سلاحا عبريا ويهودا من السجن» («بمحنيه»).

وقد واجه الجهاز في حيفا مشكلات خاصة، اذ أُسندت الى رجاله مهمة متابعة ما يجري في الميناء ومصافي التكرير، التي كان يعمل فيها اليهود مع العرب. وقد وصل الى جهاز الاستخبارات (شاي) بهذه الطريقة فيض من المعلومات القيمة عما كان يجري في اوساط العرب.

وقد انشأ جهاز الاستخبارات ارشيفا خاصا به، جُمعت فيه مادة كثيرة تتعلق بأشخاص وحركات في اوساط الانكليز والعرب واليهود. وكانت تصدر من حين الى آخر نشرات عرض فيها رجال جهاز الاستخبارات ما هو معروف لديهم فيما يتعلق بما يجري في مجال بحثهم. وكانت هذه النشرات ترسل الى قادة «الهاغاناه» الكبار وموجهي السياسة الصهيونية.

وكانت احدى العمليات المهمة التي انجزها جهاز الاستخبارات، الحصول على خطة الهجوم العامة على مؤسسات اليشوف و«الهاغاناه» في «السبت الاسود»، التي كان اسمها الرسمي عملية «Broadside» (انظر ص 891). وقد أُخرجت الخطة ـ كراس مؤلف من مئات الصفحات ـ في احدى الليالي بمساعدة موظف بريطاني كبير لم يكن يتعاون مع جهاز الاستخبارات طمعا في المكافأة، وجيء بها الى كيبوتس ج التابع لـ «هاشومير هاتسعير»، والواقع بالقرب من ريشون لتسيون. وهنا جهز مختبر موقت للتصوير تم فيه تصوير الكراس بكامله خلال ساعات معدودة. «لقد كان عدد الوثائق» ـ كتب أفرايم ديكل، من زعماء جهاز الاستخبارات، في مذكراته ـ «٦٠٠ وثيقة، وكان في حيازتنا فقط ٥٠٠ ورقة تصوير. واضطررنا رغما عنا الى نسخ نحو مئة صفحة بخط اليد. وكان هناك في الكيبوتس وقتئذ، لغرض التدريب، مجموعة شباب وشابات من كندا، وجميعهم ملمون بالانكليزية طبعا. وجندنا منهم ١٢ شابا وشابة عملوا معنا حتى طلوع الفجر ونسخوا المادة. ولا يمكن وصف انفعال الطلائعيين والطلائعيات، الذين ذاقوا طعم العمل السري».

وقد تضمنت الوثيقة خطة تفصيلية للقيام بعمليات تفتيش واعتقال، وارشادات تتعلق بالتفتيش عن السلاح، وقائمة بـ ٥٠٠٠ شخص من زعماء اليشوف، أعضاء البلماح و«الهاغاناه»، التي وجدت من الموافق اذاعة مضمونها على الملأ من اذاعة «صوت اسرائيل» وفي بيانات خاصة.

جهاز الاتصال في الاربعينات

في بداية الاربعينات، فصل فرعا الاتصالات البصرية وهواتف الميدان عن جهاز الاتصالات اللاسلكية، وكرست دائرة خاصة باشراف تسفي ليفن (تشارلي) جهودها لتطوير الاتصالات في قوة الحراسة وقوة الميدان. وعقدت في ربيع سنة ١٩٤١ دورة خاصة اولى لقادة فصائل الاتصال تم فيها، اضافة الى التدريب على الاتصالات البصرية، التدريب على استخدام اللاسلكي في ظروف الميدان. وكان المدربان فيها هما بيرتس روزنبرغ ومونيا آدم. وعقدت بعد ذلك دورات عديدة مشابهة على المستوى القطري. ومن حين الى آخر كان يجري دمج ضباط الاتصال في المناورات العامة، وذلك لتنظيم الاتصال بين الوحدات المشاركة في المناورة. كما كانت تعقد لقاءات بين جميع ضباط الاتصال مرة كل شهرين لمناقشة المشكلات المختلفة، التي كان اهمها الحصول على الاجهزة وتدريب ضباط الاتصال ومرسلي الاشارة. وبدىء في ورش غفعات برينر والتخنيون في حيفا بانتاج مصابيح اشارة ومبرقات شمسية وأجهزة اخرى. «كان الهدف هو ان يصبح في كل سرية من قوة الميدان قسم اتصال مزود بالحد الادنى من العتاد: على الاقل مبرقتان شمسيتان، مصابيح اشارة بصرية، أعلام اشارة، ملاءات اشارة من اجل الاتصال بالطائرات، قنابل دخانية لاعطاء اشارات، حلقات لاحكام الوصل، أدوات تعليم» (ت. ليفن).

1263

ومع نشوب الحرب، حدث تطور مهم في دائرة اللاسلكي («أخينداف»، ولاحقا «أفينوعام» بحسب التسمية السرية)، التي ترأسها منذ سنة ١٩٣٧ سمحا ايفن زوهر (انظر المجلد الثاني، ص 986-984). فالرقابة العسكرية البريطانية، التي اعتبرت خنق كل تعبير عن الاحتجاج اليهودي ضد سياسة «الكتاب الابيض» الصادر في ايار/مايو ١٩٣٩ احدى مهماتها، وكذلك ضرورات النضال ضد هذه السياسة، استوجبت انشاء شبكة لاسلكية دولية، خصوصا بين ارض ـ اسرائيل ولندن ونيويورك، تكون في تصرف المؤسسات القومية. واقتضى ذلك محطة لاسلكية ذات قوة اكبر. وكان من الصعب اقامة شبكة سرية كهذه في احدى المدن الكبرى، فتقرر اقامتها في كيبوتس غفعات. وقد تم بناء المحطة خارج تخوم المستعمرة، ولم يعرف بوجودها إلا اعضاء قلائل. واشتملت على غرفتين تحت الارض. وجرى شراء الاجهزة وقطع الغيار من الولايات المتحدة ومصر. «تمثلت الصعوبة» ـ روى ميشا غوردين ـ «في تركيب هوائيات (أنتينات) عالية، اذ ان المحطة كانت غير شرعية. والخدعة: اعمدة عادية يمكن اطالتها بواسطة اجهزة خاصة وتحويلها الى هوائيات. ــ ــ ولذا، كان الارسال الى خارج البلد يتم فقط في الليل». ومن اجل اقامة محطة استقبال في انكلترا ارسل الى لندن في صيف سنة ١٩٣٩ مناحم يتسحاقي، من قادة المدربين ومن ذوي الخبرة بالاتصالات. وقد اقام المحطة في منزل استأجره في المدينة، ونجح في اقامة اتصال احادي الجانب بالمحطة في غفعات. وكان ينقل المعلومات فور تلقيها الى رجال الوكالة اليهودية في المدينة. ومن حين الى آخر، كان يرسل بواسطة برقية علنية إخطارا بأن «الرسالة التي

بُعث بها في يوم كذا تم استلامها». وبعد عدة أشهر، عاد يتسحاقي بعد ان درب فريقا للحلول محله الى ارض ـ اسرائيل.

وكان الجهاز المشرف على الاتصالات اللاسلكية مسؤولا ايضا عن تنظيم الجانب الفني لبرامج «الهاغاناه» المذاعة و«صوت اسرائيل» (انظر ص 140). كما ساعد في انشاء محطة اذاعة «فرنسا الحرة» على جبل الكرمل (انظر ص 361). وقد جُند لانشاء هذه المحطة كثيرون من الاشخاص العاملين في جهاز الاتصالات مما أضر بعمل مصلحة الخدمات اللاسلكية التابعة لـ«الهاغاناه». واحتج سمحا ايفن زوهر على ذلك، ولما لم يقبل احتجاجه اعلن في شباط/فبراير ١٩٤١ استقالته من ادارة جهاز الاتصالات. وعين بدلا منه يرحمئيل بلكين. وتولى تسفي ليفن مسؤولية تدريب رجال الاتصال.

وخلال سنوات الحرب اتسع نشاط جهاز الاتصال. وطلبت السلطات العسكرية البريطانية من الوكالة اليهودية ترشيح اشخاص ملائمين للاتصال، وأرسل كثيرون من العاملين في جهاز الاتصال الى دورات عسكرية، وعينوا بعد ذلك للعمل على اجهزة اللاسلكي في انحاء عديدة من الشرق الاوسط، وفي الاساس في دوائر الاستخبارات البريطانية. وكان بينهم من خدم عدة سنوات في القاهرة وبغداد وطهران. وقد اقيمت دورة خاصة للعاملين على اجهزة اللاسلكي باشراف البريطانيين في فترة التعاون (انظر الفصل العشرين) في مباني المعرض بتل ابيب. وعندما بدىء بالاعداد لاقامة شبكة استخبارات في ارض ـ اسرائيل، في حال وقوعها في قبضة الالمان (انظر ص 368)، درب جهاز الاتصال الاشخاص الذين كانوا مرتبطين بهذه الخطة. وبمساعدة الاعضاء الذين كانوا يخدمون في *1265 شبكة الاتصالات اللاسلكية العسكرية، اقيم اتصال لاسلكي بين نشيطي «مؤسسة الهجرة» في دول المشرق وبين مركز «المؤسسة» في ارض ـ اسرائيل. وأنزل المدربان الرئيسيان، بيرتس روزنبرغ ورحبعام عمير، بالمظلات في يوغسلافيا (انظر الفصل الثاني والثلاثين) حيث توليا امر اقامة اتصال بجيش الانصار بقيادة تيتو. وقدم العاملون في شراء السلاح الى جهاز الاتصالات اجهزة ومعدات مهمة من مخازن الجيش البريطاني، ومن بينها اجهزة كانت موجودة آنذاك في حيازة الجيش فقط. ومع تطور البلماح انشئت شبكة لاسلكية خاصة («تمار») وصلت قيادة البلماح بكل وحداته الموزعة في انحاء البلد المختلفة. وتولى جهاز الاتصالات تنظيم الشبكة وتزويدها بالأجهزة والمعدات. وقد ترأس الجهاز في فترة نهاية الحرب مناحم يتسحاقي.

وقد عاد يتسحاق توليدانو، من قدامى العاملين في حقل الاتصال، والذي كان تطوع بناء على تعليمات الوكالة اليهودية للخدمة في الجيش البريطاني، وعمل في المحطات اللاسلكية التابعة للاستخبارات البريطانية في القاهرة وطهران وأمكنة اخرى، وأبعد عن

---

* الصفحة 1264 في الاصل تحتوي على رسم لخطوط اتصال «الهاغاناه» بالخارج. (المترجم)

الاستخبارات بعد اغتيال اللورد موين ـ عاد الى مركـزه في جهاز الاتصـالات التـابع لـ «الهاغاناه». «لا بد من ان اذكر» ـ كتب في مذكراته ـ «انني فوجئت بالتوسع الهائل والتحسينات التي احدثت في سنوات الحرب في هذه الشبكة. ـ ـ ان سرعة ارسال المادة لا تقل عن سرعة ارسالها في الشبكات التي عملت فيها لدى البريطانيين».

وفي نهاية سنوات الحرب العالمية الثانية، تطورت في اطار «الهاغاناه» اربع شبكات لاسلكية منفصلة: ١ ـ شبكة «افينوعام»، وهي شبكة لاسلكية على طريقة المورس، كان مركزها في هيئة الاركان العامة، واشتملت على ٨٠ محطة؛ ٢ ـ شبكة «تمار»، التي كانت تخدم قيادة البلماح وتصلها بالكتائب والسرايا؛ ٣ ـ شبكة «غدعون»، التي كانت تخدم «مؤسسة الهجرة»؛ ٤ ـ الشبكة التي كانت تؤمن الاتصال بين الدائرة السياسية للوكالة اليهودية وبين مكاتبها في لندن ونيويورك. وفي بداية الصراع تجدد [نشاط] شبكة خامسة هي «كول يسرائيل» (صوت اسرائيل)، التي كانت خاضعة لسلطة رئيس القيادة القطرية.

وفي شتاء سنة ١٩٤٦، عين يعقوب يانوفسكي (يناي)، المعروف بلقبه «يان» ومن كبار العاملين في هيئة اركان «الهاغاناه»، رئيسا لجهاز الاتصالات. وكانت مهمته اعادة تنظيم العمل في جميع مجالات الاتصال، وتوحيد كل الشبكات المنفصلة، واقامة تنظيم مدرب ومجهز جيدا ومستعد وجاهز لتنفيذ مهمات خطرة.

وقد وضعت قيادة جهـاز الاتصالات نفسها في مواجهة تحديات عديدة: أ ـ تدريب المئات من مرسلي الاشارة على جميع الاجهزة؛ ب ـ انشاء مختبرات حديثة؛ جـ ـ تركيب اجهزة اتصال للمورس والارسال الصوتي؛ د ـ شراء معدات حديثة من خارج البلد؛ هـ ـ توزيع القوة البشرية على جميع الاجهزة؛ و ـ البحث عن جميع عمال الاتصال الذين خدموا في جـميـع وحـدات ارض ـ اسرائيل في الجيش البريطاني وحشدهم؛ ز ـ ادخال اساليب اتصال ميدانية والاعداد للخدمة في وحدات نظامية عسكرية.

وأُنشئت مدرسة مركزية للاتصال في مباني المستوصف التابع لكيبوتس شفايم، درس فيها عشرات كثيرة من الاعضاء الذكور والاناث في دورات للتدريب على تشغيل الاجهزة، والارسال، واستخدام الشيفرات وحلها.

كما أُنشئت مختبرات في امكنة عديدة من البلد، وفي الاساس بتل ابيب. وتم تجميع كميات كبيرة من قطع الاجهزة المشتراة من المحلات التجارية او من معسكرات الجيش البريطاني في البلد. ونذكر من بين الاشخاص الذين عملوا في هذه المختبرات: ميشا غوردين من القدامى، ويشعياهو لمبرغر (لافي)، ونفتالي راز.

وبدىء بانتاج اجهزة للمورس والارسال الصوتي للمسافات القصيرة، من اجل الاتصال في فترة النشاط ضد البريطانيين، وخصوصا في المدن. وأُقيمت في تل ابيب، من قبل ضابط الاتصال في قوة الحراسة بالمدينة، حاييم فريدلاند، شبكة اتصال لاسلكي بين قيادة المنطقة والمستعمرات البعيدة عن المركـز (بن شيمن، مطار اللد، حـولون، بات 1266

يام). وقد عملت هذه الشبكة جنبا الى جنب مع شبكة الاتصالات الهاتفية العادية وشبكة الاتصالات الهاتفية الداخلية التي كانت قائمة بين محطات ضخ المياه التابعة لبلدية تل ابيب، والتي كانت في تصرف «الهاغاناه». وعندما فرض منع التجول في جميع انحاء منطقة تل ابيب سنة ١٩٤٧ (انظر ص 916)، ظل الاتصال قائما بين جميع مناطق المدينة ومحيطها.

وطرأ تحسن كبير على تنظيم الاتصال في مشروع الهجرة الثانية. وجرى تزويد المحطات في العواصم الاوروبية بعدد كبير من الاشخاص. وزودت السفن بأجهزة مزدوجة للحؤول دون حدوث عراقيل. وبالمناسبة، عندما اعلن قيام الدولة تحولت هذه المحطات اللاشرعية الى محطات ارسال للسفارات الاسرائيلية.

وأُعيد تنظيم الاتصال بين الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية وبين الولايات المتحدة، مع استخدام شيفرات معقدة، بعد ان اتضح في اعقاب «السبت الاسود» ان البريطانيين حلوا بسهولة رموز الشيفرات البدائية التي كان رجال جهاز الاتصال يستخدمونها حتى ذلك الحين.

وأشرفت هيئة الاذاعة من الناحية الفنية على «صوت اسرائيل»، واستمع البيشوف بأكمله الى هذا الصوت في الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم (انظر ص 1270).

وقد كان يعمل في جهاز الاتصال عشية حرب الاستقلال قرابة الـ ٢٠٠ شخص، من بينهم ٤٦ تابعون للجهاز، ويتلقون اجورهم من صندوق «الهاغاناه»، والباقي متطوعون.

وعند نشوب حرب الاستقلال سافر «يان» الى الولايات المتحدة، واشترى خلال اسابيع معدودة، بمساعدة قسم المشتريات التابع لـ «الهاغاناه» (انظر ص 1235)، معدات كثيرة ذات نوعية جيدة، وأنشأ في نيويورك مكتبا دائما لشراء معدات الاتصال. «جرى تجميع مئات الاطنان من المعدات الحديثة من مخلفات الجيشين الاميركي والكندي في مستودعات في نيويورك» (ي. يناي). وقد وصلت المعدات بأكملها الى ارض ـ اسرائيل في ربيع سنة ١٩٤٨. وبعد تدريب طاقم من مرسلي الاشارة على استخدامها، تم توزيعها على الامكنة والوحدات المختلفة.

وقد قدم جهاز الاتصال الى جيش الدفاع الاسرائيلي قوة مدربة بلغ تعدادها ٣٥٠٠ شخص من خيرة مرسلي الاشارات. وأقام شعبتي الاتصال في سلاح الجو وسلاح البحرية، حتى انه ساعد في اقامة مصلحة الاتصالات المدنية في دولة اسرائيل.

الخدمات الطبية

عندما اقيمت هيئة الاركان العامة بدىء بدمج الخدمات الطبية التابعة لـ «الهاغاناه» (انظر المجلد الثاني، ص 990-987) في المشاريع العامة للمنظمة. وفي الحقيقة استندت المنظمة فعليا ايضا، في الاربعينات، الى شبكة المؤسسات الطبية للييشوف، والى منظمة

«نجمة داوود الحمراء»، والى مستشفيات ومستوصفات الييشوف العبري و«كوبات حوليم» [صندوق المرضى] التابع له. وكان ذلك بمثابة تخفيف للعبء، سواء من ناحية الميزانية او من ناحية التمويه تجاه السلطات. وبناء على ذلك، أُنشئت هيئة للاشراف على الخدمات الطبية كانت مشكلة من الاطباء: أ. ألوتين، ن. وولف، ي. كوت، شمعون سافوراي. وكان جميع هؤلاء مسؤولين عن الاسعاف الاولي في نطاق المنطقة منذ سنوات.

وعين الطبيب بنو زيف ــ تسيون مدربا عاما لإعداد اطقم الممرضين والعاملين في حقل الاسعاف الاولي. وعندما وضعت «الخطة أ» تم توزيع الاطباء، اعضاء «الهاغاناه» في المناطق الريفية، الى اطباء على مستوى المناطق وأطباء على مستوى الاقضية. وانسجاما مع الطابع العام للخطة، التي احتلت فيها قوة الحراسة مكان الصدارة، كانت الخدمات الطبية ملازمة لقوة الحراسة، لكن كلفت ايضا خدمة قوة الميدان الى حين تنظيم خدمات طبية تابعة لها («قيادة الخدمات الطبية»). وقد وضع في تصرف اطباء المناطق ممرضون «أنهوا دورات كاملة للاسعاف الاولي» (المصدر السابق) ونقالات الاسعاف (حاملو نقالات)، وكانوا معفيين صراحة من باقي مهمات نجمة داوود الحمراء. وكان طبيب المنطقة (غالبا طبيب «كوبات حوليم» أو «الهستدروت» في المنطقة) مسؤولا عن تنظيم الخدمات الطبية في المكان وتقديم تقرير الى طبيب القضاء. وكان موضوعا في تصرف طبيب القضاء مستودع يضم مواد طبية وضمادات ووسائل نقل لنقل الجريح الى المستشفى في حالة الضرورة. كما كان في تصرفه ممرض على مستوى القضاء، مسؤول عن اجراء تدريبات منتظمة على الاسعاف الاولي، وتنظيم الاوقات لدورات تكميلية، والمساعدة، وما شابه ذلك. وقد تولت الخدمات الطبية اجراء الفحوصات الجسدية للأعضاء الجدد الذين كانوا ينضمون الى «الهاغاناه»، وخصوصا اولئك الذين كانوا يفرزون للدورات القطرية المختلفة. وكانت الخدمات الطبية مسؤولة ايضا عن الترتيبات الصحية في معسكرات التدريب والدورات.

1267

ونظمت دورات للممرضين والممرضات في الاربعينات في اطار «حيل هنوطريم» [قوة الخفارة]، وفي سنوات الحرب ايضا في اطار الدفاع المدني. وقد كُلِّفت الوكالة اليهودية في سنوات الحرب رسميا تنظيم الدفاع ضد الغارات الجوية والهجمات التي يستخدم فيها الغاز في الييشوف العبري، وأُوكل الاشراف على ذلك عمليا الى «الهاغاناه»، التي اسندت المهمة الى مردخاي نمتسا ــ بي (كان لقبه الرسمي: «مستشار الوكالة اليهودية في شؤون الدفاع المدني»).

وقامت الخدمات الطبية باعداد مادة ارشاد ملائمة بالعبرية، ووزعتها على الممرضين ورجال الاسعاف الاولي، إما بواسطة نشرات («اخبار الخدمات الطبية») وإما بواسطة كراريس.

وقد بلغت الخدمات الطبية مستوى رفيعا من التطور، وخصوصا في قضاء تل ابيب حيث اقيمت سرية خاصة من الاطباء، نحو ٧٠ طبيبا، ترأسها قائد الخدمات الطبية. وقد

شغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٤٣ الطبيب شمعون آينهورن ثم خلفه، اعتبارا من نهاية سنة ١٩٤٤، الطبيب موشيه بيلر.

«اهتممنا جدا» ـ روى ش. سافوراي ـ «بأن يتلقى جميع رجال السرية تدريبا عسكريا مماثلا لتدريب اعضاء «الصف». وقد تلقى الاطباء تدريبات على مبادىء نظام الجندية واستعمال المسدسات ونقل الجرحى، واستمعوا الى محاضرات عن الطب العسكري. كما انشأت الخدمات الطبية في تل ابيب مدرسة للاسعاف الاولي، بادارة الطبيب زيلبرشتاين (ولاحقا: غاليلي). وكانت في تصرف قائد الخدمات الطبية هيئة اركان ضمت نائبه، وقائد سرية الاطباء، وقائد مدرسة الاسعاف الاولي، وطبيب قوة الميدان، وطبيب المعسكرات، وطبيب الفحص الطبي، وقائدة سرية الفتيات، ومأمور مستودع. وتولت [هيئة] الفحص الطبي، التي عملت في «بيت شتراوس»، فحص كل عضو تم قبوله في «الهاغاناه».

وجرى ايضا نشاط منهجي للتدريب والاعداد في كل من حيفا والقدس. وعند انشاء البلماح، اتسع حقل نشاط الخدمات الطبية. ووضع في تصرف البلماح طبيب خاص، الدكتور كلاوس دراير (درور)، أُلحق به فيما بعد ممرض في اطار اللواء هو ش. فريديمان (ولاحقا: الدكتور فريديمان).

وقد ساهمت الاناث من الاعضاء مساهمة كبرى في نشاط الخدمات الطبية، سواء في المراتب العليا كطبيبات، او في صفوف القاعدة كممرضات ومقدمات اسعاف اولي. ولم يكن هناك اي فرع صغير في «الهاغاناه» إلا وضم بين صفوفه مجموعة من الاناث من الاعضاء للاسعاف الاولي، كن يتدربن ويهيئن انفسهن لاوقات الطوارىء.

دائرة الاعلام

خلال سنوات النضال، اصبحت دائرة الاعلام اكثر الدوائر نشاطا. وقد وجهت نشاطها ايضا الى الخارج والى الانكليز والعرب. لكن نشاطها كان موجها، في الاساس، الى الداخل لشد عزيمة الييشوف في اوقات النضال الصعبة.

ولم يكن يقل اهمية عن ذلك النشاط الاعلامي بين صفوف اعضاء «القاعدة» انفسهم. وقد تعين على الدائرة ان تكيف نشاطها بما يلائم الوحدات المختلفة. اذ لم يكن الاعلام الموجه الى رجال قوة الحراسة، القدامى والمستقرين، كالاعلام الموجه الى شبيبة الغادناع المملوءة حيوية والمتعطشة الى العمل. وفي وحدات البلماح كان النشاط التوجيهي والاعلامي يتم فيها بصورة منهجية منذ بداية تأسيسها، وكان هو ايضا مرتبطا برجال دائرة الاعلام في هيئة الاركان العامة.

1268

كما اهتمت دائرة الاعلام بالدورات المخصصة للقادة. وكان يخصص في كل دورة وقت كبير لذلك. وعنيت الدائرة بايجاد اتصال مباشر بين سلك قادة المستقبل وبين رجالات الحركة و «الهاغاناه» المركزيين.

وكانت المهمات والمخاطر التي واجهت اعضاء المنظمة، في سنوات النضال، اصعب وأكثر من تلك التي دعوا الى التطوع لمواجهتها في السنوات السابقة. «ان العضو الذي يؤدي القَسَم لا يفهم دائما ما الذي يقسم عليه» ـ قال يسرائيل غاليلي في دورة لضباط الاعلام تمت في شتاء سنة ١٩٤٥ ـ «ان العضو صادق بالتأكيد في قَسَمه، لكنه لا يصل دائما الى قرارة مغزى القَسَم الذي يؤديه. ومهمتنا هي ان نوصل الى وعي العضو، بواسطة التثقيف وأساليب السلوك في مستوى «القاعدة»، مضمون القسم، ونرفعه من المرتبة الدنيا للتضحية الى مراتبها العليا».

ولقد تطورت دائرة الاعلام في الحرب العالمية الثانية، حين خنقت الرقابة العسكرية البريطانية حرية التعبير والاعلام. وأخذت حلقة الاشخاص التي عملت وقتئذ في اصدار صحيفة «معراخوت» (انظر ص 47)، برئاسة أليعيزر (لسياه) غاليلي وأليعيزر ليفنشتاين (ليفنه) وغرشون ريفلين، على عاتقها مسؤولية تنظيم النشاط الاعلامي الذي اتخذ، في البداية، طابع المعلومات السياسية عما يجري في العالم السياسي والصهيوني. وجهزت قائمة محاضرين تم ارسالها الى لقاءات القادة واجتماعات الاعضاء. وفي النهاية، أُنشئت دائرة الاعلام، وقامت بعملها في مكاتب هيئة تحرير «معراخوت». وتولت هذه الدائرة، برئاسة أليعيزر غاليلي، إصدار ادب اعلامي شرعي (تحت ستار مادة للحراس والجنود)، وغير شرعي.

وكانت الدائرة مسؤولة عن صوغ نصوص المنشورات والمواد الاعلامية التي ألف كثيرا منها: كتريئيل كاتس وأهرون تشيرنتسكي (زئيف) وأهوفيا ملكين من دائرة الاعلام. وفي احيان كثيرة كان لا بد من الحصول على موافقة رئيس القيادة القطرية، او حتى الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، لنشر هذه المادة او تلك. وتم التنفيذ الفني لطباعة المادة والمنشورات بواسطة هيئة تحرير «معراخوت».

وكانت المنشورات الخاصة بـ «الهاغاناه»، التي صدرت في فترة النضال، معنونة باسم «هحوماه» [السور]. وكان الهدف منها «ارشاد الاعضاء والجمهور فيما يختص بتفهم الشؤون المتعلقة بمجال الامن والدفاع». وطبع معظمها في مطبعة يسرائيل شالومي بتل ابيب، وألصق على جدران البيوت ولوحات الاعلانات بواسطة مجموعات من شبيبة الغادناع.

وكانت هناك اهمية خاصة للاعلام في فترة النضال التي تلت «السبت الاسود»، عندما اصبحت الآراء داخل صفوف «الهاغاناه» منقسمة فيما يتعلق بمشكلات سبل استمرار النضال. وقد جرى شرح الخط الذي انتهجته المؤسسات القومية في اجتماعات وحدات قوة الميدان والغادناع واتحادات الشبيبة، التي كانت تثقف اعضاءها تمهيدا لانضمامهم الى «الهاغاناه». وفي كثير من الاحيان، واجه المحاضرون صعوبات وادعاءات مريرة صادرة عن اعضاء «الصف» والشباب. ومن حين الى آخر، كان المسؤولون عن الاعلام يقابلون يسرائيل غاليلي او عضوا آخر من القيادة ويستمعون منه الى الخط الذي يتعين عليهم انتهاجه.

وفي مذكرات يسرائيل شاحوري، الذي كان احد الموجهين الرئيسيين في تل ابيب ايام النضال، جرى التشديد على ضرورة الاعلام، بسبب الازدواجية التي نشأت مع ايقاف النضال النشيط وتطلبت يقظة وسلبية في آن واحد. «ان هذه الازدواجية» ـ كتب شاحوري ـ «التي تبعث على المرارة والارتباك في صفوف الاعضاء، تستوجب نشاطا اعلاميا جذريا يجلو ويوضح ويقنع [الاعضاء] فيما يتعلق بالاسباب الداعية لها. ـ ـ ومن المهم ان نتحرر من الفرضية الجوفاء ان في قدرة الاوامر ان تضمن الانضباط والبقاء في حالة استعداد. والعكس هو الصحيح. ففي ظل غياب الوعي. ـ ـ فاننا نجرد هذه الاوامر من مفعولها الادبي». «والاسلوب الرفاقي» ـ يضيف شاحوري ـ «يكتسب اليوم اهمية مضاعفة كعامل ربط يضمن تشبث الاعضاء باطارهم التنظيمي وارتباطهم به». 1269

وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٧، تقرر تحويل صحيفة «الهاغاناه» في تل ابيب، «بمحنيه»، الى صحيفة مركزية لأعضاء «الصف» في جميع انحاء البلد. واستمرت الصحيفة في الظهور، وجرى طبعها بواسطة الآلة الناسخة وتوزيعها على كل الفروع في البلد. وقد ترأس تحريرها اهوفيا ملكين وموشيه شامير.

وجرى تبني الاعلام الشفهي في جميع وحدات المنظمة، وكانت تعقد دورات وندوات خاصة لارشاد المحاضرين فيما يتعلق بمشكلات الييشوف وأمنه. وقد استعان الاعلام في «الهاغاناه» بالادب الشرعي الذي كان يعالج موضوعات وثيقة الصلة بشؤون المنظمة. وهكذا صدرت سنة ١٩٤٤، في اطار عدد من أعداد «معراخوت»، مجموعة فصول ادبية بعنوان «فصول البطولة» (الطبعة الثانية بعنوان «تراث البطولة» ـ ١٩٤٧). وقد وزعت آلاف النسخ من هذه المجموعة على جميع اوساط الجمهور العبري. وفي سنة ١٩٤٧، ظهر «سيفر همعبيليم» [«كتاب المهاجرين اللاشرعيين»] باصدار المنظمة الصهيونية واعداد موشيه باسوك (من اشدوت يعقوف)، وفيه تلخيص لقصة الهجرة اللاشرعية حتى نهاية سنة ١٩٤٦. وأعد باشراف زروبابل غلعاد، ضابط الاعلام في البلماح، كتاب «مغين بسيتر» [«الدفاع السري»] الذي روى قصة المجهود الحربي السري لليشوف وقصة المظليين، ولم ينشر إلا في ربيع سنة ١٩٤٨. وصدرت عن «اللجنة القطرية من اجل الجندي اليهودي» سلسلة «مكتبة الجندي» التي اشتملت على كراريس عالجت، بهذه الصورة او تلك، مشكلات الدفاع اليهودي. وقد تضمن الكراس الاول، «عم حيزايون ههغناه» [«رؤيا الدفاع»]، مقالات ومقتطفات من مقالات بيرل كاتسنلسون «حول نشوء القوة العبرية وتخبطاتها وانعطافاتها ومشكلاتها، ابتداء بالتطوع للكتائب سنة ١٩١٨ وانتهاء بأيام التطوع في الحرب العالمية الثانية». وظهرت مادة اعلامية مهمة في المجلة المختصة الشرعية لـ «الهاغاناه»: «معراخوت». ومع بدء النضال اتسعت نشاطات دائرة الاعلام. ووصلت «اشناف» [«الكوة»]، التي صدرت بصورة غير شرعية برئاسة تحرير أليعيزر ليفنشتاين (ليفنه)، واعتبرت الناطقة بلسان نشيطي اعضاء ماباي، هي ايضا الى ايدي اعضاء كثيرين. 1270

«كول يسرائيل» [اذاعة «صوت اسرائيل»]

ارتبط بدائرة الاعلام نشاط «صوت اسرائيل»، الذي تجدد بعد توقفه عدة سنوات (انظر ص 145)، وتحول الى محطة الاذاعة غير الشرعية لـ «حركة التمرد العبري» التي بدأت بث برامجها في ١٩٤٥/١٠/٤، واستمرت فيها مع توقفات معينة الى حين قيام دولة اسرائيل. وكان مسؤولا عن تنظيم البرامج من قبل هيئة الاركان العامة في فترات مختلفة كتريئيل كاتس ويوسف كركوبي. وكانا يعرضان نصوص البرامج على رئيس القيادة القطرية موشيه سنيه، او يسرائيل غاليلي، للمصادقة عليها. وكان تنفيذ البرامج موكلا الى ألكانا غليبتر (غالي)، الذي «كان صوته يشعل الحماسة باللغات الثلاث: العبرية والانكليزية والعربية» (ك. كاتس). وبعد ادخال تحسينات وتعديلات معينة، تم إعداد جهاز ارسال قابل للحمل مع كل توابعه في حقيبة صغيرة، يمكن نقلها بسهولة من مكان الى آخر. وبمساعدة رجال جهاز الاستخبارات في تل ابيب اختير عدد من الشقق الخاصة بأعضاء يوثق بهم، أبدوا استعدادهم لاستضافة المحطة في منازلهم. ووضعت في تصرف غليبتر وحدة خاصة مشكلة من رجال البلماح. وكان هؤلاء يحيطون بمكان وجود المحطة، ويحذرون [المسؤولين]، باشارات متفق عليها، بكل ما يحدث في الجوار. 1271

«عملنا في الاساس من تل ابيب نفسها» ــ روى يشعياهو (ايشي) لمبرغر (لافي)، الذي كان مسؤولا عن تنظيم الجانب الفني في الارسال ــ «وكان ذلك مريحا: فمن السهل التجوال مع الاجهزة في المدينة، ومن السهل ايضا الابتعاد. ــ ــ وعلى الرغم من ذلك كانت هناك خارج المدينة اجهزة بث ثابتة ــ في هيرتسليا ورامات هشارون وكفر سابا. وعندما كنا نضطر الى الانتقال من منزل الى آخر في المدينة، كنا نستخدم اجهزة البث الموجودة خارج المدينة. ــ ــ وكان هذا يربك الانكليز تماما». وبعد فترة من الوقت، استدعي من انكلترا خبير خاص، الكابتن ليبستر، لتحديد مكان المحطة وتصفيتها. وقد تعقب رجال جهاز الاستخبارات الكابتن ورافقوه في كل عمليات التفتيش التي قام بها. وبمرور الوقف اكتشف رجال «صوت اسرائيل» الموجة التي كان الكابتن يرسل عليها أوامره، فأخذوا يستمعون اليها ويغيرون موقعهم بناء على ذلك. ونشأت ضرورة لاستبدال اعضاء البلماح من حين الى آخر بانات من الاعضاء حتى لا تثار شكوك رجال التحري البريطانيين.

وكان احد المنازل المحببة الى قلب المذيعين واقعا في شارع سمولانسكين ٥ بتل ابيب. اذ لم تكن شبكة الطرقات في المدينة قد وصلت بعد الى هذا الشارع، ولم يكن الوصول اليه سهلا بالنسبة الى سيارات الشرطة السرية. وعندما اتضح ان البريطانيين يعززون عمليات التفتيش في الجوار، نظم البث من محطتين: الاولى في تل ابيب، والثانية في كيبوتس غفعات هشلوشاه (جنوبي بيتح تكفا). وكان البث يبدأ في تل ابيب، ثم يستأنف المذيع البث من مكان معين في غفعات هشلوشاه. وبعد فترة اكتشف رجال التحري الامر، وحلقت طائرات لتحديد مكان عمل المحطة خارج تل ابيب. وبسرعة اجريت عمليات تفتيش دقيق في

غفعات هشلوشاه وجوارها. وعندها نقل جهاز البث الى غفعات برينر، لكن اتضح في نهاية الامر انه سيكون من السهل على رجال التحري اكتشاف الاجهزة في المناطق الريفية ذات الكثافة السكانية المنخفضة، وعادت المحطة الى التنقل من منزل الى آخر في تل ابيب الواسعة. وأُذيعت المذكرة التي قدمتها قيادة «الهاغاناه» الى لجنة الامم المتحدة لمدة نصف ساعة من المحطتين ـ غفعات برينر ورامات هكوفيش، واستخدمت السلطات البريطانية وقتئذ الطائرات لتحديد موقعي المحطتين. وعندما يئس البريطانيون من العثور على المحطتين، أخذوا يشوشون بصورة منهجية على برامجهما، واضطر رجال «صوت اسرائيل» الى الانتقال من موجة الى اخرى لايصال برامجهم الى عشرات الآلاف من المستمعين الصبورين في جميع ارجاء البلد.

وقد اشتملت البرامج على اخبار عن النضال والهجرة اللاشرعية، وعلى ردود على بيانات البريطانيين، وعلى جدل مع المنظمتين المنشقتين. وكان جزء من المادة يطبع بعد اذاعته في منشورات «هحوماه». وفي ايام منع التجول في تل ابيب، بذلت جهود خاصة للاستمرار في البث بأمرة القيادة القطرية، وكانت الاذاعة تسمع في الوقت المحدد، وان كانت فترة البث قد اختصرت الى خمس دقائق.

وكانت محطات الارسال المحلية التابعة لـ «الهاغاناه»، والتي كانت مخصصة في الاساس لاغراض المنظمة الداخلية وتبث مادتها بالشيفرة غالبا، تتحول احيانا الى محطات ارسال موجهة الى الجمهور الواسع. وهكذا ساهمت محطة الارسال بحيفا في تنظيم التظاهرات في المدينة عندما طُرد المهاجرون غير الشرعيين من الميناء (انظر ص 1138). وقد قامت هذه المحطات المحلية بأدوار مهمة في نقل المعلومات والاعلام وشد عزيمة السكان في ايام حرب الاستقلال الصعبة. وقد عرف في تلك الفترة، اضافة الى «صوت اسرائيل»: «صوت القدس»، و «صوت حيفا»، و «صوت الجليل».

1272

ميزانية «الهاغاناه»

كانت مسؤولية الاهتمام بمداخيل «الهاغاناه» والاشراف على مصروفاتها مسندة الى الدائرة (د) التابعة للقيادة القطرية. وكانت هذه الدائرة مسؤولة عن إعداد الميزانيات وفقا للسياسة المقررة من قبل القيادة العليا، ووفقا للمشاريع المقدمة من الدوائر المختلفة. كما كانت مسؤولة عن ادارة الحسابات، واعداد التقرير المالي في نهاية السنة، ومراقبة انفاق الاموال السنوي في الوسط والمناطق. وقد ازدادت ميزانية «الهاغاناه» باطراد من سنة الى اخرى، كما يبين الجدول التالي:

نفقات «الهاغاناه» في السنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٧
[بآلاف الجنيهات الفلسطينية]

السنة	اجمالي النفقات	الصناعة العسكرية	التدريب	البلماح	مشتريات السلاح	الادارة والمركز والمناطق
١٩٤٠	٨٠,٦٨٥	١٤,٤٧٥	١٣,٩٧٩	ـ	٣,٠٩١	٢٩,٣٠٢
١٩٤١	١١١,٤٨٦	٢٨,١١٢	١٧,٢٤٠	٢,٣٥٩	١٥,٣٨٢	٣٤,١٢٠
١٩٤٢	٢٠٩,١٥٣	٣٣,٢٧٤	٦٥,٦٣٣	٢٣,٢٤٠	٣٥,٩٧٩	٣٣,٠٧٢
١٩٤٣	٣١٠,٧٤٠	٦٨,٤٦١	٨٠,٨٢٩	٥٦,٩١٨	٢٦,١٧٢	٤٦,٧٣٦
١٩٤٤	٤٣٥,٩٠٢	٩٩,٨٢٤	١١٦,٤٠٢	٦١,١٩٩	٣٠,٥٩٦	٦٥,٤٠٨
١٩٤٥	٤٨٦,٢١٠	١٠١,٦٠٤	١١٧,٨٨٤	٨٣,٠١٥	٢٧,٠٦٨	٨٥,٠٦٨
١٩٤٦	٦٥٠,١٢١	١٧٣,٠٧٣	١١٣,٩٢٦	١١١,٠٨٣	٥٤,٥٦٤	١٠١,٤٥٥
١٩٤٧ (تقدير)	٧٧٠,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١٦١,٦١٥

وقد نجمت الزيادة في النفقات، طبعا، ايضا بسبب ارتفاع الاسعار في اثناء الحرب العالمية. لكن الزيادة نجمت، في الاساس، عن اتساع نشاطات «الهاغاناه». وهكذا نرى ان نفقات «الهاغاناه» الكلية ازدادت من سنة ١٩٤٠ الى سنة ١٩٤٧ نحو ١٠ اضعاف، وأن الانفاق على الصناعة العسكرية ارتفع الى اكثر من ١٧ ضعفا، والانفاق على التدريب الى نحو ١١ ضعفا، وأضيف بند جديد: نفقات الاحتفاظ باللواء المجند ــ البلماح ــ التي بلغت نحو ١٥ ٪ من الميزانية العامة. وقد استهلكت البنود الثلاثة هذه (الصناعة العسكرية، والتدريب، والبلماح) اكثر من ثلثي الميزانية العامة. ومن الجدير بالذكر ان ميزانية شراء السلاح لم تكن محدودة ومضمونة سلفا، وانما انفقت الاموال بحسب فرص شراء السلاح. وتضمنت ميزانية شراء السلاح نفقات الشراء من البلد فقط. أما الشراء من خارج البلد فقد جرى تمويله بواسطة الوكالة اليهودية مباشرة. وقد اتت مداخيل «الهاغاناه»، في الاساس، من اربعة مصادر:

أ ــ «فدية اليشوف» (كوفر هييشوف) التي بدىء بجبايتها في ابان الاحداث سنة ١٩٣٨ (انظر المجلد الثاني، الفصل ٥١)؛

ب ــ «الجباية من اجل التجنيد والانقاذ» التي تأسست سنة ١٩٤٢؛

ج ــ مخصصات الوكالة اليهودية والجبايات التي كانت تتم في دول الشتات؛

د ــ بيع السلاح ومنتوجات الصناعة العسكرية للمستعمرات.

مداخيل «الهاغاناه» في السنوات ١٩٤٠ ـ ١٩٤٧
[بآلاف الجنيهات الفلسطينية]

السنوات	اجمالي المداخيل	«فدية البيشوف»	٪	«جباية التجنيد»	٪	الوكالة اليهودية والجبايات الخاصة	٪	المبيعات	٪
١٩٤٠	٩٩,٨٧٣	٥٧,٠٣٧	٥٧	ـ	ـ	٣٢,٦٣٣	٣٤,٨	ـ	ـ
١٩٤١	١١٠,١٨٣	٢١,١٠٠	١٩,١	ـ	ـ	٥٩,٥٢٥	٥٤	١٢,٧٨٩	١١,٦
١٩٤٢	٢١٣,٠٧٢	٤١,٥٠٠	١٩,٥	٦٥,٠٠٠	٣٠,٥	٥٨,٣٧٥	٢٧,٤	٢٥,١٢٧	١١,٣
١٩٤٣	٢٨١,٤٢٠	٤٠,٠٠٠	١٤,٢	١١٦,٦٧٥	٤١,٤	٦٩,٣٣٦	٢٤,٦	٣٤,٣٧٣	١٢,٢
١٩٤٤	٣٨٣,٩٨٠	٤٠,٠٠٠	١٠,٤	١٤٣,٠٩٣	٣٧,٣	١٢٩,٨٦٠	٣٣,٨	٤١,٢٣٣	١٠,٧
١٩٤٥	٥٣٩,٢٦٠	٤٨,٥٠٠	٩	٩٠,٠٠٠	١٦,٦	٢٧٣,٠٢٥	٥٠,٦	٦١,٦٢٥	١١,٤
١٩٤٦	٧٠٨,٧٦٥	٦٣,٠٠٠	٨,٩	١١٢,٠٠٠	١٥,٨	٤٤٢,٠٦٥	٦٢,٣	٣١,٤٧٨	٤,٤
١٩٤٧ (تقدير)	٧٧٢,٠٠٠	٧٢,٠٠٠	٩,٣	١٦٠,٠٠٠	٢٠,٨	٤٤٠,٠٠٠	٥٧	١٠٠,٠٠٠	١٢,٩

وقد غطت «فدية البيشوف»، التي قامت بدور مركزي في تمويل «الهاغاناه» في نهاية فترة الاحداث، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩، اكثر من نصف الميزانية في السنة الاولى من الحرب [العالمية] (١٩٤٠). لكن الازمة الاقتصادية، التي تفاقمت في البلد تلك السنة، ادت الى تقلص المداخيل بصورة ملموسة، وخصوصا بعد ان انشىء في اشهر الحرب الاولى [صندوق] «ضريبة الطوارىء». «اعتبارا من شهر كانون الاول/ديسمبر ١٩٣٩، حولت مساهمة [صندوق] «فدية البيشوف» المباشرة الى مجال نشاط المؤسسة الجديدة، فاضطر الصندوق الى الاكتفاء بنصف مداخيله، من مصدر الضرائب غير المباشرة فقط، وحتى هذه انخفضت ارقامها» («كتاب الجباية»). وفعلا، فقد انخفضت مداخيل «فدية البيشوف» من ١٥٢,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٣٩، الى ٥٧,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٠. واعتمد [صندوق] «فدية البيشوف» عمليا على «ضريبة الاستيراد»، و«ضريبة النقل»، والضريبة المفروضة على قلة من السلع الاستهلاكية (في الاساس المارغرين). وفي سنة الازمة التنظيمية الخطرة في «الهاغاناه»، سنة ١٩٤١، انخفضت مداخيلها الى ٢١,٠٠٠ جنيه فلسطيني، وعادت فارتفعت بعد ذلك، إلا انها لم تغط سوى ١٠ ٪ تقريبا من مصروفات المنظمة.

وعندما انشىء صندوق «الجباية من اجل التجنيد والانقاذ» (انظر الفصل الرابع عشر)، وجدت «الهاغاناه» فيه سندا جديدا لها. وعمليا، عاد صندوق «فدية البيشوف» الى سالف عهده، إلا ان المؤسسة الجديدة اخذت على عاتقها مهمات كثيرة اخرى خارجة عن نطاق «الهاغاناه» (مساعدة عائلات الجنود، وانقاذ اليهود في اوروبا، ومعونات اجتماعية)، ووضعت في تصرف «الهاغاناه» في سنوات الحرب نحو ربع مداخيلها فقط. وقد غطت هذه المداخيل، اضافة الى مداخيل «فدية البيشوف» ـ التي كانت عمليا جزءا عضويا من «الجباية

من اجل التجنيد» ولكن من مصادر اخرى ـ في هذه السنوات نصف نفقات المنظمة. وحدث تغير كلي في الأهمية النسبية لمصدر الدخل هذا مع بداية النضال، عندما تحملت الوكالة اليهودية عبء ميزانية المنظمة. ولكن حتى آنذاك أمدت «الجباية» و «فدية الييشوف» «الهاغاناه» بأكثر من ربع مداخيلها. وقد اعلنت «الجباية من اجل التجنيد» في هاتين السنتين، ١٩٤٦ و١٩٤٧، جبايات خاصة لـ «الشعب المحاصر»، خصصت لمتطلبات النضال، ووزعت على النحو التالي: ثلث لـ «الهاغاناه»، وثلث لـ «مؤسسة الهجرة»، وثلث للعناية بالمساجين والمتضررين من النضال. وقد درّت هذه الجبايات نحو ١٤٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٦، ونحو ١١٣,٠٠٠ جنيه فلسطيني سنة ١٩٤٧. 1274 ولم ينقذها جهاز الجباية العادي التابع لصندوق «الجباية من اجل التجنيد والانقاذ»، وانما اعضاء «الصف» في القرى والمستعمرات الذين انتقلوا من بيت الى آخر وجمعوا التبرعات من المواطنين لهذه الجبايات.

لكن الايام المجيدة لصندوق «الجباية من اجل التجنيد» كانت بانتظاره في نهاية سنة ١٩٤٧، مع حملة الجباية الكبرى لـ «أمن الشعب» التي درت خلال فترة قصيرة ٥٣٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني، واستخدمت في وضع اساس للاستعدادات الاولى لحرب الاستقلال.

وقد دعمت الوكالة اليهودية «الهاغاناه»، سواء بمخصصات عادية او بجبايات خاصة جرت في دول اوروبا وأميركا. واذا كان هذا الدعم لم يتجاوز في سنوات الحرب [العالمية] ثلث ميزانية «الهاغاناه» (باستثناء سنة الازمة، ١٩٤١، التي غطت الوكالة فيها ٥٤٪ من نفقات المنظمة)، فانه منذ بداية النضال غطت الوكالة اليهودية والجبايات من خارج البلد معظم نفقات المنظمة (٥٠٪ ـ ٦٢٪).

أما المصدر الرابع، بيع السلاح للمستعمرات، فانه لم يدخل فعليا سوى ما يفوق قليلا عُشر مداخيل المنظمة، إلا ان اهميته تجاوزت هذا النطاق، اذ ان سيطرة المنظمة على مصادر اقتناء السلاح والصناعة العسكرية في الييشوف، شكلت الاساس لنفوذها في الفروع الكثيرة التابعة لها والمنتشرة في جميع ارجاء البلد.

ان هذه الارقام الجافة لا تعكس النقص الدائم في الاموال الذي اعاق العمل المنتظم للمنظمة، وقيد امكانات التطوير الارحب الذي طالب به المسؤولون عن الفروع المختلفة في «الهاغاناه». «ان مسألة التمويل» ـ كتب موشيه سنيه ـ «كانت واحدة من اصعب المشكلات التي واجهتني طوال سنوات وجودي في المنصب (رئيس القيادة القطرية). ولم تكن تمر سنة واحدة إلا وتفوق فيها النفقات الفعلية النفقات المذكورة في الميزانية. وكنا باستمرار نواجه عجزا دائما متزايدا ومتراكما باطراد. ـــ وقد اجبر هذا الوضع رئيس القيادة القطرية، في احيان كثيرة، على الحصول على موافقة صندوق الوكالة (أليعيزر كابلان) وادارة «فدية الييشوف»، ثم «الجباية من اجل التجنيد» (اهرون بارت، موشيه سفيرسكي) لتغطية العجز

بعد وقوعه. وغالبا ما كان العجز ناجما، في جزئه الاصغر، عن انفاق تم بموجب الميزانية، وفي جزئه الاكبر عن تجاوز للميزانية المقرة».

وعلى اية حال اصبحت ميزانية المنظمة، خلال فترة قصيرة مداها عشر سنوات منذ تأسيس صندوق «فدية الييشوف»، تشكل جزءا محترما من ميزانيات الييشوف الاخرى. لكن، كان الواضح مع اقتراب سنة ١٩٤٨ ـ وقبل نشوب حرب الاستقلال ـ ان هذه الحجوم ليست كافية على الاطلاق. وتم وضع الميزانية لسنة ١٩٤٨ من خلال افتراضات وحسابات مختلفة تماما (انظر الفصل السادس والستين).

الفصل الثالث والستون

«الهاغاناه» في المناطق والألوية خلال سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧

مركز ثقل المنظمة ــ في المناطق والالوية

في الوقت الذي كان فيه التوجه العام للمؤسسات القومية والقيادة العليا يسير نحو تحويل «الهاغاناه» الى منظمة عسكرية ــ قطرية: اقامة الاركان العامة، وتطور الاقسام الرئيسية التي عالجت قضية امن الييشوف بمنظور قطري، وانشاء اللواء المجند (البلماح) الذي أُخضع لسلطة القيادة العليا؛ في هذا الوقت واصلت جماهير اعضاء «الهاغاناه» ممارسة حياتها التنظيمية ضمن الاطر المحلية ــ الاقليمية. ولم يقتصر الامر على بقاء عشرات الآلاف من الاعضاء في قوة الحراسة، الذين كانوا ملحقين بموجب «الخطة ب» بنقاط الاستيطان التي كانوا يقطنونها، خاضعين لسلطة قيادة المناطق والالوية والاقضية بل بقي خاضعا لها ايضا قوة الميدان التي كانت تضم خيرة الطاقة البشرية للمنظمة، وكتائب الشبيبة التي كان مستقبل المنظمة مرهونا بها. وقد كانت اعادة التنظيم التي تمت في بنية المنظمة في بداية سنة ١٩٤٥ (انظر ص 235)، تنطوي على شيء من التراجع امام الضغوط المحلية.

وكان من الامور المؤلمة مشكلة السيطرة على السلاح. فقد كان السلاح موجودا تقريبا في حيازة وحدات القيادات المحلية فقط، وكانت مستودعات السلاح التابعة لعدد منها مقفلة عمليا في وجه ممثل هيئة الاركان العامة. وهكذا نشأ وضع سخيف تزودت بموجبه قوة الحراسة بالاسلحة التي اشترتها المستعمرات، وتفوقت على قوة الميدان التي كانت كميات السلاح المتوفرة لديها قليلة الى حد خطر.

وبما ان وضع المنظمة كان مختلفا في كل منطقة ولواء، فلا بد ايضا ــ في هذه المرحلة من تاريخ المنظمة ــ من عرض الوضع في كل منها على حدة. ان الظروف المحلية، ونوعية المادة البشرية في المنطقة، ومواهب القيادة المحلية وجوانب القصور فيها ــ كل هذا قام بالدور المقرر بالنسبة الى وضع «الهاغاناه» في منطقة ما. وكانت هذه المناطق، بما فيها من طاقة بشرية وعتاد، هي المصادر التي تعين على «الهاغاناه» ان تستمد قواتها منها عندما حانت اللحظة الحاسمة في خريف سنة ١٩٤٧.

كان الخط المشترك لـ «الهاغاناه» في جميع المناطق والوحدات في سنوات النضال، هو العودة الى نظام الحذر والعمل السري العميق، الذي كان متبعا في المنظمة قبل أحداث سنة ١٩٣٦. «ان موقف السلطات (المقصود: حتى الآن)» ـ كتبت «بمحنيه» بعد «نشر قوانين الطوارىء الفتاكة» في كانون الثاني/يناير ١٩٤٦ ـ «ادى الى ارتخاء ستار التوتر والسرية الذي كان مبسوطا فوق نشاطاتنا، وأحيانا ساد التصور بأننا اصبحنا الجيش الرسمي المدافع عن الييشوف والمعترف به صراحة من قبل السلطات. ـ ـ لقد تغير الوضع الآن نحو الأسوأ الى حد الخطر والتعرض لسلامة صميم مشروعنا. ـ ـ وينبغي لنا ان نعيد شد وبسط ستار السرية والصمت فوق مشروعنا بأكمله». وطُلب من اعضاء المنظمة توخي الحذر في اثناء تجمعهم للقيام بالنشاطات والتدريبات، وبصورة خاصة الامتناع عن ارتداء تلك الملابس او توابعها، التي من شأن شكلها ان يعيد الى الاذهان الزي العسكري. ووزعت منشورات تدعو الى الحذر بين اعضاء «القاعدة»، وتحمل صورا مطبوعة لأشخاص يشتبه بقيامهم بالتجسس والوشاية.

1276 وأصبحت مشكلة نقل السلاح من مكان الى آخر في نطاق المستعمرات اكثر صعوبة. وشكلت في هذه الفترة وحدات خاصة لنقل السلاح، كان معظم اعضائها من الفتيات. وقد روت حانه لبيدوت عن وحدة كهذه شكلت في القدس: «كان النقل يتم بطرائق مختلفة. وكانت احدى هذه الطرائق نقل [السلاح] على الجسد. وكنا نحيك لهذه الغاية احزمة بطن خاصة تشتمل على جيوب. ـ ـ ولم نُـحرج من نقل السلاح في حقائب الكمان وعجلات الاطفال. وكانت الحقيبة المزدوجة القاع من طرائق النقل ايضا. وبهذه الطريقة لم ننقل سلاحا فحسب، وانما نقلنا ايضا بريدا (رسائل وصور وخرائط)».

واتسع نطاق استخدام هذه الوسائل بعد «السبت الاسود» (تموز/يوليو ١٩٤٦). وطلب من عضو «الصف» ان يتذكر انه عضو في منظمة غير شرعية، وأن «عين السلطة مفتوحة علينا، ويعمل في خدمة هذه السلطة عملاء كثيرون (يهود ايضا) يتعقبون نشاطاتنا» («بمحنيه»). وتقرر إلغاء اللقاءات المباشرة بين القادة الكبار والاعضاء، التي كانت تتم في الاستعراضات والاحتفالات، واسناد مهمات الاتصال بالمنظمة وشرح سياستها، التي كانت تتم في هذه اللقاءات، الى الكوادر الدنيا من الضباط. ومع ذلك برزت ضرورة إصدار صحيفة تخدم المنظمة كلها وتربط بين أجزائها، فتقرر تحويل «بمحنيه» ـ صحيفة فرع «الهاغاناه» القديمة في قضاء تل ابيب ـ الى صحيفة مركزية ناطقة بلسان المنظمة في البلد بأكمله، كما سبق ان ذكرنا اعلاه (انظر ص 1269).

مع اعادة تنظيم بنية «الهاغاناه»، في بداية سنة ١٩٤٤، برزت من جديد اهمية فروع المدن، التي كانت تسيطر عمليا على احتياطي القوة البشرية. وقد تشكلت هذه الفروع، التي وسع نطاقها ليشمل نقاط الاستيطان المجاورة لها، من ثلاثة ألوية لم تكن مختلفة ـ ظاهريا ـ عن المناطق الريفية، انما اكسب طابعها الخاص ـ كتجمعات كبيرة للسكان ـ عمل «الهاغاناه» فيها صبغة خاصة. وقد دعيت فروع المدن في هذه الفترة (١٩٤٤ ـ ١٩٤٨) بأسماء «نحالات كرياتي» (تل ابيب) «نحالات عتسيوني» (القدس) و«نحالات هداري» (حيفا). [نحلاه = مقاطعة أو منطقة].

وفي تل ابيب حدث تغير كبير في حياة المنظمة، حتى قبل اعادة التنظيم، مع استقالة أليميلخ زليكوفيتس («أفنير») في صيف سنة ١٩٤٤، التي تحدثنا عنها اعلاه (ص 326). فاستبدال القائد، الذي نجح خلال ثلاث عشرة سنة من القيادة في اكتساب مكانة محترمة في المدينة، لم يمر ـ طبعا ـ من دون هزة. ولم تقبل الكتلة المدنية التي اعتبرت تل ابيب معقلها بتنحية أفنير. وبحثت القيادة العليا عن قائد جديد يمكن ان يكون مقبولا من جانب المواطنين لجهة آرائه العامة ومع ذلك يعتبر نفسه خاضعا للقيادة العليا للمنظمة، واختارت ناحوم زيف ـ آف، قائد قضاء الشومرون. وتحدد يوم ١٩٤٤/٧/٣١ موعدا رسميا لتسلم القائد الجديد القيادة، وتقرر اجراء حفل التسليم بحضور القادة في قاعة مدرسة «هيرتسليا» في التاريخ نفسه. وفي اليوم نفسه استدعي زيف ـ آف الى اجتماع مع زعماء «هئيحود هئزراحي» [الاتحاد المدني]، وطلب منه التراجع عن موافقته على استلام قيادة تل ابيب. ولم يقبل زيف ـ آف حجج زعماء الاتحاد، وجرى حفل التسليم في مساء اليوم نفسه. لكن ضغط الاوساط المدنية على زيف ـ آف استمر بعد ذلك. وفي جلسة عقدت في منزل يسرائيل روكاح، رئيس البلدية، وجد زيف ـ آف نفسه مرغما على التصريح بأنه سيكون مضطرا الى قيادة المنظمة في تل ابيب من دون مساندة البلدية، وانه متأكد من انه في نهاية الامر لن يكون في وسع رئيس البلدية قطع صلته بـ «الهاغاناه» في المدينة. وفعلا، ظلت العلاقات بين البلدية وقيادة المنظمة في المدينة مقطوعة مدة تزيد على السنة، ولم يتجدد الاتصال بين البلدية وقيادة المنظمة في المدينة إلا في بداية فترة النضال (نهاية سنة ١٩٤٥) فقط. 1277

انيط بالقيادة خوض الصراع من اجل مركزها في تل ابيب، واستعانت على ذلك بعدة جهات. ومع ضم مناطق رامات غان وحولون الى «نحالات كرياتي»، توفر للقيادة حقل نشاط لم يكن من المحتمل ان تصطدم فيه ببلدية متحفظة، وأحيانا حتى معادية.

وفي صيف سنة ١٩٤٥، حدثت تغييرات في تركيب قيادة المدن. اذ عين نحاميا بورشتاين (باروش) مساعدا لقائد الاقليم بدلا من يغئيل سوكنيك (يادين)، الذي نقل الى هيئة الاركان العامة. وعين دافيد كوهين مدربا للاقليم.

وكان من الخطوات المهمة التي ادت الى تعزيز القيادة، ضم «الحرس المدني» الى

«الهاغاناه». وكان «الحرس المدني» تشكيلا شرعيا، انشىء في بداية سنة ١٩٣٨ من اجل «الوقوف الى جانب البلدية في وقت الطوارىء والضائقة، عندما يتطلب الامر تشغيل عدد كبير من السكان المتطوعين والمدربين والمنضبطين، المستعدين لأداء كل ما يوكل اليهم» (حاييم ألبرين). وقد تطوع في صفوف هذا التشكيل كثيرون من مواطني المدينة من اجل أداء المهمات شبه العسكرية التي استوجبتها التطورات (الدفاع المدني، والعناية بالمهاجرين والمهاجرين غير الشرعيين، والمحافظة على النظام في اثناء الاجتماعات، والمرافقة [من اجل الحماية]، وما شابه ذلك). وكان قائد «الحرس المدني» رجل الكتيبة العبرية، حاييم ألبرين. وقد سادت علاقات شخصية واجتماعية طيبة بين رؤساء «الحرس» وقادة «الهاغاناه» في المدينة، ووضعت خطط من حين الى آخر لزيادة الارتباط بين «الحرس» و«الهاغاناه» عن طريق ضم قادته الى المنظمة، وما شابه. لكن، مع تأزم العلاقات بين البلدية والمنظمة نشأ تخوف من ان يتحول «الحرس المدني»، «الذي هو قوة منظمة ملتفة حول ادارة بلدية تل ابيب» (ن. زيف ـ آف)، الى منظمة دفاع مدينية منشقة. ولذا استدعي قادة «الحرس المدني» الى محادثات استيضاحية وطلب منهم دمج رجالهم في المنظمة. واستقال حاييم ألبرين، الذي حاول عرقلة هذه العملية، من منصبه كقائد لـ«الحرس». وفي غضون سنة ونصف السنة خضعت أكثرية رجال «الحرس المدني» لشروط القبول، ودمجت في الوحدات المختلفة لـ«الهاغاناه» في المدينة. وبقيت اكثريتهم في «الحرس المدني» الذي اصبح واحدا من الاطر الشرعية التابعة لمنظمة «الهاغاناه» في المدينة.

وبعد ان فرضت البلدية نوعا من المقاطعة على المنظمة، تعين عليها التفتيش عن وسائل خاصة بها لاقامة ارتباط بالجمهور. واستحدث من اجل تحقيق ذلك اطار «هشيروت هكلالي» [الخدمة العامة]. وقد ضمت «الخدمة العامة» اشخاصا من فئة أعمار رجال قوة الحراسة لم يكونوا قد انضموا، لاسباب مختلفة، الى «الهاغاناه». ولم يلزم هؤلاء الاشخاص بالدخول رسميا كأعضاء في المنظمة، لكن طُلب منهم فقط «الولاء الكامل للروحية» (كتاب «الهاغاناه» في تل ابيب). وقد بلغ قوام هذه الوحدة، بقيادة تسفي اوربوخ، ١٢٠٠ عضو في ربيع سنة ١٩٤٧، وعند نشوب حرب الاستقلال ٢٠٠٠ عضو. وقد نظمت «الخدمة العامة» وفقا لنهجين: أ ـ بنية اقليمية: قسمت المدينة الى ١٢ منطقة، وأُنشىء في كل منطقة فرع للخدمة؛ ب ـ بنية مهنية: دعي الاشخاص الى الخدمة من بين اوساط مهنية معينة (اطباء، ومحامون، ومهندسون، وتجار، وموظفون، الخ) من اجل تشغيلهم في المنظمة وفقا لتأهيلهم المهني. وقد تسجل في اطار «الخدمة العامة» مئات من اصحاب السيارات الخاصة، الذين وضعوا سياراتهم (وأنفسهم كسائقين) في تصرف المنظمة كلما دعت الحاجة الى ذلك. «لم يكن الهدف استخدام هؤلاء الاشخاص في عمل مسلح»، كتب زيف ـ آف، «وانما ان نخلق بواسطتهم ارضية جماهيرية في ثلاثة مجالات: نشاطات عصيان جماهيرية، ونشاطات ضد المنشقين، وايجاد مصادر مالية للمنظمة لشراء السلاح وتوسيع التدريبات».

وكانت المشكلة المالية هي الاكثر اهمية، اذ ان بلدية تل ابيب «لم تدفع فلسا واحدا» (زيف ــ آف). وقد نُظمت حملتا جباية: الاولى، في نهاية سنة ١٩٤٤ وردت ٦٠٠٠ جنيه فلسطيني؛ والثانية، بعد سنة وردت ما ينوف على ٢٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وقد شكلت «الخدمة العامة» حاجزا بالغ الاهمية في وجه سيطرة المنشقين على الجمهور. وقد نظم رجال الاعمال والحوانيت انفسهم بواسطتها للوقوف في وجه مبعوثي الايتسل وليحي. وعين لكل عشرين او ثلاثين حانوتا قائد «كانت مهمته شد عزيمة الاشخاص كي لا يخشوا مجابهة الايتسل بالرفض» (زيف ــ آف). 1278

وقد قُيّض لـ «الخدمة العامة» أداء مهمة على جانب من الاهمية في فترة النضال. «كانت كل قيادة لواء»، كتب زيف ــ آف عن تلك الايام، «بحاجة الى ما يتراوح بين ثلاثة وخمسة منازل لاستخدامها بدائل. كما كان قسم من دوائر القيادة القطرية وهيئة الاركان العامة وهيئة اركان البلماح بحاجة الى منازل، وكذلك «صوت اسرائيل» كان هو ايضا بحاجة الى عشرات المنازل. وخلاصة القول: كانت هناك ضرورة لمئات العناوين من اجل استيعاب هذه القيادات، التي تنقلت في جميع ارجاء المدينة. وقد وضعت «الخدمة العامة» في تصرفنا شبكة من المنازل امتدت من اقصى الاحياء بعدا الى افخمها. وخدمنا باخلاص رجال ونساء من كل الطبقات: عمال وحرفيون، اصحاب حوانيت وتجار جملة، مستأجرون وأصحاب افخم الفنادق». وقد برزت اهمية «الخدمة العامة» بصورة خاصة حين نشوب حرب الاستقلال، وقام رجالها خلالها بأدوار تجاوزت نطاق الاسم المتواضع والباهت لوحدتهم.

وقد اولت القيادة الجديدة تطوير قوة الميدان اهتماما خاصا. ونقلت كتيبة قوة الميدان، التي أُنشئت في عهد افنير بقيادة يعقوب برولوف، في صيف سنة ١٩٤٥ الى قيادة بنيامين غولدشتاين (تسور)، قائد السرية (د) في البلماح سابقا. وفي ضوء نشاطات النضال تم تكثيف العمل في قوة الميدان. وأُجريت تدريبات مركزة، خرج الرجال في اثنائها الى معسكرات تدريبية لمدة شهر، ووصلوا الى حد اجراء مناورة بالذخيرة الحية على مستوى الفصيلة. واحتفظت قوة الميدان في نحالات دان، على اساس مبدأ التناوب، بفصيلتين مجندتين او ثلاث فصائل بقياداتها. وازدادت قدرة قوة الميدان فوصل تعدادها في ربيع سنة ١٩٤٧ الى ١١٠٠ ــ ١٢٠٠ رجل، كانوا منظمين في اطار ثماني سرايا. واشتملت السرايا على فصائل تخريب واستطلاع، وكانت مزودة بسلاح كامل: مدافع رشاشة، ومدافع هاون عيار ٢ بوصة، وبنادق الخ. وخلافا لمعظم امكنة البلد، التي كان قادة سرايا قوة الميدان فيها اعضاء في الجهاز ويتلقون أجرا، كان قادة السرايا في تل ابيب يعملون متطوعين. «أذكر» ــ روى بنيامين تسور ــ ان يتسحاق ساديه، القائد القطري لقوة الميدان في حينه، طالب بألا يكون قادة تل ابيب استثنائيين في هذا الشأن، لكننا عارضنا ذلك، وكانت حجتنا انه ما دام الرجال يعملون على اساس تطوعي فانه يظل في امكاننا تعيين الاشخاص في المراكز التي يستحقونها بفضل مواهبهم فقط. وفي صيف سنة ١٩٤٧، بذل جهد لتجنيد اشخاص 1279

كثيرين في قوة الميدان من بين ١٥,٠٠٠ شاب في سن ١٧ ـ ٢٣ كانوا يقطنون في اللواء. واتضح ان نسبة كبيرة جدا منهم استبعدت نتيجة الفحص الطبي. وأُقيمت كتيبة جديدة (٣٢٠ شخصا) من بين شباب الضواحي. ونظمت سرايا تل ابيب في كتيبتين، وضمت كتيبة رابعة السرايا الثلاث التابعة لرامات غان وحولون. وبذل جهد لضم ضباط ورقباء من بين المسرحين من الوحدات العبرية في الحرب العالمية الثانية الى «الهاغاناه». والتحق ٥٠ شخصا منهم بعمل المنظمة في المدينة. ولم يثمر كثيرا النشاط بين الـ ٧٠٠٠ جندي المسرحين القاطنين في «نحالات كرياتي»: أُنشئت وحدة مكونة من ٢٠٠ شخص. وفي صيف سنة ١٩٤٧، تجدد النشاط ودعي الجنود المسرحون من اعضاء «الهاغاناه» السابقين الى الانضمام الى المنظمة من جديد. وشكلت منهم ثلاث سرايا بـ ١٢ فصيلة، ضمت بين صفوفها ٤٥٠ عضوا دُعوا «نحشونيم» [الرواد المغامرون] لانهم كانوا «دائما اول من لبى النداء للتطوع» (يوسف اوليتسكي). كما أُنشئت وحدة خاصة لاستيعاب المهاجرين الجدد، من بين اولئك الذين شاركوا في الجيوش المحاربة ضد النازيين وفي حركات الانصار واكتسبوا خبرة قتالية مهمة.

كان هدف قيادة قوة الميدان ايصال اكبر عدد ممكن من الاشخاص الى مستوى تدريب اعضاء البلماح. وكما يبدو، كان اطار التدريبات في قوة الميدان ـ يوما سبت في الشهر لمدة عشرة اشهر في السنة وأمسيتان او امسية واحدة في الاسبوع ـ كافيا لتحقيق ذلك. لكن اتضح انه بينما كان اولئك الذين تلقوا دورة كاملة في قوة الميدان مساوين حقا لرجال البلماح من ناحية تدريبهم كأفراد، فانه ظلت تنقصهم القدرة الشخصية على الاحتمال وما يشكل الجوهر: الروح الجماعية التي تحول مجموعة من الاشخاص الى تشكيل عسكري يقظ ومستعد للعمل. ومن اجل بلوغ ذلك، تدرب رجال قوة الميدان بصورة رئيسية خارج مجال تل ابيب، في جوار بارديس راشيل وفي بني براك او في بن شيمن. وأُقيمت هيئة اركان لقوة الميدان ضمت ثلاثة من اعضاء الجهاز (قائد لواء قوة الميدان، وموجه، ومساعد قائد). وكان باقي القادة متطوعين، بينهم ضابطان من رجال الفرقة اليهودية سابقا. وفي الرمال الواقعة بين حولون وريشون لتسيون، اجرى رجال قوة الميدان مناورتين بالذخيرة الحية، استخدمت فيهما مدافع رشاشة وقنابل يدوية وبنادق ومدافع هاون. وكانت المناورات تنطوي على مجازفة كبيرة في تلك الايام المتوترة. لكن، كتب ناحوم زيف ـ آف، «بعد ان نفذنا خطة تدريبات واسعة النطاق على هذا النحو، فان جهدنا سيكون ناقصا اذا لم ينته بمناورة بالذخيرة الحية لم يسبق لها مثيل».

وقد تدهورت الروح المعنوية في قوة الميدان سنة ١٩٤٧. ففي اثناء النضال، كان الاشخاص جاهزين للعمل، وشاركت وحدات قوة الميدان في العمليات التي تمت في نطاق «نحالات كرياتي» (الهجوم على معسكر الشرطة السيارة في شارونا، و«ليل وينغيت»، وما شابه). لكن الهدنة الطويلة في النضال تسببت بهزة عميقة. وأثار تزايد نشاط الايتسل واسناد مهمات النضال في الايتسل الى الافراد، غليانا في صفوف «القاعدة». وفي خريف سنة

١٩٤٧ «حدثت حالات انتقال أفراد الى صفوف الايتسل» (نحاميا باروش). واصطدمت القيادة بظواهر «تعاطف مع اعمال المنشقين وشكوك فيما يتعلق بفرصنا في الامم المتحدة، ومطالبة بتغيير تكتيك «الهاغاناه» والانتقال الى خط مشابه لخط الايتسل» (المصدر المذكور اعلاه). وبُذل جهد كبير، في تلك الايام، في الاعلام الذي شدد على ان المشكلة الرئيسية التي تواجه اليشوف ومنظمة «الهاغاناه» هي احتمال حدوث هجوم عربي شامل، وينبغي عدم نسيان او طمس هذه المشكلة على الرغم من حرارة النضال السياسي ضد البريطانيين.

1280

وكانت احدى الوسائل لتشجيع الرجال وزيادة قوة احتمالهم، تنظيم رحلات بعيدة الى صحراء يهودا والجليل، على غرار البلماح. «ان الاعداد للرحلة، والرحلة نفسها، ونتائجها ــ كل ذلك عامل تثقيفي وتنظيمي وتدريبي من الدرجة الاولى». وفي احدى الرحلات الاولى خلال عيد الفصح، في نيسان/ابريل ١٩٤٧، تاهت سريتان (٢٣٠ شخصا) وبقيتا من دون ماء في صحراء يهودا. «كانت هناك ظواهر صعبة في وقت الظمأ العام في الصحراء، وكانت هناك ظواهر مشجعة». وقتل احد الاعضاء، يوسف فالدفوغل، عندما سقط من قمة جرف صخري. وأيقظت هذه الرحلة ارادة رفع مستوى الدوريات في قوة الميدان وتنظيم الرحلات كي تستطيع قوة الميدان الصمود في اختبارات الخروج من مجال المدينة في اوقات الطوارىء.

أُنشئت داخل قوة الميدان «سرية خاصة» بقيادة شموئيل نوتوف. وكان اعضاء هذه السرية، البالغ عددهم مئات الاشخاص، مقسمين الى وحدات من ٦ ــ ٨ اشخاص. وأعدت السرية نفسها للقيام بنشاطات خاصة للدفاع عن المنطقة، منها: التسلل الى يافا، وتخريب منشآت مختلفة في مناطق عربية، والحؤول دون امكان وصول تعزيزات الى خطوط العدو. لكن اوكل اليها، في اثناء التدريبات، تنفيذ عمليات مختلفة نجمت عن الاحداث.

وقد نفذت السرية عملية خاصة في صيف سنة ١٩٤٥ في حي المنشية المختلط، الذي تسلط عليه ارهابيون عرب اعتدوا على الممتلكات اليهودية والنساء اليهوديات. «كانت الصعوبة الرئيسية» ــ روى ش. نوتوف ــ «تكمن في كشف هوية المعتدين. ومن اجل التغلب على هذه الصعوبة، دخلت مجموعات السرية في كل زقاق من الازقة وأمامها، على مسافة ما، يهودي من سكان المكان. وكان هذا الشخص يصدر اشارة متفقا عليها حال مشاهدته احد الارهابيين، فيعاقب رجال الوحدة الارهابي على الفور. ــ ــ وفي الليلة نفسها، اجتمع الارهابيون والمشاغبون العرب للقيام بعمليات انتقامية، وبدأوا بتضييق الخناق على بيت امين سر لجنة سكان المنشية اليهود. واستدعي رجال السرية مرة اخرى. وبعد هجوم عنيف بالهراوات، تم تفريق العرب وعادت الحياة في المنشية الى طبيعتها». ومن حين الى آخر كان يتم ارسال وحدات السرية الخاصة، «وكان مجرد ظهورهم يشد من عزيمة السكان اليهود» (زيف ــ آف).

وكان من المهمات الاخرى التي أُلقيت على عاتق السرية الخاصة منع المنظمتين المنشقتين من الابتزاز، وتنفيذ قرار المؤسسات ضدهما (انظر ص 955). وكان من الضروري التزام جانب الحذر الشديد في هذه العمليات، كي لا تتجاوز الحد وتتحول الى حرب بين الاشقاء. وكان من الاوامر التي ساعدت على ذلك، الحظر الذي فرض على رجال السرية الخاصة بعدم حمل سلاح ناري مهما يكن نوعه في اثناء انطلاقهم للعمل ضد المنشقين.

وفي ربيع سنة ١٩٤٧، انشئت داخل السرية الخاصة «الفصيلة المجندة»، التي تشكلت من ٣٠ شابا مختارا، اضافة الى فصيل من رجال الاحتياط التابعين للبلماح والذين تلقوا تدريبات خاصة بمستوى الدورات التي تقام لقادة الفصائل. وقد اعدت هذه الفصيلة للقيام بنشاطات سرية مختلفة، لكنها كُلِّفت اساسا خوض الصراع ضد المنشقين، ومنع سلب المصارف واقتحام مؤسسات البيشوف، وحماية الاشخاص الذين رفضوا التبرع بالاموال للمنشقين، وما شابه ذلك.

وقد قتل احد اعضاء الفصيلة، زئيف فاربر، في اثناء عملية منع نسف «بيت هدار» في تل ابيب (انظر ص 956).

وفي خريف سنة ١٩٤٧، عندما تأزم الوضع الامني في المناطق المجاورة لتل ابيب، كُلِّفت الفصيلة مرافقة الباصات من تل ابيب الى الاحياء الواقعة جنوبي يافا. ومن هذه الزاوية دخلت الفصيلة المجندة في أجواء حرب الاستقلال قبل اشهر عدة من استدعاء منظمة «الهاغاناه» في المدينة ككل الى المشاركة فيها. 1281

وقد ضمت كتائب الغادناع و «حغام» [التربية البدنية الموسعة] بين صفوفها، في ربيع سنة ١٩٤٧، نحو ٢٠٠٠ شاب في تل ابيب، كانوا منظمين في اربع كتائب من شبيبة المدارس وكتيبة من الشبيبة العاملة. وكان ٧٠٠ شاب منظمين في الغادناع في رامات غان وحولون. وبموجب اتفاق خاص مع حركات الشبيبة في المدينة، تقرر «ادخال جميع اعضاء حركات الشبيبة من سن الـ ١٦ فما فوق في صفوف «الهاغاناه». ـــ سيقبلون كأفراد، ويخدمون حقا في وحدات ينتمي أفرادها الى الحركة نفسها، لكن في اطار فصائل او سرايا. والسبب في تنظيمهم بفصائل منفردة هو في الاساس سبب فني: من اجل تمكين هذه الحركات والمنظمة على حد سواء من القيام بعملها كما ينبغي» («بمحنيه»).

وكانت المشكلة الخاصة بتل ابيب هي مشكلة الشباب في الاحياء الفقيرة والضواحي (كيرم هتيمانيم، شخونات هتكفاه، شخونات شابيرا، الخ)، التي تفشت فيها ظواهر خطرة تمثلت في الاجرام المحلي، والتي اقامت فيها المنظمتان المنشقتان أوكارا لهما. وبعد ان حذر اعضاء من «الفشل المطلق» («بمحنيه») الذي منيت به المنظمة في اوساط الشباب العامل وشباب الطوائف الشرقية، بدىء بتوسيع اطار الغادناع لاستيعاب هذه الاوساط. ومن اجل النشاط في هـذه الاحياء، شكلت المنظمة في كانون الثاني/يناير ١٩٤٧ لواء للشباب دعي «هشاحر» [الفجر]. وعين موشيه ايدلبرغ مسؤولا عن هذا النشاط. وانتقي المدربون من بين

رجال قوة الميدان في تل ابيب، بعد ان نظمت لهم دورة خاصة. «حاولنا» ـ كتب م. ايدلبرغ ـ «ان يكون المدربون اشخاصا من نوعية ممتازة، من بين سكان الضواحي وقريبين من هؤلاء الشباب من ناحية اصلهم الطائفي ونمط عيشهم. وتعلم المدربون في الدورة مهنة الرياضة بكل فروعها، وتلقوا مادة اعلامية مكرسة لشخصية «الهاغاناه» وقيمة التطوع من اجل المصلحة العامة والانضباط القومي». واتخذ لواء «هشاحر» طابع منظمة تثقيفية ـ شرعية (صادقت السلطات على تشكيله في ١٩٧٤/٦/٨)، وأنشأ نوادي، ونظم مئات من الفتيان في سن ١١ عاما فما فوق وثقفهم تمهيدا للانضمام الى منظمة «الهاغاناه» في الوقت الملائم. وقد شكل النشاط في اوساط الشبيبة في اطر الغادناع وحغام و«هشاحر» عاملا مهما في كبح دعاية المنشقين في اوساط الشبيبة.

*1283 وقد ضمت قوة الحراسة بين صفوفها في «نحالات كرياتي»، في ربيع سنة ١٩٤٧، نحو ٤٠٠٠ شخص. وكان منهم نحو ٢٥٠٠ في تل ابيب والباقي في منطقة رامات غان وحولون والنقاط الصغيرة في المنطقة. وكانت تجرى في تل ابيب نفسها تدريبات ونشاط اعلامي منظم بقيادة يسرائيل شاحوري، بينما في حولون ورامات غان «لم تكن قوة الحراسة قائمة عمليا» (يهوشواع غلوبرمان). وبذل في تل ابيب جهد كبير في رفع معنويات وحدات قوة الحراسة لاقتلاع الاحساس بالدونية ازاء الوحدات الاخرى. واستدعي الرجال للخروج الى معسكرات تدريب مدتها ثلاثة ايام. وبذل عمل كثير في تدريب دوريات قتالية، ورسم مخطط دقيق لخط الدفاع عن تل ابيب. وفي جنوبي تل ابيب خاصة (منطقة كيرم هتيماينم ونفيه تسيدك) وشرقيها «درسوا امكنة المواقع ووفروا المساندة بالنيران من موقع الى آخر الى درجة خلق قطاع متصل جغرافيا بين الازقة الضيقة. وخططوا لانواع الاسلحة التي ستكون هناك حاجة اليها: هناك مدفع رشاش، وهنا مسدس، وهنا موقع جيد لاطلاق نيران بندقية انفلديت على امتداد الشارع، الذي تقطعه ازقة كثيرة» (زيف ـ آف). وفي صيف سنة ١٩٤٧، تقرر نقل الاعضاء الذين بلغوا سن الاربعين الى الاحتياطي، وجرت في الفروع «نشاطات لتعزيز التماسك الاجتماعي» (ي. شاحوري)، اشتملت على رحلات للقادة وأعضاء «الصف» للتعرف على البلد، كما اشتملت على حفلات ولقاءات «من اجل تعزيز الترابط بين الاعضاء». وأُقيمت في كل ليلة سبت حفلات للقادة. ونظمت محاضرات للأعضاء الجدد في المنظمة. حتى انه أُنشئت جوقة مغنين وفرقة مسرحية من بين اعضاء «الهاغاناه»، ظهرت امام الاعضاء في اجتماعاتهم.

وربما كان من الاعمال المهمة في تلك الفترة، فتح أبواب المنظمة على مصاريعها امام الاعضاء الجدد. ومن اجل ذلك جرى تبسيط انظمة قبول الاعضاء لتسهيل امكان قبول

---

* الصفحة 1282 في الاصل تحتوي على خريطة توضح مجال عمل احدى نقاط قوة الميدان في حولون (في مواجهة جباليا). (المترجم)

آلاف من الاعضاء الجــدد بسرعة. وقد كان عدد الاعضاء في بداية نشاط زيف ــ آف في اللواء نحو ٣٤٠٠ شخص، ارتفع في ربيع سنة ١٩٤٧ الى ١١,٠٠٠ شخص، ووصل حين نشوب حرب الاستقلال (١٩٤٨) الى ١٢,٠٠٠ شخص. وكانت تلك بمثابة خطوة اولى للتغلب على المشكلة الاخطر: السيطرة على القوة البشرية الكبيرة الموجودة في «نحالات كرياتي» واخضاعها لأوامر «الهاغاناه».

وفي ربيع سنة ١٩٤٧، مر الفرع بأزمة اخرى. ففي سلسلة العمليات ضد الوشاة وناقلي المعلومات، اصدر قائد المدينة أمرا الى «السرية الخاصة» بضرب التحري العريف مردخاي برغر، الذي كان مشتبها به منذ ايام التظاهرات التي جرت في سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٠ بأنه مخبر في الشرطة، وجرى تأديبه بالضرب ايضا آنذاك من قبل رجال قوة الحراسة. وفي ١٩٤٧/٣/٢٨، هاجمه عدد من رجال «السرية الخاصة» وانهالوا عليه ضربا بالعصي والهراوات الحديدية، ثم انصرفوا. ولم يتدخل المارة والاشخاص المصطفون لركوب الباص في الامر، فمات الرجل متأثرا بجروحه.

وشكلت القيادة القطرية على الفور محكمة خاصة للنظر في الحادث. واتهم زيف ــ آف باصدار امر «بتنفيذ عملية (ضرب شخص) من دون أوامر مسبقة من المسؤولين عنه. وتسبب تنفيذ الامر الصادر عن المتهم بموت الشخص عن غير قصد من جانب المتهم». وقررت المحكمة في ١٩٤٧/٤/٧ «اقصاء كرياتي عن منصبه كقائد لواء تل ابيب، ونقله من دون تعليق رتبته الى موقع قيادي آخر».

وتلافيا لحدوث هزات في اكبر لواء في البلد، قررت القيادة العليا ان تبعث اليه واحدا من اعضائها الرئيسيين، هو يهوشواع غلوبرمان. وقد وصل الى تل ابيب في وقت بلغ فيه الاستياء في قوة الميدان اشده بسبب التوقف عن خوض النضال. وقد بدأ نشاطه الاعلامي بلقاءات مع السلك القيادي، «كان يطيل فيها الجلوس ــ ــ من اجل ان يغرس في افئدة القادة [حس] المسؤولية ازاء ما يجري ويهيئهم لصراع حاسم آت قريبا» (ن. باروش). ثم اتصل مباشرة برجال «الصف» عبر سلسلة من اللقاءات على مستوى السرية، «ظهر فيها امام الانفار وذوي الرتب الصغيرة، ورسم امامهم خط «الهاغاناه» في تلك الفترة» (المصدر المذكور اعلاه). وقد اصبح هذا النشاط الاعلامي اكثر سهولة مع اندلاع اعمال العنف الاولى على حدود تل ابيب في صيف سنة ١٩٤٧، عندما اتضحت اهمية الجبهة العربية. وقد عقد غلوبرمان وقتئذ اجتماعا للقادة «قوّم فيه أحداث آب/اغسطس في تل ابيب كانذار اولي بما سوف يأتي، وتحدث بثقة مطلقة عن وقوع أحداث دامية سوف تنفجر مع نهاية السنة» (المصدر المذكور اعلاه).

1284

«لقد اعتبر (غلوبرمان) ان مهمته الاساسية في فترة شغله منصبه» ــ روى نحاميا باروش ــ «هي زيادة عدد القادة. فعلى الرغم من ان يهوشواع لم يكن من عداد الذين يستخفون بالكم، وأن عملية التجنيد واستقبال الاعضاء لم يطرأ عليها اي بطء، فانه حقا

شدد على إعداد سلك قيادي. وقال بوضوح: «اذا كنت تريد القتال في نهاية هذه السنة، فعليك ان تزيد في عدد القادة من مختلف الرتب. وستجيء الجماهير تلقائيا عندما يدق النفير». وكانت برامجه للدورات الخاصة بالقادة تتجاوز قدرة لواء تل ابيب المالية. وأذكر انه في نهاية آب/اغسطس، مع بداية دورة قادة الفصائل في بن شيمن التي اجريت خارج نطاق البرنامج السنوي الاصلي المصادق عليه، والتي تسببت بالتزامات مالية مهمة جدا، قال يهوشواع: «اذا انفجرت أحداث في نهاية السنة، فانهم لن يحاكموني على تجاوز نطاق الميزانية، وانما سيحاكمونني اذا لم يكن في المنطقة الواقعة تحت امرتي عدد كاف من القادة لتنفيذ مهمات الهاغاناه». وقد بذل غلوبرمان جهدا كبيرا في ارسال القادة الى دورات قطرية. ان تعزيز الارتباط بين لواء تل ابيب والمنظمة، وازدياد قوة سلك الضباط من ناحية الكم والكيف، كانا الخطين الرئيسيين في نشاطه».

وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٧، عاد غلوبرمان الى الخدمة في هيئة الاركان العامة. وانتقلت قيادة «نحالات كرياتي» الى ميخائيل بن غال («جيمس»)، رجل فرع تل ابيب الذي ترعرع في الفرع وخدم في الفرقة اليهودية، وكتب له القدر الآن ان يتحمل عبء قيادة «الهاغاناه» في تل ابيب وجوارها في ايام حرب الاستقلال الصعبة. وفي الايام الاولى لتسلمه منصبه، تلقى بن غال أمرا يقضي بأن يتم خلال مدة اقصاها ١٩٤٧/١١/٣٠، نقل وحدات قوة الميدان التابعة له الى قيادة لواء «غفعاتي»، الذي بدىء بتنظيمه في اللواء الجنوبي. وبقي في تصرف «نحالات كرياتي» فقط الاشخاص البالغ عمرهم ١٨ عاما من قوة الميدان ونحو ٣٠٠ شخص من رجال كتيبة الضواحي. وأُلقي عبء الدفاع عن تل ابيب وضواحيها، منذ ذلك الوقت، على هؤلاء وعلى رجال قوة الحراسة في اللواء.

في القدس

كانت سنتا ١٩٤٦ و١٩٤٧ صعبتين بصورة خاصة في القدس، اذ اضيفت الى مشكلات الامن القديمة ـ تشتت الييشوف اليهودي، وفقدان مؤخرة استيطانية، وتخلف أجزاء كثيرة من الجمهور المقدسي ـ مشكلات تطورت مع الزمن. لقد كانت المدينة التي كانت مركز السلطة في البلد، موضوعة منذ بدء الصراع مع البريطانيين، تحت الرقابة الصارمة للشرطة السرية البريطانية. وفرض منع التجول في النهار والليل على فترات متقاربة، وأُجريت عمليات تفتيش كثيرة في المدينة. ولم تشرك القدس تقريبا في الصراع ضد البريطانيين، ومع ذلك قامت المنظمتان المنشقتان بنشاط كبير فيها وكانت معنويات الاعضاء متدنية.

وبعد ان سافر قائد المدينة، ناحوم كرمر (شدمي)، لتنظيم «الهاغاناه» في المنفى (انظر الفصل الحادي والخمسين)، بقيت المنظمة في القدس («نحالات هرماتي») نحو نصف عام

من دون قائد. وفي ايار/مايو ١٩٤٦، عين يسرائيل زفولدوفسكي (عمير) قائدا للواء [القدس] وكُلِّف نفح روح الحياة في المنظمة.

1285 وكان الاطار القديم والواسع لقوة الحراسة غارقا في البطالة، ولم ينصرف الى التدريبات سوى السلك القيادي وقادة المواقع والمناطق والقطاعات (نحو ٢٣٠ شخصا). وأقيمت وحدات ودوريات قتالية، تلقت تدريبا مشابها لتدريب قوة الميدان. وكان الجنود القدامى مسجلين في قائمة رجال الاحتياط وعددهم، بحسب السجلات، نحو ٦٠٠ شخص. وفي الاحصاء الذي اجري أواخر سنة ١٩٤٧ (ايلول/سبتمبر)، كان مجموع الافراد في قوة الحراسة ٨٨٠ شخصا: ٤٨٠ في الخدمة الفعلية (نصفهم قادة)، و ٢٠٠ في مراكز التدريب، و ٢٠٠ في الاحتياط. ولا تشمل هذه الارقام الاعضاء في المستعمرات المجاورة، التي كانت عضوية «الهاغاناه» فيها عامة.

وكانت القدس واحدة من مدن البلد الكبرى التي دمجت في اطار «شرطة المستعمرات العبرية». وكانت كتيبة الخفراء التابعة لشرطة المستعمرات العبرية، باشراف نعمان ستوي، سندا مخلصا لـ «الهاغاناه» في اللواء [لواء القدس]، واستخدمت ملاذا وسترا لنشاطاتها. وقد تدربت جميع وحدات «الهاغاناه» في اللواء، باذن ومن دون اذن، بسلاح الخفراء. وأقسم جميع رجال قوة الحراسة اليمين بصفتهم ملحقين بالشرطة، وتلقوا تدريباتهم في اطار الخفارة.

وفي أواخر سنة ١٩٤٦، انشىء ميدان دائم للرماية بالقرب من مقلع الحجارة في النبي يعقوب، في موضع قريب من الشارع الرئيسي الموصل من القدس الى نابلس، وقريب من كلية الشرطة في الشيخ جراح. «كانت الميزة الرئيسية لميدان الرماية هذا» ــ كتب يسرائيل زفولدوفسكي في مذكراته ــ «هي قربه من القدس. ولم تكن هناك ضرورة لاضاعة وقت الاعضاء الثمين في سفرات طويلة الى خارج المدينة». ومن ناحية اخرى، «لم يكن ليخطر في بال احد من الغرباء اننا سنجرؤ على اقامة ميدان للرماية في موضع بهذا القرب من العرب والانكليز». وعُزيت أصوات الطلقات والانفجارات التي ارتفعت في ميدان الرماية الى مقلع الاحجار القريب. وفي غضون فترة قصيرة خدم ميدان الرماية هذا ايضا وحدات قوة الحراسة والغادناع في المدينة. وفيما بعد انشئت ميادين للرماية في غوش عتسيون ومنطقة عين بشحاه شمالي البحر الميت.

ولم تكن خطة الدفاع عن المدينة مختلفة كثيرا عن الخطة التي وضعت في بداية الثلاثينات (انظر المجلد الثاني، ص 565). فقد قسمت المدينة الى خمس مناطق فقط: أ ــ جنوبية (رامات راحيل، تالبيوت، مكور حاييم)؛ ب ــ غربية (بيت فيغان، بيت هكيرم، حي مونتيفيوري، كريات شاؤول)؛ ج ــ شمالية، وضمت ميئاه شعاريم وجوارها ومباني الجامعة ومستشفى «هداسا» على جبل المشارف [سكوبس]؛ د ــ منطقة رحافيا ــ نفيه شأنان؛ هـ ــ وسط المدينة. وقد استحدثت هذه المنطقة الاخيرة في ربيع سنة ١٩٤٧، في ضوء مشكلات الدفاع الخاصة، المرتبطة بحراسة المؤسسات العامة والمراكز التجارية التي

كانت موجودة فيها، ومن اجل ضمان سلامة الموظفين اليهود الذين كانوا يعملون سوية مع زملائهم العرب في الحكومة والبلدية وشركات دولية.

وكان وضع الاحتفاظ بالسلاح في القدس صعبا، اذ كانت المدينة خاضعة لمراقبة دقيقة وعمليات تفتيش متواصلة من جانب السلطات. وأتت أوامر مشددة من القيادة العليا «بدفن السلاح عميقا في الارض قدر الامكان» (ي. عمير). ومن ناحية اخرى، اتت مطالبات من جانب اشخاص ومؤسسات عامة باخراج الاسلحة من المخابىء السرية التي كانت موجودة في منازلهم، اذ كان من المحتمل وقوعها في يد الشرطة السرية في اثناء عمليات التفتيش. وقد جمع قسم كبير من السلاح في مستودعات سرية متطورة في مباني الجامعة في جبل المشارف، وقسم آخر في مستودع تحت الارض بني بين كريات عنافيم ومعاليه هحميشاه.

أما الحي اليهودي في البلدة القديمة، الذي احتل مكانا مركزيا في خطط الدفاع عن المدينة في العشرينات، وكان لا يزال في الثلاثينات منطقة قائمة بحد ذاتها ورقمه بين المناطق أ، فقد انخفضت مكانته وأصبح في هذه الفترة مجرد منطقة خاصة مرتبطة بالمنطقة هـ. وكان السبب في ذلك: تناقص عدد سكانه اليهود الذين أصبحوا اقل من ٢٠٠٠ نسمة، ومشكلات الدفاع الخطرة التي كانت تضغط على الاحياء الواقعة على حدود المدن. وكان قائد الحي في سنوات الحرب العالمية وبعدها أبراهام هالبرين، ولاحقا بنيامين هولتسبرغ. وفي سنة ١٩٤٧، شكلت في الحي اليهودي وحدة تابعة لقوة الميدان، مكونة من ١٨ عضوا. وفي صيف سنة ١٩٤٧، بني مستودع خاص للسلاح في مبنى كنيس الحاخام يوحنان بن زكاي أخفي فيه ٢٠ بندقية، و ٢٠ رشيشا، و ٤٠ مسدسا، ومدفع رشاش واحد، ومدفع هاون عيار ٢ بوصة، وذخيرة وقذائف.

1286

وفي المدينة نفسها، جرت محاولات لتجنيد اعضاء جدد من بين ابناء الطوائف الشرقية والغربية من اليشوف القديم. وكان من الصعب، بصورة خاصة، تجنيد اعضاء من بين سكان الاحياء الدينية في شمال المدينة، التي كان سكانها غير مبالين بقضايا الدفاع، وكان بينهم من عارض ــ من حيث المبدأ ــ اي تعاون مع الـ «حوفشيم»* والصهيونيين («نطوري كارتا»). وبينما بلغ عدد اعضاء قوة الحراسة في ذلك الوقت، في المنطقة د (رحافيا)، ٤٠٠ عضو، كان عددهم في المنطقة الشمالية نحو ١٠٠ ــ ١٢٠ عضوا. وفي النصف الثاني من سنة ١٩٤٧، «جرى توزيع رجال قوة الحراسة في المناطق وفقا لمكان اقامتهم» (عمير)، لكن في الاحياء المختلطة، حيث كان اليهود والعرب يعيشون معا (مثل حي الطالبية)، لم يكن في الامكان اقامة نظام مواقع متصلة، وأعدت مجموعات الدوريات القتالية نفسها في هذه الاحياء للعمل في الاوقات السيئة.

* حوفشيم: التسمية التي يطلقها المتعصبون دينيا على اليهود الذين لا يتمسكون بأصول الدين اليهودي وشعائره. (المترجم)

ولم يؤد تجديد الاتصال بالمسرحين من الجيش البريطاني الى زيادة قوة المنظمة على الفور. «اضطررنا الى اخذ وضعهم الخاص بعين الاعتبار» - روى ي. زفولدوفسكي - «ومنحهم فرصة للراحة بعد سنوات من الخدمة، وايجاد ترتيبات اقتصادية لهم. واستجبنا بالتالي لمطلبهم، وشكلنا منهم وحدات مساندة».

لقد كرس اهتمام خاص لانشاء سلك القادة. وجرى استغلال جميع الاماكن التي خصصت للواء القدس في الدورات الاقليمية. وقد انشئت في غوش عتسيون مدرسة اقليمية لإعداد قادة سرايا لقوة الميدان. واستحدث مصدر آخر للقادة في المدينة بعد تأسيس «مدرسة للدبلوماسيين» من قبل الوكالة اليهودية. وكان من بين طلبة هذه المدرسة، قادة فصائل وقادة آخرون وفدوا من اماكن مختلفة من البلد.

واستمر النشاط في اوساط الشبيبة في المدينة الذي بدأ في ابان سنوات الحرب (انظر ص 319)، في حغام التي نشطت في المدارس الثانوية، وفي الغادناع التي ضمت اوساط الشباب العامل. وقد بلغ عدد الاعضاء في هاتين المنظمتين سنة ١٩٤٧ نحو ١٠٠٠ شاب، شكلوا مصدرا مضمونا لملء صفوف قوة الحراسة وقوة الميدان والبلماح.

وقد ضمت الغادناع: كتيبة شبيبة طالبية - «مساده» (٢٥٠ شخصا)، وكتيبة شبيبة عاملة - «يهودا» (٣٦٠ شخصا)، وكتيبة شبان متدينين - «موديعين» (٣٨٠ شخصا) لم يكن اعضاؤها يتدربون ايام السبت، وكانوا يمنحون يوم عطلة غالبا في مطلع كل شهر من اجل التدرب. وبديء بتشكيل اطار للشباب المهمل (على نسق لواء «هشاحر» في تل ابيب) باسم «هسيلع». «شكلت الوحدات الاولى» - روى منسق النشاط أليعيزر شموئيلي - «في احياء يمين موشيه وفي حي هبوكريم - وهي احياء نشط فيها بصورة خاصة دعاة التجنيد التابعون للمنشقين. وبعد تشكيل هذه الوحدات شكلت الوحدات في باقي -- الاحياء الفقيرة. -- وعندما نشبت الحرب نقل جميع خريجي «هسيلع»، وعددهم ٣٥٠، للعمل في مهمات الاتصال وفي «حيل تساعيريم» [قوة الشبيبة]».

ولم يكن من السهل ايضا تنظيم الدفاع عن المستعمرات في لواء القدس. فقد كانت المستعمرات في هذه المنطقة، خلافا للوضع في انحاء البلد الاخرى، صغيرة وبعيدا بعضها عن بعض ومحاطة بقرى عربية كبيرة وكثيرة. وكانت تمتد من جبل هارطوف حتى جنوبي البحر الميت، ومن عطروت حتى غوش عتسيون. وكان الاعضاء في هذه المستعمرات منظمين في وحدات قوة الحراسة، التي كانت مرتبطة بنظام المواقع الموجودة حول المستعمرات. وشكلت ايضا في داخل كل مستعمرة فصائل من الدوريات القتالية. لكن كان لكل مستعمرة طابعها الخاص ومشكلاتها الخاصة. ففي عطروت كان العامل المقرر هو قرب المطار، الذي فصل بينها وبين قلندية العربية؛ وفي البحر الميت كانت هناك مشكلة العمل الدائم المرتبط بالعرب. وتطورت غوش عتسيون بمستعمراتها الاربع الى كتلة مستقلة ومنظمة جيدا. 1287

وقد اهتمت القيادة، بصورة خاصة، بتطوير قوة الميدان التي كانت «تمثل القسم المتيقظ

والنشيط في «الهاغاناه» في المدينة» (زلمان مارت). ومن اجل ذلك استدعي الى القدس في أواخر سنة ١٩٤٥ رجل البلماح ز. مارت. وكانت هناك في قوة الميدان آنذاك سريتان ونصف السرية: السرية أ ـ شبان من القدس، بأمرة أفرايم ليفي؛ السرية ب ـ طلاب الجامعة العبرية، وفيها فصيلة خاصة بالمتدينين، بقيادة يوئيل كرساني. وكانت ملحقة بكل سرية من سرايا قوة الميدان فصيلة فتيات «مدربة على استخدام الاجهزة والاسعاف الاولي» (ز. مارت). وكان مصدر ضعف قوة الميدان في القدس هو قلة القوة البشرية الملائمة. «لقد ذهب خريجو المدارس في السنوات السبع الاخيرة» ـ ذكر دافيد شلتيئيل في احدى الدراسات ـ «الى البلماح والاستيطان». وقد قام الطلاب بدور مرموق في تركيب بنية وحدات «الهاغاناه» في القدس، لكن اكثرية هذه المادة الممتازة كانت ـ وهنا المشكلة ـ من خارج القدس، وكانت تغادرها لدى انتهاء الدراسة وأيضا في اثناء العطل الجامعية الطويلة. وقد ضمت فصيلة خاصة من رجال الاستطلاع مستعربين. واستمر رجال الاستطلاع في استكمال ملفات القرى العربية المجاورة، التي بدىء العمل فيها منذ سنوات الحرب العالمية الثانية.

وقد وصل عدد اعضاء قوة الميدان في القدس، في ربيع سنة ١٩٤٧، الى ٥٥٠ شخصا، تلقى ٦٠٪ منهم تدريبا كاملا. وفي أواخر سنة ١٩٤٧ ارتفع عددهم الى ٧٢٥، وقسموا الى اربع سرايا، لكن عتادهم كان قليلا جدا واشتمل على مدفع رشاش واحد، و ٣٥ رشيشا، و ١٢٠ مسدسا.

وقد اقيمت في اطار قوة الميدان دورات خاصة بقادة الفصائل، ووحدات التخريب، وجنود الاستطلاع، وجنود الاتصال. ونظمت رحلات الى جبال يهودا وغوش عتسيون، رافقتها تمرينات على اطلاق نيران المدافع الرشاشة والقاء القنابل اليدوية الحية. وقد اجريت اغلبية الدورات في مستعمرات اللواء [لواء القدس]. كما اجريت ايضا «دورات تكميلية» ـ دورات قصيرة مدتها يومان او ثلاثة ايام ـ شارك فيها قادة من وحدات مختلفة استمعوا فيها الى محاضرات وقاموا بتدريبات. وفي شأن دورة تكميلية كهذه، اجريت لمدة اربعة ايام في بيت هعرفاه، شمالي البحر الميت، في آذار/مارس ١٩٤٧، ذكر تقرير انه شارك فيها ٨٧ شخصا من قادة الفصائل في قوة الميدان والغادناع والمستعمرات المجاورة. وقد جرت الدورة في ظروف مناخية صعبة و «ابدى الرجال لياقة بدنية وقدرة احتمال كبيرة». وكانت ذروة الدورة رحلة تمت في نهايتها رماية ميدانية ليلية. «نفذت الرحلة الى ميدان الرماية عبر منطقة طبيعية وعرة جدا، في ليل مظلم تماما، بأحمال ثقيلة. وأظهر الرجال قدرة كبيرة، وتوصلوا في ميدان الرماية الى نتائج جيدة فاقت التقديرات المتوقعة (٦٠٪ اصابات في الهدف)». وبذلت ايضا جهود لارسال مرشحين الى دورات قطرية، رافقها اهتمام بعائلات المتدربين وأمكنة عملهم بعد عودتهم من الدورة.

ومثلما كان عليه الوضع في باقي ارجاء البلد، ساد قوة الميدان غليان بسبب القعود عن

العمل. وكانت احدى المهمات المكروهة جدا جباية الاموال لأغراض المنظمة. «صررنا بأسناننا» ــ روى احد القادة ــ «وطفنا من بيت الى بيت وطلبنا نقودا». وكانت الروح المعنوية العالية لدى الاعضاء تسود عندما كان يطلب منهم المشاركة في تأسيس مستعمرات، لكن مثل هذه المناسبات كان قليلا في لواء القدس (انظر ص 970). وأُسندت الى قوة الميدان ايضا المهمة التقليدية المتمثلة في ضمان الوصول الى الحائط الغربي [حائط المبكى] في ايام الاعياد، و «عيد التاسع من آف» [ذكرى خراب الهيكل]. وفي آذار/مارس ١٩٤٧، في اثناء فترة الحكم العسكري في شمال القدس، تولت قوة الميدان قيادة المنطقة. وتقرر ان يقيم يوسف بيكر، قائد فصيلة قوة الميدان مقره في حي غيئولا. «كانت مهمته تنظيم المنطقة ــ ــ وجهزت في الوقت الملائم قوائم بأعضاء المنظمة في المنطقة ــ ــ وكان من المقرر ان يكون قائد قوة الميدان ايضا قائدا لقوة الحراسة» (ز. مارت).

1288 وأُنشئت «فصيلة خاصة» في قوة الميدان بقيادة مردخاي (موتكا) فاينشتاين (غازيت). وقد تلقت هذه الفصيلة، التي كان معظم أفرادها من ابناء الطوائف الشرقية، تدريبات مكثفة. وقد أمضت، في اطار التدريبات، اسبوعا في غوش عتسيون اجرى أفرادها خلاله مناورة على اقتحام مستعمرات في المنطقة. وشاركت مجموعة خاصة من هذه الفصيلة في نسف خطوط سكة الحديد في جوار القدس، في اطار «حركة التمرد العبري» (انظر ص 858). وأُنيطت بها مهمة إعداد «ملفات لشخصيات وتعيين أهداف ذات اهمية خاصة» (ي. عمير) من اجل ضربها، وفقا لـ « خطة ايار/مايو ١٩٤٦» الخاصة بـ «الهاغاناه» (انظر ص 1235)، في حال نشوب اضطرابات.

وكان الاعلام من المهمات الحيوية اللازمة لاستمرار بقاء الفرع [فرع القدس]. اذ اثارت ظواهر الـ «سيزون»* والصراع والهدنة والنشاطات ضد المنشقين، عاصفة فيه، ونشأت ضرورة للقيام بجهد اعلامي متواصل. وكانت اكثرية الاحاديث تجرى في المدرسة الثانوية في رحافيا، وأُشرك فيها عدد من رجال الوكالة اليهودية والجامعة العبرية. «كان للاعلام» ــ روى ز. مارت في شهادته ــ «دور حاسم، اذ كان من الضروري شد ازر الجمهور كي لا يتفتت. وكان الولاء للقادة ثابتا، لكن الشباب اهتاجوا لرؤية الشرطة تلقي القبض على زملائهم الذين عرفوا انهم من منفذي العمليات، بينما هم مشدودون الى اطار غير فعال». وفي الحقيقة، عندما طلب من «الهاغاناه» القيام بعمليات ضد المنشقين في صيف سنة ١٩٤٧، لم يُشرك فيها قادة الفصائل وانما قادة الجماعات فقط. وكانت تلك فترة «تحر وملاحقة وكشف سلاح وأماكن لقاء، وما شابه» (مارت). ووصلت الامور احيانا الى حد وقوع صدامات خطرة (انظر ص 958).

---

* فترة الصراع الشديد الذي كان مستعرا في البلد بين «الهاغاناه» ومنظمتي المنشقين، في أواخر عهد الانتداب البريطاني على فلسطين. (المترجم)

وبعد ان ظهر اول مرة مشروع التقسيم المقترح من قبل لجنة الامم المتحدة في ربيع سنة ١٩٤٧، طُرح السؤال المتعلق بأساليب نشاطات «الهاغاناه» في القدس، في حال تحول المدينة فعلا الى منطقة دولية. وكان واضحا للقيادة العليا انه مهما يكن المستقبل السياسي لليشوف العبري في القدس وجوارها، فان اليهود لا يستطيعون التنازل عن تنظيم دفاعي خاص بهم. وصدرت تعليمات الى قيادة اللواء بأن تهتم بأمر عدم التخلي عن اي حي او تجمع سكني يهودي، مهما تكن الاعتبارات، حتى لو كانت امنية. وصدر امر بالاهتمام بأن يحافظ اليهود على وضعهم في الاحياء المختلطة، لا بل ان يعززوه، كي تضم هذه الاحياء الى الجزء اليهودي من المدينة عندما يحين أوان اتخاذ القرار. ودفعت المؤسسات مخصصات الى قيادة القدس من اجل دفع رواتب مدربين اضافيين ومساعدات للمتدربين، ومخصصات لمعدات التدريب والعتاد والذخيرة والبطانيات والاسرّة والخيام وما شابه ذلك.

ومن اجل زيادة قوة «الهاغاناه» انشىء في ايلول/سبتمبر ١٩٤٧ تشكيل جديد دعي «مشمار هعام» [الحرس الشعبي]. وكان عبارة عن منظمة شرعية خاصة بسكان المدينة اليهود بحسب امكنة اقامتهم، ووجه اليها اشخاص طاعنون في السن، او رجال لم يستطيعوا لاسباب مختلفة (صحة، عمل، وما شابه) المشاركة في وحدات «الهاغاناه» النظامية. وتولت عملية التجنيد لـ «الحرس الشعبي» لجنة الطائفة في القدس. وكانت مهمته المحافظة على النظام العام في المدينة، وتنظيم الجمهور للالتفاف حول «الهاغاناه». واستخدم «الحرس الشعبي» ايضا لاعداد الاشخاص الملائمين ــ إعدادا اوليا ــ للدخول في صفوف «الهاغاناه» في الوقت الملائم. وقد ضمت القيادة الاولى لـ «الحرس الشعبي»: راحيل ينائيت وإلياهو بايلستون وتسفي شفارتز. ووزع أفراده على خمس مناطق بحسب مناطق «الهاغاناه» في المدينة. وكانت من اولى عملياته، قبل انفجار الاحداث في المدينة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، إجراء احصاء دقيق لآبار المياه في العاصمة، والاشراف على اصلاح الآبار وملئها بالمياه تحسبا لـقـطع انبوب المياه الذي يصل الى القدس، في حال نشوب اضطرابات عربية.

وفي ١٩٤٧/١١/١، كانت «حامية عتسيوني» (بعد «السبت الاسود» تغيرت تسمية اللواء، كما تغيرت تسمية جميع المناطق في البلد من «راماتي» الى «عتسيوني») تضم بين صفوفها الأعداد التالية، بما في ذلك اعضاء المنظمة في جميع المستعمرات المجاورة:

1289

	قادة	اعضاء		المجموع
		ذكور	اناث	
قوة الحراسة	٢٠٠	١,٣٠٠	١٧٥	١,٦٧٥
قوة الميدان	٨٠	٩٥٠	٥٠	١,٠٨٠
الغادناع	١٠٠	٦٥٠	٦٥٠	١,٤٠٠
حفام	—	٣٠٠	٣٥٠	٦٥٠
احتياط	٨٠	٤٠٠	٥٠	٥٣٠
المجموع	٤٦٠	٣,٦٠٠	١,٢٧٥	٥,٣٣٥

ومع كل الجهود المخلصة التي بذلت في سبيل اقامة قوة الميدان (في ضوء الظروف السائدة في القدس، لم يكن ضمُّ ١٠٠٠ شخص الى اطار المحاربين انجازا صغيرا)، كان واضحا ان هذه القوة لن تكون كافية للدفاع عن اليشوف اليهودي في المنطقة. وعندما حانت اللحظة الحاسمة، في بداية حرب الاستقلال، اتضحت فورا الحقيقة القديمة بأنه لا يمكن حل مشكلة الدفاع عن اليشوف العبري إلا من خلال نظرية قطرية شاملة، وكانت التعزيزات التي وصلت من منطقة الساحل هي التي ساعدت في انقاذ القدس.

لواء حيفا

مع تغيير البنية القطرية لمنظمة «الهاغاناه» في بداية سنة ١٩٤٥، اصبحت حيفا ــ مرة اخرى ــ لواء مدينيا مستقلا («نحالات شالوم»، ولاحقا: «نحالات كرملي»). لكن، لأسباب تنظيمية تم توسيع حدود اللواء الى ان اصبح يضم ٣٠ مستعمرة، كانت منظمة في ٢٦ منطقة من عتليت حتى حانيتا. وقسم اللواء الى قضاءين: مدينة حيفا (التي دعيت «المدينة»)، والمنطقة الريفية (التي دعيت «القضاء»). وقد استمر في قيادة اللواء حتى نهاية سنة ١٩٤٦ يوسف بن بورات. واعتبارا من بداية سنة ١٩٤٧، انتقلت القيادة الى موشيه زاليتسكي (كرمل). وبين ألوية المدن الثلاثة، كان لواء حيفا الاكثر اكتمالا من ناحية تنظيمه الدفاعي. وكانت جذور «الهاغاناه» عميقة في اوساط الجمهور الحيفاوي. ولم تكن هنا جماهير مختلفة غير قابلة للتنظيم، كما كان عليه الحال في القدس، او جمهور عريض يعيش بهدوء في مدينة عبرية بكاملها وتنظر اكثريته بلا مبالاة الى قضايا الامن، مثل تل ابيب. لقد كان الجمهور في حيفا، بأكمله، يقظا ومتمتعا بوعي عام متطور زاخر بالحياة. وعمقت الحياة في مدينة مختلطة الاحساس بقيمة قيام منظمة «دفاع» فعالة ونشيطة. ولم يكن للمنشقين موطىء قدم تقريبا في المدينة.

«امتاز سكان حيفا» ــ روى قائد المدينة يوسف بن بورات ــ «بولائهم للمؤسسات القومية واخلاصهم لـ«الهاغاناه». ووقف السكان البالغون، ممن لم يكونوا مرتبطين بـ«الهاغاناه» برباط العضوية، دوما الى جانبها واستجابوا لطلباتها، سواء بتقديم ملجأ لرجالها، او بتخصيص مكان في منازلهم لانشاء مخازن سرية للسلاح، او بتقديم مكان لعقد الاجتماعات او استضافة الوحدات المنطلقة للقيام بعملية ضد السلطات، او باخفاء المقاتلين العائدين من عمليتهم. ولم تكن هناك تقريبا حالات رفض لطلبات من هذا النوع. وامتازت حيفا ايضا نسبيا، على كل الامكنة الاخرى في البلد، بالتبرعات المالية للجبايات المختلفة لأغراض الامن، التي جرت على مستوى قطري. ــ وقد تجاوب الجمهور في حيفا مع «الهاغاناه»، لا على المستوى الشخصي فقط وانما ايضا على مستوى التجمعات، سواء أكانت عامة ام مهنية من حيث البنية. وكان مجلس عمال حيفا والمؤسسات التابعة له، الذي

1290 شكل دوما المؤسسة العامة الاقوى والابرز في حياة مدينة حيفا، ذراعا مخلصة لـ «الهاغاناه»، وازدادت اهميته بما لا يقاس في فترة النضال ـ عندما تحولت النشاطات الى تظاهرات واضرابات، وتدفقت الجماهير لمنع التفتيش عن السلاح. ـ ـ لكن «الهستدروت» لم تكن الوحيدة. اذ شارك الجمهور الحيفاوي، بكل تنظيماته، في جميع المهمات التي اسندت الى المنظمة. ووقف الاطباء اليهود العاملون في خدمة حكومة الانتداب الى جانب «الهاغاناه» على الرغم من الصعوبات المرتبطة بذلك. وفتحت التخنيون العبرية، بأساتذتها ومرشديها، أبواب مختبراتها لخدمة أغراض المنظمة، وانكبت القوى العلمية العاملة في التخنيون على حل المشكلات العلمية والتقنية التي تخبطت المنظمة بها. وكانت مباني التخنيون نفسها بمثابة مرتكز مأمون الجانب لنشاطات وتدريبات واجتماعات المنظمة، ومكانا آمنا وموثوقا به لاخفاء عتاد المنظمة وأسلحتها. وكانت التخنيون قاعدة الانطلاق لعمليات قتالية كثيرة وعمليات عنف اخرى. ـ ـ واستجابت جهات عامة اخرى من اوساط التجار وغيرهم ايضا، لكل طلبات المنظمة».

واحتلت مكانة فريدة في نوعها في المدينة «جمعية رجال الاطفاء»، التي أُنشئت في حيفا سنة ١٩٣٦. وقد استخدمت «مركزا لنشاطات «الهاغاناه» ومقرا للقائد وستارا لنشاطات «الهاغاناه» طوال سنوات قيامها» (بن بورات). وكان رجل الشارع يعرف انها هي العنوان لكل طلب مساعدة ونقل معلومات امنية وما شابه ذلك. وكانت مدرسة الريالي ومديرها د. بيرام، بدورهما، مصدرا لتعزيز قوة «الهاغاناه». وشارك طلاب الصفوف العليا في نشاطات حغام والغادناع.

ويمكن ان نضرب مثلا لاستجابة الجمهور لمطالب «الهاغاناه»، المنظمة التي أُنشئت لخرق منع التجول البريطاني في فترة الصراع. وفي اثر «السبت الاسود» (١٩٤٦/٦/٢٩) اجرت «الهاغاناه» في حيفا احصاء عاما للسكان اليهود في هدار هكرمل والاحياء اليهودية الاخرى. وقد أُجري الاحصاء تحت ستار الاعداد لانتخابات البلدية. «كان الهدف من عملية التسجيل معرفة سكان جميع البيوت للتأكد ممن يمكن الاعتماد عليه وقت الضرورة، ومن يحتمل ان يكون خطرا في اثناء القيام بعمل ما» (د. موتيلوف). وعين في كل بيت من هو رجل «الهاغاناه» او رجل «الحرس الشعبي»، وطلب منه ان يكون مستعدا، وأن يجند للعمل وقت الضرورة جميع سكان البيت. ولدى الانتهاء من التسجيل، اجري تمرين على كيفية العمل في اوقات الطوارىء. فقام رجال «العدو»، ظاهريا، بـ «حراسة» الشوارع، وكُلِّف اعضاء «الهاغاناه» الآخرون الخروج من بيوتهم وعبور طرقات متعرجة وباحات للوصول الى امكنة التقاء حددت لهم، متجنبين الاشتباك بـ «العدو». وقد نجح معظم الاعضاء في الوصول الى امكنة الالتقاء من دون ان يلقي «أعداؤهم» القبض عليهم. وأعطت هذه العملية التنظيمية التحضيرية ثمارها في التظاهرات وخرق منع التجول اللذين نظما في حيفا في ١٩٤٦/٨/١٨ (انظر ص 1139).

وقد شارك في قيادة اللواء في تلك السنوات ممثلو الجمهور الحيفاوي: آبا حوشي، ويهودا كرمي، ودكتور ماركوس (مردخاي) فيليكسبرودت، وبيرل رفتور (حل محله لاحقا يهوشواع فاشتسينا). وكانت هذه القيادة بمثابة قناة حية، حافظ بواسطتها القادة في المدينة على اتصالهم بالجمهور. وقد عرفت المنظمة في حيفا دوما ان الجمهور بأكمله يقف الى جانبها، ومستعد للسير معها وخلفها. ولم يكن مثـل هذا الاحسـاس موجـودا قط في تل ابيب او القدس.

وقد ضمت «قوة الحراسة» جميع اعضاء النقاط الزراعية في اللواء [لواء حيفا] (نحو ٣٠٠٠ رجل). واقتصر العدد في المدينة نفسها على ٦٠٠ ــ ٧٠٠ شخص، تدربوا بصورة خاصة على حراسة المواقع داخل حدود الأحياء اليهودية. وقد رسمت خطة المواقع وفقا لـ «الخطة ب» الخاصة بـ «الهاغاناه» (انظر ص 239). وكانت المدينة مقسمة الى ثماني مناطق داخلية (وادي روشميا، شارع هاشومير، هيرتسليا، المدينة السفلى، جبل الكرمل، نفيه شأنان، تل عمال، بات غاليم)، وأضيفت اليها منطقة مستقلة ضمن المنطقة الصناعية؛ ومنطقة الضواحي التي ضمت كيبوتس بيت اورن وجواره. وتفرعت عن المنظمة وحدة «الحرس الشعبي»، وهو منظمة شبه عسكرية شرعية، تحدرت من سنوات الحرب وضمت بين صفوفها نحو ٢٠٠ عضو اكثر تقدما في السن، وأدت مهمات مشابهة لمهمات «الخدمة العامة» في تل ابيب. 1291

وقد صرف قادة حيفا جل نشاطهم لتطوير قوة الميـدان التي ضمت بين صفوفها نحو ٥٠٠ شخص في اللواء، ونحو ٨٠٠ في المدينة. وكان قائد قوة الميدان بسراياها الخمس في المدينة: شلومو تافوري. وكان الاعضاء شبانا تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٢٤ عاما (في اللواء ــ حتى ٣٠ عاما). وكانت احدى السرايا مخصصة للجنـود المسرحين، وكان قادتها ايضا من مسرحي الجيش. وشكلت سرية اخرى من طلاب التخنيون، وثلاث سرايا من خريجي حغام والغادناع في المدينة، وضمت فصيلتين للمتدينين وفصيلة للفتيات وفصيلة للمهمات الخاصة. وفي فترة النضال شارك رجال حيفا فيه بصورة فعالة. وأدت الهدنة الى نشوء ردة فعل عنيفة لديهم. «في قوة الميدان» ــ ذكر م. زاليتسكي في ربيع سنة ١٩٤٧ ــ «تسود الكآبة بسبب توقف النشاط، وهناك غيرة من المنشقين. ولا يريد [الاعضاء] القيام بعمل غير مسلح. وفي الاعلام يثيرون دوما اسئلة تتعلق بالنضال والمنشقين».

وعلى الرغم من ذلك لم تكن هناك تقريبا انسحابات من قوة الميدان.

وقد جرى تدريب رجال قوة الميدان في المدينة على القتال في مناطق مبنية، وتمت التدريبات تحت ستار تمرينات رجال المطافىء. وتم التدريب على السلاح في اماكن التدريس التي كان معظمها في مدارس المدينة. وتعاونت المدارس مع المنظمة باخلاص شديد، وكانت مخابىء السلاح السرية الصغيرة، التي احتوت على السلاح الذي يستخدم في التدريب، تحت اشرافها. وجرت التدريبات المتقدمة على السلاح والتدريبات الميدانية في المستعمرات

المجاورة. «كانت أحراج بيت اورن وحقول رامات يوحنان وغابة كيبوتس ايلونيم، طوال تلك السنوات، مراكز كبيرة للتدريبات المتقدمة على السلاح الخفيف والمدافع الرشاشة بالنسبة الى مئات كثيرة من رجال قوة الميدان والقادة، كل سبت. ووضعت ترتيبات خاصة في هذه المستعمرات للحراسة والمراقبة، وأتاحت المنطقة المشجرة المحيطة بالمستعمرات امكان التدرب في ظروف ميدانية جيدة لمئات من الرجال دفعة واحدة».

وقد ضمت الغادناع في حيفا، بقيادة رفائيل فاردي، ثلاث كتائب: كتيبة شبيبة طالبية، ٩٠٠ شخص (نصفهم فتيات)؛ كتيبة شبان عاملين، ٤٠٠ شخص؛ كتيبة الضواحي (التي ضمت سرية ابناء المستعمرات الكيبوتسية الواقعة في سهل زفولون). وقد ساهمت الغادناع مساهمة فعالة في تظاهرات الاحتجاج ضد طرد المهاجرين غير الشرعيين، التي جرت تلك الايام في حيفا، وفي إلصاق المنشورات ضد السلطات.

المناطق الريفية الثلاث

ضمت المناطق الريفية الثلاث: الشمالية («نحالات لفنانوني»)، والوسطى («نحالات ألكسندروني»)، والجنوبية («نحالات غفعاتي») المئات من نقاط الاستيطان العبرية؛ الاقلية بينها ــ مدن ومدن صغيرة (صفد، طبريا، العفولة، نتانيا) ومستعمرات كبيرة اتسمت بطابع شبيه بالمدينة (بيتح تكفا، ريشون لتسيون، رحوفوت، الخ)، والاكثرية مستعمرات صغيرة (موشافوت وموشافيم وكيبوتسيم). وقسمت المناطق الى اقضية، وكل قضاء الى مناطق صغيرة. وقد اشتملت المنطقة الصغيرة في الاغلب على مستعمرة واحدة، وأحيانا جمعت معا مستعمرتين او ثلاث مستعمرات متجاورة. وكان الدفاع عن المستعمرات مرتكزا على قوة الحراسة، التي ضمت بين صفوفها الكبار من بين الاشخاص الراشدين الذين كانوا ثابتين في مناطقهم وخاضعين لقادة المناطق الصغيرة، والشبان المنظمين في قوة الميدان التي كانت بقيادة قادة المنطقة. وكان الفتية منضوين تحت لواء الغادناع (كان لمنظمة حغام وجود فقط في طبريا وعدد من المستعمرات). وقد تم معظم عمل «الهاغاناه» في اطار «شرطة المستعمرات العبرية». وخدم كثير من قادة المنظمة رقباء او حراسا، وتلقوا رواتبهم من الحكومة. وكانت جمهرة اعضاء المنظمة تحت القسم كأفراد ملحقين بالشرطة، واستخدموا باذن [من السلطة] السلاح المحفوظ في مخافر الحراس. وكانت «دوريات الحراسة السيارة» التابعة لشرطة المستعمرات العبرية بمثابة قوة ضاربة في تصرف القيادة المحلية لأغراض الحراسة والامن اليومي. وكانت وحدات البلماح، التي كانت موزعة غالبا على الكيبوتسات، خاضعة لقيادة البلماح القطرية، وموضوعة مباشرة في تصرف القيادة العليا، لكن قائد المنطقة المحلي كان صلة الوصل بينها وبين الاشخاص المحليين.

1292

وتتوفر لدينا صورة اجمالية عن استعدادات المناطق في ربيع سنة ١٩٤٧، مأخوذة من

التقارير المرفوعة الى د. بن ـ غوريون، بصفته مدير دائرة الامن في الوكالة اليهودية، كما انها مأخوذة من مصادر اخرى.

ضمت المنطقة الشمالية، بقيادة موشيه مونتغ (مان) من رحافيا، ١٢٠ نقطة استيطانية من المطلة حتى شاعر هعماكيم. وكانت هذه المستعمرات مقسمة الى اربعة اقضية: تل حاي («احوزات رؤوفين»)، كنيرت («احوزات شمعون»)، غلبواع («احوزات يهودا»، ولاحقا: «احوزات بنيامين»)، يزراعيل («احوزات ليفي»). وكان هناك في المنطقة ١٣,٣٨٠ عضوا، منهم ٩١٩٠ في قوة الحراسة و ٢٠٢٥ في قوة الميدان (بما في ذلك ٢٠٠ شخص في دوريات الحراسة السيارة)، ونحو ٢١٦٥ في الغادناع.

وكانت قوة الحراسة تضم آلافا من اعضاء المستعمرات الزراعية، الذين كانوا مخلصين للمنظمة ومندمجين في خطة الدفاع عن مستعمراتهم، لكنهم أهملوا تدريباتهم وأصبحت خبرتهم وأهليتهم العسكرية، بعد ثمانية أعوام من الهدوء، ضعيفة جدا. وفي المقابل، لم يكن هناك اي شك في مدى استعدادهم لتنفيذ الاوامر وتجديد خبرتهم، في اي وقت تدعو الضرورة الى ذلك. كما كان اطارهم الاجتماعي (الكيبوتس والموشاف) بمثابة ضمانة لامكان استجابتهم السريعة.

وبالنسبة الى قوة الميدان، حدثت يقظة معينة بعد «السبت الاسود». ودعي ٥٠٠ من بين الشباب الاصغر سنا (جيل ١٨ ـ ٢٢ عاما) لتلقي دورات مدتها اسابيع عديدة، ونُظموا في فصائل «دبّوريم». وتعهدوا بالخروج مرة واحدة كل شهر لاجراء تدريبات مدتها ثلاثة ايام متتالية. وقد جرت تدريباتهم في اطار فصيلة على ابعد حد.

وكان وضع المنشقين في هذه المنطقة ضعيفا جدا. وكانوا متمركزين في مشمار هايردين التي صعدت اليها مجموعة تصحيحية [نسبة الى حركة جابوتنسكي] باسم «ارغون اوجواد»، وفي سرية بيتسار الصغيرة في روش بينا. كما كانت هناك مجموعات صغيرة للايتسل وليحي في طبريا. وكانوا جميعهم تحت رقابة قادة «الهاغاناه» في اماكن وجودهم ولم يسببوا في مضايقات، خصوصا للمنظمة.

وكانت المنطقة الوسطى في ربيع سنة ١٩٤٧ بقيادة رفائيل ليف موقتا، ونقلت ابتداء من حزيران/يونيو ١٩٤٧ الى قيادة امنون زعير (رودي)، من غان شموئيل. وكانت المنطقة بأكملها، من بيتح تكفا الى زخرون يعقوف، تضم ٩٠ نقطة استيطانية كانت منظمة في ٦٣ منطقة، ومقسمة الى ثلاثة اقضية: هشومرون («احوزات نفتالي»)، هشارون («احوزات آشر»)، عيمك حيفر («احوزات غاد»). وكان هناك في المنطقة ٨٧٠٠ عضو، منهم ٦٠٠٠ في قوة الحراسة و ١٢٠٠ في قوة الميدان و ١٥٠٠ في الغادناع. وكانت تعمل في المنطقة ١٢ مجموعة للحرس السيار، تضم بين صفوفها نحو ٢٤٠ رجلا.

وقد حدث انخفاض في عدد رجال قوة الميدان بسبب مغادرة بعضهم المنطقة للاستيطان في الجليل. وبحسب تقدير ليف «هناك ٤٠ ٪ من [رجال] قوة الميدان مؤهلون

للعمل» و «هم ايضا لم يتلقوا بعد تدريبا على مستوى لواء» (البلماح). وبالاضافة الى ذلك، كان عتاد قوة الميدان قليلا لا يكاد يكفي تسليح ٢٥٠ شخصا من رجالها فقط بصورة كاملة. وتشهد على وضع «الهاغاناه» من الناحية التنظيمية في المنطقة، حقيقة انه في فرعين رئيسيين ـ بيتح تكفا والخضيرة ـ لم يكن هناك في تلك الفترة قادة رئيسيون.

وكان تعداد الغادناع نحو ١٥٠٠ شخص، منظمين في اربع كتائب. ومن بين هؤلاء كان هناك ٩٠٠ في المستعمرات العمالية، التي كان الشبان فيها اعضاء في الغادناع بصورة تلقائية، و ٦٠٠ في الموشافات. وكانت هناك في المدرسة الثانوية في بارديس حانه والخضيرة وحدات تابعة لحغام.

وكانت هناك للمنشقين نقاط مهمة في المنطقة: للايتسل ـ في بيتح تكفا ونتانيا؛ «كانت نتانيا بأكملها» ـ شهد احد رجال الاستخبارات في ربيع سنة ١٩٤٧ ـ «خاضعة لنفوذ الايتسل». وقد كان لها نفوذ معين في زخرون يعقوف وبنيامينا. وكانت لليحي قاعدة مهمة في كفر سابا وجوارها. 1293

وكان قائد المنطقة الجنوبية حتى ايار/مايو ١٩٤٧ هو موشيه لرر (تسادوك)، وحل محله بعد نقله للعمل في هيئة الاركان العامة ميشائيل شختر (شاحام)، قائد قضاء تل حاي. وقد ضمت هذه المنطقة نحو ٥٥٠٠ عضو، منهم ٤٠٠٠ في قوة الحراسة، و ٦٤٠ في قوة الميدان، ونحو ٦٨٠ في الغادناع. وكانت مقسمة الى ثلاثة اقضية: قضاء رحوفوت («احوزات أفرايم») الذي ضم المستعمرات الكبيرة في شمال المنطقة، وقضاء بئير طوفيا («احوزات غرشون»)، وقضاء النقب («احوزات منشيه») الذي كان جميع المستوطنين فيه ملحقين بقوة الحراسة.

وقد اقيمت سرايا لقوة الميدان في قضاء رحوفوت (اثنتان)، وفي قضاء بئير طوفيا. وكانت قوة الميدان في رحوفوت بأكملها مشكلة من شبان تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٢٤ عاما، جلهم من ابناء المزارعين الذين تربوا في الغادناع. وكان مستواهم المهني على الصعيد الفردي لا يقل عن مستوى البلماح، إلا انه كانت تنقصهم القدرة البدنية على الاحتمال والخبرة التي اكسبها البلماح لاعضائه في العام الثاني لخدمتهم. وكانت اكثرية قوة الحراسة في قضاء بئير طوفيا من اعضاء المستعمرات العمالية (الكيبوتسيم والموشافيم) في القضاء.

ونشطت الغادناع في اوساط شبيبة المدارس في الموشافوت والكيبوتسيم. وكان احد الامور التي اخفقت فيها منظمة «الهاغاناه» في هذه المنطقة، هو اخفاقها في التغلغل لممارسة نشاطها بين اليمنيين في الموشافوت الكبيرة التي تحولت الى مراكز للمنشقين في المنطقة: رسخت الايتسل وجودها في شعرايم في رحوفوت، وليحي في طيرات شالوم وريشون لتسيون. وشكل رجال الايتسل ايضا خلايا تابعة لهم في فروع «مكابي» في الموشافوت.

وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، تحول قضاء النقب الى مجال قيادي مستقل. وكان

هناك في تلك الفترة في الجزء الشمالي من المنطقة، الذي قسم الى اقضية رحوفوت وريشون لتسيون وبئير طوفيا، ٤٧٢٤ عضوا (منهم ٥٧٤ قائدا).

انشاء «مصلحة الطيران»

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية عززت المجموعة الصغيرة القيّمة على شؤون الطيران في «الهاغاناه» جهودها. وجددت شركة «أفيرون»، التي حصلت في نهاية ايام الحرب على ترخيص بتسيير رحلاتها الجوية التجارية، نشاطات كلية الطيران في مطار الرملة. وقد تعلم في هذه الكلية وتدرب فيها، رجال دائرة الطيران التابعة للبلماح، الذين كانت قاعدتهم الدائمة في ناعان. وأُلحق بهذا النشاط ايضا عدد من الطيارين المسرحين من سلاح الطيران البريطاني. وعين واحد منهم، اوري برايِر، مدربا رئيسيا في كلية الطيران.

وتحت ستار شركة «افيرون» قام الطيارون بطلعات استكشافية في أجواء البلد، وانحرفوا مرارا عديدة عن خط السير المصادق عليه من قبل السلطات البريطانية في المطار.

وكانت تلك الفترة فترة النضال، ونظرت سلطات المطار الى الطيارين اليهود بارتياب. وبعد تفجير الطائرات في المطارات العسكرية في كفار سيركين وعقرون، حظر ضابط امن المطار في الرملة على طلاب كلية الطيران دخول المطار. ولم تتجدد التدريبات إلا بعد محاولات ووساطات مكثفة قامت بها شركة «افيرون».

وفي ربيع سنة ١٩٤٧، اشترت شركة «افيرون» اول طائرة بمحركين من طراز «رابيد». وقد قامت برحلات جوية الى خارج حدود البلد، حتى روما وباريس ولندن. وكان جزء كبير من المسافرين مكونا من رجال الوكالة اليهودية وموفديها.

ومع تأزم الوضع الامني في البلد في نهاية صيف سنة ١٩٤٧، ازداد الاهتمام في المؤسسات الامنية للقيام بشيء اكثر جد في مجال الطيران. وفي الصيف، كُلِّف يهوشواع آيزيك (آشل)، الذي كان ممثل «الهاغاناه» في ادارة شركة «افيرون»، تقديم مشروع لتطوير الطيران الحربي. وقابل آيزيك اعضاء عديدين خدموا في الاسلحة الجوية في الحرب العالمية الثانية.

1294

وفي آب/اغسطس ١٩٤٧، قدم المسرحان من سلاح الجو البريطاني، اهرون ريمز وهايمن شامير، الى رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي مشروعهما لاقامة شركة طيران تجارية في ارض ــ اسرائيل، يمكن استغلال طائراتها بسهولة لأغراض عسكرية. وطلب منهما ان يضعا بصورة عاجلة خطة لانشاء قوة جوية في اطار منظمة «الهاغاناه». وقد قضت الخطة بضرورة البدء بتنظيم سلاح جوي سرا وإعداده للعمل ضد اسلحة الجو التابعة للدول العربية.

وفي ١٠/١٠/١٩٤٧، اعلن رئيس القيادة القطرية انشاء «شيروت هأفير» [مصلحة الطيران]، وعين رئيسا لها يهوشواع آيزيك (آشل)، ورئيسا لهيئة اركانها مهندس الطيران

ألكسندر زيلوني (شيلوني)، وهو طيار ومهندس في علم الطيران. وخصص مبلغ ١٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني لهذا النشاط في المراحل الاولى. وكان هذا المبلغ كبيرا قياسا بالمبالغ التي خصصت حتى ذلك الوقت لأغراض الاهتمام بالطيران في «الهاغاناه». لكن الاحداث التي وقعت لاحقا ادت الى زيادته، خلال عدة اشهر، الى مئات الآلاف، ومع قيام دولة اسرائيل الى ملايين. 1295

وعلى اية حال، دخل تطوير سلاح الجو رسميا في اطار نشاطات هيئة الاركان العامة قبل عدة اسابيع من نشوب حرب الاستقلال، وأُسندت اليه خلالها مهمات جليلة وكبيرة.

استنتاجات

ان الصورة العامة لمنظمة «الهاغاناه» في المناطق والالوية، كما ترتسم امامنا في ربيع سنة ١٩٤٧، تشهد على جهود للتوسع والتنظيم، لكنها تكشف عن ضعف معين في روحية الاعضاء نجم جزئيا عن خيبة الامل التي رافقت تقليص مجالات الصراع بعد «السبت الاسود»، وفي الاساس ـ عن حقيقة انه خلال السنوات الثماني التي مضت منذ انتهاء الاحداث ظلت المنظمة بعشرات الآلاف من اعضائها في وضع توتر دائم لمدة ثلاث سنوات.

«التنظيم خَطِر» ـ قال يسرائيل غاليلي في حديث له مع د. بن ـ غوريون في ربيع سنة ١٩٤٧ ـ «انه يزيد في حدة التناقض بين وضعنا وحاجاتنا، ويولد احساسا حادا بالقوة ـ احيانا قوة وهمية ـ من تلقاء ذاته، وليس من خلال تأثير موجه فقط. ان قيادة الآلاف تولد احساسا بالقوة. وهذا ايضا يولد مطالب ضخمة مما ندعوه «السلطة القومية». ـ ـ ان التلاحم عن طريق السلاح يولد، في حد ذاته، الارادة لاستخدام هذه القوة. وسبل تصريف هذا الاحساس والنزعة هي التدريبات. وهذا غير كاف. يجب ألا نخترع لهذه القوة مصدر رزق اصطناعيا، لكن ينبغي لنا ان نهتم باعالتها».

لكن مصدر الرزق هذا لم يتوفر لجمهرة الاعضاء إلا عندما نشبت في نهاية سنة ١٩٤٧ حرب الاستقلال، ودعي عشرات الآلاف من الاعضاء الذين تشكلت منهم المنظمة الى التأهب. وكانت الأشهر السابقة لذلك ـ كل تلك الاشهر الطويلة من ايام الصراع المسلح في صيف سنة ١٩٤٦ الى حين نشوب حرب الاستقلال في نهاية سنة ١٩٤٧ ـ أشهرا صعبة بالنسبة الى المنظمة من ناحية الوضع المزاجي والروح المعنوية.

كان مطلوبا من الاعضاء الـ ٢٧,٠٠٠ تقريبا، الذين تشكلت منهم قوة الحراسة، نشاط قليل. وعمليا لم ينشط كما ينبغي سوى السلك القيادي. لكن، على الرغم من ذلك، كانت تتوفر الثقة بأن الرجال سيقفون، في اية لحظة طوارىء، في مواقعهم فور صدور النداء الاول لتأدية واجبهم بكل اخلاص.

وكان الاخطر من ذلك وضع قوة الميدان. لقد كان هدف هيئة الاركان العامة

هو ايصالها الى مستوى قوة معدة للهجوم، على غرار البلماح. لكن لم تكن لقوة الميدان قيادة قطرية. ولم تكن قوات التدريب الموضوعة في تصرف الفروع كافية، ولم تسمح الامكانات المالية والتنظيمية إلا بالاحتفاظ بنحو ٧٠٠٠ رجل فقط. ولم يقم بالتدريبات اللازمة بكاملها سوى قسم من هذه الآلاف، وأيضا لم يتلق هؤلاء سوى عتاد قليل ومحدود. وقد تعرضت الروح المعنوية لقوة الميدان بايقاف النضال لضربة قاسية، لكن ولاءها للمنظمة صمد في الاختبار الصعب.

وكان شبان وحدات الغادناع، البالغ عددهم نحو ٩٥٠٠، من ناحية معينة امل المنظمة. فقد تربوا منذ يفاعتهم بروحيتها، وكانوا مستعدين بكل جوارحهم لتنفيذ مهمات كثيرة توافق أعمارهم او حتى تفوقها، ولأن يقفوا عند بلوغهم عتبة الرجولة، في سن ١٧ ـ ١٨، في الصفوف الاولى للوحدات القتالية التابعة للمنظمة. ومع ذلك لم تضم الغادناع بين صفوفها سوى قسم فقط من الشبيبة العبرية. اذ كان عليها ان تتنافس مع المنشقين، الذين نشطوا من دون اي اعتبار للأصول التربوية وبدأوا باشراك فتية اعمارهم ١٢ ـ ١٣ عاما في نشاطاتهم من اجل ربطهم بأطرهم قبل ان يدخلوا في اطر حغام [«التربية البدنية الموسعة»] او الغادناع.

أما لواء البلماح، الذي كان تاج المنظمة ومفخرتها، فسيجري الحديث عنه في الفصل الخامس والستين.

وقد كان عدد اعضاء المنظمة في ربيع سنة ١٩٤٧، بما في ذلك اعضاء البلماح البالغ عددهم ٢٢٠٠، نحو ٤٥,٣٠٠ من الذكور والاناث.

1296

في ربيع سنة ١٩٤٧، قبل نصف سنة من تحمل «الهاغاناه» عبء حرب الاستقلال الثقيل، كانت المنظمة من نواح عديدة غارقة في حال من الاسترخاء. لكن كان من الواضح ان الاطار التنظيمي القائم، الذي يقف في مركزه لواء مجند مشكل من ألفي رجل بلماح، سيتوتر بسرعة فور نشوب تمرد عربي. سيسد البلماح الثغرة، وتمتلىء وحدات قوة الحراسة بروح الحياة، وتخرج قوة الميدان من حال اللامبالاة ويجري استيعاب آلاف من الاعضاء الجدد بسهولة في الاطر القائمة والمبلورة.

ومن بين جوانب القصور في «الهاغاناه» ينبغي لنا ان نعد النقص في الثقافة العسكرية النظامية في المراتب القيادية العليا. فقد استمد موجهوها ورؤساؤها خبراتهم من تجربتهم الضئيلة نسبيا وقراءات منهجية او عرضية في الادب العسكري الصادر باللغات التي كانوا يتقنونها. وكانت نصائح الضباط الذين خدموا في جيوش اجنبية وهاجروا الى البلد، في معظمها، غير ملائمة لظروف عمل «الهاغاناه»، ونجح قليل منهم فقط في الصمود وتولي مراكز توافق خبراتهم. وكان ايضا قسم من الضباط الذين خدموا في الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني، لم يندمج بعد في الاطر القيادية للمنظمة. ولربما كان هذا النقص في الثقافة بالذات،

1297

والتمسك بمبادىء لا علاقة لها بالمذاهب العسكرية، هما اللذان ساعدا «الهاغاناه» على الصمود في اماكن كان الخبراء العسكريون سيتنازلون عنها ويعلنون الانسحاب منها.

وباستثناء وجود البلماح كلواء مجند بأمرة هيئة الاركان العامة، لم ترتفع «الهاغاناه»، بأكثريتها الساحقة، عن مستوى ميليشيات محلية وكتلوية (كتل استيطانية) تمتلك مخازن سلاح خاصة بها.

وفي مقابل ذلك، كان في قدرة «الهاغاناه» تعلم الدرس من الاحداث وتكييف نفسها بسرعة مـدهشة وفق الواقع الجديد. وقد ثبت ذلك في اثناء حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨، عندما اتسعت اطر «الهاغاناه» خلال اسابيع وأشهر معدودة، وعرفت كيف تستوعب في داخلها لا آلاف وعشرات الآلاف من الاعضاء الجدد فحسب، وانما ايضا أنواعا جديدة من السلاح، وكيف تتبنى تكتيكا جديدا، وتنتقل الى نشاطات هجومية على مستوى الالوية والكتائب. ولقد كانت كبيرة فعلا قدرة الاعضاء على الارتجال السريع بما يتلاءم مع الظروف والاوضاع المستجدة.

وقد تجلى الذكاء اليهودي والقدرة العقلية اليهودية في جهاز الاستخبارات، باقامة شبكة الاتصالات لتهريب السلاح من الخارج الى البلد، وفي اخفائه، وفي ابتكارات رجال الصناعة العسكرية وارتجالاتهم. وحوفظ على تقاليد العمل السري قدر الامكان في منظمة بلغ تعدادها عشرات الآلاف من الاعضاء، ووصلت هذه المحافظة الى الذروة بين رجال الصناعة العسكرية، الذين أقاموا مشاريع صناعية كاملة.

وفي سنة ١٩٤٧، وصلت المنظمة الى ذروة امكاناتها في اطار النشاط غير الشرعي. «آلاف الرجال جاهزون لتلقي الأمر»، ذكر يسرائيل غاليلي لدافيد بن ــ غوريون، «ولبذل سنوات من حياتهم، وللتضحية بحريتهم. ان المنظمة توقظ في آلاف الاشخاص نزعات قومية وتقويما مبالغا فيه لقوتها. وقد اكتسب آلاف من الرجال اهلية قيادة اشخاص آخرين. وهناك آلاف يبدو البلد بالنسبة اليهم اسطُرَ كتاب مفتوح ـــ هناك اطار في الامكان الوصول عن طريقه، بأقل ما يمكن من الوقت وأقصى ما يمكن من الفعالية، الى كل عضو».

لكن تطوير هذه القوة كان يتطلب حثا سريعا من اجل تحسين الخبرة المهنية لدى سلك القادة في «الهاغاناه»، واندفاعة جبارة لشراء السلاح والعتاد الملائمين ولانشاء سلاح مدرع وسلاح مدفعية وسلاحي طيران وبحر. وكان كل ذلك يتجاوز قدرات تنظيم سري يفتقر الى القدرة على العمل العلني، والى أدوات الدولة وميزانيات الدولة. ووصلت «الهاغاناه» الى حتمية [حدوث] تقدم ثوري فيما يتعلق بنواياها واستعداداتها. وكان المطلوب مجيء شخص يتمتع ــ اضافة الى رؤية المستقبل الشاملة والنافذة ــ بقوى جبارة وسلطة رفيعة، ويهز وجدان اليشوف والشعب قبل فوات الاوان، ويضعهم امام حقيقة الاخطار المرتقبة، لكي يعدوا انفسهم قبل فوات الاوان للاختبارات الكبيرة التي كان يتعين عليهم مواجهتها في المستقبل القريب جدا. وكان هذا الرجل هو دافيد بن ــ غوريون.

الفصل الرابع والستون

"هنوطروت" [الخفارة] في السنوات ١٩٤٥ - ١٩٤٧

وضع الخفارة في سنوات النضال

كانت [قوة] الخفارة بكل اذرعها، بما في ذلك «مشتيرت هييشوفيم هعفرييم» [شرطة المستعمرات العبرية]، قائمة منذ البداية على اساس تعاون بريطاني ــ يهودي. وكان لكل من الجانبين، عندما أسسا هذه القوة ورعياها، مصالحه الخاصة به التي كان بعضها متطابقا وبعضها الآخر متناقضا، لكن العامل المقرر في النهاية كان المصلحة المشتركة: في فترة الاحداث ــ الصراع ضد العصابات العربية؛ وفي سنوات الحرب ــ التأهب للصمود في ضوء خطر الاحتلال الالماني. ويبدو ان الاساس المشترك لمؤسسة الخفارة هدم في سنوات الصراع (١٩٤٥ ــ ١٩٤٧). ومع ان التشكيل استمر قائما إلا ان اطره قلصت الى حد بعيد.

ومن الصعب على المرء ان يفهم لماذا لم يلغ البريطانيون [قوة] الخفارة، وخصوصا «شرطة المستعمرات العبرية». فقد عرفوا ان شرطة المستعمرات العبرية استُخدمت، منذ بداية انشائها، غطاء وتمويها لنشاطات «الهاغاناه»، وأن جهاز شرطة المستعمرات العبرية وقيادتها كانا مرتبطين بقيادة «الهاغاناه» ومندمجين فيها. وعلى الرغم من ذلك، حافظوا عليها وتحملوا نفقاتها الى حين خروجهم من البلد. ولا يرجع السبب في ذلك الى الروتين ونزعة المحافظة التي يتسم بها البريطانيون ــ الذين ليس من عادتهم إلغاء مؤسسة بعد اقامتها جملة وتفصيلا بل انهم يقللون من شأنها ويفرغونها من محتواها عن طريق تفسيرات وأنظمة تحد من حركتها وتصغر حجمها ــ فحسب، وانما ــ على ما يبدو ــ يعود السبب الرئيسي الى التخوف من ان يفسر إلغاء الخفارة في العالم على انه تخل عن اليهود وممتلكاتهم لأعدائهم من بين العرب، فتقع على السلطات البريطانية مسؤولية كل ضرر يلحقه العرب بالييشوف اليهودي؛ هذا فضلا عن ان الخفارة برهنت على قيمتها في سنوات الاحداث، وشكلت عاملا ضروريا وفعالا خلال سنوات الحرب. وبما انه من غير الممكن معرفة تقلبات القدر، فلربما يصبح وجودها مرة اخرى في ظروف معينة ضرورة حيوية من زاوية المصلحة البريطانية، وبالتالي من الافضل الاحتفاظ بها على نحو ما الى وقت الضرورة.

لكن من الاسهل فهم موقف الجانب اليهودي. فالحراسة كانت رصيدا ذا قيمة كبيرة لليشوف. وفي الفترة التي صفيت فيها كليا الوحدات العسكرية اليهودية، بما في ذلك الفرقة اليهودية، وتزعزع مركز اليهود في الشرطة من الاساس، وأُسندت مهمات امنية بالغة الاهمية الى سلاح الحدود و«الفيلق العربي»، كان من المهم جدا المحافظة على مركز آلاف الشبان اليهود الذين كان في حيازتهم سلاح حكومي تدربوا عليه وكانوا خاضعين لقيادة «الهاغاناه». ومع ذلك كان وضع الخفراء وشعورهم صعبين جدا في تلك الايام. فقد فرض استمرار بقاء [قوة] الخفارة على رجالها المحافظة، تجاه الخارج، على ولائهم للسلطة. ومع ان الخفراء شاركوا في نشاطات الصراع خفية، من دون زي رسمي، عندما كان الامر يتطلب التمويه او بصورة غير مباشرة ـ حتى بالزي الرسمي ـ فانهم جهروا بحرصهم الشديد على المحافظة على الحياد التام ازاء ما كان يجري بين البريطانيين واليشوف. وفي اثناء عمليات التفتيش في المستعمرات، كان الخفراء يتجمعون غالبا في معسكراتهم او مخافرهم ولا يشاركون فيها، بل انهم حتى لم يشركوا فيما كان يجري في المستعمرات. ولم تكن مهمة سارة جدا ان ينزوي المرء بسلاحه الشرعي في المخفر، بينما الجنود ورجال الشرطة البريطانيون يعيثون فسادا في ارجاء المستعمرات. 1299

وعلى الرغم من ذلك، فان الخفراء لم يقصروا في أداء واجبهم تجاه «الهاغاناه»، كما كان مطلوبا منهم وحتى اكثر من ذلك. وكان سلاح «الهاغاناه» ينقل من مكان الى آخر في سيارات (تندرات) «همشروت هناعيم» [الدوريات السيارة]. وتوخيا لمزيد من السلامة كان رجال الدوريات يسعون لان ينقلوا معهم في السيارة، التي تحمل البضاعة المحظورة، القائد البريطاني الذي كانت رؤيته داخل السيارة تبعد عنها شك رجال الدوريات من الشرطة والجنود. وفي «ليل الجسور» (انظر ص 880) اقام الخفراء في ياد مردخاي حفلة دعوا اليها ضباط الشرطة من غزة وضباط الجيش من جوارها. وعندما وصلت الى غزة أصداء تفجير الجسور القريبة منها، لم يكن هناك في الشرطة ضباط كثيرون للانطلاق الى مكان الانفجارات وتنظيم عملية مطاردة ناسفي الجسور. وكان من بين مواطني البلد الذين ألقي القبض عليهم، في اثناء تفريغ السفينة «شبتاي لوزينسكي» (انظر ص 1146)، خفراء من مخفري غديره وبئير طوفيا، وكُلِّف الرقباء في المخافر الموجودة في هاتين المستعمرتين ان يسجلوا في السجل اليومي، ان الرجال مرضى، او في اجازة، وما شابه ذلك.

وقد أُفرز للخدمة في صفوف الخفراء في تلك الفترة، وخصوصا في وحدات شرطة المستعمرات العبرية، مجندو «شنات هشيروت هليئومي» [سنة الخدمة القومية]، وجلهم من خريجي المدارس الثانوية، وهم شبان يتمتعون بوعي عام وقومي، وساورتهم الغيرة تجاه زملائهم وأبناء جيلهم في البلماح، الذين كانوا يعملون في المستعمرات ويشاركون وقت الضرورة في النشاطات المعادية للبريطانيين، بينما كُلِّفوا هم ارتداء الزي الرسمي الأجنبي،

و «اطاعة» الضباط البريطانيين، والامتناع عن القيام بأي عمل. وكانت تلك الايام هادئة من جانب العرب. والمهمة التي طلب من هؤلاء الشبان التجند لها لم تبدُ حيوية ظاهريا.

«ان الشبان الذين ينبغي لهم ان يتجندوا» (للخفارة) ــ روى يسرائيل غـاليلي ــ «يوجهون سيلا من الاسئلة ــ هناك بينهم من يسأل: ما خطب الحركة الصهيونية، تجندنا لحماية القطارات في الوقت الذي نضرب فيه القطارات؟».

عن هذه الاسئلة كان لا بد من الاجابة بواسطة جهد اعلامي شامل ومتواصل، كان يشتد صعوبة كلما اشتد الصراع ضد البريطانيين. وقد بذل زعماء «الهاغاناه» جهدا كبيرا في الشرح الهادف الى المحافظة على الروح المعنوية في وحدات الخفراء. وكان مضي عشر سنوات على انشاء [قوة] الخفارة مناسبة لاجراء حساب مع الذات وتحليل الطريق الذي انتهجته منذ البداية الى ايام الصراع، التي تراءى فيها لكثيرين ان الخفارة قد انجزت مهمتها، ولم يعد لها مكان في الواقع السياسي القائم. وجاء كتاب «هنوطير هعفري» [«الخفير العبري»]، الذي صدر في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٦، ليجيب عن هذا التساؤل، ويشدد على ان «الخفارة العبرية دائمة وطلائعية، وشرط من شروط استقلالنا وتقدمنـا في البلد»، وأن «المهمة لم تنته بعد».

«ان الخفارة هي موقف استيطاني سياسي ــ «كتب في «هنوطير هعفري» مدير دائرة الخفراء في الوكالة اليهودية، آرييه ليفافي ــ «ان الهجوم المسلح على اليشوف اليهودي ورقة سياسية بيد الزعامة العربية، وهي تنوي استخدامها او التهديد بها في اللحظة التي تراها موافقة لها. لكن في نظر الجمهور العربـي الذي سيضطر الى القيام بالهجوم والقتال الفعلي، تشكل القوة الدفاعية المعترف بها والرسمية ــ قوة الخفارة اليهودية ــ موضوعا للتفكير الذي يقود الى التردد وعدم الرغبة في التورط في جهاد مقدس للدفاع عن سيادة آل الحسيني».

«ان الخفارة اليهودية» ــ قال يسرائيل غاليلي في محاضرة في احدى دورات «الهاغاناه»، في ابان النضال ــ «هي ضرورة موضوعية، انها ليست نزوة. ان السلطة لم تنشئها كي تسترضينا او تريح بالنا. ان للخفارة اساسا موضوعيا واحدا جوهريا، هو: ان الحكومة لا تستطيع تخصيص حامية من الجيش او الشرطة لكـل مستعمرة في ارض ــ اسـرائيل. والحكومة ترى ضرورة ان تكون هناك في كل مستعمرة قوة، في استطاعتها الصمود في وجه العدوان والدفاع عن المستعمرة الى حين وصول الشرطة او الجيش. والشرطة لا تستطيع غض النظر عن العناصر التي تخرق الامن، وعن العناصر التي تهدد الاستيطان اليهودي. ولذا، مهما نسعى لتنمية قوتنا المستقلة وزيادة قوتنا الحرة وجعلها مستقلة من نواحي التدريب والقيادة ومصادر التسليح، فاننا لن نبدد ولن نضيع اية فرصة للتحصن داخل اطار القوات الشرعية في ارض ــ اسرائيل، شرط ان يعمل هؤلاء وأولئك، كل واحد بحسب طريقته، للهدف المشترك. ولن نكف أبدا عن استغلال كل شق، كل منفذ مهما يكن دقيقا، للتسلل من خلاله والتحصن داخل القوات الدفاعية الرسمية في البلد، التي تمول من ميزانية حكومة

1300

صاحب الجلالة، شرط ان نعمل في هذه المجالات ايضا لهدف عدم عرقلة تطور الصهيونية من اجل تحقيق [أهدافها]. واذا كانت الخفارة منذ فترة قصيرة في الدرك الاسفل ومن دون رسالة، فانه ليس من المستبعد ان يعلو شأنها خلال اشهر معدودة، عندما يلمس من جديد الخطر العربي وتصبح مشكلة الدفاع عن المستعمرات مشكلة مطروحة، وعندها سيعلو شأن الخفارة».

1301 حتى ذلك الوقت، والى ان تحين ايام التصدي للعدو، كان لزاما على [قوة] الخفارة ان تحافظ على اطارها، على غرار كل جيش يحتفظ برجاله ويدربهم طوال سنوات السلم وانعدام النشاط، كي يكونوا مستعدين للانطلاق الى العمل عند بدء العمليات القتالية الاولى.

تقليص القوة

كانت [قوة] الخفارة اليهودية تتكون من لواءين رئيسيين: لواء «شرطة المستعمرات العبرية» الذي كان مرتبطا بنظام الامن والدفاع الخاص باليشوف، ومنظما بحسب اقضيته ومناطقه، وخاضعا عمليا لسلطة «الهاغاناه»؛ ولواء خفراء كانوا يخدمون في الشرطة في معسكرات الجيش وبصفتهم خفراء خاصين، وكانت صلتهم بالمنظمة أضعف، وكانوا خاضعين مباشرة لسلطة البريطانيين. وفي أثناء سنوات الحرب، ازداد عدد الخفراء من النمط الثاني. لكن في الفترة الاخيرة منها، عندما تبدد الخوف من احتمال غزو ألماني للبلد، حدث انخفاض متواصل في عددهم، لا بسبب اتجاه السلطات البريطانية الى استبدالهم بعرب فحسب، وانما ايضا بسبب عدم رغبة اليهود في التجند لهذه الخدمات. فالشبان اليهود، الذين رأوا فائدة في التطوع لمساعدة الشرطة والجيش البريطانيين في سنوات الاحداث والحرب، لم يعودوا راغبين في ذلك في السنوات التي رأوا خلالها هذه القوات عدوة لهم. وهكذا ازداد عدد الخفراء العرب باطراد، بينما قلّ عدد اليهود باطراد، ولم يصل حتى الى الملاك الذي صادقت عليه السلطات.

وفي آذار/مارس ١٩٤٦، كان هناك ٥٨٤٨ خفيرا عربيا في مقابل ١٤٦٣ خفيرا يهوديا (باستثناء شرطة المستعمرات العبرية). وقد قام اليهود بدور مرموق وحاسم في [قوة] حراسة القطارات لدى تأسيسها سنة ١٩٣٧ وأصبح يخدم فيها الآن ــ عندما نفذ اليهود عمليات التخريب في سكك الحديد ــ ١٧٠ يهوديا في مقابل ١١٤٥ عربيا. وكان هذا الرقم يتناقص من شهر الى آخر. وفي الجيش وسلاحي الطيران والبحر، كان يخدم ٦٧٥ يهوديا كخفراء لمعسكرات حربية في مقابل ٢١٩٢ عربيا. وكان يخدم كخفراء ملحقين بالشرطة ٣٠٥ يهود في مقابل ٢٠٤٦ عربيا.

وفيما يلي عدد الخفراء اليهود (باستثناء شرطة المستعمرات العبرية) في السنوات ١٩٤٥ ــ ١٩٤٧:

	الملاك	نهاية سنة ١٩٤٥	نهاية سنة ١٩٤٦	نهاية سنة ١٩٤٧
معسكرات جيش	٧٣٤	٣٧٢	٣١٠	٣٢٤
مطارات	٢٦٥	٢٣٤	٢١٢	٢٥٧
بحرية	١٧١	٥٦	٥٣	٥٦
سكة الحديد	٢٢٤	١٤١	١٠٧	٩٨
معسكرات اعتقال	١٢٠	١١٨	٦٢	١٢٢
مهمات عامة	٢,١٠٤	٣٣٧	٢٢٧	٢٢٠
خفراء خاصون	١٩٤	١٥٦	١٩٢	١٩٢
المجموع	٣,٨١٢	١,٤١٤	١,١٦٣	١,٢٦٩

«منذ يوم النصر حتى لحظة كتابة هذه السطور» ـ كتب احد رجال لواء خفراء سلاح الطيران في صيف سنة ١٩٤٦ ـ «نعيش وضعا من عدم اليقين بالنسبة الى ما سيحل بنا. الخفراء القدامى يستقيلون ولا يأتي جدد، لأن التجنيد لهذه الوحدة [اللواء] انتهى، كما انه لا يوجد متطوعون. ويجري النقل من مكان الى آخر، وتصفى وحدات كاملة ومن دون اعلان ذلك حتى قبل يوم من هذه الخطوة. ولا يضمن احد ألا يُخطَر غدا بأنه مفصول». وفي نهاية المطاف، بقيت هناك وحدة خفراء كبيرة في معسكر تل ليتفنسكي (نحو ١٦٠ رجلا)، ووحدتان اصغر منها (نحو ٤٠ ـ ٥٠ رجلا) في القدس وحيفا.

1302

وكان السبب الرئيسي في الاستقالات، في صفوف القدامى، الراتب الضئيل الذي كان يتلقاه الخفير، والذي لم يكن يمكنه من اعالة العائلة (اكثر من نصف الخفراء، بما في ذلك شرطة المستعمرات العبرية، كانوا متزوجين). وفي ربيع سنة ١٩٤٧، عندما بلغ مجموع عدد الخفراء ٢٩٠٠ خفير، كان بينهم فقط ١٨٨ ممن خدموا في اثناء فترة الاحداث، وكان نحو ١٠٥٠ من المتطوعين في اثناء سنوات الحرب، ونحو ١٥٦٠ (اكثر من ٣٣ ٪) انضموا الى قوة الخفارة بعد الحرب، منهم مجندو سنة الخدمة [القومية] الذين كانوا ينتظرون انتهاء السنة بفارغ الصبر، ومنهم مهاجرون جدد وعاطلون عن العمل. ولم يكن من المستغرب ان دائرة شؤون الخفراء وضباط الاتصال لم يستطيعوا سد الفجوة بين الملاك والعدد الفعلي، التي تجاوزت الـ ٢٥٠٠ شخص. وبمقدار ما توفر لديهم مرشحون ملائمون، وجهوهم الى وحدات اكثر حيوية، من زاوية مصلحة الييشوف، والى «شرطة المستعمرات العبرية» التي استطاعوا توفير العدد المقرر لها ايضا بصعوبة كبيرة، وكان دائما ينقصها نحو ١٠٠ ـ ٢٠٠ رجل. وفي المقابل شجع الجفاف، الذي حدث سنة ١٩٤٧، الفلاحين العرب على التدفق على صفوف قوة الخفارة.

«ان السبب الرئيسي في الانخفاض في عدد الخفراء العبريين في المهمات العامة»

ـ كتب موشيه بايتلسون ـ «يرجع قبل كل شيء الى النقص في عدد المرشحين لملء الامكنة الشاغرة، او بعبارة اخرى: شلل حركة التطوع للخفارة»؛ «واذا ما استمر هذا الوضع فمن المحتمل ان يجر في اعقابه تدمير [قوة] الخفارة العبرية بصورة تامة».

وقد اثر تناقص عدد الخفراء، وتوزعهم في معسكرات كثيرة، ووجودهم متفرقين بين الخفراء العرب، في عيشهم وزعزع وضعهم الاجتماعي والحضاري. وكان الخفراء في الجيش وسلاح الطيران والاسطول موزعين في صيف سنة ١٩٤٧ على اكثر من ٢٠ معسكرا (التجمعات الاكبر كانت: في ليتفنسكي ـ ١٦٨ شخصا، وفي صرفند ـ ٩٦؛ وفي القدس ـ ٥٠). كما كان الخفراء في الشرطة موزعين على ١٢ مخفر شرطة (منهم ٩٧ في تل ابيب، و ٨٧ في شرطة القدس). وكان العدد القليل من خفراء القطارات معسكرا في ١٠ محطات. وخدم الخفراء الخاصون في ١٥ شركة ومؤسسة (نصفهم تقريبا كان مستخدما من قبل شركة «سوليل بونيه»). وكانت هذه عبارة عن كتلة متنوعة من البشر، شبانا وراشدين، عزابا وأرباب عائلات، قدامى ومهاجرين جددا. وبذلت جهود للعناية بهم، وخصصت لهم ساعة لتعلم اللغة العبرية ودورات لاكسابهم مهنة مساعدة، واهتمت مرشدات من قبل «ويزو» [منظمة النساء الصهيونيات] بتحسين نوعية الطعام في المعسكرات.

وقد ساء الوضع بصورة خاصة في نهاية سنة ١٩٤٧. فقد كان من الواضح ان البلد يقف على عتبة تغيير اساسي في الحكم. وتوقف التجنيد لهذه الوحدات كليا، وكثرت عمليات الصرف والاستقالات. وأدرك الرجال انهم يقفون امام تصفية وشيكة لقوة الخفارة كمؤسسة حكومية، وتساءلوا عما سيحل بهم في المستقبل القريب، وفتشوا عن طريق لترتيب اوضاعهم وتعلم مهنة ما. ولم تعد تجرى تقريبا تدريبات على السلاح. «لا يوجد حتى ثمة وقت للتدريب» ـ ذكر رقيب في قوة الخفارة في تل ابيب مسؤول عن ١٠٠ خفير ملحقين بالشرطة ـ «لأن كل شخص جديد ينخرط في العمل فورا».

وكان من الواضح سلفا، في أواخر ايام الحكم البريطاني، ان تلك الوحدات الملحقة بالجيش والشرطة البريطانيين ستحل وتصفى مع جلاء القوات البريطانية عن البلد. وبقيت هناك المشكلة الوحيدة: توزيع الرجال لدى اضطرارهم الى ترك الخدمة ودمجهم في الوحدات الملائمة التابعة لـ «الهاغاناه»، اذا وجدوا صالحين وملائمين لذلك لجهة أعمارهم وأوضاعهم الصحية.

تقلص وانخفاض في «شرطة المستعمرات العبرية» 1303

أما مصير «شرطة المستعمرات العبرية» فكان مختلفا. اذ كانت هذه عبارة عن تشكيل مرتبط بالضرورات المباشرة لأمن اليشوف العبري، وكان اليهود معنيين باستمرارها وتطورها اكثر من الانكليز، الذين نظروا الى استمرارها ببرود وتحفظ زائدين.

في الاشهر الاخيرة للحرب العالمية كانت «شرطة المستعمرات العبرية» في حالة صعود،

وكان ذلك مرتبطا بصورة غير مباشرة بالآمال العامة المعقودة على تحسن العلاقات بين البريطانيين والييشوف العبري، وعلى بقاء قوة الخفارة كميليشيا امنية دائمة تجاه الخارج، وكعمود فقري لقوة الميدان التابعة لـ «الهاغاناه» تجاه الداخل. واستمر التوجه، الذي بدأ في صيف سنة ١٩٤٤ (انظر ص 353)، قائما لالحاق الخفراء بمعسكرات مركزية. «الشعار السائد الآن في قوة الخفارة» ـ كتبت «نيف هنوطير» في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥ ـ «هو التركيز. والهدف هو ان تتمركز في كل كتلة مستعمرات عبرية جماعات من الخفراء، يكون من بين مهماتها العناية بأمن الكتلة. وهذا المشروع هو الآن في سبيله الى التحقق، وقد تم تجنيد وتجميع أعداد من الخفراء في المعسكرات، وهم يتلقون تدريبا عسكريا شاملا».

لكن هذه الحالة النفسية تبددت بسرعة بعد ان اتضح ان لا اساس للآمال السياسية. ودل تخفيض ملاك «شرطة المستعمرات العبرية»، من جانب السلطات، على ان ليس في نيتها تطوير القوة العبرية المستقلة.

وفور انتهاء الحرب اخطرت السلطات الوكالة اليهودية بتخفيض ملاك «شرطة المستعمرات العبرية» بداعي التوفير، بمقدار ١١٢٠ شخصا، ليصبح ١٦٥٠ شخصا. وكان القصد العودة الى ملاك «شرطة المستعمرات العبرية» في اثناء فترة ما قبل الحرب (١٢٧٥ شخصا)، مع اضافة بضع مئات من الخفراء للنقاط التي اقيمت في زمن الحرب. وأعلنت السلطات ايضا تخفيض عدد أفراد الشرطة المحلّفين من ١٤,٠٠٠ شخص الى ٧٦٥٠ شخصا. وقد عارضت الوكالة اليهودية هذا التخفيض، وادعت ان عدد جنود سلاح الحدود قد زيد منذ فترة الحرب. وجلبت وحدات «الفيلق العربي» للخدمة داخل حدود ارض ـ اسرائيل، بينما انخفض عدد الافراد اليهود في الشرطة من ٥٠٪، نسبة الى أفراد الشرطة العرب، الى ٢٣ ٪ تقريبا (انظر ص 355)، وظهرت ايضا معارضة لتخفيض عدد أفراد الشرطة المحلفين، الذين لم يكن بقاؤهم يكلف السلطات أموالا. وبعد مفاوضات طويلة وافقت السلطات على ألا يمس التخفيض الدوريات السيارة، التي باتت تضم الآن اكثر من نصف عدد خفراء «شرطة المستعمرات العبرية». واتفق ايضا على المحافظة على الاطار العام المشكل من ١٢ كتيبة، بمفتشيها البريطانيين وسلك قيادتها اليهودي، وعلى زيادة الملاك كلما ازداد عدد النقاط اليهودية. وفعلا ازداد، في اثر الاستيطان الذي تم سنة ١٩٤٧، ملاك «شرطة المستعمرات العبرية» من ١٦٥٠ الى ١٨٦٠، وحدثت الزيادة خصوصا في كتيبة النقب التي اصبحت أكبر كتيبة (٢٥١ شخصا). وخفض عدد أفراد الشرطة المحلفين فقط، بمقدار ١٢٠٠، ليصبح ١٢,٨٠٠ شخص.

ومن اجل رفع مستوى «شرطة المستعمرات العبرية»، وافقت السلطات على تحويل المدرسة الاقليمية التابعة للواء الناصرة في كفار يلاديم الى مدرسة قطرية (J.S.P. Training Depot) يتم فيها تدريب جميع الخفراء لمدة شهر بقيادة ضابط شرطة بريطاني. واقتصر التدريب في المدرسة وفق برنامج تمرينات على النظام العسكري واستخدام البندقية، ولم تعط

اية دروس في التمرينات الميدانية او في استخدام المدافع الرشاشة. وقد افتتحت المدرسة في صيف سنة ١٩٤٥ بدورة قطرية اولى للخفراء، أُقفلت في شتاء سنة ١٩٤٦ لعدم ملاءمة الظروف، وأعيد فتحها في الصيف التالي بعد ان أُنشئت مدرسة مماثلة للخفراء العرب في احد معسكرات الجيش البريطاني. وقد تركت النظرة العامة للسلطات الى «شرطة 1304 المستعمرات العبرية» آثارها، اذ ان المدرسة اخفقت وبقيت في مستوى منخفض.

وفي مقابل ذلك، تحولت المدرسة في الرملة الى مركز كبير لتدريب الخفراء العرب، فكان يتدرب فيها نحو ٥٠٠ شخص كل دورة. «ان المعسكر» ــ روى مئير سبكتور عن زيارته هذه المؤسسة ــ «يعج بمئات العرب. وتسمع طوال الوقت أصوات الاوامر الصادرة عن الرقباء، وأصوات المجندين الجدد وضجة البنادق والاحذية». «وقد اجرى العرب» ــ كتب قائلا ــ «تمرينات على النظام العسكري واستخدام الستن ــ غن، بقيادة رقباء من سلاح الحدود. ويولد كل ذلك انطباعا بأن التجنيد جاد، ويزداد اكثر فأكثر».

وتسود الكتاب الذي صدر سنة ١٩٤٧ بمناسبة مرور عشرة أعوام على تأسيس قوة الخفارة العبرية، روح الكآبة. ويتحدث مؤلفوه عن «انخفاض القوة كما ونوعا» (عمانوئيل ماركوفسكي)، وعن «سنة غروب قوة الخفارة». وقد ادى خروج القدامى من قوة الخفارة ودخول شبان جدد ــ اعتبر معظمهم ذلك أداء لواجب غير مستحب وحتى غير حيوي، ولم يجدوا اطارا سليما يستقبلهم ويشكل صورتهم ــ الى تفكك القوة تماما.

وساد شعور بخيبة الامل من قوة الخفارة حتى في القيادة العليا لـ «الهاغاناه» ايضا. وكان هناك من أراد ان يحول «شرطة المستعمرات العبرية» الى لواء مقاتل منخرط في النظام العام لقوات «الهاغاناه»، ومن «اعتبر قوة الخفارة مجرد أداة ينبغي استغلالها» (زليغ روستسكي)، اي مصدرا للقوة البشرية والمساعدة غير الفعالة في سد حاجات الألوية غير الشرعية، وخصوصا حاجات قوة الميدان.

وكان نحو ٧٥٠ شخصا، من أفراد «شرطة المستعمرات العبرية»، «مصادرين» لغايات منظمة «الهاغاناه». وكانوا يؤدون مهمات حيوية في المنظمة، في الاساس، في اطار قوة الميدان، وكانوا مسجلين خفراء. وقد اهمل هؤلاء الاشخاص، طبعا، مهماتهم كخفراء، ووقع عبء العمل الموكل اليهم على الآخرين. ووصلت الامور في نقاط كثيرة الى درجة الازمة: اظهر الرجال لامبالاة في عملهم، وأصبح الوضع في المخافر سيئا، والسجلات غير منظمة، والاسلحة قذرة. وقام خفراء كثيرون بأعمال جانبية او، اذا كانوا اعضاء في مزارع، عملوا في مزارعهم واكتفوا بالظهور مرة واحدة في الشهر يوم دفع الرواتب. «لم يعد خافيا على السلطات في البلد» ــ كتب م. بايتلسون، مفتش الخفراء في شمال البلد ــ «ان شرطة المستعمرات العبرية ليست قائمة من الناحية العملية او ــ على اية حال ــ ليست قائمة كشرطة من اجل الدفاع عن المستعمرات العبرية. وتتهم السلطات ضباط الارتباط، الذين يمثلون الوكالة اليهودية، بالعجز وعدم القدرة على السيطرة على الفوضى السائدة في هذه

الوحدة، وليس في وسعهم الاستمرار في أداء مهمتهم». وذكر في تقرير يرجع عهده الى نهاية سنة ١٩٤٦: «لقد تدنت الكفاءة الى حد ان ضباط الشرطة الذين قاموا بجولات في الامكنة المختلفة، كانوا يجدون المخافر مقفلة. وكان الخفراء إما خارج المكان وإما مشغولين بأعمال لا علاقة لها بشرطة المستعمرات العبرية، كما حدثت سرقات من داخل المخافر نفسها. وقد اكتشف الضباط ان في الامكان دخول المستعمرات والوصول الى المخافر من دون ان يلاحظهم احد، وهناك مناطق لا توجد فيها عمليا دوريات حراسة سيارة، ونتيجة لذلك تردّى الوضع الامني».

محاولات القيادة العليا لاصلاح الوضع

دفع الوضع المقلق في قوة الخفارة القيادة العليا الى العمل لاصلاحه. وكانت قد أُنشئت، في أواخر الحرب العالمية، دائرة خاصة في هيئة الاركان العامة لمعالجة شؤون الخفراء، وعينت القيادة العليا عمانوئيل ماركوفسكي (مور) قائدا لقوة الخفارة القطرية، كانت مهمته العمل على دمج القوة في «الهاغاناه». وجرت سنة ١٩٤٦ محاولة لتعزيز قوة الخفارة عن طريق ضم ضباط مسرحين من الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني اليها. وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٦ عين يحزقئيل ساخاروف (ساهر)، من قدامى رجال «الهاغاناه»، وكان قد عاد حديثا من الفرقة اليهودية بعد ان خدم فيها برتبة ميجر، ضابط ارتباط بين الوكالة اليهودية والسلطات بدلا من هاري بايلين. وعين معه عاموس بن ـ غوريون، وهو ايضا ميجر سابق في الجيش البريطاني، مفتشا خاصا للدوريات السيارة التي كان عدد أفرادها آنذاك نحو نصف عدد أفراد «شرطة المستعمرات العبرية». وعين زئيف مليون، الميجر في الفرقة اليهودية، في صيف سنة ١٩٤٧ في منصب ضابط قوة الخفارة في هيئة الاركان العامة التابعة لـ «الهاغاناه». وعندما اتصل ساخاروف بالسلطات اصبحت لديه القناعة بأن «اللجنة الحكومية للدفاع عن المستعمرات اليهودية» تعمل بتقصير وعدم رغبة في اصلاح الوضع. وكان القائد الجديد للشرطة، غراي، الذي كانت قوة الخفارة خاضعة له من الناحية الرسمية، يتآمر لالغاء القوة وتصفيتها من اساسها، وركبته الغيرة بصورة خاصة من اللواء الاكثر استقلالا: «شرطة المستعمرات العبرية».

1305

وقد طالب ساخاروف باخراج قوة الخفارة كلها، وخصوصا «شرطة المستعمرات العبرية»، من نطاق سلطة المنظمة. وبعد مجادلات تقرر اخراج شرطة المستعمرات العبرية من نطاق سلطة قادة الاقضية واخضاعها لسلطة قيادات المناطق الكبرى. وعينت «الهاغاناه» في كل منطقة ضابط خفراء على مستوى المنطقة من قبلها، وأُخضع ضباط الخفراء القضائيون لسلطته. وقد اختيرت اكثرية هؤلاء الضباط من بين قدامى الرقباء في قوة الخفارة الذين تفوقوا في عملهم، وكانوا مسؤولين عن تدريب الاشخاص. وفي المقابل، تقرر ان تبقى

القيادة العمليانية بيد قادة الاقضية. وكان الهدف «تحويل قوة الخفارة الى قوة عسكرية. وكان العمل الاساسي التدريب بمختلف جوانبه، وارساء نظام انضباط».

وأوليت عناية خاصة لتحسين الوضع في دوريات الحراسة السيارة التي كان وجودها في امكنة كثيرة مجرد وهم. وقد ضمت الدوريات في صفوفها مدربين في قوة الميدان كانوا مشغولين بعملهم في «الهاغاناه»، او شبانا من مجندي سنة الخدمة كانوا بحاجة الى تدريبات كثيرة ليصبحوا جديرين بالانتماء الى وحدة نشيطة مثل قوة الحرس السيار. ولم يكن الملاك الكامل من الاشخاص متوفرا في دوريات كثيرة، حتى لو نظريا. وكانت هناك وحدات كثيرة غير مدربة وغير منضبطة وغير فعالة من الناحية الامنية. «لم يكن هناك نظام، ومسؤولية، ودوريات استطلاع، وحراسة» (ع. بن ــ غوريون). ولم تكن هناك دوريات حرس سيار جيدة وقوية إلا في الأمكنة التي كان موجودا فيها قائد مخلص لعمله. وكان من الامكنة التي وجد فيها حرس سيار من هذا النوع، في تلك الفترة، قضاء الشجرة، بقيادة ضابط الحرس القضائي يهوشواع بوجتشيفسكي.

وقد كان الرجال الجدد القادمون من الجيش لترؤس قوة الخفارة يطمحون الى ان يطوروا الحرس السيار، ويستفيدوا من امكانات التدريب الشرعية لتحويله الى «بلماح مموه بقوة الخفارة» (ع. بن ــ غوريون).

وكان اول عمل قام به عاموس بن ــ غوريون هو زيادة عدد الخفراء «القائمين»، وتقليص عدد «المصادرين»، وتجنيد خفراء جدد لاستكمال الملاك، الذي كان تعداده ١٠ ــ ١٢ شخصا لكل دورية. وقد دُرِّب الرجال وخرجوا لأعمال الخفارة والدورية. وبذل جهد لتجنيد قادة ملائمين من اجل ملء الملاك بصورة كاملة، وتحويل الحرس السيار الى لواء قطري مشكل من ٨٠٠ شخص.

لكن هذه الاصلاحات اتت متأخرة جدا. اذ انها اصطدمت بمعارضة كبيرة من جانب معظم قادة «الهاغاناه» في المناطق الكبرى والاقضية. وبسبب النقص في الميزانية، لم يطرأ تغير ملموس على التدريب. ورفض قادة الاقضية التنازل عن حقهم في «مصادرة» اشخاص من أفراد «شرطة المستعمرات العبرية»، ولم يكتفوا بكوتا الـ ١٤ شخصا المقررة لكل قضاء (المجموع: ٢٠٠ شخص في جميع انحاء البلد). كما لم يساعد في تحسين الوضع ادراك «ان قوة الخفارة الشرعية ستكون، في حال حدوث هيجان عربي، القوة الاولى المدافعة» (د. بن ــ غوريون).

وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، قام البريطانيون بالخطوة الاولى لتصفية قوة الخفارة باعلانهم التوقف عن تجنيد خفراء جدد. وبما ان ١٠٠٠ خفير تقريبا كانوا على وشك انهاء خدمتهم في اطار سنة الخدمة القومية، فقد اصبح متوقعا خطر حل «شرطة المستعمرات العبرية». وقررت المؤسسات القومية إلزام كل المرشحين للتسريح بفترة خدمة اضافية حتى اشعار آخر. وقد اصبح رجال شرطة المستعمرات العبرية، سوية مع البلماح، المجندين

1306

الاوائل للبيشوف في حرب الاستقلال التي نشبت بعد اسابيع معدودة من اتخاذ هذا القرار. ومع ذلك، من الجدير بالذكر انه في الايام الاخيرة التي سبقت قرار الامم المتحدة، طرح سؤال في امانة سر الحكومة يتعلق بأسلحة «شرطة المستعمرات العبرية» ومصيرها في حال جلاء البريطانيين عن البلد. وكان جواب قيادة الشرطة انه ينبغي عدم نزع هذه الاسلحة «كونها اسلحة خط الدفاع الاول لليهود».

وقد ضمت «شرطة المستعمرات العبرية» بين صفوفها، عشية حرب الاستقلال، ١٧٩٧ شخصا (منهم ٨٥ رقيبا، و١٧٢ عريفا). وكان في حيازتهم ٤٨ مدفعا رشاشا (لويس ــ غن) و ٦٨٤٠ بندقية. وخلال الفترة الاولى للحرب، حين كان ظل السلطة البريطانية لا يزال قائما في البلد، كان هؤلاء هم الوحيدون الذين في وسعهم العمل علنا، وخصوصا مرافقة القوافل، على الطرق. وسقط منهم شهداء كثيرون في تلك الايام. وبينما اندمج الخفراء البالغ عددهم ١٢٢٠ خفيرا والذين كانوا منضوين في قوة الخفارة خارج اطار «شرطة المستعمرات العبرية»، في وحدات «الهاغاناه» غيرالشرعية، ظلت «شرطة المستعمرات العبرية» قائمة حتى تصفية الحكم البريطاني في البلد في ايار/مايو ١٩٤٨. وبذلك انتهت سنوات قوة الخفارة ــ اللواء الشرعي لـ «الهاغاناه» ــ الاثنتا عشرة.

الفصل الخامس والستون

البلماح قبيل حرب الاستقلال

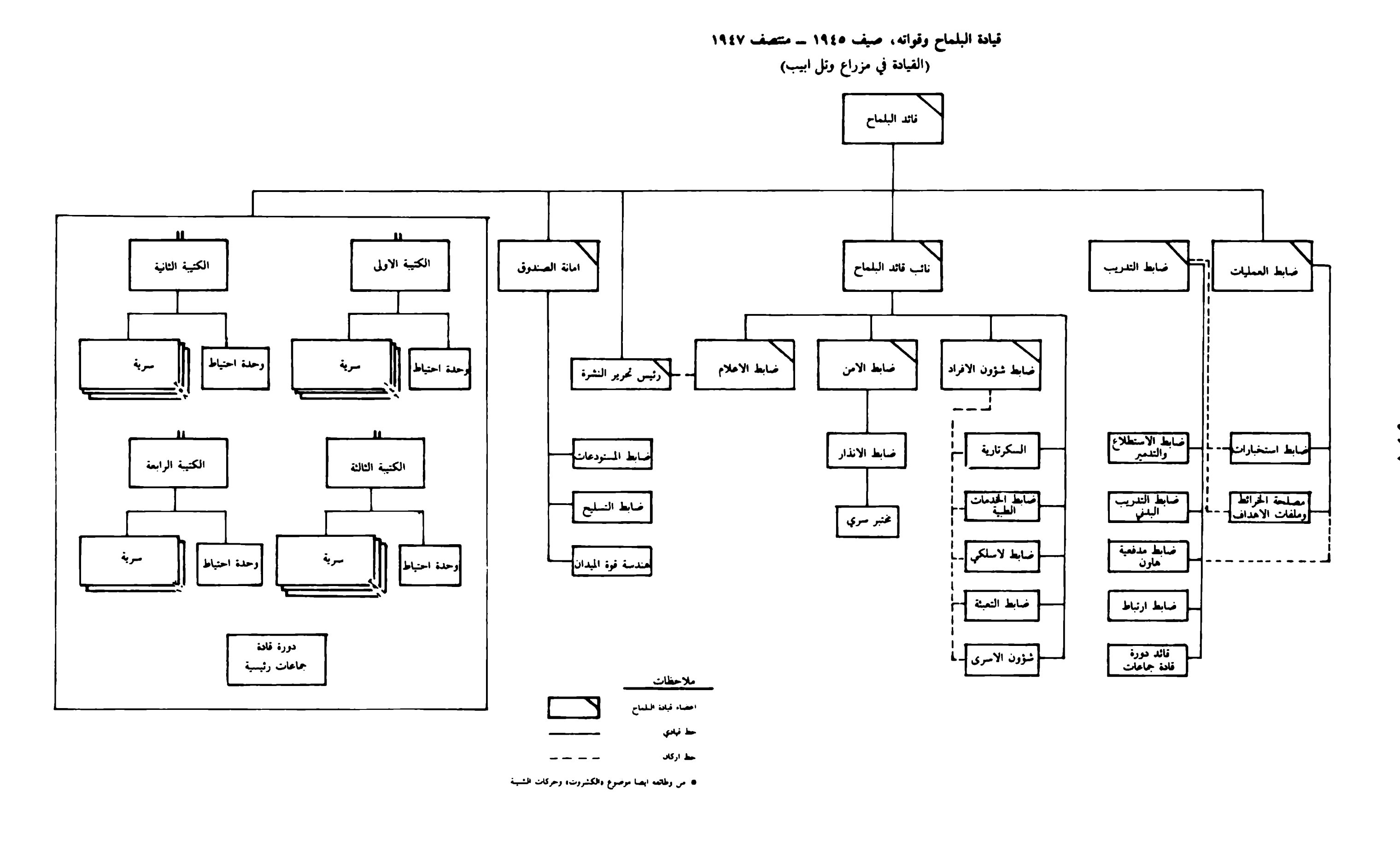
البلماح في فترة النضال

مر العامان ١٩٤٦ و ١٩٤٧ على البلماح في ظل النضال. وبعد تعيين يتسحاق ساديه قائما بأعمال رئيس هيئة الاركان العامة (في خريف سنة ١٩٤٦)، حل محله قائدا للبلماح نائبه يغآل فايكوفيتس (آلون). لكن الارتباط بيتسحاق ساديه ونفوذه استمرا. وكان التنسيق بين هيئة الاركان العامة والبلماح في هذه الفترة ــ فترة النضال ــ كاملا. وعين نائبا ليغآل فايكوفيتس قائد الكتيبة الثانية، اوري برنر. وبوصف البلماح قوة «الهاغاناه» الضاربة المجندة، تصدر اعضاؤه نشاطات النضال على مختلف أنواعها. وكان لهم دور كبير في الهجرة اللاشرعية، ومرافقة السفن، وانزال المهاجرين غير الشرعيين على شواطىء البلد. كما شاركوا في الاستيطان الاحتلالي، سواء كمجموعات مستوطنين او كمرافقين وحماة لمستعمرات اخرى، وكانوا هم من تحمل عبء الكفاح المسلح. ومع انه في احيان كثيرة كانت تضم اليهم، عندما كان الامر يتطلب قوة بشرية اضافية او عملا جماهيريا، وحدات من تشكيلات «الهاغاناه» الاخرى (قوة الميدان، الخفراء [نوطريم]، قوة الحراسة [حيم]، الغادناع)، فانهم كانوا هم في الحقيقة من تحمل مسؤولية وعبء العمليات الأشد خطورة، من نسف سكك الحديد في بداية فترة النضال الى العمليات التي نفذتها «هحوليا» [المجموعة]* في سفن الطرد [طرد المهاجرين غير الشرعيين] البريطانية في نهايتها (انظر ص 973).

وبما ان البلماح كان قوة عسكرية صغيرة، مفعمة بالحيوية ومتشوقة الى العمل، فقد كان من الطبيعي ان يكون في عداد المتطرفين في تأييد الكفاح المسلح. واذا كان قد اخذ على عاتقه عبء الانضباط الذي فرضته عليه مؤسسات اليشوف العليا و«الهاغاناه»، فان رجاله لم يكفّوا عن انتقاد القيود المفروضة عليهم. «يتأرجح المقاتلون» ــ كتب يسرائيل غاليلي في وقت لاحق ــ «بين الغليان والبرودة الشديدة. فثمة عمليات، انطوى الاعداد لها على كد

---

* مجموعة صغيرة من البحارة تابعة للبلماح كانت تقوم بعمليات تخريب ضد القطع البحرية البريطانية في عمق البحر. (المترجم)


قيادة البلماح وقواته، صيف ١٩٤٥ ـ منتصف ١٩٤٧
(القيادة في مزراع وتل ابيب)
قائد البلماح
نائب قائد البلماح
ضابط العمليات
ضابط التدريب
امانة الصندوق
رئيس تحرير النشرة
ضابط الاعلام
ضابط الامن
ضابط شؤون الافراد
ضابط الانذار
مختبر سري
السكرتارية
ضابط الخدمات الطبية
ضابط لاسلكي
ضابط التعبئة
شؤون الاسرى
ضابط استخبارات
مصلحة الخرائط وملفات الاهداف
ضابط الاستطلاع والتدمير
ضابط التدريب البدني
ضابط مدفعية هاون
ضابط ارتباط
قائد دورة قادة جماعات
ضابط المستودعات
ضابط التسليح
هندسة قوة الميدان
الكتيبة الاولى
الكتيبة الثانية
الكتيبة الثالثة
الكتيبة الرابعة
سرية
وحدة احتياط
دورة قادة جماعات رئيسية
ملاحظات
اعضاء قيادة البلماح
خط قيادي
خط اركان
س وظيفته ايضا موضوع «الكشروت» وحركات الشبيبة

شديد وتعريض الحياة للخطر، أُلغيت مباشرة قبل ساعة الصفر المحددة للتنفيذ. وأصبح الحبل الواصل بين المقاتلين والقيادة مشدودا، وكاد ينقطع اكثر من مرة». وكُلِّف اشخاص رئيسيون في القيادة العليا ان يشرحوا للرجال وأن يقنعوهم بأن عليهم قبول خط العمل كما رسمته المؤسسات بحذافيره والتقيد به. «ان لواءنا» ــ ورد في نشرة البلماح ــ «هو جزء من البيشوف، ومرتبط بصورة مباشرة بردات فعله وقوة صموده الروحي النضالي». «لفترة طويلة» ــ كتب يسرائيل غاليلي في نشرة البلماح ــ «صاحب الاعضاء الشعور بأننا نسلك سبيل القتال «بقفاز حريري» اكثر من اللازم، ولم يفهموا اسباب ذلك. وكانت المذبحة المخجلة التي نفذتها ليحي في الجنود بتل ابيب (انظر ص 839) «ضرورية» حتى يفهم اعضاؤنا فحوى الامر بالامتناع عن تكبيد العدو ضحايا، إلا عندما لا يكون هناك مفر من ذلك».

وكانت ايام النضال ايام سمو روحي في اوساط اللواء المجند. فبعد اشهر وسنوات من التدريبات دُعي المحاربون الى عمل حقيقي. ونضج في داخلهم الوعي بأن «اعمال البلماح هي التي سترجح الكفة لمصلحة النضال، وأنه من دون النضال ينتظر الصهيونية استسلام سياسي هو بمثابة خطوة على طريق التصفية النهائية لها ـــ وشعر المقاتلون، بكل جوارحهم، بأنهم خرجوا من الركن الى مقدمة الصفوف، وبأن الشعب يشخص بأنظاره اليهم ويتمنى لهم التوفيق. وحتى معارضو النضال والمشككون في جدواه، شعروا باحترام لهم» (ي. غاليلي). 1309

ولا عجب في ان البلماح اصيب، بعد ايقاف الكفاح المسلح ضد البريطانيين، بصدمة اكثر من اي تشكيل آخر في «الهاغاناه». في البداية عزّى الاعضاء انفسهم بأن هذا ليس سوى هدنة عابرة. لكن عندما توالت الايام ولم يتجدد الكفاح المسلح بمستوى حجمه الاول، اتت خيبة الامل الكبرى. «تعالت موجة الاستياء في معسكرات البلماح» ــ ذكر يغآل آلون ــ «ولم يسلِّم المقاتلون بالهدنة. لم يسلموا بها لانهم لم يدركوا الغاية منها. بل على العكس، استمرت القيادة في التحدث بروحية حرب هجومية. وكان «صوت اسرائيل» يؤكد صباحا ومساء، ‹ان التمرد لن يتوقف بل سيستمر›، وساهم تصرف القيادة الغريب هذا بحد ذاته في عدم الفهم الذي ساد القيادة والاعضاء. ـــ وكان هناك في البلماح اشخاص جيدون ومخلصون ـــ وصلوا الى حد الانكار على القيادة الصهيونية حقها الادبي في الاستمرار [في القيادة] وادارة النضال ـــ واشتدت خيبة الامل لدى اعضاء كثيرين الى ان بلغت حدا دفع ببعضهم الى ان يقترح على هيئة اركان البلماح تنفيذ عمليات على عاتقها». «عشنا طوال الوقت تحت وطأة احساس بالدونية» ــ روى دوف تسيس عن تلك الايام ــ «وعمليا اضنتنا، طوال تلك الفترة، الغيرة من عمليات المنشقين».

وقد كتبت عيدا غولومب، التي احتكت برجال البلماح نتيجة اعتنائها بموقوفي «الهاغاناه» وأسراها في تلك الايام، عن المزاج السائد بين الشبان: «هناك تعاطف مع رجال الايتسل، لكنهم يكرهونهم، ويحسدونهم لأنهم أحرار. انهم يسألون: هل هناك نضال ام لا؟

اذا لم يكن هناك نضال فيجب حل اللواء. هل هناك حرب ضد المنشقين ام لا؟ اذا كانت هناك حرب فلماذا لا نخوضها؟».

ولم تتطور الامور الى ازمة بفعل ثلاثة عوامل: اولا، اجتاز اطار البلماح محنة الاختبار بنجاح. «لقد حافظت هيئة الاركان على العهد» ـ ذكر يغآل آلون ـ «وأسعفتها جذور البلماح القوية الضاربة في حياة اليشوف وتثقيفه الجماهيري، فلم تنحرف عن مبدأ ان سلطة القيادة (المقصود سلطة اتخاذ القرار) تخضع لسلطة ديمقراطية فقط. وعرفت ايضا ان نهاية النشاط المعتمد على «مذهب الفعالية» (Activism) وغير المستند الى الشعب المنظم، الممثل بمؤسساته المنتخبة المتعافية، هي التفسخ والانحلال. ان مهمة البلماح ليست الانشقاق عن الشعب كي يخدمه من «الخارج»، وانما الانخراط فيه، وتوحيد صفوفه وحثه على الحرب من خلال الوحدة. ومن هنا نبعت قوة «الهاغاناه». ولذا كانت عملية واحدة لـ «الهاغاناه»، يقف الشعب بأكمله خلفها، اقدر على زعزعة الحكم الاجنبي من عمليات منظمتي «المنشقين» التي لم يكن يؤيدها الشعب، لأن من طبيعة الحكم الاجنبي ان يخشى تمرد الشعب بكامله والمقاومة الجماهيرية الشاملة، التي تدمر قدرته على السيطرة الفعلية. لكن الويل للشعب الذي يملي جيشه عليه سياسته».

والعامل الثاني كان استمرار انشغال البلماح بنشاطات النضال الخارجة عن نطاق الكفاح المسلح، كالهجرة اللاشرعية، والاستيطان الاحتلالي، وعمليات تخريب السفن المعدة لطرد المهاجرين وما شابه ذلك، كما فصلناها في المجلدات السابقة.

وكان العامل الثالث المؤشرات الاولى للتوتر في العلاقات بالعرب، التي تزايدت باطراد خلال سنة ١٩٤٧، وجعلت البلماح يدرك ان لا بد من التهيؤ لصدام خطر مع العصابات العربية ولإمكان حدوث ثورة عربية شاملة. وقد شارك رجال البلماح بفعالية في الدوريات ونشاطات التجسس التي قامت بها قيادة «الهاغاناه» في اطار الاستعداد لمواجهة احتمال ثورة عربية. «كانت تلك فترة نشاط معزز تمثل في إعداد ملفات عن القرى، وفي القيام بأعمال الدورية والتعرف على المنطقة من الخليل الى الساحل مرورا بالرملة» ـ كتب قائد السرية ح في تلك الفترة، عاموس حوريف ـ «وأُنشئت [في السرية ح] فصيلة دوريات كبيرة ومتشعبة».

الاعلام في البلماح

وفي ضوء الحالة النفسية هذه، التي سادت اوساط البلماح، كان للنشاط الاعلامي اهمية خاصة. وقد اشتمل البرنامج الاعلامي في تلك الفترة على تاريخ منظمة «الهاغاناه»، وأسسها وبنيتها والمشكلات الخاصة باللواء، ومعرفة المنفى، وقوة استيعاب البلد، ومعرفة البلد، ومعرفة العرب وعاداتهم، ومعلومات سياسية، وشؤون صهيونية. ومن حين الى آخر، كانت دائرة الاعلام تجمع ضباط الاعلام وتشرح لهم موضوعا معينا. وفي اوقات محددة كانت

تجمع السلك القيادي، من رتبة قائد سرية فما فوق، لتقديم معلومات وشرح اعلامي. وقد قامت بدور مهم في الاعلام نشرات البلماح التي كانت مهمة تحريرها، في اشهر النضال الفعلي والفترة اللاحقة له (حتى صيف سنة ١٩٤٧)، ملقاة عمليا على عاتق ماتي ميغد. وفي اشهر النضال الفعلي، كانت تفاصيل العمليات تسجل بحسب رواية القادة المشرفين على تنفيذها، وتنشر فورا في نشرات البلماح. وبعد «السبت الاسود» لم يعد ممكنا الاستمرار في طبع نشرة البلماح في مطبعة عين حارود. «كان اصدار النشرة مرتبطا بمغامرات حقيقية: العثور على المطبعة الصغيرة المستعدة لفعل ذلك، واقناع صاحبها بالموافقة، الخ.. وأحيانا» ـ روى ماتي ميغد ـ «كنا نضطر الى ترتيب مواد النشرة في مطبعة، وتنضيدها بالرصاص في مطبعة اخرى، وطباعتها وتجليدها في مطبعة ثالثة».

وقد حرصت دائرة الاعلام التابعة لهيئة اركان البلماح، على اشراك اشخاص من كل اتجاهات الحركة الصهيونية في نشاطها الاعلامي.

وتعتبر الاسئلة التي وجهت في اجتماع اعلامي في نيسان/ابريل ١٩٤٧، نموذجية لفهم الحالة النفسية التي كانت تسود صفوف البلماح في تلك الفترة. ففي هذا الاجتماع حاضر ب. جوزيف (دوف يوسف) في النضال السياسي، وعزرا دانين فيما يجري بين العرب، ويغآل آلون في المشكلات الفعلية في اللواء، ويتسحاق ساديه في الحرب ضد المنشقين. ووجه القادة اسئلة: «لماذا لا نقاوم طرد المهاجرين غير الشرعيين؟ لماذا لا توجد هجرة لاشرعية إلا بحجوم صغيرة؟ لماذا لا تسلم الهجرة اللاشرعية الى اللواء ـ لماذا يقتصر «ردنا» على ميناء حيفا (وليس خارج البلد)؟ هل فعلنا كل ما في وسعنا لادخال الشبيبة في المنظمة؟ لماذا لا نرد على اعمال السلب والقتل التي يقوم بها العرب؟».

وهنا المكان الملائم للتطرق الى مسألة نفوذ «هكيبوتس هميئوحاد» في صفوف البلماح وهيئة اركانه.

لقد كان قسم كبير من السلك القيادي في البلماح منتميا الى «هكيبوتس هميئوحاد» ـ الذي انشقت اكثرية اعضائه عن ماباي سنة ١٩٤٤ وأنشأت «هتنوعاه لأحدوت هعفوداه» [الحركة من اجل وحدة العمل] ـ او كان قريبا جدا في آرائه منه. ويمكن فهم هذا النفوذ اذا تذكرنا ان «هكيبوتس هميئوحاد» كان الجسم الحركي ـ الاستيطاني الاول الذي تقدم بحماسة وحرارة للخدمة في اللواء المجند التابع لـ «الهاغاناه»، وفتح مستعمراته جميعا لاستخدامها قواعد له على اساس العمل والتدريب. كما ان «هكيبوتس هميئوحاد» و «هتنوعاه لأحدوت هعفوداه» وقفا بقوة الى جانب التجنيد للبلماح (جنبا الى جنب مع التجند في الوحدات العبرية في الجيش البريطاني) في اثناء النقاش بصدد سياسة التجنيد الخاصة بالييشوف (انظر ص 400).

وقد طلب «هكيبوتس هميئوحاد» من اعضائه ايضا، بل ألزمهم ـ بفعل السلطة

الجماعية ـ بالاستمرار في الخدمة في البلماح ما دامت ضرورات تطور اللواء والمهمات المكلف بها تتطلب ذلك.

«التتمة كانت طبيعية جدا» ـ كتب أليعيزر شوشاني من غفات في ذاك الحين، وعضو كل من ماباي وهيئة اركان البلماح ـ «فالذين بكّروا في التجند في صفوف البلماح والمؤهلون كانوا هم ايضا الذين بكّروا في ارتقاء السلم القيادي، كما هي الحال في جميع الجيوش في العالم. وبمرور الوقت، عندما بدأ البلماح يستمد قوته البشرية الرئيسية من اوساط حركات الشبيبة، بدأت تظهر معالم تغيير وذلك بحكم كون معظم الكفاءات المجندة خاضعا لتأثيرات ماباي («هتسوفيم» [الكشافة]، «هتنوعاه هميئوحيدت» [الحركة الموحدة]، وأغلبية كفاءات «هنوعار هعوفيد» [الشباب العامل]). وبالتأكيد لا اكون مجافيا للحقيقة اذا قلت انه في المراتب القيادية الدنيا (قادة جماعات وقادة سرايا) لم يكن هناك تفوق للكتلة ب».

1311

ومع ذلك، نشأت بين رجال البلماح وحدة في الرأي بشأن المسائل المتعلقة بأساليب النضال وروحية ولاء للواء وتعصب له. «شارك في هذا الولاء» ـ كتب شوشاني ـ «رجال الكتلة ب، وماباي، وهكيبوتس هآرتسي [الكيبوتس القطري]، وهكيبوتس هداتي [الكيبوتس الديني] وغير الحزبيين على اختلاف أنواعهم. واذا كان البلماح قد اشتهر بأنه داعية لـ«مذهب الفعالية» (Activism)، فان رجال هكيبوتس هآرتسي الذين خدموا في صفوفه لم يكونوا اقل تبنيا لذلك من الآخرين، على الرغم من حقيقة ان قيادة «هاشومير هاتسعير» [الحارس الفتى] لم تكن من انصار مذهب الفعالية من دون قيد او شرط.

ومع ان اغلبية اعضاء قيادة البلماح كانت واقعة تحت تأثير الحزب الصغير (الذي انشق عن ماباي)، فان هيئة اركان البلماح حرصت على الطابع غير الحزبي للبلماح، وعلى المشاعر الطيبة الموجودة لدى الاعضاء المنتمين الى أحزاب اخرى، وعلى عدم تماثل البلماح مع هذه الايديولوجية الحزبية او تلك.

وعلى الرغم من ذلك، اثرت حقيقة ان اكثرية اعضاء قيادة البلماح لم تكن منتمية الى الحزب الرئيسي في البلد وفي القيادة الصهيونية، احيانا ـ والى حد ما ـ في نظرة القيادة السياسية الى البلماح وأضرت في النهاية بمركزه وتطوره.

العبرة العسكرية من النضال

ان عمليات النضال التي كان الهدف المباشر منها مساندة السياسة الصهيونية، استخدمت من قبل البلماح ايضا وسيلة لمتابعة التعلم واختبار عقيدته العسكرية.

ان العبرة العسكرية الاساسية لمنظمة «الهاغاناه» كانت مستمدة، حتى ايام النضال، من العمليات التي جرت في السنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وقد اكتسب البلماح، الذي حصل قادته ومدربوه الاوائل على خبرتهم خلال تلك السنوات، المذهب القتالي الخاص

بـ «هنوديدت» [القوة الجوالة]، و «بلوغوت هسديه» [سرايا الميدان] و «بلوغوت هـلايل هميوحادوت» [السرايا الليلية الخاصة]، التي قاتلت ضد العصابات العربية وتمرست، في الاساس، في حرب ضد عصابات مسلحة صغيرة كانت تعمل ليلا. وبالنسبة الى الشبان الذين كانوا يشكلون معظم اعضاء البلماح، كانت عمليات النضال هي اولى العمليات الحقيقية لهم. وقد تم اختبار مواهب القادة وخبرات الجنود بعمليات قتالية خطرة.

«ان اي خطأ، او اي تأخير في العملية لم يعد مجرد شأن مزعج يجر في اعقابه عاصفة من التقريع من جانب القائد، وانما يعرض المهمة بأكملها للخـطر ومعها ايضـا حياة الاعضاء. ــ والقواعد التكتية التي اكتسبت في المعسكرات، في تدريبات الوحـدات والدورات، وضعت الآن في قيد الاختبار الواقعي، يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة. ولم تعد اساليب الالتفاف، وصرف الانتباه والتضليل، والمفاجأة، والتمويـه، وباقي التمـرينات القتالية، شؤونا لخطوات [تتم] على طاولة [العمليات] وانما في ساحـات المعارك. ــ وأضاف كل يوم جديدا الى الخبرة العسكرية، وارتقى قادة صغار قمة السلم القيادي، ونمت روحية جديدة، وأصبح لدى البلماح ثروة روحية وتجربة عظيمة القيمة اهلته لخوض معارك حرب التحرير» (ي. غاليلي).

«كانت العملية الاولى في سلسلة عمليات «النضال» هي تحرير موقوفي عتليت ــ التي نفذتها سرية معززة» ــ ذكر يتسحاق ساديه ــ «وانطوت تقريبا على كل عناصر تدريبات البلماح: الخروج ليلا، والتسلل الى المعسكر، وشل الحراس، ومن ناحية اخرى: اغلاق الطرق، ومشاغلة الشرطة، ونصب كمائن بجانب الجسور، وبعد ذلك نقل المهاجرين عبر طـرق خطرة». 1312

وشكل ليل سكك الحديد (انظر ص 858) اختبارا ثانيا للبلماح. «في تلك الليلة وصلت من جميع انحاء البلد كل الوحدات (اكثر من ٥٠ وحدة) الى امكنتها قبيل ساعة الصفر. ولم يسجل اي تأخير اكثر من ربـع الساعة؛ ــ مع انه شارك [في العملية] ايضا قوات المساندة التابعة للبلماح التي لم تكن في المعسكرات» (ي. ساديه).

وبهذه الطريقة كانت كل عملية بمثابة تمرين ومادة تعليمية للأعضاء، تعلموا منها واستفادوا من اخطائها.

وقد ساهمت ايام النضال في تنمية روح الجندية (Esprit de Corps) في البلماح. وأضيفت الآن الى الحياة المشتركة في المعسكرات، والى الحفلات في ضوء المشاعل، والى الرحلات في الجليل والنقب: عمليات مشتركة محفوفة بالمخاطر، وضمان كل مقاتل لحياة زميله ولنجاح العملية. وتوثقت في هذه العمليات روح الزمالة بين الرجال. «ان زمالة المقاتلين» ــ كتبت نشرة البلماح في كانون الثاني/يناير ١٩٤٠ ــ «هي بالتأكيد ذروة الزمالة؛ فالانسان الصامد الى جانبك والمستعد لأن يحميك بجسده، والمستعد لان يحملك على كتفيه معرضا نفسه لخطر الموت، والمستعد لان يسقط جنبا الى جنب معك من اجل اقامة ذاك

الصرح الذي لا يمكن اقامته إلا بالقتال ـ هذا الانسان هو الزميل الحقيقي». وقد ولدت عمليات النضال لدى رجال البلماح «وعيا ذاتيا متينا، وثقة بالقادة في هيئة الاركان، وثقة بمستوى التدريبات وبقدرة البلماح» (ي. ساديه). «لقد تم البرهان على انه لولا اللواء لما كان في الامكان تقريبا البدء بالحرب التي يصمد فيها البيشوف الآن، والتي لا بد من الارتقاء بها الى مراحل اكثر تطورا» ـ كتبت «نشرة البلماح» في ابان ايام النضال.

وامتزجت روح الاسترخاء التي تميزت بها حياة البلماح في سنواته الاولى، وخصوصا في السنوات التالية لزوال خطر [معركة] العلمين، بنغمة من الجد. وأنشد احد شعراء اللواء ـ حاييم غوري ـ قصيدته «صلاة»:

امنح الشبان البركة ـ لأن الوقت قد حان.
انظرهم صامتين وجاهزين ـ تتوهج عيونهم.
ها هو المساء يحل، والريح ترتعش في قمم الصنوبر.
الليلة المعركة، وهم قلة قليلة.
امنحهم البركة، يا الهي، لان الوقت قد حان.
أُوقدت النجوم ومن بعيد تتجمع المعسكرات.
من سيشهد ضوء الفجر؟ ومن سقط ومات؟
هل سيكون نصيبهم النصر ام الهزيمة والقبر؟
باركهم، يا الهي، بارك الخارجين الى الحرب.
بارك سلاحهم كي لا يخطىء... بارك بيوتهم.
بارك هذا الشعب، بنيه ومحاربيه.
حتى تنتهي المعركة.
ها هم خرجوا صامتين وضاعت خطواتهم
في الظلمة الدامسة، ولفع الليل الجبال.
باركهم، لأن الوقت قد حان.
امنح البركة للشبان.

1313 وقد رُفضت مناشدات المنشقين وتصريحاتهم فيما يخص «وحدة المقاتلين» بين المنظمات السرية الثلاث، بسهولة في فترة النضال من خلال الاحساس بأن «الهاغاناه» هي المنظمة الشرعية الوحيدة لليشوف، و«لن تكون هناك وحدة نضالية في البيشوف، إلا اذا كان المقاتلون خاضعين لطاعة واحدة ولسلطة الامة، وكانوا جميعا جنود الصف الواحد والوحيد» («البلماح»).

ومع ذلك، كانت هناك معالم ظاهرة سلبية، مألوفة ايضا لدى الوحدات المختارة في جيوش الشعوب الاخرى، معالم تعالٍ على اعضاء المنظمة الذين لم يتدربوا في صفوف اللواء المجند. فقد ولد التميز في التدريبات وعبء المهمات المنطوية على المسؤولية التي كلف بها

البلماح، في نفوس الكثيرين من اعضائه، احساسا بالتعالي تجاه رجال قوة الميدان وقوة الحراسة. وتفاقمت هذه النزعة مع توقف الكفاح المسلح، وتحولت احيانا الى نظرة شك تجاه «الهاغاناه» بمجملها. «هناك شعور في اللواء» ـ تحدثت عيدا غولومب عن انطباعاتها في اثر لقاءات مع رجال البلماح ـ «من نمط (انت اصطفيتنا) ـ ـ وهناك عدم ثقة تامة بقوة الميدان وبالمنظمة ككل».

ولا حاجة الى القول ان هيئة اركان اللواء حاربت هذه النزعات. «ان لواءنا ليس اللواء المجند الوحيد» ـ كتبت نشرة البلماح في ابان ايام النضال ـ «ان حركة «الهاغاناه» تحتضن بين اذرعها وحدات مجندة اخرى، اعضاؤها جاهزون لتلقي الاوامر، لا في اوقات الطوارىء فحسب وانما ايضا بصورة دائمة. وينبغي لنا، بالتالي، ان نشعر في قرارة نفوسنا بأننا اذرع حركة كبيرة فائقة القدرة، نستمد منها القوة ونقف ـ كأعضاء مجتمعين ـ مستعدين لتلقي أوامرها».

اتساع المؤامرة

كان من أهداف «السبت الاسود» في حزيران/يونيو ١٩٤٦، تحطيم قوة البلماح واقتلاعه ـ ان امكن ـ من الجذور بيد ان هذا الهدف لم يتحقق على الاطلاق. وكان الانجاز المرموق الوحيد وقوع مكتب هيئة اركان البلماح بمزراع في قبضة السلطة. «لكن» ـ ذكر يغآل آلون ـ «هنا ايضا كان الضرر المعنوي اكبر من الضرر الفعلي، لانه لا يشرِّف حركة سرية ان يباغَت مركز هيئة اركانها ويقع في قبضة السلطة». ولم تحقق المادة التي وقعت في قبضة رجال التحري في مكتب هيئة الاركان، الفائدة المرجوة لان معظم المادة نقل وأتلف في الوقت الملائم، ولان مفتاح شيفرة ارشيف الاسماء لم يقع في قبضتهم. كما فشلت المكيدة لالقاء القبض على اعضاء البلماح في معسكراتهم بالمستعمرات. اذ انه عند بدء عمليات التفتيش (انظر ص 892) تمكن كثيرون من رجال البلماح الموجودين في المستعمرات المطوقة «من الافلات منها والخروج الى الحقول والجبال» (ي. آلون). ولم يكن هناك بين آلاف المعتقلين اكثر من ٢٠٠ عضو من اعضاء البلماح، استبدل معظمهم اسماءهم بأسماء وهمية، وكانوا مزودين ببطاقات شخصية مزورة. وكان بينهم ايضا عدد من القادة الكبار. وقد ادى رفض رجال المستعمرات الافصاح عن هويتهم، ورفض المحاصرين في المستعمرات المشاركة التعرف عليهم، الى انهيار خطط الشرطة البريطانية. وبعد ان وافقت السلطات على اطلاق سراح الموقوفين الذين لا تتجاوز اعمارهم الـ ١٦ عاما، نجح قسم من شبان البلماح ـ وجلهم من ذوي الكفاءات ـ في الافلات من التوقيف بحجة انهم شبان صغار. وبعد ان اتفقت المؤسسات القومية والسلطات على ان يفصح الموقوفون عن هويتهم، لم يفرج إلا عن عدد قليل فقط، وفي الاساس اولئك الذين ألقي القبض عليهم في المدن بموجب اسمائهم

الحقيقية. وقد اطلق سراح عدد من قادة البلماح وأعضائه النشيطين من معسكرات الاعتقال بأساليب خداع مختلفة (انظر ص 896).

وكان الدرس الاول الذي تعلمه البلماح من «السبت الاسود» وما تلاه، هو اتساع المؤامرة. وفي الحقيقة، منذ الايام الاولى للنضال كتبت نشرة البلماح: «علينا — ان نتقبل حقيقة اننا لن نكون أحرارا كما كنا في السابق. ان الحرب التي تطرق أبوابنا تلزمنا بالحذر، وبمراقبة كلامنا، وباليقظة في تنقلاتنا على الطرق — ان ابناء حركة حرة، فخورة بأعمالها وأقوالها، من الصعب عليهم ان يتحولوا الى رجال حركة سرية مطلقة، لكن الضرورة الآنية هي — لا بد لنا من حمل هذا النير بمحبة». 1314

وكانت في هيئة اركان البلماح دائرة خاصة مهمتها «معالجة كل مسائل التمويه والحذر والامن الداخلي».

لكن لم يكن من السهل على رجال البلماح التكيف مع نظام الحذر الصارم. اذ ان جو الثقة المتبادلة والزمالة السائد في اللواء، كان نقيض نظام الحذر القائم على اساس مبدأ ان «في الامكان الشك في كل شخص»، كما ان الاحساس بالقمع، الذي كان من نصيب رجال البلماح في سنوات الحرب العالمية، ادى الى ردة فعل عنيفة في فترة النضال، وجر معه ظواهر استعراضية. «كانت مظاهر هذه الاستعراضية لباسا خاصا، وأنماط سلوك خاصة برجال البلماح، وخصوصا حين قدومهم الى المدينة» («كتاب البلماح»). وكان ابقاء البلماح في المستعمرات العمالية ايضا ينطوي على مجازفة. ان ولاء الاعضاء في المستعمرات الذين كانت اكثريتهم الساحقة من اعضاء «الهاغاناه»، لم يرق اليه الشك. لكن لم يكن في الامكان الحؤول دون تسرب السر الذي يعرفه مئات الاشخاص الى آذان غير مرغوب فيها، ناهيك بالاشخاص الموقتين والضيوف وعابري السبيل، الذين كانوا يمرون بالمستعمرات من دون ان يعرف رجال المستعمرة دائما من هم ومن اين جاؤوا.

وبعد «السبت الاسود» (٢٩ حزيران/يونيو ١٩٤٦) وسع نطاق عمل الدائرة، وعين ارنون عزرياهو («سيناي») مسؤولا عنها. وكان اول عمل قام به هو شرح ضرورة توخي الحذر وقواعده. وبعد ذلك اهتمت الدائرة بتنظيم تمويه معسكرات البلماح ومنشآت التدريب والدورات ومخازن العتاد والسلاح، وبتأمين المخابىء السرية لنقل السلاح والعتاد وتنظيم البريد، وبمعالجة حالات الفشل والاعتقالات ووقوع السلاح في قبضة السلطة، وما شابه ذلك. وقد تمت جميع هذه النشاطات من خلال الارتباط بجهاز الاستخبارات التابع لـ «الهاغاناه».

وعين ضباط امن في كل كتيبة وكل سرية. وعين في كل فصيلة احد الاعضاء «مراقبا للمحافظة على الحذر» من دون ان يعرف رجال الفصيلة من منهم المكلف أداء هذه المهمة. وكانت مهمة هؤلاء المراقبين تعقب المشبوهين، ونقل المعلومات الى المسؤولين عنهم. وبذلت محاولات لتوزيع خيام البلماح في اماكن متباعدة في المستعمرة لتمويه الطابع العسكري

للمعسكر. وقد تسبب هذا التشتيت، طبعا، بنشوء صعوبات كثيرة في حياة المعسكرات. وصدرت الاوامر الى الرجال بعدم الظهور بزي قد يشير الى انتمائهم الى البلماح. «احيانا» ـ ذكر المسؤولون عن الفصيلة ـ «كانت تمر فترة طويلة قبل ان يكتشف رجال المستعمرة نفسها ان اعضاء «النواة» او المرشدين المخيمين في مستعمرتهم هم من رجال البلماح». كما اوقف اصدار نشرة المعلومات الداخلية، التي كانت تصدر عن هيئة اركان البلماح وتوزع على الاعضاء، «وحل محلها الاعلام الشفهي الذي وصلت مادته الى الاعضاء عن طريق قادة الوحدات».

ونظمت دورات خاصة لضباط امن على مستوى الكتيبة والسرية والفصيلة. وقبل بضعة اشهر من «السبت الاسود» عقدت ندوة قصيرة خصصت لمشكلات العمل السري والحذر والسجن». وطلب من الاعضاء «اقتلاع العادة السيئة [بالظهور] كـ «جيش علني»، المكتسبة من فترة معينة، لكن ينبغي اليوم تغييرها كليا». وحذروا «من اننا اذا لم نعرف كيف نزاول العمل السري الفعلي، الحقيقي والمدروس، فسنكون نحن السبب في اخفاقاتنا الاساسية» («البلماح»). «لقد شكل جميع خريجي الدورات، بمجملهم، مؤسسة شؤون الامن والحذر في البلماح. وقد قدم عمل هذه المؤسسة الى جهاز الاستخبارات مساعدة كبيرة في الحصول على المادة والمعلومات» («كتاب البلماح»). وتولى جهاز خاص إعداد هويات مزورة ساعدت رجال البلماح وقادته في تفادي رجال الشرطة والتحري. وكانت بطاقات الهوية والوثائق [الخاصة بتفاديْ] منع التجول، ودفاتر الجندية، تطبع في المطابع. وفي نهاية الامر انشأت الدائرة مطبعة زنكوغراف خاصة بها لخدمة أغراضها.

1315 وقد جردت اجراءات الحذر هذه السلطات البريطانية من القدرة على تحطيم البلماح، واندمج رجاله المعدودون بالآلاف وسط عشرات الالوف من العمال والمزارعين في جميع ارجاء البلد.

التدريبات

جنبا الى جنب مع الاعمال النضالية، التي استمرت على نطاق اضيق ايضا بعد «السبت الاسود»، وجرى الحديث عنها في المجلدين السابقين، استمر البلماح في استيعاب اعضاء جدد وتدريبهم، وفي الاعداد للصمود في وجه هجوم عربي شامل، كان من المحتمل ان يحدث في اي وقت في تلك الايام المضطربة، مع ان الهدوء والسكينة كانا كما يبدو يسودان الجانب العربي.

وقد وصل البلماح في هذين العامين، الخامس والسادس منذ انشائه، الى وضع مبلور من الناحيتين المهنية والتنظيمية. فمع انتهاء الحرب [العالمية] طرحت مسألة استمرار خدمة المجندين. وادعت اوساط مختلفة (اولياء امور ومؤسسات تعليمية وهيئات عامة) ان عاما واحدا كاف لاعداد رجل البلماح كرجل عسكري. وقد تطابقت هذه المدة مع سنة الخدمة

التي فرضتها المؤسسات القومية على خريجي المدارس الثانوية، الذين استمد منهم البلماح كثيرين من مجنديه. وناضلت هيئة اركان البلماح من اجل حقها في الاحتفاظ بالرجال لمدة عامين. وادعت ان نظام العمل والتدريبات يترك للتدريب ٢٠٠ يوم فقط خلال العامين، و «من خلال خبرة أعوام اتضح لنا ان هذا العدد من ايام التدريب ـ ـ هو الحد الادنى المطلوب لايصال الفرد والوحدة الى مستوى القدرة المعتقد انها كافية في ضوء ظروفنا». في العام الاول ـ ادعت هيئة الاركان ـ يتلقى رجل البلماح كل التدريبات الاساسية اللازمة للجندي النفر، وفي العام الثاني يحين دور التدريب المتقدم واكتساب الخبرات الخاصة. واضافة الى ذلك، فان «اطار الحياة المشتركة في المعسكر، ونمط السلوك والنظام الخاصين به، ودمج العمل في نظام التدريبات بما يشتمل عليه ذلك من قيمة خلقية وتربوية كبيرة، والنشاط الثقافي وتنمية الحياة الاجتماعية في الوحدات ـ كل هذه هي قيم ذات اهمية قصوى لاعداد مقاتلين ذوي اهلية ووعي، وقادرين على أداء ما يناط بهم. ولا يمكن اكساب الرجال هذه القيم اذا لم يتوفر الحد الادنى من الوقت اللازم لبلورة الحياة المشتركة ضمن اطار [محدد]، ولتشكيل صورة المقاتل الذي نريده. ولا شك في اننا لا نستطيع تحقيق ذلك في اقل من عامين» («نشرة البلماح»).

وبعد مجادلات ومناقشات مطولة مع القيادة العليا تقرر ان تكون مدة الخدمة للمجند عامين، ومن ثم يُنقل الى الاحتياط. وأُلزم الضباط وأصحاب المناصب بالخدمة لفترة اطول (من ثلاثة أعوام الى خمسة أعوام). ومن بين الـ ٢٠٠ يوم تدريب المقررة لرجل البلماح (على اساس ثمانية ايام ونصف اليوم تدريب في الشهر) خُصص ١٢٦ يوما للتدريب الاساسي، الذي اشتمل على: تمرينات بدنية ورياضة دفاعية (رياضة تطبيقية، وملاكمة، وجودو، وسباحة، والاشتباك بالايدي، واستخدام المدي)؛ وتدريبات على النظام العسكري؛ وتعلم استعمال الاسلحة الخفيفة (بندقية ومسدس ورشيش ومدفع رشاش وقنبلة يدوية وزجاجة مولوتوف ومدفع هاون خفيف وحربة البندقية). وخصصت ساعات كثيرة للرماية والتدريب الميداني في اطار كل من الحلقة والجماعة والفصيلة والسرية، والتخييم والطوبوغرافيا. وتلقى كل مجند تدريبا اساسيا على التدمير والاسعاف الاولي. وخصص ٢٠ يوما للرحلات.

واضافة الى ذلك، كانت هناك في البلماح اختصاصات للمجندين، شملت اكثرية الاعضاء. واختص كل عضو بمجال معين: فكان هناك اختصاص بممارسة اعمال الاستطلاع، والسلاح المساند، والاتصال، والخدمات الطبية، والنشاط البحري الاساسي، والتدمير. وكان الهدف توفير عدد كبير من رجال الدوريات، وخبراء التدمير، ورجال الاتصال، والممرضين، والبحارة.

وفي صيف سنة ١٩٤٧، وسعت هيئة اركان البلماح اطار دورة قادة الجماعات. وازداد عدد المشاركين فيها فوصل الى ١٣٥ رجلا. واستغرقت ايام الدورة ٧٥ يوما، ووسع برنامجها وعمق «بناء على خبرة البلماح في مدى الاعوام الستة التي مضت على انشائه»

(ي. آلون). واشتملت هذه الدورات، اضافة الى الدورة الاساسية، على تخصص اضافي بالقيام بأعمال الدورية، والسلاح المساند، والاتصال، والتدمير. وكانت هناك ايضا دورات خاصة بقادة جماعات استطلاع وممرضين على مستوى السرية.

وفي اثناء فترة هذه الدورات، خلال تدريب كان يجرى بالقرب من غيفع، وقعت كارثة رهيبة عندما انفجرت في ١٩٤٧/٥/٢ قنبلة يدوية ادت الى وفاة ثلاثة من رجال البلماح: مردخاي اورباخ، ومردخاي كوهين، وشلومو كوفمان. «ان موتهم يفرض» ـ اعلنت هيئة اركان البلماح ـ «حذرا اشد في التدريب، وحرصا اكثر فيما يتعلق باستخدام السلاح، وتأهبا اكبر واستعدادا لاستخدام السلاح كما يجب في الدفاع عن مشروعنا».

وأرسلت هيئة اركان البلماح العديد من خيرة رجال اللواء لدورات قادة الفصائل التي كانت تقيمها «الهاغاناه» في جعارة. وفي الدورة التي اقيمت سنة ١٩٤٧، كان بين خريجيها الـ ٦٠، ٣١ رجلا من رجال البلماح. وأقام البلماح دورة لضباط البحرية (ملاحون)، استمرت اربعة اشهر، وكانت رتبة خريجيها معادلة لرتبة قادة الفصائل.

«المستعربون»

كان من نشاطات الهاغاناه المهمة، استعدادا لمواجهة اي هيجان عربي، اقامة دائرة «المستعربين». ويرجع تأسيس هذه الدائرة الى فترة التعاون مع الجيش البريطاني والنشاطات التي تمت في حينه لمواجهة اية سيطرة نازية على الشرق الاوسط (انظر اعلاه الفصل العشرين). وقد حلت الدائرة بعد انقطاع الارتباط بالبريطانيين، وأعيد تنظيمها بقيادة يروحام كوهين، في نهاية سنة ١٩٤٣، من الاعضاء انفسهم الذين رغبوا في مواصلة العمل والخدمة في اطار البلماح، ومن مجندين جدد. وقد جمع الاعضاء في كيبوتس ايلونيم (ولاحقا في كيبوتس عين هحوريش)، ودُعوا باسم «محليكت هشاحر» [دائرة الفجر]، ودُمجوا في اطار سرية هيئة الاركان، وتدربوا استعدادا للقيام بمهمتهم الخاصة. وكان مدربهم الفني شمعون سوميخ، من مواليد بغداد ومن الملمين جيدا بلغة العرب وعاداتهم. وأُلحقوا بعد ذلك بالكتيبة الرابعة التابعة للبلماح. ووصل عددهم، في ربيع سنة ١٩٤٧، الى ٣٣ شخصا (١٨ في الخدمة الفعلية، و ١٥ في الاحتياط).

وقد اقيمت الدائرة على اساس تطوعي، ومن دون شروط استخدام. وكانت مهمة هؤلاء الاشخاص «الظهور متنكرين كعرب في مناطق مختلفة من البلد لأغراض جمع المعلومات والعمليات» (ش. سوميخ). وتلقى كل واحد منهم تدريبا لمدة عام في القاعدة الوحيدة في كيبوتس عين هحوريش، ثم ارسل لتدريب عملي مدة ثلاثة اشهر في اوساط العرب. «من ندعوه (مستعربا) »ـ روى شمعون سوميخ ـ «ليس معناه مجرد شاب اسمر البشرة، مرسل الشارب ويتكلم العربية، ويشرب القهوة، يلبث لحظة او لحظتين ثم يغادر؛

«المستعرب» معناه الظهور بهيئة عربي من جميع النواحي: شكلا ومظهرا ولغة وسلوكا ومسكنا وعملا ولهوا، مع غطاء ملائم لجهة بطاقة الهوية وتاريخ الحياة والخلفية. وينبغي ان يكون «المستعرب» ممثلا موهوبا يقوم بدوره ٢٤ ساعة يوميا، وهو امر يسبب له توترا نفسيا دائما، وتوتر اعصاب».

وفي فترة التدريب كان «المستعرب» يرسل للتسلل الى وسط التجمعات العربية، والى الصلوات والاجتماعات في المساجد والمهرجانات، مثل التي كانت تجري في النبي روبين، والى المقاهي. وكان عليه ان يختلط بالجمهور، يتحادث معه ويرفع تقريرا الى من اوفده.

لكن «المستعربين» سعوا لمرحلة اكثر تقدما في العمل، هي «الزرع والاستقرار». والمقصود ارسال اشخاص الى مناطق عربية للعيش بين العرب فترة اطول تمتد الى ثلاثة اشهر او اربعة اشهر، وتهيئة انفسهم لاستقرار اطول مدى. والهدف: توجيه اشخاص للعيش بين العرب واستخدامهم عملاء موالين للمنظمة لتزويدها بالمعلومات في ايام السلم، وللمساندة وتنفيذ عمليات تخريبية كبيرة وتجنيد اعضاء جدد للدائرة، في اوقات الطوارىء.

1317

وقد تسلل رجال دائرة «شاحر» الى مراكز العمل الكبيرة، مثل: ميناء حيفا، وشركة البوتاس، ومعسكرات الجيش البريطاني، ومصافي التكرير في حيفا؛ وايضا الى امكنة عمل خاصة، مثل: مرائب اصلاح السيارات، ومحطات البنزين. وحاولوا ايضا ان يفتتحوا لهم في المدن العربية اعمالا صغيرة: ورش سمكرة، ودكاكين لبيع الصحف، او بسطات باعة متجولين. وكُلِّفوا القيام بذلك النوع من النشاطات الذي لا يمكن ليهودي القيام به من دون ان يفتضح امره او يفقد عامل المفاجأة. وقد زودوا جهاز الاستخبارات بمعلومات عن تهريب الاسلحة، والتدريبات، والاستعدادات لالحاق الضرر باليهود. واستكشفوا المناطق التي كان رجال البلماح ينوون القيام بعمليات فيها، حتى انهم شاركوا ايضا في هذه العمليات. وعند الضرورة كانوا يرسلون في جولات استطلاعية في شرق الاردن وسورية.

ومع ان خطة «الزرع والاستقرار» لم تنفذ بصورة كاملة بسبب النقص في الرجال والاموال، فان الاعداد لها والنشاطات التي جرت لتهيئة الاشخاص للقيام بها، افادت منظمة «الهاغاناه» فائدة جمة، بمقدار ما تحول العامل العربي، وليس البريطاني، الى الطرف الرئيسي [المعادي] في معركة نضال اليشوف العبري.

النشاط ضد عودة الالمان النازيين الى ارض ــ اسرائيل

كان احد النشاطات الفرعية التي اسندت الى البلماح، في سنة ١٩٤٦، النشاط ضد اعادة الالمان الى ارض ــ اسرائيل. فقد اتضح ان السلطات البريطانية تتهيأ لالغاء أوامر الاعتقال والطرد الصادرة في حق الالمان من سكان البلد، ولاعادتهم الى بيوتهم وديارهم.

وقد ورد في المذكرة التي رفعتها الوكالة اليهودية الى لجنة التحقيق الانكلو ــ اميركية،

انه «في ضوء الابادة والمذابح التي ارتكبتها ألمانيا النازية في حق يهود اوروبا، وفي ضوء التماثل التام من جانب المستوطنين الالمان في ارض ــ اسرائيل [مع بلدهم الاصلي]، فان الوكالة اليهودية توجهت الى الحكومة البريطانية بطلب لتصفية الاستيطان الالماني في ارض ــ اسرائيل ونقل ممتلكات المستوطنين الى اليهود كتعويض مدينة به ألمانيا، بحسب رأي الوكالة اليهودية، للشعب اليهودي».

ان الطائفة الالمانية في البلد، التي انضمت اكثريتها الكبرى الى النازيين، والتي استُخدمت مستعمراتها قواعد للعصابات والارهابيين العرب في سنوات الاحداث، والتي تجند بنوها في الجيش النازي وشاركوا في ارتكاب الفظائع ضد اليهود ــ هذه الطائفة فقدت حقها في العودة الى ارض ــ اسرائيل. وكانت السلطات البريطانية تعرف موقف الييشوف من هؤلاء الألمان، ومع ذلك فانها كانت تنوي اعادتهم الى البلد لتدخل اليه عنصرا آخر معاديا لليهود وتحول دون مصادرة ممتلكاتهم من اجل توطين لاجئين يهود من متضرري النازية. ولما كان البريطانيون يخشون نشوء ردات فعل عنيفة من جانب الييشوف، فيما لو نفذوا مكيدتهم دفعة واحدة، فانهم بدأوا باعادة الالمان بالتدريج الى وضع ايام السلم، فسمح للمعتقلين بالخروج من معسكراتهم بمرافقة حراس او رجال الشرطة لادارة اعمالهم والعمل في حقولهم، كي يعوِّدوا بهذه الوسيلة الييشوف على العودة الى الحياة الطبيعية في البلد.

وتقرر «انذار السلطات والالمان انفسهم بأننا لن نسمح للألمان بالعيش في بلدنا» («البلماح»). وبناء على ذلك، ارسلت مجموعة من رجال البلماح الاحتياطيين في تل ابيب لنصب كمين لرئيس الطائفة الالمانية في البلد، غوتهيلف فاغنر، الذي كان خارجا لادارة مصنعه الكائن على الحد بين تل ابيب ويافا، بمرافقة حراس بريطانيين. وأُطلق عليه الرصاص وقتل في ١٩٤٦/٣/٢٢ في اثناء مرور سيارته في شارع ليفنسكي بتل ابيب. وأعلن «صوت اسرائيل»، في اليوم التالي، ان «النازي المعروف» فاغنر قد تم إعدامه، ونحذر السلطات بأنه «لن تطأ ارض ــ اسرائيل قدما نازي». وبعد ان اتضح انالسلطات مستمرة في اسلوبها، هاجم رجال البلماح في ١٩٤٦/١١/١٧ جماعة من الالمان كانوا عائدين من عملهم في حيفا الى معسكر الاعتقال في فالدهايم بمرافقة حراس عرب. وأطلق الرصاص على الرجلين الاثنين في الجماعة فقتلا، «ولم تصب النساء الالمانيات والحراس الذين كانوا موجودين قربهما بأي أذى» («البلماح»). وأدركت السلطات والالمان انفسهم ان لا امل بأن يسلم الييشوف العبري بعودة انصار هتلر الى ارض ــ اسرائيل، وحسم مصير الاستيطان الالماني في البلد، بعد ما يناهر الثمانين عاما من قيامه، لخير كان ذلك ام لشر.

1318

البلماح في النقب

ثمة مرحلة مهمة في تاريخ «الهاغاناه» عامة وتاريخ البلماح خاصة هي اناطة المسؤولية عن امن النقب بلواء البلماح. لقد كان قضاء النقب حتى سنة ١٩٤٧ جزءا من اللواء الجنوبي، ونشأت فيه ــ مع الاستيطان الواسع في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٦ ــ مشكلات امنية خطرة، ارتبطت بصورة خاصة بمد انبوب المياه في النقب (انظر ص 968). ولم تستطع النقاط [الاستيطانية] الجديدة النهوض وحدها بعبء الامن. فقد كانت صغيرة وبعيدا بعضها عن بعض، وعدد أعضائها قليلا، وطرق المواصلات المفضية اليها غير سالكة وطويلة، وتمر في مناطق تعيش فيها قبائل بدوية، من السهل تحريضها وسريعة الحركة لاقتناص كل فرصة للسلب والحصول على المغانم. وكان انبوب المياه، الحيوي لبقاء المستعمرات، يمتد عشرات الكيلومترات في النقب القاحل تحت رحمة البدو. وبعد الاستيطان مباشرة، ارسلت الى القضاء فصيلة من البلماح. ونشأت في القضاء سلطتان للدفاع: قائد قضاء النقب الخاضع لقيادة المنطقة الجنوبية، وقائد فصيلة البلماح. وبعد مرور عدة أشهر اتضح، من ناحية، ان الظروف الخاصة ووضع الامن في النقب يحتمان وجود قوات مجندة لفترة طويلة، حتى ان هناك ضرورة لزيادة عددها. ولم تستطع قيادة اللواء [لواء الجنوب]، التي لم يكن في تصرفها قوات مجندة، توفير هذه المساعدة. «ان الوضع في النقب غير مرض حتى بعد قراري التعزيزات والتحصينات»، كتب دافيد بن ــ غوريون في يومياته في آب/اغسطس ١٩٤٧، «وهناك ضرورة لادخال سرية من اللواء» [لواء النقب].

وفي آب/اغسطس ١٩٤٧، قررت هيئة الاركان العامة انه ابتداء من اول تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧ سيفصل قضاء النقب عن لواء الجنوب، ويصبح «منطقة قيادية مستقلة». وأُلقيت مسؤولية الامن في المنطقة على عاتق هيئة اركان البلماح. وعين قائد السرية، موشيه بيريخمان، قائدا للمستعمرات، على ان يكون خاضعا لقيادة الكتيبة الثانية التابعة للواء البلماح، الذي أوكلت اليه مسؤولية النقب بأكمله: «وضعت في تصرفه قوات مجندة، وخصوصا من أوائل الاحتياطيين الذين دُعوا الى فترة خدمة موقتة». ونمت هذه القوات بسرعة من جماعات الى فصائل. ووضع الاساس للسرية الثانية عشرة التابعة للبلماح، وهي السرية الثانية عشرة التابعة للكتيبة الثانية. وقد امكن تغطية نفقات السرية في النقب، التي لم يكن في الامكان تغطيتها على اساس العمل في المزارع، عن طريق مخصصات مالية خاصة من جانب المستدروت.

وقد سبق نقل مسؤولية الامن في النقب الى البلماح، من الناحية العملية، انشاء «قيادة النقب». وقد اقام رجال البلماح الذين خرجوا لحماية انبوب المياه في النقب، مرتدين زي الحراس، صلات وثيقة بالمستعمرات التي كان كثيرون من اعضائها من خريجي البلماح: «من رجال الكفاءات المجندة ومن رجال البلماح ايضا في الفترة التي كانوا يمارسون فيها الاعمال والنشاطات الدفاعية» («لواء النقب في المعركة»). «مع قدوم البلماح الى النقب» ــ روى يغآل

آلون ــ «ازدادت وتيرة التدريبات في المستعمرات، وتم وضع الاساس لاسلوب جديد فيما يتعلق بنظام التحصينات، ودمجت مشكلات الدفاع عن المستعمرات في خطة الامن العامة المتعلقة بالنقب». ومن اجل ضمان الدفاع عن المستعمرات، بدأ البلماح يعمل على تدريب المستوطنين وغرس مفاهيم عسكرية متعلقة بنظام الدفاع عن مستعمراتهم. وبدىء بوضع 1319 مخطط فعال للتحصينات، وبتدريب الرجال وفقا لمخططات الدفاع في العمق وعلى خطوط النار.

وشكلت في كل مستعمرة وحدة «بالم» ــ «بترول لوحيم» [دورية مقاتلة] ــ كانت قادرة على مواجهة المهاجمين حتى من خارج المستعمرة وضربهم، وخصوصا في الليل.

«كانت الامكانات الموضوعة في تصرفنا» ــ كتب احد رجال اللواء ــ «محدودة. طالبنا بتحصينات اكثر نجاعة، كما طالبنا ببيوت امنية تحت الارض، وليست مكشوفة وظاهرة فوق سطح الارض. ــ ــ اجرينا تدريبات متواصلة في المعسكرات، وطالبنا بتخصيص عدد معين من المتدربين في كل مستعمرة. وحدث اكثر من مرة ان نشب خلاف مع هذه المستعمرة او تلك، لاننا لم نتفهم اي تعليل اجتماعي او اقتصادي، ولم نتنازل عن مقدار التدريبات المطلوب. واضافة الى التدريبات العادية، اجرينا دورات فنية متتالية. وعندما نشبت الاحداث كانت مستعمرات النقب، في هذه المنطقة، في مستوى مرض. وكان هناك في كل مستعمرة ممرضون، وعاملون على أجهزة الارسال اللاسلكية، وخبراء تدمير، وقادة مواقع. وكان هناك قادة مناطق قام كل واحد منهم بمهمته على أكمل وجه في الفترة التي واجهت فيها المستعمرات والمزارع الاختبار العسكري» («الكتيبة الثانية في النقب»).

1320 وهكذا اصبحت منطقة النقب اول منطقة في البلد أُلقيت فيها مسؤولية الامن على عاتق قوة عسكرية مجندة. وبذلك سبقت بعدة اشهر التطور الذي طرأ على مجمل منظمة «الهاغاناه» عند نشوب حرب الاستقلال.

قوة البلماح عشية حرب الاستقلال

في فترة النضال والفترة اللاحقة له، ازدادت قوة اللواء واكتسب مكانة مركزية في المنظمة.

وقبل نحو شهر من بداية عمليات العداء العربية في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧، كانت كتائب البلماح الاربع تضم ١٢ سرية مجندة. وكانت هذه القوات موزعة على ٤١ نقطة استيطانية كيبوتسية (جماعية)، بما في ذلك السرية الثانية عشرة المعسكرة في النقب، والتي كان رجالها موزعين على المستعمرات الجديدة التي اقيمت في هذه المنطقة. وكانت ملحقة بكل كتيبة سرية من رجال الاحتياط.

وكان في البلماح ٢١٠٠ شخص في الخدمة الفعلية، ونحو ١٠٠٠ شخص في

الاحتياط. وكان ثلث اعضائه من النساء. وكانت كمية الاسلحة والذخيرة في ١٩٤٧/١١/١ على النحو التالي:

بنادق	٧٠٠	مدافع هاون ٣ بوصات	١٠
مدافع رشاشة	٥٢	مدافع هاون ٢ بوصة	٣٠
ستنات	٤٥٠	رصاص للبنادق	٢٠٠,٠٠٠
مسدسات	٨٠	قنابل يدوية	١٠,٠٠٠

وهذه الارقام تشهد على نفسها بنفسها: بندقية واحدة لكل ثلاثة اشخاص في الخدمة الفعلية! مدفع هاون واحد عيار ٣ بوصات للسرية بأكملها؛ نحو ١٠٠ رصاصة و ٥ قنابل يدوية لكل شخص. وكان وضع وسائط النقل سيئا جدا. اذ كان في حيازة اللواء ١٧ سيارة و ٨ دراجات نارية. «كان جزء من وسائط النقل» ــ ذكر تقرير يرجع عهده الى تلك الفترة ــ «يتطلب استبدالا فوريا بسبب وضعه السيىء».

وكانت ميزانية اللواء لسنة ١٩٤٧ (باستثناء نفقات التسليح) ١٥٥,٠٠٠ جنيه فلسطيني. وكان جهازه الدائم يشتمل على ٢٣٥ شخصا، معظمهم بأجر كامل، وقلة منهم بأجر جزئي.

وكانت الكتيبة الاولى، بقيادة دان لنر من غعتون، معسكرة في السهول ــ من سهل عكا حتى سهل بيت شان؛ والكتيبة الثانية، بقيادة يتسحاق رابين، معسكرة في الشفيلا والشارون، وتعسكر سرية واحدة تابعة لها في المستعمرات بمنطقة القدس (نقلت جماعتان من الكتيبة الى النقب)؛ والكتيبة الثالثة، بقيادة شالوم حفلين من أييليت هشاحر، معسكرة في سهل الاردن وسهل الحولة، وكانت الكتيبة تضم جماعة من المهاجرين الجدد معظمهم انصار (partisans) سابقون في روسيا وبولندا. «تعهدنا بتعليمهم اللغة العبرية» ــ روى رجل الكتيبة يهودا ايلان ــ «ــ ــ عرفنا ان كل كلمة عبرية يكتسبها المقاتل ــ ــ توفر دما». وكان قسم من الكتيبة الرابعة ــ كتيبة هيئة الاركان بقيادة اوري يفيه ــ متمركزا في عدة مستعمرات بمنطقة الشارون الشمالي والكرمل. وقد ضم هذا القسم السرية ز، بقيادة يوحنان زريز، التي كان الجزء الرئيسي منها مشكلا من ثلاث جماعات استطلاع، ومعها دائرة «المستعربين» التي ورد ذكرها اعلاه، وجماعة الطيارين (١٣ شخصا) الذين كانوا معسكرين في ناعان، والسرية البحرية بقيادة يوسف برين ونائبه ــ رجل البحر ــ شموئيل بوزننسكي («سميك»). وقد عسكر البحارة في قيسارية وفي مستعمرة غوردونيا ــ معبيلين. وكان عدد البحارة اكثر من ٢٠٠ شخص، بينهم ٢٠ ملاحا أنهوا دورة ملاحة مدتها اربعة اشهر في التخنيون بحيفا، و ٤٠ قائد زورق، ونحو ٢٠ عامل لاسلكي.

بهذه القوات دخل البلماح، كقوة طلائعية لمنظمة «الهاغاناه»، الصراع الكبير على مصير البلد الذي تفجر في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ مع بداية حرب الاستقلال.

الفصل السادس والستون

"الهاغاناه" عشية حرب الاستقلال

في مواجهة أخطار جديدة

ان التطور السياسي الذي حدث بعد ان نقلت بريطانيا، في ربيع سنة ١٩٤٧، مشكلة ارض ــ اسرائيل الى الامم المتحدة، وضع المنظمة امام ضرورة التأهب للصمود «في مواجهة العالم العربي، وفي مواجهة الدول المجاورة التي تمتلك جيشا نظاميا» (د. بن ــ غوريون).

وكانت هذه مهمة اكثر جدية وأهمية من جميع المهمات التي اضطرت المنظمة الى اخذها على عاتقها حتى ذلك الحين. فهي عندما كانت تمارس مهمتها الرئيسية، كحامية لليشوف في وجه هجمات الجماهير او العصابات العربية، انما كانت تمارس مسؤولية جزئية فقط عن امن البلد، اذ ان هذه المسؤولية كانت في نهاية المطاف ملقاة على عاتق حكومة فلسطين. وقد كانت المنظمة تستعين دائما بوحداتها العاملة ضمن اطار جهاز الامن الحكومي، حتى انها احيانا كانت تدمج قسما من هذه الوحدات في الجهاز نفسه مع المحافظة على استقلاليتها. لكن، في ظل ظروف العمل السري التي كانت المنظمة تنشط من خلاله، كان من المستحيل عليها ان تأخذ على عاتقها الانفراد بالمسؤولية الكاملة عن الامن في البلد وعلى حدوده.

وفي اثر نشر «الكتاب الابيض» سنة ١٩٣٩، أوكلت الى المنظمة ــ من قبل ادارة الحركة الصهيونية ــ مهمة ثانية: النضال ضد البريطانيين. وحتى هذا النضال كان محدودا، ولم يكن هدفه الدخول في مواجهة عسكرية مع قوات الامن التابعة للامبراطورية البريطانية، وانما إبداء عدم خضوع الييشوف لسياسة «الكتاب الابيض»، والبرهنة على انه سيكون من المستحيل فرضها الى الابد، وأيضا المساعدة على استمرار تنامي القوة البناءة: الهجرة اللاشرعية والاستيطان، على الرغم من قيود «الكتاب الابيض»، وارغام بريطانيا بواسطة الكفاح المسلح على تغيير سياستها المعادية للصهيونية.

ولم يعد الامر الآن على هذا النحو، بعد ان لاح في الافق القريب احتمال وضرورة الصمود في وجه القوات النظامية وغير النظامية للدول العربية، من دون ان تقف الى جانب اليشوف اية قوة عسكرية لدولة عظمى صديقة. ووضعت المنظمة امام الاختبار الاصعب في تاريخها. «في الجبهة العربية»، شرح د. بن ــ غوريون، «المنظمة هي العامل الحاسم لأن

هذه جبهة قوة، ولا تستطيع المنظمة ان تكون احد العناصر فقط ـ ـ قوة إما تستطيع ان تحسم وإما لا تستطيع ان تحسم».

وكان من المستحيل ان يُعرف تماما متى سيكون على «الهاغاناه» ان تتصدى لجيوش عربية نظامية. اذ كان الامر رهنا بمخططات ونوايا كل من بريطانيا والدول العربية. لكن كان على المنظمة ان تعد نفسها لهذا الاحتمال، وكانت يقظة ازاءه، وعملت لسد الثغرة بين القوة المطلوبة والواقع. وقد توصلت المنظمة الى انجازات مهمة على صعيد الاستعداد لمواجهة قوات مهاجمة محلية، إلا انها لم تكن مهيأة للتصدي لجيوش نظامية. اذ لم يكن لديها مدافع ودبابات وطائرات، ولم يكن في صفوفها قادة تولوا في الماضي قيادة ألوية وكتائب الى المعركة. لقد كان اليشوف بحاجة الى زيادة قوته العسكرية بصورة كبيرة، ومن اجل ذلك كانت هناك ضرورة قبل كل شيء لجعل مؤسساته تعي ضرورة الامر، لتصبح مستعدة لتقديم الاموال والقوة البشرية اللازمة لتحقيق هذا الهدف قبل ان تصبح حكومة لدولة ذات سيادة. 1322

وبينما كان اليشوف والحركة الصهيونية منغمسين في مشكلات الصراع المرير مع البريطانيين، رأى القادة ظل الخطر الزاحف. ففي جلسة مغلقة عقدتها اللجنة السياسية للمؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين في ١٩٤٦/١٢/١٨، قال دافيد بن ـ غوريون: «ان المشكلة الرئيسية هي مشكلة الامن. ـ ـ والى فترة قريبة ماضية كانت المسألة هي فقط كيف نحمي انفسنا من عرب ارض ـ اسرائيل الذين لم تكن لديهم، مثلنا، اجهزة رسمية، وكانوا من فترة الى اخرى يهاجمون تجمعات سكانية يهودية او اليشوف اليهودي. لكننا نقف الآن في مواجهة وضع مختلف تماما. ان ارض ـ اسرائيل محاطة بدول عربية مستقلة ـ ـ دول يحق لها ان تشتري السلاح وتصنعه، وأن تنشىء الجيوش وتدربها. ـ ـ ان هجمات عرب ارض ـ اسرائيل لا تشكل خطرا على اليشوف اليهودي، لكن هناك خطر يتمثل في ان ترسل الدول العربية المجاورة جيوشها لمهاجمة اليشوف وابادته. ـ ـ وبعد كل ما حدث في السنوات الست الاخيرة، لا يجوز لنا ان نتجاهل هذا الخطر».

«ان من واجب اليشوف والحركة الصهيونية والشعب اليهودي، ان ينظروا الى مشكلة الامن بكل أبعادها وخطورتها وإلحاحها، وأن يستشفوا الخطر المتوقع على اليشوف في البلد، ربما ليس اليوم وغدا ـ الدول العربية لا تزال غير مستعدة بعد لذلك ـ ولكننا نقف امام تقلبات وتحولات، ولا يجوز لنا الانتظار حتى يصبح الخطر جاثما. علينا ان نبدأ بالاعداد فورا، بأقصى ما لدينا من قدرة تقنية ومالية. وهذه هي، في رأيي، المهمة الرئيسية للصهيونية في هذا الوقت. ـ ـ ان مشكلة الامن تحتل مكان الصدارة، لأن وجودنا بالذات عرضة هنا للخطر. والمطلوب الآن هو موقف جديد من المشكلة، وامكانات اكبر، واعادة تنظيم قواتنا لتأهب من نوع جديد تماما».

وبعد فترة قصيرة من عقد المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين، قررت ادارة الوكالة اليهودية تسليم رئيسها، دافيد بن ـ غوريون، دائرة الامن.

لقد أُنشئت دائرة الامن التابعة للوكالة اليهودية في سنوات الاحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، وكانت مهمتها في البداية: تولي شؤون الدفاع الشرعي، وأعمال الحفارة (هنوطروت). وكانت الدائرة خاضعة لمدير الدائرة السياسية، موشيه شرتوك، وقد ترأسها يهوشواع غوردين. وكان لها وضع منفصل عن «الهاغاناه»، وان كانت هناك علاقات وثيقة سائدة بينها وبين المنظمة. وفي وقت لاحق، تسلم رئاسة الدائرة رئيس القيادة القطرية لـ «الهاغاناه»، موشيه كلاينبويم (سنيه) الذي كان ايضا عضوا في ادارة الوكالة. وازدادت عرى الارتباط بين «الهاغاناه» والوكالة، وتحولت «الهاغاناه» الى الذراع العسكرية للسياسة الصهيونية في فترة النضال. وتولى الآن المهمة رئيس ادارة الوكالة، دافيد بن ــ غوريون، الذي قيض له ان يتولى لسنوات كثيرة قادمة المهمة الحافلة بالمسؤولية المتمثلة في ادارة السياسة الامنية للييشوف والدولة. وقد ساعد اضطلاع بن ــ غوريون بهذه المسؤولية، في ظروف عشية حرب الاستقلال، على تعاظم قوة «الهاغاناه» بوصفها القوة المركزية التي يقع على عاتقها تحمل عبء الحرب.

وبعد فترة قصيرة من تسلم بن ــ غوريون منصبه كمسؤول عن دائرة الامن التابعة للوكالة اليهودية، حدثت تغييرات في القيادة العليا لـ «الهاغاناه».

فقد طُلب من يعقوب دوستروفسكي (دوري)، الذي رجع في حزيران/يونيو ١٩٤٧ من مهمته في الولايات المتحدة، العودة لتولي منصب رئيس هيئة الاركان العامة في المنظمة. وعين يسرائيل غاليلي، في ١٩٤٧/٦/١٦، رئيسا للقيادة القطرية. ومع ان غاليلي كان عضوا في حزب يمثل اقلية في «الهستدروت» والييشوف («احدوت هعفوداه ــ بوعالي تسيون»)، فان تعيينه حاز على ثقة جميع الجهات العامة المشاركة في «الهاغاناه». وقد وجدت «الهاغاناه» في شخص يعقوب دوري مرة اخرى رجل النظام والمنهج والتنظيم، وفي شخص يسرائيل غاليلي القائد المتحلي بالقدرة على الاقناع والشرح، وعند الضرورة: التوفيق ايضا بين المواقف المتعارضة. وكان هذان الشخصان هما اللذان كُلِّفا مساعدة بن ــ غوريون في مهمته الصعبة والتاريخية. 1323

الانــذار

كانت احدى المهمات الفائقة الاهمية التي أُلقيت على عاتق قيادة «الهاغاناه» سنة ١٩٤٧، توعية الييشوف على الخطر المرتقب من جانب العرب. ان ايام النضال، والهدوء النسبي الظاهري على الجبهة العربية، وفقدان الخبرة الكافية، وزيادة على ذلك فقدان الاحساس الشامل بما يجري في الجانب العربي ــ كل هذا ضلل الييشوف وصرف اهتمامه عن حقيقة الوضع. وساهمت دعاية المنشقين، التي استخفت بالجانب العربي، بدورها، في تضليل الرأي العام. «عندما عدنا، بن ــ غوريون وأنا، بعد المؤتمر الى البلد وبدأنا نتحدث عن الخطر المتربص بنا من جانب العرب» ــ روى يسرائيل غاليلي بعد فترة ــ «وطالبنا ببذل

نشاط فعال على هذا الصعيد، كانت هناك في الحركة الصهيونية اوساط اعتقدت اننا نهدف من قولنا هذا الى ان تُصرف الانظار عن الصراع ضد البريطانيين. ولم تر ان الوضع يشكل خطرا مباشرا إلا بعد القرار في ليك سكسيس».

وكانت هناك في البيشوف، من جهة اخرى، اوساط شككت في قدرة البيشوف ذاتها على الصمود في «حرب عصابات طويلة الامد ضد العرب من دون ان ندمر مركزنا في البلد». و«لا يوجد ادنى شك في اننا لن نستطيع الصمود في حال اشتراك جيوش الدول العربية في النزاع» (فيليكس روزنبليت وبنحاس روزن). وكان من الضروري تعزيز ثقة هذه الاوساط بقوة البيشوف، وبقوة «الهاغاناه».

أما بن ـ غوريون نفسه، فمع انه كان يعي مشكلات الامن الخاصة بالبيشوف، ومرتبطا بمنظمة «الهاغاناه» لعشرات من السنين، فانه لم يشغل نفسه حتى ذلك الوقت، بصورة مباشرة، بقضايا الامن. وكان اول عمل قام به ـ بعد تعيينه في منصبه الجديد ـ هو التعرف على المشكلة ودراستها. «شعرت بأنني لا أملك السلطة الادبية لتولي هذا الامر ما دمت اجهل حقيقة الوضع»، قال بن ـ غوريون بعد فترة، «وتطلبت دراسة الوضع وقتا غير قصير، وطلبت من الاعضاء عدم دفعي او استعجالي الى ان انتهي من دراسة الامور». «قابلت قادة المناطق في الشمال وفي الوسط وفي الجنوب، وقادة حيفا وتل ابيب والقدس، وأيضا قادة الاقضية، وأعضاء القيادة القطرية، وأعضاء هيئة الاركان، ومديري الصناعة العسكرية، ورئيس الاركان العامة ونوابه، وقادة كل من البلماح وقوة الميدان وقوة الحراسة والغادناع، وممثلي اليمين واليسار، والمسؤولين عن المشاريع المختلفة».

وقد طرح قادة «الهاغاناه» امام رئيس ادارة الوكالة اليهودية الامكانات الكبيرة المتوفرة لـ «الهاغاناه» من ناحية التخطيط والتدريب، على الرغم من القيود التي تفرضها ظروف العمل السري، وذلك فيما لو منحوا امكانات مالية وصلاحيات، وفي الاساس: فيما لو اعتبرت مهمة الامن الجهد القومي الاساسي. وأطلعوه على [حال] الأجنّة التي تكونت في حقول النشاط المختلفة والمتنوعة، والتي يمكن تطويرها بسرعة عندما يحين أوان الخروج الى الحرب في كنف شروط وظروف نشاط حر وعلني. وشددوا على ضرورة تحسين التدريبات، واقتناء عتاد اضافي، واجراء تغييرات تنظيمية.

وألف بن ـ غوريون لجنة لدراسة مشكلات الامن كما تطورت في تلك السنوات، وتوصل بسرعة الى استنتاج سيىء: «وجدت» ـ ذكر بعد فترة ـ «اننا غير مستعدين الى حد لم اتخيل قط انه يمكن ان يكون على هذا النحو». «لقد كانت الثروة الاهم والاساسية التي وجدتها (لم اكتشفها، لأنني كنت عارفا بوجودها منذ سنين طويلة)»، روى بن ـ غوريون في مذكراته، «هي الانسان. لقد عرفت ان الانسان عندنا لا يقل قدرة وكفاءة ـ بما في ذلك كفاءته القتالية ـ عن اي انسان آخر، لا في الدول المجاورة فحسب وانما ايضا في الدول التي بلغت اقصى درجات التنظيم والتطور».

«لقد كان السؤال الاساسي الذي واجهته هو»، قال بن ــ غوريون، «لو ان انكلترا غادرت البلد غدا ــ وهو امر، بالمناسبة، لم يكن مستبعدا ــ واضطررنا الى مواجهة العرب، فهل نستطيع الصمود؟». وقد اجاب معظم الذين وجه اليهم السؤال بالايجاب، لكن، كتب بـن ــ غوريون، «لم تقنعني هذه الاجوبة المتفائلة، وأعتقد اننا لو واجهنا وضعا كهذا لما كان في استطاعتهم [العرب] ابادتنا فعلا. لكن كنا سنتكبد خسائر فادحة. والسؤال ليس فقط من سينتصر في هذه الحرب وفي هذه الاشتباكات، وانما ايضا ما هو الثمن الذي سندفعه. اننا قلة، وكل شاب مهم بالنسبة الينا. واذا ما سقط ــ لا سمح الله ــ آلاف فهذا امر ليس قليل الشأن. انه سيغير الوضع عندنا ــ» وتوصلت الى الاستنتاج انه، بكل بساطة، يجب ان ننشىء جيشا». «يجب ان يتشكل الاساس من البلماح، ومن أولئك الذين كانوا في الفرقة اليهودية، وما نطلق عليه الآن اسم قوة الميدان».

وبما ان ظروف العمل السري والنقص في الاموال لم يكونا يسمحان بانشاء جيش كبير، اقترح بن ــ غوريون «إعداد عدد كاف من القادة [لقيادة] ١٥,٠٠٠ ــ ٢٠,٠٠٠ عسكري»، وانشاء كلية للضباط من ذوي الرتب العليا، ولقادة السرايا والكتائب، من خلال افتراض وجود «مهن لا نستطيع تعلمها هنا»، وستكون هناك ضرورة لارسال قادة لاستكمال تحصيلهم في كليات عسكرية خارج البلد.

تعليمات بن ــ غوريون الى قيادة «الهاغاناه»

في ١٩٤٧/٦/١٨ انجز بن ــ غوريون دراسته لوضع «الهاغاناه»، وأخطر قيادتها باستنتاجاته وتعليماته التي قرأها رئيس القيادة القطرية الجديد، يسرائيل غاليلي، في اجتماع لكبار الضباط. وقد شدد بن ــ غوريون على ان الييشوف يقف امام جبهتين معاديتين: البريطانية والعربية. «لكن يجب التمييز بين هاتين الجبهتين، وهذا التمييز حيوي. فالمعركة الدائرة بين الصهيونية وسياسة «الكتاب الابيض» هي في أساسها سياسية لا عسكرية، والنشاطات العسكرية الضرورية من حين الى آخر، في هذا الصراع السياسي، لا هدف لها إلا تعزيز المعركة السياسية. والمنظمة في هذه المعركة هي جهة واحدة فقط داخل الشعب اليهودي، ولا يمكن حسم هذه المعركة إلا بتضافر جهود الييشوف والشعب في ميادين الابداع والانجاز الاستيطاني، والهجرة اللاشرعية، والنضال، والمعركة السياسية في الساحة الدولية. ويختلف الامر في الجبهة العدوانية العربية. فالمنظمة هنا هي العامل الرئيسي والحاسم، وازاء هجوم مسلح من جانب العرب لا مفر من حسم عن طريق القوة؛ حسم عسكري يهودي. وما لم تُعدّ المنظمة لتصبح قادرة على أداء هذه المهمة، فانها تكون قد ابتعدت عن هدفها الاساسي، ويصبح صميم وجود الييشوف والمشروع الصهيوني عرضة لخطر الدمار».

وعرض بن ــ غوريون القوة العسكرية للدول العربية، وجزم بأن المهمة الاولى

للمنظمة هي إعداد نفسها للصمود في هذه الجبهة العربية، ومن اجل ذلك «يجب إحداث تحسين كبير في تدريباتها، ونظامها، وتخطيطها، وتثقيفها الصهيوني والعسكري، وقدرتها على العمل، وقدرتها الضاربة. ـــ يجب ملاءمة بنيتها مع الظروف الجديدة، ومع الحاجات المتفاقمة في خطورتها، من خلال الافادة الكاملة من الخبرة العسكريةالتي اكتسبناها واكتسبها آخرون من الحرب العالمية الاخيرة، ومن خلال استغلال منجزات العلم والتكنولوجيا الحديثة لأغراض الدفاع عن انفسنا».

«سيكون الاهتمام الرئيسي في الفترة القريبة القادمة منصبا على إعداد كوادر قادة (بدءا بقائد جماعة وانتهاء بقائد كتيبة) بأعداد كافية لتجنيد اقصى ما يمكن تجنيده من رجال البيشوف المؤهلين للدفاع، وعلى انشاء عدد من الكتائب النموذجية ـ كتائب بلماح وكتائب سيتم تجنيدها من بين جنود الفرقة اليهودية والوحدات العسكرية الاخرى في الحرب العالمية الاخيرة».

واقترح بن ـ غوريون انشاء كلية عليا للضباط لتأهيل قادة كتائب وضباط اركان. وطالب «بتجنيد كل الضباط والرقباء اليهود من ذوي الخبرة العسكرية المكتسبة في الحرب العالمية الاخيرة، في الخدمة لمدة عامين على الاقل في قوات المنظمة، وخصوصا في سلاح الطيران والقوات الضاربة». 1325

اللجنة الامنية

لقد قيلت هذه الاقوال في الفترة التي كان فيها الصراع مع البريطانيين في ذروته. أما الهدوء النسبي الذي ساد البلد طوال السنوات الثماني التي مضت منذ الاحداث، والموقف السلبي الذي اتخذه العرب خلال الصراع، فقد ضللا الكثيرين وجعلاهم يغفلون الجانب العربي: «ان الخطر الشديد المتوقع لنا في المستقبل غير البعيد»، كتب بن ـ غوريون في مذكراته، «لم يكن قد نفذ بعد في اشهر صيف سنة ١٩٤٧ الى المدارك ـــ وعلى اية حال لم يثر قلقا وتخوفا زائدين».

وكان جو اللامبالاة هذا شائعا في اوسع الاوساط. روى أمنون زعير، الذي عين قائدا للمنطقة الوسطى في حزيران/يونيو ١٩٤٧: «كان علي ان اهيىء القلوب والنفوس لمواجهة التطورات القادمة، وأن اثقف المنظمة في جميع نقاط الاستيطان، وأدخل في وعي الرجال اننا نقف امام حرب لا امام أحداث. ولم اتمكن من تحقيق ذلك بسهولة، لأن الرجال لم يستطيعوا ان يتصوروا على الاطلاق ان هناك احتمالا بحدوث صدام يتجاوز نطاق الاحداث العادية».

ولم يكن ثمة طريق آخر لايقاظ الرجال من لامبالاتهم وغفوتهم إلا طريق الشرح المنهجي والمتواصل. وهذا كان يجب ان يتم بحذر لتجنب اثارة الذعر والوهن ولفت نظر العدو الى ما كان يجري داخل المعسكر.

وقرر بن ــ غوريون، كخطوة اولى، احياء اللجنة الامنية التي كانت قد توقفت عمليا عن النشاط منذ بدء الصراع. وليتجنب بن ــ غوريون المفاوضات بين الاحزاب والاوساط المختلفة، التي كان من المحتمل ان تستغرق أشهرا طويلة وثمينة، قرر تحويل اللجنة X، التي توقفت عن النشاط بعد توقف النضال النشيط سنة ١٩٤٧، الى لجنة أمنية، وأن تكون «هيئة مدنية عليا تستطيع ان تجتمع مرة كل شهر للاستماع الى تقرير، ومناقشة الامور بصورة عامة» وتحددت مهمة اللجنة الامنية، التي عرفت من قبل المشاركين فيها «كقناة اتصال بين الجمهور والامن» (د. ريمز)، و «كهيئة غير تنفيذية وانما توجه وتراقب شؤون الامن في البلد» (م. ح. شابيرا)، وذلك بعد مناقشات طويلة ومضنية في دستورها الذي تم صوغه قبل اسابيع من نشوب حرب الاستقلال. وقد ذكر في الدستور ان اللجنة الامنية تتشكل من المؤسسات العليا ــ ادارة الوكالة اليهودية والمجلس القومي ــ واليها «تنتقل الصلاحيات والمسؤوليات المشتركة بينهما» فيما يتعلق «بكل النشاطات المرتبطة بشؤون الامن ووضع مبادئه العامة في اطار السياسة الصهيونية لادارة الوكالة: تجنيد الطاقة البشرية في البلد،وتسليحها، وتدريبها، وسبل نشاطاتها في السلم والحرب، وتعيين نظام امني في البلد ــ نظام انضباط وتطوع واستعداد ــ وأيضا الاشراف المستمر على قوات الامن».

وتقرر ان «من الممكن ان يُضم الى اللجنة الامنية ايضا ممثلون لهيئات استيطانية، لم تشارك بعد في المنظمة الصهيونية او المجلس القومي، شرط ان تتعهد هذه الهيئات بالالتزام بالانضباط المترتب عن عمل اللجنة الامنية». «ان رئيس اللجنة الامنية هو رئيس دائرة الامن التابعة لادارة الوكالة اليهودية»، و «لادارة الوكالة حق استخدام الفيتو ضد قرارات اللجنة». وقد ناقشت اللجنة الامور التالية واتخذت القرارات في شأنها:

أ ــ «الخطوط الاساسية للأمن في مجالات السياسة الصهيونية، المقررة من قبل ادارة الوكالة»؛

ب ــ البنية الاقتصادية للمنظمة، وأنواع التشكيلات المسلحة وحجمها وتجنيدها بين فترة وأخرى؛

1326

ج ــ الوسائل المالية والاقتصادية والفنية المطلوبة لأغراض الامن؛

د ــ الميزانية السنوية للمنظمة؛

هـ ــ برامج التجهيز العسكري والتسليح بمجملها؛

و ــ مجالات العضوية في المنظمة؛

ز ــ الرقابة المالية والاقتصادية على عمل المنظمة؛

ح ــ التقرير بشأن نظام الاجور في المنظمة؛

ط ــ تعيين اعضاء القيادة القطرية؛

ي ــ المتطلبات المترتبة على الجمهور والتعليمات الصادرة اليه في مجال الامن.

وكان عدد اعضاء اللجنة الامنية تسعة: دافيد بن ــ غوريون رئيسا، بيريتس

بيرنشتاين، موشيه سفيرسكي، يوسف سابير، يعقوب ريفتين، دافيد ريمز، بيرل رفتور، ليفي شكولنيك (اشكول)، موشيه حاييم شابيرا. وفي ١٩٤٧/١١/١٠ أُلحق باللجنة ممثل «اغودات يسرائيل» بنيامين مينتس، وبعد عشرة ايام من ذلك ممثل السفارديم والطوائف الشرقية، إلياهو إليسار. وبعد ان غادر موشيه سفيرسكي البلد بسبب اشغاله، حل محله عضو القيادة القطرية يوسف يعقوبسون. وكان رئيس اللجنة القطرية، يسرائيل غاليلي، يشارك في معظم الجلسات ويقدم فيها تقريرا عسكريا يجيب عن اسئلة اعضاء اللجنة ويعرض امامهم الموضوعات التي تستوجب اتخاذ قرار بشأنها.

اعلان بن ـ غوريون في جلسة اللجنة التنفيذية الصهيونية

أُتيحت الفرصة لبن ـ غوريون لاثارة مشكلة الامن امام هيئة اكثر اتساعا، وذلك عندما اجتمعت اللجنة التنفيذية الصهيونية في زوريخ في آب/اغسطس ١٩٤٧. وقد اجتمعت اللجنة التنفيذية الصهيونية بعد عقد المؤتمر الصهيوني بتسعة اشهر اتسمت بالارتباك في الداخل والخارج، وبالفشل والتقلبات في المفاوضات السياسية، وبالصراع الداخلي مع المنشقين. وكانت لدى المندوبين على اختلاف أحزابهم مآخذ كثيرة على الادارة، التي لم تتبع الخط السياسي الذي قرره المؤتمر. ولم يتوقف الامر عند حد ان المسائل التي شغلت الحركة منذ عدة سنين ـ التقسيم والدولة الثنائية ـ القومية، الصراع والهدنة في الصراع، الموقف من المنشقين وما شابه ـ لم تحل، وانما تفاقمت حدة.

في هذا الجو اتى بن ـ غوريون في ١٩٤٧/٨/٢٦ ولفت نظر المجتمعين الى خطر الحرب المقبلة:

«علينا ان نبذل كل الجهود السياسية لابعاد الحكم البريطاني، بأسرع ما يمكن ومن دون ادنى تحفظ، وألا نسعى لتجميله و«اصلاحه» فحسب وانما لابعاده فعلا عن البلد إبعادا ماديا فلا يبقى له اي اثر اوذكر في ارض ـ اسرائيل». هذا الكلام قيل قبل شهر من الاعلان الرسمي لوزير المستعمرات البريطاني بشأن نية حكومته مغادرة ارض ـ اسرائيل. وجاء على لسان شخص سعى طوال أعوام كثيرة لايجاد طريق للتعاون مع البريطانيين، وكان مستعدا قبل عام ونصف العام من ذلك التاريخ للاقدام على تنازلات كبيرة من اجل قيام مثل هذا التحالف التاريخي. ثم استمر بن ـ غوريون مصورا ما يتوقع حدوثه لليشوف بعد مغادرة البريطانيين لأرض ـ اسرائيل.

«لن يقف في مواجهتنا معارضون سياسيون، وانما تلامذة هتلر وحتى معلموه الذين يعرفون طريقة واحدة ـ وطريقة واحدة فقط ـ لحل المشكلة اليهودية: **الابادة الشاملة**».

«هدف الهجمات العربية لن يكون الآن السلب والارهاب وايقاف نمو المشروع الصهيوني، وانما تدمير المشروع الصهيوني بأكمله». وحذر زملاءه من ان يتلهوا بالامل

بمساعدة بريطانية [لليهود] في وقت الطوارىء. «سيكون لهم دور، ولا اقول انه المشاركة في ابادة البيشوف بصورة مباشرة؛ انهم يستطيعون المساعدة عن طريق تقديم سلاح للعرب او تقديم أموال لهم لشراء السلاح». وذكر بن ـ غوريون ان خروج البريطانيين من البلد بالذات يحتمل ان ينجم عنه فراغ عسكري. واذا لم تملأه قوة يهودية، فمن المحتمل ان تملأه قوات معادية للييشوف. ومن هنا فان «المسألة المركزية والاكثر حيوية للييشوف والصهيونية على حد سواء ـ اذ ان مستقبلنا القريب والبعيد متعلق بها، وبناء عليها ينبغي ان نقرر الاستراتيجية الصهيونية ازاء الخارج والداخل معا» ـ هي «**مسألة امن البيشوف وانشاء قوة يهودية مسلحة**». 1327

وذكر بن ـ غوريون ان تفاصيل الخطة لانشاء قوة مسلحة ستناقش في لجنة مصغرة. لكن بحسب تقدير محافظ، ستكون هناك حاجة الى مبلغ ثلاثة ملايين جنيه فلسطيني لتنفيذها. وقد بدا هذا الرقم في نظر المجتمعين خياليا قياسا بالمبالغ التي تعاملت بها الوكالة اليهودية حتى ذلك التاريخ عامة، وقياسا بالمبالغ التي خصصت لأغراض الامن خاصة.

ولا يدل محضر جلسة اللجنة التنفيذية على ان أقوال بن ـ غوريون وجدت الصدى الذي تستحقه. ومن المحتمل ان تكون مناقشات مهمة قد جرت في اجتماعات مصغرة، وأن الخطباء امتنعوا عن التحدث عن مشكلة الامن في الجلسة العامة. وعلى اية حال، فالانطباع الناجم عن قراءة المحضر الذي بين ايدينا، هو ان اعضاء اللجنة التنفيذية قفزوا من فوق تحذيرات بن ـ غوريون، وانهمكوا في المشكلات التي اثقلت عليهم طوال الاشهر السابقة.

حتى ان بن ـ غوريون نفسه اعترف بعد عدة اشهر بأنه كان قد قام في هذه الجلسة بمحاولة لم تنجح؛ «اردت ان اطلع الحركة الصهيونية على ان امن البيشوف هو، في هذه اللحظة، المشكلة المركزية والحيوية والحاسمة التي كل شيء مرهون بها، وأن حاجات الامن هي بالتأكيد التي ينبغي ان توجه جميع خطوات الحركة الصهيونية والييشوف ازاء الداخل والخارج. ولم تكن الحركة الصهيونية مستعدة وقتها، كما يبدو، لسماع هذه الاقوال».

وقد تحفظ عدد من المتناقشين الذين تطرقوا الى مسألة الامن تجاه بن ـ غوريون، وبرز بينهم ممثلو «هاشومير هاتسعير». وأعرب مئير يعري عن اعتقاده ان انكلترا لن تترك البلد، وأن اقصى ما ستفعله هو «الابتعاد الى النقب، وترك العرب واليهود يذبح بعضهم بعضا لتظهر في الوقت الملائم». وتساءل يعري: «هل تتوفر لدينا في هذا الوقت القوة للمحاربة من اجل استقلالنا! ـــ من المحتمل عندما تنشب حرب بين اليهود والعرب، ان ينتصر فيها العرب. هل لدينا قوة كافية للمحافظة على استقلالنا المعزول في ارض ـ اسرائيل. هل نضجنا لذلك ام لا. ـــ اننا نعتقد اننا لن نستطيع، بمفردنا، السيطرة على ارض ـ اسرائيل». وكانت نصيحة يعري: «محاربة التقسيم، ودخول ارض ـ اسرائيل من خلال كل ثقب، الى ان نصل الى اللحظة التي تتوفر فيها لدينا القدرة على الاستقلال». وانضم الى يعري رفيقه ي. ريفتين، الذي دعا الحركة الصهيونية الى «المطالبة باستبدال

الحكم البريطاني بحكم دولي يضم ايضا انكلترا»، وحذر من «مرحلة اخرى متسمة بوهم سياسي اشد خطورة، ويحتمل ان يكون مصحوبا بنضال عسكري لن نستطيع الصمود فيه».

ومنذ تلك اللحظة فصاعدا، لم يكف بن ـ غوريون عن تنبيه الرأي العام، في البلد وفي العالم كله، الى نية الحركة الصهيونية والييشوف اليهودي في ان يأخذا على عاتقهما مسؤولية امن البلد. وردا على اعلان كريتش ـ جونز فيما يتعلق بسحب الجيش البريطاني من البلد، اجاب بن ـ غوريون بتصريح ورد فيه:

«اذا كانت الحكومة البريطانية تنوي فعلا تنفيذ قرارها المعلن بسحب جيشها من البلد، فاننا حقا نرحب بهذا القرار. ـ ـ ولا شك في ان الشعب اليهودي، والييشوف خاصة، يريدان ويستطيعان ان ينفذا بنفسيهما تنظيم [الامور] وفقا للخطوط المذكورة اعلاه (مقترحات لجنة الامم المتحدة)، وأنا واثق من ان كل الشعوب المؤمنة بالعدالة ستمد لهما يد المساعدة».

النقاش في جمعية المنتخبين والاجتماع الصهيوني

1328

في ٢/١٠/١٩٤٧، اجتمعت في القدس أسيفات هنفحاريم [جمعية المنتخبين]، وكان على رأس اهتماماتها مسألة الامن.

«في هذه الفترة»، قال بن ـ غوريون لممثلي الييشوف، «ينبغي لنا ان ننظر الى مسألة الامن على انها المسألة الرئيسية والاكثر حيوية، بين جميع المسائل الداخلية والخارجية التي تشغل الييشوف والحركة الصهيونية في هذه اللحظة، اذ لا تتعلق بها سلامة الييشوف فحسب وانما ايضا مصير البلد ومستقبلنا السياسي. ـ ـ لم يعد الامن، كما كان في السنوات السابقة، مسألة سلامة الييشوف فقط وانما ايضا مسألة مصير الصهيونية. ان حجم المسألة وحدتها ودلالتها تغيرت جميعها بصورة تامة».

«لدينا القدرة»، قال بن ـ غوريون، «على الصمود في وجه كل عدوان قد يأتي من داخل هذا البلد، او ايضا من الدول المجاورة. لكن **هذه القدرة كامنة اكثر منها فعلية**، والامر الملح والخطر الذي يجب ان نوجه اهتمامنا اليه هو تحويل هذه القدرة من قوة كامنة الى قوة فعلية، ونستطيع ذلك فقط عن طريق التعبئة الكاملة للجهاز الاداري والاقتصاد والقوة البشرية والقدرة على التنظيم، وعن طريق استغلال العلم والتقنية والتطوع الجماهيري في **اقصر وقت ممكن وأعظم اندفاع ممكن في البلد والمنفى**. فالمطلوب جهد شامل لا من فئة واحدة او هيئة واحدة في البلد، وانما من جميع فئات الييشوف من دون استثناء.

«ويجب ان تفرض أسيفات هنفحاريم [جمعية المنتخبين] نظاما امنيا في البلد، نظاما يخضع كل حياتنا الاقتصادية والعامة والتربوية وفقا للحاجات الامنية العاجلة».

«ليس من المستبعد»، حذر بن ـ غوريون المستمعين اليه، «ان يتم خروج

البريطانيين قبل الموعد الذي قررته اللجنة، وستلوم السياسة الصهيونية نفسها اذا لم تهتم منذ الآن [بالتأهب] لتلك اللحظة عند حلولها».

وقررت اسيفات هنفحاريم «فرض نظام الانضباط والتطوع القومي ــ بالأموال والانفس ــ من اجل المحافظة، في لحظة الاختبار والحسم هذه، على امن الييشوف».

«من الآن فصاعدا، في ضوء تطور الامور السياسية» ــ قال رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي في جلسة اللجنة الامنية في ١٩٤٧/١٠/١٢ ــ «علينا ان نضع كأساس [لعملنا] فرضية ان الدفاع عن البلد بالمعنى الشامل لمفهوم الدفاع ينبغي ان يكون ملقى على عاتق الييشوف اليهودي نفسه، من دون اعتماد على مساعدة السلطات. ــ ــ».

«ان المشكلات الاولى التي تواجهنا مرهونة كلها، في رأيي، بثلاثة شروط اساسية: الشرط الاول، التفاف جميع فئات الييشوف حول زعامة «الهاغاناه»؛ الشرط الثاني، منح «الهاغاناه» صلاحية الوصول الى كل شخص مؤهل وتكليفه واجبا معينا؛ الشرط الثالث، تأمين التمويل اللازم لتحرير «الهاغاناه» من حالة التسول المشينة التي تعاني منها الآن».

وقبل شهر تقريبا من القرار السياسي للجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة، خاطب بن ــ غوريون الذين حضروا للمشاركة في الاجتماع الصهيوني الذي عقد في القدس قائلا: «ان محط اهتمامنا في هذه اللحظة ــ اضافة الى المعركة السياسية التي يخوضها موفدونا وممثلونا في الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة ــ هو الاعداد الشاق والمدروس، الذي يتطلب امكانات وقوى هائلة في اطار ضخم لم نألفه حتى الآن، كي نجتاز بسلام مسافة الدرب الاشد خطورة وصعوبة التي تسبق اقامة الدولة، والتي يتوقف عليها قيام الدولة بصورة لا تقل عن اي ظرف او عامل آخر».

وقبل اربعة ايام من اتخاذ القرار في ليك سكسيس، ألقى بن ــ غوريون خطابا امام المجلس القومي بكامل هيئته دعا فيه الييشوف الى المشاركة في جمع نصف مليون جنيه فلسطيني من اصل الملايين الثلاثة المطلوبة، بحسب رأيه، كميزانية اولى للتأهب للمعركة الحاسمة. حتى انه حذر سامعيه من ان «هذا ليس الامر الاخير الذي سيطلب من الييشوف في هذه المرحلة الانتقالية». ولفت النظر الى الاهمية الحاسمة لضرورة وصول الاموال والعتاد الذي ستستخدم هذه الاموال لشرائه في الوقت الملائم. «ان الإعداد التام والمحكم على افضل وجه، سيخطىء الهدف اذا تأخر عن وقت لزومه وجاء بعد ان تكون قد وقعت الواقعة. ليس لدينا وقت طويل لاضاعته، ولا يجوز ان نخسر حتى ساعة واحدة». 1329

الميزانية

توصل بن ــ غوريون الى هذا المبلغ ــ ثلاثة ملايين ــ بعد مشاورات مع رجال القيادة القطرية وهيئة الاركان العامة. ففي اطار إعداد بن ــ غوريون لحالة الطوارىء طلب من القيادة القطرية ان تقدم له مشروع ميزانية. وتم إعداد الميزانية من قبل الدائرة المالية التابعة

لهيئة الاركان العامة في نطاق مليون جنيه فلسطيني (من دون نفقات الصناعة العسكرية)، وكانت تمثل ضعفي ميزانية «الهاغاناه» لسنة ١٩٤٧. لكن بن ـ غوريون كان مقتنعا بأن ضرورات الساعة تتطلب اطارا أوسع. «لقد اعدتُ الميزانية الى القيادة» ـ روى بعد عام من ذلك ـ «لأنها لم تكن كافية، ولأنها لم تأخذ في الحسبان الضرورات التي سنواجهها. وتدخلت شخصيا، بمساعدة اعضاء عديدين، في إعداد الميزانية وفقا للأبعاد الجديدة».

«بناء على حسابات الحد الادنى جدا»، قال بن ـ غوريون في جلسة اللجنة الامنية في ١٩٤٧/١٠/١٩، «نحن بحاجة الى مبلغ يفوق ثلاثة ملايين جنيه فلسطيني من اجل التسليح والعتاد والتدريب الاوسع، سواء للقادة او لرجال «الصف»، ومن اجل الحد الادنى من التحصينات وتقوية الاماكن الضعيفة. ـــ كي نستطيع الصمود. واذا وقع غدا او بعد غد الخطر الكبير، فسوف تكون هناك ضرورة لتعزيز القوة المجندة التي يبلغ تعدادها الآن عدة آلاف من الرجال فقط، خلال فترة قصيرة جدا».

وقد وزعت الاموال المذكورة في مشروع الميزانية المعدة من قبل قادة «الهاغاناه»، وفقا للبنود التالية:

	جنيه فلسطيني
القيادة القطرية وهيئة الاركان	١٠٦,٣٨٥
قوة الحراسة	١١٢,٠٠٠
قوة الميدان	١٨٤,٤٥٢
البلماح	٢٥٧,٠٠٠
الدورات	٨٤,٤٢٠
الشبيبة	٥٩,٦٧٩
تجنيد ٢٠٠٠ لثلاثة اشهر	١٣٨,٠٠٠
الخفراء والخفارة	٥٩,٨٠٠
جهاز الاستخبارات (شاي)	٢٦١,٨٥٠
الاعلام	١٩,٩٠٨
النقل	١٠٤,٧٦٣
معدات وأعتدة	٢٧٣,٠٠٠
العلوم	٢٥,٠٠٠
الاتصال	١٠,٥٠٠
المستودعات والمخابىء السرية	٣٤,٠٠٠
الطيران	٣٠,٠٠٠
الانتاج (الصناعة العسكرية)	٢٨٩,٠٠٠
مشتريات السلاح	٥٠٠,٠٠٠
التحصينات	١٥٠,٠٠٠
بنود اخرى	١٦٨,٠٠٠
احتياطي	٢٠٠,٠٠٠
المجموع	٣,٠٦٧,٧٥٧ جنيها فلسطينيا

وبناء على اقتراح بن ــ غوريون حذف من الميزانية بند جهاز الاستخبارات (شاي) (الذي اشتمل ايضا على الصراع ضد المنشقين). وفي مقابل ذلك زيد بند الطيران من ٣٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني الى ٤٥,٠٠٠ جنيه فلسطيني.

وفي بند قوة الميدان أُخذ في الاعتبار انه سيتم الاحتفاظ بـ ١٧ كتيبة (٦٥٠ شخصا في كل كتيبة، والمجموع ٩١٠٠ شخص). وكانت اكثرية ميزانية قوة الميدان (١٠٤,٦٤٠جنيها فلسطينيا) مخصصة لتدريب المجندين: ١٢ يوما متتاليا، وبعد ذلك ٣ ايام في الشهر. وفي بند الدورات أُدخل في الحساب انه سيتم إعداد ١٠٠٠ قائد جماعة في اربع دورات (كل دورة ٣ اشهر)، ودورة لـ ٢٥٠ قائد فصيلة، ودورة عليا مدتها نصف سنة لـ ٣٠ قائدا برتبة عالية. واشتملت الميزانية ايضا على دورة لـ ١٠٠ قائد منطقة (٤٥ يوما)، ودورات للاتصال وأعمال الدورية والممرضين ومأموري المستودعات، الخ.

وكانت الـ ٢٧٣,٠٠٠ جنيه فلسطيني المشمولة في بند المعدات والاعتدة مخصصة من اجل ان تقام في اطار «الهاغاناه» مستودعات اعتدة، لم تكن موجودة إلا في نطاق ضيق جدا (لأغراض البلماح ومعسكرات التدريب والدورات). وكان من الواضح ان الاحتفاظ بآلاف من المجندين في معسكرات التدريب، سيتطلب كميات كبيرة من الخيم، والاسرّة ولوازمها، واللباس، والاحذية، والاحزمة الجلدية.

وفي جلستها المنعقدة في ١٩٤٧/١٠/٢٣، قررت اللجنة الامنية ان «وضع الامن في البلد يتطلب جمعا فوريا لمبالغ مالية ملائمة». وتقرر ان تدفع الصناديق القومية فورا ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني لهذه الغاية، وأن يتولى صندوق التجنيد جمع ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني آخر.

وكُلِّفت الصناعة العسكرية انتاج ٤٠٠٠ مدفع هاون، و ٤ ملايين رصاصة، و ١٣٠,٠٠٠ قنبلة يدوية، وما شابه ذلك. وكان بند المشتريات في الميزانية مخصصا، في الاساس، لشراء ٢٠,٠٠٠ بندقية.

وقد تمت الخطوة الاولى لانشاء قوة جوية بتعيين يهوشواع اشل (سابقا: آيزيك)، في ١٩٤٧/١١/٤، مسؤولا عن مصلحة الطيران في هيئة الاركان العامة التابعة لـ «الهاغاناه»، ووضع في تصرفه سبعة طيارين قدامى وشبان.

وفي ابان تلك الايام بالذات، توصل بن ــ غوريون الى قناعة تامة بأنه جنبا الى جنب مع استمرار النشاط الجاري لمنظمة «الهاغاناه»، الموجه للدفاع والامن الجاري، ينبغي الشروع في انشاء جيش نظامي على غرار الجيش البريطاني، يعد نفسه للدفاع والانقاذ في حال حدوث صدام عسكري بين اليهود والعرب. وكان من المفروض ان تقف على رأس هذا الجيش قيادة مشكلة من خيرة الضباط اليهود في الوحدات اليهودية السابقة. وفي ١٩٤٧/١٠/٦ استدعى بن ــ غوريون أفرايم بن آرتسي، ذا الرتبة الاعلى بين جميع اولئك الضباط، وطلب منه ان يضع له خطة لانشاء الجيش وصاغ طلبه خطيا على النحو التالي:

«فرضية: من شأن العالم العربي وعرب ارض ـ اسرائيل، بمساعدة دولة عربية واحدة او بمساعدة عدة دول وربما جميعها، ان يهاجموا اليشوف، سواء بهدف قمعه او اخضاعه، او حتى ابادته. المهمة: ينبغي تعبئة اليشوف بكامل طاقته (الاقتصادية والتقنية والعلمية والعسكرية) لمجابهة هذا الهجوم، ولحماية المستعمرات واحتلال البلد ـ كله او الجزء الاكبر منه ـ والاستمرار في الاحتلال الى حين التوصل الى حل سياسي معتمد.

«سؤال: ما هي المؤسسات العليا المطلوبة لتنفيذ المهمة (تعبئة اليشوف بأكمله)؟ ما هي الترتيبات، وكيف يمكن التخطيط للقوات العسكرية وتدريبها وترتيب الامدادات اللازمة لها من خلال اقصى قدر من المحافظة على استمرار اليشوف في حياته الاعتيادية قدر الامكان».

وقدم بن آرتسي خطة تتضمن تكوين هيئة الاركان العامة بدوائرها وأجهزتها وشعبها المختلفة. كما عين بن ـ غوريون يوحنان راتنر، الذي عمل منذ حزيران/يونيو ١٩٤٧ مستشارا رسميا لادارة الوكالة في شؤون الامن، رئيسا للجنة «التخطيط وقت الطوارىء»، وكلفه وضع خطة لمواجهة احتمال غزو قوات عدوة قادمة من وراء حدود البلد، وقبل راتنر 1332* التعيين بعد ان تشاور مع رجال القيادة العليا. وشارك في عمل اللجنة ضباط من مسرحي الفرقة [اليهودية] ووحدات اخرى في الجيش البريطاني: أفرايم بن آرتسي، أليعيزر اهرونوف، فريتس ايزنشتتر (شالوم عيشت)، يسرائيل بوغانوف (بارنيع)، يحزقيئيل ساهر، وآخرون، وعرفوا آنذاك بين العاملين في المجال الامني باسم «War Office».

وقد اصطدمت خطوات بن ـ غوريون هذه، التي عبرت في الحقيقة عن عدم ثقته بمنظمة «الهاغاناه» كقوة عسكرية، بمعارضة قادة «الهاغاناه» ورئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي، ويعقوب دوري، ويتسحاق ساديه، ويغئيل يادين، وآخرين. ورأوا في اقامة مؤسسات موازية لا وجوب لاقامتها خطرا وتبديدا للوقت وتكرارا للجهد. وكان رأيهم هو انه يجب ان يتطور الجيش من داخل «الهاغاناه» لا بصورة منفصلة عنها. وخشوا ايضا ان يتم حذو أنماط جيوش اخرى غير ملائمة لمعطيات الحرب المتوقعة هنا ولامكانات اليشوف العملية، واعتقدوا ان هذا الاسلوب عقيم. وقد قالوا ان «الهاغاناه» ليست مهيأة لمواجهة جيوش نظامية. «هناك نقص في الاطر والادوات ومستوى التدريبات. المطلوب هو تغييرات في نظام التدريبات والبنى. والمطلوب هو ميزانية اخرى وما شابه. لكن لا يجوز تشويه الانماط القائمة وهدمها. وستكون حماقة بالغة الخطورة ان تجرى المحاولة، التي اوصى بها بن ـ غوريون، لتجنيد رجال الجيش السابقين بوحداتهم وطاقمهم القيادي. بالعكس، المطلوب هو المزج بين الايجابيات الكثيرة التي اكتسبت في الجيش وبين الخبرة التي تراكمت لدى «الهاغاناه» »(ي. غاليلي). ومع ذلك، قرر رجال القيادة العليا انه من اجل تفادي الصدام

* الصفحة 1331 في الاصل تحتوي على صورة طبق الاصل للرسالة التي وجهها بن ـ غوريون الى أ. بن آرتسي بشأن تعبئة اليشوف. (المترجم)

«يجب التعاون باخلاص ما دام عمل «الهاغاناه» لم يتضرر عمليا، واذا حدثت عرقلة في عملها فينبغي الاعتراض امام ادارة الوكالة على الخطة بمجملها» (ي. غاليلي).

إلا ان الخطة الجديدة لم تنفذ. وبقيت المسؤولية عن تأهب «الهاغاناه»، استعدادا للحرب المنتظرة، في نطاق صلاحيات القيادة العليا لـ «الهاغاناه». لكن النقاش كان له تأثيره في الارتباكات، بصدد اساليب تنظيم «الهاغاناه» والجيش، التي نشأت بعد فترة قصيرة من ذلك، في اثناء حرب الاستقلال بالذات.

علامات الاضطرابات الاولى بين العرب

مع بداية سنة ١٩٤٧ ظهرت علامات اولى تشير الى ان الهدوء الوهمي السائد في المعسكر العربي في البلد، بدأ يتقوض. وكانت اولى هذه العلامات ظهور عصابات مجرمين عرب مزودة بأسلحة عسكرية، بدأت تمارس اعمال سطو وسرقة في مستعمرات يهودية، رافقها احيانا قتل يهود هبوا لمقاومة الآثمين. وقد استغلت هذه العصابات الخبرة العسكرية التي اكتسبها عدد من أفرادها في الوحدات العسكرية في الجيش البريطاني، ومن المحتمل ايضا انها قلدت اساليب المنشقين. فقد كانت تخطط لعملياتها وترسل دوريات لاستطلاع طرق التقدم والانسحاب. ومع ان عملياتها حملت طابع جرائم جنائية عادية، إلا ان التجربة المكتسبة، على مدى سنوات طويلة، علمت «الهاغاناه» ان المسافة بين الجريمة الجنائية والارهاب السياسي ضئيلة جدا في الشرق، وأن اشخاصا كانوا زعماء عصابات ولصوصا وقاطعي طرق، قُبلوا بطيبة خاطر وقت الحاجة في صفوف رجال الجهاد والوطنيين العرب وتحولوا بسرعة، في نظر الجماهير العربية، الى ابطال قوميين. وطلب من «الهاغاناه» ان ترد على هذه الاعمال بأقصى شدة وسرعة، كي لا تتسع وتنقلب الى أحداث على غرار سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩.

ولم تكن هناك اية نية في اللجوء الى الاساليب المرفوضة المتمثلة في الانتقام من عرب لا صلة لهم أبدا بعصابات المجرمين، بل على العكس من ذلك، فقد كبحت «الهاغاناه» عناصر ثائرة وغير مسؤولة في اليشوف، حاولت ان تصب جام غضبها على عابري السبيل من العرب وما شابه ذلك. وأُعطيت التعليمات الى جهاز الاستخبارات التابع لـ «الهاغاناه» للتحري ـ بمساعدة شبكة مخبرين ـ عن هوية المجرمين والاماكن التي أتوا منها لانزال العقوبة الملائمة بهم وبمن ساعدوهم. 1333

وقد تطورت هذه العصابات بصورة خاصة في جنوب البلد ووسطه. وأتت اغلبية المجرمين من بين العشائر البدوية في الشفيلا والشارون، ومن «اشخاص متسكعين يمضون اوقاتهم في المقاهي بمعية جماعات مشبوهة» (تقرير جهاز الاستخبارات). وبرز بين هؤلاء المنتمون الى عشيرة السواركة، التي كانت مضاربها منتشرة على طول الشريط الساحلي. وكان

هؤلاء البدو قد عملوا، خلال سنوات الحرب، في معسكرات الجيش البريطاني وجمعوا اسلحة كثيرة وبزات عسكرية. وبعد انتهاء الحرب وتقلص مصادر عملهم، اتجهوا الى السلب والنهب. وحدث انعطاف خطر في نشاط هذه العصابات بعد ان انضم اليها الاخوان سعيد وفوزي ابو كشك وشرعا في تنظيمها، حتى انهما عقدا في ١٩٤٧/٤/٥ شبه مؤتمر لزعماء العصابات في المنطقة من اجل تنسيق نشاطاتهم.

وقد تسللت هذه العصابات في الليالي الى المستعمرات وضواحي المدن، واقتحمت الحوانيت والمنازل وسرقت الاشياء الثمينة والمصاغ والنقود. وبدأت موجة اعمال السطو والسرقة، في نهاية سنة ١٩٤٦، في تل ابيب، وانتشرت منها في اتجاه الجنوب (رحوفوت، ريشون لتسيون، غديره، الخ)، ولاحقا في اتجاه الشمال (بيتح تكفا، رامات غان، هيرتسليا، كفر سابا). وفي ١٩٤٧/٢/٢ قتل، في اثناء عملية سطو في رحوفوت، أبراهام ريسفيلد. وبعد مرور اسبوعين، قتل لصوص في بني براك رفقه هيرتسوغ.

وفي الربيع، تكاثرت اعمال السطو في بيتح تكفا. وكان اللصوص ينفذون عملياتهم بملابس الجيش البريطاني وهم مسلحون جيدا. وقد اصطدموا احيانا بخفراء المستعمرات، وسقط سكان عديدون جرحى نتيجة تبادل اطلاق النار. وفي ١٩٤٧/٥/١٨ قتل، في ضاحية حسيدوف، تسيمح هالبرين وأهرون شفيلي بيد لصوص اقتحموا منزليهما. «قادت آثار القتلة الى القرية العربية فجة وعشيرة عرب السواركة الضاربين بين غات ريمون واليهوديه» («كوفشيم وبونيم»). وبعد ان اتضح ان المقهى في قرية فجة ومخيم عشيرة بدو عرب السواركة يستخدمان قاعدتين وملجأين للعصابات، قررت هيئة اركان «الهاغاناه» ضرب هاتين النقطتين. وفي مساء ١٩٤٧/٥/٢٠، انطلقت من عين غانيم وحدة الكتيبة الثانية التابعة للبلماح مع عدد من رجال قوة الميدان بقيادة شلومو ميلر. وكان في نيتهم التسلل الى المقهى، والتعرف بين رواده على رجال العصابة واعدامهم، لكن رجال العصابة بادروا الى اطلاق النار. وقتل في اثناء تبادل اطلاق النار عربيان، وجرح آخرون. واقتحم خبراء المتفجرات المقهى تحت غطاء ناري كثيف، ووضعوا مواد متفجرة وأشعلوها. «تأخر الانفجار اكثر من اللازم ودمر المبنى فعلا لكن لم يصب احد نتيجة الانفجار» («كتاب البلماح»). وأوقفت وحدة حماية كانت قد اتخذت مواقع لها في الجوار، رجال حرس بريطانيين أسرعوا الى المكان. وفي اثناء العملية استشهد قائدها شلومو ميلر، من غفعات هشلوشاه وأحد أوائل طياري البلماح. وهو رجل مقدام ومحبوب. وفي هذه الاثناء، طوقت وحدة بلماح اخرى مضارب بدو عرب السواركة المجاورة لليهوديه. وأخضع الرجال في المضارب للتحقيق وأُطلقت النار فورا على شخص تم التعرف عليه بأنه احد اللصوص. كما أطلقت النار على اثنين آخرين حاولا الفرار فأصيبا بجروح.

وفي منشور «هحوماه»، الذي صدر في ١٩٤٧/٥/٢١، اعلنت «الهاغاناه» العملية، وأكدت ان «هذا ليس تحرشا بالعرب وانما هو عقاب للقتلة».

وتكون لدى «الهاغاناه» انطباع بأن العرب في الجوار تقبلوا هذه العمليات بتفهم، وأن كثيرين منهم وجدوها مبررة. وتوقف القرويون عن تقديم المساعدة والملجأ للصوص، وطلبوا منهم الكف عن اعمالهم والابتعاد عن المكان، وعندما رفضوا، «سلم السكان الشرطة لصين، وهدأت المنطقة عدة اشهر» («كتاب البلماح»).

قضية «غان هاواي»

1334

لكن الامل بأن يؤدي الرد العنيف الى كبح جماح المجرمين لم يتحقق. ففي مساء ١٠/٨/١٩٤٧، هاجمت عصابة لصوص مقهى «غان هاواي» [حديقة هاواي]، شمالي تل ابيب، عبر الضفة الاخرى لنهر اليركون [العوجا]، في منطقة محاطة بالبساتين.

وكانت قبل اسابيع من الهجوم قد وصلت الى جهاز الاستخبارات التابع لـ «الهاغاناه»، اخبار عن استعدادات عصابة لصوص لمهاجمة المكان. فأرسل الى المكان طوال عدة اسابيع رجال من قوة الميدان في تل ابيب لنصب كمين، لكن الكمين ألغي عندما لم يحدث شيء.

وفي الساعة العاشرة والنصف عشية السبت، والمقهى يغص بالرواد اليهود والعرب، اقتحم المكان عرب يرتدون ملابس الجيش وأمروا الرواد بانكليزية ركيكة برفع ايديهم. ودب الذعر في قلوب الرواد، وشرع قسم منهم في الفرار. وأطلق حارس المكان ــ وهو عربي ــ النار على اللصوص، فرد هؤلاء باطلاق النار على الجمهور مما تسبب بمقتل اربعة اشخاص وجرح سبعة. وسارع اللصوص الى الفرار تحت جنح الظلام.

وثارت المشاعر، ووجهت «الهاغاناه» نداء الى سكان المدينة نشرته الصحف، طالبتهم فيه بألا يلجأوا الى «اعمال متسرعة ومذعورة»، ووعدت بأن «يلقى القتلة جزاءهم». لكن النداء لم ينجح في تهدئة المشاعر، ووقعت صدامات بين العرب واليهود على حدود يافا وتل ابيب. «اغلقت وحداتنا» ــ ذكر تقرير قيادة «الهاغاناه» في المدينة ــ «خط الحدود لمنع اقتحام العرب للضواحي، وحاولت هنا وهناك ان تفرق اشخاصا فوضويين، حاولوا اصطياد العرب في شوارع تل ابيب». وفي عصر ١٣/٨/١٩٤٧، ازدادت الاشتباكات في منطقة ابو كبير الى ان توقفت المواصلات مؤقتا. وفي ساعات المساء، أُعلن منع التجول في حدود المدينتين.

وعززت «الهاغاناه» الحراسة في منطقة الحدود. وفي اليوم التالي، قتل ثلاثة يهود وجرح اكثر من عشرين. وحاولت جمهرة عربية اقتحام حي مكابي فطردتها دوريات «الهاغاناه» باطلاق النار، وكذلك ألقت قنبلة يدوية انفجرت وسط جمهور المهاجمين. وأحرق العرب مستودعات كبيرة للأخشاب قرب غفعات هيرتسل.

وفي إخطار مرسل من قبل هيئة الاركان العامة في ١٥/٨/١٩٤٧ الى قادة المناطق وكتائب البلماح، في جميع انحاء البلد، قيل انه على الرغم من انه ليس مؤكدا ان أحداث يافا ــ تل ابيب هي «مقدمة لأحداث ستعم البلد»، فانه ينبغي «اتخاذ الاجراءات كافة

والقيام بالحراسة والمراقبة، وتأمين اتصال دائم بين مقار القيادات المختلفة، وتقوية الاحتياطي المجند في الامكنة البعيدة المنعزلة، وانتقال السكان في هذه الامكنة من الحذر الهادىء الى اليقظة الفائقة. وفي الاحياء المتطرفة والمناطق المنعزلة، ينبغي تأمين حراسة ليلا ونهارا».

وقامت «الهاغاناه» بعمليات تأديبية وفقا لمعلومات قدمها لها جهاز الاستخبارات (شاي). فبعد يومين من عملية القتل في «غان هاواي»، قتل رميا بالرصاص عربي عمل دليلا لعصابة القتلة. وبعد ذلك أُلقي القبض على البدوي الذي استخدمت خيمته «قاعدة لانطلاق العصابات. اذ انه من [خيمته] خرج قتلة اليهود في ‹غان هاواي› »(«هحوماه») وقد تم اعدامه هو ايضا. وفي الليلة نفسها، وصلت وحدة من «الهاغاناه» الى بستان ابو لبن، الواقع على الطريق بين تل ابيب وحيفا. وكان هذا البستان والبيت الواقع في وسطه، بحسب معلومات جهاز الاستخبارات، «مكان تدريب والتقاء لعصابات القتلة. وقد قادت آثار القتلة مرات عديدة الى هذا المكان، ومن البيت الواقع في البستان وزع السلاح على العصابة التي انطلقت لتنفيذ العملية في «غان هاواي» (المصدر نفسه). واقتحمت الوحدة البيت، واصطدمت بعدد من رجال العصابة وفتحت النار عليهم، فقتل عدد منهم وفر الباقون. وفي الوقت نفسه، اقتحمت زمرة من رجال «الهاغاناه» البيت، وفتشت غرفه فلم تجد أحدا. ومن ثم اتى خبراء المتفجرات ونسفوا البيت. وفي صباح اليوم التالي، علم انه تحت انقاض البيت دفنت عائلة بأكملها، سبعة انفس ـــ ام وأولادها ـــ كانوا مختبئين كما يبدو في البيت.

وخطط البلماح لعملية تأديبية كبيرة موجهة ضد قرية شيخ مونِّس. لكنها «أُلغيت في اللحظة الاخيرة لأسباب سياسية» («كتاب البلماح»). *1336

وقد اثارت العمليات الانتقامية، التي اصيب فيها ايضا مصادفة رجال ونساء وأطفال ابرياء، النقاش مرة اخرى في اوساط الجمهور اليهودي بشأن اساليب الرد على الارهاب العربي. «ان المهمة المعلنة لـ «الهاغاناه» ـــ كتبت صحيفة «هآرتس» في افتتاحية لها ـــ «هي الدفاع عن اليشوف من دون إلحاق الاذى بحياة الابرياء. ومن اجل هذا الهدف ضحى خيرة الشباب بحياتهم. لكن العمليات الانتقامية الاخيرة تعكس انحرافا خطرا عن هذا الخط. وليس هناك اي مبرر لقتل الشيوخ والاطفال الابرياء». وطُلب من قيادة «الهاغاناه» اجراء «تحقيق دقيق في الحوادث واستخلاص النتائج كي لا تتكرر أحداث كهذه». وقررت هيئة الاركان العامة تقديم تعويضات باسم «الهاغاناه» للعائلة التي رزئت في بستان ابو لبن.

ويبدو ان الزعامة العربية لم تكن راغبة في الاضطرابات في ذلك الوقت. وقد دعت بلدية يافا والجمعيات العربية الاخرى، في منشور «الى الجمهور اليافاوي»، «كل عربي عاقل في المدينة وخصوصا في حي المنشية، الى العمل من اجل الهدوء ومنع استمرار هذه الاحداث

---

* الصفحة 1335 في الاصل تحوي اعلان «الهاغاناه» المتعلق بالعمليات التأديبية، آب/اغسطس ١٩٤٧. (المترجم)

الضارة وعدم الانجرار وراء ذعر وهمي» (يوسف اولتيسكي). وفي نهاية الاسبوع، حدثت هنا وهناك صــدامات، وقتل يهوديان وثلاثة عرب آخرون. لكن مع بداية الاسبوع التالي عاد الهدوء.

«لقـد حملت هذه الاحـداث» ـ كتب ميخائيـل بن غال في مـذكراتـه ـ «بالمعنى العسكري، فائدة جمة لـ «الهاغاناه» في تل ابيب، اذ كانت بمثابة تجربة عامة استعدادا للآتي. فقد نفذ جــلاء عام للسكان، واتخذت اجراءات حراسة مشددة، وخصوصا في المشاريع الواقعة على طول الحدود». ومن اجل تفادي المفاجآت خصصت مجموعات حماية دائمة كانت تخرج كل مساء بين الساعة ١٨,٣٠ ومنتصف الليل تقريبا وتتمركز في ساحة هربرت صموئيل وساحة الثاني من نوفمبر وساحة ديزنغوف وفي زوايا شدروت ـ روتشيلد وشارع اللنبي، وكانت كل مجموعة مشكلة من ستة اعضاء، اربعة ذكور وأنثيـين، مسلحين بمسدسين وقنبلتين يدويتين.

وفي اجتماع عام للقادة، عقد بعد نحو اسبوعين في كلية المعلمين في شارع بن يهودا، قوّم قائد المدينة يهوشواع غلوبرمان أحداث آب/اغسطس في تل ابيب «كانذار اولي بما سيأتي» و «تحدث بجزم عن أحداث دامية ستقع في نهاية السنة» (نحاميا باروش).

«ضباط اركان لشؤون الامن الجاري»

بعد عملية القتل في «ثمان هاواي» عينت هيئة الاركان العامة موشيه دايان «ضابط اركان لشؤون الامن الجاري». وكُلِّف القادة المحليون إخطار هيئة الاركان العامة فورا بكل حادث يقع بين اليهود والعرب. وصنفت هذه الحوادث الى ثلاثة أنواع: أ ـ حوادث لا تتطلب معالجة خاصة من جانب هيئة الاركان العامة (سرقات، ومشاجرات بسيطة، وما شابه ذلك)؛ ب ـ حوادث تتطلب معالجة من جانب المركز (سرقات تدل على وجود عصابة لصوص في الجوار، ومشاجرات لم «تنته»، وأخبار عن تدريبات للعرب في الجوار، وما شابه ذلك)؛ جـ ـ حوادث تتطلب تدخلا عاجلا من جانب هيئة الاركان العامة.

وفرض على كل قائد محلي تشكيل «وحدة يمكن تجنيدها بسرعة وارسالها لمساعدة من يتعرض للهجوم ليلا او نهارا، ولنصب كمائن للعصابات واللصوص، اذا توفرت معلومات عن ذلك». وكانت التعليمات التي اعطيت لهذه الوحدات: «الضرب بشدة وإلحاق اقصى الضرر بقُطّاع الطرق واللصوص وبالعصابات المسلحة والمتدربين في منطقة يهودية او في جوار نقاط يهودية». وفي مقابل ذلك، اخضعت مسألة تنفيذ «العقوبات الجماعية ومهاجمة البيوت او الافراد في بيوتهم» لصلاحية هيئة الاركان العامة. وأُلزم المنفذون بتقديم تقرير لهيئة الاركان العامة بعد كل حادث. 1337

وكُلِّف جهاز الاستخبارات جمع مادة وإعداد قوائم بأسماء العرب الذين شاركوا عمليا في الاعتداءات الاخيرة او في عمليات السطو على الممتلكات اليهودية، وقائمة بالبيوت

والمقاهي والمراتب التي استخدمت قواعد او اماكن تجمع للمجرمين، وقائمة بالسيارات التي شوهدت تتجول او شاركت مشاركة فعالة في اعمال السطو.

كما عين في تلك الفترة «ضابط مناوب» كُلِّف «معالجة الامور التي من شأن تأجيلها ان يحبط امر معالجتها». وكان على صلة مستمرة برئيس القيادة القطرية وهيئة الاركان العامة. وخول اصدار الامر الى المسؤول عن شبكة الاتصال لتشغيلها، حتى في الساعات التي لم تكن الشبكة عادة تعمل خلالها.

قضية كفار سيركين

في ١٩٤٧/١٠/٦، قتل يهوديان بالقرب من كفار سيركين. وجزم جهاز الاستخبارات ان القتلة يقيمون في البساتين العربية بجوار روش هعاين. وفي اليوم التالي انطلقت وحدة بلماح صغيرة الى المكان، بحثا عن خيمتين معينتين كان القتلة يقيمون فيهما. وطُوق المكان، وقذفت قنبلة هجومية في اتجاه الخيمتين لارغام الساكنين فيهما على الفرار، فقتل ثلاثة من بين ساكنيهما. وبعد فترة تم التأكد من ان «الضربة اتت في المكان الصحيح والزمان الصحيح، وأن جميع المصابين كانوا مشاركين في عملية القتل» (كتاب البلماح). وفي اثناء اطلاق النار قتلت امرأة وجرح صبي. واتضح نتيجة التقصي الذي أُجري لاحقا انه «اذا اردنا ضمان قدر من امكان ضرب المذنبين، فلا بد من ان ندخل في الاعتبار احتمالات مؤسفة: اصابة ابرياء ــ نساء وأطفال ــ اذا وجدوا في قلب المعركة، اذ انه ليس في امكاننا، في ظل الظروف غير الشرعية، العمل في اطار وحدة كبيرة تستطيع عزل الهدف وسد جميع منافذ الهروب بصورة تامة» (تقرير حول عملية كفار سيركين).

«ما يهمنا هو» ــ عرّف رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي سياسة الرد الخاصة بالمنظمة ــ «ألا تتسع الاعتداءات، في حال نشوب الاضطرابات، لتشمل مساحة واسعة. ومن هذه الزاوية، فان الوسيلة الاهم بيد «الهاغاناه» هي الرد في المكان الذي وقع فيه الهجوم. وهذه هي احدى الوسائل لاطفاء النار. ــ ــ ان «الهاغاناه» لم تشكل للعدوان، ولا تريد الابادة، وتحترم حياة الانسان؛ انها تريد ضرب المذنبين فقط. انها لا تريد اشعال النار وانما اطفاءها. والخطة لا تقتصر على قيم خلقية فقط، لكن يحدث احيانا ان هذه [القيم] تثقل على نشاط «الهاغاناه»، ونحن نأخذها بعين الاعتبار».

حالة التأهب في «يوم فلسطين»

كان يوم ١٩٤٧/١٠/٣ هو اليوم الذي حدده المفتي الحاج امين الحسيني على انه «يوم فلسطين»، وتهيأ القوميون العرب للقيام بتظاهرات فيه من اجل لفت نظر العالم الى معارضتهم قرارات مؤسسات الامم المتحدة المتعلقة بتقسيم ارض ــ اسرائيل. وكان هناك

اساس للتخوف من احتمال ان تتحول هذه التظاهرات الى هجمات على اليهود وعلى ممتلكاتهم. وأعلنت القيادة العليا «حالة يقظة وتأهب استثنائية تظل سارية المفعول حتى اشعار آخر». وكانت هذه التجربة الاولى لتعبئة «الهاغاناه» ووضعها على اهبة الاستعداد على مستوى قطري.

واتضح بصورة عامة ان استجابة الاعضاء كانت جيدة، وحضر رجال قوة الحراسة وقوة الميدان وشبان الغادناع الى الاماكن المعينة لهم. وأدت قوة الخفارة (حيل هنوطريم) واجبها في حراسة الطرق وارسال الدوريات السيارة.

1338 واتخذت في المناطق الريفية ترتيبات خاصة لحراسة العاملين في الحقول، عن طريق ارسال حرس خيالة وسيارات الحرس السيار التابع لقوة الخفارة (حيل هنوطريم). كما ان وحدات البلماح «انتظمت في الوقت المحدد تماما في المواقع التي طلب منها ان تكون فيها، وأدى رجال الدوريات مهماتهم كما ينبغي» («البلماح»).

وفي مقابل ذلك، اتضح ان هناك نقصا في تسليح وحدات قوة الميدان والبلماح. ونشأت في امكنة كثيرة ضرورة للاستعانة بأسلحة محلية من اجل تعزيز اسلحة وحدات قوة الميدان التابعة للأقضية. وشعرت وحدات قوة الميدان والبلماح ايضا بقلة العتاد. «كان هناك نقص في وسائل النقل والعدة الشخصية وأدوات الطبخ المتنقلة» («كتاب البلماح»).

وبذل جهد خاص فيما يتعلق بالقضاءين النائيين: تل حاي والنقب. فأُرسل الى قضاء تل حاي ٣٢٠ من رجال البلماح، والى مستعمرات النقب ٩٠ شخصا. وكشف تقرير من قضاء تل حاي ان «قرب الحدود سبّب في تحول القوة المتحركة الى قوة ثابتة». وبعد ان احتلت وحدات البلماح مواقعها، لم يتبق اي احتياطي في القوة البشرية او العتاد للوقوف في وجه شغب العرب في داخل القضاء. واتضح ان هناك ضرورة لاحتياطي قطري، حجمه معروف سلفا وعتاده جاهز في المكان الذي ينبغي ان يصل اليه. «ان ملاءمة القوة للعمل في وقت الحرب مهمة ما زال علينا ان ننجزها».

وأوقفت المناورة قيادة «الهاغاناه» على النقص القائم في المنظمة بأكملها من اجل ان تستطيع أداء مهماتها في وقت الطوارىء. وشرع في الاعداد لسد النقص في الرجال والعتاد، وأعطى هذا الاعداد ثماره فقط في اثناء حرب الاستقلال، التي اندلعت في البلد بعد اشهر معدودة فحسب.

«الامر الخاص بالبنية القطرية»

تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧

ان الاحساس بالتغير الكبير الذي طرأ على الوضع الامني لليشوف، وبالأخطار المتربصة به، انعكس في «الامر الخاص بالبنية القطرية» الذي صدر عن القيادة العليا في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. وقد قرر هذا الامر ان بنية «الهاغاناه» السابقة كانت

قائمة على فرضية ان الهجوم على الييشوف اليهودي متوقع من جانب العرب في البلد نفسه.
«ان خطر هجوم على البلد من جانب جيوش الدول العربية المجاورة، كما بدا في هذه الفترة، يستوجب بنية واعدادا مختلفين. ففي مواجهة جيوش نظامية لا بد من إعداد قوة عسكرية، مدربة ومسلحة ومبنية وفقا لمقاييس عسكرية».

وبناء عليه قسمت قوات «الهاغاناه» الى تشكيلين قطريين: «الجيش» («هحايل») (الذي اشتمل على رجال البلماح وقوة الميدان)، والذي كان يتعين عليه ان يواجه الاخطار الخارجية؛ و«الحرس» («همشمار») (الذي ضم قوة الحراسة)، والذي كان مخصصا للدفاع تجاه الاخطار المحلية.

وتقرر ان يكون «الجيش» مشكلا من اربعة ألوية: لواء الشمال (٥ كتائب)، ولواء الوسط (٣ كتائب)، ولواء الجنوب (٥ كتائب)، ولواء القدس (كتيبتان).

كما تقرر ان يبقى «الحرس» مرتبطا بـ ١٤ منطقة، منها ٣ مدينية و ١١ قضاء قرويا (تل حاي، وطبريا، وغلبواع، ويزراعيل، وزفولون، وشومرون، وحيفر، وشارون، ورحوفوت، وغيزر، والنقب). وأن تشكل كل واحدة من هذه المناطق منطقة ادارية لأغراض التدريب والاعداد والدفاع المحلي.

وتقرر ايضا ان يكون «الجيش» كله خاضعا مباشرة لرئيس هيئة الاركان العامة الذي يصدر أوامره مباشرة الى قادة الالوية. وكان «الحرس» ايضا خاضعا لرئيس هيئة الاركان العامة في وقت السلم، لكن اذا نشأت حالة حرب يكون قادة المناطق والمدن، في كل ما يتعلق بالعمليات، خاضعين مباشرة لقيادة «الجيش» المفرزة للعمل في نطاق مجالهم.

وبذلك تمت الخطوة الاولى في اتجاه اعطاء «الهاغاناه» صفة اكثر عسكرية، واعدادها للصمود في الاختبار فيما لو تطورت الامور الى مواجهة عامة صريحة مع جيوش الدول المجاورة.

حالة التأهب في الجليل
تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧

1339

ومثل الهزيم الذي ينذر بقدوم العاصفة، صدم منظمة «الهاغاناه» خبر حشد الجيش السوري على حدود منطقة الحولة في ١٩٤٧/١٠/١١ (انظر ص 1205).

«ان جيشا سوريا مشكلا من آلاف الجنود، ويشتمل على وحدات مشاة ومدرعات وأسلحة ثقيلة، يحتشد في نقاط مختلفة بالقرب من الحد الشمالي ــ الشرقي للبلد» ــ ذكرت نشرة البلماح ــ «ولم يتضح بعد ما الهدف من حشد قوات كهذه ــ لكن الاحتمال الاكيد والاخطر الذي ينبغي ان نستعد له هو احتمال غزو البلد. ويساعد على تفاقم هذا الخطر تصرف بريطانيا التي تهدد بالجلاء عن البلد، وتعد بأن تترك فيه فراغا و«حالة فوضى».

ولا سبيل الى معرفة مدى الصدق في هذه التصريحات. ان كل ذي عقل سليم يدرك ان البريطانيين لن يخرجوا من هنا بطيبة خاطر، وليس من المستبعد اذن ان يخرجوا على نحو استفزازي ظاهريا، مع استمرار احتفاظهم بالمواقع الرئيسية. لكن الاعلان في حد ذاته هو بمثابة تهديد بدعوة القوات العربية الى المجيء وملء الفراغ الذي سينجم. وينبغي لنا عدم نسيان ان هناك كتائب كاملة تابعة لجيوش عربية تعسكر بأسلحتها هنا بحماية الجيش البريطاني. ان المسلك البريطاني يوفر اساسا كافيا للارتياب بأن ثمة مؤامرة انكلو ــ عربية تدبر ضدنا. ان «الهاغاناه» تعرف ما ينتظرها، واستعدادا لمثل هذا الاحتمال وضعت قواتها في حالة تأهب. ومفروض علينا ان نكون مستعدين لايام اختبار لم نعرف مثيلا لها من قبل». 1340

ويدل إخطار هاتفي ارسله موشيه مان، قائد الجليل، الى هيئة الاركان العامة ظهر يوم ١٢/١٠/١٩٤٧، مطالبا بـ «رد فوري»، على مدى خطورة الوضع كما بدا في نظر المسؤولين عن الدفاع عن الجليل. فقد طالب القائد بـ «العودة فورا الى حالة التأهب، مع تجنيد عدد اكبر من المقاتلين واجلاء ٢٥٠٠ طفل، وبامداده بعتاد ثقيل مع فنيين بحجم كتيبتين، وبطنّ من المواد المتفجرة وزجاجات مولوتوف، وبكميات اضافية واحتياطي من العتاد والذخيرة، وبمواد التحصين والاغذية لمواجهة الوضع في حال انعزال المنطقة [عن البلد]» (هيئة الاركان العامة).

وفي اليوم التالي اوكلت القيادة الفعلية في قضاء تل حاي الى هيئة اركان البلماح، التي تلقت أمرا من القيادة العليا «بزيادة قواتها في الجليل الشرقي الى مستوى كتيبة كاملة» («كتاب البلماح»). وأُسند تنفيذ الامر الى الكتيبة الثالثة التابعة للبلماح بقيادة شالوم حفلين. ولم تخف تحركات القوات اليهودية عن اعين البريطانيين. وفي الاوامر التي ارسلتها هيئة الاركان العامة الى قائد الجليل ذكر ان عليه ان يبدأ العمليات «في حال اي غزو من وراء الحدود» وانه مسموح لقواته بعبور الحدود «اذا ثبت ان قوات هجومية اتخذت استعداداتها لشن هجوم علينا، او تمركزت بغرض التسلل الى داخل البلد او لمطاردة المهاجمين». ودعيت العملية بكاملها باسم «عملية تل حاي».

«في ١٣ و ١٤ تشرين الاول/اكتوبر» ــ ذكر تقرير بريطاني ــ «احصي ٥٠٠ منهم (من قوات الهاغاناه) في اثناء مرورهم عبر روش بينا. ووصلت تقارير عن تعبئة جزئية سرى مفعولها على كل «الهاغاناه». وبعد فترة قصيرة انضمت الى رجال البلماح وحدات قوة الميدان من عيمك يزراعيل. وأرسلت هيئة الاركان العامة يهوشواع غلوبرمان للاشراف على التخطيط للدفاع عن المنطقة وتطبيقه. وقد «احدثت أثرا قويا في نفسه وتيرة الاستعدادات ومستوى التخطيط الرفيع، وخصوصا في ضوء ظروف العمل السري التي كانت لا تزال سائدة في الجليل، بهذا القدر او ذاك». واتخذ رجال البلماح وقوة الميدان الـ ٦٠٠ «قواعد لهم قبل كل شيء في المستعمرات المبعثرة هنا وهناك، مثل: المناره ومسغاف عام ومشمار هايردين والمطلة، وبدأ التأهب لمواجهة الخطر».

وبرهنت الخطوات البريطانية الصارمة ازاء محاولات السوريين اجتياز حدود البلد في تل القاضي، في ١٩٤٧/١٠/٢٠، على انه لم يكن في نية السوريين ـ آنذاك ـ التنازل عن سيادتهم التامة على جميع انحاء البلد. وارتدع السوريون فورا وخف التوتر في المنطقة.

وقد ساهمت الاحداث الدامية في منطقة تل ابيب، والتوتر في شمال البلد، في جعل الييشوف العبري يشعر بالخطر الوشيك.

«ان الاشهر الاخيرة» ـ قال يسرائيل غاليلي في جلسة اللجنة الامنية ـ «كانت اشهر يقظة. وكانت هذه اليقظة مهمة، لأن جميع الترتيبات الامنية العادية كانت مهملة وضعيفة الى حد كبير جدا، ولأن الخطر العربي طوال سنوات لم يكن حقيقيا. وكنا من الناحية النفسية مشغولين بمجال آخر. علينا ان نجدد وننعش ونجند. لقد كان الجميع في كل نقاط «الهاغاناه» يحيون حياة طبيعية، وساعدت هذه الاشهر في تغيير الاوضاع».

وقفت «الهاغاناه» في انحاء البلد مشدودة ومشبعة بالتوقع في انتظار يوم القرار ـ يوم التصويت على القرار المتعلق بأرض ـ اسرائيل في الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩.

الكِتَابُ التَّاسِع

1341

«الهاغاناه» خِلال حَرْبِ الاسْتِقْلال

الفصل السّابع والسّتون

مِنَ «الفوضى» إلى دَولَة إسرائيل

«الهاغاناه» خلال حرب الاستقلال

يعالج الجزء التاسع والاخير من كتابنا الاحداث ابتداء باعلان الامم المتحدة في ٢٩/١١/١٩٤٧، وانتهاء بالأمر اليومي القاضي بانشاء جيش الدفاع الاسرائيلي (تساهل) في ٣١/٥/١٩٤٨، مرورا بنشاط «الهاغاناه» خلال هذه الفترة التي دارت فيها حرب الاستقلال وتحولت في اثنائها «الهاغاناه» الى «جيش الدفاع الاسرائيلي».

والحقيقة التي ينبغي قولها هي ان حرب الاستقلال، سواء من ناحية حدوثها في الواقع او من ناحية وصفها تاريخيا، هي وحدة كاملة لا يجوز تجزئتها بصورة مصطنعة الى فترة «الهاغاناه» وفترة جيش الدفاع الاسرائيلي. ومع انه خلال الاشهر الاولى للحرب التي كانت، في رأي كثيرين، «أصعب اشهر حرب الاستقلال» (ش. افيدان)، حدثت تغييرات هائلة في بنية قوات «الهاغاناه» وتنظيمها وأساليب قتالها، فان اطارها لم يتغير، بل ما تغير فقط هو الظروف السياسية. فالحكم البريطاني انتهى رسميا في ايار/مايو ١٩٤٨، وعندها، على حد تعبير بن ـ غوريون، «خرجت ‹الهاغاناه› من نطاق العمل السري الى العمل كجيش نظامي».

«زال السبب الذي حال دون تسمية «الهاغاناه» باسمها الصحيح» ـ كتب يسرائيل غاليلي، رئيس القيادة القطرية الاخير لـ «الهاغاناه» ـ «وأصبح الجيش السري للييشوف يدعى اعتبارا من الآن فصاعدا «جيش الدفاع الاسرائيلي» ـ ـ ان جيش الدفاع الاسرائيلي في حرب التحرير لم يكن سوى «الهاغاناه» ـ القوة نفسها لكن باسمها الحقيقي».

ان التوق الى ان تصبح «الهاغاناه» جيش الدولة اليهودية كان يراودها طوال السنين. وقد هيأت نفسها لذلك، سواء تطلّب الامر اشتباكات ومعارك متقطعة مع قوات عربية او مع الحكم البريطاني، او تطلب حرب مواجهة شاملة وحاسمة. «لقد ترجم اخلاص رجال «الهاغاناه» في حرب التحرير الى لغة التنفيذ» ـ قال يعقوب دوري، اول رئيس اركان لكل من «الهاغاناه» وجيش الدفاع الاسرائيلي ـ «ان القوة العسكرية الكامنة التي تولدت في «الهاغاناه» لم تكن شيئا مجردا وانما نتاجا شبه ناجز. ويبدو ان كل ما كان يلزمها، زعما،

هو دفعها الى وضع دينامي. ـــ لقد وفت «الهاغاناه» بالوعد الذي التزمت الوفاء به بحلول الوقت الملائم. فخلقت من اليشوف العبري المتجمع في ارض ـ اسرائيل الشعب المقاتل، وبجلال عهدت بهذا الكنز الى وريثها: ‹جيش الدفاع الاسرائيلي› ».

وفي الواقع لم تتحمل قوات «الهاغاناه» عبء الحرب حتى اعلان اقامة الدولة، وحتى أدائها اليمين بصفتها «جيش الدفاع الاسرائيلي» فحسب، وانما ايضا كانت هي التي شكلت العمود الفقري لـ «جيش الدفاع الاسرائيلي» الذي انتصر في حرب الاستقلال.

وكانت «الهاغاناه» في الاشهر الاخيرة للحكم البريطاني في البلد، وعلى الرغم من العراقيل الصعبة التي وضعتها امامها قواته، قد بدأت بتكييف اطرها وأساليب عملها مع الظروف الجديدة للحرب التي بدأت تتكشف مباشرة بعد اعلان الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة، وفي أوج القتال تغيرت انماطها وطرائقها الى ان اصبحت جيشا بمعنى الكلمة.

1344

وفي الحقيقة، لا يمكن انهاء كتابة تاريخ «الهاغاناه» من دون الوقوف على ما فعلته في فترة حرب الاستقلال، أي: عرض تاريخ هذه الحرب من بدئها حتى نهايتها.

وهذه المهمة تستلزم دراسة علمية مستفيضة للاشتباكات، والمعارك، والالوية، والخدمات، وما شابه ذلك. وهي مهمة لم تأخذها هيئة تحرير هذا الكتاب على عاتقها. وسنترك تدوين التاريخ المفصل والكامل لهذه الفترة لكتّاب تاريخ حرب الاستقلال وباحثيها.

لكن ليس هنا ما يبرر انهاء كتاب تاريخ «الهاغاناه» من دون ان نعرض، ولو بصورة عامة جدا، نشاط «الهاغاناه» في فترة ذروة أدائها لرسالتها، الى ان انجزت مهمتها التاريخية وأصبحت جيش الدولة.

موقف الحكومة البريطانية

خلال الاشهر الخمسة والنصف الاولى لحرب الاستقلال، كان الحكم البريطاني في البلد لا يزال قائما نظريا وعمليا. واستمرت القرارات السياسية للحكومة البريطانية في كونها عاملا مقررا بالنسبة الى مصير البلد.

فور اتخاذ الامم المتحدة لقرارها، اعلنت الحكومة البريطانية نيتها في البدء بانهاء حكمها في البلد وفقا لخطة موضوعة. واشتملت الخطة، التي لم تأخذ بعين الاعتبار على الاطلاق الجدول الزمني الذي قررته الجمعية العامة للأمم المتحدة، على سحب الموظفين والجيش البريطاني من البلد بالتدريج، لتنتهي العملية في ١٩٤٨/٥/١٥. وحتى ذلك اليوم يحتفظ البريطانيون بصلاحية الحكم بلا شريك، وبعد ذلك يحتفظون حتى ١٩٤٨/٨/١ بمنطقة ميناء حيفا من اجل انهاء عملية الجلاء. ووضعت قيادة الجيش البريطاني جدولا زمنيا تخلي بموجبه القواعد والمعسكرات المختلفة.

وكان موقف الحكومة البريطانية الرسمي، من الصراع بين اليهود والعرب، هو الحياد. لكن هذا الحياد اظهر محاباة العرب والنقمة على اليهود. وتحول قرار الجمعية العامة التابعة

للامم المتحدة باعطاء اليهود ميناء وشريطا ساحليا مجاورا له في ١٩٤٨/٢/١ الى مهزلة، وفرضت سفن الاسطول البريطاني حصارا كاملا على شواطىء البلد. وكان هذا الحصار موجها، كما يبدو، ضد المهاجرين اليهود غير الشرعيين، لكنه ألحق الضرر ايضا بامكانات جلب السلاح عبر الطريق الوحيد الذي كان مفتوحا امام اليهود، وهو البحر. وبالاضافة الى جهود الحراسة العادية، استمرت بريطانيا في جهودها السياسية لخنق حركة الهجرة اللاشرعية. فأرسل احتجاج شديد اللهجة، مثلا، الى حكومة بلغاريا لأنها تسمح لسفن الهجرة غير الشرعية بالرسو في موانئها، وأُرسلت الى وزارة الخارجية الاميركية تقارير فيما يتعلق بالعناصر الشيوعية المتسللة الى البلد مع المهاجرين غير الشرعيين.

وفي مقابل ذلك، كانت حدود البلد مع الدول العربية ـ الحدود البرية ـ مفتوحة عمليا امام العصابات التي جاءت لمساعدة العرب في ارض ـ اسرائيل، وأمام تهريب السلاح. وقدمت آلاف كثيرة من المتطوعين من دون عراقيل من سورية والعراق ومصر.

وفي جلسة مغلقة للجنة التنفيذية التابعة للأمم المتحدة، قدم مندوب بريطانيا، السير ألكسندر كدوغن، في ١٩٤٨/١/٢١، تقريرا بشأن مجريات الامور في البلد شوه فيه صورة الوضع بالقائه مسؤولية الفوضى والاضطرابات التي نشبت في البلد على عاتق اليهود. وادعى ان قسوة العمليات الانتقامية التي تقوم بها «الهاغاناه» وتكوينها اليهودي الصرف، يحولان دون امكان الاعتراف بها قوة دفاع شرعية، حتى انه لمح الى ان من المحتمل ان تكون الوكالة اليهودية موافقة على نشاطات المنظمتين المنشقتين. وفي المقابل، امتدح المندوب البريطاني العرب، بزعامة «الهيئة العربية العليا» التي تتعاون ظاهريا مع السلطات لكبح جماح المتطرفين في الشارع العربي. وادعى كدوغن ان العرب يظهرون فقط عدم استعدادهم للخضوع لقرار الامم المتحدة، بينما يحاول اليهود استغلال المناقشات السياسية في الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة عن طريق اعمال ارهاب وابتزاز. 1345

ودافع المندوب البريطاني، في حديثه امام اللجنة التنفيذية في ١٩٤٨/٢/١١، عن العصابات التي غزت البلد من الدول المجاورة. فهؤلاء الغزاة ليس فقط انهم، في رأيه، لم يشكلوا خطرا على امن البلد، وانما ايضا كانوا عاملا مهدئا ومنضبطا، وكانوا مقبولين من جانب السكان المحليين. وفي صدد تعليل وزير المستعمرات البريطاني لمعارضة بلده في تنفيذ توصية الامم المتحدة بتسليم ميناء لليهود، ادعى في ١٩٤٨/٣/٢ انه بفضل النفوذ البريطاني ابدى العرب ضبطا للنفس كبيرا (considerable)، لكن اذا فتح الميناء فسوف يختفي ضبط النفس هذا.

وفي الوقت نفسه الذي منحت فيه السلطات المجلس الاسلامي الأعلى ٣٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني لتلبية الحاجات الدينية للعرب، زعما، قررت في ١٩٤٨/٢/٢٢ تجميد احتياطي الاسترليني الخاص بأرض ـ اسرائيل، وبذلك اضرت بقدرة الييشوف على اخراج الاموال لشراء السلاح للدفاع عن نفسه.

حتى انه ساد السياسيين العرب الشعور بأن البريطانيين متعاطفون معهم. «استطيع ان اؤكد لكم» ـ صرح وزير الخارجية العراقي في ربيع سنة ١٩٤٨ ـ «ان القوات العسكرية البريطانية في ارض ـ اسرائيل لن تحاول مقاومة العرب او محاربتهم، لأن بريطانيا هي صديقة حقيقية للعرب».

وكان من الامور الاخرى التي مثلت خرقا خطرا لهذا «الحياد» البريطاني، وضع مناطق عربية تحت حراسة «الفيلق العربـي». لقد كان «الفيلق» خاضعا حقا حتى منتصف ايار/مايو لقائد القوات البريطانية في البلد، لكن جنوده قدموا المساعدة خفية، وأحيانا علنا، لعرب ارض ـ اسرائيل (انظر ص 1369). وهيأ «الفيلق» نفسه، بتوجيه من ضباطه البريطانيين، للهجوم على اليهود فور انتهاء موعد الانتداب. فزيد عدد جنوده، ووضعت خطط عمليانية داخل البلد نفسه. وعندما حُل في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ «سلاح الحدود الاردني» وسرح ضباطه وجنوده البالغ عددهم ٣٢٠٠ شخص، استوعب «الفيلق العربـي» معظم جنوده وشكلوا اساس كتيبة سلاح مشاة «الفيلق»، التي كانت قيادتها عربية منذ البداية. لقد كان «الفيلق العربـي» عمليا «حصان طروادة» في قلب ارض ـ اسرائيل، وكانت مهمته ضمان ان يصبح البلد كله، اوعلى الاقل الجزء العربـي منه، خاضعا لعبد الله ملك الاردن، حليف بريطانيا والمشمول برعايتها. ولم يكن اقل شرا وصفاقة [من ذلك] اعلان الحكومة البريطانية في ١٩٤٨/١/١٤ انها ستزود بالسلاح الدول العربية المرتبطة معها بأحلاف (مصر والعراق والاردن). وبهذه الوسيلة تدفق السلاح في فترة لاحقة على العرب في ارض ـ اسرائيل. هذا، في الوقت الذي فرضت فيه وزارة الخارجية في الولايات المتحدة حظرا على ارسال السلاح من اميركا الى الشرق الاوسط، وأوقفت منح وثائق السفر لمواطني الولايات المتحدة، الذين أرادوا السفر الى ارض ـ اسرائيل والانضمام الى القوات المدافعة عن الييشوف.

من الصعب فهم هدف السياسة البريطانية هذه. ويحتمل انه داعب بعض الساسة البريطانيين الاملُ بأنه نتيجة فوضى الحكم والتفوق العددي الساحق للقوات العربية، سيضطر اليهود الى الالتفات الى مساعدة البريطانيين وطلب حمايتهم، التي ستقدم لهم وفقا لشروط تمليها بريطانيا. لكن هذه الفرضية تحتاج الى اثباتات. ومن المعقول ان بريطانيا سعت، في الاساس، لان تضمن ـ بمساعدة القوات المسلحة لدولة الاردن ـ نفوذها في الجزء الذي اعطي للعرب بموجب قرار الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة، وتوسيع حدوده، وتقوية مركز الملك عبد الله ونظامه، وضمان المصالح البريطانية في المنطقة ـ كما كانت تفهمها ـ عن هذا الطريق. 1346

ان العامل البريطاني الفعلي، الذي لعب دورا مصيريا في الاشهر الانتقالية في شتاء سنة ١٩٤٨، كان وجود عشرات الألاف من رجال الجيش والشرطة البريطانيين المسلحين. ففي خريف سنة ١٩٤٧، كان في تصرف القيادة البريطانية ٧٧,٠٠٠ من رجال الجيش (منهم ٥١٠٠ من رجال سلاح الجو الملكي)، و ٤١٠٠ شرطي بريطاني، و ١٠,٤٠٠ جندي في «الفيلق العربي» وسلاح الحدود. وكانت هذه قوة تفوق من الناحية الكمية فقط (ناهيك بالناحية النوعية لجهة التدريب والمعدات) القوة العسكرية التي كان في قدرة اليهود في البلد، او في قدرة العرب في جميع ارجاء الشرق الاوسط، تجنيدها في ذلك الوقت.

وقد حاول هذا الجيش، بصورة عامة، حماية نفسه والمنشآت اللازمة له من اجل عملية الجلاء. ومن اجل التخفيف من عبء المسؤولية عن الامن، اخلى الجيش والشرطة البريطانيان، ابتداء من ١٩٤٧/١٢/١٥، منطقة تل ابيب ــ بيتح تكفا ومنطقة نابلس، ووضعاها تحت ادارة ومسؤولية البلديات والمجالس المحلية. وصدرت أوامر الى ضباط الجيش بالمحافظة على النظام والامن في الاماكن التي يعسكرون فيها بمقدار ما يمس الامر سلامتهم وبمقدار ما يكون التدخل في الاشتباكات بين اليهود والعرب غير مرهون بخسائر للبريطانيين. وقد حافظ رجال الجيش، بصورة عامة، على الوضع القائم. وحدث في حالات عديدة ان طلب الجنود من العرب ايقاف هجماتهم على المستعمرات اليهودية، ولم يترددوا في اطلاق النار على الذين رفضوا الانصياع لهم. وفي مقابل ذلك، طُلب من اليهود ايقاف اعمال رد الفعل الهادفة الى معاقبة تجمعات السكان والاحياء العربية، التي خرجت منها الهجمات على المستعمرات او على وسائل النقل اليهودية، وخصوصا عندما كانت تجمعات السكان هذه واقعة على محاور حركة جلاء الجنود البريطانيين. وفي حالات كثيرة طلب الجيش من اليهود تسليمه احياء او قرى احتلها اليهود واعدا بعدم تسليمها للعرب، وانما التمركز فيها واعادتها الى اليهود بعد خروجه من البلد (قضية الشيخ جراح، انظر ص 1577؛ قضية حي المنشية في يافا، انظر الفصل السابع والسبعين). وفي حيفا وأمكنة اخرى من البلد، سمح الجيش للطرفين بالتقاتل، وبعد ان انتصرت قوات «الهاغاناه» على القوات العربية، اعترف بسلطة اليهود في المدينة. وفي المقابل، سُلمت غوش عتسيون للقوات العربية، بمساعدة البريطانيين وموافقتهم، قبل يومين من موعد انتهاء سلطتهم في المنطقة.

ان عدم الوضوح وفقدان الثقة بخطط البريطانيين ألزما «الهاغاناه» بأن تأخذ في الحسبان احتمال استمرار الجيوش البريطانية في نشاطها داخل حدود البلد حتى بعد الموعد الذي التزم البريطانيون ان يتركوا البلد فيه. وقد قال يسرائيل غاليلي في نيسان/ابريل ١٩٤٨: «ان عملية الجلاء مستمرة بصورة منتظمة، وعلى الرغم من ذلك فان أحدا لا يستطيع ان يضمن انتهاءها فعلا في ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨. ــ ــ وما دام البريطانيون في البلد فان استقلالنا السياسي يتأجل، وربما يفشل، لأنه مع استمرار بقائهم هذا سيستمر

الحصار على الموانىء ويحول دون تدفق الهجرة وارساليات الاسلحة والمواد الحربية التي لا نستطيع الصمود من دونها. ــ ــ ان البريطانيين يخرجون وفي نيتهم الرجوع والعودة الى أكوام خرائبنا في اثر الجيوش العربية المنتصرة». وفعلا اعاد البريطانيون الى البلد، خلال المعارك الاخيرة في يافا، قوات عسكرية لتعزيز وضعهم (انظر ص 1553).

وقد اضطر العرب واليهود على السواء الى ان يأخذوا في الاعتبار وجود قوات الجيش. وعقّد هذا العامل، الذي كان بمثابة مجهول، حسابات واضعي الخطط وألقى ظلا من الشك على نتائج جهود المقاتلين. وكلما ازدادت انتصارات «الهاغاناه» اصبح البريطانيون عامل عرقلة وكبح لنشاطاتها. وكانوا، في الاسابيع الاخيرة لوجودهم في البلد، هم الذين حالوا دون انهيار القوات العربية المحلية نهائيا. ومع ذلك، ينبغي ألا ننسى ان وجود هذه القوات في البلد حتى منتصف ايار/مايو، منع الجيوش النظامية للدول العربية من غزو البلد فعليا واستخدام المدافع والطائرات على نطاق واسع، ومنح «الهاغاناه» فسحة من الوقت لتنظيم ألويتها وحماية الييشوف الى ان وصلت، في اللحظة الاخيرة فعلا، اسلحة حديثة بكميات معقولة مكنتها من مواجهة الجيوش العربية التي غزت ارض ــ اسرائيل وقتئذ.

1347

أما موقف الشرطة البريطانية من القوات المدافعة عن الييشوف، فقد كان مختلفا بصورة جذرية. وقد تحولت الشرطة في سنوات الصراع الى تشكيل عسكري، بريطاني في اغلبيته العظمى. وفي سنة ١٩٤٦، انشىء في لندن مكتب خاص لتجنيد الاشخاص لشرطة ارض ــ اسرائيل. ودعت اعلانات كبيرة، في الصحف ولوحات الاعلانات، الشبان الى التجنيد تحت شعار «انضم الى شرطة ارض ــ اسرائيل، وظيفة تليق بالرجال (A man's job!) ٢٠ جنيها استرلينيا في الشهر اضافة الى كل مصاريفك». وفي نهاية السنة نفسها أُلحق لواء الشرطة العسكرية (P.M.P.) (انظر ص 354) بالشرطة النظامية. وفي نهاية سنة ١٩٤٦ كان ٥٧٨٤، من اصل ٨٩٢٨ ضابطا وشرطيا في شرطة ارض ــ اسرائيل، بريطانيين، اي نحو ٦٤٪. واستقال شرطيون كثيرون من القدامى، وحل محلهم مجندون من الشبان. وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، كان نصف رجال الشرطة البريطانيين تقريبا من مجندي تلك السنة. وفي السنوات ١٩٤٦ ــ ١٩٤٨ قتل ٧٧ شرطيا بريطانيا، معظمهم في اشتباكات مع المنظمتين المنشقتين. وقد ساد اوساط الشرطة عداء صريح للييشوف و«الهاغاناه»، ورغبة في ضربها بكل الطرائق الممكنة. وتشبّع بالروحية نفسها ايضا الجنود البريطانيون الذين أُلحقوا بالشرطة وعملوا تحت قيادتها. وكانت تجرى في المستعمرات اليهودية عمليات تفتيش عن السلاح، وعمليات مصادرة للسلاح بصورة منتظمة. كما كانت احيانا تجرى عمليات تفتيش في مستعمرة ما مباشرة بعد هجوم عربي عليها، بينما كان العرب في قراهم يحملون اسلحتهم بصورة مكشوفة. ووقعت عدة حالات قتل فيها بصورة اعتباطية رجال من المدافعين اليهود وقعوا في اسر الشرطة (انظر ص 1397). وحاول رجال الشرطة البريطانيون حين جلائهم تسليم مباني الشرطة (قلاع تغرات) لعصابات عربية، وأحيانا اضطرت «الهاغاناه» الى تقديم

1348

تضحيات عزيزة من اجل السيطرة على هذه المباني، التي كانت تشبه القلاع ومشيدة في امكنة استراتيجية من الناحية العسكرية. وقضية مركز شرطة النبي يوشع في الجليل الاعلى الشرقي (انظر ص 1580) وتسليم مركز شرطة عراق سويدان، لـ «المتطوعين» المصريين نموذجان كافيان لتوضيح الدور الذي قامت به الشرطة البريطانية في تلك الاشهر الانتقالية.

لكن في جو الجلاء والفوضى التي اعقبت تفتت جهاز الحكم البريطاني، برزت ايضا ظواهر اكثر خطورة: لقد عمد شرطيون وجنود الى بيع سلاح وعتاد للعرب ولليهود. وفي منطقة القدس نشطت عصابات مشكلة من أفراد فارين من قوات الامن البريطانية نظمت عمليات ارهابية ضد اليهود، كان ابرزها نسف المنازل في شارع بـن يهـودا بالقدس (انظر ص 1397). وتعرضت سياسة «الهاغاناه»، القاضية بعدم الانجرار الى معركة مكشوفة مع البريطانيين، لاختبار قاس. وفي المقابل، قامت المنظمتان المنشقتان بأعمال انتقامية ضد الجنود والضباط البريطانيين، بدأت بقتل جنود بريطانيين في شوارع القدس، وبلغت ذروتها بنسف قطار الجنود بالقرب من رحوفوت في ١٩٤٨/٢/٢٨. وجرّت هذه الاعمال في اعقابها هيجانا انتقاميا من جانب الجنود البريطانيين (قضية «هيوتسيك»، ص 1450). وعندما غادر في النهاية أواخر الجنود البريطانيين ارض ــ اسرائيل، تنفس اليشوف الصعداء.

ضعف الامم المتحدة

لم يكن لدى الهيئة التي دفعت في اتجاه تقسيم البلد واقامة الدولة اليهودية على جزء منها، قوة للمساعدة في تنفيذ قراراتها. فتضافر الظروف الذي ادى الى تعاون الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بالنسبة الى القرار الصادر في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر، لم يدم طويلا ولم يتكرر. ولم تكن الامم المتحدة سوى خلاصة لارادة الامم المشاركة فيها، وخصوصا الكبرى منها. لكن فترة النية الحسنة ولّت: فقد نظرت الولايات المتحدة باستياء وريبة الى كل خطوة سوفياتية في اتجاه الشرق الاوسط، اذ ان الطموح الاساسي للاتحاد السوفياتي كان إبعاد البريطانيين عن منطقة ارض ــ اسرائيل كلها. واجتمعت «اللجنة الخماسية» التي عينتها الامم المتحدة لتنفيذ مشروع التقسيم في ١٩٤٨/١/٩ بنيويورك. وشارك في اللجنة ممثلو كل من: بوليفيا، والدانمارك، والفيليبين، وبنما، وتشيكوسلوفاكيا. وقال لهم الامين العام للأمم المتحدة تريغفي لي، في ذلك الاجتماع: «تستطيعون ان تكونوا على ثقة بأنه اذا اقتضى الامر، فان مجلس الامن سيتحمل مسؤولية تنفيذ قرار الجمعية [العامة]». لكن الممثلين الخمسة اصطدموا، منذ بداية عملهم، بالمعارضة البريطانية لـلأمم المتحدة. وأعلمتهم الحكومة البريطانية انهم اذا جاؤوا الى ارض ــ اسرائيل فعليهم ألا يأملوا بالمساعدة من الطائفة العربية بعامتها، ولا من موظفي الحكومة العرب الذين كانوا يشكلون ٦٢٪ من مجموع جهاز الحكم في البلد. كما ان من المتوقع ان يتعرضوا للهجوم من جانب العرب،

1349 والحكومة البريطانية لا تستطيع ان تكون مسؤولة عن سلامتهم. ومع ذلك فالحكومة لن تتنازل حتى عن جزء من صلاحية الحكم الى حين انتهاء موعد الانتداب. وبناء عليه، فلن توافق ايضا على قدوم اللجنة إلا في موعد لاحق، قبل نحو اسبوعين من ١٥ ايار/مايو.

وتوجهت اللجنة بطلب الى مجلس الامن لامدادها بمساعدة عسكرية تقف الى جانبها حين قيامها بتنفيذ سياسة الامم المتحدة. وطلب من البريطانيين تقديم هذه المساعدة، لكن جوابهم كان انهم قد بذلوا دماء كثيرة من اجل الحفاظ على السلام في البلد، والرأي العام البريطاني لن يحتمل زهق أرواح وتبديد أموال بريطانيين من اجل فرض اية سياسة في ارض ــ اسرائيل. وبدا لفترة ما ان اقتراح ارسال وحدات عسكرية تابعة لأمم اخرى، في اطار قوة دولية، اقتراح واقعي. وكان هناك اناس اعتقدوا ان هذا «امر مرغوب فيه جدا» (م. شرتوك)، مع انهم لأسباب دبلوماسية كانوا مقتنعين بأنه يجب ألا تطلب ادارة الوكالة تنفيذ هذا الاقتراح صراحة؛ فمسألة الدولة اليهودية اقرت في الامم المتحدة من خلال افتراض ان الييشوف قادر على الدفاع بقواته الذاتية عن امنه واستقلاله. إلا انه اتضح بسرعة ان هذا المشروع أُلغي بعد ان جوبه بمعارضة الولايات المتحدة التي خشيت ان يُستغل الامر مدخلا لتسلل جنود دول مؤيدة للسوفيات الى الشرق الاوسط.

ولم يُستجب للطلب الذي وجهه م. شرتوك الى مجلس الامن بالغاء الحظر على ارسال السلاح الى ارض ــ اسرائيل، وبتقديم مساعدة الى اولئك المستعدين لتنفيذ قرارات الامم المتحدة (اي اليهود) وحجبها عن المعارضين للقرار، بما في ذلك دول الجامعة العربية. ورفض البريطانيون ايضا السماح للاجئين اليهود بالهجرة، بحجة ان قدوم مهاجرين يهود كثيرين، من المحتمل ان يجلبوا معهم ايضا سلاحا، سيؤجج الحرب الاهلية في البلد ويزيد في صعوبة جلاء الموظفين والجنود البريطانيين.

وفي ١٩٤٨/٢/٢٢، وصل الى البلد اربعة من العاملين في «اللجنة الخماسية». واستقبلهم البريطانيون ببرود شديد، ولم يقدموا لهم اية مساعدة. وكانوا في اثناء وجودهم في القدس محتجزين عمليا في منطقة الامن البريطانية في المدينة. وفي ١٩٤٨/٣/١٦، نشرت «اللجنة الخماسية» تقريرا اتهمت فيه البريطانيين بزيادة وضع الامن في البلد سوءا، وأعلنت انها لا تستطيع تنفيذ التقسيم واقامة حكومتين، يهودية وعربية، بسبب موقف حكومة الانتداب والعرب السلبي، وبسبب رفض مجلس الامن وضع قوات مسلحة في تصرف اللجنة.

تراجع حكومة الولايات المتحدة

وفعل الزمن فعله، وبدا انه يعمل لمصلحة العرب. وتزايدت الاشتباكات الدامية. ولم تتزحزح بريطانيا عن موقفها، وكان واضحا انها راضية عن الفوضى التي عمت البلد.

وتآمر وكلاء شركات النفط الاميركية، الذين انصرفوا في تلك الايام بالذات الى زيادة انتاج النفط في الدول العربية بلا انقطاع لتخريب انجازات الحركة الصهيونية. وأثار دعم الاتحاد السوفياتي لمشروع التقسيم في مخيلة المسؤولين عن امن الولايات المتحدة الانطباع بأن الدولة اليهودية يمكن ان تستخدم نوعا من رأس جسر لوصول السوفيات الى قلب الشرق الاوسط. وأعرب ممثلو وزارة الدفاع الاميركية، الذين كانوا مقتنعين بتفوق الجيوش العربية على اليهود، عن رأيهم امام لجان في مجلس النواب الاميركي، في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، في ان مشروع التقسيم ينطوي على أخطار كثيرة بالنسبة الى الوضع الاستراتيجي للولايات المتحدة في الشرق، وأن الولايات المتحدة ليست ملزمة بدعم هذا المشروع، اذا كان من غير الممكن تنفيذه من دون اللجوء الى استخدام القوة. وأثّر الوضع الدولي المتوتر في تلك الاشهر، وخشية زعماء الولايات المتحدة ان يزداد التوتر بينهم وبين الاتحاد السوفياتي، بدورهما، في السياسيين. بينما ادى وضع اليهود العسكري الصعب في الاشهر الاولى من الحرب، الى تزايد الاعتقاد ان الدعاية الصهيونية بالغت فيما يتعلق بالقدرة العسكرية للييشوف العبري في ارض ــ اسرائيل، بل حتى انها ضللت الرأي العام العالمي في هذا الشأن. 1350

وفي ١٩٤٨/٣/١٩، اعلنت الولايات المتحدة على الملأ تراجعها عن مشروع التقسيم. وأعلن وورين اوستن، مندوبها في مجلس الامن، ان المجلس لا يستطيع ان يفرض بالقوة مشروعا لا يمكن تنفيذه بالطرق السلمية. واقترح، باسم حكومته، تأليف لجنة وصاية موقتة لأرض ــ اسرائيل برعاية مجلس الوصاية التابع للامم المتحدة، ومنح اليهود والعرب مهلة وفرصة للتوصل الى اتفاق فيما بينهم، من دون اقرار اية توجيهات مسبقة فيما يتعلق بهذا الاتفاق. واقترح ايضا عقد دورة استثنائية للامم المتحدة لمناقشة مقترحه هذا. وفي جلسة مغلقة للجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ الاميركي، علل وزير الخارجية، مارشال، التغيير في سياسة الولايات المتحدة بسببين:

«أ ــ عندما اتضح ان تنفيذ التقسيم يتطلب قوات عسكرية كبيرة لفترة يحتمل ان تستمر زمنا طويلا، شعرت الولايات المتحدة بأنها ملزمة باعادة النظر في موقفها؛ ب ــ من شأن اية قوة عسكرية للأمم المتحدة ان تؤدي الى تغلغل وحدات عسكرية روسية كبيرة في ارض ــ اسرائيل وجوارها؛ وقد علمتنا التجربة انه عندما تتغلغل قوات عسكرية سوفياتية في منطقة ما، فانها تميل الى البقاء فيها. ومثل هذا الوضع يحتمل ان يضعف الى حد كبير امن الديمقراطيات الغربية في حوض البحر الابيض المتوسط».

وقد اذهل هذا التراجع من جانب الولايات المتحدة الحركة الصهيونية، وبعث السرور بين العرب. واحتجت الوكالة اليهودية والمجلس القومي بشدة، ورفضا اي مشروع لنظام وصاية ولو لفترة قصيرة. «ان اقامة الدولة اليهودية»، رد د. بن ــ غوريون على البيان الاميركي، «لم تكن متوقفة عمليا على قرار الامم المتحدة الصادر في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ــ مع انه كان لهذا القرار قيمة ادبية وسياسية كبيرة ــ وانما على امكان رجحان كفتنا في البلد

بقوتنا نحن. واذا توفرت الارادة وتمكنا من تعبئة قوتنا بكامل قدرتنا، فسوف تقوم الدولة حتى الآن ايضا».

وفي ١٩٤٨/٣/٣٠، قدم وورين اوستن في مجلس الامن اقتراحا جديدا، دعا فيه زعماء اليهود والعرب في البلد الى ارسال مندوبين عنهم الى مجلس الامن لاجراء نقاش بصدد هدنة. وشدد القرار على المسؤولية الجسيمة التي سيتحملها الطرف الذي سيرفض تنفيذ القرار، وناشد المجموعات المسلحة اليهودية والعربية التوقف فورا عن اعمال العنف. وكررت الولايات المتحدة مطالبتها بعقد دورة استثنائية للجمعية العامة التابعة للامم المتحدة، لمناقشة نظام الحكم الذي ينبغي ارساؤه في المستقبل القريب في ارض ـ اسرائيل.

ورحب المندوب السوري في الامم المتحدة باقتراح الدعوة الى عقد دورة استثنائية للجمعية العامة، من اجل رفض تنفيذ مشروع التقسيم، لكنه امتنع عن ابداء رأيه في الهدنة. وأبدت الوكالة اليهودية استعدادها لهدنة في جميع انحاء ارض ـ اسرائيل، شرط ان تخرج كل القوات الاجنبية والعصابات الاجنبية من البلد، وتنقل كل وحدات «الفيلق العربي» الى الجانب الشرقي من نهر الاردن. وطالبت الوكالة ايضا بألا تحول الهدنة دون هجرة اليهود، مهما تكن اعمارهم ووضعهم الصحي. وأعلن م. شرتوك امام مجلس الامن انه يجب ألا تحول الهدنة دون تحقيق الاستقلال. فالصهيونيون تخطوا عتبة مكانة دولة، ولن يتراجعوا عنها.

وفي ١٩٤٨/٤/١٧، ناشد مجلس الامن العرب واليهود «ايقاف جميع الاعمال الحربية وشبه الحربية». وبعد خمسة ايام ألفت لجنة للهدنة من قناصل كل من اميركا وبلجيكا وفرنسا في القدس.

وعقدت الدورة الاستثنائية للامم المتحدة بناء على توصية مجلس الامن لمناقشة مستقبل ارض ـ اسرائيل. وفي ١٩٤٨/٤/٢٠، عرض امامها اقتراح الولايات المتحدة بأن يرسل الى ارض ـ اسرائيل، حين انتهاء موعد الانتداب البريطاني، حاكم عام من قبل مجلس الوصاية التابع للامم المتحدة، وبأن تدير شؤون البلد حكومة تكون مسؤولة امام مجلسين تشريعيين: مجلس نواب يُنتخب اعضاؤه في انتخابات على اساس المناطق؛ ومجلس شيوخ نصف اعضائه من اليهود والنصف الآخر من العرب. وتكون للحاكم العام صلاحية ادارة الدولة بلا حكومة، وانما بمساعدة موظفيه، وصلاحية حل المجلسين اذا ارتأى ذلك. واشتمل الاقتراح على ضمانات لهجرة عدد كبير من النازحين خلال السنتين الاولين لقيام هذه الدولة. وبعد ذلك يسمح بهجرة اضافية «وفقا لقدرة استيعاب ارض ـ اسرائيل كما يحددها الحاكم العام، وتكون مقيدة بتحفظات لجهة النظام العام والامن، والاخلاق العامة، والوضع الصحي للشعب». ويحل محل قانون الاراضي تشريع يحمي اصحاب الاراضي الصغيرة او المزارعين المستأجرين. ويستمر هذا النظام الى ان يتوصل اليهود والعرب الى اتفاق عام يتعلق بأساليب حكم البلد، وتصادق عليه الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة.

1351

لكن وصلت في تلك الاثناء الاخبار من البلد عن انتعاش اليهود، وعن الضربات التي انزلوها بـ «جيش الانقاذ» العربي في مشمار هعيمك، وعن انتصار «الهاغاناه» في حيفا. وأصبح في وسع غرندوس مندوب غواتيمالا، صديق اسرائيل، ان يخالف الولايات المتحدة ويقول ان «السؤال الماثل امامنا ليس هو: ما هي القوة المطلوبة من اجل تنفيذ التقسيم؟ وانما هو: ما حجم القوة المطلوبة لافشاله». وأثارت المقترحات الاميركية استياء مندوبين كثيرين، رأوا فيها اهانة للامم المتحدة. وصرح مندوب نيوزيلندا في الجلسة الاولى للجمعية العامة، انه اذا لم تنجح الامم المتحدة في تنفيذ قرارها، «فان هناك خطرا في ان تفقد الجمعية العامة ثقة الجمهور، الذي تعتمد عليه في سلطتها. ـــ واذا ما رضخنا للتهديدات والعدوان فسيكون ذلك ضربة قاضية ومأساوية للامم المتحدة. ان من شأن مستقبل هذه المنظمة ان يتقرر بناء على طابع القرار المتخذ. والعالم بحاجة الآن الى التصميم لا الى القرارات».

وبحسب شهادة غرندوس قال وورين اوستن في لقاء مع مندوبي دول اميركا الجنوبية، انه «يأمل بأن تحتفظ بريطانيا بجيوشها في ارض ـ اسرائيل وتستخدمها في فرض الوصاية بمساعدة الولايات المتحدة وكل الامم المستعدة للمساعدة». وأثار قدوم جيوش بريطانية اضافية الى ارض ـ اسرائيل، في ١٩٤٨/٥/١، شائعات بأن البريطانيين سيتراجعون عن نيتهم في اجلاء جيوشهم عن البلد حتى ١٥ ايار/مايو. وعزز هذه الشائعات اعلان وزير الخارجية البريطانية، بعد ثلاثة ايام من ذلك، ان حكومته ستدرس بحذر الدعوة الى التعاون من اجل تقديم مساعدة لحكومة انتقالية في ارض ـ اسرائيل. أما الاتحاد السوفياتي، الذي خشي ان تكون بريطانيا تبحث عن سبل للبقاء في البلد، فقد رفض بشدّة المقترحات المقدمة للجمعية العامة. واستمر النقاش العسير. وفي ١٩٤٨/٥/٣، اقترح كريتش ـ جونز اقامة «سلطة عامة لوقت الطوارىء» في البلد، وألفت لجنة فرعية لدراسة مختلف المقترحات المتعلقة بنظام الحكم الانتقالي، وبدأت بوضع المقترحات، لكن العرب واليهود رفضوا هذه المقترحات.

وفي الوقت نفسه، مارس ممثلو وزارة الخارجية الاميركية ضغطا عنيفا على الزعماء الصهيونيين، لاقناعهم بالامتناع عن اعلان الدولة يوم انتهاء الانتداب. وسمعت تهديدات بأن الحركة الصهيونية يمكن أن تفقد تعاطف الولايات المتحدة، وأن الحكومة الاميركية يمكن ان تلحق الضرر بـ «الجباية اليهودية الموحدة». وعندما اتضح ان النقاش في الجمعية العامة لن ينتهي الى نتيجة قبل الموعد المطلوب، قدمت الولايات المتحدة مقترحا يدعو العرب واليهود الى الاحجام عن القيام بأي نشاط سياسي ما دام النقاش بصدد مسألة ارض ـ اسرائيل مستمرا. واقترح ايضا ارسال مفوض من قبل الامم المتحدة الى ارض ـ اسرائيل.

وحان وقت اتخاذ القرار. ولم تنجح الولايات المتحدة في تمرير مقترحاتها. وكان القرار الوحيد الذي اتخذ، في ١٩٤٧/٥/١٣، هو قرار حل «اللجنة الخماسية»، وتعيين مفوض تحولت تسميته الى لقب اكثر تواضعا: «وسيط (Mediator) الامم المتحدة». وكُلِّف التفاوض

1352

مع الطرفين المتحاربين. وبعد ستة ايام من ذلك، عين للقيام بهذه المهمة الامير السويدي فولك برنادوت، رئيس لجنة «الصليب الاحمر» في السويد.

لكن زعماء الحركة الصهيونية لم يوقفوا ضغطهم على الرئيس ترومان، حتى بعد تراجع الولايات المتحدة. وبواسطة الصديق الشخصي للرئيس، ايدي يعقوبسون، وشخصيات اخرى، اقيم اتصال دائم بين الدكتور وايزمن وترومان. وكان وايزمن مقتنعا بأنه ينبغي عدم اضاعة الفرصة واعلان اقامة الدولة اليهودية، على الرغم من كل شيء. وقبل يومين من انتهاء موعد الانتداب، ارسل الدكتور وايزمن من مقره في نيويورك رسالة الى «البيت الابيض»، اعرب فيها عن امله بأن «تعترف الولايات المتحدة بسرعة بالدولة اليهودية الجديدة».

وفي ابان مناقشات الجمعية العامة، علمت الجمعية بأن ممثلي البيشوف العبري المنتخبين اعلنوا قيام دولة اسرائيل. وعادت الولايات المتحدة ففاجأت العالم السياسي مرة اخرى؛ ففي الوقت نفسه الذي كان فيه مندوبوها في مباني الامم المتحدة يجهدون لاقناع مندوبي الدول الاعضاء في الامم المتحدة بقبول مقترحاتهم، بصدد نظام الحكم الانتقالي، تلقى ممثل الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، إلياهو ايبشتاين (ايلات)، تلميحا من «البيت الابيض» الى انه اذا طلب ممثلو اسرائيل، بصورة رسمية، اعتراف الولايات المتحدة بدولتهم الجديدة، فان طلبهم سيرد عليه بالايجاب. وأرسلت الرسالة المطلوبة، واستجاب رئيس الولايات المتحدة لها وأعلن اعتراف حكومة الولايات المتحدة الواقعي (de facto) بدولة اسرائيل. وبعد ثلاثة ايام من ذلك، اعترفت حكومة الاتحاد السوفياتي اعترافا شرعيا (de jure) بالدولة الجديدة.

الاستعدادات لاقامة الدولة اليهودية

فور صدور قرار الامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، بدأت المؤسسات القومية للييشوف بوضع الخطط لاقامة دولة عبرية، لتحل في الموعد المحدد محل دولة الانتداب. فشكلت «فعدات همتساف» [لجنة الطوارىء] التي شارك فيها بعدد متساو ممثلون عن المؤسستين: «هسوخنوت هيهوديت» [الوكالة اليهودية] و«هفاعد هلئومي» [المجلس القومي]. وتولت لجنة مصغرة، برئاسة زئيف شارف، امر وضع «اقتراح بتكوين دوائر» الحكومة العبرية. وطرح اقتراح بانشاء ١٣ وزارة، بينها ايضا «وزارة الدفاع»، وتم حساب العدد المطلوب من الموظفين وبدأت اتصالات بموظفي الحكومة اليهود والعاملين في الوكالة اليهودية وشخصيات اخرى، وأُعدت حسابات الميزانية السنوية الاولى.

لكن اطر المؤسسات القديمة لم تكن ملائمة لاغراض الظرف الجديد. فرؤساء المؤسسات ودوائرها المختلفة كانوا موزعين بين القدس وتل ابيب، ولم يكن في الامكان عقد اجتماعات وجلسات كما ينبغي. ونشبت ايضا خلافات في الرأي حول توزيع المهمات على

المؤسسات. وكانت الوكالة اليهودية، بحكم طبيعة جوهرها، مؤسسة دولية، ولم تكن ملائمة لادارة دولة اقليمية، وفي المقابل كانت سلطتها ووسائلها اكبر من سلطة المجلس القومي ووسائله. وكانت هناك جهات مختلفة في اليشوف غير مشاركة في المجلس القومي، وكانت صلاحيتها عمليا ضيقة. وبمبادرة من المجلس القومي تقرر تشكيل «مجلس وزاري موقت» مشكل من اعضاء ادارة ارض ـ اسرائيل التابعة للوكالة اليهودية وأعضاء ادارة المجلس القومي، البالغ عددهم سوية ٢٣ شخصا. واقترح اشراك جميع الاطراف في اليشوف في «المجلس الوزاري الموقت»، بمن في ذلك التصحيحيون ورجال «اغودات يسرائيل» وحتى الشيوعيون اليهود ـ الذين غيروا توجههم وأصبحوا من انصار الدولة اليهودية بعد ان «أعطي لهم ضوء اخضر» بذلك في اعلان غروميكو ـ وجهات اقتصادية وطائفية ومنظمات النساء وما شابه ذلك. ووصل عدد المرشحين للمجلس الى ٣٧ شخصا.

وحسم الامر بصورة نهائية في جلسة اللجنة التنفيذية الصهيونية، التي عقدت في ٧ ـ ١٩٤٨/٤/١٢ بتل ابيب. وتقرر في هذه الجلسة المصيرية انه «مع انهاء سلطة حكومة الانتداب وانتهاء الحكم الأجنبي في ارض ـ اسرائيل، ينبعث الشعب في ارض أجداده ويبني استقلاله في ارض الوطن». وأقر تشكيل «موعيتسيت هعام» [مجلس الشعب] من ٣٧ عضوا، تمثلت فيه جميع احزاب اليشوف وتياراته. وبما ان هذه الهيئة الواسعة لم يكن في استطاعتها ادارة شؤون الدولة الآنية، فقد تم انتخاب هيئة مصغرة من ١٣ عضوا دعيت باسم «منهيلت هعام» [الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب]. وتحول «مجلس الشعب» لاحقا، حين انتهاء الانتداب، الى مجلس الدولة الموقت، بينما تحولت «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» الى الحكومة الموقتة. وفي ١٩٤٨/٤/١١ جرت تسمية اعضاء «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب»: اربعة اعضاء من ماباي (د. بن ـ غوريون، وأ. كابلان، و د. ريمز، و م. شرتوك)؛ عضوان من «الصهيونيين العموميين» (ب. بيرنشتاين، و ي. غرينبويم)؛ عضوان لـ «مزراحي» و «هبوعيل همزراحي» (الحاخام ي. ل. فيشمان، و م. شابيرا)؛ عضوان لمابام (م. بنطوف، و أ. تسيزلينغ)؛ عضو واحد من «هعلياه هحداشاه» [كتلة المهاجرين الجدد] (ب. روزبليت)؛ عضو واحد من السفارديم (ب. شيتريت)؛ عضو واحد من «اغودات يسرائيل» (الحاخام ي. م. ليفن).

1353

وأُعلن قرار مهم آخر يتعلق بأول قرض داخلي في ارض ـ اسرائيل مقداره خمسة ملايين جنيه: «قرض الدفاع عن النفس والامن والتحصين».

وأُقرت في هذا الاجتماع ايضا صيغة الاتفاق بين «الهاغاناه» والايتسل (انظر ص 1556)، الذي كان بمثابة خطوة اولى لتصفية الانشقاق في المجال العسكري.

وفي الجلسة الاولى لـ «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» التي عقدت في ١٩٤٨/٤/١٨، وزعت المهمات بين اعضائها، وتقرر ان يكون لقبهم موقتا: «مدراء». وتقرر في هذه الجلسة جباية ضريبة الدخل وباقي الضرائب، ووضع القرض القومي، الذي اعلنته الوكالة اليهودية، في تصرف «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب». وبذلت جهود لجمع «مجلس

الشعب»، لكن اتضح ان ثلث اعضائه موجود في القدس. وأخذت «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب»، التي كان مقرها في تل ابيب ـ حيث كانت اغلبية اعضائها تقيم ـ على عاتقها مهمة ادارة الشؤون اليومية.

وفي رسالة الى اعضاء الهيئة التنفيذية حث د. بن ـ غوريون، عشية سفره الى القدس في ١٩٤٨/٤/١٩، زملاءه على ان يكب كل منهم على أداء مهمته الجديدة المرتبطة بأمن اليشوف وقدرته على الصمود في المعركة. «بصفتي احد الاشخاص الذين تحملوا حتى الآن عبء الامن»، كتب د. بن ـ غوريون، «اجد لزاما علي ان ألفت اهتمامكم الى القيمة الحيوية والمصيرية لعامل الوقت. ان كل يوم يمر من دون جهد اقصى (لا من جانب جنودنا فقط، فهؤلاء يقومون بما عليهم) من جانب اليشوف كله، وفي طليعته مديروه، هو خسارة لا يمكن تصور نتائجها المرعبة. وعلى الهيئة التنفيذية، في رأيي، ان تنبري فورا الى تنظيم الخدمات الحيوية: القوة البشرية، والنقل، والمالية (الضرائب والقروض والجباية)، والوقود، والمؤونة العسكرية والمدنية، وما شابه ذلك. ولتتخذوا تدابير موقتة ـ اذا كان من الصعب اتخاذ الترتيبات الثابتة والدائمة فورا لسبب ما ـ لكن بحق الله، لا تؤجلوا تنظيم العمل اكثر من ذلك».

وفي اليوم التالي افتتحت جلسة الهيئة التنفيذية في تل ابيب برئاسة دافيد ريمز. وانتخب د. بن ـ غوريون رئيسا للهيئة ومديرا للدفاع. وتقرر في هذه الجلسة «نقل ملكية» مكاتب الحكومة الراحلة وممتلكاتها الداخلة في نطاق الحكم المركزي والاقليمي «الى الهيئة بصفتها وريث حكومة الانتداب».

وقبل عشرين يوما من قيام الدولة، قررت «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» ـ على سبيل التجربة ـ تسمية الدولة الجديدة باسم «اسرائيل». وبذل «المدراء» كل ما في وسعهم لاقامة دوائر حكومية بدلا من الدوائر البريطانية التي تفتتت وصفيت. وتحولت دوائر المجلس القومي، الخاصة بالتعليم والصحة والمعونة الاجتماعية، الى دوائر حكومية. ومن بين الدوائر الجديدة التي انشئت يجدر التنويه بدائرة البريد بادارة دافيد ريمز التي نظمت، فور اغلاق البريد البريطاني في نهاية نيسان/ابريل، بريدا عبريا، كانت طوابعه طوابع «هكيرن هكييمت ليسرائيل» المطبوع عليها ختم «بريد». وفي الوقت نفسه، اعدت بسرعة مجموعة الطوابع الاولى للدولة، لكن بما انه لم يكن قد اتخذ بعد قرار بشأن اسمها، فقد طُبعت عليها كلمتا «بريد عبري». 1354

وطلبت أوامر استثنائية، صدرت باسم المؤسسات اليهودية، «من جميع موظفي الحكومة اليهود الاستمرار في عملهم بمكاتبهم الحالية كي لا تتضرر الخدمات العامة مع زوال حكومة الانتداب». وعندما امرت حكومة الانتداب، قبل ايام من انتهائه، باغلاق المصارف لم تنشر الصحف هذا الامر، ولم تنفذه المصارف التي كانت على علم به.

وباختصار، تم عمل كل ما يلزم كي لا يشعر اليشوف بأن الحكم المدني في البلد قد

انهار. ولم تصب الفوضى، التي عمت البلد عامة والسكان العرب خاصة، الييشوف العبري. وتقبل هذا الييشوف بثقة مؤسساته الجديدة، التي كان قسم كبير منها بالنسبة اليه غير جديد، اذ ان المجلس القومي والوكالة اليهودية وهيئات عامة اخرى كانت تقوم، من قبل، بمهمات رسمية مختلفة في مجال الاستيطان والزراعة والمالية والتربية والتعليم والصحة والمعونات الاجتماعية والدفاع. واستخدمت اطر مؤسسات الحكم الذاتي هذه، التي اعتبرها ابناء الييشوف «الدولة في طور التكوين»، قاعدة صلبة لاقامة دولة اسرائيل.

قرار اعلان الدولة

بات موعد انتهاء الحكم البريطاني وشيكا. وفي ١٩٤٨/٥/١٢، عقدت «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» جلسة حاسمة، قدم فيها موشيه شرتوك، الذي عاد الى البلد للمشاركة في اتخاذ القرار الحاسم، تقريرا عن التحذير الخطر لوزير الخارجية الاميركي، مارشال، بتأجيل القرار بصدد الدولة اليهودية وعقد هدنة في ارض ــ اسرائيل لمدة ثلاثة اشهر. وخلال هذه الفترة تمنح السلطة السياسية العليا في البلد للجنة الهدنة التابعة لمجلس الامن، وتكون هذه الجهة المقررة سواء فيما يتعلق بمسائل الامن او المسائل الاخرى المتعلقة بالسياسة في ارض ــ اسرائيل (الهجرة والاستيطان وما شابه). وقيل لشرتوك بوضوح انه «اذا سار اليهود في طريقهم، فيجب ألا يطلبوا مساعدة الولايات المتحدة في حال حدوث غزو».

وطُلب من الهيئة التنفيذية اتخاذ قرار بشأن السبيل الذي ستسلكه في الايام القريبة القادمة، في ضوء تحذير الولايات المتحدة هذا. ولم يكن القرار سهلا. كان واضحا انه فور انتهاء الانتداب البريطاني ستعمد القوات المصرية والعراقية والسورية واللبنانية الى غزو البلد. وكان الامل بأن «الفيلق العربي» لن يتدخل في هذه المواجهة قد تبدد بعد ان تراجع ملك الاردن، عبد الله، عن وعده في هذا الشأن قبل نشوب الحرب (انظر ص 1368). وكان «الفيلق العربي» يعادل، من الناحية العسكرية، كل الجيوش الاخرى التي كانت على وشك الدخول في معركة ضد الييشوف. ولم يكن من الممكن الاستخفاف بموقف بريطانيا والولايات المتحدة المعارض لاعلان الدولة. «اذا اخذت بريطانيا على عاتقها»، قال بن ــ غوريون، «مهمة فرض حصار علينا وأغلقت في وجهنا كل طريق للمساعدة وسلّمتنا (كما هو الوضع الآن) للعالم العربي ــ ولنفترض ان الامر سيتم بموافقة اميركا ــ فان وضعنا سيصبح عندها خطرا جدا».

لقد طلب اعضاء «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» استمزاج رأي زعماء «الهاغاناه» في الوضع العسكري واحتمال غزو الجيوش العربية بعد اعلان اقامة الدولة. ودعي الى الجلسة يسرائيل غاليلي وقائد العمليات يغئيل سوكنيك (يادين).

وعرض سوكنيك الوضع الخطر على الجبهات، وذكر ان ٦٧٪ فقط من الجنود يملكون

سلاحا. وتكلم عن هزائم وانجازات، وعن ضرورة نقل القوات باستمرار من قطاع الى آخر، احيانا الى درجة تعرض للخطر القدرة على الصمود في القطاع الذي جرى تخفيف القوات فيه. وتوقف بصورة خاصة عند المعركة اليائسة التي كانت تدور في ذلك اليوم في غوش عتسيون.

1355

وبالنسبة الى الغزو قال سوكنيك ان «الهاغاناه» متأهبة، على اساس افتراض ان الغزو مؤكد، وبالتالي ركزت كل قواتها وأسلحتها في الامكنة المحتمل ان تكون ميدانا للاشتباك في المعركة الاولى. وذكر ان هناك خططا لعمليات هجومية على الحدود وما وراءها حين حدوث الغزو.

ولخص رأيه في ان الدول العربية تتمتع بتفوق مطلق علينا في السلاح والمدرعات والطيران، لكنه شدد على انه في حالات معينة من الثابت ان العدد وكمية السلاح ليسا هما العامل المقرر: قدرة المقاتلين، ومعنوياتهم، والتخطيط، والتكتيك الذي نختاره ــ هذه كلها يمكن ان تؤدي الى التغلب على قوة العدو. وبحسب رأيه، لن ينجح العرب في تركيز كل قوتهم في جبهة واحدة، وحتى ليست لديهم خطة لذلك. وقال انه في مجمل الامر، فان الفرص العسكرية متعادلة تقريبا. وقال ايضا ان علينا، من الناحية العسكرية، ان نتوخى اقصى درجات الحذر، وذكر ان معنويات قسم كبير من الرجال متدنية، ويحتمل ان تنخفض اكثر في كل مكان نضطر فيه الى العمل ضد مدرعات ومدفعية نفتقر نحن اليها. ومع ذلك، فان السلاح الاضافي من الانتاج المحلي اثر كثيرا لمصلحتنا، وخصوصا ادخال السلاح ضد الدبابات والمصفحات (البيات من انتاج الصناعة العسكرية) والمدافع من عيار ٢٠ ملم (مشتراة من الخارج ــ انظر الفصل السادس والسبعين) التي كانت جيدة ايضا كسلاح مضاد للطائرات وأيضا للدبابات والمصفحات والتحصينات.

وفي سياق النقاش طلب سوكنيك ما يحتاج اليه من اجل الاستعداد لمواجهة الغزو: تعبئة كل وسائل النقل في البلد وكل الخبراء العسكريين، وتجميع السلاح الذي ما زال موجودا في المستعمرات.

وأعرب غاليلي عن رأيه في ان [نتيجة] التصدي لجيوش الدول العربية النظامية مرهونة بالتغلب على المدى (اي: جلب سلاح بعيد المدى)، وبالتغلب على المدرعات. ولذا لا بد من بذل جهد كبير لجلب تلك الطائرات التي تم شراؤها الى البلد (طائرات مقاتلة وقاذفات)، وعدد اكبر من المدافع «موجودة هي ايضا في حيازتنا»، من الخارج. وقوّم غاليلي الموقف قائلا ان وضعنا، من ناحية السلاح، يمكن ان يتحسن خلال ٧ ــ ١٠ ايام، وأكد ان في الامكان تصور سقوط غوش عتسيون، لكن هذا لا يعني خسارة المعركة.

وسئل ممثلو «الهاغاناه» عما اذا كانت منظمتهم معنية من الناحية العسكرية بهدنة مدتها ثلاثة اشهر. وكان جوابهم انه من الناحية العسكرية ستكون للهدنة ميزة كبرى، فيما اذا استغل الوقت لجلب السلاح من الخارج وتدريب المقاتلين وما شابه، «لكن لا يمكن للهدنة

ان تكون منفصلة ومقطوعة الجذور عن ظروف سياسية محيطة، يمكن ان تُفشل كل ما انجزناه سابقا حتى من الناحية العسكرية» (ي. غاليلي).

وقد ارتأى ممثلو «الهاغاناه» ان من واجبهم ان يطلعوا «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» على حقيقة الوضع العسكري، لكن مع ذلك لم يطالبوا بهدنة كان من المحتمل ان تؤدي الى تأجيل اعلان اقامة الدولة.

وأشار دافيد بن ـ غوريون الى حقيقة ان الهدنة لن تلزم عمليا سوى العرب القاطنين في ارض ـ اسرائيل، اذ لن تمنع الدول العربية من الاستمرار في استعداداتها للمعركة. «انهم سيعززون في هذه الاثناء قواتهم، لأن أحدا لن يتدخل في نشاطات دول مستقلة. أما نحن فستكون ايدينا مكبلة، وستكون الهجرة مقيدة وكذلك جلب السلاح، وربما فرضوا ايضا رقابة على انتاجنا للسلاح، ولذا لا ارى اية فائدة في هدنة بيننا وبين عرب ارض ـ اسرائيل».

«لدينا كنوز من السلاح، لكن ليس في البلد. ولو كان جميع السلاح الذي في حيازتنا في مكان ما هنا، لاستطعنا ان نصمد بقلب مطمئن (ايضا ليس من دون خسائر) ولدخلنا هذه المعركة بسهولة اكبر، حتى لو عملت مصر والعراق ضدنا». 1356

وأشار بن ـ غوريون الى حجة اخرى [لحساب رفض الهدنة واعلان قيام الدولة]، وهي ضرورة انشاء سلطة مخولة تستطيع ان تعبىء كل الطاقة البشرية ووسائل النقل والاغذية، وتوظيفها وفقا لحاجات الحرب وحاجات بقاء الييشوف. وهذه السلطة لا يمكن ان تكون إلا سلطة دولة ذات سيادة. وردا على سؤال عما اذا كان يعتقد ان في الامكان فعلا الصمود في وجه الغزو، قال بن ـ غوريون:

«جوابي هو: اذا استطعنا زيادة القوة البشرية المجندة عن طريق تجنيد اضافي في البلد وهجرة من الخارج، واذا وسّعنا نطاق التدريبات وزدنا العتاد ـ جزء بواسطة انتاجنا في البلد وجزء اكبر عن طريق جلب ما اشتريناه في الخارج الى البلد ـ فاننا نستطيع الصمود وأيضا الانتصار، وان كان الامر لن يتم من دون خسائر وهزات عنيفة، وهذا ما يجب ان نعد الييشوف له». وحجة اخرى لمصلحة قرار ايجابي كانت ضرورة اخذ الحالة المعنوية السائدة في الييشوف بعين الاعتبار. فالييشوف، بما فيه الجنود، كان متوترا في انتظار اعلان الدولة. وتأجيل الاعلان والقبول بالهدنة وحكم لجنة الهدنة من المحتمل ان يدمرا هذا التوتر ويثيرا نزاعا داخليا في الييشوف» قد يؤثر سلبا ايضا في قدرة الييشوف القتالية، وفي الروح المعنوية لجنوده (ز. شارف).

ووقف اعضاء «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» العشرة، الذين حضروا هذه الجلسة المصيرية (ثلاثة من مجموع الاعضاء لم يتمكنوا من المشاركة فيها: ي. غرينبويم والحاخام ي. ل. فيشمان كانا في القدس عاجزين عن المجيء الى تل ابيب، والحاخام ي. م. ليفن كان وقتئذ في الولايات المتحدة) امام مسؤولية تاريخية جسيمة. ذكر زئيف شارف،

الذي كان يحضر الجلسة: «كانت الآراء منقسمة، لكن الذين عبروا عن آرائهم كان هاجسهم موضوع البحث، ولا شيء سواه. ولم يكن النقاش يتسم بنزعة شخصية او حزبية، ولم يكن هناك كلام يتسم بالتردد او عدم استشفاف الخطر. وقد عرف الجميع ان كفتي الميزان متعادلتان؛ فكل فرص المستقبل من ناحية، والمجازفة بكل الانجازات من ناحية اخرى، موضوعة في كفتي الميزان».

واتخذ القرار برفعة يد بسيطة من قبل اعضاء «الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب» الحاضرين. وتقرر بستة أصوات ضد اربعة رفض الاقتراح المتعلق بالهدنة، وبالتالي تقرر تلقائيا انه مع انتهاء الانتداب ستقوم مكانه دولة يهودية، تحدد اسمها في الليلة نفسها: دولة اسرائيل.

اليوم الاخير للحكم البريطاني في ارض ــ اسرائيل

حل يوم ١٤/٥/١٩٤٨، اليوم الاخير للحكم البريطاني في ارض ــ اسرائيل. وبذلك مرت ثلاثون عاما ونصف العام منذ ان اجتاز الجنرال أللنبي أبواب القدس (انظر المجلد الاول، ص 476). وكانت تلك أعوام أضواء وظلال في تاريخ البلد. لكن في الأعوام العشرة الاخيرة تغلبت الظلال على الاضواء، وأصبح الييشوف يرى في الحكم البريطاني قوة معادية ومتآمرة على مستقبله. وبعد عامين ونصف العام من النضال لم يبق امام البريطانيين من خيار سوى مغادرة البلد وهم يجرون وراءهم ذيول الخزي والعار.

وفي اليوم ذاته، انطلقت قافلتان كبيرتان من القدس: الاولى، عن طريق اللطرون ــ حيفا؛ والثانية، عن طريق الخليل ــ رفح. حتى ان قافلة جنود كبرى انطلقت من يافا. وبقي جنود بريطانيون بقيادة الجنرال مكميلان، في جيب صغير بالقرب من حيفا، وذلك لاستكمال الجلاء البريطاني حتى ١/٨/١٩٤٨.

لقد غادر آخر مندوب سام بريطاني، الجنرال كننغهام، القدس متوجها الى مطار عطروت حيث استقل طائرة الى حيفا. وفي منطقة الميناء، ودع وفد ممثلي المدينة، من يهود وعرب، ثم صعد الى متن سفينة حربية كان يفترض بها ان تبحر بعد منتصف الليل، لدى انتهاء الحكم البريطاني، من المياه الاقليمية الى مالطا.

اعلان تأسيس دولة اسرائيل

1357

في الساعة الرابعة من يوم الجمعة، ١٤/٥/١٩٤٨، اجتمع المدعوون الى قاعة متحف تل ابيب الذي كان بيت مئير ديزنغوف. وكانت صورة نبي الدولة العبرية، تيودور هيرتسل، تطل على المجتمعين، وبينهم عدد من القيادة العليا لـ «الهاغاناه». وتحتها جلس اعضاء «الهيئة

التنفيذية لمجلس الشعب». ونهض دافيـد بن ــ غوريـون وقرأ امـام المجتمعين «وثيقـة الاستقلال». وأعلن قيام دولة يهودية في ارض ــ اسرائيل، هي دولة اسرائيل «التي ستفتح أبواب الوطن على مصاريعها امام كل يهودي، وتمنح الشعب اليهودي مكانة امة متساوية في الحقوق داخل عائلة الشعوب». ودعي العرب القاطنون في البلد الى المحافظة على السلام، و «المشاركة في بناء الدولة على اساس المواطنية الكاملة والتامة». وبالنسبة الى الاعداء، مدت الدولة الفتية يد السلام وحسن الجوار الى كل الدول المجاورة وشعوبها، وأعلنت استعدادها لـ «المساهمة بنصيبها في جهد مشترك لتطوير الشرق الاوسط بأكمله». وطلب من الشعب اليهودي «الالتفاف حول الييشوف بالهجرة والبناء، والوقوف الى جانبه في المعركة الكبرى من اجل تحقيق تطلع الاجيال لانقاذ اسرائيل».

وبعد ذلك قرىء «بيان مجلس الدولة الموقت»، الذي أعلن، بين امور اخرى، الغاء «الاوامر القانونية النابعة من الكتاب الابيض الصادر سنة ١٩٣٩». وعزفت الفرقة الموسيقية، التي احتلت مكانا في الطبقة الثانية، نشيد «هاتكفاه». وبعد انتهاء العزف قرأ د. بن ــ غوريون: «لقد أُعلن الاستقلال اليهودي وأُقيمت الدولة، ومصيرها الآن بيد قوات الامن».

وفي اليوم التالي، غزت الجيوش العربية ارض ــ اسرائيل، وبدأت المرحلة الثانية من حرب الاستقلال.

الفصل الثامن والستون

قوّات العرب في بداية حرب الاستقلال

الخلفية السياسية لتطور القوات العربية

اعتبر العرب حرب الاستقلال منذ بدايتها حرب جميع الشعوب العربية ضد استيلاء اليهود على جزء من ارض «الامة العربية». ومنذ أحداث سنة ١٩٣٦، شاركت الدول العربية بصورة فعالة في كل ما له صلة بمصير العرب في البلد. وفي حزيران/يونيو ١٩٤٦، قررت انها «لا تستطيع ان تمنع تطوع ابناء شعوبها لمساعدة اخوتهم في فلسطين بكل الوسائل: بالمال وبالسلاح وبالرجال»، اذا حسم الامر لمصلحة مطالب اليهود السياسية (انظر ص 1203). وفي نهاية سنة ١٩٤٧، قبل قرار جمعية الامم المتحدة بتقسيم البلد، بدأت بخطوات اولى لتطبيق قرارها هذا.

وفور انتشار نبأ قرارات الامم المتحدة، هبت عاصفة عامة في الاوساط القومية في الدول العربية. وحدثت اضرابات وتظاهرات في المدن الكبرى في كل من مصر وسورية ولبنان وشرق الاردن. كما حدثت في مدن مختلفة اعتداءات على اليهود، بلغت ذروتها في مدينة حلب، حيث احرق نحو ثلاثمائة منزل في الحي اليهودي، وقتل اكثر من سبعين شخصا. ورُجمت قنصليات الدول التي صوتت الى جانب قرار التقسيم بالحجارة وتضررت ممتلكاتها. لكن الحكومات العربية، التي خشيت ان تضر هذه التظاهرات بأمنها الداخلي، أوقفتها بسرعة. وصرح المفتي ان الوقت حان كي تهب جميع الدول العربية الى نجدة فلسطين، وانضم اليه «بطل» أحداث سنة ١٩٣٦، فوزي القاوقجي، الذي دعا العرب الى الجهاد وأعلن ان «فترة الخطابة والكتابة قد انتهت، وجاء دور البندقية والسيف والمدفع».

واتخذ ممثلو الدول العربية، الذين اجتمعوا في ١٩٤٧/١٢/٨ في القاهرة، عدة قرارات سرية ذات طابع عسكري وسياسي: تقرر احباط مشروع التقسيم والعمل على ان تكون ارض ــ اسرائيل «عربية ومستقلة وموحدة»، وحددت حصص السلاح والمتطوعين لكل الدول العربية، وأيضا مبلغ مليون جنيه مصري اضافة الى المبلغ الذي خصص في الجلسة السابقة لمجلس «الجامعة» (انظر ص 1204). وعين اللواء اسماعيل صفوت من العراق «قائدا عاما لقوات المقاتلين، التي ستتشكل من عرب فلسطين والمتطوعين الآخرين». وكان

الهدف الاول الذي حدده لنفسه: «تصفية يهود فلسطين، وتطهير هذه الدولة منهم تطهيرا تاما». وتحولت «اللجنة الفنية العسكرية» التي ألفت في الجلسة السابقة لمجلس «الجامعة» الى هيئة دائمة، صلاحيتها «تنظيم المتطوعين وتدريبهم وتزويدهم بالأسلحة المطلوبة».

وعين فوزي القاوقجي قائدا لجيش المتطوعين، او كما دعي باسمه الرسمي «جيش الانقاذ».

لكن سرعان ما اتضح ان وحدة الدول العربية الحماسية هذه لم تكن اكثر من تظاهر ازاء الخارج. وعمليا دار من وراء الستار صراع على مستقبل البلد بعد جلاء البريطانيين عنه، كان بطلاه الرئيسيان: الحاج امين الحسيني مفتي القدس السابق، والملك عبد الله من شرق الاردن. 1359

وقد سعى المفتي لاقامة دولة فلسطينية مستقلة. وبناء عليه ادعى ان الدفاع عن ارض ــ اسرائيل هو شأن عرب ارض ــ اسرائيل. وطمح الى ان ينشىء، بمساعدة «الجامعة العربية» والدول العربية، قوة عسكرية جدية من العرب في البلد، ينضم اليها طبعا ــ كجنود وضباط ــ متطوعون من باقي الدول العربية، لكن مهمتهم تكون مساعدة عرب ارض ــ اسرائيل للتغلب على اليهود فقط. وتُسلَّم ادارة الحرب والسياسة العربية في البلد الى المفتي ورجاله، الذين اعتبروا أنفسهم قادة عرب ارض ــ اسرائيل وممثليهم الوحيدين.

أما الملك عبد الله، الذي كان يسعى منذ سنين كثيرة لبسط نفوذه ومملكته غربي نهر الاردن، فقد رأى في الظروف السياسية التي نشأت في أعقاب قرار الامم المتحدة فرصة مؤاتية لتحقيق مشاريعه. وقد استند في مشاريعه هذه الى بريطانيا، التي اقام بها علاقات تحالف وثيقة، وعمليا كان تحت رعايتها. وأمل ايضا بأن يتوصل الى اتفاق مع اليهود، وفي قرارة نفسه مال الى قبول مبدأ التقسيم شرط ان يضم القسم العربي من البلد الى دولته. وقد اعتمد على «الفيلق العربي»، الذي كان في تلك الفترة افضل قوة عربية تدريبا وتسليحا. وكانت وحدات «الفيلق العربي»، المعسكرة وقتئذ في البلد، خاضعة حتى ١٥ ايار/مايو لقائد القوات البريطانية، لكن ضباطه أعدوا انفسهم للسيطرة في الوقت الملائم على البلد ومارسوا اعمال الاستطلاع والدورية ووضع الخطط للمستقبل.

وقد وجد عبد الله في حكومة العراق سندا لمخططاته. إلا ان حكومتي سورية ومصر عارضتاها بكل قواهما. وقامت معارضة مصر لامكان ضم ارض ــ اسرائيل الى دولة عبد الله بدور كبير وحاسم في جميع مخططاتها لنجدة عرب ارض ــ اسرائيل. فساندت المفتي بالأموال والسلاح، ونظرت بتحفظ شديد الى «جيش الانقاذ» العام التابع لـ «الجامعة العربية». وأدت تخوفات الدول العربية بعضها من بعض الى اتفاق عام متبادل، هو ألا تعمل اية قوة عربية نظامية داخل تخوم البلد قبل خروج البريطانيين منه. 1360

وفي دورة انعقاد المجلس السياسي لـ «الجامعة العربية» في شباط/فبراير ١٩٤٨، التي شارك فيها ايضا وفد [فلسطين] برئاسة المفتي، تكشفت العلاقة السيئة بين اعضاء

«الجامعة» بكل مرارتها. واتضح ان مصر غير متعاونة، وأن القدر من الاموال والسلاح الذي ارسلته الى ارض ــ اسرائيل سلمته الى رجال المفتي لا الى القوة المشتركة التي اقـامتها «الجامعة». ورفضت «الجامعة» مطالب المفتي بتعيين مندوب فلسطيني في القيادة العامة لقوات المتطوعين وبتأليف حكومة عربية ــ فلسطينية موقتة، «تأخذ على عاتقها المسؤولية، مباشرة بعد الجلاء البريطاني، او حتى قبل هذا الموعد» («مِأحوري هبرغود» [«من وراء الستار»]). وفي المقابل، ألفت «لجنة لتنظم وتشرف على نشاطات الدفاع عن فلسطين» («لجنة فلسطين»)، وأقر مجددا تعيين اسماعيل صفوت «قائدا عاما لنشاطات الدفاع عن فلسطين». وكخطوة اولى في اطار احتمال قيام الجيوش العربية النظامية بنشاط عسكري ألفت «لجنة عسكرية»، كانت مهمتها «توثيق الروابط العسكرية بين الدول ومجلس «الجامعة العربية».

لكن كان من الواضح ان هذه اللجنة لم تؤلف إلا من قبيل رفع العتب، بينما سعت الدول العربية فعليا للتهـرب من التدخـل العسكري المكشـوف في ارض ــ اسرائيـل. ولا ضرورة للقول انه لم تتخذ اية خطوة حقيقية لتنفيذ القرار السري الثاني القاضي بتأزيم العلاقات بالولايات المتحدة وبريطانيا.

وكانت العلاقات بين رجال المفتي و«جيش الانقاذ» علاقات عداء صريحة. وعندما جاء القاوقجي الى ارض ــ اسرائيل في بداية آذار/مارس ١٩٤٨، نشرت «الهيئة العربية العليا» بيانا بأن «من يتعاون مع الغرباء سيعتبر خائنا ويطرد من البلد». وعلى الرغم من أوامر «الجامعة العربية» فان رجال المفتي لم يعترفوا بالقاوقجي قائدا عاما للقوات العربية في البلد، وعينوا في جميع الامكنة قادة من قبلهم. واعتبروا عبد القادر الحسيني قائدا للقوات العربية في البلد. وأرسل المفتي قادة تابعين له الى كل من جنين وطولكرم ونابلس وصفد، ومدن اخرى. ولم يقبل هؤلاء القادة سلطة القيادة العامة في دمشق.

وفي اثر هذه المشاحنات قسم البلد عمليا الى ثلاث مناطق: المنطقة الشمالية (الجليل وشومرون) وضعت تحت قيادة «جيش الانقاذ»؛ المنطقة الوسطى (جبال يهودا والشفيلا)*، تحت سلطة رجال المفتي؛ المنطقة الجنوبية أتبعت بمصر. لكن كانت تشرف على كل هؤلاء وحدات «الفيلق العربـي» المعسكرة في البلد، بانتظار موعد انتهاء السيادة البريطانية لاحتلال المركز الذي تعتبره، في رأيها وبحسب قوتها الفعلية، من حقها.

وفي الفترة الزمنية التي نحن في صددها الى حين الغزو الرسمي للقوات النظامية التابعة للدول العربية في ١٥ ايار/مايو، كانت تنشط في الاساس الفئات الثلاث التالية من القوات العربية: أ ــ القوات المحلية (في جميع انحاء البلد)؛ ب ــ «جيش الانقاذ» (في شمال البلد)؛ جـ ــ المتطوعون المصريون (في جنوب البلد). وسنخصص هذا الفصل لوصف هذه القوات.

* بين جبال القدس والنقب. (المترجم)

القوات المحلية

في بداية فترة حرب الاستقلال كان عرب البلد يتمتعون بتفوق كبير على اليشوف العبري من ناحية وضعهم الجغرافي ـ العسكري. وكانت تجمعات السكان العرب منتشرة على امتداد مساحات شاسعة متصل بعضها ببعض في جبال البلد (في الجليل وشومرون [منطقة نابلس] ويهودا [جبال الخليل])، وفي النقب. وقد جلا البريطانيون عن معظم هذه المناطق. ومن وراء حدودهم كانت تحتشد جيوش الدول العربية، وكانت الطرق البرية والبحرية 1361 والجوية المفضية الى هذه الدول الصديقة مفتوحة. وكانت هناك تجمعات سكانية عربية كبيرة ايضا في قلب المناطق اليهودية.

ولم تكن القوات المقاتلة التي نشأت في المدن والقرى العربية في ارض ـ اسرائيل مختلفة، في اساسها، عن تلك التي نشطت في فترة أحداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. ففي خلال السنوات التي مرت منذ الاحداث، تدرب فعلا آلاف العرب في وحدات الجيش والشرطة والخفراء المختلفة، كما وصلت اسلحة افضل وذخيرة كثيرة الى القرى العربية. لكن من الناحية التنظيمية لم يتقدم العرب على الاطلاق. وخيبت المنظمتان شبه العسكريتين التابعتان لـ «النجادة» و «الفتوة» الامل هما ايضا، لأنهما كلتيهما لم تخرجا من نطاق المدن، ولم يشكل اعضاؤهما عنصرا ذا اية قيمة عسكرية.

وكان الاطار التنظيمي الذي تكتل فيه المقاتلون العرب المحليون، كما في السابق، العصابة: مجموعة مقاتلين مرتبطة بقائد محلي، وتستطيع ان تستنجد وقت الضرورة بأبناء القرى او الحمائل المجاورة لعملية واحدة كبيرة («فزعة»). وكانت هذه هي الصورة التنظيمية السائدة في المناطق الريفية. أما في المدن، فقد نشطت بنجاح مجموعات من الارهابيين، أظهروا قوتهم بقتل يهود عزل من السلاح في كمائن او من مسافات بعيدة (بمساعدة قناصة). وأدى الخوف من اليهود الى انشاء تنظيمات دفاع محلية، على غرار «مشمار هعام» [الحرس الشعبي] او «حيل همشمار» [قوة الحراسة] لدى اليهود. وجندت هذه القوات الدفاعية مقاتلين كثيرين وأسلحة كثيرة لأغراض الحراسة الثابتة في القرى والاحياء العربية.

وعلى فترات متباعدة فقط تجرأت هذه القوات على شن هجمات واسعة على مستعمرات يهودية، وانتهت هذه المحاولات دوما الى فشل ذريع. ولقنت بضع هجمات كبيرة في بداية فترة الاحداث، مثل الهجوم على حي هتكفاه في ١٩٤٧/٢/٨ (انظر ص 1376) او الهجوم على كفار عتسيون في ١٩٤٨/١/١٤ (انظر ص 1431)، العصابات المحلية درسا داميا قاسيا لم تعد بعده الى امتحان قوتها في مثل هذه الهجمات.

وتمثل نشاطها الرئيسي في الارهاب الفردي، ومهاجمة خطوط المواصلات، وهجمات على وحدات يهودية صغيرة دخلت مصادفة مناطق عربية محض. وبصورة عامة، وجد في المدن، وبصورة خاصة في القرى العربية، مقاتلون أفراد، شجعان وأكفاء، لكن كانت تنقصهم القيادة. ولم يكن هناك قادة اكفاء برتب دنيا او عالية. ولو وجد زعيم معترف به وكفؤ

لاستطاع ان يستخلص فائدة جمة، ولتوصل الى نتائج مهمة في منطقته، وحمل العصابات المنضوية تحت لوائه على ممارسة نشاط عام موجه.

لقد داهمت الصدامات الاولى العرب في البلد وهم غير مستعدين لها. واهتم كل تجمع سكاني بسلامته وأمنه الخاصين. وبدأت القرى بالتحصن والتسلح خوفا من اليهود. وكانت القرى الضعيفة او المجاورة لمستعمرات يهودية قوية، مستعدة لعقد اتفاقية سلام مع جيرانها والتعهد بالامتناع عن المساس باليهود، وحتى بعدم السماح للغرباء من مثيري المتاعب بالوجود ضمن تخومها. وعقدت اتفاقيات كهذه في انحاء مختلفة من البلد، لكنها لم تصمد طويلا في اختبار الاحداث.

ومع اعلان الاضراب لمدة ثلاثة ايام، الذي جاء في اثر قرار جمعية الامم المتحدة الخاص بتقسيم البلد، اعطت «الهيئة العربية العليا» الاشارة لبدء «الجهاد» ضد اليهود. وألفت على الفور «لجان قومية» في المدن والقرى. وشارك ممثلو السكان المحليين في هذه اللجان، وكان طابعها مختلف بحسب تركيب القوات الناشطة في هذا المكان او ذاك. فكانت هناك امكنة استخدمت فيها هذه اللجان أداة بيد آل الحسيني والمتطرفين على اختلاف أنواعهم من اجل تجنيد السكان لأعمال عدائية ضد اليهود. وكانت هناك امكنة كثيرة حاولت فيها اللجان منع الاضرار باليهود تحسبا لاحتمال رد اليهود بقوة كبيرة وانزال كوارث جسيمة بالعرب، ومن الافضل المحافظة على القوات الى حين حلول المواجهة الحاسمة، التي ستحدث حين انسحاب البريطانيين. لكن هذه اللجان لم تنجح، في الغالب، تماما في كبح جماح المتطرفين، فشرع هؤلاء في عمليات ازعاج وارهاب، لم تلبث ان جرت في اعقابها ردودا عنيفة من جانب اليهود. 1362

وأُنشىء في المدن الكبرى «حرس قومي»، أدى أفراده مهمات مشابهة لمهمات «الحرس الشعبي» اليهودي (انظر ص 1288). وكان هذا تنظيما مهلهلا: كان أفراده «ينبرون للخدمة في اي زمان او مكان يرونه موافقا. وكان عدد منهم يخرج للقيام بأعمال الدورية، فيسلبون احيانا ويضعون احيانا لغما ويعودون الى بيوتهم بعد ان يجمعوا قليلا من المال». هكذا تحدث عن هذا التنظيم طبيب ألماني، عمل في خدمة العصابات في يافا. وبذلت ايضا جهود لانشاء ما يمكن وصفه بنواة قوات حماية، تلقى أفرادها راتبا ودربوا على يد ضباط سابقين في «الفيلق العربي» او في سلاح الحدود. وكانت هناك امكنة تقبلت فيها هذه الوحدات سلطة اللجنة العسكرية في دمشق، وأمكنة اخرى تستلهم اعمالها من «الهيئة العربية العليا». وحاولت الاوساط المعتدلة في الايام الاولى للاحداث كبح جماح المتطرفين ومنع إلحاق الاذى بالمدنيين اليهود، لكن لم يكن في قدرتهم التغلب على الشارع العربي، الذي كان عرضة للتحريض وتأثير الشائعات الكاذبة.

ويذكر تقرير خاص بالقيادة في دمشق، في نهاية آذار/مارس ١٩٤٨، ان قدرة الحاميات في المدن كانت ضعيفة و«عتادها لا يشتمل على اكثر من عدد من البنادق العتيقة، وعدد ضئيل

من المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية. ولولا تدخل الجيش البريطاني بين الفينة والاخرى، وكلما ازداد الوضع خطورة، لكان من المشكوك فيه ان تستطيع هذه القوات الصمود في وجه القوات اليهودية، المتفوقة عليها في العدد والعدة».

وتقدم لنا مذكرات الحاج نمر الخطيب، من زعماء «اللجنة القومية» في حيفا، صورة كاملة لمنظمة الدفاع عن المدينة العربية. لقد نظم شباب حيفا في فصائل ارسلت للدفاع عن الاحياء. «كان بين المقاتلين ايضا جنود خدموا في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، وأشخاص شاركوا في الاضطرابات الدامية في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وقد استخدم هؤلاء من قبل اللجنة براتب شهري مقداره عشرة جنيهات فلسطينية» («في نظر العدو»). كما جند نساء للخدمة في الاسعاف الاولي. وقد قدم أفراد الشرطة والموظفون الحكوميون العرب المساعدة لهذا الدفاع العربي. وكانت احدى الصعوبات التي واجهت العرب في حيفا النقص في الاسلحة. وارتفعت اسعار الاسلحة ارتفاعا هائلا، واختفى السلاح المرسل من دمشق الى حيفا، ويبدو انه بيع من قبل الذين تولوا نقله الى الذين دفعوا سعرا اغلى، في مكان آخر غير مدينة حيفا. وعندما ضعف الحكم البريطاني تدهور وضع الامن في الشارع العربي، و«تشكلت عصابات للسلب ارهبت السكان» ـ روى الحاج نمر ـ «وارتفعت اسعار المواد الغذائية فوق التصور». وأدى عجز «اللجنة القومية» عن السيطرة على عصابات السلب والنهب هذه الى بداية فرار السكان العرب من المدينة. واستدعت «اللجنة القومية» ضابط «الفيلق العربي» محمد الحنيطي لتولي القيادة العسكرية للمدينة، فاستقال في اثر ذلك من «الفيلق العربي».

وفي يافا دافعت عن المدينة، في البداية، منظمات محلية، لكن عندما لم تجمع هذه قوة كافية للصمود، توجه سكان المدينة الى اللجنة العسكرية في دمشق التي ارسلت، في شباط/فبراير، قائدا عراقيا ومعه فصيلتان: شركسية «ادت مهمتها باخلاص وفعالية» («في نظر العدو»)؛ وعربية ساء صيتها. وبصورة عامة، ازعج هؤلاء الجنود سكان المدينة وتسببوا بزيادة الفرار منها ـ بشهادة العرب انفسهم.

وفي المرحلة الاولى من حرب الاستقلال، التي نعالجها في هذا الكتاب، تحملت القوات العربية المحلية العبء الاساسي في الحرب ضد اليهود. وقد سمّر الارهاب العربي ونشاطات القناصة قوات يهودية كبيرة في جبهات تل ابيب والقدس وحيفا. وأوقع ضرب وسائط النقل اليهودية مناطق كاملة في ضائقة كبيرة، وخصوصا القدس. وقد قام بهذه الاعمال في الاساس العصابات المحلية. لكن كان من الواضح، لها وللعسكريين في الدول العربية، انها لن تستطيع الصمود امام «الهاغاناه»، إلا بوجود البريطانيين في البلد. وبعد ان شرع اليهود، في نهاية فترة الحكم البريطاني، في عمليات الاحتلال والسيطرة على القرى والمدن، لم يتبق لهم، لعرب ارض ـ اسرائيل، سوى الامل بتدخل سريع من جانب جيوش الدول العربية.

1363

وكانت احدى الظواهر التي تسببت، الى حد غير قليل، بفشل القوات العربية المحلية، الفوضى التي عمت الشارع العربي مع انهيار الحكم البريطاني: فهنا سادت فعلا فوضى مطلقة. وأخذ الشرطة العرب يفرون من الخدمة بأسلحتهم، منهم للانضمام الى العصابات، ومنهم لبيع سلاحهم الذي وصل ثمنه الى ما يعادل راتب سنة بالنسبة اليهم. وكما ذكرنا اعلاه، كانت هذه الفوضى وتكاثر عصابات اللصوص والمبتزين وقطاع الطرق الذين استغلوا الوضع لمصلحتهم، سببا في فرار ابناء الطبقة الوسطى والاغنياء [من البلد].

وفي الاشهر الاولى من الحرب كانت معنويات العرب مرتفعة. كان الييشوف اليهودي عمليا محاصرا، وكان عدد ضحاياه كبيرا. وفي المقابل تدفق السلاح والمتطوعون على العرب من الدول المجاورة، ووُعدوا بمساعدة عسكرية من الدول العربية، بينما اتسم الموقف البريطاني من نشاطات العصابات العربية بالحياد المتعاطف.

لكن هذا المزاج سرعان ما تغير بعد ان استعادت «الهاغاناه» عافيتها في نيسان/ابريل ١٩٤٨. وقبل ستة اسابيع من انتهاء الانتداب البريطاني، انهارت القوات المحلية في معظم الاماكن التي اصطدمت فيها بقوات «الهاغاناه». وفي اعقاب الانهيار بدأ هروب مدن وقرى بأكملها حتى قبل ان يشتد أوار الحرب.

وقد هجر العرب حتى نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨ نحو ٩٠ بلدة وقرية، من بينها سمخ وأيضا طبريا. وبلغ عدد السكان الذين غادروا ١٠٠,٠٠٠ نسمة. وينبغي ان يضاف اليهم عشرات الآلاف الذين هجروا اماكن سكنهم في القدس ويافا وحيفا قبل هذا التاريخ. وقد هجرت قرى كثيرة بناء على أوامر القيادة العربية، التي فضلت التخلي عن المكان بدلا من تسليم السلاح الى «الهاغاناه».

وقد ضخمت اجهزة الدعاية العربية الشائعة عن احتلال دير ياسين وذبح سكانها على يد رجال الايتسل وليحي (انظر ص 1546)، مما ادى الى زيادة الذعر والهروب من التجمعات السكانية المختلطة والقريبة من المستعمرات اليهودية. وفي شهر ايار/مايو، بعد ان اتضح للعرب في ارض ـ اسرائيل ان قواتهم المحلية وقوات «جيش التحرير» فشلت فشلا ذريعا، بدأ هروب جماعي من مناطق واسعة في البلد. اما «الهيئة العربية العليا» ـ التي حاولت في البداية ان تنظم هذا الهروب، بتخصيصها جهازا من الموظفين لمنح اذونات هجرة، في محاولة لمنع مغادرة الشبان ـ فقد بدأت بتشجيع الهروب مفترضة، كما يبدو، ان اللاجئين سيحملون معهم الى الدول العربية المجاورة الاحساس بالهزيمة العربية بأشد صورة محسوسة، وعلى امل انه بعد مضي اسابيع او اشهر معدودة، بعد ان تتم هزيمة اليهود، سيعود اللاجئون الى ديارهم. وكنموذج بارز لهذه السياسة: الامر الذي اصدرته «الهيئة العربية العليا» الى سكان حيفا العرب بمغادرة المدينة بعد سيطرة قوات «الهاغاناه» عليها، وذلك على الرغم من مقترحات زعماء الييشوف اليهودي في المدينة [لهم بالبقاء] (انظر

ص 1572). ومع ذلك لم يتجاوز عدد اللاجئين العرب حتى نهاية ايار/مايـو ١٩٤٨، الـ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة.

وفي امكنة قليلة فقط نجد استثناءات: قرى وتجمعات سكانية صمدت في طوفان الذعر هذا. وينبغي هنا التنويه، من الناحية العسكرية، بصمود قرى الطيرة وعين غزال وإجزم وجبع في منطقة الكرمل جنوبـي حيفا. فقد صمدت هذه القرى لمدة طويلة بعد سقوط حيفا. ولم يقتصر الامر على هذا فحسب، وانما استمر رجالها ايضا في ازعاج وسائط 1364 النقل اليهودية المتجهة الى حيفا وأرغموها على المرور عبر وادي الملح. ولم تحتل قوات جيش الدفاع الاسرائيلي الطيرة إلا في ١٩٤٨/٧/١٦. أما القرى الثلاث الاخرى، التي اسبغ عليها اسم «المثلث الصغير» (على وزن «المثلث الخطر» طولكرم ونابلس وجنين)، فلم تُحتل إلا في ٧/٢٥، بعد ان صدت هجومين شنهما عليها جيش الدفاع الاسرائيلي وبعد فرض الحصار عليها. وقد شق نحو ٨٠٠ من رجالها طريقا لهم ووصلوا بأسلحتهم الى الخطوط العربية في وادي عارة.

كما ينبغي التنويه ايضا بقائدين [عربيين فلسطينيين] قاتلا في الصفوف الامامية لجنودهما وسقطا في المعركة (عبد القادر الحسيني خلال احتلال القسطل، وحسن سلامة في معركة رأس العين)، وذلك على الرغم من الاعمال الوحشية التي قاما بها بتعرضهما لمدنيين يهود غير مقاتلين. «بموت هذين القائدين المحليين» ـ كتب في مذكراته رجل «الاخوان المسلمين» كمال الشريف ـ «انقصم ظهر المقاومة العربية المحلية، وفقـدت العامـل الاكثر اهميـة فيها: القيادة».

«جيش الانقاذ»

بينما كانت القوات المحلية تزعج المستعمرات اليهودية وتعتدي عليها ـ لكن من دون ان تطور قوة كافية لعمليات احتلال وتدمير حاسمة ـ حاولت الدول العربية وخصوصا سورية والعراق ولبنان اقامة قوة عسكرية عربية، مهمتها اخضاع اليهود في البلد بصورة تامة، من دون ان تضطـر هي الى استخدام جيوشها لتحقيق هذا الهدف. وقد حشدت هذه القوة ودربت في معسكرات قطنا (جنوبـي دمشق)، التي مر بها حتى نهاية آذار/مارس ١٩٤٨ نحو ٥٢٠٠ متطوع (٣٠٠٠ منهم من سورية، و ٨٠٠ من العراق، و ٨٠٠ من ارض ـ اسرائيل، بينهم عدة مئات من مسرحي سلاح الحدود، و ٣٠٠ لبناني، و ٥٠ مصريا، وعدة عشرات من اليوغسلافيـين)، وانضم الى هؤلاء في البلد نحو ٢٥٠٠ مقـاتل محـلي، فبلغ المجموع ٧٧٠٠ شخص. وشكلت من بين المتطوعين في قاعدة قطنا كتائب وسرايا ارسلت الى ارض ـ اسرائيل، بعد ان مرت بفترة تدريب قصيرة وبعد ان استكمل تجهيزها. وأضيف الى هذه الكتائب في البلد بين حين وآخر مجنَّدون ارسلوا من قطنا أو جُندوا من بين عرب البلد.

وقد تلقى المتطوعون راتبا وألبسة وغذاء افضل مما هو متبع في باقي الدول العربية.

ولم يكن هناك نقص في المتطوعين الانفار، لكن لمس نقص في الضباط والرقباء. وكان كثيرون، من اصحاب الرتب الذين تم تجنيدهم، من نوعية غير جيدة. «ان مستوى تدريب وحدات المتطوعين» ــ ذكر تقرير صادر عن قيادتهم في نهاية آذار/مارس ــ «ادنى من المتوسط، وقدرتهم القتالية منخفضة. ويرجع هذا الامر الى قلة عدد الضباط وتسليم القيادة في الوحدات الى ضباط متقاعدين او ضباط صغار، وحتى رقباء. والنظام العسكري مهلهل جدا». وكان سلاح «جيش الانقاذ» من نوعية رديئة، ومعظمه تشكيلة متنوعة من البنادق وقطع الاسلحة الاخرى، مصدرها بقايا مستودعات سلاح الحرب العالمية الثانية.

وجرت محاولة لتجنيد شبان ملائمين من بين عرب ارض ــ اسرائيل، وارسالهم الى كلية الضباط في دمشق. لكن هذه العملية لم تؤد الى نتائج فعلية، إلا بعد ان انهى «جيش الانقاذ» دوره.

وقد عقدت الدول العربية آمالا كبيرة على «جيش الانقاذ»، وأملت بأن يتولى بنفسه تحطيم القوات اليهودية. وعمليا لم تبدأ الدول العربية باعداد نفسها لقيام جيوشها النظامية بالغزو، إلا بعد ان اتضح لها في ربيع سنة ١٩٤٨، ان القوات العربية المحلية قد انهارت، وأن «جيش الانقاذ» فشل هو ايضا في كل ما قام به.

1365 في ١٩٤٨/١/٨، اجتازت الحدود الشمالية الكتيبة الاولى التابعة لـ «جيش الانقاذ»، «كتيبة اليرموك الثانية»، بقيادة الضابط السوري اديب الشيشكلي، وضمت ٣٣٠ جنديا وضابطا. وعسكرت الكتيبة بجوار ترشيحا. وبعد فترة قصيرة من تمركزها هناك، شنت في ١/٢٠ هجومها الاول على مستعمرة يهودية: يحيعام (انظر ص1412)، ومنيت فيه بفشلها الاول. وبعد ذلك توزعت سرايا الكتيبة وفصائلها على قرى مختلفة في الجليل. ومن الناحية النظرية كان الشيشكلي هو قائد الجليل كله المعيّن من قبل القيادة العامة في دمشق، لكنه عمليا اضطر الى الاعتراف بسلطة قادة عصابات محلية، وخصوصا بأبي ابراهيم الصغير، رجل العصابات القديم ومن أتباع المفتي، الذي بسط سلطته على قرى الجليل الاسفل.

وفي ١/٢٠، توجهت الى ارض ــ اسرائيل «كتيبة اليرموك الاولى» التي ضمت ٦٣٠ جنديا، معظمهم من مسرّحي الجيش السوري، بقيادة الضابط السوري محمد صفا. وبرزت في هذه الكتيبة السرية الاولى، التي كانت مشكلة من العلويين. وفي ٢/١٥، امتحنت هذه الكتيبة قوتها في هجوم على طيرات تسفي (انظر ص 1412)، ومنيت فيه بفشل ذريع.

وفي ١/٢٨، وصلت الى جبال السامرة [نابلس] كتيبة حطين (٣٧٥ شخصا)، المشكلة من المتطوعين من ارض ــ اسرائيل، بقيادة مدلول عباس العراقي. وازداد عدد هذه الكتيبة بسرعة نتيجة انضمام متطوعين من قرى السامرة [نابلس] من جهة، وانضمام وحدة كبيرة (٣٠٠ شخص تقريبا) من المتطوعين الشركس الذين قدموا من منطقة القنيطرة من جهة اخرى.

وفي شهر آذار/مارس، وصلت الى البلد كتيبتان (كتيبة الحسين وكتيبة القادسية)، كل

واحدة منها مشكلة من ٣٦٠ شخصا، من متطوعي العراق. وقد سار التجنيد في العراق ببطء، وأتى كثيرون من الجنود من اوساط العاطلين عن العمل وعناصر غير مرغوب فيها. وأتت ايضا كتيبة لبنانية تتألف من نحو ٢٠٠ رجل، وكتيبة درزية مشكلة من ٥٠٠ رجل، بقيادة شكيب وهاب. وتوجهت هذه الكتيبة التي دعيت باسم «جبل العرب»، الى شفا عمرو، وتولى قائدها قيادة منطقة حيفا بأكملها. ولم يمر أفراد هذه الكتيبة، الذين اعتبروا من ذوي الخبرة القتالية والماضي العسكري، بمعسكر التدريبات في قطنا. وبعد اسابيع من وصول هذه الكتيبة اشتبكت في معارك مع اليهود في منطقة رامات يوحنان. وبعدما تكبدت خسائر فادحة اتخذت، بتأثير وجهاء الدروز في المنطقة، موقف «القعود والترقب»، مما ادى الى انحلالها بسرعة. وفي نيسان/ابريل، وصلت كتيبة اجنادين (على اسم القرية التي حقق فيها العرب انتصارا على البيزنطيين سنة ٦٣٤)، بقيادة ضابط سلاح الحدود ميشيل العيسى. وكانت الكتيبة مشكلة من مسرحي سلاح الحدود. وأرسلت بسرعة لنجدة يافا المتعثرة ونجحت حتى في صد هجوم يهودي على تل الريش (انظر ص 1574).

ورافقت «جيش الانقاذ» وحدات صغيرة لم تصل الى مستوى الكتيبة، مثل «سرية الحمّانيين»، المشكلة من متطوعين من مدينة الحمة في سورية، التي وصلت الى البلد في آذار/مارس وتميزت بعدم الانضباط والجبن. وقد ارسلت لتعزيز يافا، لكنها هربت من المدينة. وبعد فترة أُوكل الى هذه الوحدة المحافظة على معسكر وادي صرار، الذي اخلاه البريطانيون، وفي ذروة عملية «نحشون» (انظر ص 1562) فرت منه وانضمت الى كتيبة الحسين في السامرة، مع غنائم كثيرة ومصفحتين سلمهما لها حسن سلامة. كما خدم في «جيش الانقاذ» عدد من العسكريين الالمان، الذين فروا من معسكرات الاعتقال البريطانية، وقدر العرب جدا خبرتهم العسكرية. «عُيّن كل متطوع ألماني» ــ روى احدهم ــ «في منصب ضابط، بغض النظر عن رتبته في الجيش الالماني». وكان هناك عدد اكبر من اليوغسلافيين، الذين أتوا من صفوف الخائنين لشعبهم، ممن أُلحقوا في سنوات الحرب العالمية الثانية بوحدات الـ .S.S ولم يستطيعوا العودة الى وطنهم بعد ان تحرر من نير النازيين. وكان عددهم ٦٠ ــ ٧٠ شخصا تقريبا. واعتبروا مقاتلين جيدين بسبب مهارتهم في الاساليب العسكرية والتدمير، ونظموا في فصيلة خاصة. ونشط ايضا في صفوف «جيش الانقاذ» بريطانيون فارون من الخدمة، أُلحقوا كخبراء بقيادات الكتائب. وفي الربيع وصل الى «جيش الانقاذ» ١٠ ــ ١٢ مدفعا، نظمت في بطاريتين وفصيل احتياط. وأنشئت «وحدة مدفعيين» لتولي امر هذه البطاريات. وقد استخدمت المدافع اول مرة في معارك مشمار هعيمك (انظر ص 1565)، وأرسلت بعد ذلك لنجدة القسطل (انظر ص 1562).

1366

وفي ١٩٤٨/٣/٥، وصل فوزي القاوقجي نفسه لقيادة جنوده. وذكر في منشور موجه الى السكان العرب انه عاد الى البلد ليكمل ما بدأ به قبل ١٢ عاما، في صيف سنة ١٩٣٦، وأن رجاله يمثلون جميع الشعوب العربية. «جئنا بقلب واحد ولهدف واحد» ــ قيل في

المنشور ـ «لالغاء قرار الامم المتحدة المتعلق بالتقسيم، ولتدمير الصهيونية، ولتنفيذ قرارات الجامعة العربية، ولافتداء عروبة فلسطين». وقد اقام القاوقجي مقر قيادته في قرية جبع، على سفوح جبل حوريش، بين نابلس وجنين، حيث استقرت هيئة اركانه وأُقيمت بعد فترة قصيرة محطة اذاعة، بثت برامجها باللغات العربية والانكليزية والعبرية. وقد تميزت هذه المحطة ببرامج دعاوية مملوءة بالمبالغات الشرقية الفجة. ومن هذه الزاوية اخطأت هدفها، على اية حال بالنسبة الى المستمعين اليهود، الذين استمتعوا بلغتها العبرية الركيكة.

ونذكر بهذه المناسبة ان هذا الاسلوب الدعاوي كان سمة مشتركة لكل القوات العربية المحاربة. كان «اعتيادا على التزييف والمبالغة» (ويلسون)، انقلب الى طبيعة ثانية. ولم تحدث هزيمة لم يحولها الدعاويون الى انتصار باهر. وظهرت في المطبوعات اوصاف لمعارك وانتصارات وهمية لا اساس لها في عالم الواقع، وأذاعتها محطات الاذاعة وتناقلتها الالسن. وتمثل الرواية التالية نموذجا لهذه العقلية الدعاوية: في اثناء هجوم «جيش الانقاذ» على طيرات تسفي (انظر ص 1412)، وصلت الى المكان وحدة مصفحات بريطانية، وطلب قائدها من القائد العربي ايقاف الهجوم والخروج مع رجاله من المنطقة. وتقبل القائد العربي الاقتراح بسرور، لكنه طلب من البريطانيين اطلاق نيران مدافعهم الرشاشة وهاوناتهم في الهواء لخلق الانطباع بأن العرب أوقفوا هجومهم تحت ضغط البريطانيين. وتمت الاستجابة لطلبه (ويلسون).

وقد انهمك «جيش الانقاذ»، خلال الاشهر الاولى لوجوده، في التنظيم والتمركز. واستمرت ايضا التدريبات في الوحدات، وحاول «جيش الانقاذ» السيطرة على القوات المحلية وتوجيهها وفقا لمخططاته. وأُرسل جنود وقادة الى المدن والقرى العربية بهدف تنظيم صفوف قوات الدفاع المحلية ورصها، فأُرسلت الى يافا في بداية نيسان/ابريل سرية تابعة لكتيبة «القادسية» سيطر ضباطها على المدينة. وسيطرت سرية اخرى في تلك الفترة على منابع مياه القدس في رأس العين. وبعد موت عبد القادر الحسيني (انظر ص 1562)، عين ضابط «جيش الانقاذ»، فضل رشيد من العراق، قائدا لمنطقة القدس.

ولم ينجح رجال «جيش الانقاذ» في كسب ود العرب المحليين، الذين رأوا فيهم غرباء يتصرفون بعنجهية. وذكرت تقارير عنهم من طولكرم في تلك الفترة انهم «يسوسون الجمهور بصلف وخشونة. وعندما يظهر هؤلاء الجنود في الشارع يحاول الاهالي تحاشيهم والامتناع عن الالتقاء بهم، لأنهم كانوا يقدمون على ضربهم بداع ومن دون داع». وروى نمر الخطيب عن العراقيين الذين عسكروا في يافا انهم «تصرفوا مع السكان تصرف الغزاة مع المحتلين. فجمعوا الاسلحة وباعوها، وفرضوا الغرامات وجبوها، وصادروا السيارات وباعوها. ووصل الوضع الى حد ان السكان باتوا يخشون حماتهم ومخلّصيهم اكثر مما يخشون اليهود أعداءهم». كما ان التعزيزات التي وصلت الى يافا خلال الايام الاخيرة قبل استسلام المدينة، اخذت تعبث فيها. فرجالها «جعلوا المدينة عزبة لهم، وبدأوا بسلب الناس ونهب بيوتهم. وباتت حياة الرجال عرضة للخطر، وانتهك شرف النساء. ودفع هذا الامر سكانا كثيرين الى ترك

المدينة بحماية الدبابات البريطانية» («في نظر العدو»). ويدعي ايضا رجل «الاخوان المسلمين» كمال الشريف ان المتطوعين، رجال «جيش الانقاذ»، بدأوا مع وصولهم الى البلد «باهانة السكان، والاستخفاف بمشاعرهم، وانتهاك شرفهم». وروى الطبيب الالماني فريتسكا الذي كان مع العصابات في يافا، في مذكراته، ان «الخوف من اخوانهم في الوطن، القساة والافظاظ، الذي دفعهم (سكان يافا) الى هجر بيوتهم وأملاكهم، لا يقل عن خوفهم من الاحتلال الوشيك (Imminent) للمدينة من جانب اليهود الذين كانوا يطبقون عليها. والادهى من ذلك ان رجال العصابات، الاخطر من اي جيش محتل، كانوا يجوبون المدينة فرادى وجماعات، ينهبون ويقتلون».

لقد انتهت محاولات «جيش الانقاذ» الاولى للقاء المقاتلين اليهود وجها لوجه والدخول معهم في معركة (في يحيعام وطيرات تسفي) ـ كما ذكر اعلاه ـ الى فشل. وفي بداية نيسان/ابريل، شنت وحدات «جيش الانقاذ» بقيادة القاوقجي هجوما قويا على مشمار هعيمك (انظر ص 1564). وبعد ان انتهت المعركة بهزيمة، لم تستطع ان تغطي عليها حتى برامج الكذب والتبجح التي كانت تبثها محطة اذاعة «صوت الانقاذ»، بهتت هالة المجد المحيطة بالقاوقجي. وفي بداية ايار/مايو، مني الشيشكلي بالهزيمة في المعارك على الجليل الشرقي وصفد (انظر الفصل الثامن والسبعين). ولم يعد في وسع «جيش الانقاذ» منع اليهود من السيطرة على طبريا وحيفا وعكا ويافا. ومع غزو الدول العربية [لفلسطين] بدأ خروج جنود «جيش الانقاذ» من اجل اعادة التنظيم. وفي ٥/٢٧، خرج القاوقجي من البلد مع باقي رجاله يجر وراءه ذيول الخزي والعار، ليعود اليها ويمنى بهزيمته الساحقة على يد جيش الدفاع الاسرائيلي في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨.

اشتراك المصريين في المعركة

اتخذت مصر موقفا فاترا جدا من فكرة التدخل في الحرب في ارض ـ اسرائيل. لقد كانت مستعدة لمساندة القوات العربية المحلية، لكنها ترددت في ارسال قوات حقيقية من جيشها الصغير، الذي كانت تحتاج اليه لضمان الامن الداخلي في البلد. وصدرت المبادرة للتطوع لنجدة العرب في البلد اولا عن منظمة «الاخوان المسلمين» المتعصبة، التي كانت مشبوهة ومكروهة من جانب الحكومة كمنظمة تآمرية وخطرة. وجرى التطوع في البداية من دون موافقة الحكومة المصرية، وتسللت مجموعة من المتطوعين الى ارض ـ اسرائيل، الى ان انتظموا في شباط/فبراير ١٩٤٨ في كتيبة.

وفي فجر ١٠/٤/١٩٤٨، حاول «الاخوان المسلمون» مهاجمة كفار داروم المنعزلة لاحتلالها وتدميرها (انظر ص 1427). وانتهى الهجوم بهزيمة كاملة. وأدرك « ‹الاخوان› ان افضل السبل هي عدم مهاجمة نقاط يهودية منعزلة، وانما ارغام اليهود على الدخول في معركة

خارج مستعمراتهم، في ساحة مكشوفة» («في نظر العدو»). وفعلا، بعد هذا الفشل مباشرة انقسمت الوحدات الى عصابات صغيرة، هاجمت خطوط المواصلات في النقب ونسفت انبوب المياه. وانشأت منظمات مصرية اخرى ايضا، مثل «القمصان الخضر» التابعة لجمعية «مصر الفتاة»، وحدات متطوعين خاصة بها. وبحلول منتصف نيسان/ابريل كان قد دخل منطقتي غزة والنقب آلاف من المتطوعين المصريين من كل الانواع.

وفي الوقت نفسه، توصلت منظمة «الاخوان المسلمين» الى اتفاق مع الحكومة المصرية، عين بموجبه ضباط مصريون لتدريب وحداتها، وتعهدت «الجامعة العربية» بتحمل ميزانيات هذه الوحدات. وأقيم معسكر تدريب نظمت فيه ثلاث كتائب جديدة من «المتطوعين المصريين». وفي ٢٥/٤، ارسلت الى العريش الكتيبة الاولى بقيادة المقدم احمد عبد العزيز. ودخلت الكتيبتان الاخريان ساحة العمل مع الجيش المصري النظامي بعد قيام دولة اسرائيل. 1368

وفي ١٠/٥، انطلقت الكتيبة الاولى بقيادة عبد العزيز لمهاجمة كفار داروم، متفادية الجيش البريطاني الذي كان معسكرا على طول الطريق الرئيسي المؤدي الى رفح. وكانت مزودة بمدافع ودبابات مهداة من الجيش المصري. لكن هذا الهجوم انتهى ايضا الى فشل القوات المصرية بسبب فقدان التنظيم والتنسيق بين القوات المهاجمة.

المفاوضات مع عبد الله

اجرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، بين فترة وأخرى وعلى مدى سنوات طويلة، اتصالات سرية بعبد الله امير الاردن، ولاحقا ملكها، الذي اعترف بضرورة التوصل الى نوع من الاتفاق مع اليهود. وقبل نحو اسبوعين من قرارات الامم المتحدة، تقابل الملك مع ممثلة الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، غولدا مثيرسون (مئير) في منزل بنحاس روتنبرغ في نهرايم. وحضر اللقاء إلياهو ساسون وعزرا دانين. وأعلن الملك عزمه على ان يضم الى مملكته الجزء المخصص للعرب في مشروع تقسيم البلد، وأن يقيم علاقات سلام وصداقة بالدولة اليهودية. وأظهر استخفافه بقوة باقي الدول العربية، وقال ان لا قيمة لتهديداتها. وفي المقابل كان واثقا من «الفيلق العربي» ومن الدعم السياسي من جانب البريطانيين. ومن المحتمل ان تكون هذه المحادثة قد اثرت في المؤسسات القومية [اليهودية] وفي ادارة الحرب في الاشهر الاولى. وفي ابان ايام الحرب، وصل موفد من الملك الى رجال الدائرة السياسية ناقلا اليهم سؤاله عما اذا كانت الوكالة اليهودية مستعدة لتنازلات فيما يتعلق بالمنطقة التي كانت ستسلم للدولة اليهودية، كي يستطيع الظهور امام العالم العربي والاشارة الى انجاز سياسي معين لمصلحة العرب. وكان جواب الدائرة السياسية ان اليهود يعتبرون حدود التقسيم التنازل الاقصى من جانبهم من اجل السلام، وهم مستعدون لاعتبارها حدودا سياسية، «لكن اذا نشبت حرب فسيأخذ كل طرف ما يستطيع الحصول عليه».

وقبل نحو اربعة ايام من انتهاء موعد الانتداب، استدعى الملك ممثلي الوكالة اليهودية الى اجتماع سري في عمان. وسافرت لحضور الاجتماع غولدا مئيرسون، متخفية في زي سيدة عربية، ورافقها رجل جهاز الاستخبارات العتيق عزرا دانين. ووجدا الملك عبد الله مكتئبا وعصبيا. وادعى ان الظروف تغيرت في الاشهر الخمسة التي مضت منذ لقائهم الاخير، وأنه لا يستطيع الالتزام بمشروعه السابق. «آنذاك كنت الوحيد» ــ قال ــ «والآن انا واحد من خمسة. لا خيار امامي ولا استطيع التصرف على نحو مختلف». وكان اقتراحه الجديد ان يتحد البلد بكامله مع مملكته، وينشأ برلمان ٥٠ ٪ من المقاعد فيه لليهود. وكان رد غولدا مئيرسون واضحا: حتى مجرد النقاش في مقترح كهذا ليس واردا في الحسبان، واذا كان تراجع عن مشروعه السابق، ويريد الحرب، فسوف «نلتقي بعد الحرب». وأعرب الملك عن اسفه لاضطراره الى الانضمام الى باقي الدول العربية، وأنهى حديثه آملا عدم انقطاع الروابط بينه وبين اليهود. وأصبح واضحا الآن للجانب اليهودي ان «الفيلق العربي»، القوة العسكرية الاكثر تنظيما بين سائر الجيوش العربية، سيكون على رأس الجيوش العربية التي ستغزو ارض ــ اسرائيل.

اشتراك «الفيلق العربي» في المعركة

بدأت الصدامات المكشوفة لقوات «الهاغاناه» بالجيوش النظامية للدول العربية مع انتهاء الانتداب البريطاني في ١٩٤٨/٥/١٥. لكن هذه الجيوش كانت قد قدمت قبل ذلك مساعدتها الى عرب ارض ــ اسرائيل بصورة غير رسمية، خصوصا عن طريق منح اذونات و «اعفاءات من الخدمة» لضباط ورقباء لـ «التطوع» للعمل في البلد.

1369

وفي الاشهر الاولى من المعركة، اشتبكت قوات «الهاغاناه» مع اقوى الجيوش العربية وأفضلها تنظيما: «الفيلق العربي». وكانت وحدات هذا الفيلق المعسكرة في البلد خاضعة رسميا، حتى ١٥ ايار/مايو، لقيادة الجيش البريطاني لكنها تجاوزت هذا الاطار مرات كثيرة.

قبل كل شيء عمد رجال «الفيلق العربي» الى تدريب الشبان العرب في كل مكان عسكروا فيه. «على الرغم من القيود» ــ روى الضابط محمد الحسين ــ «لم يكف «الفيلق» عن تدريب الشبان العرب في حيفا والطيرة وعكا وبلد الشيخ». وشارك ضباط «الفيلق»، الذين «سرح» احدهم، محمد الحنيطي ــ كما سبق ان ذكرنا ــ وعين قائدا لحيفا، في التخطيط للدفاع عن المدينة ضد اليهود.

ومن حين الى آخر، وجد رجال «الفيلق» طرائق لمهاجمة اليهود مباشرة. ففي ١٩٤٧/١٢/١٤، أطلقوا النار على قافلة يهودية متجهة الى بن شيمن وقتلوا عشرة من مرافقيها بحجة مبنية على كذب صارخ بأن رجال القافلة أطلقوا النار في اتجاه معسكر «الفيلق». وروى نمر الخطيب ان البريطانيين اضطروا الى ابعاد سريتين تابعتين لـ «الفيلق»

كانتا معسكرتين بجوار نفيه شأنان في حيفا، بعد ان قدمتا «مساعدة كبيرة لعرب حيفا وألحقتا بيهود المدينة اصابات فادحة».

في ١٩٤٨/٤/٢٧، بعد ان اخلى البريطانيون مركز شرطة غيشر ودخله رجال كفوتسات غيشر، شنت وحدات «الفيلق العربي» المعسكرة وراء نهر الاردن عليهم هجوما مسنودا بنيران المدفعية والمصفحات. ولم ترهب رجال غيشر نيران «الفيلق»، وصمدوا بمساعدة تعزيزات وصلت اليهم من مستعمرات عيمك هايردين. ورفضوا ايضا الانذار النهائي بالاستسلام، الذي قدم اليهم في اليوم الثالث لبدء القصف.

لكن الضربة الاعنف التي انزلها «الفيلق العربي» بالييشوف اليهودي قبل موعد انتهاء الحكم البريطاني، كانت مشاركته في احتلال غوش عتسيون، وكانت بدايتها الهجوم في ١٩٤٨/٥/٤ ونهايتها المعركة الاخيرة على الغوش في ١٣ ــ ٥/١٤ (انظر الفصل الثاني والسبعين).

الإعداد لدخول الجيوش العربية ارض ــ اسرائيل

منذ بداية المعركة في البلد ادعى القادة العرب، الذين كلفتهم «الجامعة العربية» ادارتها، ان لا مفر من دخول جيوش الدول العربية الحرب بصورة فعالة، وأن ذلك حتمي للحؤول دون تقسيم البلد. وفي تقرير قدمه اسماعيل صفوت في ٣/٢٨ ذكر بصراحة انه «اذا كنا نريد النصر، فان لا مفر من تدخل الجيوش العربية واشتراكها في المعركة بكل العتاد والسلاح الموجود في حيازتها».

ولم يترك فشل القوات العربية المحلية و«جيش الانقاذ» امام الدول العربية اي مجال للتراجع، مع انه لم يكن من السهل عليها اتخاذ قرار بذلك. وكانت الدولة الاولى التي اعلنت ارسال جيشها الى ارض ــ اسرائيل هي العراق، وتمّ ذلك في ٤/٢١. ووصلت الوحدات الاولى للجيش العراقي الى معسكرات المفرق في طريقها الى ارض ــ اسرائيل في ٥/٢. وفي ٤/٢٦، قرر مجلس النواب الاردني ارسال الفيلق العربي الى ارض ــ اسرائيل. «ان كل المحاولات لحل مشكلة فلسطين بالطرق السلمية» ــ اعلن عبد الله في مؤتمر صحافي في عمان ــ «انتهت الى فشل. والطريقة الوحيدة التي بقيت امامنا هي الحرب. ويسرني ان اقود [المعركة] لانقاذ فلسطين». وفي ٤/٣٠، عُقد أخيرا مؤتمر ممثلي الجيوش العربية في عمان. 1370 وبعد ان قدم اسماعيل صفوت تقريره، قرر المجتمعون انه ينبغي ان يوضع في تصرف القيادة العامة للقوات العربية التي ستقوم بغزو البلد، خمس فرق عسكرية وستة أسراب من القاذفات والطائرات المقاتلة. وكان هذا الطلب يتجاوز كثيرا عدد القوات التي كانت الدول العربية مستعدة لتخصيصها للحرب في ارض ــ اسرائيل، ورفضته اللجنة السياسية لـ «الجامعة العربية». وفي اول ايار/مايو، قررت سورية ولبنان المشاركة في المعركة.

واستمرت الحكومة المصرية في ترددها، لكن الخشية من ان يقع البلد بكامله في يد جنود عبد الله حسمت الامر. وفي ٨/٥ اتخذ القرار بالمشاركة في الغزو.

وفي ١١/٥/١٩٤٨، اجتمع ممثلو الدول العربية في دمشق. وقدم القنصل البريطاني في دمشق اليهم الاقتراح الانكلو ــ اميركي بتطبيق هدنة في ارض ــ اسرائيل لمدة ثلاثة اشهر (انظر ص 1351). ورفض الاقتراح بالاجماع، وقرر المجتمعون انشاء قيادة عامة لـ «جميع القوات النظامية والاخرى العاملة لانقاذ فلسطين» بقيادة اللواء نور الدين محمود من العراق. لكن بناء على إلحاح الملك عبد الله الشديد أُوكلت القيادة العليا اليه، وعين اللواء العراقي نائبا له. وقد ادى هذا التغيير في القيادة العليا الى تغييرات حاسمة، في اللحظة الاخيرة، في خطة الهجوم العربية، وتسبب حتى بافراغ مهمة القيادة العليا من مضمونها، اذ ان الجيوش العربية الاخرى لم تقبل سلطة ملك الاردن.

وعندما استلم عبد الله زمام القيادة، اعلن حل «جيش الانقاذ» وحلول القوات العربية النظامية محله. وأعلن ايضا ان نشاطات «الهيئة العربية العليا» لم ترض السكان، وأنها لم تعد تمثل عرب ارض ــ اسرائيل، وأن ممثليها لا يحق لهم التكلم باسم الشعب.

وانتظر عرب اسرائيل، الذين يئسوا من قدرتهم على الصمود في وجه قوات «الهاغاناه» ومن تحريرهم على يد «جيش الانقاذ»، الخلاص على يد الجيوش العربية.

الفصل التاسع والستون
الحرب في مدن البلد

مرحلتان في حرب «الهاغاناه»

ان تاريخ مشاريع «الهاغاناه» في نصف السنة الاولى من حرب الاستقلال، الى حين اعلان الدولة وغزو جيوش الدول العربية، يمكن تقسيمه الى فترتين، هما بمثابة مرحلتين في تطور «الهاغاناه» من منظمة عسكرية سرية مشكلة من متطوعين الى جيش نظامي لدولة. ففي الاشهر الاربعة الاولى (كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ ـ مارس/آذار ١٩٤٨)، حافظت «الهاغاناه» بصورة عامة على طابعها كمنظمة ميليشيائية، مهمتها الاساسية الدفاع عن المستعمرات والمناطق الآهلة باليهود. والسبب في ذلك هو موقف البريطانيين، الذين كانوا يراقبون بدقة نشاطات القوات اليهودية، وكانوا مستعدين للتدخل وضربها كلما خرجت عن نطاق الدفاع السلبي. واعتبرت «الهاغاناه» ان مهمتها الرئيسية في هذه الاشهر هي انشاء كتائب وألوية، وتجميع السلاح من اجل مجابهة العرب بعد خروج البريطانيين من البلد. وقد تباطأت وتيرة سرعة الاستعدادات، وتضررت بشدة من جراء النقص في الاموال، الذي ادى الى تأجيل اوعدم تنفيذ مشاريع كثيرة ومهمة. وقد دافعت المدن والمستعمرات والمزارع عن نفسها بنجاح ضد الهجمات العربية المباشرة. وخصص العرب قواتهم الرئيسية لضرب طرق المواصلات اليهودية، وبذلك توصلوا، في نهاية تلك الفترة، الى انجازات ملموسة. وبتغير الظروف تبنت «الهاغاناه» اساليب حرب جديدة.

ومنذ بداية نيسان/ابريل، مع عملية «نحشون» (انظر ص 1562)، حدث تحول جذري في طابع الحرب. فقد انطلقت «الهاغاناه» لاحتلال المناطق والسيطرة عليها، تلك المناطق التي كانت تمر عبرها الطرق الحيوية للامداد وتقديم النجدة. وقد احتلت في البداية قرى عربية، وبعد فترة قصيرة ايضا احياء ومدنا عربية. ومن خلال ذلك نمت القوة العسكرية وتبلورت. وانتقل مركز ثقل الحرب الى ألوية قوات «الهاغاناه»، وسيطرت على مناطق كاملة واستعدت لمواجهة الغزاة.

وتعيد المرحلة الاولى الى الذاكرة، الى حد ما، ايام ذروة الهجوم العربي سنة ١٩٣٨، مع فارق اساسي واحد: في سنة ١٩٣٨ كانت القوات البريطانية تتحمل مسؤولية الامن في البلد وعبء الحرب ضد العصابات العربية في قواعدها. وقامت القوات اليهودية المدافعة

بدور محدود، بسبب التحفظات القانونية من جهة، وبسبب الافتقار الى اعتدة عسكرية ملائمة من جهة اخرى. أما في سنة ١٩٤٨، فقد كانت القوات البريطانية محايدة في افضل الاحوال، وأحيانا كثيرة عدائية، وأُلقيت على عاتق «الهاغاناه» تبعة الوقوف في مواجهة الهجوم العربي على طول كل الجبهات وتحمل كامل المسؤولية عن سلامة اليبشوف وعن مصير الحرب.

وتاريخ الاشهر الاربعة الاولى للحرب هو، من ناحية، تاريخ صراع مرير ضد العصابات العربية على غرار سنتي ١٩٣٨ و١٩٣٩، ومن ناحية اخرى تاريخ تكوّن تشكيلات عسكرية، وتدربها بصورة مكثفة وشراء اسلحة، قلبت الوضع في ربيع سنة ١٩٤٨ رأسا على عقب وأدت الى إلحاق هزيمة كاملة بالقوات العربية المحلية وغير النظامية.

1372 ويمكن تقسيم المعارك الفعلية في الاشهر الاربعة هذه الى ثلاثة [أنواع]: أ ــ القتال في المدن الكبرى؛ ب ــ الهجمات على المستعمرات؛ جـ ــ الهجمات على خطوط المواصلات.

بداية الهجوم العربي: تخريب الوسط التجاري في القدس

اتى النذير الاول بالحرب في المدن من القدس. ففي ١٩٤٧/١٢/١، بدأ في المدينة اضراب لمدة ثلاثة ايام، اعلنته «الهيئة العربية العليا» كردة فعل ازاء قرار الجمعية العامة للامم المتحدة بتقسيم البلد الى دولتين. ووقفت «الهاغاناه» في المدينة على اهبة الاستعداد. وكان الوسط التجاري، المبني جنوبي باب الخليل بالقرب من البلدة القديمة، منطقة مختلطة، فيها حوانيت عربية ويهودية. وكان سكان الحي الدائمون عربا. ولم يبد اصحاب الحوانيت اليهود تفهما لمتطلبات «الهاغاناه» ولم يتعاونوا معها. «بعد جهود كثيرة فقط نجح رجال «الهاغاناه» في ايجاد مكان لتخزين كمية صغيرة من السلاح، لبت المتطلبات الدنيا لجماعة دفاع واحدة» («على أسوارك، يا اورشليم»). وفي ١١/٣٠، ارسلت الى هذا المكان، الذي كان يضم ممتلكات يهودية كثيرة، وحدة صغيرة واحدة فقط. ومما لا شك فيه ان وجود شرطة بريطانيين وجنود في المنطقة ادى الى نشوء وهم بالأمان في اوساط اليهود. إلا انه على الرغم من ذلك، فقد توجه عدد من التجار الى قائد وحدة «الهاغاناه» وسألوه عما اذا كان من الافضل لهم ان ينقلوا ممتلكاتهم الى داخل المدينة اليهودية، وتلقوا أوامر واضحة بعدم فعل ذلك.

وفي ١٢/٢، خرج جمهور عربي من باب الخليل واتجه الى شارع الاميرة ماري. وبدأ مثيرون للشغب بمهاجمة المارة اليهود ونهب الحوانيت. وأطلقت وحدة «الهاغاناه» النار في الهواء، وفر مثيرو الشغب في اتجاه البلدة القديمة. وعلى الفور بدأ الوجه الجديد لقوات الامن البريطانية بالانكشاف. «بدأت وحدة الشرطة البريطانية، الموجودة في المكان والتي لم تتخذ اي اجراء لوضع حد لعبث جمهور الرعاع العربي، بمطاردة رجال الهاغاناه» (المصدر المذكور

اعلاه). ويذكر شاهد بريطاني ان «الشبان المشاغبين، الذين بدأوا الاضطرابات العربية في القدس، استمدوا تشجيعا من التمييز الذي اظهرته الشرطة البريطانية» (غريفس). وتجاوب جمهور الرعاع العربي فورا مع التلميح المكشوف الذي بدر من الشرطة، وعاد الى اقتحام الوسط التجاري. وبحثت الشرطة البريطانية عن رجال «الهاغاناه» اليهود، في الوقت الذي اطلقت فيه يد المشاغبين، وفقا لأفضل التقاليد الروسية في ايام القيصر. واصطدم رجال «الهاغاناه»، الذين أرسلوا من مركز البلد لنجدة الوسط التجاري، بحراسات الشرطة والجيش التي لم تسمح لهم بالتقدم الى مكان الشغب، حتى ان الشرطة اوقفت ثلاث سيارات لرجال «الهاغاناه» الذين جاؤوا بصفة رجال اطفاء، و«حالت بالقوة دون انقاذ المباني والبضائع». «وبحث في امكان الدخول في معركة مع الشرطة البريطانية لكن هذا الامر جوبه برفض المؤسسات المعتمدة» (ي. عمير). وتم اسر وحدة «الهاغاناه» التي كانت في الحي من قبل الشرطة، بعد ان اطلقت النار في اتجاه جمهرة الرعاع العابثة. وقبيل المساء هجر اليهود الوسط التجاري. وتم نهب ٤٠ حانوتا وأضرمت فيها النيران. وكان هذا هو النذير الاول بنظام «الفوضى».

وقد ألحق سقوط الوسط التجاري ضررا كبيرا بهيبة «الهاغاناه» في القدس. فبضربة واحدة خسر اليهود منطقة كاملة. ومع انه لم يسقط ضحايا في اثناء الاضطرابات، فان مجرد حقيقة ان المنظمة لم تتمكن من منع اعمال النهب، اثارت الشكوك والوهن في قلب الجمهور اليهودي وشجعت العرب.

لقد كان في الامكان توقع خيانة قوات الامن الحكومية، بعد سنوات الصراع والارهاب ضد البريطانيين، لكن عجز المنظمة في القدس عن العمل احدث أثرا سيئا في البلد بكامله، وساعد على امتداد الاضطرابات الى باقي مدن البلد وطرقاته.

تل ابيب في المعركة

1373

ان قضية الصراع الدامي بين تل ابيب وبين يافا وباقي القرى العربية المجاورة لها، هي احدى القضايا الاكثر كآبة واحباطا في الاشهر الاولى لحرب الاستقلال. لم يكن ثمة منطقة في البلد تمتع فيها اليهود بتفوق كبير الى هذا الحد مثل منطقة تل ابيب، لكن اعتبارات سياسية ذات وزن كبير لدى المؤسسات العليا منعت «الهاغاناه» من استخدام كامل قوتها في هذه المنطقة وانهاء مسألة يافا بضربة واحدة. وكان الاهم من ذلك، تولي البريطانيين حراسة يافا.

لقد بدأ التوتر بين العرب واليهود في المنطقة بعملية القتل في «غان هاواي» في ١٩٤٧/٨/١٠ (انظر ص 1334). واستقبلت «الهاغاناه» ليل قرار الجمعية العامة للامم

المتحدة وهي في حالة تأهب. وفي اليوم التالي اعلنت التعبئة العامة في المنظمة، وانطلق مئات الرجال الى مواقعهم على الحدود.

وفي اليوم نفسه بدأ فرار السكان، من عرب ويهود، من مناطق الحدود بين تل ابيب ويافا. وفي اثر الفرار، بدأ رعاع عرب ويهود باحراق المنازل في المنطقة المهجورة. وحدث ايضا تبادل اطلاق نار بين رجال «الهاغاناه» والعرب في يافا. وفي مساء اليوم التالي، وقع هجوم على الموقع اليهودي المتطرف الكائن في زاوية شارعي برنت والمنشية، بهدف تدميره والتسبب باخلاء كتلة البيوت الواقعة خلفه. وصدّ الهجوم وبقي الموقع، الذي كانت له اهمية استراتيجية في الدفاع عن تل ابيب، بيد رجال «الهاغاناه». ولقي يهود أفراد اندفعوا الى حدود يافا مصرعهم نتيجة اطلاق النار عليهم. وكان الاخطر من ذلك الاعتداءات التي جرت ضد السيارات القادمة من القدس او من الجنوب الى تل ابيب. وكانت قاعدة هذه الهجمات حي ابو كبير، السيىء الصيت منذ ايام أحداث سنة ١٩٣٩ (انظر المجلد الثاني، ص 327). في مطلع سنة ١٩٤٧، كان يقطن في هذا الحي ٥٠٠٠ عربي تقريبا، وكان اشقياؤه يسيطرون على الشارع الرئيسي الذي يصل تل ابيب بالقدس. وقد بدأت الهجمات على وسائط النقل اليهودية في بداية كانون الاول/ديسمبر، وقتل خمسة يهود وجرح كثيرون. وفي فجر يوم ١٩٤٧/١٢/٣، نفذت «الهاغاناه» هنا العملية الانتقامية الاولى في منطقة تل ابيب، وذلك بنسفها مبنى مكونا من طبقتين كان يسيطر على شارع هيرتسل. واستمر تبادل اطلاق النار منذ تلك اللحظة من دون توقف، بين مواقع «الهاغاناه» ومواقع العرب في ابو كبير. وفرضت وحدات الشرطة والجيش البريطانية التي اتت الى المكان منع التجول على المنطقة بأكملها. وتجددت حركة النقل اليهودية لفترة ما على نطاق ضيق، لكن عملية غير مدروسة لرجال الايتسل (انظر ص 1542) ادت الى تجدد تبادل اطلاق النار وتوقفت حركة النقل اليهودية في الشارع عمليا حتى احتلال يافا في ربيع سنة ١٩٤٨.

ومع قدوم الانكليز الى منطقة الحدود، بدأ العرب بحرب قنص ضد اليهود. وقد اقيمت اوكار القناصة على سطوح المنازل العالية المطلة على تل ابيب وضواحيها. وكان عدة اشخاص من القناصة عبارة عن مرتزقة من البولنديين من فلول قوات اندرس. وقد أوقعوا عدة ضحايا في شوارع تل ابيب، وشلوا الحركة في عدد منها. وقد عرّض موقع القناصة في جامع حسن بك حياة المارة في شارع اليركون للخطر، وسيطرت مواقع اخرى على شارع هعلياه وشارع هيرتسل. ونشأت ضرورة لبناء جدران واقية في عدة شوارع. وكانت العملية الاولى لـ «الهاغاناه» ضد القناصة حصر المنازل التي نشطوا منها ومن ثم نسفها. وأفرزت «الهاغاناه» قناصة من بين أفرادها تتبعوا قناصة العدو وحاولوا ابادتهم.

وقد تسببت بتدهور الروح المعنوية لدى العرب في يافا الى حد ليس قليلا «ضربتان كبيرتان» («في نظر العدو») وجّهتا الى المدينة، وهما: اقتحام رجال الايتسل للمدينة في ١٩٤٧/١٢/١٣؛ ونسف رجال ليحي لـ «السراي» في ١٩٤٨/١/٤ (انظر الفصل السابع والستين).

ومع توقف حركة المرور من تل ابيب الى الجنوب، عبر ابو كبير، انتقلت الحركة الى طريق ترابي من حي هتكفاه الى مكفيه يسرائيل. وأصبح من الضروري شق طريق بطول ٥٠٠ متر وتعبيده للاستخدام في الايام الممطرة الوشيكة. ومن اجل التمكن من شق الطريق وضمان سلامة السيارات المارة عليه، استولى رجال «الهاغاناه» على البساتين المجاورة، التي كان يملكها عرب ابو كبير والمنطقة. وردعت الكمائن التي نصبت في هذه البساتين العرب عن الاقتراب من الشارع الذي دعي باسم «طريق الامن»، وحال ذلك دون انقطاع الاتصال بين تل ابيب والقدس والجنوب. *1375

واستقرت الجبهات المختلفة بسرعة. وكانت اهمها الجبهة الجنوبية بقطاعاتها الثلاثة. وقد ضم القطاع أ أحياء هتكفاه، وعزرا، وياد إلياهو. وكانت تواجهه القرية الكبيرة سلمة، التي كانت بساتينها تمتد في اماكن كثيرة حتى بيوت اليهود. وقد قاسى القطاع ب (حي شابيرا، وحي غفعات هيرتسل، وحي فلورنتين، وحي مكابي أ و ب) من وكر القتلة القديم في ابو كبير، الذي هجرته اغلبية سكانه في الاسابيع الاولى للصدامات، فشغلت العصابات المسلحة منازله وحصنتها وأزعجت بقنصها تل ابيب بصورة متواصلة. وضم القطاع ج الجبهة القديمة على حدود يافا ــ نفيه شالوم، ونفيه تسيدك، وكيرم هتيمانيم، حتى شاطىء البحر. وقد ضمت الجبهات جميعها، بقيادة يسرائيل شاحوري، ١٠٥ مواقع، وكان الرجال يحتلون مراكزهم في ٤٠ منها، فقط في اوقات الطوارىء. وكان في حيازة هذه الجبهة ٦٤ بندقية (نصفها بنادق «شرطة المستعمرات العبرية» التابعة لحي هتكفاه)، و ٩٤ رشيشا (معظمها ستنات)، و ٨ مدافع رشاشة، و ٢٥ مسدسا، ونحو ٦٥٠ قنبلة يدوية. وكان هناك في القطاع أ مدفعا هاون عيار ٢ بوصة. وكانت الذخيرة قليلة (٥٠ رصاصة للبندقية، و ١٠٠ رصاصة للستن). ويجب ان تضاف الى كمية السلاح هذه ٩٠ بندقية خاصة برجال الشرطة اليهود الذين كانوا يحرسون الحدود. وبالاضافة الى الصعوبات الخارجية، كانت «الهاغاناه» تعاني صعوبات داخلية، وخصوصا في حي هتكفاه، الذي كان فيه وكر قوي لرجال الايتسل لم يكن من السهل فرض الانضباط على أفراده.

أما الجبهة الثانية ــ الجبهة الشمالية ــ بقيادة شمعياه بكنشتاين، فقد كانت اقل تعقيدا وخطورة، اذ ان القرى العربية الثلاث في هذه المنطقة، شيخ مونس وصميل وجماسين، لم تنجرف في الايام الاولى مع التيار العام، وأظهرت مقاومة لضغط العصابات، لكنها سرعان ما وجدت نفسها بين المطرقة والسندان. وفي المرحلة الاولى للأحداث، اجتمع ممثلو هذه القرى، ومعهم ممثلا إجليل وأبو كشك، الى ممثلي «الهاغاناه» في بيت أبراهام شابيرا في بيتح تكفا وعبروا عن رغبتهم في السلام، حتى انهم تعهدوا بمنع دخول العرب الغرباء والمعادين الى أراضيهم، واذا لم يستطيعوا الوقوف في وجههم فسيطلبون معونة «الهاغاناه». وفي نهاية

* الصفحة 1374 في الاصل تحتوي على رسم توضيحي لاحدى جبهات تل ابيب قبالة المنشية. (المترجم)

الامر، لم يستطع ابناء هذه القرى الصمود امام ضغط العصابات، فهجروا في نهاية آذار/مارس بيوتهم، وأُخليت كل المنطقة الواقعة بين تل ابيب وهيرتسليا من سكانها العرب.

أما الجبهة الثالثة (الجبهة رقم ٥)، بقيادة ألكسندر تشرنوفيتس (تسور)، فقد كانت تمتد جنوبي يافا، وضمت ضواحي بات يام، حولون، موليدت، مكفيه يسرائيل. وكان في هذه الجبهة نحو ٦٠ موقعا، تعرضت لمضايقات شديدة من جانب عرب يافا، الذين لم يجرؤوا على مهاجمة تل ابيب. وأُلقي على عاتق «الهاغاناه» في تل ابيب ايضا مسؤولية الدفاع عن بن شيمن (الجبهة رقم ٣) ومبنى «هكيرن هكييمت» الكائن بجوار بيت دجن (الجبهة رقم ٤).

وكان يتولى الحراسة في جميع هذه الجبهات ليلا نهارا ٤٦٢٤ شخصا، معظمهم من رجال قوة الحراسة، وقلة منهم من أفراد وحدات قوة الميدان، الذين انضموا اليهم. وكان القائمون بالحراسة ليلا متطوعين، بينما شغل المواقع في النهار اعضاء «الهاغاناه» المجندون، الذين كانوا يتلقون أجورا.

واتسع نطاق نشاط «الهاغاناه» في المدينة يوما بعد يوم. «من ميزانية صغيرة» ــ روى احد القادة ــ «انتقلنا الى ميزانية مقدارها ٧٠٠ جنيه فلسطيني في اليوم (نحو ٢٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني شهريا). وأصبح من الضروري شراء اسلحة ــ ــ وتنظيم شبكة مواصلات ونقل. وأصبح من الضروري كذلك تجهيز اغذية وألبسة ورواتب للأشخاص، وتنظيم مستشفيات، وتقديم مساعدة مالية للمحتاجين. وأحيانا كنا نقف تائهين امام مشكلات عرفت فيما بعد باسم: ادارة، ومستودعات، ونقل، واستخبارات، وتدريب، واتصال، وخدمات طبية، وهندسة، ومدفوعات، واعانة». 1376

وفي بداية ايام الاضطرابات، قام العرب بمحاولة كبيرة لمهاجمة حي هتكفاه. فبعد نشوب الاضطرابات في البلد أُرسل حسن سلامة، احد أجرأ قادة العصابات السابقين، لتولي قيادة العصابات في المنطقة الجنوبية. وبعد فترة قصيرة من قدومه، قرر سلامة شن هجوم واسع النطاق على حي هتكفاه. وجلب لهذا الغرض مئات من المقاتلين من اللد والرملة وحتى من نابلس، وكان بينهم كثيرون ممن خدموا في وحدات عسكرية في سنوات الحرب. وأعلنت «الهاغاناه»، التي تلقت معلومات مسبقة عن الهجوم، «حالة خطر شديد» في هذه الجبهة. وفي ١٩٤٧/١٢/٢٨، في الساعة السابعة مساء، فتح المهاجمون النار على طول جبهة امتدادها كيلومتر واحد. وجرى الهجوم وفقا للأصول العسكرية، بينما تقدم العرب وهم يطلقون النار على المواقع اليهودية حتى وصلوا في عدة اماكن الى مسافة ١٠ ــ ١٥ مترا من المواقع اليهودية. وبعد ان سمّروا بهذه الطريقة المدافعين اليهود في مواقعهم، شنوا هجوما واسع النطاق في قطاع حي بيت يعقوب، الذي كان امتدادا بارزا لحي هتكفاه، من الجبهة المتواصلة جغرافيا في اتجاه قرية سلمة. وكان هذا الحي فقيرا ومزدحما جدا بالسكان وممتدا الى سفوح سلمة. واستخدم المدافعون القنابل اليدوية، وعندما نفدت اقتحم العرب المكان وبدأوا، كعادتهم، بالسلب والنهب، وأضرموا النار في بضعة أكواخ. وانسحب قسم من 1377

المدافعين وواصل اطلاق النار على العرب من الحي، وبقي قسم في مواقعه. وأوقعت نجدة من رجال قوة الميدان جاءت الى المكان وأطلقت النار على المهاجمين، الذعر في قلوبهم فأخذوا بالفرار في اتجاه قرية سلمة، جارفين معهم أيضا رجالهم المدربين. وفي اثناء انسحابهم اصطدم العرب برجال «الهاغاناه» الذين ظلوا في مواقعهم، وأوقع هؤلاء بهم عددا من الاصابات. ووصلت جماعات من المدافعين الى حدود سلمة. وعلى الفور اتت الى المكان مصفحات الشرطة البريطانية، وفتحت النار على رجال «الهاغاناه» لمنعهم من الوصول الى القرية. وتم تفادي الصـدام بين الشرطة والرجال المدافعين في اللحظة الاخيرة. واستمرت المعركة ثلاث ساعات تقريبا. وقد نجح العرب في اضرام النار في ٣٢ كوخا تقريبا. وفي الصباح وجد يهوديان رفضا مغادرة منزلهما عشية الهجوم، على الرغم من أوامر «الهاغاناه»، مقتولين على يد العرب في احد الاكواخ المحترقة. لكن خسائر العرب كانت أفدح، ولم يجرؤوا منذ تلك اللحظة على مهاجمة ضواحي تل ابيب هجوما جبهويا. 1378

وفي اثناء الهجوم عمّ الذعر حي هتكفاه، وبدأ سكان كثيرون بالهروب في اتجاه تل ابيب. وأحاط مئات من الرجال بمركز الخفراء في الضاحية، الـذي يضم قيادة المنطقة، وطالبوا بالسلاح. ووجد رجال الايتسل الفرصة مؤاتية لبث دعاية ضد «الهاغاناه»، وخرجوا الى شوارع تل ابيب في السيارات مع مكبرات صوت أعلنوا بواسطتها ان «اليهود يذبحون في حي هتكفاه و«الهاغاناه» خيبت الآمال». وبدأت جماهير كثيرة بالتدفق لنجدة الحي. ووجدت هيئة اركان «الهاغاناه» ان من الضروري نشر مجموعة مقاتلين لايقاف الاشخاص المذعورين الذين جاؤوا من تل ابيب لـ «انقاذ حي هتكفاه».

وزادت الاحداث في حي هتكفاه في اهتزاز ثقة الجمهور اليهودي بالشرطة البريطانية في المنطقة: فمنذ اليوم الاول للأحداث انكشف وجهها الاستفزازي. لقد انضم أفراد الشرطة في كل المناسبات الى العرب في اطلاق النار صوب اليهود. وكثيرا ما كانوا يعتقلون المدافعين، وتم قتل عدد من هؤلاء بدم بارد على ايديهم. في ١٩٤٧/١٢/٦، في اثناء خروج عدد من اعضاء «الهاغاناه» غير المسلحين الى احد المواقع في حي بيت يعقوب، ظهرت مصفحة بريطانية شرعت في اطلاق النار عليهم. وتم اسر رجال «الهاغاناه»، وأطلق الرقيب البريطاني المسؤول النار على احدهم، يعقوب شيف، فقتله. وأحاط جمهور غاضب بالمصفحة التي التجأ اليها القاتل ومنعها من مغادرة المكان. وبعد مفاوضات وعد قائد شرطة قضاء يافا بمحاكمة الرقيب واطلاق سراح الاسرى في الشرطة. كما وعدهم بأنه من الآن فصاعدا لن يحضر شرطة بريطانيون الى حي هتكفاه. لكن هذه الوعود لم تحترم. فأطلق سراح قاتل شيف «لعدم وجود ادلة»، وحكم على رفاق شيف بالسجن لمدة ٥ أعوام. وفي ١٩٤٧/١٢/١٠، قام الجنود ورجال الشرطة بعمليات تفتيش في المواقع الدفاعية الموجودة على حدود يافا، وأُخذ عدد من المدافعين الى التحقيق في شرطة المنشية. وبعد التحقيق أُمروا بالعودة من دون حراسة الى تل ابيب. وفي اثناء خروجهم من المركز اطلق رجال الشرطة

البريطانيون النار عليهم، فقتل احدهم: غداليا ايراره.

لقد برهنت هذه الحوادث على ان الحكم البريطاني فقد السيطرة على أدواته. وربما كان ذلك احد العوامل للاسراع في تنفيذ قرار الحكومة باخلاء منطقة تل ابيب وبيتح تكفا في ١٥/١٢/١٩٤٧، وتسليمها للسلطات اليهودية (انظر ص 1346). لكن ايضا بعد ذلك قام الشرطة والجنود البريطانيون، الذين وضعوا على حدود المناطق العربية، بـدور مصيري وتسببوا بموت عدد غير قليل من اليهود.

وبعد فشل رجال العصابات بيافا، في جبهة تل ابيب، وجهوا هجماتهم الى الضاحيتين اليهوديتين جنوبـي يافا: حولون وبات يام. وقد اتت اغلبية الهجمات على حولون وعلى حي غرين المجاور لها من هضبة تل الريش، الواقعة في جوار الحي العربـي الحامل للاسم نفسه، والتي كانت مسيطرة على كل ما هو حولها. وأتت الهجمات على بات يام من حي جباليا، الذي كان هو ايضا مطلا من الاعلى على الحي اليهودي المجاور.

وقد انقطعت طريق المواصلات العادية بين الحيين وتل ابيب في الاسبـوع الاول للأحداث، واضطرت السيارات الخارجة منها والداخلة اليها الى الالتفاف حول يافا. وفيما بعد نشأت ضرورة لتنظيم قوافل واستخدام عربات مصفحة. وفي الحانوكاه [سبت عيد الانوار]، في ١٣/١٢/١٩٤٧، فتح العرب النار من تل الريش على حولون وحي غرين. وفي اليوم نفسه، قامت «الهاغاناه» بمحاولة جريئة لاحتلال التل. فخرجت وحدة من قوة الميدان بقيادة دانييل دلوغي وطردت العرب من التل، لكن بسبب النقص في السلاح 1379 اضطرت الى الانسحاب امام هجوم مضاد شنه العرب، وقتل فيه يعقوب كاتس. وفي اثناء المعركة، حضرت الى المكان ثلاث مصفحات بريطانية، وتوجهت الى مواقع اليهود في حي غرين وصادرت رشاشين من طراز برن، كانا بمثابة السلاح «الثقيل» لكل هذه الجبهة، وعدة بنادق. وبحسب معلومات وصلت الى «الهاغاناه»، باع الجنود البريطانيون قسما من هذه الاسلحة الى رجال العصابات في يافا.

وفي ١٩/١٢، بدأ العرب بتصويب نيرانهم على بات يام وراء حي جباليا. وكان حي جباليا في ذلك الوقت قد اصبح محاطا بتحصينات قوية من الاسمنت، وكان سكانه يوجهون من داخله رصاصهم الى حي اليهود المجاور.

وبعد ان اعلنت «الهاغاناه» عملية «دفاع هجومي» (انظر ص 1414)، شرع رجالها في عمليات تدمير لأوكار العصابات في سلمة وابو كبير وتل الريش وجباليا. ومن بين العمليات الاولى يجدر التنويه بعملية نسف البيت الاحمر على هضبة تل الريش في ٢٤/١٢، التي سقط فيها رجلا الكتيبة الثانية التابعة لقوة الميدان في تل ابيب: كرمي رابينوفيتس ويعقوب غروبر. وقد استخدم في هذه العملية اول مرة رشاش ثقيل ومدفعا هاون عيار ٢ بوصة.

وفي تلك الايام، قررت قيادة «الهاغاناه» في تل ابيب مهاجمة قرية سلمة السيئة

الصيت. وتطلبت العملية، التي حملت اسم القائد يهوشواع غلوبرمان الذي سقط في طريق عودته من القدس قبل ثلاثة اسابيع من ذلك التاريخ، تجميع ٢٥٠ مقاتلا. وشاركت فيها وحدة بلماح من الكتيبة الرابعة، وفصيلة قادة وجنود من لواء «غفعاتي»، الذي كان في قيد التنظيم، ومن لواء «كرياتي». وحتى الاسلحة نفسها جمعت من الالوية الثلاثة: تل ابيب، والشارون، والجنوب. وبما ان هذا الهجوم كان الاول على قرية عربية، فقد عرض الامر الخاص بالعملية على رئيس القيادة القطرية، يسرائيل غاليلي، للموافقة عليه. وكان المخططون للهجوم قد قرروا بدأه بقصف من مدافع هاون عيار ٣ بوصات (كانت هذه اول مرة يدمج فيها هذا السلاح بخطة مبادأة تضعها «الهاغاناه»). لكن رئيس القيادة القطرية حظر ذلك كي «لا نلحق اصابات بالاطفال والنساء»، وكي لا يتهمنا الرأي العام العالمي بالوحشية وتصعيد حدة الحرب. انما يمكن استخدام مدافع الهاون فقط اذا استدعت تطورات المعركة ذلك.

وقسم قائد العملية، يتسحاق فونديك، المقاتلين الى فريقين وذلك لمهاجمة سلمة من جهتين. وحدد موعد العملية في ليلة عيد القديس سيلفستر، فجر ١٢/١٩، «من خلال الافتراض انه في هذه الليلة، التي هي ليلة عيد لدى المسيحيين، لن يشغل البريطانيون المحتفلون انفسهم بالتدخل الى جانب العرب» («كتاب غفعاتي»). لكن العملية لم تنجح. لقد عملت «وحدة يونا» التي شارك فيها رجال البلماح، حقا، «بصورة حسنة، وأنجزت دورها في العملية من دون خسائر» (المصدر السابق). لكن «وحدة يهوشواع» تاهت في البساتين ولم تصل الى هدفها، ودخلت فصيلة واحدة منها فقط في معركة مع العرب، أما الباقون فقد «عادوا الى القاعدة من دون ان يطلقوا رصاصة واحدة» (المصدر السابق). واتضح ان هناك ضرورة لـ «وحدات دائمة ومدربة على العمليات القادمة لتجنب فشل آخر» (ي. فونديك).

ومضى شهر كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ في جبهة تل ابيب، في ظل استمرار الحراسة المشددة. فبعد ان اقتحم رجال الايتسل يافا في ١٩٤٧/١٢/١٣، وألقوا متفجرة في شارع الملك جورج وقتلوا ستة عرب، وبعد ان حاولوا التسلل الى يافا عن طريق البحر في ١٢/٢٩، فرض على «الهاغاناه» تعزيز الحراسة تحسبا لاحتمال قيام العرب بأعمال انتقامية مشابهة. وفي ١٩٤٨/١/٩، اقيمت حواجز في كل مداخل المدينة أخضعت كل السيارات الداخلة وركابها للتفتيش. ولم يعترف البريطانيون رسميا بحق حرس «الهاغاناه» في ايقاف الجنود وطلب هوياتهم، إلا بعد الاشتباك الدامي في شارع بن يهودا بالقدس في ٢/٢٣.

وقد قامت قوات «الهاغاناه» بعشرات الغارات وأعمال التدمير في القرى والاحياء التي انطلق منها المهاجمون العرب. ففي ٢/١٢، شن هجوم على ابو كبير، شاركت فيه ٤ فصائل من قوة الميدان بقيادة يسرائيل شاحوري. ونجحت اثنتان منها في اقتحام جنوبي الحي، وفجرتا بيوتا، وقتلتا [عددا] من رجال العصابات وصادرتا سلاحهم. ونجحتا في تصفية قيادة العصابات في الحي وقتل قائد الحي ابو رحمه. وسقط في هذه العملية قائد الفصيل عمانوئيل

1380

مرغليت والممرض ناتان بورنشتاين. وفي ٢/٢٨، انطلقت وحدتان (٣٢ شخصا) لتدمير مبنيين على حدود سلمة. وكان الرجال وقادتهم مبتدئين، فلم يتخذوا الاجراءات الامنية المألوفة. وطوقتهم عصابات عربية. وبعد معركة يائسة شرعوا في الانسحاب، وفي «غمرة الانسحاب المذعور نسي كثيرون الاهتمام بزملائهم الجرحى الذين بقوا في ساحة المعركة». وفي اليوم التالي، احضرت الشرطة البريطانية جثث ستة مقاتلين الى مكفيه يسرائيل. وغنم العرب اسلحة ثمينة. وقدم الناجون من معركة سلمة الى محكمة عسكرية بتهمة ترك زملائهم الجرحى في ساحة المعركة. وحلت وحدتهم وحرم رقباؤها من حق الخدمة في مناصب قيادية في المعركة، «إلا اذا برهنوا في عمليات اخرى ان سلوكهم كجنود على ما يرام. وعندها فقط سيخضعون لاختبار جديد ويرسلون الى دورة لقيادة الجماعات، ويسمح لهم من جديد بأن يجربوا قدرتهم على قيادة جماعة في معركة» (ي. اوليتسكي).

وكان شهر آذار/مارس بمثابة بداية تحول الى الافضل في جبهة يافا. ففي ٣/١٢ استخدم اول مرة الـ«دافيدكا» ــ وهو مدفع الهاون الجديد الخاص بـ«الهاغاناه» (انظر ص 1522) ــ في اثناء الهجوم على حي ابو كبير. وقد استخدم مدفعا «دافيدكا»، وزن قذيفة الاول ٣٧ كلغ والثاني ١٢ كلغ، لاطلاق ٢٨ قذيفة على الحي. وجاءت النتائج فوق كل تصور. اذ لم يتحمل العرب دوي الانفجار الهائل الذي احدثته القذائف فتخلوا عن مواقعهم، وتسلل رجال «الهاغاناه» الى الحي ونسفوا بيوته. وبعد عشرة ايام من ذلك شُنّ هجوم مماثل على جباليا، وهنا ايضا كان تأثير القصف على العدو كبيرا، ونسفت عدة بيوت ومواقع. وسقط في هذه العملية خبير المتفجرات يهودا غوتليف. وفي ٣/٣١، نفذت عملية ثانية لتدمير بيوت ابو كبير، استخدم فيها المقاتلون اكثر من طن من المواد المتفجرة. وبعد هذا الهجوم هجر العرب عمليا ابو كبير، الذي انقلب الى تل من الانقاض، لكن اليهود لم يحتلوه لخشيتهم تدخل البريطانيين. وفعلا، احتفظ الجنود البريطانيون منذ بداية ايار/مايو بأبي كبير. وفي ١٠ من الشهر المذكور فقط، وبناء على اتفاق مسبق، سلموه لوحدات «الهاغاناه» في تل ابيب.

وفي نهاية آذار/مارس، توجهت وفود من يافا الى جميع الدول العربية، وعلى رأسها رئيس البلدية وعدد من اعضاء «اللجنة القومية». «شرحت هذه الوفود» ــ ذكر نمر الخطيب ــ «للدول العربية الاخطار التي يمكن ان تنجم عن سقوط يافا. لكنها عادت من دون سلاح».

وقد اصبحت مدينة يافا نفسها عمليا مشلولة تماما منذ نهاية آذار/مارس ١٩٤٨ حتى استسلامها رسميا لـ«الهاغاناه» بعد ستة اسابيع من ذلك. وقد تسببت اعتبارات سياسية، نبعت من عدم الرغبة في التورط مع البريطانيين الذين كانوا يجلون عن البلد، بتأجيل احتلالها، لكن مصيرها كان في الحقيقة محسوما. وكان الامل الوحيد ليافا هو الصمود الى ان تصل اليها، مع انتهاء الانتداب البريطاني، وحدات الجيوش العربية التي كانت ستغزو

البلد. لكن هذا الامل ايضا خاب مع تنفيذ «عملية حامتس» (انظر ص 1573)، قبل اسبوعين من الغزو، التي طوقت يافا بحزام حصار يهودي.

حيفـا

في شتاء سنة ١٩٤٨، اصبحت حيفا القاعدة الرئيسية التي نظم البريطانيون خروجهم من البلد عن طريقها، ولذا حرصوا على تأمين سيطرتهم على شوارع المدينة الرئيسية اكثر مما حرصوا في اي مكان آخر في البلد. وقد نبع تدخلهم في مجريات الامور بالمدينة، في الاساس، من قلقهم على منشآتهم وترتيباتهم. وفي اجتماع مع ممثل الوكالة اليهودية في المدينة، هاري بايلين، قال الجنرال ستوكويل، قائد الجيش في شمال البلد، ان «ما يهمه في حيفا هو التالي (بحسب اهمية الامور): ١ ــ الامن في الميناء؛ ٢ ــ سلامة سكك الحديد؛ ٣ ــ النفط؛ ٤ ــ الامن على الطرقات؛ ٥ ــ قيام وضعية سلام بين الصقور». وقد سبب هذا الموقف في مشكلات كثيرة لسكان المدينة، لكنه كان هو الذي ادى في نهاية الامر ــ كما يبدو ــ الى قرار البريطانيين بأن يفسحوا لقوات الطرفين المتنازعين مجال مجابهة بعضها بعضا كي ينتهي التوتر في المدينة بانتصار احد الطرفين. 1381

لقد بذلت «الهيئة العربية العليا»، التي عرفت قيمة حيفا بالنسبة الى المعركة على ارض ــ اسرائيل، جهودا كثيرة للمحافظة على سلطتها ونفوذها بين العرب في المدينة: قُمعت الشرائح المعتدلة من السكان المشكلة من التجار وأصحاب الاعمال، وأعيدت السلطة في المدينة الى القائد العسكري، النقيب السابق في سلاح الحدود، محمد بك حماد، وهو «رجل عسكري متقد العزيمة والمبادرة». فنجح خلال فترة قصيرة «في السيطرة على الجماعات المسلحة المختلفة في المدينة» (م. كرمل). وكان يقف على رأس المتطرفين في المدينة نمر الخطيب، من المتعصبين القوميين، وعمد الى تحريض السكان العرب على القيام بعمليات ارهابية ضد اليهود.

وقامت بدور اجرامي جدا في حيفا وحدات «الفيلق العربي»، التي كانت معسكرة في اماكن مختلفة داخل المدينة، واستخدمها البريطانيون لأغراض الحراسة. وقد ساعد جنود «الفيلق» رجال العصابات العربية ليس فقط بصورة غير مباشرة، عن طريق تقديم السلاح والتدريب، وانما ايضا بهجمات مباشرة على اليهود. وقد بدأت هذه الهجمات في الشهر الاول للأحداث عندما كان جنود «الفيلق» يطلقون النار على السيارات المارة بالقرب من معسكراتهم. وحاول الضباط البريطانيون الادعاء، في مثل هذه الحالات، ان اطلاق النار جاء ردا على شغب يهودي، لكنهم كانوا يضطرون احيانا الى الاعتراف بأن اطلاق النار هو «نتيجة توتر الاعصاب الناجم عن تلك الايام». وفي ١٩٤٨/١/١٧، اوقف جنود «الفيلق» سيارة هبطت من جبل الكرمل، وأضرموا النار فيها وقتلوا ركابها الثلاثة. وتحت

تأثير ضغط المؤسسات اليهودية في المدينة، بدأت السلطات العسكرية بابعاد وحدات «الفيلق» عن المناطق اليهودية، لكنها ابقتها في جوار المدينة.

وقد شن العرب هجماتهم من خارج المدينة وفي داخلها. من الخارج جرت محاولات لقطع خطوط المواصلات من حيفا واليها. فهوجمت من قرية بلد الشيخ وسائط النقل القادمة من عيمك يزراعيل [مرج ابن عامر]، وهوجمت من قرى الطيرة وجبع وعين غزال وسائط النقل القادمة الى حيفا من جنوب البلد. وفي المدينة نفسها، حاول الارهابيون قطع خطوط المواصلات بين الاحياء اليهودية المنعزلة وبين التكتل الرئيسي اليهودي في هدار هكرمل. وفي الطرق الصاعدة والنازلة من الكرمل الى المدينة السفلى، أطلقت النار على المارة وسيارات المسافرين. وازدادت الهجمات بصورة خاصة في منطقة وادي روشميا، التي كانت تمر عبرها حركة المواصلات من هدار هكرمل الى [مجموعة المستعمرات المدعوة] هكريوت والسهل والجليل. وفي ١٢/٨، استمر الى ما بعد منتصف الليل تبادل اطلاق النار بين المدافعين عن هدار هكرمل وبين رجال العصابات في الحليصة، الذي قتل فيه ٩ عرب وجرح عشرات منهم. وقد توقفت المعركة بعد ٤ ساعات عندما تدخل البريطانيون في الامر. وبعد ذلك بدأ القناصة العرب باطلاق الرصاص على وسط الاحياء اليهودية. «اصيبت امرأة خرجت لنشر الغسيل على شرفة بيتها في شارع هحلوتس فتوفت، وأُصيب بائع متجول في شارع هاشومير فمات، وأُصيب برصاصة قناص عربي صبي كان يسير متمهلا في شارع يحيئيل في طريقه الى المدرسة» (م. كرمل). ومنذ ذلك اليوم، اصبح قتل اليهود الذاهبين مصادفة الى المناطق العربية حدثا يوميا.

بدأت «الهاغاناه» بتعبئة رجالها للعمل، وفقا للأساليب التي اتبعتها في نهاية الثلاثينات. احتل رجال قوة الحراسة مواقعهم، منهم من جُند [للحراسة] في ساعات النهار، ومنهم للحراسة في الليل فقط. ونظمت وحدات قوة الميدان في كتيبتين في اطار لواء «لفنانوني»، الذي قررت القيادة العليا انشاءه قبل عدة اسابيع من بدء نشوب الاشتباكات. وقد ضمت السرايا الاربع القديمة (٤٨٠ شخصا تقريبا) الى الكتيبة د، التي ارسلت في الشهر الاول للحرب الى دورة تدريب مكثفة مدتها اسبوعين في مزارع بيت شان، وضمت السرايا الاخرى (٣٥٠ شخصا تقريبا) الى الكتيبة هـ («كتيبة هيرتسل»). وجند الاشخاص الذين تمكنوا من ترك اعمالهم، وخصوصا طلاب التخنيون الذين توقفوا عن الدراسة، في وحدات قوة الميدان. وبما ان هذه القوة كانت مخصصة للعمل ضمن نطاق المدن وأفرادها ليسوا بعيدين عن منازلهم، فانه لم تنشأ ضرورة لتزويدها بالمؤونة والبطانيات والالبسة، او حتى دفع رواتب لأفرادها. «لم يطلب الرجال اي شيء باستثناء السلاح، وتلقوا كميات قليلة منه، وحتى الذخيرة اعطيت لهم بالقطارة» (المصدر المذكور اعلاه). وكُلِّفوا حماية الجزء الاسفل من مدينة حيفا وخطوط المواصلات بين الاحياء المختلفة في المدينة.

1382

واتضح بسرعة ان من غير الممكن ضمان امن المدينة بواسطة المتطوعين فقط. و «بدىء

بتجنيد الاشخاص لفترات قصيرة: ثلاثة ايام، اسبوع وحتى اسبوعين. وفي نهاية هذه الفترة كان كل شخص يعود الى مكان عمله» (ي. ليتوار).

وبموجب الخط الذي حددته القيادة العليا، ذكر موشيه زاليتسكي (كرمل)، قائد المدينة في تلك الفترة: «كنا نحرص على ضرب العدو، ونمتنع عن إلحاق الاذى بالسكان العرب». وقد اتت العمليات الاولى لـ «الهاغاناه» كردة فعل ازاء الإضرار بخطوط المواصلات. وتمت العمليات «قريبا من امكنة الهجمات على وسائط نقلنا ومواعيدها. وفعلنا كل ما في وسعنا للبرهنة على اننا لا نسعى للحرب واننا لا نفعل اكثر من الرد على التعرض لنا. وعندما كنا نهاجم سيارة عربية كنا نحرص على عدم التعرض لركابها. وكنا ننسف السيارة او نضرم النار فيها، ولا نمس ركابها بأذى» (م. كرمل).

وقد نفذ هذه العمليات في البداية رجال الاحتياط التابعون للبلماح. لكن بعد ان ارسل هؤلاء في ١٩٤٧/١٢/١٧ الى النقب، كُلِّفت وحدات قوة الميدان ضرب قواعد القتلة، التي تم تحديدها بناء على معلومات جهاز استخبارات «الهاغاناه». ومن اجل تنفيذ ذلك احتاجت [الوحدات] الى وسائط نقل، قدمها لها اصحابها تطوعا وبطيبة خاطر، وفقط «عديمو الاحساس والمتهربون الذين فضلوا راحتهم الشخصية، أُرغموا مهانين على تقديم سياراتهم، بعد ان تسللت مجموعات مسلحة من «الهاغاناه» الى منازلهم ليلا وصادرتها بقوة السلاح» (م. كرمل).

ومنذ الشهر الاول لنشوب الاضطرابات، استمرت معركة ثنائية من دون توقف تقريبا بين رجال «الهاغاناه» والمجرمين العرب. وفي اثر كل هجوم عربي كانت تجرى فورا عملية انتقامية. وفي معظم الاحيان كانت وحدات قوة الميدان تتسلل الى احياء او شوارع عربية، وتنسف بيوتا محددة بوصفها مراكز للعصابات. وكانت احدى العمليات الاولى من هذا النوع، نسف مبنى من ثلاث طبقات في وادي روشميا، كان يستخدم مكان تجمع لاحدى العصابات. وفي اليوم نفسه، اضرمت النار في مرآب شركة الباصات العربية (خط رقم١)، التي كانت تنقل رجال العصابات وأسلحتهم. وفي الليلة ذاتها تسلل رجال «الهاغاناه» اول مرة الى قرية بلد الشيخ، التي كان رجالها يقيمون حواجز على الطريق الى حيفا ويهاجمون المارة اليهود. وأعقب ذلك الغارة على حواسه الفوقا (قرب بلد الشيخ) في فجر يوم ١٩٤٧/١٢/١٦، بعد ان تعرض اشخاص قدموا منها لعمال المقالع المجاورة اليهود وأطلقوا النار عليهم. وفي ١٩٤٧/١٢/٢٦، سقط رجل الدفاع يوسف برديس، عندما كان يقوم بمهمة الاستكشاف متقدما مجموعة من خبراء المتفجرات كانت متجهة الى احد الشوارع في المدينة، وكان «الضحية الاولى لـ «الهاغاناه» في حيفا» («سيفر يزكور» [كتاب احياء ذكرى الشهداء]).

وتحول الرد في حيفا، بصورة عامة، الى نهج ثابت. وحاول رجال «الهاغاناه» بعد كل حادث اعتداء على اليهود، ضرب العرب في جوار المنطقة التي وقع فيها الحادث.

وقد حاول رؤساء «اللجنة القومية» العربية في حيفا، الذين عرفوا جيدا ضعف العرب في المدينة، كبح جماح ابناء طائفتهم منتظرين ان يأتي الخلاص من الخارج. ودعت «اللجنة القومية»، في مناشير وبيانات، العرب الى الامتناع المطلق عن القيام بأية اعمال اعتداء او فتح للنار على اليهود. وفي ١٩٤٧/١٢/٢٨، وزعت «اللجنة القومية» في حيفا منشورين طلبت فيهما بشدة الكفّ عن «الاعمال التي تسبب في الفوضى والاخلال بالنظام» وأعلنت عزمها «على اعتقال مثيري الفوضى»، وأن «المصلحة القومية تستوجب الآن وقف اطلاق النار». لكن وقف اطلاق النار هذا لم يستمر اكثر من يومين او ثلاثة ايام، انهار بعدها بسبب المذبحة في مصافي التكرير (انظر ادناه).

وكانت احدى المشكلات الصعبة التي اثقلت على «الهاغاناه»، ضمان سلامة آلاف اليهود الذين كانوا يعملون في امكنة عمل ومناطق تجارية وصناعية مختلطة. وبذلت جهود كثيرة كي لا يهجر اصحاب الاعمال المدينة السفلى. وعين غرشون ريطوف قائدا لهذه المنطقة الحيوية. وأقام مقر قيادته في فندق «سافوي» الذي اخلي من النزلاء، وتولى رجاله مهمة الحماية، وتتبعوا خطط الاعتداءات العربية وحاولوا منعها، وردوا بسرعة على كل تحرش عربي، وأقاموا علاقات طيبة بالجنود وبقسم من رجال الشرطة في المنطقة، واستعانوا بهم. «في احد الايام» ــ روى ريطوف ــ «خطف العرب سائق سيارة انحدر من الكرمل مرورا بالمستعمرة الالمانية. وعندما بلغنا خبر الخطف اسرعنا الى خطف سيارة فيها ثلاثة عرب. ولما جاء قائد الشرطة وطالب باطلاق سراحهم، اعلمته انني لن اطلق سراحهم الى ان يعاد اليهودي الـيّ. وجلست في مبنى الشرطة الى ان احضر السائق الي، وعندها اطلقنا سراح العرب».

ودفعت المذبحة في مصافي تكرير البترول في ١٩٤٧/١٢/٣٠، التي جاءت نتيجة ردة فعل غير مسؤول من قبل رجال الايتسل، قيادة «الهاغاناه» الى القيام بعملية كبيرة في القرية التي انطلق منها معظم القتلة: بلد الشيخ. خرجت ٤ فصائل من الكتيبة الاولى للبلماح وفصيلتان من قوة الميدان في حيفا (المجموع ١٧٠ شخصا تقريبا) من ياجور فجر يوم ١٩٤٧/١٢/٣١، وأعطي الامر لها «بتطويق القرية، والحاق الاذى بأكبر عدد ممكن من الرجال، وتخريب الممتلكات، والامتناع عن التعرض للنساء والاولاد» (تقرير). ولدى وصول المقاتلين الى القرية جوبهوا بنيران صادرة عن القرية وعن جنود «الفيلق» الذين كانوا معسكرين بالقرب منها. واقتحم الرجال القرية وبدأوا العملية. «بسبب نيران اطلقت من داخل الغرف، كان من المستحيل تجنب إلحـاق الاذى ايضا بـالنساء والاطفـال». وبلغت خسائر العرب اكثر من ٦٠ قتيلا. وسقط في المعركة حاييم بن ــ دور رجل البلماح الذي تطوع للمشاركة في هذه العملية، وعاموس غاليلي نائب قائد سرايا قوة الميدان التابعة للطلاب في التخنيون، وقائد قوة الميدان في منطقة ياجور، حنان زلينغر الذي كان من بين قادة العملية. وبعد عام من ذلك، عندما استوطن بلد الشيخ مهاجرون يهود، دعي المكان باسمه: تل حنان.

وعمليا، كان السكان العرب في حيفا محاصرين منذ الشهر الاول للمعارك. ويذكر تقرير يعود عهده الى ١٩٤٨/١/١٨، انه «بحسب معلومات موثوق بها فر من حيفا بين ١٥ ألفا الى ٢٠ ألف عربي. وهناك حوانيت عربية كثيرة مغلقة وكثيرون على وشك هجر [المدينة]. ويفر عامة الجماهير الى داخل البلد، وأصحاب الامكانات الى خارجها».

لقد كان مكان العمل الرئيسي في حيفا هو منطقة الميناء. وكان يوجد في الميناء والشوارع المجاورة له في ساعات النهار مئات كثيرة من العمال والموظفين والتجار اليهود. وكانت فصيلة من رجال البلماح (٢٥ شخصا) قد باشرت العمل في منطقة الميناء منذ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧، وتولت مراقبة كل ما كان يجري فيها. وبعد مقتل العمال اليهود في مصافي تكرير البترول، اتضح ان وجود قوات الامن البريطانية لا يشكل ضمانة كافية لسلامة حياة اليهود. فأضيفت فصيلتان اخريان من السرايا البحرية الى الفصيلة الاولى وشكلت «سرية الميناء»، بقيادة يوحاي بن ــ نون. ونقل ٦٠ ستنا وكمية كبيرة من القنابل اليدوية الى داخل منطقة الميناء في براميل وقود احضرت الى مستودعات «سوليل بونيه». وأُنشئت مخابىء سرية دائمة للسلاح، وأُخفيت الاسلحة في الجرارات والقوارب المزودة بمحركات التي كان رجال السرية يعملون عليها. وقسّم الافراد الى حلقات عملت في انحاء الميناء المختلفة، ووضعت وحدة احتياط حجمها فصيلتان في مرآب «سوليل بونيه»، على اهبة الاستعداد لتلبية اي نداء للنجدة، وشكلت من بين عمال الميناء مجموعات تابعة لـ «الهاغاناه»، تم تدريبها على استخدام الاسلحة غير النارية، وجهز مدفع رشاش وستنات في مخابىء في امكنة العمل، وأقيمت شبكة هاتف [وخصص] عداؤون للانذار.

1384

وشجع انشاء «سرية الميناء» على يد رجال «بليم» [السرايا البحرية] عمال الميناء اليهود وحثهم على مواصلة العمل فيه. ووصل الخبر ايضا الى العرب وردعهم عن إلحاق الاذى باليهود. كما ان البريطانيين عرفوا بقيامها، وما داموا يرون فيها تشكيلا مساعدا على سير العمل بصورة منتظمة في الميناء، فانهم لم يمسوها بأذى. وحدث مرارا ان وجد في امتعة فتيات سلاح فأطلق سراحهن وحتى اعيد السلاح اليهن بطريقة غير مباشرة.

وفي ليل ١٩٤٨/٢/٤، طرد اثنان من سائقي الجرارات اليهود بالتهديد واطلاق النار للارهاب من عملهما في المنطقة الشرقية من الميناء. واستدعي رجال البلماح على الفور الى المكان بأسلحتهم. وفرّ مئات العمال العرب مذعورين، وعاد السائقان فواصلا عملهما. ودعي قائد السرية لمحادثة عدد من الوجهاء العرب، الذين اعلموه بأن مظاهر العداء صدرت عن عناصر غريبة، وأنهم سيتولون بأنفسهم ابعاد هذه العناصر عن العمل في الميناء. وفي اثناء ذلك، اجرى جنود بريطانيون تفتيشا، وحاول رجل البلماح نفتالي شلوموفيتس، الابتعاد خلسة عن المكان، فأطلق عليه جندي بريطاني النار وأرداه قتيلا. وقد كان صمود السرية القوي هو السبب في حسن انتظام سير العمل في حيفا. وبعد تحرير حيفا عادت السرية الى كتيبتها في البلماح.

في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، حاول العرب قطع الاتصال بين الييشوف اليهودي في الكرمل ومنحدراته وبين حيفا السفلى. ووضع قناصة عرب في مواقع مسيطرة على الشوارع المنحدرة من الجبل الى الميناء والمنطقة الصناعية. وشلت الحياة الاقتصادية في المدينة لمدة يومين او ثلاثة ايام. وساد الانقباض بين اليهود. «اعتقدوا ان «الهاغاناه» عاجزة» (ي. راتنر). وشرعت «الهاغاناه» في عمليات رد عنيفة، وصلت الى ذروتها بتفجير مبنى لجنة الاحياء العربية في شرق المدينة («بيت النجادة») في ١٩٤٨/٢/٣، والذي تهدم بسببه داخل المبنى الى حد كبير. ومن ناحية اخرى، اطلقت قوات «الفيلق» العربية المعسكرة في الجوار النار في اتجاه السيارات اليهودية، مما تسبب بمقتل ٥ من الركاب اليهود. وشجب رئيس البلدية اليهودي، شبتاي ليفي، هذين الحادثين، وناشد اليهود والعرب الاتفاق فيما بينهم. وبعث وجهاء المدينة العرب في تلك الفترة وفدا الى المفتي في مصر، طلبوا منه ان يبعد المجرمين عن المدينة، لانه ان لم يفعل ذلك فسوف تخلو حيفا من سكانها العرب.

وردت «الهاغاناه» على عرقلة حركة المواصلات لا عن طريق اطلاق النار على السيارات العربية فحسب، بل ايضا بالتسلل الى اماكن تجميع السيارات العربية وتدميرها. وتمت اول عملية من هذا النوع في ١٩٤٧/١٢/١١، عندما تسللت جماعة من خبراء التدمير الى موقف السيارات الخاص بالخط ١، الذي كان يصل بين حيفا وبلد الشيخ، ودمرت عدة سيارات. وفي ١٩٤٨/٢/١٢، هاجمت سرية كاملة موقف السيارات الخاص بالخط ٥، في قلب البلدة القديمة، وأحرقت ٨ سيارات. وفي فجر يوم ١٩٤٨/١/١٦، نسف منزلان كبيران كانا يستخدمان مركزي تجمع للعصابات التي كانت تهاجم خطوط المواصلات اليهودية، احدهما في وادي روشميا والثاني في وادي النسناس. وفي شارع يافا احرق اكبر مرآب عربي في حيفا.

1385 وبما ان الدفاع عن الاحياء المتفرقة في المدينة كان يتم من خلال المحافظة على مبدأ عدم اخلاء اي موقع يهودي، فقد تمسك رجال «الهاغاناه» بالأحياء والبيوت التي تركها سكانها اليهود. «كان خط دفاعنا» ــ ذكر موشيه كرمل ــ «طويلا جدا ويتعرج تعرجات كثيرة في الازقة والساحات بيننا وبين العرب». ومن اجل المحافظة على هذا المبدأ كان لا بد من توسيع نطاق التجنيد. وأنشئت وحدة باسم «كتيبة الفتيات المقاتلات»، شاركت في حراسة المواقع، بكل ما يحف ذلك من مخاطر.

وفي ابان الايام الصعبة تلك، طلب من حيفا ارسال تعزيزات للجليل. وكُلِّفت الكتيبة الخامسة لقوة الميدان تجنيد متطوعين لهذه الغاية. «بدأ التجنيد بين الاعضاء الاشد اخلاصا» ــ روى يسرائيل ليتوار، رجل الكتيبة ــ «بشرح ضرورات ذلك وتأمين متطلبات الحياة لعائلاتهم بالقدر المطلوب. ولم تكن الصعوبات التي سببها لنا الآباء قليلة، اذ لم يسمحوا دائما لابنائهم بترك البيت ومغادرة حيفا، لكننا تغلبنا على ذلك» («ايلان وشيلح»). وخرجت سرية من المتطوعين في نهاية كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ الى الجليل الاعلى الشرقي لتعزيز كتيبة البلماح هناك. وبعد فترة قصيرة من ذلك، خرجت سرية اخرى

الى سهل بيت شان. ومع بداية الربيع طلب من حيفا ارسال كتيبة رجال قوة الميدان الى الجليل الاعلى الشرقي. وخرج ٥٥٠ شخصا في ١٩٤٨/٣/١٠ الى مكان خدمتهم في شمال البلد.

وقد استغل رجال «الهاغاناه»، على نحو جيد، تفوق حي هدار هكرمل على الاحياء العربية في اسفل المدينة. وبعد ان اكثر العرب القنص من منازلهم الكائنة في وادي النسناس ضد شوارع هدار هكرمل، افرغ رجال «الهاغاناه» عدة براميل من البنزين المخلوط بالزيت في منحدر الشارع وأشعلوه. وخرج المهاجمون العرب من منازلهم لاطفاء النيران الزاحفة الى حيهم. «وهنا كانت تنتظرهم مفاجأة قاسية: بدأ مدفع رشاش منصوب في اعلى الشارع يمطرهم بالنيران، وأوقع فيهم عددا من القتلى» (م. كرمل). كما جهزت كرات كبيرة من الحديد مملوءة بالمواد المتفجرة كانت تتدحرج في منحدرات الشوارع الى المواقع والحواجز العربية، وتزرع فيها الدمار والموت.

وردا على عمليات «الهاغاناه» هذه، بدأ العرب يخططون لعمليات من جانبهم. فسيقت عربة بريد صغيرة محملة بمواد متفجرة، في ١٩٤٨/١/١٤، الى محطة للباصات اليهودية في الوسط التجاري الجديد، وانفجرت بينما كان عشرات من العمال والموظفين مصطفين بالدور للعودة من اعمالهم. وقتل ٨ اشخاص وجرح ٤٠ تقريبا. وفي اثر هذا الحادث، عززت الحراسة على الحواجز المفضية الى المناطق اليهودية. وفي ٢/٢٨، بلغ «الهاغاناه» ان العرب يجهزون لغما ضخما في مرآب ابو شعم في شارع العراق. وكُلِّف داني أغمون، قائد فصيل استطلاع في البلماح، اقتحام المرآب وتدمير اللغم. وجهزت سيارة وضع فيها لغم، وقادها شابان من «المستعربين» الى المرآب متظاهرين بأنها بحاجة الى تصليح، وشغلا اللغم وانصرفا. ودمر الانفجار الناجم اللغم العربي، وقتل وجرح نحو خمسة من رجال العصابات. وبعد خمسة ايام من ذلك، حاول العرب ادخال سيارة كبيرة ملغومة خفية الى الوسط التجاري. فشاهدها الحرس على الحاجز وفتحوا النار عليها. وأصابت العيارات النارية المواد المتفجرة فانفجرت هذه ودمرت عدة بيوت في الحي العربي. وفي الليلة نفسها، حاول العرب ادخال سيارة مملوءة بالمتفجرات الى بات غاليم. لكن هذه المرة استقبل رجال الحرس القادمين باطلاق النار. وأرغموا مدبري المكيدة على الفرار وأصابوا بجروح مميتة قائدهم، الضابط التركي فخر الدين بك اورخان.

وفي ٣/٢١، احضر العرب شاحنة محملة بالمواد المتفجرة الى قبالة مكاتب «سوليل بونيه» في شارع الميناء. وكان هذا الشارع خاضعا لرقابة مشددة من جانب البريطانيين، الذين منعوا رجال «الهاغاناه» من اقامة الحواجز في طرفيه وتفتيش السيارات المارة فيه. ولاحظ الخفيران حاييم غراف ومردخاي كومورنيك، في الوقت الملائم، فتيلا يتصاعد منه الدخان في طرف السيارة، وتمكنا من تحذير الجمهور في الشارع الذي اسرع الى الاحتماء، كما تمكنا من دفع السيارة التي كان يتصاعد منها الدخان بعيدا عن المبنى. وانفجرت السيارة،

ولاقى ستة اشخاص، بينهم الخفيران، وبينهم ايضا الخفير موشيه بلوسكر الذي حاول نزع الفتيل المشتعل، مصرعهم، لكن تم تفادي كارثة افدح وأنقذ التحذير الكثيرين.

وكردة فعل على هذه العملية، قررت قيادة المدينة ارسال سيارة ملغومة الى قلب المدينة العربية. وفي صباح اليوم التالي، خرجت سيارة محمّلة بـ ٧٠٠ كلغ من المواد المتفجرة الى شارع العراق وسط المدينة العربية. وسار امام السيارة جيب وخلفها تندر. وكان السائقون ومرافقو القافلة يرتدون الزي العسكري البريطاني، وقد دُربوا قبل ذلك خصوصا لأساليب تصرف الوحدات البريطانية. وتفحص حراس الحواجز العرب القافلة وسمحوا لها بالمرور. وهكذا اجتازت اربعة حواجز، واحدا تلو الآخر الى ان وصلت الى هدفها. وبعد ان اشعل الفتيل فقط حدث خلل اثار شكوك العرب في الجوار. وفتح رجال الوحدة النار، وشقوا طريقا لهم الى الاحياء اليهودية. وتسبب الانفجار بدمار هائل وأوقع ضحايا غير قليلة في شارع العراق.

لكن الضربة الاعظم كانت قد نزلت بالعرب في حيفا قبل ايام معدودة من ذلك، بخسارتهم قافلة الذخيرة الكبيرة في ٣/١٧. لقد كانت تجهز في بيروت بين الحين والآخر تعزيزات من الرجال والسلاح لتلبية حاجات حيفا، وكانت تنقل الى حيفا بقوافل، من دون ان يحاول البريطانيون ايقافها. وفي اليوم المذكور اعلاه، علمت قيادة «الهاغاناه» ان قافلة مشكلة من شاحنتين وسيارة تاكسي ستنطلق الى حيفا، وبين ركابها قائد المدينة العربي، محمد الحنيطي. وكان الوقت ضيقا، وأرسل على الفور فصيل بلماح من الكتيبة الاولى نصب كمينا لقافلة السلاح شمالي كريات موتسكين. وعندما وصلت القافلة الى الموضع اعترضت براميل طريقها. وكانت مهمة الفصيل الاستيلاء على السيارات والسلاح. وبدأت معركة بين رجال القافلة والمهاجمين. وقفز عمانوئيل لنداو «الى احدى السيارات المحملة بالسلاح لاخراجها من ساحة المعركة وتسليم الغنيمة الى مقاتليه» («يزكور»). وفي تلك اللحظة، اصاب عيار ناري المواد المتفجرة في احدى السيارات فانفجرت السيارة وتطايرت أجزاء السيارة الثانية وقتل مرافقوها. ودمرت كمية كبيرة من السلاح والمتفجرات، وسقط عمانوئيل لنداو ورفيقه فوعام باسمانيك في هذه العملية.

وبدأ في تلك الايام انهيار حيفا العربية. وشرع كثيرون من الاغنياء في الخروج منها الى لبنان، وبينهم معظم اعضاء «اللجنة القومية». وسادت المدينة العربية فوضى مطلقة. وفي بداية نيسان/ابريل، ارسل الى حيفا قائد جديد، امين عز الدين، وكان كسلفه ضابطا سابقا في سلاح الحدود، وأحضر معه عددا من الرجال المسلحين وكمية لا بأس فيها من السلاح والذخيرة. وأعاد إحياء هيئة الاركان العربية وانشأ قيادة للمدينة، مع الوعد بأنه عما قريب ستصل الى عرب حيفا نجدة من الخارج. وجاءت هذه النجدة بسرعة بهجوم «جيش الانقاذ» على مشمار هعيمك، وبقدوم وحدة دروز من حوران الى شفاعمرو. وأدت هزيمة هذه القوات في المعارك التي دارت في النصف الاول من نيسان/ابريل الى حسم الموقف.

وفي ٤/١٥، جدد العرب عملياتهم العدائية ضد اليهود. وأُحبطت محاولة لنسف بناية المطاحن الكبرى، الواقعة في وسط الحي العربي. وبدأ تبادل اطلاق النار في جميع انحاء حيفا. وردت «الهاغاناه» بعمليات انتقامية. ووصل تبادل اطلاق النار هذا الى ذروته مساء يوم السبت ٤/١٧. وحاول العرب اقتحام هدار هكرمل من ناحيته الشمالية الغربية. وشن رجال الدفاع هجوما مضادا عنيفا. وتحت ستار من النيران الكثيفة تقدم أفراد من وحدات التدمير التابعة لـ«الهاغاناه» واقتحموا مواقع العصابات في الاماكن المجاورة. وسقط في المعركة ثلاثة من اعضاء «الهاغاناه»ـ موشيه هامر، وموشيه توندوفسكي الذي قاد قبل عدة ايام من ذلك المعارك ضد الدروز في منطقة رامات يوحنان (انظر ص 1567)، ويوسف ليبوفيتس. وعمد البريطانيون الذين لم يروا طريقة لاحلال الهدوء اللازم لهم في المدينة إلا 1387 باتاحة الفرصة للطرفين للدخول في معركة حاسمة، الى اعلان انسحابهم فجأة من معظم أجزاء المدينة، ودارت في ١٩٤٨/٤/٢٢ المعركة الحاسمة على حيفا (انظر الفصل الثامن والسبعين).

الفصل السبعون

القدس في حصار

مكانة القدس الخاصة

كان نشاط «الهاغاناه» في القدس وتطور شؤونها فيها مرتبطين، الى حد غير قليل، بالمكانة السياسية للمدينة، كعاصمة للبلد وكمدينة مقدسة لدى الاديان الثلاثة. «ان لأي عمل في القدس» ـ كتب رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي الى قائد القدس ـ «صدى يتردد أضعافا مضاعفة في العالم كله، ومن شأنه ان يمس مشاعر ملايين الاشخاص من معتنقي الاديان المختلفة. وعندما نرسم طريقنا في هذا المكان ينبغي لنا ألا نأخذ في الاعتبار طرق الدفاع المحلية المسلحة فحسب، وانما ايضا اعتبارات سياسية واجتماعية عالمية. وهذا يحتم نظاما خاصا بالقدس».

واضافة الى هذه الحسابات السياسية كان هناك عبء الواقع المقدسي. فقد شغلت مؤسسات الحكم والقوات البريطانية، المعسكرة في المدينة، مناطق واسعة في داخلها. ففي الجنوب كان يمتد معسكرا أللنبي والعلمين والمنطقة الامنية أ في المستعمرتين الالمانية واليونانية، حيث مقر القيادة البريطانية. وضمت هذه المنطقة ايضا محطة القطار ومحطات توليد الطاقة [الكهربائية] الخاصة بالقدس. والمنطقة الامنية ب شملت محيط فندق «الملك داوود»، وفيها مركز الحكم المدني البريطاني. وامتدت المنطقة الامنية ج (بيفن غراد) على طول شارع يافا، وضمت المسكوبية ومبنى البريد المركزي. وفي شمال المدينة كان يقع مبنى كلية الشرطة، وكانت هذه المناطق البريطانية عمليا بمثابة شريط فاصل بين المدينة اليهودية والبلدة القديمة، التي كانت عربية في معظمها، وكذلك بين المركز اليهودي والاحياء في جنوب القدس (تالبيوت، مكور حاييم، ارنوناه، رامات راحيل).

تحدثنا كثيرا في هذا الكتاب عن عدم مشاركة اقسام كبيرة من سكان القدس مشاركة فعالة في شؤون «الهاغاناه». وقد كان الـ ١٠٠,٠٠٠ يهودي القاطنون في المدينة يشكلون قوة بشرية ضئيلة بالنسبة الى أغراض قوة دفاعية مبنية على اساس تطوعي. وبسبب تركيبة الاعمار الخاصة بالمدينة، كان ٤٢,٥ ٪ فقط منهم في سن ١٦ ـ ٥٠ (في مقابل ٥٨ ٪ في البلد كله). وكان نصف هذا الييشوف من ابناء الطوائف الشرقية التي كانت تؤلف الشريحة

الاكثر فقرا بين السكان. ولم يعط الجهد الكبير الذي بذلته المنظمة للتغلغل بين الشبان وتجنيد أعداد منهم في صفوفها إلا نتائج ضئيلة فقط. وفي الييشوف الاشكنازي كان ابناء الييشوف القديم يشكلون نسبة كبيرة (نحو ٢٠٪) وكان بينهم من رفض الحركة الصهيونية من اساسها، ومن كان غريبا عن أهدافها وغير مبال بها. وفي احياء كثيرة من المدينة لم يكن لـ «الهاغاناه» موطىء قدم حقيقي. وفي القسم الغربي من المدينة كانت تمتد منطقة متخلفة ـ أحياء يسودها الفقر والجهل. وكان يقطن شمال المدينة ابناء الييشوف القديم، بينما كانت احياؤها الجنوبية قليلة السكان ويذهب معظم الرجال فيها الى العمل يوميا في مركز المدينة. وكان نفوذ لجنة الطائفة في القدس على الجمهور اليهودي محدودا. وخلافا لتل ابيب وحيفا، لم تكن القدس معتمدة على مستعمرات يهودية كثيرة وقوية محيطة بها. وكانت المستعمرات الـ ١٤ المشمولة في «منطقة عتسيوني» صغيرة، وقليلة السكان، وموزعة على مساحة واسعة، ومحاطة بقرى عربية كبيرة.

واضافة الى وجهات النظر والآراء الكثيرة التي تغيرت مرارا خلال اشهر شتاء سنة ١٩٤٨، القليلة، حدث تغير في النظرة الى مكانة القدس. «لم تُشمل القدس ضمن منطقة الدولة اليهودية بحسب قرارات الجمعية العامة، وانما تقرر ان تكون مدينة دولية» ـ قال رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي في محاضرة امام خريجي دورة لقادة الفصائل في «الهاغاناه» في ٨ نيسان/ابريل ١٩٤٨ ـ «لكننا سنناضل من اجل قدس يهودية، لا يمكن ان تقوم بمعزل عن الييشوف العبري في كل البلد، ليس لانها قلب الشعب اليهودي وقلب كل يهودي في القدس فحسب، بل ايضا لأن فصلها يعني فقدانها. لن تكون هناك قدس يهودية إلا اذا كانت متصلة بالييشوف العبري بأكمله، وتشكل معه جسما واحدا. ولا يمكن ضمان القدس إلا اذا ضُمن امتداد اقليمي عبري في مناطق الوصول اليها». 1389

وفي الجزء السابق من الكتاب (ص 1289) تحدثنا عن القوات التي كانت في تصرف قائد القدس. ومع نشوب حرب الاستقلال كُلِّفت هذه القوات ان تشكل اساسا لقوة اكبر تحافظ على ما هو قائم وتعد قوة عسكرية تستطيع ان تتصدى للقوات العربية حين خروج البريطانيين، اذا لم تشكل حتى ذلك الموعد قوة دولية كافية.

الخطوات الاولى لقيادة القدس

تسبب الفشل في حماية الوسط التجاري، في ١٢/٢، بحدوث صدمة قاسية في المنظمة. وفي اليوم التالي جمع قائد المنطقة، يسرائيل زفولدوفسكي (عمير)، سلك القادة الكبار ووبخ المسؤولين عن حماية المنطقة بشدة، لأنهم لم يظهروا جرأة اكبر في نشاطاتهم. ونجد صدى لهذا التوبيخ في الامر اليومي الذي صدر في ذلك اليوم؛ «ان أحداث يوم ١٢/٢ في القدس» ـ جاء فيه ـ «اتسمت بطابع شغب، جمهور من الرعاع كان يمكن وضع حد له بضربة

عنيفة. ان هذه الضربة لم توجه بفعالية كافية. وتسبب تصرف الشرطة المعادي تجاهنا بتردد رجالنا، الذين لم يعملوا دائما ضد المشاغبين خوفا من السلطات. ينبغي منع او ايقاف الشغب والعبث، وينبغي العمل فورا، ومن دون تردد، وبفعالية. يجب البحث عن المشاغبين وضربهم».

منذ بداية الاحداث كان تأمين المواصلات بين القدس والشفيلا* احدى المشكلات المهمة التي واجهت منظمة «الهاغاناه». وفي الاسبوع الأول كانت قيادة «عتسيوني» مسؤولة عن مواكبة القوافل المتجهة الى الشارون. وأُلقيت المهمة على عاتق الخفراء في المدينة، الذين رافقوا السيارات حتى حدود منطقة باب الواد. لكن في ١٢/٩ نقلت المسؤولية عن تأمين حماية القوافل الى هيئة اركان البلماح، وهكذا خفّ كثيرا العبء الذي كان ملقى على عاتق قيادة «عتسيوني». وبالاضافة الى ذلك، تحملت هذه القيادة ايضا في بداية الحرب مسؤولية الاهتمام بأمن المستعمرات الواقعة غربي القدس، وحتى حماية المواصلات اليها. وقد ادى الامر في هذه المنطقة، في الممر المفضي الى القدس، الى نشوء ازدواجية في القيادة والمسؤولية، نجم عنها على فترات متقاربة ــ فيما بعد ــ سوء تفاهم وعثرات مختلفة.

وبصورة لا تقل عن ذلك، اثقلت على القيادة مشكلة المواصلات بين مركز المدينة والاحياء البعيدة والمعزولة مثل جنوب القدس وجبل المشارف. وانقطعت الطريق الى المقبرة في جبل الزيتون، بعد ان اصبحت جنائز الموتى هدفا للقناصة العرب، وقتل عدد من المرافقين، بينهم شرطي بريطاني. وقد استمرت الجنائز الى جبل الزيتون في ظل حراسة الجيش البريطاني حتى نهاية شباط/فبراير ١٩٤٨. لكن بعد ان تكدست جثث عشرة موتى في مستشفيات المدينة، كان لا بد من انشاء مدافن موقتة شمالي السنهدرية.

وقد كان هدف القيادة المحافظة على عدم هجر اي يهودي للحي القاطن فيه، كما امنت الحماية لليهود الذين كانوا يقطنون الاحياء المختلطة (مثل الطالبية وروميما). وقدمت المساعدة والحماية ايضا للعائلات اليهودية التي كانت مستعدة للاستمرار في السكن في الاحياء العربية مثل (القطمون وشيخ بدر)، او الذين كانوا يعملون في المناطق العربية. لكن اتضح بسرعة ان هذه المهمة الاخيرة غير قابلة للتنفيذ. وتواترت الاعتداءات ضد اليهود الافراد الذين كانوا يضطرون الى الذهاب للعمل في المناطق العربية والاياب منها. ويجب ان نذكر من بين هذه [الاعتداءات] قتل الدكتور هوغو لهرس، مدير مستشفى الامراض المعدية في بيت صفافا، الذي قتل تحت سمع وبصر زملائه العرب في العمل. وفي ١٢/٢٨، قتل في القطمون طبيب يهودي آخر: الدكتور ر. سيمون.

1390

وبدأت عملية هجر سكان يهود لبيوتهم في الاحياء العربية والمختلطة. وأحيانا لم تكن هناك طريقة اخرى سوى اسكان وحدات صغيرة من رجال قوة الميدان في بيوت اليهود المتروكة.

---

* بين جبال القدس والنقب. (المترجم)

وبعد عدة ايام من بدء الاشتباكات في القدس، ارسل يهوشواع غلوبرمان للوقوف على الوضع في المدينة، وتقديم مقترحات بشأن خطة الدفاع عنها. لكن غلوبرمان قتل على يد العرب في طريق عودته الى تل ابيب من مهمته هذه، وبالتالي تأجلت مناقشة مشكلات الدفاع عن القدس.

وفي هذه الاثناء، عملت القيادة على تعبئة «الهاغاناه» وتشغيلها. وعين مئير شربيط، قائد «الهاغاناه» القديم، قائدا لقوة الحراسة في القدس. وكُلِّف تنظيم الحراسة الثابتة في احياء المدينة بقطاعاتها الخمسة، من مقر قيادته في مبنى «تنوفا» في شمال المدينة. وأعلن تعبئة جزئية لاعضاء قوة الحراسة. وكان الرجال يجندون في الليالي، وتترك لهم حرية الذهاب الى اعمالهم خلال النهار. وغالبا ما كان يفرض عليهم الخروج للحراسة ليلتين في الاسبوع. وفي اثناء النهار، كانت تقام نقاط مراقبة فقط في الاحياء الحدودية، شاركت فيها اناث كثيرات من الاعضاء. ولم يكن العمل في الحراسة خلال الشتاء القارس في القدس مهمة سهلة. وعلى الرغم من التجنيد المتزايد، فان ملاك قوة الحراسة لم يصل، بعد اشهر من نشوب المعارك، إلا الى ١٥٠٠ شخص، لم يكونوا قادرين على ملء مواقع «الهاغاناه» بصورة كافية وسليمة. وتسبب هذا الامر بأن اضطرت وحدات قوة الميدان الى القيام بكثير من مهمات قوة الحراسة.

ومع كل ذلك انشأ رجال قوة الحراسة حزاما دفاعيا حول المدينة. وشكلت مرحلة ثانية من مراحل التحصن، اقامة حواجز في مداخل الاحياء اليهودية في نهاية كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧. وقد اقيمت هذه الحواجز من البراميل والحجارة، ودعائم من الاسمنت المسلح. وكان شخصان من رجال قوة الحراسة او «الحرس المدني» يحملان اشرطة على ذراعيهما يفتشان كل سيارة تحضر الى منطقة يهودية. وكانت جماعة مسلحة توضع في مكان خفي لحماية «المحافظين على النظام». وكانت امكنة الحواجز تقع في الطرق المفضية الى القدس، وفي المدينة نفسها بين الاحياء العربية واليهودية. وبهذه الطريقة تحددت خطوط الجبهات بين الطرفين المتقاتلين في المدينة.

انشاء كتائب قوة الميدان في القدس

وفقا لأمر انشاء القوة، الذي صدر قبل نشوب الحرب (انظر ص 1338)، كُلِّف أمنون رودي (زعير) انشاء كتيبتين تابعتين لقوة الميدان في القدس. وبدأ رودي عمله في ١٥/١٢/١٩٤٧. وقد ضمت الكتيبة الاولى («كتيبة موريا» لاحقا)، بقيادة زلمان مارت، السرايا الثلاث القديمة لقوة الميدان، وعسكرت شمالي المدينة وغربيها، ووصل عدد أفرادها في منتصف شباط/فبراير الى ٥٦٥ شخصا مجندين تجنيدا كاملا. وضمت الكتيبة الثانية («مخمش» لاحقا)، بقيادة شالوم بورغ (درور)، (لاحقا: يشورون شيف)، السرية الرابعة التي تم تنظيمها قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب، وجنودا مسرحين من الفرقة اليهودية ومن وحدات مقاتلة اخرى. وقد وصل قوام هذه الكتيبة في منتصف شباط/فبراير الى ٦٢٤ مجندا.

وقد تم تجنيد الرجال في البداية بصورة موقتة. فجند (على اساس تطوعي) اشخاص تمكنوا من ترك اعمالهم لفترة ما وطلاب. ووضعت ترتيبات خاصة في البداية للطلاب، تحددت بموجبها عطلة مدتها اسبوعان على فترات متقطعة لطلاب كليات العلوم الانسانية وكلية العلوم الطبيعية. وكان الطلاب الجامعيون المعفيون من الدراسة مجندين تجنيدا كاملا في «الهاغاناه». 1391 ولم يستغل كثير منهم الترتيبات، وتطوعوا منذ البداية لأداء الخدمة كاملة. وقد شلت صعوبات الانتقال الى جبل المشارف عمليا الدراسة في الجامعة، وكرست اكثرية الطلاب نفسها لمهماتها في «الهاغاناه». وفي نهاية الشهر الاول للحرب خصصت «منحة مالية» للمجندين، لكن طلب من الاعضاء غير المحتاجين اليها التنازل عنها.

واصطدم التحول من سرايا الى كتائب بصعوبات. فقد تسببت تجزئة الكتائب ـ لمواجهة المتطلبات الآنية الملحة ـ الى سرايا وفصائل مبعثرة ومنفصلة، بعدم تبلور الكتائب لوحدات متكاملة. وكان من الصعب حتى الحديث عن تدريبات في نطاق كتائب، اذ كُلِّفت قوة الميدان على الفور مهمات حراسة في المناطق التي لم تكن وحدات قوة الحراسة تعمل فيها، وخصوصا في المناطق التي كانت تضم المتاجر والكاتب. ومنذ فترة الاشتباكات الاولى عسكرت فصائل قوة الميدان في شارع الاميرة ماري (في فندق «هيملفراب»)، في مبنى «الهستدروت»، في البلدة القديمة (فصيلتان)، وفي يمين موشيه. وكانت هذه القوة مزودة بأسلحة قليلة جدا ـ في الاساس مسدسات ـ لم تكن كافية حتى لنصف عدد الرجال.

وقد ارغم النقص في القوة البشرية الفعالة في القدس قيادة المدينة على التوجه الى الاركان العامة لطلب المساعدة. وكُلِّف لواء «غفعاتي» ارسال ٢٥٠ رجلا من قوة الميدان لمساعدة القدس. ووصل الرجال في ١/٢٤ مع قائدهم مئير دافيدزون. «لقد خلّف لقائي الاول مع رجال التعزيزات» ـ روى عضو هيئة الاركان المقدسية يشورون شيف ـ «فور نزولهم من السيارة في بيت هكيرم في نفسي ونفوس زملائي، اعضاء القيادة المقدسية، أثرا لا يمحى. وذهلنا بصورة خاصة من مشهد عتادهم الموحد وانتظامهم في جماعات وفصائل وسرايا بقيادة كاملة ـ وهي امور كانت نادرة في القدس في تلك الفترة». ولم تتحقق النية 1392 الاصلية «للمحافظة على تكامل وحدة قوة الميدان الممتازة التي وصلت من تل ابيب الى القدس، وتحويلها بمساعدة رجال القضاء الى كتيبة». فأرسل نصف الرجال لحماية مكور حاييم، وأُفرز نصفهم للمشاركة في حماية «القطاع الخامس» في وسط المدينة. وفيما بعد ضُم القادمون من تل ابيب الى كتائب قوة الميدان التي انشئت في القدس.

وأُلقيت على عاتق قوة الميدان مسؤولية المحافظة على حركة المواصلات بين المدينة والاحياء المعزولة، وفي الاساس جنوبي القدس وجبل المشارف. وخصص حرس لمرافقة السيارات. وفي اليوم الاول، عندما اكتفى العرب برجم السيارات بالحجارة، كانت رصاصة واحدة كافية لتفريق جمهرة الرعاع المهاجمين. وبسرعة استخدم العرب اسلحة نارية: مسدسات وقنابل يدوية، وحتى ألغاما. ونشأت ضرورة لتنظيم السفر في قوافل. وخلال فترة

وجيزة اصبحت حركة النقل الى هذه المناطق المعزولة تتم بسيارات مصفحة. وكان لدى قيادة المنطقة اربع سيارات مصفحة فقط، توجب عليها ان تخدم على جميع الخطوط المقطوعة. وكانت المصفحات عرضة لخطر الالغام وسد الطريق. ولم تكن لدى القيادة، في حال حدوث ذلك، اية قوة احتياطية مصفحة لانقاذها. كما لم تكن المصفحات مزودة بأجهزة لاسلكي، وكان نبأ وقوع القافلة في كمين يصل متأخرا جدا.

واستلزم التجنيد الكامل لمئات من الرجال اقامة ادارة ومستودعات لتلبية حاجات المجندين. لقد حُلت هذه المشكلات لفترة طويلة على غرار كيفية التعامل معها في الايام السابقة: اهتم الرجال انفسهم بتأمين لباسهم، وتناولوا طعامهم إما بشكل سندويشات واما بوجبات خفيفة ارسلت اليهم، واما أُرسلوا الى مطاعم خاصة مجاورة. وكانوا يبيتون في مبان عامة مختلفة (مدارس وكنس). وكان العلاج الطبي يقدم اليهم بواسطة «هداسا» او كوبات حوليم الذي كانوا ينتمون اليه، او عن طريق أطباء خاصين. وتسبب النقص في العتاد الشخصي الملائم بخسارة اسلحة وذخيرة. وتحت ضغط الظروف انشىء قسم بدأ بتزويد البطانيات والفُرش والمناشف، وما شابه ذلك. واستمرت هذه الترتيبات حتى الى ما بعد تغيير القيادة في المدينة في شباط/فبراير ١٩٤٨. «كنا نطلب من الرجال» ــ شهد دافيد شلتيئيل ــ «ان يحضروا بملابسهم، ويحضروا معهم بطانيات، وكنا نرسلهم الى البيت والمطاعم لتناول الوجبات».

وكان الشيء المميز جدا لتطور القوة في القدس خضوع كتائب قوة الميدان لقائد المنطقة. ولا مجال للحديث عن «لواء عتسيوني» بالمعنى نفسه الذي نتحدث فيه عن «لواء غولاني» او «لواء غفعاتي»، لان اللواء كان يعمل داخل المنطقة فقط وكان ثابتا هناك للدفاع عنها.

أما الدفاع عن المستعمرات المجاورة للقدس، فقد تولت تنظيمه القيادة بمشاركة وحدات البلماح التي كانت معسكرة في منطقة القدس وخاضعة في الاسابيع الاولى للحرب لأوامر قيادة المنطقة. وكانت وحدات من البلماح معسكرة في قسم من المستعمرات (رامات راحيل، كريات عنافيم، بيت هعرفاه). وكان المشاركون في دورة قادة الجماعات في قوة الميدان معسكرين في غوش عتسيون. وقد تمكنت هذه القوات، سوية مع وحدات قوة الحراسة المحلية، في هذه المرحلة، من الدفاع عن النقاط ــ مع انها لم تستطع حماية حركة النقل بينها وبين القدس. وفي نهاية الشهر الاول، وصل طلب ملح من هارطوف المعزولة لارسال تعزيزات اليها. وكان يقطن المكان ٧٢ يهوديا. وأصدرت القيادة العليا أمرا باخلاء هارطوف من الاشخاص غير المقاتلين، وبارسال تعزيزات اليها من القدس. وفي ١٩٤٧/١٢/٢٦، خرجت من القدس جماعتان (٢٥ مقاتلا) بلا سلاح (كان على أفرادهما ان يتلقوا السلاح من مستودعات هارطوف). بمرافقة تندر من الخفراء. وهوجمت القافلة بالقرب من باب الواد، من قبل جمهرة من القرويين قطعوا الطريق عليها. وقتل في المعركة،

التي دامت اربع ساعات، ٣ مقاتلين. وأنقذت وحدة من الجيش البريطاني، حضرت الى المكان، القافلة.

عمليات اولى

1393

كانت اول عملية بادرت اليها القيادة هي ارسال دوريات الى القرى المجاورة للقدس. وكانت لهذه الدوريات بعض الاهداف: اولا، التعرف على الجوار والطرق والاهداف؛ ثانيا، التأثير على السكان العرب. واتخذت الدوريات شكل حراسات قتالية، وصدر اليها الامر «بمحاولة الاشتباك مع العدو». وألصقت على هذه الدوريات ووزعت [من قبلها] منشورات من «الهاغاناه» دعت العرب الى السلام. ودفعت هذه الدوريات قرى معينة الى التفاوض مع المستعمرات اليهودية القريبة منها من اجل عقد السلام ــ وقد عقدت اتفاقيات كهذه مع قرى القسطل وصوبا والمالحة. ودارت مفاوضات مع قرى اخرى. لكن هذه الاتفاقيات انهارت مع امتداد سيطرة القوميين العرب على المنطقة، بعد مجيء عبد القادر الحسيني (انظر ص 1393)، وتحولت اكثرية القرى، ليس دائما بمشيئة سكانها، الى قواعد للعدو.

وبعد الهجوم على القافلة المتجهة الى القدس بالقرب من دير ايوب، الذي قتل فيه القائد يونا راسين، خرجت فجر يوم ١٩٤٧/١٢/٢١ وحدة مشكلة كلها تقريبا من القادة الى طريق الرملة ــ اللطرون، بالقرب من بيتانيا، وأطلقوا النار على اول باص خرج الى هذا الطريق فقتلوا ٤ من ركابه، وأشعلوا النار فيه. ووبخت هيئة الاركان العامة قائد القدس للقيام بهذه العملية من دون موافقة مسبقة، وأصدرت اليه أمرا ــ نظرا الى الوضع السياسي الخاص للمدينة ــ بالتشاور قبل كل عملية مع غولدا مئيرسون، التي كانت تترأس آنذاك الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في القدس. لكن بعد اسبوع سمح بضرب حركة النقل على طريق الرملة ــ اللطرون فقط، من دون موافقة مسبقة من جانب هيئة الاركان العامة، مباشرة بعد كل تعرض لحركة النقل اليهودية في طريق القدس ــ اللطرون.

وفي فجر يوم ١٢/٢٧، بعد ان هوجمت قافلة البحر الميت بالقرب من قرية هشيلواح وأصيب قائد سدوم، ليفي شبيغلمان، بجروح مميتة، نظمت غارة ضد قرية هشيلواح. وقد تسلل المغيرون، الذين جاؤوا من شمالي تالبيوت، الى القرية ليلا وألحقوا أضرارا كبيرة ببيوتها وضحايا بين سكانها.

وقد ظهرت في الشهر الاول هذا دلائل انتعاش في القرى العربية. فاصطدمت فصيلة تابعة لقوة الميدان انطلقت للقيام بعملية انتقامية ضد قرية بيت سوريك فجر يوم ١٢/٢٨ بمقاومة عنيفة في مداخل القرية وضواحيها، واضطرت الى الانسحاب والعدو يطاردها. وبرهنت هذه العملية لرجال «الهاغاناه» ان العرب ليسوا مزودين بسلاح اوتوماتيكي فحسب، بل انهم ايضا نظموا حراسة جيدة لقراهم.

وقد ادت عمليات ناجحة في نهاية كانون الاول/ديسمبر، من ضمنها ايضا اقتحام مجموعة من ليحي لبيت المختار في روميما، الى اخلاء روميما من سكانها العرب، وبذا تم تحقيق التواصل الجغرافي للمنطقة اليهودية في الجانب الغربي، وضمنت السيطرة على مداخل المدينة من ناحية الغرب. وتعهدت قرية دير ياسين، التي اصبحت الآن مطوقة بالمناطق اليهودية من جميع الجهات، بالمحافظة على الحياد ومقاومة تغلغل العناصر المعادية فيها.

وفي نهاية الشهر الاول للحرب، وصل الى القدس ميشائيل شختر (شاحام)، من قدامى القادة في «الهاغاناه»، للخدمة كنائب ليسرائيل زفولدوفسكي. وتقرر تنظيم عملية انتقامية ضد الارهابيين العرب، الذين تسببوا بفرار اليهود من الاحياء العربية. وطبقا لمعلومات وصلت عن طريق جهاز الاستخبارات اتضح ان مركز «النجادة»، الذي قاد عمليات الارهاب العربي، كان واقعا في فندق «سميراميس» في القطمون. وفي فجر يوم ١٩٤٨/١/٥، بعد ليل ماطر وعاصف «أبعدَ العراقيين عن حواجزهم» (شاحام)، تسللت الى الحي مجموعات من كتيبة «موريا» ونسفت احد اجنحة المبنى. ولقي نحو ١٤ شخصا كانوا في المبنى، بينهم القنصل الاسباني، مصرعهم. وأثارت العملية تذمرا كبيرا في اوساط الحكم وبين القناصل الاجانب. واعتبرتها الدائرة السياسية للوكالة اليهودية عملا محبطا ونُقل ميشائيل شختر من القدس.

*1395

ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا، اصبح تنفيذ العمليات يجري بموافقة المؤسسات. في ساعات الصباح الباكر من يوم ١/١٢، وصلت وحدة من «الهاغاناه» الى منطقة عربية في بيت صفافا، كان تزعج مكور حاييم، ونسفتها. وفي اليوم التالي، تسللت وحدة اخرى الى حي الشيخ جراح، الذي كان العرب يوجهون منه رصاص القنص الى القوافل الصاعدة جبل المشارف، وأحرقت ١٢ منزلا من منازل الحي الذي كان سكانه قد اخلوه. «ان الهدف من هذه العملية، وهو تصفية القناصة، لم يتحقق» ــ ذكر تقرير يرجع عهده الى تلك الفترة. وفي فجر ١/٣٠، نسفت مجموعة من رجال قوة الميدان مبنى شاهين في القطمون، الذي كان القناصة العرب يطلقون النار منه في اتجاه غربي رحافيا. وانهار جناح كامل مكون من ثلاث طبقات. ورفعت هذه العمليات المعنويات في المدينة قليلا.

واعتبارا من الشهر الثالث للحرب، بدأت عمليات انتقامية منهجية ضد الاعتداءات العربية على حركة النقل. فبعد كل اعتداء على سيارة يهودية في المدينة، كان يُنصب كمين لسيارات عربية مارة على خطوط مجاورة. وبعد ان اصطدم الباص رقم ٧ (المسافر الى تالبيوت) بلغم بالقرب من المطبعة الحكومية في ٢/١٩، هوجمت باصات عربية قادمة من ناحية بيت لحم، وقتل اربعة من ركابها. و«بناء على طلب ملح من الشرطة أُلغي الكمين

---

* الصفحة 1394 في الاصل تحتوي على نص المنشور الذي وجهته «الهاغاناه» «الى جيراننا العرب» باللغة العربية. (المترجم)

التالي» (تقرير). وبعد خمسة ايام، اصطدم مرة اخرى باص يهودي بلغم بالقرب من مكور حاييم واحترق. وفي عملية انتقامية نفذت في اليوم نفسه، اطلقت نيران شديدة على سيارات قادمة من بيت لحم وقتل ١٦ من ركابها. وفي اثر الهجمات على حركة النقل الى جبل المشارف كانت تُنصب كمائن على طريق الرملة، الى الجنوب من النبي يعقوب. ويجدر بنا ان نذكر ان هذه الهجمات لم توقف الاعتداءات على السيارات اليهودية.

وفي ١٩٤٨/١/١٨، وصل باروخ رابينوف موفدا من قبل القيادة القطرية لدراسة ميزانية «الهاغاناه» في القدس. كما كُلِّف تحري الحالة المعنوية في المدينة. والتقى رابينوف يسرائيل زفولدوفسكي وعددا من القادة الخاضعين لامرته، وتوصل الى النتيجة انه لا بد من تغيير قائد المدينة. وفي بداية شباط/فبراير ارسل دافيد شلتيئيل، قائد جهاز الاستخبارات وقتئذ، للحلول محل زفولدوفسكي، وفي ٢/١٤ تسلم قيادة منطقة «عتسيوني» بكاملها.

خطط دافيد شلتيئيل

لدى تسلم دافيد شلتيئيل قيادة القدس، قدم له د. بن ـ غوريون توجيهاته فيما يختص بالعمل. وانقسمت التوجيهات الى مرحلتين: المرحلة أ ـ الى حين خروج البريطانيين من المدينة؛ المرحلة ب ـ مباشرة بعد الجلاء البريطاني. وفي المرحلة أ كُلِّفت قوات «الهاغاناه» في القدس ما يلي: التحصن واعداد المدينة ومداخلها للدفاع؛ منع هجر الاحياء الحدودية، والحرص على ان يعود اليهود فيتمسكوا بالاماكن المهجورة، واذا لم يكن في الامكان تحقيق الامر بقوى مدنية فليتم تحقيقه بوحدات «هاغاناه» مجندة؛ الاهتمام بأمر تأمين مواصلات منتظمة الى الاحياء والمستعمرات المحاطة بالمناطق العربية، وخصوصا منع اخلاء البلدة القديمة؛ السيطرة في كل فرصة عسكرية وسياسية على أحياء العدو، بهدف تأمين تواصل المنطقة اليهودية في المدينة جغرافيا، واسكان يهود في هذه الاحياء بمقدار تخلي سكانها العرب عنها. وجرى التشديد، بصورة خاصة، على اهمية السيطرة على حي الشيخ جراح. وكُلِّف شلتيئيل تعزيز قوات «الهاغاناه» في المستعمرات والمواقع المسيطرة بين القدس وباب الواد، من اجل تأمين الطريق الى الشفيلا، واعداد خطط لاجلاء النساء والاطفال عن المستعمرات المحاصرة، في حال الضرورة. وفي المرحلة ب، بعد الجلاء البريطاني، تلخصت الاوامر بجملة مقتضبة: «تحرير البلدة القديمة والقدس بأكملها». وفسر شلتيئيل هذا الامر بأن عليه ان يخلق، فور خروج البريطانيين، «حقيقة قائمة متمثلة بحكم يهودي». 1396

استهدفت اول خطة وضعها شلتيئيل تأمين تواصل المنطقة اليهودية في القدس وقوة صمودها، وبقدر الامكان من الناحية التكتية ومن ناحية الوسائل الموضوعة في تصرفه ـ تحصين المستعمرات خارج القدس كمواقع دفاعية، الى ان تحين اللحظة المؤاتية

لاستخدامها قواعد هجومية، من اجل السيطرة على منطقة لواء القدس الممتدة من البحر الميت حتى باب الواد، ومن غوش عتسيون حتى عطروت. ولهذه الغاية رأى شلتيئيل ان هناك ضرورة لتخزين اغذية وأسلحة في القدس، ولتشكيل قوة مدربة. وكانت النية ان يتم حتى ١٥ ايار/مايو، انشاء خط دفاعي متواصل جغرافيا وممتد من رامات راحيل حتى الشيخ جراح، ومن هناك الى جبل المشارف. وكان من المفروض ان تعمد قوات «الهاغاناه»، فور جلاء البريطانيين، الى السيطرة على المناطق التي كانت بيدهم، فتنطلق من جهة مباني الجامعة لتحتل الطور على رأس جبل الزيتون، وتصل من جهة اخرى عبر دير ابو طور الى قرية هشيلواح. وبعد ان تلتقي هاتان القوتان الى الشرق من البلدة القديمة، تصبح هذه مطوقة بكاملها وتسقط بسهولة بيد قوات «الهاغاناه».

ولدى وصول شلتيئيل الى القدس شرع في تنظيم هيئة اركانه، التي ضمت قادة الكتائب: نعمان ستوي المسؤول عن الخفراء في المنطقة؛ فريتس ايزنشتتر (شالوم عيست) الذي أُرسل مستشارا عسكريا للقدس؛ الضابط المساعد للقائد بن تسيون إلداد. وبقيت كتائب قوة الميدان خاضعة كالسابق لقائد المنطقة، ولم تكن لها قيادة خاصة بها. وكان قائد قوة الميدان، امنون زعير (رودي)، نائبا لشلتيئيل لشؤون قوة الميدان وعين بعد فترة مسؤولا عن إمداد القدس بالسلاح والمؤونة، بعد ان فشل يعقوب بات ـ الذي عينته القيادة العليا «قنصل القدس في السهول الساحلية» ـ في التغلب لوحده على العقبات الكثيرة التي اعترضت طريقه. «كانت قوة الميدان» ـ كتب شلتيئيل في مذكراته ـ «جزءا متكاملا من الدفاع الثابت عن القدس». وبناء على طلب من شلتيئيل وصل الى القدس في ٣/١٢ مئير زارودينسكي (زوريع، «زارو») لانشاء كتيبة ثالثة تابعة لقوة الميدان في المنطقة. لكن هذه الكتيبة (كتيبة بيت حورون) التي شكلت، بالمناسبة، منذ البداية من مادة بشرية غير ملائمة تماما لمتطلبات قوة الميدان، لم تحل هي ايضا مشكلة الاحتياطي المقاتل، لان رجالها كانوا يرسلون، فور الانتهاء من تدريبهم، لتعزيز المستعمرات المجاورة. «مهمة الكتيبة» ـ ذكر في الامر الصادر عن قيادة اللواء في ١٩٤٨/٤/١٦ ـ «السيطرة على الجزء الشرقي من ممر القدس ـ تل ابيب، من القدس حتى اللطرون، وذلك لحماية المستعمرات الواقعة في المنطقة وللسيطرة على شريان المواصلات الرئيسي وخط المياه الموازي له».

وحاول شلتيئيل حل مشكلة الاحتياطي عن طريق تحميل كتيبة مخمش المسؤولية عن المنطقة الواقعة خارج المدينة. «مهمة الكتيبة الـ ١٥ (وهي كتيبة مخمش)» ـ ذكر في الامر الصادر عن قائد القوة في ٣/٩ ـ «ان تشكل الطوق الفولاذي المحيط بالقدس من الشمال والشرق والجنوب. وهو مثبت في عطروت والنبي يعقوب في الشمال، وفي مشروع البوتاس وبيت هعرفاه في الشرق، وفي غوش عتسيون في الجنوب». ووفقا لذلك، جزئت الكتيبة الى وحدات وزعت على المستعمرات والضواحي الحدودية. وعسكرت الكتيبة الثانية ـ «موريا» ـ في المدينة، وكانت مهمتها «حراسة القدس العبرية واحاطتها بحلقتين فولاذيتين في الداخل

ومن الخارج». وكُلِّفت هذه الكتيبة امداد القيادة، عند الضرورة، بجنود احتياط. وقد سرى مفعول هذه التعليمات في ١٩٤٨/٣/٣، لكن اتضح بسرعة ان الكتيبة المعسكرة في المدينة تسمرت في مواقعها في المناطق المختلفة، ولم يعد ممكنا سحب اي من رجالها لتلبية الحاجات الملحة لقيادة المدينة المركزية من دون كشف قطاعات دفاع حيوية.

وأثرت ايضا في الوضع الامني في المدينة كمية الاسلحة التي كانت في حيازة «الهاغاناه»؛ فبحسب تقرير اعده شلتيئيل في الشهر الاول لتوليه قيادة المدينة، كان في حيازة «الهاغاناه» في القدس ٤٤٠ ستنا، و٢٥٣ بندقية، و ٤ رشاشات برن، وبندقية واحدة مضادة للدبابات، وكميات صغيرة من القنابل اليدوية والمتفجرات المصنعة محليا. 1397

العرب يصعّدون الارهاب

تجلت آثار استعادة القوات العربية لعافيتها بقيادة عبد القادر الحسيني في تنظيم اعتداءات كبيرة، على غرار عمليات الايتسل وليحي، مستعينة فيها بفارين من الجيش والشرطة البريطانيين.

ووقع الحادث الاول بعد فترة من مجيء شلتيئيل الى القدس. احضرت سيارة شحن محملة بالمواد المتفجرة الى شارع هسوليل، بالقرب من مكاتب هيئة تحرير صحيفة «بالستاين بوست». ودمر الانفجار مباني هيئة تحرير الصحيفة ومطبعتها ومكاتب «شرطة المستعمرات العبرية» في منطقة القدس، وجرح كثيرون. ودل الهدف المنتقى للاعتداء عليه (صحيفة يهودية باللغة الانكليزية) وأساليب التنفيذ على ان المبادرة والتخطيط كانا من وضع عناصر بريطانية. وفي الحقيقة، كان معروفا لدى الييشوف، منذ ايام الصراع مع البريطانيين، ان هناك عصابة فاشية تعمل في اوساط رجال الشرطة والجنود البريطانيين (انظر قضية فارن، ص 929). وقد عمل هؤلاء الاشخاص لمصلحة العرب سرا وعلانية. وشكل تصرف أفراد هذه العصابة في ٢/١٣، نموذجا لخلقيتهم. فقد نقل جنود اربعة شبان من «الهاغاناه»، ألقي القبض عليهم في اثناء تفتيش حي بيت يسرائيل، الى جوار باب العمود، وهناك انزلهم الرقيب الاول البريطاني، من دون سلاح، وسط جمهرة من الرعاع العرب، نفست عن غضبها بهم وقتلتهم. وأصدر قائد الجيش البريطاني أمرا بالتحقيق في الحادث. وأصدرت قيادة «الهاغاناه» أمرا الى اعضائها بأنه «من الآن فصاعدا يجب ان تقاوم بقوة السلاح كل محاولة من جانب القوات البريطانية لاجراء عمليات تفتيش عن السلاح او إلقاء القبض على شخص ما، اذا لم يكن برفقة هذه القوات أفراد من الشرطة اليهودية».

وبعد عشرين يوما من الاعتداء على «بالستاين بوست»، وصلت صباحا مصفحة وثلاث شاحنات عسكرية ومرت بسلام عبر الحواجز اليهودية في روميما، وتوقفت في شارع بن يهودا، وركب السائقون في المصفحة وانصرفوا. وبعد فترة قصيرة من ذلك انفجرت

الشاحنات، وانهار مبنى فندق «اتلانتيك» الضخم، ولحقت بمبان مجاورة أضرار فادحة. ولقي خمسون شخصاتقريبا، بينهم نساء وأطفال، حتفهم. وكان أثر ذلك في المدينة مخيفا وباعثا على الانقباض. وبدأ المنشقون بعمليات انتقامية ضد رجال الجيش والشرطة البريطانيين الموجودين في المناطق اليهودية. وقتل في تبادل اطلاق النار بين البريطانيين والمنشقين يهود من عابري السبيل. وأصدرت «الهاغاناه» أوامرها الى الحراس على الحواجز بأن يفتشوا من الآن فصاعدا ايضا سيارات الجيش والشرطة، كما امر البريطانيون جنودهم بعدم الذهاب بسياراتهم الى الاحياء والشوارع اليهودية باستثناء نقاط العبور الرئيسية.

وفي ١١/٣، وجهت الضربة القاسية الثالثة الى القدس اليهودية. وصلت سيارة يقودها السائق العربي المسيحي، العامل في خدمة القنصل الاميركي، الى ساحة [مكاتب] المؤسسات القومية. وبعد ان غادر السائق الساحة واختفى، انفجرت السيارة بجانب جناح «كيرن هايسود»، ودمرت الطبقة العلوية من الجناح بكاملها. وقتل ١٢ شخصا، بينهم الكاتب ليف يفيه، من مدراء «كيرن هايسود». وكان مجرد ضرب مركز المؤسسات اليهودية بمثابة انتصار دعاوي كبير للعرب، ولطمة لمعنويات سكان المدينة اليهودية.

وبعد شهر من ذلك، في ١٣/٤/١٩٤٨، وجهت الى القدس العبرية ضربة هائلة عندما هاجم العرب القافلة التي اعتادت التوجه الى «هداسا» ومباني الجامعة في جبل المشارف، كردة فعل على المذبحة التي ارتكبها المنشقون في قرية دير ياسين (انظر ص 1547). وقد هاجم العرب القافلة المعزولة لمدة سبع ساعات تحت بصر قوات الجيش 1398 البريطاني التي كانت موجودة بالقرب من المكان ولم تتدخل، على الرغم من ان القافلة انطلقت في طريقها بناء على وعد من السلطات البريطانية بأن سلامتها مضمونة. وقتل واحترق ٧٠ شخصا تقريبا، بينهم اطباء وعلماء وممرضات ومرضى وعمال وحراس، ونقل نحو ٢٠ جريحا الى المستشفيات. وأضيفت الى فداحة الكارثة والاسى العميق، المرارة الناجمة عن عجز «الهاغاناه» عن تقديم المساعدة للمهاجَمين. «لا احد يستطيع ان يفهم ما الذي جرى» ــ قال إلياهو دوفكين في جلسة ادارة الوكالة ــ «لقد جرت المذبحة على بعد ٦٠٠ متر من الييشوف اليهودي؛ قتل ٧٤ يهوديا ولم تجر أية محاولة لانقاذهم».

تنظيم المدينة استعدادا للحصار

ادرك المسؤولون عن الدفاع عن المدينة ان مشاعر عامة السكان وموقفهم مما يجري عامل بالغ الاهمية في صمود المدينة. وبعد ان عجزت «لجنة الطائفة» و«لجنة الطوارىء»، التي ألفت الى جانبها، عن الصمود في اختبار اللحظة القاسي، بسبب النقص في الصلاحيات والنقص في الاموال، عينت المؤسسات القومية «لجنة مؤسسات لشؤون القدس» (او باختصار: «لجنة القدس»). وعين دوف يوسف، الذي كان عضوا في ادارة الوكالة اليهودية، رئيسا للجنة وعمليا: نوعا من الحاكم المدني ــ العسكري للمدينة اليهودية.

وكان همه الاول هو ضمان التموين للسكان. لقد كانت القدس معتمدة في جميع حاجاتها، وحتى بالنسبة الى مياه الشفة، على الشفيلا، وكان الاتصال بالشفيلا يتضاءل باطراد. وفي أواخر شهر شباط/فبراير توقفت سكة الحديد عن خدمة الجمهور المدني. وانخفض إمداد المدينة بالوقود، وأصبح من الضروري اجراء تقنين مهم في استعمال الطاقة الكهربائية. وكان توفر المياه واقعا تحت رحمة العصابات العربية، التي سيطرت منذ بداية آذار/مارس على منابع المياه في رأس العين. ومن اجل حل مشكلة المياه، اصدرت «لجنة القدس» في السر، بتاريخ ٢/٢٩، أمرا بتنظيف واصلاح الآبار، التي كانت تخزن فيها مياه الامطار قبل وصول انابيب المياه من الشفيلا الى المدينة (اجري احصاء لآبار المياه قبل وقوع الاحداث، انظر ص 1288). وجهزت آبار كثيرة وأصلحت، وحتى ملئت بالمياه من مصادر في المدينة. وأغلقت هذه الآبار المملوءة لتكون جاهزة للاستخدام وقت الضرورة الماسة فقط. كما جهزت خزانات من الصفيح وزعت على السكان من اجل تخزين المياه. وقد تمت كل هذه الاعمال بسرية تامة، حتى لا يعرقلها البريطانيون والعرب. وعندما خرج البريطانيون من البلد اوقف العرب ضخ المياه الى المدينة، لكن كان قد اصبح في تصرف «لجنة القدس» وقتئذ ١١٥,٠٠٠ متر مكعب من المياه، تكفي لمدة ١١٥ يوما تقريبا ــ ومع الاقتصاد (على اساس عشرة ليترات للفرد) تكفي لثمانية اشهر، اي الى حين حلول فصل الامطار التالي. وأزيح عن كاهل المدينة خطر الاستسلام بسبب الظمأ.

وقد كانت المدينة، وفقا لحسابات رجال «لجنة القدس»، بحاجة الى ٢٠٠ طن يوميا من المواد التموينية من الخارج. وتحسبا لاضطرار المدينة الى مواجهة حصار لمدة ثلاثة اشهر ــ وهو احتمال كانت «لجنة القدس» ملزمة باعداد المدينة لمواجهته بعد ١٥ ايار/مايو ــ كان على المسؤولين عن سلامتها ان يخزنوا حتى ذلك التاريخ ٢٠,٠٠٠ طن من المواد التموينية. وكان عليهم من اجل ذلك ان يبدأوا بجلب ٦٠ شاحنة يوميا الى القدس، لتلبية الحاجات اليومية من جهة، ومتطلبات التخزين استعدادا للحصار من جهة اخرى.

واهتمت «اللجنة» بانشاء مستودعات للأغذية في أجزاء المدينة المختلفة، وبتأمين التيار الكهربائي لمستودعات التبريد بصورة منتظمة. واستنادا الى سجلات التقنين والمراقبة التي كانت سارية المفعول في اثناء الحرب العالمية الثانية، أُنشئت شبكة للاشراف على توزيع الاغذية. وأُنقص عدد الافران للتوفير في الوقود، وفرضت رقابة مشددة على اصحاب الافران ليؤدوا واجبهم وكي لا يرفعوا اسعار الخبز بصورة فاحشة. وتقرر ان تكون حصة الفرد من الخبز، في نهاية نيسان/ابريل، ثلث رغيف. وتلقى المرضى حصة خبز مضاعفة، وحصة اضافية مقدارها ٥٠٪ بالنسبة الى باقي الاغذية. «ابتداء من الاسبوع الاخير من شباط/فبراير، اصبحت المدينة تفتقر الى اللحم والاسماك والبيض والحليب، باستثناء حليب الاطفال. ولم تعد هناك خضروات او زبدة» (د. يوسف). وخرج صبية القدس الى الحقول لقطف الخبيزة لاستخدامها في تحضير الحساء.

1399

وكان النشاط الاعلامي حيويا من اجل المحافظة على الروح المعنوية للسكان، وخصوصا بعد ان انقطع وصول الصحف من تل ابيب. وقامت بدور مهم في هذا النشاط الاعلامي محطة الاذاعة المحلية التابعة لـ «الهاغاناه»، «كول هماغين» [صوت المُدافع]، بادارة أبراهام ارست، التي كانت تبث برامجها بالعبرية للسكان اليهود، وأيضا بالانكليزية والعربية. وكانت تبث في هذه البرامج، اضافة الى الاخبار، الاوامر الى السكان بشأن تصرفاتهم في ظروف الحصار والحرب، وبشأن توزيع الاغذية والمياه.

«مشمار هعام» [الحرس الشعبي]

قدم «مشمار هعام» [الحرس الشعبي] الذي بدىء بانشائه في الوقت الملائم قبل فترة قصيرة من نشوب الحرب (انظر ص 1288)، وتجاوز عدد اعضائه الـ ٣٠٠٠ شخص، مساعدة جمة لـ «لجنة القدس». وقد ترأس الحرس في البداية رجل «الهاغاناه» العتيق زئيف ابشتاين (افنت)، ومنذ نيسان/ابريل بن ــ تسيون كمنتسكي (أفني). وشارك فيه متطوعون من كل اوساط الجمهور ومن جميع الطوائف. وقد قام الحرس بمهمات الميليشيا والمحافظة على النظام. «ومع انهيار حكم الانتداب البريطاني من خلال «عملية فوضى شاملة»، تسلم هذا التنظيم بالتدريج معظم الواجبات الملقاة، بصورة عامة، على عاتق السلطات المحلية والبلدية» (دوف يوسف). وتولى القيام بتوزيع المياه بصورة منتظمة، وتوزيع الاغذية والوقود. وبما ان النقص في الوقود لُمس اولا، فان المهمة الاولى للحرس كانت مرافقة موزعي الوقود والاهتمام بأن يتلقى جميع المحتاجين حصصهم. ورافقوا ارساليات الاغذية منذ لحظة وصولها الى محطة القطار. وكُلِّفوا تفحص هذه الارساليات خشية ان يدس العمال العرب في المحطة فيها ألغاما. وفي ٥/٧، عندما اوقف تدفق الماء من ينابيع رأس العين الى القدس، وضعت موضع التنفيذ خطة توزيع المياه؛ «تولى الحرس الشعبي» ــ روى احد قادته، يوسف ريمون ــ «مهمة توزيع المياه على السكان، وجرى احصاء المتطوعين لهذه المهمة. وفي الليالي المدلهمة، كان اعضاء «الحرس الشعبي» يجرّون انفسهم متعبين، وبينهم من هو جائع فعلا لرغيف من الخبز، وينتقلون من ساحة بيت الى اخرى لتوزيع المياه الثمينة. ولم يكونوا يفعلون ذلك في وضح النهار، لان السكان آنذاك كانوا عرضة للقذائف الفتاكة، وكل تجمع للأشخاص كان ينطوي على خطر الموت الفعلي».

كما كُلِّف «الحرس الشعبي» مهمات ذات طابع عسكري اوضح. فتولوا عن قوة الحراسة مهمة الاهتمام بالحواجز. وفي مرحلة لاحقة، تحملوا عبء العمل في بناء التحصينات. وقام بدور ملموس في «الحرس الشعبي» بنات القدس، الفتيات والبالغات، والنساء وبنات الجنود في الجبهة المقدسية. وعملت الاناث الاعضاء في «الحرس الشعبي» في المستشفيات ومراكز الاسعاف الاولي وتجمعات اللاجئين، وفي جباية «ضريبة الدفاع عن انفسنا» («ماس لهغنتينو»).

وفي اثر الانفجارات في مبنى «بالستاين بوست»، في شارع بن يهودا وفي الوكالة اليهودية، عمل الرجال على ازالة الانقاض ونقل الجرحى، وما شابه ذلك. وراقبت مجموعات «الحرس الشعبي» عابري السبيل المشبوهين والنزلاء في الفنادق ورواد المقاهي. وأُنشئت في اطار «الحرس الشعبي» محاكم لمعالجة امر السماسرة. «ساعد رجال الحرس كثيرا في رفع معنويات السكان، التي تضررت بشدة في الاسابيع الاولى للحرب بسبب فشل الـ (هاغاناه)».

وبين الحين والآخر، كان ينقل قسم من شبان «الحرس الشعبي» الى وحدات قوة الحراسة لمهمات مرتبطة مباشرة بحمل السلاح، وفي مرحلة لاحقة (حزيران/يونيو ١٩٤٨) *1401 اخرج نحو ٥٠٠ رجل من «الحرس الشعبي» وضُموا ككتيبة خاصة ـ كتيبة ثالثة ـ الى قوة الحراسة في القدس، بقيادة القائد السابق لـ «الحرس الشعبي»، بن ـ تسيون أفني.

وبالاضافة الى دور «الحرس الشعبي» في تحمل عبء المحافظة على النظام الداخلي في المدينة، شد من عزيمة الآلاف من اعضائه وحولهم من اناس عاديين، عرضة لضغط الشائعات والمخاوف، الى جسم منظم يساعد ـ قدر طاقته ـ في تعزيز قوة صمود المدينة. وشد ايضا بعمله من عزيمة جنود «الهاغاناه» في مواقعهم، وأمدهم بالاحساس بأن هناك من يهتم بعائلاتهم في المدينة المحاصرة.

وقد ادى «الحرس الشعبي»، بقيادة دوف روزن، مهمات حيوية في القدس ايضا بعد قيام دولة اسرائيل وتحوُّل اعضاء «الهاغاناه» الى «جيش الدفاع الاسرائيلي». وجرى حله فقط في ايار/مايو ١٩٤٩، بعد ان عادت القدس تماما الى نظام الحياة المدنية.

حلقة الحصار تضيق

ساد قيادة المنطقة الجديدة احساس بالانقباض، في اعقاب الهزائم المتتالية في الطريق الصاعد الى القدس وفي منطقة القدس نفسها. ففي ٣/٤، منيت باصابات فادحة وحدة انتقامية خرجت الى طريق الرملة ـ اللطرون. اذ خرجت الوحدة ـ بقيادة قائد سرية، نوعام غروسمان ـ الى مكان عملت فيه قبل شهرين تقريبا وحدة سابقة (انظر ص 1395). انما في هذه الاثناء، كان قد حدث تغير كبير في استعدادات القرى العربية وتنظيمها. وكان استشهاد الـ ٣٥ شخصا في طريقهم الى كفار عتسيون (انظر ص 1432) قد علّم القيادة درسا بأن التسلل الى عمق المنطقة العربية وعمل الوحدة في وضح النهار هما بمثابة عملية انتحارية. إلا ان الوحدة خرجت على الرغم من ذلك، وبعد ان هاجمت باصا عربيا بدأت بالانسحاب في اتجاه عطروت (٧ كلم عبر الجبال). لكن في هذه المرة عمل جهاز الانذار العربي جيدا: طُوّق

---

* الصفحة 1400 في الاصل تحتوي على تعليمات لاستخدام حصص المياه بصورة فعالة. (المترجم)

الرجال من قبل فلاحين هرعوا من القرى المجاورة. وقتل ١٦ شخصا، ووصل الى عطروت ٣ اشخاص فقط رووا اخبار الكارثة.

وفي ٣/١٨، ارسل لواء «غفعاتي» تعزيزات الى هارطوف مشكلة من ٤ سيارات مصفحة و ٤ سيارات عادية، بقيادة قائد الفصيل ماتي بيلد. ووصلت القافلة بسلام الى هدفها، لكنها اصطدمت في طريق العودة بسلسلة من الحواجز وبنيران انصبت عليها من الجبال المجاورة. ونجحت السيارات في اجتياز الحواجز، باستثناء السيارة الاخيرة التي غرزت في الوحل على جانب الطريق، ووصلت وحدة مدرعة تابعة للبلماح الى المكان. ونشبت معركة استمرت نحو ثلاث ساعات سقط فيها ١١ من رجال الدفاع، بينهم نائب قائد القافلة ناتان كوتشنسكي، الذي امتاز «بشجاعته الخارقة وصموده» (تقرير).

وفي ٣/٢٤، خرجت السيارتان المصفحتان الاخيرتان في المنطقة الى عطروت. وكان من بين ركابهما إلياهو فنكلشتاين، ضابط التحصينات في المنطقة، لاجراء تعديلات في خطة التحصينات فيها. وفور اجتيازهما كلية الشرطة جوبهتا بنيران قوية وجهت اليهما من كلا جانبي الطريق. واصطدمت المصفحتان بلغمين كهربائيين فانقلبتا. وحاول المهاجمون الاقتراب من المصفحتين، لكن رجال الدفاع، بقيادة إلياهو فنكلشتاين ــ ومعظمهم جرحى ــ فتحوا النار عليهم وحالوا دون اقترابهم من المصفحتين. واستمر تبادل اطلاق النار ساعتين تقريبا الى ان وصلت قوة عسكرية بريطانية الى المكان دفعت العرب الى الفرار. ونقل ١٤ قتيلا و ١١ جريحا الى القدس. وفي اليوم نفسه، انقطع الاتصال المنظم بين الاحياء الجنوبية وجبل المشارف، بعد ان خلت القيادة من السيارات المصفحة.

وفي المدينة نفسها، شدد العرب هجماتهم على الاحياء المعزولة. وكان وضع مكور حاييم ويمين موشيه صعبا بصورة خاصة. ففي مكور حاييم، الذي كان معزولا من جميع الجهات وسكانه هجروه في الايام الاولى للحرب، كانت هناك فصيلة تابعة لقوة الميدان. وكان التخلي عن الحي معناه تقدم حد الهجوم العربي الى قلب المدينة اليهودية بالقرب من رحافيا. وكان المدافعون عنه، وعددهم ٦٠ شخصا، يقومون بدور مهم في الدفاع عن جنوب القدس. وكان حي يمين موشيه، بعد خسارة الوسط التجاري، الموقع اليهودي الاخير الباقي بجانب أسوار البلدة القديمة. وشن العرب هجمات كثيرة لاقتلاع المدافعين عن الحي، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. ولم تؤد مساعدة البريطانيين، الذين كانوا يطلقون نيرانا كثيفة من حين الى آخر من مواقعهم في مغدال دافيد، الى التخلي عن الحي. وعندما حان أوان الحسم، بجلاء البريطانيين عن المدينة، استُخدم يمين موشيه نقطة انطلاق وقاعدة عمليات لاحتلال محطة سكة الحديد وحي أبو طور وجبل صهيون. (1402)

(1403) وتمتعت وحدة «الهاغاناه» المتمركزة في احياء النبي يعقوب في الطريق من القدس الى عطروت بوضع خاص. فمن هنا كان رجال الدفاع يزعجون بصورة مستمرة حركة النقل العربية من الشمال الى القدس. وقد اكثر العرب من هجماتهم على هذه المستعمرة الصغيرة،

وساعدهم احيانا كثيرة رجال «الفيلق العربي» وفارون بريطانيون من الخدمة بنيران مساندة. وصمد رجال الدفاع في النبي يعقوب حتى اعلان قيام الدولة، وانضمت اليهم مجموعة مدافعين انسحبت من عطروت. وفي ٥/١٦، بدأ هجوم قوي على النبي يعقوب، شاركت فيه هذه المرة مدرعات «الفيلق العربي»، واستمر طوال اليوم، وسقط ٤ مدافعين. وفي اثناء الليل، اخلى الرجال النقطة وخرجوا الى الدروب الجبلية المؤدية الى جبل المشارف.

وفي ٥/١، ذاقت المدينة اول مرة طعم القصف المدفعي. فقد نصبت اربعة مدافع في منطقة النبي صموئيل، اطلقت منها ١٢٠ قذيفة على الاحياء الشمالية الغربية والغربية في القدس. وأدى ذلك الى مقتل خمسة يهود، وجرح عدة عشرات.

وكي يضمن شلتيئيل لنفسه احتياطا مهما انشأ وحدة صغيرة اشبه بسرية مكثفة، من ٨٠ شخصا، كان يرسل اليها خيرة المجندين الجدد. ودعيت الوحدة باسم «سرية نوعام» (على اسم نوعام غروسمان). وتولى تدريب الرجال مظليان خدما في الحرب العالمية الثانية. وأنشئت ايضا شرطة عسكرية، جسم حيوي جدا في القدس التي كانت تعج بالمتهربين والفارين من الخدمة الذين تستروا احيانا كثيرة برداء ايديولوجي او ديني او بحجة التعاطف مع المنشقين.

وقبل مرور وقت طويل، ادرك شلتيئيل ان القوات الموجودة في المدينة غير كافية، على الاطلاق، للقيام بالمهمات المحددة للواء «عتسيوني» في الخطط المختلفة للقيادة العليا. وبعد شهر تقريبا من تسلمه القيادة، ارسل تقريرا ذكر فيه ان هناك فعلا مجالا لتجنيد المزيد من الاشخاص في القدس، سواء لأغراض الدفاع عن المدينة او حتى لأغراض على المستوى القطري. لكن «حقيقة ان القوة المقاتلة الخاصة بالقدس مشكلة من ابناء المدينة، تؤدي الى نتائج مهلكة. فلكل ضحية صدى كبير، يبعث على الفزع في نفوس الآخرين ويدمر المعنويات، ولذا ينبغي نقل قوات القدس الى أجزاء البلد الاخرى، وجلب قوات بديلة لها من الخارج». ومن اجل رفع مستوى نوعية قوة الميدان طلب شلتيئيل ارسال قادة وقادة فصائل وقادة جماعات جدد. وشكا بشدة النقص في الاسلحة وفي الالغام وفي الالبسة للرجال. وفي ٣/٢٨، بعد سلسلة من الضربات والفشل في المدينة وحواليها وفي الطرق الصاعدة اليها، ارسل شلتيئيل الى القيادة العليا تقريرا ثانيا طالب فيه، بين امور اخرى، باخلاء غوش عتسيون بحجة ان الكتلة والقوافل الذاهبة اليها تشكل عبئا لا تستطيع «الهاغاناه» في القدس تحمله من الناحية العسكرية. وشدد شلتيئيل في هذا التقرير، على ان لواء «عتسيوني» لا يستطيع القيام بمهمات احتلال وقتال. واقترح تجميع كل القوة المقاتلة اليهودية في الجزء اليهودي من القدس، بحيث تشكل قاعدة محمية، الى حين وصول نجدة من السهول الساحلية. وحتى لو تم ذلك فلن يكون من السهل على قيادة القدس التغلب على مشكلات صعبة، مثل: «سكان جائعين تحرضهم منظمتا المنشقين، والمعنويات المنخفضة في صفوف «الهاغاناه»، والكآبة في المدينة الناجمة عن خسائر ابناء القدس نفسها، وطلبات

المساعدة والقوة البشرية والعتاد الكامل، التي لم يستجب لها». وفي مرحلة لاحقة، طلب شلتيئيل ايضا اخلاء عطروت، معتبرا النبي يعقوب الموقع الاكثر تطرفا من جهة الشمال في منطقة القدس.

«اخذ الوضع في القدس يتفاقم»، كتبت في ٣/٢٩ غولدا مئيرسون، عضو الدائرة السياسية للوكالة اليهودية التي كانت مقيمة في القدس، الى د. بن ـ غوريون، «فالهزيمة في طريق عتسيون قوضت معنويات الجمهور ـ ـ وأدت العصبية بسبب النقص في الحاجات الضرورية والوقود الى نشوء حالة ذعر ـ ـ وتسمع أصوات بأنه من المحتم الطلب من الانكليز ان يبقوا في القدس، او التفتيش عن طريق للوصول الى اتفاق مع العرب، اذ ان هدنة او جيشا دوليا غير ممكنين. ـ ـ ويجب بذل جهد فائق من اجل تجديد حركة المواصلات الى تل ابيب ومنها، وتخزين احتياطي اغذية، وتعزيز قوات «الهاغاناه»، وتعيين قيادة عامة قوية للمدينة». 1404

وقد كانت عملية «نحشون» (انظر الفصل الثامن والستين) والعمليات التالية لها، الى حد ما، استجابة لطلبات القدس هذه. وساهمت في حل الانشوطة الخانقة من حول رقبة المدينة قليلا، وفي الحؤول دون خطر الابادة الكاملة.

الحصار حول اليهود في البلدة القديمة

يحتل البيشوف اليهودي في البلدة القديمة، الذي كان محاصرا منذ بداية الحرب حصارا شديدا، مكانة خاصة في القصة العامة للقدس. ففي الحي اليهودي في البلدة القديمة كان يسكن آنذاك ٢٥٠٠ يهودي في مقابل ٢٠,٠٠٠ عربي تقريبا. وكان الحي قد تم تحصينه في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ من قبل كل من اليهود والسلطات البريطانية، فأغلقت جدران من الاسمنت المسلح كثيرا من ممرات العبور بينه وبين جيرانه المسلمين، وأقيمت بوابات من الحديد في الطرف الشمالي للشارع اليهودي. وقبل ١١/٢٩، يوم قرار الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة بتقسيم البلد، أرسل الى الحي نحو ٢٠ رجلا من قوة الميدان وبضع ارساليات من السلاح. واختار الشبان قبوا في شارع الميدان مكانا لاقامتهم، وأخفوا فيه سلاحهم. وفي اليوم الثاني للاضراب العربي، جرى تبادل اطلاق نار على حدود الحي، وألقت الشرطة القبض على احد المدافعين. وفي اليوم التالي انقطع الاتصال الاعتيادي بالمدينة الجديدة. وهجر العرب القاطنون بين اليهود المكان، وأصبح الحي عمليا واقعا في حالة حصار.

وبدأ نزوح من جانب السكان اليهود «اكتسب أبعادا خطرة اعطته طابع هروب جماعي» (تقرير). ونقص عدد اليهود في الحي خلال اسبوعين الى اقل من ٢٠٠٠ شخص. «الروح المعنوية منخفضة» ـ ذكر تقرير يرجع عهده الى ايام الحصار الاولى ـ «الناس يعانون الكآبة هناك. الحوانيت مقفلة، والمدارس مغلقة، وخدمات التنظيفات توقفت، والصبية يتراكضون في الشوارع، والسكان يعيشون حالة تلوث واتساخ ويأس» (المصدر نفسه).

وقد قسم قائد فصيلة قوة الميدان الحي الى قطاعين: القطاع أ ــ وفيه ٦ مواقع ــ الى الشرق من شارع اليهود؛ والقطاع ب ــ وفيه ٥ مواقع ــ الى الغرب منه. وفي ١٩٤٧/١٢/١٠، وصلت الى الحي ــ بمساعدة ضابط شرطة بريطاني تلقى أجرا لقاء هذه الخدمة ــ فصيلتان جديدتان من قوة الميدان. والتقت القيادة الى قائد سرية قوة الميدان يسرائيل بونت. وجرى عرض في القاعدة المركزية، مستشفى «مسغاف ليدخ»، وخرج الرجال الى مواقعهم وسط هتاف السكان «تعيش الهاغاناه». و«كانت تلك الايام ايام الحانوكاه، وأضيئت الشموع في كل موقع، وجرى الاحتفال بالعيد وفقا لظروف المكان» (أ. ليرون). وفي اليوم التالي، هاجم القناصة العرب الحي اليهودي من عدة جهات. ودارت في موقع «بورات يوسف» معركة بالرصاص والقنابل اليدوية، سقط فيها يتسحاق سلومون بعد ان اقترب من العدو وألقى في وسطه قنبلتين يدويتين. واستمرت هذه المعركة حتى الظهر، وقتل فيها عدد من المهاجين، وأصيب القائد العربي في البلدة القديمة صبحي ابو غربية بجروح بالغة.

ونتيجة هذه الاحداث، ارسل البريطانيون فصيلتين من الجيش احتلتا مواقع بين الحي اليهودي والحي العربي، وأعلنوا ان «الجيش سيطلق النار على كل طرف يبدأ باطلاق النار» (أ. ليرون). وأجرى البريطانيون عمليات تفتيش وألقي القبض على ١٥ شابا لمدة عشرة ايام، وصودرت كمية من السلاح. وبقدوم الجيش ساد الحي اليهودي هدوء نسبي، وتجددت حركة المواصلات مع المدينة الحديثة بواسطة مصفحات رافقتها الشرطة البريطانية التي لم ترد على نيران العرب. وكان يجري استبدال رجال الجيش كل ثمانية ايام، وكان موقفهم من المحاصرين يختلف من وحدة الى اخرى، ويعتمد على التركيب الشخصي للوحدة وموقف ضباطها، وأيضا على تطور الاحداث في البلد بمجمله. وبصورة خاصة، تميزت بموقفها الجيد سرية الميجر الاسكتلندي دافيدسون، التي سلكت سلوكا متعاطفا مع المدافعين، ولم تجر عمليات تفتيش عن السلاح، وفي «مقابل كل رصاصة من الجانب العربي، صدر عن سريته رد عنيف» (أ. ليرون). وفي المقابل، تصرفت وحدة اخرى تضرر رجالها، كما يبدو، مباشرة من عمليات المنشقين، بكراهية شديدة تجاه اليهود، وتسببت بمشكلات كثيرة.

1405

وفي ١٩٤٨/١/٣، بدأ هجوم قوي على «بتي فارشا»، وهي كتلة منازل في الجهة الشمالية الشرقية من الحي اليهودي، كانت بمثابة «اسفين في المنطقة العربية» (أ. ليرون). ويبدو انه بعد اشتباكات متكررة بين اليهود والعرب، قرر البريطانيون تصفية الموقع المزعج، فأطلقوا يد العرب لمهاجمته وتصفيته. وبعد ان صُدّت عدة هجمات عربية، طالب الجيش باخلاء المبنى وتسليمه للبريطانيين. ولم يقبل المدافعون بذلك إلا بعد ان جُلب ضابط الاتصال المعين من قبل الوكالة اليهودية الى المكان مزودا بأمر صريح في هذا الشأن.

وقدمت ردات الفعل الصادرة عن المنشقين، الذين ألقوا متفجرات عند باب العمود في ١٢/١٣ وفي ١٢/٢٩ قتل بسببها عشرات من العرب، ذريعة الى البريطانيين للسماح للعرب

بتقوية حراساتهم عند بوابات البلدة القديمة. واشتد الحصار على الحي اليهودي. وفي اثر المتفجرة التي ألقاها رجال الايتسل في ١٢/٢٩، وضع العرب حراسات قوية وأقاموا حواجز حول باب الخليل، ووضعوا قناصة فوق سور المدينة وعلى سطوح المباني المجاورة للبوابة، وتوقفت قوافل الاغذية عن القدوم الى البلدة القديمة. ولم يتمكن مئتا شخص تقريبا، كانوا يعملون ويدرسون في المدينة الجديدة، من العودة الى منازلهم. «سلمت السلطات» ـ كتب ضابط اتصال الوكالة اليهودية، ي. روزنبرغ ـ «السيطرة (Control) على البلدة القديمة للعرب. ان القانون الوحيد الساري المفعول في هذه المنطقة، هو قانون «الهيئة العربية العليا»، والجميع ـ بمن فيهم حتى اولئك الذين يدعمون مسؤولية المحافظة على القانون والنظام ـ مضطرون الى الخضوع لافعالها». 1406

وساد التوتر الحي اليهودي، وقام السكان بتظاهرة توجهت الى قيادة «الهاغاناه»، وطالبتها بالعمل على تأمين الاغذية. وفي اثر ضغط شديد من جانب الوكالة اليهودية، التي اعلنت ان اليهود سيضطرون الى نسف سور المدينة اذا لم تحل مسألة امدادات الاغذية، تعهد الجيش البريطاني بنقل الاغذية الى داخل الاسوار.

وفي ١/٨، بدأت قوافل المؤونة تصل الى البلدة عبر باب النبي داوود. وكان الحراس العرب يفتحون لها البوابة من الخارج. وكانت تصل بموجب الاتفاق ثلاث قوافل في الاسبوع، وفي كل قافلة اغذية تكفي ليومين او ثلاثة ايام، كانت توزع على السكان مجانا. وفي منتصف كانون الثاني/يناير، اعلن البريطانيون ان اليهود لن يستطيعوا، بحسب رأيهم، الصمود في الحي اليهودي بعد خروجهم، ونصحوهم باخلاء الحي قبل فوات الاوان. وحملوا اليهود، كما لو ان الامر كذلك، مسؤولية البدء بالهجوم على العرب، وادعوا ان الحصار هو نتيجة متفجرات المنشقين التي ألقيت امام باب العمود وباب الخليل. وقالوا انهم سيؤمنون الحراسة لكل يهودي يرغب في مغادرة البلدة القديمة. وردا على ذلك، اصدرت الوكالة اليهودية أمرا بعدم السماح للسكان بمغادرة الحي. وبما انه كان هناك كثيرون مستعدين للاستفادة من الفرصة التي اتيحت لهم، فان قوات «الهاغاناه» كانت تعلن منع تجول داخلي كلما وصلت قافلة بريطانية الى باب النبي داوود.

«بصورة عامة» ـ كتب أ. ليرون ـ «عندما كان حرصنا على راحة السكان يعطي ثمارا كانوا يقدروننا، وعندما كانوا يعانون قليلا كانوا فورا يديرون لنا ظهورهم». واعتبرت حفنة قليلة فقط من أتباع «نطوري كارتا»، «الهاغاناه» اصل البلاء الذي حل بها وطالبت بجلائها عن الحي.

ومن اجل الضغط على اليهود واقناعهم بالجلاء عن الحي بارادتهم، قام البريطانيون بعدة اعمال استفزازية. ففي ١/١٦، نسف الجنود مصنعا لـ «المصّة» [رقائق خبز صيام عيد الفصح] كان يستخدم كموقع متطرف جنوبي شارع اليهود في الطريق الى باب النبي داوود. وأصيب عضو «الهاغاناه»، شمعون كوبي، من جراء الانفجار بجروح مميتة. وأقام المدافعون

على الفور موقعا جديدا في المبنى المجاور. وبعد اربعة ايام من ذلك، اخلى البريطانيون «مستشفى المعاقين»، الذي كان موجودا في مبنى منعزل في الحي اليهودي. وأتى ثلاثة شبان غير مسلحين للاشراف على عملية الاخلاء. وعلى مرأى من البريطانيين فتح عربي النار من رشيش على اليهود، وراقب البريطانيون ما جرى ببرود. وأصيب واحد من الثلاثة، قائد فصيل الايتسل في البلدة القديمة، يوئيل فريدلر، بجروح مميتة.

وفي ١/٢٦، أُخطر السكرتير العام للحاخام هيرتسوغ، ان الحكومة مستعدة لتحمل مسؤولية سلامة السكان اليهود في الحي اليهودي، لكن «الشرط الحتمي للسلام هو اخراج رجال «الهاغاناه» والمنشقين المسلحين من البلدة القديمة» إلا ان [قبول] هذا الاقتراح لم يكن طبعا واردا في الحسبان.

وبعد ان اتضح ان الحصار سيستمر فترة طويلة، وأن هناك ضرورة للاهتمام بتنظيم حياة سكان الحي ورجال الدفاع، الذين كان معظمهم آتيا من الخارج، عينت قيادة المنطقة قائد «الهاغاناه» أبراهام هالبرين، الذي كان قبل عامين من ذلك قائدا للحي ويعرف جيدا يهود البلدة القديمة، حاكما عسكريا للمكان. ودخل هالبرين المدينة القديمة بصفة مفوض للصحة. وبعد فترة قصيرة، عندما خرج يسرائيل بونت من الحي، تسلم ايضا قيادة المقاتلين.

وشرح هالبرين لرجال «الهاغاناه» ان عليهم ان يتقبلوا حكم الواقع، وأنه سيتعين عليهم ان يبقوا في المكان اياما كثيرة من دون ان يكون هناك امكان لاستبدالهم، وأن عليهم ان يشركوا السكان في مهمة الدفاع. وانشأ من بين السكان «حرسا شعبيا» على غرار الحرس في المدينة الجديدة. وكان عددهم نحو ٣٥ شخصا، معظمهم «أكراد ملتحون، يعتمرون قبعات بيريه سود اللون، ويعقدون اشرطة على اكمامهم».

1407

وكان هدف هالبرين تدريب هؤلاء الرجال ليصبحوا قوة مقاتلة. وأعيد تنظيم الدفاع عن الحي، بناء على نظرية «ان تستطيع كل مجموعة من المباني الدفاع عن نفسها في حال انعزالها، وأن يجري إعداد هذه المجموعة بصورة لا يؤدي سقوط إحداها الى تعريض الحي بأكمله للخطر» (أ. ليرون). وبدىء بتدريب المتطوعين، ومعظمهم من ابناء الطوائف الشرقية، وأنشئت محكمة عسكرية وسجن واشتريت اسلحة من الانكليز والعرب بواسطة وسطاء من الارمن. وبدىء ايضا بعمليات انتقامية منهجية ردا على كل رصاصة من جانب العرب، وأدت هذه الى فرار العرب من البيوت المجاورة للحي والى احتلال مواقع في مناطق اكثر تقدما. «حلّت روح المبادرة ـــ وتعزز الايمان بأنه مع خروج البريطانيين في ١٥ ايار/مايو سيكون في امكاننا حقا التغلب على العدو» (أ. ليرون).

وفي ٢/٢١، افتتح «نادي الدفاع»، وزود بكتب وصحف وألعاب. ووضع في تصرف القيادة جهاز ارسال لاسلكي، أمّن اتصالا بقيادة المنطقة. وسعت القيادة لان يظل الرجال يقومون بأعمالهم. فاشتغل الحرفيون وأرسل انتاجهم للبيع في القدس الجديدة، وافتتحت

مدرستان دينيتان (يشيفاه) وتلقى الدارسون فيهما أجرا. وتلقت حتى مجموعة المسنين، التي كانت تنشد الاناشيد الدينية امام الجمهور، مخصصات لقاء نشاطها. وألفت لجنة مدنية ترأسها الحاخام يتسحاق افيغدور اورنشتاين. واستؤنفت الدراسة في المدارس، وشغل الاولاد حتى بعد الانتهاء من الدروس. وتم الاعتناء بالاطفال، بمساعدة معلمات ومعلمين شبان تطوعوا للقدوم الى البلدة القديمة. ونُظمت الفتيات في وحدات اتصال قدمت فائدة جمة للمدافعين.

وفي ٣/٣، بعد ستة اسابيع من النشاط، ألقى الجنود البريطانيون القبض على هالبرين بسبب وشاية، كما يبدو، ونقل الى البلدة الجديدة. ولم تنجح محاولات «الهاغاناه» لاعادته الى البلدة القديمة. وقد كان إبعاد هالبرين بمثابة ضربة قاسية أنزلت بالحي اليهودي. واستمرت اللجنة المدنية في القيام بعمله بين السكان اليهود. وعين قائدا للحي قائد الفصيل موشيه روسنيك، «رغما عنه وعلى الرغم من طلبه المتواصل ان يُرسَل قائد [آخر] للحي».

واستمر طابع الحياة في الحي وفقا للأنماط التي ارساها هالبرين. وجرى بين الفينة والاخرى تبادل اطلاق نار بين اليهود والعرب. لكن الخطر الرئيسي كان متربصا من جانب البريطانيين. وفي نهاية آذار/مارس، عسكرت في المدينة وحدة بريطانية معادية، راحت تطلق النار من حين الى آخر على الحي. وفي ٣/٢٧، اجرى رجال الجيش تفتيشا عن السلاح في الكنس، رافقته اعمال اتسمت بالعنف. وفي اليوم التالي، وقع اشتباك، بعد ان حاول ميجر بريطاني مصادرة مدفع الهاون الوحيد في الحي، قتل في خلاله جندي وجرح ضابط. وعلى الفور جرى تبادل اطلاق نار كانت نتيجته مقتل ثلاثة جنود. وسقط من اليهود مدافع واحد، موشيه الشيخ، وقتل الجنود اثنين من المدنيين. وأدى التدخل السريع من جانب ضباط اتصال تابعين للمؤسسات [القومية]، نشطوا في المدينة الجديدة، الى هدنة. واتفق بعد مفاوضات على ان يعيد الجنود السلاح الذي صادروه، ويعيد رجال «الهاغاناه» السلاح الذي اخذوه من الجنود. كما اتفق على انه يمكن لرجال «الهاغاناه» حمل سلاحهم علنا داخل نطاق الحي. وأصدر د. شلتيئيل أمرا يوميا، اثنى فيه على «التصرف الشجاع للمدافعين عن البلدة القديمة الذين قاوموا بالقوة مصادرة السلاح المعد للدفاع».

ومضت الاسابيع الستة الاخيرة، قبل خروج البريطانيين، على رجال الدفاع وهم ملتزمون بسرية شديدة. فقد اعلن البريطانيون انهم لن يقوموا مرة اخرى بأية عملية تفتيش عن السلاح، لكن اذا اطلقت النار على جنودهم فسوف يدمرون الحي بكامله. وعادوا فادعوا ان « ‹الهاغاناه› تحسن صنعا اذا غادرت البلدة القديمة» (أ. ليرون). وكان الجنود يفتحون النار من فترة الى اخرى على الحي، وينسفون بيوتا فيه ويقصفونه.

وفي ١٩٤٨/٥/٢، وصل امر من هيئة الاركان العامة بايقاف اطلاق النار في البلدة القديمة طوال مدة المفاوضات الدائرة في ليك سكسيس بشأن شروط الهدنة في البلدة القديمة «التي ستتضمن حرية الدخول اليها والخروج منها». وفي ٥/٣، استبدلت الوحدة البريطانية 1408

في المدينة بوحدة جديدة مشكلة من جنود مضى على وجودهم في البلد ثلاثة اشهر فقط، ولم يتشربوا بعد سموم الكراهية التي كانت تسري في نفوس القدامى. وفي الايام العشرة الاخيرة لوجود البريطانيين في البلدة القديمة، كانت العلاقات بينهم وبين المدافعين عن الحي حسنة.

وانتقلت قيادة «الهاغاناه» في الحي من مستشفى «مسغاف ليدخ» الى غرفة في يشيفات «شاعر هشمايم». وأخفي السلاح في مخبأ سري عميق، بني سنة ١٩٤٤ داخل جدار كنيس «كاهل تسيون»، احد الكنس الاربعة المنشأة تحت الارض في الحي. وأرسلت قيادة «الهاغاناه» في المدينة الجديدة الى الحي كمية اخرى من السلاح، اشتملت على مدفع رشاش برن، اخفيت داخل ارساليات الاغذية. وفي نهاية الفترة ذاتها، عشية قيام دولة اسرائيل، كان لدى المدافعين عن البلدة القديمة: مدفعان رشاشان (برن ولويس)؛ و ٢٠٠٠ رصاصة مدفع رشاش؛ ومدفع هاون عيار ٢ بوصة مع ٩٣ قذيفة له؛ و ١٧ بندقية انكليزية (مع ٥٥٠٠ رصاصة)؛ و ٤٧ رشيشا من أنواع مختلفة؛ و ٣ قاذفات قنابل؛ و ٤٥ مسدسا من أنواع مختلفة؛ و ٣٧٤ قنبلة يدوية دفاعية (منها نحو ٥٠ قنبلة بدائية)؛ و ١٢٦ قنبلة يدوية هجومية؛ وما ينيّف على ٢٠٠ كلغ مواد متفجرة.

وبالاضافة الى الحراسة في المواقع، قام الرجال بتدريبات مكثفة «على القتال داخل المناطق المبنية والقاء القنابل اليدوية، وبممارسة الرياضة التي اشتملت على القفز من سطح الى سطح» (المصدر السابق). وقبل اسبوع من الجلاء البريطاني، تم التوصل الى اتفاق كامل بين «الهاغاناه» وقوات الايتسل في الحي. وقبل المنشقون قيادة قائد «الهاغاناه»، وأن يكون المرجع القضائي الاعلى، لكنهم حافظوا على وجودهم كوحدة مستقلة ذاتيا. وتعهدوا بالدفاع عن مجموعة الابنية التابعة لكنيس «نيسان بابا كاما». ووحدت مستودعات الاغذية وأنشىء مطبخ مشترك. وانضم أفراد الايتسل الـ ٤٢ (٣٠ شابا و ١٢ فتاة) الى قوات «الهاغاناه» في الحي.

وقبيل مساء يوم ٥/١٣، خرج الجنود البريطانيون من المدينة. وبقي ١٥٠ مقاتلا يهوديا، خلفهم ١٧٠٠ نسمة، وجها لوجه امام نحو ٢٠,٠٠٠ عربي، تآمروا على ابادتهم. وكان مصيرهم رهنا بمجرى المعركة بين اليهود والعرب في نطاق المدينة الجديدة.

الفصل الحادي والسبعون

مستعمرات في الحرب[٧]

الدفاع عن المستعمرات المنعزلة

ان الامة الضاربة جذورها في ارضها على مدى اجيال كثيرة، تكون واثقة من رسوخها في ارض وطنها، وتسمح لنفسها بالتنازل ــ عندما لا يعود هناك مفر من ذلك، لاعتبارات استراتيجية وحتى تكتية ــ عن مستعمرات وقطاعات من الارض، لمعرفتها ان تلك ستعود الى سلطتها، ولو سيطر عليها العدو فترة ما. وقد كان في استطاعة ديغول بعد هزيمة فرنسا ان يكتب: «لقد خسرت فرنسا معركة، لكنها لم تخسر الحرب». وتمزقت بولندا عدة مرات ، لكنها بقيت على الرغم من ذلك ارضا بولندية.

أما اليشوف اليهودي فلم يكن قد تمكن بعد، خلال الاعوام السبعين منذ استيطانه في البلد، من ان يضرب جذورا عميقة في جميع ارجاء البلد، وكانت تنقصه الثقة المطلقة بالارتباط الفعلي غير القابل للانفصام بينه وبين ميراثه القديم ــ الجديد. وكانت قوة تشبثه المحسوسة بالبلد، في نهاية الامر، خلاصة لقوة رسوخ المستعمرات التي انشأها فيه. وكان من المحتمل ان تكون كل مستعمرة يحتلها العرب خسارة نهائية، ولم تصمد كل الاعتبارات الاستراتيجية والمنطقية امام الشعور بأن كل تنازل عن شبر من الارض اليهودية يمكن ان يكون تنازلا الى الابد.

ولم يكن الامر ايضا غائبا عن ذهن الجانب العربي الذي حاولت قواته، من فترة الى اخرى، مهاجمة هذه النقطة الاستيطانية اليهودية او تلك لابادتها والاضرار بمعنويات اليشوف. وفي هذه الحرب القاسية والعنيدة على كل نقطة في البلد، احيانا ضد الاعتبارات العمليانية المألوفة، حققت «الهاغاناه» بصورة عامة نجاحا في الاشهر الاولى الدامية للحرب.

وفيما يلي عدة أحداث بارزة فيها ما يلقي ضوءا على هذه القضية المتنوعة الحافلة بصمود بطولي رفيع:

مشكلة التحصينات

كانت احدى المشكلات التي شغلت رجال «الهاغاناه» في مستعمراتهم، في الاشهر الاولى للحرب، مشكلة التحصينات. وكان قد انشىء حول كل مستعمرة في البلد، في سنوات الاحداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، نظام للتحصينات ملائم لظروف تلك الحرب، ولقوة نيران العصابات العربية وتكتيكاتهم في تلك الفترة. وكان اساس نظام التحصينات ذاك: سياجا عسكريا من الاسلاك الشائكة حول نقطة البيشوف، ومواقع من الاسمنت المسلح مع كوات لاطلاق النار مرتفعة عن الارض، وأبراجا من الاسمنت المسلح في نقاط مرتفعة داخل المستعمرة او بالقرب منها، ومصابيح كاشفة، وخنادق للوصول الى المواقع.

وفي فترة الهدوء النسبي بين أحداث سنة ١٩٣٩ وحرب الاستقلال، اهمل نظام التحصينات ذاك. وأصبحت هناك ثغرات في السياجات العسكرية، وسُدت الخنادق الموصلة الى المواقع الخ. لكن اساس النظام ظل قائما. وكان اول ما فعلته المستعمرات هو اصلاح نظام التحصينات وتطويره. وكالعادة، ارتبط تفكير المسؤولين عن الامر بتجاربهم في الماضي القريب. كما ان طابع الحرب في الاسابيع الاولى، وبالتحديد حتى ربيع سنة ١٩٤٨، لم يختلف كثيرا عن طابعها في سنوات الاحداث؛ فكان سلاح العرب ـ في الاساس ـ سلاحا خفيفا، وبدا نظام التحصينات الذي طور في سنوات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، انه سيصمد في مواجهة هذا السلاح.

1410

وطالب خبراء ارسلتهم الدائرة الفنية في «الهاغاناه» الى المستعمرات، بزيادة سماكة جدران المواقع، الى ضعفين او ثلاثة أضعاف، وبذل عمل كثير في ذلك. وعززت تحصينات الاسلاك الشائكة وبدىء بـ «زرع» ألغام في طرق الوصول.

وأقيمت ايضا في المستعمرات الجديدة تحصينات بالمواصفات نفسها. كما كان هناك حرص اساسي على تشييد بناء امني من الاسمنت المسلح، يمكن تجميع الاشخاص غير المحاربين والجرحى فيه، وحتى التحصن في داخله فيما لو نجح الاعداء في اختراق الجدار الدفاعي الخارجي.

وفي الاشهر الاولى للحرب صمدت هذه التحصينات عامة. ولم يتكشف عدم فعاليتها إلا بعد ايار/مايو ١٩٤٨، عندما استخدمت الجيوش العربية سلاحا اكثر ثقلا. فقد اتضح ان في امكان قذائف المدفعية اختراق جدران الاسمنت المسلح السميكة، وأن أبراج الاسمنت المسلح هي احيانا مصيدة قاتلة للموجودين فيها. ومن خلال اختبارات النار الاولى، تحول الرجال الى النظام القديم المجرب، القائم على الخنادق والقنوات الدفاعية. وبدىء بحفر الخنادق، وانشاء الملاجىء، والدشم تحت الارض، وكانت تلك تجربة كلفت محاربي الدولة في ايامها الاولى ثمنا داميا فادحا.

ويعتبر ما حدث لمجموعة غيزر، التي احتلتها قوات «الفيلق العربي» في ١٠/٦/١٩٤٨، نموذجا لهذا الموضوع. «فور بدء القصف أُعلمنا عن مواقع اصيبت ودمرت

وهلك رجالها» ـ روى احد المدافعين ـ «وكانت تلك ضريبة غالية دفعت بسبب عدم استشفاف المستقبل في مخطط تحصين النقطة. فقد شكلت المواقع المرتفعة فوق سطح الارض هدفا مريحا لمدفعية العدو والدبابات. ودُمر معظم المواقع تماما، وكان لا بد من الانتقال الى قنوات الاتصال والقتال من هناك».

وفي كريات عنافيم بدأت مدافع «الفيلق العربي»، في ١٩٤٨/٥/٢٦، بقصف الموقع القائم قبالة هضبة الرادار. وشكل الموقع، الذين أضيفت اليه في الاسابيع السابقة طبقة اخرى، هدفا ممتازا لمدفعية الفيلق». وقتل نائب القائد في المكان، يسرائيل شابيرا، فورا من جراء قذيفة اخترقت جدار الموقع السميك. وخرج الرجال على التو من الموقع واحتموا بالكهوف المجاورة.

وفي ابان معارك صيف سنة ١٩٤٨، غير كل نظام التحصينات في المستعمرات. وحلت خنادق عميقة وحقول ألغام وخنادق ضد الدبابات، محل سلسلة المواقع التي بقيت هنا وهناك كأثر من ايام ما قبل نشوب الحرب.

الهجوم على كفار سولد

حدث اول هجوم على مستعمرة عبرية في هذه الحرب في اقصى الشمال من البلد ـ على كيبوتس كفار سولد. وقد انقض المهاجمون، في صباح يوم ١٩٤٨/١/٩، من جهة الحدود السورية، وانتشروا في مواقع على امتداد قمة الجبل في الاراضي السورية، على بعد نحو ٣٠٠ متر من النقطة. ووجهت نيران قوية الى الساحة والى غرفة الطعام الخاصة بالكيبوتس. وخلال عشرين دقيقة، احتل الاعضاء المدافعون مواقعهم. وبعد ذلك وجه العرب نيران القنص الى كل من حاول عبور الساحة. وقتل احد الاعضاء (برونو بوخهولتس) عندما حاول الوصول الى خلية ارسال الاشارات للاتصال بالمستعمرات القريبة. «في الساعة ٨,٣٠» ـ ذكر احد الاعضاء ـ «كان استعداد المعسكر كاملا. ولم يخالج احد ادنى شك في قدرتنا على الصمود. عرفنا بثقة ان هذا المكان لن يسقط».

وأرسلت قيادة الجيش البريطاني في روش بينا، التي تلقت نبأ الهجوم، ٤ مصفحات اصطدمت في الطريق الى كفار سولد بأربعة حواجز، وأطلقت النار في اتجاه كيبوتس دان المجاور، لمشاغلة رجاله ومنعهم من ارسال نجدة الى كفار سولد. وعندما وصل رجال الجيش الى المكان كانت حدة الهجوم العربي قد خفت. وانضم الجنود الى المقاتلين، وقصفوا بنيران المدافع والمدافع الرشاشة قمة الجبل، واختفى المهاجمون بالسرعة نفسها التي أتوا بها.

1411

ولا شك في ان هذا الهجوم كان بالون اختبار اطلقه السوريون لمعرفة مدى سماح البريطانيين لهم بمهاجمة مستعمرات يهودية داخل حدود البلد. وبعد ان احتج الممثل البريطاني بشدة لدى حكومة سورية على هذا الاعتداء الخطر على منطقة خاضعة لاشراف البريطانيين،

وأعلن ان «بريطانيا ستظل الدولة المنتدبة حتى ١٥ ايار/مايو وستتحمل في اثناء هذه الفترة المسؤولية الكاملة عن امن البلد»، توقف مثل هذه المحاولات على الحدود السورية حتى خروج البريطانيين من البلد.

الهجمات على كفار اوريا

اعيد استيطان كفار اوريا، التي هجرها سكانها في اثناء أحداث سنة ١٩٢٩، في نهاية سنة ١٩٤٤ من قبل ابناء الطائفة الكردية. وكانت المستعمرة صغيرة (نحو ٥٠ شخصا)، وفور انفجار الاحداث ارسلت لنجدتها فصيلة من قوة الميدان من رحوفوت بقيادة شلومو ليندر («تشيش»، الآن لاهط). وبدأ رجال النجدة مع شبان المستعمرة على الفور بتحصين النقطة. ووفقا للتصميم الذي اتبع في اثناء أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، اقيم سور دفاعي حول المستعمرة، وعدة مواقع من الاسمنت المسلح. وقام رجال قوة الميدان بدوريات حواليها، الامر الذي لم يكن سكان المستعمرة راضين عنه تماما، لخشيتهم وقوع صدامات لا لزوم لها. وكان الرجال، من حين الى آخر، يصادفون عصابات عربية ويتبادلون اطلاق النار معها. وفي اثناء قيامهم باحدى الدوريات، اطلقت النار على فصيل رجال قوة الميدان من بيت احد الوجهاء العرب المقيمين في الجوار. واقتحم الفصيل البيت، الذي فر سكانه منه، وقتل [في اثناء ذلك] اثنان من ابناء صاحب البيت. وفي اليوم التالي، في اثناء نقل احد جرحى الاشتباك الى المستشفى، وقع مرافقوه في كمين فقتل اثنان منهم (أبراهام فومرنتس، وناتان تسايخنر). لكن العرب لم يكتفوا بذلك. فأمر حسن سلامة بحشد القرويين القاطنين في الجوار، ومهاجمة كفار اوريا. وفي ١٩٤٨/١/١١، طوق العرب المستعمرة من ثلاث جهات، وبدأوا اطلاق النار غطاء لمحاولة الاقتراب منها واقتحامها. ورد المدافعون على النار من مواقعهم، وكان المدفعان الرشاشان الموجودان في المستعمرة ينقلان، من حين الى آخر، الى حيث كان يشتد ضغط العدو ومُنع من التقدم. وقتل في اثناء اطلاق النار ثلاثة من رجال الدفاع (حاييم بن يعقوب، وأبراهام يحيى من ابناء المستعمرة، وتسيون حمامي من رجال قوة الميدان). وطلب القائد باللاسلكي نجدة بالذخيرة والرجال. وفعلا، وصلت بعد الظهر طائرة «بريموس» من تل ابيب ألقت ذخيرة للمدافعين، الذين عززوا قوة نيرانهم، واستخدموا مدفع الهاون من عيار ٢ بوصة الذي كان في حيازتهم ودحروا العرب. وفي الوقت نفسه، وصلت النجدة الى المستعمرة: ٧٠ شخصا، بينهم فصيلتان من قوة الميدان من رحوفوت ومن ريشون لتسيون وفصيل من البلماح من خولده. وظهرت معهم من الجانب الآخر للمستعمرة مصفحات الشرطة البريطانية، التي جاءت الى المستعمرة التي كانت تدافع عن نفسها من اجل مصادرة سلاحها. وبدأ نقاش بين الشرطة والمدافعين. واستدعي الى المكان ضابط الشرطة دنيلي من الرملة (الذي كان معروفا بين اليهود في المنطقة باسم الرقيب «تين لي» [اعطني]). وعمل على اعادة قسم من السلاح الى اليهود. وعلى اية حال، تعلم

العرب الذين بلغت خسائرهم نحو عشرين شخصا بين قتيل وجريح، درسا ولم يتعرضوا للمستعمرة المنعزلة لمدة زادت على الشهر.

الهجوم على يحيعام

في ١/١٤، صُد هجوم عربـي كبير على غوش عتسيون (انظر ادناه، ص 1342).

1412 وكان نجاح المدافعين في صد هذا الهجوم مصدر تشجيع كبير للمستعمرات المنعزلة في جميع انحاء البلد. وبعد اسبوع من ذلك، صُد هجوم آخر في الشمال، على كيبوتس يحيعام. وكان هناك في هذا الكيبوتس الفتي وقتئذ نحو ٥٠ شخصا (منهم ٤٠ رجلا)، وأضيفت اليهم فصيلة من قوة الميدان مكونة من ٣٠ شخصا. وكان في حيازتهم: مدفع رشاش متوسط، ومدفعان رشاشان خفيفان، ومدفعا هاون من عيار ٢ بوصة، ونحو ٢٥ بندقية، و ٧ رشيشات.

وقد نفذت الهجوم على الكيبوتس «كتيبة اليرموك الثانية» التابعة لـ «جيش الانقاذ» بقيادة اديب الشيشكلي الذي عبر الحدود اللبنانية قبل اسبوعين تقريبا من ذلك (انظر ص 1365). وانضم الى الكتيبة مقاتلون محليون من القرى المجاورة.

بدأ الهجوم صباحا بنسف الجسر الواصل بين طريق يحيعام وطريق ترشيحا ـ نهاريا. وانقض المهاجمون، البالغ عددهم ٤٠٠ ـ ٥٠٠ شخص تقريبا، على النقطة مستعينين بأسلحة اوتوماتيكية ومدافع هاون من عيار ٣ بوصات. «بدأت مئات الرصاصات تئز دفعة واحدة فوق رؤوسنا» ـ كتب احد المدافعين، رفائيل اورن ـ «ـ ـ وكانت تلك اللحظات اشد اللحظات حرجا في المعركة بأسرها. ولم يعرف احد عدد المهاجمين ومكانهم. ـ ـ وفي هذه الاثناء ـ ليس ان النيران لم تتوقف فحسب، بل خيل الينا ايضا انها تزداد وتقترب. [كانت هناك] رشقات المدافع الرشاشة السريعة، ولعلعة رصاص البنادق الحادة، وانفجار القنابل اليدوية المدوي، والأسوأ من ذلك كله: لو تجرأت ورفعت رأسك، فانك لن تشاهد شيئا، وكأنما الاشجار والصخور هي التي تطلق النيران عليك. وكل ما اصفه الآن باسهاب لم يستمر اكثر من دقائق قليلة معدودة، لكن هذه الدقائق القليلة من المعركة ـ بالنسبة الى كثيرين كانت الاولى في حياتهم ـ بدت انها لطمت الرجال على رؤوسهم. واعترتهم الدهشة والذهول. لو ان العدو كان، على الاقل، باديا للعيان، لكانوا بالتأكيد ردوا باطلاق النار، لكن المشكلة هي انه لم تلح في جميع المنطقة نفس حية واحدة، ولم يكن امامك إلا ان تضرب الاشجار والاحجار ـ ـ وفي النهاية تشجع العرب، كما يبدو من «الوهم» الذي خلقوه لنا، وبدأوا أخيرا باظهار انفسهم. ورأينا خيالات بملابس خاكية تندفع من بين الاشجار في الشمال ـ على بعد ٣٠٠ متر من السور ـ وتركض في اتجاه أراضي المستعمرة المرتفعة وهي تصرخ ـ ـ «عليهم»، و «ادبح اليهود»، ونداءات مشابهة لم اتمكن من سماعها بسبب

ازيز الرصاص. «اذن، ايها الكلاب، تريدون ان تذبحوننا، تعالوا وسنريكم» ضحك احدهم وأطلقوا جميعهم كرجل واحد رشقة الرصاص الاولى نحو الخيالات المتراكضة في المنطقة». واستمر الهجوم خمس ساعات انقض العرب خلالها مرتين على المستعمرة وانسحبوا في اثر تكبدهم خسائر فادحة. «حقق طاقم مدفع الهاون عيار ٢ بوصة، الذي اصاب بدقة تجمعات المهاجين الذين تقدموا بكثافة شديدة، نتائج ملموسة» (ز. غرشون). وقتل من جراء قذائف المهاجمين اربعة من المدافعين.

واصطدمت سيارة تندر خفراء انطلقت من نهاريا الى يحيعام في ساعات الصباح بكمين في الطريق بالقرب من الكابري. واستشهد في المعركة التي نشبت بين رجال الكمين والخفراء، اربعة من الخفراء.

وقبل منتصف النهار انسحب العرب وهم يجرون قتلاهم وجرحاهم. ووصلت بعد ذلك قوات الجيش والشرطة، وسيرت دوريات في المنطقة. وكانت هذه هي الهزيمة الاولى لـ «جيش الانقاذ» في محاولاته لمجابهة القوة الدفاعية للييشوف العبري.

الهجوم على طيرات تسفي

بعد شهر تقريبا من الهجوم على يحيعام، حاولت وحدة اخرى من «جيش الانقاذ» ــ «كتيبة اليرموك الاولى» ــ شن هجوم على مستعمرة يهودية معزولة وابادتها. واختيرت هذه المرة لهذه العملية الاستعراضية مستعمرة طيرات تسفي، التي كانت العصابات العربية قد فشلت في محاولاتها لابادتها قبل نحو عشرة أعوام من ذلك في ذروة أحداث سنة ١٩٣٨ (انظر المجلد الثاني، ص 866). وقد تطورت طيرات تسفي في السنوات العشر التالية لذلك الى مستعمرة مزدهرة، محاطة بالمزارع والاحراج وبرك السمك. وكانت النقطة نفسها محاطة بسياج معقد من الاسلاك الشائكة، وراءه وحواليه من كل الجهات مواقع من الاسمنت المسلح.

1413

وجُلب الجنود العرب من قواعدهم بالسيارات. وأقامت قيادة الهجوم مقرها في قرية السامرية. وأرسلت من هناك وحدة نسفت في منتصف الليل الجسور على الطرق المتجهة من طيرات تسفي الى الشمال، وذلك لقطع الطريق امام اية تعزيزات من المستعمرات الواقعة شمالي سهل بيت شان. وفي مكانين مشرفين على المستعمرة من جهة الغرب وضع رشاشان، ووضعت ستة مدافع هاون فرنسية عيار ٦٠ ملم من ثلاث جهات مشرفة على ساحة المستعمرة. وفي الساعة الثانية إلا ربعا، من فجر ١٩٤٨/٢/١٦، بدأت هجمات مشاغلة على مستعمرتي سديه إلياهو وعين هنتسيف، كان الهدف منها ــ كما يبدو ــ تضليل المدافعين في طيرات تسفي عن الوجهة الحقيقية للقوة المهاجمة. لكن جهاز الاستخبارات التابع لـ «الهاغاناه» حذر قائد طيرات تسفي، في الثالثة ليلا، بصدد استعدادات العرب لمهاجمتها، فاستعد رجال الدفاع في مواقعهم لمواجهة المهاجمين. وفي الساعة الرابعة ليلا تقريبا، هوجمت

1414 طيرات تسفي بنيران البنادق والمدافع الرشاشة من جهة الغرب، وبعد نحو نصف ساعة فتحت نيران مدافع الهاون على النقطة، واتسعت الى جهة الشمال. واستمر القصف حتى شروق الشمس. وقبل عشر دقائق من شروق الشمس، بدأ مطر قوي يهطل فأدى الى ابطاء حركة المهاجمين. وبدأ العرب بهجوم عام من جميع الجهات، بينما واجهتهم نيران قوية من مواقع المستعمرة. وتكبدت مجموعة من المهاجمين، انحدرت من تل ابو فرج في محاولة للتقدم الى النقطة، خسائر فادحة فتفرقت. وأسكت مربض مدفع رشاش الى الجنوب من النقطة بعد ان اصابته قذائف مدفع هاون. وفي الثامنة والنصف، بدأ العرب بالانسحاب. وخرج رجال طيرات تسفي وأسروا ثلاثة من المهاجمين. ووصل الجيش البريطاني الى المكان، وطلب من العرب اخلاء مواقعهم. وكان هذا بالنسبة الى قيادة «كتيبة اليرموك الاولى» بمثابة انقاذ، فنفذت بسرور طلب البريطانيين. وبلغت خسائر المهاجمين ٦٠ قتيلا وعددا كبيرا من الجرحى. وقتل من المدافعين عن المستعمرة شخص واحد.

وكانت هذه آخر محاولة للعرب لاحتلال مستعمرة يهودية، من دون الاستعانة بسلاح اثقل من ذلك الموجود لدى المدافعين. واضطر «جيش الانقاذ» الى التنازل عن تحقيق انتصارات سهلة. ولم يسمع له صوت في البلد لمدة تزيد على شهر ونصف الشهر، حتى الهجوم على مشمار هعميك (انظر ص 1564).

اعمال انتقامية وغارات وكمائن

في بداية حرب الاستقلال كانت «الهاغاناه» في وضع مختلف تماما، من ناحية موقفها وقدرتها على القيام بأعمال انتقامية وردود، عما كانت عليه قبل ١١ عاما في اثناء أحداث سنة ١٩٣٦.

أولا، كان في تصرف «الهاغاناه» وحدات مدربة تستطيع تنفيذ عمليات انتقامية ضد قرى عربية والتسلل الى قلب المناطق العربية؛ ثانيا، كان قد تقرر ــ منذ نهاية فترة الاحداث سنة ١٩٣٩ ــ القيام برد ملائم على كل اعتداء عربي، سواء لمعاقبة المهاجمين او لمعاقبة القاعدة التي انطلقوا منها، مع الامتناع ــ قدر الامكان ــ عن المساس بالاشخاص غير المحاربين (النساء والشيوخ والاطفال). ولم تكن خطط «الهاغاناه» («الخطة ب» و «خطة ١٩٤٦») قائمة على الدفاع السلبي، وانما على ضربات ساحقة ضد قواعد العدو، لاخماد النار في مهدها. «ليس هناك اي تفكير بالعودة الى سياسة ضبط النفس التي تبدو انها كانت متبعة في اثناء أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩» ــ كتب مكتب الاعلام في القدس الى اعضاء المنظمة في المدينة في بداية ايام الحرب ــ «لقد اعلنا مرارا، ونعود فنؤكد الآن انه في كل مكان سيدفع المعتدون ثمنا غاليا لاعتداءاتهم».

لكن لا مجال لمقابلة هذه العمليات الانتقامية بأعمال المنظمتين المنشقتين، سواء من

زاوية ان المنشقين لم يعترفوا بالقيود الخلقية المذكورة، او من زاوية ان اعمالهم لم تتم في اطار دفاع اليشوف عن نفسه وأعماله القتالية، وبالتالي كان من المحتمل ان تسبب في عثرات وكوارث مريرة. ويكفي ذكر الشهداء اليهود الذين سقطوا بلا جدوى في اعقاب اعمال المنشقين في مشاريع مصافي التكرير (انظر ص 1543).

إلا ان القيادة السياسية، التي استندت الى معلومات خبراء السياسة العربية وتقديراتهم، فرضت في بدايات المعركة قيودا شديدة على الاعمال الانتقامية من خلال الافتراض ان الاضطرابات في البلد ليست سوى اعمال من فعل المتطرفين من بين العرب، وما دام هناك امل باحتمال ان يحافظ المعتدلون العرب على سيطرتهم على الشارع العربي، فان من الافضل عدم اذكاء النار بأعمال انتقامية. في ١٩٤٧/١٢/٧، اخطر د. بن ـ غوريون المندوب السامي: «ليس ثمة حادث واحد تعرض فيه عربي للهجوم من جانب «الهاغاناه». ان منظمة «الهاغاناه» هي قوة منضبطة، ولديها أوامر واضحة بعدم مهاجمة العرب. وليس ذلك فقط، وانما عليها ان تدافع عن العرب فيما لو هاجمهم يهود عديمو المسؤولية. واذا كان هناك عرب قد قتلوا، فانهم اولئك فقط الذين شاركوا في شن هجمات علينا». وبهذه الروحية قررت القيادة القطرية، في جلستها بتاريخ ١٩٤٧/١٢/١٠، انه يمكن «تجاوز قيود خط «الهاغاناه» الصارم، والانتقال الى الدفاع الفعال والى ترتيبات ردود وعقوبات، فقط في المكان والزمان اللذين نتعرض فيهما للهجوم». وبناء على ذلك، تصرفت قوات امن اليشوف «بضبط نفس صارم واكتفت بالدفاع في وجه هجمات المشاغبين» («هآرتس»). وكانت هناك ايضا مستعمرات سادت فيها معارضة للأعمال الانتقامية، وتطلعت بقلق الى الميول العدوانية لوحدات قوة الميدان والبلماح التي ارسلت لمعاونتها. وفي مقابل ذلك، سعت الوحدات المجندة التابعة لـ «الهاغاناه» لاستخدام قوتها وتلقين القتلة، الذين تسلطوا على الشارع العربي، درسا. كما كان هناك من اعتقدوا ان ضعف ردات فعل اليهود قد يخلق انطباعا في العالم السياسي بأن اليشوف غير قادر على المحافظة على امنه وفرض النظام حتى في المناطق التي حددت مناطق تابعة للدولة اليهودية. وادعى المشاركون في اجتماع لجنة الامن، في ١٩٤٧/١٢/١١، انه «اذا اكتفينا لمدة عشرة ايام بالدفاع فقط، فانهم سيبدأون بعزو ذلك الى الضعف» (ي. غاليلي). «اذا التزمنا ضبط النفس فسوف ندفع ثمن ضبط النفس هنا وفي الخارج» (إ. أليسار). وأحيانا كان ينشأ توتر معين بين اصحاب وجهات النظر المختلفة، لم ينته إلا عندما اتضح بعد مرور عدة اسابيع انه ليس للمعتدلين وزن حقيقي في مجرى الاحداث في الشارع العربي، وتبلورت سياسة عمليات انتقامية مدروسة، كالت فيها «الهاغاناه» الصاع صاعين ردا على اعتداءات العرب.

1415

وتشكل العملية الانتقامية ضد قرية خصاص، في سهل الحولة، نموذجا للوضع النفسي وللعلاقات في الايام الاولى للأحداث. ففي ١٢/١٥، هاجم بعض السفاحين مركبة خرجت من كيبوتس معيان باروخ وقتلوا الخفير زلمان وينتر. وكان ذلك هو حادث القتل الاول في

منطقة سادت فيها حتى ذلك التاريخ علاقات سلام مع العرب. وقادت الآثار الى قرية خصاص. وطالب رجال البلماح في المنطقة برد فوري: «قتل يهودي هو اباحة الدم اليهودي» («كتاب البلماح»). «كان لنا نقاش مرير مع كثيرين من سكان المكان الذين خشوا عقوبات شديدة من جانب الحكم المعادي، وأملوا بأن نستطيع تسوية الامور في الجليل عن طريق التفاهم» ــ روى قائد سرية البلماح في المنطقة. وعندما توجهنا بطلب ملح الى قيادة «الهاغاناه» فقط «استصدرنا من المرتبة العليا أمرا بتنفيذ عمليات انتقامية ضد قرية خصاص» (المصدر السابق). وقد صدر الاذن مرفقا بالقيود المعتادة. وتقرر ضرب منزل المحرض الرئيسي في القرية، الامير فاعور. وتسلل الرجال الى القرية في الليل، في ١٢/١٨، ونسفوا البيوت التي تقرر تدميرها. «اندفعت قائدة جماعة شابة من جنودنا» ــ روى قائد السرية ــ «كانت مشاركة في العملية، بجرأة وثقة، من السيارة الى البيت المحدد لها لالقاء قنبلة يدوية بداخله ولاقتحامه مع رجالها. لكن ارتفع من البيت بكاء رضيع فجفلت الشابة. لقد قيل لها بوضوح في امر العملية: ‹يجب ضرب رجال العصابة والمحرضين فقط›، وهنا رضيع لا ذنب له... ولم تنفذ مهمتها. ومع انه كان هنا اخفاق عسكري فانها لم تحاسب لاحقا على ذلك». لكن اتضح في اليوم التالي انه «لسوء الحظ انهار بسبب قوة الانفجارات كوخ كان فيه اطفال» (بيان «الهاغاناه»). وفرضت الشرطة منع تجول لمدة ٣٦ ساعة على وسائط النقل اليهودية في كل المنطقة المجاورة الى الشمال من روش بينا.

ورافقت عثرات كهذه ايضا العمليات الانتقامية التي جرت في منطقة القدس، كما في نسف فندق «سميراميس» (انظر ص 1393)، الذي قتل فيه القنصل الاسباني. وارتأت القيادة السياسية نتيجة لذلك ان من واجبها ان تنقل قائد «الهاغاناه» المسؤول عن العملية الى مكان آخر. لكن بمقدار ما اتسعت الحرب واشتدت اتضح ان من غير الممكن في اثناء الحرب تفادي مجازفات كهذه، وتفادي إلحاق اصابات غير مقصودة بأشخاص غير محاربين يتصادف وجودهم في منطقة المعارك. 1416

«نحن حريصون جدا على اتباع اسلوب معاقبة المجرمين، ونحاول جهدنا ألا نمس الابرياء» ــ كتبت نشرة «الهاغاناه» في حيفا، «لحفيرنو» [الى رفاقنا] ــ «وينبغي إدراك مدى صعوبة تنفيذ هذه المهمات الاضافية الملقاة على عاتق «الهاغاناه» ــ ان ردات الفعل الانتقامية، حتى لو خطط لها ونفذت بكل دقة وحذر، يمكن احيانا ان تصيب ايضا اشخاصا ابرياء».

وكلما اشتدت الحرب وهنت هذه القيود، وحدثت هنا وهناك عمليات انتقامية بصورة تلقائية. فبعد قتل الخفراء السبعة في يازور ــ في ١/٢٢ ــ مباشرة، نفذ رجال «الهاغاناه» في المنطقة «عمليات انتقامية بصورة تلقائية جدا بمبادرة منهم ضد وسائط النقل والمسافرين العرب على طريق بيت دجن ــ يازور».

وتشكل العملية ضد قرية ابو شوشه، الواقعة بالقرب من غيزر، نموذجا لعملية انتقامية

مدروسة. ففي ١٩٤٨/٣/٢٠، قتل نتيجة كمين في حقول ابو شوشه حارس حقول مستعمرة غيزر زروبابل فبزنر. واتضح ان عملية القتل نفذتها عصابة من شرق الاردن، متمركزة في قرية القباب، بمساعدة من رجال ابو شوشه. وصدر امر الى قيادة الكتيبة ٢ التابعة للواء «غفعاتي» بالقيام بعملية انتقامية. ومن اجل ذلك، حشدت في مستعمرة غيزر، فجر يوم ١٩٤٨/٣/٣١، قوة مشكلة من فصيلتين من قوة الميدان من لواء «غفعاتي» وثلاث جماعات من رجال ناعان وغيزر. وبدأت العملية بعد منتصف الليل. وكان الهدف نسف منزل قائد العصابات في القرية ومبنى البئر الخاصة بالقرية، ونصب كمين على الطريق بين ابو شوشه والقباب، تحسبا لمسارعة رجال هذه القرية ورجال العصابات في شرق الاردن الى نجدة ابو شوشه. ونسف خبراء التدمير البيت والبئر. واصطدمت مجموعة تعزيزات اتت من القباب برجال الكمين الذين فجروا ألغاما فأصابوها. ونشبت على الفور معركة بين أفراد الكمين ورجال العصابات اصيب فيها شاب من قوة الميدان من رحوفوت، يهوشواع بورغين، بجروح مميتة.

الغارة على سعسع

توصلت قيادة «الهاغاناه» بسرعة الى ادراك انه لا يكفي القيام بعمليات ردا على اعمال بعد وقوعها، وانما ينبغي البدء بعمليات ترغم العرب على الدفاع عن انفسهم تجاه اليهود وتردعهم عن القيام بعمليات الهجوم. وبرزت ضرورة اتباع هذا الخط على اوضح ما يكون بعد ان عاد العرب فأعلنوا انهم في ٢/١٥ سيشنون هجوما واسع النطاق على اليشوف اليهودي. وكانت هناك ايضا ضرورة داخلية لمثل هذه العمليات بعد سقوط الـ ٣٥ في الطريق الى كفار عتسيون. «بدأت همسات» ــ ذكر موشيه كالمان في شهادته ــ «انه كان من الجنون وعدم المسؤولية ارسال الرجال الى عملية مستحيلة التنفيذ، اذ انه لا يمكن قطع مسافة كهذه في ليلة واحدة، وما شابه ذلك. وكان لا بد من البرهنة، لأنفسنا وللآخرين، ان في الامكان قطع مسافة اكبر في منطقة العدو والعودة بسلام بعد تنفيذ عملية ناجحة». وبناء على ذلك، كُلِّفت هيئة اركان البلماح تنفيذ عدد من العمليات جمعت كلها تحت اسم «عملية إحياء ذكرى الـ ٣٥». وكان هدفها: «أ ــ انتزاع زمام المبادرة من يد العرب وارغامهم على رصد سلاح ورجال لحراسة قراهم، وفرض حالة من القلق الدائم؛ ب ــ البرهنة، لانفسنا وللييشوف، ان في الامكان التسلل الى منطقة العدو الى عمق يتجاوز كثيرا مدى ١١ كلم (هارطوف ــ كفار عتسيون) وتحقيق الهدف والعودة بسلام» (م. كالمان). وتضمنت هذه العمليات تدمير ستة جسور على الطرق المفضية الى البلد، وهي: جسر في الشارع الرئيسي الى الشرق من المطلة؛ جسر في الطريق الى عديسة؛ جسر بالقرب من سعسع؛ جسر الدان؛ جسر الحاصباني؛ جسر شيخ حسين قبالة كيبوتس معوز حاييم. وقد نسفت كل الجسور على يد رجال كتيبتي البلماح الاولى والثالثة.

1417

وكانت اصعب هذه العمليات، نسف الجسر الواقع قبالة معوز حاييم، الذي كان «الفيلق العربي» مكلفا حراسته. فقد تقرر قيادة سيارة محملة بـ ٣٠٠ كلغ من المواد المتفجرة الى ما فوق الجسر. وتطوع اثنان من رجال البلماح لقيادة السيارة الى هدفها. واندفعا بها الى الجسر، تحت نيران الحراس الاردنيين، وشغلا جهاز التفجير، وقفز واحد الى نهر الاردن ونجح في الوصول الى الشاطىء، بينما توفي الثاني ــ تسفي بروتسل ــ متأثرا بجروحه.

وفي الليلة ذاتها، نفذت الغارة على قرية سعسع في قلب الجليل الاعلى. وكانت القرية واقعة على بعد ٢٠ كلم من اقرب مستعمرة يهودية اليها: عين زيتون. وكانت تستخدم قاعدة لمقاتلين عرب من ابناء القرية ومن الغرباء، وكانت بيوتها عبارة عن مساكن حجرية محصنة، ولكونها بعيدة عن اية مستعمرة عبرية لم يهتم سكان القرية بتعزيز الحراسة عليها. وكُلِّفت سرية البلماح التابعة للكتيبة الثالثة، التي خرجت للقيام بالعملية بقيادة موشيه كالمان، التسلل الى القرية «ونسف عشرين بيتا واصابة اكبر عدد ممكن من المقاتلين». واستعدت السرية بنشاط محموم للعملية. وحشدت الاسلحة من جميع سرايا الكتيبة في جبل كنعان. وجرت خياطة الاحزمة وأكياس الرصاص في اللحظة الاخيرة. وجمعت «خوذ فولاذية من أنواع مختلفة وغريبة» («كتاب البلماح»). وقامت طائرة بدور مهم في الاعداد للحملة، اذ 1418 قامت قبل عدة ايام بجولة استطلاعية صورت في اثنائها القرية والطريق المفضي اليها. وساهم جهاز اتصال اعطي للمنطلقين في منحهم الثقة في طريقهم خلال الليل. وبعد رحلة سريعة في منطقة تحولت الى وحل عميق بسبب الامطار الشديدة، وصل الرجال في منتصف الليل تقريبا الى جوار القرية. وبعد استراحة قصيرة، اقتحموا القرية ووضعوا عبوات المتفجرات في البيوت، وشغلوا اجهزة التفجير. وخلال ثماني دقائق انتهت العملية. وأصيب نحو ١٠ بيوت، منها ٦ تضررت بشكل لا يمكن معه اصلاحها. وقتل عشرات من العرب. وفتح المقاتلون الموجودون في القرية النار من دون تمييز في جميع الاتجاهات. وعادت الوحدة سالكة واديا قريبا عبر المطر والوحل ووصلت مع الفجر، بعد ١٥ ساعة امضتها في الذهاب والاياب، الى عين زيتون وهي خائرة القوى، لكن بسلام، حاملة جريحين. «اوقعت العملية» ــ لخص القائد الوضع ــ « ذعرا كبيرا في افئدة سكان القرى. ومما لا شك فيه ان قوات عربية كبيرة ستضطر الى ملازمة قراها».

وتكامل مع هذه العمليات الانتصار على مهاجمي طيرات تسفي. «ان العدو الذي اعلن يوم ٢/١٥ موعدا للهجوم علينا» ــ اعلن امر يومي صدر عن هيئة اركان البلماح ــ «تلقى إنذارا بمدى استعداد «الهاغاناه» وقدرتها».

الجليل الاسفل عرضة لنيران العصابات

كانت لكل منطقة مشكلاتها الخاصة وحربها الخاصة بها. ويمكن اخذ منطقة المستعمرات في الجليل الاسفل نموذجا لنمط الحياة في تلك الفترة في منطقة زراعية يهودية. في البداية، لم تنجرف هذه المنطقة في دوامة الاحداث. لكن في كانون الثاني/يناير، تمركز في جوار الناصرة رئيس العصابة ابو ابراهيم، الذي كان مرتبطا بالمفتي، وأراد ان يعرض قواته امام وحدات «جيش الانقاذ» التي عسكرت في الجليل الاعلى والسامرة. وأقام مقر قيادته في كفركنا؛ وفي عين ماهل المجاورة عسكرت فصيلة من قواته بقيادة العسكري الالماني (المعروف بلقبه: «ماكس»). وصدرت الاشارة الاولى في ١٩٤٨/١/١٩، عندما قتل في أراضي خربة ميسر سائق الجرار دوف زليغمان من عين دور. وتلت ذلك سلسلة من الاعتداءات على الطرقات، ونسف جسور ــ بينها جسر وادي شرّار الواقع بين كفار تافور والعفولة، الذي نسف في ٣/١٤. وكان هدف العصابات تعطيل حركة النقل اليهودية في المنطقة. وبسرعة اضطرت السيارات اليهودية الى الخروج في قوافل بمرافقة حرس سيّار مؤلف من الخفراء.

وفي ٢/٧، شنت غارة على عين ماهل، شارك فيها رجال دورة قادة فصائل تابعون لكتيبة قوة الميدان «براك» كانوا يعسكرون في كفار كيش، وفصيل من احتياطيي البلماح من بيت كيشت. وكان عدد الجميع نحو ٧٠ شخصا. وكانت قاعدة الانطلاق كيبوتس بيت كيشت. وبحلول الليل اقتحم المهاجمون قرية عين ماهل، ونسفوا بيتا واحدا، وألقوا قنابل يدوية داخل بيوت اخرى. وفرّ العرب، تحت وقع المفاجأة، من القرية تاركين وراءهم عشرة قتلى. وبعد نصف ساعة تقريبا، اعطيت الاشارة للانسحاب بسرعة. وكانت هذه هي اول عملية لقوة الميدان في المنطقة، واعتبرها الرجال انجازا كبيرا.

وفي تلك الفترة اغلق سكان لوبية الطريق الى طبريا. وبعد معركة مع وحدة من الحرس السيار، في ٢/٢٤، توقفت حركة النقل على الطريق وحوّلت الى الطريق غير المعبد الواصل بين كفار تافور ويفنيئيل ــ كينرت.

وتقرر شن غارة على قيادة ابو ابراهيم في كفركنا. وكُلِّفت سرية البلماح من الكتيبة الاولى تنفيذ الغارة، بمشاركة وحدة من قوة الميدان من كتيبة «براك» («غولاني») كُلِّفت قطع الطريق على تعزيزات العدو من جهة الناصرة. وفي فجر يوم ٣/١١، اقتحم المقاتلون القرية، لكنهم اصطدموا بنيران قوية فاضطروا الى الانسحاب. واندفع العرب لمطاردة المقاتلين المنسحبين. «كانت هذه هي اول مرة يطارد فيها العدو وحدة مهاجمة بعد انسحابها لمسافة كبيرة الى هذا الحد» ــ ذكر احد المشاركين في المعركة.

1419

وعزز فشل الهجوم على كفركنا ثقة العرب بأنفسهم، وتآمروا لمهاجمة بيت كيشت، التي اشتهر اعضاؤها من خريجي البلماح في المناطق المجاورة بأنهم «شاطرين». وفي ٣/١٦، خرج من بيت كيشت جماعة بالم [دوريات مقاتلة] بقيادة علي بن تسفي للقيام بجولة استطلاعية في الجوار. وفي شمالي غربي المستعمرة اصطدم بكمين للعدو، وخلال ٢٠ دقيقة

قتل سبعة من رجال الجماعة، بعد ان دافعوا عن انفسهم قدر استطاعتهم. وفر واحد منها فقط الى بيت كيشت. وبسرعة نشبت في المنطقة معركة كبيرة. واستنجد العرب باخوتهم في القرى المجاورة. ووصلت الى بيت كيشت وحدة «براك» ودورية مقاتلة من غور الاردن معها مدفع رشاش فرنسي ومدفع هاون عيار ٣ بوصات مع ١٥ قذيفة («كل السلاح الثقيل الموجود في الجوار»). واستمر تبادل اطلاق النار حتى المساء. وحاول رجال بيت كيشت ارسال وحدات للوصول الى المكان الذي قاتلت فيه الدورية المقاتلة على امل انقاذ عدد من أفرادها، لكن سقط في هذه المحاولات ثلاثة شهداء آخرون. وسقط ايضا من العرب قتلى وجرحى. واستعيدت جثث الشهداء بعد مفاوضات مع العرب بواسطة سلطات القضاء.

«كانت تلك اشد الايام كآبة في المنطقة» ـ كتب احد رجال بيت كيشت في مذكراته ـ «عززنا الاستعدادات واليقظة. وخيل الينا ان مصيرا مشابها يحتمل ان يحل بباقي المستعمرات ـ ـ لكن عرفنا ان لا خيار ولا مناص. صبرنا على مصيبتنا، عضضنا على شفاهنا وواصلنا الصمود في الاختبار المصيري».

وفي اثر مهاجمة سيارة شحن بالقرب من أنقاض الجسر على وادي شرّار ومقتل فتاتين من غفات، كانتا عائدتين من دورة اتصال في يفنيئيل (١٩٤٨/٣/٢٤)، نفذت عملية انتقامية في جوار وادي شرّار. وقد دمرت في هذه العملية مضارب البدو، وهرب النساء والاطفال في اتجاه دبورية. وبعد ان تم احتلال مواقع مشرفة في هذا القطاع الخطر، اصبحت حركة النقل تمر عبره بأمان.

تجددت المعارك في الجليل الاسفل في بداية ايار/مايو، عندما حاولت القوات المعسكرة في المنطقة ـ رجال لواء «غولاني» ـ السيطرة قدر المستطاع على المنطقة استعدادا ليوم الغزو المقترب. وحشدت لهذه العملية كتيبة «براك» التابعة للواء، ووحدة مشكلة من ابناء المستعمرات في الجليل الاسفل. وفي هجوم قوي تم مع الفجر، احتلت قرية الشجرة العربية في ٥/٦، وفرّ منها سكانها تاركين وراءهم قتلاهم. وفي الوقت نفسه لازمت وحدة اخرى قرية لوبية وقطعت الطريق منها الى الشجرة لمنع وصول تعزيزات من القرية. وفي الساعة الثامنة شن العرب هجوما مضادا قويا من ناحية كفر كنا وطرعان. ونشبت معركة استمرت طوال اليوم، لكن بحلول الظلام انسحب العرب وسيطرت قواتنا على القرية.

ولم تتطور الامور على هذا النحو في منطقة عشائر الصبيح، وهم بدو الطور الذين ضايقوا اليهود كثيرا منذ ايام الاستيطان الاولى. وكان هؤلاء البدو قد انتقلوا، في السنوات الأخيرة لحكم الانتداب، الى مكان اقامة دائمة خاص بهم وضربوا فيه. وقد فروا من قريتهم في اتجاه الناصرة ودبورية بعد الهجوم الاول. وتفرق المقاتلون اليهود، «الذين كان عدد منهم غير مدرب وغير منضبط» («ايلان وشيلح»)، في المنطقة وبدأوا ينهبون بيوت العرب المهجورة. «لم تسيطر القيادة في الميدان على الاندفاع الخطر وراء غنائم لا قيمة عسكرية لها» ـ كتب ناحوم شبيغل (غولان) الذي كان آنذاك ضابط العمليات في لواء «غولاني» ـ «وبدلا

من التأهب والتمركز في المنطقة المحتلة واعداد مرابض استعدادا لهجوم مضاد، تراكض الرجال في المنطقة المكشوفة من دون اتخاذ جانب الحذر» («ايلان وشيلح»). وفاجأ الهجوم 1420 العربـي المضاد، الذي بدأ في الثامنة والنصف وانضم فيه الى البدو قرويون من عين ماهل ودبورية، الرجال وهم غير مستعدين، ولم يتمكنوا من الانسحاب من المنطقة التي انصبت عليها النيران من التلال المجاورة. «فقدت القيادة السيطرة على الرجال» (المصدر السابق)، وتساقط القتلى والجرحى في انحاء مختلفة من القرية. واستدعيت طائرة الى المكان استخدمت مدفعا رشاشا ضد وحدات العدو المتقدمة. وأصبح من الضروري طلب تعزيزات لايقاف التقدم العربـي في اتجاه بيت كيشت. ودفع المقاتلون ثمن عدم اتخاذهم الحيطة، ١٨ شهيدا وعددا كبيرا من الجرحى. لكن العرب لم يصمدوا طويلا في المنطقة فهجروها. «انجز الهدف بخسائر لا مبرر لها، نجمت عن مستوى التدريب المتدني والانضباط السقيم» ــ ذكر احد المقاتلين (المصدر السابق). «كانت تلك الساعات مثالا كلاسيكيا لتحول نصر الى هزيمة، نتيجة عدم استغلال النجاح الاول» ــ كتب ناحوم غولان. «شكلت هذه المعركة والهزيمة التكتية الخاصة، بالنسبة الينا، درسا مريرا» («ايلان وشيلح»).

وبعد ستة ايام من ذلك، دخلت وحدات «غولاني» قرى سيرين وعولم وحدثة ومعذر، التي هجرها سكانها خوفا من اليهود. وخلا الجليل الاسفل اليهودي من العرب، لكن بقيت الى الشمال منه تجمعات العدو بكامل قوته؛ في لوبية، وكفر كنا، والناصرة، وصفورية، واستمرت في تهديد المستعمرات الى ان احتل الجليل الاسفل برمته في صيف سنة ١٩٤٨.

أحداث شمالي البحر الميت

كان مشروع البوتاس في شمالي البحر الميت وجنوبيه (سدوم) احد المشاريع الصناعية الكبرى في البلد. وعند نشوب حرب الاستقلال كان يعمل فيه ٥٠٠ ــ ٦٠٠ عامل وموظف يهودي. وكانوا، في معظمهم، يقيمون بصورة موقتة في مبان وأكواخ بمنطقة المشروع، ويعودون ايام السبت والاعياد وأيام عطلهم الى عائلاتهم في القدس. وكان يسكن عدد قليل منهم في حي العمال الصغير المجاور للمشروع. وكان يقع الى الشمال من منطقة المشروع كيبوتس بيت هعرفاه، الذي جرت فيه تجارب مهمة لتطوير اقتصاد زراعي عن طريق ازالة ملوحة الارض بالشطف.

وقد استخدم بيت هعرفاه، منذ تأسيسه سنة ١٩٣٩، قاعدة لتدريبات «الهاغاناه» والبلماح. وكانت فصيلة تابعة للبلماح تعسكر في الكيبوتس بصورة دائمة. ومن حين الى آخر كانت مجموعات من رجال البلماح تأتي الى المكان لاجراء تدريبات في المناطق الصحراوية المجاورة. وفي ليل الجسور (انظر ص 88)، استخدم الكيبوتس نقطة انطلاق لوحدة البلماح التي نسفت جسر أللنبـي.

وفي جنوبـي البحر الميت كان يوجد نحو ٢٠٠ ـ ٢٥٠ عاملا يهوديا، بينهم سرية مشكلة من اعضاء هكيبوتس هميئوحاد، الذين حلموا بالاستيطان في الصافية (تسوعر) في جنوبـي شرقي البحر الميت. وكانت توجد هنا ايضا قاعدة تدريبات لـ «الهاغاناه»، اساسها ميدان للرمـاية كانت تجيء اليه للتدريب بين فترة وأخرى وحدات من البلماح وقوة الميدان.

وكان يعمل في المشروعين نحو ٥٠٠ عامل عربـي دائم، باستثناء العمال الموسميين الذين كان يصل عددهم احيانا الى مئات عديدة.

وكان المبادر الى اقامة المشروع ومؤسسه ومديره هو موشيه نوفومايسكي، لكن ممول المشروع كان شركة بريطانية، قسم كبير من المساهمين فيها يهود. وقد تطور بصورة خاصة في الاربعينات، ووصل انتاجه الى ١٠٠,٠٠٠ طن من الفوسفات و ١٠٠٠ طن تقريبا من البرومين. وكان المشروع يحتل مكانة بارزة في اقتصاد البلد، سواء بصفته مصدر دخل لآلاف من العائلات او لجهة مساهمته في التصدير.

وفي الاشهر الاولى من حرب الاستقلال، كان للمشروع وضع خاص من الناحية الامنية. وقد وثقت ادارة المشروع بأن السلطات ستقدم مساعدتها التامة لمشروع بريطاني. كما اقامت علاقات صداقة بحكومة شرق الاردن والملك عبد الله، اللذين كانا يتلقيان جزءا كبيرا من مدفوعات الشركة لقاء حق استثمار ثروات البحر الميت. 1421

وفعلا، لم تتعرض المشاريع لاعتداءات العصابات العربية. لكن القوافل بين البحر الميت والقدس كانت عرضة للاعتداء من جانب العصابات العربية في صحراء يهودا. ولذا خصص حرس من رجال البلماح (السرية الثامنة) لمرافقة القوافـل. وكانت الاسلحـة (رشيشات ستن وقنابل يدوية) تخفى في ملابس الفتيات اللواتي يرافقن القوافل. وفيما بعد جهز مخبأ سري خاص لمدفع رشاش في عارضة خشبية من عوارض سكة الحديد. وفي اثر تعرض القوافل التي كانت تنقل الرجال والبوتاس من البحر الميت الى القدس لعدة هجمات (قتل في احداها قائد منطقة سدوم، من قدامى رجال «الهاغاناه»، ليفي شبيغلمان)، نقلت مهمة حراسة القوافل، في ١٩٤٧/١٢/١٤، الى الجيش البريطاني الذي كان يرافقها بجنود، وبمصفحات، وبمدافع رشاشة، وحتى بطائرات استطلاع. لكن على الرغم من ذلك، فقد استمرت المواكبة المسلحة للبلماح، كي لا يقع حادث من شأنه ان يجد المسافرون في القافلة انفسهم خلاله غير قادرين على الدفاع عن النفس. ولم تكتف قوافل شركة البوتاس بنقل الخضروات والاسماك من بيت هعرفاه الى القدس المحاصرة فقط، بل نقلت ايضا كميات من الاسلحة والذخيرة من القدس الى البحر الميت.

واهتم فرع «الهاغاناه» في شمالي البحر الميت بأمن العمال في المشروع، وانشأ مخابـىء سرية صغيرة للسلاح في الورش وفي داخل منطقة المشروع. وقد اتخذت ادارة الشركة موقفا شديد التحفظ من نشاطات الفرع، نظرا الى ثقتها بأن الشرطة والجيش البريطانيين سيحميان المشروع، وأن من شأن استعدادات «الهاغاناه» ان تعود بالضرر اكثر من الفائدة، اذا ما شعر

بها البريطانيون والعرب. وأيضا عند نشوب الحرب لم تخصص الادارة أموالا ووسائل لتعزيز الدفاع عن المكان، بل انها حتى عارضت عمليا تحصين المكان. ومع ذلك بُذلت جهود لشراء ارز وزيت وطحين وتبغ من بدو المنطقة وتخزينها لأوقات الشدة. أما في بيت هعرفاه فقد استعد الاعضاء قدر استطاعتهم، فأقاموا تحصينات، وزرعوا ألغاما، وخزنوا مؤونة، واشتروا سلاحا وتدربوا للدفاع عن النقطة. وقد نوهت لجنة هيئة الاركان العامة، التي زارت المكان في بداية ايار/مايو، بأن مستعمرة بيت هعرفاه هي الافضل تحصنا في البلد.

ان وضع المشروع الخاص هذا انتهى في ١٩٤٨/٤/١١، عندما اوقفت السلطات ارسال الحرس لمرافقة القوافل من البحر الميت، وانقطع الاتصال البري بين المشروع في الشمال وبين القدس.

ان لمنطقة البحر الميت قيمة استراتيجية مهمة في الدفاع عن القدس والبلد برمته. وكان في امكان قوة عسكرية مهمة معسكرة هنا بسهولة تخريب جسر أللنبي والطريق الموصل الى القدس والغاء امكان تحرك جيش من شرق الاردن الى القدس. ولذا، تقرر في البداية تعزيز قوة البلماح في المنطقة، وبعد ذلك ارسال سرية من قوة الميدان اليها من القدس. وقد وصلت فصيلة واحدة من هذه السرية الى المنطقة في بداية ايار/مايو، وانهمكت في التحصينات والتدريبات.

عمليا كان وضع «الهاغاناه» في شمالي البحر الميت اخطر كثيرا من الناحية الداخلية. فالعلاقات بين العمال والشركة لم تكن سليمة خلال كل سنوات قيامها. ففي بداية ايار/مايو، اعلنت شركة البوتاس صرف معظم العمال ابتداء من ١٥ ايار/مايو. وبما انه كان من غير الممكن اعادتهم الى القدس، فقد بقي الرجال في المكان. وأنهيت هذه الخطوة من جانب الشركة علاقة السكان بالمكان تماما. وأوقفت ايضا امدادات المياه والكهرباء وعمل المطبخ.

«جميعهم يريدون الفرار» ـ كتب تسفي شمائيلي، قائد المنطقة في تلك الفترة، الى قيادة «الهاغاناه» في القدس ـ «لا يريد العمال العمل في التحصينات ولا حتى الخروج للحراسة. وحجتهم في ذلك هي: «ليحترق المشروع مع نوفومايسكي».

وجُندت من بين العمال فصيلة من ٤٠ شخصا، تلقت تدريبا جيدا باشراف رجال البلماح. كما كان هناك في المكان ٢٥٠ شخصا ذوو قدرة قتالية، في الامكان تشكيل وحدات تابعة لقوة الحراسة منهم. وكانت تعسكر في فندق «كاليه» فصيلة مجندة من البلماح (٤٠ شخصا). وكان هناك في المنطقة: ٤١٥ بندقية، و١٧ مدفعا رشاشا، و٥ بياتات، و٣ مدافع هاون عيار ٣ بوصات، و٩ مدافع هاون عيار ٢ بوصة، وكمية كبيرة من القنابل والالغام المضادة للدبابات، وأسلحة اخرى. ومن الناحية الجغرافية، كان في الامكان تحصين المكان جيدا، باستغلال برك الملح التي كانت تحيط بالمشروع وبرك الاسماك الخاصة ببيت هعرفاه. 1422

وكان العنصر الثابت في المنطقة، من ناحية متطلبات الامن، اعضاء كيبوتس بيت

هعرفاه، ومجموعة تدريب انهت خدمتها في البلماح وانضمت الى المستعمرة (نحو ٣٥ شخصا). وكما كان عليه الحال في باقي المستعمرات، فقد دار نقاش في الكيبوتس يتعلق باجلاء الاطفال. وكان في بيت هعرفاه ٥٠ طفلا (حتى سن الخامسة)، وفي حي العمال في البحر الميت نحو ٣٠٠ طفل. وبعد نقاشات صعبة تقرر اجلاء الاطفال فقط، اذا صدر امر بذلك من القيادة.

وفي ٤/٢٧، وجه قائد القدس الى شعبة العمليات في هيئة الاركان العامة طلبا بنسف جسر أللنبي لقطع الطريق على قوات التعزيزات التي كانت تأتي للعرب عن هذا الطريق من شرق الاردن. وأرسل امر بذلك الى قائد المنطقة، تسفي شمائيلي، الذي اعلن ان «ليس هناك في المنطقة قوة تستطيع تنفيذ النسف». وفي فترة لاحقة، شرح قائد منطقة البحر الميت اعتباراته: «من اجل تنفيذ النسف» ــ كتب ــ «كان لا بد من ارسال البلماح (القوة المتحركة للمنطقة)، على ان يلتحق بها عدد من رجال بيت هعرفاه، الذين يعرفون المنطقة جيدا. وكان الجسر والمنطقة المحيطة به بحراسة «الفيلق». ومعنى ذلك ان لا مجال لنسف الجسر بالمفاجأة، وانما بعملية قتالية في ظروف ليست في مصلحتنا، وربما ادى ذلك الى خسارة الفصيلة. وسيبقى بيت هعرفاه موقعا متقدما بعد ذلك من دون قوة حماية، وسيكون اول من يتعرض لعملية انتقامية، بينما لا يزال كل السكان غير المقاتلين، مع الاطفال، في داخله، وربما كان من الممكن التغلب على هذا الاعتبار، لكننا لم نر فائدة من نسف الجسر كهدف تكتي اذا لم تتبع ذلك عمليات اخرى تضمن السيطرة على الطريق، او على الاقل القيام بعمليات مشاغلة متكررة عليه. وفي الامكان الاستعاضة عن الجسر خلال ٢٤ ساعة بجسر متحرك، كما حدث في اعقاب النسف سنة ١٩٤٦. وماذا ستكون قيمة التضحية، حتى لو قررنا تقديمها؟».

وفي بداية ايار/مايو، نقلت هيئة الاركان العامة القيادة المباشرة على المنطقة الى امنون زعير (رودي)، عضو قيادة «عتسيوني»، الذي كان قائدا عاما لكل المناطق المعزولة (عطروت، وهارطوف، وغوش عتسيون، والبحر الميت). وبسقوط غوش عتسيون واخلاء عطروت، اصبحت مسؤولية امنون زعير محصورة في منطقة البحر الميت فقط.

وطوال تلك الفترة كان موشيه نوفومايسكي، بمعرفة د. بن ــ غوريون، يجري مفاوضات بصدد مصير المشروع مع ممثلي حكومة شرق الاردن وقيادة «الفيلق العربي». وكان هدفه ضمان سلامة المشروع عن طريق اخذ قرار بتحييد منطقة امتياز شركة البوتاس. وعقد اللقاء الحاسم بهذا الشأن، في ١٩٤٨/٥/١٣، في منطقة المشروع بين نوفومايسكي وقائد «الفيلق» غلوب باشا، ودار الحديث حول «هدنة». ووافق غلوب على ان يبقى السلاح المرخص به الذي سلم للمشروع من قبل السلطات البريطانية في حيازة اليهود. ويوضع في مبنى الشرطة في المشروع حرس من «الفيلق» يشرف على منع تسلل اشخاص غرباء وتهريب سلاح غير مرخص به للمشروع. ووعد نوفومايسكي بعرض هذا الاقتراح على المؤسسات

اليهودية، لكن في اثناء سفره الى تل ابيب اصيب في حادثة طريق وأُرسل بدلا منه لانهاء المفاوضات موظف الشركة باول زينغر، وممثل هيئة اركان «الهاغاناه» امنون زعير. وكان عليهما ان يصرا في المفاوضات على بقاء السلاح بيد المدافعين اليهود، وعلى ابقاء المطار في حيازتهم وفتح الطريق الى القدس.

وفي ١٤/٥، قبيل الصبح وصل امر القيادة العليا باخلاء المنطقة من النساء والاطفال. 1423 ووصلت طائرة «داكوتا» أُخلي، بواسطتها، حي العمال من الاطفال والنساء. وبما ان الطائرة اصيبت في القصف المصري على مطار دوف (في تل ابيب)، فانها عادت فأجلت اطفال بيت هعرفاه فقط في ١٨ ايار/مايو.

وساد بين رجال «الهاغاناه» في المكان شعور بالانقباض بعد معرفة مصير كفار عتسيون والمذبحة التي حدثت فيها. وفي ١٦/٥/١٩٤٨، شوهدت قافلة عسكرية كبيرة لـ «الفيلق العربي» تجتاز جسر أللنبي في طريقها الى القدس. وأرسل تسفي شمائيلي برقية مذعورة الى تل ابيب يتساءل فيها عما يجب ان يفعله. وسمع بين اوساط العمال في المشروع المطلب باخلاء المكان والانسحاب الى جنوبي البحر الميت.

في هذه الظروف بدأت في ١٧/٥ المفاوضات مع ممثلي «الفيلق»، الذين طالبوا هذه المرة باستسلام غير مشروط، وفي حال عدم تحقق ذلك سيكون مصير اليشوف هنا كمصير غوش عتسيون. وعلى اليهود تسليم السلاح ـ ايضا السلاح المرخص به الذي تسلمته الشركة من السلطات البريطانية ـ والاعتماد على عطف الملك عبد الله، الذي سيتعهد بحماية المشروع في الشمال وفي سدوم وحماية رجاله. وطلب من امنون زعير (الذي لم يشارك في المفاوضات لأن ضابط «الفيلق» وافق فقط على التفاوض مع ممثل الشركة) ابداء رأيه، فأصدر أمرا الى زينغر بتوقيع كتاب مطالب «الفيلق». وقام ضباط «الفيلق» بجولة استطلاعية في تحصينات بيت هعرفاه، وأعلنوا ان وحدات «الفيلق» ستحضر في اليوم التالي «لحراسة المكان».

وانتشر الذهول والاحباط في شمالي البحر الميت بعد وصول خبر الاستسلام. وبناء على أوامر امنون زعير اخفي السلاح غير الشرعي في المخابىء السرية، وكان من المفروض ان يسلم السلاح الشرعي في اليوم التالي الى «الفيلق»، وألقيت مواد التفجير في نهر الاردن، ونقلت فصيلة البلماح مع سلاحها بزورق الى سدوم.

وظهر يوم ١٩/٥، جمع قائد المنطقة العمال الغاضبين والمستائين وأعلمهم بالوضع وحثهم على اعادة حياة المعسكر الى طبيعتها في ضوء الافتراض انه ايضا بعد الاستسلام سيستمر اليشوف اليهودي في الحياة بصورة منتظمة. وانتخبت لجنة لتنظيم الخدمات وحراسة المعسكر. لكن في المساء نفسه، وصل امر من القيادة العليا باخلاء الشمال، والانتقال الى المعسكر في سدوم وتخريب عدد من المنشآت.

لقد فاجأ خبر الاستسلام في الشمال رجال هيئة الاركان العامة. ففي ليلة ١٨/٥ وصلت

مع الاطفال الذين تم اجلاؤهم عن بيت هعرفاه موفدتان، نقلتا معلومات عن تفاصيل الاستسلام والوضع النفسي في شمالي البحر الميت وبيت هعرفاه. وبناء على هذه المعلومات، صدر الامر الى شمالي البحر الميت: «يجب ان ينقل هذه الليلة العدد الاكبر من الرجال الى سدوم».

وخوفا من ان يظهر «الفيلق» في اليوم التالي صباحا، قرر شمائيلي ان يجلي في الليلة نفسها جميع الرجال الى الجنوب بصورة هادئة ومنظمة. وأعلن قائد سدوم، رجل البلماح غوئيل لفيتسكي، ان سدوم غير مستعدة للاستسلام وأعرب عن استعداده لاستقبال جميع الاشخاص من الشمال، على الرغم من قلة المؤونة والمياه في المنطقة. وفي فجر ٥/٢٠ ترك نحو ٦٠٠ شخص مشروع البوتاس وبيت هعرفاه في قوارب، تاركين وراءهم المشروع والمزارع بكل الممتلكات الكثيرة الموجودة فيها. وبعد ان ابتعدت القوارب في البحر، بدأت مجموعة بتخريب المشروع: نزعت من محطة القوة الكهربائية عدة قطع حيوية لمنع اعادة تشغيلها. ثم اضرمت النار في مستودعات الشركة بكل العتاد الموجود فيها، وفي خزانات الوقود. وبشر الدخان الكثيف المتصاعد من الحريق، العرب في الجوار بخروج اليهود من المشروع.

ويجدر بنا ان نذكر ان جنود «الفيلق» لم يحضروا الى المكان في ذلك اليوم ولا في اليوم التالي. ويبدو انه لم يكن لدى «الفيلق»، الذي كان يقاتل في تلك الايام على أبواب القدس، قوة بشرية يمكن فرزها لاحتلال المشروع. وبدلا من ذلك غزا المعسكر والكيبوتس جمهور من العرب، ذكورا واناثا، من اريحا ونهب كل ما امكن نقله من مكانه. وأكمل العرب ايضا بعد ذلك عملية التدمير. وعاد المكان بعد ١٤ عاما من العمل والانتاج فتحول الى صحراء قاحلة. . .

1424

الدفاع عن النقب

يشكل الدفاع عن النقب في الاشهر الستة الاولى للحرب قصة قائمة في حد ذاتها. فقد تصارعت على مساحات الارض القاحلة والقليلة السكان هذه قوى كثيرة ومختلفة. وكان الحسم السياسي، الذي اتخذ في اللحظة الاخيرة وفقا لقرار الامم المتحدة، وأبقى النقب في نطاق الدولة العربية (انظر ص 990)، لا يزال حبرا على ورق. فالبريطانيون، الذين رأوا في جعل النقب عربيا امكانا للتمسك بقواعدهم العسكرية في الشرق الاوسط، عارضوا اعطاءه لليهود، بينما رأى العرب فيه جسرا بين دولهم المختلفة، كما رأى اليهود فيه جزءا من وطنهم التاريخي ومنطقة رحبة تنطوي على فرص كامنة لتطوير الدولة اليهودية. وقد اقيمت في النقب الشمالي في شتاء سنة١٩٤٨، ٢٤ مستعمرة، موزعة من ساحل البحر الى ما وراء بئر السبع. لكن اكثرية هذه المستعمرات لم تكن اكثر من بضعة أكواخ محاطة بسياج من الاسلاك

الشائكة، وحولها أراض قاحلة وصحراء. وكان في كل مستعمرة من هذه المستعمرات بضع عشرات من الشبان والشابات، انضمت اليهم وحدات البلماح التي قدمت الى النقب.

«في النقب»، قال دافيد بن ـ غوريون في تقرير له امام اللجنة المركزية لماباي في ٨/١/١٩٤٨، «ليست هناك مشكلة امن خاصة بالمستعمرات، اذ لا توجد هناك تقريبا مستعمرات. مشكلة النقب هي الدفاع عن النقب كجزء من الدولة اليهودية. وأقول ذلك بلغة اكثر قسوة: احتلال النقب. ـ ـ ـ علينا ان نعتبر كل مستعمرة في النقب حامية عسكرية، وكل يهودي جنديا. وعلينا ان نضع قوتنا في النقب في مستوى تستطيع معه السيطرة على النقب بكامله، لا على انبوب المياه فقط، ولا على النقاط القليلة التي لنا فقط، وانما السيطرة على المساحات».

وكانت شرايين الحياة بالنسبة الى النقب هي خطوط المواصلات بينه وبين شمال البلد، التي كانت تمر في الشفيلا عبر قرى كبيرة، وأنابيب المياه التي كانت تنقل هذا السائل الحيوي الى المستعمرات المختلفة.

في الايام الاولى للحرب، كانت مشكلة انبوب المياه هي الاكثر حدة. وقد اظهر البدو قوتهم بالحاق الأضرار بالانبوب. فكانوا يفككون الانابيب وأحيانا يسرقون الانابيب المفككة. وكان بينهم من اكتفى برصاصات تثقب الانبوب وتجعل المياه تتسرب منه. وكانت الشرطة البريطانية المعسكرة في المنطقة معادية لليهود، وأطلقت يد البدو للاعتداء عليهم. ولم يكن لدى حراس الانبوب ـ بعد ـ سيارات كافية، وكانت الحراسة موكلة الى جماعات او وحدات كانت تقوم بأعمال الدورية على امتداد الانابيب، وهي تحمل اسلحة مفككة ومخبأة بين امتعتها. وأدى هذا الاسلوب الى موجة من الضحايا في الشهر الاول للحرب. وقد ابيدت خلال اسبوع واحد ثلاث مجموعات من الحرس في انحاء مختلفة من النقب. في ٩/١٢/١٩٤٧، دخل خطأ فصيل مقاتلين قرية الشوط البدوية الواقعة بالقرب من كيبوتس مفطاحيم. فهاجمه البدو. وبعد ان قذف الرجال قنابل يدوية وقتلوا اثنين من المهاجمين، انقض عليهم الجمهور فقتل ستة اشخاص، ونجا ثلاثة فقط. وبعد يومين ابيدت وحدة من ٥ مقاتلين بالقرب من مشمار هنيغف. وفي ١٣/١٢، ابيدت وحدة اخرى بالقرب من تكوماه. وبدأ البدو، منذ ذلك الوقت، باطلاق النار على السيارات المتنقلة بين المستعمرات. وفي ١٦/١٢، قتل القائد اهرون شتولتسبرغ في اثناء سفره بتندر بين حلوتساه ورفيفيم، وأصيب زميله بجروح بليغة. وقوبلت مجموعة من رجال رفيفيم، اتت لطلب سيارة اسعاف من معسكر بالقرب من عسلوج، بموقف عدائي. وفي اثناء خروج الرجال من المعسكر، كمن لهم جمهور عربي اطلق النار عليهم فقتل ثلاثة منهم امام بصر الجيش. 1425

في هذه المرحلة، تقرر زيادة عدد الرجال المشاركين في الدوريات الى مستوى فصيلة. وأصبحت النار تطلق على كل بدوي مسلح كان يشاهد في منطقة الانبوب، الى ان تعلم البدو بسرعة عدم الاقتراب من مكان الخطر.

وفي ١٢/٢٦، كشفت الشرطة عن وجهها؛ اصطدمت جماعتان انطلقتا من تساليم لفحص خط المياه بكمين عربي. وأوقفت وحدة من الشرطة قدمت من بلدة العمارة اليهود. واستدعي الجيش وطلب من اليهود تسليم سلاحهم. «كان العرب يتجولون حوالى الشرطة، ولم يلق القبض على احد منهم او يصادر سلاحه» («البلماح»). وبعد تسليم السلاح نقل المقاتلون ــ ٣٥ شخصا ــ الى مركز الشرطة. واعترضت المؤسسات القومية امام السلطات. فأطلق سراح الرجال وأعيد سلاحهم اليهم. لكن الشرطة استمرت في مساندة العرب سرا وعلنا، وفي مضايقة رجال الدفاع في اثناء قيامهم بعملهم. وقطعت طرق المواصلات الى النقب في عدة مواضع، وكانت قوافل السيارات الذاهبة الى الجنوب تتعرض للهجوم من كمائن.

وقد ازعج الوضع في النقب قيادة «الهاغاناه» والادارة السياسية جدا. «في يوم ١٢/١٤»، روى د. بن ــ غوريون، «جاء الي فريتس (ايزنشتتر، وهو شالوم عيست) ــ ــ وقال لي انه ينبغي اخلاء النقاط الـ ١٤ الواقعة الى الجنوب من طريق غزة ــ بئر السبع، والبالغ تعداد سكانها ٤٠٠ شخص، ونقلهم الى الشمال، لأنهم لا يستطيعون في وضعهم الراهن الصمود امام عشرات الآلاف من البدو الذين يحيطون بهم». ورفض بن ــ غوريون هذا الاقتراح. وبعد اسبوع من ذلك عينت المؤسسات القومية «لجنة النقب»، برئاسة يوسف فايتس، وعضوية ممثلي المؤسسات ومندوب «الهاغاناه» يوسف روخيل (افيدار)، ولاحقا يغآل فايكوفيتس (آلون). ووفرت الاموال المطلوبة، وبسرعة بدأت قوافل من سيارات الشحن تتجه الى النقب، محملة بمواد البناء والاغذية الضرورية. وأُرسل مهندسون وفنيون وضعوا مخططات لتحصينات، وبدأت آلات الحفر بحفر خنادق، واقامة سواتر ترابية مرتفعة وبناء ملاجىء. ومُهدت مدارج لهبوط الطائرات، وتقرر استكمال عدد الرجال في النقط الـ ١٩ الصغيرة الموجودة في النقب ليصبح العدد ٥٠ شخصا في كل مستعمرة.

1426

وكانت المهمة الاصعب التي انيطت بقوات الدفاع في النقب هي حراسة انابيب المياه الممتدة على طول عشرات الكيلومترات في مناطق تنقل البدو. اذ كان يكفي إحداث ثقب في مكان واحد من الانبوب لتعطيله. وكان لا بد من حراسة مثابرة ودائمة، وفي الاساس: اصلاحات مستمرة للسماح للمياه بالتدفق في الانبوب لمدة يوم او يومين، حتى تمتلىء البرك وخزانات المياه في المستعمرات. وقد بدأ تغير ملموس في وضع الخط مع مجيء السيارات المصفحة، التي حمت حياة رجال الدفاع في اثناء خروجهم للقيام بأعمال الدورية. وبوصول هذه المصفحات، التي اتت في منتصف كانون الثاني/يناير، عزز رجال الدوريات نشاطهم، وجوبه كل عمل من اعمال العدوان برد عنيف.

«ان المصفحات» ــ كتب احد أفراد اللواء ــ «حلت بالنسبة الينا محل القاعدة الحصينة التي كنا نفتقر اليها في منطقة مكشوفة محاطة بالاعداء. ففي داخلها ليس أمرا مخيفا ان نطوق بسرعة، اذ في امكاننا الصمود لفترة معينة، الى حين وصول النجدة. وبمساعدتها ومساعدة

اجهزة الاتصال التي وصلت، استطعنا ان ننسق عمل الوحدات المختلفة. وانتقلنا الى نشاطات هجومية، وقمنا بعدة عمليات تمشيط لكشف عشائر البدو المخربة. ومنذ اليوم الذي استطعنا فيه مفاجأة المخربين من سكان تل الفار وهم في أكواخهم، قلت اعمال التخريب في الخط، وحدث انفراج» («الكتيبة الثانية في النقب»).

لقد ادرك البدو ان هناك قوة شديدة البأس وعنيدة تقف في مواجهتهم، فأوقفوا هجماتهم. وبعد الشهر الدامي الاول، الذي سقط فيه ٢٥ مقاتلا، عم المنطقة سلام نسبي. وتحولت المعركة على النقب الى معركة على الطرق المفضية اليه فدارت في جوار القرى الكبيرة الواقعة شماليه. وعززت «كتيبة النقب» التابعة للبلماح، بقيادة موشيه نيتسر، والتي ضمت في نهاية كانون الثاني/يناير ٦٥٥ مقاتلا، فصائلها في المستعمرات الموجودة في المنطقة، بمساعدة الاعضاء في المستعمرات. لكن، كان من الواضح للمسؤولين عن امن النقب ان كتيبة واحدة لن تستطيع الصمود في المعركة الكبرى.. وفي بداية شباط/فبراير، بدىء في معسكر مكوروت، الواقع قرب نير عام، بانشاء قيادة لواء النقب، التي كُلِّفت معالجة كل مشكلات الدفاع عن النقب بالمعنى الاوسع للمفهوم، بما في ذلك المشكلات الاقتصادية التي كانت جزءا لا يتجزأ من المعركة العامة. وعين قائدا للواء ناحوم سريغ، قائد احدى كتائب البلماح، الذي استدعي من اجازته.

واعتبرت قيادة لواء النقب الآن ان مهمتها الرئيسية هي تعزيز قوة النقب واعدادها لليوم الذي سيجلو فيه البريطانيون عن المنطقة، ويتعين عليها مجابهة قوات عربية، وربما ايضا جيوش نظامية. وبدأ العمل في التحصينات والتدريبات، وزيد عدد الجنود، وأنشئت كتيبة جديدة في النقب (الكتيبة الثامنة) بقيادة حاييم «كيدوني» (بار ـ ليف). وتولت الكتيبة السابقة حراسة المنطقة الى الشمال من طريق غزة ـ بئر السبع، وهي منطقة عبور القوافل، بينما تولت الكتيبة الجديدة حراسة المنطقة الواقعة جنوبي هذا الخط. ورجحت الكفة الى جانب القوات اليهودية. وقامت وحدات البلماح بأعمال الدورية في المنطقة، وهاجمت كل سيارة مسلحة. وتمت معاقبة قرى ومضارب البدو الذين تجرأوا على الإضرار بالانبوب، او زرعوا ألغاما في الطرقات. وكان التأديب المألوف نسف بئر القرية. وكان العبء الذي ألقي على كاهل رجال اللواء ثقيلا جدا. «لم تمنح اية اجازة» ـ كتب ناحوم سريغ ـ «ولم يعرفوا الراحة حتى في ايام السبت او الاعياد. وفعلا، كُلِّفوا القيام بجهد يفوق طاقة البشر، ١٦ ـ ١٨ ساعة يوميا، لفترة طويلة». وحاول الجيش البريطاني المعسكر في المكان الوقوف الى جانب العرب، لكن بما ان ايامه في النقب كانت معدودة فانه لم يكن لنشاطه تأثير كبير. وهجر سكان عدد من القرى العربية مواطنهم خوفا من العمليات الانتقامية.

1427

وبدأ الوضع في النقب بالتوتر من جديد بعد ان بدأ المتطوعون المصريون بـالوصول اليه والتمركز فيه (انظر ص 1367). وقد هاجم المتطوعون، بصورة خاصة، المستعمرات الواقعة في جوار غزة. فحاولوا في ٤/١٠، بقيادة ضباط من الجيش المصري، مهاجمة

كفار داروم. وانتهى الهجوم، المسانَد بقصف من مدافع الهاون، بفشل ذريع للمتطوعين الذين سحبوا نحو ١٦٠ قتيلا وجريحا من ساحة المعركة. وبعد يومين من ذلك، هاجمت وحدات من البلماح بالمصفحات، وبمساندة مدافع الهاون والمدافع الرشاشة، معسكر المتطوعين في المطار المجاور لغزة. وفر المصريون الى غزة.

وكان احد المؤشرات لتمركز اليهود في المنطقة، اقامة نقطة يهودية جديدة (الوحيدة في الاشهر الاولى للحرب) قبالة قرية السفاحين: بريرِ. وقد تم الصعود اليها في فجر ٤/١٩ وفقا لأساليب «حوما ومغدال» [السور والبرج] المجربة. ومع الفجر، انتصب المعسكر على تلته وفيه جماعتان بسلاحيهما، حمتا طريق القوافل اليهودية المارة من الشمال.

واستمر البريطانيون في مضايقة اليهود حتى ايام مكوثهم الاخيرة في النقب. ففي ٤/٢٢، قصفت مصفحات بريطانية مستعمرة مفطاحيم. وجاء القصف بعد ان انطلقت في اليوم السابق مجموعة من رجال «الهاغاناه» في مصفحتين وهاجمت وسائط النقل العربية على طريق غزة ــ خان يونس. وحضرت دورية بريطانية الى مفطاحيم، واستقبلها ابناء المستعمرة وهم جميعا في مواقعهم والبوابة مغلقة. وشرح قائد المنطقة للبريطانيين انه تلقى أمرا بعدم السماح لهم بدخول المستعمرة. وفتح البريطانيون نيران المدافع. واحترقت قاعة الطعام، وتهدم ملجأ المستعمرة، وثُقب خزان المياه فسال الماء منه. وقتل عضو واحد، حاييم فيشر، في موقعه على سطح الملجأ. وبناء على أوامر أُرسلت الى المستعمرة من القيادة في نيريم، استمر رجال «الهاغاناه» في مقاومتهم. ووصل نبأ من قيادة اللواء في نيرعام ان قافلة مصفحات خرجت لمهاجمة البريطانيين. لكن قبل ان تصل هذه التعزيزات انسحب البريطانيون مع غروب الشمس. وفي اليوم التالي، احتفل رجال مفطاحيم بليلة عيد الفصح في مستعمرتهم المدمرة، واحتفل معهم أفراد قيادة الكتيبة الثانية. «ان الروح المعنوية لرجال المستعمرة» ــ روى أبراهام أدان ــ «لم تتدهور. شعروا بأنهم اجتازوا بنجاح اختبارا صعبا. وفي نهاية المطاف لم يفز البريطانيون بدخول المستعمرة، وكانت هذه محاولتهم الاخيرة لاقتحام مستعمراتنا».

وعند خروج البريطانيين من المنطقة سلموا المتطوعين مركز شرطة عراق سويدان في جنوبي النقب. وانتصب مركز الشرطة هذا، المسيطر على الطرق من الشفيلا الى النقب، في طريق حركة المواصلات اليهودية الى النقب. وفي مقابل ذلك، استولى رجال البلماح على مركز شرطة هزيل (شوفال) والعمارة فور خروج البريطانيين.

«بحلول ١٥ ايار/مايو» ــ كتب قائد لواء النقب ناحوم سريغ ــ «كان النقب بأكمله خاضعا لسلطة عبرية تامة. توقفت الاشتباكات وصفيت الكمائن وتدفقت المياه في الانابيب من دون عراقيل ومن دون تخريب. واعترف السكان المحليون (البدو) بالحكم العبري، وخضعوا لسلطته فعلا. وتشهد على ذلك طلبات الشيوخ من المخاتير للموافقة على الصلاحيات التي تلقوها من الحكم البريطاني، ولتأمين حصص السكر والنفط والارز وباقي الحقوق التي منحت لهم.

كما طلبوا اذنا لحصد القمح. وطلب الشيوخ ترخيصا بحمل مسدس العشيرة. ومن اجل تجديد رخص السيارات كان الشيوخ يتوجهون الى مختار القرية او الى مركز الشرطة» («لواء النقب في المعركة»). 1428

وقبل خمسة ايام من غزو القوات المصرية رسميا للبلد، شن «المتطوعون» المصريون هجوما قويا على كفار داروم. وكان الهدف من الهجوم اخلاء الطريق الى ارض ـ اسرائيل من هذا الحاجز اليهودي لتسهيل غزو الجيش المصري النظامي. وشاركت مصفحات ودبابة واحدة في هذا الهجوم. واقتحمت الدبابة المستعمرة، لكنها انسحبت بعد ان اطلق المستوطنون عليها النيران. وقبيل المساء، اصبح وضع المدافعين سيئا جدا. «بقي خمسة وثلاثون رجلا فقط سالمين» ـ ذكر تقرير من المستعمرة ـ «جميع السلاح الاوتوماتيكي تعطل. بقي لدينا ما مجموعه ٦٠ قنبلة يدوية. ــ وفي موضعين من السياج ثغرتان كبيرتان». «فشلت محاولات انزال الذخيرة ومواد التضميد من الجو بالمظلات، وسقط معظم الارساليات خارج السياج» (أ. أدان). لكن المصريين أوقفوا الهجوم وجددوه فقط في فجر ٥/١٣. وفي الليلة التالية، ارسلت قيادة لواء النقب فصيلتين من رجال البلماح كتعزيزات لكفار داروم، مع ذخيرة ومواد تحصين وعتاد. واصطدمت هذه القافلة بنيران مدفعية وأصيبت بشدة، ومرّ يوم واحد آخر ـ وغزا الجيش المصري النظامي، المسلح جيدا والمزود بدبابات مدرعة ومدفعية وبحماية الطيران، ارض ـ اسرائيل.

الفصل الثاني والسبعون

معارك غوش عتسيون

غوش عتسيون ــ علامة ورمز

يذكرنا صمود غوش عتسيون [كتلة مستعمرات] في ربيع سنة ١٩٤٨ بصمود تل حاي. فكلتاهما نقطة استيطانية يهودية منعزلة في مناطق جديدة للاستيطان العبري؛ وكلتاهما مرتبطة بمحاولة لتوسيع حدودنا السياسية؛ وفي كلتيهما انتهى الصمود بضحايا وخراب؛ وفي كلتا الحالتين ثبتت صحة الصمود في المنظور التاريخي.

لقد كان من المبادىء الرئيسية لـ «الهاغاناه»، التي نشأ الاعضاء عليها، مبدأ عدم التخلي عن اي موقع في الوطن من دون معركة طاحنة. وهذا المبدأ، الذي تعود نشأته الى معركة تل حاي، وتعزز في الدفاع عن خولده سنة ١٩٢٩ وفي القتال على بيرياه سنة ١٩٤٦، لم تضعف قوته ايضا في حرب الاستقلال.

ولو كان سكان غوش عتسيون قد هجروها في بداية ايام الحرب، لاقتضى منطق هذا الاخلاء المزيد منه في جميع انحاء البلد: النقب والمستعمرات المنعزلة في الجليل الغربي ونقاط متفرقة كثيرة اخرى، ولكانت مساحة الدولة العبرية انكمشت وتقلصت الى رقاع الاستيطان القديم الضيقة. ان الدفاع عن غوش عتسيون وبطولة مقاتليها وضحاياها، شدت كلها من عزيمة آلاف المقاتلين الذين كانوا متفرقين في نقاط متفرقة ومعزولة، في نقاط الحدود، ودفعتهم الى الصمود وعدم التخلي عن امكنتهم، وشكلت مرتكزا للامل بأن جبال الخليل، التي شهدت بداية مملكة داوود، ستدمج هي ايضا ضمن حدود الدولة العبرية.

وقد تم التمسك بمبدأ عدم التخلي عن اية مستعمرة بصورة كاملة حتى سقوط غوش عتسيون. وبعد ذلك، كانت هناك مستعمرات محاصرة هزمت في معارك ومستعمرات هجرت بسبب الضعف وعدم وصول تعزيزات اليها قبل المعركة. كما كانت هناك مستعمرات أخليت بأمر من المؤسسات المعتمدة، وحالات تخللها هجر من دون امر.

وليس هنا المكان لتحليل ما اذا كان هناك مبرر للتخلي بناء على الوضع وقوة الصمود العملية، مع انه كان مسلما بصحة عدم ترك اي موقع او اية مستعمرة من دون امر موافق عليه. وبصورة عامة، تم تطبيق هذا المبدأ ايضا في حالات صعبة جدا.

ويرجع هذا المبدأ في الاصل، قبل كل شيء، الى سكان المستعمرات انفسهم ومنظماتهم، وأيدته القيادة العليا، مع انه طرحت اكثر من مرة مقترحات لتقصير الجبهة.

في الايام الاولى لمعارك غوش عتسيون

في الاسابيع الاولى لم تكن الغوش [كتلة المستعمرات] تشعر بخصوصية مصيرها. وكان جميع الاعضاء في المستعمرات الاربع: كفار عتسيون ومَسُوُوت يتسحاق وعين تسوريم ورفاديم (نحو ٢٦٠ رجلا وامرأة) اعضاء في «الهاغاناه»، مدربين في اطار قوة الحراسة على حرب المواقع. وكانت في الغوش مجموعة من احتياطيي البلماح (معظمها في رفاديم). وكان هناك ايضا حرس سيّار تابع لقوة الخفارة. وكانت تعقد في المكان بصورة دائمة دورة قادة فصائل خاصة بقوة الميدان التابعة للقدس، وكان فيها لدى نشوب الحرب ٤٠ شخصا تقريبا. وكان موجودا في الغوش كلها ٧ مدافع رشاشة، و٧ مدافع هاون عيار ٢ بوصة، و١٦٥ بندقية، و٤٥ رشيشا. وكان قائد الغوش قائد الفصيلة يعقوب ألتمان، من كفار عتسيون. وكانت الغوش تتلقى مؤونتها يوميا من القدس، بما في ذلك صهريج ماء كان يكمل كمية المياه المتوفرة في المكان، التي لم تكن كافية لسد حاجات المستوطنين. وبعد اسبوع من نشوب الاشتباكات، ارسلت الى المكان فصيلة بلماح من السرية الثامنة في القدس، مزودة بمدفع رشاش و١٢ بندقية و١٥ رشيشا، وتمركزت في رفاديم. وجاء معها قائد جديد للغوش: قائد السرية داني ماس. وفور مجيئه اجريت مناورة هجوم ليلي مفاجىء على مستوى الغوش، لاختبار الاستعداد الفعلي في المستعمرات. وعززت الحراسة العامة في الليالي، وأقيمت في النهار مراكز مراقبة في نقاط مختلفة شاركت فيها الاناث من الاعضاء. وقسمت النقاط الاربع في الغوش الى اثنتين: كفار عتسيون ومسؤوت يتسحاق في الجنوب، وعين تسوريم ورفاديم في الشمال. وكانت الطريق الموصلة بين الجزأين الشمالي والجنوبي، تمر بين تلين: تل الشجرة والتل الاصفر. والى الشرق من تل الشجرة كانت ترتفع اعلى هضبة في المنطقة (٩٧١ مترا فوق سطح البحر)، وهي خربة صوير. وفي حرج بين كفار عتسيون وطريق القدس ــ الخليل الرئيسي، كان يوجد دير روسي. والى الجنوب الغربي من كفار عتسيون كانت ترتفع هضبة «سرج المختار»، التي كان يمر منها الطريق الى القرية العربية بيت عمره. وكانت تفصل بين كفار عتسيون ومسؤوت يتسحاق تلة الصخور التي كانت تسيطر على الطريق المفضية الى كفار عتسيون. [1431*]

في ١٩٤٧/١٢/١١، هوجمت لأول مرة قافلة التموين المتجهة الى الغوش، وقتل في هذا الهجوم عشرة اشخاص (انظر ص 1451). وأدى الامر الى تحول معين في الغوش.

---

* الصفحة 1430 في الاصل تحتوي على خريطة غوش عتسيون. (المترجم)

فبعد ذلك مباشرة هجر سكان القرية العربية الصغيـرة الواقعة جنوبـي عين تسوريم ورفاديم بيوتهم، وبسرعة احتلتها بصورة دائمة حراسات رجال الدفاع. وبعد فترة انقطاع قصيرة، تعهد الجيش البريطاني في نهاية كانون الاول/ديسمبر بمواكبة قوافل الاغذية والتموين الى الغوش. ومع ذلك ارسلت «الهاغاناه»، في تلك الفترة، ثلاث قوافل خاصة بها، محملة بعتاد ومقاتلين جــدد، وأُخرج بواسطة هذه القوافل من المكان رجال دورة قوة الميدان وأتت محلهم السرية ج التابعة لكتيبة مخمش من القدس، المشكلة من طلاب الجامعة العبرية. ويبدو انهم أتوا لفترة ٤ اسابيع، لكن فرض عليهم البقاء في الغوش حتى نهاية آذار/مارس، حين جرى استبدالهم برجال قافلة النبـي دانييل. وفي الوقت نفسه، اوكلت مسؤولية قيادة الغوش الى البلماح، الذي ارسل اليها قائد السرية عوزي نركيس.

وكان اخراج الاطفال وقسم من النساء من المستعمرات بمواكبة الجيش البريطاني (في ١٩٤٨/١/٥)، الذي كان في حينه حدثا فريدا ووحيدا، علامة اولى على وضع الغوش الامني الخاص. وأعلنت في الغوش حالة الاستعداد، وفرض التعتيم في الليالي. وكرس العمل في المستعمرات لبناء التحصينات، وجاء اذن خاص من القدس لبناء التحصينات حتى في ايام السبت.

الهجوم الاول

بعد فترة وجيزة مرت الغوش بأول تجربة خطرة. ففي فجر ١/١٤، لوحظت تحركات حول الغوش. ووصلت انباء بأن الطريق الى القدس قد اغلق، وبأن العرب في الجوار يعدون لهجوم واسع النطاق. وقد نظم هذا الهجوم زعماء العصابات في المنطقة، بقيادة عبد القادر الحسيني، وكان هدفه تدمير المستعمرات اليهودية او قسم منها لتعزيز هيبة القائد، رجل المفتي، في اوساط السكان العـرب الذين مال قسم منهم الى القبول بسلطة عبد الله او «اللجنة العسكرية» التابعة لـ «الجامعة العربية» في دمشق. ومع الفجـر احاط نحـو ١٠٠٠ عربـي مسلح بالغوش من جميع الجهات، وأمطروا مستعمراتها بوابل من النيران. 1432 وكانت النيران الموجهة الى كفار عتسيون من ناحية الجنوب شديدة بصورة خاصة. لكن يبدو ان كل هذه النيران لم تكن سوى عمليات مشاغلة وتضليل. اذ كان صلب الهجوم موجها من اجل فتح طريق الى قلب الغوش وقطع الطريق الداخلية الواصلة بين نقاطها المختلفة. ومن اجل ذلك، كان في نية المهاجمين السيطرة على القرية العربية المهجورة خربة زكريا. وتم الهجوم من المكان الاكثر ارتفاعا في الغوش، وهو خربة صوير. واقترب نحو ٢٠٠ عربـي، بتغطية من المدافع الرشاشة، من هناك الى خربة زكريا. وفي الوقت نفسه، ارسل قائد الغوش فصيلة مصغرة ومعها مدفعان رشاشان لتوجيه ضربة مضادة للمهاجمين. ووصلت الفصيلة الى تل الشجرة دون ان يشعر بها العرب، وفتحت عليهم فجأة نيران المدافع

الرشاشة من الخلف فأوقعت بهم خسائر. وحسمت هذه الضربة مصير المعركة في ذلك اليوم. وأمطر العرب فصيلة البلماح بنيران شديدة من خربة صوير. وسقط في هذا الاشتباك، الذي استمر حتى المغيب، ثلاثة مقاتلين، لكن خسائر العرب بلغت عدة عشرات. ثم انسحب المهاجمون قبل المساء في اتجاه الشارع الرئيسي.

وانتهى هذا الهجوم، الذي جرى من دون مساندة مدفعية الهاون والمصفحات او اي سلاح مساند آخر، والذي كان مشابها لهجمات مماثلة في نهاية ايام الاحداث ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، بهزيمة تامة للمهاجمين. لكن الغوش استنفدت قسما كبيرا من ذخيرتها، وأصبحت تشكو نقصا في المواد المتفجرة.

وقررت القيادة في القدس ارسال تعزيزات الى الغوش: فصيلة من ٣٥ شخصا، نصفهم من احتياطيي البلماح، ونصفهم الآخر من أفراد قوة الحراسة من اوساط الطلاب في القدس. وفي ١/١٥، وعند حلول المساء، خرجت الفصيلة من بيت هكيرم الى هارطوف بقيادة قائد الغوش السابق، داني ماس. وفي هارطوف جرى تفحص السلاح والعتاد، ووزع سلاح اضافي. واتضح ان الفصيلة تفتقر الى جهاز اتصال لاسلكي. وأشار قائد هارطوف وعدد من المدافعين عن المكان على الفصيلة بتأجيل انطلاقها الى الليلة المقبلة، لأن من المحتمل بسبب الوقت المتأخر ألا تصل الى منطقة جبل الخليل إلا في ساعات الصباح الباكر فتنكشف للعدو. لكن داني ماس أصر على رأيه في ان لا بد من الوصول الى الغوش في الليلة ذاتها، مهما يكن الامر.

في الساعة ١١ ليلا «سرنا مشيا على الاقدام، على شكل مجموعات» ـ روى زميل لنا كان قد أُرسل في منتصف الطريق لاعادة مريض الى القدس ـ «ومن حين الى آخر، يصدر تنبيه لالتزام الصمت، وطريقة السير. ظلام دامس. وكان السير سهلا وممتعا. وعرجنا بالقرب من الطريق الذي يصعد الى بيت جمّال على الينبوع لنشرب الماء. ثم عسكرنا في احد الوديان، ثم عدنا فصعدنا لنعود فننزل الى واد آخر في اتجاه الجنوب».

كانت هذه الشهادة الفعلية الاخيرة بشأن مصير فصيلة الـ٣٥. واعتمادا على اخبار مختلفة، جمعت فيما بعد من مخبرين عرب، يمكن الافتراض انه بالقرب من قرية صوريف اكتشف العرب فصيلة الـ ٣٥، فاستنفروا مئات المقاتلين من القرى العربية المجاورة. ودارت معركة يائسة [في الطريق] بين صوريف وجبع قتل فيها جميع رجال الفصيلة.

وبُلِّغ في ١/١٧ الضابط البريطاني هاميش دوغان، الذي كان مسؤولا عن قضاء الخليل، بالقضاء على الفصيلة، فأحضر في اليوم التالي في قافلة عسكرية، جثث الشبان الخمسة والثلاثين الى كفار عتسيون ودفنوا في قبر جماعي في المكان. وخلق فقدان الفصيلة انقباضا شديدا في نفوس المقاتلين في الغوش.

وكان الدرس المستخلص من هذه الاحداث مزدوجا: أ ـ عجز القوات العربية عن

احتلال وتدمير مستعمرات يهودية، حتى لو كانت بعيدة ومعزولة؛ ب ـ نجاحهم في فرض حصار على هذه المستعمرات لا قدرة لليهود على اختراقه.

تحصين الغوش بعد الهجوم

1433

بعد الهجوم زاد المقاتلون في الغوش من يقظتهم. واحتلت عدة مواقع في التلال المسيطرة على الغوش؛ «حولناها الى معاقل» ـ روى عوزي نركيس في مذكراته ـ «بمقدار ما امكن، من ناحية حفر الخنادق والاسلاك الشائكة القليلة التي كانت لدينا». كما بدأ اعضاء المستعمرات بحفر الخنادق والتحصن، لكن كان من المستحيل فعل الكثير في ارض جبال الخليل الصخرية، في ظل غياب معدات ملائمة.

ووافق الجيش [البريطاني] على تقديم حراسات لمواكبة قوافل صغيرة محملة بالاغذية والوقود، ولا تحتوي على اي شيء يحتمل ان يساعد في تقوية الغوش عسكريا، حتى لو كان مواد بناء، وشرط ألا تخرج قوافل اخرى من دون علم الجيش. وخرجت اربع قوافل من هذا النوع حتى ٢/١٩. وبما ان «الهاغاناه» لم تكن تستطيع التعهد بقبول هذه القيود، تقرر تنظيم قافلة مستقلة. وكانت تلك «قافلة دفوراه»، التي شقت طريقا لها الى غوش عتسيون في ٢/٢١ (انظر ص 1451)، ونقلت ضمن اشياء اخرى: ٥٠ شخصا اضافيا الى كيبوتس رفاديم التحقوا، طبعا، بالمدافعين عن الغوش. ومن حين الى آخر، كان يتم القاء سلاح (خصوصا ذخيرة)، ومواد بناء، وأدوية طبية بالمظلات من طائرات «الهاغاناه».

واحتل مكانا مركزيا في الاعداد للمستقبل تعبيد مدرج لاقلاع الطائرات في وسط الغوش، الى الجنوب من تل الشجرة. وقد انتهى تعبيد المدرج في منتصف شباط/فبراير، وحطت اول طائرة فيه قبل انتهائه، في ٢/٧. ورفع الاتصال الجديد هذا بمراكز الييشوف العبري معنويات القوات. وبدأت الطائرات تحط يوميا تقريبا، اذا سمحت حالة الطقس بذلك، جالبة ذخائر وأسلحة، ومنقذة الجرحى والمرضى. وبدىء بزرع الالغام في مناطق مختلفة قد يستعملها المهاجمون ممرا في اثناء هجومهم. وكانت الترتيبات لصنع الالغام بدائية، وقتل اثنان من صانعيها في اثناء العمل.

واشتد الشتاء في المنطقة، وتسبب البرد والمطر والثلوج بمعاناة كبيرة للسكان. وبسبب النقص في الوقود استحالت تدفئة الغرف. وكانت الامطار تعطل المطار، لكن ادراك الخطر الشديد المتوقع بالنسبة الى وجود الغوش بالذات ازداد بالتدريج. وفي ٢/٢١ وصل الى غوش عتسيون بطريق الجو ضابط العمليات في هيئة الاركان العامة، يغئيل يادين. وزار المواقع العسكرية الحصينة، وناقش القادة في مشكلة امن الغوش، وتوصل الى انه يجب توحيد الاستعدادات للدفاع في جميع الغوش. وأُنشىء مستودع مركزي للأغذية، ووضع «نظام عمل مشترك لكل رجال الغوش، وخصوصا فيما يتعلق بالعمل في تحصين المواقع العسكرية»

(«كتاب البلماح»). وبعد ان وضعت حراسات دائمة في المواقع العسكرية القريبة من المستعمرات ــ سرج المختار، المسيطر على كفار عتسيون؛ خربة زكريا، المسيطرة على الطرق الى عين تسوريم ورفاديم؛ تل الشجرة والتل الاصفر، المسيطران على مدرج المطار والطريق بين المستعمرتين الشماليتين والمستعمرتين الجنوبيتين ــ سيطر المقاتلون، في ٣/١٣، على الدير الروسي ووضعوا فيه فصيلة من قوة الميدان.

وطرأ عامل جديد على تطور علاقات القوى في المنطقة، تمثل في انحسار نفوذ آل الحسيني ونقل سرية «الفيلق العربي» الى منطقة الخليل في منتصف آذار/مارس. وقد جاء «الفيلق» الى المكان بناء على دعوة من وجهاء الخليل، الذين تدهورت العلاقات تماما بينهم وبين عبد القادر الحسيني، وانخفض قدره في اعينهم بعد هزيمته في ١/١٤.

وبعد مضي شهرين من الهدوء على الغوش، قررت القيادة العليا استبدال رجال التعزيزات الذين مكثوا فيها منذ بداية الحرب. وبدا ان من المرغوب فيه تسليم القيادة الى شخص من لواء «عتسيوني»، الذي كانت الغوش خاضعة له. وبما انه لم تكن بين القائد، رجل البلماح، وبين قيادة القدس لغة مشتركة، احيانا، فقد وصل بالطائرة في ٣/٢١ قائد الغوش الجديد، موشيه (موش) زيلبرشميدت، من خيرة قادة قوة الميدان في القدس. وبعد ستة ايام من ذلك، وصلت القافلة الاخيرة (قافلة النبي دانييل، انظر ص 1452). وجاءت في هذه القافلة السرية ب التابعة لكتيبة مخمش من القدس، ١٥٠ رجلا، بقيادة أبراهام ترايتين (طمير)، وحلت محل السرية السابقة. وأحضرت القافلة معها تموينا لثلاثة اشهر. وهوجمت، كما هو معروف، في طريق عودتها الى القدس. وكانت هناك في المصفحات التي وقعت بيد العرب، وثائق مهمة تتعلق بالدفاع عن الغوش، بينها ايضا خرائط عليها علامات تدل على المواقع العسكرية المحصنة وحقول الالغام، وما شابه ذلك. وانسحبت فصيلة بلماح، لم تنجح في الوصول الى القدس مع القافلة، من النبي دانييل الى كفار عتسيون، وانضمت الى نظام الدفاع عن الغوش، متمركزة حول المطار. ونقل ١٥ من رجالها فقط، بينهم عدة مصابين بجروح خطرة، بالطائرة على مراحل الى تل ابيب. وفي هذه الفترة اقيم في كفار عتسيون مستشفى ميداني. ووصل اطباء وعدد من الممرضين. واكتسب الرجال خبرة بتقديم اسعاف اولي في الميدان.

1434

وفي ١٩٤٨/٣/٣٠، وصل الى غوش عتسيون قائد البلماح، يغآل آلون. وفي احاديثه مع محاربي الغوش قال: «تشكل غوش عتسيون موقعا متقدما مهما للدفاع عن القدس. ولو لم تكن لدينا كتلة المستعمرات هذه لكنا اضطررنا الى القتال لاحتلال منطقة كهذه. ان وجود الغوش في نقطة بهذا القدر من الحساسية، بالنسبة الى مواصلات العدو، يشكل أمرا مهما في اطار الحرب في البلد برمته. وكم كان مهما لو استطعنا ان نقيم كتلة كهذه في مثلث طولكرم ــ جنين ــ نابلس. ومن المتوقع لغوش عتسيون ان تستخدم نقطة انطلاق لتغلغلنا في النقب ومنطقة الخليل. صحيح ان وضعكم صعب، وانكم مقطوعون عن القوات المحاربة

الرئيسية، وتحيط بكم قوات كبيرة معادية. ان وضعكم شبيه بوضع طبرق في ايام الحرب العالمية، لكن لا يمكن التفكير اطلاقا في اننا سنخلي الغوش. عليكم ان توحدوا صفوفكم في معسكر واحد، في جيش واحد منضبط، وعليكم التحصن قدر استطاعتكم، وعندها يكون هناك امل بالصمود».

بداية قيادة موش

وضع موشيه [موش] زيلبرشميدت لنفسه هدف تحويل الغوش الى «معقل حصين يمكن ان يصمد امام هجوم العدو» (أ. ترايْنين). وقسمت الغوش الى اربعة قطاعات، كان قادتها مسؤولين عن تحصينها وحراستها والدفاع عنها، تحسبا لاحتمال عزلها عن بعضها البعض. وأحاطت هذه القطاعات بالغوش كلها. وأقيمت هيئة اركان حرب في وسط الغوش في «التل الاصفر» الى الشمال من المطار. ووصلت اسلاك هواتف ميدانية وأجهزة لاسلكية قيادات القطاعات الاربعة بالقيادة وبهيئة اركان الحرب. وكان في الغوش، في تلك الفترة، ٣١٥ من اعضاء المستعمرات (منهم نحو ١٠٠ من الاناث)، و ١٧٠ شخصا من قوة الميدان، و ٥٦ شخصا من البلماح، والعائدون من القافلة التي هوجمت في النبي دانييل.

ومع كل الجهود التي بذلت في التحصين، لم تنجز الخطة الموضوعة لذلك بكاملها، بسبب النقص في آلات الحفر والالغام. وكانت المستعمرة الوحيدة التي حفرت خنادق اتصال ومواقع هي رفاديم.

والى جانب العمل في التحصينات، درب الرجال على الاسلحة الجديدة التي وصلت بطريق الجو. «منذ ان وصلت السرية الى الغوش حتى سقوطها» ــ روى قائد سرية قوة الميدان ــ «لم يتمتع شخص باجازة للراحة. ولم يخلع الجنود احذيتهم وثيابهم طوال فترة الحصار كلها».

لكن موش لم يكتف بالاعداد للدفاع السلبي، اذ اعتبر غوش عتسيون جزءا من جبهة القتال لكتلة القدس؛ جاء ومعه خطط لعمليات واسعة في المنطقة، مندمجة مع الخطة للسيطرة على القدس بأكملها عند حلول يوم تقسيم البلد. إلا ان الانقطاع غير المتوقع عن القدس، الذي حدث بعد هزيمة القافلة الاخيرة، ادى الى تقليص هذه الخطط. ويبدو انه سادت معارضة لها بين القادة في المكان وبين اعضاء المستعمرات، وكان هناك من سأل: «لماذا نهاجم خطوط مواصلات العدو، أليس من الافضل ان نتخندق ونحصن انفسنا كما ينبغي؟» (ترايْنين). لكن موش اعتبر مهمته الرئيسية الاستمرار، بلا توقف، في مهاجمة خطوط المواصلات والمساعدة بذلك في الدفاع عن القدس. 1435

وبعد فترة قصيرة من هزيمة القافلة في النبي دانييل جرى، بناء على امر من القيادة في القدس، هجوم من كمين على قافلة عربية كانت، بحسب مصادر استخبارات «الهاغاناه»،

تنقل اسلحة الى الخليل. ولغم الجزء من الطريق القريب من الغوش، ونصبت عدة كمائن في المنطقة. وكانت النية اسر القافلة مع أسلحتها. لكن مصفحة بريطانية كانت ترافق القافلة فتحت نيرانا مدمرة على رجال الكمين، مما سمح للقافلة بالاستدارة والعودة الى القدس. وفي اثر هذا الهجوم مباشرة، هاجمت العصابات العربية موقع الدير الروسي لمدة يوم كامل، لكنها صُدَّت من دون خسائر تقريبا في صفوف المحاربين اليهود. وتوقفت حركة النقل العربية عدة ايام.

وفي اثناء عملية «نحشون» جاء امر من قيادة القدس ببدء الحرب من جديد ضد مواصلات العدو «من دون التورط مع الجيش». واصطدم رجال الكمين في العملية الاولى (في ٤/١٢) بقافلة «الفيلق العربـي»، وأوقعوا بها ستة قتلى. وهاجمت تعزيزات من القوات العربية المحلية وسيارات مصفحة تابعة لـ «الفيلق العربـي» الغوش بقوة. «كانت هذه هي اول معركة للغوش يستخدم فيها العدو مدفعيته». وازدادت المعركة ضراوة مع المساء، وكانت موجهة في الاساس لاحتلال الدير. وصُدّ الهجوم، وتوقفت حركة النقل العربية الى القدس مدة اسبوعين؛ وتجددت فقط في نهاية نيسان/ابريل. وجاء عندها امر من القدس بالكف عن التعرض لحركة النقل العربية.

وتفرغ رجال الغوش لحفر الخنادق والتحصن. وتلقت الغوش بطريق الجو ذخيرة اضافية، ومعدات عمل، ومواد متفجرة، وألغاما، وبنادق حديثة. «مر علينا عيد الفصح» ــ ذكر أ. ترابنين، نائب قائد الغوش ــ «في جو احتفالي بهيج». واستكمل حزام المواقع العسكرية الحصينة المحيطة بالغوش، بوضع حرس دائم على قمة خربة صوير في ٤/١٤.

لكن في بداية ايار/مايو، في اثناء نشوب المعارك في القدس على القطمون، صدر مرة اخرى امر الى الغوش باغلاق طريق الخليل ومنع مرور التعزيزات العربية الى القدس. فخرب الطريق وقطع وبنيت عوائق عليه. وواجهت قافلة عربية حاولت العبور في ٥/٣ وضعا سيئا، وكان متوقعا لها مصير مماثل لمصير قافلة النبـي دانييل، لكن مصفحات بريطانية حُظِّر على رجال الغوش التورط معها في معركة، وصلت الى المكان وأنقذت العرب.

واعتبر البريطانيون هذه المناوشات ضد حركة النقل تعرضا للطريق الرئيسي، الذي كانوا بحاجة اليه لأغراض اجلاء قواتهم عن القدس في الايام القريبة القادمة. وقرروا القيام بعملية تأديب ضد غوش عتسيون لارغامها على ايقاف اعتداءاتها على حركة النقل في الطريق. وفي اليوم التالي، شن «الفيلق العربـي»، على اساس انه وحدة بريطانية، هجوما كبيرا على الغوش. وبمساندة المدفعية ومدافع الهاون انقضت سرية «الفيلق» على الدير الروسي. وكان معظم المدافعين عن الدير قد اصيب بجروح بفعل القصف. وبدأ الرجال بالانسحاب في اتجاه «الموقع الروسي» المجاور، بينما هم يدافعون متكبدين خسائر فادحة. وفي الوقت نفسه، قصفت ايضا خربة صوير. وصمد المدافعون هنا امام القصف، وجابهوا بنيران مدمرة المهاجمين الذين حاولوا اقتحام المكان. وصعدت دبابات بريطانية الى «سرج المختار»

وخلفها جمهرة من الرعاع العرب. وهجر المدافعون «السرج». وقصفت الدبابات قليلا كفار عتسيون ثم تراجعت. وعلى الفور بدأ المقاتلون اليهود بقصف الموقع بمدفع هاون عيار ٣ بوصات، فتخلى العرب عن المكان. وقبيل المساء، ترك العدو الدير الروسي، الذي احتله المقاتلون اليهود من جديد على الفور. وفي نهاية ذلك اليوم، بقيت كل المواقع العسكرية بيد قواتنا، الامر الذي لم يكن يدعو الى الدهشة اذ ان هدف العملية كان التأديب لا الاحتلال والتمركز في الغوش. وقتل ١٢ مقاتلا من قوة الميدان، وجرح ٣٠. 1436

«لم يكن لدينا» ـ ذكر قائد الغوش في تقرير الى القيادة ـ «اي سلاح فعال ضد الدبابات، وكان في استطاعتهم ان يفعلوا بنا ما يشاؤون. كما ان الرجال لم يكونوا مهيئين نفسيا لمواجهة هذه الاسلحة. وكان في تصرف العدو كمية غير محدودة من الذخيرة. وسبق كل محاولة هجوم وابل من نيران الاسلحة الاتوماتيكية. وجرت محاولة لتغطية الطرقات بنيران كثيفة من المدافع الرشاشة، ولقطع الاتصال بين المواقع العسكرية. لكننا حافظنا على الاتصال بفضل الشجاعة الكبيرة التي أبداها الرجال».

وانخفضت الروح المعنوية في الغوش، وصدرت نداءات عن القيادة في القدس للاسراع في تقديم المساعدة. وفعلا جلبت الطائرات، في الايام الاولى بعد الهجوم، ذخائر ومؤونة للغوش. وكان من بين الاشياء التي نقلتها الطائرات مدفعان رشاشان ومدفعان مضادان للدروع (من طراز بيات) ـ كانا آنذاك بمثابة سلاح حديث ونادر بالنسبة الى منظمة «الهاغاناه» ـ وذخيرتهما، و ٦٠ قذيفة للهاون من عيار ٣ بوصات. لكن «في الايام الاربعة التي سبقت الهجوم الاخير، لم تحلق حتى طائرة واحدة من طائراتنا في سماء الغوش» (ترابنين). فالطائرات القليلة التي كانت في تصرف هيئة الاركان العامة لم تتمكن من الهبوط في المكان بسبب الطقس الذي ساءت أحواله، ولأنها كانت ناشطة في تلك الايام في المعركة المصيرية من اجل تحرير الجليل الغربي (انظر ص 1585). وكان المستشفى في كفار عتسيون يعج بالجرحى من اوله الى آخره. وجرت محاولات لنقل الجرحى الى القدس بمساعدة «الصليب الاحمر»، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل.

وفي اعقاب الضربة التأديبية البريطانية ثارت شكوك في اوساط قادة الغوش فيما اذا كان من الافضل الاستمرار في شل حركة النقل العربية، وفيما اذا كان ذلك لا يشكل تحرشا خطرا قد يثير قوى لا تستطيع الغوش الصمود امامها. وفي اليوم الاول بعد الهجوم، عندما حاولت سيارات عربية المرور عبر الطريق، هاجمها رجال الغوش وأصابوا عددا منها فتوقفت حركة المرور. وربما كان هناك شيء من الحقيقة في أقوال ضابط «الفيلق»، الذي قال بعد فترة انه «في مساء ذلك اليوم تقررت ضرورة تصفية غوش عتسيون من الناحية العسكرية». لكن اعتبارا من ٥/٦ لم تقم الغوش بأية عملية. ويبدو ان رأي اولئك الذين طالبوا بضبط النفس قد ساد.

وفعل موش كل ما في وسعه لتشجيع رجاله. جمع قادة الوحدات والنشيطين في

الغوش، وشرح لهم الوضع على حقيقته. «لم يخف قلقه الشديد تجاه قدرة الغوش على الصمود بعد نتائج المعركة في ٤/٥» ــ ذكر احد الاعضاء في يومياته ــ «وربما كانت المعركة القادمة هي المعركة الاخيرة. ويحسب رأيه، ينبغي ان تكون هذه معركة مساده، لاننا نعلم ان بصمودنا حتى النهاية نساهم في انقاذ القدس. وعندما سئل لماذا لا يطلب من القيادة القطرية ارسال تعزيزات، اجاب بأنه يعتقد انه قُدم لنا كل ما كان في الامكان تخصيصه لنا. وربما كانت في البلد امكنة متطلباتها اكثر حيوية. وتقدير ذلك يجب ان يترك للقيادة القطرية. علينا ان نقبل ما كتب علينا، وأن نقوم بواجبنا باخلاص». وفي برقية الى القدس ذكر موش: «على الرغم من جهودي فان القادة، في معظمهم، مصدومون ويائسون؛ لا سبيل لشد عزيمتهم إلا بارسال تعزيزات مهمة».

الهجوم الاخير على الغوش

لم تنته ايام الحكم البريطاني بعد. لكن «الوحدة البريطانية»، المسماة «الفيلق العربي»، أُطلقت يدها كما يبدو لابادة غوش عتسيون. ففي فجر ٥/١٢، بدأ نحو ٢٠٠ جندي من جنود «الفيلق»، وآلاف من القرويين الذين انضموا اليهم، المعركة الحاسمة لاحتلال غوش عتسيون. وكان يقف في مواجهة هذا التفوق الساحق في المقاتلين والسلاح، ٥٠٠ مقاتل يهودي موزعين على مساحة شاسعة، سلاحهم قليل وذخيرتهم اقل، وفي ايديهم اسلحة ووسائط قليلة للقتال ضد المصفحات. وانتقمت الآن بقسوة من المدافعين وتيرة التحصين البطيئة خلال الاشهر الاولى للحصار التي نجمت في جزء منها عن خطأ في تقدير الوضع، وفي جزء آخر عن نقص في معدات العمل الملائمة، وخصوصا آلات ضغط الهواء. 1437

بدأ الهجوم من الجنوب، وقصف الدير و«سرج المختار». وخرج موش ليتولى شخصيا القيادة في الدير، حيث نشبت معارك طاحنة. وعندما لاح خطر تطويق الدير بالمصفحات، اصدر موش أمرا بالانسحاب الى «الموقع الروسي». وفي اثناء الانسحاب، تحت نيران مدافع العدو الرشاشة، قتل معظم الرجال وبينهم موش وقائد الدير، الجندي الموسيقار تسفي بن يوسف. ونجح ثمانية جرحى فقطً في الوصول الى كفار عتسيون. وفي الساعة ١٠,٢٠ اصبح موقعان ــ الدير «والموقع الروسي» ــ بيد الاردنيين. ولم يتوفر احد في الغوش للحلول محل موش بعد سقوطه. وفي كل ما حدث في الغوش بعد ذلك، يمكن لمس غياب قائد يتمتع بالسلطة والقدرة على المبادرة، ويعرف كيف يستنهض همم رجاله للعمل والقتال.

وفي الوقت نفسه، صعدت ست مصفحات من بيت عمره الى «سرج المختار»، وحاولت التقدم في اتجاه كفار عتسيون. وتوقف تقدمها بعد ان غرز عدد منها في الطريق الى كفار عتسيون، وواصلت صب نيرانها على ساحة المستعمرة.

وهاجمت قوة ثالثة خربة صوير. وصد المدافعون عدة هجمات على الموقع. وبعد ان

شاهدوا مصفحات العدو تتحرك نحو تل الشجرة وتوشك ان تعزلهم عن المؤخرة، سارعوا الى الانسحاب. لكن عندما بدأ الانسحاب كان الرجال قد تخلوا عن تل الشجرة والتل الاصفر. وحتى الساعة ١١ كان العدو قد احتل سلسلة المواقع الكائنة في وسط الغوش والفاصلة بين جزئيها الشمالي والجنوبي. والى جانب ذلك فقدت الغوش ايضا مدرج المطار، الذي كان وسيلة الاتصال الوحيدة بقوات «الهاغاناه» خارج الغوش، وبذلك انعدمت فرص تلقي مساعدة حقيقية عن طريق الجو. وقد عقد المدافعون عن الغوش املهم على هذه المساعدة وطلبوا، في الاتصالات اللاسلكية التي اجروها بقيادة «الهاغاناه» في القدس، ارسال «عصافير» لمساعدتهم. وفي ساعات العصر بدأت طائرات «الهاغاناه» بالوصول، لكن فعاليتها كانت قليلة في هذه المرحلة. ووقعت جميع الاسلحة التي ألقيت بالمظلات في المناطق التي كان العرب قد احتلوها.

وتشهد روايات قادة «الفيلق العربي» ــ من جهة ــ على عدم فعالية القوات العربية غير النظامية، التي عملت الى جانب رجال «الفيلق»، كما تشهد ــ من جهة اخرى ــ على قلة الاسلحة التي كانت لدى اليهود. «بسبب عدم وجود اسلحة ثقيلة في حيازة اليهود» ــ ذكر احد الضباط العرب ــ «فانهم كانوا يتركون جنود «الفيلق» والقرويين يتقدمون الى مسافة قريبة جدا من مواقعهم، ومن ثم يفتحون عليهم نيرانا كثيفة. وقد تكرر هذا الامر عدة مرات. وحدث في عدة حالات ان خيل الينا ان موقعا ما قد هجر او ان المدافعين عنه قد قتلوا، لكن عندما كنا نقترب منه كنا نجد فيه شخصا يبادرنا باطلاق النار من سلاح اوتوماتيكي. وأذكر حادثا معينا متعلقا بموقع تم اسكاته تماما. اقتربنا منه، وفجأة نهض شاب اشعث الشعر ينزف دما، وألقى علينا قنبلة يدوية ثم اطلق النار علينا فورا بعد ذلك».

وبعد ان انقسمت الغوش الى قسمين، بدأ قائد القطاع الشمالي يبعث الى القدس برسائل صريحة مطالبا بـ «اخلاء الغوش لانقاذ حياة الباقين» (ترابنين).

وحل الليل، وأوقف العرب هجومهم. لكن الجانب اليهودي لم يقم بأي نشاط لتجديد الاتصال بين الشمال والجنوب، او لتحسين وضعه بطريقة من الطرائق. وفي الجنوب فقط أُنجز في تلك الليلة عمل كبير: نقل ٦٥ جريحا تحت جنح الظلام من المستشفى المقصوف في كفار عتسيون الى مسؤوت. ووصل عدد الخسائر في الليلة نفسها الى ٧٠ شخصا ما بين قتيل وجريح. *1439

واستمر في الليلة ذاتها آلاف القرويين من المناطق المجاورة في التدفق على المكان على امل المشاركة في اقتسام الغنائم. وكان بينهم ايضا نساء وأطفال. وداس كثيرون منهم ألغاما فتمزقوا أشلاء، او تمزقت أطرافهم. «اضطررنا» ــ روى ضابط عربي ــ «الى تخصيص جزء من قوات «الفيلق» لمنع اقتراب الاشخاص غير المسلحين من المعركة».

---

* الصفحة 1438 في الاصل تحتوي على خريطة المعركة الاخيرة في غوش عتسيون. (المترجم)

ومع فجر ١٣/٥، تجددت المعركة على كفار عتسيون. وصمدت مجموعة مقاتلين حتى منتصف النهار في تلة الصخور التي كانت تسيطر على الطريق الداخلية الى كفار عتسيون وتمنع الوصول اليها من ناحية الشمال. لكن هذه المجموعة، بعد ان نفدت ذخيرتها، اضطرت الى الانسحاب الى مسؤوت. وعندها اقتحمت مصفحات «الفيلق» ساحة كفار عتسيون. ولم تستخدم اجهزة الحماية في بوابة المستعمرة الملغومة، ولا البيات [مدفع مضاد للدروع]، ولا زجاجات المولوتوف. واندفعت المصفحات الى ساحة المستعمرة، وخلفها جماهير الفلاحين وهي تصرخ «دير ياسين، دير ياسين». وما هو معروف عما حدث في كفار عتسيون في اللحظات التي اعقبت ذلك، مصدره في الاساس روايات ضباط «الفيلق» وعدد من الناجين. خرج، كما يبدو، قائد المنطقة وعدد من الرجال رافعين علما ابيض ومتجهين نحو المصفحات، التي اطلقت النار عليهم وقتلتهم. وحاول عدد من ضباط «الفيلق» السيطرة على الرعاع لكنهم لم يفلحوا. وبعد ذلك صدر امر من المستويات العليا بافساح المجال للقرويين للتصرف على هواهم. وقتل معظم المدافعين في مواقعهم، كما قتل آخرون كانوا على الطريق في محاولة شق طريقهم للوصول الى مسؤوت. وقد قتل في كفار عتسيون على يد الرعاع ١٢٧ شخصا، بينهم ٢١ امرأة. وبقي في قيد الحياة ٤ اشخاص. انقذ عرب ثلاثة منهم بينما وصل الرابع تحت جنح الظلام الى مسؤوت، فروى لرجالها مصير كفار عتسيون. وبذلك انتهت عمليا المعركة الاخيرة في غوش عتسيون، التي سقط فيها ١٥٥ من المدافعين اليهود.

الاستسلام

انتظرت المستعمرات الثلاث الاخرى مصيرها. وبعد ان انقطع الاتصال اللاسلكي بالقدس بفعل نفاد البطاريات، بدىء اتصال بواسطة الاشارات عن طريق معاليه هحميشاه. وقبيل المساء وصلت الى قيادة منطقة القدس البرقية التالية من القيادة العليا: «أشرعوا فورا في محادثات مع الجيش البريطاني لاجلاء الرجال عن غوش عتسيون. واذا لم يكن هناك امل بالجلاء أخطروا الرجال، باسم القيادة العليا، بأنهم مخولون، في حال فقدان الامل، باتخاذ القرار فيما يتعلق برفع العلم الابيض لانقاذ حياتهم، مع اعطاب الاسلحة والمواد القتالية قدر الامكان». لكن كانت قد انتشرت في الغوش انباء مصير رجال كفار عتسيون. وتقرر عدم الاستسلام مهما يكن الامر. وبعد فترة وجيزة من حلول منتصف الليل، وصل نبأ من القدس انه بوساطة الجيش البريطاني تم الاتفاق على ان تبدأ هدنة في الغوش اعتبارا من الساعة الرابعة صباحا. [وبموجبها] يؤخذ الرجال اسرى، وينقل المصابون بجروح خطرة والنساء الى القدس بواسطة «الصيب الاحمر».

وكان ١٩٤٨/٥/١٤ ــ وهو يوم اقامة دولة اسرائيل ــ يوم استسلام بقية المدافعين عن

غوش عتسيون. وفي البداية اخذ رجال «جيش التحرير» المحليون على عاتقهم امر تسلم الاسرى، لكن اتضح بسرعة انهم لا يستطيعون السيطرة على جمهور الرعاع المتعطش الى الدم. ولم تتوقف اعمال قتل الاسرى إلا بعد تدخل قوات «الفيلق». وفي الساعة التاسعة والنصف صباحا، وصلت البرقية الاخيرة من عين تسوريم، التي انتهت بالكلمات التالية: «الليلة لن نكون هنا». وفي مسؤوت سلم الرجال انفسهم لجنود «الفيلق» في ساعات المساء فقط. وجرى الاستسلام تحت ضغط جماهير الرعاع، التي كانت متعطشة الى قتل اليهود، وأكثر من ذلك الى السلب والنهب. وجدير بالذكر ان ضباط «الفيلق العربي» بذلوا، في ذلك اليوم، كل ما في وسعهم لحماية الاسرى، واذا كانت قد حدثت بضع حالات اعتدى فيها الرعاع على الاسرى، فان اكثريتهم العظمى، ٣٢٠ شخصا ــ منهم ٨٥ امرأة ــ وُضعت في سيارات اقلتها الى الخليل ومنها ــ في نهاية الامر ــ الى معسكر الاسرى التابع لـ «الفيلق العربي» في المفرق، حيث جمع كل اسرى حرب الاستقلال، الى حين اطلاق سراحهم بعد الهدنة الاسرائيلية ــ الاردنية في شباط/فبراير ١٩٤٩. 1440

الفصل الثالث والسبعون

الصراع على طرق المواصلات

حركة المواصلات ــ نقطة الضعف في الدفاع عن الييشوف

كانت نقطة الضعف في الدفاع عن الييشوف اليهودي هي نظام طرق المواصلات. ولم يكن مصادفة كون الضحايا الاولى لحرب الاستقلال ستة مسافرين في باصين يهوديين، هاجمهما رجال حسن سلامة، قائد العصابات العربية في منطقة اللد، بالقرب من مطار اللد صباح اليوم التالي لاعلان الامم المتحدة.

خلال عشرات السنين من الاستيطان نجح المستوطنون اليهود في انشاء مناطق متصلة ببعضها البعض جغرافيا، كانت تمر عبرها شوارع وطرق داخل تجمعات سكنية يهودية شديدة الازدحام، وكانت لليهود في هذه الطرق اليد الطولى منذ البداية، واستمرت الحركة فيها بصورة منتظمة، ولو عبر طرق فرعية احيانا.

وكان احد هذه الطرق طريق تل ابيب ــ حيفا، الذي كان في طرفه الشمالي فقط ــ قبالة قرى الطيرة واجزم وعين غزال ــ يمر في منطقة عربية، وعندما ازداد التوتر في البلد اصبح من الضروري الالتفات حول هذه القرى، والسفر الى حيفا عن طريق وادي الملح. لكن كانت هناك محاور حركة حيوية تمر اغلبيتها في مناطق عربية، وكان ابقاؤها مفتوحة امام حركة النقل من اصعب المهمات التي انيطت بمنظمة «الهاغاناه». وكانت محاور الحركة هذه، المهمة بالنسبة الى الييشوف اليهودي، هي: الطريق من تل ابيب الى القدس التي كان من المحتمل ان يؤدي قطعها الى ازمة خطرة وحتى الى مجاعة في منطقة القدس اليهودية خلال فترة قصيرة؛ الطرق الى النقب، الذي كانت عشرات النقاط الصغيرة التي اقيمت فيه مرتبطة ــ في كل ما هو لازم لها ــ بمستعمرات الشمال البعيدة؛ طريق طبريا ــ المطلة، وطريق حيفا ــ نهاريا ــ حانيتا، وكل الشوارع والطرق المفضية الى مستعمرات بعيدة ومنعزلة (غوش عتسيون ويحيعام، الخ).

وبالنسبة الى العرب، الذين كانوا ينشطون من مناطقهم، كان من السهل جدا عليهم شل حركة المواصلات باغلاق الطرق ومهاجمة السيارات، الخ. وبهذه الوسيلة كان في

استطاعتهم تفتيت اليشوف اليهودي الى كتل، لم يكن كثير منها مهيأ للصمود في حصار الطرق هذا لأكثر من اسابيع معدودة.

أما العنصر البريطاني، الذي تعاون في السنوات السابقة مع اليهود للمحافظة على انتظام حركة المواصلات في طرق البلد، فقد انقلب الآن الى عنصر غير ثابت، وأحيانا حتى الى عنصر معاد ومشاغب. لقد كان البريطانيون بحاجة الى الطرق الرئيسية لاجلاء جيوشهم عن البلد، وبصورة عامة وضعوا لأنفسهم هدفا محددا هو: ضمان حركة منتظمة لسياراتهم في الشوارع الحيوية بالنسبة اليهم. أما الشوارع والطرق التي لم تكن ضرورية للجلاء، فقد تخلوا عنها. كما نظروا باستياء الى كل محاولة من جانب اليهود للسيطرة على جزء من اي طريق حيوي للبريطانيين، كان يمر بمنطقة عربية، وذلك لا بدافع من حرصهم على العرب بل لأن ظهور اليهود كان يحول الجزء الى مكان مرشح للتحرشات ولزرع الالغام ولاغلاق الطريق، الخ. وفي مثل هذه الحالات كان البريطانيون يطلقون يد العرب، وأحيانا يساعدونهم لابعاد اليهود الذين بدوا انهم اخترقوا منطقة ليست لهم. لكن عندما كان يتضح لهم ان الامر ليس سهل الانجاز، وأن اليهود متمسكون بعناد بالموضع، فانهم كانوا احيانا يأخذون على عاتقهم مهمة الدفاع عن الطريق ضد العرب. 1442

وعندما لا يعود الطريق يخدم أغراض البريطانيين، او عندما كان البريطانيون يجدون امكانا للتنقل عبر طريق آخر، ليس فيه صدامات بين الطرفين، فانهم كانوا يتخلون عن الطريق لمن كانت له الغلبة والسيطرة عليه.

وكان اول تدبير اتخذته حركة النقل اليهودية ضد الهجمات العربية، هو البحث عن طرق اكثر أمانا، طرق جديدة وطرق غير مباشرة، اطول مسافة لكن تمر عبر مناطق اقل خطورة.٠ وحرص المسافرون الى القدس على الالتفاف قدر الامكان لتجنب كل القرى العربية الواقعة في الطريق، لكن لسوء الحظ لم يكن الامر ممكنا إلا في ذلك الجزء من الطريق الموصل حتى جبال يهودا [الخليل]. وأصبح طريق صفد ـ عكا مغلقا تماما في وجه حركة النقل اليهودية، التي اضطرت الى التحرك من الجليل الشرقي الى حيفا عن طريق طبريا. وبعد قطع طريق حيفا ـ نهاريا، اصبح من الضروري اقامة الاتصال بالجليل الغربي بحرا بواسطة الزوارق.

وكان التدبير الثاني الذي اتخذته «الهاغاناه» هو مواكبة حرس مسلح للسيارات وبعد ذلك مواكبة مصفحات للقوافل. وبمرور الوقت، كبر حجم القوافل على الطرق الخطرة، وقل عدد سفراتها من قافلة واحدة في اليوم الى قافلة واحدة في الاسبوع او اكثر من اسبوع، وازدادت الحراسة عليها بصورة مطردة. وبعد فترة بدىء باحتلال موقت لمواقع مسيطرة على الطريق. وفي نيسان/ابريل ١٩٤٨ فقط توصلت «الهاغاناه» الى استنتاج ان ليس هناك وسيلة اخرى لتأمين الطرق سوى السيطرة التامة على المناطق التي تمر عبرها تلك الطرق.

وكان التدبير الثالث هو الاعمال الانتقامية. ففي مقابل كل اعتداء على حركة النقل

اليهودية كانت توجه ضربة الى حركة النقل العربية قرب المكان نفسه قدر الامكان. وفي ١٩٤٧/١٢/٩، وصل امر من شعبة العمليات الى قادة القوافل، صادر «عن الرغبة في ضمان حرية حركة مواصلاتنا»، وفحواه انه «تقرر اتخاذ تدابير مضادة الهدف منها: مضايقة وشل حركة مواصلات «شيم» (العرب) في أجزاء الطرق المفصلة ادناه». وتلقى كل قائد معلومات مفصلة عن الشوارع والطرق التي يجب ان يعمل فيها، في اللحظة التي يتلقى فيها أمرا بذلك من هيئة الاركان العامة. وأُدخل في الاعتبار مستويان من العمليات: أ ـ مهاجمة وسائط النقل من دون المساس بالاشخاص؛ ب ـ مهاجمة المسافرين والسيارات معا. وبصدور هذا الامر اعطيت الاشارة لحرب مريرة وقاسية على حركة المواصلات، استمرت حتى قيام دولة اسرائيل.

الدفاع عن الطريق الى القدس

في ١٩٤٧/١٢/٢، بعد ان هاجم العرب السيارات اليهودية بالحجارة والرصاص في الرملة ومشارف يافا وتل ابيب، اصدرت الشرطة أمرا الى السيارات اليهودية بالتوقف عن التنقل على طريق تل ابيب ـ القدس. وأصبح التنقل يتم منذ ذلك التاريخ بقوافل تحرسها الشرطة. وعينت هيئة الاركان العامة ميشائيل شختر (شاحام) مسؤولا من قبلها عن حماية شبكة المواصلات اليهودية. وكان الواجب الاهم الذي اوكل اليه تأمين الطريق الى القدس.

في الايام الاولى لنشوب الاضطرابات، كانت قوافل السيارات تمر عبر الطريق الرئيسي بين القدس وتل ابيب بمواكبة شبان مسلحين. وعلى الاغلب كان هناك في كل فريق حراسة شاب وفتاة، كانت تحتفظ في متاعها بمسدس وقنبلتين يدويتين. وكان المرافقون يجندون من بين أفراد منطقة تل ابيب. وفي معظم الاحيان كانت السيارات تتفادى الرملة، حيث كانت تتعرض لالقاء الحجارة عليها، وتسافر عن طريق غيزر وريشون لتسيون. وكان الأحداث في القرى العربية (يازور، والقباب) يرجمون القافلة بالحجارة، لكن كانت تكفي وقتئذ رصاصة واحدة او رصاصتان في الهواء لتفريق جمهور الرعاع.

«كانت هناك تسع نقاط خطر على طول الطريق» ـ روى شلومو غازيت ـ «ابو كبير، ويازور، وبيت دجن، والرملة، والقباب، ودير ايوب، ومنعطفات الطريق الى الشرق من باب الواد (شاعر هغاي)، وساريس، والقسطل. ان اجتياز الطريق من تل ابيب الى مكفيه يسرائيل، عبر حي هتكفاه (انظر ص 1375)، وتفادي الرملة عن طريق المسمية او كفوتسات هداسا (غيزر)، واستغلال طريق البساتين الى ريشون لتسيون تفاديا ليازور وبيت دجن، اوجدت عمليا طريقا جديدا كان يمر كله تقريبا في مناطق يهودية، بينما ظل القسم الشرقي من الطريق بين خولده والقدس يمر في المنطقة العربية من دون اي امكان للالتفاف حوله. وهكذا

1443

نشأ وضع تركز فيه معظم الهجمات في القسم الشرقي والجبلي من الطريق، وفي الاساس في القطاع الواقع بين باب الواد والقرية العربية ساريس» («كتاب البلماح»).

وفي ١٢/٩، نقلت المسؤولية عن طريق القدس الى قيادة البلماح، التي عينت نائب قائد الكتيبة، مكابـي موتسيري، مسؤولا عن حماية الطريق. وأوكلت حراسة الطريق الى قوتين منفصلتين: في تل ابيب اقيم مقر قيادة «مركز المواصلات» في محطة الباصات المركزية؛ وفي القدس اقيم مقر قيادة «مركز المواصلات» في مباني الوكالة اليهودية واشترك فيها ممثلون عن قيادة «الهاغاناه» في الاقليم، وممثلون عن البلماح، ومسؤولو «ايغد». ودعي مكتب المسؤول عن تنظيم حماية القوافل باسم «شمعون فورمان»، وأُسبغ هذا اللقب لاحقا على كل مرافقي القوافل المقدسيين («الفورمانيه»). وعينت كل واحدة من القوتين المنفصلتين حراسا من رجالها على المنطقة ومرافقين للقوافل. واستخدم في تل ابيب رجال سرية احتياطيي البلماح بقيادة ناحوم اريئيلي. وأرسلت وحدة الى مكفيه يسرائيل لمراقبة الطريق حتى يازور، ووحدة اخرى الى مبنى «هكيرن هكييمت»، القريب من بيت دجن (انظر ص 1447). وعسكرت فصيلة معززة في خولده. وفي القدس شكل قائد السرية الثامنة التابعة للبلماح، عاموس حوريف، وحدة خاصة لحماية الطريق من بين رجاله ورجال الاحتياط في القدس (معظمهم طلاب في الجامعة). وعسكرت فصيلتان في منطقة كريات عنافيم (كريات عنافيم، ومعاليه هحميشاه، ونفيه ايلان) لحماية الطريق حتى باب الواد وللقيام بعمليات انتقامية. وبقي الجزء الواقع بين باب الواد وخولده عمليا من دون قوات حماية بداخله.

في الشهر الاول للحرب كانت القوافل تسافر من دون مواكبة المصفحات. ومع ازدياد حجم القوافل اضيف الى المدافعين الاثنين الجالسين داخل كل سيارة، سيارتان او ثلاث سيارات تكسي، في داخلها جماعات دفاع مسلحة هي ايضا بمسدسات وقنابل يدوية. وكانت السيارات الصغيرة تتجول جيئة وذهابا على امتداد القافلة. وصاحب كل جماعة مرافقين خبراء بتفكيك الالغام لتولي امر الحواجز. وتوزع الحرس المرافق بين الوحدتين: «سيارة واحدة للمقدسيين، وسيارة اخرى للتل ابيبين» (ش. غازيت).

وكان البريطانيون في تلك الفترة يفتشون مرافقي القوافل بحثا عن السلاح، مما اضطر هؤلاء المرافقين الى اخفاء اسلحتهم في مخابـىء سرية او في ثياب الاناث من الاعضاء المرافقات، وحين دخولهم الى المناطق الخطرة فقط كانوا يجهزون اسلحتهم للاستخدام الفوري. وبالاضافة الى النقص في الاسلحة والذخيرة، كان المرافقون يعانون الافتقار الى ألبسة ملائمة لشتاء جبال الخليل القارس.

وفي ١٢/٢٦، هوجمت قافلة في مرتفعات القسطل. وقتل اربعة يهود (بينهم هانس بايت، مدير دائرة هجرة الشبيبة في الوكالة اليهودية). وبعد عدة ايام من ذلك، اعتقل رجال الشرطة البريطانيون احدى المرافقات، التي وجد في حيازتها سلاح فصادروه. وبما انه كان بين المسافرين مع القافلة غولدا مئيرسون (مئير)، من الدائرة السياسية للوكالة اليهودية،

فان المندوب السامي لم يستطع ان ينكر تصرفات رجاله الهمجية واضطر الى الوعد بعدم تكرارها.

واعتبارا من بداية كانون الثاني/يناير، بدىء باستخدام باصات وشاحنات مصفحة. وبعد عدة اسابيع بدأ المرافقون ايضا يستخدمون سيارات مصفحة («سندويشات») وتأمنت حياة السائقين والمسافرين، لكن التصفيح الثقيل تسبب بابطاء سرعة السفر. كما اضيفت بسرعة رشاشات برن، نصبت فوق سيارات الحرس. وحسنت هذه الاجراءات الوضع موقتا على طريق القدس. 1444

وذكر تقرير خاص بشعبة العمليات، في ٢/٣، ان حراسة طريق القدس كانت تشغل ٤٣١ مقاتلا، من رجال البلماح وقوة الميدان وقوة الخفارة. وكان في حيازتهم ١٦ مدفعا رشاشا، و ٧٠ بندقية، و ٤ مدافع هاون عيار ٢ بوصة، ومدفع هاون واحد عيار ٣ بوصات. وكانت تصعد [الى القدس] يوميا قافلتان او ثلاث قوافل، وصل معظمها بلا خسائر او أضرار. وكانت ترافق القوافل اجهزة اتصال، ولاحقا ـ اعتبارا من اول آذار/مارس ـ طائرة صغيرة («بريموس») كانت تحلق فوق السيارات بجولات استطلاعية وتقدم تقارير الى مرافقي السيارات. وكانت السيارات تسلك الطريق الملتوي رحوفوت ـ ناعان ـ القباب ـ اللطرون او ناعان ـ خولده ـ اللطرون.

وفي الايام الاولى لحراسة الطريق، قام الخفراء من أفراد «شرطة المستعمرات العبرية» بدور مهم، ذلك لانه من جهة كان مسموحا لهم بحمل سلاحهم علنا، ومن جهة اخرى كان سلاحهم، البنادق ومدفع رشاش لويس، متفوقا في نوعيته على السلاح غير المشروع الذي كان لدى خفراء «الهاغاناه». وقد واكب الحرس السيّار التابع لقوة الحراسة القوافل، وقام بأعمال الدورية في طرق خارجة عن نطاق مناطقه، الامر الذي جر في اعقابه توبيخات شديدة اللهجة من جانب السلطات البريطانية. وفي رسالة من السكرتارية العامة لحكومة ارض ـ اسرائيل الى الوكالة اليهودية، ذكر ان ١٤ من رجال «شرطة المستعمرات العبرية» قتلوا وعشرات جرحوا في الشهر الاول للحرب. «تقريبا جميع هؤلاء المصابين» ـ ادعت السكرتارية العامة ـ «هم من بين أفراد «شرطة المستعمرات العبرية» الذين ـ خلافا للأوامر ـ تركوا المستعمرات التي انيطت بهم حراستها، ليواكبوا من دون موافقة على ذلك قوافل نقل يهودية». لقد كان مسموحا للحرس السيار الخاص بريشون لتسيون بالسفر حتى بيت دجن فقط، لكنه كان يستمر في مواكبة القافلة حتى خروجها من نطاق قرية يازور، السيئة الصيت. وغطى الحرس السيار الخاص بغديره ومعاليه هحميشاه مسافة الطريق من باب الواد الى اللطرون، التي كانت خارج منطقة حركته الرسمية. وحتى بعد ان حظر امر صريح صادر عن الشرطة على الحرس السيار هذه التجاوزات، استمر الخفراء فيها بناء على أوامر من هيئة الاركان العامة، وغض البريطانيون الطرف عن ذلك. وفي ١٩٤٨/١/٢٢، هاجم العرب في يازور سيارة الحرس السيار الخاص بحولون في اثناء قيامها بأعمال الدورية العادية

اليومية في طريق تل ابيب ـ القدس، الذي كان يمر عبر القرية. واستشهد سبعة خفراء. ووفقا لأمر هيئة الاركان (انظر ص 1442) ردت «الهاغاناه» على الفور بعدة عمليات انتقامية، قامت بها في الاساس وحدة الاحتياط التابعة للبلماح، التي كان قائد الحرس السيار الذي قتل، إلياهو (إليك) شامير، واحدا من اعضائها. فبعد عملية القتل مباشرة هاجم رجال الاحتياط وسائط النقل المتجهة الى يافا، وقضوا على ثماني سيارات عربية بركابها. ووصلت العمليات الانتقامية الى ذروتها بنسف معمل الثلج في يازور في ١٩٤٨/٢/٢٠. لكن من الناحية العملية اغلقت طريق يازور في وجه حركة النقل اليهودية.

ومن اجل ايقاف نشاط العرب في المنطقة الاشد خطرا، منطقة باب الواد، بدأ رجال البلماح باحتلال مواقع عسكرية في المنطقة. لكنهم اكتفوا بـ «احتلال، غير متصل جغرافيا وغير منهجي، لأحد مواقع باب الواد، اي احدى القمم الخمس لسلسلة المرتفعات الواقعة شمالي الطريق بين باب الواد وساريس» («كتاب البلماح»). وكانت جماعة من البلماح معززة تصعد مع الفجر من نفيه ايلان وتمكث في الموقع حتى غروب الشمس. «ان الحركة في ضوء النهار، في المنطقة نفسها وبقوات قليلة العدد الى هذا الحد، هي بمثابة انتحار» (المصدر السابق). وكانت يتم اتصال المواقع بالقاعدة بواسطة الحمام الزاجل. «ان موقعا كهذا» ـ كتب ش. غازيت ـ «لم يكن في وسعه السيطرة على الطريق سواء من ناحية قوته الضئيلة او من ناحية مداه العملياني المحدود. ولم تكن مهمته اكثر من مجرد تشكيل عائق، يجتذب اليه جزءا من الهجوم العربي لا بأس فيه» (المصدر السابق). 1445

وفي شباط/فبراير، استكمل إعداد طريق ترابية من ناعان الى خولده. وشقت طريق ترابية اخرى من حولون الى ريشون لتسيون، لتفادي يازور. وكانت هاتان الطريقان عرضة للتلغيم وبقيت القوافل اليهودية تسافر على الطريق المار بقرية عقور حتى ٢/٨، لكن بعد عدة عمليات انتقامية في الجوار، قتل نتيجتها عدد من سكان عقور، أغلق هذا الطريق ايضا. ومن جهة القدس بدأت قرية القسطل تستخدم قاعدة انطلاق لعرقلة حركة المواصلات. وفي ١/٢٢، هوجمت قافلة مكونة من ٣٠ سيارة انطلقت من القدس في مرتفع القسطل. وقتل احد السائقين. وتعرضت دورية عسكرية بريطانية كانت مارة بالمكان لنيران العرب، فأطلقت نيران مدفعيتها عليهم وفرقتهم. وبعد ثلاثة ايام، خرجت فصيلة من قاعدتها في كريات عنافيم للقيام بأعمال الدورية على طريق القدس. واصطدمت في منطقة القسطل بكمين عربي منصوب لقافلة، فنشبت معركة طويلة، انضمت اليها وحدة من الجيش، اطلقت النار بلا تمييز من المدافع ومن اربعة رشاشات. وفرت العصابة. وسقط في هذه المعركة عشرة مقاتلين يهود (اصيب عدد منهم برصاص البريطانيين).

واتبع العرب بعد ذلك اسلوب «الفزعة»؛ فعندما كان يصل نبأ عن اقتراب قافلة يهودية كان مراقبون يستصرخون رجال القرية المجاورة (او عدة قرى) للخروج بأسلحتهم ومهاجمة القافلة. وفي معظم الاحيان، كان النسوة يرافقن الرجال لاثارة الحماسة فيهم وعلى امل الفوز

بغنائم. وكان هذا الجمهور ينضم الى العصابة النظامية. وكان يبقى في القرى الشيوخ والاطفال. وكان رجال مسلحون ينتشرون بالقرب من الطريق، على مسافة عدة كيلومترات.
وكانت تُهاجم بصورة عامة القوافل الصاعدة الى القدس لانها كانت تسير ببطء في مرتفعات الجبل وهي محملة بحمولة ثقيلة، بينما كانت القوافل الخارجة من القدس، وهي فارغة وهابطة المنحدر، تسير بسرعة كبيرة. وعندما كان يحدث ان تهاجم قوافل خارجة من القدس، فانها كانت على الاغلب قوافل مسافرين. 1446

وبمرور الوقت اوقف البريطانيون عمليات التفتيش عن السلاح والاعتقالات. ونجح المرافقون في عقد صلات بالجنود، الذين كانوا يحذرونهم احيانا من كمائن في الطريق، وأحيانا عندما كانوا يصابون هم ايضا برصاص العرب، كانوا يساعدون القوافل بتقديم نيران [مساندة].

وكلما ازداد الوضع خطورة ازداد عدد القوافل. وبصورة عامة كان عدد السيارات في القافلة الواحدة، في تلك الفترة، ١٥ ــ ٣٠ سيارة. وأوكلت قيادة القافلة الآن، التي كانت في بداية الاحداث توكل الى قادة جماعات، الى قادة فصائل. وجرت المحافظة بدقة على ان تكون المسافة بين السيارة والاخرى في اثناء السفر ٤٠ مترا، وحظر على السيارات اللحاق ببعضها البعض. وكانت رحلة القافلة المصفحة من تل ابيب الى القدس تستغرق اربع او خمس ساعات، اذا لم تقع هجمات في الطريق.

وفرضت رقابة على الحمولة لضمان عدم احتوائها على كماليات او بضائع غير حيوية. وكان لا بد من محاربة السماسرة الذين حاولوا تهريب بضائع لجني ارباح سهلة في المدينة محاصرة. وبمرور الوقت سمح للسائقين بأن ينقلوا معهم كميات معينة من بضائع خاصة لتعويضهم من جهودهم. واشتملت هذه البضائع، في الاغلب، على رزم اغذية مرسلة من سكان السهول الساحلية الى اقربائهم في القدس. وقد جند السائقون للعمل، طوعا او كرها، مع الوعد بتعويضهم بصورة كاملة في حال دمار السيارة. وقد اصيبت ودمرت نحو ٥٠ ــ ٦٠ سيارة في الطريق الى القدس الى ان تم تحرير الطريق تماما.

وفي شباط/فبراير، عُززت قوات البلماح العاملة في حراسة الطريق. في القدس ازداد حجم السرية الثامنة عن طريق تجنيد الاحتياطي حتى تحولت الى كتيبة البلماح السادسة بقيادة تسفي زمير، نائب قائد الكتيبة الثانية. وفي تل ابيب كُلِّف قائد السرية شاؤول يفيه انشاء الكتيبة الخامسة التي كانت نواتها سرية الاحتياط في المدينة.

وفي ٢/٢٣، حدث انعطاف مهم في وضع طريق القدس ــ اللطرون. فقد امر قائد الجيش البريطاني سياراته بهجر الطريق والسفر على طريق الرملة ــ اللطرون. وكان الهدف من الامر منع رجال الجيش البريطاني من التورط في المعارك في منطقة باب الواد. وكانت قافلة بريطانية واحدة فقط تخرج من حين الى آخر لجلب مؤونة للعاملين في محطات ضخ المياه الموجودة على الطريق. ومنذ ذلك الوقت، وقف العرب واليهود قبالة بعضهم البعض. وأتيح

للعرب امكان اغلاق الطريق، وبين فترة وأخرى كانت القوافل تصطدم بحواجز من الاحجار الكبيرة، مضافة اليها احيانا ألغام ومواد متفجرة.

وكانت الخطوة الاولى التي اقدمت عليها قيادة البلماح هي توحيد كتيبتي البلماح، الخامسة والسادسة، بقيادة شاؤول يفيه، لحراسة طريق القدس. وأضيفت، لمرافقة القوافل، السيارات المصفحة الخاصة بـ«الهاغاناه» التي كانت تستخدم خلال سنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، ومجموعة قادة اكتسبوا خبرة من خدمتهم في وحدات النقل اليهودية في الجيش البريطاني. وسمحت السلطات [البريطانية] باستخدام هذه السيارات، شرط وضع خط بالدهان الابيض على جوانبها لتمييزها عن السيارات المصفحة البريطانية، التي قد يصادَف وجودها احيانا في الطريق. وكان يتقدم القافلة خبير متفجرات، مهمته تفجير الحواجز وازالة المواد المتفجرة المخفية في الطريق. وبعد ذلك، كانت كاسحة حواجز تقتحم الحاجز فتهدمه.

وفي ٢/٢٥، مرت مصفحة كانت تتقدم القافلة فوق لغم، وعلى الفور بدأ هجوم قوي، قتل فيه ثلاثة من سائقي الشاحنات. ورد مرافقو القافلة باطلاق النار، ومرت القافلة بسلام وسحبت السيارات التي قتل سائقوها الى القدس. وفي ٢/٢٩، استخدم العرب اول مرة رصاصا خارقا للدروع، وذلك في هجوم بالقرب من دير ايوب، كانت نتيجته مقتل اثنين من رجال البلماح. وتحولت المعارك على الطريق الى شأن يومي. وفي ٣/٤، اقام العرب حواجز من باب الواد حتى ساريس. وخرجت وحدات من البلماح من منطقة كريات عنافيم، وأغارت على المناطق المجاورة، واشتبكت في معارك مع الكمائن العربية. وسقط ٣ رجال في المعركة. ومع ذلك استمرت القوافل في الوصول الى المدينة. وفي ٣/٢١، احتل العرب مواقع على طول الطريق بأكمله من باب الواد حتى ساريس، وأطلقوا النار على قافلة. ودارت معركة على هذا الطريق لمدة سبع ساعات مساء عيد بوريم (٣/٢٤). وفي القافلة المكونة من ٣٠ شاحنة، تواكبها ٧ مصفحات، مرت احدى الشاحنات فوق لغم، فتحطمت وتسببت باغلاق الطريق. وجمع قائد القافلة السائقين ونقلهم الى محطة ضخ المياه في ساريس. ووزع الضابط البريطاني الموجود في المحطة ذخيرة المدافع الرشاشة، وأشرك اليهود في الدفاع ضد العرب الذين هاجموا المحطة وقتلوا عددا من الجنود البريطانيين. «لقد كان موقف الجيش مثاليا» ــ ذكر التقرير اليومي لهيئة اركان البلماح. وفي منتصف الليل فقط، حضرت قوات الجيش وأنقذت القافلة. وتركت ١٤ سيارة (بينها مصفحتان) في المكان، فغنم العرب حمولتها. وعادت اكثرية سيارات القافلة الى خولده. لكن مع فجر اليوم التالي ــ والفلاحون يغطون في نومهم بعد ليل المعركة والنهب ــ عادت القافلة، بعد ان اضيفت اليها سيارات كثيرة في خولده، فوصلت وسط دهشة بالغة الى القدس، من دون اي عائق.

وبعد تفريغ السيارات من حمولتها، جندت مع سائقيها لرحلة الى كفار عتسيون، انتهت بعد عدة ايام الى مصير سيىء (انظر ص 1452). وقد فقد في هذه الرحلة معظم

1447

السيارات المصفحة المستخدمة في مرافقة القوافل. وانتصبت امام هيئة اركان «الهاغاناه» بكل خطورتها مشكلة شق طريق الى القدس بوسائل اخرى، تجسدت بعد اسبوع من ذلك في عملية «نحشون» (انظر ص 1562).

قصة مبنى «هكيرن هكييمت»

ان احدى قصص البطولة العنيدة لحماة طريق القدس تعطينا نموذجا لما قدر للمقاتلين ان يواجهوه في شتاء سنة ١٩٤٨. فلقد كان مبنى «هكيرن هكييمت» مبنى منفردا مؤلفا من ثلاث طبقات، قائما جنوبي طريق يافا ــ القدس، وواقعا على بعد ٦٥٠ مترا غربي مركز شرطة بيت دجن. وقد هجر السكان المكان مع نشوب الاضطرابات. لكن بسبب الاهمية الكبيرة للمبنى، الذي كان يسيطر على الطرق الى القدس ومستعمرات الجنوب ويستخدم موقعا متقدما لغوش حولون ــ موليدت، قررت «الهاغاناه» التمسك به. وعندما حولت حركة النقل اليهودية جنوبا، استخدم المبنى ايضا موقعا للدفاع عن الطريق الجديد، وقاعدة يمكن ان تنطلق منها عمليات انتقامية ضد حركة النقل العربية. «هذا المبنى كشوكة في لحمنا وينبغي تدميره» ــ روى ألماني، عضو في عصابة عربية ــ «من هنا يسيطر اليهود على الطريق الوحيد بين الرملة ويافا» (فريتسكا).

وبتوسط من رجال الشرطة البريطانيين في مخفر بيت دجن تم التوصل الى «اتفاق جنتلمان» يقضي بعدم القيام بعمليات عدائية بين اليهود والعرب من شروق الشمس حتى مغيبها. وفي الاسابيع العشرة الاولى للحرب، كانت تشغل المبنى وحدة من احتياطيي البلماح، مشكلة من ١٨ شخصا. واتخذوا مواقع لهم في المبنى وراقبوا الطريق الذي كانت تسلكه حركة النقل العربية من دون ازعاج، ومن ضمنها سيارات رجال العصابات الذين كانوا يحملون اسلحتهم جهارا. وفي ١/٥، نجح خبراء متفجرات عرب في الاقتراب من المبنى، مستغلين هطول المطر الغزير، فنسفوا جدار احدى الغرف مما تسبب بمقتل احد رجال البلماح، يثير عميحاي. وبعد عدة ايام تسلل رجال البلماح الى بيت دجن ونسفوا احد البيوت فيها. وفي الوقت نفسه، بدأوا بتحصين المبنى وزرع ألغام حوله. وفي ٢/١٧، حلت السرية التاسعة لقوة الميدان في تل ابيب محل سرية احتياطيي البلماح، وكُلفت فصيلة منها بحراسة مبنى «هكيرن هكييمت». وكانت هذه السرية مشكلة من شبان من مواليد البلد ومن «أنصار» (partisans): مهاجرين جدد اكبر سنا، حارب قسم منهم في ألمانيا. وكان يتولى الحراسة في المكان ٢٤ شخصا من أفراد قوة الميدان، يتم استبدالهم كل ٧٢ ساعة ويصلون الى المكان بمصفحات. واستمر خبراء المتفجرات في زرع المنطقة المحيطة بالمبنى بالالغام. 1448

وزود الرجال بأفضل اسلحة كانت متوفرة في تلك الفترة: مدفعين رشاشين من طراز برن، ومدفع هاون عيار ٢ بوصة، بالاضافة الى اسلحتهم الخفيفة. وقد خشي المدافعون، بصورة

خاصة، إلقاء برميل من المواد المتفجرة من احدى السيارات العربية المارة على الطريق. وفي اليوم العاشر لتولي أفراد قوة الميدان الحراسة، ألقي برميل كهذا فدمر شرفة المبنى المطلة على الشارع. وتقرر حفر خندق للدفاع في ساحة خلف المبنى، يستطيع المدافعون الانسحاب اليه في حال تدمير المبنى. وأقيم مبنى محصن وفقا لأسلوب «السور والبرج». خرج عشرات من العمال ورجال الدفاع، في ٣/١١، في قافلة الى المكان، وهم يحملون أجزاء التحصينات وحصى وعوارض خشبية. واتخذ رجال الدفاع مواقع لهم حول المكان، وأقام العمال بسرعة اربع دشم محاطة بساتر ترابي عال فيه مواقع محصنة. وبقي العمال للمبيت في المبنى من اجل مواصلة عملهم في اليوم التالي. وفي الليلة ذاتها، شن العرب هجوما واسع النطاق على المبنى، بقيادة قائد ألماني. واستلقى العمال العزل من السلاح على الارض. واحتل المدافعون مواقعهم وفتحوا النار على خبراء التدمير العرب، الذين حاولوا الوصول الى الجدار الخارجي. وانسحب هؤلاء ترافقهم لعنات قائدهم الالماني. ونوهت «نشرة البلماح» بشجاعة وحدة قوة الميدان، ووصفت تصرفها بأنه «عمل مثالي». وأرسل رشيش ألماني عثر عليه في المكان هدية الى قائد لواء «غفعاتي»، شمعون افيدان، الذي كان ينتمي اليه أفراد قوة الميدان هؤلاء.

وفي ليلة السبت الواقع في ٣/١٩، شُن هجوم آخر. فقد ألقت سيارة عربية نحو نصف طن من المواد المتفجرة بالقرب من حائط المبنى. وتمكن الرجال في اللحظة الاخيرة من الخروج منه، واحتلوا مواقع لهم في التحصينات الجديدة. وخلال دقيقتين تهدم المبنى، وعلى الفور خرجت مجموعة من الشبان واحتلت مواقع لها بين الانقاض. وبعد الانفجار، بدأ العرب هجوما عنيفا وهم يصرخون: «ادبح اليهود». وبدأت ذخيرة المدافعين تقل، ومن ثم نفدت. فاضطر المدافعون الى انتظار دنو العرب حتى أصبحوا في مرمى القنابل اليدوية. وألقيت القنابل اليدوية الاخيرة بدورها ايضا، ودعا القائد الالماني اليهود الى الاستسلام، وعندما لم تُستجب دعوته، امر رجاله بالانقضاض الاخير. إلا انه في تلك اللحظة وصلت النجدة، التي ارسلت من قاعدة السرية في حي موليدت؛ لقد اتى ١٨ رجلا وحلّوا محل المدافعين في اللحظة الاخيرة، وبدأ مدفع الهاون الذي احضروه معهم بالعمل، واختلط صراخ المصابين بصوت قائدهم الالماني. ووجدت نجدة ثانية، وصلت بمصفحة من تل ابيب، المنطقة خالية من العدو.

ومع الفجر بدأ المدافعون بقنص السيارات العربية المارة على الطريق. وفي هذه الاثناء، وصلت الى المكان قافلة عسكرية بريطانية، فتوقف اطلاق النار، وصعد ضابط بريطاني وقائد عصابات عربي فوق انقاض المبنى والتقطت صورة لهما عليها. وردا على ذلك لوّح اليهود برايتهم. ومن الجدير بالذكر انه ورد في بيان قائد المنطقة العربي، حسن سلامة، انه اشترك في المعركة ١٥٠ مقاتلا عربيا ضد ٦٠٠ يهودي. وذكر ايضا فيه انه كان هناك «نفق سري»، وصلت بواسطته التعزيزات اليهودية من مكفيه يسرائيل الى مبنى «هكيرن هكييمت ليسرائيل» (مسافة ٤ كلم!).

وطالب البريطانيون، الذين كانوا معنيين باحلال الهدوء في هذا الطريق، باخلاء المبنى، فرفض المقاتلون اليهود اخلاءه. واتفق على حل وسط، يبقى بموجبه المدافعون في مواقعهم لكن تتمركز الى جانبهم وحدة عسكرية بريطانية. وفي ٣/٢٢، اقيم معسكر بريطاني بجانب انقاض المبنى. ويبدو ان «هذا المكان كان المكان الوحيد في جميع انحاء البلد الذي وقف فيه شبان «الهاغاناه» جنبا الى جنب مع جنود بريطانيين كجنود جيشين متساويين» *1450 (ي. ارنون). ومنذ ذلك اليوم، توقفت هجمات العرب على المكان. وبمرور الوقت نمت علاقات صداقة بين الجنود البريطانيين وأفراد قوة الميدان، وتحولت هذه العلاقة الى «علاقة احترام» (المصدر السابق) مع ازدياد الانباء عن انتصارات اليهود في ربيع سنة ١٩٤٨.

وبما ان العرب لم يجرؤوا على مهاجمة الموقع نفسه، فانهم حاولوا قطع امدادات المؤونة عنه بزرع الطريق بالالغام ونصب كمائن للمصفحات. وبعد عدة اشتباكات، قتل خلالها احد رجال القوافل، اصبح التموين والاكل والماء تجلب في الليل من قبل شبان، كانوا يحملونها على اكتافهم ويتسللون بها الى المكان بين اشجار البساتين. وفي ليلة عيد الفصح، اقام الرجال حفلة كبرى دعوا اليها الضباط والرقباء البريطانيين من الوحدة البريطانية. وفي ٥/١، مع استكمال عملية «حامتس» واحتلال يازور، رفع الحصار. وسلم أفراد قوة الميدان المكان لوحدة من قوة الحراسة من تل ابيب، بينما انطلقوا هم الى عمليات ومعارك جديدة.

ولاقت مجموعة مدافعين اخرى، كُلِّفت حراسة مصنعي «سفيرت» و«هيوتسيك» مصيرا سيئا؛ كان مبنيا هذين المصنعين يقعان في منطقة معزولة على جانبي طريق يافا ــ القدس، وتولى المدافعون عنهما حراسة الجزء من الطريق الذي يصل الى مكفيه يسرائيل وطريق الامن الجديد الذي شق من حي هتكفاه. وفي اعقاب اعمال انتقامية قام بها رجال «الهاغاناه» والايتسل في الجوار، طلبت السلطات البريطانية اخلاء المبنيين وفتشتهما وضايقت [المدافعين] عنهما وهدمت بعض أجزاء منهما. وفي ٢/٢٨، شن العرب هجمات عنيفة وانتقل مبنى «هيوتسيك» من سيطرة فريق الى سيطرة فريق آخر. وبعد ان طرد العرب منه في المرة الثانية، أُحضر عمال بدأوا بتحصينه بأسلاك شائكة ومواقع من الطوب. وفي اليوم التالي، قام رجال ليحي بهجوم على قطار الجنود بالقرب من رحوفوت (انظر ص 1546). وكان اول من دفع ثمن هذا العمل المدافعون عن «هيوتسيك». ففي عصر اليوم نفسه، اقتحم جنود بريطانيون مبنى «هيوتسيك»، فعمد المدافعون عنه ــ الذين اعتقدوا ان البريطانيين جاؤوا مرة اخرى لتفتيش المكان ــ الى اخفاء سلاحهم واستقبلوا الضيوف. لكن الجنود أتوا هذه المرة ضامرين الشر. وبعد ان اكتشف سلاح في المكان، تلقى اليهود أمرا بمغادرة المكان وهم عزل من السلاح. وكان ينتظرهم في الخارج جمهور من الرعاع العرب متعطش الى الدم. وقد كان عدد الذين كانوا في المبنى ٢٣ شخصا، منهم ٨ مدافعين والباقي من العمال أُرسلوا لتحصين

---

* الصفحة 1449 في الاصل تحوي خريطة الهجوم العربي على مقر «هكيرن هكييمت» في ٣/١٩. (المترجم)

المكان. ووقع عشرة منهم بيد العرب، الذين قتلوهم بعد ان عذبوهم بوحشية. وبعد سقوط «هيوتسيك» ترك المدافعون ايضا مبنى «سفيرت». وأضرم العرب النار في المبنيين وهدموهما، ورفعوا فوق المكان علما عربيا، وأقاموا مواقع لهم على الانقاض. وأصدرت قيادة «الهاغاناه» في تل ابيب، في اثر حادث «هيوتسيك»، أمرا الى أفرادها بعدم السماح لرجال الجيش والشرطة البريطانيين بدخول مواقع يهودية، و «اذا حاولوا على الرغم من ذلك الدخول عنوة، فيجب اطلاق النار عليهم»

الاتصال بغوش عتسيون وعطروت والبحر الميت وهارطوف

ان مشكلة حركة المواصلات الى المستعمرات البعيدة والمعزولة في منطقة القدس لم تحل تماما طوال تلك الفترة. وقد اوكل تنظيم حركة النقل الى هذه المستعمرات وحمايتها من المهاجمين الى قيادة «عتسيوني» (القدس). وكانت الطرق الى المستعمرات تمر على امتداد كيلومترات كثيرة عبر مناطق عربية محض. وتمتعت حركة النقل الى البحر الميت فقط بدعم مستمر من البريطانيين، الذين كانوا معنيين بنقل منتظم لانتاج المشروع في البحر الميت. واعتبارا من ١٩٤٧/١٢/١١، أخذوا على عاتقهم مواكبة القوافل من البحر الميت الى محطة القطار في القدس. وقد ابقت القوافل البريطانية هذه الاتصال قائما بالعمال في مشاريع البحر الميت وبكيبوتس بيت هعرفاه. واعتبرت هذه الطريق آمنة الى درجة ان شخصيات عامة وقادة «الهاغاناه» كانوا احيانا يطيرون من تل ابيب الى شمالي البحر الميت، ومن هناك يتوجهون تحت حراسة بريطانية الى القدس. وعندما اجتمعت اللجنة التنفيذية الصهيونية، في نهاية آذار/مارس، نُقل اعضاؤها الى القدس عن طريق البحر الميت بعد ان وصلوا الى المشروع عن طريق الجو. 1451

وكانت القوافل الى عطروت والنبي يعقوب تقوم برحلاتها على فترات متباعدة، وتنضم احيانا الى القوافل البريطانية المتتالية، التي كانت تقوم برحلات الى المطار في عطروت (احيانا كانت تدفع رشوة الى رجال الشرطة البريطانيين لقاء هذه الخدمات). وفي ٣/٢٤، هوجمت القافلة المتجهة الى عطروت بعد خروجها من القدس، فقتل ١٤ من المدافعين عنها (انظر ص 1401). ومنذ ذلك التاريخ، انقطع الاتصال بالمستعمرتين المعزولتين الواقعتين شمالي القدس. وفي ١٩٤٨/٤/٧، نقل ضابط شرطة بريطاني ــ كان يتعاون مع «الهاغاناه» ــ قنابل يدوية وذخيرة في مصفحتين تابعتين للشرطة. ونقل في المصفحتين نفسيهما نحو ١٠ من النساء والاطفال من عطروت الى القدس، لكن الانقطاع التام عن المنطقة الواقعة تحت سيطرة «الهاغاناه» ادى، في نهاية الامر، الى اخلاء عطروت في فجر ٥/١٥، وتبع ذلك اخلاء النبي يعقوب.

وكانت القافلة الى هارطوف تقوم برحلتها مرة واحدة فقط كل ثلاثة اسابيع بحماية

خفراء ومقاتلين من القدس. وكان العرب من بيت محسير وإشوع (اشتاؤل) يهبّون لمهاجمتها. ولم تنج قافلة الى هارطوف من تكبد خسائر، سواء في الارواح او الممتلكات. وفي ١٢/٢٦، قتل ثلاثة خفراء من مرافقي قافلة هارطوف. وبعد ساعتين فقط اتت سيارات الشرطة والجيش من اللطرون وصدت المهاجمين باطلاق النار عليهم. وفي ٣/١٨، اصطدمت قافلة عائدة من هارطوف بحواجز على الطريق، فسقط في المعركة الطويلة ١١ مقاتلا (انظر ص 1401).

لكن المشكلة الاصعب كانت مشكلة حركة النقل والتموين الى غوش عتسيون بمستعمراتها الاربع. ففي بداية المعارك، في ١٢/١١، سقط عشرة رجال انطلقوا في تندر وصهريج مياه وسيارتي تموين الى الغوش [كتلة المستعمرات]. وكان المهاجمون من عرب بيت لحم وبيت ساحور وبدواً من عشيرة التعامرة، الضاربة رحالها في صحراء يهودا. ومنذ ذلك التاريخ، لم تنطلق قافلة الى كفار عتسيون إلا مرة او مرتين في الاسبوع. وفي ١/١٣، هوجمت القافلة بينما كانت عائدة من كفار عتسيون، واصطدمت بحاجز على الطريق. وشقت القافلة طريقا لها بين احجار الحاجز، لكن اثنين من رجالها قتلا. وتلقى قائد البلماح في كفار عتسيون أمرا بنصب كمين على طريق الخليل ـ القدس ومهاجمة كل سيارة عربية تمر عليه. وفي اليوم التالي، شن العرب هجوما واسع النطاق على كفار عتسيون (انظر ص 1431).

وقررت القيادة في القدس ارسال تعزيزات الى الغوش، فصيلة من ٣٥ شخصا، ابيدت جميعها فجر يوم ١/١٦ وهي في طريقها الى هناك (انظر ص 1432).

ولم يتجرأ العرب على مهاجمة مستعمرات غوش عتسيون بعد هزيمتهم في ١٢/١٦، لكن الحصار على الغوش كان كاملا. وقررت قيادة «الهاغاناه» في القدس استغلال لحظة المفاجأة. ونظمت عملية خاصة («عملية دفوراه») لايصال تعزيزات من الرجال والاسلحة الى الغوش. فخرجت يوم السبت، في ٢/٢١، قافلة من ١٢ سيارة (٥ شاحنات و ٧ مصفحات). كانت تحرس القافلة قوة معززة بأسلحة كثيرة، وترافقها طائرة. ووصلت بسلام الى كفار عتسيون. وبعد ان افرغت حمولتها الثمينة بسرعة عادت الى القدس. واستغرقت الرحلة الى الغوش والعودة منها ساعتين ونصف الساعة. ولم يتح الوقت للعرب للانتظام من اجل اغلاق الطريق امام ذهاب القافلة الى الغوش وعودتها. لكن القافلة الصغيرة «لم تزود الغوش بكل ما كان لازما لها للقيام بمهماتها والصمود في وجه حصار طويل. ان النقص في مواد التحصين، والاسلاك الشائكة، وأكياس الرمل، ومعدات الحفر، والوقود ــ المهم بصورة خاصة للجرار لتحسين المطار الذي بدىء بانشائه ــ كان حادا وخطرا» (أ. ترايينن). وكانت هناك ضرورة لاستبدال الطلاب من أفراد قوة الميدان، الذين مضى على وجودهم في الغوش ثلاثة اشهر. ولذا تقرر تنظيم قافلة كبيرة وشق الطريق الى الغوش. وكانت السيارات التي وصلت الى القدس من تل ابيب، مساء عيد بوريم (انظر ص 1447)، معدة لتنفيذ هذه المهمة.

1452

المعركة بالقرب من النبي دانييل

وصلت القافلة، المشكلة من ٣٧ شاحنة و ١٤ مصفحة مواكبة، بقيادة ميشائيل شختر (شاحام)، الى غوش عتسيون في ٣/٢٧، من دون ان تطلق عليها رصاصة واحدة، وأنزلت ١٣٦ فردا من قوة الميدان من القدس وأفرغت حمولتها التي اشتملت ــ بين اشياء اخرى ــ على تموين لمدة ثلاثة اشهر. ومكثت في المكان فترة اطول من اللازم. وبعد ذلك تهيأت للعودة الى القدس، واستقل رجال قوة الميدان الذين تقررت عودتهم الى المدينة الشاحنات، تاركين سلاحهم في المكان.

وحشدت القيادة العربية في القدس كل قواتها للتصدي للقافلة العائدة ومهاجمتها. وسارع آلاف العرب الذين هرعوا لدى مرور القافلة الى اقامة حواجز كثيرة على الطريق. وذكر الطيار دانييل بوكشتاين، الذي ارسل لاستطلاع الطريق، انه اقيمت بالقرب من برك شلومو، على طول نصف كيلومتر، ستة حواجز. ورد المدافعون على النار العربية باطلاق النار من مصفحاتهم. وبالقرب من قرية الحداد، على بعد نحو ٢ كلم قبل بيت لحم، اصطدمت كاسحة الحواجز بحاجز كبير فتضررت وتوقفت وسدت الطريق امام باقي السيارات. ونجح العرب في الاقتراب منها وأضرموا النار فيها بزجاجات المولوتوف. وعندما اتضح للقائد ان القافلة لا تستطيع التقدم، امر كل السيارات التي كان لا يزال في وسعها التحرك بالتقاط الرجال من السيارات المضروبة والعودة الى غوش عتسيون. ونجحت عشر سيارات في الاستدارة وشق طريق لها عبر الحواجز الجديدة التي اقامها العرب، ووصلت تحت وابل من النيران المتواصلة الى الغوش. وأوقفت نجدة من سرية البلماح الخامسة انطلقت من رامات راحيل، مشكلة من اربع مصفحات، بالقرب من بيت لحم وأرغمت على العودة حاملة قتيلا وعدة جرحى.

وبعد عودة قائد القافلة الى غوش عتسيون، انتقلت القيادة الى نائبه آرييه تيفر. وخرج الرجال من السيارات التي لم تفلح في الانسحاب (عددها ٤١ سيارة)، وسيطروا على بيت منعزل واقع على تلة النبي دانييل. وأحاطوا البيت بالمصفحات وتحصنوا فيه. وتمركز هنا ١٨٦ شخصا، منهم نحو ٦٠ بلا سلاح. ولم يفشل في التحرك من موضعه سوى كاسحة الحواجز، ودافع رجالها عن انفسهم بقوتهم الذاتية لمدة خمس ساعات. وعندما رأى قائد المصفحة، زروبابل هوروفيتس، ان معظم رجاله جرحى ومن المستحيل البقاء في المصفحة المشتعلة، قرر تفجير المصفحة بركابها. وخرج ثلاثة من المصابين بجروح بسيطة من المصفحة، ونجحوا في التسلل تحت جنح الظلام الى كفار عتسيون. وبعد ان نزل الجرحى اشعل هوروفيتس المواد المتفجرة التي كانت في المصفحة وانفجرت المصفحة مع الـ ١١ رجلا الذين كانوا بداخلها، وأوقعت عددا من القتلى بين العرب الذين تجمهروا حولها. وفي أواخر تموز/يوليو ١٩٤٩، كان زروبابل واحدا من ابطال اسرائيل الـ ١٢، الذين منحوا «وسام البطولة» تقديرا لشجاعتهم وروحهم التي لا تعرف الخوف.

واستمرت المعركة على البيت في تلة النبي دانييل من دون توقف. وطوق البيت مئات من العرب، وعندما فشلوا في اقتحامه قصفوه بمدافع الهاون. وفي هذه الاثناء، حلقت طائرات «الهاغاناه» وألقت قنابل على الحشد. وكانت هذه الغارة اول غارة ليلية في حرب الاستقلال. «شاركت الطائرات» ــ ذكر تقرير القائد ــ «طوال اليوم في المعركة وأفادت مرات كثيرة فائدة جمة. ضربت تجمعات العرب فسببت لهم في اضطراب كبير ودفعتهم الى الفرار». واستمر تبادل اطلاق النار طوال ذلك الليل في ضوء السيارات المشتعلة، وفي اليوم التالي. 1453
وتزايد عدد الجرحى من ساعة الى اخرى. «بسبب الجرحى الكثيرين» ــ ذكر احد القادة في شهادته ــ «لم يكن هناك امكان لاستغلال الظلمة للانسحاب والتسلل الى مكان آمن».

وفي الوقت نفسه، دارت مفاوضات بين ممثلي المؤسسات القومية والسلطات البريطانية التي اعلنت انها مستعدة لاخراج المقاتلين اليهود. ورفض العرب، الذين كانوا يهاجمون المنزل بقيادة عبد القادر الحسيني، الموافقة على تدخل الجيش. لكن عندما تأكد لهم ان جميع هجماتهم قد صدت، أعلنوا استعدادهم للموافقة على خروج اليهود من دون سلاحهم.

ولم تتحرك القوات البريطانية للعمل إلا الساعة ٤,٣٠ من عصر اليوم الثاني للمعركة، بعد ان وافق العرب على ذلك. وطلب من المقاتلين تسليم اسلحتهم ووعدوا بعدم تسليمها للعرب وانما اخذها الى القدس ورفع تقرير بشأنها هناك. لكن الجنود الانكليز، الذين كانوا محاطين بآلاف العرب، لم يفوا بوعدهم. «كانوا يرتعدون من الخوف ونفاد الصبر، وكان كل ما يتطلعون اليه هو الخلاص من هذا الوضع المشين» («كتاب البلماح»). وأخطر الضابط قائد العملية الرجال الذين ترددوا في قبول الشروط: «إما ان تفعلوا ما نقوله لكم، واما نترككم هنا». وكان استئناف المعركة، بينما يرقد عشرات الجرحى في المنزل الصغير من دون اي امكان لمساعدتهم، غير وارد في الحسبان، ولم يجد المقاتلون مناصا من قبول الحكم.

وفي البداية أُخرج السالمون الى السيارات، ثم الجرحى. وصدرت أوامر الى الافراد بتخريب الاسلحة، خشية ان يسلمها البريطانيون للعرب. وتركت السيارات في المكان غنيمة للعرب. ونقل البريطانيون الرجال الى القدس. وقد سقط في العملية ١٥ مقاتلا، وفقدت «الهاغاناه» معظم السيارات المصفحة العاملة على خط تل ابيب ــ القدس. وفي مقابل ذلك تلقت غوش عتسيون تعزيزات بالرجال والسلاح والتموين، مكنتها من الصمود عدة اسابيع اخرى.

شق الطريق الى كيبوتس غات وكيبوتس غلؤون

كمثال للعمليات المرتبطة بتأمين الطرق الى مستعمرات منعزلة، نورد وصفا لشق الطريق الى مستعمرتي غات وغلؤون في ربيع سنة ١٩٤٨. في ١٩٤٨/٢/٢٤، اقام عرب الفالوجة، بقيادة زعيم العصابات في السهول الساحلية، «الشيطان الاسود» طارق بك

الافريقي، حواجز على الطريق المار من بلدتهم الى كيبوتسي غات وغلؤون. وجوبهت قافلة سيارات كانت عائدة من غات الى النقب بنيران المهاجمين. وقتل احد السائقين، آرييه بيرمان من غات، وأحرقت سيارته. وفي اليوم التالي، مرت القافلة بحماية الجيش البريطاني، لكن حاكم القضاء البريطاني استدعى ممثلي المستعمرتين المعزولتين وأخطرهم بأن الجيش غير مستعد لتكبد ضحايا من اجل حماية القوافل بصورة دائمة،واقترح عليهم اخلاء المستعمرتين بحماية الجيش، فرفضوا الاقتراح «السخي»، وأُغلقت الطريق الى باقي مستعمرات السهول الساحلية امامها لمدة اسبوعين. وأخذت الكتيبة الثالثة التابعة للواء «غفعاتي» على عاتقها مهمة اختراق الحصار. وفي ٣/١٣، خرجت قافلة بقيادة قائد الكتيبة يتسحاق فونديك تضم نحو ١٢ سيارة مصفحة من أنواع مختلفة. وخرجت سرية الكتيبة ووحدات خبراء التدمير في القافلة، وأرسلت وحدات من المقاتلين لاغلاق الطرق بين القرى العربية المجاورة وبين الفالوجة بالالغام. ومرت القافلة بسلام في قرى عراق سويدان وكرتيا والفالوجة، وعند خروجها من الفالوجة فقط تعرضت لنيران غزيرة، وفي اثناء الرد خرجت من البلدة. وهنا وقعت مصيبة فادحة: اذ بطريق الخطأ فتحت القافلة النار على وحدة اعتراض تابعة لـ «الهاغاناه» كانت موجودة بين الفالوجة وعراق المنشية. ولقي سبعة شبان مصرعهم نتيجة اطلاق النار هذا. ووصل المقاتلون الذين اقتحموا الطريق الى غات مفجوعين خجلين وقد
1454 صمموا على تلقين الفالوجة درسا. وفي اليوم التالي، شقت قافلة من ٨ سيارات مصفحة طريقها عائدة من غات الى وسط الفالوجة، ونزلت ٤ وحدات تدمير تحت غطاء من نيران المصفحات، ووضعت عبوات ناسفة في المباني العامة (البلدية، ومبنى البريد، والمقهى، وما شابه ذلك) في البلدة، وبخروجها من المكان سمعت أصوات الانفجارات. وفيما بعد علم ان بيوتا كثيرة قد دمرت، وأن نحو ١٥ من سكانها قد قتلوا. وتوجه وفد من وجهاء الفالوجة الى الحاكم البريطاني بطلب للعمل على ان يواكب الجيش البريطاني في المرات التالية القوافل اليهودية المارة في البلدة، لمنعها من إلحاق الاذى بالسكان. ومنذ ذلك الوقت حتى انتهاء الانتداب البريطاني، مرت حركة النقل اليهودية عبر الفالوجة بمواكبة جنود بريطانيين من دون ان يفتح احد فمه او يسخر منها.

المواصلات الى النقب

كانت مشكلة المواصلات الى النقب اسهل من مشكلة المواصلات الى القدس، فقط من زاوية ان حاجات العدد القليل من السكان الموجودين في هذه المنطقة اقل من حاجات عشرات الآلاف من اليهود في القدس، وكان من الممكن الاكتفاء بعدد اقل من القوافل. وفي النقب نفسه كانت لنا اليد الطولى بعد الشهر الاول من المعارك (انظر ص 1426)، لكن الطريق اليه من الشمال، من بئير طوفيا فالجنوب، كانت تمر عبر منطقة توجد فيها قرى عربية

كبيرة ومعادية. وكان في المنطقة طريقان: طريق مجدل ــ غزة؛ وطريق جولس ــ برير ــ نيرعام. ومنذ بدء الاشتباكات تم التوصل الى نوع من الاتفاق السري: العرب يستخدمون الطريق الاول، واليهود يستخدمون الطريق الثاني. وكانت القوافل اليهودية تتجمع في كيبوتس نيغبا، وتخرج بمواكبة جنود بريطانيين ورجال البلماح حتى نير عام، ومن هناك الى المستعمرات المنعزلة بمواكبة حرس مسلح. وبعد ان هاجم العرب حركة النقل اليهودية، رد اليهود بعمليات انتقامية عنيفة على الطريق الذي كان يستخدمه العرب. ووعدت السلطات العسكرية البريطانية، التي كانت معنية بأمن الطرق في المنطقة، بمواكبة القوافل اليهودية شرط ان يتنازل اليهود عن ارسال حرس مسلح خاص بهم. وفي نهاية الامر، توصل رجال «الهاغاناه» الى اتفاق محلي مع البريطانيين، بألا يظهروا سلاحهم في اثناء مرورهم في المناطق العربية ولا يخرجوه من نوافذ السيارات المصفحة. وظل هذا الاتفاق ساري المفعول حتى منتصف آذار/مارس. لكن في ٣/١٦ اعلن ضابط الاتصال البريطاني ان البريطانيين لن يستطيعوا من الآن فصاعدا مواكبة القوافل. وفور خروج البريطانيين من المنطقة اغلق العرب في قرية برير الطريق بخنادق عميقة حفروها على عرض الطريق. ولم يكن هناك مخرج إلا ان تسلك القوافل طريق مجدل ــ غزة، في منطقة مزدحمة بالسكان العرب والقرى والبساتين على طول الطريق. وخرجت القوافل بمواكبة مصفحات، وعندما فتح عليها رجال العصابات النار ردت المصفحات على الفور بضربات عنيفة ضد حركة النقل العربية على الطريق، وهو اجراء كان يدعى في تلك الفترة «رد فوري». وأدى ذلك الى اصابة حركة النقل العربية بالشلل، او جعلها تسير خلف قوافل الجيش البريطاني محتمية بها.

ثم بدأ العرب بزرع ألغام كهربائية كانت تنفجر عند وصول القوافل اليها. «كان رجالنا» ــ كتب احد أفراد لواء النقب ــ «يمرون بتوتر لا يمكن تخيّله. كانوا يعرفون سلفا ان اللغم لن يتجاوزهم؛ عاجلا او آجلا سينفجر تحت هذه المصفحة او تلك. وانتظر كل واحد دوره معتصما بالمعجزة. وكانت هناك في الغالب معجزات: إما ان يبكر اللغم في الانفجار، واما يتأخر، واما ينفجر ولا يتسبب بأضرار خطرة» («الكتيبة الثانية في النقب»). ومن حين الى آخر، كان يسقط قتلى من المرافقين، وطور مستخدمو الالغام مهارتهم. وبعد مرور عشرة ايام، في ٣/٢٦، توقفت القوافل عن السفر الى النقب؛ «اصبحت طائرتا «البريموس» التابعتان لسرب النقب واسطة الاتصال الوحيدة بين الشمال والجنوب، بين النقب وأرض ــ اسرائيل» («تاريخ حرب الاستقلال»).

وفي هذه الاثناء، انهمكت وحدة رجال البلماح، من اقدم الوحدات العاملة في النقب، في التفتيش عن طريق آخر جديد، يتفادى القرى العربية [وعثرت على واحد]. وكان 1455 هذا الطريق يلتف حول قرية برير من ناحية الشرق، ويمر في سهل مزروع بالغلال ويصل الى طريق الفالوجة بالقرب من مخفر شرطة عراق سويدان، الذي كان البريطانيون لا يزالون يقيمون فيه. وفي ٤/٤، مرت القافلة الاولى على الطريق الجديد. «كان ذلك طريقا صعبا»

ـ روى احد أفراد اللواء ـ «كنا نمضي ساعات في السفر من مكان تجمع السيارات في نيرعام الى النقب. وكان عدد السيارات التي تلفت او غرزت في هذا الطريق كبيرا. ـ ـ وفي اثناء مرور احدى القوافل كانت مصفحاتنا تصعد وتحتل مواقع لتأمين مرور القافلة على طريق مجدل ـ الفالوجة قبالة مجدل والشرطة وبرير التي كانت توجه سهامها من بعيد» («الكتيبة الثانية في النقب»).

ومن اجل حماية الطريق، اقيمت في تلك الفترة نقطة عبرية جديدة، هي بـرور حايل (انظر ص 1427)، قبالة قرية السفاحين: برير.

«خرجنا مع قوة حماية ذات شأن بما فيه الكفاية» ـ روى قائد العملية، ضـابط العمليات في لواء النقب عوديد ميسر ـ «ونصبنا كمائن وتشكيلات حماية من جهة برير. وبمساعدة جرارات (احدها مصفح) اقيم ساتر ترابـي واق وعال، ليحمي المستعمرة الجديدة من برير. ولم تحم المستعمرة الجديدة الطريق فحسب، وانما شكلت ايضا تهديدا دائما ومحسوسا لقرية برير، وقامت بدور مهم في تأمين الاتصال بين الشمال والنقب».

وفي ١٢/٥ حشدت الكتيبة الثانية للواء البلماح في نيرعام. وفي فجر اليوم التالي، احتلت قرية برير بضربة واحدة. وفي اثر هذا الانتصار، فر العرب من القريتين المجاورتين ـ حليقات وكوكبا ـ ومن قرى اخرى، وفتح الطريق الى الشمال.

لكن بعد فترة قصيرة، عشية الهدنة الاولى، أُغلق الطريق من جديد على يد الجيش المصري الذي غزا البلد. وفي سياق «عملية يوآف» (تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨) فقط، احتلت وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي، بعد واحدة من اقسى معارك حرب الاستقلال، الموقعين ١١٣ وحليقات، وفتحت الطريق الى النقب العبري.

قوافل يحيعام وخولده

في سلسلة الهزائم التي واكبت الصراع من اجل [استمرار] حركة المواصلات، كانت الضربة التي وجهت الى يحيعام هي الاكبر من ناحية عدد ضحاياها. لقد كان الجليل الغربـي محاصرا منذ بداية الاضطرابات. وفي ٣/٢٧، جرت محاولة لارسال قافلة مصفحة من اجل شق طريق الى هذه المستعمرة فيما وراء عكا. ووصلت القافلة، بقيادة قائد الكتيبة من حانيتا، بـن عـمي بحتر، بسلام الى نهاريا، وخرجت من هناك الى كيبوتس يحيعام. والى الشرق من قرية الكابري، في موضع يتعرج الطريق فيه بين التلال، نصبت العصابات العربية كمينا للقافلة. ووصلت المصفحة التي كانت تتقدم القافلة بسلام الى هدفها، بينما احتجـز باقي المصفحات، وسقط في المعركة التي استمرت عشر ساعات تقريبا، ٤٦ من المدافعين عن القافلة ومرافقيها بمن فيهم القائد.

وفي ٣/٣١، نزلت ضربة اخرى: خرجت قافلة في الصباح من خولده في طريقها الى

القدس. وكانت القافلة تضم ٣٠ سيارة شحن وركاب، وسبع مصفحات. وعلى طريق المسمّية ــ اللطرون جوبهت السيارات بنيران موجهة اليها، وفي اثناء محاولتها الاستدارة للعودة الى خولده غرزت في الوحل العميق، واستمر انقاذها حتى ساعات المساء. وكان لا بد من ارسال وحدات بلماح «تمت إخراج السيارات عن طريق احتلال مواقع قريبة» (تقرير). وفي اثناء المعركة اخرج قائد القافلة، عاموس حوريف، من بين العتاد المعد للقدس مدفع هاون عيار ٣ بوصات كان مفككا الى أجزاء فركبه، وبمساعدة عدد من المقاتلين استخدمه ضد مهاجمي القافلة. وساعدت هذه العمليات على انسحاب كل السيارات، باستثناء السيارة المصفحة الاخيرة التي جمع فيها عدد من الجرحى. «عندما هاجمها عرب حلده من مسافة قريبة جدا اشعل القائد (يورام تريبس)، خوفا من وقوعهم احياء في قبضة المهاجمين، فتيل عبوة ناسفة كانت في المصفحة. فقتل كل ركاب المصفحة» (ع. حوريف). وبلغ عدد قتلى هذه المعركة ٢٤ قتيلا. 1456

وخلال اسبوع سقط اكثر من مئة مقاتل في اثناء مواكبتهم لخمس قوافل (عطروت ــ ١٤، هارطوف ــ ١١، النبي دانييل ــ ١٢، يحيعام ــ ٤٦، خولده ــ ٢٤). وفقدت اسلحة ومصفحات كثيرة. وكان الطريق الى القدس مغلقا منذ ٣/٢٥. وأصبح واضحا ان من المستحيل الاستمرار في اسلوب المواكبة المباشرة، وحتى لو أريد الاستمرار فيه كان لا بد من الانتظار الى حين إعداد مصفحات جديدة بدلا من تلك التي سقطت في قبضة العدو. وارتأت هيئة الاركان العامة انه لا يمكن انتظار ذلك.

وفي «تلخيص الوضع القتالي» الذي اعده رئيس شعبة العمليات في هيئة الاركان، يغئيل سوكنيك (يادين)، وقدم الى د. بن ــ غوريون في ١٩٤٨/٤/١، ذكر: «يجب ان نذكر ان كل مراحل المعركة حتى الآن املاها علينا العدو. ولم نتمكن ــ حتى الآن ــ من التأثير على المجرى الاستراتيجي والعملياني للمعركة التي تطورت من أحداث الى حرب بين قوتين شبه نظاميتين ــ والحل الوحيد هو اخذ زمام المبادرة العملياني بأيدينا متطلعين الى احراز حسم عسكري ضد العدو».

وكان العرب، الذين فشلوا في هجماتهم على المستعمرات اليهودية، على وشك احراز انتصارهم الاول في المعركة على المواصلات. وكان لا بد من إحداث انعطاف، فأتى بعد ايام معدودة من كارثة قافلة خولده، في عملية «نحشون».

الفصل الرابع والسبعون

تعبئة اليبشوف والتخطيط للحرب

تعبئة اليبشوف لخوض حربه

اذا كانت الحرب العصرية تتطلب التعبئة الكاملة للأنفس والممتلكات المتوفرة للدولة المحاربة، فكم بالحري حرب اليبشوف، حرب القلة ضد الكثرة، التي دارت في الاشهر الاولى في ظل غياب وضع [Status] سياسي حقيقي. لكن هذا الحد الاقصى لاستجماع القوى لم يأت دفعة واحدة، وانما تنامى بالتدريج ولم يكتمل إلا مع قيام الدولة.

في ١٩٤٧/١٠/٢، قررت اسيفات هنفحاريم [جمعية المنتخبين] «تحديد نظام انضباط وتطوع قومي للممتلكات والانفس من اجل المحافظة، في لحظة الاختبار والحسم هذه، على امن اليبشوف» (انظر ص 1328). وكان واضحا انه تنتظر اليبشوف العبري، هذه المرة، مواجهة مع عدو قاس، تتطلب منه ان يصمد بقواه الذاتية، من دون ان يستطيع الاعتماد على مساعدة حقيقية من حلفاء سياسيين وعسكريين. وللمرة الاولى في تاريخه دعي اليبشوف العبري الى تحمل المسؤولية الكاملة في الدفاع عن نفسه ووطنه. وبقدرة اليبشوف على تحمل هذه المسؤولية كان يتعلق مستقبله السياسي، لا بل مستقبل حياة ابنائه جميعا، بكل ما يتضمنه هذا التعبير من معنى.

وكانت لادارة اليبشوف و«الهاغاناه» تجربة طويلة في مجال تعبئة اليبشوف، ولم تكن هذه التجربة مشجعة. لقد كانت موجة من التطوع تشمل حقا، في ساعات الخطر الاقصى، قسما كبيرا من الجمهور (وحتى آنذاك ليس الجمهور كله)، لكن روح التطوع كانت تضعف بزوال الخطر المباشر. وقد برهنت هذه التجربة وتجارب مشابهة للتجنيد عن طريق التطوع في دول اخرى، انه في حرب عصرية ينبغي عدم الامتناع عن التعبئة الشاملة للسكان، وهذه يمكن الوصول اليها فقط بواسطة التجنيد الاجباري، الذي لا يمكن تنفيذه إلا بوسائل قانونية ومالية لدولة ذات سيادة.

وفي الاشهر الحاسمة لخريف سنة ١٩٤٨ وشتائها، لم تكن لدى اليبشوف أدوات الدولة ذات السيادة، ولم تُمنح مؤسساته القدرة على الالزام والقاء القبض على الذين يرفضون تأدية واجبهم القومي. وكانت «الهاغاناه» لا تزال منظمة غير شرعية، ولم يكن في وسعها الظهور

علنا وتجنيد الاشخاص في صفوفها. ولم تكتف المنظمتان المنشقتان بمنع أفرادهما من التجند في صفوف رجال الدفاع فحسب، وانما سعتا ايضا لتقويض مكانة «الهاغاناه» كمنظمة عسكرية وحيدة لليبشوف، وفتحتا منفذا للفارين من الخدمة. وأدى النقص في الاموال وغياب هيئة عليا تتحكم في توزيع القوى البشرية، الى ان تسعى كل مؤسسة، وكل مشروع لايجاد طرائق خاصة به لمنع تجنيد العمال الذين كانوا ـ ربما ـ حيويين لانتظام سير العمل فيه، لكن ليس الى حد السماح لهم بالامتناع عن أداء واجبهم القومي في هذه اللحظة الحرجة من حياة الامة. كما ان «الهاغاناه» نفسها لم تكن قد اصبحت بعد جيشا كاملا متراصا، وحاول كل مكان، وكل وحدة، ان يحتفظ بخيرة القوى البشرية التابعة له لأغراض محلية او خاصة به من دون اعتبار لمتطلبات الحرب بكليتها التي كانت احيانا تتجاوز ادراكه.

مركز الاحصاء للخدمة الشعبية

1458

على الرغم من ذلك، اخذت المؤسسات القومية على عاتقها تنفيذ تعبئة الييشوف بعد ان ادركت ان ليس هناك من خيار آخر، وعلى امل قدوم اليوم الذي ستحل فيه لحظة السيادة الكاملة بقيام الدولة. ومن اجل تطبيق قرار اسيفات هنفحاريم [جمعية المنتخبين] أُنشىء في ١٩٤٧/١١/١٩ «مركاز همفكاد لشيروت هعام» [مركز الاحصاء للخدمة الشعبية] «لتعبئة الييشوف وفرز قواه وفقا لمتطلبات الشعب والخطة الراهنة» (المنشور الخاص بانشاء المركز). وعين ل. شكولنيك (اشكول) وبنيامين افنئيل مسؤولين عن «المركز».

وكان «مركز الاحصاء» يصدر من حين الى آخر، بناء على أوامر المؤسسات القومية ووفقا لحاجات المعركة ـ كما كانت تتحدد في جلسات لجنة الامن الخاصة بالييشوف ـ «اعلانات» استدعاء فئات اعمار او اصحاب مهن معينة الى الخدمة. ووضعت في تصرف المشرفين على التجنيد الخبرة التي اكتسبتها «الهاغاناه» بتجنيد جماهير المتطوعين في اثناء الحرب العالمية الثانية (انظر الفصل الرابع والثلاثين). وكان الاشخاص يحضرون الى مكتب التعبئة، فتسجل اسماؤهم ويخضعون لفحوص طبية ويتسلمون ـ بحسب نتائج الفحوص الطبية ـ بطاقات، منها بطاقات اعفاء وتأجيل، ومنها بطاقات مسجل عليها تاريخ تجنيدهم. وفيما بعد، كانت تصدر أوامر تجنيد وكان الرجال يوجهون الى وحدات «الهاغاناه» الملائمة، وبعد فترة الى معسكرات الاستيعاب المركزية، التي افتتح اولها في ١٩٤٨/٣/٧ في كريات مئير بتل ابيب.

ومن اجل أغراض الاحصاء للخدمة، قُسِّم البلد الى ست مناطق متوافقة مع مناطق منظمة «الهاغاناه». وافتتحت مكاتب لمثول الذين استدعوا الى الخدمة في المدن والمستعمرات، ومكاتب تجنيد زراعية كُيِّفت مع الظروف الخاصة بالتجنيد في مستعمرات الحدود الصغيرة، وبصورة خاصة مستعمرات الاستيطان العمالي (انظر ص 1461).

ان ادراك ان الييشوف مرغم على خوض حرب حياة او موت طويلة، لم يتغلغل في النفوس في الاشهر الاولى للحرب؛ وطلبات ممثلي «الهاغاناه» في جلسات لجنة الامن الخاصة باليشوف، لتسريع عملية التجنيد، لم تكن تلقى دائما تفهما كافيا وأذنا صاغية؛ وأخذ القرار فيما يتعلق بهذه المسائل كان يتأخر احيانا اسابيع عديدة ثمينة جدا. واستغرق النقاش بشأن اصدار الامر بتجنيد الاشخاص الذين لديهم اولاد، وقتا طويلا جدا. وكان من المسائل الاخرى التي اثارت نقاشات مطولة، طلب القيادة العليا تجنيد ابناء الـ ١٧ عاما قبل الاوان، كي يخضعوا لنظام التدريبات ويكونوا جاهزين للانضمام الى الوحدات المقاتلة لدى بلوغهم سن الـ ١٨. وقبل شهر تقريبا من قيام الدولة قال رئيس القيادة القطرية، يسرائيل غاليلي، في احدى جلسات لجنة الامن الخاصة باليشوف: «في ١٥ ايار/مايو سننتقل ــ على اية حال ــ الى وتيرة مختلفة، ومن الافضل ان نستبق الامر منذ الآن».

وفي الاسابيع الاولى جرى التجنيد، في الاساس، في جو تطوعي؛ جاء اعضاء «الهاغاناه»، الذين ألزمتهم المنظمة ايضا بواجب المثول للخدمة، الى المكاتب وجرفوا معهم معظم الملزمين الآخرين بالتجند. واستدعي الاشخاص الى المثول بواسطة اعلانات على لوحات الاعلان في المدن، وفي الصحف والاجتماعات الجماهيرية التي شرح فيها قادة الجمهور مسألة التجنيد. وأُرسل محاضرون الى اماكن العمل، وأقيمت صلات بالمنظمات المهنية والهستدروتية، وما شابه ذلك.

وفي شباط/فبراير فقط، عندما برزت شريحة فارين من الخدمة ظلوا في بيوتهم واستمروا في عملهم بأجر كامل من دون تحمل عبء النضال القومي، بدىء بنشاط لمراقبة المثول للخدمة، وخصصت مجموعات تجنيد لملاحقة الفارين. وفي بداية نيسان/ابريل، أنشئت محكمة عليا تابعة لـ «مركز الاحصاء للخدمة الشعبية»، خولت النظر في الاعتراض على قرارات مكاتب التجنيد وفي كل المخالفات المتعلقة بأوامر التجنيد.

1459 وقد وصل عدد أفراد جهاز «مركز الاحصاء» الى ٢٥٠ عاملا في البلد برمته. وساعده نحو ٣٥٠٠ متطوع، من ضمنهم ايضا معظم الاطباء الذين تولوا فحص الذين لبوا نداء الواجب.

وعندما اقيمت الدولة انتقلت اليها صلاحية تطبيق التجنيد. وفي امر انشاء جيش الدفاع الاسرائيلي الصادر في ١٩٤٨/٥/٢٦، اضيف مفعول القانون على جميع الاوامر والبيانات التي اصدرتها المؤسسات القومية و«مركز الاحصاء» فيما يتعلق بالاستدعاء الى الخدمة منذ بداية العملية. وتحول «مركز الاحصاء للخدمة الشعبية» الى هيئة رسمية، وفي ١٩٤٨/٦/٢، اصبح فرعا باسم «مركز التجنيد» تابعا لوزارة الدفاع في دولة اسرائيل.

وقد تلقى قادة «الهاغاناه» في مختلف المناطق، في فترة الاستعداد للحرب، مساعدة جمة من اعضاء قيادات الاقضية ولجان الامن المحلية. وهبت هذه الهيئات العامة، التي لم تكن في ايام السلم ناشطة جدا، للعمل. فتصدّر اعضاؤها تنظيم الجبايات المحلية لأغراض الامن،

وأشرفوا على تسريع التجنيد، وساعدوا في انشاء «الحرس المدني» في امكنة مختلفة، كما ساعدوا في حل المشكلة الاقتصادية وفي تعبئة وسائط النقل لأغراض الامن، وقاموا بدور ضباط ارتباط بين القادة والمؤسسات العامة في المحلة، وكانوا العنوان الرئيسي فيما يختص بشؤون الاغاثة والمعونة للمصابين وعائلاتهم.

وقد اقامت شعبة القيادة القطرية لشؤون قيادات الاقضية ارتباطا وثيقا بهذه الهيئات العامة. «بالنسبة الى القيادة القطرية» ــ ذكر تقرير من تلك الفترة ــ «تشكل القيادات واللجان المذكورة اعلاه جرس انذار عام بشأن الوضع بمختلف تفاصيله. ــ ــ ومن مهماتها استقبال وفود من الاقضية والاستماع الى شكاويهم، والاهتمام بايجاد حلول جيدة وسريعة».

الطاقة البشرية المحتملة للييشوف

في نهاية سنة ١٩٤٧ اجرى المكتب المركزي للاحصاء، بناء على تعليمات الدائرة السياسية للوكالة اليهودية، تقديرا لتوزع السكان اليهود وفقا للعمر والجنس، من اجل معرفة الطاقة البشرية الممكن ان يوفرها الييشوف للمجهود الحربي. وقد جزم هذا التقدير انه من اصل الـ ٣٦٠,٠٠٠ يهودي القاطنين آنذاك في البلد، كان هناك ٩٧,٠٠٠ رجل تتراوح اعمارهم بين ١٨ ــ ٣٥ عاما (٣٠٪ من المجموع العام للرجال)، و ٧٨,٠٠٠ رجل بين ٣٦ ــ ٥٠ عاما (٢٤٪)، و ٩٥٠٠ حدث في فئة عمر الغادناع (سن ١٦ ــ ١٧)، اي ٣٪ من مجموع الذكور، والمحصلة هي ١٨٥,٠٠٠ من الذكور يمكن ان يشكلوا مصدر قوة الييشوف العسكرية. وبالاضافة اليهم، كان هناك ٤١,٠٠٠ امرأة في سن ١٨ ــ ٢٥، وأكثر من ٩٠٠٠ فتاة. وتشمل هذه الارقام الاشخاص الذين كانوا غير ملائمين للخدمة العسكرية لأسباب صحية، وأشخاصا كثيرين كانوا مرتبطين بخدمات حيوية (كهرباء، مياه، مرافىء، أفران، الخ). ولم يكن في الامكان دوما استبدالهم برجال اكبر سنا. واشتملت ارقام النساء ايضا على الامهات اللواتي لم يكن واردا في الحسبان ايضا تجنيدهن للخدمة العسكرية.

وقد كان تركيب الاعمار بالنسبة الى الرجال مثاليا لجهة أغراض الدفاع (٥٧٪ في فئات الاعمار ١٦ ــ ٥٠)، لكنه كان مختلفا من منطقة الى اخرى: بلغ ٧٤٪ في الكيبوتسات، و٦٠٪ في حيفا، و٥٨٪ في تل ابيب، و٥٥٪ في الموشافيم، و٤٨٪ فقط في القدس.

وقد ضمت «الهاغاناه»، التنظيم العسكري للييشوف الذي كان قائما على التطوع الشخصي، بين صفوفها، بعد ثلاثين عاما تقريبا من انشائها، نحو ٤٥,٠٠٠ عضو بالغ و ١٨,٠٠٠ فتى (سن ١٤ ــ ١٧). لكن هذه الارقام كان تشتمل على المستعمرات العمالية، التي كان ينتمي فيها الى «الهاغاناه» تقريبا كل الاعضاء القادرين على حمل السلاح (نحو ٢٩,٠٠٠ شخص). ولم يكن اعضاء «الهاغاناه» الـ ١٤,٠٠٠ في المدن والموشافات (باستثناء

٢٠٠٠ عضو للبلماح) يشكلون نسبة عالية من سكان هذه التجمعات السكنية. لكنهم كانوا
1460 النواة الاولى التي تقدمت وتطوعت من دون انتظار الاوامر والبيانات العامة، وشكلت الحاجز الاول في وجه الهجمة العربية المتصاعدة، والاطار الذي استوعب آلاف المتقدمين والمتطوعين الذين جاؤوا من الخارج للخدمة في المنظمة.

سير المثول للخدمة والتجنيد

ان الامر، او ــ اذا استخدمنا التعبير المألوف في تلك الفترة ــ البلاغ الاول الذي دعا أفراد فئات الاعمار ١٧ ــ ٢٥، غير المتأهلين، الى تسجيل اسمائهم، صدر عن «مركز الاحصاء للخدمة الشعبية» في ١٩٤٧/١١/٣٠ (غداة القرار التاريخي للامم المتحدة في ليك سكسيس). وتحدد موعد المثول بتاريخ ١٢/٩. وقد تقدم الى الخدمة في الشهرين الاولين لحرب الاستقلال (كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ ــ كانون الثاني/يناير ١٩٤٨) ٢٣,٢١٢ رجلا وامرأة. وفي ١٩٤٨/٢/١٨، صدر بلاغ باستدعاء الرجال العزب والرجال المتزوجين الذين لا اولاد لهم حتى سن الـ ٣٥. وفي نهاية شباط/فبراير، أُعلنت التعبئة العامة. وكان قبل ذلك قد أُعلن استدعاء فئات معينة عديدة، من بينها: الضباط والرقباء والذين خدموا في الجيش البريطاني وجيوش اخرى في اثناء الحرب العالمية الثانية (تقدم نحو ٥٥٠٠ شخص)؛ والاطباء والطبيبات حتى سن ٤٥ (نحو ٥٠٠ شخص)؛ والممرضات من جميع الاعمار (٢٠٠٠ ممرضة). ووصل عدد الذين تقدموا الى الخدمة، حتى ١٩٤٨/٣/١٥، الى
1461 ٥٢,٠٠٠ رجل وامرأة. لكن بعد هذا التاريخ، طرأ تحول كبير ادت اليه الاجراءات التي اتخذت لمراقبة التقدم الى الخدمة من جهة، والجو العام في تلك الايام من جهة اخرى. حتى ٤/١٥، تضاعف عدد المتقدمين الى الخدمة، وكان ٨٢,٥٠٠ من بينهم رجالا (اكثر من ٨٢ ٪ من الرجال الذين تم استدعاؤهم). واذا تذكرنا انه بسبب صعوبات تلك الفترة لم يشمل التقدم الى الخدمة نقاطا كثيرة، كانت موجودة تلقائيا على خط النار، وخصوصا مستعمرات الاستيطان العمالي، فان هذه النسبة تصبح اكبر كثيرا. ومن الجدير بالذكر ان نحو ٢٥,٠٠٠ من بين الرجال الذين تقدموا الى الخدمة (٣٠ ٪) تسجلوا اعضاء في منظمة «الهاغاناه». ولم يتضمن هذا الرقم، طبعا، اعضاء البلماح الذين كانوا مجندين قبل الحرب، وكثيرا من اعضاء المستعمرات الذين لم يستدعوا عمليا الى الخدمة، كما لا يشتمل على الاناث من اعضاء المنظمة. وقد كان عدد المجندين عمليا، يوم اعلان قيام الدولة، ٣٠,٠٠٠ شخص توفر لـ ٤٠ ٪ منهم فقط بنادق.

وتقدم اكثر من ١٢,٠٠٠ آخرين حتى نهاية ايار/مايو ١٩٤٨، بعد ان اعلن في ٤/٢٨ التجنيد لـ «حيل عيزر لنشيم» [الجيش النسائي المساعد]، الذي كان ملزما بالخدمة فيه النساء العوازب والمتزوجات اللواتي لا اولاد لهن من اعمار ١٨ ــ ٢٥، وبعد ان اعلن في ٥/٤ تجنيد

فئات الاعمار ٢٦ ـ ٣٥، بمن في ذلك المتزوجون الذين لهم اولاد. وبعد قيام الدولة فقط، في ٦/٢٠، ارتفع سن التجنيد حتى ٤١ عاما، لكـن حينئذ كان جهاز الدولة قد تولى تنفيذ هذه الاوامر نظريا وعمليا.

التعبئة في المستعمرات العمالية

جرت التعبئة في المستعمرات العمالية وفقا لأسلوب خاص، تعود جذوره الى تجنيد المتطوعين للوحدات اليهودية في سنوات الحرب العالمية الثانية. وكانت الاسباب الرئيسية لذلك نمط الحياة الجماعية في هذه المستعمرات، وضرورات القطاع الزراعي الذي كان انتظام سير العمل فيه حيويا لاعالة الييشوف في ايام الطوارىء تلك. وقد تحددت، بصورة عامة، حصة مقدارها ٧٪ من العاملين في المستعمرات لأداء الخدمة بصورة كاملة، وأصرت المستعمرات على ان يترك لها امر اتخاذ القرار بشأن الاشخاص الذين سيذهبون للخدمة. وأُعفيت المستعمرات التي اعترف بها بأنها مستعمرات حدودية من الخدمة الاجبارية، باعتبار ان اقامة الرجال وعملهم في هذه المستعمرات هما بالذات عامل سياسي ــ امني ذو اهمية قصوى. وكانت هذه المستعمرات هي: مسغاف عام، المنارة، نؤوت مردخاي، ايال، عين زيتيم، معيان باروخ، حكوك، غيشر، كدما، بيت هعرفاه، بثيري، مشمار هنيغف، حتسريم، رفيفيم، مشأفيم. وألزم عدد من مستعمرات الحدود بنصيب مقداره ٤٪ فقط (عين غيف، دفنه، كفار سولد). وأعفي من الخدمة الاجبارية كل المستعمرات الزراعية، التي لم يتجاوز عدد الرجال فيها ٢٥ رجلا (ومن ضمنها تقريبا كل مستعمرات النقب)، ومنحت الموشافيم حق اعفاء الاعضاء المعيلين، وبصورة خاصة من كان له في المستعمرة والدان عجوزان، او من توفى احد والديه.

وكان عدد سكان المستعمرات العمالية من اعمار ١٧ ـ ٥٠ يبلغ ٢٨,٨٤٥ نسمة، وأصبح بعد حذف عدد المعفيين من الخدمة في مناطق الحدود (٢١٢٣ شخصا) ٢٦,٧٢٢. وبالتالي كانت الحصة ٧٪ تمثل ١٨٧٠ شخصا. وقد جند عمليا في المستعمرات، حتى نهاية ايار/مايو ١٩٤٨، للخدمة الكاملة ١٩٨٧ شخصا. ولا داعي الى القول ان كل اعضاء المستعمرات الذين بقوا في المكان، كانوا مرتبطين بنظام الدفاع المحلي، وعلى مستوى المنطقة والاقليم والقضاء في اطار قوة الحراسة، وحيثما وصلت الحرب الى أبواب المستعمرة كانوا يقفون في الجبهة سوية مع المقاتلين في الالوية المجندة. ومع ذلك، كان هناك من اعتقدوا ان الحصة المقررة قليلة قياسا بالنسبة العالية لمن هم في سن التجنيد في المستعمرات. وفي الايام الاولى للدولة، في ١٩٤٨/٨/٢٤، ألغي اسلوب التجنيد الخاص بالمستعمرات، ودمجت المستعمرات في اطار التجنيد الاعتيادي.

من المشكلات الخاصة بالتجنيد التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الاهمية، سنتطرق الى اثنتين فقط: فقد كانت مشاركة الابناء الوحيدين في المعركة احدى المشكلات الحساسة. وقد دفعت العائلات القليلة الابناء، التي كانت النموذج الشائع في اليشوف الحديث الاشكنازي (اذا استثنينا ابناء اليشوف القديم والطوائف الشرقية)، ضريبة دم فادحة في حرب الاستقلال. وكان وضع العائلات التي لها ابن وحيد عسيرا جدا. وتشهد صفحات كتاب «ذكرى شهداء حرب الاستقلال» على العدد الكبير من هؤلاء الابناء الذين سقطوا، تاركين آباءهم وأمهاتهم في وضع لا عزاء فيه. لقد كانت معاناة كل اب وأم في اثناء وجود ابنائهم في جبهة القتال كبيرة، إلا ان قلق الآباء الذين لهم ابن وحيد كان اعظم كثيرا. وفي ١٩٤٨/٢/١٠، اصدرت هيئة الاركان العامة بيانا تضمن أمرا بعدم تجنيد الابناء الوحيدين في وحدات قوة الميدان والبلماح، والزامهم بـ «تجنيد كامل غير محارب»، او بتجنيدهم في قوة الحراسة. كما «يجب نقل الابناء الوحيدين الذين يخدمون حاليا في ألوية قوة الميدان والبلماح الى مهمة ادارية، في المستودعات وفي خدمات اخرى وفي قوة الحراسة». «ينبغي إخطار الابناء الوحيدين في الالوية» ـ تابع البيان قائلا بأسلوب الامر العسكري الجاف ـ «ان الامر تقرر ازاء حقيقة انه استشهد في المعارك مدافعون ممن هم ابناء وحيدون لآبائهم، وبذلك انقطعت ذرية آبائهم».

ولم يطبق هذا الامر بصورة كاملة. فقد رفض الابناء الوحيدون الذين كانوا يخدمون في الالوية المقاتلة، بصورة عامة، ترك اماكنهم. ووقف قادة الالوية امام الحقيقة المرة، وهي ان من شأن إعفاء الابناء الوحيدين ان يؤدي الى خسارة قادة ومحاربين مدربين. وفي مقابل ذلك، لم يكف الآباء المعنيون بالامر عن النضال من اجل حقهم، الذي اقر رسميا، فرفعوا شكاوى كثيرة الى المؤسسات القومية قالوا فيها ان ابناءهم الوحيدين مستمرون في المشاركة في الوحدات القتالية.

وثارت مشكلة اخرى متعلقة بتأجيل تجنيد شبان اليشيفوت [المدارس الدينية]. وقد اعتبرت القيادة العليا هذا الامر خطأ مبدئيا، وقبلته كترتيب موقت. وفي آذار/مارس ١٩٤٨، صدر الامر بتجنيد شبان اليشيفوت في اطار قوة الحراسة غير المجندة فقط. وكان عدد اولئك الذين استفادوا من هذا الامر نحو ٨٠٠ شخص، منهم ٣١٢ شخصا في القدس و١٧٧ شخصا في تل ابيب ونحو ١٤٩ شخصا في غوش دان (في الاساس في بني براك).

ومع ذلك اهتمت القيادة العليا بأمر آلاف الجنود المتدينين، من اعضاء «الهاغاناه» ومن غير الاعضاء، الذين جندوا في صفوف المحاربين. ووضع جهاز الخدمة الدينية التابع للقيادة العليا صيغة مقترحات تصون الكشروت [ما تحلله الديانة اليهودية شرعا وخصوصا بالنسبة الى الاطعمة]، وأيام السبت وباقي أحكام الديانة اليهودية في ظروف الخدمة العسكرية والحرب. وفي ١٩٤٨/٥/٢، عينت الحاخامية الكبرى الحاخام شلومو غورونتشيك

(غورن) «حاخاما اكبر للجيش العبري»، وكُلِّف وضع «خطة لانشاء حاخامية عسكرية للجيش العبري، الذي تجري اقامته في ارض ــ اسرائيل».

وكانت هناك ظاهرة اخرى ازعجت هيئة اركان «الهاغاناه» ولم تختف حتى في الاشهر الاولى بعد قيام الدولة، وهي ظاهرة «الاختطاف». فقد لجأت وحدات مختلفة الى تجنيد اشخاص عن طريق الاتصالات الشخصية، وكانت هناك وحدات اجتذبت اليها الشبان بصورة خاصة. وقد اضرت عمليات التجنيد غير الرسمية هذه بخطط التجنيد العامة. وكانت هذه الظاهرة ايضا مرتبطة بعملية الانتقال من النظام التطوعي في اثناء فترة «الهاغاناه»، الى نظام التجنيد الاجباري لدولة اسرائيل وجيشها.

نهاية مشروع الهجرة اللاشرعية

1463

كانت الهجرة اللاشرعية مصدرا اضافيا لتعزيز القوة الكامنة لليishوف العبري في ايام الحرب الشديدة الوطأة. وفي الاشهر الاولى من سنة ١٩٤٨، وحتى قيام دولة اسرائيل، استمرت عمليات الهجرة اللاشرعية لكن مع تغير في طابعها. ان الهدف السياسي المباشر للهجرة اللاشرعية قد تحقق؛ وبوصول السفن «كيبوتس غلويوت»، و«عتسمؤوت» و«اوم» الى البلد في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، انتهى ــ ظاهريا ــ الجزء المركزي من المشروع. وكان ينبغي للبريطانيين، بموجب قرار الجمعية العامة للامم المتحدة، السماح بافتتاح ميناء يهودي حر في ١٩٤٨/٢/١، إلا أن السلطات البريطانية رفضت تنفيذ هذا القرار، وأعلنت نيتها بالاستمرار في فرض حراسة مشددة على شواطىء البلد. وقد ظلت هذه الحراسة قائمة حتى قيام دولة اسرائيل في ايار/مايو ١٩٤٨، ولم تنجح اي من السفن الثماني التي وصلت في تلك الفترة في اختراق الحصار البريطاني. وقد أُسرت الواحدة تلو الاخرى، وأُرسل ركابها الى معسكرات الاعتقال في قبرص. وكانت السفينتان الاخيرتان، اللتان وصلتا الى البلد مع اعلان الدولة، هما الوحيدتان اللتان دخلتا ميناء تل ابيب من دون مضايقة.

وكانت التعليمات العامة التي اعطيت لرجال «مؤسسة الهجرة» في تلك الفترة، هي ان يرسلوا على ظهر سفن الهجرة اللاشرعية، قدر الامكان، شبانا صغارا مستعدين للانضمام فور نزولهم من السفينة الى قوات «الهاغاناه» المقاتلة. وألزمت التعليمات كل سفينة بمحاولة الوصول الى ميناء تل ابيب، الذي انتقلت ادارته الى اليهود في الاسابيع الاولى لنشوب المعارك. وأُعطيت ايضا تعليمات بعدم المقاومة في عرض البحر، والاكتفاء بمقاومة سلبية في اثناء الانزال والنقل الى سفن الطرد.

وأُطلقت التسميات على السفن العبرية بحسب سير المعارك في البلد «٣٥ غيبوري عتسيون» [ابطال عتسيون الـ ٣٥]، «يروشلايم هنتسورا» [اورشليم المحاصرة]، «يحيعام»، «طيرات تسفي»، «مشمار هعميك»، «نحشون»)، او وفقا لشعارات المعركة («لكوميموت»

[الى الاستقلال]، «بونيم ولوحاميم» [بناة ومحاربون]، «لنتسحون» [الى الانتصار]، «مديناة يسرائيل» [دولة اسرائيل]).

وكانت الرحلة البحرية سهلة جدا، مع ان معظم السفن اتى في ذروة ايام الشتاء. كان منظمو الرحلات قد اكتسبوا خبرة كبيرة، ولم تكن هناك ضرورة لحشر المهاجرين غير الشرعيين، وكانت الرحلة تستغرق اياما معدودة. وقد ابحر نحو ٦٠٠٠ في سفن «المؤسسة» العشر في تلك الفترة، معظمهم في سفن ايطالية من موانىء ايطاليا وفرنسا، وواحدة من يوغسلافيا.

وكانت السفينة «بونيم ولوحاميم»، التي ابحرت في ١٩٤٨/٢/١٩ من ميناء باكار في يوغسلافيا، فريدة في نوعها؛ فمع انها انطلقت سرا، ككل سفن الهجرة اللاشرعية، إلا ان امر انطلاقها كان معروفا للبريطانيين وكان ذلك بمثابة اظهار للمعاملة الحسنة لدول الكتلة الشرقية تجاه المقاتلين اليهود في ارض ـ اسرائيل. وقد قدمت السلطات اليوغسلافية المساعدة لتجهيز السفينة وتزويدها بالمؤونة. ووصل ١٠٠٠ شخص تقريبا، من خيرة شبان الحركة الطلائعية في بلغاريا ومعظمهم يتكلم العبرية، في منتصف الليل بقطارات قادمة من صوفيا. «في الخارج كانت تهب عاصفة ثلجية عاتية» ـ روى احد مرافقي السفينة ـ «كان الاشخاص جميعهم شبانا تعمر قلوبهم الارادة الطيبة. وكان ترتيبهم في اماكنهم اسهل كثيرا من ترتيب اللاجئين». وكان المهاجرون مقسمين بحسب حركة الشبيبة الخاصة بهم، وتولت كل حركة بنفسها الاهتمام بأعضائها. «في الامسيات» ـ روى المرافق ـ «كانت تتجمع زمرة المغنين، التي كانت تنشد الاغاني بمصاحبة الاكورديون، وأحسسنا بالسعادة ونحن نقترب من البلد. وفي كل مرة كنت اصعد فيها في الامسيات الى ظهر السفينة، كنت اخصص عدة ساعات لشرح قضايا ارض ـ اسرائيل. ـــ وطرح كثيرون تساؤلات وأبدوا اهتماما بالنقب. وكان لديهم اهتمام كبير بمعرفة كيفية الانضمام الى «الهاغاناه»، فكان الجواب بأنه فور وصولهم الى البلد سيقبلون في «الهاغاناه»، ويستطيعون البناء والقتال، وكان هذا يرفع معنوياتهم». وعندما وصلت السفينة الى شواطىء البلد، اكتشفتها طائرة استطلاع بريطانية وبعد فترة قصيرة احاطت بها خمس مدمرات. وفي اليوم التالي، في ١٩٤٨/٢/٢٩، اقتيدت السفينة الى الميناء ونقل ركابها الى سفينة الطرد «امباير رايفال» التي اوصلتهم الى قبرص. وذكر تقرير بريطاني ان «تفحص القادمين اظهر انه كان بين هؤلاء المهاجرين ـــ جنود كثيرون سابقون وحراس حمر».

1464

أما السفن الثلاث التي وصلت قبل سفينة «بونيم ولوحاميم»، وهي: «٣٥ غيبوري عتسيون» و «يروشلايم هنتسورا» و «لكوميميوت»، فقد قدمت من موانىء ايطاليا وجنوب فرنسا، وجلبت ١٨٥٠ مهاجرا غير شرعي، معظمهم من رومانيا وهنغاريا وبولندا وشمال افريقيا. وكانت هناك في السفينة «لكوميميوت»، التي اسرت في ١٩٤٨/٢/٢٠، سرية مشكلة من نحو ٢٨٠ شابا «تجندوا في «الهاغاناه» وأقسموا ان يخدموا فيها كلما طلب منهم ذلك».

وبين عيدي بوريم والفصح (آذار/مارس ــ نيسان/ابريل ١٩٤٨) وصل في السفن الاربع: «يحيعام»، «طيرات تسفي»، «مشمار هعميك»، «نحشون»، نحو ٢٩٠٠ مهاجر غير شرعي، صعدوا الى سفنهم ايضا في موانىء ايطاليا وجنوب فرنسا.

وأبحرت السفينتان الاخيرتان، «لنتسحون» و«مديناة يسرائيل»، من ايطاليا قبل ايام معدودة من اعلان قيام الدولة.

وفي ٥/١٥، تلقت السفينتان من «مؤسسة الهجرة» البرقية التالية: «اعلن الشعب المقيم في صهيون اليوم اقامة دولة اسرائيل وحكومتها الاولى. ـــ انتم آخر المهاجرين غير الشرعيين وأول المهاجرين الاحرار. ايدينا ممدودة لاستقبالكم على شاطىء الوطن مواطنين أحرارا في دولتنا المقاتلة التي يجري تحريرها. اهلا وسهلا». وبعد يومين من ذلك، انزلت السفينتان ركابها الـ ٤٣٢ في ميناء عبري حر.

وفي الفترة الواقعة بين قرار الامم المتحدة بتقسيم البلد وبين قيام دولة اسرائيل، تطور على نحو واسع اسلوب الهجرة بواسطة الوثائق المزورة («الهجرة الرابعة»). وقد أُعطي معظم هذه الوثائق لاشخاص على انها أوراق تخص رعايا من ارض ــ اسرائيل عائدين الى بلدهم، بعد ان غابوا عنها خلال سنوات الحرب [العالمية]. وكان الاشخاص المرشحون للهجرة بهذه الوسيلة يجمعون قبل هجرتهم في مخيمات خاصة، ويتلقون توجيها عاما كي يستطيعوا اجتياز الاختبار امام سلطات الهجرة في ارض ــ اسرائيل. وقد ادخلت بهذه الوسيلة حالات خاصة من المهاجرين وأيضا خبراء، تطلبت ضرورات الامن في البلد هجرتهم السريعة والمضمونة (ليس «عن طريق قبرص») الى البلد.

«التجنيد في خارج البلد» (غاحل)

اثارت حرب البيشوف العبري والتغيير الكبير الذي طرأ على مكانته بصدور قرار الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة ونشوء الفرصة الكبيرة لاقامة الدولة العبرية، صدى واسعا في اوساط يهود العالم.

وكانت هناك في بلاد الضائقة اليهودية وفي معسكرات اللاجئين في الدول الاوروبية جماهير يهودية تعيش سلفا حالة «هروب» وهجرة لا شرعية، ووجدت الحرب في البلد كثيرين منهم مستعدين ومدعوين الى الهجرة في اية فرصة تسنح لذلك.

ومع بداية المعارك في ارض ــ اسرائيل، توصلت قيادة «الهاغاناه» في اوروبا الى ان هناك ضرورة لاجراء تغيير تام في اساليب عمل «الهاغاناه» في المنفى وملاءمتها مع حاجات المعركة في البلد. وكان هذا التغيير ضروريا ايضا لان الاغلبية العظمى من الموفدين من ارض ــ اسرائيل كانت تتطلع الى العودة والالتحاق بوحداتها في البلد لمواجهة الحرب. ولم تأت في البداية اية توجيهات من القيادة في ارض ــ اسرائيل. «كانت الحرب في البلد»

1465 ــ كتب ناحوم كرمر (شدمي)، قائد «الهاغاناه» في اوروبا، في تقريره الختامي ــ «في اوجها. وفي هذه الظروف لم تكن هناك اية احتمالات لتلقي المساعدة اللازمة من اجل «رجال الصف» في اوروبا». وجمع كرمر، في ١٩٤٧/١٢/٢٧، ممثلي المؤسسات التي كانت تتولى الاهتمام بـ «الهروب» والهجرة اللاشرعية لاجراء «مشاورات رفاقية» في باريس، واقترح عليهم توجيه كل جهودهم لتنفيذ خطة لتجنيد ٢٠,٠٠٠ شخص لـ «الهاغاناه» في ارض ــ اسرائيل، وبالتالي اعطاء الافضلية لهجرة الشبان القادرين على حمل السلاح. وقد جوبهت أقواله بشكوك، وانتهت المشاورات بقرار تسوية: «الاعتراف بخطورة الوضع في البلد، وأهمية النشاط اللازم لاعداد وحدات من اليهود المجندين والمدربين في اوروبا، الذين يمكن ان يشكلوا بعد هجرتهم الى البلد تعزيزا فوريا ودائما لقواتنا الموجودة والمحاربة هناك».

وقد خاب امل كرمر من نتائج الاجتماع وقرر انهاء عمل «الهاغاناه» في المنفى، كما كان يجري حتى ذلك الوقت، ليصبح في امكان اعضاء بعثة «الهاغاناه» العودة الى ارض ــ اسرائيل. وفي هذه الاثناء، توجهت «مؤسسة الهجرة» الى قيادة «الهاغاناه» في اوروبا باقتراح للقيام بعمل مشترك من اجل «تجنيد شبان لحمل السلاح وبناء الاقتصاد». وكان على «الهاغاناه» ان تجند هؤلاء الشبان وتدربهم، وتعهدت «المؤسسة» بنقلهم الى الشواطىء وتهجيرهم الى البلد. وفي شباط/فبراير ١٩٤٨، تداعت المؤسسات الى اجتماع استثنائي في براغ، شارك فيه ممثلون عن حركات الشبيبة والاحزاب ومنظمات مختلفة، وأُنشىء مركز جديد لتنظيم التجنيد.

وفي نهاية شباط/فبراير، وصل الى اوروبا يسرائيل زفولدوفسكي (عمير) حاملا معه أمرا صريحا الى منظمة «الهاغاناه» بالعمل من الآن فصاعدا على تجنيد وتدريب مرشحين لهجرة وشيكة الى ارض ــ اسرائيل. «ينبغي ان يكون هدف العملية، خلال الاشهر الخمسة القادمة، تدريب العدد الاقصى من المهاجرين وتنظيمهم في فصائل مع قادتهم. وخصص لهذه العملية ١٠,٠٠٠ دولار شهريا. وصدر امر الى قادة «الهاغاناه» «بأن يأخذوا الاشخاص الملائمين من الجهازين الآخرين ــ «المؤسسة، و «الهروب» ــ بلا رحمة: الامن الآن قبل كل شيء!».

وبناء على هذا الامر اجتمع في باريس، في ١٩٤٨/٢/٢٩، اعضاء البعثات التابعة لأرض ــ اسرائيل في اوروبا وممثلو حركات الشبيبة الطلائعية، وقرروا دعوة «كل شاب وشابة تتراوح اعمارهم بين الـ ١٧ و٣٢» الى «الاستعداد لهجرة فورية منظمة ومدربة الى ارض ــ اسرائيل». وفرضت حصص تجنيد على كل دول اوروبا. وسافر كرمر في زيارة قصيرة الى ارض ــ اسرائيل. وأحضر معه خطة التجنيد (نحو ١٠,٠٠٠ شخص حتى آب/اغسطس ١٩٤٨، باستثناء رومانيا)، وطالب من اجل ذلك بميزانية شهرية مقدارها ٤٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني.

وفي هذه الاثناء، كان قد ادرك جميع من في البلد ان «خطة تجميع المرشحين للهجرة

وتنظيمهم واخضاعهم لتدريب اساسي، هي خطة حيوية جدا في ضوء النقص في القوة البشرية» (ي. غاليلي). وأرسلت أوامر صارمة بهذا المعنى الى كل البعثات التابعة لأرض ــ اسرائيل في المنفى. «يجب ان تعلموا» ــ ورد في احدى الرسائل التي ارسلت وقتئذ من القيادة العليا الى المنفى ــ «ان الحرب تغير كل شيء. واذا لم ننتصر في الحرب فلن يفيدنا شيء آخر. ولذا فان كل شيء مرتهن الآن بتحقيق الانتصار». وقد قبلت مقترحات كرمر جميعها، لكن شُرح له انه لا يستطيع الحصول على ميزانية اكثر مما اقر له، لأن الاموال لازمة من اجل مواصلة الحرب في البلد.

وعاد كرمر الى اوروبا، وبدأ تنظيم العملية بمساعدة القوى المحلية. وأُلفت لجان تجنيد محلية، غطت بمرور الوقت عشرات الدول في اوروبا الشرقية والغربية، والدول الاسكندنافية، وانكلترا، ودول اميركا الشمالية والجنوبية، وشمال افريقيا. ولم تكن مهمتها تنظيم التجنيد فحسب وانما ايضا الجباية لتمويل العملية. ونفذت عملية جباية خاصة، تمت سرا، عن طريق التوجه شخصيا الى يهود اغنياء، وخصوصا في الدول التي لم تتضرر مباشرة من جراء الحرب. وتم جمع نحو ٧٠,٠٠٠ من الدولارات، غطت ٤٠ ٪ تقريبا من النفقات.

1466

وتوقفت عملية التدريب في المعسكرات، وكرس فريق القادة والمدربين جهوده كلها لتنظيم التجنيد وتدريب المجندين. وجمع المجندون في معسكرات انتقالية، أقاموا فيها مدة تتراوح بين اسبوعين وشهر، تلقوا خلالها تدريبهم الاولي. ونظمت حملة دعاية من اجل التجنيد. وكانت النواة الاولى للمتطوعين اعضاء «الهاغاناه» القدامى. وبعد ذلك توجه المجنِّدون الى الشبان غير المنظمين. واستخدمت في عدة معسكرات بألمانيا وسائل ضغط. وفرض في المعسكرات الانتقالية على الفور نظام عسكري. «كان كل واحد يصل» ــ روى آرييه نيف، قائد منطقة ريغنسبورغ بألمانيا، في شهادته ــ «يسجل، ويسلم لوازم، ويعطى سريرا في احد الاكواخ وتعليمات عامة ــ عدم الخروج من المعسكر من دون اذن، عدم المتاجرة، عدم كتابة اي شيء عما يجري في المعسكر ــ ويحول الى قائده. وكانت هناك أوامر ثابتة مكتوبة بعدد من اللغات». وكان الاشخاص ينقلون من المعسكرات الانتقالية بسيارات وقطارات الى قواعد الهجرة اللاشرعية على شواطىء البحر الابيض المتوسط.

وقد انشئت قاعدتان للهجرة: الاولى، في منطقة مرسيليا جنوب فرنسا؛ والثانية، في ايطاليا. وكانت القاعدة في فرنسا بقيادة يهودا بن ــ دافيد. وكانت فرنسا مكان تجمع المجندين القادمين من معسكرات ألمانيا ومن شمال افريقيا، وأيضا المتطوعين القادمين من انكلترا وأميركا. وقد قدمت لهذه العملية مساعدة جمة من جانب «منظمة الانصار اليهود في فترة الاحتلال النازي» (Armée Juive) ومن جانب قائدها، بول (أبراهام بولونسكي).

وقد بدأت العملية في منتصف آذار/مارس ١٩٤٨. وكان معسكر الفرز الرئيسي في مرسيليا، وكان قادرا على استيعاب ١٠٠٠ شخص دفعة واحدة. وكانت هناك ايضا ثمانية

معسكرات موزعة في جنوب فرنسا من الالب حتى البيرينيه، اقيمت في مزارع مهجورة وقلاع نبلاء قديمة الخ. وأطلقت عليها تسميات عبرية (عين شيمر، كفارعتسيون، دفنه، طيرات تسفي، بيريا، الخ). وغضت السلطات الفرنسية النظر عن هذه العملية.

وكان قائد العملية في ايطاليا يوسف هراري ومعه امنون يونا، ثم تسفي نشري مدربا عاما. وكانت بداية نشاطهم إجراء دورة لقادة فصائل، نحو ١٣٠ شخصا، مماثلة في مضمونها لدورات مشابهة في «الهاغاناه». وقد اجريت الدورة في معسكر حربي مهجور بالقرب من باري، وتدربت فيه مجموعتان. ومع انتهاء الدورة الاولى انشئت في ايطاليا ثمانية معسكرات تدريب، اقيمت في جوار مدن ساحلية صغيرة، وفي معسكرات جيش مهجورة او في قلاع وأديرة متروكة. وكانت المعسكرات موزعة من تورينو في الشمال حتى باري في الجنوب.

وكان مركز قيادة العملية في ميلانو. وبدىء بتدريب الاشخاص، نحو ١٠٠٠ شخص في كل دورة.

ولم يكن تنفيذ هذه العملية سهلا؛ فقد كان ينقصها جهاز ملائم للاشراف على الادارة، وفريق مدربين ملائم، يستطيع الاحاطة بكل المجندين، كما كان ينقصها ايضا ميزانية. وكان العنصر البشري متنوعا جدا من ناحية منشئه الاجتماعي ولغته. كما لم تكن اسلحة التدريب متوفرة. وقد اقتصر التدريب على السلاح، حتى قيام الدولة، على رشيشات الستن والمسدسات والقنابل اليدوية. وعمليا، تلقى تدريبا كهذا عدد قليل فقط من المجندين. وبسبب كل هذه الظروف، وأيضا بسبب الوقت القصير المتوفر للمدربين، فان هذا التدريب لم يتمكن من إعداد مقاتلين مدربين، لكن كانت له قيمة في تهيئة الاشخاص لما كان ينتظرهم في البلد. اذ اكتسبوا هناك صلابة اولية وعادات الانضباط، وهو امر سهّل عملية استيعابهم في وحدات «الهاغاناه» وجيش الدفاع الاسرائيلي بعد هجرتهم.

وانضم الى مدربي ارض ــ اسرائيل، اعضاء بعثة «الهاغاناه»، طلاب من ارض ــ اسرائيل، نحو ٢٠٠ شخص، كثير منهم من رجال الاحتياط التابعين للبلماح. لكن اكثرية المدربين كانت من اولئك الذين تلقوا دورات «هاغاناه» في دول مختلفة في اوروبا، ايضا في تلك الفترة.

1467

وكان تأثير الدورات على المدربين كبيرا. بعد انتهاء الدورة الاولى لقادة الفصائل في ايطاليا دعا المدرب العام، امنون يونا، الموفدين الى ايطاليا لمشاهدة عرض المتخرجين. «كان شعورنا جميعا عظيما» ــ كتب ــ «عندما شاهدنا العرض الذي اظهر التغير الذي طرأ على المتخرجين: كانوا مرفوعي القامة، وأبدوا قدرة جسدية وفنية على استخدام السلاح».

بدأ العمل المنتظم في آذار/مارس ١٩٤٨. مع انتهاء التدريبات التي كانت تستمر نحو ثلاثة او اربعة اسابيع، كان المجندون ينتقلون الى معسكرات انتقالية وينتظرون دورهم للهجرة، سواء في سفن الهجرة اللاشرعية او عن طريق «الهجرة الرابعة» (أوراق مزورة). وفي الفترة الاخيرة، بعد قيام الدولة، بدىء بنقل قسم من المجندين جوا. وأثارت

الانباء الواردة من البلد في افئدة المجندين الرغبة في القدوم اليه بسرعة. «كانت الروح المعنوية عالية» ــ شهد على ذلك الدكتور شموئيل مندل الذي كان مسؤولا عن الفحص الطبي للاشخاص المرشحين للخدمة في الجيش ــ «وتاق الشبان الى رؤية انفسهم مقاتلين جنبا الى جنب مع المدافعين في البلد».

وأولي الخبراء بين المجندين اهتماما خاصا. كان بينهم ضباط، وأفراد ذوو خبرة بالدبابات والمدفعية، وخبراء لاسلكي، وأطباء، وممرضات، ورجال بحرية وكوماندو، وطيارون، وأفراد ذوو خبرة بالخدمات الجوية، وأيضا عمال قدامى في صناعة الاسلحة. وكان الخبراء يفرزون عن باقي المجندين، ويرسلون في اسرع وقت ممكن الى ارض ــ اسرائيل.

وفي نهاية تموز/يوليو، انتقلت [المسؤولية عن] العملية الى بعثة من جيش الدفاع الاسرائيلي. وقد خرج في الاشهر الخمسة، آذار/مارس ــ تموز/يوليو ١٩٤٨، من قاعدة مرسيليا ٧٤٦٧ مجندا، ومن ايطاليا ٢٦٤٦ مجندا، وهاجر ٢٨٢٦ من دول الدانوب والبلقان في ثلاث سفن انطلقت من يوغسلافيا. وعندما انتقلت القواعد الى عهدة الجيش الاسرائيلي كان لا يزال فيها ٤٣٠٠ مجند، بانتظار دورهم للهجرة الى دولة اسرائيل، منهم ١٢٠٠ في مرسيليا وايطاليا، والباقي في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا وهنغاريا ودول اخرى.

وبهذه العملية انهت بعثة «الهاغاناه» في اوروبا مهمتها، التي كان اساسها تحويل العناصر القادرة على الكفاح والقتال، من بين لاجئي يهود اوروبا، الى قوة منظمة واعية لهدفها، وتوجيههم الى ساحات المعارك في ارض ــ اسرائيل. وقد شملت هذه الحركة ــ حركة «التجنيد في خارج البلد» (غاحل) ــ حتى قيام الدولة، نحو ٢٠,٠٠٠ شخص. 1468

واستمر ايضا بنشاط في معسكرات قبرص، التدريب الممهد للتدريب العسكري للمرشحين للهجرة اللاشرعية والهجرة، وشمل ذلك من كانوا في سن التجنيد لاعدادهم للانضمام، فور وصولهم الى البلد، الى وحدات «الهاغاناه» المقاتلة. وقد جلب رجال غاحل، الذين بدأ دورهم في المعركة يبرز اكثر فأكثر في صيف سنة ١٩٤٨، معهم روح بطولة اليأس لحرب الغيتوات وجو حرب الأنصار. وكان ينقص معظم الذين أُرسلوا الى الوحدات المشكلة اغلبيتها من شبيبة ارض ــ اسرائيل، مثل وحدات البلماح، الالمام باللغة العبرية لكنهم تميزوا كمحاربين شجعان.

«المتطوعون من خارج البلد» (ماحل)

شكل المتطوعون لحرب الاستقلال من الدول التي كان وضع اليهود فيها جيدا، في تلك الفترة، قضية قائمة في حد ذاتها. «ان ما يميزهم» ــ ذُكر في عرض موجز [لأوضاع] المتطوعين من خارج البلد «ماحل» ــ «هو ان الظروف في الدول التي قدموا منها هي على نحو

يمكنهم من العودة الى المكان الذي قدموا منه» (ل. هاريس). وكان معظمهم قد خدم في جيوش مواطنهم الاصلية، وكانوا بعيدين عن الصهيونية والتربية العبرية، لكن قلوبهم خفقت بشعور الاخوة اليهودية والتعاطف مع الييشوف المقاتل دفاعا عن وجوده ضد أعدائه الكثيرين الاقوى منه. وقد دعي هؤلاء المتطوعون لاحقا باسم رجال ماحل («متندفي حوتس لارتس»).

بداية هذا التطوع ــ في عمل «مؤسسة الهجرة الثانية» ــ كانت عشرات كثيرة من الشبان من مواليد الولايات المتحدة، الذين اكتسبوا خبرة بحرية في اثناء خدمتهم في الاسطول الاميركي خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، تطوعوا للقيادة والخدمة في سفن المهاجرين غير الشرعيين (انظر ص 1103).

ان الحاجة الى رجال ذوي خبرة فنية عالية، لتوجيه «الهاغاناه» ومساعدتها في التنظيم والقتال، كانت ملموسة قبل نشوب حرب الاستقلال، وازدادت حدة مع نشوب الحرب. واسم احد هؤلاء المتطوعين، وهو اللواء دافيد ماركوس، ذائع الصيت (انظر ص 1482).

وقد بذلت الجهود الرئيسية لتجنيد المتطوعين في الولايات المتحدة. فأنشىء فيها في بداية سنة ١٩٤٨ مكتب باسم «Land and labor for Palestine» [ارض وعمل من اجل فلسطين]، بادارة الميجر ولسلي اهرون، من ضباط الفرقة اليهودية. وكان هذا المكتب ظاهريا احد فروع «هحلوتس» [الطلائعي]، لكن المنتدبين للعمل فيه بحثوا عن محترفين مستعدين للتطوع للقتال في ارض ــ اسرائيل. وأُغلق في نهاية سنة ١٩٤٨، بعد ان ادى مهمته. وقد بلغ العدد العام للمتطوعين الذين أتوا، عن طريق هذا المكتب، الى ارض ــ اسرائيل، من مواليد الولايات المتحدة وكندا، نحو ١٥٠٠ متطوع. وفي ربيع سنة ١٩٤٨، تم تجنيد خاص بواسطة هايمن شامير لأغراض سلاح الجو التابع لـ «الهاغاناه»؛ وكان هذا التجنيد مترافقا مع عمليات شراء السلاح التي قامت بها المنظمة في الولايات المتحدة (انظر الفصل السادس والسبعين). وقد تمت العملية في اوساط الطيارين، الذين كانت اغلبيتهم الساحقة من اليهود ممن خدموا في سلاح الجو الاميركي خلال سنوات الحرب. وجرت عمليات تجنيد مشابهة في كندا، وبريطانيا، وفرنسا، وهولندا، واسكندنافيا، وأميركا اللاتينية. وأدار العملية في جنوب افريقيا هيئة دعيت باسم «العصبة من اجل الهاغاناه» («League for Hagana»)، ترأسها ضباط يهود خدموا في الحرب العالمية الثانية. وفتحت «العصبة» مجال التسجيل امام المتطوعين. ولم يُقبل ارباب العائلات في «العصبة». وتسجل نحو ٣٠٠٠ شخص، وأُخطرت بذلك قيادة «الهاغاناه» في البلد. وقررت «الهاغاناه» استدعاء المتطوعين بحسب الضرورة. واستدعي، في الاساس، اشخاص الى الخدمة في جهاز الخدمات الطبية وسلاح الجو. ووصل المتطوعون الاوائل في نيسان/ابريل ١٩٤٨، وبلغ عددهم حتى نهاية الحرب ٨٠٠ شخص. ووصلت اكثريتهم الساحقة الى البلد بعد انشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي» (ايار/مايو ١٩٤٨). وتندرج اعمالهم ضمن تاريخ

1469 تطور الجيش في ايامه الاولى. ومن الناحية النسبية، قدمت جنوب افريقيا العدد الاكبر من المتطوعين لحرب الاستقلال. وحضرت مجموعة كبيرة نسبيا (١٠٠ شخص ونيف) من الدول الاسكندنافية (السويد والدانمارك وفنلندا والنرويج).

وقد تضرر سير التطوع في اطار ماحل بسبب الاوامر المتغيرة والمتناقضة التي كانت تأتي بين الحين والآخر من ارض ـ اسرائيل. وفي نهاية المطاف، اقتصر حجم التطوع لماحل على تجنيد خبراء عسكريين ومحترفين وضباط.

وفي شباط/فبراير ١٩٤٨ عين إلياهو طمكين (طـل) ـ ميجر في الجيش البريطاني سابقا ـ ضابطا مسؤولا عن تجنيد واستيعاب المجندين والمتطوعين في المنفى. وفي البداية وُجه القادمون الى الاقامة مع المجندين القادمين من المعسكرات في اوروبا، رجال غاحل. لكن بعد ان ظهرت تناقضات بين النمطين من الجنود، نقل رجال ماحل الى معسكر خاص بهم في تل ليتفنسكي.

وكانت المساهمة الاهم والحاسمة للمتطوعين من خارج البلد هي تلك التي قدموها الى سلاح الجو التابع لدولة اسرائيل. ان هذا الموضوع يشكل، بكل مظاهره وأبعاده، فصلا في تاريخ سلاح الجو، لكن بدايته تعود الى الاشهر التي سبقت الدولة، عندما قاد طيارون من الولايات المتحدة الطائرات الاولى التي حملت اسلحة من تشيكوسلوفاكيا الى ارض ـ اسرائيل (انظر ص 1526)، وأبقوا الاتصال الجوي بين البلد والعالم الكبير قائما، وشكلوا بعد ١٥ ايار/مايو مباشرة اول سرب مقاتل تابع للجيش الاسرائيلي.

وأيضا وصل المتطوعون الاوائل للخدمة في سلاح البحرية اليه في ايامه الاولى. وهنا كان الفارق كبيرا بين خبرة رجال البحرية الذين خدموا خلال الحرب العالمية في اساطيل حربية لدول عظمى، وبين أقرانهم في ارض ـ اسرائيل الذين اكتسبوا خبرتهم من دورات السرايا البحرية ومن مرافقة سفن المهاجرين غير الشرعيين. ولهذا السبب كانت العلاقات صعبة بين رجال ماحل وقادتهم، وترك قسم كبير من المتطوعين السلاح مدعين ان التعيينات للرتب في السلاح تتقرر وفقا لأسلوب غير فعال، يسد الطريق امام المحترفين وأصحاب الخبرة، اذا لم يكونوا قد نشأوا في نواة رجال البحرية في ارض ـ اسرائيل.

وقام المتطوعون بدور مهم في بداية تطور كل من سلاح الاشارة وجهاز الخدمات الطبية الذي وصلت نسبتهم فيه، في ذروة حرب الاستقلال، الى ٢٠ ٪ من عدد الاطباء العام في هذا الجهاز. ولا نستطيع في الاطار المختصر لكتابنا هذا، سرد كل قصة ماحل وسنكتفي بذكر اسماء عدد من الاشخاص.

احد هؤلاء كان بن دونكلمان، ميجر في الجيش الكندي، اتى الى البلد تحت اسم مستعار في ربيع سنة ١٩٤٨. شارك في معارك القدس، وعمل في سلاح المدفعية، وعين قائدا للواء السابع الذي برز في معارك الجليل في صيف سنة ١٩٤٨، والذي انشئت فيه سرية للناطقين باللغة الانكليزية.

وثمة قصة نموذجية من قصص المتطوعين من خارج البلد، هي قصة غيرهارد وايل الذي كان ينتمي الى عائلة يهودية سويسرية ذات تقليد عسكري. كان ابوه لواء في الجيش السويسري. وأثارت الكارثة التي حلت باليهود في اوروبا اهتمام غيرهارد بالفكرة الصهيونية، وهاجر سنة ١٩٤٦ الى البلد كسائح وبحث عن طرائق للاستقرار فيه. وفي خريف سنة ١٩٤٧، عاد الى سويسرا للتدرب لمدة شهرين في اطار التدريب كل سنتين في الجيش، وتعلم بهذه المناسبة الاساليب الجديدة لاستخدام المتفجرات. ومع نشوب حرب الاستقلال عاد الى البلد، وأرسله جهاز الاستخبارات التابع لـ «الهاغاناه» في مهمة جال خلالها في شرق الاردن وسورية، متخفيا في زي سائح مسيحي، وخدم لاحقا مدربا على المواد المتفجرة في لواء «يفتاح» في الجليل الاعلى، وقتل في ١٩٤٨/٣/١١ في اثناء تفكيكه للغم زُرع في الطريق من ايبليت هشاحر الى حولتا.

وجاء من كندا، في ربيع سنة ١٩٤٨، رالف موستر (٢٤ عاما) الذي خدم خلال سنوات الحرب العالمية الثانية في سلاح الجو الكندي. وأُلحق فورا بوحدة مدرعة في البلماح، وشارك في معارك الجليل الاعلى. وفيما بعد، نقل الى سلاح الجو وعين قائدا للسرب العامل في النقب. وسقط في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨، عندما كان يجرب طائرة بحرية جديدة فوق مياه بحيرة طبريا. وقد كتب في احدى رسائله الى والديه: «ان العرب لن ينتصروا علينا أبدا لأننا نعرف ما الذي نحارب من اجله». I470

ومن بين الاطباء المتطوعين من الخارج، الطبيـي الذكر، الجرّاح النقيب ليو بورنشتاين من الولايات المتحدة، مدير المستشفى العسكري في كفار غلعادي؛ والنقيب يشعياهو موريس من انكلترا، طبيب شاب وصل في سفينة المهاجرين غير الشرعيين «مديناة يسرائيل» (كانون الثاني/يناير ١٩٤٨). وبعد ان مر بمعسكر التدريب في قبرص، وصل في آذار/مارس ١٩٤٨ الى البلد، وتطوع وأُلحق بلواء «غولاني» وسقط في الشجرة، في ١٩٤٨/٦/١١، في اثناء تقديمه المساعدة لجريح في مستوصف على الجبهة؛ والطبيب الجرّاح عمانوئيل ماركوس من الولايات المتحدة، الذي نقل جوا الى النقب وقدم مساعدته للجرحى والجنود في هذه المنطقة المعزولة؛ والطبيب ليونيل ملتسر، كولونيل سابق في الفريق الطبـي العسكري في جنوب افريقيا، الذي جاء مع فريق من الخبراء الطبيين لتقديم المساعدة لجرحى الحرب، وعين نائبا لقائد الفريق الطبـي في جيش الدفاع الاسرائيلي.

لقد تجلت في غاحل وماحل، على نحو خاص وجديد، وحدة الامة اليهودية؛ لقد كانت غاحل جزءا من حركة الهجرة الكبرى التي نهضت مع قيام الدولة، وفي ماحل زرعت بذور لرابطة من نوع جديد ـ حية ومباشرة ـ بيهود المنفى في دول اوروبا الغربية وجنوب افريقيا وأميركا، واحتمالات للهجرة من هذه الدول تنتظرها دولة اسرائيل.

دافيد بن ـ غـوريون يقود المعركة

منذ اليوم الاول للحرب تسلم بن ـ غوريون زمامها، سواء بصفته قائدها السياسي او بصفته موجهها الاستراتيجي. وقد قام عمليا، حتى قبل اعلان قيام الدولة العبرية رسميا، بدور رئيس الحكومة ووزير الدفاع.

وكان بن ـ غوريون البالغ من العمر ٦٢ عاما في تلك الفترة، في ذروة قوته الجسدية والروحية.

وفي نصف السنة السابقة لاندلاع حرب الاستقلال، عمل بن ـ غوريون بكل طاقته وحيويته لتوسيع امكانات نشاطات «الهاغاناه» من اجل إعدادها لمواجهة الاحداث القادمة واعداد الييشوف والحركة الصهيونية للاختبارات القائمة في مواجهتها.

ان السلطتين الشخصية والعامة اللتين كان يتمتع بهما بن ـ غوريون اتاحتا له التغلب على أعراف عامة كانت مألوفة في ذلك الوقت، ولم تكن ملائمة لأوقات الطوارىء والحرب، التي تستدعي قرارات جازمة وسريعة.

في ١٩٤٧/١٢/٩، انتقل بن ـ غوريون من القدس، التي كان فيها مقره كرئيس للوكالة اليهودية، الى تل ابيب، وألقى عبء المفاوضات مع السلطات البريطانية على كاهل غولدا مئيرسون (مئير)، بينما كرس نفسه كليا لتنظيم النضال العسكري. وكانت تل ابيب مركز الييشوف اليهودي سواء من ناحية القوة البشرية والاقتصادية او من الناحية الجغرافية، كما كانت مركز اول منطقة تحررت من رقابة السلطات والشرطة البريطانية. واقامت هيئة اركان «الهاغاناه»، التي بدأت تخرج الى العلن، مقرها في مبنى «بيت هأدوم»، على شاطىء تل ابيب. وأقام بن ـ غوريون مكتبه في هذا المبنى.

وبالنسبة الى بن ـ غوريون، كانت مشكلة الحرب تطغى على كل مشكلات الييشوف العبري في تلك الفترة، وعرف كيف يدخل شعوره ورأيه هذين في روع الجهات العبرية العامة في الييشوف.

«ان كثيرا من الامور المهمة والعزيزة التي يتحدث عنها الرفاق، والتي تحدثت انا ايضا عنها قبل فترة»، قال د. بن ـ غوريون في جلسة لمركز ماباي في الشهر الثاني للحرب، «لا تستوعبها اذناي الآن ولم اعد اعرف مغزاها. سمعت ز. يتحدث الآن عن الدولة، وخيّل الي انني نسيت معنى هذه الكلمة. سمعته يقول ان حكمة اسرائيل هي حكمة الخلاص ـ وهذه الكلمات ليست مفهومة ايضا بالنسبة الي لأنني اشعر بأن **حكمة اسرائيل الآن هي حكمة الحرب، اياها وليس سواها، وهي وحدها فقط**. ومن دون هذه الحكمة تصبح كلمة «الدولة» وكلمة «الخلاص» فارغتين من مضمونهما. ــ ان الاشهر الثمانية التي امامنا لا تشبه أشهرا ثمانية في اية سنة مرت علينا، وربما ايضا ثماني سنين او ثمانين سنة، ولا اخشى ان اقول: لا تشبه الثمانمئة سنة التي مضت او التي ستأتي في فترة اخرى. ذلك بأن هناك شعورا واضحا بأن الاشهر السبعة او الثمانية القادمة، التي دخلنا فيها، تنطوي على

1471

التاريخ اليهودي كله؛ ذلك التاريخ الممتد الى اكثر من ثلاثة آلاف سنة، وسيتوقف عليها التاريخ اليهودي المقبل، ربما، الى مئات او ايضا الى آلاف السنين. ولا استطيع، ولا اريد ان اتطلع الآن الى ما هو ابعد من الاشهر السبعة او الثمانية القادمة، لأنها هي التي ستقرر في رأيي كل شيء؛ فخلالها سيتقرر مصير الحرب، ولا شيء قائم بالنسبة الي الآن خارج هذه الحرب. ـ ـ وُضعنا امام اختبار عظيم قبل ان نعد لذلك وعلينا ان نصمد فيه. والافسيكون هذا هو الاختبار الاخير، الذي لا شيء بعده سوى الفناء. ـ ـ فلنركز عصارة حياتنا وجميع حواسنا وأعضائنا على ارادة واحدة ووحيدة: ارادة النصر. ومن دون ذلك لن نصمد في الاختبار المريع».

ومن أجل أداء هذه المهمة الصعبة كان على بن ـ غوريون ان يعتمد على مشورة العسكريين، ومنهم: كوادر «الهاغاناه»، ورجال القيادة القطرية، وهيئة الاركان، والقادة. فهم الذين انشأوا المنظمة بألويتها المختلفة، ومنها لواء البلماح، وهم الذين اختزنوا الخبرة القتالية للييشوف واستخلصوا الاستنتاجات منها، وهم الذين تصدروا المعركة منذ اليوم الاول.

وكان بين العسكريين من هو مسرح من الجيش البريطاني، رقباء وضباط تخرجوا من مدرسة مهمة في سنوات خدمتهم في الجيش البريطاني، واكتسبوا خبرة كبيرة بتنظيم جيش عصري. وتحفظ قسم منهم تجاه الاساليب التطوعية والملائمة لحروب «الأنصار»(partisans) المعمول بها في منظمة «الهاغاناه». وكان بينهم خبراء ومحترفون في فروع لم تكن «الهاغاناه» نفسها تمارسها حتى تلك الفترة، وهي حيوية لادارة حرب ضد جيوش نظامية.

وقد مال بن ـ غوريون في هذا الجدل الى الموافقة نظريا على انتقادات مسرحي الجيش البريطاني وخططهم، لكنه عمليا عرف وفهم، ونصح له في ذلك ايضا عدد من الضباط المتخرجين من الجيش البريطاني: ان المرء «لا يبدل الاحصنة في وسط المعركة». ومن الناحية الفعلية تحملت وحدات «الهاغاناه» ـ وفي مقدمتها البلماح ـ عبء الحرب، وفي اطارها تم الانتقال الى اساليب قتال وتنظيم جيش نظامي.

في ١٩٤٨/١/١٧، استدعى بن ـ غوريون ليفي شكولنيك (اشكول)، الذي كان قد اصبح قبل فترة قصيرة عضوا في القيادة القطرية، كمسؤول عن الشؤون المالية والاقتصادية في «الهاغاناه»، واقترح عليه تولي تنظيم الجانب الاقتصادي والمدني للحرب. وأصيب رئيس الاركان يعقوب دوستروفسكي (دوري) بالمرض في بداية الحرب، ولم يتمكن من أداء مهمته بانتظام، فقام بأداء مهماته رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي. وقد تولى ادارة حرب الاستقلال في الاشهر الاولى وأيضا فيما بعد: دافيد بن ـ غوريون، ويسرائيل غاليلي، وليفي شكولنيك، مع اعضاء هيئة الاركان العامة وعلى رأسهم ضابط العمليات يغئيل سوكنيك (يادين)، ونائب رئيس الاركان تسفي لشتسينر (إيلون).

تغييرات في بنية هيئة الاركان العامة

في اثناء فترة الحرب بالذات، بدىء بملاءمة هيئة اركان «الهاغاناه» لمتطلبات جيش نظامي، مجند ومقاتل.

وطورت هيئة الاركان العامة خلال ثماني سنوات منذ انشائها، في ايلول/سبتمبر ١٩٣٩، دوائرها وأجهزتها. والآن اتسع العمل وتغير طابعه. واستمر يعقوب دوستروفسكي 1472 (دوري) في منصب رئاسة هيئة الاكان، وعين تسفي لشتسينر (إيلون) نائبا له. ومن اجل اعادة تنظيم هيئة الاركان عينت فيها في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ «دائرة تخطيط للأركان» قررت، وفقا لما تحدد عشية حرب الاستقلال، تحويل مكاتب هيئة الاركان الى خمس شعب منفصلة:

أ ــ مكتب التخطيط اصبح شعبة العمليات، برئاسة يغئيل سوكنيك (يادين)، وتضم اربع دوائر: العمليات، والتخطيط، وادارة العمليات، والاستخبارات. وقد انشئت دائرة الاستخبارات على الاساس القائم المتمثل في جهاز الاستخبارات (شاي) التابع لـ «الهاغاناه»، والذي ربط حتى تلك الفترة بين الاستخبارات السياسية ــ المدنية وبين الاستخبارات العسكرية.

ب ــ مكتب التدريب اصبح شعبة التدريب، برئاسة حاييم لاسكوف، وفيما بعد برئاسة إلياهو بن ــ حور، وكُلِّفت «تدريب سلاح المشاة وقادته وتعميم تدريبات سلاح المشاة على كل الاسلحة والخدمات». وقد تضمنت هذه الشعبة: دائرة لنشر مواد اعلامية، وجهاز للتربية البدنية.

ج ــ ادارة اقتصاد «الهاغاناه» وخدمات التسليح والتخزين ضمت الى شعبة المستودعات، برئاسة يوسف روخيل (افيدار). وكانت مهمتها تحديد مواصفات الاعتدة العسكرية ونوعها، وتخزين هذه الاعتدة «وفقا للمتطلبات الاستراتيجية والتكتية»، وامداد الوحدات العسكرية المختلفة بها وقت الحاجة. وكان داخلا في مجال اختصاص هذه الشعبة، ايضا، البريد العسكري الذي انشىء في ايار/مايو ١٩٤٨.

د ــ أُنشئت شعبة جديدة تماما هي شعبة القوة البشرية، برئاسة موشيه لـرر (تسادوك). وكانت براعمها موجودة حقا في القيادة العليا لـ «الهاغاناه»، ومتمثلة بتسجيل القادة وادارة الاحصاءات المتعلقة بأعضاء المنظمة. والآن كُلِّفت الشعبة الجديدة الاهتمام بالتجنيد العام لليشوف العبري. وكانت تضم ايضا الخدمات الطبية وخدمات المدفوعات والشرطة العسكرية.

هـ ــ الدائرة المالية التابعة لـ «الهاغاناه» تحولت الى الشعبة المالية برئاسة باروخ رابينوف.

«الخطة د» (دالت)*

مع تغير وجه المعركة كُلِّفت هيئة اركان «الهاغاناه» اعادة درس خططها السابقة ووضع خطة جديدة. وجرت محاولة اولى في هذا الشأن في بداية سنة ١٩٤٨، عندما وضعت بسرعة خطة دعيت باسم يهوشواع غلوبرمان، الذي سقط في المعركة في تلك الفترة. وكانت الخطة «تهدف الى مواجهة حالة غزو قوات نظامية من الدول المجاورة»، وقائمة على خطط ومفاهيم «الهاغاناه» كما تطورت خلال السنوات السابقة. وهكذا، مثلا، ذُكر في الخطة انشاء ثلاثة ألوية ميليشيا في الجليل الاوسط والسهول الساحلية والجليل الاسفل، تكون قائمة على قوة الحراسة في هذه المناطق، ومرتبطة بالامتداد الجغرافي للمناطق. وتكون قيادات هذه الالوية هي ايضا قيادة الجليل.

وأدت الاسابيع الاولى للأحداث الى تغير في تفكير اعضاء هيئة الاركان. وتولد شعور بضرورة وضع خطة تتجاوز كثيرا المفاهيم «الميليشيائية»، وتأخذ في الاعتبار جوانب عسكرية ـ سياسية ارحب مدى. وعلى الفور شرع في وضع خطة دائمة وشاملة تم انجازها في نهاية الشهر الثالث للحرب فقط. وفي ١٩٤٨/٣/١٠، اقرت هيئة الاركان العامة خطة «السيطرة على مساحة الدولة العبرية والدفاع عن حدودها»؛ وقد اشير الى هذه الخطة بـ «الخطة د» لهيئة اركان «الهاغاناه». 1473

وقد اعتمدت هذه الخطة على ثلاث خطط سابقة لها: «الخطة ب»، و«خطة ايار/مايو ١٩٤٦»، و«خطة يهوشواع». وكان الهدف منها استكمال الاجزاء الناقصة [في الخطط] وملاءمتها مع الوضع المتوقع نشوؤه بانتهاء الحكم البريطاني. وكانت نقطة انطلاق الخطة الفرضية العامة: «انه في اثناء تنفيذ الخطة، لن تكون قوات السلطة (البريطانية) موجودة في البلد»، ولن تكون في البلد «قوة دولية قادرة على العمل بصورة فعالة». ومع ذلك، ذكر ان «هدف هذه الخطة ليس، بصورة عامة، عملية احتلال خارج حدود الدولة العبرية». وكان واضحا ان جميع المستعمرات اليهودية القائمة خارج حدود الدولة، بحسب مشروع الامم المتحدة للتقسيم، لن تترك ولن تخلى من سكانها، وستفعل «الهاغاناه» كل ما في وسعها لتنظم صمودها في وجه البيئة المعادية.

وأخذت الخطة بعين الاعتبار المواجهة مع عدو مكون من «قوة شبه نظامية تابعة لجيوش التحرير التي شكلتها الجامعة العربية»، وقوة نظامية تابعة للدول المجاورة تقدم على الاجتياح من وراء الحدود او تنشط من قاعدة داخل البلد («الفيلق العربي»)، وعصابات تعمل من قواعد داخل البلد وعلى حدود الدولة العبرية. وأُخذ بعين الاعتبار احتمال ان يسعى العدو لعزل مناطق الاستيطان اليهودية، والسيطرة على مناطق الجليل الشرقي والجليل الغربي والنقب، للتغلغل في الشارون في اتجاه قلقيلية ـ هيرتسليا ـ طولكرم ـ نتانيا، من اجل عزل

---

* دالت: لفظ الحرف الابجدي بالعبرية الذي يقابله حرف د في الابجدية العربية. (المترجم)

المدن الثلاث الكبرى والاضرار بالتموين والخدمات الحيوية الاخرى، مثل الماء والكهرباء. وكان هناك احتمال ان يستخدم العدو سلاحا ثقيلا ومدفعية ميدان ومركبات مدرعة وطائرات، بينما تساعده العصابات المحلية بحرب مشاغلة وأعمال تخريب وارهاب.

وكانت مهمة قوات الدفاع اليهودية انْ تدافع عن نفسها ضد هجوم عربي في اطار الدفاع المحدد الثابت، وأن تشن هجمات على قواعد العدو وطرق امداداته في عمق أراضيه على حدود البلد وفي الدول المجاورة، وأن تحمي شرايين المواصلات الحيوية. وكُلِّفت احتلال قواعد امامية في أراضي العدو، وتقليص قدرة العدو بواسطة الاحتلال والسيطرة على مراكز معينة في المناطق الريفية وفي المدن، داخل حدود الدولة.

كما ذكر ان «الهاغاناه» المحلية يجب ان تسعى لـ «الانتقال من الدفاع عن نقاط الى الدفاع الاقليمي، وذلك كي لا تكون المنطقة هي الوحدة الدفاعية الاساسية وانما الاقليم». ومن اجل ذلك تقرر تحويل هيئات اركان الاقاليم من اركان ادارية الى اركان حرب، وانشاء «احتياطي اقليمي متحرك». وتضمنت الخطة: احتلال مراكز الشرطة، والسيطرة على الخدمات الحكومية، وتأمين الخدمات الحيوية، و «القيام بعمليات ضد التجمعات السكانية للعدو، الموجودة داخل، او بالقرب من نظام دفاعنا، بهدف منع استخدامها قواعد لقوة مسلحة ناشطة». وتضمنت هذه العمليات: «تدمير مثل هذه القرى، والقيام بعمليات تفتيش، وفي حال المقاومة ابادة القوة المسلحة وطرد السكان الى خارج حدود الدولة». وفي حال عدم المقاومة، «تدخل القرية حامية، وتتمركز فيها».

وفي المدن كان على «الهاغاناه» ان تسيطر على الاحياء العربية المنعزلة «المسيطرة على طرق الخروج من المدن والدخول اليها». وأيضا، في هذه الاحياء، «يطرد السكان الى المنطقة البلدية المركزية للعرب» في حال المقاومة. كما وُضعت خطة لاحتلال موقت لـ «عدة قواعد للعدو واقعة بالقرب من الحدود مباشرة، ويحتمل ان تستخدم نقطة وثوب للتسلل الى داخل أراضي الدولة».

وأوكلت مهمة الدفاع عن المناطق وانشاء الاحتياطي الاقليمي الى قوة الحراسة. وكُلِّفت وحدات سلاح المشاة العمليات الهجومية التالية: السيطرة على شرايين المواصلات الرئيسية، والتمركز في المدن، وفرض الحصار على مدن العدو، واحتلال القواعد الامامية للعدو والسيطرة عليها. وأوكلت الى لواء القوات الضاربة مهمة شن «هجمات مضادة داخل حدود البلد وخارجها». 1474

وقد تم وضع الخطة بالتعاون مع قادة الالوية المختلفة، التي بدىء بتشكيلها في تلك الفترة، ووصلت الى مرحلة تفصيل مهمة كل لواء بحلول الوقت الملائم عند خروج البريطانيين من البلد.

«الخطة د» بحسب الالوية

باستثناء لواء البلماح (انظر ادناه الفصل الخامس والسبعين)، خُطط لانشاء ستة ألوية: اللواء أ ــ لواء «غولاني» الذي استند الى قوة الميدان ــ في منطقة الجليل والمروج؛ اللواء ب ــ لواء «كرملي» ــ في حيفا وجوارها؛ اللواء جـ ــ لواء «ألكسندروني» ــ في الشارون؛ اللواء د ــ لواء «كرياتي» ــ في تل ابيب وجوارها؛ اللواء هـ ــ لواء «غفعاتي» ــ في الشفيلا، ولواء «عتسيوني» في منطقة القدس.

وأُوكلت الى لواء «غولاني»، الذي اشتمل على خمس كتائب اشير اليها بالارقام من ١١ حتى ١٥، القيام بالمهمات التالية: اغلاق طرق تقدم العدو الرئيسية من حدود البلد ومن جهة الجليل الاوسط والناصرة وطوباس وجبال جلبواع وجنين ووادي عارة؛ احتلال مخافر الشرطة في المطلة والخالصة (لاحقا: كريات شمونة) والنبي يوشع وروش بينا وصفد وطبريا وسمخ وغيشر وبيت شان والعفولة ونهلال وشاعر هعماكيم واللجون؛ السيطرة على القرى العربية في المنطقة وعلى الطرق من المطلة الى طبريا، ومن روش بينا الى صفد، ومن طبريا الى العفولة، ومن العفولة الى الجلمة، وعلى الطريق المار بوادي الملح؛ فرض حصار على الناصرة، وعلى بيت شان؛ ايقاف حركة مواصلات العدو على طريق حيفا ــ جنين. وكُلِّف ايضا ان يبذل جهده كي لا يقيم العدو قواعده في سعسع وجبل طرعان وجبل تابور [الطور] وغفعات هموريه وضواحي مجدّو.

وكُلِّف لواء «كرملي»، الذي اشتمل على ثلاث كتائب (٢١، ٢٢، ٢٣)، القيام بالمهمات التالية: اغلاق طرق تقدم العدو الرئيسية من جهة حدود لبنان ومن ناحية ترشيحا وشفاعمرو والكرمل ووادي الملح؛ احتلال مخافر الشرطة في كفارآتا وكريات حاييم وعتليت والبصة والمعسكر الحربي الواقع بالقرب من كفارمساريك؛ التمركز في مدينة حيفا، عن طريق احتلال الاحياء العربية («يجب حصر العرب في منطقة وادي الصليب ووادي النسناس»)؛ السيطرة على الطرق وسكة الحديد من حيفا الى زخرون يعقوف (عن طريق السيطرة على قرى: الطيرة وعين هود والمزار وجبع واجزم وعين غزال وصرفند وكفر لام)، ومن حيفا الى عين همفراتس، ومن حيفا الى الجلمة. وكُلِّف ايضا فرض حصار على عكا، واحتلال البصة والزيب والاحتفاظ بهما.

وكُلِّف لواء «ألكسندروني»، الذي اشتمل على اربع كتائب، من ٣١ حتى ٣٤، القيام بالمهمات التالية: عدم السماح للعدو بالتقدم من جهة الكرمل ووادي عارة والقرى الواقعة على سفوح جبال السامرة: قاقون وطولكرم وقلقيلية، والثغرة من بير عدس حتى روش هعاين [راس العين]؛ وباحتلال مخافر شرطة زخرون يعقوف ووادي عارة والخضيرة وبيت ليد وتل موند ورعنانا وبيتح تكفا ورامات غان؛ السيطرة على طريق حيفا ــ تل ابيب، وعلى سكة حديد حيفا ــ الخضيرة (خلال احتلال الطنطورة والفريديس). كما كُلِّف اللواء احتلال

٢٠ قرية في أراضي العدو (بينها قاقون وطولكرم وقلنسوة والطيبة والطيرة وقلقيلية وجلجولية واليهوديه وكفرعانا وويلهلمه)، والتمركز فيها من اجل الدفاع لفترة طويلة.

وكُلِّف لواء «كرياتي»، الذي اشتمل على كتيبتين ـ ٤١ و ٤٢ ـ القيام بالمهمات التالية: احتلال احياء المنشية وابو كبير وتل الريش؛ «توجيه ضربة قاصمة الى يافا وسلمة ويازور، وحصرها داخل مناطقها الخاصة بها بحيث لا تجرؤ على الخروج منها». 1475

وكُلِّف لواء «غفعاتي» المشكل من اربع كتائب ـ ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤ ـ القيام بالمهمات التالية: اغلاق طرق تقدم العدو من الشرق والجنوب؛ احتلال مخافر شرطة ريشون لتسيون ورحوفوت وغديره وعراق سويدان؛ السيطرة على طريق تل ابيب ـ القدس حتى اللطرون عن طريق السيطرة على المسميه؛ السيطرة على طريق تل ابيب ـ النقب (حتى جولس) عن طريق السيطرة على القسطينة وجولس؛ السيطرة على مطار اللد، وفي الاساس على المعسكر في صرفند؛ المشاركة في محاصرة يافا، وفرض الحصار على اللد والرملة.

وكُلِّف لواء «عتسيوني» الذي اشتمل على ثلاث كتائب ـ ٦١، ٦٢، ٦٣ ـ القيام بالمهمات التالية: اغلاق طرق تقدم العدو الرئيسية من جهات رام الله وأريحا والخليل؛ احتلال مخفر شرطة هارطوف وأبو غوش واللطرون وشمالي البحر الميت وسدوم ومعاليه هأدوميم وبيت لحم (المخفران الاخيران يصار الى تدميرهما اذا لم يكن هناك امكان للتمركز فيهما). وفي القدس، كُلِّف احتلال منطقتي الامن البريطانيتين ب و جـ، والوسط التجاري ـ مغدال دافيد ـ والسيطرة على حي الشيخ جراح ووادي الجوز والقطمون والبقعة وأبو طور وشمعا. وفي خارج القدس كان على اللواء ان يسيطر على الجزء الشرقي من طريق القدس ـ تل ابيب عن طريق احتلال القرى والمواقع العالية في القسطل، ومحطات ضخ المياه في ساريس وباب الواد واللطرون. وكُلِّف اللواء ايضا احتلال المطار في عطروت، وفرض حصار على بيت لحم وبيت جالا والخليل. وبالنسبة الى الكتائب الثلاث كان ينبغي لاحداها ان تتمركز في القدس، والثانية في منطقة موتسا ـ هارطوف ـ اللطرون، بينما قسمت الثالثة الى اربع وحدات قتالية في غوش عتسيون، وجنوبي البحر الميت، وسدوم، وغوش النبي يعقوب ـ عطروت.

وكان ينبغي ان يبدأ التنفيذ العام للمهمات التي كُلِّفت بها الالوية وفقا لأمر خاص يصدر مع اعلان الحالة دالت.

لقد كانت «الخطة د» مرحلة اخرى من مراحل تحول «الهاغاناه» الى جيش لدولة مستقلة. ولم تطبق حرفيا في الظروف العصيبة، وأُدخلت فيها تعديلات كبيرة في اثناء تنفيذها، لكنها شكلت نقطة انطلاق وتوجيه بالنسبة الى المهمات والادوار الجديدة التي كُلِّفت «الهاغاناه» القيام بها في تلك الفترة.

نشأت خلال التجنيد الجماهيري مشكلة الانضباط في وحدات «الهاغاناه». لقد كان الانضباط في «الهاغاناه» قائما على العلاقات الرفاقية بين القائد ومرؤوسيه. «لقد عاش اعضاء الهاغاناه» ـ كتب حاييم لاسكوف في تلك الفترة ـ «وعملوا سوية في اوقات عصيبة، وكان بعضهم مرتبطا ببعض برباط قوي ويمثل اعلى واحد: اقامة الدولة العبرية. وفي ظروف كهذه لم يكن الانضباط الرسمي مرغوبا فيه، او حتى ضروريا». ولم يكن القائد يرتدي زيا خاصا او يضع شارات مميزة لأسباب تتعلق بالمحافظة على السرية، لكن رجاله كانوا يعرفونه شخصيا ويطيعون أوامره. وكان النشاط يجري في وحدات صغيرة. وفي العمليات القتالية الفعلية، التي تشكل محكا للانضباط في تنظيم عسكري، لم يكن عدد الخارجين للعملية يزيد على فصيلة واحدة، يعرف أفرادها بعضهم بعضا جيدا.

وخلال الاشهر الاولى لحرب الاستقلال، اتسعت «الصفوف» بسرعة واستوعبت عشرات الآلاف من المجندين. «ان العناصر الأصلية التي تشكلت منها «الهاغاناه» انصهرت في باقي الافراد الى حد لم يعد معه استمرار نظام الانضباط القديم في مصلحة السلوك السوي في الجيش» ـ كتب حاييم لاسكوف في مذكرته المشار اليها اعلاه. لقد اتى كثير من الاشخاص بناء على امر تجنيد. وكان كثير منهم مهاجرين جددا لم يتأقلموا بعد مع واقع ارض ـ اسرائيل. وكان لا بد من فرض انضباط عسكري بكل تفاصيله، لكن هذا التحول لم يتم بسهولة وسرعة. لقد كان التقليد قويا، وملائما ايضا لروحية اليشوف العبري، روح الطلائعية الديمقراطية. وكانت معارضة المنهج الجديد قوية بصورة خاصة في اوساط البلماح، الذي نجح في انشاء وحدات مختارة من دون تقليد الأنماط العسكرية المألوفة، مع ان مشكلات الانضباط اربكت تلك الاوساط كثيرا (انظر ص 1489). 1476

«ان الأنماط التي كانت سائدة لدينا من قبل» ـ قال ي. غاليلي في تلك الفترة ـ «جرفتها الحياة. ذات يوم ظهرت في كل المعسكرات عقوبات التوقيف، في جميع الالوية بلا استثناء: في ألوية قوة الميدان، وفي وحدات البلماح، وفي وحدات قوة الحراسة، لأن المعسكر لم يعد المكان الامثل. وقد اتت مع التجنيد شرائح مهملة. وعندما لا يكون هناك وقت للاعتماد على العمل التربوي، يصبح من الضروري صوغ اساليب نظام صارمة».

وأتى الاختبار مع المعارك الكبيرة الاولى في ربيع سنة ١٩٤٨. فقد اتضح انه حدثت حالات لم يعرف فيها الافراد، في اثناء المعركة، من هو قائدهم، ومن بينهم مخول باصدار أوامر حاسمة بالهجوم او الانسحاب. واتضح انه كان من المستحيل، في مرات كثيرة، الاكتفاء بالانضباط المستند الى الوعي والمثالية التي ستصمد في اختبار رهبة المعركة، وخصوصا ان كثيرين من المجندين الجدد لم يكونوا قد تشربوا بعد ذلك المقدار من الوعي والمثالية الذي كان متوفرا لدى اعضاء المنظمة القدامى، الذين تطوعوا خلال سنوات ما قبل الحرب. ونشأ

وضع مشين بعد الانتصارات الاولى على القوات العربية، عندما كثرت حوادث السلب ونهب الممتلكات العربية، التي تحولت احيانا الى موجات سلب فردية من اجل الاثراء.

وعند ذلك فقط بدىء بانتقال سريع لفرض اساليب الانضباط المعتادة وتعليق شارات الرتب القيادية، وأيضا للتمييز بين سلك القادة والانفار. وبقي التقليد القديم المستند الى المساواة قائما، وتلقت شريحة الضباط الجديدة حقوقها فقط بحكم المهمة التي كانت تؤديها ولتنفيذها بفعالية، من دون ان تكسبها هذه الحقوق مكانة اجتماعية خاصة بفئة نبلاء معينة. وعندها، في ربيع سنة ١٩٤٨، بدأ نقاش لاطلاق تسميات عبرية على الرتب التي ستعتمد في الجيش الذي يجري انشاؤه. واعتمد نظام الرتب المتبع في الجيش البريطاني اساسا لذلك، وأُشرك في تحديد المصطلحات العبرية كتّاب ولغويون (أ. شلونسكي، ن. ألترمان، أ. ل. فايانس). وعندما تحولت «الهاغاناه» الى جيش الدفاع الاسرائيلي «تغير كثير من المظاهر الخارجية للنظام والمسلكية، لكن الروح الديمقراطية ظلت قائمة في الاطار الجديد ايضا.

إعداد سلك قادة الالوية

بينما نظم كل لواء نفسه في المنطقة التي انشىء فيها ودرب أفراده وسلك قادته، اقامت دائرة التدريب في هيئة الاركان العامة، التي كان يترأسها إلياهو كوهين (بن ــ حور)، معسكرات تدريب مركزية للضباط والرقباء. وكانت الخطوة الاولى انشاء ثلاث قواعد تدريب لقادة جماعات في شفياه ورعنانا وناعان. وافتتحت الدورات في منتصف كانون الثاني/يناير، واستمرت ثلاثة أسابيع. وأنهت مجموعة اولى مشكلة من ٣٥٠ شخصا تدريباتها في ١٩٤٨/٢/٢٥، ودمج أفرادها على الفور في الالوية التي ارسلتهم. ومباشرة بعد ذلك، دخلت القواعد مجموعة متدربين ثانية. «في منتصف كانون الثاني/يناير» ــ كتب يعقوب ارنون من شهداء حرب الاستقلال في مذكراته ــ «أُرسلت الى دورة تدريب لقادة جماعات. اقيمت الدورة في «بني بيرل» في ناعان، تحت غطاء شباب عامل موجود في المكان للاستجمام. وأُحضر رجال الى الدورة من جميع انحاء البلد: من القدس وتل ابيب ومستعمرات الجنوب والسهول الساحلية. وأعدتنا الدورة لقيادة جماعات في المعركة كوحدات مستقلة وكجزء من فصيلة. ــ ــ وقد اجريت الدورة بسرعة لضيق الوقت، لكن قدم لنا فيها الكثير: تعلمنا فيها كل تكتيكات المعركة، ومعرفة قطع الاسلحة التي كانت آنذاك مستخدمة في صفوفنا ــ ــ وانتهت الدورة في منتصف شباط/فبراير. وتخرجنا منها جميعا مفعمين بشعور موحد، شعور بالمسؤولية والتأهب». 1477

ويجدر بنا ان نذكر من بين الدورات الفنية ثلاث دورات لخبراء المتفجرات (٥٥ شخصا في كل دورة)، اجريت خلال شهر شباط/فبراير ١٩٤٨، ودورتي قناصة (٤٥ شخصا في كل دورة). وأُجريت ايضا دورات تدريب على أنواع الاسلحة ودورات لضباط الاستخبارات.

وأُجريت ايضا دورات مركزية لأفراد الخدمات المختلفة: السائقين وخبراء اللاسلكي والممرضين، بالاضافة الى الدورات التي اقامها بعض الالوية، ومن بينها ايضا دورات لقادة الجماعات، اجريت في نهاية الفترة نفسها في اطار الالوية فقط.

وجرى نشاط خاص لتدريب نحو ٤٠٠ قائد جماعة في الغادناع، أُخضعوا لـدورة مكثفة من اجل تأهيلهم ليصبحوا قادة جماعات مقاتلة.

وفي ١٩٤٨/٢/٢٥، افتتحت في معسكر استجمام مهجور بالقرب من نتانيا (دعي لاحقا معسكر دورا) دورة قطرية لقادة فصائل، كُلِّفت اعداد قادة مقاتلين لكل الالوية. وكان قائد الدورة حاييم لاسكوف، وكان المدربون الذي أُرسلوا اليها، نحو ٢٠ شخصا، من خيرة المدربين وخريجي الوحدات اليهودية المقاتلة والفرقة [اليهودية] ورجال البلماح. وشارك في الدورة نحو ٢٥٠ شابا وصلوا من كل الالوية التابعة لـ «الهاغاناه» في البلد. وأتى معظمهم وهم مستاؤون لمعرفتهم انهم يتركون رفاقا لهم في ايام المعارك الصعبة تلك، ولكن معرفتهم بأن جيش اليشوف لن يستطيع ـ من دون سلك قادة مؤهلين ومدربين ـ الصمود في وجه أعدائه، فرضت عليهم هذا الواجب. واستمرت الدورة حتى بداية نيسان/ابريل، تعلم الرجال خلالها، بصورة خاصة، اسلوب الهجوم في المعركة كما تطور في سنوات الحرب العالمية الثانية.

«كانت التجديدات كثيرة» ـ روى احد المدربين في الدورة، رجل البلماح بنحاس فاينشتاين، في مذكراته ـ «جُلبت اساليب الجيش البريطاني مع أنماط حياة خاصة بالجيوش، وقواعد سلوك، وأطر، ومفاهيم ثابتة، وأساليب تدريب وما شابه ذلك».

«بدا لنا، نحن الذين تربينا على الارتجال، ان التكنيك ليس هو المهم وإنما المبادرة الشخصية واستعمال الحكمة وقت الضرورة. وادعى رجال الفرقة [اليهودية] انه في اثناء المعركة لا وقت للمنطق او للتفكير الخ، وانما يجب ممارسة التدريبات القتالية. ولم يرق الامر لنا. ان مضمون هذه التدريبات هو انه يمكن تنفيذ الامور بشكل آلي، من دون تفكير، بواسطة ممارسة ملائمة. ـــ ويمثل ذلك التأثير الذي مارسه رجال الفرقة [اليهودية] في المجال الاداري، نموذجا لما حدث. فقد اصبحت الادارة اكثر تنظيما، وفي الاساس فيما يختص بالمستودعات والنقل. وقد نسخ الجزء الاداري، في معظمه، عن الجيش البريطاني. ودخلت في هذه الدورة اول مرة مفاهيم الرقيب والضابط. وجرى تشديد صارم على المظهر الخارجي والزي. وأصبح من المحظور التجول والأيدي داخل الجيوب، وصار من الضروري ان تكون الازرار لامعة».

ويذكر مدرب آخر، رفائيل فاردي، ان الانتقال الفجائي من جو التدريب، الذي كان مألوفا حتى تلك اللحظة في «الهاغاناه» والذي كانت الاوامر تصدر فيه مرفقة بشروحات والعلاقات بين المدربين والمتدربين رفاقية، الى نظام عسكري قاس ومتزمت، احدث استياء بين المتدربين. كما ادى فرض تدريبات المعركة من دون ان يرافق ذلك شرح ملائم الى

«استياء، والى تنفيذ ناقص للتمرينات، والى تأزم العلاقات ــ الى حد معين ــ بين المدربين والمتدربين وبين قائد الدورة» (ر. فاردي). ومع ذلك ــ كتب فاردي ــ «فان تدريبات القتال وأساليب الانضباط التي تشدد لاسكوف في غرسها في اذهان المتدربين، الذين انتقدوها خلال الدورة بصورة حادة ولاذعة، تم تبنيها بتعصب من قبل قسم كبير من الضباط المتخرجين من الدورة عندما عادوا الى وحداتهم ــ ـ وتحولت معارضتهم الحادة هذه الى قبول تام ــ بل متطـرف ــ وذلك عندما واجهوا العنصر البشري المجند الذي وصلهم في البلماح وبعد ذلك في كتائب «جيش الدفاع الاسرائيلي»، الذي لم يأت على اساس تطوعي». 1478

ومن حين الى آخر، اضطر المشاركون في الدورة الى ايقاف التحصيل والخروج للقيام بعمليات قتالية. عندما وصل النبأ عن فصيلة البلماح التي طوقت في منطقة النبي صموئيل (في ٢٣ نيسان/ابريل ١٩٤٨) استُنفر أفراد الدورة لمساعدتها. «اوقفنا التدريبات» ــ روى ب. فاينشتاين ــ «وتحول مدربو الجماعات الى قادة جماعات، ومدربو الفصائل الى قادة فصائل، وأصبح حاييم لاسكوف قائد الوحدة. وتحولنا خلال ساعات الى وحدة مقاتلة. ووصلنا الى مستعمرة شارونا للتزود بالسلاح، وقبل ان نتحرك أُلغيت العملية لانه علم ان الفصيلة قد ابيدت».

وفي اثناء عملية «نحشون» اوقفت الدورة تدريباتها لمدة شهر. «وضع أفراد الدورة على رأس مجندين جندوا في تل ابيب» ــ روى فاينشتاين ــ «وشكلنا احدى كتائب عمليـة «نحشون». وكان خريجو الدورة قادة جماعات، وقادتها [الدورة] قادة فصائل وسرايا».

ولخص حاييم لاسكوف، الذي تولى بعد انتهاء الدورة قيادة اللواء الجديد ــ اللواء السابع ــ الدرس المستخلص من الدورة في كتيب عنوانه «الفصيلة والسرية في المعركة».

وافتتحت دورة اخرى مشابهة شارك فيها ٣٦٠ متدربا في ايار/مايو بعد ان قامت دولة اسرائيل. وفي خريف سنة ١٩٤٨، تحولت كلية قادة الفصائل التابعة لـ «الهاغاناه» الى كلية ضباط سلاح المشاة في «جيش الدفاع الاسرائيلي» بقيادة المقدم تسفي (تسفيكا) هوروفيتس. وهكذا استمرت السلسلة من دورة الـ «كومدينشتشيكيم» الاولى لـ «الهاغاناه» في صيف سنة ١٩٢١، مرورا بغفعات تحتيت وكفار فيتكين وجعارة، وانتهاء باندماجها في سلسلة جديدة: سلسلة الدورات العسكرية لدولة اسرائيل.

وبعد انتهاء التدريبات مباشرة ارسل قادة الفصائل الجديدة الى ألوية مختلفة لقيادة وحدات جديدة، كان كثير من جنودها أنفارا، تلقوا تدريبات سطحية وغير منسجمة مع المبادىء التي تلقاها قادتهم. ولم يكن ثمة وقت لاستكمال النقص، فأتت النتائج مريرة. واستشهد عشرات من القادة الجدد في ظروف مشابهة لظروف زميلهم زوهر (زوريك) دايان، الذي ابلغ عن استشهاده بلغة مقتضبة: «في ١٤/٤/١٩٤٨، ارسل الى معركة ضد الدروز في رامات يوحنان. انسحب الانفار امام الاعداء المتمرسين بالحرب، لكن زوريك ومعه بعض القادة انقضوا عليهم فأصيب برصاصة في صدغه».

وقد تم إعداد الجيش العبري الحديث النشأة في هذه الاشهر في الالوية المختلفة، القديمة (التابعة للبلماح) والجديدة (التي شكلت من قوة الميدان التابعة لـ «الهاغاناه»). وفيها تم تدريب الجنود في أثناء فترة المعارك بالذات استعدادا للاختبارات الكبيرة التي كانت في انتظارهم بعد قيام دولة اسرائيل ومع غزو جيوش الدول العربية لأرض ــ اسرائيل.

مشكلات تنظيم الجيش

خلال تلك الفترة بأكملها، ظلت مسألة طابع وشكل الجيش الجاري تنظيمه مطروحة. وفي مقابل ضباط هيئة الاركان ومعظم القادة القدامى في المنظمة ومعهم قادة البلماح، الذين ارتأوا ان يتم انشاء الجيش على قاعدة وحدات وبنية «الهاغاناه»، اقترح الضباط المسرّحون من الفرقة اليهودية وباقي الوحدات اليهودية بنية عسكرية جديدة، قائمة على اساس تجربتهم في الجيش البريطاني.

وقد جرى الحديث بحدة، بلغة تلك الفترة، عن وجود حزبين بحسب الظاهر: «حزب الهاغاناه» في مقابل «حزب الجيش».

وازداد هذا الانقسام حدة بسبب النمو السريع والتطور الجذري الذي فرضه مجرى الاحداث على المنظمة. لقد كانت ايام يوازي كل اسبوع منها سنة كاملة، وربما سنوات من زمن الفترة السابقة لها، اذ فرض على المنظمة التحول خلال فترة قصيرة من منظمة متطوعين الى جيش قائم على التجنيد الاجباري، ومن تدريب وتشغيل جماعات وفصائل وسرايا الى تدريب وتشغيل كتائب وألوية. وتم هذا التحول تحت الضغط الشديد لمتطلبات المعركة العسكرية، التي لم تتح وقتا للتمهل الكثير والتي لم تكن مشكلاتها تحتمل التأجيل. 1479

في الفترة السابقة لحرب الاستقلال، كان أفراد قوة الحراسة وقوة الميدان يتولون بأنفسهم، في اثناء التجنيد، امر ملبسهم وحتى مأكلهم. وفي البلماح كانت المستعمرات تقدم ألبسة العمل والمسكن. وعندما كانت تنشأ هناك ضرورة لتزويد وحدة خارجة للتدريب بالمؤونة، كان الامر يرتب باتفاق مع مطبخ الكيبوتس او مطبخ احدى المؤسسات.

وكان القادة يعرفون شخصيا الاشخاص الذين تحت امرتهم، وكانت المشكلات الشخصية تحل باتصال مباشر بالقائد، وعلى الاغلب ايضا باتصال سريع به.

وكانت المعونة الطبية تقدم في الايام الاعتيادية بواسطة صناديق المرضى، وفي وقت الطوارىء بواسطة المستشفيات العامة المختلفة. ولم يكن في «الهاغاناه» جهاز مركزي لحل مشكلات التغذية والتموين والعتاد والمعونة الطبية لأعداد كبيرة، ولا عجب في ان الجهاز القائم لم يتمكن في الاسابيع الاولى للحرب من السيطرة على مجرى الامور.

ويمكن الوقوف على انتقادات الضباط المسرحين من الجيش البريطاني، من أقوال اثنين منهم، كما سجلها د. بن ــ غوريون في يومياته في ١٨/١/١٩٤٨. كتب د. بن ــ غوريون

في يومياته: «يشير ب. ، قبل كل شيء، الى التعارض الايديولوجي بين قوة سِرّية وجيش نظامي. ـــ يوجد هنا تناقض بين حرية رجل القوة السرية وبين الانضباط المقيد في الجيش؛ انها ايضا مسألة التناقض بين الهواية والارتجال، وبين المستوى العلمي والمعرفة والخبرة الكبيرة المتوفرة للجيش. التدريب في المنطقة سيىء، ولم يكتسب البلماح اية خبرة عدا نسف الجسور، بينما تعلمت قواتنا التي خدمت في الجيش فن القتال. في المنظمة يعتقدون ان الستن هو افضل سلاح، وخصوصا في المدينة. لكن محمد يطلق النار من بندقية، على الاغلب من المئذنة، ولا يستطيع اصابته سوى قناص جيد مزود ببندقية. الادارة سيئة: الشبان يُرسلون الى معسكر غير جاهز، من دون مطبخ او اسرّة. لا احد يهتم بعائلاتهم، او حتى بهم انفسهم. لا احد يعرف اين المجندون. رؤساء الدوائر يبررون: أ ـ اننا حركة سرية، ومحظور وجود قوائم؛ ب ـ انهم [رؤساء الدوائر] يعرفونهم غيبا ويسجلون في دفاتر الجيب. لا يوجد انضباط، كل واحد صديق لزميله». وقدم الكولونيل مونتي غرين، وهو ضابط يهودي بريطاني عمل في هيئة الاركان في شتاء سنة ١٩٤٨، الى بن ـ غوريون في تلك الفترة، تقريرا عن جوانب من الفوضى في عمل هيئة الاركان نابعة ـ بحسب رأيه ـ من الظروف الخاصة التي جوهرها: «اندلاع الحرب قبل ان نكون مستعدين» (يوميات بن ـ غوريون). «ليس معروفا الى اين أُرسل المجند» ـ قال ـ «ماذا جرى له بعد ارساله، وهل هو مريض او مصاب بجروح. وكل الجهاز الطبي غير منظم، ولا يوجد تنظيم للمدفوعات، والمشتريات مشتتة وفوضوية، ولا يوجد تركيز وهناك هدر. ـــ يأكلون في الفنادق والكيبوتسات. يجب ان تكون هناك مطابخ ميدانية ومؤونة لمواجهة الوضع في حال الاضطرار الى التحرك. ـــ ليس هناك في البلد ضباط ذوو رتب عالية. يجب ان يكون هناك بريغاديرية وجنرالات».

لقد كان اعضاء هيئة اركان «الهاغاناه» واعين للانتقادات، ولم يتجاهلوا حقيقة ان وتيرة المعالجة المركزية ابطأ من وتيرة تنظيم ألوية الجيش. لكنهم رفضوا كل محاولة لمقابلة ظروف العمل في الجيش البريطاني، الذي في تصرفه عدة وفيرة من المؤن والاعتدة وأساس قانوني، بالظروف التي كانت تنشط من خلالها «الهاغاناه»، عندما كُلِّفت تنظيم نفسها في اثناء المعارك، قبل ان يكون هناك قانون رسمي، ومن دون مصادر مستقلة للامدادات والاغذية والالبسة، وفي ظل نقص في السلاح والذخيرة. وذكروا انه على الرغم من كل هذه الظروف الصعبة وضرورة التنظيم على عجل، فان وحدات «الهاغاناه» نجحت في المحافظة على بقائها، وفي التنظيم، وفي الصمود في اختبارات المعارك. 1480

وبلغ الجدل احيانا حد المرارة والاستخفاف. وكان هناك بين الضباط من شككوا في كفاءة قادة «الهاغاناه» لشغل مناصبهم. وكان هناك بين قادة «الهاغاناه» من ادعوا ان كثيرين من الضباط اليهود في الجيش البريطاني لم يصلوا الى مراكزهم بسبب مواهبهم العسكرية او التنظيمية، وانما بسبب موهبتهم في التجاوب مع رغبات المسؤولين عنهم من البريطانيين.

لقد سعت القيادة العليا لدمج وتوحيد كل ما كان ايجابيا في تقاليد «الهاغاناه» مع أساليب التنظيم التي كانت ثمرة تجربة الجيش النظامي. ورد في كلمة يسرائيل غاليلي امام خريجي دورة قادة الفصائل في ١٩٤٨/٤/٨: «اننا نرى داخل صفوفنا اعضاء قدموا من بيئات مختلفة وتعايشهم المشترك ليس سهلا. من ناحية، هناك ظاهرة انكار لكل القيم التي اكتسبت خلال سيرة «الهاغاناه». ومن ناحية اخرى، هناك ظاهرة عدم الرغبة في تعلم كل ما يمكن تعلمه، وكل ما يجب تعلمه من تجربة الجيوش النظامية. ـ ـ أعترف صادقا: لا انظر بصورة مأساوية الى مسألة العلاقات غير السليمة بين أفراد الجيش السابقين وأفراد «الهاغاناه» السابقين الخ، لأن الجميع موجودون في بوتقة الانصهار. وكما هو واضح ان الأنماط التقليدية لـ «الهاغاناه» لم تعد تتلاءم مع التغييرات والتطور الجاري فيها، فانه من الواضح ايضا ان أشكالا معينة ـ اصبحت من التقاليد الراسخة في جيوش اخرى ـ لا يمكن نقلها بكل دقائقها الى معسكرنا ـ ـ وستنتهي بوتقة الصهر هذه بصهر كل شيء وتحويله الى أنماط متلائمة مع المضمون الاجتماعي والبشري لجيش الدفاع اليهودي كقوة مسلحة لحركة التحرير والخلاص العبري».

وفي احدى المناقشات الايضاحية التي جرت في فترة متأخرة (صيف سنة ١٩٤٨)، قال يوسف روخيل (افيدار): «ان افضل حل هو المزج، في كل قيادة اركان وفي كل عمل اداري لمجريات الامور، بين تجربة ضابط «الهاغاناه» وتجربة الضباط الذين كانوا في الجيش [البريطاني]؛ بين خبرة هؤلاء وخبرة اولئك. وليس من الضروري ان يكون دائما هذا هو المسؤول وذاك هو الخاضع له. يمكن ان تكون المسؤولية متبادلة. ـ ـ وهذا الوضع قائم عمليا في كثير من الوحدات ـ ـ وكل محاولة لنبذ هذا النوع او ذاك هي، بحسب رأيي، خطرة: ستحول دون امكان استغلال كامل قوتنا في الحرب».

وفعلا، اندمج في معظم الوحدات الجديدة ضباط وقادة من «الهاغاناه» والجيش البريطاني سابقا في اطقم متماسكة، ساهم عملها المشترك كثيرا في بلورة هذه الالوية ونجاحها.

الخلاف مع البلماح

في الاشهر التي سبقت قيام الدولة والجيش الاسرائيلي [تساهل] برز الخلاف بين د. بن ـ غوريون والبلماح، الذي اشتد في الاشهر التالية لقيام الدولة. وسنكتفي هنا بذكر بعض الحقائق التي تكشفت منذ الاشهر الاولى للحرب.

في البلماح استثمرت «الهاغاناه» افضل ما في تراثها، وفيه حشدت افضل الشبان الناشطين في صفوفها، وعرف قادته كيف يستفيدون تماما من المعطيات المتوفرة في ظروف العمل السري من دون اطر رسمية، الى ان نشأت وحدة ذات مستوى عسكري رفيع مشبعة

بروحية طلائعية، تغطي معظم نفقاتها بعملها، وتعرف كيف تستغل مزايا العمل في وحدات صغيرة تنشط بأسلوب حرب العصابات تحت جنح الظلام، وفي فصائل وسرايا في فترة النضال [ضد الانكليز].

وفي اثناء حرب الاستقلال، ترتب على البلماح ان يتكيف بسرعة مع ظروف جديدة كليا: توسيع الاطر بسرعة، الذي بدأ مع تجنيد رجال الاحتياط الالف التابعين له، والاستمرار في استيعاب آلاف المجندين اجباريا والمهاجرين الجدد. وعملت قيادة البلماح على الانتقال الى الظروف الجديدة والتكيف معها من دون المساس بالقيم وقواعد السلوك التي تبلورت في السنوات السبع لقيام اللواء. 1481

لكن متطلبات الحرب استوجبت التجنيد السريع لعشرات الآلاف من الجنود الجدد، وانشاء اطر جديدة. وكان بين رجالات البلماح اشخاص متحمسون، ومقتنعون ــ ببراءة ــ بأن كل الجيش الجديد ينبغي ان يقام وفقا لمعايير البلماح، «جيش شعبي مؤسس على العمل والتدريبات» (شالوم حفلين)، وأنه نظرا الى امكانات الدولة المحدودة فانه «ينبغي ان يأتي جزء كبير من وسائل العيش من عمل الجندي» (المصدر السابق)، وأن القرار الذي اتخذه البلماح بالمساواة في الرتب والرواتب بين الضباط والجنود «ينبغي النضال من اجله في كل الوحدات» (بني مرشك). وكان مثل هذه الاتجاهات منتشرا في اوساط كثيرين من شبيبة البلماح، التي ترعرعت في حركات الشبيبة الطلائعية وأيضا في اوساط قادة شعبيين وكان لها تأثير كبير.

لكن الواعين من بين قادة البلماح أدركوا ان لا امل ببناء كل جيش الدولة وفقا لمعايير البلماح. وقد وجدوا المبرر لقيام البلماح بضرورة وجود وحدات ضاربة خاصة.

«لا يوجد جيش يستطيع الاستغناء عن اقامة اطار عسكري خاص به، يستطيع فيه السماح لنفسه بالاستثمار فيه اكثر لتكليفه بمهمات اكبر» ــ قال يغآل فايكوفيتس (آلون) في احدى المناقشات الايضاحية في تلك الايام ــ «لقد شُكل البلماح للقيام بمهمات اكثر جسارة. وجرى الحديث وقتئذ عن سرايا، والآن ينبغي الحديث عن ألوية».

وكان هناك من اعتقدوا انه اذا ساد السلام او هدنة طويلة، فان الالوية الجديدة ستنحل تلقائيا بينما سيزداد تأثير وحدات البلماح التي ستستمر في البقاء ومواصلة العمل والتدريب، ويؤدي [هذا التأثير] الى تشكيل جيش الدولة بروحية البلماح وقيمه وأعرافه.

وفي مقابل ذلك، كان بن ــ غوريون مقتنعا بأنه لن يعود هناك في اطار جيش الدولة مجال او ضرورة لبقاء الاطار الخاص، وبأنه ينبغي لكل واحد من الالوية ان يعمل مباشرة مع هيئة الاركان العامة ــ وليس عن طريق هيئة اركان البلماح ــ لا على صعيد المشكلات العمليانية فحسب، وانما ايضا في المجال الاداري بأكمله (القوة البشرية، والمستودعات، الخ).

ان هذا الخلاف، الذي استعان أطرافه بحيثيات مهنية وتنظيمية وتربوية، لم يكن خالصا من شوائب الشكوك الحزبية ـ السياسية.

لقد كان عدد كبير من قادة البلماح الرئيسيين ينتمي من الناحية السياسية الى «هتنوعاه لأحدوت هعفوداه» [حركة وحدة العمل] (انظر ص 1249)، التي اتحدت مع حزب «هاشومير هاتسعير» [الحارس الفتى]، وأقامت في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ حزب «مابام» [حزب العمال الموحد].

وكان ينتمي الى الحزب الجديد معظم اعضاء هكيبوتس هميئوحاد [الكيبوتس الموحد] وكل اعضاء هكيبوتس هآرتسي [الكيبوتس القطري]، اللذين كان كثير من مستعمراتهما في تلك السنة على خط النار. وكان ينتمي اليه [الحزب الجديد] كثيرون من مقاتلي الغيتوات والأنصار (partisans)، وأيضا عدد من كبار القادة في «الهاغاناه» و«البلماح»، منهم ي. غاليلي، وي. ساديه، وي. آلون، وب. رابينوف، وش. افيدان، وم. كرمل، ون. سريغ، وأوري برنر، ويوسف تبنكين، وشموئيل (مولا) كوهين. وانضم اليه ايضا من كان رئيس القيادة القطرية لـ«الهاغاناه» في سنوات ١٩٤١ ـ ١٩٤٦، موشيه كلاينبويم (سنيه)، الذي انتقل اليه من معسكر الصهيونيين العموميين (التقدميين). وفي المؤتمر التأسيسي للحزب الجديد، اصر عدد من زعمائه على الارتباط القوي بين الحزب و«الهاغاناه». قال يسرائيل غاليلي، رئيس القيادة القطرية في تلك الفترة، من بين ما قاله: «لم تكن «الهاغاناه» لتبلغ هذا المقدار من القوة والقدرة لولا العامل العبري والاقتصاد الزراعي. ان «الهاغاناه» لم تكن لتصل الى هذا المستوى، الى هذه القوة الضاربة، الى هذا الجد والانفة لولا انها كانت مستندة الى العامل الطلائعي، ولولا ان الذين صاغوا صورتها كانوا عمال ارض ـ اسرائيل الذين تشكل صهيونيتهم واشتراكيتهم كلا واحدا لا يتجزأ. 1482 فليقف حزبنا الذي يوحد اليوم بين العمال والصهيونيين والاشتراكيين المقاتلين. ـــ في طليعة معركة المدافعين. ـــ وليثبت حزبنا الموحد انه دعامة اساسية ورئيسية ـــ مع باقي فئات الشعب، لرفع قدرة «الهاغاناه» وزيادة عددها واغناء سلطتها وبلورة صورتها كمعسكر مدافعين يهودي ـ عمالي». وقال يغآل فايكوفيتس (آلون) في المؤتمر نفسه: «ان لحزبنا افضالا كثيرة في الانجاز التاريخي الذي اسمه «الهاغاناه»، وفي التأثير على طابعها الطلائعي وعلى اسسها الفكرية، ولها نصيب كبير في الجسد والدم. وستصبح حركة العمال الثورية الآن ـ بالتوحيد ـ اشد قوة، وستصبح «الهاغاناه» بألويتها المختلفة، في الوقت ذاته، اشد صلابة». وقال رجل «هاشومير هاتسعير»، يعقوب حزان: «لنا نصيب كبير في قوات الامن، ولنا نفوذ كبير في الوحدات المركزية. ان المواقف الايديولوجية ـ السياسية (للحزب) ـــ هي ضمانة لجوهر تأثيرنا التربوي والتوجيهي داخل قوات الدفاع».

ومع ان قادة البلماح تحفظوا، ورفضوا بشدة اي شبهة بالتحزب في نشاطهم في الجيش، كان بن ـ غوريون واثقا من الامر وأبلغ ذلك صراحة لرئيس القيادة القطرية

يسرائيل غاليلي، الذي كان من زعماء مابام. وفي احدى المناقشات في مجلس ماباي، في حزيران/يونيو ١٩٤٨، قال د. بن ــ غوريون: «هناك محاولة ــ لجعل البلماح محتكرا من جانب حزب واحد، وبمثابة لواء عسكري تابع له ــ لقد اضرت هذه المحاولة كثيرا بفعالية هذه القوة ــ ان الكتلة [كتلة احدوت هعفوداه]، التي اعتبرت البلماح في السابق جيشها الخاص، حاولت بكل الوسائل المحافظة على هذا الاحتكار، وبذلت جهودا مضنية تناقض حاجات الامن والدولة لصبغ جزء من الجيش بصبغة حزبية ــ لا يمكن ان يكون هناك جيش يخضع قسم منه لسلطة الشعب العامة وقسم آخر لسلطة اخرى، علنية او سرية. ــ ووصل الامر الى حد بث شائعات بأننا نريد تجويع البلماح، والتضييق عليه لجهة اللباس والعتاد، وكل أنواع التشهير السافلة المشابهة».

وقد رد قادة البلماح على اتهامات بن ــ غوريون هذه مرات عديدة. في الذكرى السنوية لحل البلماح قال قائده السابق، يغآل آلون: «كان هذا اقسى وأخطر اتهام صدر ضد البلماح على الاطلاق. لقد كان البلماح نقيا من هذه الشائبة. ــ من الحقائق الثابتة انه كان في هيئة اركان البلماح ضباط ينتمون الى أحزاب مختلفة، بما في ذلك حزب بن ــ غوريون، وهؤلاء شاركوا في المناقشات المتعلقة بتعيين القادة. وقد أكدوا جميعهم، علنا، ان التعيينات في البلماح كانت تتم من دون محاباة حزبية او شخصية. وأكثر من ذلك، اقر رئيس القيادة القطرية ورئيس هيئة الاركان العامة كل التعيينات الرئيسية. ولم يحدث قط ان رُقي شخص او فُصل بسبب هويته الحزبية مهما كانت».

وقد رأى قادة البلماح في فصل دائرة الطيران والسرية البحرية من اجل ان تشكلا اساس ونواة سلاح الجو وسلاح البحرية الاسرائيليين، خطوة أولى لحل البلماح. وهكذا نشأ وتطور نظام علاقات اتسم بالمرارة والشك المتبادل ادى، في نهاية الامر، الى حل هيئة اركان البلماح في ١٩٤٨/١١/٧، وحل وحداته في ايار/مايو ١٩٤٩.

الكولونيل ميخائيل دافيد ماركوس

كان ظهور الكولونيل ميخائيل دافيد ماركوس في تلك الايام نعمة كبيرة. كان الكولونيل ماركوس يبلغ من العمر عند مجيئه الى البلد ٤٦ عاما. كان ابنا لعائلة مهاجرين من رومانيا. ووصل بعمل كثير وجهود جسدية وروحية وتفان، الى الكلية العسكرية في وست بوينت، وتخرج منها بامتياز سنة ١٩٢٤. وفي سنوات الحرب العالمية الثانية، خدم ماركوس في جيش الولايات المتحدة. وفي الايام الاولى لسقوط ألمانيا النازية، زار معسكر الاعتقال الالماني في داكاو، وتركت فيه هذه الزيارة أثرا لا يمحى. وأُلحق بجهاز الاحتلال العسكري الاميركي الحاكم في ألمانيا، وقام بدور مهم في تنظيم محاكمة المجرمين النازيين في نورمبرغ. وفيما بعد كان على وشك الاستقالة والعودة الى الحياة المدنية. 1483

وفي بداية الشتاء (نهاية سنة ١٩٤٧) التقى مبعوث «الهاغاناه» الى الولايات المتحدة، شلومو رابينوفيتس (شامير)، ماركوس وطلب منه المساعدة في اختيار خبير عسكري او مجموعة خبراء، تتطوع للذهاب الى ارض ـ اسرائيل لاسداء المشورة فيما يتعلق بتنظيم جيش الدولة اليهودية التي ستقام خلال عدة اشهر. وبعد احاديث عديدة مع شلومو رابينوفيتس وموشيه شرتوك (شاريت)، قرر ماركوس السفر الى ارض ـ اسرائيل ومساعدة اخوته ـ قدر طاقته ـ في كفاحهم من اجل وجودهم واستقلالهم. ولدواعي الحذر، تقرر ان يظهر في البلد باسم مستعار: ميخائيل ستون. وفي ١٩٤٨/٢/٣، وصل ماركوس الى ارض ـ اسرائيل وشرع فورا في جولة بين وحدات «الهاغاناه» في جميع انحاء البلد، استغرقت نحو اربعة اسابيع. وقد مر ماركوس، في اثناء جولاته هذه، بمعسكرات تدريب البلماح وقواعده، وقابل أعضاء هيئة الاركان وقادة وحدات البلماح وألوية اخرى. وكان يتمتع بموهبة خاصة في كسب ود الاشخاص ببساطة تصرفاته، وفي اعطاء ملاحظات الانتقاد والتوجيه من دون ان يمس كرامتهم. وكان معروفا في جميع قطاعات الجيش الذي كان يجري انشاؤه باسم التحبب «ميكي».

وبحسب دافيد بن ـ غوريون، ذكر ماركوس في تقريره الاول انه «وجد اقل مما توقع وأكثر مما امل: هناك أجزاء من جسد ـ يد ورجل وعين ورأس؛ ليس هناك جسم مكتمل. لا توجد هناك كتيبة واحدة كاملة يمكن تحريكها وارسالها الى المعركة؛ ليس النقص في العتاد فقط: لا يوجد هناك حتى قائد واحد يعرف كيف يحرك كتيبة. وهم لا يعرفون حتى كيف يشغّلون سرية. لا توجد حركة نقل واتصال. باختصار، لدينا قادة جماعات وقادة فصائل، لكن ليس لدينا قادة سرايا وقادة كتائب.

«رجالنا ممتازون في الدفاع الثابت، ويعرفون عملهم هذا جيدا (امتدح رجال تل ابيب). هناك في البلماح عنصر بشري ممتاز وجريء، لكن قادته يعرفون فقط كيف يعملون في نطاق جماعة وفصيلة. ــ ــ يجب ان يكون هناك، على الاقل، ثلاث كتائب مدربة في النقب وثلاث اخرى في الشمال. ووجد تناقضات بين رجال الفرقة [اليهودية] ورجال «الهاغاناه»: رجال الفرقة يريدون النظام والشكل وتنظيم الامدادات والمظهر العسكري، بينما يعتبر رجال «الهاغاناه» ان الاساس في القتال هو الجرأة. ان فعالية الجيش ليست في الانضباط فحسب وانما في التنظيم ايضا ــ ــ لقد فُضل رجال «الهاغاناه»، لكن قادتها بحاجة الى تدريب».

وانتقد ماركوس مستوى اللياقة البدنية لدى الجنود وعدم ممارستهم الرياضة. وفي المقابل، حذر من ان يفقد الجيش المنظم ميزتي التطوع والاستعداد للتضحية لدى الرجال، اللتين رأى فيهما جوهر قوة المقاتل العبري. واعتاد ان يقول: «لا اعرف وحدة اميركية يمكن ان تعمل بلا احذية». ولدى عودته من زيارته للنقب، عبر عن الانطباع القوي الذي خلّفته في نفسه اللباقة في التصرف التي أبداها القادة في الظروف الصعبة المحيطة بهم، ومع ذلك اضاف: «ما انتم بحاجة اليه هو لباقة اقل قليلا، ومستودعات مملوءة اكثر».

ودعا الى احلال نظام عسكري في وحدات الجيش. «لا توجد خطة عمل لشهر، لاسبوع، ليوم. لا يوجد روتين، وفي الجيش ينبغي ان يفعل كل شيء بصورة آلية». واقترح جلب قادة كتائب من الولايات المتحدة، وبالاضافة الى ذلك اجراء دورة مدتها شهر لقادة الكتائب وضباط اركانها، يتولى ادارة التدريبات فيها هو نفسه مع شلومو رابينوفيتس، وأفرايم بن آرتسي، وفريتس ايزنشتتر (شالوم عيست)، وحاييم هيرتسوغ.

ولدى عودة ماركوس من جولاته في خطوط الجبهة كان يطرح السؤال: «هل قررتم فعلا انكم منغمسون في حالة حرب؟» وكان مقتنعا بأنه لم يُفعل ما فيه الكفاية لوضع كل موارد الييشوف الاقتصادية المتوفرة في خدمة القتال.

1484 وفي مذكرة قدمها ماركوس الى بن ــ غوريون، في نهاية الشهر الثاني لوجوده في البلد، اصر على ضرورة ان يتم خلال الفترة القصيرة الباقية حتى يوم خروج البريطانيين من البلد، انشاء جيش يهودي مشبع بروحية هجومية تخضع لانضباط عسكري، ومنظم تنظيما صارما. «ان ارض ــ اسرائيل» ــ قال ــ «لا تستطيع ان تسمح لنفسها بترف بقاء «الهاغاناه» والبلماح او الفرقة [اليهودية] البريطانية». ودعا الى اتخاذ خطوات صارمة لاقتلاع الآراء المسبقة الضيقة الافق السائدة لدى طرف تجاه الطرف الآخر، ودعا الى توعية الجنود على النظافة والعادات المُفضِية الى المحافظة على الصحة الشخصية، والتربية البدنية والمظهر العسكري. وذكر اهمية تدريب قادة كتائب وضباط اركان كتائب. «ينبغي تعليم الضباط الكبار» ــ قال ــ «كيف يفكرون بمفاهيم الكتائب والالوية، وتعليمهم كيف يديرون وحدات كهذه ويشرفون عليها».

وفي رسالة بعث بها د. بن ــ غوريون في تلك الفترة الى موشيه شرتوك وغولدا مئيرسون (مئير)، اللذين كانا ينشطان وقتئذ في الولايات المتحدة ويتزعمان النضال السياسي وجمع الاموال للمعركة، كتب لهما عن ماركوس: «ان الخبير الذي قدم مع شلومو (رابينوفيتس) هو نعمة كبيرة. لقد انهى جولته في البلد وبلور استنتاجاته من خلال تفهم مدهش للوضع على حقيقته، بجوانبه المضيئة والمظلمة (والظلال ليست قليلة ولا سهلة). اذا استطعتم ارسال واحد مثله على الاقل، وفورا، فسيكون ذلك عظيما».

وفي نهاية نيسان/ابريل، سافر ماركوس الى الولايات المتحدة واعدا بن ــ غوريون بالعودة الى البلد قبل ١٥ ايار/مايو، ووفى بوعده. لكن امله بأن يحضر معه عددا من الضباط الكبار الآخرين من الولايات المتحدة لم يتحقق. ونوقش في هيئة الاركان امر انشاء كلية لاعداد قادة سرايا وقادة كتائب وضباط اركان، وتقرر ان يكون ماركوس قائد الكلية والمدرب العام فيها، حتى انه شرع في كتابة المادة التعليمية اللازمة لهذه الغاية. وشارك في تنظيم «جيش الدفاع» استعدادا لمواجهة غزو الدول العربية. وكان موجودا في الجليل الغربي في اثناء احتلال عكا وتحرير الجليل الغربي، وعاد الى تل ابيب «للاستماع الى بن ــ غوريون وهو يعلن قيام دولة اسرائيل». وشارك مشاركة فعالة في عمل هيئة الاركان، وقام بجولات في الجبهات المختلفة، وخصوصا جبهة النقب. وساهم في القيادة في معارك اللطرون. وفي ٢٨

ايار/مايو، عين قائدا لجبهة القدس برتبة لواء، وعين يغآل فايكوفيتس (آلون) نائبا له. وشارك شخصيا في الدوريات التي ادت الى شق «طريق بورما» وأشرف على تعبيدها، وفيما بعد اقام مقر هيئة اركانه في مبنى دير ابو غوش. وفي ١٩٤٨/٦/١١، قتل ماركوس خطأ في اثناء خروجه من غرفته في الليل، برصاصة اطلقها احد الحرس. وكان هذا احد الاحداث المأساوية بصورة خاصة في حرب الاستقلال الدامية.

وفي نهاية حزيران/يونيو، نقل نعش ماركوس الى مكان دفنه في وست بوينت بالولايات المتحدة. وفي مراسم الوداع على تلة هيئة الاركان في رامات غان، ودّع يسرائيل غاليلي الجثمان، بحضور جميع اعضاء القيادة العليا. ورافق قائدان كبيران، موشيه دايان ويوسف همبورغر (هارئيل) النعش، ومثلا تساهل في الجنازة.

لا شك في ان كثيرا من الانتقادات والعيوب التي ذكرها كانت معروفة ايضا من قبل قادة «الهاغاناه» وبناة الجيش العبري، لكن ماركوس رآها من منظور اكثر شمولا. وبفضل مكانته، مكانة رجل المهنة المتفوق، ادخل في وعي الجميع في «الهاغاناه» ضرورة اصلاح العيوب من دون ان تثار الشبهات في انه يقول ما يقول بناء على رأي مسبق منحاز الى هذا الجانب او ذاك. وعن قصد او غير قصد، ادى ظهوره ونشاطه الى جَسْر الهوة بين نظرة رجال «الهاغاناه» ونظرة القادمين من الجيش فيما يتعلق بمسائل تنظيم جيش الدولة العبري، الذي كان في قيد التشكيل.

الفصل الخامس والسبعون

ألوية "الهاغاناه" في الأشهر الأولى للحرب

الالوية الاولى

في الوقت الذي كانت فيه وحدات «الهاغاناه» ـ على مختلف أنواعها ـ منهمكة في اشتباكات دامية مع المهاجمين العرب، اشتباكات كانت تزداد ضراوة من يوم الى يوم ومن اسبوع الى اسبوع، كان على هيئة اركان «الهاغاناه» الانكباب على العمل بجد لتنظيم وتدريب جيش يستطيع الصمود امام قوات عسكرية نظامية وغير نظامية كان يحتمل ان تنضم يوميا الى المعركة.

وكان لا بد من سحب مئات من خيرة القادة والمقاتلين، وفصلهم عن المعركة اليومية وتكليفهم اعمال الارشاد والتدريب.

وفعلا، تم هذا التوجيه والتدريب في جو من التوتر الشديد بسبب الشائعات السيئة، وبسبب الضرورة الماسة لتقديم النجدة الفعلية في هذا القطاع او ذاك من جبهة الصراع العامة لليشوف. وحدث في كثير من المرات ان ارسلت الى عمليات قتالية وحدات شبه مدرَّبة.

وهكذا، نما واتسع في وطيس المعركة اللواء المجند الذي كان قائما قبل اندلاع الحرب، وهو البلماح، وتفرع الى ثلاثة ألوية. وهكذا نظمت وتدربت وشاركت في المعركة، في اثناء التنظيم والتدريب، ستة ألوية اخرى، لكل منها تاريخه الخاص به المستمد من الظروف الخاصة التي نشط فيها. وسنورد في هذا الفصل القصير مقاطع فقط من هذا التاريخ الحافل بالمعاناه والمكلّل بالبطولة.

البلماح في بداية فترة الحرب

كان البلماح اول اطار في «الهاغاناه» مهيأ، من الناحية التنظيمية ومن ناحية تدريب أفراده، للقيام بعمليات نشيطة ومبادأة ضد الهجمات العربية على اليشوف. وكانت احدى اهم مهماته صد هذه الهجمات الى ان يجري تشكيل باقي ألوية «الهاغاناه» وتنظيمها وتدريبها. لكن من خلال الصمود على خطوط النار الاولى، ومن خلال أداء مهمات كثيرة

لا تتعلق بالدفاع القائم على المبادأة فحسب، وانما ايضا بالدفاع الثابت والمحلي، اذ ان القوات المعدة لتنفيذها لم تكف لذلك او لم تكن قد جهزت بعد، اتسع البلماح ونما من يوم الى آخر لأنه كان في الايام الاولى اطارا عسكريا صلبا وحيدا، في امكانه استيعاب المجندين واشراكهم بسرعة في تحمل عبء مستلزمات الحرب اكثر من اي اطار آخر في «الهاغاناه».

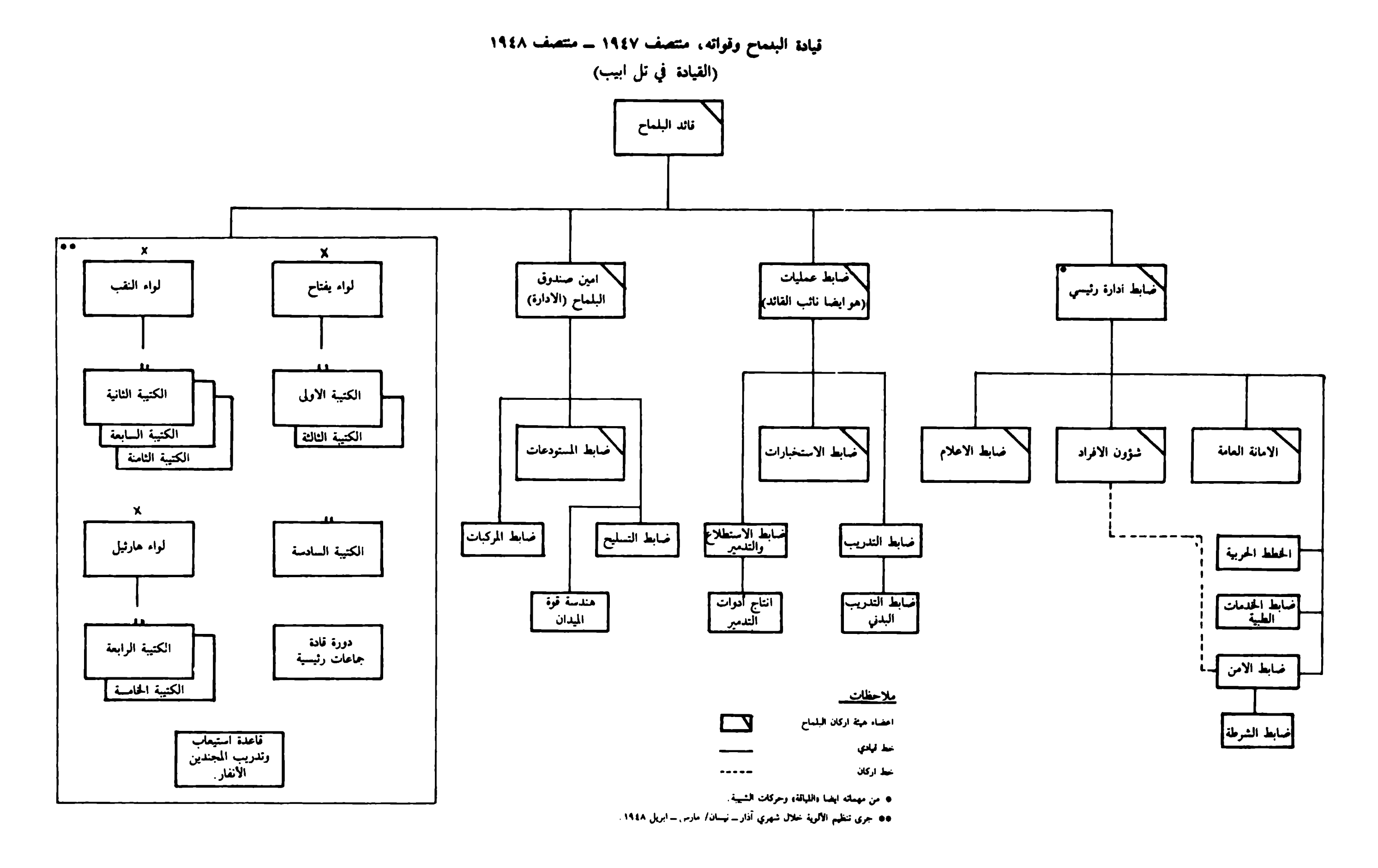
وفي الاسابيع الاولى للحرب قدم اقتراح بأن تشكل كل كتيبة في البلماح نواة، تضاف اليها عدة كتائب من قوة الميدان لتشكيل لواء جديد. لكن هذا الاقتراح رفض خشية تفتيت قوة البلماح، التي لم يكن الييشوف ليستطيع الاستغناء عنها ولو للحظة، وخشية ان تضعف قوة البلماح نتيجة اندماجه في الوحدات الجديدة الضعيفة.

في بداية الحرب شكل البلماح قوة مساندة قطرية لهيئة الاركان العامة، حيث ينشأ خطر شديد في نظام الدفاع عن الييشوف: حماية حركة المواصلات، ومواكبة القوافل الى القدس، ونجدة المستعمرات المهاجمة، وتعزيز المستعمرات المعزولة والضعيفة، وحماية ميناء حيفا، والمشاركة مع الوحدات المحلية في العمليات التأديبية، وما شابه ذلك. ولم يتحرر البلماح من مهماته هذه في الاشهر التالية. لكن، مع اتساع صفوفه كُلِّف القيام بعمليات قائمة على المبادأة وأكبر من هذه: حماية مستعمرات النقب وحركة النقل اليها، وابقاء الاتصال قائما بين الجليل الاعلى الشرقي وباقي مناطق البلد، والمهمة الصعبة المخضبة بالدماء المتمثلة في المحافظة على الاتصال بالقدس ومساندة القوات المقاتلة فيها، التي لم تستطع الصمود وحدها امام القوات المعادية. وقد تحمل البلماح، في هذه الاشهر الحاسمة، العبء الاساسي في المعركة.

1486

نمو البلماح

في بداية ايام الحرب، كانت كتائب البلماح الاربع موزعة في البلد على النحو التالي:
الكتيبة الاولى، بقيادة دان لنر، نشطت في سهل يزراعيل [مرج ابن عامر] والجليل الاعلى الغربي. ودعيت الى نجدة المستعمرات المتفرقة في المنطقة (طيرات تسفي، بيت كيشت)، والى نجدة «الهاغاناه» في حيفا (العملية التأديبية في بلد الشيخ، ونسف قافلة السلاح بالقرب من كريات موتسكين)، وحماية حركة النقل الى مستعمرات الجليل الاعلى الغربي. وقامت هذه الكتيبة بدور حاسم، لدى ظهورها اول مرة في اطار كتيبة في معركة مشمار هعيمك (انظر ص 1564). «كانت هذه هي المعارك الكبيرة الاولى التي خاضتها وحداتنا، وتكبدنا فيها ايضا جرحى وقتلى، واكتسبنا خبرة قتالية كبيرة» ــ كتب قائد الكتيبة د. لنر ــ «اجتازت الروح القتالية لدى محاربينا وقوة القيادة اختبار النار بنجاح، وتكشفت قدرة ادارية وتنظيمية جديدة لم نختبرها قبلا».


قيادة البلماح وقواته، منتصف ١٩٤٧ ــ منتصف ١٩٤٨
(القيادة في تل ابيب)
قائد البلماح
امين صندوق البلماح (الادارة)
ضابط عمليات (هو ايضا نائب القائد)
ضابط ادارة رئيسي
ضابط المستودعات
ضابط المركبات
ضابط التسليح
هندسة قوة الميدان
ضابط الاستخبارات
ضابط الاستطلاع والتدمير
انتاج أدوات التدمير
ضابط التدريب
ضابط التدريب البدني
ضابط الاعلام
شؤون الافراد
الامانة العامة
الخطط الحربية
ضابط الخدمات الطبية
ضابط الامن
ضابط الشرطة
لواء النقب
لواء يفتاح
الكتيبة الثانية
الكتيبة السابعة
الكتيبة الثامنة
الكتيبة الاولى
الكتيبة الثالثة
لواء هارئيل
الكتيبة السادسة
الكتيبة الرابعة
الكتيبة الخامسة
دورة قادة جماعات رئيسية
قاعدة استيعاب وتدريب المجندين الأنفار
ملاحظات
اعضاء هيئة اركان البلماح
خط قيادي
خط اركان
● من مهماته ايضا «اللياقة» وحركات الشبيبة.
●● جرى تنظيم الألوية خلال شهري آذار ــ نيسان/ مارس ــ ابريل ١٩٤٨.

ونشطت الكتيبة الثالثة، بقيادة شموئيل (مولا) كوهين، في الجليل الاعلى الشرقي. نقلت هذه الكتيبة في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧، قبل بضعة اسابيع من اندلاع الحرب، الى منطقة الحولة، وبقيت فيها ايضا بعد زوال التوتر في هذه المنطقة، وكانت موزعة على اربعة معسكرات سرايا: تل حاي، وحولتا، وجبل كنعان، ومغدال. وفي بداية ايام الحرب، كُلِّفت مواكبة قوافل السيارات القادمة من الجنوب، والعمل على ضمان امن المستعمرات الكثيرة في المنطقة. وحولتها العمليات التأديبية والغارات ضد القرى العربية، التي كانت اكبرها الغارة على سعسع (انظر ص 1416)، الى القوة العسكرية الحاسمة في المنطقة برمتها. وقد حسمت هذه الكتيبة مصير الجليل بقيامها باحتلال طبريا وصفد، وبسيطرتها بعد معارك دامية على منشآت الشرطة والجيش التي سلمها البريطانيون، عند تركهم المنطقة، الى القوات العربية.

وعسكرت الكتيبة الثانية، بقيادة موشيه نيتسر، في الشفيلا* والنقب. لكن سرية من سراياها الثلاث، هي السرية الثامنة، عسكرت في القدس. ومع تطور الحرب تمركز جنود الكتيبة (باستثناء السرية الثامنة) في مستعمرات النقب، وتولوا مسؤولية امنه والدفاع عنه.

وبقيت الكتيبة الرابعة، كتيبة هيئة الاركان، بقيادة يوسف تبنكين، كقوة مساندة في الشارون، لكن اقساما منها: رجال البحرية والطيارين ورجال الاستطلاع، أُرسلوا للعمل في انحاء البلد، وبين مهماتهم الاولى: حراسة ميناء حيفا (انظر ص 1383). وكان تعداد الكتائب في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ نحو ٢١٠٠ شخص في الخدمة الفعلية، ونحو ١٠٠٠ شخص في احتياطي البلماح.

وفور اندلاع الحرب دعت هيئة اركان البلماح رجال الاحتياط الى الالتحاق بالخدمة. ولم تكن قد اعلنت بعد، في تلك الفترة، أوامر تجنيد اجباري من قبل المؤسسات القومية. ولم تكن اماكن العمل مستعدة للاستغناء عن العاملين فيها، وأعلنت فصل المجندين الذين التحقوا، كما يبدو بمبادرة منهم، بالبلماح. وكانت الدراسة في جامعة القدس وفي كلية التخنيون في حيفا، اللتين كان يدرس فيهما احتياطيون كثيرون، لا تزال مستمرة بصورة متقطعة. وأخطرت هاتان المؤسستان الطلاب المجندين بأنهم سيخسرون عامهم الدراسي اذا تجندوا بصورة دائمة. لكن الاشخاص، استجابة للأمر، مثلوا جميعهم امام هيئة اركان البلماح. وأتاح هذا الالتحاق لهيئة الاركان امكان ان تشكل، في الشهر الاول للحرب، كتيبتين جديدتين نشطتا على خط تل ابيب ــ القدس الخطر: الكتيبة الخامسة، بقيادة شاؤول يفيه، التي تشكلت نواتها من رجال الاحتياط في تل ابيب؛ والكتيبة السادسة، بقيادة تسفي زمير، التي تشكلت نواتها من السرية الثامنة التابعة للكتيبة الثانية ومن رجال الاحتياط في القدس (معظمهم طلاب). 1488

---

* الشفيلا: المنطقة الواقعة بين منحدرات جبال القدس بالقرب من اللد والطرف الشمالي من النقب. (المترجم)

ومن دون انتظار أوامر تجنيد من المؤسسات، شرع البلماح في عملية تجنيد خاصة به. وجرت العملية في اوساط الشبان الذين لم يكونوا قد وجدوا طريقهم بعد الى «الهاغاناه». وبذل مبعوثو البلماح نشاطا خاصا في معسكرات قبرص لحث الشبان الصالحين لذلك على التجند في صفوف البلماح عند هجرتهم الى البلد. وطالب البلماح ايضا بحصته في التجنيد العام. ففي رسالته المؤرخة بتاريخ ١٩٤٨/١/١٨، طالب يغآل آلون، قائد البلماح، بارسال ٣٢٠٠ شخص الى البلماح خلال عدة اسابيع، منهم نحو ١٥٠٠ شخص الى النقب و ٥٠٠ الى سدوم. «انني اطالب» ـ كتب ي. آلون ـ «باصدار امر الى تسادوك (رئيس شعبة الطاقة البشرية) بأن يتيح لنا العمل وفقا لخطة شاملة وليس نقطة فنقطة. انني اعود فأكرر: الوقت قصير، وأطالب بعمل سريع». وبما ان عجلة التجنيد في المنظمة كانت لا تزال تدور ببطء، وموجهة لامداد ألوية قوة الميدان التي شرع آنذاك فقط في تنظيمها بالطاقة البشرية، فان جميع الالوية بدأت هي ايضا بعمليات تجنيد خاصة بها. ووزع المجندون الجدد في البلماح على الكتائب القديمة والجديدة، وأُنزلوا في قواعد البلماح بالمستعمرات المختلفة، وتلقوا التدريب الاساسي. وكانت ظروف التدريب صعبة. اذ ان الاسلحة القليلة كانت لازمة للعمليات القتالية، واستعان البلماح في تدريب الجدد بأسلحة المستعمرات، وفي الاساس ببنادق انكليزية وايطالية، بالاضافة الى الستنات والقنابل اليدوية والمدفع الرشاش المعطى لكل سرية، والذي كان ينقل من فصيلة الى اخرى.

وبعد شهرين من اندلاع الحرب، كان عدد مقاتلي البلماح قد تضاعف. وكانت الكتيبة الاولى، البالغ عدد أفرادها ٧٣٨ شخصا، موزعة على ١٥ مستعمرة من حانيتا شمالي غربي الجليل الاعلى حتى عين هنتسيف جنوبي سهل بيت شان؛ أما الكتيبة الثالثة (٣٩٠ شخصا)، فكانت موزعة على ٢٠ نقطة من كفار غلعادي حتى اشدوت يعقوف (بينهم نحو ٢٠٠ شخص في صفد وجبل كنعان وعين زيتيم)؛ وانتقلت اغلبية الكتيبة الثانية الى النقب وعسكرت في ١٧ نقطة، وكان عدد أفرادها ٦٥٥ مقاتلا؛ كتيبة الاركان، البالغ عدد أفرادها ٥٤٣ شخصا، عسكر قسم منها في مستعمرات سهل الشارون، وأوفد قسم آخر الى المنفى حيث عمل في خدمة الهجرة اللاشرعية. وعسكر ١١٠ اشخاص في ميناء حيفا (انظر ص 1383)؛ الكتيبة الخامسة (٥٢٥ شخصا) عسكرت في ١١ نقطة، من النقب حتى رامات هكوفيش؛ الكتيبة السادسة (٥١١ شخصا) عسكرت في جميع مستعمرات جبال يهودا [الخليل]. وكان اكثر من ٢٠٠ شخص من هذه الكتائب ملازمين لخط المواصلات القدس ـ تل ابيب. وكان عدد أفراد البلماح، مع العاملين في هيئة اركانه القطرية، ٤٠٣٥ شخصا. وكان ٢٠ ٪ من اعضائه اناثا يتمتعن بقدرة قتالية، و ١٠ ٪ شبانا وشابات «غير قادرين على القتال الشاق في الميدان وموجودين في اللواء للمحافظة على الأطار الاجتماعي للتدريب». وقد تلقى هؤلاء تدريبهم وفقا لخطة قوة الحراسة. وكان ١٠٠٠ شخص من العدد الاجمالي للأعضاء مجندين جددا، لا يزالون في مرحلة التدريب النهائي. وأدى اتساع الصفوف الى

اتساع اعمال التدريب. وطوال ايام الحرب كافة، اجرى البلماح دورات قادة جماعات. وفي ٢/٥، مع انتهاء الدورة القتالية الاولى، رحبت هيئة اركان البلماح بـ «صف القادة الجدد، الذين سيندمجون في الاطار المحكم لشبكة القيادة والتدريب على مستوى لواء»، والذين ستتم «تربية الشبان الذاهبين الى القتال ومصيرهم» على ايديهم. وكانت هذه الدورات بفعل الضرورة افقر، من ناحية المعلومات والمستوى، من الدورات التي اجريت قبل بدء ضغط الحرب. وقد وجهت وجهة عملية وواقعية بحسب المتطلبات الآنية، وأعطيت فيها دروس متعلقة بأدوات الحرب الحديثة، وخصوصا اساليب القتال ضد الدبابات (بيات، وزرع الالغام، وقنابل مولوتوف). وأعد قادة الجماعات ليكونوا مدرّبين يتولون تدريب المجندين الجدد، وفي الوقت نفسه يتولون قيادتهم في اثناء المعركة. 1489

واتضح بسرعة ان الوحدات المقاتلة غير قادرة على تحمل عبء التدريب، وخصوصا عبء تدريب المجندين الجدد الآتين من اوساط المهاجرين غير الشرعيين، الذين كان كثيرون منهم غرباء عن لغة مواليد البلد وعقليتهم. وبدىء في ربيع سنة ١٩٤٨ بانشاء معسكر استيعاب في معسكر حربي مهجور بالقرب من كفار يونا. وبعد استكمال الاستعدادات افتتح في ٥/١٢ معسكر الاستيعاب، الذي دعي لاحقا باسم ضابط التدريب في هيئة اركان البلماح، يتسحاق دوفنو، الذي سقط في مستعمرته، نيغبا، في الاسبوع الاول من غزو المصريين للنقب. وقد ملأ نحو ٤٥٠ شخصا من المجندين خارج البلد ومن مهاجري السفينتين «عتسمؤوت» و «لكوميميوت»، المعسكر. وفي اول يوم لهم فيه قصفوا في اثناء التدريب من جهة طولكرم.

وفي ١٩٤٨/٥/٥، قبل عشرة ايام من اعلان قيام الدولة، كان هناك في كتائب البلماح الست ٥٩٠٦ مقاتلين (منهم ١٠٤٨ امرأة).

توتر بين البلماح والقيادة العليا

بدأت ملامح توتر بين هيئة اركان البلماح وبين القيادة العليا لـ «الهاغاناه» تظهر منذ شتاء سنة ١٩٤٨. فبالاضافة الى العوامل الموضوعية للتوتر بين الالوية المختلفة وهيئة الاركان العامة، التي لم يكن في استطاعتها تلبية مطالب الالوية المتعلقة بالرجال والاسلحة والامدادات، كان هناك بالنسبة الى البلماح العِلم بأن بن ـ غوريون يدعو الى إلغاء هيئة اركان البلماح.

ان انتقال وحدات «الهاغاناه» بمجموعها، ومن بينها ايضا ألوية البلماح، من نظام التطوع الى نظام التجنيد الاجباري، استوجب تغييرات واقترابا من نهج الجيوش النظامية ونظامها. وتم المزج بين تراث «الهاغاناه» والمتطلبات الجديدة في جميع ألوية قوة الميدان.

أما في ألوية البلماح الاصلية، فقد بذل جهد كبير للمحافظة على روحية اللواء كما

تبلورت بمرور الوقت. حوفظ على نظام المساواة بين القائد والجندي النفر. وتنازل ضباط البلماح عن فارق الراتب وقدموه الى صندوق مساعدة عائلات شهداء اللواء. ومع ان ظروف الحرب اوجبت بقاء المقاتلين بصورة كاملة في جبهات المعارك، فان رجال البلماح لم يتخلوا عن الحلم بأن النهج الذي بموجبه يجمع رجل اللواء بين العمل الجسدي في الحقول وورش العمل وبين التدريب والخدمة، سيعود الى سابق عهده بحلول السلام.

وبذلت جهود كثيرة للتقريب من الناحية الاجتماعية بين جماهير المجندين الجدد، ومنهم المجندون من خارج البلد من دول اوروبا وآسيا، وبين طريقة الحياة والنظام الخاصين بألوية البلماح.

ومع ذلك، كان لا بد من تغييرات وتكيف مع الظروف الجديدة. واتضح انه في اثناء المعارك تسببت حقيقة عدم وجود شارات تدل على اصحاب الرتب بحدوث ارباكات وعدم تقبل السلطة، وخصوصا من جانب الاشخاص الذين لم يكونوا يعرفون شخصيا قادتهم. وكنموذج على هذه التغييرات نذكر الامر الذي اصدرته قيادة [لواء] «هارئيل» في ١٩٤٨/٤/٢٧، والذي قرر «ان على شاغلي المراكز، بدءا بقادة الجماعات وشاغلي المراكز الرئيسية في قيادات السرايا والكتائب، وضع شارة على الكتف اليمنى؛ الشارة هي شريط قماش اخضر». وبعد اسبوع من ذلك، اصدرت هيئة الاركان أمرا جديدا قرر «انه في ضوء تجربة القتال في الاسابيع الاخيرة اتضح ان هناك ضرورة ماسة لوضع شارات تدل على الرتب»، وبناء على ذلك اعتمدت شارات خاصة لكل رتبة، وشدد على ان «عقدها إلزامي».

وأثار عدم وصول تعزيزات من الرجال الى ألوية البلماح في فترة معينة الشك في ان هناك من يضع «صعوبات وعراقيل مقصودة امام ارسال مجندين الى اللواء» (ح. غوفر).

ومثال ثان لهذا التوتر هو ادعاء وجود تمييز فيما يتعلق بالاعتدة الشخصية لوحدات البلماح في شتاء سنة ١٩٤٨. فقد جاء في رسالة بعث بها يسرائيل غاليلي الى تسفي لشتسينر، نائب رئيس هيئة الاركان العامة، في نهاية آذار/مارس: «لقد تسلم «البلغاريون» (البلماح) في بنود عديدة من الاعتدة اقل مما كان ينبغي ان يتسلموا نسبيا. وأصبح الامر مدار حديث، ولفت انتباهي زميلي (بن ــ غوريون) الى ذلك». وروى يغآل آلون ان الرجال في الصفوف تذمروا في شتاء سنة ١٩٤٨ القارس: «لماذا لم ينجح قادة الحرب في تقديم ثياب لمقاتلينا، الذين ازدادت مرارتهم، واكتأبت روحهم من فقدان الاهتمام من جانب المسؤولين عن الامدادات اكثر مما اكتأبت من أضرار المعارك. لكنهم حنقوا حنقا شديدا عندما ظهرت في فترة لاحقة وحدات قوة الميدان الجديدة، مرتدية ألبسة لائقة، الامر الذي بدا في نظر الكثيرين منهم تمييزا متعمدا». وفي اعقاب هذه الشكاوى، اصدر رئيس القيادة القطرية أمرا بـ«تقديم الاعتدة الشخصية الى «البلغاريين» (البلماح) فورا او في اقرب وقت ممكن، بمقدار حصتهم النسبية الصحيحة قياسا بالألوية كافة. وزيادة على ذلك، ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة المحيطة بـ«البلغاريين» (خط القدس، والنقب، وما شابه ذلك)».

1490

ولم يكن من السهل على رجال البلماح تقبل فصل وحدة الطيارين عن كتيبة هيئة الاركان، لتشكل نواة سلاح الجو التابع لـ «الهاغاناه». وازداد غضبهم عندما فصلت وحدة السرية البحرية عن كتيبة الاركان، لتشكل نواة سلاح البحرية. ورأى البعض في ذلك بداية حل البلماح.

انشاء ألوية البلماح

مع اتساع الحرب وتطورها، بدأت كتائب البلماح بالتكتل في ألوية. وقد تـمّ تنظيم هذه الالوية في اطر دائمة في الحقيقة في فترة الهدنة بعد قيام الدولة، لكن بداية تبلورها كانت في ربيع سنة ١٩٤٨. وكان اولها لواء النقب، الذي نشأ بفعل الظروف الخاصة بهذه المنطقة التي كانت معزولة طوال اشهر الحرب الاولى كلها عن باقي البيشوف. وبعد ان نقلت وحدات الكتيبة الثانية الى النقب، قسمت في شباط/فبراير ١٩٤٨ الى كتيبتين: الكتيبة الثانية، التي استمر موشيه نيتسر في قيادتها؛ والكتيبة السابعة بقيادة حاييم بار ــ ليف (كيدوني)، التي تمحورت حول السرية ب التابعة للكتيبة الثانية القديمة. وكان انشاء هذه الكتيبة ضروريا كي يتمكن البلماح من الاحاطة بكل المنطقة الخاضعة له. وكلفت هيئة اركان البلماح كتائب اللواء الاخرى فرز قادة مختصين ورجال احتياط كنواة للكتيبة الجديدة.
وبسرعة تبلورت الصورة الخاصة لكتائب النقب على الرغم من المهمة الصعبة والعدد الكبير من الجرحى والقتلى. «قليلة هي الوحدات التي امتازت بروحية قتالية مماثلة لروحية مقاتلي النقب» ــ كتب ي. آلون ــ «كانت روحيتهم طيبة؛ اعتادوا على ظروف الصحراء، وتعلموا القتال في المناطق المكشوفة والمتقطعة في آن واحد. وفي النقب ظهرت اول مرة «قبعة الجراب» المشهورة، التي كانت مريحة للاستعمال اكثر من القبعات العسكرية المختلفة، وأضفت على مقاتلينا سحرا خاصا. وهناك ايضا «نبتت» اللحى الاولى، في البداية بسبب قلة المياه وفيما بعد لدواعي التباهي، تباه خفيف الظل يحافظ على المقاييس ويعطي الحياة الصعبة نكهة وطعما. لكن مقاتل النقب، المعتمر قبعة الجراب والملتحي والمتباهي بحمل شارة الجمل في طية سترته ومدية على خاصرته، اشتهر بأعماله اكثر مما اشتهر بمظهره الرائع، لأن هناك تمرّس وتربى محاربون ذوو قدرة كبيرة على الاحتمال، سريعو الحركة، وشجعان، وحادو الطباع. ويتضح ان «اسماء التسلية» المطلقة على الوحدات، اذا كان لها سند في الواقع، تصبح هي ايضا ذات قيمة حقيقية. ان الاسمين: «وحوش النقب» و«جرذان الصحراء» اصبحا ذائعي الصيت، وأضافا حيوية الى روحية المقاتلين وقدرتهم القتالية». وفي ١٢ آذار/مارس ١٩٤٨، نظمت الكتيبتان في لواء «النقب» بقيادة ناحوم سريغ. وأقيم مقر قيادة اللواء في معسكر «مكوروت» بالقرب من نيرعام. وأخذت القيادة هذه على عاتقها، اضافة الى مهماتها العسكرية، مسؤولية حل مشكلات التزويد بالمياه والتطوير الزراعي اللذين كانا يشكلان في

1491

النقب جزءا لا يتجزأ من نشاط الاستيلاء العسكري على المنطقة. وكان مدير شركة «مكوروت» في النقب، يسرائيل لبرتوفسكي، من قدامى رجال «الهاغاناه» والهجرة اللاشرعية وقائد سرية في البلماح، ضابط المياه في قيادة لواء «النقب». ووضعت بأمرة «هيئة اركان النقب» كل القوات الموجودة والمعسكرة في النقب (قوة الحراسة، وقوة الميدان، والبلماح).

وفي الوقت نفسه بدأت هيئة اركان البلماح تنظم، في قاعدة خلفية، كتيبتين تعزيزا للواء «النقب»: الكتيبة الاولى، شكلت في نيسان/ابريل ١٩٤٨ من مجندات مدربات ومتطوعين من مهاجري قبرص غير الشرعيين، وعرفت بعد فترة باسم الكتيبة الثامنة، بقيادة يوحنان زريز. وكان فيها يومَ اقيمت رسميا (في ٥/١٤) ٣٥٠ شخصا (منهم ١٠٠ فتاة). وغداة تشكيلها وصل امر من هيئة اركان البلماح بارسالها الى النقب المحاصر؛ والكتيبة الثانية هي الكتيبة التاسعة («غيدود هبشيطاه») [كتيبة الاغارة]، وشكلت خصوصا للعمل في الصحراء، وتضمنت وحدات متحركة متنقلة بسيارات جيب مسلحة بمدافع رشاشة ومزودة بأجهزة لاسلكي. وكان تشكيلها في الايام الاخيرة التي سبقت الغزو المصري للنقب، ووضعت تحت امرة يسرائيل كارمي، من قدامى رجال «الهاغاناه»، الذي اكتسب خبرته في «السرايا الليلية الخاصة» (التي اسسها وينغيت) وفي وحدات الكوماندو التابعة للجيش البريطاني. ارسلت ٣٥ سيارة جيب جديدة الى ورش العمل، وخلال ليلة واحدة ركبت عليها «بيزوت» ــ مدافع رشاشة متوسطة حديثة وصلت تـوا الى البلد، وأضيف اليها الـ «مغلد» (المدفع التشيكي الالماني، الذي كان هو ايضا قد احضر توا الى البلد). «ركبت ايضا في الليلة نفسها» ــ روى ي. كارمي ــ «اجهزة اخرى بقيت محفوظة في ذاكرتي من وحدات الكوماندو ووحدات خاصة في الجيش البريطاني في الحرب العالمية، وأمكننا الحصول عليها». وأرسلت هذه الوحدات على عجل الى النقب فور اجتياز المصريين لحدودنا. وكان عدد أفراد لواء النقب، عند حدوث الغزو، ٢٠٠٠ مقاتل تقريبا.

وفي الجليل دمجت الكتيبتان الاولى والثالثة بعضهما في بعض، خلال عملية «يفتاح» في بداية ايار/مايو ١٩٤٨. وكانت بداية لواء «يفتاح» في انطلاق الكتيبة الاولى الى الجليل الشرقي. صودرت ١٠٠ شاحنة في الطرق، ونقل سائقوها طوعا وكرها قافلة مشكلة من ١٠٠٠ مقاتل الى الجليل الاعلى الشرقي، حيث تولى يغآل آلون قيادة عملية «يفتاح». «منذ لحظة انتهائنا من العمل في اطار «يفتاح»، تحدد الاطار الرسمي للواء» ــ كتب شموئيل (مولا) كوهين، الذي عين فيما بعد قائدا للواء الجديد: لواء «يفتاح». وفور انتهاء اللواء من عملياته في الجليل أُمر بالتوجه جنوبا الى معسكر تسريفين، للاستعداد للقيام بعملية «داني».

وفي وسط البلد تحولت الكتيبة الرابعة، قبل فصل وحدات السرية البحرية عنها، الى كتيبة سلاح مشاة عادية، وبمشاركتها في عملية «نحشون» (التي شارك فيها عمليا معظم رجال السرية البحرية)، تلقت اسمها الجديد ــ كتيبة «هبورتسيم» [المقتحمون]. وبقيت الكتيبة التي خرجت الى القدس للقيام باحدى العمليات، محاصرة في ممر القدس، وظلت تخوض

معارك ضد المواقع العسكرية والقرى العربية. وضُمّت اليها الكتيبة الخامسة وفلول الكتيبة السادسة، اللتين نقلتا الى قاعدة خلفية لاعادة تنظيمهما بعد الخسائر الفادحة التي تكبدتاها على جبهة القدس. وشكلت هذه الكتائب الثلاث لواء «هارئيل» بقيادة يتسحاق رابين، ضابط العمليات في البلماح، وبعده يوسف (يوسفله) تبنكين. وفي عشية قيام دولة اسرائيل كان البلماح مقسما الى ألوية. وبدلا من «اللواء»، كما كان يدعى البلماح حتى ذلك الوقت، شكلت ثلاثة ألوية بقيادة هيئة اركان البلماح، التي كانت صلة الوصل بينها وبين هيئة الاركان العامة. أما باقي الالوية الستة، التي شكلت من وحدات قوة الميدان، فكانت خاضعة مباشرة لهيئة الاركان العامة.

1492 وأدت هذه الحقيقة الى اثارة مشكلة مكانة هيئة اركان البلماح. فمنذ بداية الحرب لم تقاتل وحداته على جبهة واحدة، وانما كانت موزعة على جبهات كثيرة. وكان الامر في البداية طبيعيا، اذ ان البلماح كان على هذه الجبهات، في الفترة الاولى للحرب، القوة المقاتلة الفعالة الاساسية، لكن مع تشكيل ألوية جديدة نشأت اوضاع نشطت فيها في منطقة جغرافية واحدة ألوية بلماح، كانت خاضعة لقيادتها القطرية ومن خلالها لهيئة الاركان العامة، وألوية اخرى كانت خاضعة مباشرة لهيئة الاركان العامة. وفي الواقع كان من المحتم اجراء اتفاقات وترتيبات موقتة في مثل هذه المناطق، لكن احيانا كانت تحدث عثرات خطرة بسبب عدم وجود قيادة واحدة في المنطقة نفسها او في الحالات التي كان من غير الممكن الاكتفاء فيها بالتنسيق فقط.

وبدا لدافيد بن ــ غوريون انه لا يجوز الاستمرار على هذا النحو. وطلب ان تتوجه هيئة الاركان العامة الى الالوية مباشرة وليس عن طريق هيئة اركان البلماح. وفي اثناء هذا النقاش، اتضح لشالوم حفلين، ضابط الادارة في هيئة اركان البلماح، انه في التعتيم الصادر عن الاركان العامة فيما يتعلق بالجهات التي يجب ان ترسل اليها الوثائق المهمة، ذُكرت الى جانب هيئة اركان البلماح («البلغاريون») ــ ايضا هيئات اركان ألوية البلماح ــ «هارئيل»، و«يفتاح»، و«النقب». ورأت هيئة اركان البلماح في ذلك وضعا لها امام حقيقة الغاء صلاحيتها فيما يتعلق بالألوية الثلاثة قبل صدور قرار معتمد. وأرسل شالوم حفلين، في ١٩٤٨/٥/٢٨، أمرا الى الوحدات بالاستمرار في تلقي الاوامر عن طريق هيئة اركان البلماح. لكن د. بن ــ غوريون اصدر أمرا الى حفلين «بأن يبلّغ كل ألوية البلماح، خلال اربع وعشرين ساعة، بأن الامر الذي اصدره اليها قد أُلغي، وبأن عليها ان تنفذ أوامر هيئة الاركان العامة». وبعد مشاورات مع زملائه ألغى حفلين الامر.

وقلّصت هيئة اركان البلماح نشاطها في استيعاب الطاقة البشرية في وحداتها، وفي مجال ادارة العمل التربوي والمعونة الاجتماعية، وفي ادارة دورة المدربين المركزية لألويته حتى تم حل البلماح نهائيا في ١٩٤٨/١١/٧.

الاحتفال بمرور سبعة أعوام على انشاء البلماح

في ايار/مايو ١٩٤٨، احتفل البلماح بمرور سبعة أعوام على انشائه. وكانت تلك الايام الاخيرة للحكم البريطاني، وخرج البلماح اول مرة الى العلن خالعا عنه قناع الخفية الذي ارتداه سبعة أعوام. وفي الامر اليومي الذي اصدرته هيئة اركان البلماح بمناسبة الاحتفال، شددت على الطابع الطلائعي الخاص للواء، ودعت أفراده «الى مواصلة كشف وتقوية الروحية القتالية لدى جميع أفراده ووحداته ونشرها في كل ألوية الجيش العبري، التي تتحمل معنا عبء المعركة». واحتفل الآلاف من اعضائه بهذه المناسبة وهم موزعون في صحارى النقب وعلى مرتفعات القدس وجبال الجليل. لكن جماهير من الشبان شاركت في مهرجان حاشد، جرى في تل ابيب بتاريخ ١٩٤٨/٥/٧ في مسرح «هبيماه». ونشرت الصحف، بجميع اتجاهاتها، كتابات حارة وودية تحية للواء. وصفت «دافار» البلماح بأنه «جيش عمل، جيش استيطان، جيش ابداع. —— جزء لا يتجزأ من ارض — اسرائيل الجديدة التي تدافع عن نفسها بالبناء، وتنتج بالدفاع»، ودعت الى انشاء جيش عبري على غراره، «جيش يحمل ويحافظ في داخله على قيم العمل والروحية الطلائعية، قيم الولاء للشعب المتجدد في وطنه وللاخوة الذين يتعفنون في دول الشتات ويتوقون الى الهجرة والخلاص». وأعلنت «عال همشمار»، التي كانت في تلك الفترة الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الذي كان ينتمي اليه معظم قادة البلماح — «حزب العمال الموحد» — ان «مهمة (البلماح) لم تنته، ولا تزال في انتظاره: جمع بذور الشبيبة الطلائعية، وغرس روحيته في الجيش العبري الذي يجري انشاؤه، ومواصلة قيادة الشعب في معارك انبعاثه». وفي لحظات الرضى هذه، اكثرت الصحف البورجوازية ايضا من امتداح البلماح: «انه» — كتبت «هآرتس» — «نذر كل حياته، كل يوم من حياته، من دون ان يبحث عن مديح او عن اكاليل الغار». وحذرت «هبوكر» معارضي البلماح من ان هذا ليس هو الوقت الملائم لتصفية الحساب معه. «من المشكوك فيه انه، في مقابل الحصول على قيادة تمر عبر قناة واحدة، من المسموح لنا في هذه اللحظة التنازل عن قدرة اللواء القتالية. ان الجيش العبري بحاجة الى أعوام كثيرة كي يتوصل الى، او ينشىء لواء يتمتع بقدرة قتالية مساوية لقدرة البلماح».

1493

كانت تلك الايام ايام لظى المعارك، وما زالت امام البلماح ايام حرب وبطولة، ايام انتصارات وخسائر في الارواح. لكن في يوم الاحتفال بالذات سمعت رنة أسى، نابعة من التخوف من ان اللواء على وشك ان يحل.

انشاء ألوية قوة الميدان

صدر الامر المتعلق بانشاء الالوية في «الهاغاناه» وتكوينها على المستوى القطري قبل شهر تقريبا من اندلاع حرب الاستقلال (انظر ص 1338)، إلا ان عملية تطبيقه اصطدمت بصعوبات كثيرة هي:

أ ــ ان «الهاغاناه»، التي نشطت حتى تلك الفترة في اطر تنظيمية على مستوى كتائب وأطر تكتية على مستوى سرايا، لم تكن تملك خبرة او كادرا قياديا في مستوى هيئات اركان ألوية قوة ميدان. وكانت هناك ضرورة لتنظيم وتدريب كادر قيادي كهذا.

1494 ب ــ في اثناء عملية تنظيم الالوية اندلعت الحرب واشتد أوارها يوما بعد يوم. وكُلِّف الاشخاص، الذين اوكل اليهم امر انشاء الالوية والتدريب والتدرب فيها، مهمات دفاعية ومهمات قتالية لم يكن في الامكان تأجيلها. وحدث مرارا ان ارسل اشخاص الى امكنة خطرة جدا من دون ان يكملوا اكثر من ثلث تدريبهم او ربعه. وكانت هذه ضرورة حتمية لازمت حرب الاستقلال فترة طويلة، وكلفت الييشوف العبري ضحايا بشرية غالية، إلا انها انقذته من الابادة.

ج ــ لكن العائق الاخطر امام استكمال العدد اللازم للألوية وزيادة عدد أفرادها، كان التأخر في تنفيذ التجنيد الكامل للييشوف. ان النقص في الميزانية والنقص في الاجهزة والعتاد، وربما ايضا غياب شعور الجمهور بحقيقة الوضع في الفترة الاولى للحرب، نجم عنها عمليا اكتساب التجنيد في الشهرين الاولين للحرب طابعا جزئيا. اذ لم يجند معظم المجندين تجنيدا كاملا، وانما سمح لهم بالسكنى في بيوتهم والعمل في اماكن عملهم، وكانوا يخرجون لأداء واجبهم لفترة اسبوعين، ثم يستبدلون بمجندين آخرين.

لقد كان تعداد لواء «غفعاتي»، مثلا، في الايام الاولى لانشائه ١٢٠٠ شخص، لكن خصصت لقيادته ميزانية لسد حاجات ٣٠٠ شخص فقط، شكلوا ٨ فصائل وأوكلت اليهم مهمة نجدة كل مستعمرات منطقة الشفيلا، وأن يكونوا كقوات مساندة لمنطقة تل ابيب.

وقد كان العمل وفقا لهذا الاسلوب، بكل نقائصه، ممكنا ما دام الاشخاص قريبين من منازلهم وأماكن عملهم. لكن عندما كان من الضروري ارسال الاشخاص الى اماكن بعيدة، ويتعذر استبدالهم في الموعد المقرر، كان الامر يؤدي الى عثرات خطرة. في الاشهر الاولى للحرب ارسل نحو ١٠٠ شخص من لواء «غفعاتي» لمساعدة مستعمرات النقب، مع وعد باستبدالهم كل اسبوعين. لكن بعد شهر اتضح لهيئة اركان اللواء انه «ليس في امكان اللواء استبدالهم في الموعد المقرر، لان كثيرين من أفراد قوة الميدان، الذين كان يمكن ان يحلوا مكانهم، سيرسلون الى القدس المحاصرة والموجودة في وضع صعب» (أ. بيتون). ووعد القائد ان البدلاء سيصلون خلال اسبوع، لكن «احدى الجماعات تصرفت على عاتقها، وفرت الى تل ابيب. وبعد اسبوع، عندما لم يصل بدلاء، اعلن باقي الاشخاص اضرابا عن الطعام». روى قائد الفصيلة التي اعلنت الاضراب: «تفهمت مشاعر الشبان الذين كانوا في معظمهم عمالا أجراء يعيلون عائلاتهم وخشوا ان يسبب تطوعهم للدفاع عن النقب في خسارة عملهم الثابت بسبب تأخرهم في العودة».

وكان هذا الاسلوب القائم على الاستبدال متبعا ايضا بالنسبة الى طلاب الجامعة في القدس (انظر ص 1390)، والتخنيون في حيفا. وعندما كانت تتطلب الضرورة تجنيدا

كاملا، كان على القادة مناشدة روحية التطوع لدى الاعضاء، والتوجه الى ضميرهم الشخصي كأعضاء في «الهاغاناه» مع وعدهم بحل مشكلاتهم الشخصية والمالية وتوفير حقوقهم في اماكن عملهم.

ان التحول الى نظام اللواء العسكري، الذي يجرى نقل وحداته من مكان الى آخر في البلد بناء على ضرورات وحسابات خطة قطرية، يتطلب هو ايضا من اعضاء «الصف» تكيفا نفسانيا. وكنموذج للمفاهيم والروحية التي كانت سائدة بين الاعضاء، حتى في فترة متأخرة منذ بدء المعارك، نقتبس كلمات يسرائيل ليتوار، الذي روى انه عندما وصل الامر الى «كتيبة هيرتسل» التابعة لقوة الميدان في حيفا في بداية آذار/مارس بالخروج لنجدة القوات في الجليل الاعلى الشرقي، تلقت الكتيبة الامر باستياء شديد: «كان من الصعب على أفراد الكتيبة، المشكلة من خيرة شبان حيفا، قبول حقيقة ان عليهم ترك حيفا، التي كانوا مستعدين للدفاع عنها وبذل حياتهم في سبيلها، وملازمة منطقة اخرى. وتساءل كثيرون منهم كيف يجوز اخراجهم من بيوتهم، بينما وجودهم هنا ضروري لحماية المكان» («ايلان وشيلح»).

وقد تم التغلب على العوائق المذكورة اعلاه بالتدريج. فقد شكل خلال شهر او شهرين كادر اركان ألوية، وقادة، وضباط ادارة وعمليات وتدريب ومستودعات واستخبارات، الخ. وأتى قسم منهم من صفوف قادة المنظمة، وقسم آخر من خارجها. وقام بدور مهم في تنظيم الالوية ضباط ورقباء سابقون خدموا في الفرقة اليهودية، وفي وحدات يهودية اخرى في الجيش البريطاني وفي جيوش اجنبية، وكان بينهم كثيرون ممن تجاوزوا سن الخدمة الاجبارية؛ «بفضلهم» ــ كتب قائد لواء «غفعاتي» ش. أفيدان ــ «استطعنا الانتقال بسرعة كبيرة من وضع وحدات تعمل في السر الى اطار قوة نظامية، والتكيف مع أنماط عملها».

1495

وحلت مشكلة التدريب في اثناء الحرب عن طريق اقدام هيئة الاركان العامة، في ابان المعارك، على عقد دورات قطرية لقادة فصائل، ودورات لخبراء بالاسلحة وبالمدافع الرشاشة المتوسطة، وسائقين، وخبراء بالارسال اللاسلكي، وممرضين. ولم تتوقف نشاطات التدريب لحظة واحدة.

وأجرت الالوية نفسها دورات على مستوى اللواء لتخريج قادة جماعات، وأفراد دوريات، وقناصة، وخبراء تدمير. وأجرت كل كتيبة دورات ضمن نطاقها لتخريج نواب قادة جماعات («رقباء»). وكان هؤلاء الرقباء قادة جماعات غير معتمدين، مهمتهم الرئيسية استكمال تدريب المجندين الجدد بصورة مفصلة. وعندما ازداد تدفق المجندين الجدد، الذين لم تكن لديهم اية فكرة عن استخدام السلاح، افتتحت معسكرات للاستيعاب اجريت فيها دورات سريعة مدتها ١٠ ــ ١٧ يوما. واستنبطت طرائق لتدريب الاشخاص حتى في المناطق الخطرة، التي كانت الوحدات مكلفة حمايتها ومستعدة لمواجهة الهجمات التي يشنها العدو عليها. فقد اجريت دورة رقباء، مثلا، في بن شيمن المعزولة. وكان رجال قوة الميدان، الذين

كانوا يرسلون الى المكان من وقت الى آخر، يقومون بالحراسة ويتدربون ايضا بأسلحة المجندين ووفقا لأساليب تدريبهم.

ومع اشتداد أوار الحرب اصبح التجنيد الكامل ضرورة ماسة ادركها جميع القيمين على شؤون الحرب. وجمعت الاموال، وتحولت منشآت ومعسكرات الجيش التي تم اخلاؤها وتسلمها اليهود الى قواعد للكتائب الجديدة.

وبسبب صعوبات تنظيم المستودعات القطرية والنقص، الذي كان من المحتمل ان يشل نشاط الالوية، اضطرت كتائب مختلفة الى ان تقوم احيانا بعمليات «مصادرة» للعتاد والمواد الغذائية والوقود. وقد اثقلت على الوحدات بصورة خاصة مشكلة وسائط النقل التي كانت مصادرتها ظاهرة شائعة. وكان الامر يتم احيانا على نطاق واسع، على غرار عندما كان يتطلب الامر ارسال قافلة الى القدس او نقل وحدات عسكرية الى احد الامكنة المعرضة للخطر. وتكرر اعلان هيئة الاركان العامة لتعبئة تامة لوسائط النقل الموجودة لدى الييشوف اليهودي لأغراض الحرب. وتمت الاستجابة لهذا الطلب في صيف سنة ١٩٤٨ فقط. وكُلِّفت الالوية ان تنشىء لسد حاجاتها محطات وقود، وورش حدادة، وأفرانا، ومستودعات اغذية، وأيضا مستشفيات وحتى مقابر. وكانت هذه النشاطات معتمدة الى حد كبير على قيادات الالوية، وعلى مدى تجاوب زعماء الجمهور في المناطق التي تعسكر فيها الالوية. ومع اطراد تقدم تنظيم الجيش، لم تعد هذه الامور معتمدة على المبادرات المحلية، وانما على النشاط المدروس من جانب هيئة الاركان وشعبها وأجهزتها.

وظهرت في الالوية مشكلة بلورة النظام وقواعد السلوك العسكري. وروى إلياهو اشل، الضابط الاداري للواء «غفعاتي»، انه في بداية فترة انشاء اللواء طلب الضابط ميلخ شفارتز («عمري»)، الذي عين مديرا لمعسكر قيادة اللواء («الشعبة»)، وكان ضابطا سابقا في الجيش البريطاني، «اتباع نظام التصاريح للدخول والخروج والاجازات، ووضع شارات تدل على الرتب العسكرية، وانشاء غرف طعام منفصلة للضباط والجنود، وانشاء شرطة عسكرية على مستوى اللواء وسجن للواء». وقد ايد هذه المطالب ش. أفيدان، قائد اللواء، وأعضاء الادارة الآخرون. وفي المقابل، «سمعت من جانب عدد من قادة الكتائب، الذين تربوا في كنف النظام الرفاقي الذي كان سائدا في «الهاغاناه»، انتقادات حادة جدا ضد مقترحات قائد الـ «شعبة»، وخصوصا ضد انشاء سجن للواء». وانتهى النقاش الصاخب بحل وسط: «تقرر تأجيل انشاء السجن وغرف الطعام المنفصلة من ناحية، وقبول باقي مقترحات «عمري» من ناحية اخرى». وبرهن الواقع بسرعة انه لا يمكن معالجة امر المخالفين، ومعظمهم هارب من الخدمة او متهرب، من دون انشاء سجن يحتجز فيه هؤلاء الى حين محاكمتهم. وفي «بداية نيسان/ابريل ـــ انشىء سجن للواء». 1496

كما اتضح ايضا للذين تربوا على تراث «الهاغاناه» بمرور الوقت، انه في الوحدات المشكلة من المجندين الاجباريين لابد من وسائل مساعدة لفرض الانضباط.

وقد ادت الظروف المختلفة التي عملت الالوية المختلفة في ظلها، الى نشوء تغييرات بالنسبة الى سرعة تنظيمها وقولبة صورتها. وأثر كثيرا في ذلك طابع فروع «الهاغاناه»، التي استمدت منها الالوية كادر قادتها ونوى بُناتها. وقام بدور مهم ايضا تركيب كادر القادة الكبار، وبصورة خاصة شخصية قائد اللواء، بالاضافة الى الظروف الخارجية والتجارب القتالية التي مر بها كل لواء في الاشهر الاولى لنشوئه. ولذا يجدر الحديث عن كل لواء على حدة في اشهر الحرب الاولى هذه، التي كانت في الوقت نفسه الاشهر الاولى لنشوء جيش «الهاغاناه».

لواء «غفعاتي»

قبل اسبوع تقريبا من نشوب حرب الاستقلال، اصدر قائد منطقة تل ابيب أمرا بفصل وحدات قوة الميدان عن المنطقة ووضعها ابتداء من ١٩٤٧/١٢/١ في تصرف اللواء المجند الجنوبي، لواء «غفعاتي»، الذي كان من المفروض ان يضم ـ وفقا للمخطط الاصلي ـ ٥ كتائب. وبقي خاضعا لسلطة قيادة منطقة تل ابيب جميع أفراد قوة الميدان، ممن هم دون سن الثامنة عشرة، و ٣٠٠ شخص من أفراد «كتيبة الضواحي». وقد خصصت لانشاء لواء «غفعاتي» سرايا قوة الميدان التسع في تل ابيب، وسريتا مستعمرات الشفيلا. ونظمت هذه السرايا في اربع كتائب: الكتيبة الاولى، بقيادة مئير دافيدزون (لاحقا: أفرايم كدوري)، واشتملت على الكتيبة المتدينة التابعة لقوة الميدان في تل ابيب؛ الكتيبة الثانية، بقيادة يعقوب برولوف، التي ضمت السرايا في الموشافوت؛ الكتيبة الثالثة، بقيادة يتسحاق فونديك، التي ضمت سرايا ضواحي تل ابيب الثلاث؛ والكتيبة الـرابعة التي ضمت سرايا قوة الميدان القديمة الثلاث في تل ابيب بقيادة إلداد اورباخ. «لم يكن لأحد منا» ـ كتب قائد الكتيبة الثالثة، يتسحاق فونديك ـ «خبرة بكيفية فعل ذلك (القصد تشكيل كتيبة ي. س.). حتى الآن عرفنا ان الاطر التكتية لعمليات «الهاغاناه» القتالية الاولى، هي الجماعة والفصيلة، وهاتان كانت لدينا خبرة بقيادتها. وأعتقد اننا نستطيع ان نقود الى معركة حتى. . . سرية، لكن ان نقود كتيبة كاملة فانه لم يتخيل احد منا ذلك. ولم يستطع حتى اصحاب الخبرة بيننا ان يتصوروا كيف يمكنهم ان يتغلبوا في فترة قصيرة كهذه على العقبات الكثيرة امامهم ـ على مشكلات الاعتدة والتموين وتعيين القادة والمدربين والمشكلات الاخرى». وعمليا، انطلق كل قائد كتيبة للبحث عن معارفه وتلامذته السابقين من بين رجال «الهاغاناه» والجيش السابقين، ومنهم شَكَّل الكادر القيادي الاول للكتيبة.

وكان اول قائد عين لقيادة اللواء يتسحاق ساديه. لكن تعيينه اثار معارضة حادة جدا من جانب دافيد بن ـ غوريون، الذي ادعى انه في وقت سابق، في فترة النضال [ضد الانكليز]، بعد «السبت الاسود»، ذكر يتسحاق ساديه في احدى مقالاته انه اذا صدر امر بايقاف الكفاح المسلح، فان ذلك ينبغي ألا يلزم المقاتلين. وقد رأى بن ـ غوريون في ذلك

منهج تربية يدعو الى عصيان سلطة القيادة السياسية، وبالتالي كان مقتنعا بأن يتسحاق ساديه لا يصلح لأن يتولى منصبا عسكريا قياديا. وأصرت القيادة العليا على التعيين، ونشبت ازمة، وأعلن بن ـ غوريون انه سيستقيل اذا لم يؤخذ برأيه. ومن اجل ايجاد حل للخروج من الازمة، اقترح بن ـ غوريون تعيين يتسحاق ساديه مستشارا له، وعين يهوشواع غلوبرمان قائدا للواء. لكن بعد مقتل غلوبرمان في طريقه من القدس (انظر ص 1390) عين في هذا المنصب شمعون أفيدان، من عين هاشوفيط وقائد قديم في البلماح. ونقل أفيدان قيادة اللواء، التي كانت تعمل حتى ذلك الوقت في احد مكاتب بيت بريز في تل ابيب، الى معسكر الشارون الذي اخلاه البريطانيون في تلك الايام بالذات. 1497

كان الكادر القيادي للواء مشكلا من اشخاص ذوي ماض عسكري مختلف، بينهم خريجون من دورات «الهاغاناه»، وبينهم من خدم في الجيش البريطاني، وبينهم من خدم في الجيش البولندي او الجيش الروسي. وكان من بين هؤلاء الاخيرين يهوشواع غولدرات، الضابط والمدرب السابق في دورة ضباط متقدمة في الجيش البولندي، والذي قدم اقتراحا موضوعيا بشأن «تنظيم القوة العبرية في البلد وتشغيلها في اطار عسكري نظامي». واقترحت عليه هيئة الاركان العامة الانضمام الى قيادة لواء «غفعاتي». ومرت فترة قبل ان يتحول هؤلاء الرجال الى «فريق عمل ينشط بتنسيق كامل».

بعد الانتهاء من تشكيل الكادر القيادي للواء والكتائب، بدأ العمل التنظيمي. لكن اتضح للقادة بسرعة ان ايديهم كانت مكبلة. فمن اصل الـ ١٢٠٠ شخص الذين وضعوا في تصرفهم، كان هناك ٥٠٠ شخص مخصصين للدفاع عن تل ابيب، كقوة مساندة او كمصدر لارسال نجدات الى الاماكن المنعزلة او لمواكبة القوافل. كما كان هناك ١٥٠ شخصا مخصصين لمهمات مشابهة في مستعمرات الجنوب. كذلك كُلِّف اللواء ارسال نحو ١٠٠ شخص بالتناوب لتعزيز مستعمرات النقب، وكُلِّف في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ ارسال ٢٥٠ شخصا كنجدة للقدس.

وقد تم ارسال الاشخاص الى القدس على اساس تطوعي. فرض على كل كتيبة ارسال فصيلتين مع قادتها. ودعي الاشخاص الى أداء واجبهم كأعضاء في منظمة «الهاغاناه». واكتمل تشكيل الفصائل في الموعد المقرر. وفي ١/٢٤، خرجت النجدة الى القدس، مزودة بأفضل العتاد المتوفر لدى اللواء. ودمج هؤلاء الافراد بعد فترة في كتائب قوة الميدان في القدس (انظر ص 1392)، ولم يعودوا الى كتائبهم الاصلية. ونقلت فصيلة اخرى من لواء «غفعاتي» في آذار/مارس ١٩٤٨ الى غوش عتسيون، وسقط معظم أفرادها في المعارك التي دارت في الغوش. وبدأ اللواء، في ظل هذا الوضع للطاقة البشرية المتوفرة له، بالعمل في ثلاثة اتجاهات: اولا، شرع في حملة تجنيد لمجندين جدد، جلبت في الموجة الاولى ٧٥٠ شخصا، منهم ١٥٠ عضوا في «الهاغاناه»، كان الاتصال بهم قد انقطع بمرور الوقت لأسباب مختلفة وعادوا الآن الى الصف. وأما الباقون فكانوا مجندين جددا تماما، وقد تم تجميعهم في

معسكر بريطاني سابق شمالي تل ابيب، «معسكر يونا»، على اسم القائد يونا راسين الذي قتل في بداية الحرب، وفي الشارون في «معسكر يهوشواع»، على اسم يهوشواع غلوبرمان الذي قتل هو ايضا في تلك الفترة. وفي هذين المعسكرين تلقى المجندون، على دفعات كل دفعة مشكلة من ١٥٠ شخصا، تدريبا لمدة ١٠ ـ ١٥ يوما، وأُلحقوا بعد اجازة ٤ ايام بالكتائب الملائمة.

وفي اثناء عملية تنظيم الكتائب الثلاث ـ الاولى والثالثة والرابعة ـ في تل ابيب وجوراها، أُلقيت مسؤولية الدفاع عن الييشوف في الشفيلا على عاتق الكتيبة الثانية. وفي بداية نشاطها كان في تصرف قائد الكتيبة يعقوب برولوف سرايا قوة الميدان الخاصة برحوفوت وريشون لتسيون، وسرية قوة الميدان الخاصة بمستعمرات الجنوب والتي كانت تضم عمليا فصيلة واحدة. وانشأ برولوف، بفضل التوفير في ميزانية الامن الموضوعة في تصرفه، قواعد تدريب في رامات اهرون (بالقرب من رحوفوت) وفي غان يفنه. وأجريت في غان يفنه دورة للرقباء. وقد تلقت الكتيبة مساعدة كبيرة في تنفيذ مهمتها من قادة المناطق في «شرطة المستعمرات العبرية» في بئير طوفيا وغديره وخولده، الذين كانوا يتولون ترتيب مواكبة القوافل في المنطقة. وكانت اربع فصائل فقط (١٥٠ شخصا) مجندة تجنيدا دائما، لكن أفراد قوة الميدان الذين لم يكونوا قد استدعوا بعد الى التجنيد الكامل، أُشركوا في جميع العمليات. ولم يتم تجنيد الاشخاص وتجميعهم في القواعد بسهولة. اذ لم توافق لجان الامن المحلية على خروج خيرة رجالها من المستعمرات، وادعت انها بحاجة اليهم لتنظيم الدفاع المحلي. وكان من الصعب في الاشهر الاولى للحرب اقناعها بأن الظروف تستدعي تجميع الرجال وفقا لأغراض الدفاع عن المنطقة ككل. وقد تعرضت الكتيبة، في بداية تكونها، لصدمة قاسية عندما وقعت جماعتان من ابناء ريشون لتسيون خرجتا للقيام بجولة تدريبية بالقرب من غان يفنه، في ١٩٤٨/١/٩، في كمين عربي نُصب على حدود رمال عرب سوخرير، وقتل ١١ من أفرادهما. وبعد اسبوعين من ذلك، انطلق رجال الكتيبة للقيام بعملية انتقامية ضد قرية السفاحين، لكنهم وجدوا القرية خالية من سكانها، فقام خبراء التدمير بنسف بيوتها جميعا.

1498

ومع ازدياد نشاطات العصابات العربية ومجيء حسن سلامة الى المنطقة، اصبح من الضروري تعزيز القوات العاملة في المنطقة. وفي بداية آذار/مارس نقلت مسؤولية الدفاع عن مشارف تل ابيب الى الكتيبة الاولى. وقلص قطاع الكتيبة الثانية فاقتصر على شمالي المنطقة، وركز الافراد في ثلاث سرايا: السرية أ في منطقة بئير يعقوف؛ السرية ب في رامات اهرون، التي كانت تعسكر فيها قيادة الكتيبة؛ السرية ج، التي كان قد بدىء بتنظيمها، في مطار تل نوف. وانتقل الافراد، الذين كانوا معتادين على الاكل وحتى النوم احيانا في بيوتهم، الى حياة الثكنات. وزادت العمليات الكبيرة في اشهر الربيع في حدة التوتر العسكري، وتبلورت الفصائل في سرايا، وبدأت السرايا تنظر الى ذاتها كجزء من كتيبة متكاملة.

واتخذت الكتيبة الثالثة صورة جديدة بخروجها من تل ابيب الى القطاع الجنوبي في المنطقة، الذي كان يضم ١٥ مستعمرة. كانت الكتيبة عند خروجها من تل ابيب مشكلة من ٧٥٠ شخصا. وعسكرت قيادتها واحدى سراياها في غديره، وسرية اخرى في منطقة غان يفنه ـ حتسور، وسرية ثالثة في معسكر بيت داراس بالقرب من بثير طوفيا، ورابعة في منطقة غات ـ غلؤون. ووضع تحت امرة قيادة الكتيبة أفراد قوة الحراسة في المنطقة، الذين كانوا منظمين في ثلاثة اقاليم او كتل (كتلة غديره، وكتلة بثير طوفيا، وكتلة غات ـ غلؤون ـ نيغبا)، كما وضعت في تصرفها فصيلة دورية مقاتلة في كل كتلة. وكان ناشطا في هذه المنطقة لحساب المفتي طارق بك الافريقي، الملقب بـ «الشيطان الاسود». وقد استنفر رجاله لمهاجمة حركة النقل العبرية والحقول والكروم اليهودية. واكتسبت الكتيبة خبراتها الاولى في اثناء المعارك والعمليات الانتقامية التي جرت لشق الطريق الى مستعمرات معزولة مثل غات وغلؤون (انظر ص 1453).

وفي نهاية كانون الثاني/يناير، اجريت دورات في اطار كتيبة لتخريج قادة جماعات، وتدرب في الدورتين الاولبين (كل واحدة منها استمرت شهرا تقريبا) ٢٤٠ شخصا. وقد «تلقن المشاركون في الدورات مبادىء القتال الخاصة بالجماعة داخل اطار الفصيلة»، وشكل المتخرجون بعد ذلك «اساس الشريحة القيادية الدنيا التي قادت وحدات اللواء في المعارك». وأجريت دورات ايضا لتدريب خبراء تدمير، وأفراد دوريات، وقناصة، ومدربي رياضة، وطباخين. وأرسل عشرات من القادة الى الدورات القطرية لقادة الفصائل، والى الدورات المعدة لاكساب المقاتلين خبرات اخرى.

وكانت وتيرة التدريب مرتبطة بالوضع على الجبهات التي كانت الكتائب ناشطة فيها، وبأعباء العمل الدفاعي المنوط بها. وقد ذكر تسفي تشيرتنكو («تشيري»، ولاحقا: تسور)، ضابط التدريب في اللواء منذ نهاية آذار/مارس ١٩٤٨ ـ في تقرير له ـ ان اثنتين من الكتائب الاربع التل ابيبية التي اجتازت وحداتها تدريبات الفرد والجماعة، موجودتان على الجبهة ومثقلتان بمهمات قتالية. والكتيبتان الاخريان لا تزالان في مرحلة التدريب. وذكر انه «يُلمس نقص في السلاح لأغراض التدريب». وأقامت الكتائب نفسها قواعد تدريب ودورات خاصة بها، تم فيها تدريب «رقباء». وفي نهاية شباط/فبراير، كان تعداد اللواء، بمن في ذلك المجندون الجدد، ٢٢٥٠ شخصا تقريبا. وكان في حيازته نظريا ـ في تلك الفترة ـ ٢٠٠٠ بندقية، إلا ان معظمها كان موجودا في مستودعات المستعمرات، و ٢٥٠ منها فقط بيد اللواء. وكان لديه ايضا ٤٥٠ رشيشا، و ٣٠ مدفعا رشاشا، و ١٠ رشاشات متوسطة، و ٤٠ مدفع هاون عيار ٢ بوصة و ٤ مدافع هاون عيار ٣ بوصات. وكان النقص في البنادق عائقا خطرا جدا. وكان القادة عند القيام بعمليات مضطرين الى «استعارة» بنادق من مستودعات تل ابيب، او من المستعمرات المجاورة. وكانت بنادق اللواء لا تكاد تكفي تدريب أفراده.

1499

وفي اثناء التنظيم والتدريب شارك اللواء في كل العمليات القتالية في المنطقة، لا بل ارسل ايضا وحدات للقيام بعمليات خارجها. وشارك أفراده في منطقة تل ابيب في المعركة على حي هتكفاه (انظر ص 1376)، كما شارك في العمليات الانتقامية الاولى التي لم تنجح ضد سلمة (انظر ص 1379)، وفي خمس عمليات تأديبية في جبهة حولون ضد تل الريش وجباليا. وقد قام بها جميعا الكتيبة الاولى. وأرسلت الكتيبة الرابعة، كتيبة القدامى، فصائلها للدفاع عن بن شيمن المعزولة، الى ان حلت محلها في منتصف آذار/مارس كتيبة المتدينين.

ومنذ نهاية شباط/فبراير حتى نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨، حافظت احدى فصائل الكتيبة الاولى على مبنى «هَكيرن هكييمت» المعزول بالقرب من بيت دجن (انظر ص 1447). وفكت الكتيبة الثالثة، التي خرجت في آذار/مارس الى جنوب الشفيلا، الحصار العربي عن غات وغلؤون، وأرهبت القرى العربية التي حاولت تخريب حركة النقل اليهودية في المنطقة، وشاركت ايضا في الدفاع عن كيبوتس نيتسانيم المعزول.

وفي اثناء عملية «حامتس» (انظر ص 1573)، في نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨، حشد معظم اللواء في معسكر خيم مشترك وعمل كجسم واحد. وباحتلال يافا تفرغ قسم كبير من الطاقة البشرية التابعة للواء، للقيام بعمليات اخرى، وفي الاساس السيطرة على المنطقة الجنوبية التي تمت في الاسابيع الاخيرة قبل غزو الدول العربية (عملية «براك» ــ انظر ص 1586). وفي تلك الفترة، نقلت قيادة اللواء من معسكر الشارون في تل ابيب الى رامات اهرون بالقرب من رحوفوت، وعملت على تنظيم جنودها للقتال ضد الجيش المصري، ووصل عدد جنود اللواء آنذاك الى ٣٢٣٠ جنديا.

وفي اليوم الاول للغزو المصري، اصدر شمعون أفيدان أمرا الى رفائيل فاردي، ضابط التدريب في اللواء، الذي كان قد انتقل مع رجاله قبل خمسة ايام من الشارون الى معسكر تل نوف، بأن يشكل خلال ٢٤ ساعة كتيبة خامسة من مستعمرات الجنوب. وتم تجميع الرجال في مركز شرطة صرفند الخرب، لكن لم يكن في حيازتهم سلاح. وطلب شمعون أفيدان من لجان الامن في المستعمرات تسليم السلاح الموجود في مخازنها، فرفضت في البداية لكن عندما اقتنعت بأن الكتيبة الجديدة ستخدم امن المنطقة، وبأن «من الافضل تجميع السلاح واستخدامه في المكان الصحيح بدلا من ان يموت كل شخص وبندقيته في بيته»، سلمت الكتيبة الجديدة السلاح. وكانت رحوفوت اول مستعمرة فعلت ذلك. «بأسى» ــ روى مؤرخ المستعمرة ــ «فارقت المستعمرة سلاحها ولم يبق لديها سوى بندقية صيد للحراسة. سلمت: ٣٠٠ بندقية، و ٤ مدافع هاون، و ٤٩ ستنا، و ٤ رشيشات، و ٢٠٠,٠٠٠ رصاصة، و ٥٠٠ قنبلة يدوية، و ٥٠٠ قنبلة تطلق من جهاز مركب على بندقية، و ٢٥٠ قذيفة هاون».

ان تسليم هذا السلاح، الذي جمع طوال أعوام باخلاص ومحبة وتم الحفاظ عليه

بحرص، يرمز ـ ربما اكثر من اي شيء آخر ـ الى انتهاء حقبة «الهاغاناه» وبداية تحول وحداتها الى وحدات جيش نظامي.

لواء «ألكسندروني»

انشىء لواء «ألكسندروني» (على اسم جدول ألكسندر الذي يقطع مرحافا) في المنطقة الوسطى لـ «الهاغاناه» الممتدة من الكرمل حتى مشارف تل ابيب.

وقد اقام دان إبشتاين (ايبن)، الضابط السابق في الفرقة اليهودية، الذي عين قائدا للواء، مقر قيادته في غفعات حاييم بتاريخ ١٩٤٧/١٢/١. وعين معه قادة الكتائب الثلاث 1500 الاولى للواء. «كُلِّفتُ» ـ روى إبشتاين ـ «تشكيل لواء ميدان يضم قيادة وأربع كتائب. وكان عليّ، في الوقت نفسه، ان اشرف على استعدادات كل سكان المنطقة، وتوسيع قوة الحراسة، وتدريبها، واعداد المدن والمستعمرات لمواجهة هجمات من البر والبحر والجو، وتأمين سلامة المنشآت وطرق المواصلات الحيوية ـ وبعبارة موجزة: الاستعداد للحرب».

اتخذ اللواء الجاري انشاؤه طابعا ميليشيائيا بحسب الظاهر، وكان مرتبطا بالدفاع عن منطقة معينة فقط. لكن الدفاع عن هذه المنطقة كانت له اهمية حيوية بالنسبة الى المعركة برمتها، اذ كان يمر بها عمليا العمود الفقري للدولة المزمع اقامتها، وخصوصا طرق المواصلات الرئيسية وسكة الحديد والطرق التي تصل شمال البلد (الجليل وحيفا) بجنوبه (تل ابيب والشفيلا والنقب). وكانت هذه منطقة استيطان يهودي واضحة، يسكنها في ذلك الوقت نحو ١٠٠,٠٠٠ يهودي في مقابل ٥٠,٠٠٠ عربي تقريبا.

وانبرى إبشتاين لأداء المهمة بوعي كامل ان عليه ان ينظم اللواء وفقا لأصول الجيش النظامي وقواعده. «نتيجة خبرتنا في سنوات الحرب العالمية الثانية» ـ كتب ـ «كنا نعرف ان تدريب كتيبة لتصبح قادرة على تنفيذ مهمات قتالية بكفاءة، يتطلب ستة اشهر على الاقل. واننا من اجل ايصال لواء موسع الى مستوى تشكيل فعال فاننا بحاجة الى ثلاثة اشهر اخرى، شرط ان نتمكن من توفير عدد كبير من الضباط والرقباء من اصحاب تدريب وخبرة سابقين، ليشكلوا الاساس الذي نستطيع ان نبني القوة عليه». وبدأ إبشتاين بتشكيل القوة وفقا لمعايير قيادة لواء بريطاني، بفصائله وخدماته وأنظمته. وضاق به المكان في غفعات حاييم بسرعة فنقل قيادته الى مبنيين في نتانيا في حي بعيد قليلا عن وسط المدينة. لكن في الشهر الثالث لتشكيل اللواء نقلت القيادة الى معسكر مهجور من معسكرات الجيش البريطاني (معسكر دورا) بالقرب من نتانيا. وأقيمت في هذا المعسكر قاعدة لتدريب المجندين الجدد، تلقى فيها هؤلاء جميعا تدريبهم الاساسي، لمدة ثلاثة اسابيع، قبل ارسالهم الى كتائبهم. وقد دُهش أفراد «الهاغاناه»، الذين استدعوا الى الخدمة في معسكر القيادة، من الانظمة العسكرية المتبعة فيه. «كانت لأفراد القيادة هذه عادات غريبة» ـ روى احدهم في مذكراته ـ «كانوا يؤدون

التحية العسكرية ويلبسون الخاكي ويجرون تفقدا كل يوم، ويقف على أبوابهم جنود يتمنطقون بأحزمة بيض، شبان يعطون الانطباع بأنهم جنود... بريطانيون». وفي مقابل ذلك، فتن المجندون الجدد بـ «المعسكر النظيف الجميل، المرتب بصورة مثالية».

«ان مطلبنا ان نقيم في المرحلة الاولى قيادة لواء مشكلة من ١٥٠ شخصا (يشمل هذا العدد ايضا أفراد الوحدات التابعة للألوية)» ــ روى إبشتاين ــ «جوبه في البداية بموقف ينم عن الذهول والدهشة، اعقبته هزة كتف ورفض مطلق». لكن إبشتاين ناضل بعناد لتحقيق مخططه، وجند في قيادته عددا من الضباط الذين خدموا في الجيش البريطاني، ومن بينهم سمحا فيلنتس ــ من أفراد الفرقة اليهودية سابقا ــ الذي عين في منصب ضابط العمليات في اللواء. وقد اعتقد ان في امكان اللواء، اذا ساعد المركز [الهاغاناه] في اقامة معسكر للتدريب والاستيعاب، ان يصبح جاهزا للعمل في بداية ايار/مايو، «شرط ألا تعرقلنا عمليات العدو كثيرا».

وقد اقيمت في اطار لواء «ألكسندروني»، بناء على الخبرة المكتسبة في الفرقة اليهودية، مؤسسات وأجهزة استخدمت في فترة لاحقة نموذجا لباقي ألوية جيش الدفاع الاسرائيلي. وفي دورات الاتصال التي أجراها اللواء، انشئت وحدات اتصال قامت بمهمات حيوية في اثناء المعارك، وأعيرت لألوية اخرى. وأنشىء جهاز خدمات طبية، وجهاز تربية ومساعدة اجتماعية، ووحدة شرطة عسكرية. وأقامت دائرة المستودعات التابعة للواء قاعدة تموين على مستوى لواء، ووحدات نقل، وورشة حدادة على مستوى لواء، ووحدات معدات وتسليح. 1501
ولو كان الذين نظموا اللواء اعتمدوا فقط على الميزانية المقدمة لهم من هيئة الاركان، لما كانوا استطاعوا تحمل نفقات كل ذلك. انما لحسن حظهم رافقهم رجل «الهاغاناه» العتيق شلومو درور («انكل سام») من افيحايل، «صديق اللواء المخلص»، الذي استخدم نفوذه في المنطقة من اجل جمع الاموال لخدمة اللواء.

لكن امنية قائد اللواء بأن يتاح له تشكيل اللواء وتدريب أفراده، من دون ان تشوش عليه عمليات العدو، لم تتحقق. ان وحدات اللواء لم تكن معسكرة في جزيرة منعزلة او على بعد مئات الكيلومترات من الجبهة. وقد كُلِّفت، فور بدء الحرب، حماية الحد الشرقي لسهل الشارون العبري، واقامة خط دفاعي قوي مشكل من مواقع متواصلة قبالة جبال السامرة، وتنظيم قوة ضاربة متحركة في الوسط. وكانت هناك في منطقة عمل اللواء قرى عربية، شكلت هي ايضا خطرا امنيا. لكن العرب بدأوا بسرعة يهجرون المنطقة، التي كان التفوق العددي فيها منذ البداية لليهود. وعند قيام دولة اسرائيل لم يكن قد بقي في منطقة اللواء عرب تقريبا.

كما ان وجود البريطانيين في معسكراتهم، وخصوصا في منطقة كفار يونا ونتانيا، كان من المحتمل ان يشكل عاملا مشوشا، لكن منذ بداية تشكيل اللواء نمت علاقات سليمة بالقيادة البريطانية في الجليل: «ليس انهم لم يحاولوا عرقلة نشاطاتنا فحسب،» ــ كتب دان

إبشتاين ــ «بل عاملونا الى حد ما بتفهم واستعداد للمساعدة ايضا». ولم يتغير موقفهم من قوات «الهاغاناه» حتى بعد هجوم رجال الايتسل على قاعدة التموين التابعة للجيش في بارديس حانه بتاريخ ١٩٤٨/٤/٦ (انظر ص 1550)، الذي قتل فيه عدد من الجنود البريطانيين. لقد اجرى البريطانيون عمليات تفتيش وأقاموا حواجز في الطرق. وعندما كان يلقى القبض على أعداد من رجال الدفاع، كانوا يُتركون فورا حين تتضح هويتهم انهم اعضاء في «الهاغاناه»، وفي احيان كثيرة كان يعاد سلاحهم اليهم.

شرع في تنظيم الكتائب الثلاث الاولى للواء في الشهر الاول لحرب الاستقلال. وقد ضمت الكتيبة ٣١، بقيادة شموئيل روبورت (ادمون)، شبان الخضيرة ونتانيا والشارون؛ وضمت الكتيبة ٣٢، بقيادة تسفي غرمان، الشبان في بيتح تكفا والشارون الجنوبي (وحتى رامات هكوفيش)؛ بينما ضمت الكتيبة ٣٣، بقيادة بن تسيون بريدل (زيف)، الشبان في غوش دان. وقد واصلت هذه الكتائب نشاطها عمليا وفقا لتقاليد قوة الميدان التابعة لـ «الهاغاناه» حتى ايار/مايو ١٩٤٨ على الاقل. اذ عملت كل كتيبة بمفردها، وحصلت الكتائب على اسلحتها الاولى من السلاح الموجود في مستودعات الاقضية المعسكرة فيها.

وكان اللواء يضم، في ١٩٤٨/٢/١٥، ١٨ فصيلة مشاة وسرية مساندة، وعدد أفراده نحو ١٠٠٠، لكن السلاح الموجود في حيازته كان يكفي لتسليح ٦٠٠ جندي تقريبا. لقد كان لديه نحو ٢٥٠ بندقية فقط، ونحو ٣٠٠ رشيش (في الاساس ستنات)، و ٥ مدافع هاون عيار ٣ بوصات، وعدة مئات من القذائف الخاصة بها، و ٣٦ مدفع هاون عيار ٢ بوصة، و ٨ مدافع رشاشة «شفارتزلوزه»، و ٣٠ مدفع رشاش «برن». وبلغ عدد القنابل اليدوية ٢٠٧٨ قنبلة.

وبعد ان اكتمل ملاك الكتائب الثلاث الاولى، بوشر تشكيل الكتيبة الرابعة (الكتيبة ٣٤)، بقيادة تنحوم أريئيلي، التي كانت كتيبة السلاح المساند، وخرجت وحداتها لمساعدة وحدات من الكتائب الاخرى وشاركتها في تدريباتها.

ومن اجل الدفاع عن المستعمرات واعدادها للمعركة، تقرر تشكيل اربع كتائب تابعة لقوة الحراسة في اقضية الجليل الاربعة. وكانت هذه الكتائب خاضعة لقيادة منفصلة، بقيادة بنيامين تسور. ودعي الى التطوع في هذه الكتائب السكان الاكثر رشدا، واجتازوا دورات تدريب قصيرة ومكثفة.

1502 وأُلقي على عاتق قيادة الاقليم المهمة الثقيلة المتمثلة في ادارة الجليل من الناحية المدنية. وبمقدار خروج البريطانيين من المنطقة بمقدار ما كُلِّفت مهمات خارجة عن نطاق مهماتها العسكرية الضيقة. «لقد كان الاقليم» ــ كتب بنيامين تسور ــ «هو الذي قرر عدد وسائط النقل اللازمة لنقل المؤونة الى المدن، وتلك اللازمة لأغراض بناء التحصينات. وهو الذي قرر عدد الجرارات اللازمة لأغراض الحراثة، وتلك اللازمة لبناء التحصينات». وقامت وحدات قوة الحراسة في وقت لاحق بدور حيوي في حراسة المواقع على الجبهة الشرقية في

الشارون، بعد ان ارسلت الكتائب المقاتلة الى الجبهات الاكثر سخونة وخرجت من منطقة الشارون.

في عملية انتقامية جرت في اعقاب الهجوم العربي على قافلة بن شيمن (انظر ص 1369) صفّي باص عربي في طريق مغدال تسيدك ـ بيت نبالا. وتكرر مثل هذه العملية من وقت الى آخر، لكن لم يكن في وسع هذه العمليات ان تحول دون سيطرة العرب على الطريق الشرقي في منطقة الشارون. واضطر اليهود ايضا الى ان يخلوا، في ١٩٤٨/٣/٥، مقالع الحجارة في مغدال تسيدك لوجودها في قلب المنطقة العربية. لكن احتلال مركز شرطة كركور ومعسكر عين شيمر، في ١٩٤٨/٤/٢٥، قطع الاتصال بين الطريق الشرقي وطريق وادي عارة، وبذلك فقدت قيمتها بالنسبة الى القوات العربية كطريق مواصلات اساسي.

وفي ١٩٤٨/١/١٨، اغارت احدى سرايا الكتيبة الثالثة على تل يقع شمالي شرقي سلمة، كان العرب يمطرون منه كيبوتس إفعل وضواحي رامات غان بالنيران، ونسفت البيوت الموجودة فيه. وبعد ان هاجم جنود «جيش الانقاذ» مغدال خرجت سرية اللواء، في فجر يوم ١٩٤٨/٣/٥، وهاجمت قرية بيرعدس، التي سارع سكانها الى اخلائها. وفي بداية نيسان/ابريل، كُلِّفت سريتا اللواء ان تحتلا، بالتعاون مع وحدات قوة الحراسة، المعسكر الحربي الكبير في تل ليتفنسكي (تل هاشومير). وشاركت سرية واحدة من الكتيبة ٣٣ في عملية «نحشون»، عملية الاحتلال الاولى التي قامت بها «الهاغاناه» (اضطرت السريتان الاخريان في الكتيبة الى تقديم كل عتادهما، «بما في ذلك القبعات»، الى السرية المشاركة لاستكمال تجهيزاتها كما يليق بوحدة خارجة الى المعركة). وأُرسل ايضا ٤٠ شخصا من رجال الاتصال، كانوا قد انهوا توا تعليمهم، لادارة شبكة الاتصال العامة خلال العملية. وشاركت سرية من الكتيبة ٣١ في معارك مشمار هعيمك (انظر ص 1564). وقد بقيت هذه السرية في اطار البلماح وشاركت في المعارك التي دارت بالقرب من زرعين وفي فتح الطريق الى صفد المحاصرة وعادت الى لوائها في ربيع سنة ١٩٤٨. وفي نهاية نيسان/ابريل، عين دان إبشتاين قائدا لعملية «حامتس» التي كان هدفها احتلال يافا (انظر ص 1573)، وشارك فيها مع لوائه ايضا لواءا «كرياتي» و «غفعاتي».

وفي الايام الاخيرة قبل الغزو الذي قامت به الدول العربية، خرج لواء «ألكسندروني» لاحتلال عدة قرى في مدخل وادي عاره، بينها قرية كفرقرع. كما بدأت ايضا جهود لتحسين المواقع على الخط الشرقي لمستعمرات الشارون. وأُرسلت وحدات دوريات الى مؤخرة العدو لنسف جسور ولغم طرق. وفي ٥/١٣، شن هجوم على قرية كفرسابا العربية. وبعد احتلال القرية بنجاح، جرت في اليوم نفسه محاولة لاقتحام الطيرة المجاورة، لكن هذا الهجوم فشل، والسبب الاساسي في هذا الفشل كان عدم توفر معلومات دقيقة عن نظام العدو الدفاعي في القرية (انظر ص 1585).

وعند وقوع الغزو العربي كان هناك في لواء «ألكسندروني» اربع كتائب لم تستكمل تماما ملاكها من حيث الطاقة البشرية والعتاد. «لم نستطع تزويد كل جندي بسلاحه الشخصي» ـ كتب دان إبشتاين ـ «وحتى السلاح المساند لم يكن كافيا لحاجاتنا». وعلى الرغم من ذلك، فقد تقرر انشاء اطار لكتيبة خامسة (الكتيبة ٣٥)، بقيادة هيلل بابرمان من رجال الفرقة اليهودية سابقا. وتمركزت هذه الكتيبة في معسكر سلاح الطيران البريطاني سابقا في كفار سيركين. وعسكرت الكتيبة ٣٢ في منطقة هيرتسليا ـ كفر سابا، والكتيبة ٣٣ في غوش دان. وكانت وحدات الكتيبة ٣٤ موزعة كوحدات نيران مساندة بين باقي الكتائب، 1503 بينما وضعت الكتيبة ٣١ في خط مواجه لطولكرم. وكان تعداد اللواء كله ٣٥٨٨ شخصا.

استعد لواء «ألكسندروني»، وهو منتشر على هذا النحو، لمواجهة الغزو العربي في جبهة كانت، على ما يبدو، احدى الجبهات الخطرة والأهم فيما لو حاول العرب اختراقها في اتجاه البحر الابيض المتوسط. لكن اتضح في الاشهر التالية ان الجيوش العربية لا تنوي الهجوم من هذه الجبهة، وحكم على رجال «ألكسندروني» البقاء في حالة بطالة نسبية، وتوقعوا ان يتم استدعاؤهم لينشطوا على جبهات اخرى.

لواء «غولاني»

كان اللواء الثالث، الذي اتخذ القرار بانشائه في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، هو «لواء الشمال» المشكل من خمس كتائب. وهو الذي كان عليه ان يعمل في الجليل الشمالي وفي منطقة حيفا. وقد أُطلق على هذا اللواء اسم «لبنانوني»، لكن المهمات التي كانت تجابه «الهاغاناه» في هاتين المنطقتين كانت مختلفة الى حد اثار، بصورة طبيعية، ضرورة الفصل بين القوات العاملة فيهما. وقد شكلت الوحدات التي نشطت في حيفا ومحيطها الاساس لانشاء لواء «كرملي». وفي الجليل الاعلى، الشرقي والغربي، نشطت كتائب من البلماح، وفي انحاء الجليل الاسفل والسهل بدأ يتبلور لواء «غولاني».

وقد شمل لواء «غولاني» وحدات قوة الميدان الموجودة في منطقته. وكانت هذه منطقة ريفية في الاساس (باستثناء طبريا والعفولة اللتين كانتا بلدتين)، وكان سكانها البالغون جميعهم تقريبا اعضاء في «الهاغاناه» او من انصارها. واستمد اللواء الطاقة البشرية التي شكلت النواة والاساس لنموه من بين فئات الاعمار الشابة في هذه المنطقة.

وقد نما اللواء من القاعدة الى القمة؛ في البداية تطورت سرايا محلية الى كتائب، كانت بدورها مرتبطة بمناطقها. وفي ١٩٤٨/٢/٢٢، تقرر الفصل بين هذه الكتائب والكتائب التي قاتلت في حيفا، وتسميتها باسم «لواء غولاني». وكانت هذه الكتائب هي:
أ ـ كتيبة «براك» (حتى شباط/فبراير: كتيبة «افيغدور»)، بقيادة أبراهام يفيه، وفيها بعد دافيد برادكين ويتسحاق باروشي. وقد شكلت هذه الكتيبة من أفراد قوة الميدان في غور الاردن

والجليل الاسفل؛ ب ــ كتيبة «درور»، بقيادة يعقوب كروبند (درور)، التي جندت في سهل بزراعيل [مرج ابن عامر] وسهل بيت شان؛ ج ــ كتيبة «آلون»، وهي كتيبة قوة الميدان الحيفاوية التي نقلت الى الجليل الاعلى.

وفي شباط/فبراير ١٩٤٨، عين اوري يفيه قائدا للجليل الاعلى الشرقي، وكان خاضعا من الناحية الادارية لقيادة لواء «غولاني»، لكنه كان مستقلا من الناحية العمليانية. ووضعت بأمرته الكتيبة الثالثة التابعة للبلماح، كتيبة «آلون» المذكورة اعلاه، وأفراد المستعمرات. وجند هو أفرادا من المستعمرات القديمة لتعزيز المستعمرات المعزولة والسيطرة على مواقع عسكرية.

وكان مقر قيادة اللواء في يفنيئيل، وترأسها موشيه مونتغ (مان)، القائد السابق للجليل الشمالي. وكانت اغلبية اعضاء القيادة من خريجي وحدات قوة الميدان في المرج [مرج ابن عامر] والجليل. وفي الايام الاولى، عسكرت القيادة في بيت الشعب الخاص بالمستعمرة، ونام اعضاؤها في بيوت المزارعين وتناولوا طعامهم الى موائدهم. ولمس نقص كبير في الاشخاص الملائمين لشغل مناصب قيادة اللواء، ونقص في الخبرة القتالية.

في الفترة السابقة لانشاء اللواء، اي حتى نهاية شباط/فبراير، لم تخرج نشاطات الوحدات عن نطاق النشاطات المعتادة لـ «الهاغاناه»، على غرار أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩. وقد تمثلت هذه النشاطات في «استخدام قوات محلية صغيرة لضمان سلامة حركة المواصلات والمستعمرات، وللقيام بعمليات انتقامية محلية» («ايلان وشيلح»). وتولى تنفيذ معظم هذه النشاطات خفراء «شرطة المستعمرات العبرية»، الذين ضم اليهم عدد من رجال المستعمرات المعنية. وكان الاشخاص يقيمون في منازلهم، و«يرتدون ملابسهم الخاصة، ويعيلون انفسهم»، ويستدعون الى التدريبات والقيام بالنشاطات بحسب الحاجة ووفقا لكمية السلاح القليلة الموضوعة في تصرف قادة الكتائب. «في هذه المرحلة» ــ كتب يتسحاق باروشي، قائد كتيبة «براك» ــ «شكلت الكتيبة اطارا منظما فقط، مشجعا ومبادرا، من خلال استغلال الاطر 1504 القائمة: الخفراء، والدوريات المقاتلة، وما شابه ذلك. ولم يكن عدد الاشخاص المجندين في الكتيبة في تلك الفترة ملائما لقوتها المفترضة. وكان كل مستوطن في الغور وفي مستعمرات الجليل الاسفل عرضة لأن يستدعى فجأة من عمله الى اطار وحدات الكتيبة، لعملية قد تستمر يوما او يومين او اكثر من ذلك». وعند تأسيس اللواء، «لم تكن هناك كتيبة تملك اكثر من ٤٥ بندقية، و ٦ او ٧ مدافع رشاشة، وعددا قليلا من الرشيشات، و ٤ قطع سلاح مساند (مدافع هاون عيار ٣ بوصات، ومدافع رشاشة متوسطة)» (غولان). «في كل مرة نشأت فيها ضرورة لعملية واسعة النطاق، كان لا بد من جمع الاسلحة من المستعمرات، وخصوصا من مستعمرات المؤخرة التي كان وضعها الامني جيدا نسبيا» («ايلان وشيلح»). وكان التجديد الرئيسي الذي حدث مع نشوب الحرب هو انتقال القيادة في كل منطقة الى قائد كتيبة في قوة الميدان، أُعطي منذ ذلك الوقت فصاعدا صلاحية تجميع السلاح في وقت الضرورة. «لكن

هذا التجميع كان موقتا، وكان لا بد قبل كل عملية من توسط وجهود اقناع من جديد للحصول على السلاح المطلوب» («ايلان وشيلح»). وبما ان السلطات البريطانية كانت لا تزال في تلك الفترة تصادر السلاح غير المرخص به، فان القادة حاولوا قدر الامكان استخدام سلاح الخفراء المرخص به.

لقد كان المصدر الفعلي الوحيد لزيادة تسليح اللواء في شتاء سنة ١٩٤٨ هو السلاح المخزون في مستودعات المستعمرات. لكن هذه المستعمرات، على الرغم من الضغط الذي مارسته القيادة العليا عليها، لم تتخل عن اسلحتها بسهولة. «لم تكن هذه المستعمرة او تلك دائما ــ ميالة الى الموافقة على اخراج سلاحها خارج المنطقة، وهي تعيش في ظل كابوس احتمال وقوع هجوم خاطف عليها، وتساورها الشكوك فيما اذا كانت القوة المجمعة ستنجح في الاسراع الى نجدتها في الوقت الملائم» (ن. غولان). «اذكر» ــ روى قائد كتيبة «درور»، يعقوب درور ــ «كيف اضعنا وقتا ثمينا في اثناء ارسال نجـدة الى مشمـار هعيمك، التي كانت تتعرض لهجوم، بسبب النقص في الاعتدة. لقد وصل الافراد حاملين رشيشات بلا مخازن رصاص، وبنادق من دون رصاص، وقنابل يدوية فاسدة».

مع انشاء اللواء، شُرع في تحويل الكتائب الى وحدات ذات طابع جيش نظامي. انشئت بقيادة أبراهام يفيه الكتيبة الرابعة (كتيبة «غدعون»)، من أفراد سهل يزراعيل [مرج ابن عامر] الشرقي وسهل بيت شان، الذين خدموا سابقا في كتيبة «درور». وكُلِّفت الكتيبة الجديدة «تطهير وحماية المرج الشرقي وبيت شان وجوار وادي البيره ومشارف جنين» («ايلان وشيلح»). وبدأ المجندون يصلون من المدن. وجندت للخدمة الكاملة وحدات المستعمرات. ونجمت مشكلات صعبة متعلقة بالسكن وتوفير الامدادات والاغذية. واضطرت قيادة اللواء الى مصادرة غرف وأبنية عامة في المستعمرات المختلفة. وتناول المجنـدون طعامهم في الكيبوتسات في قاعات الطعام المحلية، واضطروا في المستعمرات الاخرى الى إعداد طعامهم بأنفسهم. وكان «مستوى الغذاء في الوحدات مرتبطا الى حد كبير بالكفاءة الاقتصادية لمزوديه» (المصدر السابق). وكان وضع ألبسة الجنود سيئا: كان هناك نقص في الاحذية، وفي الجليل الاعلى كان هناك نقص في البطانيات. ولم يكن لدى اللواء سيارات خاصة به، وكان نقل الافراد يتم في الغالب بباصات عامة او بشاحنات المستعمرات.

وأوكلت الى قيادة اللواء المسؤولية عن قوة الحراسة في المنطقة. وكانت قيادات المناطق ملزمة باقامة تحصينات حول مستعمراتها. وقد استنفدت اقامة كتائب اللواء كل القوى القيادية المحلية. «كانت هناك مستعمرات عديدة» ــ روى يحزقيئيل بانيت، نائب قائد اللواء لشؤون الاقضية (الحراسة) ــ «لم يتبق فيها تقريبا الحد الادنى من الكادر القيادي الضروري للدفاع عن النقطة» (المصدر السابق). وعندما اتضح ان الكتائب والسرايا ستكون بعيدة عن اماكنها وستستدعى الى العمل في اي مكان تتطلب الظروف عملها فيه في المجال الاقليمي التابع للواء، شرع في انشاء وحدات «قوة حراسة مجندة»، كان الهدف منها في البداية ان

تشكل احتياطيا لنجدة المستعمرات الصغيرة. وتطورت هذه الوحدات بمرور الوقت الى وحدات «قوة ميدان على مستوى القضاء»، اخذت على عاتقها الحلول محل الكتائب الميدانية في المحافظة على المواقع العسكرية وتحريرها للقيام بالتدريبات والعمليات القتالية. وبذلك امكن تحويل كتائب اللواء الى كتائب عسكرية قادرة على التحرك الى اي مكان في مجالها الاقليمي، وحتى في البلد برمته، من دون ان يؤدي تحركها الى زعزعة الامن في المنطقة التي تغادرها» (ي. بانيت). 1505

وفي ربيع سنة ١٩٤٨ (نيسان/ابريل ــ ايار/مايو) تحسن وضع اللواء قليلا. غنم في الانتصارات الاولى اسلحة جديدة. وتسلم في هذه الفترة، مع جلاء البريطانيين عن معسكرات الجيش ومخافر الشرطة، اماكن سكن جيدة، ووصلت اليه سيارات كثيرة غنمت من العدو. وأُنشئت في كفار يلاديم ورشة حدادة تابعة للواء.

وبدأ اللواء يشن غارات على قرى عربية كانت تستخدم قواعد للعصابات. وشاركت وحداته في المعركة على مشمار هعيمك، وبمساعدة البلماح احتلت طبريا (انظر ص 1568). وفي بداية ايار/مايو، بدأ اللواء، الذي لم يكن مستعدا بعد كما ينبغي من الناحية التنظيمية ومن ناحية تدريب أفراده، بعمليات احتلال وتطهير مجاله الداخلي وفقا لـ «خطة د». واحتلت خلال هذه العمليات قرية الشجرة العربية وطرد، بعد «فشل مرير في المرحلة الاولى»، عرب الصبيح (انظر ص 1419)، واحتلت قرى المغاربة في قلب الجليل الاسفل اليهودي. وعشية الغزو الذي قامت به الجيوش العربية احتلت كتيبة «غدعون» بيت شان، وطهرت سهل بيت شان كله من البدو.

وكان وضع اللواء عشية الغزو الذي قامت به الجيوش العربية بعيدا عن كونه مرضيا. لقد بذل حقا في الاسابيع السابقة لذلك جهد تنظيمي كبير. ووصل عدد الجنود الى ٣٥٧٢ جنديا. «في اثناء المعارك استوعبت الكتائب أعدادا جديدة، دربتها قليلا وزجتها فورا في المعركة» (المصدر السابق). وغنم عتاد اضافي، «وسادت روحية طيبة ومتلاحمة الوحدات التي كانت لا تزال بعيدة عن صورة وحدات عسكرية منظمة ومدربة » (المصدر السابق). لكن ــ ذكر ناحوم شبيغل (غولان)، نائب قائد اللواء آنذاك ــ «كانت الاعتدة الاضافية والتحسينات الجزئية اقل كثيرا من ان تحول اللواء الى وحدة قادرة على مجابهة جيوش نظامية في المستقبل. وينطبق ذلك ــ ربما بحدة اكثر ــ على وضع المناطق التي انهمكت في إعداد نفسها لمواجهة الغزو بوسائل محدودة اكثر».

ألوية المدن

كان تطور ألوية المدن الثلاثة: «عتسيوني» و «كرياتي» و «كرملي»، مختلفا جدا عن تطور الالوية الاخرى التي عملت في انحاء البلد. فبما ان قواتها الرئيسية كانت تلازم المدن في الاشهر

الاولى للحرب، وكُلِّفت العمل في ظل الشروط نفسها التي عملت ضمنها «الهاغاناه». طوال تاريخها، فانها لم تتطور الى تشكيلات عسكرية حقيقية، بل استمرت في العمل وفقا لأساليب الميليشيا وأطرها. لقد كان الافراد العاملون بالقرب من منازلهم يرتدون ملابسهم الخاصة، ويعودون للأكل والنوم في بيوتهم، او كانوا يتناولون طعامهم في مطعم مجاور. وجرى القتال في اطار وحدات صغيرة لم تتجاوز الفصيلة الواحدة. وأُلزمت المدن بفرز خيرة رجالها للألوية الاقليمية. وهكذا قدمت تل ابيب خيرة وحدات قوة الميدان الخاصة بها الى لواء «غفعاتي»، وأرسلت حيفا كتيبة قوة الميدان الخاصة بها الى الجليل الاعلى.

ولم يُتح لهذه الالوية ان تتطور الى تشكيلات عسكرية إلا بعد ان انهت مهماتها المتعلقة بالمدن، وحدث ذلك بالنسبة الى لواءين من الثلاثة: لواء «كرملي» بعد احتلال حيفا، ولواء «كرياتي» بعد احتلال يافا.

وقد ارتبط تطور ألوية المدن بصورة وثيقة بمصير المدن التي نشطت فيها (انظر الفصلين التاسع والستين، والسبعين). ان لواء «عتسيوني» لم ينه مهمته في القدس حتى ١٩٤٨/٥/١٤، ولم يصل عمليا الى مكانة لواء عسكري. أما لواء «كرملي»، الذي نجح في [1507*] احتلال وضع متفوق في حيفا في الاشهر الاولى من الحرب وسيطر على كل المدينة في ١٩٤٨/٤/٢٢، فقد تفرغ للعمل في الجليل وتمكن – حتى غزو الجيوش العربية – من تنفيذ عملية تحرير الجليل الاعلى الغربي (عملية «بن عامي» – انظر ص 1585). أما لواء «كرياتي» فقد انهى تطويق يافا في عملية «حامتس» (انظر ص 1573)، ومع ان المدينة استسلمت رسميا في ٥/١٣، فان اللواء بدأ يستعد للتحول الى لواء عسكري بعد حسم مصير يافا مباشرة.

قبل فترة قصيرة من اعلان قيام الدولة، شرع في تنظيم وحدات سلاح النساء. في ٥/٥، استدعيت ١٥ ضابطة من سلاح النساء الى دورة تحضيرية في حي بوروخوف. وبعد دورة سريعة استمرت عشرة ايام، افتتحت في ٥/١٦ قاعدة التدريب الاولى لـ ٥٠٠ مجندة شابة في معسكر تل ليتفنسكي. «جرت تدريبات الصباح لهن على صوت قصف الطائرات في الفجر. وأنشدت المجندات نشيد «هاتكفا» في حفل أداء القَسَم الاول في ساحة مكشوفة بلا ملاجىء على صوت صفارة انذار في المساء. وبعد ان انتهين، انبطحن على الارض» (براخا حباس).

عند انتهاء فترة الحكم البريطاني، كانت هناك في المعركة تسعة ألوية مشاة تابعة لـ «الهاغاناه»، بينها ألوية البلماح الثلاثة التي صهرتها معارك طاحنة وقدمت ضحايا كثيرة واكتسبت خبرة كبيرة، وبينها ألوية المناطق الثلاثة: «غفعاتي» و «ألكسندروني» و «غولاني»، التي شكلت اطرها وكانت مستعدة، نوعا ما، للدخول في المعارك الكبيرة التي كانت وشيكة

---

* الصفحة 1506 في الاصل تحتوي على خريطة تمركز ألوية «الهاغاناه» عشية قيام الدولة. (المترجم)

الوقوع مع غزو جيوش الدول العربية، وبينها ألوية المدن الثلاثة، التي لم تتح لها فترة حرب المدن الطويلة والمنهكة وقتا كافيا للانتظام كألوية سلاح مشاة نظامية. وعلى الرغم من كل ذلك كانت هذه الالوية التسعة هي المساهمة الكبرى التي قدمتها «الهاغاناه» لدولة اسرائيل، المولودة لتوها.

الخدمات الطبية في بداية حرب الاستقلال

في خريف سنة ١٩٤٧، ازداد لدى القيادة العليا الوعي بأن جهاز الخدمات الطبية ليس مهيأ لمعالجة المشكلات التي ستنشأ اذا اندلعت في البلد اعمال عدائية على نطاق واسع. كما ارتأت «الهاغاناه» ان من الضروري دراسة الترتيبات السائدة في النظام الطبي العام.

وكلف رئيس القيادة القطرية الطبيب هاري هيلر من مستشفى بايلنسون، اجراء دراسة جذرية. وكانت النتائج التي توصل اليها الطبيب هيلر قاتمة جدا؛ اتضح انه ينبغي للقيادة العليا ان تعمل بسرعة، اذ ان المجلس القومي، الذي كان يتولى معالجة المشكلات الطبية للييشوف، لم يكن لديه صلاحيات ولا وسائل، وبالتالي كان يخشى ان تتضرر معالجة هذا الموضوع الحيوي بسبب المنافسة بين المؤسستين الطبيتين الرئيسيتين في الييشوف: «كوبات حوليم» و«هداسا». وعرض الموضوع بواسطة رئيس القيادة القطرية على د. بن ــ غوريون، وتقرر ان يجري توسيع جهاز الخدمات الطبية على الفور، وأن توضع جميع المؤسسات الطبية بالبلد في خدمته.

وبناء على اقتراح الطبيب هيلر عين الطبيب حاييم شيبر رئيسا لجهاز الخدمات الطبية، وسافر الطبيب هيلر الى الولايات المتحدة لشراء المعدات الطبية اللازمة.

خدم الطبيب شيبر (شيبا)، من اطباء مستشفى بايلنسون، في الاعوام ١٩٤٢ ــ ١٩٤٦ في سلاح الخدمات الطبية البريطاني واكتسب خبرة بادارة الاعمال الطبية في اطار جيش نظامي. وعمل طبيبا في معسكرات الاعتقال في رفح بعد «السبت الاسود» وتطوع، بناء على طلب هيئة اركان البلماح، لادارة خدمات المساعدة الطبية في معسكرات المهاجرين غير الشرعيين في قبرص.

وكان احد النشاطات الاولى لجهاز الخدمات الطبية مع اندلاع المعارك، اقامة ثلاثة مستشفيات في المناطق البعيدة عن مدن البلد الكبرى، التي كان من المحتمل ان تعزل خلال المعارك عن المراكز الطبية. وقد اقيمت هذه المستشفيات في الجليل الاعلى (في كفار غلعادي)، وفي الجليل الغربي (في نهاريا)، وفي النقب (في نيرعام). واشتمل كل مستشفى على ٢٥ سريرا مع غرفة عمليات وغرفة اشعة. وقد اتى أوائل أفراد الاطقم الطبية، الاطباء والممرضين والممرضات، من بين المهاجرين غير الشرعيين القادمين من رومانيا، وانضم اليهم بعد ذلك متطوعون من خارج البلد من دول مختلفة، من بينهم: الطبيب ليونيل ملتسر من جنوب افريقيا، الذي كان كبير الاطباء في جيش جنوب افريقيا في سنوات الحرب

1508

العالمية الثانية؛ والطبيب مايكلزون، الخبير بأمراض العيون، من مسرحي الجيش البريطاني؛ والطبيب بن، «احد امهر الاختصاصيين بالجراحة التجميلية في الجيش البريطاني» (شيبا). وينوه الطبيب شيبا في مذكراته خصوصا بمساهمة متطوعي جنوب افريقيا في تطوير سلاح الخدمات الطبية.

واستمر في العمل، في اطار البلماح، الطبيب درايز (درور)، الذي انشأ كلية للممرضين بدأت نشاطها في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧ في رامات هكوفيش، ونقلت بعد ذلك الى معسكر دورا (بالقرب من نتانيا). «نقلنا الى هناك عددا من الدورات القطرية» ــ روى الطبيب درور في شهادته ــ «تدرب فيها بصورة رئيسية رجال البلماح، وبمقدار ما استطعنا ايضا اشخاص من وحدات اخرى».

ومع تشكيل الالوية الجديدة والكتائب عين فيها ايضا اطباء ألوية وأطباء كتائب. وكان التجديد الرئيسي في عمل جهاز الخدمات الطبية الاهتمام بتطوير اساليب العناية بالجرحى في ميدان المعركة. في «خطة (موقتة) لتنظيم الخدمات الطبية الميدانية»، التي ارسلت الى جميع قادة الجهاز، ذكرت العوامل المؤثرة في طريقة معالجة الجرحى في ميدان المعركة، وهي: ضرورة العمل في أجواء القتال، وضرورة نقل الجرحى بأقصر وقت ممكن وبأقل قدر من الاهتزاز الى اقرب قاعدة، وامكان انقطاع الاتصال بالقاعدة، واحتمال العمل في منطقة جبلية او متقطعة ذات طرق مواصلات صعبة، وما شابه ذلك.

وقد رافق الممرضون وحدات الجيش في اثناء عملها، وضمدوا الجرحى تحت نيران العدو وقذائفه. وسقط كثيرون منهم خلال قيامهم بواجبهم. وتظهر في القائمة التي قدمها لواء «عتسيوني» فقط اسماء عشرة اطباء وممرضين سقطوا خلال معارك القدس وضواحيها في الاشهر الاولى للحرب.

ومع احتلال طبريا وصفد، افتتحت مستشفيات عسكرية موقتة في هاتين المدينتين. وبعد احتلال يافا حُول مستشفى «الدجاني» الى «مستشفى رقم ٤» التابع لجهاز الخدمات الطبية.

ومع انشاء جيش الدفاع الاسرائيلي تحول جهاز الخدمات الطبية الى سلاح الخدمات الطبية، وخلال فترة قصيرة وسع نشاطه بزيادة عدد الاسرّة المشرف عليها الى ٤٥٠٠ (ثلثها في المستشفى العسكري في تل ليتفنسكي، الذي غير اسمه الى تل هاشومير).

بداية تنظيم اسلحة جديدة: سلاح المدفعية

جنبا الى جنب مع انشاء ألوية سلاح المشاة، بدىء بانشاء اطر عسكرية جديدة، تطور معظمها من نوى صغيرة كانت قائمة داخل منظمة «الهاغاناه»: سلاح الاشارة، وسلاح النقل، وسلاح المدفعية، والسلاح المدرع، وسلاح البحرية، وسلاح الطيران.

منذ ان اتضح ان الدول العربية يحتمل ان تشارك عمليا في حرب العصابات المحلية ضد اليشوف، سواء بـ «متطوعين» اوعن طريق غزو، وجدت «الهاغاناه» نفسها مضطرة الى الحصول على اسلحة اثقل من التي كانت تستخدمها حتى ذلك الوقت في اشتباكات مع العدو، وقبل كل شيء: مدافع على مختلف أنواعها.

في سنوات الحرب العالمية خدم يهود كثيرون في اسلحة المدفعية التابعة لجيوش الحلفاء، وبينهم متطوعون من ارض ــ اسرائيل، تجمع معظمهم في نهاية ايام الحرب في وحدة المدفعية التابعة للفرقة اليهودية (انظر ص 783). لكن لم يكن لدى «الهاغاناه» في الاشهر الاولى للحرب اية مدافع. وفي ١٩٤٨/٣/١٢، اصدرت هيئة الاركان العامة أمرا بانشاء جهاز مدفعية، وتمت الخطوات الاولى لانشاء سلاح المدفعية بتكليف آرييه (ليوفا) غيزنبورغ تنظيم مسرّحي سلاح المدفعية البريطاني، وبايفاد دانييل كمحي الى اوروبا للايعاز الى رجال المشتريات العسكرية بشراء مدافع. وفي ١٩٤٨/٣/٢٩، اعلن رئيس القيادة القطرية انشاء «جهاز مدفعية» في اطار «الهاغاناه». وبعد ثلاثة اسابيع من ذلك، صدر امر آخر ورد فيه انه «في ضوء ضرورة الاسراع قدر الامكان في انشاء وحدات مدفعية، قررت القيادة العليا اعطاء هذا الجهاز، لعمله وحاجاته، اولوية على جميع الاجهزة والخدمات الاخرى». وفي ١٩٤٨/٤/٢٥، وصلت الى شاطىء تل ابيب المدافع العشرون الأولى، وهي مدافع مضادة للطائرات عيار ٢٠ ملم من انتاج «هسبانو سويتسا» مشتراة في سويسرا (انظر ص 1537).
وبما ان رجال المدفعية القدامى كانوا، في معظمهم، مجندين في سلاح المشاة ومن الصعب تقصي اثرهم، أُعلن اجتماع لرجال المدفعية في معسكر كريات مئير (تل ابيب). «في الموعد المقرر» ــ روى مئير ايلان في مذكراته ــ «ظهر كل من كانوا في اسلحة المدفعية، حتى في الجيش النمساوي ــ الهنغاري. ـــ اغلقنا المعسكر، وضعنا حراسا على البوابة، وأعلنا ان كل الموجودين مجندون اعتبارا من تلك اللحظة في سلاح المدفعية». وبعد استفسارات وغربلة سُجل نحو ٣٠٠ شخص من مسرحي الفرقة [اليهودية] والجيوش الاخرى في التشكيل العسكري الجديد. وفي ١٩٤٨/٥/٤، عين شموئيل ادمون، من قدامى قادة «الهاغاناه» وأحد الذين خدموا في سلاح المدفعية البريطاني، قائدا لسلاح المدفعية. وأُجريت دورة اولى لتخريج ضباط مدفعية في قاعدة السلاح في هيرتسليا. وشرع في انشاء اطر لكتائب: «كتيبة اولى مضادة للطائرات»، و«كتيبة اولى للهاونات الثقيلة». وجمع في كتيبة الهاونات عشرات من رجال المدفعية من مسرحي جيوش بولندا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي وبريطانيا، وكان قائدها الضابط السابق في الجيش الاحمر: شموئيل غورودتسكي (غودير).

وكانت القطع الاولى التي حصل عليها سلاح المدفعية هي مدافع الـ هـ. س. العشرون (او الـ «هسيم»، كما كان يدعوها الجنود)، التي قام بشرائها رجال المشتريات العسكرية في اوروبا وعدلت لتعمل كمدافع عادية. وشاركت اربعة منها في «عملية حامتس»، وساهمت في احتلال تل الريش (انظر ص 1574) في ١٩٤٨/٥/١٣؛ واستخدم

مدفعان في قصف قرية برير، التي هجرها سكانها مع القصف واحتلها سلاح المشاة من دون اية مقاومة. وشاركت اربعة مدافع في المعركة الاولى على اللطرون في ٥/١٢. ووقع احدها غنيمة في يد الاردنيين، بعد ان عطّله قائده.

وفي ٥/٦، وصلت الى ميناء تل ابيب خمسة مدافع جبلية فرنسية، عيار ٦٥ ملم (انظر ص 1538). ووصل مع المدافع ضابط فرنسي يهودي، ليون كويفمان، درب القادة على استخدامها. وكانت المدافع من «طراز ١٩١٢» ومحمولة على عجلات خشبية، وأخر الشبان سنة ميلادها مئة سنة الى الوراء وشرّفوها بتسميتها «نابوليونو تشيكيم». وبعد تدريب قصير وغير كاف، ارسل مدفعان في ٥/٢٠ الى جبهة غور الاردن، حيث أشركا في المعركة الاولى الحاسمة مع الجيش السوري. ومن الجدير بالذكر ان وحدات من المدفعية استخدمت مدفع هـ. س. ومدافع هاون في معركة غور الاردن منذ اليوم الاول، وأعطبت اربع مصفحات سورية، وقتل سبعة من رجال الوحدات بنيران العدو.

وهكذا ولد، في نيران المعارك، سلاح المدفعية التابع لـ «الهاغاناه» الذي تحول بسرعة الى نواة لسلاح مدفعية «جيش الدفاع الاسرائيلي».

1510

بداية سلاح المدرعات

عندما بدأت حرب التحرير استخدمت المصفحات القليلة لحماية القوافل، وكوسائل دفاع ضد نيران البنادق والقناصة. واتضحت بسرعة «ضرورة الاستعانة بالمدرعات لا لأغراض الحماية فحسب، وانما لأغراض القتال ايضا». وفي ١٩٤٨/٢/٢٤، اعلنت القيادة العليا قرارها بـ «انشاء جهاز في هيئة الاركان العامة يتولى معالجة كل ما له علاقة بانشاء وحدات مدرعة مقاتلة في الالوية». وعين يتسحاق ساديه رئيسا للجهاز الجديد، وتقرر ان تنشأ وحدات المركبات المدرعة من بين وحدات البلماح. وشرع في إعداد الاعتدة اللازمة للوحدات المدرعة. وقد ادى ظهور مصفحات ومدافع في وحدات العدو العربي الى ضرورة الاسراع في انشاء وحدات سلاح المدرعات. وفي ١٩٤٨/٥/١، ارسل الى جميع الالوية الامر الصادر عن رئيس القيادة القطرية فيما يتعلق بـ «انشاء وحدة مدرعة اولى على الفور». وأُمرت شعبة المستودعات بأن تسلم الوحدة كل المصفحات المجنزرة ومصفحات الدورية والمصفحات الاخرى التي في عهدتها. وأُوكلت مسؤولية تنظيم الوحدة وتدريبها الى شعبة التدريب. وكان على شعبة الطاقة البشرية ان تجد الجنود والقادة من بين رجال البلماح والغادناع، ومن بين الجنود الذين خدموا في سنوات الحرب العالمية الثانية في وحدات مدرعة، وفي الاساس في الجيش السوفياتي. ودمجت في هذه الوحدة ايضا مجموعة رجال ليحي. وفي مرحلة لاحقة وسعت الوحدة لتصبح اللواء الثامن بقيادة يتسحاق ساديه.

بداية سلاح البحرية

مع اندلاع حرب الاستقلال كانت بأمرة هيئة اركان «الهاغاناه» نواة صغيرة لقوة بحرية، هي السرية البحرية. ان سرية البلماح العاشرة، التابعة لكتيبة اللواء الرابعة، كانت تضم في صفوفها كل اولئك الذين كرسوا انفسهم لنشاطات بحرية. وقد اكتسبت هذه السرية خبرة كبيرة في سنوات الهجرة اللاشرعية. وقام أفرادها بمرافقة السفن وانـزال المهاجرين غير الشرعيين الى البر. ومن بين اعضائها نشأت «هحوليا» [المجموعة] ــ وحدة التدمير التي قامت بعدة عمليات جريئة ضد البريطانيين (انظر الفصل السادس والخمسين). لكن هذه الوحدة حُلت مع انتهاء الصراع في نهاية سنة ١٩٤٧، وأُلحق أفرادها بنشاطات الهجرة اللاشرعية او بمهمات اخرى في البلماح. وبعد قيام الدولة شكلوا نواة الكوماندو البحري التابع لسلاح البحرية. وفي بداية ايام الحرب كانت السرية البحرية تضم نحو ٣٧٠ شخصا، منهم عشرات من ضباط البحر. وكان كثيرون منهم خارج البلد في خدمة «مؤسسة الهجرة». وكان قائد السرية شموئيل يناي (ساميك). وفي ٥ شباط/فبراير ١٩٤٨، قدم يغئيل يادين الى القيادة العليا خطة بشأن «مهمات القوة البحرية الضاربة في المرحلة الراهنة»، ذكر فيها ان «المهمات المدرجة في جدول الاعمال في المستقبل القريب، تستوجب زيادة عدد القوة الضاربة البحرية وتوسيع تنظيمها»؛ أما مهماتها، فهي: أ ــ حماية الشواطىء؛ ب ــ حماية الموانىء؛ ج ــ العمل ضد حصار محتمل قد تفرضه الدول العربية؛ د ــ انزال من البحر ضد أهداف في عمق العدو داخل البلد وخارجه؛ هـ ــ حماية مواصلاتنا البحرية وفي الاساس الهجرة. واقترح توسيع السرية البحرية عن طريق انشاء وحدات في حيفا وتل ابيب والبحيرات الداخلية، وأن يوضع في تصرفها عـدد من سفن اسطول الهجـرة اللاشـرعية وزوارق «هبوعيل».

ووفقا لهذه الخطة امر رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي، في ١٩٤٨/٢/١٥، قادة الالوية بتشجيع التجند لوحدة البلماح البحرية. لكن د. بن ــ غوريون، الذي اعلن انه «ينبغي انشاء قوة بحرية خاصة، خاضعة مباشرة لهيئة الاركان ولجهاز القيادة العليا»، عارض الخطة المذكورة اعلاه. ودار نقاش دام شهرا بين القيادة العليا وهيئة اركان البلماح، التي طالبت بأن تبقى في نطاق البلماح قوة ضاربة بحرية، غير مرتبطة بسلاح البحرية الفعلي. وفي ١٩٤٨/٣/١٧، تقرر انشاء قوة بحرية مستقلة. وورد في الامر الصادر عن رئيس القيادة القطرية فيما يتعلق بذلك، بين امور اخرى، ما يلي:

1511

«قررت القيادة العليا انشاء قوة بحرية لمهمات الدفاع في البحر بكل أبعادها. ان القوة البحرية خاضعة مباشرة للقيادة العليا، وينبغي نقل الوحدات البحرية التابعة للبلماح من سلطة لواء البلماح الى سلطة هيئة الاركان العامة، لتشكل اساسا اوليا لبناء القوة». وعين «رئيسا للقوة البحرية» غرشون زاك.

لكن في الايام الاولى بالذات لانشاء السلاح الجديد، بدأت عملية «نحشون». ومع

باقي جنود الكتيبة الرابعة التابعة للبلماح، خرج نحو ٢٠٠ من أفراد السرية البحرية الى المعركة في جبال يهودا، حيث بقوا عدة اشهر للدفاع عن القدس. وبدأت قيادة القوة الجديدة العمل وفي تصرفها ١٣٠ من أفراد السرية البحرية؛ شرع في اقامة معسكرات وقواعد، وفي تجنيد قوة بشرية ملائمة من بين الاشخاص المرتبطين بأعمال البحر: بحارة، وصيادي اسماك، وعمال موانىء، وخريجي نوادي الرياضة البحرية، وخصوصا من اوساط اولئك الذين خدموا في الاسطول البريطاني خلال سنوات الحرب العالمية الثانية.

1512 واستخدم رجال سلاح البحرية في نشاطاتهم الاولى قوارب ذات محرك، وسفن صيد، وسفن شحن يملكها اليهود. وكانت السفن الاولى: «حانه سانش»، و«دروم افريكا»، و«دوري». «في اول نيسان/ابريل الماضي» ــ كتب احد أفراد سلاح البحرية ــ «كانت سفينة قيادة الاسطول العبري السرية السفينة الصغيرة التي اسمها «دروم افريكا» ــ ــ وكانت لدينا الجسارة لندعو «دروم افريكا» سفينة مسلحة بسبب وجود بضعة مدافع رشاشة من نوع براوننغ، وبضع بنادق، وعشرات عدة من السنتات على متنها».

وخلال تشكل سلاح البحرية، كُلِّف القيام بعمليات مختلفة. ففي ١٩٤٨/٤/١٠، بعد ان اوقف البريطانيون حركة السير على طريق حيفا ــ تل ابيب بالقرب من كفار فيتكين، في اثر هجوم الايتسل على مستودعات الجيش في بارديس حانه (انظر ص 1550)، نقل رجال السرية البحرية سلاحا وذخيرة ومواد متفجرة من تل ابيب الى شاطىء كريات حاييم. ومن هناك ارسل السلاح بالسيارات الى جبهة مشمار هعيمك. وتلقت مستعمرات الجليل الغربي، التي كانت معزولة عن باقي أجزاء البلد منذ آذار/مارس، الامدادات عن طريق البحر. وفي فجر يوم ١٩٤٨/٥/١٣، نقلت القوة البحرية ٤٥٠ مقاتلا مع سلاحهم وعتادهم من حيفا الى تسفي تسيون ونهاريا، في اطار عملية «بن عامي» (انظر ص 1585)، التي ادت الى تحرير الجليل الغربي. وفي اليوم التالي، نقل ٣٠٠ من النساء والاطفال، تم اجلاؤهم عن المنطقة، من نهاريا الى حيفا. ولم تنجح محاولة جرت وقتها للنزول على شاطىء لبنان، ونسف الجسر الواقع شمالي رأس الناقورة لمنع وصول الامدادات والنجدات الى القوات العربية في الجليل الغربي، بسبب المقاومة العنيفة التي أبداها المدافعون عن الجسر.

وفي الوقت نفسه، جهزت سفن لخدمة أغراض سلاح البحرية من بين سفن الهجرة اللاشرعية في ميناء حيفا. وكان قد تم الاستيلاء على السفن من قبل وحدات القوة البحرية، ايام الحكم البريطاني في المدينة. وبعد تحرير حيفا، انتقي عدد منها كان ملائما بشكل او بآخر لأغراض سلاح البحرية. وكانت اولاها «مدينات هيهوديم» [دولة اليهود]، كاسحة الجليد التي تبلغ حمولتها ٢٠٥٠ طنا، والتي كانت تعمل في الاسطول الاميركي في سنوات الحرب العالمية الثانية. وغير اسمها الى «ايلات أ ــ ١٦»، وكانت اول سفينة دخلت في الخدمة الفعلية في الاسطول الاسرائيلي في ١٩٤٨/٥/٢١. وبما ان الانكليز منعوا تجهيزها بالسلاح في ميناء حيفا، فقد ابحرت الى ميناء تل ابيب. وكانت سفينتان اخريان من سفن

الهجرة اللاشرعية الاخرى ــ الطرادان «ويغوود» و «هاغاناه» ــ في حالة متداعية اكثر من «ايلات»، ولم تعملا إلا في صيف سنة ١٩٤٨. وبعد مدة وجيزة جهزت للخدمة السفينتان «هتيكفا» و «معوز» («بن هيخت» سابقا). وكانت سفن الهجرة اللاشرعية هذه، طبعا، بطيئة وقديمة، لكنها كانت السفن الوحيدة التي عملت على الساحل الاسرائيلي طوال فترة حرب الاستقلال. وكان الذين قاموا بعملية الترميم من ذوي الاختصاص، ومعظمهم خدم في مراكز فنية في الاسطول البريطاني خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. و «شكلوا النواة الاولى لترسانة سلاح البحرية». وكانت هذه النواة هي التي تولت ترميم السفينة «ايلات»، بينما تولت ترميم السفينتين الاخريين ــ الطرادين ــ شركتان مدنيتان هما «كيرشتاين إت غرينشفون» و «هعوغين».

ان تركة «الهاغاناه» لسلاح بحرية دولة اسرائيل لم تكن كبيرة. لكن هذه الخطوة الاولى التي تمت في الاربعينات، لأمة ابتعدت آلاف الاعوام عن النشاط البحري، وانشاء سرية بحرية في البلماح، يشكلان قضية مهمة في تاريخ عودة اليهود الى البحر كبحارة وجنود. ان النواة التي بذرت في فترة العمل السري اعطت ثمارها في سنوات الدولة. وقد جاء قادة سلاح البحرية الاسرائيلي الثلاثة الاوائل، شموئيل تانكوس، ومردخاي ليمون، ويوحاي بن ــ نون، وكثير من ضباط هيئة اركان سلاح البحرية وقادة السفن، الى سلاح البحرية من صفوف النواة الصغيرة هذه.

1513

بداية «القوة الجوية»

مع قرار القيادة العليا بانشاء «شيروت هأفير» [القوة الجوية] في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧ (انظر ص 1293)، وضع الاساس لنشاط مكثف ومنهجي. وسرّعت الحرب خطوات تطور هذه القوة. وقد بدىء على الفور بتنظيم هيئة اركان «القوة الجوية»، وبانشاء دوائر للتخطيط والعمليات والتسليح والعتاد والامداد والرصد الجوي والرادار. وبناء على امر من رئيس القيادة القطرية صودرت طائرات شركة «افيرون» ومعداتها، ووضعت في تصرف «القوة الجوية».

وجاء الطيارون الاوائل من مصدرين: أ ــ طيارون تدربوا في كلية شركة «افيرون»، وبينهم طيارو دائرة الطيران التابعة للبلماح، وطيارو «القوة الجوية لأرض ــ اسرائيل» التابعون للايتسل؛ ب ــ طيارون تلقوا تدريبهم خلال الحرب العالمية الثانية في سلاح الجو البريطاني وفي اسلحة الجو التابعة للدول الحليفة. وقد قبل في «القوة الجوية» كل من كانت لديه خبرة بالطيران. وكان عددهم ٥٠ شخصا.

تشكل السرب الاول لسلاح الطيران وهو «السرب أ»، الذي كان في بدايته مكونا من ٩ طيارين، من طيارين لديهم خبرة ١٢٠ ساعة طيران على الاقل. وكان اربعة منهم من جنوب افريقيا، وواحد من طياري سلاح الجو السوفياتي سابقا.

«تم اختيار القادة الاوائل لـ (السرب أ) » ــ كتب افيغدور شاحان ــ «بطريقة ديمقراطية تماما: انتخب الطيارون الطيار ايلي فاينغرش من البلماح، بأغلبية الاصوات، قائدا لهم لمدة شهر فقط. ــ ــ وفي كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، عينت هيئة الاركان الطيار بوريس سنيور، أحد متطوعي جنوب افريقيا، قائدا للسرب. وعندما نقل سنيور بعد شهر تقريبا ليتولى قيادة «مطار دوف»، عين بدلا منه الطيار ميشا كينر (الآن ميخائيل كيرن)، الذي اكتسب خبرته القتالية من خدمته في سلاح الجو السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية». وفي شهر نيسان/ابريل، حدثت مجددا تغييرات في القادة، وعين قائدا للسرب مودي آلون من الذين خدموا في سلاح الجو البريطاني، لكن نتيجة قيامه بمناورة بالطائرة البحرية الوحيدة الموجودة آنذاك لدى «القوة» وتسببه بأضرار في الطائرة، اعفي من منصبه وعين بدلا عنه غدعون غوردون (ألروم)، الذي ظل قائدا لـ «السرب أ» الى ما بعد ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨.

ومن اجل تدريب الطيارين الشبان تدريبا اضافيا، افتتحت في كلية نشيطي «الهستدروت» بتل ابيب في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، قبل يومين من قرار الامم المتحدة بتقسيم ارض ــ اسرائيل، دورة لـ ٢٠ طيارا. لكن بما ان الطائرات القليلة الموجودة في حيازة «القوة الجوية» لم تكن كافية للعمليات والتدريبات في آن واحد، كان لا بد من ايقاف الدورة في آذار/مارس ١٩٤٨. واستمر اصحاب الخبرة في القيام بالطلعات العمليانية، وخدم الأخرون كـ «قاذفي قنابل» وقاموا بأعمال فنية.

وفي الوقت نفسه بدىء بتدريب طيارين في الولايات المتحدة؛ تعلم ١٥ شخصا من ابناء ارض ــ اسرائيل، كانوا موجودين في ذلك الوقت في كاليفورنيا، فن الطيران في كلية خاصة للطيارين. وقد انهى المتدربون تعليمهم في منتصف سنة ١٩٤٨، وأُلحقوا بسلاح الطيران فور وصولهم الى دولة اسرائيل. وفي نيسان/ابريل، ارسل ٢٥ شخصا للتدرب في كلية خاصة للطيارين بايطاليا. وكان بينهم اشخاص اختيروا من بين الذين خرجوا من معسكرات اللاجئين سابقا وبرزوا في اعمال «التهريب» وشراء السلاح. وفي بداية ايار/مايو، خرجت مجموعة طيارين للتدرب على قيادة طائرات «ميسرشميدت» في تشيكوسلوفاكيا.

وكان من المصادر المهمة لملء صفوف سلاح الطيران تجنيد متطوعين من الخارج، وخصوصا من الولايات المتحدة وجنوب افريقيا وكندا وبريطانيا. وكان هؤلاء المتطوعون، في معظمهم، يهودا تطوعوا لدوافع قومية ــ صهيونية، لكن كان بينهم من اجتذبته المغامرات وأعمال البطولة. كما جاء ايضا طيارون غير يهود. وفي بداية نيسان/ابريل، كان ١١ من اصل ٣٧ طيارا في سلاح الطيران من الخارج، وازداد عددهم في الاشهر التالية. وكانت النسبة اكبر بين الملاحين، والعاملين على الاجهزة اللاسلكية، ومطلقي الرشاشات، والمهندسين الجويين. وكانت خبرة هؤلاء المتطوعين اوسع كثيرا من خبرة زملائهم في ارض ــ اسرائيل، واليهم يعود كثير من الفضل في بداية تطور سلاح الطيران الاسرائيلي.

1514

والجدير بالذكر ان احدى المشكلات في سلاح الطيران في بدايته، كانت مشكلة

العلاقات بين المجندين من ارض ـ اسرائيل والقادمين من الخارج، التي يرجع اصلها الى التباين في الخلفية الاجتماعية وعدم وجود لغة مشتركة.

مع تنظيم سلاح الطيران، سُلِّمت الطائرات الثماني التي كانت آنذاك في حيازة اليهود في البلد. وكانت الخطوة الاولى نقل الطائرات من مطار اللد، الذي كان يُخشى ان يخربه العرب، الى المطار الصغير الخاص بشركة الكهرباء شمالي تل ابيب، الذي دعي لاحقا باسم احد رواد الطيران العبري، دوف هوز («مطار دوف»). وتم تنفيذ عملية النقل في ١٩٤٧/١٢/١٣، في يوم السبت، «اليوم الذي لم يتوقع العرب ولا الانكليز مجيئنا فيه الى المطار» (يهوشواع اشل).

لم تكن الطائرات الاولى، على قلة عددها، ملائمة للمهمات التي كانت تواجه سلاح الطيران. لكن لم يكن من الممكن احضار طائرات حربية ما دام الانكليز يحكمون البلد. وكان جلب طائرات مدنية خفيفة، من الممكن إعدادها لأهداف الاستطلاع والتصوير وما شابه، ايضا ممنوعا من قبل السلطات. وكان السبيل الوحيد محاولة شراء طائرات عندما تسنح الفرصة لذلك. وبهذه الطريقة اشتريت من البريطانيين، في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، ٢٠ طائرة «اوستر» (انظر ص 1530) نقلت، مفككة، من المطار البريطاني في عقرون الى ييكف في معسكر شارونا بالقرب من تل ابيب، وبدىء على الفور بعملية اصلاحها وتركيبها. «شرع فنيونا» ـ كتب آدم شتكاي في مذكراته ـ «في العمل. وفي شباط/فبراير، خرجت من بين ايديهم اول طائرة صالحة للطيران. وبعد ذلك تدفقت من الورشة الطائرات الى ان بلغ عددها ١٩ من اصل ٢٠، جميعها صالحة للطيران».

وفي آذار/مارس ١٩٤٨، حطت طائرة مصرية من طراز «فايرتشايلد» بين تساليم والعمارة في النقب الشمالي. وكانت الطائرة مرتبطة، كما يبدو، بشبكة مهربي حشيش شارك فيها ايضا ضباط من سلاح الجو المصري. وقد اسر أفراد البلماح الطيار، ونقل مع طائرته في اليوم نفسه الى مطار تل ابيب. وتم دهنها على الفور بلون نادي الطيران، وأقلع بها مودي آلون الى يفنيئيل. «شاركت هذه الطائرة» ـ روى عيزر وايزمن الذي طار بها من النقب الى تل ابيب ـ «مشاركة فعالة جدا في سرب الجليل، وساعدت كثيرا في بداية الغزو».

كانت قاعدة السرب أ في مطار دوف؛ «مدرج من الاسفلت طوله ٥٠٠ متر تقريبا وعرضه نحو ٣٠ مترا، ممتد بين كثبان الرمال الصفر» ـ هكذا وصف احد رجال السرب المطار ـ «وعلى احد جانبي المدرج، كانت تقوم مبان مهجورة استخدمت ذات مرة ثكنة او مستودعا. وعلى الجانب الآخر، كانت تقوم أكواخ خشبية متداعية، مهجورة ايضا. واستخدم في البداية صندوق اشارة من عتاد سلاح الجو الملكي البريطاني برجا للمراقبة؛ من خلال فتحة في سقف الصندوق، كان مراقب حركة الطيران يعطي الطائرات التي كانت على وشك الاقلاع او الهبوط، اشارات بأعلام وبمصباح «ألديس». وكانت المباني الموجودة على

جانب المدرج تجعل هبوط الطائرات اصعب، وتشكل خطرا شديدا في حالة هبوب رياح جانبية» (آ. شتكاي).

وبما ان الطائرات كانت بحاجة وهي في طريقها الى النقب وعودتها منه الى التزود بالوقود، فقد جهز في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ مدرج لهبوط الطائرات واقلاعها بالقرب من نير عام، شُيد في جواره مستودع طوارىء للوقود. وفي ١٠/٢/١٩٤٨ انشىء السرب رقم ٢ التابع لسلاح الطيران، «سرب النقب»، وكان مشكلا في البداية من طائرة واحدة وطيارين اثنين. وكانت قاعدته قريبة من نير عام.

1515 «كانت مهماتنا الاولى» ــ روى احد الطيارين ــ «أ ــ مراقبة انبوب المياه والاتصال بحماته؛ ب ــ مواكبة القوافل في النقب؛ ج ــ القيام بجولات استطلاعية مع أفراد الاستطلاع والقادة. وفي اثناء ذلك، اضيفت المهمتان الاكثر اهمية: نقل المواد الطبية والاسلحة والذخيرة في حالات الخطر، واخراج الجرحى من النقاط المعزولة» («الكتيبة الثانية في النقب»).

وفي نيسان/ابريل ١٩٤٨، انشىء «السرب رقم ٣»، «سرب الجليل»، على مدرج للهبوط تم إعداده بالقرب من يفنيئيل. «كان شعار سرب الجليل شعار البلماح المزين بجناحين» (م. بيلد). وكان السرب مرتبطا بلواءي «غولاني» و«يفتاح». وقام بطلعات استطلاع وعمليات قصف كثيرة.

كانت طائرات سلاح الطيران الصغيرة مثقلة بالعمل. ومن بين الطائرات الثماني «لم يكن هناك اكثر من اربع صالحة للعمل في وقت واحد، لأن الطائرة هي كائن حساس بحاجة الى عناية دائمة» (آ. شتكاي). وكانت الطائرات الاربع الصالحة للعمل تخرج للاستطلاع فوق خطوط المياه في النقب، وتتقدم القوافل المختلفة، وتقوم بالتصوير، وتلقي رزم الاغذية للنقاط المنعزلة والمواد الطبية والبريد والصحف. وكان الاتصال بين الطيارين ونقاط الحراسة على الارض يتم في البداية باشارات متفق عليها سلفا، وفي شباط/فبراير ١٩٤٨، ركبت اجهزة اتصال في عدد من الطائرات.

وكانت احدى المهمات الخاصة نقل الجرحى من المستعمرات المعزولة او البعيدة الى المستشفيات. «نقلنا الجرحى المصابين بجروح بليغة الى مستشفى العفولة» ــ روى م. بيلدمان (بيلد)، من «سرب الجليل» ــ «جهز مدرج للهبوط. وفي البداية حلقت الطائرة فوق المستشفى اشارة لدعوة سيارة اسعاف الى المطار، وعندما حطت نقل الجرحى على الفور الى المستشفى». وقد انقذت هذه الطلعات، بكل بساطة، عدة اشخاص من الموت وبعثت في اعماق الطيارين شعورا برضى عميق.

وأُنشىء في ذلك الشهر ايضا «السرب رقم ٤»، الذي كانت مهمته مقتصرة على اعمال التصوير.

وجهزت مدارج لهبوط واقلاع الطائرات في القدس (غفعات رام)، وفي غوش عتسيون

(انظر ص 1433)، وبالقرب من مستعمرات كثيرة في البلد. وفي الامكنة التي كان من غير الممكن الهبوط فيها (مثل يحيعام وكفار داروم والبلدة القديمة في القدس) كانت الامدادات تلقى في اكياس مبطنة وفي صناديق من الكرتون، لم تكن تحول دون تلف جزء من الارسالية.

ولم تكن طائرات «البريموس» [او «البريموسيم» كما كانت تسمى بصيغة الجمع بالعبرية] كما دعيت طائرات «اوستر» بسبب الضجيج الذي كانت تصدره، معدة في الاصل للاستخدام في عمليات قتالية، لكن الضرورة فرضت أحكامها. في الشهر الاول للمعارك، عندما علم الطيار بنحاس بن بورات (بينله)، الذي احضر طبيبا الى بيت اشل، بأن عصابة عربية تهاجم مستعمرة نفاطيم، اخذ معه على متن الطائرة احد المقاتلين من بيت اشل، وأطلق هذا النار من مدفع «برن» من الطائرة وألقى عدة قنابل يدوية، ففشل الهجوم. لكن الخبر وصل الى آذان البريطانيين فأنذروا بشدة بأن كل طائرة يهودية تستخدم سلاحا، ستسقط.

وبعد مرور بضعة اشهر تجددت مثل هذه العمليات، التي شملت اطلاق النار من مدافع رشاشة والقاء قنابل يدوية وقذائف بدائية من ارتفاع منخفض. وكان لهذه العمليات تأثير نفسي، بالاضافة الى الضرر الفعلي الذي ألحقته بالعدو. وفي ١٩٤٨/٣/٢٦، اصدرت شعبة العمليات التابعة لـ «القوة الجوية»، «أمرا قتاليا رقم ١»، صودق فيه على ان «تدخل في الاستعمال الفعلي»، «القذيفة الجوية رقم ١»، وأعطي الامر باستخدامها في المعركة.

وفي ٥/١٠، سقطت الضحايا الاولى لـ «القوة الجوية» التابعة لـ «الهاغاناه». تحطمت على جبال القدس طائرة من طراز «نورسمان»، ولقي الطياران دانييل بوكشتاين وياريف شاينبويم، وزملاؤهما شلومو كوهين وشلومو روتشتاين وتسفي شوسترمان ويتسحاق شكلنبيتس، مصرعهم.

1516 وفي الشهر ذاته تحولت «القوة الجوية» الى سلاح الطيران، وعين يسرائيل زفولدوفسكي (عمير) قائدا له، وأهرون ريمز رئيسا لهيئة اركانه.

ويوم قيام الدولة كان في سلاح الطيران ٢٨ طائرة، منها ٢٢ طائرة خفيفة من أنواع مختلفة، وأيضا طائرة مقاتلة واحدة. وكان يخدم في السلاح آنذاك نحو ١٠٠٠ شخص، منهم ٥٠ في الاطقم الجوية، والباقي من أفراد هيئة الاركان والمهندسين والاطقم الارضية ورجال خدمات مختلفة. وفي الايام الاولى لقيام الدولة، كان على سلاح الطيران الاسرائيلي ان يواجه هجوما عنيفا جدا من جانب سلاح الطيران المصري، من دون ان تكون لديه طائرة قادرة على مجابهة طائرة الـ «سبيتفاير» التي كان يملكها العدو، او حتى قاذفة واحدة تستطيع مهاجمة قواعده وابادة طائراته. لكن الاساس لتوسع سريع وجذري في سلاح الطيران ارسي في الاشهر الاولى هذه؛ لقد كان الافراد شجعانا ومخلصين ومتحمسين وأكفاء، ووصلت الاسلحة بسرعة، وأرعب سلاح الطيران الاسرائيلي الفتي أعداءه جميعا.

الفصل السادس والسبعون

مشتريات السلاح والصناعة العسكرية في بداية الاستقلال

استمرار نشاطات شراء السلاح وصنعه سرا

ان ضغط متطلبات المعركة العسكرية والتغيير الذي طرأ على مكانة الييشوف، نتيجة قرار الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة، جرّا في اعقابهما تغييرات كثيرة في وسائل شراء السلاح والصناعة العسكرية في البلد، سواء من ناحية اساليب العمل او من ناحية الحجم. وهكذا، مثلا، خففت اقامة حكم ذاتي يهودي في منطقة تل ابيب (انظر ص 1346)، مع ان سيادته لم تكن مطلقة، من وطأة ظروف العمل السري. كما دفع اشتداد أوار الحرب اليهود في المنفى، بعد ان طلب منهم ذلك، الى التبرع بمبالغ كانت اكبر كثيرا من المبالغ التي تبرعوا بها في السنوات السابقة من اجل بناء ارض ـ اسرائيل والدفاع عنها.

لقد كان الشيء الاساسي الذي ينقص المقاتلين اليهود في الاشهر الاولى للحرب هو السلاح: سلاح بالكميات اللازمة لمتطلبات المعركة (انظر وضع السلاح عشية حرب الاستقلال، ص 1247). ونجد احيانا في التقارير عن العمليات في هذه الاشهر تصريحات بأن المقاتلين اضطروا الى الانسحاب بعد ان نفدت الذخيرة او القنابل اليدوية التي لديهم. كما سقط عدد غير قليل من الضحايا لانه لم يكن بيد المقاتلين السلاح اللازم، ولم يكن السلاح الثقيل هو المقصود في هذه الفترة فحسب، وانما ايضا السلاح الخفيف وذخيرته. لقد كان المدى الفعال للستن، الذي تخصصت الصناعة العسكرية التابعة لـ «الهاغاناه» بانتاجه، قليلا جدا وكان ملائما لحرب الشوارع، لكنه لم يسعف كثيرا قوافل السيارات بعد ان اكتشف حملة البنادق العرب انهم «اذا تمركزوا على بعد مسافة معينة من الطريق الذي تتحرك عليه القوافل، فان الستن يصبح أداة تخويف فقط» (بنحاس فازيه، «بينيك»). ولم يكن السلاح، الذي كان لا بد من توزيعه على جبهات كثيرة، كافيا. وليس هذا فحسب؛ فان مطاردة السلطات البريطانية لـ «الهاغاناه» في سنوات النضال، تسببت بتخزين السلاح في مخابىء سرية موقتة، كان الوصول الى بعضها غير مريح، وظروف حفظ السلاح في بعضها الآخر غير جيدة مما ادى الى تلف كميات معينة من السلاح.

«ان الرشاشين اللذين كانا بيدنا في هذا القطاع» ـ روى احد ابناء حولون بعد هجوم فاشل لوحدته على تل الريش، في الشهر الاول للحرب (انظر ص 1379) ـ «توقفا عن العمل بسبب عطل طرأ في منتصف العملية، ولم نستطع تزويد المقاتلين ببديلين لهما. وكانت الذخيرة القليلة المتوفرة لدينا فاسدة في معظمها، ولم يعد في الامكان الركون اليها. ــ ــ كما كانت حالة القنابل اليدوية سيئة. ــ ــ لقد كان السلاح القليل المعد لوقت الضيق مخبأ في مخابىء سرية، ولما اخرج كان معظمه صدئا ومملوءا بالطحلب، والجزء الاكبر منه غير صالح للعمل». واتضح انه لو كان بيد المهاجمين مدفع هاون لتمكنوا من تفريق جماهير العرب، التي اضطرتهم الى الانسحاب من التل، لكن مدفع الهاون الوحيد في هذه الجبهة كان يُستخدم في ذلك الوقت في موضع آخر. وبعد محاولة لاقتحام ابو كبير ذكر قائد العملية، يسرائيل شاحوري، ان «١٥ ستنا من اصل ٢٣ ستنا كان يحملها الشبان الذين اقتحموا ابو كبير، لم تعمل. وكان عدد كبير من مخازن الرصاص تالفا. لا احزمه، ومخازن الرصاص سيئة وغير ملائمة للستنات، والنوابض غير صالحة، وخطافات الرشاشات ملتوية، والقنابل القنابل لم ينفجر؛ انتاج فج وسيىء». 1518

وعلى الرغم من كل ذلك، كان هذا السلاح، الذي اشتري في ارض ـ اسرائيل وفي الخارج او انتجته ورش الصناعة العسكرية وحفظ في مستودعات «الهاغاناه» ـ وعلى الرغم من قلته وعيوبه ـ هو الذي مكن «الهاغاناه» من الصمود في نصف السنة الاولى لحرب الاستقلال، الى ان وصلت شحنات السلاح الكبيرة التي تم شراؤها في شتاء سنة ١٩٤٨.

ومن اجل فحص السلاح المرسل الى الوحدات المقاتلة وتحسينه وملاءمته للغرض منه، عينت هيئة الاركان العامة في بداية الحرب المهندس منسى برينسكي (برت) ضابطا للتسليح. وقد تم فحص السلاح المرسل الى الجبهات، وقدمت الى ضابط التسليح تقارير مفصلة عن فعاليته في المعركة والشكاوى عن العيوب المكتشفة فيه في اثناء استخدامه. وتلقت معامل الصناعة العسكرية تعليمات وفقا لذلك بادخال تغييرات وتصحيحات في عملها.

ولم تكن كمية السلاح بيد المقاتلين اقل اهمية من نوعيته. ان الحصول على السلاح بكميات كبيرة لا يعتمد، كما هو معروف، على المال فحسب وانما ايضا على اعتبارات سياسية بالغة الاهمية من ناحية الدول التي تبيع السلاح. ففي نصف السنة الاولى للحرب، عندما لم يكن الييشوف العبري يتمتع بمكانة سياسية دولية معترف بها، كان وضع مشتري السلاح صعبا جدا، مع ان قرار الامم المتحدة الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩ شكل نقطة ارتكاز واستناد في عدة حالات في اثناء المفاوضات السياسية.

وقد شكل الحظر الذي فرضته حكومة الولايات المتحدة في ١٩٤٧/١٢/٥ على شحنات السلاح الى دول الشرق الاوسط، عاملا سلبيا حاسما بالنسبة الى تسليح قوات «الهاغاناه». ان هذا الحظر لم يلحق ضررا بالعرب [الفلسطينيين]، الذين كان في استطاعتهم الحصول على السلاح من بريطانيا بواسطة الدول العربية، لكنه حد من قدرة المبعوثين اليهود

على شراء السلاح من السوق الحرة. كما ان قرار الامم المتحدة الصادر في ١٩٤٨/٣/٥ بايقاف شحنات الاسلحة الى الشرق الاوسط، لم يحل دون استمرار البريطانيين في ذلك، تحت ستار ادعاء ان الاسلحة ارسلت بناء «على التزامات بموجب عقود». وعمل البريطانيون على مراقبة الشواطىء لضمان عدم تفريغ اسلحة في موانىء البلد. واضطر العاملون في شراء الاسلحة الى الاستمرار في النشاط وفقا لأساليب العمل السري السابقة. واستُغلت القنوات التجارية المعتادة قدر الامكان، لكن الكميات القليلة لم تكن كافية. وكان لا بد من فتح منافذ جديدة، وتطلب الامر وقتا وأحيانا وقتا طويلا، وهذا ما لم يكن متوفرا للمقاتلين.

ان الاسلحة التي وصلت الى البلد في الاشهر الاولى من سنة ١٩٤٨، والتي بذل رجال المشتريات العسكرية كل طاقتهم لا بل اكثر من طاقتهم لجلبها؛ هذه الاسلحة التي وصلت احيانا في اللحظة الاخيرة فعلا الى الايدي المخلصة التي كانت في انتظارها، كانت هي التي قررت مصير حياة الآلاف وحدود الدولة اليهودية: دولة اسرائيل.

اكتشاف شحنة مواد متفجرة في ميناء نيوجرسي

في الايام الاولى لحرب الاستقلال، حدث خلل زعزع جهاز المشتريات العسكرية. ففي ١٩٤٨/١/٣، اكتشفت في ميناء نيوجرسي شحنة مكونة من ٥٠ طنا من الـ ت. ن. ت. معدة للارسال الى ارض ــ اسرائيل؛ كان حاييم سالفين قد اشترى الـ ت. ن. ت. في نهاية سنة ١٩٤٧، وكانت المشكلة الكبيرة تكمن في نقلها الى ارض ــ اسرائيل. ان نقل الـ ت. ن. ت. بسفن مرتبط باجراءات احتراس خاصة لازالة الخطر الشديد المتمثل بوضع هذه المادة المتفجرة الحساسة في سفينة. كيف يمكن ضمان اجراءات كهذه فيما يتعلق بمادة منقولة بصورة غير شرعية على انها مادة صناعية غير خطرة؟

1519 قبل عدة اشهر فقط من اندلاع الحرب، عندما اتضح لسالفين ان الحرب تقف على الابواب، وأن مستقبل «كل جهودنا، والحرب كلها، وكل فرصة للبقاء في قيد الحياة»، مرتبطة بتلك الكمية من الـ ت. ن. ت. الموجودة في مستودعاته، طلب من القيادة العليا اتخاذ قرار بنقلها. وبعد بحث عميق اعطيت الموافقة على تنفيذ عملية النقل. ومن اجل ضمان عدم انفجار المادة خطط سالفين لنقل المادة في براميل مياه. وكانت هذه الطريقة تتطلب عملية تجفيف طويلة بعد وصول المادة الى مستودعات «الهاغاناه» في البلد، لكن سالفين لم يجد امامه طريقة اخرى. وأرسل حاي يسسخروف، من شركة الكهرباء، لتولي تنظيم عملية الشحن، فاتضح له عند وصوله الى نيويورك ان خطة التعبئة هذه ستتسبب بتأخير موعد الشحن، وأن بائعي المادة الاميركيين الذين كانوا خائفين من رجال التحري المحليين، لم يكن في وسعهم، ولم يكونوا راغبين في تأخير الموعد. وقرر يسسخروف ارسال المادة بتعبئتها الاصلية، اذ كانت مخفية في صناديق خشبية. وبهذه الوسيلة وصل ٥٠ طنا ت. ن. ت. من اصل ٢٥٠ طنا

اشتراها رجال المشتريات العسكرية، الى ميناء نيوجرسي. وفي اثناء تحميل المادة على السفينة سقط احد البراميل، وتناثرت رزم الـ ت. ن. ت. وعلى الفور صدر انذار باخلاء المنطقة من جميع العمال الموجودين فيها. وأظهرت تحقيقات الشرطة ان المادة كانت مرسلة باسم مصنع «هابورغ» في تل ابيب. وواصلت الشرطة السرية تحرياتها الى ان وصلت الى مستودعات جهاز مشتريات السلاح في نيويورك، وظهر اسم سالفين ايضا في قائمة المشبوهين التي نشرت في صحف نيويورك. واضطر الاشخاص الذين كانوا يتولون امر الشحنة الى الفرار، حتى ان قسما منهم هرب الى خارج الولايات المتحدة.

واستوجب الامر معالجة سياسية ووساطة من وراء الستار استمرت عدة اسابيع، الى ان تم طي الموضوع وأصدرت السلطات الاميركية العليا المختصة أمرا باغلاق ملف التحقيق. وتم اعتقال فيليب ألبير وخمسة شبان من العاملين في المشتريات العسكرية فقط وقدموا الى المحاكمة. وقد تعاطف القاضي مع المتهمين، وأعلن ان «هؤلاء الاشخاص سلكوا سبلا مضللة (were misguided) لكن بدوافع سامية»، وأصدر حكمه بوضعهم تحت مراقبة الشرطة لمدة عام. ومع ذلك حُلَّ جهاز المشتريات والشحن الذي انشأه سالفين في اثناء وجوده في اميركا. إلا ان معظم الآلات والمواد الكثيرة، التي شكلت الاساس لاقامة صناعة عسكرية موسعة تابعة لـ «الهاغاناه» في الأشهر التالية، كان قد أُرسل قبلا الى ارض ــ اسرائيل، لكن استمرار العمل توقف في لحظة حرجة جدا من حياة اليبشوف العبري.

شحنة السلاح الاولى الى تل ابيب

ادى الفشل في نيويورك الى زيادة يقظة السلطات في ارض ــ اسرائيل. وكان رجال التحري قد اكتشفوا، قبل نحو شهر من ذلك، وجود رخص استيراد مزورة، من دون ربطها بصورة خاصة بمشتريات السلاح، ونتيجة لذلك شددت الرقابة على الرخص. ومع بدء الاشتباكات في البلد طلب رئيس القيادة القطرية، يسرائيل غاليلي، من إلياهو ساخاروف ومساعديه احضار شحنة سلاح من ايطاليا، على الرغم من المخاطر الكبيرة التي تحف بالامر. وتقرر، زيادة في الحيطة، استخدام رخصة حقيقية. وتم الحصول على رخصة كهذه، لاستيراد كمية كبيرة من المعدات الفنية المشتراة، ظاهريا، في ايطاليا من قبل «سوليل بونيه» من مخلفات الجيش الاميركي، وبينها: جرارات وجرافات ومكابس ضغط الخ، وذلك من دون علم «سوليل بونيه» كي لا تتورط في حال افتضاح الامر. وقد تمت هذه الخطوة بموافقة بن ــ غوريون «الذي لم يتردد للحظة واحدة، وصادق على العملية مؤكدا بشدة ان اية مجازفة في هذه الأيام مبررة في سبيل عدم تأخير شحنات السلاح أو إلغائها» (إ. ساخاروف). ولم تكن المجازفة تتمثل بمصادرة الشحنة على شواطىء البلد والحاق ضرر شديد بمكانة «سوليل بونيه»

1520 فحسب، وانما ايضا بانهيار نشاطات شراء السلاح في اوروبا بأسرها. وسافر إلياهو ساخاروف الى ايطاليا للمشاركة في تجهيز الشحنة، التي فاقت حجما ووزنا كل الشحنات السابقة ـ ٣٠ او ٤٠ طنا تقريبا ـ واشتملت، بين اشياء اخرى، على: نصف مليون رصاصة، وعدة مئات من الرشيشات، وعشرات من المدافع الرشاشة، ونحو ٢٠٠ بندقية ومسدس مع ذخيرتها. وقد حملت جميع هذه المعدات على متن سفينة الشحن «دانيت». وخرجت الشحنة من ايطاليا مع وصول الاخبار الاولى عن نشوب الاضطرابات في البلد. وخفف هذا الامر من ارتباك المسؤولين عن الشحنة الذين أدركوا ان «لهذه الشحنة اهمية كبيرة، اذ انه كان في وسعها ان تسد عدة ثغرات خطرة وتعزز، الى حد ما، قوة المستعمرات المعرضة للخطر ووحدات قطرية كان سلاحها الرئيسي في تلك الفترة رشيشات وعددا صغيرا جدا من البنادق» (إ. ساخاروف). ونقل ساخاروف نبأ شحن الارسالية الى رئيس القيادة القطرية، يسرائيل غاليلي، الذي كان يشارك في جنازة يهوشواع غلوبرمان (انظر ص 1390). «استطعت ان ألحظ» ـ روى ساخاروف ـ «الى اي حد انعشت معنوياته بشرى خروج الارسالية. وللحظة اضاء وجهه، الذي غشاه الحزن على موت يهوشواع والآفاق القاتمة لأمن الييشوف».

كان من المقرر ان تصل السفينة خلال يومين او ثلاثة ايام، ووصل خبر اكتشاف المواد المتفجرة في نيوجرسي. وبما ان اساليب التغطية والتمويه لرجال المشتريات العسكرية في الولايات المتحدة وايطاليا كانت متشابهة، فقد نشأ هناك تخوف كبير من ان تلاحظ الشرطة السرية ان اليد التي ارسلت الـ ت. ن. ت. من الولايات المتحدة هي نفسها التي تقف وراء الشحنة المشابهة من ايطاليا. وفي مشاورات مع خبراء المشتريات العسكرية، طلب غاليلي «بذل المستحيل لايصال الشحنة بسلام الى البلد، مبينا لنا الضربة التي ستنزل بمخططات «الهاغاناه» الأنية في حال اكتشافها» (إ. ساخاروف). ولحسن حظ رجال المشتريات العسكرية غيرت السفينة خط سيرها عند وصول انباء الاضطرابات، وبكرت في عبور موانىء الدول المجاورة. وفي تلك الايام كان قد شرع في نقل السلطة في ميناء تل ابيب الى السلطات اليهودية (انظر ص 1346)، وقرر رجال المشتريات العسكرية توجيه السفينة الى هذا الميناء. واتصلوا بمردخاي تراوب، مدير فرع شركة «تسيم»، الذي كان وكيل السفينة، وبمساعدته أقنعوا القبطان بأن يبحر لقاء مبلغ ملائم الى تل ابيب. ووعدت ادارة ميناء تل ابيب باعطاء هذه السفينة الاولوية في التفريغ. وكانت لهذا الوعد قيمة كبيرة، لأن سفنا كثيرة كانت تنتظر دورها للتفريغ في الميناء الصغير لمدة اسابيع، وكان يخشى ان يقدم وكلاء السفن شكوى بسبب هذا التفضيل الى المدير البريطاني لميناءي يافا وتل ابيب، الذي كانت سلطة الاشراف على الميناء لا تزال بيده.

وفي ١٩٤٧/١٢/٢٠، وصلت السفينة الى الميناء وبدىء بتفريغها مساء. وخصصت سيارات كثيرة لنقل الشحنة بسرعة من الميناء الى مكان آمن في ورشة «حيمت» التابعة

لـ «سوليل بونيه» في نحالات يتسحاق (بالقرب من تل ابيب). وهناك بدىء على الفور بتفريغ السلاح من السيارات، وتشحيمه وتجهيزه لارساله الى وحدات «الهاغاناه» التي كانت تنتظره بفارغ الصبر.

الصناعة العسكرية في بداية الحرب

وقعت حرب الاستقلال بينما كانت الصناعة العسكرية في مرحلة الانتقال الى وضع صناعي اكثر تقدما. وكانت قيمة المشروع الذي تجري اقامته وأهميته الحاسمة واضحتين لجميع العاملين فيه، لكنهما كانا بركة للمستقبل. وبالنسبة الى الايام الراهنة ــ مع الضحايا التي كانت تسقط يوميا على الطرق وعلى الحدود، وكثير منها بسبب النقص في السلاح ــ طولبت الصناعة الحربية بتقديم مساهمة سريعة وفورية حتى لو كانت قليلة ومصنوعة بسرعة. ففي ظل النقص الذي كان يشكو منه المقاتلون في تلك الايام، كانت كل شحنة قذائف هاون وقنابل يدوية، او كمية صغيرة من الستنات مع رصاصها، تعني انقاذ نفوس من الهلاك.

1521 لقد كان العمل في الصناعة العسكرية، في ظروف السرية الصارمة، يبدو لكثيرين من العاملين في مجال الصناعة الحربية هادئا اكثر من اللازم، ولذا لم يكن من المستغرب ان يكون بينهم شبان تطلعوا الى ترك الورشة والتطوع في صفوف المحاربين. وتعين على القيادة العليا ان تمارس كثيرا من النفوذ للجم هذا التطلع واقناع الشبان بأن مهمتهم لا تقل حيوية عن مهمة الواقفين على الجبهات.

وفي ضوء النقص في السلاح الموجود بيد «الهاغاناه»، طلب من الصناعة الحربية بذل جهود تفوق طاقتها. لقد كان سلاح «الهاغاناه» الثقيل آنـذاك مدفع الهاون عيار ٣ بوصات، لكن لم يكن في المستودعات المركزية سوى ٤٠٠٠ قذيفة جاهزة له، منها نحو ٧٠٪ من دون خرطوش. وفي الوقت الذي كان فيه رجال الصناعة الحربية مشغولين بدراسة المشكلة واستئناف انتاج الخرطوش، كان على دائرة التسليح ان توزع الـ ١٢٠٠ قذيفة الجاهزة «مع الخشية الدائمة ان ينفد المخزون قبل بدء الانتاج الجديد» (آشر بيلد، آشركا). وفي بداية آذار/مارس فقط بدأت الصناعة الحربية بانتاج الخرطوش لكن بوتيرة بطيئة متخلفة عن الحاجات الكثيرة. وكان امداد الوحدات بالقذائف القليلة يتم بموافقة رئيس شعبة العمليات فقط. وكان معظم مدافع الهاون يفتقر الى اجهزة تسديد. «ان هذا النقص لم يثقل على مطلقي المدافع في اثناء العملية فحسب» ــ روى رئيس دائرة التسليح آ. بيلد ــ «وانما تسبب ايضا بتبديد نسبة ملموسة [من القذائف] لتحديد المدى والتسديد بدلا من الجهاز الناقص». وبذلت في تلك الفترة جهود لاستئناف انتاج مدافع الهاون نفسها. وفي ١٩٤٨/٥/٧، ارسلت الى الجبهة مدافع الهاون الثلاثة الاولى.

واكتشفت ايضا في قذائف الهاون عيار ٢ بوصة عيوب مختلفة. كانت القـذائـف البلاستيكية في اغلب الاحيان تتشقق، وذنب القذيفة يتفتت في اثناء الاطـلاق داخل السبطانة، وبعد كل عملية اطلاق كان من الضروري قلب مدفع الهاون لتفريغ السبطانة من شظايا الذنب. وكان على الصناعة الحربية ان تصرف وقتا في دراسة هذه العيوب واصلاحها. وتم انتاج قذائف جديدة خالية من هذه العيوب لأول مرة فقط في صيف سنة ١٩٤٨.

ومع بداية نشاط طائرات «الهاغاناه» (البريموسيم) ظهرت الحاجة الى قنابل طائرات. وأجريت تجارب سريعة، شارك فيها خبراء متفجرات من البلماح وطيارون ومهندسون من سلاح الجو، وبدىء بانتاج «قنابل طائرات مرتجلة» دعيت باسم «تسيبارنيم» [المسامير]. وظهرت الدفعة الاولى من الانتاج في نيسان/ابريل ١٩٤٨. وبمرور الوقت، حتى وصول قنابل حقيقية من الخارج، اعدت الصناعة الحربية ٧٠٠ «مسمار» تقريبا من هذا النوع.

وكان الناتج الذي تدفق على الجبهة هو الرشيشات. حتى نهاية ايار/مايو ١٩٤٨، زُود المحاربون بـ ١٠,٤٠٤ قطع منها. وبلغ انتـاج الـرصـاص للرشيش في ايـار/مايـو ١٩٤٨، نحو ٤٠٠,٠٠٠ رصـاصـة شهريا. ومنذ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧ حتى نهاية ايار/مايو ١٩٤٨، تم انتاج ٢,١١٥,٠٠٠ رصـاصـة للرشيش. كما استمر انتاج قنابل ميلز، ووصل نحو ٧٧,٠٠٠ قنبلة يدوية من هذا الطراز الى المستودعات في تلك الفترة. وتم انتاج ٣١ مدفع هاون عيار ٣ بوصات و ١٣٠,٥٠٠ قذيفة لها. وكانت الصناعة الحربية تستخدم في ربيع سنة ١٩٤٨ اكثر من ٣٠٠ عامل في مصانعها العشرة وعمل اكثر من ٢٠٠ عامل لتلبية طلبيات جزئية في مصانع خارج نطاق شبكة «مؤسسات» الصناعة الحربية.

ان الضغط الكبير على الصناعة الحربية والظروف السياسية التي تغيرت ادت الى نشوء مشاركة متزايدة من جانب الصناعة المدنية في انتاج الاسلحة. وعين المهندس يتسحاق فيلنتشوك (فيلناي)، في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨، لتنسيق توزيع الطلبيات العسكرية على المصانع الواردة في الحسبان. وعينت الصناعة الحربية وقتئذ احد قدامى العاملين فيها، تسفي بيرمان، للاشراف على منتوجات «الصناعة الحربية الخارجية» (بحسب تعبير تلك الفترة). في البداية، كُلِّفت المصانع «الخارجية» إعداد الالغام على مختلف أنواعها: ألغام حذائية، ألغام ضد الاشخاص، ألغام ضد المركبات، وأنواع اخرى. وقد بدأت هذه المنتوجات بالوصول الى مستودعات دائرة التسليح التابعة لـ«الهاغاناه»، ومنها الى الوحدات المقاتلة في اشهر آذار/مارس ونيسان/ابريل وأيار/مايو، بحسب الجدول التالي: 1522

سنة ١٩٤٨	ألغام حذائية	ألغام ضد الاشخاص	ألغام ضد المركبات
آذار/مارس	٣,٤٤٠	—	—
نيسان/ابريل	١٤,٠٤٠	١,٢٥٢	—
ايار/مايو	٨,٤٩٠	٢,٢٠٢	٢,٥٧٠

كما اوكل الى الصناعة المدنية ايضا انتاج السلاح المضاد للدروع، الـ «بيات» (او المتلر، بحسب تعبير تلك الفترة). منذ صيف سنة ١٩٤٧، بدأ إلياهو سوحتشبر وعدد من مساعديه بمعالجة انتاج «البيات» وقذائفه في المختبرات المختلفة للجامعة في القدس. «صنعناه قطعة قطعة في ورش عمل مختلفة» ــ روى سوحتشبر ــ «ـــ وكانت الصعوبة الرئيسية تتمثل بالقذيفة. لم نستطع التوصل الى صنع قذيفة حقيقية، وفي النهاية توصلنا بصورة ما الى صنع قذيفة تجريبية، اختبرت في منطقة البحر الميت». ومع بداية حرب الاستقلال، استمرت التجارب لانتاج القذيفة في قبو مبنى «هبيما» في تل ابيب ونجحت. وخلال نصف السنة الاولى تم صنع الـ ٤٨ «بيات» الاولى، وأرسلت الى الوحدات المقاتلة (خلال الاشهر الاربعة التالية صنع نحو ٦٠٠ بيات آخر).

ومع زوال الرقابة البريطانية عن منطقة تل ابيب (انظر ص 1346) استمر من دون توقف انشاء مصانع لانتاج السلاح في نحالات يتسحاق بالقرب من تل ابيب. وقد تم تشييد المباني كمباني صناعة عادية، وبدىء بتركيب المعدات. وقد سجل دافيد بن ــ غوريون، الذي تفقد احدى هذه المؤسسات في اثناء تشييدها في نهاية كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ ــ في يومياته ــ ان الصناعة الحربية «مع انبوب المياه في النقب هما المشروعان الكبيران ذوا الاهمية التاريخية غير العادية اللذان نفذا في العامين الاخيرين».

ولم تتوصل هذه المصانع الجديدة الى مرحلة الانتاج إلا بعد ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨، اذ ينتمي تاريخها الى تاريخ تطور الصناعة الحربية في دولة اسرائيل ويرتبط بتاريخ جيش الدفاع الدفاع الاسرائيلي. وفيما يتعلق بنا، من الجدير ان نعود فنذكر ان جذور مشروع الصناعة الحربية الكبير في الدولة تعود الى تلك الورشة الصغيرة التي انشئت سنة ١٩٣٣ في مؤسسة المياه في حي بوروخوف (انظر المجلد الثاني، ص 545). وفي ابان ايام النضال ضد البريطانيين والعرب ارسيت الاسس لتوسيعه الى مشروع رسمي كبير، ونقله الى مجال الصناعة

الـ «دافيدكا»

ادى النقص الكبير في الاسلحة الثقيلة الى البحث عن بدائل. وكان الاكثر عرضة للخطر هم خبراء التدمير، الذين كانوا يكلّفون التسلل الى خطوط العدو ووضع المواد المتفجرة بالقرب من المنازل او المواقع. وفي بداية ايام الحرب طورت الدائرة الفنية الملحقة بهيئة اركان البلماح مدفع هاون صغيرا جدا باسم «البرعوش»، [البرغوث]، كان قادرا على اطلاق قذيفة زنتها ١٥ كلغ الى مدى ٤٠٠ متر. وأشرك في التجارب على «البرعوش» التي اجريت في مكفيه يسرائيل، دافيد لايبوفيتس ــ من تل ابيب ــ الذي شارك بصورة فعالة في فكرة انشاء الصناعة الحربية التابعة لـ «الهاغاناه» منذ بدايتها.

وبعد نشوب الاشتباكات عين دافيد لايبوفيتس خبيرا للسلاح على جبهة تل ابيب الجنوبية. وللدلالة على طابع الحرب في تلك الايام، من الجدير بنا ان نذكر ان لايبوفيتس قام بمهمات هذا المنصب بينما كان يدرّس في مكفيه يسرائيل في الاشهر الثلاثة الاولى للحرب. وكان الوضع على الجبهة سيئا جدا. ووضع لايبوفيتس تصميما لجهاز يستطيع قذف مواد متفجرة الى مسافات بعيدة. وقدم هذا المقترح مع مقترحات مشابهة لصنع منجنيق كبير (Catapult) او مقلاع خاص بنابض كبير، الى قيادة المدينة. وشرع في دراسة المقترحات وتنفيذها. وتم تنفيذ اقتراح دافيد لايبوفيتس. صنعت راجمة خاصة لتنفيذ التجربة الاولى التي جرت في حولون. وأطلقت قذيفة وزنها ٣٧ كلغ بنجاح. وعلى الفور اصدر قائد المدينة الامر بتجهيز راجمتين اخريين. وعمل الرجال ليلا نهارا، وهم يطورون مرة بعد اخرى الجهاز. وبعد شهر تقريبا من بدء التجارب، في ٣/١٣، استخدمت اول مرة راجمتان على جبهة ابو كبير. ورافق الدمار الكبير الذي احدثه انفجار المواد المتفجرة دوي هائل. «ترك العرب المواقع والمنازل» ــ روى لايبوفيتس ــ «وعندها دخل رجالنا البيوت ونسفوا كل الاهداف المعينة، وعادوا جميعهم اصحاء سالمين».

1523

واستدعى يوسف روخيل (افيدار) اليه لايبوفيتس وكلفه إعداد «مقاليع دافيد» او، كما عرفت على لسان المقاتلين، «دافيد كوت» [جمع دافيدكا بالعبرية] لاستخدامها على كل الجبهات. وفي ٤/١١، استخدمت الـ «دافيدكا» اول مرة خارج نطاق تل ابيب، في اثناء احتلال قولونيا في الطريق الى القدس. وبعد ذلك رعدت الـ «دافيد كوت» على جبل كنعان في صفد، وفي حيفا، وفي القدس. وكان التأثير النفسي للـ «دافيدكا» اكبر حتى من قوة تدميرها. وانتشرت بين العرب شائعات عن سلاح سري حديث، عن «قنبلة طائرة» وعن «قنبلة ذرية» وصلت الى ايدي اليهود.

بداية الجهاز العلمي العسكري

ان بداية اشراك رجال العلم في عمل «الهاغاناه»، وخصوصا في انتاج السلاح، ترجع الى نهاية الثلاثينات (انظر المجلد الثاني، ص 978). وفي الاربعينات، انضمت الى الفريق القديم من المهندسين والكيميائيين قوى شابة. وفي سنة ١٩٤٥، انشىء ما يمكن وصفه بلجنة رجال العلم، التي كان اعضاؤها: البروفيسور هايمان، والبروفيسور فيليكس بيرغمان، والاخوين اهرون وأفرايم كاتشلسكي. وأنشئت ايضا حلقة شارك فيها علماء من الجامعة العبرية في القدس ومن التخنيون في حيفا. ومع بدء تولي د. بن ــ غوريون شؤون الـ «هاغاناه»، رصد اول المخصصات لأغراض البحث العلمي المرتبط بالأمن بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه فلسطيني. ومن اجل تنظيم العمل، عين شلومو غرزوفسكي (غور) ــ الذي لم يكن عالما لكنه كان يتمتع بمواهب تنظيمية كبيرة. وترأس اللجنة البروفيسور يوحنان راتنر.

وبوشر العمل على حل مشكلات تقنية وصناعية مختلفة. وتولى جنكـا راتنر امر التخطيط لانتاج الالغام من مختلف الانواع، وأهرون كاتشلسكي القنابل الدخانية، والقنابل المسيلة للدموع الخ. «بعد مرور فترة من الوقت» ــ روى اهرون كاتشلسكي ــ «اجرينا شبه مناورة في كيبوتس دالياه، عرضنا في اثنائها منجزاتنا. كان مجموع ما عرضناه ضئيلا. كانت هذه نماذج بسيطة من قنابل دخانية وقنابل حارقة وغاز مسيل للدموع، وسلسلة ألغام اثارت ضجيجا وهذا كل شيء. وعلى الرغم من ذلك، بدأ الامر يكتسب صورة ملموسة».

ولم تقرر القيادة العليا انشاء اطار دائم وشامل لاستخدام العلم لأغراض «الهاغاناه» إلا عشية حرب الاستقلال. وضُم الى رجال العلم طلاب وكيميائيون وفيزيائيون، جاء كثير منهم من صفوف «الهاغاناه» والبلماح. ودرس الشبان مشكلات المواد المتفجرة، وتولى الفيزيائيون منهم في البداية الاهتمام بقاذفات اللهب، وبعد ذلك بأجهزة الاتصال الالكترونية، واهتم جنكـا راتنر بانتاج قذائف للـ «بيات».

كانت المشكلة الاكثر اهمية التي اثقلت على «الهاغاناه»، في الايام الاولى للحرب، مشكلة النقص في المواد المتفجرة. وبدىء باقامة معهد تجريبي في غفعات حاييم ووضع هدفا له انتاج اربعة اطنان من الصوديوم شهريا. وبعد نجاح التجارب، شرع في وضع تصميم لاقامة مصنع لانتاج الصوديوم في مبنى التعبئة الكبير الخاص بـ ي. ل. غولدبرغ بالقرب من رامات غان.

1524

وفي بداية آذار/مارس ١٩٤٨، انشئت «الوحدة العلمية»، وأشرك فيها عشرات من الفيزيائيين والكيميائيين العاملين في الجامعة العبرية والتخنيون في حيفا ومعهد وايزمن وطلابهم. وكُلِّفت الوحدة الاهتمام بـ «اجراء ابحاث علمية في المجال العسكري، والقيام باختبارات ميدانية لنتائج الابحاث العسكرية، وتدريب وحدات على أنواع الاسلحة والذخيرة لتصبح كل واحدة منها «وحدة علمية»، والمساعدة في انشاء صناعة عسكرية، والاتصال بالصناعة القائمة» («امر خاص بانشاء الوحدة العلمية»). وأنشئت قاعدة علمية مركزية في مزرعة فاغنر العلمية بالقرب من تل ابيب بادارة ج. راتنر.

وكان هناك وزن خاص في تلك الفترة لعمل مجموعة رجال العلم والفنيين في القدس، التي كانت معزولة وقتئذ عن باقي انحاء البلد. وقد ترأس هذه المجموعة العالم الكيميائي طوفيا بار ــ ايلان، وكان مستشارها الفني رجل الصناعة الحربية العتيق إلياهو سوحتشبر. وكانت قاعدة الوحدة موجودة في مباني مدرسة «شنلّر» في شمالي القدس. ونجحت الوحدة في انتاج مواد متفجرة. وتم نقل نحو طنين من كلورات الكالسيوم من مستودعات شركة البوتاس في البحر الميت الى القدس، واستخدمت كأساس لصناعة المواد المتفجرة، وبعد شهرين او ثلاثة اكتمل صنع المادة الخام. وأنشئت ورشة لتجهيز ألغام، ومختبر لتجهيز المتفجرات. كما جهزت في القاعدة في «شنلر» المئات من زجاجات المولوتوف والصفائح

الحارقة، التي كان لها دور في اغلاق الطرق وايقاف اندفاع «الفيلق العربي» الى القدس في ايار/مايو ١٩٤٨.

«عانينا كثيرا من النقص في المواد» ــ روى سوحتشبر ــ «وصنعنا تقريبا كل ما امكن صنعه بالالمنيوم. وكانت بين منتوجاتنا ألغام حذائية مصنعة بالالمنيوم، وألغام ضد الدروع مصنوعة من انابيب المياه، ــــ وقنبلة يدوية بمقبض، ومتفجرات اجهزة توقيت». وكانت هذه الصناعة موزعة على عدة اماكن. كان المركز في قبو احد البيوت في شارع بن يهودا، وعمل فيه ٤٠ شخصا تقريبا. وفي وقت لاحق، انتجت في القدس «مقاليع دافيد» وفقا لنموذج نقل جوا من القدس وحضر معه يعقوب كمينكر، «الذي كان من مهماته تدريب طاقم «مقاليع دافيد» في القدس، وتعليم رجال الصناعة الحربية المحليين كيفية صنعها» («من الاضطرابات الى الحرب»). ولدى تشغيل الراجمات المقدسية، وقعت عدة كوارث. وبنتيجة البحث والتمحيص اتضح انه ينبغي تغيير الـ ت. ن. ت. الذي كان بشكل مسحوق الى ت. ن. ت. صلب. وجهزت قذائف وزن الواحدة ٩٠ كلغ لنسف سور القدس، في اطار خطط لاقتحام البلدة القديمة.

كانت هذه الخطوات الاولى لـ «الوحدة العلمية»، التي تحولت عند انشاء الجيش الى سلاح العلوم، كاطار عبّر العقل والموهبة اليهوديان عن نفسيهما به في مجال الدفاع عن الدولة اليهودية في فترة لاحقة.

التوسع في اعمال شراء السلاح

مع كل الجهود التي بذلها رجال «الهاغاناه» من اجل ان يطوروا، قدر الامكان، صناعة اسلحة محلية، كان من الواضح ان توسيع نشاطات شراء السلاح في الخارج الى حجم يتلاءم وضخامة الحاجات الملحة، هو وحده الذي يمكن ان يحل مشكلة السلاح للمقاتلين.

لقد كانت نشاطات شراء السلاح تقف على رأس اهتمامات المسؤولين في الييشوف. وكان التنسيق بين هذه النشاطات موكلا الى رئيس القيادة القطرية يسرائيل غاليلي، لكن دافيد بن ــ غوريون كان يتابع شخصيا عملية شراء السلاح، ودعي مرات كثيرة الى تقديم مساعدته واستخدام سلطته، وخصوصا من اجل الحصول على المبالغ المالية الكبيرة اللازمة لشراء السلاح ونقله الى ارض ــ اسرائيل.

واتضح بسرعة انه لا يمكن التغلب على القوات العربية من دون اسلحة مساندة ثقيلة، وخصوصا بعد ان اصبح معروفا ان الدول العربية قررت دخول المعركة بعد ١٥ ايار/مايو. 1525
«في امكاننا ان ننتصر»، قال د. بن ــ غوريون بعد شهرين من المعركة، «شرط ان يتوفر لدينا اربعة اشياء: مركبات، وطائرات، وسفن، وأسلحة. وهذه الاشياء الاربعة تتوقف على توفير الاموال. ليس هناك ادنى شك في انه سيكون لدى العرب، بعد الجلاء (البريطاني)،

سلاح ثقيل. ـــ ولا بد من ان نتزود نحن ايضا بسلاح ثقيل ـــ وفي قدرتنا ان نتزود بذلك استعدادا لـ ١٥ ايار/مايو كي نجابه كل هجوم عربي». لكن المشكلة لم تكن مشكلة أموال فحسب وانما ايضا مشكلة وقت. «لا اعرف ما سيحدث بعد عام»، قال بن ـ غوريون ردا على اولئك الذين تحدثوا عن مشاريع طويلة الامد، «اذا لم يحدث بعد ثلاثة اشهر (القصد اول ايار/مايو) ما يجب ان يحدث، فلن يحدث ايضا بعد عام».

ان تشعب نشاطات شراء السلاح، والافضلية القصوى التي اعطيت لها، والاعتبارات السياسية المرتبطة بذلك في الدول التي يجري شراء السلاح فيها، وضرورة التنسيق مع البلد، وتوفير صلاحية لاتخاذ القرار في مكان الشراء، وضرورة التنسيق بين العاملين الرئيسيين في شراء السلاح ـ كل هذا ادى الى تعيين شاؤول مئيروف منسقا لنشاطات شراء السلاح في الخارج. وكان مئيروف قد استدعي من عمله في «مؤسسة الهجرة» حيث كان يشغل منصب الرئاسة، ليتسلم منصبا في جهاز الدفاع والحرب في البلد. وقد سلم ادارة «المؤسسة» في باريس الى زئيف (فينيا) بومرنتس (هداري) وأوشك على تولي معالجة مشكلات النقب. لكن نتيجة للوضع التسليحي الصعب، ومع وصول الانباء من اوروبا وأميركا فيما يتعلق بتأخيرات وفشل في شراء الاسلحة وفي نقلها، اقترح د. بن ـ غوريون، في ١٩٤٨/٣/٢٠، على مئيروف السفر فورا الى اوروبا لـ «دراسة الوضع والقيام بكل ما يمكن عمله للاسراع في ارسال شحنات السلاح التي يعتمد عليها مستقبلنا فعلا، لجهة الحياة او الموت». ومع انه قصد في البداية ان تستغرق المهمة بضعة ايام، إلا انها امتدت الى اربعة اشهر طويلة ومصيرية بسبب الظروف.

وبعد ثلاثة ايام من ذلك كان مئيروف قد اصبح في اوروبا. وفي اللقاء الذي تم قبل السفر بينه وبين دافيد بن ـ غوريون ويعقوب دوري ويسرائيل غاليلي، قيل له: «ارسل كل شيء يطلق نيرانا». وأقام مئيروف مقره في جنيف، التي اختيرت قاعدة للنشاط بسبب قلة القيود المفروضة على العملات الاجنبية في سويسرا. وساعده، خصوصا فيما يتعلق بالشؤون المالية، بنحاس (بينو) غيزنبورغ، امين صندوق «مؤسسة الهجرة» الثانية.

«لا استطيع ان اصف، ولو الى حد ما» ـ كتب شاؤول مئيروف في مذكراته ـ «عبء المسؤولية الكبيرة التي احسست بها وأحس بها كل المسؤولين عن شراء السلاح في تلك الايام المصيرية. شعرنا بوضوح ان مصير المعركة في البلد يعتمد على نجاحنا او، لا سمح الله، فشلنا. ـــ لقد كنا نعرف تماما ان رجالنا سيقاتلون كالاسود، ولن تعيقهم او تردعهم اية تضحية او جهد. لكن ما هي قدرتهم من دون العتاد الضروري، على الاقل السلاح الخفيف والمساند، على الصمود في وجه الاعداء والمهاجمين من كل اتجاه؟ عملنا بكل قوانا الجسدية والروحية الى ان نجحنا وبدأت الشحنات الاولى تصل الى مقاتلينا بطريق البحر والجو».

وكانت انظار نشيطي المشتريات العسكرية شاخصة نحو ثلاثة اتجاهات، دارت فيها نشاطات مكثفة منذ بدء حرب الاستقلال: الى تشيكوسلوفاكيا، احدى اقدم الدول التي

كانت تنتج السلاح في اوروبا والتي لم تكن خاضعة لرقابة بريطانية مشددة؛ والى الولايات المتحدة الاميركية؛ والى دول اوروبا الغربية.

النشاط في تشيكوسلوفاكيا

كانت تشيكوسلوفاكيا تمر، في شتاء سنة ١٩٤٨، بمرحلة الانتقال من نظام ديمقراطي الى نظام شيوعي. واتخذ الفريقان المتصارعان على السلطة فيها كلاهما موقفا متعاطفا مع اقامة دولة عبرية في البلد. وكان اوريالد دورون (فيلكس) قد ارسل، في ايلول/سبتمبر ١٩٤٧، الى تشيكوسلوفاكيا حيث نجح ـ بصفته مولودا فيها ـ في تنمية اتصالات ومعارف، ومهد الطريق لعمليات شراء السلاح الكبيرة التي تمت في وقت لاحق. وانضم اليه ايضا مردخاي ميردور، منسق مشتريات السلاح في اوروبا. وبعد قرار الامم المتحدة، الذي عزز مكانة الموفدين لشراء السلاح، بدأ ايهود افريئيل بمفاوضات مباشرة مع السلطات العسكرية التشيكية ومصانع السلاح الخاضعة لها (مصانع «سكودا»)، مفاوضات كان لها وزن حاسم خلال حرب الاستقلال. لقد كانت الدوافع وراء استعداد السلطات التشيكية لبيع اسلحة على نطاق واسع الى اليهود في ارض ـ اسرائيل، هي الرغبة في دعم اليهود كقوة معادية للبريطانيين في الشرق الاوسط، والحاجة الى العملة الصعبة، وقد فعلت ذلك بعد ان تلقت الموافقة من الاتحاد السوفياتي. وكان العامل المقرر في البداية هو العامل المالي. ومع الموافقة على بيع السلاح لـ «الهاغاناه»، بيعت ايضا كمية كبيرة من السلاح لبعثة مشتريات سورية (انظر ص 1528). لكن في شباط/فبراير، بعد استيلاء الشيوعيين تماما على جهاز الدولة، صدر امر بعدم تزويد العرب بالسلاح، معلنا انهم معتدون. 1526

وقع العقد الاول مع مصانع «سكودا» في ١٩٤٨/١/١٤، واشتمل على ٤٥٠٠ بندقية «ماوزر»، و ٢٠٠ مدفع رشاش M.G.34 («مغلاديم» بحسب تسمية رجال «الهاغاناه») و ٥,٠٤٠,٠٠٠ رصاصة. وكانت قيمة الصفقة ٧٥٠,٠٠٠ دولار. وذكر رسميا ان البضاعة معدة للارسال الى الحبشة. وتبعت الطلبية الاولى طلبيات اخرى. وبلغ مجموع المشتريات من تشيكوسلوفاكيا حتى نهاية ايار/مايو ١٩٤٨: ٢٤,٥٠٠ بندقية، وأكثر من ٥٠٠٠ مدفع رشاش خفيف («مغلاديم»)، و ٢٠٠ مدفع رشاش متوسط («بيزوت»)، وأكثر من ٥٤ مليون رصاصة، واضافة الى ذلك ٢٥ طائرة «ميسر شميدت» بعتادها وذخيرتها. وكانت قيمة كل هذه الاسلحة ١٢,٢٨٠,٠٠٠ دولار تقريبا. وجند ايهود افريئيل يهودا بريغر، الذي وصل الى باريس للعمل في «مؤسسة الهجرة» الثانية فورا، بصفة خبير سلاح، لفحص الأسلحة المشتراة.

وكُلِّف رجال المشتريات العسكرية حل مشكلة نقل الاسلحة بطريق البر والبحر.

ومن اجل الاسراع في نقل الاسلحة، تقرر نقل شحنة سلاح بطريق الجو (عملية

«بالاك») واستؤجرت طائرة «كونستليشن» ذات اربعة محركات من شركة اميركية، وأقلعت من مطار براغ الى ارض ـ اسرائيل. وأحضرت الطائرة، تحت ستار مواد طبية، ٢٠٠ بندقية و ٤٠ رشاشا وذخيرتها، وحطت بسلام في مطار بيت داراس، الذي كان قد اصبح في تلك الفترة بيد «الهاغاناه». وقد وصلت، في ليل ١٩٤٨/٤/١، مع الاستعدادات لعملية «نحشون» (انظر ص 1560). لكن الحكومة التشيكية ابدت معارضة لهبوط طائرات اميركية في أراضيها، كما ان اقلاع الطائرة لم يخف عن اعين عملاء السفارة الاميركية، التي حذرت الطيارين الاميركيين طالبة منهم ايقاف نشاطهم، وحظرت على الشركة الاميركية وضع الطائرة في تصرف اليشوف العبري. ومضت اسابيع كثيرة في البحث عن سبل وطائرات (بما في ذلك اقتراح انزال بالمظلات). وبفضل علاقات زئيف بومرنتس، من رجال «مؤسسة الهجرة» في باريس، بأشخاص متعاطفين ـ يهود وفرنسيين ـ من ذوي النفوذ الكبير، حصلت «الهاغاناه» على اذن في استخدام مطار قريب من اياتشيو (كورسيكا). وبوساطة من يكوتيئيل فيدرمان، وافق صاحب شركة طيران خاصة في السويد على نقل الاسلحة من بيرنو (تشيكوسلوفاكيا) الى اياتشيو، ومن هناك نقلت بطائرات «سكاي ماستر» الى البلد. وقد وصلت الطائرتان الاوليان اللتان جددتا «القطار الجوي» من تشيكوسلوفاكيا، «بالاك» ٢ و «بالاك» ٣، الى البلد عشية اعلان قيام الدولة، وأحضرتا المدافع الرشاشة المتوسطة («البيزوت») الاولى ـ البالغ عددها ٥٢ ـ الى المقاتلين في البلد، وأيضا معدات تدمير وقطع غيار.

وبعد قيام الدولة، عندما اشتريت طائرات اخرى في الولايات المتحدة كان محظورا عليها الطيران الى ارض ـ اسرائيل، استخدمت اياتشيو مركزا لمساعدتها على الافلات من الرقابة الجوية الاميركية، وأمكن بواسطة هذه الطائرات تسريع عملية نقل السلاح الى البلد. وحتى نهاية شهر ايار/مايو وصلت ١٧ طائرة اخرى، حملت في جوفها طائرات الـ «ميسر شميدت» مفككة، مع قطع غيار وذخيرة لها. 1527

لكن نقل الجزء الاكبر من السلاح في الاسابيع الحاسمة السابقة لاعلان قيام الدولة تم، بعد توقيع اتفاق مع حكومة يوغسلافيا، بالقطار الى ميناء شيبينيك الصغير، بالقرب من سبليت، وهناك جرى تحميل السلاح، الذي مُوّه بطبقة من البصل والبطاطا، على متن السفينة التجارية الايطالية «نورا»، التي اشتراها لهذا الغرض أفرايم ايلين (رجل الاعمال الذي كان يخدم المنشقين و «الهاغاناه» على حد سواء). ورفض قبطان السفينة الابحار لانه لم يرد المجازفة بنفسه في حال اسر السفينة، واحتاج القائد المشرف على عملية الشحن، بنيامين يروشلمي، الى كل ما اوتي من قوة اقناع للتأثير عليه كي يبحر الى ارض ـ اسرائيل. وأمر يروشلمي ايضا عامل اللاسلكي بعدم تشغيل محطة الارسال كي لا تكشفها اجهزة التنصت البريطانية. وفي الطريق اضطرت السفينة، بسبب عاصفة شديدة، الى الالتجاء الى ميناء لارنكا في قبرص حيث رست وسط السفن الحربية البريطانية.

ووصلت السفينة الى شاطىء تل ابيب في ١٩٤٨/٤/١، وانتهى تفريغ حمولتها ــ التي ضمت ٤٥٠٠ بندقية، و ٢٠٠ مدفع رشاش، و ٥,٠٠٠,٠٠٠ رصاصة ــ في ١٩٤٨/٤/٣ . وقد وصلت الطائرة والسفينة مع بدء عملية «نحشون»، ونقل السلاح بعد انزاله من السفينة مباشرة الى مراكز توزيعه على المقاتلين. وفي اليوم التالي لوصول السفينة، ابرق بن ــ غوريون الى شاؤول مئيروف: «لقد وصلت الاشياء في موعدها، وأنقذت القدس. قل لإيهود افريئيل) بوركت». «عندما وصلت الهدية الى الوحدات» ــ كتب يسرائيل غاليلي الى مئيروف ــ «لم يتمالك بعض الشبان انفسهم فقبّلوا القطع والشحم ما زال عليها». «اذا كان الوضع في يهودا والمرج قد تغير الى الافضل ونحن الآن مسيطرون ــ اي مسيطرون على جبال القدس ــ فان الفضل في ذلك يعود الى شحنة السلاح الاولى التي تسلمناها»، كتب بن ــ غوريون في تلك الايام الى رجال المشتريات العسكرية في اوروبا.

مع بدء غزو الدول العربية، اتضح «اننا نستطيع تجنب الهزيمة حتى من دون طائرات مقاتلة وقاذفات، لكننا لن نتمكن من ان نحسم الحرب وننقذ مستعمرات ورقاع ارض واسعة من احتلال العدو» (ي. غاليلي). وأوفد ساخاروف بسرعة الى تشيكوسلوفاكيا لتسريع عملية ارسال الطائرات التي اشتريت لحساب ارض ــ اسرائيل. ان قصة هذه الطائرات، التي تعود بدايتها الى فترة «الهاغاناه»، تنتمي الى تاريخ سلاح طيران دولة اسرائيل. وسنكتفي هنا بأن نذكر انه، في ١٩٤٨/٥/٥، أرسل ثمانية طيارين اعضاء في «الهاغاناه» للتدرب على الطائرة المقاتلة ــ القاذفة: «ميسر شميدت». وقد تدربوا في كلية الطيران في تشيسكا ــ بوديوفيتسا. وأنهى ثلاثة منهم الدورة وشاركوا في المعارك الجوية في حرب الاستقلال. وقد وصلت الـ«ميسر شميدت» الاولى، من اصل الطائرات المقاتلة العشر التي اشتريت في تشيكوسلوفاكيا، الى ارض ــ اسرائيل في جوف طائرة «كونستليشن» في ١٩٤٨/٥/٢١. وبذلك ارسي اساس «القطار الجوي» من تشيكوسلوفاكيا الى دولة اسرائيل، الذي قام بدور بالغ الاهمية في إمدادات السلاح خلال حرب الاستقلال في صيف سنة ١٩٤٨. وقد وصلت حتى قيام الدولة الى شواطىء البلد ١٣ سفينة اخرى محملة بالسلاح احضرت ــ مع الطائرات الثلاث المذكورة اعلاه ــ ٦٢٤٠ بندقية، و ٥١٩ مدفعا رشاشا من جميع الانواع، و ٢٦ مدفعا. واستمر تدفق شحنات الاسلحة من الخارج بسرعة متزايدة في الاسابيع اللاحقة.

وفي الاسابيع الواقعة بين قيام الدولة وأمر تحويل «الهاغاناه» الى جيش الدفاع الاسرائيلي، وصلت الى البلد ١٠ مدافع اخرى عيار ٧٥ ملم، و ٣٠ مدفعا عيار ٦٥ ملم، و ٥ مدافع اخرى هـ. س. (عيار ٢٠ ملم)، بالاضافة الى ٧٠,٠٠٠ قذيفة مدفع، و ١٢ مدفع هاون عيار ١٢٠ ملم، و ١٥ مدفعا رشاشا متوسطا، و ١٥٦٤ مدفعا رشاشا، و ١٤,٧٦٠ بندقية، و ٢٤,٥٠٠,٠٠٠ رصاصة للبنادق. ان عشرات الآلاف من البنادق، وآلاف الرشاشات، وعشرات المدافع والدبابات التي وصلت، هي التي غيرت وجه الحرب في

1528

الايام الاولى للدولة الجديدة. ومع ان دولة اسرائيل اصبحت دولة معترفا بها، فان شراء السلاح استمر، لأسباب سياسية (الحظر والهدنة، الخ)، بالاساليب السرية نفسها العائدة الى فترة «الهاغاناه»، انما اتسع مداه أضعافا مضاعفة.

«عملية لينو»

في بداية سنة ١٩٤٨، عندما وقعت العقود الاولى بين ممثلي «الهاغاناه» ومصانع «سكودا» في اطار صفقة السلاح التشيكية، عقدت في المقابل صفقة سلاح بين التشيكيين والعرب. وتمت الصفقتان بايحاء من السوفيات في تشيكوسلوفاكيا، عندما تسلم الشيوعيون السلطة في هذه الدولة. وعلمت «الهاغاناه» بوجود صفقة السلاح التشيكية ـ العربية هذه في آذار/مارس ١٩٤٨. واتضح انه في مقابل شحنة الاسلحة التشيكية التي اشترتها «الهاغاناه» وأرسلت على متن السفينة الايطالية «نورا»، خرجت من ميناء فيوما السفينة «لينو» التي كانت هي ايضا ايطالية، وعلى متنها شحنة اسلحة تشيكية مرسلة الى سورية. وتضمنت الشحنة ٦٠٠٠ بندقية و٨ ملايين رصاصة.

وفي ضوء وضع نسب القوى في تلك الفترة في ارض ـ اسرائيل، اعتبرت هذه الشحنة تعزيزا خطرا لقوة العرب، يحتمل ان يتسبب بتغيير ميزان القوى وحدوث تطورات خطرة على الجبهة.

وأصدر شاؤول مئيروف امره الى رجال «الهاغاناه» في روما بالعمل ضد «لينو» مهما تكن النتائج. وكانت الخطة التي ارتسمت معالمها في ضوء الاهمية الخاصة للموضوع، والتي نبعت ايضا من عدم وجود وسائل افضل، هي إغراق «لينو» في عرض البحر بقنبلة بدائية وزنها نحو ٥٠ كلغ. وتُلقى القنبلة على السفينة من طائرة نقل من طراز «كوماندو»، تختار من بين الطائرات التي اشترتها «الهاغاناه» والتي كانت موجودة بروما في طريقها من القارة الاميركية الى تشيكوسلوفاكيا، لنقل اسلحة الى البلد.

وبسبب فرص النجاح القليلة امام هذه العملية والخطر المقترن بها من ناحية فقدان البحارة الايطاليين لحياتهم، قدم مونيا مردور اقتراحا بأن تعترض احدى سفن «مؤسسة الهجرة» الثانية السفينة «لينو» في عرض البحر. وتستولي مجموعة مقاتلين مسلحة على اكمل وجه، على «لينو» وتقودها بأسلحتها الى شواطىء البلد؛ واذا لم تنجح تغرقها في البحر. وبناء على ذلك ارسل من قيسارية في ١٩٤٨/٤/٢، ٢٥ من أفراد البلماح على متن سفينة الصيد «دروم افريكا»، وهم مجهزون بمدفع رشاش متوسط وستنات ومواد متفجرة. وكان في نيتهم التوصل الى اتفاق مع طاقم الملاحين الايطاليين، وفي حال المقاومة يستولون بالقوة على السفينة التي تحمل الاسلحة، ويتم تفريغ حمولتها على احدى الجزر المهجورة في جوار الساحل اليوناني ثم يغرقونها.

وأصر شاؤول مئيروف، الذي طلب موافقة بن ـ غوريون على تدمير «لينو»، على رأيه فيما يتعلق بالتدمير. وبناء على الافتراض انه لن تكون هناك معارضة في البلد، وافق شاؤول على القيام برحلات استطلاع جوية فوق البحر الادرياتيكي بهدف البحث عن «لينو»، وعلى تهيئة العتاد اللازم للقصف واعداد سفينة رحلات سريعة. كما عين شالوم ليفن مسؤولا عن تنظيم العملية من الجو، فقد كان يعتني وقتئذ ـ مع فريق من الطيارين ـ بطائرات «الهاغاناه» التي حطت موقتا في ايطاليا.

وبينما كانت الاستعدادات جارية وصل نبأ دخول «لينو» الى ميناء مولبتا، شمالي باري، بسبب عطل طرأ عليها. وعرفت السلطات الايطالية من عيدا سيرني، التي اتصلت بتكليف من «مؤسسة الهجرة» الثانية بعناصر صديقة في الادميرالية الايطالية، بنوعية حمولة السفينة «لينو». وبحجة ان القبطان ادلى بمعلومات كاذبة بصدد الحمولة، اعتقل الطاقم واقتيدت السفينة الى ميناء باري العسكري. 1529

وأثار اسر السفينة توترا خاصا في ايطاليا، التي كانت على أبواب الانتخابات. وفسر ظهور سفينة السلاح التي قدمت من ميناء يوغسلافي بأن في نية الشيوعيين الايطاليين الاستيلاء على السلطة بالقوة. واستوجب رسو السفينة في باري تغيير الخطط السابقة والتركيز، في الاساس، على محاولة إغراق «لينو» في الميناء. وبناء على طلب شالوم ليفن، اعفاه شاؤول مئيروف من مسؤولية معالجة امر «لينو»، وعادت السفينة «دروم افريكا» الى قاعدتها في قيسارية. وأوكلت قيادة عملية تخريب سفينة الاسلحة العربية الى مونيا مردور. وضمت الوحدة التي شكلت للقيام بهذه العملية: الملازم اول ـ امنون يونا؛ وحدة تدمير ـ يوسف درور وبيني كرفيتس ومئير باليك؛ عامل لاسلكي وسائقين. وبلغت الاستعدادات للعملية مرحلة متقدمة. وأرسلت اولا وحدة التدمير الى باري لدراسة المنطقة.

وفي روما طرح اقتراح باستخدام خبراء تدمير ايطاليين، لكن المسؤولين عن التنفيذ رفضوا هذا الاقتراح من زاوية «اننا في البلد لم نعتد ان يلتقط لنا احد الكستناء من النار او يحارب عنا».

وبعد الانتهاء من الترتيبات الضرورية في روما وصل مونيا مردور وأمنون يونا الى باري. وهناك وضع مونيا مردور خطة العملية، وحدد طرق الوصول والتسلل الى الميناء، والجدول الزمني للتنفيذ في الليلة ذاتها ـ في ١٩٤٨/٤/٨. وتم صنع اللغم باشراف يوسف درور من انبوب دراجة نارية حشي بالـ ت. ن. ت.، وركب عليه جهاز توقيت. وقد صنع الجهاز من مواد اشتريت من صيدليات وحوانيت وجرب في اثناء الاعداد للعملية. وأعطي صانعو اللغم تعليمات بأنه ينبغي ان يتسبب فقط باغراق السفينة وليس تفجير حمولتها، كي لا يقتل احد في الميناء.

وفي الليلة الاولى لم تنجح محاولة التخريب، على الرغم من ان أفراد وحدة التدمير اجتازوا بسلام كل الطريق بموجب الخطة، ووصلوا الى بعد نحو ٢٠ مترا من «لينو»؛ فقد

كان هناك حول السفينة وعلى متنها حراس ايطاليون، وأنارت مصابيح كاشفة لمدمرة بريطانية، راسية بجانبها، المنطقة في الجوار. وبما ان أفراد وحدة التدمير لم يكونوا مزودين بثياب غطس، فانهم لم يستطيعوا البقاء تحت الماء فترة كافية لالصاق اللغم بالسفينة. وفي طريق العودة فك أفراد وحدة التدمير جهاز التوقيت، وأغرقوا اللغم في الميناء. وفي اليوم التالي، ابحرت المدمرة البريطانية وكرر أفراد وحدة التدمير المحاولة فنجحوا هذه المرة؛ في الساعة الواحدة والنصف فجر يوم ١٩٤٨/٤/١٠، غرقت «لينو» بحمولتها من دون ان يصاب احد من جراء الانفجار.

لكن قضية شحنة الاسلحة السورية لم تنته بذلك. فمن دمشق أُرسل الرائد فؤاد مردم بك لانقاذ الشحنة وايصالها الى هدفها. ونتيجة تدخل السوريين انتشل الايطاليون «لينو» وحملت الشحنة، التي كانت نسبة ضئيلة منها فقط قد تضررت، على متن السفينة الايطالية «ارجيرو».

ودُسّ بين طاقم السفينة ميكانيكيان ايطاليان موثوق بهما، من العاملين مع «الهجرة الثانية». وكانت التعليمات التي اعطيت لهما هي ان عليهما بعد ساعتين من مغادرة الميناء ان يوقفا السفينة بحجة حدوث عطل في الآلات وينتظر وصول سفينة صيد على متنها اسرائيليون. وفي ١٩٤٨/٨/٢٠ ابحرت «ارجيرو» من ميناء باري.

وقبل يوم من ذلك، تسللت سفينة صيد سريعة من ميناء بلدة موله ــ دو ــ باري، وقد اختبأ في مستودعها البحاران دافيد بن حورين وعوفيد ساديه، اللذان كُلِّفا الاستيلاء على السفينة.

ووفقا للخطة، اوقف الميكانيكيان السفينة «ارجيرو» وتم اللقاء خارج المياه الاقليمية الايطالية، في المنطقة المحددة. وصعد دافيد وعوفيد، وهما يرتديان بذلتي ضابطين بحريين، الى ظهر السفينة شاهرا كل منهما مسدسا. وقدما نفسيهما للقبطان الايطالي كموفدين من قبل مردم بك لمرافقة السلاح، وأشارا الى جهاز اللاسلكي [الذي كان معهم] والمعد للاتصال بالعرب الذين اوفدوهما، زعما. ولم يشك القبطان في الضابطين البحريين، وقاد السفينة في الاتجاه الذي حدداه له.

1530

وبواسطة جهاز اللاسلكي، نسق لقاء بين «ارجيرو» وأسطول صغير تابع لسلاح البحرية الاسرائيلي في ١٩٤٨/٨/٢٦ في منطقة تقع شمالي شرقي جزيرة كريت. والتقى الاسطول الصغير السفينة في الموعد والمكان المحددين، فسيطر على السفينة، وتم نقل جميع الاشخاص والشحنة الى الطرادين «هاغاناه» و«ويغوود». أما «ارجيرو» فقد جنحت وأغرقت نتيجة ارتطامها. وفي ١٩٤٨/٨/٣٠ رسى الاسطول الصغير بحمولته في ميناء حيفا.

وفي اثر نجاح المرحلة الاولى من عملية «لينو»، انشأت «الهاغاناه» في اوروبا في

١٩٤٨/٥/١٣ «وحدة لتخريب اعتدة العدو في اوروبا»، بقيادة امنون يونا الذي كان حتى ذلك الوقت منسق التدريبات العسكرية في مخيمات اللاجئين في ايطاليا.

وقد بدأت هذه الوحدة تدريباتها في صيف سنة ١٩٤٨، ونشاطاتها خارجة عن نطاق أحداث كتابنا. لقد انجزت عملية «لينو»، ونفذت عمليات تخريبية اخرى، بينها ضرب طائرات كانت معدة للارسال الى الجيوش العربية.

شراء السلاح في ارض ـ اسرائيل

طوال فترة الحرب لم تتوقف عملية شراء السلاح في البلد، التي كان مصدرها الرئيسي مستودعات الجيش البريطاني. فقد توصل رجال المشتريات العسكرية، خلال سنوات عملهم، الى ايجاد اتصال مباشر بمسؤولين عن مستودعات وعسكريين بريطانيين، تعاونوا معهم بصورة مباشرة، لا بدافع من حب الخير طبعا؛ ففي جو التفكك الذي ساد في اثر قرار البريطانيين بالجلاء عن البلد، كان هناك ضباط وعسكريون بريطانيون كثيرون مستعدين لبيع السلاح لمن يدفع اكثر.

وقد تمت احدى عمليات الشراء المهمة وقتئذ بصورة قانونية في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨. ففي المطار العسكري في عقرون الذي بدىء بتفكيكه، عرضت للبيع كخردة ٢٠ طائرة من طراز «اوستر». ودفع أ. زيلوني، رئيس هيئة اركان مصلحة الطيران، اعلى ثمن (٨٥٠٠ جنيه فلسطيني) (انظر اعلاه، ص 1514). وبينما كانت قافلة سيارات الشحن التي حملت عليها طائرات «اوستر» على وشك مغادرة المعسكر، وصل امر من قائد سلاح الطيران البريطاني بالغاء البيع. وأجاب الضابط البريطاني المسؤول عن ذلك بأن القافلة قد غادرت المعسكر، وأمر رجال المشتريات العسكرية بمغادرة المعسكر مع الطائرات على الفور. وقد شكلت هذه الطائرات، بعد ان مرت بعملية ترميم وفحص دقيقة، مساهمة مهمة في الاسطول الجوي الضئيل في تلك الفترة.

وفي معسكر تل ليتفنسكي (اليوم تل هاشومير) كان رجال المشتريات العسكرية قد أبرموا اتفاقا مع مجموعة كاملة من رجال الجيش البريطاني، وكان القيد الوحيد على مشترياتهم كمية المال الموجودة في تصرفهم. «كان معظم عمليات الشراء هذه» ـ روى قائد المشتريات العسكرية في البلد، بنحاس فازيه ـ «ينفذ على الوجه التالي: كان احد رجال المشتريات العسكرية، الذي يتولى المسؤولية المباشرة عن هذا المعسكر، يدخل بسيارته الى تل ليتفنسكي، ويوقف سيارته، سيارة ركاب تخص المشتريات العسكرية، في مكان متفق عليه سلفا. ثم يتوجه الى مكاتب الجيش متظاهرا بتسوية بعض الامور، ومتذرعا بحجة او بأخرى. وفي اثناء ذلك كان البريطانيون «جماعتنا»، الذين تربطنا بهم روابط شخصية وتجارية، يحمّلون سيارة رجل المشتريات العسكرية الاسلحة المشتراة. وبعد ذلك كان رجلنا يعود الى سيارته فيدير

محركها ويخرج من المعسكر عبر البوابة، التي تكون حراستها في تلك الفترة «منظمة» من قبلنا، بناء على اتفاق مع الرقباء البريطانيين المسؤولين عن الحراسة».

1531 وبما ان الميزانية التي خصصت لعمليات شراء السلاح لم تكن كافية للاستفادة من الفرص المتزايدة، فقد تقرر القيام بمصادرة في معسكر تل ليتفنسكي. وكان المقصود مستودعا يحتوي، بحسب معرفة المسؤولين عن المشتريات العسكرية، على ١٠٠ بندقية، و ٥٠ ستنا، و ٥ «بياتات»، و ٨ «برنّات»، وذخيرة كثيرة. وخطط للعملية بدقة وحازت على موافقة القيادة العليا، لكن بشرط صريح هو عدم إلحاق اي اذى بأحد من حراس المستودع.

ومن اجل تنفيذ العملية في فجر يوم ١٩٤٧/١٢/٢٩، وضعت وحدة من البلماح بأمرة بنحاس فازيه، وقسمت الى مجموعات اقتحام ومراقبة وحماية، وأضيف اليها ٧٠ حمالا. وتوقفت الشاحنة المرافقة للمقتحمين على بعد ٥٠٠ متر من السور القريب من المستودع. وعند الاقتحام اطلق الحارس النار فأصيب المقتحم الاول، الخفير مردخاي برفالد (يوفال)، بجروح خطرة في بطنه. «لم يكن امامنا خيار» ـ كتب فازيه ـ «سوى الرد على النار بالمثل. وأُطلقت رشقة ستن على الجندي البريطاني الذي اطلق النار، فقتل على الفور». ونبه تبادل النار حراس المعسكر فنشبت معركة بينهم وبين رجال البلماح. وتحت غطاء من النيران عمل الحمالون بسرعة ونقلوا جزءا كبيرا من الاسلحة (٧٥ بندقية ومخازن «برن» وصناديق مملوءة بمواد متفجرة) الى الشاحنة التي توجهت الى ساحة الاطفائية في تل ابيب، ومن هناك ارسل السلاح الى وجهته.

ونقل مردخاي برفالد، الذي تحمل في اثناء الهجوم اوجاعه، الى مستشفى «بايلنسون» حيث سُجل باسم بدوي كي لا تقتفي الشرطة البريطانية اثره. لكنه توفى متأثرا بجروحه ودفن بمراسم عسكرية في المقبرة الكائنة في غفعات هشلوشاه.

وفي شتاء سنة ١٩٤٨، نفذت صفقات كثيرة بين رجال المشتريات العسكرية وضباط بريطانيين، كانوا مسؤولين عن تصفية مستودعات السلاح البريطانية، واتلاف جزء كبير من هذا السلاح الذي لم يكن من المجدي لهم نقله الى بريطانيا. وقد اقدم كثيرون من هؤلاء الاشخاص على فعل ذلك بداعي المنفعة والكسب، لكن كان هناك أفراد عملوا بدافع من الرغبة في مساعدة اليشوف على الوقوف في وجه أعدائه. وكان من ضمن المشتريات معظم السلاح الذي صودر من مستودع ياجور في يوم «السبت الاسود».

وفي نهاية سنة ١٩٥١، افتضح امر احدى هذه القضايا، عندما اعتقل في بريطانيا الميجر البريطاني نويمان لارتكابه جرائم مختلفة، من بينها ايضا بيع عتاد وسلاح بريطاني لليهود في شتاء سنة ١٩٤٨. وفي افادة نويمان امام المحكمة ذكر انه اتصل بقيادة القاوقجي لبيعها سلاحا بقيمة ٢٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني، لكن بعد ان عرف مصادفة ان العرب ينوون قتله بعد استلام السلاح، اتصل بـ«الهاغاناه». وبحسب شهادة فازيه باعه «سيارة مصفحة،

وسيارات جيب، ونحو ١٨٠ رشاشا من نوع «براوننغ» و «برن»، وبنادق، وأسلحة اخرى، وكمية كبيرة من الرصاص، ودفع لقاء كل ذلك ٣٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

وقد بذلت جهود خاصة للاستيلاء على قسم من السلاح البريطاني الذي تقرر اتلافه. اقام رجال المشتريات العسكرية علاقة بالسائقين العسكريين الذين كانوا ينقلون السلاح والرشاشات والبنادق والرصاص والقذائف لالقائها في عرض البحر، وكان هؤلاء يعطونهم قسما من هذا السلاح. وكان نقل السلاح يتم في الميناء. وفي اثناء تفريغ الشاحنات منه وتحميله على متن الزورق، كان قسم منه يجد طريقه الى قارب مزود بمحرك تابع لـ «هعوغين». وأنشئت وحدة غطاسين كانوا يقتفون اثر البريطانيين الذين يرمون السلاح في البحر. وبعد ابتعاد البريطانيين عن المكان كان الشبان، وبينهم اعضاء في مجموعة «هعوغين» وصيادون من مجموعة غوردونيا ــ معبيليم من عتليت، يغوصون في البحر وينتشلون ما يمكن انتشاله. وكانت هذه العملية مهمة بصورة خاصة كمصدر لمتفجرات الكورديت* التي كانت الصناعة الحربية بحاجة اليها. وبعد فترة، سلم قسم من القذائف التي خزنت في مستودعات «الهاغاناه» الى الدبابات التي كانت تمتلكها «الهاغاناه».

1532 وبذل رجال المشتريات العسكرية التابعون لـ «الهاغاناه» جهدا خاصا لـ «اصطياد» المصفحات البريطانية، التي كانت حيوية لحركة المواصلات بين المستعمرات.

وشكل ثلاثة جنود بريطانيين فروا من وحداتهم وعملوا في خدمة «الهاغاناه»، وحدة خاصة لهذه الغاية. كانوا يرسلون، وهم يرتدون زيهم العسكري، لتعقب هذه المصفحات. وعندما كان سائقو المصفحات يغادرونها لتناول الطعام في مطعم او للاستحمام في البحر، كان هؤلاء الجنود يستولون عليها ويفرون بها.

وكان رجال المشتريات العسكرية يخفون المصفحات التي تصل الى ايديهم عن هذا الطريق في اماكن مختلفة (بينها المغارة القريبة من شارع روبين في حيفا). وبعد دهنها كانوا يضمونها الى جهاز النقل التابع لـ «الهاغاناه».

وحدث عدة مرات ان بيعت مصفحات بسلاحها وذخيرتها لـ «الهاغاناه». وسيقت مصفحة الى كريات عنافيم، ومُوهت بأكداس من القش، الى حين «تجهيزها» للانضمام الى سيارات «الهاغاناه».

وكان من المصادر الاخرى لشراء السلاح الاتصالات بعرب كانوا يشترون السلاح المسروق من مستودعات الجيش البريطاني ويبيعونه لـ «الهاغاناه». وكان السلاح في منطقة القدس يصل من مستودعات «الفيلق العربي» في رام الله الى المدينة او الى جوار كريات عنافيم بالسيارات، وهو مغطى بالخضروات والفواكه لتمويهه. وقد ذكر في تقرير ليسرائيل غاليلي أُعد في بداية نيسان/ابريل ١٩٤٨: «اشتريت في البلد مئات الآلاف من رصاص

* الكورديت: متفجر لا دخان له يصنع على شكل حبال. (المترجم)

٣٠٣ للبنادق الانكليزية، لكنها لم تصل الى المستودعات بل وزعت على الفور وأنقذت (القدس) من الخطر. ـــ من دون ذخيرة اضافية من رصاص ٣٠٣، التي لا تصل من خارج البلد، سنختنق لان هذه الذخيرة في طريقها الى النفاد. ـــ ان الكمية المشتراة في البلد قليلة، لكنها مهمة وضرورية».

واتسعت الاتصالات بين مجموعات المشتريات العسكرية ورجال الجيش البريطاني، الذين كانوا مستعدين لبيع كل ما يصل الى ايديهم من العتاد العسكري. وفي الايام الاخيرة للحكم البريطاني في البلد، اتصل رجال المشتريات العسكرية بأفراد وحدة الجيش البريطاني المسؤولة عن اتلاف العتاد العسكري واشتروا منهم دبابة من طراز «شيرمان». ونقلت الدبابة الى المكان المقرر اتلافها فيه على جبل الكرمل، حيث سلمت لرجال المشتريات العسكرية. وكانت المشكلة التي واجهت المشترين نقل الدبابة الى تل ابيب. وبعد جهد كبير تم الحصول على شاحنة ملائمة. وكانت المشكلة الاصعب الحصول على إطارات تتحمل الوزن الثقيل. وبعد ان كانت تستبدل الاطارات التي تنفجر مرات عديدة، وصلت الشاحنة والدبابة الى مستودعات المعرض في تل ابيب، حيث تقرر ايداعها. «عند البوابة» ــ روى بنحاس فازيه ــ «وثب فجأة امام الدبابة حارس شاب كان يرتدي ملابس مدنية (لم يكن قد زود بملابس عسكرية)، وحاول ان يوقف الدبابة بالستن الذي كان يحمله... ولم ينزل سلاحه إلا بعد اقتربنا منه بسيارة المشتريات العسكرية، وكان الحق معه: ‹مجرد دبابة ــ انكليزية!› وشيء كهذا لن يدخل الى منطقة توجد فيها لـ ‹الهاغاناه› مستودعات». وختم فازيه بدعابة ساخرة: «ذلك الشاب، من قراء الصحافة العبرية المؤمنين، كان في الحقيقة واثقا من انه يمكن بالستن ايقاف دبابة...».

واستمرت نشاطات المشتريات العسكرية في اوساط رجال الجيش البريطاني المغادر للبلد ايضا بعد ١٥ ايار/مايو، حتى خروج الجيش البريطاني في ١٩٤٨/٦/٣٠، ووصلت الى ذروتها عندما اخرجت في اليوم الاخير للجلاء دبابتان من طراز «كرومبل»، يبلغ وزن كل واحدة منهما ٢٧ طنا، من مطار عسكري في خليج حيفا، واقتيدتا بمساعدة فارين من الجيش البريطاني الى ساحة بيت احد قدامى رجال «الهاغاناه» في حي بوروخوف. ورد البريطانيون على ذلك بمقاطعة حفل الوداع الفخم الذي اقامه على شرفهم رئيس بلدية حيفا، شبتاي ليفي. «شاركت هاتان الدبابتان» ــ روى بنحاس فازيه ــ «بأمرة يتسحاق ساديه، مؤسس وحدة المدرعات الاولى لـ «جيش الدفاع الاسرائيلي»، في احتلال الرملة واللد، وقامتا بعد ذلك بدور فعال في احتلال النقب». 1533

وفي تقرير لخص مشتريات السلاح في البلد من تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٧ حتى نهاية حزيران/يونيو ١٩٤٨، ورد ــ بين اشياء اخرى ــ ذكر لمدافع هاون عيار ٣ بوصات، و ٧ مدافع هاون عيار ٢ بوصة، و ٢ «بيات»، ونحو ٦٠٠ قذيفة، و ١٠٥ مدافع رشاشة متوسطة (معظمها من طراز «براوننغ»)، و ٢١٧ مدفعا رشاشا خفيفا (معظمها من طراز

«برن»)، و ۲۸۳ رشيشا، و ۳۱۹ بندقية، و ۹٥۷ مسدسا، وأكثر من ٢,٤٠٠,٠٠٠ رصاصة من مختلف الانواع، وكمية ليست كبيرة من المواد المتفجرة، وكميات مختلفة من اسلحة اخرى.

شراء السلاح في الولايات المتحدة

علق رجال المشتريات العسكرية آمالا كبيرة على الولايات المتحدة. ان نشاط حاييم سالفين الواسع خلق، على ما يبدو، آمالا كبيرة ايضا فيما يتعلق بشراء السلاح. واستمرت بعثة «الهاغاناه» في الولايات المتحدة، التي شكلها سنة ١٩٤٦ يعقوب دوستروفسكي (انظر ص 1235)، في نشاطاتها بادارة شلومو رابينوفيتس ـ شامير. وقبل قرار الامم المتحدة المتعلق بانشاء دولة اسرائيل، وصل الى الولايات المتحدة يهودا أرزي وتيدي كوليك، وشرعا في الاعداد لشراء اسلحة على نطاق كبير. لكن الحظر الذي فرضته حكومة الولايات المتحدة على شحنات الاسلحة الى الشرق الاوسط (انظر ص 1345) ألحق ضررا كبيرا بنشاطهما، وأدى اكتشاف شحنة الـ ت. ن. ت. في نيوجرسي (انظر ص 1518) الى لفت انتباه الشرطة السرية الفدرالية الى نشاطات مبعوثي «الهاغاناه». وعلى الرغم من تعاطف الرئيس ترومان والرأي العام الاميركي مع القضية اليهودية في ارض ـ اسرائيل، فقد اتخذ موظفو المؤسسات الامنية ووزارة الخارجية موقفا معاديا من النشاط غير الشرعي لشراء السلاح.

وأيضا لم يستوعب رجال الوكالة اليهودية في الولايات المتحدة حقيقة الوضع. ورفضوا الموافقة على المبالغ المطلوبة لشراء الاسلحة، التي بدت لهم خيالية، وأحالوا مطالب رجال المشتريات العسكرية على امين صندوق الوكالة أليعيزر كابلان. وبحسب رواية يهودا أرزي «عندما شاهد (كابلان) في القائمة سلاحا ضد الدروع، سأل: اين رأيتم دبابات عند عرب فلقيلية؟ وعندما سأل عن ثمن قذائف المدفعية وقيل له ان القذيفة تكلف ٥٠ دولارا، زل لسانه (بالييديش): ‹لن اطلق قذائف كهذه› ». وكان من الضروري خوض صراع للحصول على ثمن كل صفقة، والتفتيش عن مصادر اخرى للأموال.

اعترضت شراء السلاح عقبات هائلة، وخصوصا عملية إخراجه من الولايات المتحدة. وكانت النجدة الحقيقية الاولى التي وصلت الى البلد، من رجال مشتريات السلاح في الولايات المتحدة، سيارة نصف مجنزرة من اصل ٥٠، اشتريت لـ «الاستخدام الزراعي» زعما، ووصلت الى حيفا في ١٩٤٨/٣/٢٨. وظلت بقية الشحنة التي منع البريطانيون انزالها على شواطىء البلد على متن السفينة التي ابحرت الى الشرق الاقصى ولم تصل الى البلد إلا في نهاية سنة ١٩٤٨.

وقام يهودا أرزي بمحاولة على نطاق واسع عندما اشترى بواسطة تاجر سلاح بولندي من طبقة النبلاء سابقا، ستيفن تشرنتسكي (الذي قام لاحقا بدور كبير في عمليات شراء

السلاح لـ «الهاغاناه» في اوروبا الغربية)، اسلحة كثيرة في كندا، ابتداء بالبنادق والرشاشات وانتهاء بالمدافع والدبابات. وتقرر نقل هذه الاسلحة على متن حاملة طائرات تسمى «آتو» (Attu)، اشتريت في سوق مخلفات الحرب. وبدىء بترميم السفينة، لكن اتضح بسرعة ان ترميمها سيستغرق وقتا طويلا، وكان من المشكوك فيه حتى بعد ترميمها ان يكون في الامكان نقل السلاح بها بسبب معارضة حكومتي كندا والولايات المتحدة. فأوقفت عملية الترميم. وأخيرا، بيعت السفينة لتجار الخردوات، بخسارة كبيرة بلغت عشرات الآلاف من الدولارات. وتعرقلت ايضا خطة لشراء ٣٠,٠٠٠ بندقية وطائرات من المكسيك، بعد تدخل فعال من جانب مواطنين ذوي اصل عربي في هذه الدولة. 1534

وتجدر الاشارة في سياق قضية شراء السلاح في الولايات المتحدة ـ ولو بصورة عامة ـ الى عشرات لا بل الى مئات من اليهود وغير اليهود، من ابناء اميركا، الذين ساعدوا «الهاغاناه» سواء بالتبرع بالاموال والمواد اوكمنظمين وخبراء وسائقين وملاحين وطيارين، الخ. ومنهم من عمل ضد قوانين دولته، وحتى قدم الى المحاكمة بسبب ذلك. لكن القضاة والمحلفين تصرفوا ازاءهم بتفهم وتساهل، وحتى لو اضطروا الى معاقبتهم، فانهم كانوا يحاولون التخفيف من العقوبة قدر الامكان.

وسرعان ما تجاوز هذا النشاط شراء الاسلحة، اذ كانت هناك ضرورة لمواد تجهيزات عسكرية وتحصينات وما شابه ذلك. ووسعت مجموعة اصدقاء «الهاغاناه» بقيادة زونيبورن نشاطها. وسوية مع جمع الاموال شرع في جمع مواد: ألبسة وأحذية، خيم، مركبات من كل الانواع، اكياس رمل، مناظير الخ. ومن اجل جمع هذه المواد وارسالها الى ارض ـ اسرائيل أُنشئت شركة قانونية باسم «مواد لارض ـ اسرائيل» (Materials for Palestine). وقد تبرع اصحاب هذه المواد بقسم كبير منها مجانا، واشتري قسم منها بأسعار منخفضة جدا من مخلفات الجيش الاميركي، وقسم بسعر الكلفة فقط.

وقد اشرف على كل هذا النشاط وشراء المواد بصورة قانونية وغير قانونية تيدي كوليك، الذي كان حلقة الوصل بين «الهاغاناه» في ارض ـ اسرائيل وبين اصدقائها في اميركا.

وتمت خطوة مهمة في الولايات المتحدة بالبدء بشراء طائرات. في بداية عمل رجال المشتريات العسكرية نجحوا في ان يضموا اليهم المهندس أدولف (آل) شويمر، خبير الطيران الذي كان يعمل في شركة .T.W.A. وقد افادتهم مشورته وارشاداته كثيرا. ولم يكن شراء طائرات في الولايات المتحدة صعبا، كما كان سعر الطائرات التي أُخرجت من الخدمة زهيدا. لكن كانت هناك قيود مختلفة سارية المفعول بالنسبة الى اخراج الطائرات من نطاق الولايات المتحدة الى القارة الاميركية، وحظر تام على إخراجها الى دول ما وراء المحيط الاطلسي. ومن اجل تسهيل عملية شراء طائرات، اتصل رجال المشتريات العسكرية بشركة طيران تجارية كانت قد توقفت عن العمل منذ سنوات، «سيرفيس ايرويز»، كما أُنشئت شركة طيران في بنما. وعملت الشركتان باشراف شويمر. واشتريت اولا ثلاث طائرات

«كونستليشن» بسعر خردة، وبمرور الوقت اضيفت اليها ١٠ طائرات C.46 (طائرات حربية بمحركين، وطائرات كوماندو)، وتم ترميم جميع هذه الطائرات في مطار كاليفورنيا.

ومن اجل قيادة الطائرات الى خارج الولايات المتحدة اتصل المشترون بطيارين سابقين، معظمهم يهود خدموا في سلاح الجو الاميركي. وفور الانتهاء من ترميم طائرة الـ «كونستليشن» الاولى نقلت الى بنما. وقد اتضح لاحقا لموظفي الجمارك الاميركيين ان من المحظور خروج طائرة كهذه، بأربعة محركات. لكن بعد ان حدث ما حدث لم يكن في الامكان اعادة الطائرة. وأرسلت طائرة كوماندو واحدة بترخيص لترميمها في ايطاليا. وفي ١٩٤٨/٣/٢٦ علمت مجموعة المشترين ان حظرا عاما سيسري، في منتصف ليل ١٥ نيسان/ابريل، على اخراج طائرات من الدولة من دون ترخيص خاص. وخلال ايام معدودة جندت جميع الاطقم الجوية التي كانت مرتبطة بجهاز مشتريات السلاح، وطارت طائرات الكوماندو C.46 التسع الى بنما في الساعة الاخيرة قبل بدء تطبيق قانون الحظر (تحطمت احدى الطائرات في اثناء الطيران وقتل قائداها، بيل غيرسون وغلين كينغ)، ولم تصل هذه الطائرات الى البلد إلا بعد اعلان قيام دولة اسرائيل، وقامت بدور مهم في «القطار الجوي» الذي نقل العتاد والاسلحة التشيكية الى ارض ـ اسرائيل.

وعرف يهودا أرزي انه اذا كان يريد تقديم مساعدة سريعة الى «الهاغاناه» التي تقاتل في ارض ـ اسرائيل، فان لا فائدة من بقائه في الولايات المتحدة. فقرر العودة للعمل في اوروبا، لكنه قبل خروجه نجح في الحصول على جواز سفر دبلوماسي من حكومة نيكاراغوا، وأيضا على رسالة من ديكتاتور هذه الدولة الى ممثليه في اوروبا بأن يقدموا له المساعدة. 1535

وقد تمت عملية مهمة لشراء اسلحة في شتاء سنة ١٩٤٨ في جنوب افريقيا. ففي شباط/فبراير ارسل احد أفراد «السرب أ»، بوريس سنيور، الى مسقط رأسه في جنوب افريقيا لشراء طائرات وتجنيد طيارين. وبمساعدة المنظمة الصهيونية هناك، اشترى سنيور عشر طائرات مدنية، وسجل اسماء اربعين متطوعا لسلاح الطيران، سافر عشرة منهم فورا الى ارض ـ اسرائيل. وعاد هو نفسه الى البلد بطائرة خفيفة من طراز «بوننزا»، قاطعا المسافة البالغة ٢٠٠٠ ميل تقريبا باحدى عشرة ساعة طيران خلال خمسة ايام، وحطّ ـ من ضمن الامكنة التي حط فيها ـ في مطار الاقصر في مصر، مدعيا ان وجهته بيروت. وقد حط في مطار نير عام قبل عشرة ايام من قيام دولة اسرائيل. وفي الاسابيع التالية، وصلت الى البلد بطرق مختلفة الطائرات الاخرى المشتراة في جنوب افريقيا، وقامت بدور في سلاح الطيران الاسرائيلي الذي كان في قيد الانشاء. 1536

سلاح ثقيل من اوروبا الغربية

استؤنفت عمليات شراء الاسلحة في اوروبا الغربية في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧ (انظر الفصل الحادي والستين). بعد فترة وجيزة من قرار الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة بتقسيم البلد، عاد مونيا مردور، رئيس جهاز المشتريات العسكرية، الى ايطاليا لتجديد نشاط شراء السلاح وتوسيعه. وفي البداية استمر العمل بالطرق التقليدية. اخفي السلاح المشترى في مخابىء سرية بفجوات الآلات وداخل المواد الصناعية، ونقل الى البلد. وكان الاهتمام الرئيسي منصبا على المواد المتفجرة والذخيرة الخ...

«كثيرا ما ارهقنا القلق» ـ كتب م. مردور ـ «على حياة الاشخاص الذين أبحروا على متن سفن المسافرين التي نقلت شحناتنا المموهة، لأنها كانت تحتوي على مواد متفجرة ـ ت. ن. ت. وكورديت وفتيل المفرقعات ـ وكان هناك خطر كبير في وجودهم بالقرب من شحنات هذه المواد المتفجرة. وفي شهري كانون الثاني/ يناير وشباط/فبراير، قبل ان تبدأ شحنات الاسلحة الكبيرة من تشيكوسلوفاكيا بالخروج الى البلد، ارسل من ايطاليا ٢١٥ طنا من الاسلحة. وكانت ايطاليا في تلك الفترة المصدر الوحيد للذخيرة والمواد المتفجرة. وخرجت شحنة اخرى وزنها ٣٢٠ طنا في ٤ ايار/مايو ١٩٤٨. وقد تضمنت هاتان الشحنتان، بين اشياء اخرى: ٩٦ طنا من الـت. ن. ت.، و٢٢٣ مدفعا رشاشا، و ١٥٣٥ بندقية، ونحو ٣,٥٠٠,٠٠٠ رصاصة.

وبدأت اوروبا الغربية بفرض قيود شديدة على عمليات شراء السلاح. وعرقل الامور هنا، بصورة خاصة، الرقابة التي مارستها بريطانيا ونفوذها الكبير. لكن في دول كايطاليا وفرنسا، اثار هذا التدخل من جانب دولة اجنبية استياء شديدا في اوساط الجمهور، مما دفع عناصر كثيرة الى مساعدة «الهاغاناه» سرا. وساعد تعاطف الجمهور مع اليهود، سواء كضحايا للنازية اوكمقاتلين من اجل الاستقلال، مشتري السلاح. وفي مقابل ذلك، كان على حكومة فرنسا ان تأخذ بعين الاعتبار الرأي العام الاسلامي في شمال افريقيا. ولهذا السبب جرت هنا عمليات شراء السلاح بمساعدة غير رسمية من جانب السلطات، التي سمحت ظاهريا ببيع السلاح لحكومة نيكاراغوا، ذات السيادة، التي ظهر مبعوثها حامل الاسم الاسباني الطنان، الدكتور خوزيه أرازي، في كل مكان لازالة العقبات وتمهيد السبيل. ومع اتساع نشاط شراء الاسلحة ارسل الى ايطاليا يسرائيل ديكنشتاين ليعمل مرشدا ومستشارا تجاريا لرجال المشتريات العسكرية. وقد فعل الكثير لتخفيض الاسعار التي كان يدفعها رجال المشتريات العسكرية للباعة، وخصوصا للتخلص من الوسطاء والسماسرة الذين كانوا يقفون بين مصادر بيع السلاح والمشترين، ويتقاضون عمولة كبيرة. كما عمل على ترتيب شروط دفع مريحة، وتسهيل اجراءات الرخص ووثائق الشحن في دوائر الحكومة. كما قدم مساعدة كبيرة لرجال المشتريات العسكرية رجال المقاومة الايطاليون، الذين باعوهم سلاحا من مستودعاتهم. وكانت احدى المزايا الكبيرة لشراء الاسلحة في ايطاليا ثمن البضاعة الزهيد في هذه

الدولة. واشتري معظم السلاح كمخلفات وخردة. «احيانا كثيرة» ــ روى ديكنشتاين ــ «اضطررنا الى شراء المستودع بكل محتوياته، ووافقنا على ذلك معتبرين ان من المجدي شراء كل شيء، مع انه لا يمكننا الافادة إلا من جزء يسير من الموجودات». واستمرت عمليات شراء السلاح على نطاق اوسع بعد اعلان قيام الدولة.

وبعد مجيء يهودا أرزي بدأت محاولة لتوسيع النشاط وشراء كميات أكبر من السلاح، ومن أنواع اكثر ثقلا.

وكانت تلك هي فترة نيسان/ابريل ١٩٤٨، عندما ظهرت لدى المقاتلين العرب مدافع استخدمت على جبهة مشمار هعيمك وجبهة القدس. «سمعت انكم مشغولون بمشاريع كبيرة»، كتب د. بن ــ غوريون الى شاؤول مئيروف في ١٩٤٨/٤/١١، «فلتحل عليكم البركة. لكن من الضروري ــ من دون انتظار انجاز المشاريع الكبيرة ــ ان يكرس احد الاشخاص كل وقته لشراء قطع من الاسلحة الثقيلة وارسالها. اننا بحاجة ماسة اليها هنا فورا؛ انها مسألة حياة او موت». 1537

«ان النقص في الاسلحة بعيدة المدى» ــ كتب يسرائيل غاليلي الى مئيروف في اليوم نفسه ــ «يحطم معنويات الرجال ويخلق لديهم شعورا بالعجز والضعف».

وكُلِّف يهودا أرزي العمل، اولا وقبل كل شيء، للحصول على اسلحة ثقيلة. وكانت الصفقة الاولى التي تمت هي ايضا بواسطة الوكيل نفسه البولندي النشيط، الذي ساعد أرزي في الولايات المتحدة، عبارة عن ٢٥ مدفعا عيار ٢٠ ملم وذخيرتها اشتريت من مصنع «هسبانو سويتسا» في سويسرا. وكانت هذه المدافع صالحة للاستعمال ضد المصفحات الخفيفة، والطائرات المحلقة على ارتفاع منخفض. وأرسلت المدافع وقذائفها في ٥٠ سيارة شحن الى ميناء مرسيليا. وخلافا للتقليد المتبع فيما يتعلق بـ «الهجرة الثانية»، لم يخطر رجال المشتريات العسكرية السلطات المعنية في فرنسا بشأن الشحنة، مما تسبب بحدوث عدة عراقيل. لكن بعد ان تعهد رجال المشتريات العسكرية بأن يعلموا الاستخبارات الفرنسية في المستقبل بكل خطواتهم، عندئذ فقط وضع في تصرفهم رصيف في الميناء لم يكن مسموحا للعمال المسلمين من شمال افريقيا، الذين قد يخربون العتاد، بدخوله. وفي ١٩٤٨/٤/٢٥ احضرت السفينة الايطالية «رسوركتشيو» المدافع وهي مموهة بطبقة من البطاطا الى ميناء تل ابيب.

1538 وبعد ذلك تم الاتصال بمصنع الأسلحة الرئيسي في شمال فرنسا، «ادغار برنار»، الذي وافق على بيع ٥٠ مدفعا عيار ٦٥ ملم مع قذائفها، و ٢٤ مدفع هاون عيار ١٢٠ ملم، و ١١ مدفعا رشاشا عيار ٢٠ ملم، و ٢٥٠ مدفعا رشاشا من طراز «ساتو». ومن اجل التأكد من ملاءمة الاسلحة لحاجات البلد، ارسل خصيصا الى اوروبا الخبير بالاسلحة الثقيلة، دانييل («داني») كمحي. وعندما وصلت هذه الاسلحة الى مرسيليا، رفض العمال الذين كان معظمهم من المسلمين من مناطق [جبال] الاطلس تحميلها، مما اضطر أرزي الى استعمال نفوذه، كممثل لنيكاراغوا، فاقتنع العمال بالقيام بعملهم. وحمّل جزء فقط من

الحمولة، يشتمل على ٥ مدافع، على متن السفينة «سانتا كيارا» التي غيرت اسمها بمجرد خروجها من الميناء الى اسم «بوريا»، وقاية من العين الحاسدة. . . وحملت في نابولي شحنة بصل لتمويه البضاعة الممنوعة. وفي نابولي ثارت عقبة جديدة؛ فقد ترك البحارة الايطاليون العمل عندما عرفوا بطبيعة الحمولة، وكان لا بد من تشكيل طاقم جديد. ووصلت السفينة الى شاطىء تل ابيب في ١٩٤٨/٥/١٣. وبالقرب من الشاطىء اوقفتها مدمرات بريطانية، وصعد حرس بحري الى متنها واقتادها الى حيفا. وبدا ان الشحنة فقدت. لكن بعد يومين، مع انتهاء موعد السيطرة البريطانية، اجرى البريطانيون مشاورات وأفرجوا عن السفينة. وبعد خمسة ايام من ذلك، نصبت مدافع «الهاغاناه» الاربعة الاولى هذه فوق دغانيا وطبريا، و «الى حد كبير انقذت الوضع في غور الاردن».

وبعد عشرة ايام من ذلك، احضرت السفينة «ميسترلا» [العجوز] قسما آخر من المشتريات الفرنسية (من ضمنها ٢٠ مدفع ميدان، و ٥٠٠٠ بندقية مع ذخيرتها). وفي ١٩٤٨/٥/٢٨، احضرت السفينة «شياو» ١٠ مدافع عيار ٧٥ ملم من انتاج «كروب» اشتريت في سويسرا. وكانت هذه هي المدافع الاولى التي يمكن مقابلتها بمدافع ٢٥ رطلا لدى «الفيلق العربي» والجيش المصري، ومدافع الميدان الموجودة في حيازة سورية ولبنان.

وجرى ايضا نشاط سياسي في اوروبا الغربية لاحباط خطط الدول العربية لشراء الاسلحة بقدر الامكان. ففي نهاية آذار/مارس، علم ان الحكومة الفرنسية وافقت على بيع اسلحة للعرب بقيمة ٢٠ مليون دولار. وبعد جلسة عاصفة لمجلس الوزراء أُلغي عقد الشراء في ١٩٤٨/٤/٣، لكن صدرت تعليمات مشددة ايضا بايقاف بيع الاسلحة الى «نيكاراغوا».

خلال تلك الفترة، لم يتمكن رجال المشتريات العسكرية من الحصول على مواد متفجرة. «يئسنا تماما من الـ ت. ن. ت.» ــ ابرق ي. غاليلي الى مئيروف في ١٩٤٨/٤/٢٥. لكن، لم يصل رد على هذه البرقية.

وجرى نشاط خاص لزيادة قوة سلاح الطيران في ايار/مايو ١٩٤٨. وبما انه كان من المستحيل انشاء قواعد جوية لطائرات حربية ما دام في البلد جيش اجنبي معاد، فقد كُلِّف موفدو الييشوف في اوروبا، وخصوصا في فرنسا (موريس فيشر) وفي ايطاليا (عيدا سيرني)، الاتصال بالحكومات للسماح باستخدام احدى القواعد هناك بصورة سرية حتى ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨. وفي نيسان/ابريل ١٩٤٨، تمكن رجال المشتريات العسكرية من الولايات المتحدة من شراء عدة طائرات شحن في ألمانيا من طراز «نور سمين» من مخلفات الجيش الاميركي. وقاد طيارون مجندون في الخارج هذه الطائرات الى هولندا، حيث جرى اصلاحها وترميمها. وتقرر ان تكون قاعدة انطلاقها من اوروبا مطار توسو ــ لو ــ نوبل (Toussus le Noble) الصغير الواقع بالقرب من باريس. ووصلت الطائرات الثلاث الاولى منها الى مطار تل ابيب في ١٩٤٨/٥/٢ وهي محملة بالاسلحة.

ويشكل شراء المعدات التي لم يكن لها طابع عسكري صرف، قصة بحد ذاته. وقد تمت هذه المشتريات بواسطة مؤسسات تجارية عادية مثل: «سوليل بونيه»، وشركة الكهرباء، الخ. فاشتريت مؤن وخيام وخوذ فولاذية، وأيضا معدات اثقل مثل: جسور بيلي، وشبكات معدنية للمطارات الموقتة، وما شابه ذلك. وقد اوقفت مشتريات كثيرة من هذا النوع بعد اعلان قيام الدولة، وحولت صلاحية شرائها الى جيش الدفاع الاسرائيلي. 1539

ويوم قيام الدولة، في ايار/مايو ١٩٤٨، كان وضع تسليح «الهاغاناه» كالتالي:

	مدافع هـ. س.	مدافع هاون عيار ٣بوصات	مدافع هاون عيار ٢ بوصة	رشاشات متوسطة	رشاشات	بنادق	مسدسات	رشاشات صغيرة	قنابل يدوية
مستعمرات	–	٣٥	٣٥٤	٥٨	٥٣٨	١٠,٠٨٢	٣٩١٦	٣٧٧٨	١٢,٨٣٥
ألوية	٢٥	٦٧	٢٩٧	٩٧	٧٣١	٦٦٠٣	١٤٩١	٥٧٨٩	٧٣,٧٩١
مستودعات	–	٣	٣١	٢٧	–	٥١٧٤	٢٠٠	٦٩٧	٨٣٠٠
المجموع	٢٥	١٠٥	٦٨٢	١٨٢	١٢٦٩	٢١,٨٥٩	٥٦٠٧	١٠,٢٦٤	٩٤,٩٢٦

ولا يشتمل هذا الجدول، طبعا، على الاسلحة الكثيرة التي كانت جاهزة للارسال في اوروبا وأميركا وتأجل ارسالها الى حين انتهاء الحكم البريطاني في البلد. كما لا يشتمل ايضا على عدة أنواع، كنصف المجنزرات.

لقد تجاوز نشاط جهاز المشتريات العسكرية التابع لـ «الهاغاناه» في شتاء سنة ١٩٤٨ ــ من حيث الحجم ــ العمليات الصغيرة نسبيا التي تمت في السنوات العشر السابقة. لكن مما لا شك فيه ان العمل والخبرة الكبيرة، التي اكتسبت في السنوات السابقة، ساعدا الاشخاص الذين انيطت بهم المهمة المصيرية، في اثناء حرب الاستقلال، على العمل بسرعة وفعالية قصوى لاحضار الاسلحة اللازمة لليشوف كي يدافع عن نفسه وينتصر على أعدائه في اللحظة الاخيرة فعلا. ان حقيقة وجود كميات سلاح كثيرة، تشتمل على مدافع وطائرات، في حيازة رجال المشتريات العسكرية في الخارج، كان لها تأثير كبير في اثناء المناقشات التي دارت في منهيلت هعام [الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب]، عندما قررت في ١٢/٥/١٩٤٨ اعلان قيام دولة اسرائيل. وقد استمر مشروع شراء الاسلحة في ظروف مختلفة تماما وبزخم مختلف في فترة دولة اسرائيل، كامتداد مباشر لفترة «الهاغاناه» والعمل السري.

الفصل السابع والسبعون

الايتسل وليحي في بداية حرب الاستقلال *

الانشقاق عشية الحرب

قبل الشروع في رواية تاريخ المنظمتين المنشقتين عن «الهاغاناه» في الاشهر الاولى لحرب الاستقلال وحتى انشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي»، علينا ان نذكر فرضية اساسية واحدة:

لا يمكن مقابلة النضال ضد البريطانيين بالحرب ضد العرب. ان العمليات ضد البريطانيين لم تصل مطلقا الى مستوى حرب شاملة وحاسمة، اذ ان بقاء البريطانيين في البلد لم يكن في نظرهم بمثابة ضرورة حياتية. فهذا البلد لم يكن وطنهم، والمصالح الاستعمارية المرتبطة به لم تكن حيوية في نظر الجمهور البريطاني.

وفي مقابل ذلك، كانت الحرب مع العرب حرب حياة او موت، حربا حاسمة، كان من شأن نتائجها ان تقرر مصير الييشوف والشعب اليهودي الى اجيال، وفرص اقامة دولة يهودية وحتى مصير البقاء المادي لكل يهودي في ارض ـ اسرائيل. وفي حرب كهذه يوحد الشعب جميع قواه لهدف واحد، ينظمها بقيادة عليا تسيطر على القوة البشرية والاسلحة وتعين مجريات الحرب. وتعمل هذه القيادة بامرة قيادة الشعب، التي تضع في تصرف المجهود الحربي كل موارد الامة الاقتصادية والتنظيمية.

ان قادة المنظمتين المنشقتين، الذين ادعوا تمثيل العمل السياسي الرسمي والمسؤولية القومية، لم يكونوا قادرين على فهم هذه الحقيقة البسيطة. ويشهد على ذلك استمرار بقاء هاتين المنظمتين منظمتين عسكريتين مستقلتين صغيرتين، رفضتا الخضوع للسلطة المركزية، طوال تلك الاشهر الكثيرة، الطويلة والحاسمة. ولم يتم انهاء الانشقاق العسكري إلا بعد قيام الدولة.

في مقابل منظمة «الهاغاناه»، التي تحملت منذ بداية الحرب المسؤولية الشاملة عن امن الييشوف، كان حجم القوة العسكرية للمنظمتين المنشقتين وعدد اعضائهما ضئيلين جدا. لكن في تلك الايام، عندما كان من شأن قوة صغيرة احيانا ان ترجح الكفة، اذا استخدمت

---

* ايتسل: الحروف الاولى لـ «ارغون تسفائي ليئومي» (المنظمة العسكرية القومية).
ليحي: الحروف الاولى لـ «لوحامي حيروت يسرائيل» (المقاتلون من اجل حرية اسرائيل). (المترجم)

في المكان والزمان الصحيحين، كان انشقاق هذه القوات عن سلطة المجموع بمثابة تخريب في خطة القتال العامة لليishوف. واذا كانت ليحي لم تَدَّع منافسة «الهاغاناه» واعترفت بها بصفتها المنظمة العامة المدافعة عن الييشوف، وطالبت لنفسها فقط بحق خوض «حرب خاصة بها»، فان الايتسل سعت منذ بداية الحرب لان تفرض على الجمهور الاعتراف بـ «قيام قوة عسكرية ثانية في الييشوف». فقد قال مناحم بيغن، في اجتماع مع القادة التابعين له في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ (بحسب شهادة ي. اوفير): «على الايتسل التحول خلال فترة قصيرة من هيئة سرية صغيرة الى جيش نظامي، يأخذ على عاتقه مهمة نقل الحرب الى خارج حدود التقسيم». وكان بيغن يؤمن بأنه «في ظل حرب شاملة تستطيع قوة مبلورة مثل «همعماد» (الايتسل) ان تقوم بدور كبير، وربما بدور حاسم». لقد كانت النية اذن هي انشاء جيش مواز لـ «الهاغاناه»، يعمل وفقا لخط سياسي خاص به. وبناء على ذلك حاولت الايتسل منافسة «الهاغاناه» في تجنيد الاشخاص، وشراء السلاح، والقيام بعمليات عسكرية. ولم يخطر ببال هؤلاء الناس ان قيام «قوة عسكرية ثانية» في حرب ضد العرب ليس إلا سخافة من الناحية العسكرية وخسارة كبيرة من الناحية القومية. 1541

وبينما كانت «الهاغاناه» مضطرة الى توزيع قواتها في جميع ارجاء البلد، والتفكير مليا في المكان الملائم لتجميع القوات الضاربة وكيفية استخدامها من زاوية امن الييشوف الشامل، كان في استطاعة المنشقين، الذين كانوا متحررين من هذه المسؤولية الشاملة ومن هذه الاعتبارات، ان يحشدوا في قطاع معين من الجبهة، أعدادا كبيرة من رجالهم وأسلحتهم لم تكن دائما وفق حاجات المعركة الشاملة، وذلك من أجل اظهار تفوق وهمـي على «الهاغاناه» في ذلك المكان وكسب انتصار دعاوي تجاه الداخل.

ان مجرد وجود منظمتي المنشقين خرّب على عملية تجنيد الييشوف لقواه، اذ استخدمتا غطاء للمتهربين من واجب الخدمة العسكرية والمتملصين من التبرع بالأموال لأغراض امن الييشوف.

وطوال تلك الاشهر، شنت الايتسل وليحي حملة دعاوية جامحة ضد «الهاغاناه»، لا انتقادات في صلب الموضوعات وانما حملة تشهير وتآمر وتلطيخ لشرف السلاح العبري والقوة العسكرية، التي كانت تتحمل عبء الحرب بأكمله. وقد تمت هذه الدعاية، التي تعتبر في اية امة اخرى عملا تخريبيا موجها ضد المجهود القومي ــ زعما ــ باسم القومية المحض.

الايتسل في الايام الاولى للحرب

في بداية المعارك مع العرب بدأ في صفوف الايتسل غليان، وخصوصا بين اولئك الذين لم يترعرعوا في منظمات الشبيبة التصحيحية وانضموا الى الايتسل لانهم رأوا فيها قوة محاربة. وكان بينهم من توصل الى استنتاجات، مثل رجل الايتسل يتسحاق وايت الذي «ترك الايتسل قائلا: ‹الآن يحارب الجميع. وأنا ذاهب الى حيث توجد اسلحة كثيرة› ».

في الاشهر الاولى للحرب لم ترسل الايتسل اعضاءها الى مكاتب التجنيد العامة، التي كانت تعمل في استيعاب الطاقة البشرية في اليشوف وتوزيعها بما يتلاءم وحاجات المعركة. وبدأت باقامة مواقع دفاعية خاصة بها في المناطق التي كان عدد الاعضاء فيها كبيرا نسبيا، وهي مناطق تل ابيب والقدس وعدد من المستعمرات الكبيرة. وتكررت الظاهرة التي تكشفت في بداية أحداث سنة ١٩٣٦: اقام رجال الايتسل هنا وهناك مواقع موازية لمواقع «الهاغاناه». فيما يتعلق بمنطقة تل ابيب، تذكر ادبيات الايتسل ان مواقعها «امتدت في سلسلة على طول الحدود كلها: على حدود المنشية، وفي كيرم هتيمانيم، وفي حي شابيرا، وفي حي هتكفاه. وأقيم في كل مكان موقع رئيسي، لم يكن مقرا لقيادة القطاع فحسب وانما ايضا قاعدة للتدريب، وأقيمت بجانبه مواقع فرعية» (ح. ليزر). واذا قبلنا هذا الكلام على علّاته (مع ان من الواضح انه لم تكن لدى الايتسل القوة البشرية والاسلحة المطلوبة لاقامة سلسلة مواقع كهذه)، فاننا نجد امامنا صورة تبديد صارخ للقوة البشرية والاسلحة، لان «الهاغاناه» كانت قد اقامت في ذلك الوقت شبكة دفاعية حول تل ابيب، لم يكن في وسع مواقع الايتسل إلا ان تعرقل عملها. وبحسب مصادر الايتسل كان العدد الكلي لاعضائها عند نشوب حرب الاستقلال، في المناطق الست التي نظمت فيها، ٢٨٠٠ عضو. وكان اقل من ربعهم تابعا لـ «القوة المقاتلة». وكان سلاحها مكونا من مدفعي هاون، و ٣٠ مدفعا رشاشا («برن» و «براوننغ»)، و ١٨٠ بندقية، و ١٠٠ رشيش، و ٢٠٠ مسدس، وعدة مئات من القنابل اليدوية، وكمية غير كبيرة من المواد المتفجرة، وكمية من الاسلحة كافية لمنظمة ارهابية لكنها اقل من ان تكفي حاجات منظمة عسكرية.

وفي القدس، التي كان فيها للايتسل في بداية الحرب: «٢ مدفع برن، و ٩ بنادق، و ١٥ رشيشا، و ٢٥ مسدسا، وبضع عشرات من القنابل اليدوية، وكميات قليلة من المواد المتفجرة والذخيرة» (ي. اوفير)، وكان عدد اعضائها لا يزيد على ٩٠ جنديا في القوة المقاتلة، و ٢٥٠ رجلا في جهاز الدعاية العسكري، تبجحت الايتسل بالظهور كقوة عسكرية مدافعة عن المدينة وبأنها ستضمها في المستقبل الى الدولة العبرية. وفي الواقع لم تستطع ان تنفذ وعدها هذا، لكنها قدمت منفذا للكثيرين للتهرب من واجب التجند في «الهاغاناه». «تأخرت عملية التجند على نطاق واسع في صفوف الايتسل» ـ شرح بسذاجة، رجل الايتسل ي. اوفير ـ «بسبب وجود البريطانيين، وبسبب النقص في السلاح، وبسبب تأخر قادة الايتسل في التكيف مع المتطلبات الجديدة التي نشأت مع التخلي عن العمل السري. وبسبب كل ذلك نشأت شريحة كبيرة من السكان، تعودت على البطالة، ولم تنضم الى هذا الفريق او ذاك».

1542

وكان الوضع مشابها في عدة مستعمرات، وخصوصا في بيتح تكفا وفي نتانيا. وحاول رجال الايتسل احيانا التمركز في مستعمرات صغيرة لم تُدخلها منظمة «الهاغاناه» في خطة الدفاع على مستوى القضاء، ولم تحشد فيها قوة بشرية او اسلحة. وهكذا عرض رجال

الايتسل على المستعمرة الصغيرة بثير يعقوف المساعدة بهدف جعلها قاعدة لنشاطاتهم. وعندما منعت قيادة «الهاغاناه» في الجليل الاعلى رجال الايتسل من الذهاب الى مشمار هايردين، رغبة في ضمان وحدة القيادة والنشاط العملياني في القضاء، اثار رجال الايتسل ضجة كبرى.

ومن اجل الحؤول دون وقوع كوارث واخفاقات، اضطر قادة محليون الى ابعاد رجال الايتسل الذين حاولوا اقامة مواقع دفاعية «مستقلة» داخل خطوط «الهاغاناه»، او ــ عندما كان عددهم كبيرا ــ الى التوصل معهم بصورة غير رسمية او شبه رسمية الى اتفاقات محلية. وكان مثل هذا الاتفاق قائما، مثلا، في البلدة القديمة في القدس التي كان يوجد فيها ٤٠ رجلا من الايتسل في مقابل ١١٠ اعضاء في «الهاغاناه». «في البداية» ــ كتب أ. ليرون، من المدافعين عن البلدة القديمة ــ «احتلوا مواقع من دون اعتبار للأماكن التي كانت توجد فيها «الهاغاناه»، وكان معظم مواقعهم قريبا من مواقعنا ــ ــ ولم تكن نشاطاتهم تسير بتنسيق مع نشاطات «الهاغاناه»، وحدث اكثر من مرة ان شوّش هؤلاء على اولئك عن غير قصد». وبعد ستة اسابيع من اندلاع الحرب، تم التوصل الى اتفاق «اندمج رجال الايتسل بموجبه كوحدة مستقلة في اطار الدفاع عن المنطقة. وسلمت لهم عدة مواقع، فأزيلت بذلك ازدواجية وجود مواقع متقاربة اكثر من اللازم للمنظمتين. وقبلت وحدة الايتسل قيادة «الهاغاناه» لها من الناحية التكتية، سواء في اطار الدفاع او في اطار تنفيذ عمليات مبادأة» (المصدر السابق). ووضعت ترتيبات تنسيق اساسية كهذه في جبهات تل ابيب، والقدس الجديدة، وبيتح تكفا، ونتانيا. وعقدت اتفاقات مشابهة في عدة اماكن ايضا مع رجال ليحي.

وحوفظ على اتصال معين بين المنشقين و «الهاغاناه» بواسطة رؤساء البلديات والمجالس في كل من تل ابيب ورامات غان وبني براك، الذين كانوا من رجال «الهاغاناه»، لكنهم اقاموا علاقات بالمنظمتين المنشقتين بحكم مناصبهم. وفي منطقة رامات غان اتخذ أبراهام كرينيتسي رئيس المجلس المحلي موقفا واضحا مؤيدا للمنشقين، وكانت رزم الاغذية وبطاقات البنزين ترسل من قبل المجلس الى مواقع الايتسل، كما كانت ترسل الى مواقع «الهاغاناه».

ان جميع هذه الترتيبات والاتفاقات المحلية لم تكن مرضية، ونشأ الاحساس بضرورة اتفاق قطري شامل منذ اليوم الاول للحرب.

غارات الايتسل ضد العرب

تمثل نشاط الايتسل، في الشهرين الاولين للحرب، بتنفيذ هجمات من نمط «اضرب واهرب»، لم تكن مختلفة عن عمليات مشابهة قامت بها آنذاك «الهاغاناه». لكن نظرا الى انها لم تكن منسقة مع الخطة الشاملة لليشوف، وفي الاغلب لم تُخطر «الهاغاناه» بتنفيذها مسبقا، فان فائدتها كانت غالبا ضئيلة وأحيانا كان خطرها كبيرا.

في الاسبوع الاول للحرب، في ١٩٤٧/١٢/٦، خرجت مجموعة تابعة للايتسل

ومكونة من ١٥ شخصا، في سيارة تندر عسكرية لمهاجمة حي أكواخ الصفيح في ابو كبير عند مشارف تل ابيب. واصطدم أفراد المجموعة بمصفحات الشرطة البريطانية التي طاردتهم حتى وسط حولون، وجرح عدد منهم. واعتنى اعضاء «الهاغاناه» في حولون بالجرحى. واعتقدت 1543
قيادة «الهاغاناه» في حولون، التي لم تكن تعرف شيئا عن الهجوم في البداية، ان العرب ينوون اقتحام الحي، فاستدعت الى المكان وحدات قوة الميدان واحتياطيي البلماح. وبمعجزة فقط تم تفادي اشتباك بينهم وبين رجال الايتسل، الذين كانوا يبحثون عن ملجأ في المكان. وفي الوقت نفسه عندما فتح العرب النار على حي شابيرا، انقذ رجال الايتسل تحت النيران عضو «الهاغاناه» موشيه تسيبوري الذي اصيب بجروح خطرة، وجرح ثلاثة منهم في هذه العملية.

وفي ١٩٤٧/١٢/١٣، يوم سبت عيد الحانوكا، شن رجال الايتسل خمس غارات على تجمعات سكنية عربية. فقد ألقوا في القدس متفجرة في باب الزاهرة تسببت بمقتل عشرة عرب وجرح عشرات آخرين. وتسللوا الى يافا في سيارة وهم يرتدون لباسا عربيا، وألقوا متفجرة على مقهى عربي كان نتيجتها مقتل ستة اشخاص وجرح كثيرين. كما تسللوا الى اليهودية في اربع سيارات، ووضعوا مواد متفجرة قرب عدد من البيوت، وأشعلوها وانصرفوا. وفي غارة على قرية الطيرة جنوبي حيفا، قتل ١٣ عربيا. وكان عدد قتلى العرب في يازور ستة.

وبعد اسبوعين من ذلك، جدد رجال الايتسل عملياتهم. وفشلت محاولة للتسلل الى يافا عن طريق البحر. وفي اليوم التالي، ١٢/٣٠، تسلل شبان يرتدون ألبسة عربية الى يافا حيث ألقوا متفجرة على مقهى عربي. وقبل يوم من ذلك ألقيت قنبلة من سيارة مارة في منطقة باب الزاهرة في القدس، تسببت بمقتل ١٧ عربيا واثنين من البريطانيين.

وذاقت حيفا طعم هذا الاسلوب المر. فقد مرت سيارة لرجال الايتسل في الساعة ١٠,٣٠ صباحا قرب مصافي التكرير، وألقت قنبلة على مجموعة من العرب الباحثين عن العمل كانت تقف امام أبواب منشآت التكرير، فقتل ستة اشخاص وجرح عشرات غيرهم. وكان هناك في ذلك الوقت، في منطقة مصافي التكرير، نحو ٢٧٠ عاملا ونحو ٢٠٠ موظف يهودي بين ١٧٠٠ عامل عربي. وفور انتشار الخبر في المصافي عن الهجوم، ثار العمال العرب وحملوا هراوات وقضبانا من الحديد وأحجارا وكل ما وجدوه امامهم، «وعلت هتافاتهم ضد اليهود وبدأوا بمهاجمة كل يهودي صادفوه في طريقهم» (تقرير). وحاول العمال اليهود البحث عن ملجأ وتجمعوا في مباني ومكاتب مختلفة، ودافع عدد منهم عن انفسهم قدر امكانهم. واقتحمت جمهرة من المشاغبين مصنع البراميل، فقتلت ثمانية يهود كانوا فيه، كما قتل ٣٣ يهوديا آخر، كانوا يعملون وسط العرب، قبل ان ينجحوا في الوصول الى امكنة آمنة. «استمر شغب العرب اكثر من ساعة»، حتى وصل الجيش البريطاني الى المكان وفرض النظام. وأحضرت باصات عربية الى المكان، ونقلت العمال العرب الى بيوتهم «قبل ان تقوم الشرطة او الجيش بمحاولة للغربلة والتحقيق او تحديد هوية الذين شاركوا في اعمال الشغب». «ان أحدا لم يسمع بمثل هذا من قبل» ـ قررت لجنة التحقيق التابعة لليشوف التي

ألفتها المؤسسات القومية ـ «ولا شك في ان هذا دليل على الانحلال المطلق لجهاز الشرطة والتحري في البلد». وردت «الهاغاناه» على المذبحة في مصافي التكرير بعملية ضد قرية المعتدين: بلد الشيخ (انظر ص 1383).

وفي ١٩٤٨/١/٧، قامت الايتسل بعملية في باب الخليل بالقدس، وكان الهدف منها «رفع معنويات» اليهود المحاصرين في البلدة القديمة. ومن اجل ذلك، سرق رجال الايتسل سيارة مصفحة تابعة لـ «شرطة المستعمرات العبرية» وصلوا فيها الى باب الخليل حيث ألقوا قنبلة بالقرب من حاجز عربي عند الباب، تسببت بمقتل ٢٥ شخصا وجرح عدة عشرات. وفي طريق العودة ألقوا بقنبلة اخرى على مقهى عربي في شارع ماميلا. لكن القنبلة انفجرت بالقرب من المصفحة فقذفتها نحو سور المقبرة الاسلامية المجاورة، واضطر رجال الايتسل الى القفز منها والفرار عبر المقبرة. وأطلق شرطة بريطانيون كانوا في مواقعهم النار على الفارين، فقتل ثلاثة منهم، بينهم قائد العملية شمعون ليفي، ونقل رابع هو نسيم بن ـ حاييم جريجا الى المستشفى الحكومي، حيث قتل هناك على يد العمال العرب. 1544

وفشلت محاولة للتسلل بسيارة تحمل متفجرة عبر باب الخليل في ١/١٨، بعد ان تعرف العرب امام حاجز الباب على مناحم مدموني، من مواليد كفار هشيلواح، وكان متنكرا بزي عربي، فقتلوه بعد تعذيبه.

وفي ٢/١٤، اطلق رجال الايتسل النيران في اتجاه قلقيلية والرملة. وبعد اربعة ايام من ذلك ألقوا قنبلة على مقر «اللجنة القومية» في الرملة. وفي ٣/٦، نفذت عملية من نمط «اضرب واهرب» في قرية قاقون.

ويلخص هذا مجمل عمليات الايتسل في الاشهر الاربعة الاولى للحرب.

ليحي تواصل الانشقاق

في الايام الاولى بعد قرار الامم المتحدة، ساد الارتباك اوساط رجال ليحي. لم يكونوا مستعدين للتغير السياسي الذي طرأ على البلد، وكانت ردة فعلهم الاولى، العفوية، سليمة وصحيحة. وأصدرت قيادة المنظمة أمرا بحل ليحي كمنظمة عسكرية، واستمرار نشاطها كحزب سياسي ديمقراطي. وفي اثر هذا القرار، صدر امر الى الاعضاء بحرية التجند في وحدات «الهاغاناه». وبدأت المنظمة بالبحث عن حلفاء سياسيين. ومن اجل ذلك اتصلت بـ «تنوعات هعام» [حركة الشعب] التي اسسها بنيامين لوفوتسكي (إلياف). وأصدرت الاثنتان، ابتداء من ١٩٤٧/١٢/١٥، صحيفة مسائية باسم «مفراك» [التلغراف]. وقد سرى مفعول الحل فقط في المناطق التي تحددت بموجب قرار الامم المتحدة كمناطق تابعة للدولة اليهودية، وكان معنى ذلك عمليا استمرار بقاء الاطار العسكري المستقل في القدس. وبناء على قرار حل المنظمة دخل زعماء ليحي في مفاوضات مع لجنة الاحصاء التابعة

لليبيشوف، فيما يتعلق باعفاء نواة من النشيطين من خدمة العلم من اجل اقامة الحزب الجديد.

ولم يقبل قسم من اعضاء ليحي القرار بطيبة خاطر. «في ظلام الليل» — روى ي. شييف — «استدعاني من بيتي اشخاص قادمون من الفروع، وسألوني عن معنى الامر والدموع في عيونهم». كانوا مقتنعين بأن الجبهة البريطانية لم تتم تصفيتها، وبأن البريطانيين يتآمرون للبقاء والنشاط في البلد بطرائق مختلفة. وتوصلوا ايضا الى استنتاج عام بأن «منظمة الهاغاناه اظهرت ضعفا معينا» في الصراع ضد العرب (ي. بناي). «وفي خضم فوضى استمرت اربعة اسابيع ألغي امر الحل الاول» (ي. شييف). ودعي رجال ليحي الى العودة الى منظمتهم. وكان في تصرف قيادة ليحي في تلك الفترة ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ شخص، في حيازتهم نحو ٢٠ او ٣٠ بندقية، و ٢٠ رشيشا، و ٦ او ٨ مدافع رشاشة خفيفة (ي. بناي).

لكن لم يكن من السهل ابقاء الاعضاء في الاطار السابق بعد نشوب الاضطرابات وتغير الظروف في البلد. وأعلن يهودا آرييه ليفي، احد خبراء الاسلحة في ليحي والذي ابتكر عدة اجهزة تفجير وتدمير، ان في نيته الانضمام الى «الهاغاناه» والالتحاق بالصناعة الحربية وتكريس مواهبه لتطوير السلاح العبري. واتصل برجال «الهاغاناه» وأعلن استعداده لوضع نفسه، بخبرته ومعرفته، في تصرف «الهاغاناه» (ي. غاليلي). وبسبب «جريمته» هذه اختطف، وبعد عدة اسابيع وجد مدفونا في احد البساتين بالقرب من رعنانا.

واستمرت ليحي قائمة، لكنها خلافا للايتسل لم تتطاول لاحتلال مكان «الهاغاناه»، واكتفت بسلسلة من العمليات ضد العرب والانكليز قامت بها على عاتقها.

في الشهر الاول للحرب نفذ رجال ليحي عدة عمليات ضد البريطانيين. في ١٩٤٧/١٢/٩، أطلقوا النار على سيارات للشرطة البريطانية في ساحة الموشافوت في تل ابيب، وألقوا زجاجة مولوتوف على إحداها وهربوا وسط الجمهور المحتشد. وفتح رجال الشرطة النار ودفع شخصان من المارة (احدهما صبية عمرها ١٤ عاما) حياتها ثمنا للهجوم. وأدى إلقاء قنبلة على مقهى عربي في يازور في ١٢/١١ الى نتيجة مشابهة. فقد انصرف المهاجمون بسلام، لكن بعد انصرافهم مباشرة وصلت مصادفة الى المكان قافلة سيارات يهودية، وبدأ الجمهور العربي يرجمها بالحجارة فقتل سائق سيارة يهودي.

1545

وفي شهر كانون الثاني/يناير، تسلل رجال ليحي عدة مرات الى حي المنشية ونسفوا مباني فيه، كانت تستعمل مواقع للقناصة العرب. وأيضا خربت سكة الحديد المتجهة الى يافا فتوقفت حركة القطارات اليها.

وفي ١/٤، ادخل رجال ليحي سيارة محملة بالمواد المتفجرة الى يافا، وأوقفوها بالقرب من مبنى «السراي» القديم الذي كانت توجد فيه مكاتب اللجنة القومية، وشغلوا جهاز التفجير وعادوا الى تل ابيب سيرا على الاقدام. ودمر الانفجار مبنى «السراي»، وقتل ٢٦ عربيا تحت الانقاض. وكان لهذه العملية تأثير كبير على معنويات الجمهور العربي.

ودفع نجاح العملية رجال ليحي الى تنفيذ عملية اكثر جرأة. كُلِّف احد المتسللين الى يافا، أليشع ايفزوف، تهريب سيارة مواد متفجرة الى نابلس. واتصل لهذه الغاية بمتعاون عربي. وانطلق الاثنان في طريقهما في ٣/٥. وفي طولكرم سلم العربي ايفزوف للعرب. وأجري التحقيق معه وعذب، لكنه رفض تفكيك اللغم الموضوع في سيارته. وحاول خبيران بريطانيان كانا يعملان في خدمة العصابات العربية، من بين الذين وضعوا السيارة الملغومة في شارع بن يهودا في القدس (انظر ص 1547)، جهدهما لفك اللغم. لكن اللغم انفجر فقتلهما مع عدد من العرب كانوا واقفين للتفرج على العمل. وتم اعدام ايفزوف.

وحاولت الايتسل بعد شهر من ذلك تنفيذ عملية مشابهة، وتهريب سيارة ملغومة الى جنين. وكُلِّف القيام بذلك باروخ مزراحي (حمودة ابو العينين) الذي كان عربيا تهود وانضم الى الايتسل منذ يفاعته. وفور وصوله الى جنين ألقي القبض عليه وقتل.

وفي القدس شن رجال ليحي حربا خاصة بهم. قام نحو ١٠٠ شخص، لم يكونوا خاضعين لسلطة قيادة المدينة، بمصادرة مواد غذائية وأموال، ونفذوا عمليات غير منسقة مع الخطة العامة للحرب. وكانوا على وجه الاجمال عامل ازعاج ومضايقة بالنسبة الى الدفاع عن المدينة.

وقد فر السكان العرب في حي روميما العربي بعد ان نفذت وحدات «الهاغاناه» والايتسل وليحي ـ كل على حدة ـ عمليات تخريبية فيه. وأقام رجال ليحي قاعدة لهم في احد البيوت المهجورة في الحي، بعد ان هرب سكانه منه، ونسبوا الى انفسهم الفضل في «احتلال» روميما. وأقاموا قاعدة ثانية لهم في حي شيخ بدر، الذي جلا عنه سكانه ايضا بعد ان انذرتهم قيادة «الهاغاناه». وعملت وحدات ليحي احيانا بتنسيق مع «الهاغاناه»، لكن حتى في هذه الحالات لم يكن في وسع قيادة المدينة الاعتماد على انضباطها المطلق.

وقام رجال ليحي بعمليات مشابهة للعمليات المذكورة ايضا في عدة اماكن اخرى. وقد تمت على الاغلب من دون تنسيق مع «الهاغاناه»، وبالتالي لم تحقق الفائدة المرجوة وأحيانا عرضت للخطر مقاتلين يهودا لم تكن هناك ضرورة لذلك.

«الحرب الخاصة» التي شنتها ليحي ضد البريطانيين

واصلت ليحي هجماتها على البريطانيين على الرغم من ان هؤلاء اعلنوا انهم سيجلون عن البلد، وخلافا للخط السياسي الذي اقرته قيادة الييشوف بالامتناع عن التحرش بهم.

1546 في اثر العمل الشنيع الذي قامت به عصابة «منشقين» بريطانيين في شارع بن يهودا بالقدس، ردت ليحي بهجوم على سيارات عسكرية كانت مارة في القدس، وقتل عدد من الجنود ورجال الشرطة البريطانيين في شوارع المدينة. وبعد اسبوع من ذلك، في ٢/٢٩، جرى نسف قطار عسكري بالقرب من رحوفوت، وقتل في العملية ٢٨ جنديا.

وفي الاسابيع الاخيرة قبل قيام الدولة، جدد رجال ليحي نشاطهم المعادي للبريطانيين، في ضوء الانباء عن تعزيزات ارسلها البريطانيون الى ارض ـ اسرائيل (انظر ص 1553)، واعتبرها رجال ليحي خرقا من جانب البريطانيين للوعد بالجلاء عن البلد. فشنوا، في ٥/٦، هجوما على سيارة عسكرية بريطانية بالقرب من مخفر شرطة تل موند، وقتلوا ٧ جنود كانوا مسافرين فيها. واضطرت «الهاغاناه» الى اتخاذ اجراءات للجم المنشقين. وبما انه كانت توجد في حيفا، في ذلك الوقت، القاعدة البريطانية الكبيرة الاخيرة في البلد، فقد اصدر قائد «الهاغاناه» في حيفا أمرا باعتقال قائد ليحي في المدينة، موشيه كستنبويم، وثلاثة من زملائه، وبمصادرة مخزن المواد المتفجرة التابع للمنظمة. وبعد ثلاثة ايام من ذلك اختطف رجال ليحي اربعة من قادة «الهاغاناه» في تل ابيب، وبينهم يوسف روخيل (افيدار) رئيس شعبة المستودعات في هيئة الاركان العامة. وأجرت «الهاغاناه» عمليات تفتيش بحثا عن المخطوفين، لكنها لم تنجح في العثور على مكان اخفائهم. وظل المخطوفون محتجزين الى ان اطلق سراح اعضاء ليحي. وفي تلك الفترة وافق رجال ليحي على طلب «الهاغاناه» ايقاف نشاطهم الذي لا معنى له ضد البريطانيين.

والى جانب هذه النشاطات اخذت ليحي على عاتقها، من دون ان يطلب احد منها ذلك، مهمة محاكمة واعدام المشبوهين، بحسب رأيها، بالتجسس. وبين حين وآخر، كان يلقى القبض على اشخاص، وبينهم فتيات تربطهم صلة حب بعرب او بريطانيين، وتؤخذ تواقيعهم على اعترافات، ويجرى اعدامهم. ولم يكن في وسع الجمهور اليهودي تقبل اساليب «تحقيق» و«محاكمات» كهذه. وبدأت ليحي ايضا بمطاردة «الجواسيس» بين المهاجرين البولنديين اليمينيين الذين لجأوا الى البلد. وكان من بين الضحايا نائب القنصل البولندي سابقا في القدس، هوليانيتسكي، الذي توسط في اقامة علاقة في حينه بين أبراهام شتيرن والحكومة البولندية.

قضية دير ياسين

بعد اندلاع الحرب ساد الذعر اوساط العرب القاطنين ضواحي القدس. واستوجب تأمين المخرج الغربي للمدينة اجلاء العرب عن روميما وشيخ بدر. وبعد ذلك هجر العرب ايضا لفتا. وطلبت المالحة ودير ياسين عقد اتفاق سلام مع اليهود. «توجه اعيان القرية العربية دير ياسين» ـ كتبت «هماعس» (الناطقة بلسان ليحي) في آذار/مارس ١٩٤٨ ـ «الى قادة غفعات شاؤول وطلبوا عقد اتفاق عدم اعتداء. وتم عقد الاتفاق ولا يزال ساري المفعول حتى الآن». ووصف ضابط المخابرات في «الهاغاناه» سكان دير ياسين بأنهم كانوا ملتزمين بالاتفاق، و«وفوا بالعهد على الرغم من ضغط العصابات».

لكن مع بداية الهجوم الكبير الذي شنته «الهاغاناه» لتحرير الطريق الى القدس (عملية

«نحشون»)، وبعد احتلال القسطل (١٩٤٨/٤/٣)، وحلده العربية وديـر محيسن (في ٤/٧)، قرر المنشقون احتلال دير ياسين.

وكتب قائد القدس، دافيد شلتيئيل، الذي علم بخطة المنشقين، اليهم:

«اود ان ألفت انتباهكم الى ان احتلال دير ياسين والاحتفاظ بها يمثلان مرحلة في خطتنا العامة. ولا مانع لدي من ان تنفذوا انتم العملية، شرط ان تكونوا قادرين على الاحتفاظ بها. واذا لم يكن في وسعكم ذلك، فانني احذركم من نسف القرية، الذي سيجر في اعقابه 1547 ترك سكانها لها واحتلال الانقاض والبيوت المهجورة من قبل قوات غريبة. وهذا الوضع سيثقل على المعركة العامة بدلا من ان يخفف، وسيكلف احتلال المكان مرة اخرى ضحايا عديدة من رجالنا. وثمة سبب آخر اود ان اطرحه عليكم، وهو انه اذا جاءت الى المكان قوات غريبة، فسوف تتعرقل خطة انشاء مطار».

واضح من خلال الرسالة [اولا] ان القائد لم يكن سعيدا لمبادرة المنشقين. لكنه حاول، لعلمه ــ كما يبدو ــ بأنهم لن يستمعوا اليه، ان يشرح لهم كل ما هو مرتبط بها وما عليهم ألا يفعلوه كي لا يتضرر الدفاع عن المدينة، وبصورة خاصة خطة انشاء مطار في حي شيخ بدر المجاور؛ ثانيا، لم تكن هناك في القرية قوات غريبة ولم يكن سكانها يشكلون خطرا مباشرا على امن القدس (وهذا امر يتطابق مع الخبر المنشور في «هماعس» قبل ايام معدودة من العملية)؛ ثالثا، الاستيلاء على دير ياسين كان مرحلة من مراحل الخطة العامة لـ «الهاغاناه» (كما استولت قوات «الهاغاناه» في ٢١ نيسان/ابريل على القرية الصديقة ابو غوش)، لكن كما يبدو لم تكن لهذه السيطرة اولوية في سلسلة العمليات العسكرية. ولا ضرورة للقول انه لم يخطر ببال القائد ان مذبحة ستنفذ ضد سكان القرية المحتلة.

هاجم المنشقون دير ياسين في فجر ١٩٤٨/٤/٩؛ فقد خرج نحو ٨٠ من رجال الايتسل و ٤٠ من رجال ليحي من غفعات شاؤول ويافيه ــ نوف، وانقضوا على القرية، تتقدمهم مصفحة تحمل مكبر صوت. وتعثرت المصفحة في طريقها الى القرية بقناة فغرزت فيها. وبحسب شهادات المنشقين دعا مكبـر الصوت بالعربية النساء والاطفال والشيوخ الى مغادرة بيوتهم والالتجاء الى سفح الجبل. واصطدم المنشقون بمقاومة صدرت خصوصا عن بيت المختار المشرف على كل القرية، وقتل في تبادل اطلاق النار اربعة منهم. ولم يكن الاشخاص مدربين على القتال الميداني، وتكبدوا خسائر، في الاساس جرحى (٤ جروحهم بليغـة، و٢٨ جروحهم خفيفة). وبسرعة لمس نقص في الذخيرة. وذكر د. شلتيئيل قائد القدس، في وقت لاحق، انه في مرحلة معينة من المعركة حضر اليه مبعوثو المنشقين وطلبوا منه المساعدة لأن وضعهم اصبح صعبا، وذخيرتهم نفدت، ولم يعودوا قادرين على سحب الجرحى. وأعطاهم ٤٠٠٠ رصاصة للستن وكميـة من الرصـاص للبنادق. «أصـدرت أمرا» ــ روى ــ «الى رجال البلماح (الذين كانوا متمركزين آنذاك في معسكر شنلر ــ ي. س.) بتغطيتهم في اثناء سحبهم لجرحاهم. وعندما قامت هذه الجماعة التابعة للبلماح

بالتغطية، انسحب من هناك العرب الاخيرون (المقصود كما يبدو، المقاتلون العرب ــ ي. س.) الذين كانوا في المكان». وعادت الجماعة الى قاعدتها بعد ان انهت عمليتها، واحتلت ايضا بيت المختار. ونفذ المنشقون مذبحة في القرية من دون تمييز بين الرجال والنساء، والاطفال والشيوخ. وأنهوا عملهم بأن حملوا قسما من «الاسرى» الذين وقعوا في ايديهم على سيارات وطافوا بهم في شوارع القدس في «موكب نصر»، وسط هتافات الجماهير اليهودية. وبعد ذلك اعيد هؤلاء «الاسرى» الى القرية وقتلوا. ووصل عدد الضحايا من الرجال والنساء والاطفال الى ٢٤٥ شخصا.

ولن نعالج هنا مسألة الى اي مدى تسببت مذبحة دير ياسين بفرار العرب من مدنهم وقراهم. يكفي ان نذكر ان هذا الفرار، الذي كان منظما من قبل القيادة العربية، بدأ قبل اسبوعين من ذلك، في منطقة وادي الحوارث وأبو كشك في الشارون. وانه قبل عشرة ايام من [مذبحة] دير ياسين كتبت الصحف اليهودية عن خروج العرب من كل المنطقة الواقعة بين بيتح تكفا وهيرتسليا وتل ابيب، وأيضا من امكنة اخرى في الشارون والشفيلا.

لكن مما لا شك فيه ان اجهزة الدعاية العربية، التي تستغل حتى الآن اسم «دير ياسين» لتلطيخ سمعة دولة اسرائيل، عممت شائعة دير ياسين، وان هذا التعميم الذي كان يقصد منه زيادة كراهية العرب لليهود، ادى في الوقت نفسه الى زرع الخوف في قلوب الكثيرين، وكان «عاملا مساعدا في انهيار المؤخرة العربية في وقت لاحق» («تاريخ حرب الاستقلال»). 1548

ويجدر هنا ايراد رأي قائد ليحي، ن. فريدمان ــ يلين، وهذه هي أقواله التي قيلت بعد عام من الحادث.

«سألوني عن رأيي فيما يتعلق بدير ياسين، لأن رأيي بصددها كان معروفا. كان رأيي سلبيا، وكتبت هذه الامور الى المسؤول عن القدس وقتئذ. ــ حتى اليوم لم انجح في معرفة حجم المذبحة التي نجمت عن هذه العملية. ــ عندما اتذكر كيف اقتيدت الى الذبح امي وأختي وأبناء عائلتي الآخرون لا استطيع تقبل مذبحة كهذه. انا اعرف انه في وطيس المعركة تحدث اشياء كهذه، وأنا اعرف ان الاشخاص الذين يقدمون على ذلك لا يكونون مصممين على فعله مسبقا. انهم يقتلون لان زملاءهم جرحوا وقتلوا ويريدون الانتقام في اللحظة نفسها. وأنا اعرف ان شعوبا وجيوشا اخرى تفعل اشياء كهذه. لكن من يطلب منهم ان يأتوا ويتفاخروا بمثل هذه الاعمال!».

وتحفظ الييشوف العبري ومؤسساته على الفور من عملية المنشقين في دير ياسين. ذكر الناطق بلسان «الهاغاناه» في بيانه، الذي اذيع من «صوت اسرائيل»:

«مع احساس بالخزي، دخلنا هذا المكان الذي لطخ فيه المنشقون صورة الانسان العبري المقاتل ولطخوا شرف السلاح العبري وشرف العلم العبري. ــ وسيمر وقت

طويل قبل ان يغيب عن الذاكرة مشهد هذا السعي وراء النجاح الرخيص، وفقدان القدرة العسكرية، والبربرية التي اظهرتها منظمتان تتستران برداء البطولة والقداسة السامية».

وأعلنت الحاخامية الكبرى:
«خجلنا وأسفنا جدا عندما وصلتنا مساء السبت الماضي الشائعات فيما يتعلق بأعمال وحشية جرت في دير ياسين على يد اعضاء الايتسل وليحي. ـــ وتأملنا بأن تتبدد هذه الشائعات. لكن الآن، بعد ان تأكدت، مع اسفنا الشديد، فاننا نعرب عن شعورنا العميق بالصدمة واحتجاجنا الشديد».

وفي بيان الوكالة اليهودية قيل من ضمن ما قيل:
«تلقت الوكالة اليهودية الآن تفاصيل اكثر عن احتلال قرية دير ياسين على يد مجموعات من المنشقين، وهي تعرب عن احساسها بالصدمة والاشمئزاز من الشكل البربري الذي نفذت به هذه العملية. ـــ ان هذه العمليات تتناقض بصورة مطلقة مع روحية الييشوف. ان «الهاغاناه» التزمت دائما وستلتزم في المستقبل، ايضا، القواعد المحددة في اتفاقيات جنيف التي قبلتها الوكالة من دون تحفظ».

وبعد يومين من «احتلال» دير ياسين وضعت القرية الخالية من السكان تحت سلطة قيادة «الهاغاناه» في القدس.

خطط الايتسل

بعد ان تخلصت الايتسل من الارتباك الذي اصابها في الايام الاولى التالية لقرار الامم المتحدة، بدأت بوضع برنامج عمل جديد يقوم، في اساسه، على الطموح الى منافسة «الهاغاناه» في مكانة التنظيم العسكري الحاسم في البلد. ومن اجل ذلك كان لا بد من توسيع المنظمة، وتجنيد اشخاص، وجمع أموال، وشراء اسلحة.

وبينما كانت «الهاغاناه» منصرفة، في جميع انحاء البلد، الى حماية الوجود المادي للييشوف، شُغل رجال الايتسل بالاعداد لليوم الكبير الذي «ستبدأ فيه المواجهة الحاسمة في ساحة المعركة» (م. بيغن). وفي جلسة قيادة الايتسل في نهاية كانون الثاني/يناير، وضعت اربع خطط احتلال بديلة: القدس، يافا، اللد ــ الرملة، وأخيرا «المثلث» (منطقة نابلس وجنين وطولكرم). 1549

وفي هذه الاثناء شرع في تجنيد اشخاص وانشاء معسكرات تدريب في مناطق البساتين في بيتح تكفا ورامات غان («محانيه دوف»)، وفي ضواحي تل ابيب.

وكان هناك نقص شديد في القادة والمدربين المتمرسين والاسلحة. كما ان المشكلة المالية كانت ضاغطة. وفشلت محاولة للاستيلاء على صندوق مصرف «باركليز» في تل ابيب، جرت

في ١٩٤٨/٢/٢٢، بسبب التدخل الحازم لـ «الهاغاناه» التي وصل رجالها في الوقت الملائم وأرغموا «الجنود البريطانيين» الوهميين الذين طوقوا المصرف وتسللوا اليه على الانسحاب.

ومن اجل الحصول على أموال، افتتح رجال الايتسل حملة جباية لمرة واحدة باسم «كيرن هبرزيل» [الصندوق الحديدي]. وقد أُعلنت الحملة في الوقت نفسه الذي بدأت فيه حملة جباية الييشوف تحت شعار «عام لهغنتو» [للدفاع عن الشعب]. وكان في ذلك نوع من التحرش الصريح عندما ظهر رجال الايتسل في دعايتهم من اجل «صندوقهم»، وهم يحاولون التقليل قدر استطاعتهم من اهمية نشاطات «الهاغاناه» واظهار انفسهم انهم القوة الوحيدة التي يمكن ان تنقذ الييشوف.

ومن الصعب على المرء ان يصدق ــ والعدو ليس واقفا على الابواب فحسب وانما داخل المناطق اليهودية ايضا، وآلاف المقاتلين يعرضون حياتهم دفاعا عن الييشوف ــ كيف ان منظمة منشقة تجرأت على العمل في المؤخرة لتخريب المجهود المالي الذي كان ضروريا لاستمرار معركة الييشوف الحيوية. وفي اليوم الثاني لأسبوع «الصندوق الحديدي» في ٢/٢٦، وصلت الامور الى حد الصـــدام بين القائمين بالدعاية للايتسل الذين سيطروا على ساحة المغربي في تل ابيب، وبين فصيلة تابعة لـ «الهاغاناه» اتت لمنعهم من الاذاعة من احد المنازل في المكان. وأمر قائد الفصيلة بالقاء قنابل ارهاب وسط الجمهور المتجمع، وجرح عدة اشخاص والتهبت المشاعر. ووصلت الى الساحة ثلاث سيارات محملة برجال ايتسل مسلحين. ولقموا بنادقهم بصورة تظاهرية، وهاجمت جمهرة من الرعاع وحدة «الهاغاناه». وألقيت مرة اخرى عدة قنابل ارهاب للحؤول دون وقوع سفك دماء. «صدر الامر الى الفصيلة» ــ روى تقرير عن تلك الفترة ــ «بعدم اطلاق النار على سيارات المنشقين والانسحاب من المكان بلا قتال». وفي اليوم التالي، اصدرت القيادة العليا أمرا بعدم عرقلة عملية التبرع لـ «الصندوق الحديدي» ما دامت نشاطاته تجري «من دون ارهاب فعلي للذين يرفضون التبرع له ــ وفي حال وقوع حالات تهديد او استخدام للعنف، ينبغي استخدام الوحدات لطرد جامعي التبرعات. ويسمح باستخدام السلاح لاغراض الدفاع عن النفس او الدفاع عن الجمهور». ودعي الجمهور الى «عدم الاستجابة لمطالبهم (مطالب جامعي التبرعات) ورفض التبرع لهم».

وقد جرت حملة التبرعات في المدن والمستعمرات، وبحسب ما نشر في الصحف درّت على صندوق المنظمة المنشقة من ٦٠,٠٠٠ الى ٧٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني.

السلاح والامداد

حصل رجال الايتسل على الاسلحة بشن هجمات على مستودعات الجيش البريطاني. ففي ٢/١٥، أغاروا على معسكر امدادات عسكرية في الخضيرة وهم متنكرون في زي

جنود بريطانيين، وسيطروا على الحراس القلائل، من ابناء جزيرة موريشيوس، وحمّلوا سياراتهم بـ٤٠ طنا من الاغذية والمؤن والسلاح الفردي الذي اخذ من الجنود عنوة. وكفت هذه الامدادات جنود المنظمة في المواقع والقواعد لفترة طويلة.

وبعد غارة فاشلة على المستشفى العسكري في بئير يعقوف للحصول على السلاح في ١٩٤٨/٣/٢٣، جرت في شهر نيسان/ابريل عدة غارات، بقيادة إلياهو تسلر الذي كان قد فر قبل فترة قصيرة من سجن القدس: ففي ٤/٦، تسللت وحدة مقاتلة تابعة للايتسل الى معسكر مدفعية بريطاني بالقرب من بارديس حانه، وقد ارتدى أفرادها ألبسة عسكرية بريطانية، ومعهم مصفحتان مأخوذتان من البريطانيين. واقتحموا مخزن الاسلحة وبدأوا تحميل سياراتهم برشيشات وبنادق. وأمطر جنود المعسكر المقتحمين بوابل من الرصاص. ونشبت معركة عنيفة قتل فيها الكولونيل، قائد المعسكر، وسبعة من جنوده ورجل واحد من الايتسل. وغنم رجال الايتسل مجنزرة بريطانية. وتضمنت الاسلحة: ٦٢ بندقية، و ٣٩ رشيشا، و ٢٤ مدفع رشاش «برن»، وذخيرة كثيرة، وعددا قليلا من قذائف «بيات» الخارقة للدروع. وفرض البريطانيون منع تجول على المنطقة، قطع عمليا حركة المواصلات بين شمال البلد وجنوبه وألحق الضرر بصورة غير مباشرة بنقل السلاح والذخيرة من جنوب البلد الى جبهة مشمار هعيمك (انظر ص 1512).

1550

وفي ٤/١٧، هاجم رجال الايتسل قطارا عسكريا محملا بالذخيرة كان مسافرا من حيفا الى مصر. وكمن ١٢٠ مقاتلا و ٧٠ سيارة في مكان مموه. وعلى بعد ٤١ كلم من حيفا لغمت سكة الحديد بلغم صغير كان الهدف منه ايقاف القطار فقط. وفعلا توقف القطار وفتح رجال الايتسل النار عليه، ورد حراس القطار ــ البالغ عددهم ٢٥ جنديا ــ بنيران كثيفة. وقتل ثلاثة من البريطانيين وثلاثة من المهاجمين. وبعد ان هدد قائد العملية بنسف القطار بما فيه من اسلحة، كف الجنود البريطانيون عن المقاومة وخرجوا رافعين ايديهم في الهواء علامة على الاستسلام. وعندما فتحت مقطورات الشحن الست اتضح انها مملوءة بقذائف هاون عيار ٣ بوصات وقذائف مدفعية. وجلبت السيارات وبدىء بتحميلها. وأُرغم قسم من الجنود البريطانيون على المشاركة في التحميل. وتم تحميل ٥٠ طنا (٦٠٠٠ قذيفة) خلال اربع ساعات. وعند انتهاء العمل اطلق سراح الجنود البريطانيين ونقلت الذخيرة الى اقبية النبيذ ومنازل عائلة اهرونسون في زخرون يعقوف.

الايتسل تبدأ صنع السلاح

في شتاء سنة ١٩٤٨، بدأت الايتسل ايضا إنتاج السلاح. وقد ساعدها في ذلك اصحاب مصانع وورش من مؤيديها، وأيضا حرفيون كانوا مستعدين لمعاونة كل من يتوجه اليهم بطلب للمساهمة في الحرب. وبحسب مصادر الايتسل انتجت الاسلحة أجزاء فأجزاء

في انحاء مختلفة من تل ابيب ورامات غان وبيتح تكفا والقدس، واشتملت على قذائف مورتر ومدافع هاون ورشيشات وقنابل يدوية من طراز بولندي، وحتى قنابل وأجهزة اشعال. وأنتجت في ورش خاصة مدافع هاون عيار ٢ بوصة، وبعد ذلك مدافع هاون عيار ٣ بوصات. «خرج من ورش المنطقة ١٠٠ مدفع هاون عيار ٢ بوصة و٨ مدافع هاون عيار ٣ بوصات» (ح. ليزر). كما تم ايضا انتاج ٣ اطنان من المواد المتفجرة. وخزن الجزء الاكبر من الاسلحة في مستودعات ومخابىء سرية في منطقتي تل ابيب ورامات غان.

وفي ١٩٤٨/٥/١، وقع انفجار في غرفة على سطح مبنى في احد شوارع تل ابيب، بينما كان فريق من الاشخاص يجهز فيها عبوات لقنابل يدوية. وقتلت فتاة عمرها ١٨ عاما (تسيونا يافت) في اثناء قيامها بالعمل، وأصيب اربعة من زملائها بجروح خطرة.

شراء الاسلحة في الخارج

لكن رجال الايتسل عقدوا آمالهم الرئيسية على النشاط في الخارج، الذي شرعوا فيه منذ سنة ١٩٤٦ (انظر ص 932). وقد ازداد هذا النشاط في اثر قرار الامم المتحدة بتقسيم البلد. وبدأ موفدو الايتسل الى اميركا وأوروبا الغربية بجمع الاموال لاغراض الدفاع عن اليشوف في البلد، وبذلك ألحقوا ضررا لا يستهان به بعملية جمع الاموال من قبل المؤسسات القومية للغاية نفسها. وكُلِّفت قيادة الايتسل في اوروبا، التي كان يترأسها آنذاك إلياهو لنكين ولاحقا يعقوب مريدور الذي فر من كينيا، «تنفيذ برنامج تجنيد لواء كامل بأعتدته» (ي. مريدور). ونجح رجال الايتسل باقناع الشيوعيين الفرنسيين بأنهم ليسوا سوى حركة تحرير راديكالية وحصلوا منهم على ٢٥ طنا من الاسلحة من بقايا مستودعات حركة المقاومة السرية ضد النازية. ووقعت هذه الاسلحة في اثناء محاولة ارسالها في قبضة الشرطة الفرنسية. وفي اثر هذا الفشل، بدىء باقامة علاقات بالسلطات الفرنسية للحصول على الاسلحة بكميات اكبر.

1551

واشتريت سفينة انزال حمولتها ٤٥٠٠ طن بواسطة أبراهام ستيفسكي بأموال «هفاعد لماعن هشحرور» [لجنة التحرير] بالولايات المتحدة في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٧، وأُرسلت الى فرنسا في الربيع، واستخدمت هناك في نقل شحنات بضائع مختلفة «بقصد بقائها صالحة للعمل وبقصد التمويه» (إ. لنكين). وعلى شواطىء فرنسا جهز السلاح لـ «الجيش الثاني» لدولة اسرائيل. وطلبت قيادة الايتسل بأوامر بعثت بها، في منتصف آذار/مارس، الى إ. لنكين ان يعمل على ان تصل السفينة الى البلد في منتصف ايار/مايو، فور انتهاء الحكم البريطاني، على ان يكون الرجال «جاهزين للخروج من السفينة مباشرة الى الجبهة» (إ. لنكين). ووضع في السفينة سلاح كاف ــ بحسب شهادة مناحم بيغن ــ لتجهيز ٨ او ١٠ كتائب. وكان من المفروض ان ينضم الى مجندي الايتسل في ارض ــ اسرائيل ٩٢٠ مهاجرا

شـــابـــا، بينهم ١٤٠ فتــاة. وأُطلق عــلى السفينــة اسم «ألتيلينــا» (الـلقب الادبـي لـ ز. جابوتنسكي). ووصلت هذه السفينة الى شواطىء دولة اسرائيل في حزيران/يونيو ١٩٤٨. وقصة اصطدامها مع دولة اسرائيل و «جيش الدفاع الاسرائيلي» خارجة عن نطاق هذا الكتاب.

احتلال المنشية

في ربيع سنة ١٩٤٨، لم تكن الايتسل مهيأة للقيام بعمليات عسكرية كبيرة. ومع ذلك قررت قيادتها ان تنفذ اول خطة احتلال خاصة بها، هي خطة احتلال يافا.

وكان السبب في هذا القرار واضحا: اعتبرت الايتسل نفسها قوة عسكرية بديلة لـ «الهاغاناه»، والى حد ما متفوقة عليها. وفي الأشهر الأربعة الأولى لحرب الاستقلال، كان لا يزال يخيل اليها ان في وسعها ان تعزز بهدوء قواتها وتظهر في ايار/مايو ١٩٤٨، في المعركة العسكرية. لكن بسبب من تطورات الحرب انتقلت الهاغاناه في نيسان/ابريل ١٩٤٨ الى الهجوم الذي كانت بدايته عملية «نحشون» (انظر ص 1562). وفي تلك الفترة، هزمت «الهاغاناه» جيش الانقاذ العربـي على أبواب مشمار هعيمك ورامات يوحنان، واحتلت قرى عربية في الجوار. لكن ما كان له اثر اكبر بصورة مباشرة في الرأي العام اليهودي كان تحرير طبريا في ٤/١٨، وحيفا في ٤/٢٢. وعلا شأن «الهاغاناه» في نظر جميع الاوساط، واعتقدت الايتسل ان من الضروري اظهار قوتها.

كانت الاشتباكات المحلية على حدود يافا وتل ابيب قد استمرت خمسة اشهر تقريبا. وامتنعت «الهاغاناه» عن مهاجمة يافا لأن خط القيادة السياسية كان الامتناع عن الاصطدام بشكل جبهوي مع القوات البريطانية المعسكرة في يافا والمسؤولة عن حمايتها. وكان خطة «الهاغاناه» تطويق المدينة من جميع الجهات وعزلها عن المؤخرة العربية. وفي ٤/١٧، شوهدت الدلائل الاولى للجــلاء. ترك رجال الشرطة البريطانيون المدينة و «علم ان قوة صغيرة من الجيش البريطاني ستبقى في يافا، ومن مهماتها نقل السلطة الى العرب عندما يتخذ قرار في ذلك» («هآرتس»). وكان سقوط حيفا قد زعزع كثيرا معنويات ابناء يافا، الذين كانوا يخشون حلول الاوان الذي يغادر فيه الجيش البريطاني مدينتهم.

وحشدت الايتسل ٦٠٠ شخص من خيرة رجالها، من تل ابيب وحيفا ونتانيا وبيتح تكفا ورامات غــان ومن مستعمرات الجنوب في «معسكر دوف»، في رامات غان، لتنفيذ العملية في اول ايام عيد الفصح في ٤/٢٤، وجندت ايضا الخدمات المساعدة التابعة للمنظمة. وكانت هذه هي اول مرة تخرج فيها الايتسل الى المعركة بمثل هذا العدد الكبير من الرجال. ووزعت الاسلحة على المقاتلين (بحسب ح. ليزر): ١٨٠ بندقية و ٤٠٠ ستن و ٣٥ مدفعا رشاشا ونحو ٢٠٠٠ قنبلة يدوية. وبالاضافة الى ذلك، كان لديهم مدفعا هاون عيار ٣

1552

بوصات، وذخيرة كثيرة من سرقة القطار التي تمت قبل نحو عشرة ايام من ذلك، وأربع سيارات مصفحة، ومدفعا «بيات».

وكانت خطة العملية: في المرحلة الاولى عزل جيب المنشية عن طريق الاندفاع من نفيه شالوم في اتجاه البحر؛ وفي المرحلة الثانية اقتحام وسط يافا واحتلاله.

«من دون إخطار «الهاغاناه» ومن دون تنسيق مع خطة الدفاع عن تل ابيب» ــ اعلنت في اليوم التالي قيادة «الهاغاناه» في تل ابيب ــ «انطلقت الايتسل في هجوم لاحتلال مدينة يافا» («صوت الهاغاناه»). وجدير بالذكر انه في تلك الفترة كانت تدور المفاوضات بشأن اتفاقية بين الايتسل و«الهاغاناه» (انظر ص 1555).

ورفض طلب رجال ليحي اشراك وحدات من اعضائها في العملية، اذ ان احتلال يافا كان ينبغي ان يتم على يد الايتسل وحدها.

وبسبب تأخيرات مختلفة لم يبدأ الهجوم في الليل كما كان مخططا، وانما في صباح ٤/٢٥. بدأت الايتسل في الساعة التاسعة صباحا بقصف وسط يافا وميناثها بمدفعي الهاون. «كنا واثقين» ــ روى احد المقاتلين ــ «من ان كل يافا ـــ اصبحت في جيبنا».

لكن هجوم الايتسل على عنق المنشية فشل. «اتضح ان العدو كان مستعدا على اكمل وجه للدفاع» (ح. ليزر)، وكان البريطانيون الذين تلقوا أوامر مشددة من لندن بعدم السماح بتكرار قصة حيفا في يافا، ايضا مرابطين في مصفحاتهم خلف مواقع العرب و«مستعدين في كل لحظة للاندفاع لصد اي هجوم يهودي» (المصدر السابق).

«اظهر التقويم الاولي انه لم يتم بصورة كافية تقدير تفوق العدو وقوة نيرانه ـــ وكان واضحا ايضا ان اندفاع قوات كبيرة في هجوم جبهوي لا يؤدي الى الحسم؛ انه يزيد في الخسائر فقط، لكنه لا يحدث تغييرا في الوضع» (ح. ليزر).

وفي الليل اخلت الايتسل جبهة المعركة من معظم رجالها، وأبقت ثلاث وحدات مختارة فقط. وتقدمت إحداها صباح اليوم التالي في اتجاه محطة القطار في يافا، «لكن العدو كان بالمرصاد. وغطت دبابات بريطانية ومدافع رشاشة «شفنداو» عربية كل منطقة المعارك بنيران كثيفة ـــ ولم يعد في الامكان التقدم في العمق» (المصدر السابق)، واضطرت وحدة الايتسل الى الانسحاب. وأرغمت ايضا على الانسحاب وحدتا الايتسل اللتان حاولتا اقتحام يافا في قطاع شارع زيراح برنت. و«في المساء اتضح ان الجبهة لم تخترق ايضا في اليوم الثاني للمعارك» (ح. ليزر).

«ساد صفوف المنظمة شعور بخيبة الامل ونفاد الصبر. لم يحدث انجاز حقيقي جدير بالثناء. وامتنع القادة عن النظر الى وجوه الجنود، وخجل الجنود بعضهم من بعض. فالمعارك الدامية مستمرة ولم يحققوا انجازات» (ح. ليزر). وفي مساء ذلك اليوم، اقترح م. بيغن ايقاف العملية بعد ان «اتضح ان قوة العدو اكبر بعدة أضعاف من قوتنا، وينبغي عدم تجاهل نسب القوى هذه» (المصدر السابق).

وقبلت القيادة رأي بيغن، لكن القادة الادنى رتبة رفضوا ايقاف العملية وطلبوا السماح لهم بالقيام بعملية اخرى. ومرة اخرى سرح كثير من المجندين «وأبقي فقط لمواصلة القتال على خيرة الجنود، القدامى والاكثر تمرسا، وخصوصا القادة» (المصدر السابق).

وفي ٤/٢٧، اعلم البريطانيون يسرائيل روكاح، رئيس بلدية تل ابيب، ان الجيش البريطاني سيمنع بالقوة احتلال يافا. وقال قائد الكتيبة الايرلندية الاولى لرماة الملك، الميجر ج. ج. هاملتون: «تلقيت أمرا بانقاذ المدينة لمصلحة العرب مهما يكن الثمن، وخصوصا في ضوء حقيقة ان اليهود احتلوا حيفا».

وبعد ظهر اليوم نفسه، جدد رجال الايتسل هجومهم. وكان اول من تقدم وحدة مشكلة بأكملها من القادة. وخصصت وحدات خاصة لملء اكياس بالرمال، كان من المفروض ان تتيح التقدم الذي كان بطيئا بسبب النيران الكثيفة من جانب العرب. وقبيل المساء تم احتلال موقع عربـي واحد. واستمرت المعركة ايضا في الليل. وفي فجر يوم ٤/٢٨ فقط وصل المهاجمون الى قرب شارع حسن بك، بينما هم يقيمون مع تقدمهم مواقع من اكياس الرمل، التي كانت تنقلها اليهم باستمرار قوافل من اعضاء المنظمة المتقدمين في السن. واحتل الموقع العربـي الاخير الذي كان يفصل بين المقاتلين والبحر بهجوم كاسح.

1553

«في الساعة السابعة صباحا من اليوم الرابع للمعارك، اصبح حي المنشية معزولا» (المصدر السابق). وبدأ مقاتلو الايتسل بتطهير الحي. واحتل بسرعة مسجد حسن بك الذي كان القناصة العرب يزعجون منه شوارع تل ابيب الرئيسية طوال الاشهر السابقة، ورفع علم عبري على مئذنته. وخلال عملية تمشيط المنشية، وقع بيد الايتسل ٦٠ أسيرا عربيا (سلموا بعد نحو ثلاثة اسابيع لمعسكر الاسرى العام). وسقط في اثناء التمشيط ايضا عدد من رجال الايتسل.

ومن اجل استكمال الصورة يجب ان نذكر ان عرب يافا طلبوا النجدة من «جيش الانقاذ»، الذي ارسل تعزيزات مكونة من ٣٠٠ شخص ومصفحات من الرملة. لكن بما ان قوات «الهاغاناه» احتلت تل الريش جنوبـي يافا، حُوِّل اتجاه التعزيزات الى هناك وبذلك ضعفت قوة مقاومة العرب في المنشية وأصبح احتلالها من قبل الايتسل اسهل.

وفي اليوم الرابع للهجوم نفذ البريطانيون تهديداتهم: وصلت سفينتان حربيتان الى ميناء يافا وبدأت أعداد كبيرة من الجنود تنزل الى الشاطىء، وحلقت طائرات فوق المنشية وقامت بجولات استطلاعية، حتى انها اطلقت زخات من الرصاص، وقصفت مدافع هاون بريطانية مواقع الايتسل ومقر قيادتها في نفيه شالوم، واضطرت هذه الى مغادرة المكان. واستعد الآن اكثر من ٤٥٠٠ جندي بريطاني للدفاع عن يافا. وطلب البريطانيون من بلدية تل ابيب ان تعمل على اخلاء المنشية من اليهود. وعندها بدأت مفاوضات بين ممثلي «الهاغاناه» وقائد الجيش البريطاني بشأن مصير المنشية. وفي ١٩٤٨/٤/٣٠، اتفق على ان يسلّم مركز شرطة المنشية للبريطانيين، وأن يكون شارع حسن بك مفتوحا امام حركة

السيارات البريطانية، وأن يضع الجيش البريطاني قواته بين العرب واليهود ويضع يافا تحت حمايته.

واحتجاجا على الاتفاق نسف رجال الايتسل، في اليوم التالي، مركز الشرطة في المنشية، ونسفوا البيوت في شارع حسن بك وأغلقوه بالأنقاض، وأخلوا الحي وسلموه لـ «الهاغاناه». وخرج «محتلو يافا» في موكب جماهيري حاشد في شوارع تل ابيب. ان نحو ٣٠ من خيرة رجال الايتسل، بينهم قائد منطقة تل ابيب يوسف ليفي وقائدا السرية إلياهو تسلر وأهرون تسوكرمان، سقطوا في العملية ــ معظمهم بنيران البريطانيين ــ ووصل عدد الجرحى الى ثمانين؛ لكن يافا لم تحتل.

وفي المقابل، كان لقصف يافا بمدافع الهاون تأثير كبير على إضعاف معنويات السكان. ان القذائف الكثيرة التي سقطت على المدينة، بالاضافة الى الشائعات التي وردت من كل ناحية عن انتصارات اليهود في البلد وعن تضييق حلقة الحصار بسقوط قريتي سلمة ويازور بيد «الهاغاناه»، قوضت المعنويات في المدينة. وبدأ مواطنوها والجنود العرب الموجودون فيها بالفرار مذعورين. وبعد اسبوعين من احتلال المنشية، استسلمت يافا لـ «الهاغاناه».

ووظفت الايتسل افضل مواهبها الدعاوية لخلق اسطورة «احتلال يافا» التي كان الهدف منها طمس صورة عمليات «الهاغاناه»، لكن زعماء المنظمة المنشقة كانوا يعرفون جيدا ان عمليتهم فشلت من الناحية العسكرية. وكان الهدف من «الاتفاق» الذي تم التوصل اليه أخيرا، في تلك الايام، بين الايتسل و «الهاغاناه»، هو وضع حد لعمليات الايتسل المستقلة واخضاعها لخطة الحرب العامة الخاصة بالييشوف.

بدء المفاوضات بشأن الاتفاق بين «الهاغاناه» والايتسل

1554

قبل ستة اسابيع من نشوب حرب الاستقلال، اعلنت القيادة العليا ان امام «منظمتي المنشقين طريقا واحدا فقط للمشاركة كأبناء للشعب اليهودي في حربه من اجل الاستقلال: حل المنظمتين وتسليم سلاحها لمنظمة «الهاغاناه» والدخول فيها بصورة افرادية».

وأصبح هذا المطلب ضرورة ماسة مع نشوب الاشتباكات الدامية. لكن الانشقاق كان قد تجذر خلال سبعة عشر عاما مضت على قيامه، وأصبح من الصعب اقتلاعه دفعة واحدة. واتخذت الايتسل موقفا مفاده ان توحيد القوات العسكرية سيتم عند قيام الدولة العبرية فقط. واقترحت، حتى ذلك الموعد، انشاء «قوة موحدة» وفقا للمقاييس التي اتبعت في فترة «حركة التمرد العبري»، ورفضت «الهاغاناه» هذا الموقف. «الشعب بحاجة» ــ كتبت «بمحنيه» التي تحولت في تلك الفترة من صحيفة «الهاغاناه» في تل ابيب الى الصحيفة الناطقة باسمها في جميع انحاء البلد ــ «لا الى (قوة موحدة) فحسب وانما ايضا الى قوة واحدة، قوة الشعب الواحدة والموحدة، المدعوة (الهاغاناه العبرية)».

وعلى الرغم من هذا الموقف المبدئي، كلفت الوكالة اليهودية عددا من اعضاء ادارتها وادارة المجلس القومي الاتصال بالمنشقين والتفاوض معهم بشأن اتفاق، ينبغي ان توافق على شروطه ادارة الوكالة بكامل هيئتها. وكان من بين هؤلاء: ي. غرينبويم، والحاخام ي. ل. فيشمان، و د. ريمز، و م. شابيرا.

وبرهنت الحوادث التي وقعت في الاشهر الاولى للحرب، ان تشرذم القوات يلحق ضررا كبيرا بالدفاع عن الييشوف. ان المشاحنات والخصومات في المواقع في مدن البلد، والعمليات غير المسؤولة كالقاء قنابل وسط الجمهور العربي، والدعاية غير المسؤولة التي وجهها المنشقون في ايام الحرب بالذات ضد القوات المحاربة للأمة، كانت كلها مظاهر بارزة لهذا الخطر. ولم تكن الترتيبات والاتفاقيات المحلية، التي اضطر رجال «الهاغاناه» الى عقدها مع المنشقين في جبهات خطرة، كافية. وكان من الصعب تطبيق نظام حشد كامل للرجال والمواد والاموال ما دامت ثغرات الانشقاق لم تسد.

وفي المفاوضات مع رجال الايتسل، اصر الوسطاء على ضرورة التوحيد والدمج السريع مع «الهاغاناه»، وطالبوا بايقاف العمليات ضد البريطانيين والنشاطات المالية المستقلة. وطالب ممثلو الايتسل بالاعتراف بمنظمتهم وبحقهم في جمع الاموال وفي تجنيد الاشخاص وشراء الاسلحة، ما دام الحكم البريطاني في البلد لم ينته عمليا ونظريا.

واصطدمت هذه المفاوضات على اساس الاعتراف باستمرار بقاء المنشقين بصورة مستقلة منذ البداية بمعارضة شديدة من جانب الحزبين «لأحدوت هعفوداه» و «هاشومير هاتسعير» اللذين اتحدا في تلك الفترة في «مفليغت هبوعاليم همؤوحدت» (مابام). وأصرا بشدة على تطبيق قرارات مؤسسات الحركة الصهيونية والييشوف العبري في ارض ــ اسرائيل (انظر الفصل الخامس والاربعين)، وطالبا بحل منظمتي المنشقين كشرط اولي لاندماج اعضائهما في «الهاغاناه».

قضية يديديا سيغل

في اثناء المفاوضات حدثت في حيفا قضية يديديا سيغل المحزنة. كانت العلاقات بين «الهاغاناه» والايتسل متوترة جدا في حيفا: بعد عام من الصراع ضد المنشقين بعدما قتلوا تسادوك ليسبونه (انظر ص 957)، قتل في حيفا مرة اخرى يهودي في اثناء عملية للايتسل. فقد وصلت في صباح ١٢/١٥ وحدة من الايتسل الى مستودعات مصلحة التموين البريطانية في بات غاليم. وخلال العملية قتل موشيه فايسبورت، وهو سائق يهودي وُجد في المكان مصادفة لعمل ما. وبعد اسبوعين من ذلك، حدثت الكارثة في مصافي التكرير (انظر ص 1543)، التي وقعت نتيجة عملية لامسؤولة نفذها رجال الايتسل.

1555

وكثفت قيادة «الهاغاناه» في حيفا جهودها لمنع عمليات الايتسل. وفي ١٩٤٨/١/١١،

وصلت معلومات بأن الايتسل تزمع القيام بعملية في المدينة او في ضواحيها. ومن اجل منع العملية احتجز رجال «الهاغاناه» نائب قائد القوات المقاتلة [للايتسل] في حيفا، موشيه ليفي. وعندها لم تنفذ العملية وأطلق سراحه في مساء اليوم نفسه.

لكن قبل اطلاق سراحه اختطف رجال الايتسل عضوا في «الهاغاناه» اسمه غداليا كمنتسكي. ووصل رجال جهاز الاستخبارات، الذين انطلقوا للبحث عنه، الى الكوخ الذي كان محتجزا فيه قبل اخراجه من المدينة. وألقوا القبض على حارس الكوخ يديديا سيغل، الذي كان ابن عائلة متدينة قديمة في حيفا وقائدا برتبة ملازم اول في الايتسل. وقبضوا معه على عضو آخر من اعضاء الايتسل. ونقل الاثنان الى منزل صيفي في جبل الكرمل، كانت تستخدمه «الهاغاناه» لسجن المعتقلين. وهناك اجري تحقيق معهما رافقه استخدام للعنف وقيدا بالاغلال. وأُخطر قائد الايتسل في المدينة بأن الشخصين سيطلق سراحهما بعد الافراج عن كمنتسكي.

وقبيل الفجر طلب سيغل اذنا بمغادرة الغرفة لقضاء حاجته. فأعطي الاذن في ذلك. لكنه غافل حراسه وفر هابطا الجبل في اتجاه قرية الطيرة العربية، فأطلق المسؤول عن الحراسة النار نحوه لكنه اختفى في الظلمة التي كانت تخيم على الجبل حينها. وبعد استلام رسالة من قائد الايتسل في حيفا تعهد فيها بالافراج عن عضو «الهاغاناه» الذي كان محتجزا، أُطلق سراح الشاب الثاني وفي اليوم التالي اطلق سراح كمنتسكي.

وفي ذلك اليوم اتصل عربي من سكان الطيرة بالمحامي سلومون هاتفيا، وأخبره ان حراس القرية قبضوا في ساعات العصر على يهودي وقتلوه بالرصاص وبالمدى. ونقلت جثة القتيل في اليوم التالي الى المستشفى الحكومي في المدينة، حيث تعرف عليها ابناء عائلة يديديا سيغل مفيدين انها جثته.

واتهم رجال الايتسل «الهاغاناه» على الفور بقتل سيغل. حتى انه سُمع تفسير بأن «سيغل قتل على يد التكتل المتطرف في «الهاغاناه» الذي قصد من وراء ذلك افشال الاتفاق بين «الهاغاناه» والمنظمة» («دفيم»). وأعلنت الايتسل ايقاف المفاوضات المتعلقة بالاتفاق الى حين تأليف لجنة تحقيق تضم «اشخاصا معروفين لدى الشعب بنزاهتهم». وعُين ي. غرينبويم والحاخام ي. ل. فيشمان و م. شابيرا اعضاء في لجنة التحقيق في الحادث واستؤنفت المفاوضات.

وتوصلت اللجنة، بعد ان درست الشهادات التي ادلي بها امامها، الى ان لا دليل لديها على ان رجال «الهاغاناه» هم الذين قتلوا يديديا سيغل.

استئناف المفاوضات بشأن الاتفاق

كانت تلك الايام التي جرت خلالها المفاوضات المرافقة بعراقيل، اياما صعبة بالنسبة الى «الهاغاناه» التي كانت مسؤولة عن امن الييشوف في جميع انحاء البلد. وانصرفت الايتسل، التي اعطت لنفسها حرية اختيار نشاطاتها وفقا لأغراضها، الى تقوية مكانتها داخل اليشوف. قيل للأعضاء في مواد توجيهية داخلية ان «فترة الاشهر القادمة يحتمل ان تقرب الحرب الى مناطقنا اكثر. ـــ ان التطورات في الاشهر القادمة، سواء من ناحية افقها او من ناحية نموها النفساني، تعتمد الى حد كبير على قوتنا. اذا لم تتألق ولم تزد قوتنا أضعافا مضاعفة لنصبح عنصرا مقررا فاننا لن ننجح في استغلال اللحظات المهمة والتأثير على التكتيك الحربي وعزيمة محو عار تقطيع اوصال ارض الوطن. اذا اصبحنا اقوياء فالآمال كبيرة».

وفي غضون ذلك كانت تقع من حين الى آخر صدامات بين «الهاغاناه» والايتسل: ان توقيف رجال الايتسل الثلاثة الذين كانوا عائدين من عملية فاشلة في الناصرة ومصادرة رجال «الهاغاناه» لسيارتهم وأسلحتهم في اثناء مرورهم بنهلال؛ وتجريد وحدة الايتسل التي حاولت الوصول الى مشمار هايردين من سلاحها (انظر ص 1542)؛ والصدام في تل ابيب، عندما افتتحت الايتسل حملة التبرعات باسم «كيرن هبرزيل» (انظر ص 1549) ــ كل هذا كان ينطوي على خطر اندلاع حرب اهلية. ودعا بيان وقعه ١٨ كاتبا عبريا «جميع معسكراتنا الى التراجع عن هذا الطريق المؤدي بالامة بأسرها الى الدمار ـــ وتوحيد جميع قواتنا في معسكر واحد لخوض معركة اسرائيل هذه، التي ستقرر مصير شعبنا الى جيل وأجيال». 1556

وفي ١٩٤٨/٣/٧، تم التوصل الى اتفاق بين لجنة المؤسسات القومية وممثلي الايتسل احيل على المؤسسات للمصادقة عليه. وفي الجلسة التي عقدتها اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٩٤٨/٤/١٢، وبعد نقاش حاد، صوت مندوبو ماباي ومابام و«هعلياه هحداشاه» [«الهجرة الجديدة»] (باستثناء د. ريمز الذي امتنع عن التصويت) ضد الاتفاق، تمسكا منهم بمبدأ وجود قوة عسكرية واحدة في اليشوف. وصوت الصهيونيون العموميون، و«همزراحي»، و«هبوعيل همزراحي» والتصحيحيون مع الاتفاق الذي اقر بأغلبية ٣٩ صوتا ضد ٣٢ صوتا. وكان مضمون الاتفاق:

«تعلن الايتسل حل نفسها كمنظمة عسكرية عندما تتألف الحكومة؛ لن تهاجم بريطانيين او عربا من دون موافقة مسبقة؛ تتلقى الايتسل في الجبهات التي فيها مواقع الاوامر من قائد جبهاتنا؛ لا تستخدم العنف او السطو؛ يتم شراء السلاح بموافقة فقط؛ تنفذ العمليات التي تكلف بها».

وبقي انجاز وضع التفاصيل المتعلقة بالبنود العملية في الاتفاق. ومرت بضعة ايام قبل ان تتلقى قيادة «الهاغاناه» أمرا بتنفيذ الاتفاق. لكن الايتسل، ردا على دعوة الى عقد اجتماع، طالبت باعادة الأسلحة والممتلكات التي اخذتها «الهاغاناه» من رجالها في امكنة وأزمنة مختلفة، وأخّر هذا الطلب انجاز صوغ الاتفاق وتوقيعه.

ونشأ وضع غريب: من جهة، سلمت اللجنة التنفيذية الصهيونية بقيام الايتسل، ومن جهة اخرى لم تقدم الايتسل على تنفيذ شروط الاتفاق ما دام لم يتم وضع الصيغة النهائية لبنوده العملية.

وفي ظل هذا الوضع بدأت الايتسل هجومها على المنشية (انظر ص 1551)، وكان هذا ما دفع رجال الايتسل أخيرا الى الاسراع في توقيع الاتفاق مع «الهاغاناه» الذي سرى مفعوله في ١٩٤٨/٤/٢٧.

وفي اليوم التالي ارسل رئيس القيادة القطرية تعميما الى جميع قادة «الهاغاناه»، ذكر فيه انه يحيطهم علما ــ الى حين وصول تعليمات تفصيلية ــ بأن الاتفاق مع الايتسل قد سرى مفعوله وفقا لقرار اللجنة التنفيذية الصهيونية. «في كل مكان توجد فيه مواقع للايتسل تكون هذه المواقع خاضعة لأوامر قيادة الجبهة بواسطة قائد مواقع الايتسل؛ تنفذ الايتسل فقط تلك العمليات التي تحصل على موافقة مسبقة عليها من جانب «الكنيست» («الهاغاناه»)، بما في ذلك شراء اسلحة من الجيش البريطاني؛ تكون الايتسل ايضا مستعدة لتنفيذ العمليات التي تكلفها بها القيادة العليا والتي في امكانها تنفيذها. ان سريان مفعول الاتفاق ـــ يقتضي الامتناع عن اي صدام مادي بين «الكنيست» («الهاغاناه») والايتسل».

بعد الاتفاق

في فترة ما بعد الاتفاق، وحتى انشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي»، عملت الايتسل في اطار الخطة العامة لـ «الهاغاناه». واحتل رجال الايتسل قرية اليهوديه، الواقعة بالقرب من بيتح تكفا، في ١٩٤٨/٥/٤ واحتفظوا بها خمسة اسابيع تقريبا.

وفي ١٢ ايار/مايو، كتب يسرائيل غاليلي الى قائد الايتسل ان وقت الحسم قد حان، وأن من الضروري حشد كل القوات المسلحة على الجبهات. واجتمع ي. غاليلي وليفي شكولنيك (اشكول) الى ممثلي الايتسل، واتضح ان ليس لديهم سوى مقاتلين قلائل وأخذوا على عاتقهم القيام بعملية واحدة فقط: مهاجمة الرملة. 1557

وفشل الهجوم على الرملة، الذي بدأ في ١٩٤٨/٥/١٦، على الرغم من البطولة التي أبداها الرجال الذين سقط اكثر من ٥٠ منهم على أبواب المدينة، وعلى الرغم من المساعدة التي تلقوها من لواء «غفعاتي».

وحاول رجال الايتسل في القدس المحافظة على وضع خاص بهم بموافقتهم على حقيقة ان وضع القدس كجزء لا يتجزأ من الدولة العبرية لم يتقرر بعد. لكن اتضح لهم بسرعة انهم لا يستطيعون المحافظة على وضعهم المستقل بسبب النقص في السلاح. لقد توقع رجال الايتسل وصول اسلحة اليهم من الشفيلا «وعندما لم تصل الاسلحة لم تجد القيادة مفرا من العمل في اطار الاتفاق مع «الهاغاناه» مع بعض التجاوزات التي كانت تسنح الفرص

لارتكابها» (ي. اوفير). وبناء على ذلك، توصل ممثلو الايتسل في القدس الى اتفاق مع قائد المدينة المعين من قبل «الهاغاناه» في ٥/١٣، قبل يومين من جلاء البريطانيين عن المدينة. ودمجت وحداتهم في نظام الدفاع العام عن المدينة. ولن ندخل هنا في تفاصيل الاتهامات التي وجهها الطرفان، قيادة «الهاغاناه» في القدس والايتسل، الى بعضهما البعض بعد فترة.

ان ضعف الايتسل الذي ظهر في الاختبارات الاولى خلال الحرب ضد العرب، ادى الى تفكك صفوفها قبل اعلان حلها رسميا. وبدأ رجال الايتسل العمل داخل وحدات «الهاغاناه» وتحت قيادتها. واتضح ان الاتفاق الناقص والمناقض لمبادىء ادارة الحرب، ربما من دون ان يعي ذلك موقعوه من الايتسل، قام بدوره كعامل في زعزعة قوة الانشقاق، وأفشل سلفا كل المحاولات لاعادة مجد الانشقاق الى ما كان عليه.

وفي ١٩٤٨/٦/١، وقع ي. غاليلي باسم الحكومة و م. بيغن اتفاق حل الايتسل، الذي تضمن البنود التالية:

أ ــ يجند اعضاء الايتسل في «جيش الدفاع الاسرائيلي» وفقا لأوامر التجنيد الصادرة عن حكومة اسرائيل، ويؤدون القسم كما هو متبع في الجيش.

ب ــ اعضاء الايتسل المجندون في الجيش يخدمون في كتائب داخل ألوية الجيش وعلى الجبهات وفقا لقرارات القيادة العليا للجيش.

ج ــ يسلم السلاح والعتاد العسكري الموجودان في حيازة الايتسل الى «جيش الدفاع الاسرائيلي»، ويصبحان في تصرف القيادة العليا.

د ــ تسلم منشآت الانتاج الحربي التابعة لـ«هإرغون هتسفائي هلئومي» [المنظمة العسكرية القومية] الى الجيش.

هـ ــ تشكل قيادة موقتة ــ مشكلة من ضباط الايتسل ــ وتعمل بامرة هيئة الاركان العامة للجيش الى ان يتم تجنيد اعضاء الايتسل في صفوف الجيش وتشغيل كتائبهم على اسرع وأتم وجه.

و ــ بناء على قرار الايتسل الحر والمعلن تتوقف هي وقيادتها عن النشاط والوجود كوحدة عسكرية في دولة اسرائيل وفي النطاق التابع لحكومة اسرائيل.

ملاحظات:

١ ــ توقف جميع النشاطات المنفردة التي تقوم بها الايتسل لشراء الاسلحة والاعتدة العسكرية، وينقل مجمل الاتصالات الى «جيش الدفاع» لمصلحة الحرب.

٢ ــ تقدر القيمة المالية لمنشآت الانتاج العسكري الخاصة بالايتسل والتي يحتاج اليها الجيش، ويدفع ثمنها.

وكانت منظمة ليحي قد ضمت الى «جيش الدفاع الاسرائيلي» قبل ثلاثة ايام من ذلك، في اثر مفاوضات جرت بين زعمائها وبين ممثلي وزارة الدفاع التابعة للدولة الجديدة: ي. غاليلي و ل. اشكول. واتفق على تجميع رجال ليحي لمدة تتجاوز اربعة اشهر في وحدات 1558

عسكرية (فصائل وسرايا) كاملة، وأن يعفى ٥٠ منهم من الخدمة لاقامة حزب «لوحمي حيروت يسرائيل»، وسَلَّم المنضمون كمية قليلة من السلاح. وفي ١٩٤٨/٥/٢٩، تم اول تجمع علني لرجال ليحي في قاعدتهم في الشيخ مونس، شمالي تل ابيب، ومن هناك نقلوا بالسيارات الى معسكر استقبال المتطوعين التابع للجيش [الاسرائيلي]. وقد تم تجنيد حوالي ٧٠٠ تقريبا، وُزعوا على كتيبتين في لواء المدرعات (اللواء الثامن) الذي كان العمل على تأسيسه جاريا في تلك الفترة بقيادة يتسحاق ساديه.

ان الدولة ستمر بمحن مريرة قبل تحقق الاندماج الكامل لأعضاء المنظمتين المنشقتين في «جيش الدفاع الاسرائيلي». وتتبع قضيتا «ألتيلينا» واغتيال [الكونت] برنادوت تاريخ دولة اسرائيل و«جيش الدفاع الاسرائيلي». لقد وضع حل الايتسل وليحي حدا لسبعة عشر عاما من الانشقاق. وتجسد في «جيش الدفاع الاسرائيلي» طموح «الهاغاناه» فيما يتعلق بوجود منظمة عسكرية واحدة: جيش الشعب.

الفصل الثامن والسبعون

«الهاغاناه» تبدأ الهجوم

الانعطاف

في شهر آذار/مارس، اصبح وضع «الهاغاناه» العسكري في القطاعات المختلفة للحرب صعبا جدا، وساد الانقباض في اليشوف. وتوقع الاعداء والمحبون، هؤلاء بأسى وحزن وأولئك بشماتة، هزيمة اليشوف. وعندها حدث الانعطاف الكبير والحاسم، الذي غير وجه الصراع بشأن مصير البلد بأسره. ولم يكن هذا الانعطاف نتيجة معجزة او اعجوبة: كان ثمرة إعداد وجهود وعمل متواصل استمر أشهرا، ثمرة دروس وتجارب مرة، ثمرة نضوج «الهاغاناه» السريع الذي قادها الى اتخاذ القرار لتنفيذ المهمات المتضمنة في «الخطة د» التي وضعتها «الهاغاناه» (ص 1472). وعلاوة على ذلك كان هذا الانعطاف ايضا خطوة جذرية، لم تغير تطور الأحداث القتالية فحسب وانما ايضا صورة «الهاغاناه»، وخطوة اخرى مهمة في الطريق لتنظيم نفسها كجيش حقيقي.

وينبغي عدم اغفال عامل خارجي جعل هذا الانعطاف ممكنا. حتى ذلك الوقت، كان الخط الاستراتيجي الذي اتبعته قيادة «الهاغاناه» العليا، «هو الامتناع الى اقصى حد ممكن عن الدخول في صدام جبهوي مع قوات الجيش البريطاني والسلطة البريطانية، لكن عدد القوات البريطانية اخذ يتناقص بالتدريج. وشيئا فشيئا بدأ البلد يخلو من الشرطة ورجال الجيش. ان البريطانيين لم يكونوا راغبين ولا قادرين على التدخل والحسم والازعاج في كل مكان. من الناحية النظرية، وفي امكنة كثيرة في البلد حتى من الناحية العملية، استمر حقا تدخلهم في العمليات القتالية، لكن هذا التدخل لم يكن يحمل طابع الحسم. وفي كثير من المرات لم يتصرف البريطانيون كأصحاب السلطة، وانما كطلاب حل وسط يضمن سلامة مصالحهم الحيوية، وخصوصا طرق الجلاء. وأوجد انكماش الحكم البريطاني السريع هذا فراغا اوجب على «الهاغاناه» ان تملأه بقوة يهودية كي لا تسبقها الى ذلك القوات العربية.

لقد كان المضمون الاساسي للانعطاف الانتقال من الدفاع بكل اشكاله، السلبية والناشطة، الى السيطرة على مناطق متصلة جغرافيا. وجاء ليضع موضع التنفيذ، كما ذكرنا، التوجيهات الواردة في «الخطة د»، التي كان قصد واضعيها ان يتم تطبيقها عند اقتراب خروج البريطانيين من البلد فقط.

ان الطريق المسدود الذي وصل اليه الييشوف في منتصف آذار/مارس ١٩٤٨، ارغم قوات «الهاغاناه» على الظهور بصورة مكشوفة وبقوة. ومن دون ان تأخذ كثيرا بعين الاعتبار احتمال الصدام مع القوات البريطانية، ومن دون انتظار للسلاح الذي تأخر وصوله من خارج البد، شرعت «الهاغاناه» في عملية كان الهدف منها شق طريق الى القدس وتأمين تزويد المدينة المحاصرة بمواد التموين والاسلحة.

وفي مكان آخر، في شمال البلد، فرض العرب على «الهاغاناه» معركة لم تستطع ان تتجنبها. اذ بادرت جيوش القاوقجي الى مهاجمة مشمار هعيمك، على امل الوصول الى حيفا. وتحولت هذه المعركة بدورها الى اختبار لكلا الطرفين المتحاربين.

التأهب لعملية «نحشون»

1560

في ايام عيد البوريم سنة ١٩٤٨، اتضح ان اسلوب مواكبة القوافل الى القدس لم يصمد في اختبار الواقع. «اصدرت أمرا الى هيئة اركان «الهاغاناه»، روى د. بن ـ غوريون، «بحشد قوة وشق الطريق الى القدس. وقررت هيئة الاركان العامة حشد ٤٠٠ رجل. وكانت هذه اكبر قوة تحشد للقيام بعملية هجومية، لكن بدا لي ان هذه القوة غير كافية لشق طريق بالقوة الى القدس. لذا، اصررت على ضرورة حشد ١٥٠٠ رجل على الاقل، لان العرب يعون ايضا اهمية القدس ويعرفون ان ابادة يهود القدس الـ ١٠٠,٠٠٠ بالحرب او بتجويعهم يحتمل ان توجه ضربة قاتلة الى اليشوف العبري. وادعى اعضاء هيئة الاركان ان كل الجبهات مشتعلة، ومن غير الممكن تخفيض قوتها الدفاعية بصورة ملموسة. وأبرقت الى جميع القادة بالحضور الى تل ابيب، فجاؤوا جميعهم». وفي تلك الجلسة الليلية التاريخية، في فجر يوم ١٩٤٨/٤/١، تقرر في منزل بن ـ غوريون، حشد قوة مسلحة قوامها ١٥٠٠ رجل، وذلك لشق طريق الى القدس وايصال التموين والعتاد والسلاح اليها. وكان هذا قرارا جريئا في ضوء الظروف والخبرة المكتسبة حتى ذلك الوقت. ولم يكن حشد هذا العدد الكبير من المقاتلين مع اسلحتهم ممكنا إلا عن طريق إضعاف جبهات اخرى وتعريض نقاط استيطانية للخطر. وكان البريطانيون لا يزالون في البلد، ومن المستحيل معرفة ما ستكون عليه ردة فعلهم ازاء استخدام قوة يهودية كبيرة كهذه. وكُلِّف شمعون افيدان، قائد لواء «غفعاتي»، قيادة العملية. وعين ضباط كبار في هيئة الاركان العامة للعمل في هيئة اركانه؛ عين إلياهو كوهين (بن ـ حور) ضابط ادارة، وأفرايم بن آرتسي ضابط تموين؛ وموشيه بن ـ تكفا («مونديك») ضابط العمليات. وشكلت القوة من ثلاث كتائب: ضمت الكتيبة الاولى، بقيادة حاييم لاسكوف، سرية بلماح من الكتيبة الرابعة، وسريتين من لواء «غفعاتي»، وسرية من لواءي «كرياتي» و«ألكسندروني». وكانت الكتيبة الثانية هي الكتيبة الرابعة التابعة للبلماح (ناقص سرية) بقيادة يوسف تبنكين. وشكلت الكتيبة الثالثة، بقيادة

إلداد اورباح، من وحدات مختلفة وأعدت لتكون كتيبة احتياط. وجند للمشاركة في العملية كل جهاز قسم التدريب، الذي تحول الى قيادة للعملية، وأيضا جميع المشاركين في دورات القسم الذين ضموا كوحدات كاملة الى العملية. وكُلِّفت الكتيبة الاولى العمل من خولده حتى اللطرون، والكتيبة الثانية من اللطرون حتى كريات عنافيم. وبقي القطاع من كريات عنافيم حتى القدس بامرة ومسؤولية دافيد شلتيئيل، قائد منطقة عتسيوني (القدس)، الذي لم يشرك في العملية.

لم يكن من السهل تنفيذ نقل الاشخاص؛ وأصعب من ذلك كان تجميع الاسلحة للعملية. وأصاب قادة المناطق والالوية الذين دعوا الى اجراء مشاورات عاجلة الذهول عندما تلقوا أمرا بفرز خيرة رجالهم وخيرة سلاحهم للعملية. واضطُر الى جمع اسلحة وحتى ألبسة من عدة سرايا من اجل تشكيل سرية واحدة مجهزة على اكمل وجه بالمعدات والالبسة والخوذ الفولاذية والاسلحة والذخيرة. روى يوسف روخيل (افيدار)، الذي كان رئيس دائرة التموين في هيئة الاركان العامة، في مذكراته: «عندما خرج من مكتبي قائد لواء «كرياتي» م. بن غال (جيمس) في الساعة الرابعة صباحا كان شاحبا كالكلس، لانني اضطررت الى تجريده من معظم بنادقه ومدافعه الرشاشة، وأبقيت له على بنادق الحراس وقطع قليلة اخرى فقط. وظل أبراهام هافت من دغانيا(ب) يذكرني حتى أواخر ايامه بقسوتي عندما اخذت في الليلة نفسها من غور الاردن جزءا كبيرا من البنادق القليلة التي كانت موجودة فيه».

كانت الطائرة الاولى التي وصلت آنذاك الى مطار بيت داراس (في عملية «بالاك»، انظر ص 1526) والسفينة «نورا» التي رست في ميناء تل ابيب مع بدء العملية، بمثابة انقاذ. اذ اضافتا الى الاسلحة الموجودة بيد المقاتلين اكثر من ٢٠٠ مدفع رشاش، و ٤٥٠٠ بندقية مع ذخائرها. ووصل قسم من هذه الاسلحة الى الكتائب عشية خروجها للعمل. وكان عليها ان تتدرب بسرعة على استخدام البندقية التشيكية (الالمانية)، التي لم يكن معظم الجنود معتادا عليها. 1561

ولم يكن جنود الوحدات المختلفة، الذين جمعوا بسرعة لتشكيل كتائب «نحشون»، يعرف بعضهم بعضا او يعرفون قادتهم. وللمرة الاولى في تاريخ «الهاغاناه» صدر امر الى القادة بوضع شارات وأشرطة زرق تدل على رتبهم.

وكانت خطة العمل احتلال القرى العربية المسيطرة على طريق القدس من خولده حتى كريات عنافيم، ووضع حواجز وكمائن في الطرق المؤدية الى الشوارع من القرى البعيدة لتأمين طريق عبور القوافل المتجهة الى القدس.

العمليات التي سبقت عملية «نحشون»

في اثناء الاعداد لعملية «نحشون»، نفذت عمليتان صاعقتان كبيرتان خارج مجال عملية «نحشون»: الاولى الى الشرق منها، والثانية الى الغرب. في الشرق، بالقرب من

القدس، كانت تدور معارك في منطقة موتسا ــ القسطل. وحاول العرب احتلال موتسا لقطع الطريق بين القدس وكريات عنافيم. وتقرر ان لا سبيل للحفاظ على حرية المرور الى كريات عنافيم سوى احتلال قرية القسطل المسيطرة على الطريق. وخرجت في الليلة السابقة ليوم ٤/٣، وحدة بلماح من كريات عنافيم واحتلت القرية التي هجرها سكانها. وعند الفجر سلمت القرية الى جماعتين من قوة الميدان وصلتا من القدس. وكانت هذه هي «القرية العربية الاولى التي احتلت بقصد الاحتفاظ بها بصورة دائمة» («معراخوت»). «اصبح من الواضح للجميع انه من الآن فصاعدا حدث انعطاف في مجرى الحرب. فبدلا من الهجمات المفاجئة والغارات على قاعدة العدو، بدأت الجهود للسيطرة عليها» («معارك سنة ١٩٤٨»).
ولم يترك العرب المنطقة، وحشدوا قوات كبيرة احتلت مواقع جنوبي القسطل وحاولوا ان يقوموا باختراق من شمالي موتسا. وأرسلت قيادة «عتسيوني» باقي الاحتياط الموجود لديها للدفاع عن القسطل. ولم يستجب رجال ليحي والايتسل لطلب قائد المدينة بالقيام بعمليات لتخفيف الضغط عن منطقة القسطل، لان المنشقين كانوا يعدون لعملية خاصة بهم لم تكن مدرجة ضمن خطط «الهاغاناه» للدفاع عن المدينة (عملية دير ياسين، انظر ص 1546).
ولم يكن في وسع كتيبة البلماح، التي خرجت في تلك الليلة لاحتلال مواقع باب الواد في اطار عملية «نحشون»، مساعدة منطقة عتسيوني بالرجال. لكن في هذه اللحظة، عشية بدء عملية «نحشون»، كانت القسطل بيد قوات يهودية، واندمج احتلالها بصورة جيدة في الخطة العامة للعملية.

وفي الجانب الغربي من الجبهة، استمرت الاستعدادات الاخيرة لعملية «نحشون». وبعد يومين من احتلال القسطل نُسفت قيادة حسن سلامة، القائد العربي في منطقة اللد. وكان مخطط هذه العملية قد وضع في وقت سابق، لكن تنفيذها تأجل ليتلاءم وعملية «نحشون». لقد كانت القيادة موجودة في مبنى مؤلف من اربع طبقات الى الجنوب من صرفند والى الشرق من بئير يعقوف. وكان يقيم في المبنى نحو ١٠٠ مقاتل عربي. ولم يكن عليه حراسة مشددة من الخارج، لأن سلامة لم يتخيل ان اليهود يمكن ان يجرؤوا على التسلل الى عمق المنطقة العربية. وكان الذي وضع خطة العملية قائد احدى السرايا في لواء «غفعاتي»، شينيؤور بريكنت. وكان هدفها اقتحام ساحة المبنى والتسلل اليه ونسف الاعمدة التي يرتكز عليها والانسحاب السريع من المكان. وبعد تدريبات مبكرة خرجت السرية قبل يوم ١٩٤٨/٤/٥ من كيبوتس عكيفا (ريشون لتسيون) منطلقة في اتجاه مبنى القيادة. وأرسلت جماعات لقطع الطرق التي يمكن ان تأتي عبرها المساعدة. ووصل المقاتلون الى المكان بعد منتصف الليل، واقتحموا السور، وفتحت وحدات المشاغلة النار على نوافذ المبنى المضاءة. ورد العرب بنيران قوية. وفي هذه الاثناء، تسللت وحدة الاقتحام الى ساحة المبنى، ودخلت القاعة الكبيرة في الطبقة السفلى التي كانت خالية. وأدخل عشرون مقاتلا ٤٠٠ كلغ ت. ن. ت. جلبوها معهم، وشرع خبراء التدمير في وضع المادة في الامكنة المحددة لها حول

1562

عمودين كبيرين، كان المبنى يرتكز عليهما. وانسحبوا بسرعة على الفور بعد اشعال فتائل التفجير. وتفجر المبنى وانهار ودُمر ثلثاه تدميرا كليا. وفي اليوم التـالي، علم ان نحو ٣٠ شخصا من هيئة اركان سلامة دفنوا تحت الانقاض. ولم يكن القائد نفسه في المبنى في تلك الليلة، لكن مكانته وسمعته انخفضتا كثيرا في نظر السكان العرب. وساعدت هذه العملية بطريقة غير مباشرة عملية «نحشون»، وذلك باضعافها القوة العربية التي كان يحتمل ان تنشط غربـي قطاع العملية.

عملية «نحشون»

في فجر يوم ٤/٥، بدأت قوات «نحشون» بشق الطريق الى القدس. استولت الكتيبة الاولى على حلده العربية بلا قتال، واحتلت بسهولة القرية العربية الكبيرة دير محيسن وأقامت حواجز على الطرق المؤدية الى سبع قرى وتجمعات قرى عربية. واحتلت الكتيبة الثانية المواقع المسيطرة على باب الواد قبالة بيت محسير. وفي الليل خرجت قافلة مشكلة من ستين سيارة من خولده الى القدس وفيها مؤونة وسلاح وعتاد عسكري لقوات منطقة القدس وقوات البلماح في كريات عنافيم. وصعدت الى القدس مع القافلة ايضا سرية بلماح اخرى تابعة للكتيبة الرابعة. ووصلت القافلة بسلام الى القدس في ساعات الصباح الاولى. وحاول العرب مرتين، في اليومين التاليين، مهاجمة دير محيسن واستعادتها من ايدي القوات اليهودية، لكنهم لم ينجحوا في ذلك. وفي اليوم الثالث، تدخل الانكليز المعسكرون في اللطرون وطلبوا اخلاء القرية بحجة ان الطريق الذي يمر بها حيوي لمواصلاتهم. وبعد ان تعهد البريطانيون بضمان عدم تعرض القوافل اليهودية لأي اذى في تلك المنطقة، اخليت القرية وتمركزت فيها وحدة بريطانية.

وبينما تمركزت القوات اليهودية جيدا في القطاع الغربـي للعملية، حدث اخفاق خطر في القطاع الشرقي. ففي فجر يوم ١٩٤٨/٤/٨، شدد العرب هجومهم على القسطل؛ استدعي مئات من المقاتلين الى المكان، وبقيادة عبد القادر الحسيني، قائد المنطقة، تقدموا في اتجاه القسطل، واستمرت المعركة طوال تلك الليلة وخلال ساعات الصباح. وفي الساعة الرابعة صباحا نجح العرب في احتلال عدة بيوت في طرف القرية الجنوبـي الغربـي. «اقترب ثلاثة من العرب، احدهم يرتدي زيا اوروبيا ويحمل مسدسا ورشيشا اميركيا، من المنزل الكبير في محاولة لنسفه. وشعرت بهم جماعة من قوة الميدان كانت موجودة في موقع بالقرب من المنزل، وقتلت اثنين منهم على الفور. ورفع الثالث يديه طالبا الاستسلام. لكن شابا اسمه م. ك. قتله. وبحسب ما اتضح لاحقا، كان هؤلاء الثلاثة من القادة. وتم التعرف على الشخص ذي الزي الاوروبـي على انه عبد القادر الحسيني» (تقرير عن العملية). «تسببت الشائعة التي انتشرت بين العرب في المناطق المجاورة بأن عبد القادر قد أسر» ــ روى تقرير 1563

عن تلك الفترة ــ « بهجوم ١٢٠٠ عربي بحماسة شديدة. وكان هدفهم اخراج عبد القادر من المكان حيا او ميتا». ووصل الهجوم الى ذروته في ساعات الظهر. «عندما توالت الانباء عن وضع المدافعين السيء ارسلت نجدة مشكلة من فصيلة بلماح من معاليه هحميشاه بقيادة ناحوم اريئيلي، كان من بين مهماتها الوصول الى المكان وتولي القيادة والاحتفاظ بالمكان» (المصدر السابق). ووصلت النجدة بعد فوات الاوان، اذ كان المدافعون عن القسطل قد بدأوا الانسحاب من مواقعهم. لقد صدر امر بالانسحاب، ورافقت الانسحاب خسائر كبيرة. وكان بين الضحايا «معظم القادة الذين غطوا الانسحاب» (المصدر السابق). وسقطت القسطل بيد العرب. وأصدرت هيئة اركان «نحشون»، التي وضعت منطقة موتسا ــ القسطل تحت قيادتها قبل ايام من ذلك، أمرا باحتلال القسطل من جديد في الليلة نفسها والاحتفاظ بها بأي ثمن. وفي الليلة السابقة ليوم ١٩٤٨/٤/٩، انطلقت وحدة بلماح لتنفيذ المهمة. ودهشت عندما وجدت القسطل خالية من الرجال. لقد استدعي المقاتلون العرب للمشاركة في جنازة قائدهم القتيل، وعادت القسطل ثانية والى الابد الى ايدي اليهود.

وتحركت قافلة «نحشون» ثانية في ١٩٤٨/٤/١٠ وجلبت تعزيزات عسكرية الى القدس. وفي الليلة التالية، احتل رجال من البلماح قرية قولونيا، الواقعة على طريق القدس بالقرب من موتسا، ودمروا بيوتها. لكن للأسف الشديد لم يستغل اليومان التاليان في ارسال قوافل. لكن في ٤/١٣ وصلت الى القدس قافلة كبيرة جدا، قوامها ٢٣٥ سيارة. وعند انتهاء عملية «نحشون» احتلت ودمرت قرية ساريس الواقعة هي ايضا على طريق القدس، وعادت الوحدات التي شاركت في العملية الى ألويتها.

ان تنظيم القوافل واعدادها نفذا في اطار دائرة التموين على يد مجموعة من الضباط والرقباء من مسرحي سرايا النقل اليهودية في الجيش البريطاني، بقيادة هاري يفيه. ولما لم تكف السيارات لأغراض العملية، انطلقت وحدات «الهاغاناه» الى الطرق وشوارع المدن وجندت سائقين مع سياراتهم. وتم تجميع هؤلاء كلهم في معسكر بريطاني مهجور، معسكر بيلو بالقرب من رحوفوت، انتظارا لفتح الطريق. «ان نحو ٥٠ شخصا من قدامى سلاح النقل البريطاني نظموا هذه العملية الخطرة ونفذوها» ــ روى دوف يوسف ــ «وقد تقبل معظم السائقين التجنيد بطيبة خاطر، لكن كان هناك من جُند لهذا العمل الخطر بالرشيش».

1564

وألقيت تبعة حراسة الطريق الى القدس على عاتق الكتيبتين الرابعة والخامسة التابعتين للبلماح، واللتين بدأتا عملية «هارئيل» بقيادة ضابط العمليات في هيئة اركان البلماح، يتسحاق رابين. واحتلت ودمرت قريتان اخريان: بيت سوريك وبدّو. واحتل المقاتلون المواقع الكائنة على كلا جانبي الطريق، ووصلت قافلتان اخريان قوام كل واحدة منهما اكثر من ٢٥٠ سيارة، الى القدس وعادتا. وفي ٢٠ نيسان/ابريل، خرجت من خولده كبرى

القوافل (٣٠٢ من السيارات) وسافر الى القدس في هذه القافلة د. بن ـ غوريون وأعضاء آخرون من «منهيلت هعام» [الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب]، وأيضا جنود الكتيبة الخامسة الذين خرجوا للانضمام الى اللواء، الذي دعي منذ ذلك الوقت لواء «هارئيل». ومر القسم الامامي من القافلة بسلام، لكن النصف الثاني جوبه بنيران قوية، اطلقت في اتجاهه من ناحية قرية دير ايوب، الواقعة قبالة مدخل باب الواد. ونجح جزء من القافلة في شق طريق له، لكن نحو ٨٠ سيارة طُوقت، وتحرك قائد السرية المكلفة حماية القافلة، يعقوب ستوتسكي، مع حفنة من الرجال لشن هجوم مضاد على المهاجمين، وسقط مع ثلاثة من رفاقه. وعند الظهر وصلت نجدة نجحت في انقاذ السيارات. وعجزت سبع منها عن الحركة فأحرقت. وكلف ايصال القافلة الى هدفها ١٢ شهيدا.

كان هناك نحو ٢٨٠ سائقا من تل ابيب ومن انحاء اخرى من البلد محاصرين في القدس، وشاركوا باقي سكان المدينة في الاحتفال بعيد فصح سنة ١٩٤٨، وتحملوا معهم آلامهم.

وفي ١٦/٤/١٩٤٨، فتحت قناة اتصال اخرى بين القدس والشفيلا مع هبوط الطائرة الاولى للقوة الجوية على مدرج اعدته لهذا الغرض دائرة الهندسة التابعة للواء «عتسيوني» في سهل المصلبة. واعتبارا من ذلك التاريخ، بدأت طائرات «البريموس» الهبوط يوميا بانتظام في هذا المكان، جالبة معها بريدا وعتادا وأسلحة وذخيرة، وأيضا اشخاصا من رؤساء القيادة السياسية والعسكرية للييشوف الذين طاروا الى القدس، ومنها بحسب متطلبات مهماتهم.

لقد اعيد اغلاق طريق القدس فعلا، لكن عملية «نحشون» حققت هدفها، سواء غير المباشر وهو ارسال مؤونة وأسلحة الى القدس، مكنت المدينة من الصمود في اثناء الحصار الذي تجدد حتى فتح طريق جديد، «طريق بورما»، اليها في حزيران/يونيو ١٩٤٨، او الهدف الذي لا يقل اهمية عن الاول وهو محاولة اولى ناجحة لتشغيل قوات «الهاغاناه» في اطار لواء مكتمل، سواء للسيطرة على مناطق حيوية او لاحتلال مناطق حيوية. لقد كانت ايام «نحشون» ايام انقلاب جذري في تاريخ منظمة «الهاغاناه»، اياما خطت بها الى الامام في طريقها الى ان تصبح جيش الدولة المستقلة.

معارك مشمار هعيمك

في الفترة نفسها التي جرت فيها عملية «نحشون» في الطريق الصاعد الى القدس، اندلعت معركة اخرى في شمال البلد. لقد قرر «جيش الانقاذ» بقيادة القاوقجي اظهار قوته، وذلك بالقيام بعمل عجزت حتى ذلك الوقت اية قوة عربية عن القيام بمثله، وهو احتلال نقطة عبرية وتدميرها. واختير كيبوتس مشمار هعيمك، الواقع بالقرب من طريق حيفا ـ جنين، لتحقيق هذا الهدف؛ فقد كان اقرب مستعمرة في المرج [ابن عامر] الى قواعد القوة

1565 العربية في جنين، وكان محاطا بقرى عربية، واحتلاله سيؤدي الى اغلاق وادي الملح الذي كانت تمر منه في تلك الفترة حركة النقل من الشارون الى شمال البلد، وكان في امكان القاوقجي ان يواصل انطلاقا منه معركة الاحتلال ويتحد مع القوات العربية في حيفا وجوارها. ومن اجل ان يضمن القاوقجي نجاحه تسلح بسبعة مدافع ميدان، وهو سلاح استخدم خلال حرب الاستقلال اول مرة في اثناء هذه المعركة.

قبيل المساء، في ١٩٤٨/٤/٤، بدأت المدافع بقصف الكيبوتس الذي لم يكن قط مهيأ لتجربة من هذا النوع. لم تكن هناك ملاجىء او خنادق في ساحات الكيبوتس، ولحقت أضرار كبيرة بالمباني والحيوانات. وبدأت سرايا من الجنود تقترب من ساحة المستعمرة تحت غطاء من نيران مدافع المصفحات الرشاشة، لكنها لم تجرؤ على اقتحام الساحة. وكان اعضاء المستعمرة قد تمركزوا في مواقعهم، بعد ان حذرتهم في الوقت الملائم دورية حراسة خارجية، شعرت بتجمعات العرب في قرية المنسي. وعند حلول المساء، انسحب المهاجمون بعد ان قطعوا الطرق المؤدية الى مشمار هعيمك. وعاد العرب المحليون الى قراهم، والغرباء الى

1566 قاعدتهم في جنين. وفي تلك الليلة وصلت الى مشمار هعيمك، عن طريق الحقول، سرية من قوة الميدان تابعة للواء «غولاني» (نحو ١٠٠ شخص). «كانت هذه ليلة استوجبت نقدا ذاتيا ونشاطا تنظيميا كبيرا» ـ كتب احد اعضاء المستعمرة ـ «وقد سقط لدينا قتلى وجرحى. ان الملاجىء، التي وضعنا الاطفال والشيوخ في داخلها لحمايتهم، تدمرت بسهولة بفعل قذائف المدفعية. وانقطع التيار الكهربائي، وتلوثت المياه، وتضرجت بالدماء عشرات الابقار والخيول ومئات من الطيور. ـــ وعلى الرغم من ذلك، كانت معنويات الاعضاء عالية ـــ اعضاء قيادة النقطة يتفقدون القطاعات والمواقع، ويوزعون ذخيرة اضافية، ويشجعون ويستمدون التشجيع من الاتصال المباشر بالاعضاء» («ايلان وشيلح»).

وفي اليوم التالي، تجدد القصف على المستعمرة واستولى العرب على المواقع المسيطرة على الكيبوتس. وفي هذه المرحلة طلب اللفتنانت كولونيل بيل، قائد الكتيبة البريطانية المعسكرة في مطار رامات دافيد، من الطرفين عقد هدنة لمدة اربع وعشرين ساعة. واتضح ان البريطانيين لم يكونوا مرتاحين الى نشاطات القاوقجي، التي بدأت قبل انتهاء سيادتهم رسميا على البلد. ومن المحتمل جدا انهم اعتبروه منافسا غير مرغوب فيه لـ «الفيلق العربي»، الذي كان تحت حمايتهم السياسية، ولم يريدوا ان تعلو مكانته. وفي اثناء الهدنة اخرج الجرحى من الكيبوتس وأجلي الاطفال ومربياتهم.

وأدركت هيئة الاركان العامة على الفور اهمية المعركة الدائرة في المنطقة، فأمرت بارسال ٥٠ عاملا فورا لتحصين المكان وبحشد قوات للقيام بهجوم مضاد. وعين ساديه قائدا للمعركة. وفي اليوم التالي، اقترح البريطانيون الاستمرار في الهدنة. واضطر القاوقجي، الذي وصلته الانباء عن عملية «نحشون»، الى ارسال قسم من قواته الى الجبهة الجديدة في منطقة اللطرون، ولذا طلب من الانكليز الاستمرار في الوساطة والتوصل الى هدنة لفترة

طويلة، شرط ألا يقوم اليهود بعمليات انتقامية ضد القرى التي شاركت في الهجوم وألا يضايقوا حركة النقل العربية على طريق جنين ـ حيفا. ورفضت قيادة «الهاغاناه» هذه الشروط. ووصلت الى المنطقة الكتيبة الاولى التابعة للبلماح، بقيادة دان لنر، ووحدات من لواءي «كرملي» و«ألكسندروني». وفي ١٩٤٨/٤/٨، بدأ رجال البلماح بالهجوم. انطلقوا من جعارة وسيطروا على القرية المجاورة روبية الفوقا وعلى موقع خربة الراس المشرف على ما حوله الى الجنوب من مشمار هعيمك. ومنذ ذلك الوقت، تحولت المعركة الى معركة على المواقع المشرفة. كان اليهود يخرجون في الليالي، يحتلون روبية الفوقا وخربة الراس ومواقع اخرى، ويضطرون في النهار الى تركها بسبب نيران المدفعية، التي لم يكن لدى المقاتلين اليهود رد ملائم عليها، ويعودون في الليل فيحتلونها. وفي الوقت نفسه كانت تخرج وحدات من البلماح، مسلحة بالمدافع الرشاشة، الى الوديان الهابطة الى الطريق الذي كانت تسلكه قوات القاوقجي، فتوجه ضربات عنيفة الى رجاله. واحتلت قرى الكفرين في الجنوب وأبو زريق وأبو شوشه، التي كانت تقطع الطريق المؤدي الى حيفا. وتدفقت ليلا تعزيزات من الرجال والمعدات على منطقة القتال.

واضطر القاوقجي الذي هيأ نفسه لانتصار سهل الى التراجع، خصوصا بعد ان احتلت في ٤/١٣ قريتا النغنغية وعين المنسي. لكن بعد يومين من ذلك، في منتصف نيسان/ابريل، اعلنت الصحف العربية باسم قيادة «جيش الانقاذ» ان «مشمار هعيمك وجعارة تحولتا الى تلال من الانقاض، وبلغت خسائر اليهود ٢٥٠ ـ ٣٠٠ قتيل، بينهم قائد «الهاغاناه» الذي نقلت جثته الى جنين، ومئات الجرحى». وفي وقت لاحق اضطر القاوقجي الى الاعتراف بهزيمته شارحا ان ١٥,٠٠٠ من رجال «الهاغاناه»، بقيادة جنرال روسي، وصلوا الى مشمار هعيمك. وفر مع جيش الانقاذ من القرى ايضا سكان القرى المجاورة. وخلت كل المنطقة الواقعة بين مشمار هعيمك واللجون من سكانها العرب.

1567

المعارك في منطقة رامات يوحنان

ترتبط مع معارك مشمار هعيمك المعارك التي دارت في منطقة رامات يوحنان بين قوات «الهاغاناه» ورجال كتيبة جبل العرب، المشكلة من دروز جاؤوا من سورية ودروز من ارض ـ اسرائيل، بقيادة شكيب وهاب الضابط في الجيش السوري. لقد كان معظم هؤلاء الاشخاص مرتزقة، لكن بما انهم ابناء شعب مقاتل فقد فرض عليهم ان يبرهنوا انهم يكسبون رزقهم بشرف. وقد وصلت الكتيبة الى البلد في ١٩٤٨/٣/٢٨، وعسكرت في شفاعمرو. وبعد اسبوعين من وصولها اصدر القاوقجي امره اليها بأن تباشر عمليات ازعاج ضد المستعمرات العبرية في سهل عكا، لتخفف من عبء المعركة في مشمار هعيمك. وفي ٤/١٢، تمركز الدروز في قريتي خربة هوشه وخربة القصير، وبدأوا يطلقون منها نيران قنص

على العاملين في الحقول، وعلى المستعمرات ايضا. وفي ٤/١٤، شنت وحدة من لواء «كرملي» هجوما على مواقع الدروز. ورد الدروز بشن هجوم معاكس. ونشبت «معارك بالسلاح الابيض» (موشيه كرمل). وانسحب أفراد «كرملي». وسقط اربعة منهم في المعركة، بينهم قائدا فصيلة، «غطيا ببطولة رائعة انسحاب وحداتهما» (المصدر السابق). ولم يكن من الجائز السماح للكآبة بالسيطرة على المقاتلين اليهود، ولذا تقرر احتلال قاعدتي الهجوم الدرزيتين. «بما ان هاتين القريتين كانتا بعيدتين عن الطريق الرئيسية» ــ روى موشيه كرمل، قائد لواء «كرملي» ــ «وعن مجال اهتمام البريطانيين، فقد كان هناك اساس للافتراض انهم لن يتدخلوا ضدنا».

وفي فجر يوم ٤/١٦، خرجت سريتان من لواء «كرملي» بقيادة دوف تسيس، واحتلتا بسهولة القريتين اللتين كان موجودا فيهما بضعة حراس فقط. وعلى الفور شن الدروز هجوما قويا استمر يوما كاملا. وأظهر جنود العدو في هذه المعارك شجاعة فائقة. وقد تعين على رجال «الهاغاناه» ان يصدوا في ذلك اليوم تسع هجمات قام بها الدروز، الذين كان قادتهم يتقدمونهم ويقودونهم الى المعركة. «بدأ الدروز بشن هجماتهم الجريئة، وصُدوا مرة بعد اخرى» ــ روى م. كرمل ــ «وواصلوا الهجوم بشراسة، وبين اسنانهم سكاكين كبيرة تلمع تحت اشعة الشمس. وعلى الرغم من الضحايا التي سقطت في الميدان فانهم لم يخففوا من هجومهم وحدثت معارك وجها لوجه، تبادل فيها المهاجمون والمدافعون رمي القنابل اليدوية والسكاكين». وأوشكت ذخيرة المقاتلين على النفاد وتهيأ الرجال للانسحاب، لكن وصل امر بعد الظهر من قيادة العملية في رامات يوحنان: «عليكم ان تصمدوا، حتى لو نفد الرصاص منكم. اذا انسحبتم فستبادون جميعكم. قاتلوا بالسكاكين وبكل ما تطاله ايديكم».

كان تسعة من المدافعين قد سقطوا. وصدر امر بالانسحاب من خربة هوشه والتمركز في خربة القصير. ورجح الكفة مدفع رشاش احضر في اثناء هجمة الدروز التاسعة، وصُدَّ المهاجمون. وعمل الشبان طوال الليل في تحسين مواقعهم، متوقعين هجوما جديدا. لكن اتضح مع الفجر ان الدروز قد «انهاروا»، ولم يجددوا هجومهم او يحاولوا حتى العودة الى خربة القصير التي هجرت في الليل. وفي اثناء المعارك بدأ وجهاء دروز محليون مساعي وساطة بين الجانبين، وفي نهاية الامر تم توقيع ما يمكن تسميته ميثاق عدم اعتداء. وعززت نتائج المعارك في منطقة رامات يوحنان موقف الجناح الدرزي الذي كان ينادي بعدم المشاركة في الحرب ضد اليهود، وشقت الطريق بعد فترة لمشاركة مقاتلين دروز في صفوف جيش الدفاع الاسرائيلي.

لقد احدثت معارك نحشون ومشمار هعيمك انعطافا عاما في مجرى حرب الاستقلال. ان استخدام كتائب مكتملة وحتى اطار لواء عسكري، واحتلال قرى والسيطرة على مناطق ــ كل هذا عزز الثقة الداخلية بقدرة «الهاغاناه» على هزيمة أعدائها. وفي معسكر الخصم ساد

ارتباك وتزعزعت ثقته بقدرته على الصمود امام قوات «الهاغاناه». وأيضا في العالم السياسي الواسع بدأت تظهر علائم تغيير نحو الافضل بالنسبة الى مستقبل اليشوف السياسي.

1568

تحرير طبريا

بدأت «الهاغاناه» وفقا لـ «الخطة د»، بالسيطرة على مدن البلد المختلطة. وكانت الاولى في القائمة طبريا، التي كان العرب فيها اقلية بين السكان (٢٠٠٠ في مقابل ٦٥٠٠ يهودي)، وكان يسودها منذ بداية الاحداث هدوء مشوب بالتوتر. وفي ١٩٤٨/٣/٨، بينما كان العرب واليهود يتجولون في شارع السوق، اطلق عيار ناري من موقع عربي. وعلى الفور اطلقت النار من جميع المواقع اليهودية والعربية المجاورة، وقتل عدد من الشيوخ والنساء والاطفال اليهود. وفي الاجتماع الذي عقد بين «لجنة الطوارىء» («فعدات همتساف») المحلية وأعيان الطائفة العربية، تم توقيع ما يشبه اتفاق وقف اطلاق نار، يسمح بموجبه لليهود والعرب بحمل السلاح كل جانب في احيائه، لكن يحظر على كل منهما التسلل الى الشوارع التي لا يقطنها ابناء شعبه. إلا انه في نهاية آذار/مارس، عندما وصل وضع اليشوف اليهودي الى الدرك الاسفل، تغلبت ايضا في طبريا العناصر المعادية لليشوف، التي وثقت بمساعدة ابناء القرى العربية المجاورة وخصوصا ابناء لوبية، سيئة الصيت. وقطع رجال العصابات بجدار من الاحجار الطريق المؤدي من طبريا الى الجليل الاعلى الشرقي بالقرب من مقهى «ليدو»؛ وبذلك قطعوا الطريق الوحيد الى مستعمرات الجليل من الجنوب، وأصبح من الضروري لفترة من الوقت نقل المؤونة الى الجليل الاعلى بالقوارب الى غينوسار. وفي ١٩٤٨/٤/٨، أُنهي العمل بالهدنة بعد معركة جديدة، سقط خلالها عدة ضحايا من الطرفين. وبدأت فورا المعركة النهائية على طبريا. واحتلت العصابات العربية مواقع لها على أسوار البلدة القديمة وفي فندق «طبريا» الكائن في الـ «ليدو» («تيبرياس»). وكان صعبا، بصورة خاصة، وضع الحي اليهودي الصغير في البلدة القديمة، الذي كان محاطا بالبيوت العربية من جميع أطرافه ويلامس شاطىء بحيرة طبريا في رقعة صغيرة. وأُخرج من هذا الحي جميع المدنيين اليهود، ودخلته جماعتان من لواء «غولاني»، لكن وضعهما اصبح صعبا جدا، فقد هوجمتا بنيران القناصة ومدافع الهاون، وأشعل العرب النار عدة مرات في بيوت الحي. وبدأت الذخيرة والمواد الغذائية ايضا بالنفاد. وفي ١٩٤٨/٤/١١، ارسل القائد أبراهام ريكلين احد رجاله، موشيه جينيو، وكان سباحا محترفا، ووصل الى فندق «غالي كنيرت»، وأطلع اللواء على الوضع الميئوس منه. وفي الليلة التالية، عاد الرسول في قارب وحمل معه ذخيرة للستنات، والاهم من ذلك جهاز اتصال. وفي ذلك اليوم، بدأت الفصيلتان التابعتان للكتيبة الهجوم؛ احتلتا تلة الشيخ قدومي الواقعة غربي طبريا، وقرية ناصر الدين. وبذلك عزلت طبريا العربية عن حليفتها لوبية. وفي الليلة السابقة ليوم ٤/١٣، وصلت الى البلدة القديمة في قوارب تجديف

1569

تعزيزات مشكلة من ٢٠ مقاتلا مع اسلحة وذخيرة. كما انضمت الى المقاتلين سرية بلماح تابعة للواء «يفتاح»، وبدأت عملية كان الهدف منها فتح الطريق الى الجليل الاعلى واختراق الحصار المضروب حول الوحدة في البلدة القديمة. واشتملت الخطة في مرحلتها الاولى على تدمير الحاجز الذي كان يغلق الطريق الى الجليل الاعلى، وعلى احتلال فندق «طبريا» الذي كان يسيطر على هذا الطريق وتنزل فيه القيادة العربية. وهنا تدخلت القوات البريطانية التي كانت ما زالت معسكرة في مركز الشرطة بأعالي الجبل. وأعلنت انها ستقصف بالمدفعية الاحياء اليهودية اذا لم تتوقف العملية. وفي ٤/١٦، اعلنت فرض منع التجول في المدينة، وأرسلت سيارات مصفحة ودبابة ثقيلة للتجول في الشوارع. وفي الليل تجددت المعارك. واحتلت وحدة بلماح فندق طبريا. وسيطرت على شارع طبريا المنحدر الى البحيرة. وقسمت البلدة القديمة الى نصفين. وبدأت وحدات قوة الميدان بالتجمع لمواصلة القتال في اليوم التالي، لكن اتضح لها في اليوم التالي ان العرب طلبوا مساعدة من الجيش البريطاني للجلاء عن المدينة فاستجاب لطلبهم. وفي ٤/١٩، اعلن قائد «الهاغاناه» في المدينة اقامة «حكم عبري مستقل في المدينة».

تحرير حيفا

كانت الثانية في القائمة حيفا، الميناء الكبير والمركز الصناعي المهم في البلد. كان تفوق القوة اليهودية على القوة العربية في هذه المدينة واضحا ومعروفا. وكان البريطانيون هم الذين حالوا وحدهم دون استيلاء اليهود على المدينة. وكان واضحا انهم سيخرجون يوما ما من المدينة، واذا لم تصل قوة من الخارج لمساعدة العرب فان عربدة العصابات فيها سوف تنتهي. وقد حسمت هزيمة قافلة النجدة المرسلة الى عرب حيفا في آذار/مارس، مصير المدينة (انظر ص 1386). لقد احضر القائد الجديد امين عز الدين، وهو نقيب سابق في سلاح الحدود [الاردني]، معه عصابة مسلحة كبيرة من بيروت، وأقام من جديد هيئة الاركان التي تفتتت وبدأ ببناء تحصينات متطورة. وانشأ ارتباطات بقيادة القاوقجي وبقائد الدروز في شفاعمرو. لكن بعد الهزيمة في مشمار هعيمك والمعركة بالقرب من رامات يوحنان، ادرك العرب في حيفا ان عليهم ألا يتوقعوا مساعدة من الخارج.

وفي ١٩٤٨/٤/٢١، اخطر الجنرال ستوكويل، قائد حيفا البريطاني، اليهود والعرب بأن قواته سوف تترك المدينة وأنها ستتجمع في الكرمل الغربي وفي الميناء. ووقفت القوات العربية واليهودية في المدينة للمرة الاولى وجها لوجه، من دون ان يكون بينها [الطرف] «الثالث الحاسم». وكان السؤال هو من الذي سيسارع الى استغلال لحظات الفوضى الاولى فيرجح الكفة لمصلحته.

وبدأت «الهاغاناه» المعركة بارسال فصيلة مشكلة من ٣٠ شخصا لاحتلال «مقر لجنة

1570 الاحياء الشرقية» (بيت النجادة)، في شارع صلاح الدين الذي كان مشرفا على جسر روشميا، والذي كان من شأنه ان يعرقل حركة المواصلات من حيفا الى الجليل والمروج. ووصل الرجال الى المكان في مصفحات قبل طلوع النهار واحتلوه في معركة دارت وجها لوجه، ومن طبقة الى طبقة، لكنهم تعرضوا فورا لنيران قوية من العدو من المباني المجاورة، وعزلوا عن القوات اليهودية في المدينة لأكثر من يوم كامل. وقتل اربعة أفراد وجرح كثيرون ظلوا مستلقين في المبنى دون ان تكون هناك فرصة لانقاذهم. وفي الليل سمح لقائد الفصيلة بالانسحاب من المبنى، لكن الانسحاب كان ايضا مستحيلا إلا بالتخلي عن الجرحى. وفي منتصف الليل شنت سرية من نفيه شأنان هجوما على حي الحليصة العربي في اتجاه المبنى المحاصر. وقبيل الصباح، وصلت الى المكان عدة مصفحات احضرت ذخيرة وطعاما للمحاصرين. ولم يرفع الحصار عن المبنى إلا بعد احتلال حي الحليصة بأسره.

وبعد منتصف ليل ٢٢/٤، بدأ هجوم من ثلاثة رؤوس على حيفا العربية: الاول، انحدر من نفيه شأنان لاحتلال الحليصة؛ والثاني، انطلق في اتجاه شارعي البرج وستانتون للوصول الى الوسط التجاري الجديد؛ والثالث، انطلق من الوسط التجاري الجديد في اتجاه شارع ستانتون لشطر حيفا العربية الى جزأين. ومُهِّد للهجوم بقصف مركّز على الاحياء العربية براجمات «دافيد» التي استخدمت في حيفا لأول مرة، وأدخل دوي انفجار القذائف 1572* الهائل الرعب في افئدة الاعداء. وبعد ذلك مباشرة اندفع أفراد سرية الميناء التابعة للبلماح من منطقة الوسط التجاري القديم، وانحدرت سرايا «كرملي» الخمس من منطقة جبل الكرمل. ودارت في الغرب [غرب المدينة] معركة عنيفة للاستيلاء على مبنى مكاتب ادارة سكة الحديد («بيت حوري»)، الذي تمركز فيه القناصة ولم يستسلموا إلا بعد إضرام النار في المبنى. وعند الظهر التقت القوة المنحدرة من الكرمل القوة الصاعدة من المدينة، وانشطرت المدينة السفلى الى قسمين. ودب الذعر في افئدة السكان العرب. وخرج قائد المدينة امين عز الدين في ساعات الصباح في قارب متجها الى عكا «بحجة انه ذاهب لاحضار نجدة من الرجال والاسلحة» (نمر الخطيب)، ولم يرجع. وانهارت القيادة العربية كليا وقاتلت المواقع العربية بشكل افرادي. وأرسلت قيادة «الهاغاناه» سيارات تحمل مكبرات صوت سمع المقاتلون العرب منها ان «الهاغاناه تسيطر على جميع الطرق الموصلة الى حيفا، ولن تصل نجدات اليكم ـــ لقد هزمتكم قواتنا المتفوقة عليكم، ولا فائدة من الاستمرار في المقاومة ولن يخدم موتكم اي هدف. المخرج الوحيد اماكم الآن هو إلقاء السلاح وايقاف القتال» (م. الكرمل). وقد نشأ في الحقيقة تخوف من تحرك وحدات «الفيلق العربي»، المعسكرة في معسكرات في بات غاليم ونيشر والكرداني لنجدة العرب. وأُطلقت النار من كمين نصبته «الهاغاناه» على قافلة لـ «الفيلق العربي» مرت بالقرب من مستعمرة ياجور فانسحبت.

---

* الصفحة 1571 في الاصل تحتوي على بلاغ قائد «الهاغاناه» في لواء حيفا. (المترجم)

وفي صباح ذلك اليوم، انتشرت في المدينة العربية شائعة بأن الجيش البريطاني مستعد لان ينقل الى خارج مدينة حيفا كل شخص يصل الى منطقة الميناء. «بدأ اندفاع مذعور في اتجاه بوابات الميناء» ــ روى عضو «اللجنة القومية» في حيفا، نمر الخطيب في مذكراته ــ «وداس الرجل اخيه، والمرأة اولادها. وامتلأت القوارب في الميناء بسرعة بحمولتها البشرية». وفي الصباح نفسه اتصل الوجهاء العرب باليهود، بواسطة الجنرال ستوكويل، وطلبوا من «الهاغاناه» معرفة شروطها للاستسلام. وفاجأ الامر القيادة اليهودية. «بدت فكرة سيطرتنا المطلقة على حيفا بأسرها» ــ كتب موشيه كرمل ــ «خيالية لدرجة اننا لم نستوعبها». ستوكويل بالشروط التي اشتملت على ستة بنود:

أ ــ تستسلم القوات العربية لـ «الهاغاناه»، وتسلمها جميع الاسلحة والذخيرة والمواد المتفجرة والمعدات الحربية والسيارات.

ب ــ جميع المقاتلين الغرباء الموجودين في المدينة، بما في ذلك القادة الالمان والانكليز واليوغسلاف الخ، يسلمون الى «الهاغاناه» ويؤخذون اسرى.

ج ــ تصبح السلطة في المدينة بأكملها بيد «الهاغاناه»، ويمتثل السكان لأوامرها ويتمتعون بحمايتها.

د ــ يكون جميع السكان في المدينة، عربا ويهودا، متساوين في الواجبات والحقوق.

هـ ــ يفرض منع التجول فورا في جميع الاحياء العربية. يلزم كل شخص بيته، ويكون كل من في حيازته سلاح ملزما باحضاره الى اماكن تسليم يجري تحديدها.

و ــ يتجمع الغرباء في ساحات يجري تعيينها.

ز ــ كل من يبدي مقاومة مسلحة او يوجد في حيازته سلاح بعد الموعد المحدد، يكون عرضة لاطلاق النار عليه.

وتحدد موعد لاجتماع بين ممثلي العرب واليهود في الساعة الرابعة من بعد الظهر في مقر هيئة اركان الجنرال ستوكويل. وحضر من جهة «الهاغاناه» ضابط العمليات في لواء «كرملي»، مردخاي ماكليف، وطلب العرب منحهم مهلة ساعة ونصف الساعة لاجراء مشاورات. واتصلوا بـ «الهيئة العربية العليا» في بيروت طالبين تعليمات منها. وكان الامر الصادر عن المفتي هو ان عليهم ان يتركوا المدينة وأن يرفضوا شروط الاستسلام من اليهود، اذ ان غزو الجيوش العربية بات وشيكا وسيسقط البلد برمته في ايديها. وعاد الممثلون العرب وأعلنوا انهم «يفضلون ان يتركوا جميعهم، مع نسائهم وأطفالهم» (كرمل). وناشد شبتاي ليفي، رئيس البلدية اليهودي، الممثلين العرب ألا يتركوا المدينة، ونصحهم الجنرال البريطاني ايضا بقبول شروط الاستسلام، لكن ضغط الزعامة [العربية] حسم الامر. وسمح قائد «الهاغاناه» للعرب بالخروج من المدينة شرط ألا يخرجوا سلاحهم معهم. وأشرفت وحدات مشتركة من الجنود البريطانيين وجنود لواء «كرملي» على تنفيذ هذا الامر. وسجلت الاسلحة المصادرة في

1573

هذه العملية، وسلمت للبريطانيين على اساس ان يسلموها لـ «الهاغاناه» في ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨. وخلال ليلة واحدة، غادر جميع العرب المدينة، باستثناء ٣٠٠٠ شخص اختاروا البقاء وتم تجميعهم في وادي النسناس ووادي الصليب.

وقد سقط في عملية احتلال المدينة ١٨ من رجال «الهاغاناه»، بينهم نائب قائد كتيبة قوة الميدان التي احتلت المنطقة الشرقية من حيفا، دافيد كازشخطر («كاز»).

وفي مساء عيد الفصح في ١٩٤٨/٤/٢٣ نشر موشيه زاليتسكي (كرمل)، قائد لواء «كرملي»، البيان التالي:

«بناء على الصلاحيات التي خُوِّلتها، وبمصادقة القيادة العليا اعلن قيام حكم عبري مستقل في مدينة حيفا. ان «الهاغاناه» العبرية، التي هزمت العدو العربي وتسيطر على المدينة بأسرها، تشكل السلطة المعتمدة الوحيدة في حيفا الى ان تقيم الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب سلطة دائمة مدنية في المدينة.

قائد منطقة «الهاغاناه» العبرية»

عملية «حامتس»

من اجل تخليص تل ابيب من اعتداءات يافا، وضعت خطة عملية «حامتس». وهنا ايضا قرر طابع العملية العامل البريطاني. ان سلوك البريطانيين في حيفا كان، ظاهريا، لائقا. لكن لم يكن من الممكن معرفة ما اذا كان ذلك يعكس تغييرا في سياسة «الحياد العدائي» تجاه اليشوف اليهودي ام انه حسابات محلية. ولذا لم يكن هدف العملية بحسب الخطة يافا نفسها وانما «تطهير المنطقة الواقعة بين ألوية «الكسندروني» و«كرياتي» و«غفعاتي» من اجل: أ ــ تطويق يافا؛ ب ــ فتح الطريق الى مطار اللد». وكانت هذه المنطقة، الممتدة بين ويلهلمه والرملة من الشرق حتى يافا من الغرب، تحت قيادة حسن سلامة الذي انتقل مع هيئة اركانه الى قرية اليهوديه، بعد نسف مقر قيادته بالقرب من بئر يعقوف. وكان القصد من العملية اجبار يافا، بعد خروج البريطانيين، على الاستسلام لتحرير القوات التي كانت معبأة للدفاع عن منطقة تل ابيب منذ اشهر كثيرة ونقلها الى جبهات حيوية اخرى.

وصدر الامر بتنفيذ العملية في ١٩٤٨/٤/٢٢. لكن في الايام التالية اضطر العمال اليهود الى ترك مطار اللد. واستلزم هجوم الايتسل على يافا، الذي فشل وأدى الى تدخل قوات بريطانية في المعركة بين يافا وتل ابيب، إجراء تغييرات في الخطة وتأجيل موعد تنفيذها.

وقد كُلِّفت تنفيذ خطة «حامتس» الالوية الثلاثة المعسكرة في جوار المنطقة المقرر احتلالها؛ كُلِّف لواء «ألكسندروني» الانطلاق من كفار آزار لاحتلال قرى ساقية والخيرية وسلمة؛ وأُمر لواء «كرياتي» بمشاغلة سلمة وأحياء يافا الشمالية والجنوبية؛ وكُلِّف لواء

«غفعاتي» احتلال تل الريش سيىء الصيت ويازور. وكان قائد العملية دان إبشتاين (ايين)، قائد لواء «ألكسندروني». وبدأت عمليات الاحتلال بعد منتصف ليل ١٩٤٨/٤/٢٨، بعد توقيع الاتفاق مع الايتسل، التي تعهدت بوضع رجالها ومواقعها في تصرف قائد العملية.

1574 وكانت احدى المهمات الصعبة في هذه العملية، احتلال تل الريش الذي اوكل الى الكتيبة أ في لواء «غفعاتي»، بقيادة يعقوب برولوف. وقد اندفعت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل سرية الكتيبة من مكفيه يسرائيل وانتزعت التل بسهولة من يد العدو، «الذي فر من دون قتال تقريبا» («كتاب غفعاتي»). لكن قبل الصباح، شن رجال «جيش الانقاذ» هجوما مضادا؛ كان ٣٠٠ جندي منهم قد جاؤوا قبل يوم من ذلك بسبب هجوم الايتسل. وعندما تم صد الهجوم، اتجهوا جنوبا، بقيادة ميشيل العيسى وهو نقيب سابق في سلاح الحدود [الاردني]. وكان المقاتلون اليهود، الذين لم يحفروا خنادق كما يجب في اعلى التل بسبب النقص في أدوات الحفر «الناجم عن استخفاف بضرورة التخندق»، قد احتشدوا بكثافة اكثر من اللازم في منطقة التل الضيقة، واضطروا الى الانسحاب نحو مكفيه يسرائيل متكبدين قتلى وجرحى: ٣٣ بين قتيل ومفقود، ونحو ١٠٠ جريح في التل وحواليه. وفقد سلاح كثير، من ضمنه: ٣ مدافع رشاشة، و ٢٠ بندقية، و ١٢ رشيشا.

«ان الدرس المر المستخلص من عملية حامتس» ــ كتب لاحقا قائد لواء «غفعاتي»، ش. أفيدان ــ «هو ان القوات السرية شبه النظامية، ربما تكون ملزمة بأن تدفع ثمنا مضاعفا عندما ترغمها الظروف على الانتقال دفعة واحدة من اسلوب «اضرب واهرب» و «الضربة المفاجئة» الى اسلوب احتلال منطقة والاحتفاظ بها».

أما في باقي انحاء الجبهة، فقد نفذت الخطة من دون صعوبات كثيرة. احتل لواء «ألكسندروني» الجزء الجنوبي من معسكر تل ليتفنسكي وتل هاشومير وقريتي الخيرية وساقية، 1575 وشاغل لواء «كرياتي» سلمة وأبو كبير وجباليا. وفي ليل ٤/٢٩، تسللت وحدات «كرياتي» و «ألكسندروني» الى سلمة، فوجدتها خالية من سكانها. وسيطرت وحدات لواء «غفعاتي» على المنطقة. وقد عملت قوات الايتسل في اثناء ذلك بقيادة «الهاغاناه»، وأفادت العملية كثيرا بقصفها وسط يافا بمدافع الهاون بفعالية.

وهنا وجدت القوات البريطانية ان الوقت قد حان للتدخل في المجابهة اليهودية ــ العربية على الطرق المؤدية الى يافا، فوضعت سرية معززة بمصفحات قبالة مداخل مكفيه يسرائيل لحماية حركة النقل العربية في الشارع. وأعلن البريطانيون انه اذا لم تخل يازور حتى ٥/٥، فسوف يقصفها الجنود بنيران المدافع. ولم يترك اليهود القرية، وتوصل الجيش معهم الى اتفاق اخلت «الهاغاناه» بموجبه البيوت المسيطرة على الطريق وسلمتها للجيش، بينما احتل رجال قوة الميدان في تل ابيب مواقع في باقي انحاء القرية.

لكن تدخل البريطانيين لم يجنب يافا العربيـة السقوط. وبدأ فرار عاجل. وغادرت قوافل من اللاجئين بمواكبة جنود بريطانيين المدينة بواسطة الطرق البرية، كما غادر آخرون

بقوارب وسفن عن طريق البحر. وفي ٤/٣٠، فر قائد المدينة العراقي مع جنوده وأسلحته. ووجدت نجدة من رجال العصابات دخلت المدينة تحت حراسة بريطانية المدينة خالية من معظم سكانها. لقد هجر حي جباليا وتل الريش، وأصبح ابو كبير خاليا. وفي ٥/١٠، وافق الكولونيل البريطاني على ان تدخل وحدات قوة الحراسة هذا الحي «من اجل المحافظة على [سلامة] الاماكن المقدسة ومنع تسلل الاشخاص غير المرغوب فيهم» (ي. اوليتسكي). وفي ذلك اليوم، قام ميشيل العيسى بمحاولة اخيرة لاستعادة ابو كبير، لكن الهجوم صد. وفي اليوم التالي، اتصل هاتفيا احمد ابو لبن، عضو اللجنة القومية في يافا، بصديق له ـ تاجر معروف في تل ابيب ـ طالبا منه الاتصال بهيئة اركان «الهاغاناه» ليعرض استسلام يافا التي بقي فيها ٥٠٠٠ من سكانها فقط. وفي ٥/١٣، وقع الممثلون العرب وثيقة استسلام يافا، وفي اليوم التالي ـ عند خروج آخر البريطانيين من المدينة ـ دخلتها وحدات «الهاغاناه» وأعلنتها «منطقة عسكرية مغلقة» وحُظر على المدنيين دخولها.

الصراع على القدس والطريق المؤدي اليها

كان الوضع في مدينة القدس اكثر تعقيدا. اذ كان يتعين على المقاتلين اليهود فيها ان يأخذوا بعين الاعتبار القوات البريطانية التي ظلت معسكرة في المدينة حتى منتصف ايار/مايو والتي كانت تحتل أجزاء استراتيجية مهمة في وسط المدينة ومشارفها الشمالية (كلية الشرطة) والجنوبية (معسكرات الجيش في حي البقعة).

وأعدت خطة «يبوسي»، التي كان هدفها احتلال مواقع استراتيجية من اجل تحرير المدينة، في ضوء النبأ بأن البريطانيين سيخلون المدينة في وقت مبكر. وكان القصد من العملية: أ ـ احتلال موقع النبـي صموئيل المطل على القدس من ناحية الشمال، والسيطرة بذلك على هذه المنطقة الحيوية للدفاع عن المدينة، وربما شق طريق الى النبـي يعقوب وعطروت اللتين اصبحتا معزولتين؛ ب ـ فتح طريق الى جبل المشارف [سكوبس] عن طريق احتلال حي الشيخ جراح؛ ج ـ احتلال حي القطمون، الذي كان يفصل بين حي مكور ـ حاييم والقدس.

وعين يتسحاق ساديه قائدا لعملية «يبوسي» ودافيد شلتيئيل رئيسا لهيئة اركانها. وفشل الهجوم الذي شن على النبـي صموئيل في ليلة ٤/٢٣. لقد تأخرت وحدة البلماح التي اتجهت الى المكان (بعد ان احتلت وحدات اخرى من البلماح قرية بيت اكسا الواقعة الى الجنوب من النبـي صموئيل، وشعفاط الواقعة في الطريق الى عطروت) في الانطلاق الى هدفها، وجوبهت بنيران قوية من القرية مما اضطرها الى الانسحاب قبل طلوع النهار بعد ان 1577*

* الصفحة 1576 في الاصل تحتوي على نص وثيقة استسلام يافا باللغة الانكليزية. (المترجم)

منيت بخسائر فادحة. واصطدمت وحدة مصفحات وأسلحة ثقيلة تحركت على طريق الرادار نحو بيت اكسا لتقديم المساعدة بكمين وحواجز حجارة ضخمة. ونشبت معركة بين المصفحات والكمين، فأسرعت الى المكان نجدة مشكلة من وحدة البلماح في «بيت بابرمان» (بالقرب من معاليه هحميشاه). وفجأة تدخل الجيش الانكليزي الذي كان معسكرا في معسكر الرادار وفتح النار على النجدة. وبلغ عدد الشهداء الذين سقطوا في هذه العملية كلها ٣٥، على رأسهم قائدهم، شموئيل بوزننسكي.

وفي فجر ٤/٢٦ تحرك رجال البلماح الى حي الشيخ جراح، وسيطروا بعد معركة عنيفة على جزء من الحي، لكن البريطانيين، الذين كان جنودهم موجودين في كلية الشرطة في بيت انطونيوس وفي موقع في حي بيت يسرائيل، تدخلوا وطالبوا باخلاء الحي الذي كان يقع في طريق خروجهم من القدس. ورفض قائد العملية اخلاء مواقعه. لكن بعد ان بدأ البريطانيون بالقصف، توصل الطرفان الى اتفاق يقضي بأن يخلي اليهود المكان ويحتفظ به البريطانيون الى حين جلائهم. وقد احترم البريطانيون تعهدهم هذا. وفي يوم الجلاء عاد اليهود فتمركزوا في الحي وفي كلية الشرطة. وفشلت محاولة لاحتلال مستشفى «اوغستا فكتوريا»، ولاحقا قرية الطور من اجل قطع الطريق من البحر الميت الى القدس بعد ان انفجرت الـ «دافيدكا» في بداية الهجوم، وتسببت بوقوع ضحايا وكشفت امر الهجوم للعرب المسلحين الذين كانوا متمركزين في المستشفى. 1578

وبدأ الهجوم على حي القطمون، الذي نفذته الكتيبة الرابعة التابعة للبلماح، عشية يوم ٤/٢٩. وكان الهدف الاول احتلال مباني دير «سان سيمون» المشرفة على الحي. وكانت تقف في مواجهة المهاجمين وحدة جنود عراقيين. واحتل الدير في اثناء الليل، لكن العرب شنوا هجوما مضادا قويا. وسقط مقاتلون كثيرون داخل أسواره، وأوشكت قواتنا في لحظة معينة على الانسحاب. وفي تلك اللحظة، وصل نبأ بأن العرب يهربون من الحي فأوقف الانسحاب. واستمرت المعركة، وانطلق اليهود من الدير فاحتلوا البيوت بيتا بيتا، والشوارع شارعا شارعا. وفي مساء اليوم التالي، اصبح حي القطمون بأسره بيد قواتنا، ومنه انطلقت فاحتلت منازل المستعمرة الالمانية التي كانت خارج منطقة الامن البريطانية.

وبعد ان اتضح انه ما دام البريطانيون يسيطرون على وسط القدس وان من المستحيل الاستمرار في العمليات داخل المدينة، عادت قوات «الهاغاناه» الى معالجة فك الحصار عن المدينة في منطقة باب الواد. ووضعت خطة «عملية مكابي» (تيمنا باسم القائد مكابي موتسيري، ضابط الادارة في لواء «هارئيل» الذي اصيب بجروح خطرة خلال مواكبته لقافلة اللواء في اثناء عملية «هارئيل»). وبحسب هذه الخطة كان على لواء «هارئيل» ان يعمل من ناحية القدس، وعلى لواء «غفعاتي» ان يتحرك للقائه من ناحية خولده. وفي المرحلة الاولى للعملية، احتلت وحدات الكتيبة الاولى التابعة للواء «غفعاتي» المواقع من خولده حتى ضواحي اللطرون، وفي المرحلة الثانية انطلقت كتائب «هارئيل» للسيطرة على المواقع الكائنة

في باب الواد [شاعر هغاي]، وخصوصا القرية الكبيرة بيت محسير. ولم يتم احتلال هذه القرية بسهولة؛ فقد هاجمها رجال البلماح ثلاث ليال، ولم يتم احتلالها إلا في صباح ٥/١١. وقد عثر فيها على غنائم كثيرة كانت قد سرقت من القوافل اليهودية خلال الاشهر السابقة. وفي اليوم التالي، جرت محاولة لارسال مجموعة مصفحات لاختبار الطريق، وبالقرب من دير ايوب فتح العرب عليها نيران المدافع والمدافع الرشاشة. وفي ٥/١٣، هوجمت كتيبة «غفعاتي» التي خرجت للتمركز في معسكر الاسرى السابق في اللطرون، وبعد ان تكبدت خسائر فادحة (منها ١٦ قتيلا)، اضطرت الى التخلي عن المعسكر.

وأصبح الهدف الاساسي للعملية، منذ ذلك الوقت فصاعدا، احتلال منطقة اللطرون. وأنيطت هذه المهمة بلواء «غفعاتي». وكانت قد احتُلت حتى ٥/١٥ قريتا ابو شوشه والقباب، لكن ما لبث ان وصل نبأ قيام قوات الجيش المصري بغزو جنوب البلد. ونقل معظم وحدات اللواء الى الجبهة الجنوبية، باستثناء كتيبة واحدة فقط بقيت في المنطقة واحتلت اللطرون في ليلة ٥/١٦. كما احتلت وحدة من لواء «هارئيل»، في الليلة نفسها، دير ايوب. لكن القافلة لم تكن جاهزة للانطلاق. وعبرت الطريق التي تم تحريرها ليوم واحد سيارة مصفحة واحدة فقط، احضرت معها مدافع هاون وقذائف، وسميت «قافلة اليتيم». وبعد مرور ليلتين سيطرت قوات «هارئيل»، مرة اخرى لعدة ساعات على الطريق، ووصلت بضع عشرات من السيارات الى القدس. وفي ذلك اليوم، وصلت قوات «الفيلق العربي» الى أبواب القدس، وعندئذ استدعي رجال «هارئيل» الى العاصمة، وبقيت الطريق الى القدس مقطوعة حتى الهدنة في حزيران/يونيو.

وفي القدس نفسها انتظرت قوات «الهاغاناه» خروج البريطانيين من المدينة وجهزت نفسها للسيطرة عليها بعملية اطلق عليها اسم «كلشون» [«المذراة»]، لأنها كانت تقضي بتحرك القوات في ثلاثة رؤوس: رأس شمالي، يشتمل على سريتي قوة حراسة، وفصيلة قوة ميدان وجماعة رماة مدافع هاون ووحدات الايتسل، ومهمته الاستيلاء على منطقة الشيخ جراح وكلية الشرطة، اللتين كانتا بيد البريطانيين منذ عملية يبوسي؛ ورأس اوسط مهمته الاستيلاء على المنطقة الامنية الرئيسية التابعة للبريطانيين (الـ «بوينغراد») والوصول الى سور البلدة القديمة؛ ورأس جنوبي (سريتا قوة حراسة، و ٤ فصائل قوة ميدان) مهمته الاستيلاء على معسكرات الجيش الجنوبية، وحي البقعة، ومحطة القطار والوصول حتى حي ابو طور.

1579

«حل مساء ١٤ ايار/مايو من دون ان يكون العرب مستعدين له» ــ ذكر تقرير داخلي لـ «الهاغاناه» في القدس ــ «كان قسم من قواتهم في القدس قد ارسل الى غوش عتسيون للحلول محل جنود «الفيلق العربي» ــ واحتلالاتهم الصغيرة هنا وهناك تمت احيانا كثيرة بمبادرة فردية من القادة المحليين». ولم يكن فاضل بك، قائد القوات العربية في القدس، مسيطرا على رجاله. وكان العرب في المدينة، عمليا، ينتظرون ان يقوم جنود «الفيلق العربي» باحتلال المدينة وانتزاعها من يد اليهود. وسقطت المناطق البريطانية بيد اليهود من

دون اية مقاومة تذكر من جانب العرب. وفي معسكر «العلمين» فقط، شمالي تالبيوت، تمركز ٣٠٠ عراقي واحتفظوا بالمعسكر بعناد. وصُدَّ هجومان يهوديان شُنا خلال النهار بنيران قوية. وبعد ان قصف المعسكر بالـ«دافيدكا» ومدافع الهاون من عيار ٣ بوصات، عندها فقط انسحب العراقيون وسقط المعسكر بيد قواتنا، بكل ما فيه من مخازن سلاح وذخيرة. كما دارت معارك عنيفة ايضا في مبنى «نوتردام»، الذي كان يتمركز فيه متطوعون عراقيون ايضا. وسمرت وحدة من وحدات الايتسل وصلت الى المكان بنيران العراقيين، فأرسلت فصيلتان من قوة الميدان لمساعدتها ونجحتا في احتلال الدير ومحيطه. 1580

وانتهت عملية «كلشون»، وسيطرت قواتنا على المدينة الحديثة وملأت الفراغ الذي خلفه البريطانيون وراءهم. وفي امر يومي خاص صدر عن «قائد الجيش العبري في القدس» اعلن دافيد شلتيئيل في ١٩٤٨/٥/١٩، «الى جميع قوات «الهاغاناه» المقاتلة:

«بعد ستة ايام من المعارك العنيفة والمتواصلة احتللتم القدس ـ عاصمتنا الابدية ـ تقريبا بأكملها، وأوجدتم امتدادا جغرافيا بين مناطق القدس العبرية ـ ـ ـ واليوم استدعى العدو قوات نظامية، جزء منها قوات ممكننة، من اجل انقاذ شرفه وانقاذ نفسه من هزيمة مطلقة. وها انتم تواجهون اختبارا جديدا في حرب ضد مدرعات. لا تخافوا! ان المدرعات لا تستطيع الصمود في حرب شوارع عندما يقف في وجهها رجال شجعان، يؤمنون بانتصارهم ورسالتهم. ان هناك اساليب كثيرة للتغلب على هذه المدرعات، وعليكم ان تستخدموها كلها وسوف تنتصرون».

وفعلا، وصلت طلائع «الفيلق العربي» الى حدود المدينة. وبدأت معركة طاحنة على القدس، كانت نتيجتها تقسيم المدينة بين دولة اسرائيل ودولة الاردن، حتى حرب الايام الستة (حزيران/يونيو ١٩٦٧).

تحرير الجليل

في الجليل الاعلى الشرقي بدأ الصراع على السلطة في المنطقة مع خروج البريطانيين. كان يتمركز هنا جنود «جيش الانقاذ» بقيادة الضابط السوري اديب الشيشكلي. وفي ١٩٤٨/٤/١٦، اقترح قائد الجيش البريطاني في الشمال على لجنة الطائفة [اليهودية] في صفد اخلاء المدينة من النساء والاطفال. وأعلن انه سيخصص لعملية الاخلاء سيارات ترفع علم «الصليب الاحمر»، ويشرف على نقلهم الى ايليت هشاحر. لكن اقتراحه رفض. وفي ساعات العصر، بدأ البريطانيون بالجلاء عن معاقلهم في المنطقة، وسلموها للعرب. وتمركز «جيش الانقاذ» وقوات عربية اخرى في مركز شرطة النبي يوشع، في معسكر الجيش في المالكية، وفي مركز شرطة الخالصة، وفي مركز الشرطة الحصين على جبل كنعان، وفي القلعة

على قمة جبل صفد، وفي مبنى شرطة مدينة صفد. وعزلت منطقة صفد والمستعمرات، في جبال نفتالي والمنارة ومسغاف عام وراموت نفتالي، عن كتلة المستعمرات في سهل الحولة. وكان وضع الـ ٢٠٠٠ يهودي المحاصرين في الحي اليهودي الصغير في صفد صعبا جدا، وكان من الضروري تقديم مساعدة سريعة لهم. وتسللت فصيلة بلماح، مشكلة من ٤٠ شخصا، في الليلة التالية لجلاء البريطانيين عن جبل كنعان، الى الحي اليهودي في صفد، حاملين على ظهورهم اسلحة وذخيرة. «في الساعة الثالثة ليلا» ـ روى قائد الفصيلة، إلعاد بيلد ـ «انطلقنا من جبل كنعان ركضا. عرفنا اننا اذا لم نصل الى الحي اليهودي قبل طلوع النهار فانه يكون قد فات الاوان. وعندما بزغ الفجر كنا على أبواب القرية العربية عين زيتون ـــ انتظمنا في صفين ودخلنا المدينة ونحن نغني نشيد البلماح».

وجرت محاولة للاستيلاء على مركز شرطة النبي يوشع في الليل لكنها لم تنجح، وفقد خلالها اربعة من المقاتلين حياتهم. وفي محاولة ثانية، في ٤/٢٠، انطلقت وحدة الكتيبة الثالثة التابعة للبلماح من جنوبي مركز الشرطة متظاهرة بشن هجوم تضليلا للعدو حتى يركز انتباهه على هذه الجهة. وفي الوقت نفسه، قدمت قوة اصغر من جهة الوادي في الشمال، مستغلة المنطقة الميتة، واقتربت من سياج المبنى الحصين. ووصل خبراء التفجير الى السياج وبدأوا بقصه، لكن اتضح ان عدد السياجات من ناحية الشمال كبير جدا. واستخدم قائد الفصيلة، دافيد تشيركسكي، مواد متفجرة لنسف السياج. وبذلك اكتشف العدو وجود خبراء التفجير وفشلت محاولتهم لاحداث ثغرة في جدار المبنى كي يتسللوا منها الى داخله. 1581 وفي هذه الاثناء اشرقت الشمس، واكتُشف امر المهاجمين فانصبت عليهم نيران قوية مما اضطرهم الى الانسحاب. «في اثناء الانسحاب برزت مظاهر بطولة غير عادية. ساعد الرجال بعضهم بعضا، وضحى كثير منهم بحياته وهو يقدم المساعدة لزملائه» (ع. شامير). وسقط في العملية ٢٢ شخصا، بينهم قائدا الوحدتين المشاركتين في الهجوم: بيلون فريدمان ودافيد تشيركسكي. ولم يحتل مركز الشرطة إلا بعد شهر (سقط اثنان خلال عملية الاحتلال)، وغير اسمه الى «قلعة القوة» تخليدا لذكرى ٢٨ مقاتلا سقطوا في ازمنة مختلفة من اجل احتلاله.

واتخذت القيادة العليا قرارا بالقيام بعملية شاملة وخطط لها لإحداث تغيير سريع في الوضع. وكُلِّف يغآل آلون، قائد البلماح، قيادة العملية التي دعيت باسم «يفتاح». وكانت في تصرفه القوات المعسكرة في المنطقة بقيادة اوري يفيه. وضمت اليها لاحقا كتيبة البلماح الاولى التي جاءت من مرج ابن عامر. وقد بدأت العملية مع خروج البريطانيين من هذه 1582 المنطقة في ٤/٢٨. احتل في ذلك اليوم مركز شرطة روش بينا ومعسكر الجيش الواقع الى الجنوب منه. وبعد ذلك كُلِّفت القوة شق طريق الى صفد. وفي ٥/١، احتُلت بيريا وعين زيتون العربيتان، وتم الاتصال بصفد عن طريق الجبال. وبعد يومين، سيطرت كتيبة البلماح الاولى على مضارب البدو من روش بينا حتى الاردن (عملية «مطأطي» [المكنسة]).

وفي تلك الفترة هوجمت مستعمرة راموت نفتالي بعنف. وصمد اعضاؤها الـ ٤٥ في مواجهة مئات من الجنود العرب، الذين كانت تساندهم المصفحات والدبابات والذين قصفوا المستعمرة بالمدافع. ووصف الوضع في برقية وصلت الى قيادة العملية في صباح ٥/١ بأنه ميؤوس منه. «أعلنوا انهم فقدوا الامل» ــ روى يروحام كوهين في مذكراته ــ «وانهم يستعدون لاخلاء المكان والانسحاب الى سهل هئيلا. وانبعثت من بين السطور صرخة يأس لاناس يعرفون ان نهايتهم اقتربت. واجابهم يغآل (فايكوفيتس) باختصار وبصورة جازمة، وطلب منهم الصمود بأي ثمن. وحذرهم بشدة ان كل من ينسحب من المكان سيعدم بالرصاص لدى وصوله الينا». وأدى ظهور عدد من طائرات «البريموس» في نهاية الامر الى فك الحصار وانسحاب المهاجمين.

وفي صفد انتقلت القيادة الى إلعـاد بيلد، الذي اعلن قيـام حكم عسكري في المدينة، وتركيز كل شؤون التموين والمياه وباقي الشؤون المدنية بيد الجيش. وشُرع في تعزيز تحصينات الحي اليهودي، وخصوصا القسم المتاخم للحي العربـي. وكانت المواقع هنا تقع على بعد ١٠ ــ ٢٠ مترا تقريبا من مواقع العرب، الذين كانوا يسيطرون على مبنى شرطة المدينة ومنه على طرق المواصلات المؤدية الى المواقع اليهودية. وأقيم في هذا القسم، الذي دعاه المدافعون «ستالينغراد»، خط دفاعي ثان، وأنشئت شبكة سـراديب تحت الارض باستخدام اقبية صفد. وكان عدد أفراد قوة الحراسة المحلية نحو ٢٥٠ شخصا، وسرية قوة الميدان نحو ٩٠ شخصا. وانضم اليهم أفراد فصيلة البلماح وعددهم ٣٥ شخصا. وكان في حيازة الجميع ٧ مدافع رشاشة متوسطة، ومدفع هاون واحد من عيار ٢ بوصة، ونحو ٢٧٠ بندقية، وكمية من الرشيشات والمسدسات. وكانت كمية الذخيرة قليلة الى درجة انه «صدر امر بأن كل من يطلق النار من دون مبرر، سيغرم بثمن كل رصاصة يطلقهـا» (إ. بيلد). وفي المقابل، كان لدى العرب كمية كبيرة من المدافع الرشاشة والبنادق ومدافع الهاون مع ذخيرتها، ونحو ٧٠٠ مقاتل من الخارج ــ عـراقي وسوري ولبنـاني ــ ونحو ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ مقاتل محلي مع اسلحتهم.

وبعد جلاء البريطانيين عن المدينة ساد الخوف سكان المدينة اليهود، مما استوجب القيام بحملة اعلامية خاصة لاقناع رجال «الهاغاناه» في المكان وباقي سكان المدينة بأن جلاء البريطانيين نعمة. ورد في صحيفة «الهاغاناه» المحلية، التي شرعت في الصدور في ايام الحصار تلك وترأس تحريرها يشعياهو عسيني: «ان الاوهام الكاذبة بأن البريطانيين مسؤولون عن القانون والنظام في صفد قد انتهت وتلاشت. وتوقفت العقبات المقصودة الموجهة ضد نظام دفاعنا. لقد تخلصنا من عدو ماكر كان يعيش في وسطنا وعلى حسابنا ويطمح الى افشالنا. وبقينا في مواجهة عدو واحد. وعلينا ان ننتصر على عدو واحد. وسنستخدم مواقعنا وأسلحتنا علنا وفقا لتقديراتنا» («كول تسفات» [صوت صفد]). وأصدر الحاخامون فتوى

بأنه «مسموح، لا بل انه فريضة وواجب الاستمرار في اعمال التحصين» في ايام السبت وأيام عيد الفصح.

واستمر صمود اليهود ضد العرب اسبوعين تقريبا. وأخذ وضع التموين والذخيرة يسوء، وتناقصت الذخيرة، وانخفضت معنويات السكان يوما بعد يوم. ورفع احتلال بيريا وعين زيتون، الذي ورد ذكره اعلاه، المعنويات كثيرا في الحي اليهودي المحاصر. وبدأ الجنود والاسلحة والذخيرة بالتدفق على صفد.

وفي فجر ١٩٤٨/٥/٦ بدأت المعارك في صفد. شن رجال الكتيبة الثالثة، بقيادة موشيه كالمان، هجوما على القلعة. وصُدّ الهجوم واستشهد فيه ستة من رجال الدفاع. وفي اليوم نفسه بدأت مدافع العدو، المنصوبة في ميرون، بقصف الحي اليهودي. وعلى الفور وضعت الاستعدادات لشن هجوم جديد، واتخذ قرار باحتلال صفد قبل الموعد المصيري: ١٥ ايار/مايو. وتسلم المقاتلون اسلحة اضافية، مدافع «دافيدكا» ومدافع هاون. وفي يوم الهجوم بالذات احضرت الى المدينة ٣ مدافع مضادة للدروع من طراز «بيات» من انتاج الصناعة العسكرية «حسمت مصير المعركة» (م. كالمان). وبالاضافة الى المقاتلين نظمت في المدينة مجموعات من الشبان من ابناء المكان، «كان من مهماتها ان تنقل الى المواقع التي سيجري احتلالها: الماء والطعام والذخيرة والمواد الطبية» (م. كالمان).

1583

وفي فجر ٥/١١، هاجمت قواتنا دفعة واحدة المواقع الرئيسية الثلاثة التي كانت تسيطر على الحي اليهودي: مبنى شرطة المدينة و«القلعة»، ومبنى «شلفاه» على مداخل المدينة الذين سلمه البريطانيون للعرب. وبمساعدة مدافع الـ«بيات» تم احتلال مبنى «شلفاه» (في اثناء احتلاله قتل قائد العملية، أبراهام ليخت). ولم يتم احتلال «القلعة» إلا بعد ثلاث هجمات، وهناك ايضا حسم مدفع الـ«بيات» المعركة للمرة الثالثة. ودارت المعركة الاصعب والاطول على مبنى شرطة المدينة. وبعد ان احدث خبراء التخريب فجوة في جدار المبنى، تسلل رجال البلماح الى الطبقة الاولى. وقتل في اثناء ذلك قائد العملية، يتسحاق هوخمان. واحتل المبنى طبقة فطبقة، الى ان دُفع باقي المقاتلين العرب الى السطح وتمركزوا فيه.

1584

وطوال الهجوم كان المطر ينهمر. وطلب قائد العملية من السكان جمع ألبسة ومعاطف وبطانيات. «فوجئنا» ـــ روى القائد ـــ «بأهالي صفد يحضرون بذلات العيد وأفضل ما لديهم من معاطف وبطانيات، اوصلها الى الوحدات المقاتلة بسرعة بعض الشبان من ابناء صفد الذين انيط بهم الاهتمام بالتموين. وخلال الليل جرى تبديل الملابس مرات عديدة» (م. كالمان):

اكتملت المرحلة الاولى من تحرير المدينة مع طلوع الفجر واحتلال النقاط الرئيسية. لكن المقاتلين لم يكونوا على علم بأن قائد «جيش الانقاذ» في صفد كان قد امر جنوده في اليوم السابق بترك المدينة. «وجد السكان انفسهم» ـــ روى تقرير عربي ـــ «فجأة من دون حماية، وبدأوا مذعورين بالفرار من المدينة». ووجدت وحدات التمشيط الحي العربي في الصباح

خاليا من السكان، كما وجد مبنى الشرطة على جبل كنعان خاليا من الجنود. واحتفلت صفد بتحريرها.

وفي اعقاب الهزيمة في صفد دبّ الذعر في القرى العربية في سهل الحولة، وهجر السكان بيوتهم تاركين المنطقة بأسرها لليهود.

في الجليل الاسفل عملت وحدات لواء «غولاني». ففي ١٩٤٨/٤/٢٨ احتل مركز شرطة سمخ وهجر السكان البلدة. ودارت معركة عنيفة حول مركز شرطة غيشر، التي كان قد احتلها اعضاء مستعمرة غيشر فور جلاء البريطانيين. وفي ١٩٤٨/٤/٢٩، وجه الملك عبد الله انذارا نهائيا الى مستعمرة غيشر، طلب فيه من اعضائها تسليم سلاحهم ومغادرة المكان، والا دكت المستعمرة من اساسها. وبناء على أوامر رئيس القيادة القطرية اجاب مندوب المستعمرة موفدي الملك بأن سكان المستعمرة يعتبرون الانذار النهائي بمثابة تدخل من دولة اجنبية، وأنهم لن يتركوا المكان وسيقاتلون بضراوة. وبدأ «الفيلق العربي» الهجوم بمساندة المدفعية والمصفحات. وكان هذا الهجوم اول تدخل من جانب «الفيلق العربي» في مجريات الامور في البلد، وتم صده. وفي ٥/٦، احتلت الكتيبة ١٢ التابعة للواء «غولاني» قرية الشجرة العربية وجوارها. وفي ٥/١٢ طوقت الكتيبة الـ١٣ التابعة للواء «غولاني» مدينة بيت شان [بيسان]. وباحتلال تل حسين، المسيطر على المدينة، احكمت حلقة الحصار واستسلمت المدينة وهجرها سكانها.

وفي الجليل الغربي كان السكان اليهود في حالة نفسية سيئة منذ اعلان قرار الامم المتحدة بتقسيم البلد، اذ ان مصيرهم كان ــ كما يظهر ــ البقاء خارج حدود الدولة اليهودية. ومع ذلك قدمت مخصصات مالية للمستعمرات لبناء تحصينات، فكان مجرد العمل في التحصينات دافعا الى رفع المعنويات. ومع تطور المعارك وانعزال المنطقة عن أجزاء البلد الأخرى، ازداد الشعور بالكآبة لدى السكان حدة، وأصبح من المحتمل ان يؤدي ذلك الى انهيار معنويات المقاتلين. وتزايد هذا الشعور اكثر بعد ابادة القافلة المتجهة الى يحيعام (انظر ص 1455). وفي ايار/مايو تم لقاء بين وفد يمثل مستعمرات الجليل الغربي وبين د. بن ــ غوريون وي. غاليلي وي. يادين، وطالب الوفد فيه بعمل كل ما يمكن لفك الحصار عن الجليل الغربي. وخرج اعضاء الوفد من اللقاء منقبضي النفس بسبب الانطباع الذي تكون لديهم بأنه ليست هناك نية للقتال من اجل منطقتهم كالقتال من اجل المناطق المشمولة ضمن حدود الدولة اليهودية المقترحة. وبعد ايام من ذلك استمدوا التشجيع من كلمات رئيس القيادة القطرية ي. غاليلي، التي قالها بتاريخ ١٩٤٨/٥/٩ في الجلسة الافتتاحية من اجل القرض القومي مخاطبا جميع المستعمرات الموجودة خارج نطاق الدولة اليهودية المقترحة: «من واجبنا الوصول اليها وانقاذها من الحصار ــ انا سنحترم حدود التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، اذا احترمها العالم نظريا وعمليا، لكن نيران

العدو محت الخطوط التي وضعت بقلم الرصاص والتي كانت تدل على هذه الحدود، ولن يفصل حد بيننا وبين ييشوف عبري موجود هنا في ارض ـ اسرائيل الكاملة».

وقد حدث التحول الكبير في الجليل الاعلى الغربي بعد تحرير حيفا وتفرغ قوات لواء «كرملي» للقيام بعمليات جديدة، واعتبارها ان اول واجباتها هو تحرير المستعمرات الصغيرة في زاوية البلد الشمالية الغربية من كماشة الحصار العربي. ودعيت عملية التحرير باسم عملية «بن عامي»، تيمنا باسم بن عامي بختر، قائد القافلة التي ابيدت في طريقها الى يحيعام. 1585

وكان الوضع في هذه المنطقة، في تلك الفترة، سيئا جدا. «قدمت الوفود التي نجحت في الوصول من المستعمرات الينا» ـ روى يغئيل يادين ـ «وصفا تفصيليا لوضعها. وكان من الواضح ان لا مجال لتأجيل العملية، وأنه ينبغي حسم الوضع هنا ايضا قبل غزو الجيوش النظامية. وكلفنا قضاء حيفا ولواء «كرملي» مهمة تحرير الكرمل الغربي، وهي مهمة تأجل تنفيذها من يوم الى آخر لصعوبة توفير قوات كافية للقيام بالعملية. وبعد ان عبأت قيادة المنطقة كل القوات الى حد القسوة، وبعد اضافة وحدات من البلماح وعدة مصفحات وكمية من الاسلحة الثقيلة (بحسب مفاهيم تلك الايام: مدافع رشاشة ومدافع هاون) استطعنا تجميعها، قررنا تنفيذ المهمة في الاسبوع ما بين ٨ ـ ١٥ ايار/مايو، وليحدث ما يحدث. وطلب من سلاح الطيران، الذي كان يطيّر «فراشاته» في تلك الفترة الى عتسيون والقدس والجليل الشرقي والنقب، القيام بجهد اضافي: مساندة حملة شق الطريق الى الجليل الغربي».

وكان الهدف الاول للحملة نقل قافلة تموين وأسلحة من حيفا الى نهاريا، ومن هناك الى يحيعام فمنطقة حانيتا. واحتلت من اجل ذلك قرى السامرية والزيب والبصة. وفي ليل ٥/١٤، انطلقت قافلة تموين وأسلحة الى المستعمرات المعزولة. وقد احتلت تلك القرى من قبل جنود وصلوا الى المنطقة بزوارق، وكانت هذه من زاوية معينة اول عملية لسلاح البحرية، الذي بدىء بتنظيمه في تلك الفترة (انظر ص 1510). وقد فر السكان من قراهم لدى ظهور القوات اليهودية وقررت قيادة «الهاغاناه» الاحتفاظ بها. وكانت العقبة الوحيدة التي بقيت في الطريق هي مدينة عكا، لكن معنويات سكانها كانت متدهورة، وبعد ساعات معدودة من القصف بمدفعية الهاون وتوزيع منشورات تدعو السكان الى الاستسلام، فتحت عكا ـ في ٥/١٧ ـ أبوابها امام جنود «الهاغاناه» وتحولت الطريق من حيفا الى الجليل الغربي بكاملها الى طريق يهودية.

عمليات تطهير وتمركز في الشارون والشفيلا والنقب

فرغت المنطقة الوسطى، من زخرون يعقوف حتى تل ابيب، من السكان العرب خلال الاشهر الاولى لحرب الاستقلال. وكُلِّف لواء «ألكسندروني» احتلال عدة تجمعات سكنية

عربية على منحدرات جبال السامرة والكرمل. ونفذت هذه المهمة بأكملها. في ١٣/٥، شن هجوم على كفر سابا العربية. ونظرا الى طبيعة المنطقة (وديان وبساتين) نفذت العملية في ساعات النهار. واحتلت القرية، وصد هجوم مضاد قامت به في اليوم التالي قوات «جيش الانقاذ». لكن محاولة جرت في مساء اليوم نفسه لاحتلال قرية الطيرة فشلت تماما. لقد سبق الهجوم على الطيرة خروج ثلاث فصائل من الدوريات المقاتلة من كتلة [مستعمرات] تل موند. وقد خرجت من كفار هيس وهي واثقة من ان سكان الطيرة قد هجروها. وكُلِّفت الفصائل مشاغلة القرية. لكن قائدها قرر، كما يبدو، احتلالها بقواته القليلة. وعلى بعد مسافة قليلة من القرية جوبه الرجال بنيران بنادق ومدافع رشاشة كثيفة، فسقط منهم ٢٤ شهيدا. وفي اثناء ذلك، بدأت نجدات عربية قوية بالوصول الى الطيرة من قلقيلية وطولكرم، ومعها مصفحات مزودة بمدافع خفيفة (تو باوندرز)، وتم صد الهجوم اليهودي. وعلى الفور شن العرب هجوما مضادا على رامات هكوفيش، تحطم بعد ان تكبد العدو خسائر فادحة. وتسببت هذه العمليات الفاشلة بالغاء خطة احتلال قلقيلية (وفقا لـ «الخطة د»). وبعد ان اخلى البريطانيون معسكراتهم بالقرب من كفار يونا، تمركز فيها أفراد لواء «ألكسندروني»، وأقاموا موقعين في اعلى الهضبة المشرفة على طولكرم.

1586 وفي منطقة الشفيلا كُلِّف لواء «ألكسندروني» السيطرة، وفقا لـ «الخطة د»، على القرى العربية. واحتلت بعدة عمليات قرى: عقور، وقطره، وبشيت، وبيت داراس، وبرقه. وانطلق رجال لواء «النقب» من نير عام فاحتلوا قرية برير ودمروها (في ١٣/٥). وبدأ الفلاحون من القريتين المجاورتين حليقات وكوكب بالفرار في اتجاه جبال الخليل. لكن اللواء اضطر الى العودة على الفور لمواجهة الجيش المصري الغازي، ولم يكتمل تطهير الشفيلا.

مكانة قوات «الهاغاناه» عند بدء الغزو

كان لعمليات الهجوم والاحتلال في الاسابيع الستة، منذ بداية عملية «نحشون» حتى غزو الدول العربية، قيمة حاسمة في تعزيز قوة «الهاغاناه» لمواجهة الاحداث القادمة. «ان الهجوم الكاسح الذي قامت به «الهاغاناه» ــ منح كل الالوية فرصة الانتصار في معارك سهلة نسبيا، وأمدتها الانتصارات بتشجيع وثقة بالنفس»، كتب مردخاي بار ــ اون احد دارسي تاريخ جيش الدفاع الاسرائيلي، «وبالاضافة الى ذلك، شكل هذا الهجوم عاملا بالغ الاهمية في تعزيز قدرة المحاربين، وليس هذا فحسب: انه اكسبهم ثروة حيوية افادتنا عندما وقعت علينا الضربات الاولى مع غزو الجيوش النظامية في النصف الثاني من شهر ايار/مايو. ان مقاتلي تلك الفترة يذكرون بالتأكيد الاثر المحزن والمفزع الذي تركته الاخفاقات الاولى، مثل: سقوط الـ ٣٥، وهزيمة القوافل في يحيعام وحلده والنبي دانييل. ان مشاركة كثيرين منا في احتلال المدن والقرى العربية، في أواخر نيسان/ابريل وأوائل ايار/مايو، هي فقط التي خلصتنا من انقباض النفس وأعادت الينا الثروة الثمينة المسماة ثقة القوات بالنفس».

في يوم غزو جيوش الدول العربية، في ١٩٤٨/٥/١٥، كانت قوات «الهاغاناه» تسيطر على رقاع ضيقة ممتدة على طول مناطق الاستيطان اليهودي: رقعة اولى ممتدة من المطلة حتى طيرات تسفي؛ رقعة ثانية من معوز حتى حيفا؛ رقعة ثالثة، ضيقة جدا، من حيفا حتى رأس الناقورة؛ رقعة رابعة من حيفا حتى نيرعام. وكانت منطقة القدس معزولة. وكان اتصال مستعمرات النقب بالشمال ضعيفا جدا. ومن النقاط المعزولة بقيت فقط، بعد احتلال غوش عتسيون واخلاء شمالي البحر الميت، عطروت والنبي يعقوب ـ سدوم جنوبي البحر الميت.

ومع اعلان قيام الدولة في ١٩٤٨/٥/١٤ تغيرت ايضا مكانة «الهاغاناه»، التي تحولت بين عشية وضحاها الى جيش شرعي لدولة ذات سيادة، وحكمت علنا المناطق التي احتلتها. أما بالنسبة الى المقاتلين فلم يتغير، ظاهريا، اي شيء في هذا اليوم. كانوا منتشرين فرادى في المكان الذي شاء لهم القدر ان يواجهوا العدو فيه بكل قوتهم وبكل السلاح المتوفر لديهم. وكانوا هم رجال البلماح وقوة الحراسة وقوة الميدان وباقي وحدات «الهاغاناه» انفسهم الذين كانوا في اليوم السابق، كما بدأ بالانضمام اليهم ايضا رجال المنظمتين المنشقتين. ومن هنا يبدأ فصل جديد في تاريخ تطور القوة العبرية في وطنها ـ فصل في تاريخ «جيش الدفاع الاسرائيلي».

الفصل التاسع والسبعون

من "الهاغاناه" إلى "جيش الدفاع الإسرائيلي"

انتهاء فترة

في شهر ايار/مايو ١٩٤٨، مع اعلان اقامة دولة اسرائيل، انتهت فترة عمل «الهاغاناه» السري. وعمليا بدأت «الهاغاناه» الخروج الى العلن، بصورة جزئية، قبل بضعة اسابيع من ذلك، لكن غياب الطابع الرسمي والاعتراف الدولي بنشاطها تسبب بصعوبات كثيرة خارجية وداخلية.

بالنسبة الى الخارج، لم يسمح لها الجيش البريطاني بالعمل في اي مكان من دون ازعاج، وكانت مرغمة على اخذ حاجاته وتحركاته بعين الاعتبار؛ لم يكن في وسع موفديها اجراء مفاوضات فيما يتعلق بشراء الاسلحة كممثلين لدولة مستقلة، وانما كممثلين لمنظمة سرية؛ وكانت الموانىء مغلقة في وجه السفن التي تحمل اسلحة؛ واستمرت البضاعة العسكرية في العمل بصورة سرية.

وبالنسبة الى الداخل، استمرت المنظمتان المنشقتان في الطعن في سلطة الـ «الهاغاناه» كجيش واحد ووحيد لدولة ذات سيادة، واستمرت وحداتها المسلحة الخاصة في البقاء حتى عندما استوجبت الحرب، التي كانت تخوضها الامة دفاعا عن وجودها، حلها.

وقد اوجد جلاء البريطانيين واعلان اقامة الدولة وضعا جديدا يتضمن اقرارا نظريا بالوضع الذي كان قائما منذ عدة اسابيع. وكان مطلوبا بلورة هذا الانتقال من ناحية عملية وشكلية فقط. وأوكلت هذه المهمة الى «منهيلت هعام» [الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب]، التي تحولت بسرعة الى حكومة اسرائيل الموقتة، كما اوكلت بصورة خاصة الى دافيد بن ــ غوريون الذي عين مسؤولا عن جهاز الامن.

واقتضى الواقع الجديد ايجاد اطر ملائمة لبنية مؤسسة على القانون، كما هو مألوف في اية دولة ذات سيادة قائمة على القانون وعلى رأسها حكومة تضم وزيرا للدفاع مسؤولا عن الجيش، بدلا من لجنة الامن والقيادة القطرية القائمة على التمثيل المتكافىء، وهما مؤسستان عكستا المشاركة الطوعية لأوساط اليشوف المختلفة في فترة العمل السري والتطوع الشخصي قبل قيام الدولة.

وقد ارتبط الانتقال من قوة سرية تطوعية الى جيش دولة ذات سيادة بأزمات كان بعضها خطرا. ووقع معظم هذه الازمات بعد قيام الدولة ولذا لن نتطرق اليها في هذا الكتاب، باستثناء واحدة بدأت قبل قيام الدولة وانشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي»، وهذه نحن ملزمون بالحديث عنها.

إلغاء منصب رئيس القيادة القطرية

مع دنو موعد اعلان اقامة الدولة بدا لدافيد بن ــ غوريون ولرؤساء «الهاغاناه» ان من الحيوي تغيير بنية القيادة العليا لتصبح منسجمة مع ما هو مألوف في دولة ديمقراطية قائمة على القانون، اي نقل صلاحيات القيادة القطرية لـ «الهاغاناه» الى مؤسسات الدولة.

وكان رئيس القيادة القطرية يمثل منذ سنة ١٩٣٨ حلقة الوصل بين مؤسسات الييشوف العليا و«الهاغاناه» (انظر المجلد الثاني، ص 1018)، وكان يعين من قبل ادارة الوكالة اليهودية، ويعمل وفقا لتوجيهات الدائرة السياسية وموافقتها. وكان رئيس القيادة القطرية هو صاحب السلطة العليا في «الهاغاناه»، وينقل توجيهات الوكالة وقرارات القيادة القطرية من اجل تنفيذها بواسطة رئيس هيئة الاركان العامة. وقد نبعت مكانة ونفوذ كل واحد ممن شغلوا هذا المنصب (يوحنان راتنر، ويعقوب رايزر، وموشيه سنيه، وزئيف فاينشتاين، ويسرائيل غاليلي) الى حد كبير من شخصيته ومكانته العامة والعلاقات التي نسجت بينه وبين سلك القادة.

1588

وكان رئيس القيادة القطرية الاخير لـ «الهاغاناه»، يسرائيلي غاليلي، مرتبطا منذ صباه بكل شؤون «الهاغاناه»، وعمل في كنف إلياهو غولومب ودوف هوز وشاؤول مئيروف، وكان عضوا في القيادة القطرية منذ سنة ١٩٣٧ ونشيطا في مجالات كثيرة من مجالات عمل «الهاغاناه». ومنذ ان عُين يسرائيل غاليلي رئيسا للقيادة القطرية من قبل د. بن ــ غوريون في حزيران/يونيو ١٩٤٧ مثل الشؤون العسكرية في جلسات لجنة الامن التابعة للييشوف. ومنذ اندلاع حرب الاستقلال شارك في القرارات المتعلقة بالتغييرات في بنية «الهاغاناه»، وفي اختيار قادة الحرب. واتسعت مهمات غاليلي بعد ان اضطر رئيس هيئة الاركان العامة، يعقوب دوستروفسكي (دوري)، الى التوقف عن العمل احيانا بسبب مرضه. وقد قام بجزء كبير من اعمال رئيس الاركان نائبه تسفي لشتسينر (ايلون)، ورئيس شعبة العمليات يغئيل سوكنيك (يادين)، لكن السلطة العسكرية العليا، التي كان عليها ان تنسق بين عمل الدوائر، وأن تترأس جلسات هيئة الاركان العامة في كل صباح، وأن تكون مرجعا لقادة الالوية، وأن تحسم الامر في حالة نشوب خلافات في الرأي بين رؤساء الدوائر، وأن تتخذ القرار فيما يتعلق بالاولويات بالنسبة الى المخصصات المالية والتزويد بالاسلحة وما شابه ــ هذه السلطة تولاها عمليا في تلك الفترة يسرائيل غاليلي، بالتشاور بصورة دائمة مع

1589

د. بن ــ غوريون. «اعتبرنا يسرائيل غاليلي» ــ قال ي. سوكنيك في احدى المداولات ــ «الشخص الضليع في الامور بحكم خبرته المكتسبة طوال سنوات كثيرة؛ اعتبرناه الرجل [المرجع]».

واعتبر بن ــ غوريون مهمة القيادة القطرية، وبالتالي مهمة رئيس القيادة القطرية، زائدة عن اللزوم في الظروف المتغيرة بعد خروج «الهاغاناه» الى العلن. وقد عبر عن رأيه هذا في اجتماع اللجنة الامنية في ١٩٤٨/٤/٤: «لست راغبا في المساس بالمؤسسات القائمة» ــ قال ــ «ولا في اثارة نقاشات لا لزوم لها، لكننا نقف الآن امام قرار تاريخي سيبت مصيرنا وأمر اقامة دولة يهودية، وهذان يستوجبان سلطة مركزية وحيدة». وفي المحادثات التي جرت آنذاك بين بن ــ غوريون وغاليلي فيما يتعلق بالتغييرات المرتبطة بالانتقال الى نظام عسكري رسمي، شدد غاليلي على انه لا يستطيع الاستمرار في العمل وفي تحمل المسؤولية من دون صلاحية محددة تجاه هيئة الاركان العامة، وأن عمل هيئة الاركان العامة سيتضرر ــ في رأيه ــ اذا ظل اعضاؤها معتمدين على اتصال يومي مباشر ببن ــ غوريون، بصفته مدير الدفاع، اذ انه لا يستطيع التفرغ للمشكلات المطروحة كونه مشغولا بكل المسائل المتعلقة بـالامن وبالشؤون السياسية وشؤون الييشوف.

وفي ١٩٤٨/٥/٣، اصدر بن ــ غوريون أمرا الى كل من هيئة الاركان العامة والقيادة القطرية بالغاء منصب رئيس القيادة القطرية وانهاء خدمات ي. غاليلي في هذا المنصب اعتبارا من اليوم نفسه الساعة ١٢,٠٠، وبانتقال مسؤولياته تجاه القيادة القطرية وهيئة الاركان العامة الى مدير الدفاع فقط. وأعرب بن ــ غوريون في احدى الرسائل عن تقديره لـ«النشاط والموهبة الكبيرة والتفاني التي أبداها يسرائيل غاليلي في تنظيم قوات الامن في سنة الطوارىء هذه»، وأعرب عن أمله بأنه «ما دام مديرا للدفاع، فسوف يستمر عملنا المشترك والرفاقي».

وقد تسلم غاليلي الامر في اثناء جلسة هيئة الاركان الصباحية، وفوجىء بالغاء مهمته كرئيس للقيادة القطرية من دون ان تحدد صلاحياته للمستقبل. وقرأ الامر امام رؤساء الدوائر ودعاهم الى الاستمرار منفردين ومجتمعين في مهماتهم، وأنهى الجلسة، وأخطر بن ــ غوريون كتابيا بتنفيذ الامر، وأعلن انه يضع نفسه في تصرف هيئة الاركان العامة لتحديد مكانه في المعركة.

وفي اليوم نفسه، اقترح بن ــ غوريون على غاليلي تشكيل هيئة مصغرة باسم «ادارة الدفاع»، يشارك فيها رئيس الاركان ويوحنان راتنر وي. غاليلي وهو شخصيا. ويجتمع هؤلاء الاربعة يوميا ويتداولون الشؤون الامنية. و«اذا تطلب امر ما حسما فان الحسم يكون بيد مدير الدفاع (اي: بن ــ غوريون)». وأجاب غاليلي بن ــ غوريون: «فكرت مليا في اقتراحك، وفي الاطار المقترح لي لا ارى لنفسي مهمة ولا دافعا الى العمل والمشاركة».

وقد تسبب الغاء مركز غاليلي بصدمة في هيئة الاركان العامة. وعندما اقترح بن ــ غوريون في اليوم التالي على تسفي لشتسينر، وبعد ذلك على يغئيل سوكنيك تولي

منصب القائم بأعمال رئيس هيئة الاركان العامة، رفض الاثنان وشرحا لبن ـ غوريون انهما يعتقدان انه يجب ابقاء غاليلي في منصبه ايضا في المستقبل، في اطار التغييرات التي ستحدث في بنية القيادة العليا، اذ انه يقوم عمليا بمهمة رئيس الاركان.

1590 وفي ١٩٤٨/٥/٦، بعد نقاش عاصف في جلسة هيئة الاركان العامة، ارسل جميع رؤساء الدوائر رسالة مشتركة الى بن ـ غوريون اعلنوا فيها انهم يرون من الضروري اعادة غاليلي الى منصبه خلال ١٢ ساعة، وإلا فسوف يتوقفون عن اعتبار انفسهم مسؤولين عن ادارة الامور. واستدعاهم بن ـ غوريون، وطلب منهم الاستمرار في الوقت الحاضر في عملهم الى ان يتم ترتيب الامور بصورة نهائية.

وفي اليوم نفسه، ارسل غاليلي الى رئيس الوكالة اليهودية وأعضاء مجلس ادارتها، وأيضا الى ادارة المجلس القومي، رسالة حذر فيها من انه بالغاء منصب رئيس القيادة القطرية فقد بقيت «الهاغاناه» «٧٦ ساعة من دون رئيس قيادة قطرية، ومن دون رئيس هيئة اركان ومن دون قيادة». وسألهم كيف امكنهم اتخاذ قرار التغيير قبل ايام فقط من انتقال صلاحياتهم، فيما يتعلق بشؤون الامن، الى الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب، وطلب اجابة عن اسئلته.

وفي الليل احضر عضو القيادة القطرية يوسف يعقوبسون الى غاليلي صيغة اقتراح ذُكِر فيها: «اكلفك الاستمرار في مهمتك حتى التوصل الى ترتيب دائم». وأجاب غاليلي انه مستعد للعودة الى عمله وتولي صلاحياته الى حين التوصل الى ترتيب تقرره الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب. وفي اليوم التالي تلقى غاليلي مرة اخرى رسالة من بن ـ غوريون يطلب منه فيها العودة الى العمل. كما طلب منه ذلك ي. دوستروفسكي ورؤساء الدوائر في هيئة الاركان العامة.

وفي ١٩٤٨/٥/٩ اجتمع غاليلي الى بن ـ غوريون، وأرسل الاثنان بيانا مشتركا الى هيئة الاركان العامة: «الى ان يقرر الـ ١٣ [اعضاء الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب] فيما يتعلق بنظام الدفاع، فسنستمر كلانا في العمل معكم».

وعاد غاليلي الى عمله في القيادة العليا، وشارك في انتقال «الهاغاناه» الى نظام «جيش الدفاع الاسرائيلي». وشارك مع ي. سوكنيك في جلسة الحكومة الموقتة في ١٩٤٨/٥/١٢ (انظر ص 1354)، التي نوقش فيها الوضع العسكري وموضوع اعلان اقامة الدولة. وبصفته رئيس القيادة القطرية سابقا اشترك مع بن ـ غوريون في حفل قَسَم كبار قادة «الهاغاناه» يمين الولاء لـ «جيش الدفاع الاسرائيلي»، واستقال من عمله في الجيش في نهاية تموز/يوليو ١٩٤٨، عند بدء سريان مفعول الهدنة الثانية.

1591 الاصداء العامة لالغاء منصب رئيس القيادة القطرية

اثار إلغاء منصب رئيس القيادة القطرية عاصفة وسط كثيرين من نشيطي «الهاغاناه» والقريبين من شؤون الامن: ففي جلسة الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب في ١٩٤٨/٥/٣،

التي اعلن فيها بن ـ غوريون الامر الذي اصدره في هذا الشأن، رد ممثلا مابام في الهيئة، مردخاي بنطوف وأهرون تسيزلينغ، بحدة: «كان هناك واقع معين» ـ قال بنطوف ـ «ان التغيير الذي حدث يعني فصل شخص كان يتصدر معالجة الشؤون الامنية لمدة عشر سنوات، وقام منذ بداية الحرب بمهمة المدير والمنسق. لقد كان بمثابة قائد للجيش. ان هذا التغيير في لحظة توتر كهذه يمكن ان تكون له عواقب خطرة. لو كان نجم ضرر خلال أدائه لمهمته لكان التغيير مبررا، لكننا لم نسمع ادعاءات كهذه. ان المبرر الذي سمعناه شكلي فقط».

ورفض اهرون تسيزلينغ خطوة بن ـ غوريون ايضا من الناحية الشكلية. وادعى ان «ادارة الوكالة لم تكن مخولة إحداث تغيير خطر كهذا من دون ان تناقش الامر مع الهيئة التنفيذية اولا. ليست هذه هي الطريقة لنقل المسؤولية. كان ينبغي نقل الصلاحية من دون ادخال اي تغيير في ترتيب الامور». ولم ينته النقاش ولم يتخذ اي قرار بصدد الموضوع، لا في في هذه الجلسة ولا في الجلسة التالية (٥/١٢).

واعتبرت «عال همشمار»، صحيفة حزب مابام الذي كان غاليلي احد مؤسسيه وقادته، هذا التغيير «شأنا عاما وسياسيا ذا اهمية من الدرجة الاولى ــ بداية مسار لا يستطيع احد ان يتكهن بنهايته ــ فك الشراكة بين القوات الطلائعية في «الهاغاناه» وبين الدولة ـ ديكتاتورية الفرد».

وفي ١٩٤٨/٥/١٠، جرى نقاش الموضوع في اللجنة التنفيذية لـ «الهستدروت». ودار هذا النقاش في جو هادىء، اذ ان غاليلي كان قد عاد الى عمله في هيئة الاركان، كما ذكرنا اعلاه. وقال يتسحاق بن اهرون، الذي تحدث باسم مابام: «السؤال المطروح هو ما اذا كان نقل مجال الامن الى سلطة الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب يعني تخلي «الهستدروت» عن عبء المشاركة في ادارة شؤون «الهاغاناه» في البلد». وأشار الى الجانب السلبي «في تركيز قوة لها صلاحيات كهذه في يد صاحب منصب واحد فقط». وادعى انه «كان خطأ شنيعا زعزعة بنية القيادة قبل ايام معدودة من انتهاء الانتداب»، و«اذا كان هناك رأي في ان متطلبات المعركة وانتصارنا فيها وتعزيز القوة الدفاعية العبرية تستلزم تغييرات تنظيمية، فلا يجب ان يتم الامر بخلق حقائق جاهزة، وانما بشرح وايضاح دقيق جدا، وموزون جدا». وقال يتسحاق تبنكين في النقاش نفسه: «لا يمكن القول ان هذا (الوضع الراهن في قيادة «الهاغاناه» ـ ي. س.) مسألة شكلية فقط. فقد وصلت ذات يوم رسالة بعدم التوجه الى ذلك الشخص، والى ذلك المكان. ان هذا امر يقوض الثقة، يقوض ثقتي. ولا اعتقد ان لك سلطة ولك قوة ولك صلاحية من دون تلك العلاقات التي ظلت سائدة حتى الآن ومن دون الوضع الراهن، وأيضا في هذه اللحظة. ــ هناك يمين ويسار وتكافؤ وقيادة ورئيس قيادة ــ وكل مساس بالوضع القائم هو زعزعة للثقة».

ورفض بن ـ غوريون هذه الادعاءات. وشرح ان وزير الدفاع في دولة ديمقراطية ليس ديكتاتورا، وانما هو خاضع لرقابة وانتقادات باقي زملائه في الحكومة. وقال ان القيادة

القطرية اصبحت بفعل الاحداث وهما، وان غاليلي قام بدوره المركزي في تسيير الحرب لا بصفته رئيس القيادة القطرية، وانما بصفته عضوا مشاركا في العمل. «لم يمر يوم من دون ان اتشاور مع يسرائيل غاليلي. هذه الشراكة قائمة لكن المنصب ألغي، وكان يجب ان يلغى. واذا قرر الـ ١٣ [اعضاءالهيئة التنفيذية لمجلس الشعب] اعادته فليعيدوه». لكن في هذه الحالة لن يوافق هو، بن ــ غوريون، على ذلك ولن يشارك في الوضع الراهن، و «اذا قررت مؤسسة معتمدة ذلك (اعادة الوضع الراهن ــ ي. س.) فسوف يعود، لكن من دوني».

1592 وتقرر ان «يستمر النقاش بمشاركة الاعضاء المعنيين»، لكن هذا النقاش لم يجر مرة اخرى في اطار اللجنة التنفيذية لـ «الهستدروت».

ولم توافق الاوساط المدنية ايضا على قبول التغييرات في ادارة شؤون الامن من دون مناقشة وقرار متفق عليه. وباسم «المجلس الاعلى للجمعيات الاقتصادية» كتب يسرائيل روكاح وغيورغ بلش الى بن ــ غوريون ان «الجمهور المدني، الذي كان شريكا في المؤسسات الامنية السابقة وفي اللجنة الامنية الراهنة وفي القيادة، ليس مستعدا للموافقة على اي تغيير في تركيب المؤسسات الامنية او صلاحياتها، من دون موافقته ــ ــ ــ ونحن واثقون بأنه لن يُفعل شيء يؤدي الى نقض الاتفاقيات العامة المتعلقة بشؤون الامن، التي بنيت عليها «الهاغاناه» وعلى اساسها قامت حربنا».

ان هذا كله يمثل بداية ارهاصات الانتقال من فترة العمل السري الى فترة الدولة. لكن الزمن فعل فعله. وبدأت الدولة تبلور أطرا سياسية. وفي نطاق مجمل الامور اكتسبت ايضا شؤون الامن اشكالا ملائمة للظروف الجديدة.

بداية غزو الجيوش العربية

في اثناء كل تلك المناقشات والصراعات الداخلية، انتهى عهد الحكم البريطاني في البلد. وفي ٥/١٤ أُعلن في تل ابيب قيام دولة اسرائيل (انظر ص 1357). وفي اليوم التالي غزت جيوش خمس دول عربية ــ مصر وشرق الاردن والعراق وسورية ولبنان ــ الدولة الفتية.

ومع الغزو تغير تماما طابع المعركة السياسي والعسكري. من الناحية السياسية، باتت الحرب شأنا مباشرا بالنسبة الى الدول التي اقدمت على شنها، وأصبحت الحكومات القائمة فيها تتحمل كامل المسؤولية السياسية والمالية والعسكرية التي ستترتب عن ذلك. وكان من الواضح انه سيكون لكل هزيمة، او فشل صدى هائل في الانظمة السياسية لهذه الدول. ومن الناحية العسكرية، وضع الغزو جيوش الدول العربية وقادتها في موضع الاختبار.

وبالنسبة الى «الهاغاناه» مثّل الغزو تحديا ادى الى تطورها الى جيش دولة ذات سيادة، وتعاظم قوتها من ناحية التجربة والتنظيم والتسليح. فهي لم تعد تواجه قوات غير نظامية

او شبه نظامية، تعمل من دون خطة شاملة وأسلحتها متدنية نوعا وكما، وانما اصبحت تواجه جيوشا يرئسها قادة محترفون، وتمتلك أسلحة ثقيلة ودبابات ومصفحات وطائرات حربية.

وبما ان كتابنا سيختتم عند اعلان الحكومة الاسرائيلية الموقتة انشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي» في ١٩٤٨/٥/٣١، فاننا سنصف هنا فقط المعارك التي دارت في الاسبوعين الاولين لقيام الدولة، اللذين يعتبران مهمان في تتمة قصة تاريخ «الهاغاناه»، لكنهما ليسا سوى فصل مبتور من فصول تاريخ حرب الاستقلال.

اننا لا ننوي في هذا الاطار المقتضب وصف كل تفاصيل هذه المعارك، بل سنكتفي فقط برواية الاحداث الرئيسية ونتائجها المباشرة، معتمدين ــ في الاساس ــ على الرواية الرسمية كما وردت في كتاب «تاريخ حرب الاستقلال»، الذي اعده فرع التاريخ في هيئة الاركان العامة لـ «جيش الدفاع الاسرائيلي» بعد عشرة أعوام من الحرب.

ايقاف الغزو المصري

بدأت القوات المصرية الغزو انطلاقا من محورين: فقد خرجت القوات، في المحور الاول، من قواعدها في العريش، ورفح متجهة نحو الشمال على الطريق الساحلية؛ أما المحور الثاني، فقد تحركت فيه القوات، التي كانت مشكلة اساسا من وحدات متطوعين تابعة لـ «الاخوان المسلمين»، في اتجاه بئر السبع والخليل، ووصلت من دون ان تلقى اية مقاومة الى مشارف القدس. وكان هدف المصريين الوصول خلال وقت قصير الى يفنه، الواقعة على بعد ٢٠ كلم تقريبا جنوبي تل ابيب، حيث تلتقي هناك جيوشا عربية اخرى لتشكيل «حلقة حديدية تخنق عاصمة العدو: تل ابيب» («في نظر العدو»). 1593

وفي البداية حاول المصريون القضاء على المستعمرات اليهودية الصغيرة في النقب الغربي، لكن بعد ان صُدت هجماتهم على كفار داروم ونيريم وتكبدوا خسائر فادحة نسبيا، قرروا التحرك شمالا، من دون ان يشغلوا انفسهم بها. وفي المقابل لم يستطيعوا تفادي احتلال ياد مردخاي، التي كانت تقف في طريقهم. وفي غضون عدة ايام حشدوا قوات كبيرة الى حد ما لمهاجمة هذا الكيبوتس المسمى على اسم مردخاي انيلفيتس، قائد غيتو وارسو. وفي 1594 ٥/١٩ بدأ المصريون الهجوم؛ استمرت المعركة خمسة ايام. وكان اليوم الثاني للهجوم هو الاصعب، اذ قصفت المدافع والطائرات المستعمرة. وفي الليلة السابقة ليوم ٥/٢٤، اضطر المدافعون الى ترك النقطة التي سقط فيها ٢٣ منهم، من اعضاء المستعمرة وأفراد البلماح. وتسللوا عبر خطوط العدو ووصلوا الى كيبوتس غيفار عام.

وقد كلف الانتصار على كيبوتس ياد مردخاي المصريين ضحايا كثيرة. والاهم من ذلك، انه اخر تقدمهم خمسة ايام، استكملت خلالها قوات لواء «غفعاتي» نظام الدفاع

من بثير طوفيا حتى خط نيغبا ـ غلؤون، وحشدت فيه قوة لايقاف تقدم الهجوم المصري. كما نجحت ايضا في بسط سيطرتها على جزء كبير من الشفيلا الى الشمال من خط الدفاع. وفي الليلة السابقة ليوم ٥/١٨، اجلت وحدات «غفعاتي» الاطفال ومربياتهم عن الكيبوتسات الخمسة: نيتسانيم، ونيغبا، وغات، وغلؤون، وكفار مناحم، التي كان يحتمل ان تدخل بسرعة ضمن خط الجبهة («عملية تينوك»). ونشطت في الوقت نفسه وحدات جيبات [سيارات جيب] من لواء النقب مسلحة بمدافع رشاشة خفيفة، فأغارت على مواقع العدو في المؤخرة وهاجمت خطوط مواصلاته. وأولي تحصين وتعزيز كيبوتس نيغبا، الذي كان يقع قبالة مركز شرطة عراق سويدان عناية خاصة. وفي ٦/٢ شن المصريون هجوما كبيرا على هذا الكيبوتس، لكنهم لم ينجحوا في الوصول اليه. وسقط ثمانية من رجال الدفاع في هذه المعركة.

في ٥/٢٩ بدأ طابور مصري بحجم لواء، نحو ٥٠٠ آلية من ضمنها دبابات ومدافع، بالتحرك شمالا وتوقف على بعد ٣ كلم شمالي اشدود، بالقرب من جسر نسفه خبراء تفجير تابعون للواء «غفعاتي» في الليلة السابقة. وهنا اغارت عليه طائرات الـ «ميسر شميدت» الاربع الاولى التابعة لسلاح الجو، وقُصِف بمدافع من عيار ٦٥ [ملم]، كانت قد وصلت توا الى الجبهة. وفي الليلة السابقة ليوم ٦/٣، شنت قوات بحجم يفوق ٣ كتائب (نحو ١١٥٠ رجلا) هجوما مضادا على اللواء المصري. ولم يحقق هذا الهجوم هدفه وهو القضاء على اللواء المصري، وانتهى ايضا بخسائر اكثر مما كان يتوقع (نحو ٥٠ قتيلا ومفقودا). لكن اللواء المصري، على الرغم من تفوقه في المدافع والمدرعات، اوقف تقدمه وتخندق جيدا. وقد كتب احد قادة المتطوعين المصريين في مذكراته: «شكل الهجوم اليهودي على اشدود نقطة انعطاف في الصراع الاسرائيلي ـ المصري، لانه منذ تلك اللحظة اضطرت القيادة المصرية الى تغيير خططها. فبدلا من ان تستمر في مطاردة العصابات الصهيونية، قررت القيادة المصرية الاكتفاء بعزل النقب عن باقي أجزاء الدولة». وقد تم ايقاف تقدم المصريين في اتجاه مركز البيشوف اليهودي على بعد ٣٢ كلم من الهدف الرئيسي: تل ابيب.

المعارك في منطقة القدس والطرق المؤدية اليها

على جبهة القدس استعد «الفيلق العربي» لاحتلال المدينة والمنطقة المحيطة بها. وقد اشتملت هذه القوة على ثلاثة ألوية مشاة وكتيبة مدفعية ووحدات متطوعين غير نظامية، جميعها مزودة بأسلحة بريطانية جيدة، بما في ذلك مدافع ومصفحات كثيرة. وقد دخلت البلد عبر جسور الاردن، ووصلت بضع وحدات منها الى مواقع اللطرون في ٥/١٨. وفي اليوم التالي، ظهرت في المدينة القديمة قوات «الفيلق» التي جاءت عن طريق اريحا، وفي شمالي المدينة احتل «الفيلق» كلية الشرطة والشيخ جراح، وعزل جبل المشارف وهدد الاحياء الشمالية في المدينة الحديثة.

وفي ١٩/٥، حاول طابور مدرع التغلغل في المدينة عن الطريق الساحلي من جهة رام الله. وقد جوبه هذا الطابور في قطاع بيوت مندلباوم وبيت يسرائيل وشارع شموئيل هنافي بسلسلة رجال «الهاغاناه» فانسحب متراجعا. وصُدت محاولة ثانية جرت في ٢٣/٥ لاقتحام المدينة من جهة شارع سليمان في منطقة نوتردام، عندما احرق المدافعون بزجاجات مولوتوف المصفحة الاولى في الطابور. كما صد ايضا في هذا المكان هجوم قامت به قوات المشاة. 1595

وكانت المعارك التي دارت جنوبي المدينة ضارية وصعبة. وكان الهدف الرئيسي هناك كيبوتس رامات راحيل الذي شكل منذ تأسيسه سنة ١٩٢٨ النقطة الجنوبية القصوى للقدس اليهودية.

بدأت المعركة على رامات راحيل في ٢٢/٥، وبعد ان تخلى المدافعون عن الكيبوتس عدة مرات، تم طرد العدو نهائيا من ساحة المستعمرة في ٢٥/٥. وبقيت رامات راحيل ــ وهي مدمرة كليا ــ بيد اليهود، وقامت بدورها كمعقل جنوبي للقدس حتى حرب الايام الستة.

وبعد ان يئست قوات «الفيلق» من محاولاتها لاقتحام المدينة الحديثة، بدأت بقصف متواصل موجه ضد المدينة المحاصرة، اصيب فيه السكان المدنيون خاصة. وكان الهدف منه تدمير نظام التموين بالاغذية والتزويد بالمياه، من اجل اضعاف معنويات ابناء المدينة وارغامهم على الاستسلام.

وكان الحي اليهودي في البلدة القديمة معزولا عن باقي أجزاء المدينة اليهودية منذ بداية المعركة (انظر الفصل الستين). وعندما ترك البريطانيون المدينة بدأ العرب المحليون بمهاجمته، واحتلال بيوته واحدا في اثر الآخر ونسفها. وفي ١٧/٥، اعلن المدافعون باللاسلكي ان المنطقة الواقعة تحت سيطرتهم تقلصت الى ١٠٠ متر في العرض و ١٠٠ متر في الطول، وان العرب يقتربون من مقر قيادة الحي في مبنى مستشفى «مسغاف ليدخ». وبعد ان فشلت جهود القوات اليهودية في التغلغل في البلدة القديمة عبر باب الخليل، احتلت قوات «هارئيل» جبل صهيون في الليلة السابقة ليوم ١٨/٥. وفي اليوم التالي، اقتحمت بوابة صهيون [باب النبي داوود] ووصلت الى المدافعين عن الحي اليهودي. وأُرسل الى الحي مقاتلون وأسلحة، لكن الاتصال بالمحاصرين عاد فانقطع بسرعة. وصمدت حفنة المدافعين نحو عشرة ايام اخرى، وهي واقعة طوال تلك الفترة تحت ضغط ثقيل من جانب جنود «الفيلق العربي» ومساعديهم من العرب المحليين. «ان اليهود المتعصبين يبدون مقاومة عنيفة ويدافعون جيدا» ــ كتب قائد القوات العربية في مذكراته ــ «وأنا اشهد ان يهود البلدة القديمة تحملوا ويلاتهم ــ ويلات الحرب ــ على نحو لا يمكن وصفه». وفي ٢٨/٥ استسلم المدافعون عن الحي ووقعوا في الاسر. وأُغلقت القدس القديمة في وجه اليهود لمدة ١٩ عاما.

كان المفتاح لكسر طوق الحصار عن القدس بأكملها هو سهل آيلون. في الايام الاولى

لقيام الدولة احتلت وحدات «غفعاتي» القريتين المسيطرتين على الطريق الى القدس: دير ايوب واللطرون. لكن مع بدء الغزو المصري استدعي رجال اللواء الى الجنوب، وسقطت اللطرون بيد «الفيلق العربـي». وفي ٥/٢٥، حاول اللواء الجديد الذي شكل آنذاك «اللواء شيفع» [السابع] احتلال اللطرون. وقد تأخر الهجوم وتعرضت القوة لنيران «الفيلق»، في اثناء طريقها الى منطقة اللطرون. وفي ٥/٢٩، تغلغلت قوة مدرعة تابعة لـ «اللواء شيفع» الى ساحة مركز شرطة اللطرون، لكنها ارغمت على الانسحاب بسبب عدم لحاق قوات المشاة بها. وفشل ايضا الهجوم الثالث الذي شن في ٦/٨. لكن قبل ذلك كان قد تقرر ايجاد طريق جديد عبر جبال القدس، الى الجنوب من دير ايوب واللطرون ــ «طريق بورما» ــ كسر عمليا طوق الحصار العربـي للقدس وأنقذ المدينة من السقوط في يد العدو.

1596

المعارك في شمال البلد

في شمال البلد، بدأ السوريون عشية يوم ٥/١٦ بقصف مستعمرات الحدود في غور الاردن بالمدافع ومدافع الهاون، وأغارت طائراتهم مع الفجر على جميع مستعمرات الغور. وتحرك طابور مشاة سوري في اتجاه سمخ، التي سيطرت عليها وحدات من لواء «غولاني» منذ ٤/٢٨. وفي ٥/١٨ سقطت سمخ، ومع سقوطها انسحب المدافعون ايضا من شاعر هغولان ومساده. وفي ٥/٢٠، قبيل الصباح، هاجمت قوات من سلاح المشاة ترافقها مدرعات ودبابات خفيفة دغانيا (أ) وجسر الاردن المجاور لها. ودافع المقاتلون اليهود بضراوة وأوقفوا الدبابات والمصفحات بقذائف الهاون. وأصيبت دبابة واحدة، اقتحمت سياج المستعمرة، بزجاجة مولوتوف وبقيت كذكرى تشهد على بطولة المدافعين. كما صُدّ هجومان على دغانيا (ب)، ووصلت مدافع الميدان الاربعة الاولى التي اشترتها «الهاغاناه» ــ الـ «نابوليونتشيكيم» (انظر ص 1538) ــ الى المعركة فجأة، وقصفت تحشدات الجيش السوري في سمخ مما ادى الى انسحاب السوريين منها، وعودة رجال لواء «غولاني» اليها وتخندقهم فيها.

وفي جنوبـي هذه المنطقة، حاولت وحدات من الجيش العراقي احتلال كيبوتس غيشر في طريقها الى داخل البلد. واستمرت هجماتها حتى ٥/٢٢. وقد ادت سيطرة قوات «غولاني» على مرتفعات كوكب الهوا، بالاضافة الى استخدام اثنين من الـ «نابوليونتشيكيم» المذكورين اعلاه، الى احباط الهجوم على غيشر. واتجه العراقيون الى الجنوب ودخلوا البلد عبر دامية، وفي اثناء مرورهم بجبال نابلس قصفوا في ٥/٢٨ عدة مستعمرات في طرف الشارون واحتلوا روش هعاين [راس العين] الذي كان بيد قوات الايتسل.

وفي اقصى الشمال دخل الجيش اللبناني البلد واحتل القريتين العربيتين المالكية وقدس، اللتين كانتا بيد قوات «الهاغاناه». ونفذ لواء «يفتاح» الذي كان معسكرا في المنطقة

في الايام الاولى للحرب، عدة عمليات تخريبية، من بينها نسف الجسر القائم على الحدود والاغارة على قاعدة للجيش السوري قبالة مشمار هايردين. وشارك في هذه العمليات ايضا مقاتلون من البدو من عشيرة عرب الهيب التي كانت ضاربة في تلك المنطقة.

وفي فجر يوم ٥/٢٩ انطلقت قافلة مدرعة تابعة للواء «يفتاح» في اتجاه الشرق، وتوغلت نحو ١٥ كيلومترا داخل الاراضي اللبنانية ووصلت الى المالكية من الخلف. وقد تم احتلالها ووجد فيها ذخيرة وفيرة ومدافع هاون فرنسية. وفي الوقت ذاته استدعي لواء «يفتاح» للنزول جنوبا الى جبهة القدس، وأنيطت مسؤولية امن المنطقة بلواء جديد هو لواء «عوديد» الذي شكل من رجال قوة الميدان في ضواحي المدينة.

كانت هذه هي صورة الوضع عندما تحولت «الهاغاناه» الى «جيش الدفاع الاسرائيلي». كانت المعارك في اوجها، والغزو لم يُصدّ، لكن تم ايقافه. «في ١ حزيران/يونيو» ـ كتب قائد «الفيلق العربي»، غلوب باشا ـ «بدا ان التقدم العربي اخذ يتلاشى» (Petering out).

ولم يشعر الرجال في خط النار، في هذا اليوم، بأي تغيير في وضعهم: استمروا في الصمود فردا فردا في المكان الذي شاء لهم القدر ان يكونوا فيه وفي تأدية الواجبات الملقاة على عاتقهم بشجاعة وثبات. لكن بما اننا ملزمون بانهاء تاريخ «الهاغاناه» واعلان بداية تاريخ «جيش الدفاع الاسرائيلي»، فانه يجدر بنا ان نفعل ذلك في هذا اليوم: يوم ولادة «جيش الدفاع الاسرائيلي» رسميا.

مرسوم انشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي»

في ١٩٤٨/٥/١٢، ناقشت الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب اعلان دافيد بن ـ غوريون انه يعتبر نفسه وزيرا موقتا للدفاع ما دامت شروط عمله لم تتحدد، وهي: أ ـ ان الجيش *1598 بجميع اقسامه خاضع لسلطة الشعب ولسلطة الشعب فقط؛ ب ـ ان كل من يعمل في «الهاغاناه» والجيش ـ ـ يعمل فقط بموجب الصلاحية المحددة له، الصلاحية الممنوحة من قبل السلطة القادرة على منحها، وليس مثقال ذرة اكثر من الصلاحية المحددة. ـ ـ وهذا ينطبق على قائد الجماعة وقائد اللواء والجميع».

«لن اشارك في اي نظام في الهاغاناه»، قال بن ـ غوريون لزملائه، «لا يكفل ان يخضع الجميع ـ جميع الجنود او اعضاء «الهاغاناه» او اعضاء البلماح او اي اسم آخر يطلق عليهم ـ لسلطة واحدة، ولسلطة واحدة فقط، وأن يخضع الجميع لها بصورة متساوية، ويعمل فقط من يخوَّل الصلاحية في العمل».

---

* الصفحة 1597 في الاصل تحتوي على المسودة النهائية لـ «مرسوم جيش الدفاع الاسرائيلي». (المترجم)

وتجدد النقاش بعد قيام الدولة وبعد ان تحولت الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب الى حكومة موقتة، في الجلسة الثالثة التي عقدتها هذه الحكومة بتاريخ ١٩٤٨/٥/٢٠، بعد ستة ايام من قيام الدولة. وقد عبر عن رأي جميع الحاضرين موشيه شابيرا، من «هابوعيل همزراحي»، اذ قال: «لن نقول ان دافيد بن ــ غوريون لن يكون وزيرا للدفاع». وبعد ان كرر دافيد بن ــ غوريون طرح شروطه، عينت في ٥/٢٢ لجنة مشكلة من اربعة وزراء (م. بنطوف، و ب. بيرنشتاين، و أ. كابلان، و م. شابيرا)، كُلِّفت البحث مع بن ــ غوريون في مسألة وزارة الدفاع والشروط التي يضعها لقبول المنصب.

وفي جلسة الحكومة الموقتة في ١٩٤٨/٥/٢٦ صادقت الحكومة الموقتة على «مرسوم «جيش الدفاع الاسرائيلي». ».

نص المرسوم على:

«١ ــ ينشأ بناء على هذا المرسوم «جيش الدفاع الاسرائيلي»، ويتشكل من الاسلحة البرية وسلاح الطيران وسلاح البحرية.

«٢ ــ في حالة الطوارىء يطبق تجنيد اجباري لـ «جيش الدفاع الاسرائيلي» بكل اذرعه. ويتحدد سن المكلفين بالخدمة وفقا لما تقرره الحكومة الموقتة.

«٣ ــ كل من يخدم في «جيش الدفاع الاسرائيلي» ملزم بأداء قسم الولاء لدولة اسرائيل ودستورها وسلطاتها المعتمدة.

«٤ ــ يحظر انشاء او بقاء اية قوة مسلحة خارج نطاق «جيش الدفاع الاسرائيلي».

«٥ ــ الاوامر والبلاغات وجميع التعليمات الاخرى المتعلقة بشؤون الخدمة القومية، التي نشرت بين ١٩٤٧/١١/٢٩ وبين يوم نشر هذه الوثيقة، والصادرة عن كل من الوكالة اليهودية لأرض ــ اسرائيل، والمجلس القومي لكنيست اسرائيل في ارض ــ اسرائيل، والهيئة التنفيذية لمجلس الشعب، والحكومة الموقتة او اي من دوائرها، تبقى سارية المفعول ما لم تغير او تعدل او تلغى.

«٦ ــ كل عمل يتم وفقا لأحكام هذا المرسوم هو عمل قانوني، حتى لو كان مخالفا لأي حكم آخر في القانون الساري.

«٧ ــ يُكلَّف وزير الدفاع المعين تنفيذ هذا المرسوم.

«٨ ــ يسمى هذا المرسوم مرسوم «جيش الدفاع الاسرائيلي ــ ١٩٤٨».

الحكومة الموقتة
(ــ) دافيد بن ــ غوريون
رئيس الحكومة».

«٢٦ ايار/مايو ١٩٤٨»

وبصدور هذا المرسوم، تم ارساء الاساس القانوني لانشاء جيش نظامي لدولة اسرائيل الجديدة، قائم على التجنيد الاجباري، وتم تجنب اي امكان للانشقاق العسكري («يحظر انشاء او بقاء اية قوة مسلحة خارج نطاق ‹جيش الدفاع الاسرائيلي› »).

ولم يأت المرسوم على ذكر «الهاغاناه» لأنه كان يسري على جميع مواطني الدولة، سواء أكانوا منظمين في «الهاغاناه» ام كانوا اعضاء في المنظمتين المنشقتين ام كانوا غير منتمين الى اي تنظيم عسكري. وهذا كان وضع كثيرين من السكان القدامى والاغلبية العظمى من المهاجرين الجدد، الذين تدفقوا فيما بعد على دولة اسرائيل التي فتحت أبوابها لهم.

بعد نشر مرسوم «جيش الدفاع الاسرائيلي» انتهى وجود منظمة «الهاغاناه» رسميا ــ بعد نحو ٢٨ عاما من القرار التاريخي بانشائها في مؤتمر «احدوت هعفوداه» في ١٩٢٠/٦/١٥.

وبانتهاء قصة تاريخ «الهاغاناه» ينتهي ايضا هذا الكتاب، ولم نجد وسيلة لانهائه افضل من ايراد النص الكامل لـ «الامر اليومي الخاص بانشاء «جيش الدفاع الاسرائيلي»، الذي اعلنه رئيس الحكومة الموقتة ووزير الدفاع في ذلك الوقت، دافيد بن ــ غوريون، بعد خمسة ايام من قرار الحكومة بانشاء الجيش.

ان الذي حرر هذه الوثيقة [الامر اليومي] هو شخص رافق تطور قوة اليishوف الدفاعية منذ ايام «هاشومير» [الحارس]، وشارك مشاركة فعالة في مناقشة الامور المتعلقة بالدفاع عن اليishوف وتوجيهها، ووقف على رأس شؤون الدفاع في ايام سنة ١٩٤٨ العظيمة، عندما كُلفت «الهاغاناه» أداء مهمتها التاريخية التي اعدت نفسها لها منذ بداية نشوئها وبعد ان تحولت الى «جيش الدفاع الاسرائيلي». ان هذه الوثيقة تلخص شكر اليishوف والشعب اليهودي لمنظمة «الهاغاناه» وتعبر عنه. كما انها ترسم الطريق للتنظيم الجديد: «جيش الدفاع الاسرائيلي»، الذي واصل مشروعها. وقد ظهر تعبير عن هذه الاستمرارية في كلمة «هاغاناه»*، التي يشتمل عليها اسم جيش الدولة الجديدة. وهذا هو نص الوثيقة:

«الامر اليومي الخاص بانشاء ‹جيش الدفاع الاسرائيلي› »

«مع اقامة دولة اسرائيل خرجت «الهاغاناه» الى العلن وتحولت الى جيش نظامي.

«ان اليishوف والشعب اليهودي مدينان بدين هائل لـ «الهاغاناه» في جميع مراحل نشوئها وتطورها، من البراعم القليلة في ايام التأسيس الاولى في بيتح تكفا وريشون لتسيون

---

* اسم «جيش الدفاع الاسرائيلي» باللغة العبرية هو «تسافا هاغاناه ليسرائيل»، والذي يختصر بكلمة «تساهل». (المترجم)

وغديره وروش بينا وزخرون يعقوف ومتولا، مرورا بـ «هاشومير» طلائعيـي الهجرة الثانية والفيلق العبري في الحرب العالمية الاولى والمدافعين عن تل حاي، والنمو المتواصل لمنظمة دفاع قطرية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وانشاء قوة الخفارة في اثناء أحداث ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩، وتأسيس البلماح وكتائب قوة الميدان، والتطوع الجماهيري في الحرب العالمية الثانية، وانشاء اللواء العبري الاول، وانتهاء بالكفاح الجبار لـ «الهاغاناه» في نصف السنة الاولى من الحرب ضدنا من ١٩٤٧/١١/٣٠ حتى ١٩٤٨/٥/٣١.

«ولولا التجربة والتخطيط والقدرة على العمل والقيادة والاخلاص وروح البطولة، التي اظهرتها «الهاغاناه»، لما كان الييشوف العبري صمد في الاختبار الدامي الذي فرض عليه في الاشهر الستة هذه، ولما كنا توصلنا الى دولة اسرائيل. ان قصة «الهاغاناه» ستتألق في تاريخ شعب اسرائيل ببهاء وعظمة خالدين الى الابد.

«والآن بدأ فصل جديد ــ انشاء جيش نظامي لدولة اسرائيل، جيش حرية واستقلال شعب اسرائيل في ارضه، بناء على مرسوم الحكومة الموقتة بشأن «جيش الدفاع الاسرائيلي».

1600 «وستوكل الى هذا الجيش اعتبارا من الآن مهمة الدفاع عن الشعب والوطن، وسيكون ميثاق حرية دولة اسرائيل هديا بالنسبة الى كل الجيوش في اسرائيل. وهذه هي كلمات الميثاق:

« (ستكون دولة اسرائيل مفتوحة للهجرة اليهودية وجمع الشتات؛ ستسهر على تطوير البلد لمصلحة جميع سكانها؛ ستكون قائمة على اسس الحرية والعدل والسلام على هدي رؤى انبياء اسرائيل، وستحافظ على المساواة الاجتماعية والسياسية الكاملة بين كل مواطنيها بغض النظر عن الدين والعرق والجنس؛ ستكفل حرية الدين والضمير والتربية والتعليم؛ ستحافظ على الاماكن المقدسة لكل الاديان، وستكون امينة لمبادىء ميثاق الامم المتحدة).

«ان جيش اسرائيل في تدربه على الحرب وسحقه لقوات الشر والاثم، التي تحاول القضاء على وجودنا ونمونا وحريتنا، سيحمل في قلبه الرؤيا العظيمة لانبيائنا عن الايام التي لن يحمل فيها قوم السلاح ضد قوم، ولن يتعلموا فنون الحرب.

«ان الجيش النظامي في دولة اسرائيل سيكون مشكلا من الاسلحة البرية وسلاح البحرية وسلاح الطيران، بما في ذلك الخدمات العسكرية الملائمة.

«ان جميع الذين خدموا حتى ٦/١ في الالوية والفروع المختلفة، وشاركوا في الدفاع عن الييشوف وفي حربنا دفاعا عن حرية اسرائيل، وجميع الذين سيجندون الآن مجددا وفقا لأوامر حكومة اسرائيل، سيشكلون «جيش الدفاع الاسرائيلي».

«ان كل جندي ــ سواء كان ذكرا او انثى ــ يخدم في الجيش ملزم بأداء القسم التالي:

« (اقسم وأتعهد بشرفي على الولاء لدولة اسرائيل ولدستورها ولسلطاتها المعتمدة، وأن التزم من دون شرط او تحفظ بانضباط «جيش الدفاع الاسرائيلي»، وأن اطيع جميع الأوامر

والتعليمات التي يصدرها القادة المعتمدون، وأن اكرس كل طاقاتي وأن اضحي حتى بحياتي من اجل الدفاع عن الوطن وحرية اسرائيل).

«ان المناعة الخلقية والجسدية لكل جندي وقائد، واخلاصه في أدائه لواجبه، سيجعلان من «جيش الدفاع الاسرائيلي» قلعة حصينة لسلامة الأمة والوطن.

رئيس الحكومة ووزير الدفاع
د. بن ــ غوريون»

«١٩٤٨/٥/٣١
«السنة الاولى لحرية اسرائيل

تاريخ حرب الاستقلال

(تولدوت ميلحيمت هكوميميوت)

رواية الحرب

اعداد

فرع التاريخ في الأركان العامّة

جيش الدفاع الاسرائيلي - إصدار "معراخوت"
الطبعة السابعة عشرة - ١٩٧٠

مِنَ الغـــزو إلى الهـُـدْنَة 163

(أ)

٥/٥/ ١٩٤٨ ـ ١١/٦/ ١٩٤٨

ان تاريخ ١٤ ـ ١٥ ايار/مايو ١٩٤٨ هو تحول ذو اهمية قصوى في تاريخ حرب الاستقلال، لأن يوم ١٥/٥ تحدد موعدا لانهاء الحكم البريطاني في البلد. ففي ١٤ ايار/مايو ١٩٤٨، أُعلنت اقامة الدولة اليهودية، حلم الشعب اليهودي على مر الاجيال، وهدف الحركة الصهيونية؛ وأيضا ـ في هذا التاريخ ـ غزت جيوش خمس دول عربية دولة اسرائيل. واضطرت اسرائيل، في يومها الاول، الى خوض الحرب من اجل حقها في الحياة. وانه يُشك في ان نستطيع، في هذا الجيل، ان نقدر بصورة كاملة اهمية يوم ١٤ ايار/مايو ـ «يوم الاستقلال» ـ في تاريخ الشعب اليهودي عامة، وتاريخ الحركة الصهيونية والييشوف العبري في البلد خاصة.

لقد كان هذا التاريخ، بالنسبة الى القوة البريطانية التي غادرت البلد، نهاية قضية وليس بدايتها. وكان الجيش البريطاني قد بدأ باخلاء مناطق في البلد في تواريخ ابكر. ففي شباط/فبراير ١٩٤٨، اخليت منطقة تل ابيب الكبرى اليهودية، ومنطقة «المثلث» العربية. وفي نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨، كان يوجد في البلد مناطق كثيرة خارج نطاق المنطقة الخاضعة للحكم البريطاني. وفي ١٥/٥/١٩٤٨ انتهت عملية الجلاء ـ انتهى الحكم البريطاني في البلد.

ان حكم الانتداب البريطاني هو الذي تسبب بخلق حالة «الفوضى»، التي سادت البلد حتى قيام الدولة اليهودية، و«حرص» عليها. ان رفض الحكم البريطاني الاعتراف بلجنة التنفيذ التي اقامتها الامم المتحدة للاشراف على نقل جهاز الحكم في البلد، بصورة منظمة، الى ايدي المؤسسات المعترف بها من قبل مواطنيها، افقد لجنة التنفيذ القدرة على العمل. وتسبب رفض الحكم البريطاني الاعتراف بمؤسسات الييشوف اليهودي بضياع تعب موظفي الجهاز الانتدابي خلال سنوات طويلة، وأدى الى انتقال غير منظم للمؤسسات الحكومية حتى في المناطق اليهودية المحض.

ولذا، كان انتهاء حكم «الفوضى» البريطاني بمثابة انفراج في الوضع وليس تدهورا.

ومن الناحية العسكرية مثّل غزو الجيوش العربية للبلد المنعطف الاكثر اهمية في تاريخ الحرب كلها. فحتى ذلك التاريخ، دارت المعارك بين قوات غير نظامية او شبه نظامية. ومنه فصاعدا دفعت خمس دول عربية بقواتها النظامية لمهاجمة قوات الامن التابعة للييشوف العبري في البلد. وبالنسبة الينا، كانت نسبة القوى في ذلك الوقت هي النسبة الاخطر خلال الحرب 166

بأكملها. وكان شهر المعارك من بداية الغزو حتى الهدنة الاولى، بمنظور عام، هو اكثر اشهر الحرب وطأة علينا. وخلال هذا الشهر، لم تحدث تقريبا عمليات كبيرة بمبادرة منا، وان جرت فانها لم تكن تحقق أهدافها كافة. وعادت المبادرة بصورة عامة الى يد العدو بينما وجدنا انفسنا في حالة دفاع عن النفس.

ان الغزو لم يقع فجأة. فعندما بدأ النقاش في الامم المتحدة بشأن قبول مشروع التقسيم، الذي دعا الى انشاء الدولة اليهودية على جزء من ارض ــ اسرائيل، هددت الدول العربية بمنع تنفيذ هذا المشروع بالقوة. وبمقدار ما اتضح ان هذا المشروع سيطبق فعلا، اتضح ايضا ان الدول العربية لن تبقى مكتوفة الايدي، وانها ستحاول تنفيذ تهديداتها: «إلقاء العصابات الصهيونية في البحر».

وفي البداية امّلت الدول العربية ان يقوم بهذا العمل العرب الفلسطينيون، بمساعدة مرتزقة مختلفين وجيش متطوعين من هذه الدول. لكن عندما اتضح لها، في نهاية نيسان/ابريل ١٩٤٨ تقريبا (بعد تحرير طبريا وحيفا وتطويق يافا الخ..)، انهيار القوات العربية المحلية تماما، وأن كفة الميزان بدأت تميل الى مصلحة اليهود، استنتجت ان على جيوشها النظامية دخول الحرب. وعندها، جمعت «الجامعة العربية» قادة الجيوش العربية، وطلبت منهم التدخل فعليا فيما يجري في البلد. وبعد مناقشات تقرر عدم تأجيل الغزو وتنفيذه، وفقا للتهديدات السابقة، في ١٥ ايار/مايو، فور الجلاء البريطاني. وفي ٥/١٢ ــ عشية الغزو ــ اتخذت اللجنة السياسية لـ«الجامعة العربية» القرارات الاخيرة: أ) اعلان حالة الطوارىء في دول الجامعة؛ ب) تعهد الدول العربية بألا تستوعب سوى النساء والاطفال والشيوخ من بين اللاجئين العرب من ارض ــ اسرائيل؛ ج) ان تتحمل كل دولة عربية نفقات جيشها على الجبهة؛ د) ان تتبادل وزارات الخارجية العربية فيما بينها المعلومات في كل ما يتعلق بـ«حرب فلسطين».

لقد بدأ الغزو اذن يوم السبت ١٩٤٨/٥/١٥، وفيما يلي وصف للوضع على الجبهات من الشمال الى الجنوب.

ب ــ الجبهة الشمالية

(الجبهة السورية، واللبنانية، والعراقية، و«جيش الانقاذ»)

الجبهة السورية ــ معارك غور الاردن

بالاضافة الى قوات الحراسة المحلية التابعة لنا ــ المشكلة من اعضاء المزارع الجماعية ــ كانت تسيطر على قطاع غور الاردن عشية الغزو كتيبة صغيرة واحدة من لواء «غولاني»، كتيبة ٢/غولاني، البالغ عدد أفرادها ٤٠٠ شخص تقريبا: كانت سرية واحدة منها فقط موجودة

في قطاع سمخ ـ طبريا؛ وسرية ثانية موجودة في قطاع اشدوت يعقوف ـ غيشر؛ وكانت السرية الثالثة التابعة للكتيبة نفسها لا تزال في المؤخرة البعيدة للقطاع ـ في منطقة الشجرة وتابور (كان على هذه الكتيبة ان تقف ايضا في مواجهة الهجوم العراقي على غيشر).

167 وانتشرت الكتيبة استعدادا لمواجهة الغزو في الامكنة التالية: فصيلة في مركز شرطة غيشر. فصيلتان في اشدوت يعقوف للدفاع عن خط غيشر ـ نهرايم. سرية من قوة الحراسة (غير كاملة) في سمخ ومركز شرطة سمخ. ووقفت فصيلتان من الكتيبة المذكورة اعلاه على اهبة الاستعداد في طبريا للدفاع عن سهل غينوسار، ومواجهة كل ما يحدث. وعسكرت فصيلة ونصف الفصيلة في الجليل الاسفل. وكان هناك نقص في الاسلحة والذخيرة.

بدأ السوريون غزو البلد عبر سهل الاردن (عيمك هايردين). ففي مساء ١٥ ايار/مايو، شوهدت آليات مضاءة تتحرك من قرية حاريب على امتداد سفوح الجولان. وفي الساعة الواحدة من اليوم نفسه، بدأ السوريون بقصف عين غيف بالمدافع ومدافع الهاون. وفي الصباح ظهرت الطائرات وقصفت مستعمرات السهل. وبدأت المدفعية بقصف شاعر هغولان ومساده (انظر الخريطة 26*).

وانحدرت سريتان سوريتان من تل القصر، الذي تم الاستيلاء عليه خلال الليل، وتقدم رجالهما منتشرين ومنتصبي القامة تحت غطاء من المدفعية والآليات في اتجاه معسكر الجيش في سمخ ومعسكر «الكرنتينا» الجديد**. وانسحبت وحدة قوة الحراسة التي كانت في «الكرنتينا» بفعل ضغط السوريين، وتضعضع نظام وحدات قوة الحراسة في سمخ. ونشأ وضع خطر لان سقوط سمخ من دون معركة كان معناه هجوما على مستعمرتي دغانيا (أ) و(ب)، قبل ان تستعدا كما ينبغي.

وعند سقوط معسكر الجيش و«الكرنتينا» في سمخ، استدعيت على الفور الى المكان فصيلتا الكتيبة اللتان كانتا جاهزتين في طبريا. ووصلت القوة الى سمخ بعد ٢٠ دقيقة، وبدأت تنظم نفسها استعدادا للدفاع. وتمركز السوريون قبالتها في المعسكر و«الكرنتينا». وأصبح نظام الدفاع عن سمخ، الممتد على طول كيلومتر واحد من شاطىء بحيرة طبريا الى الجنوب، محميا بـ ٣ فصائل تابعة للكتيبة وتعزيزات من رجال المستعمرات من جميع انحاء السهل، ونجح في ايقاف السوريين الذين تقدموا من المعسكر الحربي. 168

وفي الوقت نفسه تحركت سرية سورية اخرى من تل الدوير نحو مؤسسة المياه على نهر اليرموك. وكانت المؤسسة بمثابة موقع متقدم للدفاع عن مساده وشاعر هغولان. وقد تم تقدم السرية تحت غطاء من نيران المصفحات والمدفعية التي قصفت المستعمرتين. وقتل جميع الاشخاص في الموقع، باستثناء واحد. واستمرت المصفحات وقوات المشاة في التقدم في اتجاه شاعر هغولان، لكن رجال المستعمرة وفصائل نجدة مزودة بمدافع من عيار ٢٠ ملم تمكنوا

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٢. (المترجم)

** معسكر حَجْر لفحص المواشي المريضة.

من الوصول بسرعة الى المستعمرة ونجحوا في صد المهاجين. ومنذ تلك اللحظة حتى التخلي عن المستعمرتين لم يحاول السوريون الهجوم في هذا الاتجاه مرة اخرى.

واكتفى السوريون، موقتا، بالقصف وباجراء مناورات بالمصفحات وبالاغارة من الجو على مستعمرات السهل كافة. وأعادوا تنظيم قواتهم. وأتاحت هذه المهلة لقيادة الكتيبة فرصة اعادة تنظيم الدفاع عن سمخ نفسها. وفي ظل القصف حفر الرجال الخنادق، وحصنوا المواقع داخل المباني، وأقاموا حواجز على الطرق، وما شابه ذلك. وفي الليل جرت في بحيرة طبريا مناورة تضليل قامت بها الزوارق التي اطلقت النيران على الشاطىء زيادة في توتر العدو وتشويش خططه.

وفي اليوم التالي، ١٧ من الشهر، حاول السوريون مرة اخرى مهاجمة سمخ بمساندة المصفحات وبتغطية من المدفعية، إلا انه تم ايقاف الهجوم. وساعدت المدافع من عيار ٢٠ ملم كثيرا في ايقاف الهجوم، لكن العدو واصل القصف.

وفي الليل وصل خبر من الطابغة مفاده ان وحدة سورية، كانت ستجتاز منطقة الاردن شمالي طبريا، اصطدمت بحقل ألغام وانسحبت بعد ان تكبدت عددا من الجرحى بينهم ضابط سوري برتبة عالية.

وتقرر القيام بعدد كبير من عمليات التضليل. فحشد لذلك ما توفر من سيارات صعدت وهي مطفأة المصابيح الى مرتفعات بوريا ـ ألوموت، ثم عادت وهي مضاءة المصابيح، وتكررت هذه العملية لخلق انطباع بتدفق النجدات، وذلك بقصد تأخير هجوم العدو. كما حشدت ايضا الجرارات التي اصدرت ضجة مشابهة لهدير الدبابات.

ان الوقت الثمين الذي اكتسب بالاحتفاظ بسمخ اتاح ما يلي: أ) المزيد من تنظيم الدفاع عن المستعمرات؛ ب) إعداد خط الدفاع عن مستعمرتي دغانيا؛ ج) اجلاء الاطفال والمرضى والشيوخ عن مستعمرات السهل. وقد ابحرت قوافل الاجلاء تحت قصف المدافع والطائرات.

ولم يطل الانتظار. ففي فجر ١٨ ايار/مايو، بدأت المدفعية بقصف سمخ وشاعر هغولان، قصفا تزايد مع مرور الوقت. وفي الوقت نفسه، انتشرت على شكل قوس واسعة ٣٠ آلية مدرعة، بينها دبابات من طراز «رينو»، وبدأت تتقدم في اتجاه سمخ. ولم تشترك قوات المشاة السورية هذه المرة في الهجوم، وانما انتظرت عن بعد. وهدم القصف بيوت سمخ اللبنية، التي كان يختبىء فيها المقاتلون. ولم تكن الخنادق عميقة بما فيه الكفاية؛ كانت فقط حفر لاطلاق النار، من دون ساتر للرأس. وجرح اشخاص كثيرون بينهم عدد من القادة. وتقدمت المدرعات وهي تقصف المواقع. وأصيب أحد المدافع من عيار ٢٠ ملم، التي كانت تستخدم ضد المدرعات، فتعطل. وقد حسمت حركة المدرعات هذه، التي هدفت الى تطويق سمخ من الجنوب وهددت بقطع طريق الانسحاب على المدافعين، المعركة. واضطر رجالنا الى ترك مواقعهم والخروج من سمخ، من دون ان يتمكنوا من اجلاء جميع الجرحى. كانت نيران مدرعات العدو تغطي الشوارع والساحات بين البيوت. وكان

169

الانسحاب صعبا جدا. وسقطت ضحايا كثيرة في مئات الامتار القليلة الفاصلة بين سمخ ومستعمرتي دغانيا. وانضم باقي المنسحبين الى المدافعين عن هاتين المستعمرتين، اللتين اصبحتا في خط النار الاول.

وكان آخر موقع سقط في سمخ هو مركز الشرطة. وقد فسح الصمود فيه ــ ولو ان ذلك كان لفترة قصيرة فقط ــ للمنسحبين مجال تنظيم صفوفهم واقامة خط موقت غربي وجنوبي غربي سمخ، في اتجاه بيت ياريح من جهة وفي اتجاه بيت زيرع من جهة اخرى. وقد تمركزت في الخط وحدة بقيادة نائب قائد الكتيبة ٢/غولاني، الذي سقط في المعركة في وقت لاحق. وقد اثار سقوط سمخ والقصف والغارات الجوية مشاعر صعبة. وفي اليوم نفسه، ارسلت الى قطاع مستعمرتي دغانيا تعزيزات مشكلة من أفراد الكتيبة ٣ التابعة للواء «غولاني» ومن مستعمرات الجليل الاسفل والسهل. كما وصلت من الجليل سرية من الكتيبة ٣ من لواء «يفتاح» التابع للبلماح، واستعدت لتوجيه ضربة مضادة في الليل.

وعند حلول الظلام، قبل ان تتحرك السرية التابعة للواء «يفتاح» للقيام بهجوم مضاد على سمخ، وصل نبأ الاستعدادات في شاعر هغولان ومساده لاخلاء المستعمرتين. ومع الفجر كان قد تم اخلاؤهما.

وفشل هجوم سرية البلماح على مركز شرطة سمخ في ليل ١٨ ــ ١٩. لقد نجحت الوحدة في الاقتراب واحتلال مبنى المدرسة المجاور لمركز الشرطة، لكن عندما اقتربت من مبنى مركز الشرطة نفسه فتحت عليها نيران قوية من المبنى ومن المدرعات الموجودة بالقرب منه، فاضطرت الى الانسحاب.

وبسقوط سمخ في الشمال واستيلاء العدو [السوريين] على مساده وشاعر هغولان في الجنوب، توصل العدو الى تأمين جناحيه في حال تقدمه نحو مستعمرتي دغانيا (أ) و(ب). لكن الهجوم المضاد على مركز الشرطة وما سببه من خسائر مُنِـي بها السوريون، حقق كما يبدو، على الرغم من فشله، انجازا معينا اذ كسب رجال السهل يوما آخر، ولم يحدث الهجوم على مستعمرتي دغانيا (أ) و(ب) إلا في اليوم التالي.

في الليلة السابقة ليوم ٢٠/٥، وصل الى تل ابيب وفد من قدامى سكان المستعمرتين لطلب تعزيزات بالرجال وطلب اسلحة ثقيلة. وقد روى احد اعضاء الوفد في مذكراته جواب رئيس الحكومة:

«ليس لدينا مدافع كافية ولا طائرات كافية. هناك نقص في الرجال على جميع الجبهات والوضع خطر جدا في النقب، وخطر في قطاع القدس والجليل الاعلى. الجبهة هي في جميع انحاء البلد. لا نستطيع ارسال تعزيزات».

وفيما يلي وصف للحديث مع رئيس شعبة العمليات:

«عندئذ خاطبنا رئيس العمليات بكلمات بسيطة، كما يتحدث شخص ما الى صديقه. «يوسف» ــ قال ــ «انا لا اعرف ما يمكن ان يعدكم به بن ــ غوريون. اننا نعرف الوضع

بما فيه الكفاية. لا يوجد مخرج آخر سوى ان تتركوا العرب يقتربون الى مسافة ٢٠ او ٣٠ مترا، من دغانيا، وعندها تشتبكون مع مدرعاتهم وجها لوجه». ارتعدت. «يغآل» ـ قلت له ـ «أحقا يمكن المجازفة الى هذا الحد والسماح لها بالاقتراب حتى بوابة دغانيا؟ «نعم» ـ قال ـ «لا مفر من ذلك. انه فعلا اسلوب خطر جدا، لكنه الطريقة الوحيدة».

بدأ الهجوم على مستعمرتي دغانيا في الساعة ٤،٣٠ تقريبا من يوم ١٩٤٨/٥/٢٠. وكان هدفه الرئيسي: الجسر على نهر الاردن الى الشمال من دغانيا (أ). وقد سبق الهجوم قصف عنيف من مدافع عيار ٧٥ ملم و ٢٥ رطلا، ومدافع هاون عيار ٦٠ ملم و ٨١ ملم وعدد من المدافع الرشاشة من مركز الشرطة. وسقط معظم القذائف في وسط المستعمرة.

170 واستمر القصف نصف ساعة تقريبا، بدأ بعده مباشرة الهجوم الذي شاركت فيه ٥ دبابات من طراز «رينو»، وعدد من المصفحات، وسرية من سلاح المشاة وصلت بالسيارات الى مركز شرطة سمخ. وانتشرت المدرعات السورية في البداية قبالة دغانيا (أ)، وشنت على المستعمرة هجوما جبهويا، بينما تحركت قوات المشاة بغطاء من نيرانها. وقصفت الدبابات الـ «بيلبوكسيم»* والمواقع المبنية قصفا مباشرا. وخرج المدافعون من داخلها واتخذوا مواقع لهم في خنادق الاتصال. وكان عددهم آنذاك ٧٠ شخصا تقريبا، من رجال المستعمرتين ومن بقايا فصائل سمخ ووحدات النجدة. وتحملت العبء الاساسي في الدفاع مواقع المدافع الرشاشة والمدافع من عيار ٢٠ ملم، القريبة من الجسر، والموقع الشمالي الشرقي لدغانيا (أ). واقتحمت الدبابات سياج المستعمرة الخارجي. ولم تكن المساحة بين السياج الخارجي والداخلي ملغومة، وأصبح الدفاع ميئوسا منه. وأُعطبت المصفحة السورية الشمالية المتطرفة بقذيفة من المدافع من عيار ٢٠ ملم التي نصبت في بيت ياريح وقصفت الشارع بكامله. وأصيبت دبابة تقدمت من الثغرة الشمالية الشرقية وانسحبت. كما اصيبت دبابة اخرى، نجحت في اختراق السياج الداخلي ودخول المستعمرة، بزجاجة مولوتوف. وقد بقيت هذه الدبابة في ساحة المستعمرة بعد ان قتل طاقمها. وكذلك أُعطبت دبابة باصابة مباشرة بقذيفة من عيار ٣ بوصات. وأصيبت ايضا مصفحة وصلت حتى الخنادق بزجاجات مولوتوف وقذائف بيات. أما اطقم المدرعات التي قفزت منها الى الخارج فقد قتلت بنيران رشاشات المدافعين.

كان المشاة يتحركون، كما ذكرنا، خلف الدبابات. وقضي على وحدة كانت تسير خلف الدبابة التي اقتحمت السياج الداخلي بنيران وُجهت من بستان دغانيا. ووصلت وحدة مشاة اخرى الى بعد ١٥٠ مترا من السياج. وكانت الوحدات الاخرى تتحرك على بعد مئات الامتار خلف المدرعات.

ومع هجوم الدبابات وجهت نيران المدفعية الى الطريق والى المستعمرات المجاورة

---

* الـ «بيلبوكسيم»: مفردها «بيلبوكس» وتعني موقع باطون مسقوفا.

بهدف اغلاق الطريق امام النجدات. واستمرت مدافع الهاون في قصف وسط المستعمرة. وأصيبت المواقع المسيطرة على اماكن الوصول الى الجسر هناك اصابات مباشرة، وأعطب مدفع من عيار ٢٠ ملم، وتكاثر عدد القتلى والجرحى لكنهم لم يُتركوا، ولم يسمح للسوريين بالتقدم نحوهم. ويبدو ان اصابة ٥ ـ ٦ آليات زعزعت ثقة السوريين بأنفسهم فبدأوا بالانسحاب، آليات ومشاة معا. وبذلك انتهى الهجوم العنيف على دغانيا (أ).

وبالنسبة الى دغانيا(ب)، كانت قد جرت محاولة لاقتحامها في الليلة السابقة. اذ اقتربت وحدة مشاة سورية من المستعمرة محاولة اقتحام السياج في عدة اماكن للتسلل، كما يبدو، الى المستعمرة تحت جنح الظلام. لكن بعد ان اصطدم المقتحمون بدورية استطلاع من قواتنا اضطروا الى التوقف والانسحاب. ولم تهاجم النقطة مرة اخرى إلا بعد انتهاء الهجوم على دغانيا (أ). وحينها حولت نيران مدافع الهاون الى دغانيا (ب)، وتقدمت نحوها ثمان من الدبابات والمصفحات وهي متفرقة. ويبدو ان السوريين تعلموا درسا من فشلهم في دغانيا(أ) فلم يقتربوا بمدرعاتهم إلا الى مسافة ٤٠٠ متر من السياج. وتحركت قوات المشاة، بحجم سريتين، خلفها. وعندما توقفت الدبابات توقف المشاة ايضا. واستخدمت الدبابات مدافعها ضد المواقع الظاهرة. وبعد ذلك جرت محاولة الاقتحام: خرجت وحدة مشاة من خلف الدبابات، ووصلت الى مسافة ٣٠ مترا من المواقع فصدت. وجرت محاولة اخرى للاقتحام قامت بها اثنتا عشرة آلية مصفحة ووحدة مشاة صغيرة. ووجهت نيران المدافع الرشاشة والبنادق الى فتحات الآليات المدرعة، فتم ايقاف الهجوم.

172 * وفي اثر مطالبة الوفد [وفد المستعمرات المشار اليه اعلاه] وصلت الى سهل الاردن، في ٥/٢٠، مدافع الميدان الاربعة الاولى الخاصة بالجيش الاسرائيلي، والتي افرغت قبل ايام من ذلك في ميناء تل ابيب. وهذه المدافع هي الـ «نابوليونتشيكيم» الشهيرة، التي هي مدافع جبلية بقطر ٦٥ ملم وذات مدى قصير. ولكنها وصلت من دون ان تكون مزودة بأجهزة تصويب، كما ان طاقمها كان يفتقر الى خبرة باستخدامها، لكنه كان يعرف اهمية السلاح الموضوع بيده. ونصبت المدافع على مرتفعات يفنيئيل وصوبت الى داخل بحيرة طبريا (نقل اثنان منها بعد ذلك الى جبهة اللطرون). وعندما تم التوصل الى دقة ما في التصويب، حولت النيران الى تحشدات المدرعات والاسلحة المساندة للعدو، التي كانت موجودة بين سمخ ومستعمرتي دغانيا. وسواء أكان السوريون ينوون شن هجوم آخر ام لم يكونوا ينوون ذلك، فانهم عندما بدأ القصف المدفعي الذي اتى بصورة مفاجئة، بدأوا الانسحاب. وخلت ساحة المعركة بسرعة. وعمليا خلت سمخ ايضا في المساء نفسه من قوات العدو، الذي تراجع شرقا وتمركز في تل القصر. وتسللت وحدة من قواتنا الى داخل سمخ وشرعت في التمركز فيها. ونقلت الدبابات والمصفحات المعطوبة الى طبريا.

---

* الصفحة 171 في الاصل تحتوي على خريطة المعارك من الغزو حتى الهدنة الاولى. (المترجم)

وفي صباح ٥/٢١، ارسلت قيادة «غولاني» التقرير التالي: «صدت قواتنا امس هجوما عنيفا بالدبابات والمصفحات والمشاة استمر نحو ٨ ساعات. وقد تم صد الهجوم بفضل الصمود الباسل لشبابنا، الذين استخدموا زجاجات مولوتوف وأيديهم ضد الدبابات. وأنزلت مدافع الهاون من عيار ٣ بوصات والرشاشات الثقيلة بالعدو خسائر فادحة. وأدت مدافع الميدان الى انسحاب العدو الذي اخلى امس سمخ مذعورا. وفي الصباح دخلت قواتنا سمخ، وغنمت كمية كبيرة من الذخيرة الفرنسية وذخيرة المدافع الخفيفة. ووقعت في يدنا دبابتان ومصفحة للعدو. ويحشد العدو الآن قوات كبيرة، ونحن نترقب تجدد الهجوم».

لكن الهجوم في هذا القطاع لم يتجدد. انسحب السوريون في اتجاه الشرق. وخلال انسحابهم تخلوا عن مساده وشاعر هغولان بعد ان نسفوا كل ما طالته ايديهم او احرقوه. وعادت وحدة معززة من لواء «كرملي» فاحتلت المستعمرتين. وكان مشهد الدمار والخراب مريعا، اذ لم يبق مبنى قائم على اعمدته تقريبا.

وفي اليوم نفسه، خرج الرجال للبحث عن القتلى الذين بقوا خلال الانسحاب في المنطقة والتعرف عليهم. وتم جمع الجثث ودفنت في قبر جماعي في دغانيا.

وقد انتهت معركة وادي الاردن عمليا في ٥/٢٣. واستمرت عمليات القصف واشتباكات الدوريات ايضا بعد ذلك التاريخ، حتى سريان مفعول الهدنة الاولى.

ان اهمية هذه المعركة، المتزامنة مع هجمات العراقيين على غيشر وكوكب (التي حدثت في الوقت نفسه)، لا تكمن في كونها انقذت سهل طبريا من يد الغزاة فحسب، وانما تكمن ايضا في كونها عززت ثقة اليشوف اليهودي بقدرته على الصمود. فقد اتضح انه على الرغم من الاسلحة القليلة، فان لدينا القوة للصمود بوعي وعناد في وجه عدو متفوق في المدرعات والمدفعية والطيران.

وانتشرت بشرى صمود مستعمرتي دغانيا (أ) و (ب) بسرعة في جميع انحاء البلد، وشجعت نقاطا اخرى كانت لا تزال تشك في قدرتها على الصمود في وجه جيوش نظامية، وخصوصا في ضوء سقوط غوش عتسيون (قبل اسبوع من ذلك).

ان صد الغزو هو انجاز ساهمت فيه قوات كثيرة: جنود الكتيبة ٢ من لواء «غولاني»؛ رجال مستعمرات غور الاردن؛ النجدات التي استدعيت: من لواء «يفتاح» من الجليل ـ رجال الكتيبة ٣، من الغور ـ رجال «غولاني»، ومن منطقة حيفا ـ رجال «كرملي»؛ ورجال المدفعية الذين وصلوا في اللحظة الحاسمة.

173

ويستحق التنويه خاصة جنود الكتيبة ٢/غولاني الذين صمدوا في معركة الاعاقة في سمخ بعناد، ومنيوا بخسائر فادحة. فقد اتاح صمودهم تنظيم الخط الاساسي ـ خط دغانيا (أ) ودغانيا (ب) ـ وجلب تعزيزات اليه. وكانت المهمة الرئيسية لاعضاء المستعمرتين: الدفاع عن خط المستعمرتين بأكمله والمشاركة والصمود بلا خوف في المعركة التي دارت على المستعمرتين. وقدمت النجدات مساهمتها بوصولها في الوقت الملائم الى ساحة

المعركة، ومشاركتها في تحمل عبء صد الهجمات. وأخيرا، هناك فضل كبير لرجال المدفعية، الذين وصلوا في اللحظة الاخيرة، وقاموا بدور حاسم في معركة المطاردة، وأحبطوا خطة هجوم سوري آخر ـ ان كانت هناك خطة كهذه.

ويجدر التنويه بالدور المهم الذي قام به في المعركة سرب طائرات «البريموس» ـ سرب «الجليل»، الذي قام بطلعات استكشافية وعمليات قصف متواصلة على الرغم من تفوق العدو الجوي المطلق. وبذلك قدم [السرب] لقوات مشاتنا مساندة مادية ومعنوية كبيرة.

الجبهة اللبنانية ـ معارك المالكية وقدس

في الوقت الذي بدأ فيه الغزو السوري لسهل الاردن، بدأ اللبنانيون ايضا هجماتهم. وقد اختاروا طريقا للغزو طريق المالكية.

في منطقة الجليل الاعلى الشرقي جرت قبل ١٥ ايار/مايو عملية «يفتاح»، التي انهينا وصفها باحتلال صفد في ١٩٤٨/٥/١١. إلا انه كانت هناك تتمة لهذه العملية. ان خشيتنا اي اقتحام لبناني عن طريق المالكية فرضت علينا محاولة استباقه. ولذا كُلِّفت قيادة عملية «يفتاح»، بعد تحرير صفد، الاستمرار في العملية والسيطرة قبل ١٥ ايار /مايو على المالكية وقدس ومركز شرطة النبي يوشع. كما تقرر تخريب وتدمير كل الجسور الواقعة عند مداخل البلد، وحتى تلك الموجودة في عمق الاراضي اللبنانية والسورية، وذلك لعرقلة حركة العدو في اتجاه أراضينا ولتخريب قواعد التموين الموجودة في مناطقه الخلفية (انظر الخريطة 28*).

وانطلقت الوحدات التي شاركت في عملية «يفتاح» للقيام بمهمات اضافية، استمرارا للعملية. ففي ليل ١٤ ـ ١٥ ايار/مايو، انطلقت الكتيبة ١ التابعة للبلماح، سيرا على الاقدام، الى راموت نفتالي. وبعد سير طويل منهك استعدت للهجوم على المالكية وقدس كي تستبق، ولو بساعات محدودة فقط، الغزو اللبناني. وفي المراحل الاولى للمعركة تطورت الامور بصورة جيدة، فسقطت المالكية وقدس بأيدينا في الصباح. لكن العدو اللبناني انتقل مباشرة الى هجوم مضاد عنيف. واضطرت كتيبة «هعيمك» [السهل] الى الانسحاب بعد ان منيت بخسائر. وتم الانسحاب الى تلال مجاورة امنت سيطرة على الطريق وأتاحت ـ على الاقل ـ امكان عرقلة الغزو بصورة جدية جنوبي المالكية. لكن المالكية وقدس عادتا الى يد العدو.

وكان من المقرر ان تنفذ في الليلة التالية لذلك عملية تخريب للجسور الواقعة خلف الحدود، وأولها الجسور الكبيرة على نهر الليطاني. وكانت النية متجهة الى العمل في ليلة واحدة ضد عدة أهداف، والاستفادة من عامل المفاجأة. لكن عندما ازداد الوضع في المالكية خطورة، تقرر تقليص هذه الاهداف وسحب سرية من القوات المعدة لتخريب الجسور

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٣. (المترجم)

وتكليفها ــ على الاقل ــ احتلال [مركز شرطة] النبي يوشع، للاستفادة من تمركزنا على التلال المجاورة للمالكية. وحاولت السرية (من الكتيبة ٣ التابعة للواء «يفتاح») القيام بذلك في ليلة ١٥ ــ ١٦ ايار/مايو، لكن بسبب كثرة السياجات اضطرت الى تأجيل الامر الى الليلة التالية. وفعلا خلال ليلة ١٦ ــ ١٧ ايار/مايو هاجمت مرة اخرى. 174

وقد مُهد للهجوم بهجوم قام به طيارو «البريموس» وألقوا خلاله على الحصن [مركز الشرطة] قنابل حارقة. إلا ان هذه القنابل لم تتسبب بضرر كبير لهدف صغير كمركز الشرطة، وربما كان تأثيرها نفسيا فقط. وبعد القصف الجوي زادت السرية من نشاطها في نسف السياجات، وفي الليل نفسها احتل الحصن ولاذ العدو بالفرار.

وفي ليل ١٥ ــ ١٦، الى جانب محاولة الهجوم على النبي يوشع، انطلقت سرية اخرى من الكتيبة نفسها الى جسر الليطاني، الواقع على بعد نحو ١٠ كلم من المطلة، في داخل الاراضي اللبنانية بمنطقة وعرة يصعب التحرك فيها. وتم التغلب على الحراس بسهولة، ودمر الجسر تماما. وكانت نتائج تدميره: أ) عرقلة حركة العدو في اتجاه المطلة؛ ب) اجبار قوات اكبر للعدو على ملازمة المؤخرة لحمايتها.

وفي الايام اللاحقة، في اطار تنظيم قوات «يفتاح»، نفذت عمليات تخريبية صغيرة داخل حدود البلد وخارجه. فقد شنت غارات تخريب وازعاج على قرى لبنانية وعلى طرق مواصلاتها. ونسف جسر كبير على طريق بانياس ــ مرجعيون، الى الشمال الشرقي من دان. وفشلت محاولة جرت في الليلة نفسها لنسف جسر الحاصباني.

وفي هذه الاثناء، وصلت من مصادر مختلفة انباء عن استعدادات سورية ملموسة في ضواحي دار الجمرك الكائنة شرقي مشمار هايردين. وكشفت الاستطلاعات الجوية والاستطلاعات الارضية ان العمل جار هناك في اقامة قاعدة، وتخزين وقود ومؤونة وذخيرة. وتقرر استباق السوريين والمبادرة الى القيام بعملية.

ونفذت العملية في ليل ١٨ ــ ١٩/٥ (الفترة نفسها للازمة في سهل الاردن: سمخ سقطت والعدو على وشك مهاجمة مستعمرتي دغانيا): تحت جنح الظلام اجتازت سرية تابعة للكتيبة ٣ نهر الاردن ــ بواسطة العبارات ــ شمالي جسر بنات يعقوب، وهي مزودة بأسلحة خفيفة ورجالها يحملون على ظهورهم جعبا مملوءة بمواد متفجرة. وحقق الهجوم نجاحا كبيرا: دمرت القاعدة تماما، وتصاعدت منها ألسنة اللهب وسُحب الدخان طوال تلك الليلة وخلال النهار التالي. ثم انسحبت الوحدة الى قاعدتها سالمة.

وفي هذه المرحلة انضم الى قوات «يفتاح» مقاتلون من عشيرة عرب الهيب كانوا مخيمين بالقرب من المنطقة، وساهموا مساهمة كبيرة في عدة عمليات صغيرة خلف الحدود. ولا يزال أفراد هذه العشيرة حتى اليوم يقطنون في اسرائيل كمواطنين.

لقد سار الغزو السوري ــ اللبناني في الشمال على هذا النحو. وبينما ركز السوريون في هجومهم الرئيسي على منطقة سهل الاردن، هاجم اللبنانيون منطقة المالكية ــ قدس. وفي

البداية حققوا نجاحا جزئيا، وسقطت المالكية وقدس بأيديهم، لكننا فيما بعد اربكنا خططهم. وأدت الغارات على مؤخرة قواتهم وعمليات التخريب ضد قراهم المختلفة وطرق مواصلاتهم الى تجميدهم في اماكنهم. وحالت الخسائر الفادحة التي مني بها اللبنانيون خلال احتلالهم للمالكية وقدس، وخسارتهم لمركز شرطة النبي يوشع فيما بعد، دون استمرار تقدمهم. وفي هذه الاثناء وُضعت خطة لاحتلال المالكية وقدس مجددا.

ارسل طابور مدرع تابع للواء «يفتاح» الى المنارة (راميم)، وهو مموه بصورة قافلة تموين عادية. وفي ليل ٢٨ ــ ٢٩/٥، اجتاز الطابور بدون أنوار رقعة الارض المكشوفة الفاصلة بين المنارة وطريق مرجعيون ــ المالكية اللبناني، المار بمحاذاة خط الحدود السياسي. وأغلقت وحدة من المنارة الطريق من جهة مرجعيون لمنع وصول النجدات. وبعد ان صعد الطابور المدرع الى الطريق اللبناني انعطف جنوبا نحو المالكية. 175

وفي الوقت نفسه شن هجوم تضليلي على المالكية، فطلب قائد المالكية نجدة. وكان الافتراض ان يعتقد القائد، عندما يلحظ حركة الطابور المدرع القادم من ناحية المؤخرة ــ ناحية مرجعيون ــ ان هذه هي النجدة المرتقبة، وهذا ما حدث. فقد سارت القافلة في طريقها بأمان، ومرت بعدة قرى لبنانية، واستقبلها السكان بسرور معتقدين انها قافلة لبنانية. لكن عند مفترق طريق عيترون حدث خطأ. فبدلا من ان يتجه الطابور جنوبا نحو المالكية، اخطأت طليعته واتجهت نحو عيترون، التي كان يقصفها في ذلك الوقت سرب الجليل. وبينما كانت القافلة تستدير للعودة الى الطريق الصحيح، وصلت نجدة لبنانية مشكلة من طابور آليات. وفوجئت تماما بالنيران الموجهة اليها من طابورنا. وأصيبت فورا مصفحتان وأربع شاحنات محملة بالذخيرة.

ان ظهور الطابور خلف المالكية، بعد ان سار مسافة تزيد على ١٥ كلم في طريق معاد، حسم ــ كما توقعنا منذ البداية ــ المعركة الثانية على المالكية. وسقط المكان في يدنا. وباستثناء قتلى العدو وكمية كبيرة من الذخيرة وعدد من مدافع الهاون الفرنسية، لم يتبق في المكان شيء. وكانت خسائرنا قتيلين وثلاثة جرحى. 176

وبذلك انتزع من يد العدو الانجاز الاول الذي حققه في الغزو: سيطرته على المالكية وقدس. وفي اثناء الهجوم على المالكية، احتلت الكتيبة ٣ ودمرت بالمواد المتفجرة مركزي حدود على منحدرات هبشان، داخل الاراضي السورية، كانا مسيطرين على شامر ولهافوت هبشان. وفي تلك الليلة، نسفت الكتيبة ١ جسرا بالقرب من ميرون وأغارت على القرية.

وبذلك انتهت المرحلة الاولى من الغزو السوري ــ اللبناني. لقد هزم السوريون في سهل الاردن واللبنانيون في المالكية، وانسحبت قواتهم الى المؤخرة لتعيد تنظيم صفوفها.

وبعد فترة تنظيم قصيرة، استعدت وحدات «يفتاح» لمواصلة المبادرة والاحتلال في قطاع الجليل الاوسط. لكن في هذه الاثناء ازداد الوضع خطورة على الجبهة الوسطى ــ حوالى اللطرون ــ فقررت هيئة الاركان العامة ارسال لواء البلماح الموجود في المنطقة الشمالية، لواء

«يفتاح»، جنوبا الى الجبهة الوسطى. وحل محله في تحمل المسؤولية عن منطقة الجليل الاعلى الشرقي لواء جديد: لواء «عوديد». وقد شكل هذا اللواء من أفراد كتيبة قوة الحراسة التي كانت في المنطقة، بالاضافة الى رجال المستعمرات الذين كانت اكثريتهم اكثر تقدما في السن، وأيضا من تعزيزات قليلة اتت من معسكر استيعاب المجندين الجدد.

الجبهة العراقية ــ معارك غيشر

كان الطريق الذي سلكه العراقيون في غزوهم يمر بجنوب سهل الاردن، بين غيشر وبيت يوسف، وكانت هجماتهم مشتركة ومنسقة مع هجمات السوريين في سهل الاردن، الى الشمال من ذلك. وقد ذكرنا انه في مواجهة هذين الجيشين الغازيين كانت تقف في البداية الكتيبة ٢ التابعة للواء «غولاني» والبالغ عـدد أفـرادهـا ٤٠٠ شخص تقريبا. ولسبب ما ركزت وسائط النشر بصورة رئيسية على الهجوم الرئيسي الذي قام به السوريون على سمخ ومستعمرتي دغانيا، مع انه في الوقت نفسه جرى هجوم عراقي في قطاع غيشر، كان خطرا جدا ولم يخل ايضا من لحظات مصيرية. وهنا ايضا نجح رجال الكتيبة، التي شُكلت قواتها القليلة من اعضاء المستعمرات والنجدات التي اسرعت الى المكان، في ايقاف العدو.

في البداية سقط مشروع الكهرباء الموجود في نهرايم. ان اهمية هذا المشروع الذي كان يزود شمال البلد كله بالكهرباء ليست بحاجة الى شرح، لكن المشروع كان يقع داخل الاراضي الاردنية. وحتى ١٩٤٨/٥/١٥ وافق عبد الله على ان يحتفظ اليهود بالمشروع ويشغلوه بسبب الربح الاقتصادي الذي كان المشروع يدره على دولته طوال فترة قيامه. وأجرينا قبل الغزو ــ بواسطة اصحاب الاسهم البريطانيين في شركة الكهرباء ــ مفاوضات للتوصل الى اتفاق مع عبد الله. وكانت شروط الاتفاق المقترح: أ) يضع عبد الله مشروع نهرايم والعاملين فيه تحت حمايته؛ ب) يسلم المهندسون والعمال في المكان اسلحتهم، ويستمرون في العمل بحماية الملك (كانت العائلات قد اخرجت من هناك في وقت سابق). وفجأة، بعد ظهر يوم ٥/١٤، استولى الفيلق على نهرايم بعد ان رفضنا الشروط التي قدمها لنا. وقد اخرج قسم من الاسلحة، وسلمت بقيتها للفيلق او اخذها هو. وبقي في المشروع ٣٠ شخصا أُسروا ونقلوا الى المفرق في شرق الاردن. وفي اليوم التالي، شهد المدافعون عن غيشر دمار المشروع ونهب معداته. وضاعت استثمارات مبادرة طلائعية وأموال وعمل ٢٠ عاما.

177

وفي تلك الليلة، عندما اتضح انه ليس هناك امكان للبقاء في مشروع نهرايم، تم نسف الجسرين القائمين فوق نهر الاردن، بالقرب من مستعمرة غيشر.

وكان الاعداد لنسف الجسرين قد تم في وقت سابق في نهاية نيسان/ابريل، في الايام الاولى للمعركة على غيشر. لكن عملية النسف أُجلت. وفي ١٤ ايار/مايو، وصلت وحدات

من طلائع الجيش العراقي، عن طريق اربد، الى ضواحي غيشر. وفي يوم ٥/١٥ عملت وحدات الهندسة العراقية في اعداد جسر «بونتوني» لاقامته فوق نهر الاردن، بدلا من الجسرين المنسوفين. وبما ان الامر استغرق وقتا طويلا، فان وحدات من المشاة عبرت في هذه الاثناء نهر الاردن في ممر وادي البيره، الى الجنوب من غيشر. وبدلا من مهاجمتها اكتفى العراقيون بقصف الموقع ومخفر الشرطة الواقع غربي نهر الاردن بالمدافع ومدافع الهاون. وفي اثناء ذلك استولى العراقيون على موقع «الجمل»، الواقع شمالي غيشر والمشرف على المنطقة المحيطة بها. ونجحوا في مد جسر موقت ونقل مدرعات عبره الى الجنوب من غيشر، بالقرب من مكان مرور انبوب النفط. وفي عصر يوم ٥/١٦، بدأ هجوم المشاة العراقيين على غيشر من ناحية الشمال. وعندما وصل المهاجمون الى مسافة قصيرة، فتحت النار عليهم من جميع الاسلحة 178 فانسحبوا بعد ان تكبدوا خسائر فادحة. وفي ذلك اليوم فتح رجالنا في سهل الاردن سدود نهر الاردن لجعل عملية عبوره اصعب.

وفي اليوم التالي جدد العراقيون هجومهم. وفي هذه المرة انضمت الى قوة المشاة القادمة من الشمال، من موقع «الجمل»، قوة مدرعة عملت ضد مخفر الشرطة وضد الكيبوتس، من ناحية الجنوب. وتم صد هجوم المشاة هذه المرة ايضا، لكن عددا من المصفحات نجح في تطويق مبنى الشرطة. ووصل جنود عراقيون الى بوابة المخفر ففجروها واخترقوها. لكن في وسط الباحة الداخلية اصيبت المصفحة التي اخترقت البوابة بزجاجة مولوتوف فاندلعت فيها النيران. وبحلول الظلام انسحبت المصفحات. وفي الليل قمنا بمحاولة لاحتلال موقع «الجمل»، من جهة مناحيميا، لكن المحاولة فشلت.

لقد صد الهجوم على غيشر، لكن الحصار المضروب حولها استمر. وفي اليوم التالي، ٥/١٨، حاولت سرية من الكتيبة ٢/غولاني احتلال موقع «الجمل». ومع ان محاولتها فشلت، فانها خففت قليلا من ضغط هجوم العدو على كيبوتس غيشر، لأن العدو وجه الى مقلع الحجارة، الذي شنت السرية الهجوم منه، نيران اسلحة كثيرة ــ من ضمنها مدفعية ــ وواصل اطلاق النار على ذلك المكان فترة طويلة بعد هجومنا.

لقد كانت معابر الاردن شمالي غيشر وجنوبيها بيد العراقيين: وكان يفصل بينها وبين مناحيميا في الشمال موقع «الجمل» المحتل. وكانت الطريق الى الجنوب، الى بيت يوسف، مقطوعة بحشود المدرعات والمشاة في وادي البيره. وكانت المؤونة تصل الى المستعمرة فقط في الليل، وتنقل عبر خطوط العراقيين. واستمر هذا الحصار من ثلاث جهات حتى ٥/٢٢. وآنذاك «اقتنع» العراقيون بالانسحاب من القطاع بسبب نشاط وحداتنا في المنطقة الموغلة اكثر في اتجاه الجنوب، في هضبة كوخبا التي هي كوكب الهوا.

ان هذه الهضبة المشرفة على سهل الاردن، جنوبي وادي البيره، تبعد نحو ٢ كلم عن طريق سمخ ــ بيت شان وترتفع عنه ٤٠٠ متر. وقد ادرك الصليبيون، في حينه، اهميتها كموقع استراتيجي لحراسة نقاط الدخول الى البلد في هذه المنطقة، فشيدوا عليها احدى

قلاعهم ــ بلفوار ــ ومن يسيطر عليها يسيطر على معابر نهر الاردن في كل القطاع وعلى وادي البيره، الذي يشكل محورا رئيسيا للتغلغل من الاردن الى داخل البلد.

وبينما اتجهت قوة عراقية نحو الشمال، بعد عبورها الاردن، وهاجمت غيشر، تسلقت قوة اخرى بحجم سرية مشاة تقريبا الهضبة، وتأهبت للاستيلاء على كوكب الهوا. لكن رجال الكتيبة ٣/غولاني كانوا قد سبقوها، ففي اليوم السابق كانت القرية الصغيرة والموقع بجانبها قد احتلا. وعندما وصلت السرية العراقية مع الفجر الى وسط الهضبة وجلست لتناول الطعام واستجماع قوتها لاكمال الصعود، فوجئت بالنيران تنهمر عليها من مسافة ٥٠ مترا فقط. وتم القضاء بقنبلة يدوية على طاقم موقعها الرشاش، الذي صوب في اللحظة الاخيرة الى الجماعة المهاجمة. وانسحبت السرية العراقية بسرعة وبفوضى، مخلفة ٣٠ قتيلا وغنائم كثيرة. وكانت خسائر رجال «غولاني» ٣ جرحى فقط. واعتبارا من تلك اللحظة لم يحاول العراقيون شن هجوم بقوات المشاة في ذلك القطاع، واكتفوا بقصف غيشر وبيت يوسف وكوكب بالمدفعية ومدافع الهاون، وبشن غارات جوية عليها. وبعد عدة ايام غادروا القطاع كليا.

ذكرنا اعلاه ان المدافع الاولى التي وصلت الى البلد بعد اعلان قيام الدولة ارسلت الى قطاع سهل الاردن. ان قطاع كوكب الهوا ــ المسيطر على كل غور الاردن المنبسط تحته، والذي كان في الامكان الاشراف منه على كل القوة العراقية وتحركاتها ــ كان موقع مراقبة مثاليا بالنسبة الى رجال المدفعية. وعندما توقف القتال في قطاع دغانيا ارسل الى هنا مدفعان من عيار ٦٥ ملم، من الـ «نابوليونتشيكيم» (كما سمى جنودنا هذه المدافع آنذاك لقدمها). وفي الصباح الباكر ليوم ٢٢ ايار/مايو، وصلت البطارية المشكلة من مدفعين الى كوكب. وكان لا يزال ينقص المدفعين جهازا تسديد، كما كان حالهما في معركة دغانيا قبل يومين، وجرى التصويب بطريقة عشوائية من دون اجهزة مساعدة، وقد اصابت احدى القذائف الاولى صهريج وقود عراقيا. وبدأت الآليات بالانسحاب. وتفرقت تحشدات قوات المشاة التي تعرضت للقصف في جميع الاتجاهات. وفي اليوم التالي، سحب العراقيون كل قواتهم الى ضفة الاردن الشرقية. ويبدو ان فشلهم في هضبة كوخبا وغيشر، الذي تزامن مع فشل السوريين في قطاع دغانيا، «اقنعهم» بأن هذه لن تكون الطريق المرجوة الى داخل البلد. وقرروا نقل قواتهم الى داخل المثلث العربي، وعدم محاولة الهجوم من ناحية نهر الاردن. وهكذا، في الشهر الاول للمعارك بعد الغزو، انسحب السوريون من سهل الاردن، وهزم اللبنانيون في المالكية وقدس، ويئس العراقيون من مهاجمة غيشر وانتقلوا الى «المثلث». وصمدت الجبهة الشمالية كلها. ولم ينجح العدو في اختراق او احتلال ولو مجرد رقعة ارض ضيقة.

179

وحدث في الشمال توقف قصير في القتال استغلته قواتنا لاعادة تنظيم صفوفها.

ومن الآن فصاعدا اصبحت خطتنا قائمة على استباق العدو وأخذ زمام المبادرة في

العمليات، لانه ينبغي لنا ان نذكر التالي: حتى الآن كان العدو هو المهاجم، اي المبادر. وقد اوقفنا تقدمه بنجاح، لكننا اكتفينا بايقافه فقط. وكانت قوات «يفتاح» فقط، في الجليل الشرقي وجبال نفتالي، هي الوحيدة التي قامت بمبادرات استباقية لارباك خطط العدو. لكن من الآن فصاعدا اصبح هذا هو توجه جميع وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي في كل الجبهة الشمالية.

وكانت المهمة الاولى في العمليات المبادر اليها على الجبهة الشمالية هي احتلال جنين.

معارك جنين

قسمت خطة الهجوم على جنين الى مرحلتين: **المرحلة الاولى**، السيطرة على القرى العربية الواقعة في السلاسل الغربية لجبال غلبواع، على جانبي طريق العفولة ــ جنين؛ **المرحلة الثانية**، احتلال حلقة المواقع المحيطة بجنين بعد السيطرة على الطرق المؤدية الى المدينة. وكُلِّفت قوات «غولاني» تنفيذ المرحلة الاولى، وقوات «كرملي» المرحلة الثانية: احتلال مواقع المدينة.

لقد كلفت وحدات «غولاني» «التمهيد» للهجوم على جنين الوسطى باحتلال القرى الواقعة على الطريق الى المدينة. وكُلف لواء «كرملي» المرور بعد ذلك عبرها والسيطرة على جنين ومواقعها. وفي الواقع، كان لواء «غولاني» قد شرع في التمهيد لذلك قبلا بقيامه بعمليات كثيرة في تلك المنطقة. اذ احتلت الكتيبة ٤/غولاني في عمليات سابقة: مجدو واللجون وزرعين ونورس والمزار. ثم في ١٩٤٨/٦/١، هاجمت الكتيبة ٣/غولاني ايضا قرى: عرانه وجلمه والمقيبله، واحتلتها. واكتملت المرحلة الاولى بنجاح، وأصبحت الطريق الى جنين مفتوحة. وبوشر تنفيذ المرحلة الثانية: تطويق جنين.

180 ان جنين مدينة بساتين، واقعة في واد عميق بين الجبال. ومن يريد ان يحمي المدينة ويدافع عنها ينبغي له ان يحتل الجبال المطبقة عليها، وخصوصا المرتفعين الكبيرين الواقع اولهما في الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة، وثانيهما في الجهة الجنوبية الغربية لها. وبالتالي، كان هذان المرتفعان هما هدفا الهجوم في ليل ٣ حزيران/يونيو ١٩٤٨ بالنسبة الى الكتيبتين ١ و٢ التابعتين للواء «كرملي». وخصصت لكل هدف كتيبة واحدة. وبحلول الظلام تحركت الكتيبتان نحو الجنوب، ووصلتا حتى المقيبله بالسيارات، وهناك انفصلت الواحدة عن الاخرى: اتجهت إحداهما ــ الكتيبة ٢ ــ شرقا، بينما اتجهت الاخرى ــ الكتيبة ١ ــ غربا. وحُملت الاسلحة الثقيلة على سيارات جيب. كان تحرك الوحدات في هذه المنطقة صعبا، وازداد بطأً بسبب صعوبة قيادة سيارات الجيب، لكن لم تكن هناك اية فرصة لاحتلال المرتفعين من دون مدافع الهاون الثقيلة. وفي فجر ٣ حزيران/يونيو فقط، بدأت طلائع الوحدات بتسلق المرتفعين في اتجاه القمة. وتم القضاء على مقاومة العدو خلال فترة قصيرة، فترك المرتفعين واتخذ مواقع له في مرتفعات اكثر تطرفا نحو الجنوب.

وفي صباح اليوم نفسه ابلغ قائد الجبهة الشمالية، موشيه كرمل، هيئة الاركان العامة بما يلي: «ان الهجوم على جنين يسير وفقا للخطة، وأصبحنا نسيطر الآن على المرتفعات الشرقية والجنوبية الغربية للطريق، والتي تشرف على المدينة. كما تحتل قواتنا قمم الهضاب الشمالية للمدينة. ويقاوم العدو مقاومة عنيفة بكل الاسلحة، بما في ذلك المدفعية. المعارك مستمرة. يجب ان يقوم لواء «ألكسندروني» بعمليات إلهاء للحؤول دون ارسال نجدات الى هنا».

ومن الجدير بالذكر ان الخطة الاولى كانت تقضي باشتراك «ألكسندروني» في هذه العملية. فقد كان عليه ان يهاجم طولكرم، بصورة منسقة مع هجوم «كرملي» و «غولاني» على جنين. لكن بسبب الوضع الصعب بمنطقة اللطرون، في ذلك الوقت، ونقل الكتيبة ٢ التابعة للواء «ألكسندروني» الى تلك المنطقة، لم يتمكن اللواء من تنفيذ القسم الثاني من العملية. وبالتالي، وجه كل ضغط قوات العدو في المثلث الى «كرملي» و «غولاني»، اللذين كانا يهاجمان جنين من الشمال.

وعند الظهر تقريبا، حدث تحول خطر في الوضع. فقد شوهدت كتيبة عراقية تتحرك من جهة الجنوب، بالآليات، في اتجاه جنين. وبعد فترة وجيزة وجهت نيران كثيفة من مدافع الهاون والمدافع الرشاشة والمدافع الى المرتفعات التي كانت قواتنا تحتلها وبدأت الطائرات بمهاجمتها من الجو. وبعد قليل بدأت هجمات على مواقع الكتيبة ١/ كرملي في المرتفع الجنوبي الغربي. وأصبح وضع الكتيبة الموجودة على المرتفع خطرا جدا. وفشلت كل المحاولات لتخفيف الضغط عنها. وكانت الطائرات القليلة التابعة لسلاح الطيران الاسرائيلي مشغولة في تلك الفترة في مكان آخر، في القطاع المصري، ولم يكن مدى طائرات الـ «نابوليونتشيكيم» كافيا للوصول الى حشود العدو الرئيسية. ولم تنجح ايضا الكتيبة الموجودة على المرتفع الجنوبي الشرقي في تقديم المساعدة. وأصابت قذيفة معادية موقع قيادة الكتيبة ١/ كرملي، فقتل نائب قائدها وأصيب عدد من أفراد القيادة. وأضيفت شظايا الصخور الى شظايا القذائف فتسببت بوقوع خسائر فادحة. وزاد الحر الشديد والظمأ المرافق له في خطورة وضع الرجال. وتحطمت قوة صمود الكتيبة، وبدأت اقسام منها الانسحاب في وضح النهار. وكانت خسائر هذه القوات المنسحبة اكبر من خسائر القوات على المرتفعات.

وفي ضوء هذا الوضع، تقرر استخدام قوة الاحتياط والطابور المصفح وارسالها الى داخل المدينة نفسها. وكان الطابور المصفح مكونا من عدد من السيارات المصفحة وأربعة باصات تابعة لشركة «دان»، يقل كل واحد منها فصيلة مشاة. واقتحمت القوة المدينة، وبحلول الظلام كانت المدينة بأسرها محتلة، باستثناء مبنى الشرطة الذي تحصن فيه العراقيون. لكن في هذه الاثناء تأزم وضع القوات الموجودة على المرتفعات. وفي الساعة ١١ ليلا تلقت هيئة الاركان العامة تقويما للوضع من قائد الجبهة: «الوضع في جنين لم يحسم بعد. تدور معارك عنيفة على المرتفعات وفي المدينة، وتتواصل النجدات الى العدو.

181

سيكون من المستحيل الاحتفاظ بجنين وتدا وحيدا في المثلث. كل قوة العدو هناك ستوجه ضدنا. اذا كان في نيتكم ان تهاجموا طولكرم بسرعة قصد احتلالها، فيجب بحسب رأيي الاحتفاظ بجنين وليحدث ما يحدث. لكن اذا لم تكن هناك نية لمهاجمة المثلث في موضع آخر، ففي الامكان وينبغي ترك جنين قبل ان نتكبد خسائر اخرى. اخطرونا على الفور بردكم». 182

وبعد ثلاثة ارباع الساعة تقريبا، أرسل الرد: «اذا لم يكن في الامكان الاحتفاظ بجنين فانسحبوا بنظام. لا نستطيع ان نحتل طولكرم وسنضايقها فقط الليلة. فكر، قرر، نفذ وأخطرني».

وفي منتصف الليل ارسل قائد الجبهة إخطارا بقراره: «قررت الانسحاب من المدينة والمرتفعات عند طلوع الفجر والاختباء في سلسلة هضاب على بعد كيلومتر ونصف الكيلومتر شمالي المدينة. ننظم انفسنا للدفاع عن عرانه والجلمه ومعسكر الجيش في المقيبله، وقريتي المقيبله وزرعين. وقبل الانسحاب، سننزل قدر الامكان خرابا في المدينة».

وقبل طلوع الفجر اخليت جنين ومرتفعاتها.

وعاد قسم من الجرحى في ليل اليوم التالي فقط، بعد ان اختفوا يوما كاملا في الحقول. وسُحب أفراد «كرملي» لاعادة تنظيمهم، وأُبقيت وحدات «غولاني» على المرتفعات. وفي الليلة السابقة ليوم ٦/٩، قبل الهدنة الاولى، قامت هذه الوحدات بمحاولة اخيرة لمهاجمة مبنى الشرطة. ونجحت في الوصول الى الساحة، لكنها لم تصل الى المبنى نفسه بسبب كثافة الاسلاك الشائكة المحيطة به. فعادت من حيث اتت.

وظلت جنين بيد العدو حتى يومنا هذا.

وبذلك انتهت معارك جنين وغلبواع التي دارت في الشهر الاول من الغزو. وتجددت المعارك مرة اخرى في هذه المنطقة بعد الهدنة الاولى، وسنتحدث عنها في حينه. وبالنسبة الى باقي جبهات الجيش العراقي، في منطقة الشارون [السهل الساحلي] والشومرون [نابلس]، فقد حاول هذا الجيش الذي انتقل الى «المثلث» بعد معارك غيشر، ان يهاجم بين الفينة والاخرى قواتنا في منطقة الشارون، لكن هجماته لم تكتسب قط طابعا ذا اهمية.

ج ـ المنطقة الوسطى: منطقة «ألكسندروني»

في ١٩٤٨/٥/٢٣، وصلت طلائع القوات العراقية الى نابلس. وفي ١٩٤٨/٥/٢٨ بدأ العراقيون هجماتهم الاولى في اتجاه الشريط الساحلي، فاحتلوا غئوليم في ذلك اليوم، وهاجموا كفار يعبتس. لكن قوات الكتيبة ٢ التابعة للواء «ألكسندروني» عادت فاحتلت غئوليم ودحرتهم.

وفي ٣٠ ايار/مايو هاجم العراقيون روش هعاين [راس العين]، التي احتلت في اليوم السابق، فانتزعوها من ايدينا. وبقيت في ايديهم حتى معارك «الايام العشرة»، إلا انهم لم يواصلوا التقدم الى ما بعدها.

ولم يشن جيش الدفاع الاسرائيلي هجمات كبيرة في هذه المنطقة؛ لقد كان الهدف الاكثر حيوية فيها، بلا شك، طولكرم المسيطرة على الطرق المتجهة من نابلس وجنين الى منطقة الساحل. لكن بما انه لم يكن لدينا، في ذلك الوقت، قوات كافية لمهاجمة هذا الهدف واحتلاله، فقد اختيرت أهداف اصغر.

اختيرت قرية قاقون هدفا للهجوم في ليل ٤ ــ ٥ حزيران/يونيو. وكانت المنطقة الواقعة غربي القرية وجنوبيها، بينها وبين المستعمرات اليهودية المجاورة: عين هحوريش وهمعبيل وغيرهما، منطقة خالية [من قوات الطرفين] في الاسابيع السابقة لذلك (انظر الخريطة 31*).

183 ونفذت الهجوم الكتيبة ٣ (بالاضافة الى سرية من الكتيبة ٢) التابعة للواء «ألكسندروني»، بمساندة من مدافع ومدافع هاون عيار ١٢٠ ملم. وجوبهت القوة المهاجمة بمقاومة، خصوصا في الطرف الشمالي من القرية الواقعة قبالة كيبوتس همعبيل. وكان الدفاع عن هذا الجزء موكلا الى وحدات عراقية نظامية. كما كان يوجد هناك مقر القيادة المحلية. ومع بزوغ الفجر كان العراقيون لا يزالون موجودين في جزء من مواقعهم المحصنة، بينما لا يزال قسم كبير من الوحدات المهاجمة متخندقا في منطقة منبسطة مكشوفة لنيران العدو. وحسم هجوم عنيف في وضح النهار المعركة. ونظمت وحدات «ألكسندروني» صفوفها للدفاع عن المكان وتحصنت فيه. وشن العراقيون طوال ذلك اليوم هجمات مضادة لانتزاع القرية من ايدينا، لكن من دون جدوى.

وقد استخدم الطرفان في ذلك اليوم الطائرات في المعركة. فقصف العراقيون القرية، وقصفت طائراتنا طولكرم وقلنسوة. ومع حلول الظلام، اوقف العدو هجماته، وبقيت القرية في ايدينا. وفشلت محاولات اخرى لاحتلال قرى عربية. وساد هذه المنطقة بصورة عامة هدوء نسبي. ويجدر بنا ان نضيف ان احتلال الطنطورة (الآن «دور» ــ جنوبي نحشوليم) الواقعة على الساحل ــ في ١٩٤٨/٥/٢٣ ــ تم على يد الكتيبة ٣ التابعة للواء «ألكسندروني».

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٤. (المترجم)

د ــ الجبهة الشمالية
عشية الهدنة الاولى

المعارك مع السوريين واللبنانيين

حدث تطور آخر على الجبهة الشمالية في النصف الثاني من شهر الغزو ــ عشية الهدنة الاولى.

ما بين ٥/٢٠ و ٦/٥ لم يبادر السوريون واللبنانيون الى القيام بأية عملية، باستثناء القصف الجوي والبري والنشاطات الاستطلاعية. وانسحب معظم قواتهم لاعادة تنظيم الصفوف والتخطيط لاستئناف العمليات في ضوء الدرس الذي لُقِّنوه.

ان الخطة الاساسية للدول العربية ــ اخضاع الدولة بحملة خاطفة والسيطرة على مراكزها بالقوة ــ فشلت. فركز السوريون على وضع خطة لا تهدف الى إلحاق هزيمة شاملة بالدولة، وانما الى احراز مزايا قليلة لكنها واضحة وثابتة. وكانت الاهداف التي طمحت الهجمات السورية واللبنانية الى تحقيقها في المرحلة الثانية هي: أ) عزل اصبع الجليل الشرقي والسيطرة عليه؛ ب) احتلال عدد من نقاط الحدود العبرية مثل: عين غيف ومشمار هايردين وراموت نفتالي، ونقاط اخرى.

ونُسقت الهجمات السورية مع الهجمات اللبنانية، والى حد ما مع قوات القاوقجي. ووُجّه الجهد السوري الرئيسي، هذه المرة، الى قطاع مشمار هايردين. وألقى اللبنانيون في المقابل بثقلهم، مرة اخرى، على المالكية وقدس. وبدأ القاوقجي مهاجمة قرية الشجرة.

في ٦/٦، بدأت هجمات العدو بقوات كبيرة على نقطتين واقعتين في مجال نشاط لواء «عوديد»: على مشمار هايردين والمالكية.

واحتلت القوة اللبنانية التي انطلقت من لبنان المالكية من جديد (انظر الخريطة 28*)، وقدس ايضا في اليوم التالي، وبذلك فتحت مجددا بوابة الغزو: بوابة المالكية. وبدأت قوات «جيش الانقاذ»، بعد ان مرت بفترة تنظيم لصفوفها، بالتدفق عبر هذه البوابة نحو وسط الجليل الآهل بالعرب.

وبدأ السوريون في ٦ من الشهر نفسه، بشن هجمات على مشمار هايردين. فبعد قصف قصير، شرعت وحداتهم في اجتياز نهر الاردن والتقدم في اتجاه النقطة. وتم صد هذا الهجوم واضطروا الى الانسحاب لاعادة تنظيم صفوفهم. وفي هذه المرة، حشدوا قوات اكثر من المرة الاولى. وساء وضع لواء «عوديد»، الذي كان كما ذكرنا اعلاه في بداية تشكيله عندما كُلِّف صد المجهود الرئيسي لجيشين عربيين. وشددت البرقيات التي ارسلها على النقص في الاسلحة والذخيرة والطاقة البشرية. وبذلت قيادة الجبهة الشمالية وهيئة الاركان العامة

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٣. (المترجم)

جهودا لمساعدة اللواء. ونقلت الكتيبة ٣ التابعة للواء «كرملي» الى منطقته، لكن قبل ان تنظم هذه القوات صفوفها بدأ الهجوم السوري الكبير مع فجر يوم ١٠ من الشهر نفسه. فقد شنت قوة يقدر قوامها بلواءين هجوما على منطقة مشمار هايردين. واجتازت القوة نهر الاردن ودارت حول النقطة وتوجهت نحو محنايم.

وعند الظهر اعلن لواء «عوديد» ان الوضع في مشمار هايردين خطر جدا: «اجتازت ٨ دبابات نهر الاردن وهناك عدد منها على الطريق غربي مشمار هايردين، ودخلت المدافع المعركة لكنها لم تحل دون تقدم الدبابات. الامر يستوجب قصفا مركزا. قواتنا في المنطقة، لكن وضعها غير واضح».

185 وبعد ساعة تقريبا اعلنت قيادة اللواء انه يمكن الافتراض ان مشمار هايردين لم تعد قائمة كقوة مقاتلة... وقصفت منطقتا روش بينا ومحنايم من الجو بصورة متواصلة. وأخذت تزداد هجمات المشاغلة والتمويه التي كانت تشن في الوقت نفسه على كفار سولد ودان. وبدأ العرب الاندفاع بأعداد كبيرة الى الحولة. وسمعت مرة اخرى مطالبة بالذخيرة وأجهزة الاتصال، وبصورة خاصة اسلحة مضادة للدروع، وذلك لايقاف تقدم المدرعات نحو محنايم.

وبعد منتصف الليل وصل شخص نجا من مشمار هايردين، وأعلن سقوط هذه النقطة الاستيطانية. لقد احتلت في ساعات الظهر. واستمرت المقاومة اليائسة لعدد من الاشخاص في نقاط مختلفة حتى العصر، وكل من بقي في قيد الحياة، باستثناء عدة أفراد نجوا، وقع في الاسر.

وفي عصر ذلك اليوم، شن هجوم عنيف على راموت نفتالي. ووصل المهاجمون حتى السياج، ولم ينسحبوا إلا قبيل المساء بعد معركة طاحنة.

وكان يوم ٦/١٠ ايضا يوم الهجوم الكبير على القلعة الواقعة شرقي بحيرة طبريا: عين غيف؛ في المرحلة الاولى من الهجوم السوري على سهل الاردن لم يتم التعرض لها. وباستثناء قصف جوي وبري قصد المشاغلة لم يحاول السوريون الاشتباك معها، مفترضين انها ستسقط تلقائيا بعد احتلال المستعمرات في منطقة دغانيا وطبريا.

186 لكن الآن، بعد ان تبنت القيادة السورية خطة «أهداف محدودة»، حان ايضا دور عين غيف. وكانت أهداف الهجوم هي: أ) احتلال مستعمرة يهودية للدلالة على انجازات ما؛ ب) تثبيت قواتنا في هذه المنطقة ومنع تحركها لنجدة منطقة مشمار هايردين.

وقع الهجوم على عين غيف بصورة متزامنة مع الهجوم على مشمار هايردين في ٦/١٠. وسبقه قصف للمستعمرات المجاورة. وقد نفذت الهجوم قوات المشاة، التي تقدمت على ثلاثة محاور: من الجنوب الغربي ــ من ناحية السمرا (الآن كيبوتس «هؤون»)؛ من الشرق ــ من ناحية جبل سوسيتا؛ ومن الشمال. وقد تم ايقاف القوة الشمالية والقوة الجنوبية بالألغام ونيران المدافعين. لكن قسما من القوات المهاجمة من الشرق نجح في الاقتراب خفية

من سياج المستعمرة. وفي الساعة ١١,٣٠ تقريبا نجح في التغلغل الى الـ «بيلبوكس» [موقع الباطون المسقوف] الموجود في ذلك القطاع. ونجحت نجدة ارسلت الى ذلك القطاع في تحديد مكان الاختراق وايقاف العدو. وعندما رأى جنود العدو الموجودون في داخل الـ «بيلبوكس» ان زملاءهم لم يلحقوا بهم، انسحبوا بفعل ضغط المدافعين. وهنا استأنف مدفع الهاون الموجود في المستعمرة القصف بعد ان كان توقف عنه بسبب عطل طرأ عليه، وكانت تلك نقطة التحول في المعركة. وبدأ العدو بانسحاب شامل.

كان ليـل ١٠ ـ ٦/١١ ليل يقظة بالنسبة الى كلا الجانبين. نظم السوريون قواتهم لاستئناف الهجوم في اليوم التالي. وكان هدفهم الاندفاع من داخل رأس الجسر في مشمار هايردين نحو الطريق الرئيسي الذي يصل روش بينا بالمطلة. ومن اجل ذلك نقلوا قسما من القوات التي هاجمت عين غيف الى مشمار هايردين. ومع ذلك واصل القسم المتبقي مهاجمة عين غيف ليجبر قواتنا على البقاء هناك.

واحتلت وحدات «عوديد» مواقع لها حول رأس الجسر في مشمار هايردين، وتحصنت فيها بسرعة محمومة لتكون جاهزة مع الفجر لمواجهة العدو في هذا القطاع. ودرست خطة لشن هجوم مضاد واحتلال مشمار هايردين من جديد، لكن بسبب النقص في القوات تم التخلي عنها. وفي الليلة نفسها، ارسلت الكتيبة ٢١ التابعة للواء «غولاني» نجدة الى عين غيف، قوامها فصيلتان وكمية من الاسلحة والذخيرة.

وفي الصباح بدأ العدو هجماته على المواقع المحيطة بمحنايم، واحتل قسما من تلك المواقع ووصل الى مسافة قريبة من محنايم. لكن هجمات مضادة قامت بها قواتنا نجحت في ايقافه قبل ان يتمكن من قطع الطريق. وكان من المفروض ان يبدأ سريان مفعول الهدنة في ذلك اليوم في الساعة ١٠,٠٠، إلا ان المعارك استمرت طوال النهار. وفي المساء بدأت الهدنة ايضا في هذه المنطقة، وبقي الطريق الى الشمال مفتوحا. وهوجمت عين غيف بدورها ايضا طوال ذاك النهار وفي اليوم التالي، ٦/١٢، وبعد ذلك سرى مفعول الهدنة في هذا القطاع ايضا.

هجمات القاوقجي على الشجرة

ان الايام الاخيرة عشية الهدنة ستذكر في الجليل ايضا كأيام «الجولة الاولى» في المعارك على الشجرة. فبعد ان تمركز القاوقجي في الجليل الاوسط ونظم قواته، وجه جهده الرئيسي الى هذه النقطة. وقد اربكنا خططه عن غير قصد بهجوم مبكر على لوبية. لقد نفذ الهجوم في ليل ١٠ ـ ٦/١١، وكان الهدف منه فتح الطريق من كفار تافور والشجرة الى طبريا (انظر الخريطة 42*). وفشل الهجوم لكنه اربك، الى حد ما، خطط القاوقجي. وبعد تنظيم جديد

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٨. (المترجم)

بدأ القاوقجي، في ٦/١١، هجوما على الشجرة. ونجح حتى ساعات الظهر في السيطرة على مواقع تقع شمالي المستعمرة وغربيها. وفي الشرق وصل فعلا الى الطريق وأغلق بنيرانه الطريق الى كفار تافور. وأصبح وضع المدافعين خطرا، لكن خسائر العدو كانت اكبر، وخارت قواه هو ايضا. وقبيل المساء، انسحب من ميدان المعركة. واستمرت هجمات بالنيران ايضا طوال يوم ١٢ من الشهر نفسه. وفي ١٣ من الشهر نفسه [حزيران/يونيو] سرت الهدنة في هذا القطاع ايضا.

وبذلك انتهت المعارك على الجبهة الشمالية وبدأت الهدنة الاولى. وعلى الرغم من عدد من الاخفاقات، وخصوصا في المرحلة الاخيرة من المعارك ـ سقوط مشمار هايردين والمالكية ـ فان جيش الدفاع الاسرائيلي حقق ايضا على هذه الجبهة هدفه الدفاعي العام. لقد فشلت المحاولة لالحاق الهزيمة بقواتنا في حرب خاطفة، ولم تنجح القوات الغازية جميعا في تطبيق خططها.

مِنَ الغَـزو إلى الهُـدْنَة 189

(ب)

على الجبهة الوسطى نشط بصورة خاصة جيش غاز واحد هو الفيلق العربي. لقد نشطت في الحقيقة أيضًا جيوش أخرى هنا وهناك في هذا القطاع، كالقوات المصرية و«جيش الانقاذ»، لكن الفيلق العربي كان قوة العدو الرئيسية في هذه المنطقة.

غزو الفيلق العربي

في ١٣ ايار/مايو ١٩٤٨، صدرت أوامر الى اغلبية وحدات الفيلق، المعسكرة على ضفة نهر الاردن الشرقية، بأن تعبر هي ايضا الى الضفة الغربية. وفي ١٤ من الشهر نفسه، بدأت التحرك غربا عبر جسر اللنبي. وكان جنود الفيلق مفعمين بالثقة. لقد قدروا مدة المعركة التي خطط لها بخمسة عشر يوما، على الاكثر. وحتى خمسة عشر يوما كانت تبدو فترة مبالغا فيها في نظر كثيرين منهم. فلا يمكن لـ«عصابة صهيونية» غير نظامية ان تصمد، بحسب رأيهم، امام قوات عربية نظامية لفترة تزيد على اسبوعين.

انتشرت اغلبية وحدات الفيلق التي اجتازت نهر الاردن في المناطق العربية المحض الواقعة في جبال أفرايم ويهودا [الخليل]. وحشدت الوحدات المدرعة ـ القوة الهجومية ـ حول مدينة القدس. وبينما كانت نية العرب في الفترة السابقة جعل القدس تسقط عن طريق عزلها عن الشفيلا وتجويعها، اعتبر الفيلق الآن العزل عن الشفيلا عاملا مساندا لهجوم مباشر على القدس العبرية.

وقبل وصف هجمات الفيلق المباشرة على القدس، سنصف تطور الاحداث حول المدينة وفي غوش عتسيون*.

* الصفحات 192-198 في الاصل أُغفلت ترجمتها لأن الاحداث المذكورة ضمنها وردت بالتفصيل في مكان آخر أعلاه، انظر ص ٢٩٤ ـ ٣٠٦. (المترجم)

قصف المدينة العبرية

بدأت الهجمات في آن واحد على شمال المدينة وجنوبها. وكان الفيلق قد بدأ في وقت سابق قصف الاقسام العبرية من القدس بمدافع من عيار ٢٥ رطلا وبمدافع هاون عيار ٨١ ملم. وقد اتى القصف من الجهات المختلفة للمدينة؛ من الشمال ـ من شعفاط والتلة الفرنسية؛ من الغرب ـ من النبي صموئيل؛ ومن الجنوب ـ من بيت جالا. واستمر القصف تقريبا طوال الشهر الواقع بين الغزو والهدنة الاولى. وكان هدفه تحطيم معنويات 200 سكان المدينة ودفعهم الى الاستسلام بتأثير الخسائر البشرية الناجمة عنه وبتأثير خطر الجوع والظمأ المتوقع بسبب العزل. لكن العدو لم يشأ الانتظار الى ان يوافق سكان القدس على الاستسلام، فبدأ ايضا بمحاولات لاقتحام المدينة ـ كما ذكرنا ـ من الشمال والجنوب.

المعارك في شمال المدينة

سقط حي الشيخ جراح وكلية الشرطة، التي احتلتها قوات «الهاغاناه» من دون قتال بعد جلاء البريطانيين، بيد العدو لان القوات التي كانت تحمي هذين المكانين انسحبت نتيجة ضغط مصفحاته. وبعد احتلالهما حاول العدو اقتحام المدينة، فهاجم قسم من قواته قطاع حي بوعالي اغودات يسرائيل، بينما حاولت قوته الرئيسية ـ طابور موزع بالتعاون مع قوات مشاة ـ اختراق المدينة من الطريق الرئيسي، المار وسط بيوت مندلباوم. ودارت معارك طاحنة من ١٩ ايار/مايو حتى الهدنة الاولى في خط الدفاع الذي اقيم بسرعة في قطاع بيوت مندلباوم، وبيت يسرائيل، وشارع النبي صموئيل، وحديقة هنسيونوت، وحي بوعالي اغودات يسرائيل. وهنا اصطدم مقاتلو القدس لأول مرة بمدرعات العدو. وصمد المدافعون غير المدربين، وانسحب العدو بعد ان ادرك ان المعركة على القدس لن تكون نزهة.

وعندما اتضح للعدو ان محاولة الاقتحام من ناحية بيوت مندلباوم فشلت، حاول الاقتحام من ناحية اخرى. فبعد ظهر ٥/٢٣ تقدم طابور مدرع للفيلق في شارع سليمان، من جهة باب الزاهرة، نحو دير نوتردام. ووصلت المصفحة الاولى الى قرب نوافذ الدير، حيث أُلقيت عليها من الاعلى زجاجة مولوتوف من صنع القدس، فأصابت المصفحة وأشعلت النيران فيها، مما تسبب بقطع الطريق واضطرار المصفحات الأخرى الى العودة على اعقابها. وحاولت قوات المشاة التي كانت تسير خلف المصفحات اقتحام الدير لكنها صدت. وفي الايام التالية استمر القصف واطلاق النيران على الدير، لكنه لم يصل الى حد الاقتحام.

* الصفحات 192-198 في الاصل أُغفلت ترجمتها لأن الاحداث المذكورة ضمنها وردت بالتفصيل في مكان آخر أعلاه، انظر ص ٢٩٤ ـ ٣٠٦. (المترجم)

المعارك في جنوب المدينة

في الجنوب نشطت وحدات الفيلق وقوات مصرية غير نظامية ـ «الاخوان المسلمون» الذين جاؤوا الى هذا القطاع من جهة الخليل. وكان الهدف الرئيسي للهجمات على هذا القطاع هضبة رامات راحيل، الواقعة على قمة في الطرف الجنوبي للمرتفعات الممتدة من تالبيوت وأبو طور.

في ٢١/٥ تعرضت رامات راحيل لقصف مدفعي عنيف، فاندلعت النيران في عدد من المباني، وانقطع الاتصال الهاتفي بين القيادة والمواقع. وشُلّت قدرة اشخاص كثيرين عن العمل بفعل الصدمة. وقبيل المساء سكتت نيران المدفعية، لكنها تجددت في صباح اليوم التالي من جهة صور باهر وبيت لحم. وبعد القصف اقتحم العرب الضاحية من ناحية هضبة إلياهو المسيطرة عليها، ومن ناحية دير مار الياس. وانسحب قسم من قواتنا. وفي ساعات العصر سقطت رامات راحيل بيد العدو.

في تلك الليلة عادت سرية من الكتيبة ١/عتسيوني فاستعادت بهجوم مفاجىء النقطة من العرب الذين كانوا مشغولين بالسلب والنهب. وتم في الليلة نفسها استبدال قوة الميدان بقوة حراسة. وفي ساعات ظهر اليوم التالي، عاد العدو فشن هجوما جديدا على رامات 201 راحيل. ولم تنجح نجدة خرجت الى النقطة في الوصول اليها. وفي هذه المرة تغلغل العرب فيها من ناحية الشرق ـ من ناحية صور باهر ـ واحتلوها. ومرة اخرى انطلقت سرية من الكتيبة ١/عتسيوني وقامت بهجوم مضاد فاحتلتها من جديد في الليلة السابقة ليوم ٢٤ ايار/مايو. وسلمت رامات راحيل الى وحدة من الايتسل والى جماعة من الكتيبة ١/عتسيوني للدفاع عنها.

ولم ييأس العرب. ففي ٢٤/٥ بدأ الهجوم الثالث، الذي شاركت فيه هذه المرة قوات اكبر ـ بما في ذلك مصفحات ونصف مجنزرات. وفي هذا اليوم نجح العرب في احتلال 202 الجانب الشرقي من رامات راحيل. وفي ساعات العصر عادت السرية ب التابعة للكتيبة ١/عتسيوني للمرة الثالثة الى رامات راحيل، وحلت محل وحدة الايتسل. كما وصلت الى هناك وحدة من الكتيبة ٥ التابعة للواء «هارئيل» لكنها لم تحتل مواقع لها في تلك الليلة.

ودارت طوال يوم ٢٥/٥ معارك في المكان وحواليه. وقبيل المساء انسحب العدو واحتلت قواتنا الهضبة كلها من جديد. وفي تلك الليلة شنت غارة على دير مار الياس، الذي اخلته قوات الفيلق، ولغم الشارع الواقع بالقرب منه. وبقيت «الهضبة» بيدنا حتى الآن.

وفي تلك الايام بالذات، شنت عدة هجمات على قواتنا في جبل المشارف. فبعد سقوط حي الشيخ جراح ثاني مرة، بقيت هذه القوات معزولة عن المدينة الحديثة. وكان هدف الفيلق انتزاع جبل المشارف ـ الموقع المرتفع الاستراتيجي المهم في شرق القدس ـ من ايدينا، او على الاقل منعنا من استخدامه قاعدة للهجوم، وذلك من اجل ضمان تواصل طرق المواصلات العربية. لكن هذه الهجمات فشلت.

وبذلك انتهت محاولات الفيلق الاولى لاقتحام المدينة من الشمال والجنوب، ونقل هجومه الرئيسي الى البلدة القديمة، قصد الاستيلاء على الحي اليهودي فيها.

سقوط البلدة القديمة اليهودية

في خريف سنة ١٩٤٧، بقي في الحي اليهودي نحو ١٨٠٠ يهودي فقط في مقابل ٢٢,٠٠٠ عربي في القدس الواقعة داخل الاسوار. وكانت نسبة الشيوخ والاطفال بين اليهود مرتفعة، وازدادت هذه النسبة العددية بين اليهود والعرب سوءا في اثناء المعارك بسبب الهروب من الحي اليهودي الى خارج الاسوار، بينما ازداد عدد السكان العرب في البلدة القديمة بسبب العدد الكبير من اللاجئين الذين تدفقوا عليها من المدينة الحديثة.

وكانت كمية السلاح والذخيرة في الحي ايضا ضئيلة. وكان امكان ادخال سلاح اضافي من المدينة الحديثة محدودا جدا. وبمرور الوقت نشأت في الحي اليهودي صناعة محلية لانتاج زجاجات حارقة وقنابل يدوية وألغام بدائية. واشتريت كمية معينة من السلاح من العرب والبريطانيين. واشتمل السلاح الثقيل على مدفعين رشاشين ومدفع هاون واحد عيار ٥٢ ملم.

وفي البداية تعهد البريطانيون بالمحافظة على النظام في البلدة القديمة. وبناء على ذلك منعوا ارسال نجدة من الاشخاص والاسلحة الى الحي اليهودي. وكانت المؤونة تنقل اليه بقوافل، تحت حماية البريطانيين، لكن كانت تعترضها صعوبات كثيرة وكمياتها كانت غير كافية.

وفي الاسابيع الاولى للحرب تمثلت النشاطات العربية ضد الحي اليهودي، في الاساس، بهجمات محلية ونسف بيوت وقنص، وما شابه ذلك. ولم يجر هجوم على مستوى كبير ضد الحي، لكن بفعل هذه النشاطات اخذت تتقلص المساحة التي كنا نسيطر عليها والتي كانت في الاساس صغيرة. وتدهورت معنويات سكانه.

ونجح قائد جديد دخل الحي بصفته احد العاملين في اطار الخدمات الطبية، في اعادة تنظيم السكان والطاقة المجندة في المكان. لكن بسبب وشاية ابعد البريطانيون القائد فتوقفت عملية التنظيم هذه.

وترك شهر آذار/مارس، شهر الازمة بالنسبة الى قواتنا في باقي انحاء البلد، بصماته ايضا على الحي اليهودي المحاصر.

203

وفي مطلع شهر ايار/مايو، نعم الحي بهدنة عندما تقرر تجريد البلدة القديمة من السلاح. ففي اعقاب المفاوضات التي دارت في ليك سكسيس شكلت، بقرار من مجلس الامن، لجنة قنصلية في القدس كان من مهماتها الاشراف على تنفيذ هذا القرار. ان وقف القتال هذا، الذي انجز في وقت متزامن مع الجلاء البريطاني، تسبب الى حد ما بخنق روح المبادرة لدى المدافعين. ففي الوقت الذي وضعت فيه، في جميع انحاء البلد، خطط لاحتلال

مناطق فور الجلاء البريطاني، وضع المدافعون عن الحي ايضا خطة للاستيلاء على المواقع التي سيجلو البريطانيون عنها. وفعلا احتلت مواقع كثيرة منها، لكن بسبب الاتفاق المحلي على وقف اطلاق النار، مورس ضغط على المدافعين، فأخليت هذه المواقع. وعندما تم ذلك خرق العرب على الفور اتفاق وقف اطلاق النار. ففُتحت النار على الحي وحاول العرب اقتحامه من ناحيتي الشرق والشمال.

وفي ذلك اليوم، نجح العرب في انزال ضربة بالمدافعين عن باب النبي داوود [بوابة صهيون]، فتم التخلي عنه. وبعد ايام قليلة، دارت معارك عنيفة للسيطرة عليه، وازداد الضغط العربي على الحي. وتقدم المهاجمون من بيت الى بيت، وضاقت الحدود، وضغطوا على السكان. أُرسلت نداءات استغاثة مريرة من الحي: «أرسلوا نجدة على الفور، لا نستطيع الصمود اكثر». وكان الجواب الذي اعطي لهم: الصمود بأي ثمن.

وقبيل مساء ٥/١٦، اعلن المدافعون انهم لا يستطيعون الصمود اكثر من ربع ساعة. وفي اليوم التالي، ٥/١٧، استمرت هجمات العرب من ناحية ونداءات الاستغاثة اليائسة من الحي اليهودي من ناحية اخرى. وأعلن المدافعون ان المساحة الواقعة تحت سيطرتهم تقلصت الى ١٠٠م². واقترب العرب من مبنى «مسغاف ليدخ»، الذي كان يستخدم مستشفى ومقرا للقيادة في آن واحد. وتأخرت المساعدة من الخارج، التي وُعد بارسالها في اليوم السابق خلال ساعة ونصف الساعة، مدة ٣٦ ساعة. وطلب الحاخامون في الحي اليهودي الاتفاق مع «الصليب الاحمر» لترتيب وقف لاطلاق النار.

وازاء هذا الوضع، وفي ضوء نداءات الاستغاثة اليائسة، تمت في قيادة لواء القدس استعدادات لتأمين اتصال جغرافي بالحي قصد التمسك به او اجلاء سكانه. وعادت وحدات من لواء «هارئيل»، كانت قد ارسلت في مطلع ايار/مايو من المدينة الى ممر القدس، للمشاركة في هذه العملية. وفي الوقت نفسه حشدت مجموعة احتياط من قوة الميدان التابعة للواء «عتسيوني» في اللواء من اجل تنفيذ عملية الاقتحام. ولعدم وجود قائد واحد للقوتين، لم يتم التنسيق بينهما للقيام بهجوم واحد، وجرت محاولتان منفصلتان للاقتحام: عملت قوات «هارئيل» من يمين موشيه في اتجاه جبل صهيون، بهدف اقتحام البلدة القديمة عن طريق باب النبي داوود [بوابة صهيون]؛ وتجمعت قوات «عتسيوني» في الوسط التجاري الذي عاد الى ايدينا، واستعدت لاقتحام السور في باب الخليل.

وكان من المقرر أن ينفذ هجوم «عتسيوني» في الليلة السابقة ليوم ١٧ ايار/ مايو. لكن بسبب خطأ إداري تأخر موعد الانطلاق. ولم تصل القوة، المشكلة من اربع فصائل، بمصفحاتها الى الوسط التجاري إلا مع الفجر. وبصعوبة شديدة خرجت القوة من داخل السيارات المصفحة. وبقيت المصفحات واقفة طوال النهار قبالة السور، وشكلت انذارا للعرب بصدد نوايانا بالهجوم.

وعندما انطلقت هذه القوات ثانية، في ليل ٥/١٨، للقيام بهجوم جبهوي على باب

الخليل، كان العرب مستعدين للقائها. وقبل ان تنجح في الوصول الى السور كان جميع خبراء التفجير قد قُتلوا او جرحوا، والمصفحات قد تشتتت. وأصيب قائد فصيلة الاقتحام بجروح خطرة، وطلب ان ينجو بحياته كل من يستطيع ذلك. واستمر انقاذ الجرحى من المنطقة الكائنة بين بيت طنوس وباب الخليل طوال تلك الليلة. 204

وعن غير قصد، شكل هذا الهجوم عملية إلهاء بالنسبة الى وحدة الكتيبة ٤/هارئيل («المقتحمون»)، التي انطلقت في الليلة نفسها من يمين موشيه لاحتلال جبل صهيون. فقد نجحت الوحدة التي قدمت من ناحية أبو طور، عن طريق الجرف الاشد انحدارا في جبل صهيون ـ جنوبي الجبل ـ في الوصول من الخلف ومفاجأة القوات شبه النظامية التي كانت تحافظ على الجبل، والتي كان معظم مواقعها يواجه الغرب ـ جهة يمين موشيه ـ قبل ان تلحظ هذه القوات ما كان يجري. واحتل جبل صهيون من دون خسائر تقريبا.

وفي اليوم التالي نظمت القوات صفوفها، وتحركت في الليل لشن هجومها الثاني. وعادت قوات «عتسيوني» فحاولت اقتحام باب الخليل. وقد انطلق رجال الكتيبة ٤ من جبل صهيون لاقتحام البلدة القديمة، وفعلا اقتحموها؛ فقد نجحوا في التغلب على المدافعين عن الباب، وفتح ممر ضيق عبره الى المواقع المتطرفة في الحي اليهودي. وكانت الفرحة في الحي اليهودي عارمة. وأعلن قائد العملية بافتخار: «نفذنا العملية الكبرى ووصلنا الى اليهود في البلدة القديمة... كان فرح اليهود بلا حدود. لقد تم انقاذ ١٧٠٠ نسمة. خسائرنا: قتيل واحد، و ١١ جريحا».

وفي تلك الليلة ارسلت تعزيزات الى المدافعين عن البلدة القديمة ـ من أفراد قوة الحراسة وقوة الميدان في القدس. وأُدخلت اليها مؤونة وذخيرة، وبضع عشرات من البنادق والستنات، التي كانت أسلحة أفراد التعزيزات.

وقبل طلوع النهار، بدأت هجمات عربية مضادة من ناحية باب الخليل. وكان المدافعون لا يزالون مشغولين بتنظيم صفوفهم، ولم يتح الوقت لهم بعد لاتخاذ مواقع جديدة. (اتضح لنا ان المواقع التي شغلت في اثناء الليل لم تكن مريحة للاستخدام خلال النهار). ولم تحضر تعزيزات للحلول محل المهاجمين، الذين كانوا مرهقين من عمليات الاسابيع الاخيرة. واضطر رجال «هارئيل» الى ترك البلدة القديمة، والعودة الى جبل صهيون. وبالتالي ترك باب النبي داوود فاحتله العرب من جديد. وانقطع الاتصال بالبلدة القديمة مرة اخرى.

وفي ذلك اليوم، وصلت طلائع قوات الفيلق الى البلدة القديمة، وحلت محل المقاتلين المحليين والجنود شبه النظاميين. وتزايد الضغط العربي على الحي اليهودي يوما بعد يوم، ودارت معارك من بيت الى بيت ومن غرفة الى غرفة في اماكن عديدة، من بينها كنيس «نيسان بك». وفي الليالي التالية، قمنا بمحاولات اخرى لشق طريق الى الحي اليهودي، لكنها باءت بالفشل. واتبع الفيلق الآن تكتيكا جديدا: سمح لمقتحمين بالتسلل عبر باب النبي داوود

الى المدخل المكشوف المجاور له، وعندما وصلوا الى هناك فتح عليهم نيرانا متصالبة من مدافع المصفحات والرشاشات المتوسطة، وألحق بهم اصابات.

وفي هذه الاثناء، لم يتوقف الضغط على الحي نفسه. وسقط قسم كبير من القطاع الشمالي فيه بيد العدو، واشتعلت النيران في جزء من الملاجىء. وتحول «مسغاف ليدخ» الى موقع جبهة، وأصبح من الضروري نقل جميع الجرحى الموجودين فيه الى مكان آخر.

ووضعت خطة لاقتحام على مستوى كبير في الليلة السابقة ليوم ٢٩ ايار/مايو. وهذه المرة، من ناحية جبل صهيون ومن ناحية الباب الجديد، الكائن في شمال البلدة القديمة؛ لكن قبيل صباح ٥/٢٨ ذهب وفد من الحاخامين الى الفيلق لمعرفة شروط الاستسلام. وعاد فأخبر ان الفيلق يطالب باستسلام فوري ومن دون شروط. وقررت قيادة الحي ـ بمن في ذلك ممثلو الايتسل وممثلو السكان ـ الاستسلام. واتفق في مفاوضات اخرى مع الفيلق على ما يلي: أ) يذهب المقاتلون الى الاسر؛ ب) ينقل المصابون بجروح خطرة والمدنيون غير المحاربين الى الخطوط اليهودية؛ ج) تسلم الاسلحة للفيلق؛ د) الفيلق مسؤول عن سلامة جميع يهود الحي الى حين نقلهم الى الخطوط اليهودية. وفي الساعة ١٤,٠٠ توقفت المقاومة. ونفذ الفيلق الشروط، لكنه عمليا خرق الشرط الثاني بأخذه الشيوخ والاطفال اسرى. 205

ومن المشكوك فيه ان تكون كلمة «استسلام» ملائمة لوصف الواقع الذي ساد في الحي. لقد احتل بعد ان اضيب معظم القادة وقسم كبير من المقاتلين. وقد قال احد ضباط الفيلق، بعد ان شاهد عدد المقاتلين وكمية الاسلحة: «لو عرفنا ان هذا هو الخصم الذين نقاتله، لكنا هاجمناكم بالعصي. لقد ابتززتم منا عمليا شروط استسلام بعد ان تم احتلال الحي».

ومن مواقعهم على جبل صهيون، على بعد ٤٠٠ متر من الحي فقط، شاهد رجالنا عمليات الاستسلام والنهب والتدمير، ولم يكن في وسعهم مد يد المعونة.

وهكذا انتهت قصة البلدة القديمة.

وكان احتلال الحي اليهودي في البلدة القديمة ـ النجاح الاول للفيلق في مدينة القدس ـ هو ايضا انجازه الاخير. وفي اثناء ذلك، عادت نقطة الثقل فانتقلت الى المنطقة التي كانت منذ البداية مفتاح مصير القدس، وهي الممر المؤدي اليها من الشفيلا. وفي القدس نفسها اكتفى العدو وبصورة عامة ـ بعد سقوط البلدة القديمة ـ بقصف بالمدافع ومدافع الهاون. واقتصر الجانبان في المبادرات التي قاما بها على عمليات محلية.

في ٥/٣١، دخلت وحدة معادية المدرسة السويدية في المصرارة.

في ٦/٢ و٦/٤، تقدمت قواتنا في اتجاه الشيخ جراح لاحتلاله، لكنها اضطرت الى الانسحاب بفعل نيران العدو الكثيفة.

في ٦/٥، صد هجوم للعدو على مواقع «عتسيوني» في دير ابو طور.

وفي اليوم نفسه، اتخذ أفراد «عتسيوني» مواقع لهم في المصرف العربي في شارع ماميلا وفي الوسط التجاري.

في ٦/٨، رغبت قواتنا في جعل خط الدفاع في قطاع المصرارة مستقيما، فاستردت المدرسة السويدية.

واستمر ايضا في الايام الاولى من شهر حزيران/يونيو حتى الهدنة ـ التي بدأ سريان مفعولها في الساعة ١٠,٠٠ من يوم ٦/١١ ـ القصف العنيف لأنحاء المدينة كافة.

ج ـ المعركة على الممر: معارك اللطرون

في ١٦ و١٧ ايار/مايو، في اطار عملية «مكابي» المرحلة ب، احتللنا قريتي اللطرون ودير ايوب، ونجحنا في ارسال قافلتين الى القدس. وكانت هاتان هما القافلتان الاخيرتان قبل تجدد الحصار على القدس، وباحكام اكثر. ويتضح لنا الآن ان نجاحنا في احتلال اللطرون ودير ايوب، قد تعزز بحقيقة انه في ذلك الوقت تركت قوات القاوقجي المكان الذي كانت حمايته من ضمن مهماتها، ولم تصل قوات الفيلق التي كان من المفروض ان تحل محلها الى المنطقة. ومن دون ان تعرف ذلك استغلينا هذه الفجوة الموقتة فاحتللنا القريتين. لكن عندما استدعيت قوات «غفعاتي» الى ايقاف الغزو المصري في الجنوب، اخليت قرية اللطرون واحتلتها قوات الفيلق. وبذلك قطعت الطريق الى القدس مرة اخرى. وبقي المكان بيدها حتى الآن، وفشلت كل محاولاتنا الكثيرة لاحتلاله. 206

ان قطع الطريق الى القدس ـ في تلك الفترة ـ كان حافلا بالكوارث. فقد كانت القدس، التي تتعرض لهجمات العدو العنيفة وللقصف المتواصل، بحاجة الى مساعدة فورية بالذخيرة والعتاد والمؤونة. ولذا تقرر فتح الطريق الى القدس مهما يكن الثمن. وقد كان الهدف من سلسلة الهجمات على اللطرون فتح الطريق الى القدس، او على الاقل تخفيف الضغط المباشر عليها عن طريق ابقاء قوات الفيلق بعيدة عنها.

الهجوم الاول على اللطرون (عملية «بن نون» ـ المرحلة أ)

عندما اتضحت ضرورة القيام بعملية هجومية لفتح الطريق الى القدس وارسال نجدات اليها، تقرر ان يستخدم لهذا الغرض اللواء الذي انشىء حديثا ـ عشية ١٥ ايار/مايو ـ وهو اللواء «شيفع» [اللواء السابع].

في المرحلة الاولى من خطة العملية، كان على اللواء ان يسيطر على الطريق في منطقة اللطرون ـ باب الواد للصعود الى كريات عنافيم وارسال قافلة تموين اليها.

وقد ضُمّت الى اللواء، للقيام بالهجوم على اللطرون، الكتيبة ٢ التابعة للواء «ألكسندروني». وكان على هذه الكتيبة القيام بالجهد الرئيسي في المرحلة الاولى، والمحافظة على الخط المقرر احتلاله. وفي اثرها يتحرك اللواء الجديد بأكمله فيصعد الى كريات عنافيم. وتقرر ان تشارك احدى كتائب هذا اللواء ــ كتيبة المشاة ٢ ــ في المرحلة الاولى من الهجوم على اللطرون، لكن للمساندة فقط. وكانت مهمتها تأمين ميمنة القوات المهاجمة، في منطقة بيت جيز ــ بيت سوسين، وبعد ذلك الصعود الى دير ايوب ومرتفعاتها. وبعد انتهاء العملية، كان عليها ان تسلك الطريق الرئيسي الى كريات عنافيم وتلتحق بلوائها.

وتأخرت ساعة «الصفر» المحددة لبدء الهجوم. ووصلت الكتيبة ٢ التابعة للواء «ألكسندروني»، التي كان من المقرر ان تسيطر على منطقة اللطرون باحتلال قرية اللطرون والتلة ٣١٥، الى مواقع التأهب للهجوم مع الفجر. وكان العدو قد اكتشفها قبل ذلك، وفتح عليها نيرانا كثيفة من المدافع الرشاشة المتوسطة والمدافع. وفي الوقت نفسه، اصطدمت دورية من دوريات الفيلق، كانت عائدة من جولة استطلاعية في هارطوف، بجنود الكتيبة ٢/شيفع في بيت سوسين، الذين كانت مهمتهم حماية منطقة العملية. ونشبت معركة وبدأ جنودنا الانسحاب. وغطت سرية من الكتيبة ٢/ألكسندروني، كانت تحمي التلة ٣١٤، الانسحاب. وانكشف القسم الايمن لمنطقة الهجوم. وبعد ان منيت الكتيبة ٢/ألكسندروني بخسائر فادحة بدأت هي أيضا الانسحاب، بتغطية من السرية نفسها التابعة لها التي كانت لا تزال متمركزة في التلة ٣١٤.

وبعد مجهود كبير تمكنت كتيبتا اللواء الجديد الاخريان ــ كتيبة المشاة ٣ والكتيبة المدرعة ٩ ــ من انقاذ الكتيبتين المهاجمتين واخلاء الجرحى والقتلى. وبقيت اللطرون بيد العدو وبقي الطريق مغلقا.

ويبدو ان نجاح الفيلق في اللطرون امده بالشجاعة، فشن في اليوم التالي، ٥/٢٦، هجوما في القطاع الشرقي للممر وانتزع «الرادار» من يد جنود «عتسيوني»، لكنه لم يواصل التقدم. وصبت مدافعه من حين الى آخر نيرانها على طريق القدس ــ باب الواد، لكن الحركة في هذا الجزء المعرض للقصف لم تتوقف. 207

وأصبح من الضروري معاودة الهجوم على اللطرون. وكان قائد «هارئيل» قد ابرق في ٥/٢٤ الى الشفيلا بما يلي: «أ) الوضع في المدينة (القدس) خطر جدا، بحسب رأيي؛ ب) ينبغي ان يقتحم لواء «شيفع» فورا». وفي ٥/٢٦، بعد سقوط «الرادار»، تكرر الطلب باحتلال اللطرون في الليلة نفسها، لتخفيف الضغط على قطاع معاليه هحميشاه.

وبالاضافة الى ذلك، ازداد الوضع التمويني خطورة في مدينة القدس. وانخفضت حصة الطعام للمواطنين والمقاتلين سواء بسواء الى رغيفين من الخبز في اليوم، وبعض الحساء وقليل من المعلبات. ووزعت المياه بكميات قليلة بواسطة صهاريج جهزت بصورة موقتة لهذا الغرض وجابت الشوارع تحت القصف. ولذا تقرر القيام بمحاولة اخرى لاحتلال اللطرون.

الهجوم الثاني على اللطرون (عملية «بن نون» ـ المرحلة ب)

قبل انطلاق قواتنا لمهاجمة اللطرون ثاني مرة، ادخل تعديل على بنية القيادة في هذا القطاع. فقد عين، في ٥/٢٨، قائد واحد للقوات العاملة في القدس والممر هو المرحوم الكولونيل ماركوس (ميكي ستون)، الذي كان ضابطا يهوديا اميركيا، خدم في حينه برتبة كولونيل في قيادة الجنرال ايزنهاور في اوروبا، وحضر الينا كمتطوع في بداية الحرب. وبعد فترة استطلاع وتدريب ومشاورات في الالوية المختلفة عين، كما ذكرنا اعلاه، في المنصب القيادي الاول له ـ قائدا اعلى لجبهة القدس التي كانت تضم ألوية «عتسيوني» و«هارئيل» و«شيفع». 208

وبعد يومين من ذلك، في ٥/٣٠، انطلقت قوات جيش الدفاع الاسرائيلي مرة اخرى لمهاجمة اللطرون. وقد اعيدت الكتيبة ٢/ألكسندروني، التي تكبدت اصابات فادحة في الهجوم الاول، الى لوائها. وضمت بدلا منها الكتيبة ٢ التابعة للواء «غفعاتي»، الى اللواء الجديد.

وكانت خطة الهجوم الثاني مشابهة، في خطوطها العريضة، لخطة الهجوم الاول. افرزت قوة ـ الكتيبة المدرعة وسرية مشاة من لواء «شيفع» ـ لمهاجمة منطقة اللطرون واحتلالها، بينما امرت قوة ثانية ـ كتيبة غفعاتي ـ وسرية من لواء «شيفع» بالسيطرة على دير ايوب ومرتفعاتها والوصول الى يالو، الواقعة خلف اللطرون. وهكذا، كان الجهد الرئيسي هذه المرة ملقى على عاتق لواء «شيفع». وتقرر ان تستخدم، في الاساس، الكتيبة المدرعة ٩/شيفع. وكانت مهمتها احتلال مركز الشرطة وقرية اللطرون، وفي الوقت نفسه عزل منطقة الدير. وكان من المقرر ان تحل سرية مشاة محل قوة الاحتلال المدرعة بعد احتلال مركز الشرطة مباشرة. كما تقرر مساندة الهجوم بالمدافع ومدافع الهاون الثقيلة.

وفي الايام التي مضت بين الهجوم الاول والثاني، سيطرت وحدات لواء «شيفع» على قطاع بيت جيز ـ بيت سوسين. وأصبحت المؤخرة مع الجناحين محمية. وبالتالي، اصبح في وسع القوة الشرقية ـ قوة المشاة المشكلة من الكتيبة ٢ التابعة للواء «غفعاتي» وسرية من لواء «شيفع» ـ ان تتحرك مباشرة حتى باب الواد وبدء هجومها من هناك. وكانت مهمتها اجتياز طريق دير ايوب والوصول الى يالو. 209

ودخلت هذه القوة دير ايوب من دون مقاومة، لكن عندما صعدت الى المرتفع الواقع شمالي شرقي القرية ـ المرتفع المشرف على يالو ـ جوبه أفراد وحداتها الامامية الذين كانوا غير مدربين بنيران العدو. ومن غير ان تحاول القوة احتلال المرتفع انسحبت كلها في اتجاه باب الواد.

وانطلقت القوة المدرعة، وهي جاهلة كل شيء عن القوات في الشرق، انطلقت لتنفيذ عمليتها في الغرب. وتحركت على ثلاثة رؤوس: الاول في اتجاه مركز الشرطة؛ الثاني في اتجاه الدير؛ الثالث في اتجاه قرية اللطرون.

في الهجوم على القرية اقترب تشكيل قتالي مدرع من الكتيبة ٩/شيفع الى مدى الانقضاض على القرية. لكن قوات المشاة، التي كان يفترض بها ان تهاجم، لم تأت في اثر المصفحات. وفي الهجوم على مركز الشرطة نجحت القوات المدرعة في اقتحام باحة المركز، لكن هناك اصيبت وحدة خبراء التدمير التابعة لها بقذائف العدو، التي اطلقت من جهة عمواس، فاستحال دخول المبنى. وعادت فلول القوات المهاجمة الى قاعدتها بعد ان غطت القوة الوسطى ــ التي تحركت في اتجاه الدير ــ انسحاب القوتين في الجناحين.

وصف ضابط من الفيلق كان موجودا في تلك الاثناء في اللطرون الهجوم على مركز الشرطة: «في الساعة ٠٣,٢٠ وصل الى مسامعنا هدير محركات غريب، واعتقدنا انه صادر عن مصفحاتنا القادمة لايصال تعزيزات الينا. ودلّنا الضجيج على ان المصفحات وصلت الى حرج الدير. لكن كيف يمكن ألا يخطرنا قائد القوة بمجيئه؟ لا بد ان هناك شيئا ما في الامر. وفعلا، اكتشف قائد السرية المساندة، الذي تابع اقتراب المصفحات، ان هذه كانت مصفحات العدو تتحرك على جنازير. وعلى الفور اصدر امره بقصفها بمدافع الـ ٢٥ رطلا، التي كانت منصوبة بالقرب من المكان، في ابن جبل». ويتضح من سياق الوصف ان المصفحات نجحت، الى حد كبير، في تنفيذ مهمتها، وانه لو كانت قوات المشاة اتت في اثرها لكنا ــ ربما ــ تغلبنا على القوات الموجودة في اللطرون. ان عدم لحاق قوات المشاة بالمصفحات ادى الى الانسحاب وفشل هذه المحاولة ايضا لاحتلال اللطرون.

وابتهج الفيلق مرة اخرى. وتلقى مرة اخرى برقيات تهنئة من الملك عبد الله ومن رئيس الاركان الاردني. وبقي الطريق الى القدس مغلقا.

ومثلما هاجم الفيلق بعد الهجوم الاول «الرادار» في الشرق لتخفيف الضغط عن الغرب، عاد الآن فهاجم معاليه هحميشاه ــ في ٣٠ و ٣١ حزيران/يونيو ــ لكن معاليه هحميشاه صدت الهجوم.

«طريق بورما»

انصرفت جهودنا الآن في اتجاه آخر هو ايجاد طريق آخر الى القدس. وهكذا ولد «طريق بورما»*.

210 بعد ان احتلت وحدات اللواء «شيفع»، في اثناء هجماتها على اللطرون، قريتي بيت جيز وبيت سوسين وتمركزت فيهما، اصبح بيدها رقعة من الارض متواصلة جغرافيا من خولده حتى مسافة قريبة من طريق هارطوف ــ باب الواد. وكانت تتفرع من هذا الطريق طريق ترابية تصعد الى بيت محسير ومن هناك الى ساريس الواقعة على طريق القدس. وكانت

---

* على اسم الطريق الشهير من بورما الى الصين، الذي شق في الحرب العالمية الثانية عبر مناطق جبلية وعرة المسالك لتزويد الصينيين بالعتاد والسلاح في الحرب ضد اليابانيين.

هذه الرقعة، البالغ اتساعها ٥ او ٦ كلم، تفتقر الى طريق للمواصلات، وبالتالي شكلت فاصلا بين المنطقتين اللتين تحتلهما قواتنا. وكان لابد لنا من ايجاد طريق يصل بين هاتين المنطقتين، وتم ايجاده.

ويبدو ان اول من عبر هذه المنطقة الخالية ودشن بذلك معالم «طريق بورما»، كان ثلاثة من رجال «هارئيل» اخذوا اجازة «على مسؤوليتهم»، وانحدروا الى الشفيلا. وبعد فترة قصيرة من ذلك، في ٦/١، سلكت سرية ارسلت لتعزيز [لواء] «هارئيل» السبيل نفسه سيرا على الاقدام ووصلت من دون متاعب الى قاعدتها. وبعد رحلة السرية اجتازت الدرب سيارة جيب نقلت أفراد دورية استطلاع، خرجت لاستكشاف مدى صلاحية الدرب لسير الآليات. واكتشفت ان القطاع الوحيد المفتقر الى سبيل للعبور موجود في المنحدر الشديد الميلان من بيت سوسين الى داخل الوادي. وكان الفارق بين مستويات الارتفاع هناك ١٢٥ مترا تقريبا، والمنحدر صخريا ووعرا. لكن سيارة الجيب اجتازت ايضا هذا القطاع. في جزء من الدرب حملت هي أفراد الدورية، وفي أجزاء اخرى حملوها هم. وفي اعقاب سيارة الجيب بدأت القوافل بالصعود من الشفيلا. وفي البداية احضرت الحمولة الاثمن ــ وهي السلاح والذخيرة والطحين ــ في سيارات حتى بيت سوسين، ومن هناك نقلت بواسطة الحمالين او البغال الى سيارات جاءت من القدس الى نقطة غربي شارع هارطوف. وفي الوقت نفسه بدأ عمل محموم لتعبيد الطريق في ذلك الجزء من المنطقة. وأتى مئات من العمال، من القدس والشفيلا، لجعله صالحا لحركة مرور الآليات.

وقد جرت كل هذه الاعمال تحت جنح الظلام، وفي منطقة مخفية عن انظار العدو. ومن اجل حماية القوافل والعمال احتلت مواقع مرتفعة على جانبي الطريق: المواقع الشمالية لحمايتها من قوات الفيلق الموجودة في اللطرون ودير ايوب، وحتى المواقع الجنوبية لحمايتها من القوات العربية غير النظامية الموجودة في القرى المجاورة لهارطوف. وأصبحت سلسلة المواقع هذه بمثابة ممر بين الشفيلا والجبل، وفصلت بين الجيش المصري الذي وصل الى هارطوف وناحال سوريك، وبين الفيلق الموجود في اللطرون. 211

وهكذا نشأ «طريق بورما». لكن كان من الواضح ان تعبيده سيستغرق وقتا، وبالتالي ظلت هناك اهمية كبيرة للطريق الرئيسي. وعلاوة على ذلك، كان من الضروري ابقاء قوات الفيلق في مواقعها في قطاع اللطرون، كي لا تعرقل العمل في شق «طريق بورما» وكي لا تنقل قوات للقيام بعمليات هجومية في قطاع معاليه هحميشاه او في مدينة القدس نفسها. ولذا تقرر القيام بمحاولة ثالثة لاحتلال اللطرون.

الهجوم الثالث على اللطرون (عملية «يورام»)

كانت الخطة الاصلية تقضي بمهاجمة قاعدة الفيلق في البلد ــ رام الله ــ بحركة فكي كماشة، لكنها أُلغيت بسبب اخراج كتيبة لواء «غفعاتي» من القطاع واعادتها الى لوائها.

وتقرر الاكتفاء بهجوم على اللطرون من ناحية غير متوقعة ـ من الجنوب الشرقي عن طريق احتلال المرتفعين الاستراتيجيين الحيويين في هذا القطاع: المرتفع ١٣، والمرتفع ١٤.

وكانت القوات التي كلفت العمل بموجب الخطة هي الكتيبة ٥ التابعة للواء «هارئيل» والكتيبة ٣ التابعة للواء «يفتاح». وكان على الكتيبة ١ التابعة للواء «يفتاح» ان تنشط غربي اللطرون للتمويه. وبسبب صعوبات ادارية متعلقة بنقل الكتيبة ٣ التابعة للواء «يفتاح» الى القطاع، تأجلت العملية من ليل ٧ ـ ٨ حزيران/يونيو الى ليل ٨ ـ ٩ حزيران/يونيو.

وأغارت الكتيبة ١ التابعة للواء «يفتاح» للتمويه على قرية عمواس ونسفت جسورا على طريق رام الله ـ اللطرون، بعد ان كانت قد احتلت في الليلة السابقة القباب، وأغارت على قرى عنابه وسلبيت وبيت نوبا. وهوجمت الرملة ايضا من اجل التمويه. وهاجم سلاح الطيران والمدفعية أهدافا متنوعة في ذلك القطاع.

وكُلِّفت القيام بالمهمة الرئيسية قوتان: القوة الاولى، الكتيبة ٥/هارئيل، وكان عليها ان تحتل المرتفع ١٣؛ والقوة الثانية، الكتيبة ٣/يفتاح، وكان عليها ان تنتقل الى المرتفع المحتل وتهاجم منه المرتفع ١٤، على ان يتم استغلال النجاح في احتلال الهدفين لتقدم القوة نحو اللطرون. وبسبب خطأ في التعرف على الدرب المؤدي الى الموقع ١٣، هاجمت القوة الاولى الموقع ١٤. ونجحت القوة في احتلال نصف الهدف، لكنها اضطرت الى مواجهة ثلاث هجمات مضادة عنيفة قام بها العدو بمساندة نيران مدفعية مركزة على المرتفع. ولم تكن قيادة العملية على علم بالخطأ في التعرف على الهدف، وأصدرت الامر الى القوة الثانية بالتحرك بسرعة نحو الموقع ١٣. وتحركت القوة بتشكيل مغلق، من دون ان تكتشف. وبالقرب من الموقع ١٣ انكشفت، وفوجئت بالنيران الموجهة من داخل هدف يفترض فيه، بحسب المعلومات، انه بيدنا. وبعد ان بدأ العدو ايضا بقصفها أُعطي الامر بالانسحاب. وقبل طلوع الفجر بساعة، تقرر ايضا السماح بانسحاب القوة الاولى التي لم يكن في الامكان استبدالها او تعزيزها، خشية ان تفشل في الصمود خلال النهار داخل خطوط العدو. ومن اجل حماية الانسحاب والتمكن من انقاذ الجرحى، احتل في البداية الهدف بأكمله ثم انسحبت القوة.

وهكذا فشلت المحاولة الثالثة لاحتلال اللطرون.

سقوط غيزر وتحريرها

212

في اليوم التالي، ١٠/٦، نجح الفيلق بهجوم مفاجىء ـ بعد معركة دامت عدة ساعات من دون ان تصل اية نجدة ـ في احتلال غيزر الواقعة جنوبي غربي القباب. وظلت غيزر عدة ساعات بيد الفيلق الذي نهبها وسلبها. لكن في المساء وصلت قوات الكتيبة ٣ التابعة للواء «يفتاح»، فاستردت غيزر منه وواصلت تقدمها وسيطرت على البرْيه القريبة منها.

بداية الهدنة الاولى

في ذلك اليوم، أُعلنت هدنة يسري مفعولها اعتبارا من الساعة ١٠,٠٠ من اليوم التالي. وكان يُـخشى ألا يلتزم العرب بها، لكنهم التزموا هذه المرة بالهدنة، وسرى مفعولها في ٦/١١ اعتبارا من الساعة ١٠,٠٠.

موت الكولونيل ماركوس

قبل ساعات معدودة من سريان مفعول الهدنة قتل في حادث مؤسف الكولونيل «ميكي» ستون. وقد وقع الحادث في الساعة ٠٣,٥٠ من صباح يوم ٦/١١؛ خرج ستون ملتفا بعباءة الى خارج معسكر دير ابو غوش. ولدى عودته اكتشفه الحارس وسأله فورا: «من هناك؟» فأجابه باللغة الانكليزية، وقفز من فوق سور حجري قريب. وبحسب قول الحارس انه اطلق عيارا ناريا في الهواء، وعندما لم يتـوقف اطلق في اتجاهه ثانية فأصابه في صدره، مما تسبب بموته فورا.

وكان ستون الضحية الاخيرة قبل الهدنة الاولى على هذه الجبهة المخضبة بالدماء.

وبذلك نكون قد انهينا عرضنا للأحداث على الجبهة الوسطى.

مِنَ الغَـزو إلىَ الهُـدْنَة 213

(ج)

المواجهة في النقب والجنوب

أ ــ عشية الغزو

قوتنا في الجنوب والنقب في مواجهة الغازي المصري

كانت القوة اليهودية التي واجهت المصريين مشكلة من لواءين: الاول كان معسكرا في الجنوب* ــ وهو لواء «غفعاتي» التابع لقوة الميدان، والثاني كان معسكرا في النقب ــ وهو لواء «النقب» التابع لـ «البلماح». وكان الحد الفاصل بين اللواءين طريق المجدل ــ بيت جبرين (بيت غوفرين).

وكانت القوة اليهودية في النقب، التي اصطدم بها المصريون اول مرة، صغيرة جدا. فباستثناء خمس مستعمرات (نيرعام، وغيفر عام، ودوروت، وروحاما، وياد مردخاي) لم تكن اية مستعمرة من بين المستعمرات السبع والعشرين الموزعة في انحاء النقب وقت الغزو تشتمل على اكثر من ثلاثين مدافعا. حتى ان هؤلاء المدافعين لم يكونوا مزودين إلا بأسلحة قليلة: عدد من البنادق والرشيشات ومدفع رشاش خفيف، وعدد قليل من القنابل اليدوية.

وبالاضافة الى سكان المستعمرات هؤلاء لم يكن موجودا في النقب، في ٥/١٥، سوى كتيبتي لواء «النقب»، البالغ تعدادهما ٨٠٠ شخص والمزودتين بأسلحة خفيفة، وعدد من المدافع الرشاشة المتوسطة ومدافع الهاون. وكان السلاح الثقيل للواء «النقب» عبارة عن مدفعين عيار ٢٠ ملم، من الشحنة التي وصلت في نهاية نيسان/ابريل، ومدفعي «دافيدكا» مع ١٠ قذائف.

وكان الجزء الاكبر من جنود الكتيبتين مقيدا بالدفاع عن المستعمرات وحماية خطوط التموين اليها، وبحراسة انبوب المياه وحماية ارجاء النقب بأسره.

وكانت الكتيبة ٢ مسؤولة عن المنطقة الواقعة شمالي طريق غزة ــ بئر السبع والمستعمرات الموجودة فيها، بينما كانت الكتيبة ٨ مسؤولة عن المنطقة الواقعة جنوبي الطريق نفسه.

---

* أُطلق على الجزء من الشفيلا الممتد بين الممر الى القدس وبين النقب: «الجنوب».

ولم يقم اللواء بعمليات مبادأة ذات حجم كبير إلا قبيل ١٥ ايار/ مايو ـ عملية «براك» (بالاشتراك مع لواء «غفعاتي») التي احتلت فيها برير وحليقات وكوكبا. لكن هذا الهجوم لم يسر قدما، لانه طلب من لواء «غفعاتي» ان يرسل بسرعة جزءا كبيرا من قواته الى ممر القدس، وتحول اهتمام لواء «النقب» الى الجنوب، لمجابهة القوات المصرية الغازية.

216 وبعد ايام من الغزو عززت قوة لواء «النقب» بسريتي سيارات جيب ارسيتا الاساس لانشاء الكتيبة الضاربة ٩. وبعد فترة ارسلت الى النقب كتيبة مجندين جدد، دعيت باسم كتيبة «بئير شيفع» [بئر السبع]، وكان رقمها ٧.

كانت هذه هي قوة لواء «النقب». أما لواء «غفعاتي»، في المقابل، فكان اغنى منه بالطاقة البشرية وبلغ عدد كتائبه خمسا، وعدد أفراده في هذه المرحلة ٢٧٥٠ تقريبا، لكن اسلحته كانت ايضا قليلة، وكان وضعه مشابها من هذه الناحية لباقي الالوية في البلد.

طليعة الجيش المصري ـ «الاخوان المسلمون»

كان المصريون الاوائل الذين ساهموا بقسط ما في الحرب في البلد من اعضاء منظمة «الاخوان المسلمين». وهي منظمة دينية متعصبة تدعو الى الوحدة الاسلامية. وقد وصلت وحدات من «الاخوان» من مصر الى النقب في بداية الاحداث. ولم يكن مستواها العسكري افضل من مستوى باقي الوحدات المحلية والوحدات شبه النظامية التابعة لـ «جيش الانقاذ»، لكنها تميزت بروحيتها القتالية وتشبثها بالهدف.

وعندما اتخذ القرار بأن تغزو الجيوش العربية النظامية البلد، قررت القيادة المصرية ان تشمل وحدات «الاخوان المسلمين» برعايتها وتحولها الى وحدات نظامية، يقودها ضباط من الجيش النظامي المصري.

وعين قائدا للكتيبة الاولى عبد العزيز، الذي كان ضابطا في سلاح الفرسان. وفي فترة لاحقة انشئت كتيبتان اخريان.

وعندما وصل عبد العزيز مع كتيبته الى البلد اشار عليه قادة «الاخوان»، الذين وصلوا قبله الى البلد وفشلوا في هجومهم على كفار داروم (في ٤/١٠)، بتجنب شن هجمات جبهوية على مستعمرات عبرية. وادعوا ان لا فائدة ترجى من هجمات كهذه، ومن الافضل الاكتفاء بمهاجمة خطوط المواصلات العبرية ونسف انبوب المياه في النقب، وارغام اليهود بهذه الوسيلة على خوض المعركة خارج مستعمراتهم، في ميادين مكشوفة. لكن عبد العزيز لم يأخذ بنصيحتهم، وقرر مهاجمة كفار داروم التي كانت اقرب مستعمرة يهودية الى خطوط المواصلات المصرية. وبدا له ان احتلالها حيوي لحماية حركة القوات المصرية على الطريق الساحلي المتجه الى الشمال. ومن شبه المؤكد انه امل باحراز انتصار سهل على هذه المنطقة، الموجودة في حالة حصار منذ عدة اشهر والواقعة على بعد اكثر من ١٠ كلم من النقطة الاستيطانية العبرية الاقرب اليها، والمحمية بنحو ثلاثين شخصا فقط، معظمهم من الشبان.

هجوم الاخوان على كفار داروم

في ١٠/٥ ــ بحسب رواية مصادر عربية ــ بدأ البكباشي (المقدم) عبد العزيز بارسال الدوريات الاولى التابعة له الى كفار داروم. وبعد عدة جولات استطلاعية وضعت خطة هجوم، كانت تقضي بقصف المستعمرة بالمدافع لمدة عشر دقائق، ثم القضاء على اليهود الباقين في قيد الحياة على يد قوة اقتحام مشكلة من المشاة.

وقد وصف احد قادة «الاخوان»، الذي قاد قوة الاقتحام، الهجوم وأسباب فشله. ان القصف المدفعي الممهد، الذي كان من المفروض ان يبدأ وفقا للخطة في الساعة ٠٢,٠٠، بدأ ــ بحسب قوله ــ في الساعة ٠٤,٣٠؛ وكان السبب في التأخير ان ضابط المدفعية لم يحكم تصويب مدافعه الى الهدف في اليوم السابق، واضطر الى انتظار بزوغ الفجر ليصوب المدافع ويشرع في القصف. وأخيرا، عندما تم تصويب المدافع وبدأت القصف الممهد، لم تصب أهدافها، وبقيت أبراج الحراسة والمواقع اليهودية سليمة. وكان ينبغي ــ بحسب رأيه ــ تأجيل الهجوم لتفادي هزيمة مشينة، إلا ان الاوامر التي اعطيت كانت قاطعة وتقضي بمواصلة القتال. ولم يكن عبد العزيز نفسه في ذلك الوقت في المكان. وكان يدير المعركة من قيادته في خان يونس (التي تبعد ٨ كلم عن المكان). وبالاضافة الى القصف المدفعي، اطلقت مدافع الهاون عددا من القذائف الحارقة، وتحت ستار الدخان تقدم المقاتلون الى النقطة. وترك المدافعون عن كفار داروم المهاجمين يقتربون الى مسافة قصيرة، وعندما وصلوا الى سياج الاسلاك الشائكة المحيط بالمستعمرة فتحوا عليهم نيرانا كثيفة اوقعت في صفوفهم عددا كبيرا من القتلى والجرحى. وأصيب جميع المقاتلين الذين كُلفوا تفجير السياج لاحداث فجوات فيه. وحدث ارتباك في صفوف «الاخوان» استغله المدافعون عن كفار داروم كما ينبغي. ولسوء «الحظ» سقطت فجأة وسط المقاتلين قذائف مدفعية صادرة عن المؤخرة، اطلقها رجال المدفعية المصريون. واتضح ان النيران الموجهة الى كفار داروم اصابت مقاتلي «الاخوان» وأوقعت فيهم خسائر كبيرة. وعندها تدهورت معنويات «الاخوان» وانسحبوا بعد ان خسروا سبعين قتيلا وخمسين جريحا ــ تركوا ايضا في ساحة المعركة ــ مما احدث تأثيرا سيئا في نفوس زملائهم المقاتلين وبعث فيهم الكآبة.

217

218

وانتشر نبأ صمود كفار داروم بسرعة في انحاء النقب والجنوب، فرفع معنويات المدافعين، وبث الثقة في انفسهم بقدرتهم على مجابهة الغزاة المصريين.

احتلال العدو لمركز شرطة عراق سويدان

في مقابل الفشل في كفار داروم احرز العدو نجاحا في مكان آخر، عشية ١٥ ايار/ مايو. فقد سلم البريطانيون الذين جلوا عن مركز شرطة عراق سويدان المركز الى العرب المحليين، ووضع فيه هؤلاء قوات مقاتلة. ومنحت خطوة البريطانيين هذه العدو معقلا حصينا مهما جدا. وقد سفح مقاتلونا من اجل هذا المركز دما غزيرا، في ثماني هجمات. ولا يوجد هناك

موقع في البلد هاجمناه مرات كثيرة، مثلما هاجمنا ذلك «الوحش على التلة»: مركز شرطة عراق سويدان المسيطر على «الطريق الداخلي» ـ شريان الحياة بالنسبة الى النقب ـ وعلى طريق المجدل ـ بيت جبرين، والذين يمكن منه مراقبة المناطق المجاورة مراقبة تامة.

بعد هذه العمليات التمهيدية بدأ العدو الغزو.

ب ـ المجابهة في النقب

غزو الجيش المصري النظامي

في ساعات صباح يوم ٥/١٥ الباكرة، اجتازت قوات مصرية الحد السياسي لأرض ـ اسرائيل، وتحركت برأسين: انطلق الاول من قواعد المصريين في العريش ورفح متجها نحو الشمال، على الطريق الساحلي؛ وانطلق الثاني من القواعد في ابو عجيلة متجها نحو بئر السبع والخليل حتى مشارف القدس (من اجل التحقق من الاتجاهات، انظر الخريطة 25*). وقد تحرك الجيش المصري بثقة كاملة، وأعلنت الصحافة المصرية تقدمه وانتصاراته بعناوين عريضة: «وصل الجيش الى غزة، دخل المجدل، احتل بئر السبع»، وذلك من دون ان تذكر ان هذه المناطق هي مناطق عربية محض. وكان المصريون واثقين من انهم سيصلون الى تل ابيب بسهولة وبسرعة. ولم يعيروا المستعمرات العبرية البعيدة عن خطوط مواصلاتهم اهمية كبيرة، اذ ماذا يمكن ان يفعل بضع عشرات من المقاتلين القليلي التسليح امام الجيش المصري الغازي؟ عندما يسقط مركز الييشوف العبري ـ تل ابيب ـ تسقط بالتأكيد ايضا هذه المستعمرات بسهولة.

ومع ذلك اضطر المصريون الى توجيه قسم لا بأس فيه من قوتهم من اجل القضاء على تلك النقاط التي كانت قريبة من الطريق والتي كان من شأنها ان تشوش على تقدمهم المظفر السريع في اتجاه تل ابيب. وكان عدد النقاط العبرية الواقعة بالقرب من الطريق الساحلي ـ طريق تقدمهم الرئيسي ـ ستا: نيريم، وكفار داروم، وساعد، وبئيروت يتسحاق، وياد مردخاي، ونيتسانيم.

219 هجوم الجيش المصري النظامي على كفار داروم

كانت كفار داروم، النقطة التي صمدت امام هجمات سابقة، الاولى في قائمتهم. وكان وضعها صعبا جدا. وفشلت محاولتان قمنا بهما للوصول الى النقطة من اجل نقل تعزيزات اليها. وفي ليل ١٤ ـ ١٥ ايار/مايو، جرت محاولة اخرى لشق طريق الى النقطة

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ١. (المترجم)

بقوة مشكلة من سرية (من الكتيبة ٢) (انظر الخريطة 38*). وكانت الخطة تقضي بأن تحتل قوة مشكلة من فصيلة، ليلا، خربة ماعين الواقعة شرقي النقطة، وأن تواكب فصيلتان اخريان قافلة تموين وأعتدة وأسلحة، فتتسلل الى كفار داروم وتخرج الجرحى عند عودتها. وبسبب عثرات مختلفة، احتلت خربة ماعين عند الفجر، واضطرت القافلة الى السير خلال النهار. وعلى بعد ٢ كلم من النقطة، في مجرى الوادي المجاور لها، غرزت القافلة في الرمل. وشاهدها العدو فقصفها بنيران مدافعه، ونجحت مصفحة واحدة فقط في الوصول الى النقطة. أما باقي الآليات فقد نسفت او تركت في الوادي، وتسلل أفرادها الى المستعمرة تحت وابل النيران. وأصيب كثيرون في الطريق اليها. وبدلا من ان تسعف قافلة النجدة المحاصرين زادت العبء عليهم. فقد ازداد عدد الجرحى في المستعمرة كثيرا وأصبح الطعام القليل يوزع على عشرات من الافواه الاضافية. وحدث الشيء نفسه بالنسبة الى المياه. وما ان نظمت القوات صفوفها، حتى بدأ الهجوم عليها؛ بدأت ٨ دبابات بالاقتراب من ناحية محطة القطار الواقعة غربي النقطة، وتحركت وراءها قوات المشاة. ومرة اخرى تركتهم القوات الموجودة في المستعمرة يتقدمون الى مسافة قريبة، ثم فتحت النيران عليهم من جميع الاسلحة الموجودة في النقطة. وأصيب قسم من المدرعات اصابات مباشرة، وانسحبت قوات العدو بأكملها.

وبعد ان سحب العدو جرحاه من المنطقة بدأ بقصف المستعمرة بالمدافع ومدافع الهاون، كما لو انه أراد ان يحقق بالقصف ما عجز عن تحقيقه بالهجوم المباشر. وبعد ذلك لم يحاول المصريون لعدة اسابيع احتلال المستعمرة، مكتفين بمحاصرتها باحتلال مواقع حولها من جميع الجهات.

الهجوم على نيريم

في الوقت نفسه الذي كانت فيه كفار داروم تتعرض للهجوم ــ في ٥/١٥ ــ هاجم المصريون ايضا نيريم (نيريم القديمة، الآن «نير يتسحاق»)؛ في الساعة ٠٧,٠٠، بدأت المدافع ومدافع الهاون بقصفها من ناحية رفح، وفي الوقت نفسه حلقت فوقها طائرتان للعدو. وفي اثناء القصف تقدم في اتجاه المستعمرة طابور آليات، اشتمل على ٤ دبابات، وعدد من السيارات المصفحة، و ٢٧ «حاملة برن» **، وعدد من ناقلات الجنود. وتحت غطاء من النيران المتزايدة نزل جنود العدو من الناقلات على بعد ٤٠٠ متر من المستعمرة. وبعد ان نصبوا رشاشاتهم انتقلوا في ظهيرة اليوم للهجوم، وتحركوا بكثافة ومن دون نظام. وعلى بعد ١٥٠ مترا تقريبا من نيريم، انهمرت عليهم نيران المدافعين التي كانت محبوسة حتى تلك

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٧. (المترجم)

** مجنزرات من انتاج بريطاني مسلحة بمدفع رشاش خفيف «برن».

اللحظة. وتوقفت مصفحات العدو عندما شاهدت على سياجات النقطة لافتات كُتب عليها بالانكليزية: «تحذير! ألغام!».

وتحت غطاء من القصف المدفعي، الـذي استمر حتى حلول الـظلام، انسحب المصريون نحو معسكر حربـي مهجور، على بعد ٢ كلم، تاركين وراءهم نحو ٣٠ قتيلا لم يسحبوا جثثهم من ساحة المعركة.

220

وبين أنقاض أكواخ نيريم ظلت سليمة لافتة علقت قبل أيام من الهجوم، مكتوب عليها: «ليست الدبابة هي التي ستنتصر، وانما الانسان».

لكن ثمن النصر كان غاليا: قتل ٧ من اعضاء المستعمرة الصغيرة وجرح كثيرون من بين الـ ٤٠ مدافعا عنها.

وفي اليوم التالي، قام المصريون بمحاولة اخرى لاحتلال نيريم. فقد قصفوها بالمدافع، وأغاروا عليها بالطائرات، ونشروا حتى ستارا من الدخان لتغطية الهجوم، الذي لم يحدث.

وفي اليوم اللاحق له، وصلت نجدة من الكتيبة ٨ التابعة للواء «النقب»، فأخلت الجرحى وجمعت الغنائم التي تركت في ميدان المعركة، واستعدت لمواجهة هجوم آخر. لكن المصريين نفضوا ايديهم من المسألة، واكتفوا منذ ذلك الوقت فصاعدا بقصف النقطة والاغارة عليها من الجو.

وأدرك المصريون بعد هذا الفشل انهم اذا ركزوا في القتال على كل نقطة عبرية، فسوف تستنزف قواهم بسرعة وينحرفون عن مهمتهم الرئيسية: احتلال منطقة تل ابيب. وبالتالي تركوا نيريم وكفار داروم وشأنهما. لكنهم في تقدمهم شمالا لم يكن في وسعهم تجاهل ياد مردخاي، الواقعة فعليا على طريق تقدمهم «شوكة في حلقهم».

الهجوم على ياد مردخاي

ادت ضرورة حشد قوات اكبر الى تأجيل بدء الهجوم على ياد مردخاي حتى يوم ٥/١٩. وقد مُهد للهجوم بالقصف المدفعي المعتاد. وبعد معركة دامت ثلاث ساعات دمر «بيلبوكس» [موقع باطون محصن] على بعد ٤٠٠ متر تقريبا جنوبـي المستعمرة. واضطر المدافعون الى الانسحاب منه، فاحتله المصريون. وعلى الفور حاول المصريون استغلال نجاحهم واقتحام المستعمرة نفسها، لكنهم صُدوا في معركة جرت وجها لوجه. وفي الساعة ٥,٢٠ استؤنف الهجوم. وصدت في ذلك اليوم اربع هجمات. وأصبح عدد الاصابات كبيرا: ١٨ قتيلا، و ٢٠ جريحا. واستغاثت المستعمرة طالبة نجدة من الرجال والاسلحة والذخيرة. وفي تلك الليلة، وصلت فصيلة من الكتيبة ٢، لكن القصف ازداد في اليومين التاليين، وتزعزعت معنويات المدافعين.

وفي ٢٢ ايار/ مايو اعلنت ياد مردخاي: «قوة المقاتلين تضعف. القوى استنزفت.

يخشى تكرار ما حدث لكفار عتسيون. ينبغي اخلاء المكان او الاسراع في ارسال نجدة اليه. من الضروري جدا اخراج النساء والجرحى فورا».

وبعد عدة ساعات وصلت رسالة لاسلكية اخرى: «العدو يقصف بعنف. المواقع والخنادق دمرت. لا يوجد مكان لوضع الجرحى، ولا يوجد ماء. القوى مستنزفة».

ومرة اخرى: «ما رأي هيئة الاركان فيما يجب فعله؟ اذا لم ترسل نجدة فسوف نخلي المكان الليلة. ليس في قدرتنا الدفاع عن المستعمرة اكثر بسبب الخسائر والجرحى الكثيرين».

وقبيل مساء ٥/٢٣ تجدد الهجوم. وتغلغلت مجموعتان من الدبابات والمصفحات في داخل المستعمرة، لكنهما صدتا.

وفي ليل ٢٣ ــ ٢٤ ارسلت نجدة: وحدة «وحوش النقب»*؛ ونجحت هذه في اخلاء الجرحى.

واتخذت قيادة المنطقة قرارا بالانسحاب. فمن دون نجدة كان من المتعذر الصمود في وجه هجوم آخر.

221 وقبيل بزوغ فجر يوم ٥/٢٤، تسلل ابناء ياد مردخاي، فتيان حفرات هنوعر [جمعية الشبيبة]، وأفراد لواء «النقب»، عبر خطوط المصريين، نحو غيفر عام. وباستثناء ٣ مدافعين ــ جريح وزميلان كانا يعتنيان به بعد ان رفضا تركه ــ وصل الجميع بسلام الى غيفر عام.

وسقطت ياد مردخاي، لكن هذا الانتصار كلف العدو خسائر كبيرة وخمسة ايام حيوية، لا تقدر قيمتها بالنسبة الينا بثمن. فقد فسحت هذه الايام الخمسة لنا مجال اقامة خط دفاعي شمالي اشدود، وحشد قوة لشن هجمات من اجل صد العدو.

وفي المقابل، حقق المصريون انجازا ملموسا؛ فهم لم يزيلوا العقبة الرئيسية في طريقهم من غزة الى المجدل فحسب، بل ايضا رفع احتلال اول مستعمرة يهودية معنويات جنودهم، وكما أملوا اضعف معنويات اليهود.

عمليات اغارة

في هذه الاثناء نظمت كتيبة الاغارة [الكوماندو] التابعة للواء «النقب» صفوفها، ونفذت عددا من العمليات المهمة، مثل: مهاجمة خطوط مواصلات العدو، والاغارة على مواقعه في المؤخرة، الخ.

ومن بين هذه العمليات تجدر الاشارة الى غارة الكتيبة على موقع مدفعية مصري بالقرب من بيت حنون في ليل ٢٥ ــ ٢٦ ايار/مايو. فبعد ان انطلقت وحدة سيارات جيب الى مطار غزة لمشاغلة القوات المصرية، تحرك «وحوش النقب» (من الكتيبة ٢) للاغارة على المدافع التي كانت تقصف نير عام. ووصل المغيرون الى بعد ٥٠ مترا من مواقع المدافع من

---

* وحدة سيارات جيب مسلحة بمدافع خفيفة.

دون ان يشعر العدو بهم، وشنوا هجومهم. وفي اثناء الفوضى التي عمت سيطروا على بطارية مدافع، وأصابوا ٤٠ شخصا من أفراد اطقمها. ومن سوء حظ المغيرين لم يتمكنوا من اخذ السلاح الثقيل معهم واضطروا الى الاكتفاء بغنم السلاح الخفيف. وعُطلت المدافع.

وتجدر الاشارة الى عملية اخرى من عمليات كتيبة الاغارة، هي نسف جسر الظاهرية (الواقع شمالي بئر السبع) في ليل ٥/٢٨. فبعد رحلة استغرقت ثلاثة ايام عبر الصحراء والجبل، وصلت وحدة سرا الى الجسر وعمل خبراء التدمير ساعة ونصف الساعة على اعداد عملية نسف الجسر. ونجحت في نسفه ثم انسحبت في الطرق الصحراوية من غير ان يفتضح امرها ومن دون خسائر.

تقدم «الاخوان» في الطريق الصحراوي وصعودهم جبل الخليل

في هذه الاثناء وصلت قوات طلائعية مصرية سلكت طريق العوجا (نيتسانا) ــ عسلوج (مشآفي ساديه) الى بئر السبع. وألقيت المسؤولية عن هذا القطاع على عاتق كتيبة «الاخوان المسلمين» ــ التي التقيناها قبل ذلك في كفار داروم ــ كحل وسط بين قيادة الكتيبة، التي طالبت باستقلالية في العمل في ضوء الطابع الخاص للوحدات الخاضعة لها، وبين القيادة العامة للقوة الغازية المصرية التي طالبت بأن تكون وحدات «الاخوان المسلمين» خاضعة لها.

وفي ٥/١٧، دخلت طليعة القوة المصرية بئر السبع. وفي اليوم نفسه، شنت هجوما على بيت اشل، لكن تم صده.

وترك «الاخوان المسلمون» ايضا مستعمرات النقب الشرقية وشأنها، وبدأوا صعود جبل الخليل. ومن هناك واصلوا تحركهم حتى بيت لحم مثيرين بذلك استياء ملك الاردن، عبد الله. وقد وصف وسيط الامم المتحدة، الكونت فولك برنادوت، في مذكراته المشكلات التي نشبت بين قوات «الاخوان المسلمين» وقوات الفيلق في هذه المنطقة. ففي حديث له مع الملك فاروق شكى فاروق الصعوبات في علاقاته بعبد الله. وعلق قائلا انه في ذلك اليوم، مثلا، تلقى شكوى من حكومة شرق الاردن بأن العلم المصري الذي رفع في الخليل في اثناء الحرب اكبر بـ ١٠ سم من علم الاردن. وتسبب هذا الامر بمشكلات على جانب من الاهمية، كان من الضروري تسويتها. «ذكرت للملك فاروق» ــ انهى الوسيط ــ «انني لا استطيع تخيل ان مشكلاته هذه اصعب من مشكلتي. واعترف بذلك ضاحكا».

222

وقد تركت هذه الخلافات بين المصريين والاردنيين آثارها على سياق الحرب، وشكلت عاملا مخففا عن جيش الدفاع الاسرائيلي في خططه وعملياته.

وانطلق «الاخوان» من قواعدهم في بيت لحم للهجوم على رامات راحيل، الذي سبق ان ذكرناه.

استعدادات «غفعاتي» لمواجهة الغزو المصري

فتح سقوط ياد مردخاي الطريق شمالا امام القوات المصرية. وبدأت هذه القوات تقترب من منطقة لواء «غفعاتي». وكان اللواء قد شرع في الاعداد لملاقاة الغزو منذ النصف الاول من شهر ايار/مايو، بعملية «براك». لكنه اضطر الى ايقاف العملية عندما تلقى الامر فيما يتعلق بالمرحلة الثانية لعملية «مكابي» في ممر القدس، في ١٢/٥.

وفي اليوم التالي لوقوع الغزو المصري، اوقف اللواء نشاطه في الممر وعادت اكثريته الى الجبهة الجنوبية. وبقيت كتيبةواحدة فقط في قطاع الممر ليومين آخرين. وبعد يومين من عودته الى الجنوب، بدأ اللواء من جديد عمليات تطهير في المنطقة. واحتلت خلال هذه العمليات على يد سرية من الكتيبة ١/غفعاتي، في ١٨/٥، قرى السوافير الثلاث، الواقعة خلف نيغبا في الطريق المؤدي اليها من بئير طوفيا وكفار فاربورغ.

وفي ليل ١٩/٢٠، احتلت الكتيبة ٢/غفعاتي معسكر تسريفين [صرفند]. وكان البريطانيون قد سلموا العرب المعسكر في ١٤/٥. واحتفظ العرب فيه بقوة صغيرة شبه نظامية. وكانت خطوط دفاع هذه القوة موجهة الى ناحية ريشون لتسيون. إلا ان الهجوم على المعسكر وقع من ناحيتي الجنوب الشرقي والشمال. وسقط المعسكر في ايدينا من دون اصابات.

وسلم المعسكر لقوات «كرياتي»، التي صدت عدة هجمات مضادة شُنت عليه.

وفي ليلتي ٢١ ـ ٢٢ و ٢٤ ـ ٢٥، شنت الكتيبة ٤ التابعة للواء «غفعاتي» غارات على الرملة قصد مساعدة قوات الايتسل التي حاولت مهاجمة المدينة نفسها، لكن هذه المساعدة لم تجد نفعا وواصلت المدينة الصمود امام قواتنا.

وطُلبت قوات اضافية من اجل عملية من نوع مختلف، عملية «تينوك»: اجلاء الاطفال والاشخاص غير المقاتلين عن المستعمرات الواقعة في اقصى جنوب منطقة اللواء: نيتسانيم، ونيغبا، وغات، وغلؤون، وكفار مناحيم.

223 وكانت مسألة اجلاء السكان غير المقاتلين من المشكلات الصعبة التي واجهت قيادتي «الهاغاناه» والييشوف. وكان هناك موقفان من المسألة: موقف معارضي الاجلاء، وموقف مؤيديه. وحتى ١٥ ايار/مايو، كانت يد معارضي الاجلاء، بصورة عامة، هي اليد الطولى. وكانت حجتهم ان هدفنا في الحرب ليس الدفاع عن الييشوف فحسب، وانما ايضا الاستمرار في العيش بصورة طبيعية. واذا ما بدأت عملية الجلاء، فلا يمكن تخيل نهايتها. وفي ضوء واقع هذا الييشوف الذي لا توجد فيه جبهة ولا مؤخرة، اين يمكن رسم خط فاصل بين المستعمرات التي ينبغي اجلاء سكان عنها، وبين المستعمرات التي ستستوعب هؤلاء السكان؟ ألن يلحق المقاتلون بغير المقاتلين ويهجروا النقاط التي خلت من اعز من لديهم؟ لكن بعد ١٥

ايار/مايو، دخلت جيوش العدو النظامية ورجحت كفة الجلاء. واتضح ان السكان غير المقاتلين يثقلون، في الحقيقة، على كاهل المقاتلين ولا يشكلون عاملا مساعدا لهم. فما داموا مقيمين في المستعمرة فانهم يشغلون حيزا في الملاجىء والدشم، التي كانت مساحتها في الاساس صغيرة وضرورية قبل كل شيء للتمركز وللعناية بالجرحى. وفي حال اتخاذ قرار بوجوب اخلاء المستعمرة، فان اخراج الاطفال والنساء منها تحت الضغط الشديد يشكل عبئا ثقيلا. وبالاضافة الى ذلك، ما الفائدة من المخاطرة بأولئك الذين لا فائدة ترجى منهم للمعركة؟

ونفذت عملية «تينوك» في ليل ١٧ ــ ١٨/٥؛ اخرج الاطفال من المستعمرات المذكورة في سيارات مصفحة او سيرا على الاقدام، ونقلوا الى اماكن آمنة.

ولم تتحقق المخاوف بأن المقاتلين قد يمضون في اثر غير المقاتلين. فباستثناء مكان واحد، لم يطلب اعضاء اية مستعمرة من مستعمرات المنطقة اخلاءها بصورة مطلقة. وركز المقاتلون الذين بقوا فيها بقوة اعظم على تنظيم انفسهم للدفاع، مع بذل جهد لعدم اهمال الاعمال الحيوية جدا في المستعمرة.

وبينما كانت معركة ياد مردخاي في ذروتها، حدث الاحتكاك الاول بين «غفعاتي» والمصريين. ففي ٥/٢٢ كُلِّفت فصيلة من الكتيبة ١/غفعاتي التسلل الى نيتسانيم والاغارة منها على المجدل، لأسر شخص والحصول منه على معلومات عن القوات المصرية. وشنت الفصيلة غارتين: في ليل ٢٥ ــ ٢٦ وفي ليل ٢٧ ــ ٢٨، وأثارت ذعرا في مشارف المدينة، ونجحت في أسر عدة أشخاص.

محاولات اولى لاحتلال مركز شرطة عراق سويدان

جرت المحاولة الاولى لانتزاع مركز شرطة عراق سويدان من يد المقاتلين المحليين قبل اجلاء الاطفال عن نيغبا.

وقد نفذت المحاولة سرية معززة من الكتيبة ٣/ غفعاتي. وانفجرت ألغام مضيئة زرعها البريطانيون حول مركز الشرطة عشية انسحابهم، فأضاءت كل المنطقة بنور ساطع. وانسحبت السرية، التي كانت فرصتها الوحيدة في النجاح تعتمد على المفاجأة، مع الفجر.

وجرت محاولة اخرى نفذتها في ليل ٢١ ــ ٢٢/٥ الكتيبة ٣/غفعاتي وفصيلة من الكتيبة ٤/غفعاتي. لكن هذا الهجوم فشل هو الآخر ايضا.

ويبدو ان هجماتنا على مركز الشرطة جذبت اليه تعزيزات كبيرة، لاننا كنا في كل هجوم نجابه بمقاومة اعنف.

الهجوم الاول على نيغبا

بعد هجومنا الاول على عراق سويدان، وقع الهجوم المصري الاول على نيغبا التي كانت تحميها قوة من الكتيبة ٣/غفعاتي. فخلال ساعات ظهر يوم ٥/٢١ ضيق طابور مدرع الخناق على نيغبا وقصفتها طائرات من الجو. وقتل في هذا القصف قائد نيغبا ـ يتسحاق دوفنو الملقب بـ «يوآف» ـ في اثناء اشرافه على طاقم مدفع رشاش كان يطلق النار على الطائرات.

احتلال جولس

دفع هذا الاشتباك الاول مع القوات المصرية لواء «غفعاتي» الى اعادة تنظيم صفوفه. وفي ليل ٢٧ ـ ٥/٢٨ احتلت الكتيبة ١/غفعاتي معسكر جولس الكبير الواقع خلف نيغبا، ووصلت الى المستعمرة تعزيزات مشكلة من سرية. وصد المدافعون عن المكان وحدات معادية حاولت في اثر ذلك التسلل الى المعسكر من ناحية قرية جولس.

طابور الغزو المصري يتجه شمالا

إما بسبب هذه الاشتباكات وإما وفقا لخطة معدة سلفا، غيّـر المصريون فجأة توجههم وشرعوا في التقدم من المجدل، على الطريق الساحلي، في اتجاه الشمال. وخلال ساعات ظهر يوم ٥/٢٩، ارسلت نقطة المراقبة في نيتسانيم إخطارا بأن طابورا مصريا قوامه نحو ١٥٠ آلية، بما في ذلك مدافع ودبابات، مر من امام النقطة على الطريق الساحلي، ووجهته الشمال. وبعد فترة قصيرة اعلنت نقطة المراقبة ان تدفق الآليات مستمر. وأُحصيت ٥٠٠ آلية تقريبا، اي ما يمثل العدد الكامل للواء عسكري.

ولم يكن هدف القائد المصري واضحا. هل كان في نيته الاستمرار وشق طريق له الى تل ابيب، الواقعة على بعد ٣٢ كلم فقط؟ او ربما كان يأمل فقط بالتقدم اكثر، في اتجاه مستعمرات الجنوب اليهودية؟ وسواء أكان الهدف هذا ام ذاك، فانه كان من الواضح انه ينبغي عرقلة تقدمه مهما تكن النتائج. وكانت تلك ايام مصيرية جدا في تاريخ الحرب.

كانت القوات الموجودة في تصرفنا لايقاف التقدم المصري قليلة جدا. وواصل الطابور المصري تقدمه، ومر بأشدود، واستمر في السير نحو الشمال. لكنه، على بعد ٣ كلم شمالي اشدود، تـوقف بالقرب من الجسر لان خبراء بالمتفجرات تابعين للواء «غفعاتي» كانوا قد نسفوا الجسر في الليلة السابقة. وشوهد ضباط مصريون ينزلون من سياراتهم ويفحصون مدى الضرر اللاحق به. وبعد فترة وجيزة نزل الجنود ايضا من آلياتهم، واتخذوا مواقع لهم قرب الطريق، مع التأهب لمواصلة التقدم من دون تأخير.

وفي ذلك اليوم، تم في المطار العسكري تجميع الطائرات الاربع المقاتلة الاولى من

طراز «ميسر شميدت» اسلاح الطيران الاسرائيلي. وكانت اول مهمة انيطت بها، الهجوم على المطار المصري في العريش. لكن في هذه الاثناء كان هجومنا على اللطرون يواجه مأزقا، وتجاوز الطابور المصري المتقدم اشدود. وطلب القائدان، القائد في اللطرون وقائد «غفعاتي»، مساندة جوية. ورجحت الكفة لمصلحة «غفعاتي»، وتقرر استخدام الطائرات ضد الطابور المصري.

وعلى الرغم من كثافة الآليات المصرية التي شكلت هدفا سهلا للضرب من الجو، فان الضرر الذي ألحق بها لم يكن كبيرا، لان طائراتنا واجهت نيرانا مركزة، وأُسقطت واحدة منها. لكن الاثر النفسي لظهور سلاح الطيران الاسرائيلي كان كبيرا. وبدا ان القائد المصري بدأ يعيد النظر في خططه؛ فقد بدأ جنوده بالتحصن، وبدا انهم يستعدون للبقاء فترة اطول في المكان.

225

وفي اثناء ذلك وصل في عجلة عدد من المدافع من عيار ٦٥ ملم، وبدأت بقصف الطابور المصري. وفي تلك الليلة شنت دوريات من وحدات اللواء [«غفعاتي»] عدة هجمات على الطابور المصري. ولم يعرف بعدها طعم الراحة. وتحول التوقف الموقت قرب جسر اشدود، الذي كان من المفروض ان يستمر ساعة واحدة فقط، الى ايقاف مطلق للتقدم.

بيد ان هذا التطور لم يكن متوقعا بعد في ليلة ٢٩ ـ ٥/٣٠. وعلى الرغم من ان احدى سرايا الكتيبة ٤/غفعاتي كانت تشاغل العدو شمالي اشدود، وأن الكتيبة ٣/غفعاتي هاجمت محطة سكة الحديد في اشدود وقضّت مضاجع المصريين، فان قوتهم لم تتقهقر بصورة خطرة. فعندما اقتربت وحداتنا من احد قطاعات مواقعهم، صبوا عليها نيرانا كثيفة ومحكمة من المدافع التي كانت تحمي ذلك القطاع.

لكن ما دامت قوة الطابور المصري في اشدود غير معطلة، فانه كان يخشى ان يحاول معاودة التقدم. ولذا قررت هيئة الاركان العامة مهاجمة الطابور في اشدود قصد ابادته، على الرغم من تفوق العدو بالمدرعات والمدفعية.

الهجوم الكبير على اشدود

من اجل الهجوم ضمت الى لواء «غفعاتي» قوات اضافية والكتيبة ٧ من لواء «النقب». وحشدت قوة قوامها نحو ثلاث كتائب (الكتائب: ٣ و٤ و٧/غفعاتي، وسرية من الكتيبة ١/غفعاتي)، بما في ذلك سريتا سيارات جيب. وكان من المقرر ان تهاجم هذه القوة الطابور المصري في ليل ١ ـ ٦/٢. وعند منتصف الليل تقريبا، وصلت الوحدات الى مواقع التجمع إلا ان هيئة الاركان العامة اصدرت أمرا بالغاء العملية. اذ اصدر مجلس الامن قرارا بالالتزام بهدنة يسري مفعولها اعتبارا من منتصف الليل. ووافقت حكومة اسرائيل على الهدنة بناء على الانباء ـ التي اتضح بسرعة انها كاذبة ـ بأن الدول العربية تعهدت هي ايضا بالالتزام بها. وانسحبت وحداتنا الى قواعدها.

وفي الصباح اتضح ان الجيوش العربية لم توقف اطلاق النار وأن الحرب مستمرة، فتقرر ان تنفذ في ليل ٢ ـ ٣/٦ الخطة التي كانت قد ألغيت.

انقسم التشكيل المهاجم الى ثلاث قوات:

القوة أ، وقوامها اربع سرايا (ثلاث من الكتيبة ٤/غفعاتي وواحدة من الكتيبة ١/غفعاتي)، التفت حول اشدود من ناحية الرمال ومن الشمال والشمال الغربي، قصد مهاجمة القوات المصرية من الخلف.

القوة ب، التي كانت مشكلة من مشاة وسيارات جيب من لواء «النقب»، تقدمت من جنوبي اشدود، عبر التلة ٦٩، لتهاجم من هذه الناحية.

القوة ج ـ الكتيبة ٧/غفعاتي ـ هاجمت من الشرق، وهدفها المشاغلة.

الكتيبة ٧/غفعاتي لتأمين سلامة منطقة العملية.

وعلى الرغم من ان قواتنا في الليلة السابقة لم تشتبك مع المصريين قط، فانهم ـ كما يبدو ـ اكتشفوا على الاقل جزءا من خطة الهجوم، ربما بواسطة الآثار التي تركها رجالنا الليلة السابقة في مواقع التجمع. وبالتالي استعد المصريون لملاقاة رجالنا. واصطدمت القوة الرئيسية، المتقدمة من الشمال، وهي لا تزال في مرحلة الاقتراب بنيران دفاعية مسددة سلفا، وتكبدت خسائر في هذه المرحلة. وعلى الرغم من ذلك، وصلت الى نقطة التجمع، حتى انها بدأت بهجمات، من ناحية الشمال في اتجاه الـ «بيلبوكس»، لكن قبيل طلوع الشمس اتضح لها ان لا بد من الانسحاب. وعندما بدأت بالانسحاب اشرقت الشمس فتمكن العدو من مشاهدة ما كان يجري. وكثف نيرانه فزاد عدد قتلانا.

226

ولم يحالف الحظ ايضا القوة المتقدمة من الجنوب. ففي رحلة الاقتراب الطويلة والمضنية عبر الرمال، تأخرت اكثر مما كان مقدرا وبدأت عمليتها بعد الموعد المحدد. وعلى الرغم من النجاحات الاولى ـ التغلغل في داخل الخطوط المصرية وتدمير مدفع ـ فقد اتضح انها لن تتمكن من التمركز قبل بزوغ الفجر. وصدر الامر اليها بالعودة، والعملية في اوجها. وكان الانسحاب صعبا وكلف ضحايا كثيرة. فقد كان طريق الانسحاب يمر عبر رمال لم تكن الحركة سهلة فيها، ناهيك بأن المنسحبين كانوا يحملون جرحاهم. وفي اثناء الانسحاب ظهرت مصفحات مصرية ولاح امام المنسحبين خطر العزل والابادة، لكن المصفحات غرزت في الرمل واستطاع المنسحبون الوصول الى نيتسانيم.

ان الهجوم على اشدود، الذي كان اكبر هجوم شُن على المصريين حتى ذلك الوقت، لم يقض على طابورهم ولم يُخضع اشدود لكنه نجح في تحويل العدو [من مهاجم] الى مدافع وأحبط خططه لتقدم اكثر ـ من اشدود الى الشمال. وكما قال ضابط مصري في مذكراته بعد الحرب: «وفقا للخطة التي وضعتها الدول العربية كان ينبغي للجيش المصري ان يتقدم حتى يفنه. لكن فور وصول طليعته الى اشدود، حشد العدو قوات كبيرة في منطقة رحوفوت، وشن هجوما عنيفا على الجيش المصري. وقد تم حقا صد هذا الهجوم، لكن العدو نجح في

تحقيق هدف واحد على الاقل: تثبيت الجيش المصري في مواقعه في اشدود. وليس من المبالغة القول ان الهجوم اليهودي على اشدود كان نقطة الانعطاف في الحرب الاسرائيلية ــ المصرية، لانه اعتبارا من تلك اللحظة اضطرت القيادة المصرية الى تغيير خططها. فبدلا من مواصلة مطاردة العصابات الصهيونية، قررت القيادة المصرية الاكتفاء بعزل النقب عن باقي أجزاء البلد».

لكن الهجوم على اشدود ترك في رجالنا أثرا قاسيا. اتضح مرة اخرى انه ما دام العدو متفوقا بالمدفعية على هذا النحو، فلن نستطيع التغلب عليه بمهاجمة خطوطه المحصنة. وفي الحقيقة، اتضح لنا ايضا في سياق التطورات ان الهجوم، على الرغم من فشله، قد حقق هدفه الأساسي. فقد ذكرت الدوريات التي خرجت في الليلة التالية لاستطلاع نظام دفاعات العدو، انه مشغول بالتسييج وبالتحصن على الطريق وبالقرب منه.

وقد اصبنا نجاحا آخر بتحركات قواتنا في هذه المنطقة. فقرية يفنه العربية، التي لم تصل اليها القوات المصرية، اصيبت بالذعر نتيجة رؤية حشودنا، فهجرها سكانها، وفي ليل ٤/٥ سقطت بيدنا من دون قتال. وهكذا اقيم حاجز آخر لنا على الطريق الساحلي.

الهجوم الثاني على نيغبا

بينما كانت المعارك دائرة على الطريق الساحلي، شنت قوة مصرية اخرى، في ٦/٢، هجوما كبيرا على نيغبا التي كان يحميها ابناؤها ووحدة من الكتيبة ٣ التابعة للواء «غفعاتي».

كانت نيغبا نقطة استراتيجية مهمة. فقد كانت المستعمرة العبرية الاقرب لتقاطع طريق النقب الداخلي مع طريق المجدل ــ بيت جبرين، وما دامت بيدنا بقيت حركة المصريين على طريق المجدل ــ بيت جبرين غير آمنة، واستحال عليهم توفير عمق كاف يمكن طابور الغزو التابع لهم من التقدم من جولس في اتجاه الشمال. لكن الوضع التكتي لنيغبا لم يكن مريحا؛ فقد شيدت في مكان منخفض، وتقع تحت سيطرة عدد من التلال المحيطة بها، وبصورة خاصة تحت سيطرة مركز شرطة عراق سويدان العربي الذي كانت تتمركز فيه، في تلك الفترة، قوة مصرية نظامية. 227

وبناء على تجربة المصريين في استخدام المدرعات خلال هجمات سابقة على مستعمرات عبرية، وفي ضوء المعلومات التي لديهم عن قلة الاسلحة المضادة للدروع التي كنا نملكها، فقد خططوا لهجوم على نيغبا يقوم على اقتحامها بالمدرعات، وتأتي قوات المشاة في اثرها للتمركز فيها.

ومُهد للهجوم بالقصف المعتاد الذي بدأ مع الفجر واستخدمت فيه مدافع من عيار ٢٥ رطلا، وبطارية هويتسر من عيار ٤,٥ بوصات، وبطارية مدافع من عيار ٣,٧ بوصات.

وفي اثناء القصف الذي وصل الى معدل ٦٠٠ قذيفة في الساعة، والاغارة من الجو، تقدمت ثلاثة طوابير مدرعة من ناحية المخفر في اتجاه المستعمرة.

وعند الساعة ٠٧,٠٠ تقريبا، وصل الطابور الاوسط، الذي كان قوامه ٧ آليات مدرعة، الى مسافة قريبة من المستعمرة، في القطاع الجنوبي الغربي. ونجحت دبابة في القضاء على احد المواقع، لكنها اصيبت بقذيفة فانسحبت. وحققت دبابة ثانية نجاحا اكبر، اذ اخترقت الخط الدفاعي، لكنها هي الاخرى اضطرت الى الانسحاب بفعل القنابل اليدوية التي أُلقيت عليها. وأصيبت دبابتان اخريان من جراء اصطدامهما بلغمين.

وفي اثناء الهجوم اطلقت النيران على المصريين من جهة غير متوقعة؛ فقد ارسلت لنجدة نيغبا وحدة سيارات الجيب «وحوش النقب»، التي ضمت الى لواء «غفعاتي» من لواء «النقب» لغرض الهجوم على اشدود، وظهرت عند جناح المصريين من ناحية تلال جولس، وفتحت النيران على العدو من مدافع رشاشة وأوقعت به اصابات كثيرة. وفي الوقت نفسه، تقريبا، استخدم مدفع من عيار ٢٥ رطلا من كفار فاربورغ ضد مركز الشرطة والقوات المحتشدة حوله.

وأدت إصابة الدبابات والتهديد المفاجىء للمصريين من ناحية جناحهم الى انسحابهم. وانسحبت ايضا قوات المشاة التي كانت تتحرك على مسافة ٢٠٠ متر خلف الدبابات.

ولم يحاول العدو خلال ما تبقى من ذلك اليوم مهاجمة نيغبا لاحتلالها؛ فبغطاء من الدخان وجه جهوده لسحب الآليات المعطوبة، وانقاذ الجرحى، وسحب القتلى من ميدان المعركة. وانتهت هذه العملية في ساعات العصر. وكانت خسائرنا ثمانية قتلى واثني عشر جريحا. وقدرت خسائر العدو بمئة اصابة. كما أُعطبت للمصريين ٤ دبابات ومجنزرتان.

سقوط نيتسانيم ومعارك التلة ٦٩

بعد ان تخلى المصريون عن متابعة التقدم شمالا، تفرغوا لتطهير مؤخرتهم وتأمين جوانب شرايين المواصلات. وكانت نيتسانيم في الاساس بمثابة شوكة في حلقهم، فقرروا مهاجمتها. ومن دون ان نعرف بذلك، خططنا نحن لعملية مقابلة لاحتلال التلة ٦٩ ــ تلة أبراج المياه الثلاثة الواقعة شرقي الطريق (الذي كانت نيتسانيم تقع غربيه). وكان موعد عملية «غفعاتي» ليل ٧ ــ ٦/٨.

لكن في يوم ٦/٧ بدأ المصريون هجومهم على مستعمرة نيتسانيم. وكان عدد المدافعين عنها ١٥٠ شخصا تقريبا، نصفهم من ابناء المستعمرة، ونصفهم الآخر من أفراد الكتيبة ٣ التابعة للواء «غفعاتي». وكانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فقط، اشتملت على اربعة مدافع برن ومدفع هاون من عيار ٥٢ ملم وبيات واحد. وكانت المستعمرة تقع في منطقة منخفضة يصعب الدفاع عنها.

228 وخصص المصريون للهجوم على النقطة كتيبتهم التاسعة التي عززت بسرية من كتيبة اخرى، وأيضا فصيلة دبابات، وسرية مصفحات، وكتيبة مدافع من عيار ٢٥ رطلا، وبطارية مدافع مضادة للطائرات، وبطاريتي مدافع مضادة للدروع، وطائرات مقاتلة.

بدأ القصف على نيتسانيم في منتصف ليل ٦ ـ ٦/٧. وفي الساعة ٠٦,٠٠، بدأ الهجوم نفسه. وغطى القصف المدفعي المستعمرة بكاملها. ودمرت المدافع المضادة للدروع المواقع البارزة واحدا بعد الآخر. وبعد ذلك جرت محاولات الاقتحام: محاولة الاقتحام الاولى صدت. واستدعيت الطائرات لتقديم مساندة قريبة. وعند الساعة ١١,٠٠ جرت محاولة الاقتحام الثانية، وهذه المرة بمساندة فصيلة دبابات. وتعطل مدفع البيات الوحيد الموجود في حيازة المدافعين، واقتحمت الدبابات المستعمرة وفي اثرها اتى المشاة.

ودارت المعارك الآن داخل المستعمرة نفسها. وانقطع اتصالها اللاسلكي بلواء «غفعاتي»، وبدا انها خسرت المعركة. وعندما لم تصل نجدات، وكي لا يقع المدافعون في قبضة العدو، حاولوا شق طريق لهم الى خارج المستعمرة نحو الجنوب، عبر البساتين. لكن المصريين طوقوهم. وبعد ان مني المدافعون بخسائر كبيرة عادوا الى داخل المستعمرة، وقد تناقص عددهم وأصبحوا مطوقين تماما. واستسلموا في الساعة ١٦,٠٠. وسقط في هذه النقطة ٣٣ شخصا، نصفهم جنود ونصفهم الآخر من اعضاء المستعمرة. ونجح ثلاثة من أفراد المواقع في الافلات، واختبأوا بمكان قريب حتى المساء، ثم تسللوا تحت جنح الليل نحو خطوطنا. ونقل الباقون عبر المجدل الى [معسكرات] الاسر المصرية.

وعلى الرغم من التغير الذي حدث بسقوط نيتسانيم، تقرر ان ينفذ في ليل ٧ ـ ٦/٨ الهجوم على التلة ٦٩، الذي وضعت خطته في وقت سابق. وكان العدو قد احتل في اثناء الهجوم على نيتسانيم هذه التلة بقوة مشكلة من سرية لمنع ارسال نجدات الى المستعمرة. وعندما سقطت النقطة اخلى العدو التلة، فاحتلها رجالنا من دون قتال، وتمركزت فيها سرية من الكتيبة ٣/غفعاتي.

وفي اثناء الاستيلاء على التلة ٦٩، حاولت وحدات تابعة لنا ـ الكتيبة ٢ من لواء «غفعاتي» والكتيبة ٧ من لواء «النقب» ـ مهاجمة اشدود مرة اخرى (في ليل ٧ ـ ٦/٨). لكن هذا الهجوم على اشدود فشل وانسحبت قواتنا. وواصلنا الاحتفاظ بالتلة ٦٩. وفي اليوم التالي، بدأ المصريون بقصف هذه التلة. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمرت الفصيلة التي تحتفظ بها في التحصن هناك، حتى انها ضايقت حركة المواصلات المصرية الى اشدود.

وحاولت الكتيبة ٢/غفعاتي في ليل ٩ ـ ٦/١٠ استرداد نيتسانيم، لكن خطأ في الطريق تسبب بتأخير ساعة الصفر. وفي اثناء اقتحام المستعمرة طلع الفجر، فصدر امر الى قواتنا بالانسحاب فانسحبت الى التلة ٦٩، وطاردتها مدفعية العدو بنيرانها. وبعد ذلك مباشرة شن العدو هجوما على التلة نفسها. وكانت تحميها في هذا الوقت سرية من الكتيبة ١/غفعاتي حلت محل السرية السابقة. وتسبب القصف المدفعي العنيف بايقاع خسائر كبيرة، بسبب ازدحام الاشخاص في الموقع. وعندما اعقبه هجوم قوات المشاة المصرية بمساندة المصفحات، انهارت مقاومة السرية المدافعة عن التلة وبدأت تنسحب بصورة غير منظمة مما سبب في وقوع خسائر فادحة.

وكان آخر شخص بقي في التلة ضابط المراقبة الذي كان يوجه رجال المدفعية. وعندما اصبح المصريون قريبين منه اعطى تعليمات الى رجال مدفعيتنا بقصف الموقع الذي كان موجودا فيه.

وحاول المصريون استغلال نجاحهم في احتلال التلة ٦٩ لاحتلال بيت داراس وبئير طوفيا، لكنهم اصطدموا بمقاومة وبقيت دباباتهم امام أبواب بئير طوفيا حتى حلول الظلام ثم انسحبوا.

د ـ عمليات اخيرة عشية الهدنة الاولى

229

العمليات الاخيرة

اقترب موعد الهدنة ـ بقيت ليلة واحدة للعمليات. وخطط فعلا لعمليات كثيرة في هذه الليلة، نفذ معظمها.

سيطرت قوات من الكتيبة ١ التابعة للواء «غفعاتي» في تلك الليلة (ليلة ١٠ ـ ٦/١١) على يسعور، التي هي حاتسور، وسيطرت قوات من الكتيبة ٨/غفعاتي على قرية بطاني شرقي، القريبة من يسعور لجهة الغرب. وبذلك اتسع الممر العبري بين غان يفنه وبئير طوفيا.

واحتلت الكتيبة ٣/غفعاتي الى الجنوب من ذلك قرية جولس، ومفترق الطرق بالقرب منها. وهكذا تعزز الخط بين بيت داراس ونيغبا، وأزيل تهديد العدو لمؤخرة نيغبا.

وفي الجنوب الشرقي احتلت الكتيبة ٢/غفعاتي جسير الواقعة خلف غات وغلؤون.

وجرت في هذه الليلة محاولة اخرى ـ انتهت ايضا الى فشل ـ لاحتلال مركز شرطة عراق سويدان. وقد كُلِّفت، هذه المرة، الكتيبة ٧ التابعة للواء «النقب» القيام بالمهمة. فتحت غطاء من نيران مدافعنا الرشاشة الخفيفة والمتوسطة تقدمت الكتيبة التي كُلِّفت الاقتحام نحو مركز الشرطة. واقتحم المهاجمون اربعة سياجات، لكن اكتشف سياج خامس لم يكن متوقعا. وكان المقتحمون يتعرضون لنيران غزيرة صادرة من نوافذ مخفر الشرطة المشرفة على منطقة السياج ومن مدفع رشاش منصوب في اعلى برج المركز. وسقط معظم المقتحمين: خبراء التدمير. وتضاءلت النيران الصادرة عنا للمشاغلة والتغطية، بينما ازدادت نيران العدو كثافة. وعندما وصل قائد الجماعة الامامية وخبراء التدمير المرافقون له الى بوابة مبنى المركز، كان الفجر قد بدأ بالبزوغ فاضطرت القوة، التي وصلت تقريبا الى الهدف، الى الانسحاب. وهكذا فشلت محاولتنا الثالثة لاحتلال مركز شرطة عراق سويدان.

وفي مقابل هذا الفشل، احرزت قوات لواء «النقب» انتصارا في مكان آخر ـ في اقصى الجنوب. فقد نجحت كتيبة النقب الجنوبي ـ الكتيبة ٨ ـ في احتلال مركز شرطة بير

عسلوج، وفي السيطرة على المعسكر الحربي المجاور له. ووقع لنا في هذا الهجوم حادث مفجع. فقبل انسحاب المصريين أخفوا لغما في مبنى مركز الشرطة، وعندما دخل رجالنا المبنى شغّل المصريون اللغم بواسطة شحنة كهربائية، فنُسف المبنى ودفن عشرة من أفراد وحدة البلماح تحت الانقاض. وقدرت خسائر العدو بـ ٢٥ قتيلا. وأسرنا عددا من الافراد بينهم ضابط مصري، وغنمنا غنائم كثيرة من ضمنها سيارات وأسلحة وذخيرة ووثائق مهمة ـ الوثائق الاولى التي وقعت في ايدينا منذ بداية الحرب مع المصريين.

وبذلك قطع لفترة ما الطريق الصحراوي من العوجا الى بئر السبع. وفي اثناء الهدنة تمركز المصريون على المرتفعات الواقعة شمالي بير عسلوج، وبحمايتها شق المهندسون المصريون طريقا موقتا التف حول بير عسلوج وأعادوا الاتصال ببئر السبع.

عزل النقب

بحلول صباح يوم ٦/١١ سرى مفعول الهدنة. لكن قبل ذلك نجح المصريون في وضعنا امام حقيقة منتهية خطرة. فقد تمركزوا عند تقاطع طريق النقب الداخلي مع طريق المجدل ـ الفالوجة في المكان المدعو باسم «هتسومت» [مفترق الطرق]. وبذلك أغلقوا أمامنا الطريق الى النقب، وأتاحوا لأنفسهم حرية التنقل بين المجدل والفالوجة من دون ازعاج.

وفي المقابل، تمركزت وحدات من الكتيبة ٢ التابعة للواء «النقب» في موقعي كوكبا وحليقات جنوبي مفترق الطرق، وسرية من الكتيبة ١/غفعاتي في الموقع ١١٣ الذي يقع الى الشمال منه. لكن لم يكن في ذلك ما يغير حقيقة عزل المصريين للنقب. 230

منذ احتلال برير، عشية الغزو، حتى الهدنة لم يكن النقب محاصرا. وجاءت الهدنة الاولى فعزلته من جديد.

ملاحظات ختامية

لن يكتمل وصف العمليات على الجبهة المصرية ما لم نتطرق ـ ولو بأسطر معدودة ـ الى صمود المستعمرات في «المؤخرة» التي لم تهاجَم مباشرة. فهذه ايضا تحصنت ونظمت صفوفها للدفاع وجند رجالها لأعمال بناء الاستحكامات في خط الجبهة، وفرض عليها تقديم جزء من اسلحتها لمستعمرات الجبهة، واستيعاب اطفالها الذين تم اجلاؤهم. ولم يغفل المصريون عن هذه المستعمرات، اذ قصفتها طائراتهم طوال فترة المعارك. وفي يوم الهدنة، هوجمت روحاما سبع مرات من الجو، بالقنابل الحارقة والرشاشات. وحتى حلول الهدنة قصفت الطائرات تل ابيب ١٦ مرة، وأحيانا عدة مرات في اليوم الواحد. وقصفت رحوفوت ٤ مرات، وريشون لتسيون مرتين. وقصفت امكنة كانت واقعة في مدى المدفعية: بئيروت يتسحاق وساعد ونير عام وغيفر عام ومكوروت وبيت اشل ونفاطيم.

وخلال شهر الغزو هذا، اخليت او سقطت عدة مستعمرات يهودية:
في الجنوب: ياد مردخاي ونيتسانيم، اللتان استعدناهما خلال الحرب.
في الوسط: هارطوف، التي استعدناها؛ غوش عتسيون والنبي يعقوب وعطروت، شمالي البحر الميت والحي اليهودي في البلدة القديمة في القدس التي ما زالت بيد العدو.
في الشمال: مشمار هايردين، التي اعيدت الينا في نهاية الحرب؛ مشروع نهرايم الذي ما زال بيد العدو.

وأخليت ايضا في هذه المرحلة من الحرب مستعمرات غيزر ومساده وشاعر هغولان وغيثوليم، لكن قواتنا عادت فاحتلتها بعد ايام معدودة.

وكانت المستعمرة الوحيدة التي اخليت في مرحلة لاحقة هي كفار داروم. فبعد صمود بطولي طويل تقرر عدم الاحتفاظ بها لفترة اطول، وأخليت عشية معارك «الايام العشرة».

وفي هذه المرحلة من الحرب ــ من الغزو حتى الهدنة الاولى ــ سقط ٨٦٧ مقاتلا ونحو ٣٠٠ مدني.

هدأت الجبهة. ومن داخل المواقع ومن داخل الدشم خرج جنود الجانبين. وحيث كانت المواقع قريبة من بعضها، قابل بعضهم بعضا وتبادلوا الاحاديث. وكان المصريون يشعرون بفضول لمعرفة العصابات «الصهيونية»، التي سمعوا عنها كثيرا، وتحاربوا معها لمدة شهر تقريبا. وفي كفار داروم اجرى عرب دير البلح «صلحة» بذبح الخرفان ورشف القهوة؛ فقد ملأ صمود الموقع قلوبهم اعجابا وخوفا.

لقد كانت هناك حقا اخفاقات وخسائر كثيرة. وسقطت فعلا مستعمرتان: ياد مردخاي ونيتسانيم. واضطررنا فعلا الى الانسحاب من عدة مواقع، وفشلت هجمات عديدة. لكن كان من حق المدافعين عن الجنوب والنقب ان يفخروا بانجازاتهم. ان المصريين، كباقي الجيوش العربية، لم يحققوا هدفهم الرئيسي؛ فدولة اسرائيل لم تدمر، وجيش الدفاع لم يسحق. بل العكس، فقد اظهرت التجربة حتى الآن اننا نستطيع، بالتعزيزات والتدريبات ــ وخصوصا بالاسلحة الاضافية التي كنا متأكدين من وصولها ــ ان نتغلب على جيش نظامي.

أ ــ التنظيم والتسليح

ادى انتهاء الانتداب واقامة الدولة الى تغير بعيد المدى في ظروف عمل الصناعة العسكرية وشراء السلاح، فأزيلت القيود التي كانت تثقل عليها داخل البلد؛ وكان هناك احتمال بأن يحدث قيام الدولة تغيرا حاسما في الدول الاخرى ايضا، لجهة تسهيل شراء الاسلحة ونقلها. لكن الحظر البريطاني واعتبارات اخرى، نابعة من علاقات دول اوروبا الغربية بالدول العربية وبريطانيا، حالت ايضا بعد قيام الدولة دون بيع العتاد العسكري لنا بصورة مكشوفة ونقله الى البلد علنا. إلا ان تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا هما فقط اللتان قدمتا لنا ما قدمتاه بصورة شبه رسمية.

ان اعلان الدولة جلب معه غزو الجيوش العربية، التي كان تفوقها الاساسي متمثلا بالعتاد الثقيل: المدافع والطائرات والدبابات.

ففي مقابل مدافع العدو لم يكن لدينا سوى ٢٤ مدفعا خفيفا مضادا للطائرات من عيار ٢٠ ملم، كانت تستخدم احيانا كمدافع مضادة للدروع. وفي مقابل أسراب المقاتلات والقاذفات التابعة للعدو لم يكن في حيازتنا سوى «بريموسات»* وطائرات نقل كانت مضطرة الى ان تجثم خلال النهار على ارض مطاراتها وهي مخفية قدر الامكان، وأن تنطلق للعمل خلال الليل فقط.

وكانت قوتنا المدرعة مشكلة من بضع عشرات من المصفحات المنتجة محليا ــ «السندويشات» الشهيرة ــ ودبابتين من طراز «كروموول»، «مأخوذتين» من البريطانيين. وكانت تقف في مواجهتها كتائب الدبابات المصرية والسورية، وكتائب المصفحات العراقية والاردنية. وكان سلاحنا المضاد للدروع قليلا ايضا. لكن على الرغم من اننا كنا نشكو القلة وأيدينا فارغة، فقد كانت تلوح امامنا فرص جيدة لتغيير نسب القوى هذه. اذ جرت عمليات مكثفة في جميع انحاء العالم لشراء الاسلحة، وكنا بحاجة الى الوقت فقط للاستفادة منها. وبدأ سباق مع الزمن. وفي ١٩٤٨/٥/١٥، وصلت الى ميناء تل ابيب سفينة تحمل

* تسمية اطلقت على طائرات خفيفة معدة لاغراض الاتصال والمراقبة فقط.

مدافع الميدان الخمسة الاولى (مدافع من عيار ٦٥ ملم). وبسرعة ارسلت هذه المدافع الى وادي الاردن، مما كان له أثر في تطور المعارك هناك.

وبعد ايام من ذلك، في ٥/٢٥، وصلت الى البلد سفينة اخرى جالبة مدافع ميدان اخرى ومدافع هاون من عيار ١٢٠ ملم وبنادق ورصاصا لها. وكما حدث بالنسبة الى المدافع السابقة، شُكل لهذه المدافع ـ قبل وصولها ـ اطقم من بين رجال المدفعية العبريين الذين خدموا في الجيش البريطاني. وهكذا، اصبح في الامكان من الآن فصاعدا ارسال المدافع الى باقي الجبهات؛ فشاركت في الهجوم الاول على اللطرون، في ٥/٢٥، المدافع من عيار ٦٥ ملم؛ وشاهدناها ايضا في اثناء الهجمات على اشدود وجنين، التي جرت في نهاية شهر ايار/مايو. 232

وبعد بضعة ايام، في ٥/٢٨، وصلت سفينة ثالثة تحمل شحنة متنوعة: مدافع من عيار ٧٥ ملم، وهي المدافع الاولى التي يمكن مقابلتها، من ناحية مداها، بمدافع الـ ٢٥ رطلا التي كانت لدى الفيلق العربي والجيش المصري، وبمدافع الميدان الموجودة في حيازة الجيشين السوري واللبناني؛ وأيضا ـ عدد من المدافع الرشاشة الثقيلة من طراز «هوشكز»؛ وآلاف عدة من البنادق التشيكية؛ ومدافع رشاشة خفيفة؛ وكميات من الذخيرة الخفيفة. وقد لاقت رحلة هذه السفينة صعوبات نجحنا في التغلب عليها.

وجنبا الى جنب مع محاولة نقل الاسلحة بطريق البحر، حاولنا نقل اسلحة الى البلد بطريق الجو ايضا.

وفي مرحلة لاحقة زدنا ايضا في مشترياتنا من الطائرات، سواء الطائرات المقاتلة من نوع «ميسرشميدت» او طائرات النقل. ولاقى نقل طائرات الـ «ميسرشميدت» الى البلد صعوبات كثيرة. كما تم شراء اسلحة وأعتدة اخرى.

وبحلول الهدنة كان وضعنا التسليحي افضل كثيرا من وضعنا ايام الغزو.

ب ـ عمليات سلاح الطيران الاسرائيلي

حتى يوم الغزو كانت هناك في قواتنا الجوية ثلاثة اطر عملياتية مشكلة من ثلاثة أسراب من طائرات «بريموس». وكانت هذه الاسراب تنشط من مطارات مختلفة.

وكما ذكرنا اعلاه، كان العرب متفوقين علينا تفوقا مطلقا في عدد الطائرات ونوعيتها.

وكانت تل ابيب ونير عام اول مستعمرتين «حظيتا» بالهجمات الجوية المصرية في اليوم الاول للغزو. وأُسقطت في ذلك اليوم اول طائرة مصرية. وبعد ذلك شنت هجمات جوية يوميا تقريبا على امكنة مختلفة في البلد، لكن القصف لم يكن عنيفا جدا.

ونورد هنا احد الاحداث «الغريبة» خلال حرب الاستقلال، وهو الهجوم الجوي المصري على رامات دافيد في صباح ١٥ ايار/مايو. فقد كان البريطانيون لا يزالون بعد في

المطار، والمصريون ــ على ما يبدو ــ لم يكونوا يعرفون ذلك. وبالتالي هاجمت طائراتهم الـ«سبيتفاير» المطار وأعطبت على الاقل ٣ طائرات «سبيتفاير» بريطانية. وفوجىء البريطانيون بذلك واستشاطوا غضبا، ووضعوا عددا من طائراتهم على اهبة الاستعداد تحسبا لتكرار الهجوم. وفعلا، فقد ظهر بعد نصف ساعة من اليوم نفسه، سرب مكون من اربع طائرات «سبيتفاير»، فلاقاه البريطانيون هذه المرة في الجو، وبدأت المطاردة. وكانت النتيجة ان اسقط «سلاح الجو الملكي» في هذه المعركة الجوية طائرتين مصريتين وألحق أضرارا بالطائرتين الأخريين. وأسر رجالنا طيارا اضطر الى الهبوط بالقرب من دالياه، في جبال أفرايم.

وفي الايام التالية واصل العدو قصف نقاط في شمال البلد ووسطه وجنوبه من دون ان يلاقي اية مقاومة. وفي المقابل بدأ سلاح الطيران الاسرائيلي بعمليات قصف ليلية. في ١٩ ايار/مايو، بدأ سرب تل ابيب بعملياته المكثفة. ويشتمل السجل اليومي للسرب على عمليات كثيرة كانت، في معظمها، من اجل تقديم مساندة ــ ولو كانت محدودة ــ لقواتنا المقاتلة.

233

وفي هذه الاثناء، وصل الى البلد كثيرون من متطوعي «ماحل» [المتطوعون من خارج البلد] من جميع انحاء العالم. وكان هؤلاء الاشخاص ذوي خبرة كبيرة بالعمليات الجوية، وبسرعة بدأوا العمل كطياريين وفنيين وفي مراكز مهمة في هيئة اركان سلاح الطيران. وكان لهؤلاء «الانكلو ساكسونيين» فضل كبير في بلورة السلاح من الناحيتين العمليانية والتنظيمية.

وبموازاة التحول الحاسم في مجال الطاقة البشرية التابعة للسلاح، حدث تحول آخر في مجال العتاد لا يقل عنه اهمية. وصلت الى البلد طائرات الـ«كوماندو» والطائرات المقاتلة الاولى. وقامت الطائرات المقاتلة بأول عملية لها ضد الطابور المصري، لكن العدو استمر مسيطرا على أجواء البلد كما استمر في القيام بعدد كبير من الهجمات.

وفي ٦/٣ حدث الانعطاف. ففي الساعة ١٨,٠٠ تقريبا، دوت صفارات الانذار في شوارع تل ابيب. وسمع سكان المدينة هدير المحركات وهو يقترب، قبل ان يتمكنوا من الوصول الى الملاجىء. وعلى بعد من الشاطىء شوهدت طائرتا «داكوتا»* تقتربان من المدينة وتشرعان في القاء قنابلهما. وفي تلك اللحظة انقضت من ناحية الشمس، من فوقهما، طائرة مقاتلة اطلقت نيرانا مقننة، رشقة ــ رشقة، على احداهما. وحاولت الطائرة المصرية الافلات من الهجوم بالهبوط وبالقيام بدورات حادة، لكن الدخان بدأ يتصاعد من محركاتها، وشوهدت تهوي في اتجاه بات يام محاطة بستار كثيف من الدخان. وتحطمت على الشاطىء على بعد نحو ٢٥ كلم الى الجنوب من بات يام، وقتل طاقمها. وفي هذه الاثناء طاردت طائرة «الميسرشميدت» التابعة لنا الطائرة المصرية الثانية، وفتحت عليها النار. وحاولت الطائرة المصرية الابتعاد وهي تقوم بدورات حادة، لكنها اصيبت هي ايضا وشوهدت تهوي في اتجاه الجنوب، الى داخل منطقة عربية. وفي وقت لاحق اكتشف حطامها.

---

* طائرة نقل اميركية.

واحتفل السرب المقاتل بانتصاره الاول. وفي اليوم التالي حقق انتصارا حاسما ثانيا، وذلك بمعركة بحرية ـ جوية. ففي عصر يوم ٦/٤، اعطيت قيادة سلاح الطيران كل طائرة صالحة للاستخدام تعليمات بالاغارة على ثلاث سفن مصرية، اقتربت من شواطىء تل ابيب، وبدأت تقصفها. وقد اقلعت ثلاث طائرات، الواحدة تلو الاخرى، واقتربت من احدى السفن باذلة جهدها لاصابتها. وبسبب النيران القوية المضادة وقلة خبرة الطيارين بالهجوم على هدف متحرك من دون اجهزة توجيه للقذائف، اصيبت السفينة بقذيفة واحدة فقط، مع انه شنت عليها ست هجمات. لكن، على الرغم من ذلك فقد فرت السفن نحو الجنوب، في اتجاه غزة. وطاردتها طائراتنا. وقد اصابت نيران السفن القوية احدى طائراتنا، فسقطت في البحر، وقتل الطيار ورجل المدفع فيها.

وبعد تاريخ ٦/٣ لم تحاول الطائرات المصرية مهاجمة تل ابيب بطائرات «داكوتا». وتحطم تفوق العدو الجوي. وفي المقابل واصل سلاح الطيران الاسرائيلي عملياته. ففي ليل ٦/١ هاجمت طائرات السلاح لأول مرة عاصمة عدوة ـ عمان ـ وألحقت أضرارا بمعسكر حربي يقع بالقرب منها. وأدى هذا الهجوم الى تدخل البريطانيين الذين منعونا من الاستمرار في قصف المكان.

234 وبدأت طائراتنا من طراز «ميسرشميدت» القيام بطلعات استكشافية وقتالية وبغارات. وفي هجوم على طابور مصفحات في منطقة طولكرم، اصيبت طائرة «ميسرشميدت»، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الطيار، فقد سقطت الطائرة في البحر قبالة مخمورت. ونجح الطيار، وهو يهودي اميركي، في الهبوط في البحر وسبح عائدا الى الشاطىء. وعندما خرج من الماء خشي ان يظنه رجال المستعمرة الراكضون نحوه مصريا (بسبب لون بشرته الداكنة)، فأخذ يصرخ بصورة متواصلة «غعبيلتع بيش». وكانت هاتان الكلمتان هما الوحيدتان اللتان استطاع ان يعرف نفسه بهما على انه يهودي.

ولا يمكن تلخيص عمليات السلاح في تلك الايام من دون ذكر عمليات الوحدات التي نشطت في الوقت نفسه في النقب والجليل.

لقد نفذ سربا طائرات الـ «بريموس» اللذان نشطا في هاتين المنطقتين كل مهماتها ـ مساندة في هجمات، استطلاع وايصال مؤونة الى مستعمرات منعزلة ـ في ظل ظروف صعبة بصورة خاصة، بجسارة وبنجاح مذهل.

وبينما كانت الهدنة تقترب، خطط سلاح الطيران الاسرائيلي لعملية اغارة على عاصمة عربية اخرى: دمشق. وفي ليل ٦/١٠، قبيل الهدنة تماما، اقلعت في اتجاه دمشق طائرة «داكوتا» تحمل قنابل يفوق وزنها طنين ونصف الطن. وحلقت فوق المدينة مدة تزيد على ٣٠ دقيقة، ألقت خلالها قنابلها من دون ازعاج من الارض وفي ضوء القمر. ولم تتسبب القنابل في الحقيقة بضرر كبير، لكن التأثير النفسي على سكانها كان هائلا.

وقد خسر العدو في شهر المعارك طائرتي «داكوتا» وأربع طائرات «سبيتفاير» وطائرة «هارفارد» واحدة. ووقع في الاسر ثلاثة طيارين مصريين.

ج ــ التطورات التنظيمية

ان اعلان قيام الدولة من ناحية، ومواجهة الجيوش العربية النظامية من ناحية اخرى، استوجبا تغييرات جذرية في بنية القوة العبرية العسكرية وتنظيمها وأنظمتها. ففي ١٩٤٨/٥/٢٦، اصدرت الحكومة الموقتة، بتوقيع رئيسها، «المرسوم رقم ٤» ــ مرسوم انشاء جيش الدفاع الاسرائيلي ــ ونصت بنوده الرئيسية على ما يلي:

أ) ينشأ بناء على هذا المرسوم جيش الدفاع الاسرائيلي، ويتشكل من الاسلحة البرية وسلاح الطيران وسلاح البحرية.

ب) في حالة الطوارىء يطبق تجنيد اجباري لجيش الدفاع الاسرائيلي بكل اذرعه. ويتحدد سن المكلفين بالخدمة وفقا لما تقرره الحكومة الموقتة.

ج) كل من يخدم في جيش الدفاع الاسرائيلي ملزم بأداء قسم الولاء لدولة اسرائيل ودستورها وسلطاتها المعتمدة.

د) يحظر انشاء او تجنيد اية قوة مسلحة خارج نطاق جيش الدفاع الاسرائيلي.

وفي ١٩٤٨/٥/٣١، اصدر رئيس الحكومة ووزير الدفاع أمرا يوميا تضمن نص القسم الذي كان على كل جندي وجندية يخدمان في الجيش ان يؤدياه. وفي اعقاب حظر قيام اية جيوش باستثناء جيش الدفاع الاسرائيلي، اتفق مع قائد الايتسل، في ١٩٤٨/٦/١، على حل منظمته ووضع كل القوة البشرية وأعتدتها الخاصة في تصرف جيش الدفاع الاسرائيلي. أما ليحي فكانت قد حلت نفسها في وقت سابق.

235

وأنشئت في هذه الفترة لأول مرة قيادات جبهات. فعين في الشمال قائد للجبهة الشمالية بأسرها، وفي الوسط قائد لجبهة القدس كلها. وبالنسبة الى باقي الجبهات ظلت القيادة قائمة على اساس الالوية. وأضيفت تشكيلات عسكرية اخرى الى جيش الدفاع الاسرائيلي. فكما رأينا كان هناك، وقت الغزو، تسعة ألوية: ٧ ألوية مشكلة من قوة الميدان في المناطق، و٣ ألوية بلماح. وأنشىء منذ الغزو ايضا اللواء «شيفع» ــ «اللواء الجديد» ــ وبدأ بالتشكل لواء مدرع، كما انشىء في الجليل الاعلى الشرقي لواء «عوديد». ولم يكن عدد الافراد في جميع هذه الالوية واحدا. فقد تراوح عدد الكتائب في الالوية بين كتيبتين وخمس كتائب. وكان عدد الوحدات والجنود في الكتائب مختلفا.

وبالنسبة الى عدد المقاتلين فانه لم يحدث تقدم كبير خلال هذه الاسابيع.

كان معظم المجندين الجدد غير مدرب، وفقدت الوحدات المقاتلة الكثير من أفرادها وكانت متعبة، حتى ان بعضها كان خائر القوى.

وكان عدد الاصابات بين القادة ــ قادة الجماعات والفصائل والسرايا ــ كبيرا.

د ـ التطورات السياسية

في اثناء العمليات العسكرية التي وصفت اعلاه، جرىّ نشاط سياسي بشأن مشكلة ارض ـ اسرائيل في مقر الامم المتحدة، في البلد وفي عواصم الدول العظمى وفي الدول العربية.

ان اعلان اقامة الدولة (في ١٤/٥/١٩٤٨) تم في اليوم نفسه الذي عقدت فيه الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة دورة استثنائية في «فلاشينغ ميدوز» لمناقشة مشروع القرار الذي تقدمت به الولايات المتحدة لاقامة نظام وصاية في جميع انحاء ارض ـ اسرائيل، بعد ان كانت الولايات المتحدة قد اعلنت في آذار/مارس تخليها عن مشروع التقسيم. وبينما كانت الجمعية العامة منعقدة والمناقشات جارية، وصل نبأ اعلان قيام دولة اسرائيل. وعندها ازداد التوتر، إذ خرج جميع البريطانيين من البلد. ولم يقم اي جهاز للأمم المتحدة من شأنه «ان يتولى زمام الامور». وكان السؤال الذي تردد على شفاه الجميع: ماذا سيحدث الآن؟

وكانت الخطوة التالية غير متوقعة؛ فبعد دقائق معدودة من اعلان قيام الدولة، وبينما كانت الجمعية العامة تناقش الاقتراح الفرنسي ـ الاميركي بانشاء ادارة دولية موقتة في القدس، علم ان الولايات المتحدة اعترفت بـ «الحكومة الموقتة كحكومة واقعية (de facto) لدولة اسرائيل».

لم تكن هناك اية سابقة لاعتراف بدولة لم تتضح حدودها بعد، وعمر حكومتها يوم واحد فقط. وكان هذا الاعتراف بمثابة تدخل سياسي صارخ لمصلحتنا من جانب رئيس الولايات المتحدة، هاري ترومان، اكثر مما كان عملا يعكس منطقا قانونيا. وقد عزز هذا التدخل مكانة اسرائيل في صراعها ضد العرب، اذ انه وضع حدا لخط المهادنة الاميركية للعرب، الذي كان من ابرز معالمه اقتراح الوصاية المقدم في ١٩/٣/١٩٤٨. ففي الصراع الداخلي في الولايات المتحدة، بين وزارة الخارجية و «البيت الابيض» (الرئيس)، كانت الغلبة في النهاية لهذا الاخير.

236 وتبع الاتحاد السوفياتي الولايات المتحدة، فكان اول دولة اعترفت باسرائيل اعترافا شرعيا كاملا (de jure).

وكان هذا ايضا واحدا من انجازات الامم المتحدة، اذ ايد الخصمان الكبيران فيها فكرة واحدة (كل منهما بناء على حيثياته الخاصة به).

وفي ضوء ذلك، لم يبق امام الدورة الاستثنائية إلا ان تعين وسيطا من قبل الامم المتحدة لمعالجة الوضع في ارض ـ اسرائيل. وعين في هذا المنصب الكونت السويدي برنادوت. وقد اثرت شخصيته وآراؤه وأسلوبه وأعماله في الاحداث السياسية في الاشهر الاربعة التالية لدورة الجمعية العامة.

وقد كُلِّف الوسيط مهمتين رئيسيتين: أ) وقف النار، اي هدنة بين الطرفين المتقاتلين والاشراف عليها؛ ب) ايجاد اساس لحل سلمي بين الاطراف المتخاصمة.

وكانت الهدنة من اختصاص مجلس الامن، الذي اجتمع في ليك سكسيس في ١٥ ايار/مايو. وعرضت عليه برقية من وزير الخارجية المصري: «بدأت قوات مصرية الدخول الى ارض ـ اسرائيل لاحلال الامن والنظام». وكان هذا تحديا صارخا لـلامم المتحدة وقراراتها: العمل العدائي الاول منذ انتهاء الحرب العالمية. ولم يكن في وسع الامم المتحدة السماح لهذا العدوان بالنجاح، وتبقى في الوقت نفسه الجهة المخولة دوليا بحل النزاعات بالطرق السلمية، والجهة المعنية بالامن والشرعية. وقد عبر تريغفي لي، الامين العام للأمم المتحدة في تلك الفترة، عن هذا الموقف في كتاب له. لكن مجلس الامن لم يتخذ في ذلك اليوم اي اجراء، كما لو انه كانت هناك مؤامرة صمت في المجلس كله (باستثناء المندوب السوفياتي الذي احتج بشدة على خرق قرارات الجمعية العامة)، تذكر المرء بأشد اللحظات كآبة في فترة المصالحة في عهد تشامبرلين. لقد وقفت المؤسسة الدولية العليا عاجزة امام الاحداث.

لكن ما عجز مجلس الأمن عن فعله، قدرت عليه قوات «الهاغاناه» في ارض ـ اسرائيل. اتضح للعرب ان الامر ليس بالسهولة التي يتخيلون. وبدأت جهود الوسيط ـ لاعلان الهدنة ـ تعطي ثمارها. وفي النهاية وبعد تأجيلات عديدة، سرى مفعول الهدنة في صباح ١٩٤٨/٦/١١.

بَينَ هُدْنَة وَهُدْنَة [237]

(أ)

بعد فترة قصيرة من سريان مفعول الهدنة الاولى، اجتمع في تل ابيب قادة الالوية البرية التابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي الى وزير الدفاع ورؤساء الشعب في هيئة الاركان العامة لتبادل الآراء فيما يتعلق بعبر الماضي وبالتعديلات التي ينبغي اجراؤها استعدادا للمستقبل.

وكان الانطباع العام هو ان الهدنة الاولى جاءت في الوقت الملائم... «نزلت علينا كالندى من السماء» ـ قال احد القادة. فقد كانت الوحدات متعبة وخائرة القوى. وكانت الخسائر في كتائب سلاح المشاة عالية جدا. وكان من الضروري منح الرجال فترة استجمام لاسترداد القوى. كما كان من الضروري ارسال تعزيزات للكتائب.

وفي ختام المناقشات قال رئيس الحكومة ووزير الدفاع انه يعتقد اننا قمنا بعمل جبار في الاسابيع الاربعة السابقة. لكن العدو احرز في اثنائها نقاط تفوق معينة. «اذا استؤنف القتال ـ وينبغي افتراض انه سيستأنف ـ فسندخل معركة الحسم».

ولخص رئيس الحكومة الخطط لاستغلال الهدنة، وذلك في الجلسة التي عقدتها الحكومة الموقتة بتاريخ ١٤ حزيران/يونيو. وتوقف، بين امور اخرى، عند عدد من المشكلات الرئيسية:

أ) مشكلة ارسال المواد الغذائية والمؤن الى القدس وتحسين «طريق بورما» وتوسيعه (كان مراقبو الامم المتحدة وضباط الفيلق يفتشون بدقة القوافل المارة على الطريق الرئيسي الى القدس، عبر اللطرون، ويمنعون ـ بموجب بنود الهدنة ـ زيادة مخزون المدينة. لكن القوافل التي كانت تمر عبر «طريق بورما» لم تكن تخضع لرقابة كهذه. ومن هنا اهمية تحسين هذا الطريق وتوسيعه).

ب) مشكلة ايقاف نزوح السكان عن القدس، لان الميل الى ذلك اشتد في اوساطهم. وتقرر اللجوء الى اجراءات مشددة لمنع هجر المدينة. كما رفض ايضا اقتراح باجلاء الاطفال عنها.

ج) مشكلة رفع مستوى التدريبات والانضباط في الجيش، واعادة تنظيم بنيته: انشاء قيادات جبهات، الخ. وأيضا زيادة الانتاج الحربي.

د) مشكلة رفع مستوى الجهد القتالي لليشوف برمته.

وبدأت في البلد عملية تنظيم شاملة. واتضح أخيرا اننا استغلينا الهدنة الاولى على 240

افضل ما يمكن، وكان الجيش الذي دخل المعركة في نهايتها قويا ومدربا ومنظما ــ وفي الاساس مسلحا ــ على نحو افضل مما كان عليه في السابق.

وفي المجال السياسي حدثت التطورات التالية: حاول وسيط الامم المتحدة تحقيق مهمته الثانية (الاولى كانت، كما ذكرنا، وقف القتال): تحقيق سلام دائم في المنطقة. ومن اجل ذلك قام بنشاط سياسي شامل وقدم مقترحات سياسية مختلفة، من بينها حل سياسي جديد (سنعرض تفاصيله لاحقا). لكن كل محاولاته باءت بالفشل. وبعد ذلك حاول تمديد الهدنة بصور مختلفة، لكن جهوده فشلت ايضا. وبما ان الهدنة كانت محددة بفترة زمنية، فقد كان من الواضح ان المعارك ستستأنف مع انتهاء الايام الـ ٢٨ المحددة.

وفي ١٩٤٨/٧/٨، اصدر الوسيط أوامره الى مراقبي الامم المتحدة بترك مواقعهم. وانتهت الهدنة وتجددت المعارك. واستبق المصريون في الجنوب موعد انتهاء الهدنة وبدأوا هجماتهم في ليل ٧ ــ ١٩٤٨/٧/٨.

وهكذا بدأت معارك «الايام العشرة» التي استمرت في معظم الجبهات من ١٩٤٨/٧/٩ الى ١٩٤٨/٧/١٨.

ب ــ الجبهة الشمالية خلال «الايام العشرة»

عام

وصفنا اعلاه وضع الجبهة الشمالية في اثناء الهدنة الاولى؛ لم يحقق العدو اي هدف من أهدافه الكبرى. ومع ذلك حقق عددا من النجاحات الجزئية في الايام الاخيرة قبل الهدنة وفي ايام الهدنة نفسها (احتلال مشمار هايردين والمالكية).

وعن طريق بوابة المالكية عادت الى البلد قوات القاوقجي ــ «جيش الانقاذ». وكانت قوات العدو الموجودة في شمال البلد في تلك الفترة اربعا: ١) الجيش السوري؛ ٢) الجيش اللبناني؛ ٣) «جيش الانقاذ»؛ ٤) الجيش العراقي الذي احتشد في المثلث، وكانت قوته موجهة نحو الجبهة الشمالية، وأيضا نحو المنطقة الوسطى: الشارون.

وفي «المثلث الصغير»، في سلاسل جبل الكرمل والقرى الواقعة على سفوحه، كانت لا تزال هناك قوات محلية لم نسيطر عليها بعد. وقد استغلت القوى العدوة هذه الهدنة ايضا لبناء الاستحكامات والتدرب. وحُصِّن رأس الجسر في مشمار هايردين ومنطقة المالكية ــ بنت جبيل، جيدا. وكان هناك اساس للافتراض ان العرب سيحاولون، مع انتهاء الهدنة، اخذ زمام المبادرة ومهاجمة الاماكن التي توقفوا عندها، او مهاجمة نقاط اخرى.

وكان في مواجهة قوات العدو هذه في المنطقتين الوسطى والشمالية، في تلك الفترة،

خمسة ألوية تابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي: لواء «ألكسندروني» في وسط البلد؛ لواء «غولاني» و «كرملي» في الشمال؛ لواء «شيفع» الذي نقل من جبهة اللطرون الى عين شيمر لاعادة تنظيم صفوفه، ثم نقل الى الجليل الغربي؛ لواء «عوديد» الذي انشىء في الجليل الاعلى الشرقي، بعد ان اخرج لواء «يفتاح» من هناك. وكان الهدف العملياني لجيش الدفاع الاسرائيلي هو الدفاع عن أراضي الدولة وشن هجوم استباقي. ومع ذلك، كان من الواضح 242* ان القوات الموجودة في تصرف الجيش لا تمكنه من مهاجمة جميع قوات العدو على الجبهة الشمالية في آن واحد. ولذا تقرر، بعد دراسة طويلة ومتواصلة، اختيار جيشين من جيوش العدو الاربعة هدفا للهجوم: الجيش الاضعف ــ القاوقجي، والجيش الاخطر ــ السوري.

وبناء على ذلك حددت المهمتان التاليتان: ١) تصفية رأس الجسر السوري في مشمار هايردين؛ ٢) ضرب قوات القاوقجي، مع احتلال مناطق في الجليل الاسفل. وهكذا ولدت عمليتا «باروش» و «ديكل».

عملية «باروش»

كان **الهدف** من عملية «باروش» تصفية رأس الجسر السوري في مشمار هايردين.

وكان **اسلوب الهجوم**: تطويق في العمق من ناحية اليسار، شمالي مشمار هايردين، مع هجمات مشاغلة والهاء على رأس الجسر نفسه. وكان على القوة المهاجمة ان تعبر نهر الاردن ليلا، وتصعد الى قرية بيت الجمرك السورية ــ الواقعة شرقي نهر الاردن، والتي كانت اكثر المواقع اهمية في المنطقة ــ فتحتلها. وفي المرحلة الثانية، بعد تطويق القوات السورية في رأس 243 الجسر وعزلها عن قواعدها في القنيطرة، كان يتعين على قواتنا القضاء عليها.

وكانت **القوات** التي خصصت للعملية: الكتائب ٢ و ٣ و ٤ التابعة للواء «كرملي»، والكتيبة ١ من لواء «عوديد».

وكُلِّفت سرايا الكتيبة ٣ التابعة للواء «كرملي» اقامة رأس الجسر شرقي نهر الاردن. وكلفت السرية د التابعة للكتيبة ٣، التي نقلت في ٧/٩ عشية العملية، الى دردرا (وهي اشموراه، شرقي الحولة)، احتلال المرتفعات الواقعة جنوبي دردرا ــ وهي مرتفعات الجلبينة. وكان على السرية ج ان تجتاز الاردن جنوبي الحولة، وتحتل موقعا قريبا من بيت الجمرك ــ خربة دريجات. وكلفت السرية أ احتلال موقع غربي نهر الاردن ــ تل المعبرة.

وكلفت الكتيبة ٢ التابعة للواء «كرملي» اجتياز نهر الاردن، والمرور بطريق سرايا الكتيبة ٣/كرملي والصعود واحتلال بيت الجمرك والتمركز فيها ونسف طريق القنيطرة، وزرع الالغام فيه.

---

* الصفحة 241 في الاصل تحتوي على خريطة لمعارك «الايام العشرة». (المترجم)

وفي اثناء ذلك كان على الكتيبتين الاخريين ـ الكتيبة ٤ من لواء «كرملي» والكتيبة ١ من لواء «عوديد» ـ ان تهاجما وتشاغلا [القوات] في مواقع رأس الجسر من الغرب، وبعد ذلك تدفعا السوريين نحو الشرق وتحتلا المواقع الموجودة الى جانب التلة، وخصوصا الموقع ٢٤٣.

وكان نجاح العملية مرهونا بتنفيذ مهمة هندسية: اقامة جسر على الاردن. وحتى ذلك الوقت كان سلاح الهندسة التابع لنا قد مرّ مرة واحدة فقط بتجربة اقامة جسر على الاردن، وذلك في اثناء محاولة العودة لاحتلال نهرايم، في ٥/٢٨، وفشل في تلك التجربة. والآن كلف سلاح الهندسة القيام بمحاولة اخرى.

وقد نفذت المرحلة الاولى من عملية «باروش»؛ احتلت سرايا الكتيبة ٣/كرملي كل المواقع المحددة لها، لكنها تأخرت في ذلك. وفي المقابل لم يقم الجسر على نهر الاردن واستغرقت محاولات عبور الاردن بقوارب وطوافات احضرت من حولتا، زمنا طويلا. وضغط الوقت علينا بشدة. واتضح ان الكتيبة ٢/كرملي لن تتمكن من الوصول الى بيت الجمرك واحتلالها خلال ساعات الليل. وفي الساعة ٠٤,٠٠ تقريبا غيرت الخطة، وأعيدت الوحدات من الكتيبة ٢/كرملي، التي كانت قد عبرت الاردن، وسحبت الكتيبة بأكملها من المنطقة. وفي المقابل ابقيت في المنطقة سرايا الكتيبة ٣/كرملي التي كانت قد احتلت مواقعها، على افتراض تنفيذ المرحلة الثانية من العملية في الليلة السابقة.

وفي الغرب نجحت عمليات التضليل والمشاغلة، واحتل ايضا الموقع ٢٤٣ والمنطقة المحيطة به. وبدا كل شيء انه يسير على ما يرام، وسيستمر هكذا.

لكن مع طلوع النهار بدأ العدو هجوما كبيرا. واتضح انه بينما كانت وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي تخطط لعملية «باروش» كان العدو يعد لهجوم خاص به. وكان هدفه كما يبدو الاندفاع نحو روش بينا وقطع الطريق الى الشمال. وبما انه كان من عادة جيش الدفاع الاسرائيلي العمل ليلا، ومن عادة السوريين الهجوم نهارا، فقد سبقناهم نحن بعدة ساعات. وعندما اتضح للسوريين الهدف من عمليتنا وجهوا كل قوتهم، التي كانت محتشدة في رأس الجسر، ضد وحداتنا التي كانت تحتفظ بالمواقع المرتفعة. وظهرت نتائج تفوقهم الجوي والمدفعي وتفوقهم في المدرعات بسرعة. واضطرت قواتنا الى اخلاء كل المواقع التي تحتلها. وانسحب قسم من رجالنا في اثناء النهار، بينما صمد قسم آخر ببطولة حتى ساعات المساء، لانه كان واضحا ان الانسحاب في وضح النهار هو بمثابة انتحار. وفي المساء انسحبت القوات الاخيرة. لكن السوريين بعد ان عاودوا احتلال مواقعهم هذه، لم ينجحوا في احراز اي تقدم يذكر.

244

وكان اليومان التاليان يومي قتال متواصل. فقد حاول السوريون احتلال مستعمرة دردرا الواقعة شرقي الحولة. وبعد قصف مدفعي ممهد عنيف جدا وقع الهجوم، بقوة كتيبة تقريبا. وأصيب المهاجمون بنيران الاسلحة المساندة، وفي النهاية تحطم هجومهم لدى

اصطدامهم بحقل ألغام. وكان عدد اصاباتهم كبيرا. فقد احصى المراقب من البرج، عند الصباح، جثث نحو ٥٠ جنديا سوريا كانت متناثرة على منحدرات الجبل، في الجانب الشرقي من المنطقة.

وشنت هجمات اخرى ايضا في اتجاه حولتا واييليت هشاحر ومحنايم، لكنها صدت جميعها.

وفي الليلة السابقة ليوم ٧/١٤، قامت وحدات عملية «باروش» بمحاولة اخرى لتصفية رأس الجسر. وفي هذه المرة عزمنا على «حل المشكلة» من دون عبور نهر الاردن، وذلك بشن الهجوم من جنوبـي مشمار هايردين. وكان هذا القطاع قد ظل حتى ذلك الحين هادئا نسبيا. وتحركت سريتا مشاة ـ واحدة من الكتيبة ٢/كرملي والثانية من الكتيبة ٣/كرملي ـ بمحاذاة نهر الاردن، من الجنوب الى الشمال، بينما شُنت هجمات مضايقة وغارات على حشود العدو المدرعة. وكان في نية السريتين الوصول الى مشمار هايردين ونسف الجسر، والاغارة على الحشود السورية الموجودة هناك وارغامها على الانسحاب. لكن، عندما وصلت طليعة القوة الى مواقع السوريين وجدتهم متأهبين يقظين، فاضطر رجالنا الى الانسحاب.

وبعد ذلك لم يقم اي من الطرفين المتحاربين بمحاولة لخوض معركة حاسمة. اكتفى السوريون بهجمات بالمدرعات، من حين الى آخر، على هذا الموقع او ذاك؛ وفي احدى المرات حاولوا مهاجمة اييليت هشاحر. ويبدو ان قوات مشاتهم تكبدت في هذا الهجوم خسائر فادحة، اذ لم يعاودوا الكرة.

أما عمليات وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي في قطاع مشمار هايردين، فقد اقتصرت على هجمات مضايقة وزرع ألغام و«اصطياد» دبابات. وفي أواخر معارك «الايام العشرة» استخدم في هذا القطاع ايضا سلاح الطيران الاسرائيلي. قصفت «قلاع طائرة»، وصلت للتو الى البلد، حشود السوريين بنجاح وألحقت بها اصابات وأضرارا كبيرة، في منطقة رأس الجسر وضواحي بيت الجمرك، بيد ان قوات المشاة التابعة لنا لم تكن قادرة، في ذلك الوقت، على استغلال نجاح سلاح الطيران، وعندما اعلنت الهدنة الثانية كنا نحتفظ في هذا القطاع بالمواقع نفسها التي كنا نحتفظ بها وقت الهدنة الاولى.

وتلقينا شهادة غير متوقعة تدل على نجاح عملية «باروش» كعملية دفاع فعال، بعد عدة سنوات من حدوثها، على لسان نقيب سوري كان موجودا في تلك المنطقة. فقد قدر قوات جيش الدفاع الاسرائيلي في ذلك القطاع بـ ١٠,٠٠٠ مقاتل ـ اي ما يقارب خمسة اضعاف القوة التي كانت موجودة فعلا.

وهناك حادثة ملفتة للانتباه تتعلق بهذه العملية ولها صلة بالشيفرة، وتذكر بحادثة مشابهة تعود الى عهد القضاة، حين دارت حرب اخرى على مخاضات نهر الاردن.

وبما انه كان من المعروف انه يصعب على العرب ان يلفظوا حرف الـ p، فقد اختيرت في كل ليلة من ليالي العملية شيفرة يرد فيها حرف الـ p: «بوبيك» و«بشبشاش»، وغيرهما.

245 وفعلا، كانت هناك حالات اكتشف فيها العرب الشيفرة، اذ كانت المسافة قريبة، لكن طريقتهم في اللفظ احبطت نواياهم، مثلما احبطت «هشيبوليت» [السنبلة] ابناء أفرايم عندما قاتلهم يفتاح على مخاضات الاردن.

الانسحاب من مرتفعات جنين

عندما كان جيش الدفاع الاسرائيلي يهاجم السوريين في رأس الجسر، شن العراقيون هجوما علينا في قطاع جنين. وكما ورد اعلاه، كانت وحدات الجيش الاسرائيلي قد اقامت، عشية الهدنة الاولى، خطا دفاعيا على بعد ٣ ــ ٤ كلم الى الشمال من المدينة. لكن هذا الخط لم يكن قائما على تضاريس جغرافية مريحة، وكان يمر بواد. وعلاوة على ذلك كانت تحميه قوة قليلة العدد جدا، موزعة على شكل وحدات صغيرة متباعدا بعضها عن بعض. وكان من الواضح لنا انه في حال قيام الجيش العراقي بهجوم كبير، فستجد قيادتنا نفسها امام خيارين: إما الانسحاب من هذا الخط، واما ارسال نجدات كبيرة اليه من قطاعات اخرى بسرعة ــ وهو امر قد يعرقل العمليات التي كنا سنبادر اليها على الجبهة نفسها.

بدأ الهجوم العراقي في ٧/١٠. وبعد قصف مدفعي على مواقعنا، خرجت قوات مشاة العدو من مواقعها متجهة نحو مواقعنا بتغطية من المصفحات والاسلحة المساندة. وأمام هذه 246 القوات المتفوقة بدأت قواتنا بالانسحاب. وكانت تلك معركة انسحاب قاسية، لكنها واحدة من انجح معارك الانسحاب في هذه الحرب. وأقامت الوحدات المنسحبة خطا في منطقة مريحة اكثر ــ من المزار في مرتفعات غلبواع حتى زرعين. وقد حاول العدو عدة مرات مهاجمة هذا الخط واختراقه، لكن قواتنا كانت متمركزة هنا في تضاريس ارضية افضل مكنتها من صد هجماته. وتم تثبيت هذا الخط، وبقي خط الحدود في هذه المنطقة حتى بداية الهدنة الثانية وحتى عقد اتفاقية الهدنة، اي حتى يومنا هذا.

وكان قوام القوات التي حاربت في هذه المنطقة الكتيبتين ٣ و ٤ من لواء «غولاني». وكانت القوات الاخرى التابعة لهذا اللواء تجابه في ذلك الوقت هجمات القاوقجي.

هجمات القاوقجي على الشجرة (ايلانيا)

بينما كانت المعارك العنيفة تدور في رأس الجسر في مشمار هايردين، وبينما كان العراقيون يشنون هجماتهم على منطقة جنين، بدأ القاوقجي هجماته ــ وهي الاعنف منذ بداية الحرب ــ على الشجرة (ايلانيا).

فبعد ان حشد القاوقجي جيشه في منطقة الجليل الاسفل، بدأ محاولته الاولى لاحتلال الشجرة (ايلانيا) عشية الهدنة الاولى. وعندما سرى مفعول الهدنة عاد فأعلن انه ليس عضوا

في الامم المتحدة، وبالتالي فان قرارات الامم المتحدة ليست ملزمة بالنسبة اليه. وواصل هجومه في هذا القطاع، الى ان اوقفته قوة وحداتنا (انظر الخريطة 42*).

فشل القاوقجي في الجولة الاولى. والآن بدأ الجولة الثانية. وكان في اثناء الهدنة قد عزز قوته، وأصبح جيشه الآن محشودا في هذا القطاع. وانضم اليه القرويون وفلول العصابات التي بقيت في الجليل. وبدأت هذه القوة بأسرها، مع انتهاء الهدنة الاولى، بشن هجمات على الشجرة (ايلانيا) استمرت ثمانية ايام متتالية.

وتشبث أفراد الكتيبة ٢ التابعة للواء «غولاني» بمواقعهم في المكان في وجه التفوق الساحق للعدو، الذي هاجمهم بتغطية مدفعية وبمساندة من المصفحات. وصمد رجالنا بعناد وشجاعة في المعارك التي دارت وجها لوجه عدة مرات احيانا في اليوم الواحد. وقامت بدور حاسم في هذه المعارك «فصيلة الكوماندو» ــ الفصيلة المختارة التي نفذت معظم الهجمات المضادة على قوات العدو المهاجمة وأغارت على خطوطه في العمق. وفي كل ليلة كان خبراء التدمير ينطلقون لزرع الالغام في المناطق المهجورة و«المناطق الميتة» الواسعة الممتدة اسفل مواقعنا. وأصيب كثير من المهاجمين نتيجة انفجار هذه الالغام، إلا ان القاوقجي استمر في زج موجة في اثر اخرى بحنق شديد. وقرر ان يحتل الشجرة مهما يكن الثمن.

وكانت اهمية الشجرة واضحة: بالنسبة الينا كانت بمثابة نقطة انطلاق لفتح طريق كفار تافور ــ طبريا، التي كانت مغلقة امام حركة مواصلاتنا (في ذلك الوقت كانت حركة مواصلاتنا من كفار تافور تمر عبر يفنيئيل وطبريا). وعندما انطلقنا منها لاحتلال لوبية، في نهاية المرحلة السابقة من اجل فتح الطريق، فشل هجومنا. لكن كان من ضمن مخططاتنا محاولة فتح هذا الطريق من جديد. وبالنسبة الى عرب الجليل، كانت الشجرة تهدد الطريق الوحيد لهم، المتجه من الناصرة الى الشمال، اي طريق الناصرة ــ عيلبون ــ المغار. وكانت سيطرتنا على الشجرة تعني امكان عزل الناصرة عن مؤخرتها العربية.

247 وقد ادرك القاوقجي ذلك، ولذا أراد ازالة التهديد. وربما كان هدف القاوقجي من احتلال المكان في البداية عسكريا فقط، لكن فشله المتتالي جعل امر الاحتلال بالنسبة اليه قضية هيبة واعتبار. وشن هجوما تلو الآخر، وموجة تلو الأخرى، واقتحاما تلو الآخر، لكنها جميعا تحطمت عند سور رجال الكتيبة ٢ التابعة للواء «غولاني».

وكان اعظم الهجمات الهجومين اللذين شنا في ٧/١٢ و ٧/١٤.

ففي ٧/١٢ استخدمت مدافع القاوقجي قذائف الشظايا (Shrapnel) في هجوم شن في آن واحد من الشمال والغرب والشرق. وفي ٧/١٤، هاجم القاوقجي مرة اخرى بعد ان وصلته تعزيزات، وهذه المرة بمساندة جوية (من العراقيين كما يبدو). وشنت في ذلك اليوم ثماني هجمات، كانت أواخرها في الليل، وصدت جميعا.

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٨. (المترجم)

وبينما كان القاوقجي مشتبكا معنا في الشجرة، ظهرت عند مؤخرة قواته قوات عملية «ديكل» من ناحية الغرب.

عملية «ديكل»

جرت عملية «ديكل» في منطقة الجليل الغربي. وقد انتقل خط الحدود في هذه المنطقة، عشية الهدنة الاولى، الى سفوح التلال الواقعة شرقي الشريط الساحلي. فقد حاولنا عشية الهدنة الاولى السيطرة على عدد من هذه التلال لتثبيت خط حدود افضل لنا، واحتللنا البروه والمواقع المشرفة عليها، كما احتللنا مواقع مرتفعة بالقرب من ترشيحا. وحاول القاوقجي، الذي لم يشأ الاعتراف بالهدنة، ان ينتزع هذه المواقع من ايدينا في اثناء فترة الهدنة. ووقعت اشتباكات محلية هنا طوال فترة الهدنة. واستعدادا لتجدد المعارك تقرر ان تنفذ في هذه المنطقة عملية «ديكل»، التي كان هدفها الرئيسي: مهاجمة قوات القاوقجي وضربها في قواعدها. ووضعت في تصرف قائد العملية ٤ كتائب: الكتيبة ١ التابعة للواء «كرملي» (كتائب اللواء الثلاث الأخرى حشدت للقيام بعملية «باروش»)، وكتائب اللواء «شيفع» الثلاث ــ كتيبتا المشاة ١ و٢*، والكتيبة المدرعة ٩.

248

وشكلت الكتيبة المدرعة العنصر الاساسي في القوة الضاربة للواء «شيفع»، وأضيفت اليها سرية واحدة من كل كتيبة مشاة من كتائب اللواء.

وكانت المرحلة الاولى للعملية هي السيطرة على القرى الواقعة على سفوح جبال الجليل الغربي؛ من الكابري في الشمال، مرورا بالبروه في الوسط، وانتهاء بشفا عمرو في جنوب القطاع.

وكان جزء من هذه القرى قرى درزية: كفر ياسيف وأبو سنان وغيرهما. وقد امتنع دروز هذه القرى عن محاربتنا بعد هزيمتهم في معارك رامات يوحنان.

وعندما بدأت هجماتنا الاولى وسقط عدد من الاماكن في ايدينا، بدأ موفدون بالوصول الينا ليلا حاملين طلبات بالاستسلام.

وهكذا انتقلت هذه القرى الى ايدينا من دون معارك وخسائر، لكن انطلاقنا منها في اتجاه الشرق لاقى صعوبات، اذ كانت قوات القاوقجي تسد طريق تقدمنا في هذا الاتجاه. وبدأت المعارك عند مشارف مجد الكروم وترشيحا.

249

وفي هذه الاثناء ازداد وضع الشجرة خطورة، وبات من الضروري مساعدتها كي لا تسقط. فتقرر نقل مركز الثقل في هجومنا الى الجنوب. وبينما كانت قوات القاوقجي مشغولة شرقا في قطاع الشجرة، وغربا في قطاع البروه وترشيحا، هاجمنا شفاعمرو؛ كانت

* الكتيبة ٢ كانت كتيبة مجندين جدد كانوا في ذلك الوقت لا يزالون في مرحلة التدريب. ولم تشارك هذه الكتيبة في العملية.

اكثرية سكان هذه القرية من الدروز، وأقليتها من المسلمين. ولاحتلال البلدة تم التنسيق بين جيش الدفاع الاسرائيلي وممثل الدروز فيها. وبعد ان قصفت المدافع حي المسلمين، اقتحمت قوات الجيش القرية من اتجاهين: فتسللت وحدات مشاة من الكتيبة ١/ كرملي اليها من الخلف من ناحية الشرق، بينما هاجمتها سرية مدرعة من الكتيبة ٩/ شيفع بمحاذاة الشارع الرئيسي من الغرب. وانهارت مقاومة المسلمين بسرعة، وسقطت شفا عمرو في يدنا في فجر ٧/١٤.

وأصبح الآن لعامل الوقت من جهة، ولعامل التضليل المنهجي من جهة اخرى، اهمية حاسمة. وكان هدف العملية في هذه المرحلة مهاجمة الناصرة من ناحية شفاعمرو، وفي الوقت نفسه تضليل القاوقجي ومنعه من معرفة الغاية من خطوتنا هذه.

وفي ذلك اليوم، ١٤ من الشهر، تحركت ثلاث فصائل من دورة قادة الجماعات التابعة للواء «غولاني» من قاعدتها في منطقة نهلال، واحتلت معلول وأقامت اتصالا بكفار هحوريش، الواقعة غربي الناصرة والتي كانت معزولة ومقطوعة طوال اشهر عديدة. ورافق هذا الهجوم هجوم آخر ــ نفذته الوحدة ــ على المجيدل الواقعة شمالي جنجار. واستنتج العدو من ذلك اننا ننوي مهاجمة الناصرة من الجنوب، من ناحية سهل يزراعيل [مرج ابن عامر]. وكان هذا الجانب من المدينة محصنا جيدا ومحميا بحصن الشرطة الاكبر في البلد الذي شيد في عهد البريطانيين. ويبدو ان عرب الناصرة كانوا واثقين من قدرتهم على صد اي هجوم من هذه الناحية.

وكان القاوقجي مشغولا في ذلك اليوم بالشجرة. وحاول طوال اليوم اقتحام المكان واحتلاله ولم ينتبه الى ما كان يجري في مؤخرة قواته.

وبينما كان ينهي هجماته الاخيرة، في ليل ١٤ ــ ١٥، ويستنفد قواه الباقية، كان طابور الآليات التابع للواء «شيفع» ينظم صفوفه في شفاعمرو، استعدادا للهجوم على الناصرة.

كانت القوة مشكلة من كتيبة الآليات ٩ التابعة للواء «شيفع»، ومن سريتي مشاة من الكتيبة ١ التابعة للواء «كرملي». وفي مساء ١٥ تموز/يوليو، انطلقت القوة الى مهمتها. وبسرعة وصلت الى ضواحي تسيبوري ــ صفورية ــ بعد ان قطعت في تلك الليلة مسافة ١٥ كلم تقريبا داخل منطقة العدو. وعلى الفور نظمت صفوفها لشن الهجوم، وبدأته في الليلة نفسها. لقد كان عرب صفورية معروفين دائما في الجليل بأنهم محاربون أشداء، لكن القرية سقطت من دون قتال تقريبا من جراء هول المفاجأة. وفي الساعة ٠٦,١٥، ابلغت قيادة اللواء: «احتلت صفورية. خسائرنا: قتيل وجريحان».

وفي يوم ٧/١٦ نظمت القوات صفوفها، واحتلت مواقع في الطريق الى الناصرة. وفي الساعة ١٦,٣٠، بدأت المرحلة الثالثة للعملية. وكان هدفها احتلال الناصرة (انظر الخريطة 44*).

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٩. (المترجم)

تقدم طابور عسكري ـ مشكل من سريتي مصفحات، وسرية مجنزرات، ومدفع من عيار ٢٠ ملم، وفصيلة اغارة مكونة من سيارات جيب ـ في اتجاه المدينة. وانضمت الى المهاجين سريتا مشاة من الكتيبة ٣ التابعة للواء «غولاني»، جاءتا من الجنوب عبر كفار هحوريش. وعندما وصلت طلائع الطابور الى منخفض من الارض يبعد نحو ٢ كلم عن المدينة، جوبهت بنيران اسلحة خفيفة. وتابع الطابور تحركه من دون توقف، وهو يطلق النار على العدو. ولم يكن تأثير نيران العدو كبيرا اذ لم يصب احد، باستثناء بضع آليات اصيبت بالرصاص. 250

ويظهر ان قائد المدينة تشجع في هذه الاثناء وأرسل سرية مصفحات، بعضها مجهز بمدافع من عيار ٣٧ ملم، لايقاف تقدم طابور الآليات. وفي الساعة ١٧,١٥، شوهدت مصفحات العدو وهي تتقدم. ونقل المدفع من عيار ٢٠ ملم، الذي كان محمولا على مجنزرة في وسط الطابـور الى مقدمته. وعلى بعد ٥٠٠ متر تقريبا نزلت المجنزرة عن الطريق وهاجمت طابور مصفحات العدو من الجانب. وكانت نيرانها فتاكة، فأصيبت ست مصفحات للعدو من اصل تسع مصفحات وفرت البقية.

وفي الساعة ١٧,٤٠، دخلت طليعة الطابور المدينة، وتوقفت عند مفترق الطرق الواقع شماليها. ومن هناك قصفت المواقع الرئيسية المسيطرة على المدينة، وأرسلت وحدات مشاة لاحتلالها.

وسُيِّرت في المدينة دوريات من المصفحات ووحدات بحجم فصائل.

وفي الساعة ١٨,١٥، ظهر وفد من اعيان المدينة حاملا علم الاستسلام. وعند حلول الظلام ارسلت فصيلة بمواكبة فصيلة مصفحات لاحتلال مركز شرطة الناصرة والتمركز فيه. وكانت المعلومات التي بلغتنا تفيد بأن الحصن قد خلا من حماته، وفعلا تحققت صحة هذه المعلومات. وباحتلال مركز الشرطة اكتمل احتلال المدينة (في مركز الشرطة وجدت وثائق كثيرة، وخطط، وأوامر وتقارير خاصة بقيادة القاوقجي).

وفي الساعة ٢٠,٤٠ تقريبا، اعلنت قيادة اللواء «شيفع»: «الناصرة كلها في قبضتنا». وفي الوقت نفسه جرت الاستعدادات العملية لاقامة حكم في المدينة، وعين حاكم عسكـري وضعت في تصرفه وحدة من الشرطة العسكرية.

في الساعة ٢٢,٠٠، وقعت شروط الاستسلام. وبذلك انتهت قصة الناصرة. أما خسائرنا فكانت جريحا واحدا، بينما بلغت خسائر العدو ١٦ قتيلا، بينهم انكليزي وألماني وعراقي.

وظهرت فورا آثار سقوط الناصرة في الطرف الثاني من الجبهة، في قطاع الشجرة (ايلانيا). ففي ظهيرة يوم ٧/١٦ بدأ فرار واسع النطاق بالسيارات عبر طريق الناصرة ـ عيلبون. ووجهت نيران من مدافع رشاشة من موقع شمالي الشجرة الى السيارات للمضايقة. ويظهر ان احد مساعدي القاوقجي اصيب في احدى السيارات. وفي الساعة ١٨,٠٠،

فتحت النيران للمرة الاخيرة على مواقع المستعمرة. وكان غرض العدو منع اغلاق طريق انسحابه. وفي صباح اليوم التالي، انسحب «جيش الانقاذ» من ضواحي الشجرة، وتنفست المستعمرة والمناطق المحيطة بها الصعداء.

النتائج: بسقوط الناصرة انهار الجليل الاسفل العربـي، ولاحت في الافق علائم هدنة ثانية. وأصبح من الضروري استغلال النجاح بسرعة شديدة، على الرغم من الارهاق الذي حل بوحدات «ديكل». وخلال اليومين الباقيين حتى حلول الهدنة، سقطت قرى كثيرة واستسلمت اخرى.

من إكسال الواقعة اسفل الناصرة قدم السكان، وجلبوا الى المستعمرة المجـاورة سلاحهم محمولا على عربة تجرها الخيول، وطلبوا الاستسلام.

ودبورية الكبيرة، التي هي دبيرت الواقعة على سفح جبل الطور، والتي خاض فيها وينغيت معارك عنيفة على رأس «السرايا الليلية» [وحدات الكوماندو الليلي]، رفعت الاعلام البيض واستسلمت لراكبين في سيارة جيب.

251 ولوبية المسيطرة على تقاطع طرق الشجرة سقطت من دون قتال، وفُتح الطريق امامنا الى طبريا.

واستغل اقتحام الناصرة ايضا في الغرب، في القطاع الذي بدأت فيه عملية «ديكل». استسلمت القرى الواقعة بين شفاعمرو والبروه: تمره والرويس والدامون. وتغلغلت فصيلة مصفحات على رأسها قائد العملية في عمق منطقة العدو، واحتلت قرية سخنين، لكن لم تكن معها قوة مشاة لاحتلالها بصورة دائمة. فعادت المصفحات الى الغرب بعد ان تسلمت كمية من الاسلحة من سكان القرية؛ وبعد ان تُركت سخنين وشأنها، عادت فاستسلمت لقوات القاوقجي. وأيضا في قطاعات ترشيحا في الشمال لم ننجح إلا في تحسين مواقعنا؛ فقد حالت الهدنة الثانية من ناحية، وتعب قواتنا من ناحية اخرى، دون المزيد من استغلال النجاح. ومع اقتراب الهدنة الثانية تثبت، اذن، خط الجبهة. في الشمال اتحد مع الخط الانتدابـي، من البحر حتى شمالي شرقي حانيتا. ومن هناك انحدر جنوبا عبر يحيعام حتى 252 تمره. وهنا انعطف شرقا حتى عيلبون ثم صعد شمالا مرورا بصفد حتى النبـي يوشع. وبالقرب من النبـي يوشع من جهة الشمال عاد فاتحد مع الخط الانتدابـي وامتد حتى المطلة (متولا).

«المثلث الصغير» في الكرمل

كما سبق ان ذكرنا، خصص الجهد الرئيسي في العمليات على الجبهة الشمالية ــ في «الايام العشرة» ــ للجيشين الموجـودين في قطاعهـا الشمالي: «جيـش الانقـاذ» بقيادة القاوقجي؛ والجيش السوري في رأس الجسر. وكان الجهد الرئيسي للـواء «ألكسندروني» موجها في الفترة نفسها الى قطاعها الجنوبـي. اذ شارك اللواء في عملية «داني» وفي العمليات

التي جرت بموازاتها، شمالي قطاع العملية، في قطاع روش هعاين [رأس العين]. ولذا لم يبذل جهد مهم لضرب العدو الموجود في الوسط، بين منطقة «ألكسندروني» والجبهة الشمالية، اي القوات العربية المحلية التي كانت لا تزال تسيطر على «المثلث الصغير» في الكرمل. وكانت عين غزال واجزم وجبع هي القرى التي تشكل رؤوس «المثلث».

وكان هؤلاء العرب، سكان الكرمل، يضايقون حركة المواصلات العبرية، وخصوصا على الطريق الساحلي، منذ بداية الاحداث. ونتيجة هذه المضايقات لم نستطع استخدام القسم من الطريق الواقع بين زخرون يعقوف وحيفا. وحولت حركة المواصلات، المتجهة من تل ابيب الى حيفا، الى وادي الـمَلَك مرورا بيكنعام، ومن هناك عبر طريق مشمار هعيمك ــ ياجور الى حيفا.

وفي اعقاب احتلال حيفا ضاقت حدود سيطرة العرب في الكرمل. احتلت بلد الشيخ؛ فتحت عسفيا الدرزية ودالية الكرمل، التي تقطنها اكثرية درزية، أبوابها امام جيش الدفاع الاسرائيلي. واحتلت الكتيبة ٤ التابعة للواء «غولاني» في ٥/١٥ ام الزينات الواقعة في وادي الملك. واحتلت الطنطورة الواقعة على شاطىء البحر، قبالة بداية طريق وادي الملك، في ٥/٢٣. وسقطت الطيرة الواقعة جنوبي حيفا في ايدينا، خلال معارك «الايام العشرة»، في ٧/١٦. واستعانت القوات البرية في هذا الهجوم للمرة الاولى بنيران من البحر. اذ شاركت السفينة «ايلات» في قصف المكان تمهيدا لاحتلاله. وفي اليوم نفسه شاركت «حانه سانش» و«تكفا» بنيران موجهة من اسلحة خفيفة في العمليات ضد قريتي صرفند وكفرلام، الواقعتين بالقرب من شاطىء البحر بين الطنطورة وعتليت. وفي اليوم التالي، شاركت ايضا «ويغوود» في قصف عين غزال.

لقد تضاءلت سيطرة العرب شيئا فشيئا، لكن بقي هناك في الكرمل عدد من القرى العربية الجريئة والعنيدة. وهذه القرى لم تصمد فحسب، وانما ايضا واصلت منع حركة مواصلاتنا على الطريق الساحلي. وخلال الهدنة الاولى وبعدها، اقام سكانها حواجز على عرض الطريق وحفروا فيه حفرا لاغلاقه تماما. وأخذ عدد هذه القرى يتناقص الى ان اصبح في النهاية ثلاث قرى استحقت، على غرار مدن «المثلث الكبير» ــ طولكرم ونابلس وجنين ــ لقب «المثلث الصغير». وهذه القرى هي: عين غزال وجبع، القريبتان من شاطىء البحر واللتان شكلتا قاعدة المثلث، وإجزم ــ الواقعة في سهول الكرمل ــ التي شكلت رأسه (اليوم تدعى هذه القرى: عين ايالا، غيفع هكرمل، كيريم مهرال). وكان طول كل ضلع من اضلاع المثلث نحو ٣ كلم بخط مستقيم. ومع ان قيادة القوات العربية التي صمدت فيه كانت على اتصال بواسطة اللاسلكي ــ وحتى بواسطة العدّائين ــ بالقيادة العراقية في «المثلث الكبير» إلا ان «المثلث الصغير» كان عمليا يخوض منفردا ــ في الفترة السابقة والآن ــ معركته الأخيرة. 253

كانت محاولتان سابقتان، في ١٨/٦/١٩٤٨ و ٨/٧/١٩٤٨، قامت بهما قوات جيش الدفاع الاسرائيلي لشل العدو في «المثلث الصغير» قد انتهيتا الى فشل.

وقد ورد في تقرير عن العملية ضد قرية إجزم التي نفذت في ٨/٧، ردا على قيام رجال هذه القرية بعملية تخريبية في طريق حيفا ــ زخرون يعقوف، التالي: «اظهر العدو خلال الهجوم دراية دقيقة وسريعة بالوضع، وقيادة جيدة، وروحية هجومية، وميلا الى الاقتحام. وبرزت بوضوح كثرة الاسلحة الاوتوماتيكية ــ وخصوصا المدافع من نوع برن ومدافع الهوتشكس ومدافع الهاون من عيار ٥٢ ملم».

ولاحقا ــ خلال «الايام العشرة» ــ لم يعاود جيش الدفاع الاسرائيلي مهاجمة القرى. وفي الحقيقة وضعت خطة لعملية ضدها إلا ان الهدنة الثانية حلت قبل الموعد الذي توقعناه، وقبل ان نتمكن من تنفيذ خطط كثيرة، بينها خطة تصفية «المثلث الصغير».

لقد فرضت الهدنة قيودا سياسية على تنفيذ العملية ضد هذه القرى؛ لكن من جهة اخرى، خفف عنا حقيقة ان هذه القرى الثلاث كانت وفقا لقرار التقسيم تابعة لدولة اسرائيل، وانها كانت موجودة داخل نطاق سيطرتنا العسكرية التامة. ولذا خطط لهذه العملية على اساس انها عملية بوليسية ضد سكان متمردين على الدولة، يرفضون الاعتراف بالسلطة الشرعية صاحبة السيادة. إلا ان هذه العملية كانت من الناحية التنفيذية عملية عسكرية فعلا، ودعيت باسم عملية «شوتير» [الشرطي].

وحشدت لهذه العملية قوة مشكلة من ٤ سرايا من قوات المشاة (واحدة من الكتيبة ٥ التابعة للواء «غولاني»، وواحدة من لواء «كرملي»، واثنتان من لواء «ألكسندروني»: الاولى من الكتيبة ٣، والثانية من الكتيبة ٥، وأيضا سرية مشكلة من خريجي دورة قادة جماعات عقدها هذا اللواء)، ومن عدة من المصفحات والمدافع ومدافع الهاون والرشاشات المتوسطة.

وكان الوقت الذي خصص لاعداد العملية قصيرا، وتم استطلاع المنطقة من الجو فقط.

وتضمنت خطة الهجوم مرحلتين: مرحلة أ: احتلال عين غزال وجبع؛ ومرحلة ب: احتلال إجزم.

قوات وأهداف:

سرية اولى ــ مهاجمة جبع من الشمال.

سرية ثانية ــ مهاجمة عين غزال من الجنوب.

سرية ثالثة ــ مضايقة إجزم، وقطع الطريق على النجدات في حال انطلاقها منها.

وكان على الاسلحة المساندة والمدفعية ان تساند الهجوم من المكان الذي وضعت فيه في المنبسط الساحلي.

وكان على الطابور المدرع ان يتحرك على طريق حيفا الرئيسي، من الجنوب الى الشمال ويعزل «المثلث» من الغرب.

التنفيذ: في مساء السبت، ٧/٢٤، انطلقت القوات لأداء مهماتها. وفي الليلة الاولى فشلت العملية. فالسرية التي قامت بحركة التفاف من الشمال هوجمت وهي في الطريق، وتكبدت خسائر واضطرت الى الانسحاب. والسرية التي قامت بحركة التفاف من الجنوب اخطأت في الموقع، واحتلت موقعا غير مشرف على عين غزال. كما ان السرية التي كُلِّفت مضايقة إجزم لم تحقق هدفها.

وفي صباح ٧/٢٥ قامت السرية الرابعة بمحاولة اخرى للتحرك خلف المصفحات على الطريق الساحلي والاقتراب من الغرب. لكن الحواجز في الطريق اوقفت تقدم المصفحات والسرية. 254

لقد فشل الهجوم لكن المدافع ومدافع الهاون قامت بمهمتها خير قيام. فطوال يوم ٧/٢٥ قصفت القرى بشدة، وشارك ايضا سلاح الطيران بتركيز شديد في قصف الاهداف. وبدأت المقاومة العربية تتحطم. واكمل الهجوم الذي جرى في الليلة الثانية المهمة. تسللت السرية الرابعة هذه المرة الى شرقي عين غزال وجبع وعزلتها عن إجزم. وأعادت السريتان الاوليان الكرة، واحدة من الشمال والاخرى من الجنوب، وسيطرتا على قريتي جبع وعين غزال من دون مقاومة تذكر. وبعد فترة قصيرة من ذلك استسلمت إجزم ايضا.

واتضح ان عرب هذه القرى هجروها في المساء وشقوا طريقهم نحو وادي عاره. ووقع قسم بسيط من المنسحبين في كمائننا فتكبد بعض الخسائر. وعلى الرغم من ذلك وصل الى المثلث العربي («الكبير») نحو ٨٠٠ شخص مع اسلحتهم الخفيفة ــ ٨١٠ بنادق ونحو ٢٠ «برن». واستقبلهم سكان المثلث بحرارة، وزودتهم القيادة العراقية بالاغذية ووزعت الرجال منهم على القرى المختلفة. ولم يبق امام قواتنا سوى ازالة الالغام والحواجز من الطريق الساحلي، الذي فُتح امام حركة المواصلات بين حيفا وتل ابيب.

ج ــ الجبهة الوسطى خلال «الايام العشرة»

عملية «داني»

كانت أهداف العملية:

أ) ازالة التهديد عن منطقة تل ابيب من جانب قوات الفيلق المعسكرة في الرملة ــ اللد ــ اليهوديه وذلك بابادة العدو في هذا القطاع.

ب) توسيع الممر الى القدس الذي نشأ بفضل طريق «بورما»، وبفضل احتلال قرى العدو في كل القطاع الواقع شرقي اللطرون.

ج) ايقاف الضغط على القدس عن طريق إشغال الفيلق في كل القطاع الممتد من الرملة الى القدس.

وبصورة عامة، اخذ زمام المبادرة من يد العدو في هذا القطاع وإلحاق الضرر به والغاء تفوقه الطوبوغرافي.

وكانت القوات التي حشدت لتنفيذ هذه المهمة هي التالية: لواءا بلماح ــ لواء «هارئيل» ولواء «يفتاح»؛ اللواء المدرع ٨ ــ ومن ضمنه كتيبة الدبابات ٢ وكتيبة الكوماندو ٩ المحمولة على سيارات جيب ونصف مجنزرات؛ كتيبتا مشاة ــ الكتيبة ٢ من لواء «كرياتي» والكتيبة ٣ من لواء «ألكسندروني»؛ وحدات اخرى تابعة للواء «كرياتي»، من ضمنها وحدات قوة الحراسة، التي كانت مهمتها الدفاع عن الخط؛ قوات جوية ومدفعية وهندسة وضعت في تصرف قائد العملية.

وقسمت منطقة العملية الى قطاعين: في القطاع الشرقي ــ الممتد على الجزء من الممر الواقع شرقي باب الواد (شاعر هغاي) ــ عمل لواء واحد فقط، هو لواء «هارئيل»؛ وفي القطاع الغربي عملت القوات الاخرى.

255 في القسم الاول من العملية في القطاع الغربي خطط لاحتلال اللد والرملة، على مرحلتين: أ) تطويق اللد والرملة؛ ب) احتلال اللد واخضاع الرملة والقضاء على العدو.

ومن اجل تنفيذ المرحلة الاولى ــ تطويق اللد والرملة ــ انقسمت القوة كلها الى قوتين: القوة الشمالية، واشتملت على اللواء المدرع وكتيبتي المشاة ٢/ كرياتي و٣/ ألكسندروني اللتين وضعتا في تصرفها؛ والقوة الجنوبية، واشتملت على لواء «يفتاح».

وتقرر ان تنطلق القوة الشمالية من منطقة بيتح تكفا وتنقسم الى عدة قوات فرعية: قوة فرعية ــ الجنوبية ــ تهاجم مطار اللد. وقوة فرعية ثانية ــ الوسطى ــ تهاجم ويلهلمه. وقوة فرعية ثالثة ــ الشمالية ــ تهاجم قولة. وبعد ذلك تهاجم دير طريف ومعسكر بيت نبالا، ومن هناك تواصل التقدم حتى تصل الى مستعمرة بن شيمن المعزولة. كما تقرر ان تنطلق القوة الثانية ــ القوة الجنوبية ــ من البريه (قرية عربية قرب غيزر كانت بيدنا)، فتقطع طريق الرملة ــ القباب ــ اللطرون وتتحرك في اتجاه عنابة، ومن هناك الى جمزو ودانيال حتى بن شيمن، اي: تطويق الرملة واللد من جهة الجنوب الشرقي، وبذلك تعزل هاتين المدينتين عن مؤخرتها العربية.

وتقرر ان تكون بن شيمن مكان التقاء القوتين. وبذلك تنتهي المرحلة أ.

أما المرحلة ب، فيتم تنفيذها باندفاع القوتين معا من بن شيمن الى اللد، والاستيلاء عليها. وبعد ذلك تهاجمان الرملة من الناحية غير المتوقعة ــ ناحية اللد ــ وتستوليان ايضا عليها.

وعين قائد البلماح قائدا للعملية، وعينت قرية يازور مقرا لقيادة عملية «داني». وفي ليل ٩ ــ ١٠/٧ بدأ التنفيذ.

تنفيذ المرحلة أ

تقدمت القوة الجنوبية بصورة سليمة، فاحتلت عنابة في ليل ٩ ــ ٧/١٠، وفي اليوم التالي سقطت ايضا جمزو ودانيال. وفي المساء نفسه، ٧/١٠، وصل الى جمزو قائد العملية ومن هناك ذهب الى بن شيمن برفقة قائد لواء «يفتاح»، في قافلة قوامها ٥ سيارات جيب. وكانت هذه اول قافلة تصل الى بن شيمن منذ بداية الحصار. وانتظروا وصول القوة الشمالية، لكن هذه تأخرت قليلا بسبب المقاومة العنيدة التي ابدتها وحدات نظامية من الفيلق [العربي].

وبالنسبة الى القوة الشمالية سار كل شيء في البداية على ما يرام؛ هاجمت قوة مشكلة من كتيبة الدبابات ٢ التابعة للواء المدرع وكتيبة المشاة ٢/ كرياتي مطار اللد واحتلته. وتقدمت قوات اخرى ــ كتيبة سيارات الجيب والمجنزرات التابعة للواء المدرع وكتيبة المشاة ٣ التابعة للواء «ألكسندروني» ــ واحتلت ويلهلمه ورنتية والطيرة وقولة. ودارت في قولة معركة حامية. وفي المقابل احتلت اليهودية، عمليا من دون قتال، من قبل قوة الحراسة (كان هذا المكان قد احتلته الايتسل خلال «شهر المعارك»، لكنها تخلت عنه بعد هجوم عربي، عشية الهدنة الاولى). وبعد الظهر هاجمت القوة، التي احتلت مطار اللد، دير طريف فاحتلتها، إلا انها اضطرت الى الانسحاب منها بفعل هجوم مضاد قوي. 256

ان الانسحاب من دير طريف والمعركة العنيفة التي دارت في قولة، اعاقا وحدات القوة الشمالية عن الوصول الى بن شيمن في الموعد المحدد: مساء يوم ٧/١٠. وفي اليوم التالي فقط، ٧/١١، نجحت كتيبة الكوماندو ٩/ اللواء المدرع المحمولة على سيارات جيب اللواء المدرع ومجنزراته في احتلال مواقع محيطة بدير طريف، وفي دحر الفيلق نحو بدرس. وفي الساعة ١٦,٠٠ عصرا، وصلت كتيبة الكوماندو الى بن شيمن. لكن الكتيبة الثانية ــ كتيبة الدبابات ــ لم تصل.

تنفيذ المرحلة ب

بدأت المرحلة الثانية من العملية في القطاع الغربي بمعركة نيران خاضتها سريتا مشاة من لواء «يفتاح» ــ بمساندة رشاشات متوسطة ومدافع هاون عيار ٨١ ملم ــ عند مشارف اللد الشرقية. وكانت هذه المعركة ــ التي جرت في وضح النهار ــ في جزء منها عملية استطلاع قتالية، وفي جزئها الآخر محاولة اقتحام.

ولم تنجح سريتا المشاة التابعتان للكتيبة ٣ في دخولها [اللد]، وبدأتا تتكبدان خسائر وتصابان بالانهاك. وفي هذه المرحلة، كلفت كتيبة الدبابات ٢ التابعة للواء المدرع نجدتهما، لكن بدلا من ذلك اقتحمت المدينة ــ بهجوم خاطف ــ كتيبة الكوماندو المحمولة، وروعتها بنيران كثيفة وسريعة. واخترق رجالها المنقولون بسيارات جيب اللد من ناحية بن شيمن حتى حدود الرملة. وقد اضطرت كتيبة الكوماندو فعلا الى الخروج من المدينة وهي تحمل جرحاها، لكن أفراد سريتي المشاة الذين كانوا يهاجمونها من الشرق استغلوا الذعر الذي دب

في المدينة فاحتلوا حيها الشرقي، بينما زجت في المعركة سرية اخرى من قوات المشاة تابعة للكتيبة ١.

لقد روى قائد غارة كتيبة الكوماندو قصة الغارة، ونوردها هنا باختصار:

تحركت الوحدة الى الامام في طابور تتقدمه مصفحة من مصفحات الفيلق، ذات برج ومدفع من عيار رطلين، كانت قد وقعت في قبضة الكتيبة خلال عمليات اليوم السابق. وزدوت برجل مدفعية تدرب بنفسه على استخدام مدفعها، وخبير لاسلكي واسم ملائم ـ «النمر المرعب» ـ ودخلت على الفور في الخدمة في صفوفنا. وكان خلف «النمر» سرية المجنزرات وسيارات الجيب. وعندما وصل الطابور الى مسافة تبعد كيلومترا واحدا عن المدينة، فتحت عليه نيران قوية. وكان «النمر المرعب» يتوقف بين الفينة والاخرى ليرد على نيران المواقع المحصنة، بينما واصلت القافلة طريقها. ومع كل طلقة من «النمر» كانت اكياس الرمل في المواقع تنهار وسحب الغبار تتطاير في الجو، وشوهد العرب يفرون من مواقعهم المصابة. وهذه لحظة مواتية اذ يجب تعقب الفارين. وكان الشارع مغلقا، وانتقلت الوحدة الى طريق جانبي لم يكن لحسن الحظ ملغوما. ومرت فترة قصيرة وجدنا انفسنا بعدها متغلغلين في خط الاستحكامات. وتحركت الوحدة ببطء في الخط الخلفي على الطريق الضيق. وكانت تُنسف استحكامات من فترة الى اخرى. وانصبت النيران بغزارة شديدة. وأطلقت سيارات الجيب، التي كانت حمايتها الوحيدة مدافعها الرشاشة، نيرانها على نوافذ البيوت والاسوار الحجرية ومواقع اكياس الرمل. وحصد سياج من الصبار بنيران المدافع الرشاشة كما لو انه حصد بمنجل. وازدادت سرعة التحرك واجتزنا الاستحكامات.

ومن مفترق الطرق الواقع عند مشارف اللد، واصل الطابور تقدمه جنوبا نحو الرملة، ودخلها تحت وابل من الرصاص. «النمر المرعب» فقط اتجه شمالا ودخل اللد. وجال في *258 شوارع المدينة مطلقا النيران في جميع الاتجاهات، وبعد ذلك اشتبك مع «مبنى الشرطة»، حيث التقاه الطابور وهو عائد من الرملة، وجندي اللاسلكي فيه ينزف دما نتيجة اصابته بشظايا قذيفة. لقد كانت «زيارة» الرملة قصيرة جدا. و«اصيبت» الوحدة «كما ينبغي». كانت سيارات الجيب تحمل اربعة قتلى، والمجنزرات الجرحى، جروح بعضهم بليغة. وأصيب جيب واشتعلت فيه النيران بالقرب من مبنى الشرطة. وكان معظم العجلات مثقوبا وسقطت اجهزة التبريد، وهنا سقطت احدى سيارات الجيب وطار عنها مدفعها الرشاش. ومزق الرصاص عجلات احدى السيارات. وكان هناك عدد من المفقودين ـ جرحى سقطوا من السيارات بالقرب من مبنى الشرطة. وأخذت المعنويات تتدهور. . . وبدأ الجنود بتضميد الجرحى وابدال العجلات المثقوبة.

وأصبح الوقت ثمينا جدا. كان من الواضح انه كلما تأخرت الوحدة في هذا المكان

---

* الصفحة 257 في الاصل تحتوي على خريطة لعملية «داني» (القطاع الغربي). (المترجم)

صعب الانسحاب. ووصلت معلومات عن مصفحات تابعة للفيلق متجهة الى منطقة العملية. وأدركت وحدة الفيلق المتمركزة في مركز الشرطة الواقع بين اللد والرملة، التي فوجئت تماما لدى ظهور الكتيبة اول مرة لاعتقادها انها نجدة آتية من الفيلق، خطأها وتأهبت. وكان طريق الانسحاب يمر من امامها. أما الطريق الآخر فكان في اتجاه طريق اللطرون، ويستلزم اقتحاما من الرملة نحو الشرق.

وصدر الامر بالانسحاب. وحمل الجرحى على السيارات نصف المجنزرة. وتحركت القافلة مارة من امام مبنى الشرطة بتغطية من «النمر». وعادت الكتيبة الى بن شيمن. وكانت خسائرها: ٩ قتلى و ١٧ جريحا. واستغرقت الغارة بأكملها ٤٧ دقيقة.

الى هنا وصف القائد.

لقد كانت الغارة على اللد ــ وهي احدى اجرأ العمليات التي نفذت خلال حرب الاستقلال ــ نموذجا للانجازات التي يمكن لوحدات مدرعة خفيفة تحقيقها. لم يحتل اي موقع ولم يدمر اي هدف ذي اهمية عسكرية، لكن التأثير النفسي ــ الصدمة والمفاجأة وعدم المعرفة الدقيقة بمكان العدو في الحاضر وخططه في المستقبل ــ كان حاسما. ومباشرة بعدها، طهّرت المدينة قوة مشاة من الكتيبة ٣ التابعة للواء «يفتاح»، استغلت لحظات الارتباك واحتلت بسرعة الحي الجنوبي الشرقي في اللد، الذي كانت تسيطر على أطرافه قبل ذلك. ومن هناك اندفعت الى وسط المدينة واحتلت ساحاتها ومبانيها الرئيسية.

وحل الليل قبل ان يتمكن رجالنا من السيطرة على المدينة بأسرها، لكن ممثلي السكان سارعوا الى الاستسلام واعدين بتسليم المقاتلين والاسلحة، وبالمحافظة على السكينة. ومع ذلك لم يكن وضع رجالنا في المدينة مريحا، لان عدد المقاتلين العرب الموجودين في المدينة كان يفوق عدد رجالنا بعدة اضعاف، وكانوا اشبه بآسرين في قبضة أسراهم.

وفي صباح اليوم التالي شن العدو غارة على اللد، ودخلت المدينة فصيلة مصفحات مجهزة بمدافع وفتحت النيران على تجمعات جنود «يفتاح». وكان ذلك بمثابة اشارة الى اولئك العرب الذين لم يكونوا قد سلموا اسلحتهم. فظهرت هنا وهناك اسلحة داخل المدينة، وتعرض رجال وحدة الاحتلال لرصاص القنص من البيوت. وهاجم الفيلق في آن واحد قولة، الواقعة شمالي شرقي اللد، وبيت نبالا ودير طريف الواقعتين شرقيها، وجمزو الواقعة جنوبيها، لكن فصيلة المصفحات التي دخلت المدينة غادرتها بسرعة، وقمع التمرد داخل المدينة.

259 وسر العرب، الذين خرقوا شروط الاستسلام وخشوا اجراء انتقاميا، بالفرصة التي اتيحت لهم للانسحاب من المدينة والرحيل شرقا، الى منطقة الفيلق. وهكذا خلت اللد من سكانها العرب.

وظل مركز الشرطة الواقع بين اللد والرملة مستمرا في المقاومة، لكن المدافعين عنه هجروه في منتصف ليل ١٢ ــ ٧/١٣. وفي اليوم التالي، دخله رجال «يفتاح» ووجدوه خاليا.

وعندما رأت الرملة ان اللد قد احتلت، وأنها هي نفسها اصبحت معزولة، استسلمت هي ايضا في ٧/١٢. ووقع ضابط العمليات في لواء «كرياتي» وثيقة الاستسلام، ودخلت وحدات اللواء الرملة واحتلت المواقع المحيطة بها، ونقل الشبان من السكان الى معسكر للأسرى.

ووقعت في وحدات جيش الدفاع الاسرائيلي غنائم كثيرة، بينها اسلحة ــ من ضمنها عدد من المدافع ــ وأيضا ذخيرة ووقود ومركبات وما شابه ذلك.

تأمين الجناح من الشمال بواسطة لواء «ألكسندروني»

في ١٢ تموز/يوليو، يوم استسلام الرملة، احتلت الكتيبة ٢ من لواء «ألكسندروني» روش هعاين [رأس العين] ومجدل يابا، الواقعتين شمالي قطاع عملية «داني». ولم يؤد احتلالهما الى بسط سيطرة وحدات العملية على التلال الواقعة شمالي منطقة العملية فحسب، بل ايضا منحنا ينابيع اليركون [نهر العوجا] التي كانت القدس تتزود بمياهها منها في الماضي. وحاول العراقيون، الذين كانوا يسيطرون على هذا القطاع، انتزاع هذه الاماكن من يد وحدات لواء «ألكسندروني» بهجوم مضاد، لكنهم صدوا ومنيوا بخسائر كبيرة.

الجزء الاول من العملية في القطاع الشرقي

وضع دور مهم في اطار هذه المرحلة للواء «هارئيل» ــ الذي نشط في هذه المرحلة منفردا ــ في القطاع الشرقي لعملية «داني».

260 وكانت عملياته حتى الآن ما يلي: هجوم (قامت به الكتيبة ٦) على صوبا (تسوفا)، في ليل ١٢ ــ ١٣ تموز/يوليو، لازالة الخطر الذي كان يهدد طريق القدس من ناحية الجنوب، وتوسيع الممر في اتجاه الجنوب.

كانت صوبا واقعة على رأس مرتفع ذي جوانب حادة الانحدار. وقد فشل هجومان شنا عليها في منتصف نيسان/ابريل، في اطار عملية «هارئيل». وفي هذه المرة هاجمتها سريتان بمساندة المدفعية ومدافع الهاون واحتلتاها.

وفي اليوم نفسه احتلت الكتيبة ٤ التابعة للواء «هارئيل» ايضا صرعه، تمهيدا للسيطرة على المناطق الواقعة في ضواحي هارطوف. لكن هارطوف نفسها كانت بيد قوات غير نظامية خاضعة للمصريين.

الجزء الثاني من عملية «داني»

باحتلال اللد واستسلام الرملة اكتمل الجزء الاول من عملية «داني». وشُرع في الاعداد لتنفيذ الجزء الثاني. بيد انه في هذه الاثناء برز عاملان جديدان استلزما تغييرا في الخطة المحلية: اولا، اتضح ان الهدنة باتت قريبة ولم يعد هناك من الوقت للقيام بالعملية سوى اربعة ايام. ثانيا، في هذه الاثناء نقصت القوة الموضوعة في تصرف قائد العملية، اذ ارسلت كتيبة الاغارة ٩ التابعة للواء المدرع الى الجنوب، لمساعدة لواء «غفعاتي». ولذا تقرر تقليص

حجم الجزء الثاني والاكتفاء باحتلال اللطرون وضواحيها فقط، من دون الهجوم على رام الله.

والآن، في اطار الجزء الثاني من عملية «داني»، كُلِّف لواء «هارئيل» مهاجمة اللطرون بالاشتراك مع قوات من «يفتاح» ومن اللواء المدرع ومن «كرياتي». وتضمنت الخطة في هذه المرة ايضا تجزئة القوة الى قوتين:

القوة الشرقية، وهي لواء «هارئيل»، وكان عليها ان تهاجم من ناحية الشرق، ناحية «ريخس هتوتاحيم» [سلسلة جبال المدافع]، اللطرون نفسها في ليل ١٥ ــ ١٦ من الشهر. وتقرر ان تشارك في الهجوم الكتيبتان ٤ و ٦ التابعتان للواء. وقبل ليلة من موعد البدء، في ١٥ من الشهر، كلفت كتيبة ثالثة القيام بعملية تضليلية في اتجاه الرادار، لجذب قوات العدو الى تلك المنطقة، وتقليص قوة العدو في منطقة اللطرون.

أما القوة الغربية، التي شكلت من لواء «يفتاح» ومن كتيبة الدبابات ٢ التابعة للواء المدرع والكتيبة ٢ التابعة للواء «كرياتي»، فقد كان عليها ان تتقدم في المناطق الواقعة شرقي بن شيمن فتحتل برفيليا وتستولي على مفترق طرق بيت سيرا الواقع على طريق اللطرون ــ رام الله، وأن تتمركز هناك في ١٥ ــ ١٦ من الشهر. وبذلك يتم عزل اللطرون من الخلف. وكان على الكتيبة ٢/كرياتي ان تحتل سلبيت، وعلى كتيبة من اللواء المدرع ان تحتل بدرس.

وكان الافتراض ان تسقط اللطرون عندما تعزل من الخلف بعد احتلال بيت سيرا، ومهاجمتها من الشرق.

وحققت القوة الغربية في البداية معظم مهماتها. احتلت برفيليا وسلبيت. واضطرت الكتيبة ٢ التابعة للواء المدرع، التي هاجمت بدرس، الى الانسحاب امام هجمات مضادة شنها الفيلق، وبقي المكان بيد العدو. ولم تنجح ايضا قوات «يفتاح» في الاستيلاء على مفترق طرق بيت سيرا، لكن في المقابل احتلت سرية من الكتيبة ٣ وسرية من الكتيبة ١ موقعي البرج وبير إماعين المسيطرين على طريق اللطرون ــ رام الله، وبذلك حققتا هدفهما تقريبا (في الحقيقة، اتضح لاحقا انه ايضا كانت هناك للعدو «طريق بورما» خاصة به، من الرادار الى اللطرون).

261

أما هجوم القوة الشرقية فقد فشل. في الليلة السابقة ليوم ٧/١٦، بدأت كتيبتا «هارئيل» بهجوم على «ريخس هتوتاحيم». ففي الساعة ٠٢,٤٥ بدأت مدفعيتنا تقصف مواقع العدو. ووصلت السرية التي التفت حول سلسلة الجبال الى مكان الانطلاق للهجوم، ومن دون ان يكتشفها العدو هاجمت السلسلة وانسحب العدو امامها. وقتل في هذا الهجوم ضابط الاتصال في السرية، ولم يجد الشخص الذي حل محله موقع القيادة، فانقطع الاتصال بين السرية وقيادة الكتيبة وباقي السرايا. وتأخرت السرية الثانية، التي امرت باللحاق بالسرية الاولى، في الطريق. وفي هذه الاثناء اتضح ان السرية التي

هاجمت سلسلة الجبال احتلت قسما منها فقط. وبسبب كبر مساحة السلسلة بقي العدو محتفظا بالقسم الآخر منها، ثم انتقل الى شن هجوم مضاد (اتضح لاحقا انه كانت تحمي سلسلة الجبال كتيبة كاملة من الفيلق، كان في تصرفها احتياطي من قوات مدرعة). وصمدت السرية فترة من الوقت امام هذا الهجوم المضاد، لكنها اضطرت في الفجر الى الانسحاب تاركة وراءها ١٩ بين قتيل وجريح في المواقع التي كانت قد احتلتها.

وبانسحاب السرية لم تعد هناك فائدة من الاستمرار في الهجوم، وألغت القوات الاخرى عملياتها وانسحبت.

وفشلت ايضا المحاولة الرابعة لاحتلال اللطرون.

هجمات الفيلق المضادة

في اثر ذلك، شن الفيلق هجمات مضادة ايضا على القوة الغربية ـ على القوات المتمركزة في موقعي البرج وبير إماعين، اذ كان هذان الموقعان يهددان شريان المواصلات الرئيسي للعدو: طريق رام الله ـ اللطرون. ففي عصر يوم ٧/١٦ هوجمت السرايا المتمركزة في القريتين من قبل سريتي مشاة وطابور مدرع للعدو، قوامه ١٠ مصفحات جزء منها مزود بمدافع من عيار رطلين. روى التقرير المتعلق بالهجوم: «اتجهت المصفحات نحو البرج، فتركها رجالنا تتقدم حتى بيوت القرية، وعندها فتحوا عليها نيرانا مضادة للدروع. وبعد معركة استمرت اربع ساعات، انسحب العدو ساحبا معه قتلى وجرحى، وتاركا على ارض المعركة اربع مصفحات وعددا من القتلى. وفي الوقت نفسه، اطلقت مدافع الهاون خاصتنا ورشاشاتنا الثقيلة نيرانها على قوات مشاة العدو، لكنه انسحب قبل ان نتمكن من استكمال تطويقه. وفي اثناء ذلك قصفت طائرات العدو رجالنا في برفيليا». وكانت خسائر العدو في هذه العملية ٦ مصفحات، و ٣٠ قتيلا بقوا على ارض المعركة، ونحو ٥٠ جريحا سحبوا في اثناء الانسحاب. وكانت خسائرنا: ٣ قتلى و ٧ جرحى.

معارك قولة

في ٧/١٦، شُنت هجمات مضادة ايضا على القوات الموجودة شمالي قطاع عملية «داني». فقد هاجم طابور مدرع وقوة مشاة تابعان للعدو قرية قولة، التي كانت تحميها الكتيبة ٢/ألكسندروني، واحتلاها. وفي ساعات العصر شنت قوات مدرعة من الكتيبة ٢ من اللواء المدرع وسريتا مشاة من الكتيبة ٣ من لواء «ألكسندروني» هجوما مضادا، واستردت المكان. وفي اليوم التالي، عاد العدو فهاجم المكان ونجح في احتلاله ثانية؛ لكن وحدة «ألكسندروني» شنت هجوما مضادا آخر واستعادته. لقد انتقلت قرية قولة من يد الى يد ثلاث مرات خلال «الايام العشرة». وفي النهاية، بعد خسائر كبيرة، بقيت في ايدينا.

262

احتلال مرتفعات بيت نوبا ومحاولة قطع طريق رام الله ـ اللطرون

حاول العدو مهاجمة البرج مرة اخرى في ١٧ من الشهر، لكن هجماته هذه صُدَّت. واتضح في هذه الاثناء ان الهدنة باتت وشيكة. وتقرر القيام بجهد اخير. وفي ذلك الوقت

احتلت سرية من الكتيبة ٣ وسرية من الكتيبة ٦ من لواء «هارئيل» مواقع مرتفعة مشرفة على بيت نوبا. وبذلك اصبحت تفصل بين مواقعنا في جنوبي شرقي طريق اللطرون وبين مواقعنا في شمالي غربي هذا الطريق، مسافة تقل عن ٣ كلم. وبدا ان من الممكن الآن تحقيق المهمة: عزل قوات الفيلق في اللطرون، وبالتالي محاصرة هذه القوات التي كانت تهدد طوال الوقت بعزل القدس. لكن القوات التي استولت على مرتفعات بيت نوبا اضطرت الى مواجهة هجمات مضادة عنيفة للعدو. واتضح ان اهمية المرتفعات التي احتلت اعظم مما كان معتقدا، اذ انه كانت تمر قرب سفوحها «طريق بورما» عربية ـ من الرادار الى اللطرون ـ كنا نجهلها وافتضح امرها الآن. وهدد احتلال مرتفعات بين نوبا بقطعها. وقد نجح العدو، أخيرا، في الاحتفاظ بطريق الى اللطرون.

وفشلت كل الهجمات المضادة التي شنها العدو على مرتفعات بيت نوبا. وصمدت القوة المشكلة من مجندين من خارج البلد، والتي كانت تتمركز في المنطقة، في وجهها. وفشلت قوة من القدس، جاءت لمساعدتها، في احتلال موقع مجاور بعد ان تكبدت خسائر.

وفي هذه الاثناء، تحرك لواء «يفتاح» في غربي القطاع لبسط سيطرته نحو الشمال. وبعد منتصف ليل ١٧ ـ ١٨، احتلت سرية من الكتيبة الاولى قرية شلتا، وواصلت سرية اخرى تقدمها فاحتلت مرتفعا واقعا الى الشرق منها: المرتفع ٣١٨. لكن، بما ان المرتفع ٣١٨ كان اكبر من ان تحميه سرية واحدة مصغّرة (يبلغ طوله ٩٠٠ متر) تقرر تجميع هذه السرية (٨٠ شخصا) في الجزء من المرتفع الاقرب الى طريق رام الله ـ اللطرون، والذي امرت السرية بقطعه. وكان هذا الجزء اكثر انخفاضا من الجزء الثاني للمرتفع.

وفي الصباح اتضح انه كانت تعسكر في الجزء الثاني من المرتفع ـ الاكثر ارتفاعا ـ قوة تابعة للفيلق. لقد تمركزت القوتان عليه معا من دون ان تشعر الواحدة منهما بالاخرى. . واتضح في الصباح ان قواتنا موجودة تحت السيطرة المطلقة لقوات الفيلق، ولم تجد بدا من الانسحاب. إلا انه من اجل ذلك كان عليها ان تجتاز ٣٣٠ مترا تقريبا في منطقة مكشوفة تبعد ٤٠٠ متر عن مواقع العدو. ولم يكن قد تبقى لدينا قوة لتغطية الانسحاب من مرتفعات شلتا، لأن قوات من لواء «يفتاح» كانت قد ارسلت في هذه الاثناء من اجل القيام بمحاولة اخيرة لاقتحام اللطرون، وأُبقيت في المكان قوة صغيرة. وبالتالي اضطرت السرية الى الانسحاب من شلتا بلا غطاء. وكان مجمل خسائرها مروعا: ٤٤ مفقودا. وهكذا، قبل ساعات معدودة من حلول الهدنة، نزلت بنا الضربة الاشد قسوة في عملية «داني»، الحافلة بالنجاحات. وكانت تلك اشد الضربات قسوة من بين الضربات التي تلقاها «يفتاح» في كل المعارك التي خاضها.

هجوم الطابور المدرع على اللطرون

263

في اثناء ذلك خطط لجهد اخير لاحتلال اللطرون. وبينما كان لواء «هارئيل» من الشرق (من مرتفعات بيت نوبا)، ولواء «يفتاح» من الغرب (من شلتا والمرتفع ٣١٨) يضغطان على

محور امدادات الفيلق المتجه الى اللطرون، طريق رام الله ــ اللطرون، قررت قيادة عملية «داني» محاولة احتلال اللطرون بهجوم مباشر. واستندت الخطة الى احتمال انه عندما يضيق الخناق على الفيلق من الامام والخلف في آن معا، فانه لن يقاوم بعناد. وأوكلت المهمة الى الكتيبة الاولى من «يفتاح»، وعدد من المجنزرات، والدبابتين من طراز «كرومويل» التابعتين للواء المدرع واللتين نقلتا لهذا الغرض على جناح السرعة من القطاع الشمالي. وتحرك هذا الطابور المدرع من القباب في الساعة السادسة مساء. وعلى الرغم من القصف الشديد وصعوبة الحركة في منطقة محروثة، فقد وصل الطابور بعد ٤٠ دقيقة تقريبا الى محطة ضخ المياه الواقعة بين القباب واللطرون ووجدها خالية. وفتحت احدى الدبابتين من طراز «كرومويل» النار على مركز الشرطة وأصابته، لكن في اثناء اطلاق القذيفة الثالثة حدث عطل. فقد بقي غلاف القذيفة في سبطانة المدفع. واضطرت الدبابة الى الانسحاب لاصلاح المدفع. ويسبب خلل في الاتصالات اخطأت اطقم المدرعات، وبدأت هي ايضا الانسحاب. ولم يشأ قائد العملية المخاطرة بقوات المشاة وشن هجوم من دون مساندة، فأعطى أوامره بالانسحاب الكامل. وفي الساعة ١٨,٥٠، وصل الطابور المدرع الى قاعدته سالما.

وانتهت بذلك المحاولة الخامسة لاحتلال اللطرون. وبعد ذلك بفترة وجيزة سرى مفعول الهدنة الثانية، وبقيت اللطرون في يد العدو اذ بقيت وحداته تسيطر على الطريق الوحيدة التي تصلها من الخلف: طريق رام الله. لكن قواتنا منعت من استخدام اسلحتها من هناك، بناء على امر صادر عن الامم المتحدة، وبقي الفيلق يسير بحرية على هذه الطريق حتى يومنا هذا.

عمليات اخرى

بموازاة المحاولات لاحتلال اللطرون، جرت في المرحلة الثانية من عملية «داني» عدة عمليات اصغر لتطهير مناطق والسيطرة على بعض القرى وضواحيها.

وهكذا طهّرت الكتيبة الرابعة التابعة للواء «هارئيل»، في ٧/١٦، القرى العربية الواقعة على الطريق الفرعي الى القدس ــ اشوع (اشتاؤل)، دير عمرو، كسله ــ وبذلك فتح طريق بديل آخر الى العاصمة. وفي الليلة الاخيرة قبل الهدنة، ليلة ١٧ ــ ٧/١٨، تمكنت قوات من الكتيبة الرابعة من الاستيلاء على دير رافات وهارطوف العبرية وعرطوف العربية. لكن وحدات «عتسيوني»، التي كانت مكلفة في الوقت نفسه احتلال بتير (بيتار)، لم تنفذ المهمة ــ ويسبب ذلك لم نحتل خط سكة الحديد بأكمله.

خلاصة الانجازات

كانت عملية «داني» اكبر عملية بادر جيش الدفاع الاسرائيلي الى القيام بها، حتى ذلك الوقت. وكانت الانجازات الفعلية للعملية: احتلت اللد والرملة، وفُتح طريق بديل الى القدس (اشوع ــ كسله ــ صوبا)، وتم الاستيلاء على جزء من خط سكة الحديد الى القدس؛ سقطت عشرات من القرى في قبضة جيش الدفاع الاسرائيلي، وكذلك معظم سهل

أونو وضمن ذلك مفارق الطرق القطار والمطار في اللد؛ نزح نحو ٥٠,٠٠٠ عربي الى المناطق العربية، وأصبحوا عبئا على اجهزة الحرب فيها؛ وأخيرا ــ انتزع زمام المبادرة من الفيلق. ولم يتحقق هدف العملية بصورة كاملة، اذ بقيت اللطرون بيد العدو، وظل الطريق الرئيسي الى القدس مغلقا.

264 المعارك في القدس

(أ) في جنوبي غربي المدينة

في جنوبي غربي المدينة، استعدت قواتنا للهجوم فور انتهاء الهدنة الاولى؛ في الليلة السابقة ليوم ١٩٤٨/٧/١٠، تحركت سرية «يوناتان» ــ سرية شبان من خريجي الغادناع تتراوح اعمارهم بين ١٦ و١٧ عاما ــ لمهاجمة خرْبة الحمامة، الواقعة على منحدر الجبل المدعو الآن باسم «هار هيرتسل» [جبل هيرتسل]، والمسيطرة على عين كارم (انظر الخريطة 35*). وفي اثناء تقدم السرية قتل قائدها برصاص قناص، فتسلم القيادة نائبه واستمر في ادارة العملية وفقا للخطة. وتم احتلال الموقع. وفي الليلة التالية احتلت ايضا خربة مزميل بعد فشل هجوم شن عليها في الليلة السابقة.

وبعد احتلال هذين المكانين حان دور المالحة. في الليلة السابقة ليوم ١٤ احتلت القرية من قبل سرية تابعة للايتسل وفصيلتين من سرية «يوناتان». وفي اليوم التالي شن هجوم مضاد على القرية. وفي البداية انسحبت سرية الايتسل التي كانت تحمي اقصى موقع في القرية، لكنها عادت فاحتلت الموقع بعد ان وصلت تعزيزات من رجال الايتسل.

وفي نهاية «الايام العشرة» سيطرت قواتنا (فصيلة مشكلة من قادة غادناع وفصيلتان من قوة الحراسة) في هذه المنطقة ايضا على موقع ميس كري. ونتيجة لذلك طوقت عين كارم وسقطت ايضا في ايدينا.

(ب) المعارك في المدينة نفسها

في المدينة نفسها لم تتجدد المعارك بكل زخمها بعد انتهاء الهدنة مباشرة، اذ ان الكتيبة التابعة لنا، والتي كانت تشكل القوة الرئيسية في خطة الهجوم هنا، كانت تحمي مواقع الممر طوال فترة الهدنة بكاملها ولم تغادر مواقعها إلا بعد انتهاء الهدنة الاولى، وكانت بالتالي بحاجة الى وقت لتنظيم صفوفها. كما لم يكن متوقعا ان تحل الهدنة الثانية بالسرعة التي حلت بها فعلا. وعندما اتضح في ١٤ من الشهر ان الهدنة الثانية وشيكة فعلا، تقرر التبكير في القيام بعمليات.

وقرر الفيلق ايضا خلق حقائق قبل الهدنة. فقبيل مساء يوم ٧/١٦، قصف بشدة

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٥. (المترجم)

الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من المدينة، وهاجمت قوات المشاة التابعة له حي المصرارة ومركز الشرطة في ميثاه شعاريم وعددا من الامكنة الاخرى. ودارت معارك مرة اخرى في بيوت مندلباوم ومحيطها. لكـن، باستثناء احتلال عدة بيوت، لم يحقق الفيلق اية انجازات ملموسة. وحفزت هذه الهجمات قواتنا، التي كان من المفروض ان تبادر هي الى القيام بعمليات.

وفي اليوم نفسه، ١٦ من الشهر، وصل النبأ بأن الهدنة الثانية سيسري مفعولها في الساعة ٠٥,٤٥ مـن يوم ١٧ تموز/يوليو.

وعلى الرغم من ذلك، فقد قرر قائد اللواء في القدس ان يقوم، في الليلة الاخيرة قبل الهدنة، بعملية «كيدم» ــ احتلال البلدة القديمة ــ التي كانت خطتها قد وضعت من قبل.

وكانت خطة الاحتلال تقضي باقتحام منسق من ناحيتين: من ناحية الباب الجديد في الشمال، ومن ناحية باب النبـي داوود (بوابة صهيون) في الجنوب. وكُلِّفت تنفيذ الاقتحام من ناحية الشمال قوات الايتسل وليحي (في القدس لم تكن هاتان المنظمتان قد حُلتا بعد، خلافا لباقي مناطق البلد، بحجة ان منطقة القدس كانت تعتبر بمثابة منطقة حكم عسكري وليست جزءا من أراضي الدولة). وكلفت تنفيذ الاقتحام من الجنوب قوة مكثفة تابعة للكتيبة ٢ من لواء «عتسيوني». وكان من المقرر ان يتم هذا الاقتحام ــ كما ذكرنا ــ عن طريق باب النبـي داوود، لكن بما انه افترض ان هذه البوابة محصنة ومحمية جيدا، فقد تقرر محاولة اقتحام السور نفسه، على مسافة غربـي البوابة. ومن اجل ذلك جهزت وطورت خلال الهدنة آلة اختراق ــ لم تستخدم من قبل ــ وعقدت عليها آمال كبيرة.

265

وسبقت العملية «معالجة» المواقع في البلدة القديمة بنيران كثيفة من مدافعنا (كان هذا هو عرضها الاول في القدس)، ومن مدافع الهاون والرشاشات المتوسطة. واستمر القصف عدة ساعات، اطلقت خلالها نحو ١٢٠٠ قـذيفة ــ ٦٠٠ قـذيفة مـدفع و ٦٠٠ قـذيفة «دافيدكا» ــ وعشرات الآلاف من رصاص الرشاشات المتوسطة. وبعد ذلك مباشرة، تحركت القوات من جبل صهيون في اتجاه السور. وانتظر العدو، الذي ادرك مغزى ما كان يحدث، قواتنا ثم فتح عليها النيران بغزارة. ووصلت آلة الاختراق الى السور متأخرة جدا، وعندما استخدمت الآلة لتفجير السور لم تحدث فيه اية ثغرة. وبسبب فشل التفجير من جهة، وقرب طلوع النهار والهدنة معه من جهة اخرى، صدر الامر بالانسحاب.

وفي الشمال نجحت الايتسل في اقتحام الباب الجديد، والتقدم قليلا داخل البلدة القديمة، لكنها لم تتمكن من الاستيلاء على الموقع الحيوي في زاوية السور الشمالية الغربية: الكوليج دو فرير. ولدى طلوع النهار، الذي جلب معه الهدنة، وفي ضوء فشل الاقتحام من الجنوب، ترك قائد الايتسل في قيادة العملية امر اتخاذ القرار ــ بالانسحاب او عدمه ــ لقائد الوحدة المقتحمة، فقرر هذا الأخير ان ينسحب.

لقد فشلت عملية «كيدم»، ولم تمنحنا حتى موطىء قدم في البلدة القديمة.

وعلى الرغم من قرار الهدنة فقد واصل الفيلق هجماته في قطاع مندلباوم ايضا خلال اليومين التاليين، ١٧ و١٨ من الشهر. لكـن، في المحصلة، لم يتغير خط الجبهة ايضا في هذا القطاع.

وفي الساعة ١٩,٠٠ من يوم ١٨ من الشهر، سرى مفعول الهدنة الثانية في القدس.

بَينَ غَزو وَهُدْنَة 267

(ب)

أ- الجَبهة المِصْريّة خِلال " الأيّام العَشَرة "

١ ـ المنطقة الجنوبية

بذل جيش الدفاع الاسرائيلي خلال «الايام العشرة» مجهودا هجوميا في الجبهتين الوسطى والشمالية، لكن ليس في الجبهة الجنوبية.

ذكرنا سابقا ان المصريين نجحوا، عشية الهدنة الاولى، في احتلال «هتسومت» [مفترق الطرق] وقطع الطريق الى النقب. وقد سيطرت وحدات «غفعاتي» و «النقب» فعلا على الموقع ١١٣ شمالي «هتسومت»، وعلى موقعي كوكبا وحليقات جنوبيه، لكن الطريق الى النقب ظل مغلقا. وخلال الهدنة، منعنا المصريون من ارسال قوافل الى النقب عبر الطريق الداخلي. وحاول مراقبو الامم المتحدة ترتيب الامر فقرروا ان يكون طريق المجدل ـ بيت غوفرين [بيت جبرين] مفتوحا خلال ساعات معينة من اليوم امام حركة القوات المصرية، ويكون لنا خلال الساعات الباقية من اليوم الحق في التحرك من الشمال الى الجنوب على طريق رحوفوت ـ جولس ـ برير. لكن المصريين لم يتقيدوا بهذا التدبير، وأوقفوا القوافل التي وصلت الى «هتسومت» بمواكبة مراقبي الامم المتحدة. وصادق رئيس مراقبي الامم المتحدة خطيا على ان المصريين خرقوا الهدنة، وعلى ان لدولة اسرائيل الحق في العمل ضد قواتهم، لايصال قوافلها الى النقب.

وبناء على ذلك، تقرر التخطيط لعملية بغية الاستيلاء على المنطقة المحيطة بـ «هتسومت» [مفترق الطرق]، وفتح الطريق الى النقب. وتم وضع خطة هذه العملية ودعيت باسم «أن ـ فار» (أنتي ـ فاروق)، وتقرر ان تكون ساعة «الصفر» في ليل ٩ او ١٠ من الشهر، مع انتهاء الهدنة. إلا ان المصريين استبقوا موعد انتهاء الهدنة، ليحققوا مفاجأة ويأخذوا زمام المبادرة، وبدأوا هجومهم في الساعة السادسة من يوم ٨ من الشهر، اي قبل ٢٤ ساعة من انتهاء الهدنة رسميا.

هجمات المصريين في بداية «الايام العشرة»

لقد أراد المصريون، كما يبدو، توسيع رقعة انتشارهم في «هتسومت» باحتلال الموقع ١١٣ الواقع الى الشمال منه، وكوكبا وحليقات الواقعتين الى الجنوب منه. كما خططوا لاحتلال مثلث بيت داراس ـ جولس ـ نيغبا، وهو منطقة تقاطع الطرق الرئيسية في هذا الجزء من البلد، والذي كان آنذاك بيد جيش الدفاع الاسرائيلي.

في البداية هوجم موقع كوكبا. ولم يكن جنود لواء «النقب» القلائل الموجودون فيه مستعدين للهجوم فانسحبوا جنوبا، الى حليقات. وتحركت المصفحات المصرية بسرعة في الطريق نحو الجنوب ووصلت الى حليقات، حيث توقفت لفترة قصيرة، هاجمت بعدها الموقع الموجود بالقرب من القرية وانتزعته منا، وسقطت حليقات بيد المصريين. 270

لقد فعلت المفاجأة فعلها، وحقق المصريون نجاحا كاملا جنوبي «هتسومت».

وفي اليوم نفسه، هاجمت قوات العدو ايضا الموقع ١١٣ الواقع شمالي غربي «هتسومت». وبما انه لم يكن محصنا جيدا، فان الوحدات الموجودة فيه كانت قد انسحبت في الليلة السابقة منه من دون ان يلاحظ المصريون ذلك. وبالتالي هاجم المصريون موقعا «خاليا». ومع ذلك تكبدوا خسائر نتيجة اصطدامهم بألغامنا التي كنا قد زرعناها في هذا الموقع. وبدأوا التمركز فيه، ومن هناك ضايقوا بنيرانهم كيبوتس نيغبا.

وتحققت أهداف الخطة الاولى للعدو: اصبحت مواقعنا بيده، وزال تهديدنا عن «هتسومت»، وتم توسيع رقعة الانتشار المصري.

وسنرى الآن ما حدث بالنسبة الى الجزء الثاني من خطة العدو ـ احتلال المثلث: بيت داراس ـ جولس ـ نيغبا؛ مع بدء الهجوم على كوكبا وحليقات، شن العدو هجوما ايضا على بيت داراس. وكانت خطته: في البداية، احتلال بيت داراس (التي كانت تحميها سرية من الكتيبة ٣ التابعة للواء «غفعاتي») على يد قوات سودانية، وبعد ذلك مواصلة التقدم من هناك لمهاجمة السوافير*، الواقعة شمالي جولس ونيغبا، بواسطة كتيبة مشاة مصرية. وكان القصد من احتلال السوافير، بحسب الخطة المصرية، عزل جولس ونيغبا من ناحية الشمال تمهيدا لاحتلالهما.

وهاجم السودانيون مع فجر يوم ٨/٧، ونجحوا في الاستيلاء على موقع لجماعة في جنوبي قرية بيت داراس. لكنهم طردوا منه بهجوم مضاد قوي. وهكذا احبط الهجوم في بدايته، ولم ينفذ بالتالي الجزء الثاني من خطة العدو.

---

* ٣ قرى: السوافير الشرقية «عين تسوريم»، والسوافير الشمالية، والسوافير المصرية. (المترجم)

«عملية أن ـ فار»

انتهى يوم ٧/٨، يوم المعارك الاول. وبحلول ليل ٨ ـ ٧/٩، حان أوان تنفيذ [عملية] «أن ـ فار». كان من المقرر في البداية ان يحدث الهجوم في اليوم التالي، اذ انه كان من المفروض ان تنتهي الهدنة في صباح ٧/٩. لكن بما ان المصريين خرقوا الهدنة، لم يعد هناك داع للتقيد بها، وسبقت ساعة «الصفر» المحددة لعمليات وحدة «غفعاتي» و«النقب».

كانت خطة العملية تقضي باحتلال مركز شرطة عراق سويدان وقريتي عراق سويدان وبيت عفه وموقع عبدس. وكُلفت قوات لواء «النقب» احتلال مركز الشرطة، وقوات «غفعاتي» تنفيذ باقي المهمات.

فشلت محاولة احتلال مركز الشرطة مرة اخرى. واحتلت المواقع الاخرى. وهاجمت وحدة من الكتيبة ٣/ غفعاتي موقع عبدس، حيث دارت معركة طويلة. ومع الفجر فقط، اتضح ان القوة التي هاجمت هذا الموقع اصطدمت بسريتين مصريتين يبدو انهما كانتا على وشك التحرك من هناك لمهاجمة السوافير من ناحية الشرق، وتحقيق ما لم يتحقق في اليوم السابق: عزل جولس ونيغبا من الخلف. وتسبب احتلال هذا الموقع بالغاء الهجوم. وانتهى تطهير الموقع في ساعات الصباح فقط. ووقعت في ايدينا غنائم كثيرة، من ضمنها حاملات برن ومدافع مضادة للدبابات، وقعت للمرة الاولى بيد رجال لواء «غفعاتي». 271

ان مقاومة بيت داراس من جهة، واحتلال عبدس من جهة اخرى، منعا فكي الكماشة المصرية من الاطباق، وبقي بيد الجيش الاسرائيلي ممر الى جولس ونيغبا. وفي المقابل، اضطرت وحدات الكتيبة ٤ من لواء «غفعاتي» الى مغادرة قرية عراق سويدان، لأن التمسك بها كان مشروطا باحتلال مركز الشرطة.

معارك بيت عفه وعبدس وجولس ونيغبا

حل يوم ٧/٩. ومرة اخرى ـ بعد ليل هجمات الجيش الاسرائيلي ـ جاء يوم هجمات مصرية. ولم تتغير أهداف المصريين في اليومين التاليين. حاولوا ثانية الوصول، على محورين، الى خلف نيغبا وعزلها: من الشرق في محور بيت عفه ـ عبدس ـ السوافير؛ ومن الغرب في محور جولس ـ بيت داراس ـ السوافير.

بـدأ الهجوم على بيت عفه في الصباح. ولم تكن سريتنا (من الكتيبة ٢/ غفعاتي) الموجودة في المكان تملك اي سلاح مضاد للدروع. وبعد ضغط مصري استمر طوال الصباح، انسحبت السرية بصورة منظمة الى نيغبا. وحاولت القوات المصرية استغلال نجاحها في اتجاه عبدس، التي اربك احتلال «غفعاتي» لها في الليلة السابقة ـ كما ذكرنا ـ خطط هجوم هذه القوات. وتم صد الهجوم عليها.

وفي يوم ٧/١٠، واصل العدو هجماته في المحورين معا؛ في الغرب هاجم مواقع جولس؛ وفي الشرق موقع عبدس. ووجه الجهد الاساسي الى عبدس. بعد قصف مدفعي،

شنت قوات المشاة هجمات لكن القوات الموجودة في الموقع ــ وهي وحدات من كتائب لواء «غفعاتي» ٢ و٣ و ٤ ــ نجحت مرة اخرى في الصمود وفي تكبيد العدو خسائر فادحة. وكان هذا الانتصار في موقع عبدس بمثابة نقطة تحول في مسيرة «غفعاتي». اذ انه اعتبارا من ذلك الانتصار لم تنسحب قوات اللواء من اي موقع الى ان انتهت الحرب.

وصدت ايضا جميع الهجمات التي شنها العدو على مواقع جولس. ولم يصب في موقع جولس ذي التحصين الجيد اي من المدافعين. وتم تعلم هذا الدرس فيما يتعلق بأهمية الاستحكامات بسرعة، وكان تعلمه جيدا.

وكان يوم ١١ تموز/يوليو يوم تنظيم بالنسبة الى قوات الطرفين المتحاربين على الجبهة الجنوبية. وكانت قبل ذلك قد جرت عدة عمليات تطهير في مؤخرة اللواء، لازالة التهديد والخطر الماثل في وجود تجمعات سكنية عربية في مؤخرة الجبهة. فاحتلت الكتيبة ١/غفعاتي في هذا الاطار جميع القرى الموجودة في المؤخرة التي لم تكن بيد الجيش الاسرائيلي: تل الصافي والمسمية وقزازة وتل الترمس وصميل وزيتا. وأمّن احتلال هذه القرى اتصالا اوثق بالمستعمرات العبرية في تلك المنطقة: كفار مناحيم وكدما وغلؤون.

الهجوم الكبير على نيغبا

في يوم ٧/١٢، بدأ المصريون هجومهم الاكبر والاشد تركيزا في الجبهة الجنوبية. واستخدمت فيه ثلاث كتائب مشاة، وكتيبة مدرعة، وكتيبة مدافع ميدان، ووحدات مصفحات، ومدافع مضادة للدروع، وأسلحة مساندة، وقوات جوية.

حتى الآن كان هدف المصريين تطويق نيغبا وعزلها، ومن ثم مهاجمتها فاحتلالها. أما الآن، فقد قرروا شن هجوم مباشر عليها. وتم الهجوم بثلاث قوى: القوة الرئيسية وجهت ضد المستعمرة، وكُلِّفت كتيبة من المشاة المصرية التاسعة، كانت قد احتلت نيتسانيم والتلة ٦٩، مهمة احتلالها. وبموازاة ذلك، شن هجوم كماشة على موقع عبدس من الشرق، وعلى مواقع جولس من الغرب.

272

مع الفجر بدأ قصف نيغبا بمدافع من عيار ٢٥ رطلا، وقصفتها طائرات من الجو. وبعد ثلاث ساعات فتحت المدرعات ايضا نيرانها على المستعمرة. وفي الساعة ١١,٠٠ وصلت سرايا الهجوم من الشرق والغرب الى نقاط الانطلاق، ووجهت ضربة نيران مدفعية اخيرة، ثم بدأت السرايا بمهاجمة المستعمرة. وعلى بعد ٥٠ مترا من السياجات الخارجية اوقفت الموجة الاولى، وتحطم الهجوم، وانسحب المصريون لاعادة رص صفوفهم.

وفي ساعات العصر شن هجوم ثان. وهذه المرة أُوقف المهاجمون بالقرب من السياج الداخلي الملغوم، ولم يسلّم المصريون بهزيمتهم إلا عند المساء، فانسحبوا تاركين العديد من قتلاهم على ارض القتال. وكان هناك بين العتاد الذي تركه العدو دبابة وعدد من المجنزرات حاملات البرن.

وكانت خسائرنا في نيغبا ٥ قتلى و ١٦ جريحا. وقدرت خسائر المصريين بـ ٢٠٠. وقد جاء على لسان ضابط مصري وقع في الاسر، بعد بضعة ايام من ذلك، ان اوساط قيادته كانت تتساءل بدهشة: «كيف صمدت نيغبا؟ لقد كان هناك في المكان ١٥٠ مدفعا تقريبا. اطلقنا عليهم ٤٠٠٠ قذيفة. وبحسب تقديرنا كان ينبغي ان يصاب ٥٠٪ منهم، وأن ينصرف ٢٥٪ للاعتناء بالمصابين، فكيف اذن دافعتم عن نيغبا؟».

لقد قدمت نشرة المستعمرة في اليوم التالي للمعركة، اجابة عن هذا السؤال:

١٩٤٨/٧/١٣»

«لم تظهر هذه النشرة لأول مرة امس. كانت النيران قوية. كُتبت السطور الاولى وتوقفنا. انتقلت هيئة التحرير الى خط النار لتحل محل الرفاق الذين سقطوا... واذا دُوِّن في يوم من الايام تاريخ نيغبا في المعركة، فسيكون يوم امس من الايام التي سيروى فيها عن بطولة خارقة، وعن صلابة يهودي وضع نصب عينيه ان «لا خيار»، وفي الوقت نفسه يوم معاناة وآلام. فقد طوقنا الاعداء من جميع الجهات وبأيديهم كل الاسلحة، الثقيلة منها والخفيفة. دبابات محيطة بنا، وقوات مشاة كبيرة، وطائرات تغير ومدافع بالعشرات تقصف... امر واحد كان ينقصهم، وتوفر لدينا: الروح التي لا تعرف الخوف؛ معرفة مغزى المعركة وادراكه. الادراك اننا بأجسادنا نسد الطريق امام العدو الى الشمال. ـ الآن في امكاننا ان نتساءل: كيف صمدنا؟ كيف استطعنا ذلك؟ اننا لم نتناول طعاما، ولم نشرب ماء. لم نستنشق سوى دخان الحرائق، ولفظنا رصاصا... تقدم سلاح مشاة العدو موجة في اثر اخرى وراء الدبابات. هيا تقدموا، قال شبابنا، وفي اللحظة الملائمة اطلقت نيران فتاكة جدا وبدأ أفراد العدو، الذين بالتأكيد لم يكونوا يعرفون لماذا يسقطون، بالفرار. وقد فر اولئك الذين اسعفهم الحظ...

«ـ يا مقاتلي نيغبا! تأملوا قوة الروح الطلائعية!

«لقد اصيب ٤٠ شخصا تقريبا في المواقع ونقلوا الى المستوصف تحت الارض. وكان هناك نقص كبير في المدافعين. وقد بقينا أفرادا على الخط، وفي الموقع، وصمدنا. وسيسجل التاريخ ذلك رمزا للمقاتل العبري الذي يعرف ان معنى عدم الصمود في المعركة هو العبودية والموت، وأن الطريق الى الحياة هو طريق القتال والصمود فيه مهما تكن الظروف.

273 «بالامس، في يوم المعركة، اهتمت جميع كتائب اللواء بمصيرنا. تلقينا برقيات. وفي هذا الصباح احضرنا من ارض القتال جريحا مصريا بعد ان سمعنا صراخه، وكان بقربه قتيل وسلاح غنمناه. وعولج الجريح في المستوصف...».

وقد دافع عن نيغبا ابناء المستعمرة ووحدة من الكتيبة ٣ من لواء «غفعاتي».

وقبل يوم من الهجوم قام كل من نائب وزير الدفاع ورئيس شعبة العمليات بجولة في قطاع «غفعاتي»، ولخص الاول انطباعاته بقوله: «الصفوف قليلة العدد عندكم، لكن الروحية تسد هذا النقص». وثبتت صحة هذا الانطباع في اليوم التالي.

وينبغي التنويه، بصورة خاصة، بدور رجال المدفعية في هذه المعركة الدفاعية الناجحة. لقد اطلقت بطارية المدافع من عيار ٦٥ ملم، التي كانت منصوبة في السوافير، في ذلك اليوم ٢٠٨ قذائف على القوات التي هاجمت نيغبا وعبدس. كما ساندت بطاريات مدافع الهاون الثقيلة المنصوبة عند مشارف جولس المدافعين عن المكان بنيران قوية.

في ظهيرة ٧/١٢، وبينما المعركة على نيغبا مستعرة بكل عنفها، تلقت هيئة الاركان العامة برقية من قائد لواء «غفعاتي» هذا نصها: «قصف شديد على طول الجبهة، من الجو ومن المدفعية، وقوات المشاة تهاجم. الوضع صعب بصورة خاصة في نيغبا وعبدس. من الضروري ارسال الطائرات للاغارة على تجمعات العدو بين بيت عفه وعراق سويدان. اننا بحاجة الليلة الى امدادات منكم للقيام بالهجوم. العدو تلقى امدادات مهمة من الجنوب».

274

وفي ذلك اليوم جرت مشاورات في هيئة الاركان العامة درس فيها الوضع على الجبهات كافة: في الشمال كان الوضع مرضيا. وفي الوسط سقطت اللد، وكانت الرملة مطوقة، وكان مركز شرطة اللد على وشك السقوط. وفي الجنوب نجحت قواتنا في الصمود، لكنها كانت منهكة وخسائرها كبيرة، وكانت هناك حاجة ماسة الى متطوعين.

ونوقشت، في ذلك الوقت، مسألة كيفية تعزيز قواتنا في الجنوب. لم يكن لدى هيئة الاركان العامة قوات احتياط، باستثناء احتياطي صغير من المدافع كان قد ارسل الى تلك الجبهة. وفي ضوء عدم وجود اي خيار آخر، تقرر ان تخصص للجنوب سرية من وحدة الانزال التي كان يجري تنظيمها في أطار سلاح البحرية، وكتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع التي كانت تعيد تنظيم صفوفها بعد اقتحامها اللد في اليوم السابق. وخلال اليومين الباقيين لوصول هذه الوحدات الى الجبهة، كان على لواء «غفعاتي» ان يصمد بقواه الذاتية.

احتلال التلة ١٠٥

عندما ادرك المصريون انهم لا يستطيعون احتلال نيغبا، قرروا الاكتفاء موقتا بالتمركز في موقع خلفها، لعزلها من تلك الناحية وللهجوم عليها منه في المستقبل. وكانت التلة ١٠٥ الواقعة شمالي شرقي المستعمرة ملائمة لهذا الغرض. وكان المصريون قد احتلوها موقتا في الليلة السابقة ليوم ١٢ تموز/يوليو من اجل الهجوم على نيغبا. وكُلِّفت سرية سودانية، كانت قد وصلت للتو من مصر، التمركز على الهضبة وتحويلها الى موقع حصين. وعندما اتضح لرجال «غفعاتي» ما يبيته المصريون، قرروا الاغارة على التلة واحتلالها قبل ان يتمكن السودانيون من التحصن فيها.

وفي منتصف الليلة السابقة ليوم ١٣ تموز/يوليو، بعد ساعات من انتهاء الهجوم على نيغبا، تحركت سرية من الكتيبة ٤/غفعاتي لاحتلال التلة، وتمكنت من احتلال أطرافها لكنها لم تنجح في «شطفها». وتحركت قوة احتياط محمولة ـ وحدة جيبات ـ من جولس وفتحت

النار على التلة، لكن هذه النيران عرضت للخطر جنود الكتيبة الذ ين كانوا موجودين في جزء من الموقع، فاضطرت الجيبات الى الانسحاب.

عندها قرر قائد الكتيبة ان يقود بنفسه عملية قوة الاحتياط ــ اي وحدة الجيبات. وبعد التنسيق مع قائد السرية التابعة لنا، الموجودة في الموقع، انطلقت الجيبات ثانية. وفي هذه المرة صعدت التلة و «شطفتها»، ونجا السودانيون بأرواحهم تاركين وراءهم اعتدة كثيرة.

الهجمات على غلؤون

على الجبهة الجنوبية نجح المصريون في هجومين آخرين قبل انتقال زمام المبادرة الى يد الجيش الاسرائيلي. ففي ٧/١٤ هوجمت غلؤون، واستمر القصف المدفعي اربع ساعات، لكن عندما وصل المهاجمون العرب كان المدافعون مستعدين للقائهم فصدوا الهجوم.

وفي اليوم التالي، ٧/١٥، قام المصريون بمحاولة اخرى. وفي هذه المرة ساعدت مصفحات العدو المدافعين عن غلؤون، اذ فتحت هي ايضا ــ نتيجة خطأ ــ النيران على قوات المشاة العربية المهاجمة. وبالتالي صدت الهجوم قوات «مشتركة».

٢ ــ منطقة النقب

275

اخلاء كفار داروم

عشية تجدد القتال، صدر امر باخلاء كفار داروم. فقد استنزفت قوى المستوطنين، ولم تكن هناك قوة جديدة لتحل محلهم.

لقد كان وضع المؤن والمياه والذخيرة في الموقع تعيسا طوال فترة الهدنة. وكان هناك عدد كبير من الجرحى نتيجة الهجمات السابقة على المستعمرة، ولا مجال لانقاذهم.

وفي اثناء الهدنة، تسللت الى المستعمرة قافلة تابعة لكتيبة الكوماندو ٩ من لواء «النقب»، جالبة معها الاغذية والذخيرة، ولتخلي الجرحى والاناث غير المحاربات من الاعضاء (انظر الخريطة 37*). دخلت القافلة بسلام، لكن بعد ذلك مباشرة فتح العدو النيران من مواقعه المحيطة بالمستعمرة ومنعها من الخروج. ولم يثمر تدخل ممثلي الامم المتحدة. وبقي أفراد كتيبة الكوماندو في المكان ٨ ايام، وكانت النتيجة ان فاقت الخسارة الربح. فقد تناول أفرادها الطعام الذي احضروه معهم، وحتى احتياطي الطعام في المستعمرة، الذي لم يكن كافيا لمثل هذا العدد الكبير من الافراد. ولم تنجح محاولات انزال

---

* ترد هذه الخريطة في نهاية الكتاب، تحت رقم ٦. (المترجم)

اغذية من الجو بالمظلات، لان مساحة المستعمرة كانت صغيرة والعدو كان متربصا لكل محاولة امداد عن طريق الجو. وأرغمت نيرانه المركزة المضادة للطائرات طياري سلاح الطيران على القيام بمعظم محاولات الانزال خلال الليل، مما تسبب بعدم دقة الانزال، وفي حالات كثيرة نزلت الشحنة في منطقة مصرية. وعندما كانت تهبط بالمصادفة في منطقة المستعمرة ــ او في منطقة خالية من قوات الطرفين ــ كان المصريون يقصفون منطقة الهبوط بنيران مدافع الهاون لمنع التقاط الشحنة.

وبعد ٨ ايام، نجح أفراد كتيبة الكوماندو في التسلل خفية من كفار داروم، من دون ان يلحظهم العدو، ومعهم من الجرحى من استطاع السير وعدد من الاعضاء الاناث.

وفي الليلة السابقة ليوم ٨ تموز/يوليو، بعد صمود عنيد دام أشهرا كثيرة ضد حصار وعزل قل مثيلهما في الحرب، اخليت المستعمرة؛ خرج المدافعون تحت جنح الظلام وهم يحملون الجرحى وأسلحتهم وكتابي التوراة الخاصين بهم. وأتلف باقي العتاد. وقادهم أدلّاء الى سيارات كانت في انتظارهم لتقلهم الى الشمال. وفي صباح اليوم التالي بدأ المصريون قصف كفار داروم بشدة، وبعد ذلك هاجمتها قوات مدرعة ومشاة، لكنها دهشت عندما وجدت المستعمرة خالية تماما.

وباستثناء اخلاء هذه المستعمرة، لم تحدث اية عمليات استثنائية في بداية «الايام العشرة» في جميع انحاء المنطقة الجنوبية. واكتفى المصريون بقصف مستعمراتنا بالمدفعية ومن الجو.

بعد هزيمة المصريين في نيغبا، حدث تحول على جبهة النقب. فعندما رأى المصريون ان اندفاعهم نحو الشمال «لا يتقدم»، قرروا ــ كما يبدو ــ ان يجربوا أهدافا محدودة اكثر لعلهم ينجحون ــ مثلا: احتلال مستعمرات في منطقة النقب المعزول.

الهجوم على بئيروت يتسحاق

هذه المرة جاء دور مستعمرة بئيروت يتسحاق. وقد بدأ الهجوم عليها مع طلوع فجر يوم ٧/١٥، وفاجأ المدافعين الذين كانوا مشغولين ببناء استحكامات طوال الليل، وناموا في الساعة ٥ صباحا. وفي الساعة ٠٥,٣٠، بدأ هجوم جوي على المستعمرة، تبعه قصف مدفعي استخدم غطاء لتحرك المدرعات والمشاة. وكان الهجوم قد شُن من ثلاث جهات في آن واحد. 276

وفي الشمال نجح العدو في اقتحام المستعمرة واحتلال عدة مبان. وعندما اتضح لقائد المنطقة ان خط مواقعه في هذا المكان قد اختُرق، اصدر امره الى أفراد القطاعات بالانسحاب والتمركز في خط مواقع داخلي كان قد أُعد سابقا. وواصل العدو هجومه فوصل الى صف ثان من البيوت، على بعد ٣٠ مترا من وسط المستعمرة المحصن. وفي الساعة ١٠,٠٠ اعلن المدافعون عن المستعمرة ان خزان المياه قد اصيب وغمرت المياه الخنادق والملجأ، وتسبب

ذلك بفساد كمية كبيرة من الذخيرة بفعل الرطوبة، كما تعرقل الاتصال الداخلي. وفي الساعة ١٠,٤٠ أبلغوا: «العدو اقتحم من ثلاث جهات. الوضع ميئوس منه. نحن نستخدم القنابل اليدوية». وكان قائد المنطقة قد اصيب الساعة ١٠,٠٠. وعند الظهر أوقف الهجوم، بعد ان اصبح معظم المستعمرة بيد المصريين. واستغل العدو هذا التوقف لحشد قوات اضافية، من بينها وحدات مدرعات احتياطية، وذلك بغية دخول المستعمرة واخضاع المدافعين الذين تحصنوا في الخط الدفاعي الداخلي.

إلا ان نجدة من كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» ومن بطارية مدافع تابعة لها، كانت في طريقها الى المدافعين في ذلك الوقت. وفي اثناء تحركها في اتجاه المستعمرة جذبت اليها انتباه سلاح طيران العدو، لكنها واصلت تقدمها. وفي الساعة الخامسة مساء، وصل نبأ بأن مدافعنا قد نصبت؛ وبعد نصف ساعة، وبينما كان المصريون يستعدون لشن هجوم أخير، بدأت قذائف مدافعنا توقع بهم اصابات. 277

وفي الساعة ١٧,٠٠ كان المدافعون لا يزالون يرسلون انباء عن وضع المستعمرة اليائس، وعن محاولات للقيام بهجمات مضادة باءت بالفشل؛ واذ بهم في الساعة ١٨,٣٠ يبلغون: «المدافع تضرب تجمعات دبابات العدو ومجنزراته. الدبابات تفر وتلقي الاسلحة على امتداد طريق انسحابها. مدافع البيات والبيزيه أُصلحت وهي تعمل جيدا». وبعد ربع ساعة، وصل نبأ انسحاب قوات مشاة العدو ايضا من المستعمرة ومن المنطقة المجاورة على حد سواء. وبدأ رشاش المدافعين المتوسط يحصدهم. واستخدم المصريون مساندة من المدافع الثقيلة والطيران لتغطية الانسحاب، لكن الهجمات انتهت. وكانت خسائر المدافعين ١٧ قتيلا و١٥ جريحا وأضرارا جسيمة في المستعمرة. أما خسائر العدو فكانت اصابة ٢٠٠ شخص بينهم كثير من القتلى، وخلفوا وراءهم غنائم كثيرة.

القتال على موقعي سعد وبير عسلوج

في الايام اللاحقة لم يعمد المصريون الى مهاجمة بئيروت يتسحاق. وفي المقابل هاجموا في ٧/١٨ موقع سعد المرتفع المسيطر على طريق غزة ــ بئر السبع، واحتلوه. وفي اليوم التالي، احتلت قوات لواء النقب موقعا قبالة الموقع الذي احتله المصريون. وتم الامر قبل ساعات معدودة من سريان مفعول الهدنة الثانية. وفي الوقت نفسه، هاجمت قوات مصرية اخرى مواقع بير عسلوج في النقب البعيد، لكن هذا الهجوم صد.

في هذه الاثناء انتقل زمام المبادرة في النقب الشمالي الى يد الجيش الاسرائيلي. وتحرك لواء «غفعاتي» للقيام بعملية «مافيت لبوليش» [الموت للغازي]، التي كان هدفها فتح الطريق الى النقب. ولأغراض العملية أُلحقت باللواء قوات لتعزيزه: كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع، وسرية من وحدة الانزال. وفي هذه المرة لم يكن القصد فتح الطريق الداخلي، جولس ــ برير، وانما الاستيلاء على شريط طويل من الارض الى الشرق منه. وكان الاستيلاء على هذا الشريط سيؤدي الى قطع طريق المجدل ــ بيت جبرين شرقي «هتسومت»، ويفتح ايضا امامنا طريقا فرعيا الى النقب.

الخطـة

كـانت الخطة تتضمن الاستيـلاء على قـاعدتي العـدو الـواقعتـين شمـالي طـريق المجدل ــ الفالوجة، وهما بيت عفه وحته، وعلى قاعدته الواقعة جنوبـي الطريق وهي كرتيا. وكان في نيتنا الاتصال من هنا بالنقب.

وفي مقابل هذه القوات المنحدرة من الشمال، كان على قوات لواء «النقْب» ان تصعد من الجنوب، بهدف احتلال بير ابو جابر وموقعي كوكبا وحليقات.

278 **الغارات خلال العملية**

من اجل نجاح المهمة الرئيسية كُلِّفت وحدات صغيرة من الكتيبة ١/غفعاتي مهمات اغارة وإزعاج ضد الموقع ١١٣ وعراق المنشية وقرية بيت جبرين ومركز شرطتها.

وفي الغرب شُنت غارة، في الليلة السابقة ليوم ٧/١٧، على الحشود المصرية في اشدود، لابقائها في هذا القطاع وصرف انتباهها عن المنطقة الرئيسية للعملية، التي كانت ستنفذ في جنوبـي شرقي القطاع نفسه. وتمت هذه الغارة بنجاح تام.

ان اسلوب تثبيت القوات المصرية بواسطة غارات ومضايقات مستمرة، جُرِّب وثبتت جدواه خلال الاسابيع السابقة للعملية، منذ المضايقات الاولى ضد اشدود. وقد حققت الغارة على بيت عفه التي جرت في احدى الليالي الاخيرة السابقة لعملية «مافيت لبوليش»، في الليلة السابقة ليوم ١٥ تموز/يوليو، نجاحا باهرا. فقد اغار ٦٠ مقاتلا على القرية التي كانت تحميها كتيبة مصرية كاملة، وفرت هذه ناجية بجلدها بفعل المفاجأة. وتم الحصول نتيجة هذه الغارة على معلومات مهمة من وثائق وقعت في يد المغيرين، ومن ضابط استخبارات وقع في الاسر. لقد فوجىء الضابط تماما: «كيف وصلتم الى هنا» ــ قال ــ «حيث تعسكر كتيبة كاملة». ولم يتمكن المهاجمون من اخذ الاعتدة الكثيرة التي تركها المصريون في الموقع، ومن ضمنها ٨ حاملات برن وسيارة اسعاف الخ، لانه كان عليهم الانسحاب مع الفجر.

وقد وفرت هذه الغارات معلومات عن انتشار قوات العدو، وساهمت بذلك في الاعداد لعملية «مافيت لبوليش». وفي ليل ١٧ ـ ١٨، بعد ١٠ نُهُر و ٩ ليال من النشاط والجهد والتوتر المتواصل، خرجت وحدات الجيش الاسرائيلي لتنفيذ العملية. كانت الهدنة تقترب، وكان لا بد من الهجوم من دون تأخير.

التنفيـذ

في النقب نجحت قوات الكتيبة ٩ التابعة للواء «النقب» في احتلال بير ابو جابر الواقعة جنوبي الفالوجة، ففتحت بذلك جزءا من الطريق الى النقب. لكن قوات هذا اللواء فشلت مرة اخرى في احتلال موقعي حليقات وكوكبا.

وفي الشمال فشل الهجوم على بيت عفه. اذ كان المصريون مدركين الاهمية الحيوية للقرية فحصنوها جيدا. وبعد الغارة السابقة، التي وصفت اعلاه، زاد العدو في تأهبه بهذه القرية. لقد هاجمتها سريتان: واحدة من الكتيبة ٤/غفعاتي من الجنوب، والاخرى من قوات الانزال من الشمال. واصطدمت السرية المهاجمة من الجنوب بسياج من الاسلاك الشائكة مقام وسط حقل من الذرة غير محصود، بينما انصبت عليها نيران العدو من الاسلحة المساندة. وكثرت الاصابات بين المهاجمين، فانسحبت السرية. ونجحت السرية الثانية ـ سرية الانزال ـ في اقتحام القرية من الشمال، لكن قبل ان تتمكن من اكمال احتلالها والتمركز فيها، شُنت عليها هجمات مضادة، وأصيب قائدها فانسحبت بصورة غير منظمة، كانت نتيجتها قتلى ومفقودين كثيرين.

وفي المقابل نفذت بنجاح، ومن دون خسائر تقريبا، المرحلتان الرئيسيتان من العملية: الهجومان على حته وكرتيا. فقد اقتحمت حته سرية من الكتيبة ٣/غفعاتي بعد اطلاق نار مركز ولفترة وجيزة، وفر المصريون منها. وبعد ذلك، تحركت من هناك سرية من الكتيبة ٣/غفعاتي وكتيبة الكوماندو ٩ في اتجاه كرتيا، فاقتحمتها كتيبة الكوماندو واحتلتها.

279 ونظمت سرية قوات المشاة التي اتت في اثرهما صفوفها للدفاع. وقبل ان تنجح في التحصن، شُنت عليها هجمات مضادة عنيفة، لكنها صمدت امامها. وفي الهجوم الثاني الذي وقع بعد الظهر، نجحت سرية مصفحات وفصيلة دبابات مصريتان في الوصول الى مشارف القرية، بعد ان اسكتتا مدفعا من عيار ٢٠ ملم كان منصوبا على التلة المشرفة على القرية. وأوشكت دبابتان على اختراق خطوط المدافعين من الجنوب، وأصبح الوضع خطرا. وغيرت وحدة بيات [مدفع مضاد للدروع] سير المعركة. فقد اقتربت هذه الوحدة مستترة بسياج من الصبار، الى مسافة تبعد ٤٠ مترا عن الدبابة الاولى، وأصابتها فأعطبتها مما اوقع الذعر في الدبابة الثانية القريبة منها ففرت، ولحقتها المدرعات الاخرى وأيضا قوات المشاة.

بدء الهدنة واحتلال العدو لمواقع كرتيا

في الساعة ١٩,٠٠ من يوم ٧/١٨، سرى مفعول الهدنة ولم يحاول العدو شن هجوم آخر، إلا انه حقق بالهدنة ما عجز عن تحقيقه بالمعركة. ففي مقابل موقعنا في كرتيا احتل المصريون سبعة مواقع. وبذلك قطعوا مرة اخرى طريقنا الفرعي الى النقب وفتحوا لانفسهم «طريق بورما» خاصا بهم، يلتف حول الجزء من طريق المجدل ــ بيت جبرين الذي احتلته قواتنا. لقد كرر المصريون الاسلوب الذي لجأوا اليه في الهدنة الاولى: خلق حقائق خلال الهدنة تلغي منجزات الجيش الاسرائيلي العسكرية التي حققها خلال المعارك. ونجحوا ايضا في هذه المرة، وبقي طريق النقب مغلقا.

٤ ــ عملية «غيس»

جرت محاولة اخرى لشق طريق الى النقب خلال الايام الاولى للهدنة، وذلك بعملية «غيس» التي نفذت في نهاية تموز/يوليو («غيس» ــ الاحرف الاولى من «غفعاتي» و«يفتاح» وسيرغي*). ارسلت قوات من لواء «يفتاح»، بعد ان انهت بنجاح مهماتها في اطار عملية «داني»، الى الجنوب للمساعدة في فتح الطريق الى النقب، ولمعاونة الوحدات الاقدم في المنطقة: لواءي «غفعاتي» و«النقب»، وأيضا وحدات الدبابات من اللواء المدرع ٨. وكانت الاشارة ببدء العملية ستعطى عندما يهاجم المصريون قافلة لنا خارقين بذلك الهدنة.

وكان الهدف توسيع ممر كرتيا وحمايته. كانت الخطة: احتلال الفالوجة على يد «يفتاح» من جهة، وعراق المنشية على يد «غفعاتي» من جهة اخرى، مع عمليات إلهاء ومشاغلة في عدة امكنة على طول الجبهة. وبعد ان خرجت القافلة متجهة الى النقب وهوجمت، تحركت القوات لتنفيذ مهماتها لكنها جوبهت في الهدفين الرئيسيين بنيران قوية ففشل الهجومان: لم تسقط الفالوجة في يد «يفتاح»، ولم تحتل قوات «غفعاتي» عراق المنشية.

وبقيت القوات التي حشدت للعملية في المنطقة بضعة ايام اخرى لدفع المصريين الى «الاقتناع» بأن هناك خطرا فعليا على مواصلاتهم من الغرب الى الشرق، كالخطر على مواصلاتنا من الشمال الى الجنوب.

وفي ٧/٣١، نجحت قافلة قوامها ٣٠ سيارة في شق طريق لها الى النقب. تحركت من غات ومرت بين المواقع المصرية فعلا حتى وصلت الى روحاما. وفي اليوم التالي، صدر الامر بانهاء عملية «غيس»، وأعيدت قوات «يفتاح» واللواء المدرع الى قواعدها. وعاد لواء «غفعاتي» ولواء «النقب» كل الى مواقعه.

---

* سيرغي: لقب اطلق في البداية على قيادة لواء «النقب»، ثم أُطلق بعد ذلك على اللواء نفسه.

٥ ـ خلاصة «الايام العشرة» على الجبهة الجنوبية

في تلخيص لعبرة «الايام العشرة» قال قائد لواء «غفعاتي»: «ان مشكلة النقب قابلة لحل على نطاق ضيق وجزئي. من اجل شق الطريق الى النقب ينبغي انشاء ممر من المواقع، اذ يتوقف عرض الممر على مكان الثغرة، والمحافظة عليه بقوات كبيرة جدا وحمايته من القطع».

ولم يتم التوصل الى حل لمشكلة النقب ـ حل «على نطاق ضيق وجزئي» ـ إلا في مرحلة لاحقة، خلال عملية «يوآف» ـ وهي عملية «عيسر هَمَكّوت» [الضربات العشر] التي جرت في تشرين الاول/اكتوبر.

وفي هذه المرحلة، من بدء الهدنة الاولى حتى الهدنة الثانية، سقط من أفراد القوات المقاتلة ٨٣٨ شخصا ومن المدنيين ٣٠٠ شخص تقريبا.

ب ـ المعركة في البحر والجو خلال "الأيام العشرة"

١ ـ عمليات سلاح البحرية الاسرائيلي

انهى البريطانيون جلاءهم عن ميناء حيفا في ٣٠ حزيران/يونيو. وبعد الجلاء نقلت الى هناك القاعدة الرئيسية لسلاح البحرية، وبدأ التنظيم الحقيقي للسلاح؛ أخذ عدد أفراده يزداد، وبدىء تنظيم وحدات انزال ووحدات خاصة، وأيضا اساطيل صغيرة من الزوارق لأعمال الخفارة والاغارة. لكن القوة البحرية بمجملها كانت لا تزال صغيرة وضعيفة، ولم تتبلور بعد. وكانت في حيازتنا عمليا، في تلك الفترة، سفينتان فقط: «ايلات» و «يغوود»، وكانتا مسلحتين بـ: مدفع ميدان من عيار ٦٥ ملم، ومدفعين من عيار ٢٠ ملم على كل منهما. وكان لدينا ايضا زوارق خفارة مسلحة بأسلحة خفيفة.

المشاركة في معركة بيت عفه

قام سلاح البحرية، بقوته الصغيرة هذه وبالاضافة الى عملياته الدفاعية، بعدد من العمليات الهجومية في اطار معارك «الايام العشرة». وكان قد ورد سابقا مشاركة سلاح البحرية في عملية «شوتير» ـ العمليات ضد القرى العربية الواقعة على شاطىء الكرمل. وشاركت سرية الانزال التابعة لسلاح البحرية في عملية برية واضحة، هي الهجوم على بيت عفه في ١٨ تموز/يوليو. وتكبدت سرية الانزال في هذه العملية خسائر فادحة، فاقت خسائر سلاح البحرية بكامله خلال حرب الاستقلال بأسرها.

عمليات مبادأة اولى

في الوقت نفسه، بادر سلاح البحرية الى عمليات اولى، لم تكن مرتبطة بعمليات للقوات البرية. فخلال الهدنة، وضعت خطط لعمليات ضد شواطىء لبنان وقطاع غزة. لكن العمليات الدفاعية ادت الى تأجيل هذه العمليات الى يوم المعارك الاخير من «الايام العشرة». وكانت عمليات المبادأة التي نفذت قصف صور في الشمال.

قصف صور

كانت الخطة تقضي بالوصول بالسفن الى قبالة مدينة صور وقصفها. وكان الهدف الاساسي اصابة محطة القطار، والهدف العام اضعاف معنويات العدو.

في الساعة ١٨,٤٥ من يوم ١٩٤٨/٨/١٧، بعد ربع ساعة من تلقي امر العملية، تحركت السفينتان، «ويغوود» و «ايلات» من ميناء تل ابيب في اتجاه الشمال، لتنفيذ القصف في الساعة ٠٥,٠٠ من اليوم التالي. وكان قائد العملية قائد «ويغوود» التي ابحرت في المقدمة 282 وتبعتها «ايلات» ـ على بعد ٥٠٠ متر. وفي الساعة ٠٤,٥٠، كانت السفينتان قبالة صور، على بعد ميل ونصف الميل من المدينة. ولاحت أنوار المدينة بوضوح وبان الهدف جليا. وهنا انقسم الاسطول الصغير: اتجهت «ويغوود» شرقا و «ايلات» الى الجنوب الشرقي، نحو موقع القصف. وفي الساعة ٠٥,٢٥، وصلت السفينتان الى الموقعين الملائمين وبدأتا القصف. وبعد ان اطلقت «ويغوود» ٣٦ قذيفة تعطل مدفعها. وواصلت «ايلات» القصف حتى نفدت الذخيرة المخصصة لها: ٥٠ قذيفة (الكمية المخصصة لعملية القصف بأكملها كانت ١٠٠ قذيفة).

وخلال العملية لم يصدر اي رد من الشاطىء.

وفي الساعة ٠٥,٤٥، ابحرت السفينتان بأقصى سرعة نحو الغرب، حتى ابتعدتا مسافة ١٠ اميال عن الشاطىء، ومن هناك اتجهتا جنوبا الى تل ابيب.

حماية الهجرة

طوال تلك الفترة، كان سلاح البحرية منهمكا في العمليات الدفاعية، التي اصبحت عادة، وفي حماية الهجرة. ثم اقتصرت هذه الحماية على مواكبة سفن المهاجرين في طريقها الى البلد؛ فلم تعد تخصص لكل سفينة قوة بحرية، وتغير ايضا شكل الحماية من سفينة الى اخرى. وكان يقوم بالحماية عادة سفينة مسلحة واحدة تابعة لسلاح البحرية يقام بينها وبين السفينة المحمية اتصال لاسلكي مباشر. وأُمنت حماية كهذه، بصورة عامة، للسفن التي قد تجذب انتباه العدو.

خـلاصـة

على الرغم من بساطة عمليات سلاح البحرية خلال معارك «الايام العشرة»، فانه يجب عدم الاستخفاف بها. ان اهمية عمليات المبادأة ينبغي ألا تقاس وفقا لنتائجها بالنسبة الى قوات العدو، وانما وفقا للتأثير الذي احدثته في أفراد الاسطول الاسرائيلي. كانت تلك عمليات المبادأة الاولى له، وأكسبته خبرة وثقة بأننا نمتلك القوة لتنفيذ عمليات كهذه، ودلت بوضوح على اساليب عمل جديدة يستطيع الاسطول الاسرائيلي بواسطتها ان يساهم في الحرب في البلد. ان هذه العمليات وعمليات اخرى، لم يحن الوقت للكشف عنها، ترمز الى بداية التحول في الحرب البحرية: انتقال زمام المبادرة الى يدنا.

٢ ـ نشاط سلاح الطيران

مقدمة: انشاء سرب النقل الجوي

عرضنا اعلاه نشاطات سلاح الطيران في الفترة مدار البحث، لكننا لم نتحدث بعد عن توسيع السلاح. فقد نظمت قواعد وأضيف طيارون وشكلت أطقم جوية ووصل ميكانيكيون الخ. واكتسب «القطار الجوي» من تشيكوسلوفاكيا الى البلد أبعادا لم تكن متوقعة. وبالتالي تقرر انشاء شعبة نقل جوية يكون سلاح الطيران مسؤولا عنها. وفي ١٩٤٨/٧/١، انشىء «سرب النقل الجوي». وجلبت الى البلد طائرات «ميسرشميدت» اخرى قارب عددها الـ ٢٠ طائرة. وكانت هناك ٣ «قلاع طائرة» مشتراة من الولايات المتحدة في مكان ما بانتظار احضارها الى البلد. وخرجت مجموعة طيارين اسرائيليين للتدرب في تشيكوسلوفاكيا. وجمعت في البلد طائرتا «ميسرشميدت» من قطع قديمة. وبدأ السرب القتالي يأخذ طابع وحدة مقاتلة بصورة مرضية. 283

مساندة القوات البرية

عندما انتهت الهدنة الاولى ونشبت معارك «الايام العشرة»، شارك فيها سلاح الطيران مشاركة فعالة. اولا وقبل كل شيء، قدمت طائراتنا مساندة للمقاتلين على الارض في العمليات المختلفة («باروش» و«ديكل» ــ في الشمال؛ «داني» ــ في الوسط؛ وخلال المعارك ضد المصريين ــ في الجنوب). ونشطت الطائرات ايضا فوق مناطق العدو، وأغارت على حشوده.

وصول «القلاع الطائرة» ــ قصف القاهرة ودمشق

خلال «الايام العشرة» تلقت هيئة الاركان نبأ مفاده ان «القلاع الطائرة» الثلاث اصبحت مسلحة وجاهزة للاقلاع من مكان وجودها. وكُلِّفت احداها الاغارة على القاهرة فقامت بالمهمة. اسقط ١,٥ طن من القنابل على منطقة قصر عابدين: مقر فاروق. وأغارت «القلعتان الطائرتان» الاخريان على المعسكرات في منطقة رفح ــ العريش. ووصلت الطائرات الثلاث سالمة الى قاعدتها الجديدة، وفي الليلة نفسها اقلعت للقيام بغارة اخرى.

وتزايد نشاط سلاح الطيران؛ شنت طائراتنا غارتين اخريين على دمشق. وقصف رأس الجسر في مشمار هايردين مرارا عديدة، وقصفت كذلك مناطق عربية اخرى كثيرة.

ادى وصول «القلاع الطائرة» الى زيادة كميات القنابل التي اسقطت على مناطق العدو. ففي الفترة بين ٧/٨ و٧/١٤ قام سلاح الطيران بـ ٨٢ طلعة، اسقط خلالها ما وزنه ٩٣٧٠ كلغ من القذائف؛ وقام في الفترة بين ٧/١٥ و٧/٢١ بـ ٨٢ طلعة ايضا، لكنه اسقط خلالها ما وزنه ٤٨,٨٣٠ كلغ من القنابل.

خلاصـــة

لقد برهنت عمليات «الايام العشرة» لسلاح الطيران انه لا يستطيع ان يؤثر مباشرة في المعركة ويخفف ضغط العدو على قواتنا إلا عن طريق زيادة قوة القصف. وزال الاحساس بالعجز الذي تملك سلاح الطيران في الايام الاولى التالية للغزو. وأصبح السلاح، في نهاية الهدنة الثانية، مفعما بالثقة بأن في وسعه هزيمة العدو.

جـ - شِـرَاء الأعتِدَة وتَسَليح القوّات*

١ ــ مقدمــة

ان شراء الاسلحة والاعتدة في فترة ما بعد اقامة الدولة، الذي كان يتم على نطاق واسع، تعرقل قليلا نتيجة اعلان الهدنة، لأنها تنص في احد بنودها على حظر ادخال العتاد العسكري الى ارض ــ اسرائيل والدول العربية. وكان السبب في ذلك رغبة الامم المتحدة في المحافظة على ميزان القوى كما كان قبل الهدنة. ومن اجل مراقبة تنفيذ هذا البند، اقترح الكونت برنادوت وضع مراقبين في الموانىء الرئيسية للدول ذات الصلة بالامر. بل انه طلب من دول العالم المختلفة عدم تزويدها بالاسلحة خلال فترة الهدنة. وبعد انتهاء الهدنة الاولى سُحب مراقبو الامم المتحدة من مواقعهم، واستؤنفت نشاطات شراء الاسلحة من دون عراقيل.

في مجال المدرعات، الذي كان وضعنا فيه متدنيا، احدث جهاز المشتريات العسكرية تحولا. ووصلت الدبابات العشر الاولى ــ «هوتشكس» من انتاج فرنسا.

ان هذه الدبابة، «هوتشكس»، دبابة خفيفة تزن ١١ طنا وقطر مدفعها ٣٧ ملم فقط. وهي معدة لمساندة المشاة. وكان هذا الطراز من الدبابات قديما، لكن في ضوء وضعنا في تلك الفترة لم يكن امامنا خيار آخر فاشتريناها. وعلى الرغم من قدم هذا الطراز فانه منح الجيش الاسرائيلي فرصا لا بأس فيها لمواجهة الدبابات التي كانت آنذاك لدى الجيوش العربية: الـ «رينو» الفرنسية التي كانت لدى السوريين، والـ «لوكوست» الاميركية التي كانت لدى المصريين. وقد وصلت دبابات الـ «هوتشكس» الى البلد على متن سفينة نقلت اسلحة اخرى للجيش الاسرائيلي.

ووصلت الاسلحة الخفيفة من تشيكوسلوفاكيا بحرا، وفقا لعقد الشراء الثالث الموقع مع هذه الدولة. وقد تضمنت الشحنات ١٠,٠٠٠ بندقية وما يزيد على ٣٠٠٠ مدفع رشاش. وكانت هناك مشكلة تمويل صعبة بالنسبة الى هذه الصفقة، لكن السلطات التشيكية منحتنا شروط دفع مريحة، وفي مقابل سدس ثمن الشحنة الذي دفع نقدا، وافقت على ان تسلم «البضاعة» كلها فورا.

---

* من بداية الهدنة الاولى حتى نهاية الهدنة الثانية.

وجوا استمرت عملية «بالاك» (القطار الجوي). وجلبت بواسطتها الى البلد ١٥ طائرة «ميسرشميدت» اخرى كان قد تم شراؤها قبل الهدنة. كما وصل ايضا باقي الـ «بيزات»*.
285 وقد اضطرت طائرات الـ «كوماندو» التابعة لـ «القطار الجوي» الى الطيران من تشيكوسلوفاكيا الى كورسيكا فالبلد، مما ادى الى اطالة مسافة الطيران ١٠٠٠ ميل تقريبا. ولذا بذلت جهود للحصول على اذن هبوط في قاعدة اقرب الى البلد. وبعد موافقة الدول المعنية، وضع في تصرف رجال المشتريات في سلاح الجو مطار صغير، نظم كقاعدة وزود بالوقود وجهز للعمل. وحدث ذلك في الوقت الملائم، اذ انه في تلك الفترة نشأت صعوبات في استخدام المطار في كورسيكا، واضطررنا بسرعة الى الكف عن استخدامه. وأنشىء كما سبق ان ذكرنا، في ١٩٤٨/٧/١، سرب النقل الجوي وكُلِّف تنسيق عمليات «بالاك».

واستمرت عملية «القطار الجوي» عدة اسابيع اخرى بطاقة قصوى، وأُحضر الى البلد باقي طائرات الـ «ميسرشميدت» والـ «بيزات» وأسلحة وذخائر الخ. لكن في بداية آب/اغسطس، حدث تحول اوقفت في اثره هذه الرحلات. فقد اصدرت الحكومة التشيكية أمرا باغلاق قاعدة المشتريات العسكرية في بلدها خلال ٢٤ ساعة، وباخراج العتاد والافراد من أراضيها. ونُقلت القاعدة بأكملها الى البلد مما انهى عملية «بالاك» ـ «القطار الجوي» ـ التي بدأت في ٢٠ ايار/مايو. وقد قام «القطار» بدور حاسم في حرب الاستقلال. وبنقل القاعدة من تشيكوسلوفاكيا اتسع اطار سلاح الطيران، وشكلت أسراب جديدة في مطارات اخرى، وتبلورت الاطقم.

٢ ـ عملية «وولووتا»

في هذه الاثناء جرت في البلد الاستعدادات لاستقبال طائرات الـ «سبيتفاير» الاولى، التي اشتريناها في اوروبا قبل شهرين. وكانت مشكلة احضارها صعبة جدا. اذ كانت المسافة بين مطار الانطلاق واسرائيل ١٤٠٠ ميل، ولا تستطيع الـ «سبيتفاير» ـ المزودة ايضا بخزانات وقود احتياطية تحت الجناحين، البقاء في الجو اكثر من ثلاث ساعات طيران بسرعة نحو ٢٠٠ ميل في الساعة. وكان من الواضح ان طائرات الـ «سبيتفاير» لا تستطيع الوصول الى البلد بـ «قفزة» واحدة، إلا اذا اضيفت الى خزانات الوقود الموجودة فيها خزانات داخلية لمضاعفة مدى طيرانها. وبعد محاولات عديدة نجح جهاز المهندسين والفنيين في تركيب خزانات وقود اضافية داخل الطائرات، في مكان الراديو، وفي اطالة مدى الطيران الى ١٤٠٠ ميل تقريبا، اي ٧ ساعات طيران. وكان المسؤول عن هذه العملية يهودي اميركي.

* جمع «بيزا» وهو مدفع رشاش متوسط من صنع تشيكوسلوفاكيا وزنه ٢٠,٥ كلغ يطلق ٥٠٠ ـ ٧٠٠ رصاصة في الدقيقة الواحدة. (المترجم)

وفي التخطيط لهذه العملية، عملية «وولووتا» (نقل طائرات الـ «سبيتفاير» الى البلد)، كان من الضروري ان تؤخذ بعين الاعتبار، ضمن امور اخرى، الحقائق التالية:

١ ــ ستطير الطائرات من دون اتصال لاسلكي.

٢ ــ معظم الطيران سيكون فوق البحر.

٣ ــ ليس منطقيا الاعتماد على قيادة الطيارين وهم في وضع من شأن اي انحراف بسيط فيه عن خط الطيران، ان يؤدي الى فقدان الطيار والطائرة والى نقص في الوقود، او عثرات اخرى.

لذلك تحددت على طول خط الطيران، بالتنسيق مع سلاح البحرية، خطوط ملاحة لسفن من مهماتها مساعدة الطائرة في حال سقوطها. ومن اجل ذلك، طورت طرق اتصال مشتركة، كانت بمثابة المناهج الاولى لعملية جوية ــ بحرية منسقة. ومع انه تم اكتشاف بعض العيوب عند بدء العملية، إلا انها فتحت الطريق امام القوتين لعمل مشترك في المستقبل. وخصصت طائرة «كوماندو» لأغراض التوجيه والانقاذ، وزودت بقوارب نجاة (قوارب صيد صغيرة)، وبأجهزة اتصال لاسلكية كانت تفتقر اليها الطائرات المقاتلة. وكان لا بد ايضا من التنسيق بين السرعة خلال طيران طائرة التوجيه وبين السرعة خلال طيران طائرات الـ «سبيتفاير»، التي لم تكن مهمة سهلة، اذ ان ذلك كان يتطلب اتصالا بصريا بينها وبين كل الطائرات، ومحافظة دقيقة على اتباع خط الطيران.

286

وفي الوقت نفسه، ارسل من البلد ستة طيارين، معظمهم من مسرحي «سلاح الطيران الملكي» البريطاني أو سلاح طيران جنوب افريقيا، ولديهم خبرة كبيرة بالـ «سبيتفاير» للمشاركة في المرحلة الاولى من عملية «وولووتا».

وفي بداية تشرين الاول/اكتوبر، اقلعت من قاعدة الانطلاق خمس طائرات «سبيتفاير». والتقت فوق هذه القاعدة طائرة التوجيه فطارت خلفها الى خط الطيران المعين. واستمرت الرحلة فوق البحر ٧ ساعات تقريبا. وكانت تقف على اهبة الاستعداد في احد مطارات البلد طائرة «داكوتا» مجهزة بوسائل انقاذ بحرية ــ جوية، لمساعدة اية طائرة قد تضطر الى الهبوط في البحر. وكانت وحدات سلاح البحرية موجودة على طول خط الطيران. وعندما اقتربت الطائرات من رودس وصل إخطار بحدوث خلل في طائرتين. واتجهت الاثنتان الى الجزيرة، وواصلت الطائرات الاخرى طريقها لأن كل لحظة تأخير كانت ستكلفها وقودا ثمينا. وبعد نحو ست ساعات وثلاثة ارباع الساعة من الطيران اقتربت من جبال الكرمل. وفي هذه الاثناء، تجمع بالقرب من غرفة العمليات في المطار، في البلد، جميع الاشخاص الذين كانوا على معرفة بما سيحدث، ورفعوا ابصارهم الى الاجواء. وبدأت طائرات الـ «سبيتفاير» الثلاث، ذات الاجنحة «المقصوصة»، بالظهور الواحدة تلو الاخرى. وعندما هبطت طائرة التوجيه اتضح ان الطائرتين الناقصتين هبطتا على جزيرة رودس بسبب خلل في جهاز الوقود أعاقها عن اتمام الرحلة. وألقت سلطات الجزيرة القبض على الطيارين، وأفرجت عنهما بعد

اسبوعين فعادا الى البلد. إلا ان الطائرتين ظلتا هناك حتى انتهاء حرب الاستقلال. وبذلك انتهت المرحلة الاولى من العملية. وأصبحت الطائرات المقاتلة في سلاح الطيران الاسرائيلي عند انتهاء الهدنة الثانية مشكلة من ثلاثة أنواع: «ميسر شميدت» و «سبيتفاير» و «موستينغ».

وفي منتصف الهدنة الثانية، وصلت الى البلد طائرتا «هدسون». وهكذا تعززت قوة سلاح الطيران الى ان اصبح مستعدا ــ عشية عملية «يوآف» ــ لمواجهة قوات العدو والتغلب عليها.

وفي اثناء عملية تعزيز قوة سلاح الطيران القتالية، قام السلاح بعملية نقل كبيرة في الجنوب، هي عملية «أفاك».

٣ ــ عملية «أفاك»

كما سبق ان ذكرنا، بقي النقب معزولا ايضا خلال الهدنة الثانية. ولم يكن التسلل عبر خطوط المصريين كافيا لتأمين الامدادات للمستعمرات الـ ٢٦ في النقب، وللوحدات العسكرية المتمركزة في انحائه. وعمل سلاح الطيران جهده، وكانت قدرته محدودة، لنقل نحو ١٠ او ١٢ طنا من الامدادات يوميا فقط. وبات واضحا انه لا يمكن عن هذا الطريق تأمين الامدادات للنقب، وخصوصا اذا تقررت زيادة القوات والمخزون الاحتياطي فيه.

وفي بداية آب/اغسطس، تشكل في سلاح الطيران سرب جديد من طائرات «نورسمان»، بدأ هو ايضا مع باقي الاسراب بنقل الامدادات للنقب جوا. وعلى الرغم من قلة عدد طائراته نسبيا، فقد نجح في القيام بطلعات كثيرة. وقد قام قائده، وهو اميركي مسيحي، بـ ٥ طلعات الى سدوم في يوم واحد. وكان هذا السرب هو الذي ضمن الاحتفاظ بسدوم المعزولة. فبسبب الطابع الخاص للمدرج هناك، الذي لم يكن ملائما لطائرات الـ «داكوتا»، كانت الـ «نورسمان» هي اثقل طائرة قادرة على القيام برحلات جوية بصورة دائمة الى سدوم.

287

لكن كل قوة النقل الجوية هذه لم تستطع ان تؤمن للنقب اكثر من إمدادات طوارىء فقط. واستلزمت ضرورة نقل الامدادات والتعزيزات على نطاق واسع، استعدادا لعملية لفك الحصار عن النقب وتوسيع مجال النقل الجوي. وفي هذه الاثناء، أغلقت قاعدة النقل الجوي في تشيكوسلوفاكيا ونقلت الى البلد. وعندها ولدت فكرة انه باقامة مدارج طوارىء ملائمة داخل النقب، يمكن ان تنقل اليه جوا إمدادات وقوات اكبر كثيرا.

وفي الايام التالية، ارسل ضباط من قيادة سلاح الطيران لاستطلاع النقب وايجاد مناطق ملائمة للمدارج. ووجدت بالقرب من احد الكيبوتسات مساحة ملائمة لهبوط الطائرات الثقيلة. وكان يلزم للبدء بالعملية اطالة المساحة وتمهيد الارض.

وفي ليل ٢٢ ــ ٢٣/٨، بعد احد عشر يوما من اغلاق القاعدة في تشيكوسلوفاكيا،

انطلقت الطائرة الاولى الى المطار الجديد في النقب. وكانت خطة القيادة تقضي بنقل كمية مقدارها ١٥ طنا كل ليلة الى هناك، لكن في الليلة الاولى تم نقل ٢٩ طنا، وفي الليلة التالية ٧٥ طنـا. وكان هذا انجازا فاق كل التقديرات. وبمرور الوقت نشأت حقا صعوبات، لكن السرب نجح في مهمته أخيرا. وفي المراحل النهائية من العملية انضمت اليه ايضا طائرات «نورسمان» و«داكوتا».

وقد نقل في اطار عملية «أفاك» الى النقب ٢٢٢٥ طنا من الامدادات، وأُعيد منه ٢٠٠٠ شخص تقريبا. ونفذ هذا كله خلال شهرين، وهو انجاز غير عادي اذا اخذنا في الاعتبار الظروف الاستثنائية التي كانت سائدة خلال العملية.

ولم يكن سلاح الطيران فقط هو الذي ازداد عدة وعددا، بل حدث ايضا تطور كبير في الاسلحة الاخرى.

٤ ـ تسليح سلاح البحرية استعدادا لعملية «يوآف»

في الاشهر الثلاثة ما بين انتهاء «الايام العشرة» وبداية عملية «يوآف»، ازدادت قوة سلاح البحرية الاسرائيلي زيادة كبيرة.

زادت عمليات شراء القطع البحرية خارج البلد، وأيضا عمليات اصلاح سفن الهجرة اللاشرعية داخله. وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨ ـ عشية عملية «يوآف» ـ كان لدى سلاح البحرية ١٦ قطعة بحرية تبلغ حمولتها الاجمالية ٧٠٠٠ طن تقريبا، ومشكلة من اربعة أنواع:

١) اربع سفن مقاتلة: «ويغوود» و«هاغاناه» و«معوز» و«نوغا». وكانت كل واحدة من السفينتين الاوليين مسلحة بمدفع من عيار ٧٥ ملم، وبمدفع من عيار ٦٥ ملم، وبمدفعين من عيار ٢٠ ملم، وبأربعة رشاشات ثقيلة.

وكانت «معوز» و«نوغا» مزودتين بمدافع من عيار ٢٠ ملم فقط.

288

ومن الناحية العملية كانت سفينتان فقط من بين الاربع ـ «ويغوود» و«هاغاناه» ـ صالحتين للعمليات القتالية. وكانت «معوز» معدة لتكون السفينة الام لوحدة بحرية خاصة. أما «نوغا» فلم تكن صالحة تقريبا للاستخدام بسبب نوع محركاتها.

٢) ثلاث سفن خدمة: «ايلات» و«هدروميت» («دروم افريكا») [جنوب افريقيا] و«اتياموري». وكانت «ايلات» مسلحة بمدفع من عيار ٦٥ ملم، وبمدفعين من عيار ٢٠ ملم. ولم تكن السفينتان الاخريان مسلحتين بأية مدافع. وقد استخدمت «ايلات» في حماية السفن كما استعملت سفينة تدريب. ولم تستخدم السفينتان الاخريان تقريبا خلال الحرب، لانهما كانتا غير صالحتين للقتال.

٣) ثلاث سفن غزو، كانت منظمة في اسطول صغير واحد. وكانت حال اثنتين منها سيئة، ولم تستخدما على الاطلاق.

٤) ست سفن صغيرة، كانت منظمة كوحدة واحدة مهمتها الروتينية القيام بأعمال الاستطلاع قرب الساحل.

وكانت هناك في وحدات بحرية خاصة مجموعات متفوقة ومدربة جيدا منذ فترة «الصراع» ضد البريطانيين، قامت في حينه بعمليات تخريب ضد سفن الطرد [طرد المهاجرين غير الشرعيين].

وعزز وجود هذه الوحدات الثقة بقدرة الاسطول الاسرائيلي على القيام بعمليات مبادأة في البحر، على الرغم من تفوق المصريين في القطع البحرية التي لديهم، الذي انحسر باطراد منذ الغزو لكنه لم ينته طوال فترة الحرب. وفي بداية المرحلة الجديدة، كان لدى المصريين: ثلاث كاسحات ألغام مقاتلة، وأربع سفن خدمة مسلحة، وثماني كاسحات ألغام صغيرة مسلحة. وعلى الرغم من ان الاسطول المصري (الاسطول الوحيد الذي كنا نواجهه) كان اكبر من الاسطول الاسرائيلي، فان الاسطول الاسرائيلي الصغير لم يتردد في الخروج لمواجهته حتى انه تغلب عليه.

٥ ــ استمرار شراء السلاح

واصلنا شراء السلاح في اوروبا الغربية، فاشترينا مدافع ميدان ومدافع مضادة للدبابات ودبابات، من مخلفات الجيش الاميركي. ووصل الى البلد في الفترة نفسها ٥٠ مدفعا آخر من عيار ٧٥ ملم (كروب)، تم تفريغها وتجهيزها استعدادا لعملية «يوآف». كما اشترينا ٢٧ مدفعا من عيار ٢٠ ملم مشابهة في مواصفاتها للمدفع السويسري من عيار ٢٠ ملم، الذي ورد ذكره مرارا اعلاه. ورافقت صعوبات خاصة عملية شراء دبابات من طراز «شيرمان».

ولم تكن المشكلات التي اضطررنا الى التغلب عليها مقتصرة على مشكلات الشراء والتحميل والنقل. فعندما وصلت الشحنة الى البلد، اتضح انه لا يوجد في البلد رافعات تستطيع انزال دبابة وزنها ٥٠ طنا من على متن السفينة. وغرقت رافعة عائمة، اشتريت خصيصا لذلك في ايطاليا، بالقرب من شواطىء اليونان. أخيرا، كانت ترسو بالقرب من موانىء البلد سفينة اجنبية، في امكان رافعاتها ــ بالتعاون مع رافعات الميناء ــ ان تنزل الدبابات. وهكذا تم انزالها ونقلها الى قاعدة في البلد، حيث بدأ العمل حثيثا لاصلاحها واعدادها للقتال. وقد استغرقت عملية الاعداد هذه وقتا طويلا، بسبب الاضرار التي لحقت بالدبابات، وخصوصا بمحركاتها، نتيجة «تعطلها» عن العمل فترة طويلة، وأيضا بسبب التخريب المتعمد لسبطانات مدافعها خاصة.

289 وكانت النتيجة ان ايا من هذه الدبابات لم تستطع الاشتراك في عملية «يوآف»، وذلك لانه لم يكن في الامكان الانتهاء من تجهيزها قبل بدء العملية. لكن عددا منها شارك في عملية «حوريف».

وفي بداية شهر تشرين الاول/اكتوبر، وصلت سفينة شحن كانت لها اهميتها في مواصلة الحرب، مع انها لم تكن تحمل معدات قتالية. فبالاضافة الى اجهـزة الاتصال والبطاريات وزيت المحركات، كانت تحمل ما يزيد على ٣٠٠ دراجة نارية، وعشرات من سيارات الركاب، و ٢٠ مركبة مقطورة «تريلر»، وقطع غيار للمرائب، وأهم من ذلك كله: ٥٠ سيارة جيب جهزت للعمل بسرعة فور وصولها الى البلد وأُرسلت الى النقب مع كتيبة الكوماندو عشية عملية «يوآف».

ولم يبتسم الحظ، في هذه المرحلة من الحرب، لأجهزة شراء السلاح في اميـركا الشمالية. ومثلت عملية إخراج «القلاع الطائرة»، التي وصفت اعلاه، النهاية المطلقة لنشاط شراء الاسلحة في الولايات المتحدة. وقد وصل الى البلد من الولايات المتحدة في الفترة التي هي في قيد البحث الآن نحو ٤٥٠ رشاشا (نوع براوننغ ــ ٣٠٠)، و٦٥ رشاشا (نوع فيكرز ــ ٣٠٠) فقط. وكانت هذه الرشاشات قد اشتريت قبل شراء «القلاع» كخردة، من مخلفات سلاح الطيران الاميركي في المحيط الهادىء بعد الحرب العالمية الثانية. ونقلت الاسلحة من مكان الشراء، في صناديق، الى سان فرانسيسكو. وكان الحظر الاميركي على ارسال شحنات الاسلحة الى الشرق الاوسط آنذاك ساري المفعول تماما. وكان من المحتمل ان يؤدي تخزين الاسلحة في كاليفورنيا الى تعريضها وتعريض الاشخاص المسؤولين عنها للخطر. وبعد جهد كبير وجدت احدى السفن فحملت الرشاشات على متنها، وقيل لصاحبها ان الصناديق الموجـودة على متن سفينتـه ينبغي ان تنقل بضعـة اميال فقط، الى الجـزيرة الموجودة بالقرب من شواطىء كاليفورنيا. وفي الطريق غُير اتجاه السفينة، و«أُقنع» صاحبها بالتوجه جنوبا نحو ميناء آخر، مريح اكثر بالنسبة الينا. وكانت تلك رحلة خطرة جدا، لكن السفينة وصلت الى الميناء المنشود من دون عراقيل. ومن هناك نقلت الرشاشات الى البلد، ووصلت في ايلول/سبتمبر ١٩٤٨، وحلت الى حد كبير مشكلة تسليح الطائرات المقاتلة والآليات المصفحة التي كانت لدينا وقتئذ.

فـي هذه الاثناء، لاحت من جديد مقترحات شراء السلاح من المكسيك. واقترح وكلاء من المكسيك شراء مدافع ميدان عيار ٧٥ ملم، من طراز فرنسي ومن انتاج بلدهم. وكان سعر المدافع رخيصا نسبيا، ولذا تقرر شراؤها قبل ان يفحصها فحصا دقيقا خبير سلاح المدفعية، كما جرت العادة بالنسبة الى مشترياتنا في اوروبا. وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٨، وصل الى البلد ٣٢ مدفعا منها. وبرهنت التجارب الاولى لاستخدامها انها غير صالحة للعمل. وحدث ان انخلعت سبطانة احد المدافع من مكانها خلال عملية الاطلاق. ان الـ «كوكورتشوت» ــ وهو الاسم الذي اطلقه جنود الجيش الاسرائيلي على هذه المدافع ــ لم تساهم مساهمة مهمة في النجاحات التي حققناها في حرب الاستقلال. وفي المقابل، من الواجب التنويه بوقود الطـائرات، الذي اشتراه يهود المكسيك منها، والذي جعل تنفيذ عملية «أفاك» وعمليات سلاح الطيران في عملية «يوآف»، أمرا ممكنا.

د ـ التّطوّرات التّنظيميّة والسّياسيّة

في الفترة الاخيرة بدأ الجيش الاسرائيلي بعملية تنظيم عامة، تجسدت في توسيع الاطر وزيادة عدد الافراد.

وقد امكن زيادة عدد القوات خصوصا بفضل «ماحل»: «المتطوعون من خارج البلد»، وغاحل: «المجندون في خارج البلد». وقد تشكل «المتطوعون من خارج البلد» من يهود من اوروبا الغربية وأميركا، خدم معظمهم في جيوش الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، وتطوعوا الآن في الجيش الاسرائيلي. وتشكل «المجندون في خارج البلد» من المقتلعين والناجين من الكارثة [النازية]، الذين كانوا يسعون للهجرة الى البلد قبل الحرب. واعتبروا اسرائيل الآن موطنهم.

١ ــ «المتطوعون من خارج البلد» (ماحل)

من الصعب الجزم بالعدد الدقيق لـ «المتطوعين من خارج البلد» الذين وصلوا الى البلد خلال حرب الاستقلال.

ان الارقام المدرجة هنا هي ارقام الحد الادنى التي تحددت في ضوء الاحصاء الوحيد للمتطوعين من خارج البلد، الذي أُجري في شهر حزيران/يونيو ١٩٤٩، وبموجبه بلغ عدد المتطوعين الذين شاركوا في حرب الاستقلال ٢٤٠٠ شخص تقريبا. منهم: من فرنسا اكثر من ٥٠٠؛ من انكلترا اكثر من ٥٠٠؛ من جنوب افريقيا اكثر من ٣٠٠؛ من الولايات المتحدة اكثر من ٣٠٠؛ والباقي من اميركا اللاتينية وكندا والدول الاسكندنافية ودول العالم الاخرى.

ان مساهمة المتطوعين من خارج البلد في حرب الاستقلال يجب ألا تقاس بمقياس كمي وانما بمقياس نوعي.

ان مساهمة المتطوعين من خارج البلد في انتصاراتنا لم تكن كبيرة بسبب العدد فقط، وانما كانت كبيرة ايضا بسبب كفاءاتهم وخبراتهم في مختلف المجالات. وكان عددهم كبيرا وتأثيرهم ملموسا جدا خصوصا في سلاح الطيران، وأيضا في اسلحة اخرى، مثل سلاح

البحرية وسلاح المدفعية والخدمات الطبية وغيرها. وتضمن لواء المشاة الجديد ــ اللواء «شيفع» ــ عددا كبيرا من المتطوعين من خارج البلد (ماحل) ــ ٣٠٠ شخص تقريبا ــ وكان قائده ايضا من المتطوعين (ميجر سابق في الجيش الكندي). وقد عبر المتطوعون من خارج البلد بصورة مدهشة عن التضامن العميق بين يهود المنفى والييشوف في البلد خلال ايام الطوارىء.

٢ ــ «المجندون في خارج البلد» (غاحل)

291

كانت مسألة «المتطوعين من خارج البلد» (ماحل) مختلفة في نواح كثيرة عن مسألة «المجندين في خارج البلد» (غاحل). ولا يمكن مقابلة هذين النوعين من المجندين بعضهما ببعض. لقد كان أفراد ماحل اشخاصا من الدول الغربية تطوعوا للقدوم والمساعدة في الحرب، والعودة بعد ذلك الى دولهم. بينما كان «المهاجرون الجدد» الذين تشكلت منهم غاحل لاجئين اوروبيين، فروا من بلادهم او قدموا من حياة الفساد والبؤس في المخيمات آملين ان يجدوا في ارض ــ اسرائيل وطنا ومستقرا لهم.

ويمكن التمييز بين نوعين من المهاجرين من رجال غاحل: ١) اولئك الذين هاجروا مباشرة الى البلد من دول شمال افريقيا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا، ومعسكرات ألمانيا الخ؛ ٢) اولئك الذين جاؤوا من معسكرات الاعتقال في قبرص، وتلقوا فيها إعدادا معينا وتدريبا محدودا. وكانت تواجه النوعين مشكلات استيعاب صعبة في البلد. وكان الجيش، الذي شكل في نظر كثيرين منهم محطة اولى في طريقهم الى البلد، بمثابة بوتقة صهر اجتماعية وقومية.

في كتاب «اصدقاء يحكون عن جيمي»، هناك وصف للقاء بين شاب من ارض ــ اسرائيل وأفراد من «غاحل»، في كتيبة تابعة للواء «هارئيل»:

«... قرأ جيمي في سجل الجنود اسماء الجدد، اسماء غريبة عجيبة تصلح لتكسير الاسنان... احترموهم واحترسوا منهم، كان يقول لقادة الجماعات، أظهروا تجاههم ثقة ومع ذلك راقبوا جيدا. اظهروا بمظهر القادة، لكن تصرفوا معهم جيدا وبصورة رفاقية... وقد احب أفراد غاحل المظهر العسكري الصلب والسلاح والحزام والخوذة الفولاذية. اذا كان لا بد من ان يصبح المرء جنديا فليصبح اذن جنديا حقيقيا... وكان أفراد غاحل يتهامسون بصدد جيمي: ازاء الخارج، كما لو انه ليس قائدا على الاطلاق، يربت على ظهورنا ويتجول بيننا ويحيا حياتنا، لكنه عمليا اكثر من ضابط في الجيش الاحمر او في الجيش البولندي... وبعد فتح طريق بورما بدأ أفراد غاحل بالتسلل الينا... وظهرت اسماء غريشا وياشكا وميشكا وما شابه ذلك. وكان بينهم من خدم سابقا في الجيش الاحمر ــ وعلى اية حال عاشوا فترة ما في روسيا. وكان بينهم من شاركنا في احتلال تسوفا [صوبا]. ووقتها بذل قائد المعركة

زيزي، من مواليد غفعات هشلوشاه ويجهل الايدش، جهدا فائقا. اشار الى تسوفا وقال للمجندين في الخارج: «داس تسوفا، منعمط»*. وقبل ان يندفعوا صرخوا: «زا رودينو، زا ستالينا، زا بن ــ غوريونا»... وأعقب ذلك شتائم روسية دسمة موجهة ضد العدو...

«وكانوا «يدبروننا» ــ نحن مواليد البلد ــ بالايدش، وطبعا لم يسلم القائد الذي لم يكن يعرف هذه اللغة من هزل هذه الزمرة ولسعاتها... وفي احدى الليالي، خرج عدد من المتطوعين في الخارج ومعهم اكياس صغيرة الى البساتين المجاورة وملأوها بـالخوخ والمشمش الخ، ثم انطلقوا بأحمالهم الثمينة هذه الى القدس فباعوها هناك... وكان معظمهم يتمتع بحس عملي متطور. لقد كانوا مهتمين بغدهم. ولا عجب في ان كثيرين منهم، بعد المصائب والتشرد في اوروبا، كانوا يتطلعون عند قدومهم الى البلد الى ركن يريحون فيه رؤوسهم بعد الحرب».

292

٣ ــ التطورات السياسية حتى عملية «يوآف»

تحددت الهدنة الثانية في اعقاب قرار صدر عن مجلس الامن. وخلافا للهدنة الاولى، لم ينتظر مجلس الامن هذه المرة موافقة الطرفين على قبول الهدنة، وانما هدد باتخاذ اجراءات ضد اي طرف لا يمتثل لأوامره. كما لم يقيد المجلس هذه المرة الهدنة بزمن معين، وانما امر باستمرارها حتى ايجاد حل سلمي. وكلف المجلس الوسيط استئناف جهوده للتوصل الى حل دائم.

ولم يعتبر الوسيط نفسه مقيدا بقرار الامم المتحدة الذي صدر في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، وقدم مقترحات للحل خاصة به كانت تميل، في معظمها، الى اخذ المطالب العربية بعين الاعتبار. وقد اعترف حقا بواقع قيام الدولة اليهودية، لكنه ايد تقليص مساحتها. وفي ١٩٤٨/٩/١٦، وقع الوسيط تقريره المقدم الى الامين العام للامم المتحدة. وصاغ الكونت برنادوت في هذا التقرير المبادىء الاساسية، من وجهة نظره، التي يجب ان يرتكز عليها اي حل نهائي لمشكلة ارض ــ اسرائيل.

وفي اليوم التالي، في ١٧ ايلول/سبتمبر، اتجه الوسيط عبر القدس العبرية الى مقر الحكومة في المنطقة المجردة من السلاح. وفي الطريق اطلق عليه النار أفراد من منظمة ليحي، التي ظلت قائمة في القدس بعد قيام الدولة، فأردوه قتيلا. وأضر هذا الاغتيال بدولة اسرائيل من حيث انه عطل الجدول الزمني لهيئة الاركان من جهة، ومن حيث انه تسبب بتعقيدات سياسية في العلاقات الخارجية للدولة من جهة اخرى. وكانت المنظمتان المنشقتان في هذه المرحلة، كما سبق ان ذكرنا، ما زالتا قائمتين في القدس وتعملان على مسؤوليتهما لأن القدس

---

* «هذه تسوفا، سنحتلها».

العبرية لم تكن قد عرفت رسميا بأنها جزء من دولة اسرائيل، وانما كانت خاضعة لحاكم عسكري. وفي اثر اغتيال الكونت برنادوت قررت الحكومة ان تعمل بحزم. فأمرت الايتسل في القدس بحل نفسها فورا، وتسليم اسلحتها للجيش الاسرائيلي. واعتقل نحو ٢٠٠ عضو من اعضاء ليحي، بما في ذلك زعماء المنطقة وقادتها.

وتحولت التوصيات المتضمنة في تقرير الوسيط الى نوع من الوصية السياسية. وكانت اخطر توصية بين هذه التوصيات، فصل النقب عن دولة اسرائيل، خلافا لقرار التقسيم الصادر عن الامم المتحدة، وتحويله الى منطقة عربية. ومما لا شك فيه ان هذه التوصية استندت ـ الى حد كبير ـ الى الواقع العسكري المتمثل في كون النقب معزولا ومحاصرا. وكانت هي التي عادت فأوضحت ضرورة تغيير الوضع في النقب بسرعة. وساعدنا في ذلك سلوك العدو. فقد رفض المصريون بعناد السماح بعبور القوافل الى النقب، وقدم هذا العمل الذي كان مخالفا لشروط الهدنة، المبرر لجيش الدفاع الاسرائيلي للقيام بعملية عسكرية ادت الى هزيمة الجيش المصري في البلد.

293 الحَسْم

(أ)

أ - عَمَليّة "يوآف[٧]"

كان الهدف الاول والاساسي للعملية الكبيرة هذه «شفاء» النقب مرة واحدة والى الابد من «مرض» العزل. وخلافا للعمليات السابقة، لم يكن هدف العملية هذه المرة الاكتفاء بشق ممر الى النقب وحمايته، وانما تحطيم القوات المصرية. وكان التقدير ان ابادة العدو هي التي ستؤدي تلقائيا الى السيطرة على المنطقة.

١ ـ القـوات

كانت القدرة على تنفيذ هذه العملية مرهونة، الى حد كبير، بحجم القوة التي يمكن تخصيصها لها. وكان حل هذه المسألة مرتبطا الى حد كبير، بين امور اخرى، بالاجابة عن سؤال آخر: ماذا ستفعل الجيوش العربية الاخرى خلال عملية الجيش الاسرائيلي ضد المصريين؟ واستنادا الى المعلومات التي كانت لدينا عن المشاحنات بين الدول العربية ـ التي ازدادت بمقدار ما تضاءلت نجاحاتها في ميدان المعركة ـ كان هناك مجال للتوقع انها ستقف على الحياد ولن تتدخل. لكن التخطيط العسكري ينبغي ان يدخل في حساباته اسوأ الاحتمالات. ولذا تقرر، بعد مناقشات طويلة، ابقاء قوات كافية ايضا على الجبهات الاخرى. وبالتالي حشدت من اجل عملية «يوآف» القوات التالية:

لواء «غفعاتي»، الذي كان يحتفظ بخط شمالي طريق المجدل ـ الفالوجة، والذي كان قوامه بعد عملية تنظيم جزئية خلال فترة الهدنة الثانية خمس كتائب كاملة تقريبا.

لواء «يفتاح»، الذي كان يحتفظ بمنطقة النقب، منذ نهاية آب/اغسطس بدلا من لواء «النقب» الذي ارسل الى الشمال لتنظيمه. وقد تم اخراج لواء «النقب» في اثناء عملية «أفاك» بطائرات النقل التي نقلت في طريق عودتها الى الشمال أفراد اللواء ـ بعد ان ظلوا منقطعين عن بيوتهم ومدنهم لمدة ثمانية اشهر، وعادوا الآن الى «ارض ـ اسرائيل» من النقب المحاصر. وكان لواء «يفتاح» الذي حل محل لواء «النقب» كمسؤول عن المنطقة، قد تسلل الى النقب بواسطة «طريق القوافل» الذي كان يبدأ من نيغبا، «تحت انف» المصريين الموجودين في مركز شرطة عراق سويدان، ويمر بين المواقع المصرية حتى يصل الى مواقع النقب

296 الشمالية. ونُقل العتاد العسكري للواء بـ «قطار جوي». وكان قدوم لواء «يفتاح» الى النقب فاتحة نشاط واسع. وفي اثناء فترة الهدنة احتل اللواء عددا من التلال، تمهيدا لعملية «يوآف». وقد صدت هذه التلال هجمات مضادة عنيفة لقوات من المشاة والمدرعات. ودارت معارك عنيفة بصورة خاصة في قرية محاز (الآن بالقرب من طريق بئر السبع ــ الفالوجة). وتناقلت الايدي المكان ثلاث مرات، وفي النهاية بقي في ايدينا. وتكبد اللواء خسائر جسيمة، لكنه ألحق بالعدو خسائر اشد جسامة. وفي الوقت نفسه، قام اللواء بنشاطات كثيرة ايضا في قطاعات اخرى بمنطقة النقب.

لواء «النقب» كان اللواء الثالث الذي شارك في عملية «يوآف». فبعد اخراجه من النقب وانتهاء اجازة قصيرة لافراده، حشد اللواء في بئير يعقوف وشُرع في اعادة تنظيمه. ولم يكف الوقت لاكمال التنظيم، فأُشركت في العملية كتيبتان فقط من كتائبه: السابعة والتاسعة.

وبالاضافة الى هذه الالوية الثلاثة، تقرر ان تخصص للعملية ايضا كتيبة الدبابات التابعة للواء المدرع وقيادة اللواء.

وبعد بدء عملية «يوآف» خصص للجبهة الجنوبية لواء خامس ــ لواء «عوديد» ــ ارسل من الشمال لكنه لم يكن داخلا في الحسبان عندما جرى التخطيط للعملية.

٢ ــ الخطــة

بخطوط عريضة جدا تشكلت خطة العملية من مرحلتين رئيسيتين:

أ) دق وتد في اتجاه الساحل، من داخل النقب، بهدف تهديد وعزل القوات المصرية الموجودة في شمالي هذا الوتد، والتي كانت المجدل مركزها.

ب) اختراق شريط المجدل ــ بيت جبرين (بيت غوفرين) لتحقيق الاتصال بالقوات في النقب، وبالتالي تصفية جزء كبير من قوات العدو المعسكرة في هذا الشريط بالتحديد.

والى جانب هاتين العمليتين كان على كتيبة الكوماندو التابعة للواء «النقب» ان تهاجم طرق مواصلات العدو في الجنوب، في قطاع غزة ــ العريش، وتضرب منشآت سلاح الطيران المصري.

وكُلِّفت قاذفات سلاح الطيران ضرب الطائرات المصرية وهي لا تزال جاثمة على الارض، وقصف مراكز القوة المصرية على الجبهة الجنوبية.

وبعد ان تم وضع الخطة الشاملة شرع في تعيين الاهداف لكل من المرحلتين الرئيسيتين: بالنسبة الى دق وتد الساحل انصرف اهتمام المخططين، للمرة الاولى، الى هربيا الواقعة بالقرب من ياد مردخاي. لكن بعد ان اتضح وجود قوة مصرية كبيرة معسكرة في هذا

المكان، تقرر اختيار هدف آخر. واتضح ان خطوط دفاع العدو بالقرب من بيت حنون ضعيفة جدا، فتقرر دق الوتد هنا، على ان يشكل كيبوتس نيرعام قاعدة صلبة له.

وبالنسبة الى فتح ثغرة الى النقب، في شمالي القطاع، كان هناك امكانان رئيسيان:
أ) احتلال مواقع شريط كوكبا وحليقات، مع السيطرة على طريق جولس ــ برير؛
ب) الاستيلاء على المنطقة المحيطة بالفالوجة ــ عراق المنشية وفتح طريق روحاما ــ غات الترابي. وكانت لكل امكان مزايا وعيوب. فقد كانت للاختراق من جهة الغرب قيمة اكبر اذ ان فتح ممر في الطريق الرئيسي انجاز اهم من فتح الطريق الترابي في الشرق. لكن في المقابل كانت تحتشد في الغرب قوات كبيرة للعدو، حيث يمكن ان يكون الاختراق اصعب كثيرا منه في الشرق. وتقرر ان يتم الاختراق في الشرق في طريق غات ــ روحاما، وهذا يستلزم احتلال الفالوجة وعراق المنشية اولا. وعلى اية حال، لم تكن هناك نية للاكتفاء بفتح ثغرة وايجاد «ممر» الى النقب، وانما «طي» كل نظام انتشار القوات المصرية بين «هتسومت» [مفترق الطرق] وعراق المنشية. 297

وتقرر ان يُكلَّف تنفيذ دق وتد بيت حنون لواء «يفتاح» الموجود في النقب، وأن يكلف تنفيذ اختراق خط المجدل ــ الفالوجة في المحور الشرقي روحاما ــ غات، تشكيل قتالي مكون من الكتيبة ٧ من لواء «النقب» وكتيبة الدبابات ٩/اللواء المدرع. وكان على هذا التشكيل القتالي احتلال عراق المنشية، وبعد ذلك ــ عن طريق استغلال سريع للنجاح ــ تصفية سلسلة مواقع القوات المصرية حتى «هتسومت». وكُلِّفت قوات لواء «غفعاتي» دق اوتاد اصغر في اتجاه حمامة من ناحية، وفي شرقي عراق المنشية وضواحي خربة الراعي من ناحية اخرى.

ووضعت في تصرف العملية مدافع ومدافع هاون ثقيلة للمساندة بكثافة لم تشاهد قبلا في الجيش الاسرائيلي.

٣ ــ التنفيــذ 298

الاوتاد والغارات

في ١٠/١٥، كانت جميع القوات جاهزة في قواعد الانطلاق. وفي عصر ذلك اليوم، بعد إعلام رئاسة الامم المتحدة، خرجت قافلة من كرتيا قاصدة النقب. وعندما وصلت الى مسافة قريبة من المواقع المصرية أُطلقت عليها النيران، فاحترقت احدى سياراتها، وانسحبت السيارات الاخرى الى قاعدة الانطلاق. وكانت تلك اشارة البدء للقيام بعملية «يوآف».

قبيل المساء، في الساعة ١٨,٠٠، قصفت وحدة قاذفات اسرائيلية مطار العريش قصفا مكثفا. كما قصفت غزة والمجدل وبيت حنون. وكانت هذه هي اول مرة يبدأ فيها هجوم

للجيش الاسرائيلي بضربة جوية. وفوجىء سلاح الطيران المصري تماما، بينما كان عدد من طائراته جاثما على الارض. وفي معظم الايام التالية، كان تفوقنا الجوي مطلقا في سماء النقب.

ومع حلول الظلام، انطلقت الكتيبة التاسعة لتنفيذ مهماتها الاولى: نسف خط سكة الحديد على الحدود المصرية؛ لَـغْـم طريق رفح ــ خان يونس غربـي نيريم؛ اطلاق النار على المعسكرات والحراسات المصرية في المؤخرة لمشاغلتها. وقد حققت الغارات أهدافها: انصرف اهتمام القيادة المصرية الى حماية خطوط مواصلاتها في المؤخرة، بينما كانت الضربة الحاسمة على وشك ان تقع في مكان آخر.

وفي تلك الليلة، ليلة ١٥ ــ ١٦ تشرين الاول/اكتوبر، دق وتدان. فقد انطلقت الكتيبتان الاولى والثالثة التابعتان للواء «يفتاح» من نيرعام، واحتلتا مجموعة المواقع في شرقي بيت حنون وفي الشمال الشرقي منها. وكان الوتد على شكل رأس سهم، طرفه الدقيق على بعد ٦٠٠ متر تقريبا من الطريق المار امام بيت حنون. ونسف خبراء التدمير جسورا على الطريق، وبدأت الوحدات في صباح ١٦/١٠ بضرب حركة المواصلات المصرية المارة على الطريق.

أما الوتد الثاني، فقد دقتـه الكتيبة الثالثة التابعة للواء «غفعاتي» بين عراق المنشية وبيت جبرين. واحتلت من دون قتال خربة مساره الواقعة شمالي الطريق، وخربة الراعي الواقعة جنوبيه. وانقطع الطريق الى بيت جبرين. وتم صد هجمات مضادة على المكان قامت بها قوات غير نظامية، ملحقة بالجيش المصري.

الهجوم على عراق المنشية

صباح يوم ١٦/١٠، وبينما كان العدو لا يزال تحت تأثير الصدمة التي اصابته نتيجة الغارات والوتدين، انطلق تشكيل قتالي مكون من كتيبة الدبابات ٩/اللواء المدرع وكتيبة المشاة ٧ التابعة للواء «النقب»، لتنفيذ مهمته الاساسية: شق طريق الى النقب بهجوم على عراق المنشية. وكان التل في القرية والمدرسة هما هدف المرحلة الاولى من الهجوم. واستعدت القوات لمهاجمة المدرسة والتل بعد ان مُهِّد لذلك بقصف من المدافع ومدافع الهاون، ومن طائرات سلاح الطيران.

ولم تنفذ غارة سلاح الطيران في موعدها، وبدأ القصف من المدافع ومدافع الهاون متأخرا بعض الشيء، في الساعة ٠٦,٢٠، إلا انه لوحظت لاحقا اصـابات نـاجحة للأهداف. والآن جاء دور هجوم المشاة بالتنسيق مع الدبابات، لكن انعدام الخبرة فيما يتعلق بالتنسيق بين الدبابات والمشاة، ادى الى عدم سير الهجوم بصورة مشتركة، فعملت كل قوة بمفردها. وواجهت سرية المشاة التي هاجمت المدرسة مقاومة عنيفة، وبدأت الانسحاب مما ادى الى زعزعة صفوف السرية الثانية، التي كانت في طريقها الى التل. وفي الوقت نفسه تقريبا، 299

اطلقت نيران دفاعية مصرية من مدافع منصوبة في الفالوجة، ومصوبة كما يبدو الى سفوح التل حيث السرية. وخلال دقائق معدودة اصيب ثلث أفرادها تقريبا مما اضطرهـا الى الانسحاب بذعر. وعندها زجت في المعركة قوة الاحتياط ـ سرية من سلاح المشاة محمولة على نصف مجنزرات، كانت موجودة في المؤخرة. لكنها لم تنجح إلا في اخلاء الجرحى وسحب الدبابات التي اصيبت. وكانت خسائرها جسيمة. وبالاضافة الى عدد كبـير من القتلى والجرحى، خسرنا في المعركة اربع دبابات من طراز «هوتشكس»، وأُعطبت الدبابات الاخرى فسحبت لاصلاحها.

ووضعت الهزيمة في عراق المنشية قيادة «يوآف» امام مشكلة خطرة: هـل ينبغي الاستمرار في الهجوم وشق طريق الى النقب وفقا للخطة الموضوعة لهذا المحور، محور غات ـ روحاما؟ لقد أُدخلت في الاعتبار حقيقة ان القوة الضاربة الرئيسية ـ الدبابات ـ تعطلت لأيام عديدة. ونوقشت المشكلة في ضوء الوقت المتوفر لتحقيق الهدف، قبل ان تتدخل الامم المتحدة وتأمر بايقاف القتال. 300

وقد وصف قائد الجبهة، بعد مرور زمن طويل، المشكلة التي واجهته: «. . . عندما تكون هناك خطة مقبولة من الجميع، وفجأة يتخذ قرار بمناقشة إحداث تغييرات، فـان الثقة تضعف قليلا؛ وفي الحقيقة، وجدت قيادة الجبهة الجنوبية نفسها في صراع حاد جدا فيما يتعلق بهذه المسألة. . . لأنها عرفت ان التغيير في الخطة يستوجب القيام بعمليات اصعب من شن هجوم على عراق المنشية. اذ ان الخيار كان نقل مركز الثقل من سفوح الجبال الى القوة المصرية الرئيسية ـ الى منطقة «هتسومت»، حيث كان نظام دفاع العدو قويا جدا.

«وعلى الرغم من ذلك، تقرر تغيير الخطة لانه اتضح انناسنضطر، بعد ان فقدنا عامل المفاجأة، الى ان نحشد قوة كبيرة ونهيـىء انفسنا لمعارك صعبة من اجل احتلال عراق المنشية. واذن ـ ان كان لا بد من جهد كبير ومن سفك دماء غزيرة، فمن الافضل ان يكون ذلك من اجل احتلال موقع يحقق لنا انجازا اكبر: فتح الطريق الرئيسي وليس طريقا فرعيا الى النقب. وتقرر نقل مركز الثقل من قطاع الجبهة الشرقي الى قطاعها الغربـي. وكان القصد ان نحاول في ليلة واحدة او خلال ليلتين احتلال المواقع المصرية التي تحمي الطريق بـين «هتسومت» وبرير، من جهة نيرعام، وبذلك نحصل على طريق معبد لا على طريق ترابـي، وليس سفوح جبال وانما طريق رئيسي الى النقب».

الهجوم على مواقع «هتسومت» [مفترق الطرق]

كان نظام الدفاع المصري في منطقة «هتسومت» يرتكز على ثلاث مجموعات من المواقع: ١) شمـالي «هتسومت»: المـوقع ١١٣، وامتـداده: الموقـع ١٠٠؛ ٢) في جوار «هتسومت»: «موقعا هتسومت» اللذان هما امتداد واحد يقسمه طريق المجدل ـ الفالوجة فيقع احدهما شمالي الطريق والآخر جنوبيه (من الشرق يسيطر على مفترق طرق مركز شرطة

عراق سويدان، الواقع على بعد ٢ كلم تقريبا)؛ ٣) جنوبي «موقعي هتسومت»: موقعا كوكبا وحليقات.

وكانت تحمي هذا النظام الدفاعي كتيبة موزعة سراياها على المواقع الرئيسية.

وكانت أهداف الهجوم في ليل ١٦ ـ ١٧ تشرين الاول/اكتوبر: الموقعين الموجودين شمالي «هتسومت» ـ ١١٣ و ١٠٠ ـ و «موقعي هتسومت» بالذات.

وأُسندت المهمة الى احدى كتائب لواء «غفعاتي» القديمة، وهي الكتيبة ١. ولم يكن هناك مجال للأوهام بشأن صعوبة المهمة. فقد كان تحقيق مفاجأة عمليانية أمرا مستحيلا، لأن عملية «يوآف» كانت قد بدأت قبل ٢٤ ساعة، ولأن المصريين كانوا في جميع مواقعهم مستعدين وجاهزين. وكان الامكان الوحيد لتحقيق مفاجأة ما كامنا في اختيار الجهة التي سيشن منها الهجوم ـ على المواقع ـ عن طريق شن الهجوم من المؤخرة، من ناحية نظام الدفاع المصري؛ وقد استغل هذا الامكان بصورة جيدة.

وفي عصر ١٦ تشرين الاول/اكتوبر راجع القادة للمرة الاخيرة خطة العملية، وبعد ذلك تبادلوا الانخاب وعاد كل واحد منهم الى وحدته.

وعند حلول الظلام تحركت كل وحدات الكتيبة ١/غفعاتي الى نقاط الانطلاق. ونصبت الاسلحة الثقيلة المساندة. واتخذت قيادة اركان حرب الكتيبة مواقعها. وأقيم اتصال بين كل الوحدات.

301 وكانت الخطة تقضي بأن تهاجم سرايا المشاة التل ١١٣ و «موقعي هتسومت»، بعد التمهيد بقصف مدفعي عنيف.

وكُلِّفت وحدتان صغيرتان نسبيا اغلاق طريق المجدل ـ الفالوجة، واحدة غربي «هتسومت»، والاخرى شرقيه. وانطلقت وحدة ثالثة، قليلة العدد لكنها مزودة بوسائط كثيرة، لتضليل العدو بصدد جهة الهجوم ولجذب نيرانه ناحيتها. وفي الساعة ٢٢,٣٠ ابلغت السرايا، المكلفة مهاجمة الموقعين ١١٣ و ١٠٠، انها موجودة في نقطة الانطلاق. وكانت قبل ذلك قد انصبت نيران مدافع الهاون الثقيلة، بصورة بطيئة، على هذين الموقعين. وأضيفت اليها الآن نيران مدافع الميدان. وكان القصف المدفعي كثيفا ودقيقا ومنسقا جيدا مع المشاة. وغطت الرشاشات المتوسطة الموقعين بالنيران. وبعد نصف ساعة تقريبا، سقط في يدنا الموقع ١٠٣ ـ القريب من ١١٣، غربي الطريق. وعلى الفور اجتازت احدى الفصائل الطريق واقتحمت من ناحية الغرب سياج الموقع ١١٣، الذي كان معدا ومستعدا لهجوم من ناحية الشرق، ناحية نيغبا، أو من ناحية الشمال. وهاجمت الفصيلة وهي 302 تطلق صيحات «هورا» ـ بالقنابل اليدوية، وأفرادها يطلقون النار من الرشاشات وحرابها مشهرة ـ العدو، وتبعتها الفصائل الاخرى موجة تلو الاخرى. «لم تجر من قبل معركة اشد شراسة من هذه». شهد قائد الكتيبة.

وفي الساعة ٢٤,٠٠ وصل الى قيادة الكتيبة نبأ احتلال الموقعين ١١٣ و ١٠٠.

وطوال ذلك الوقت، كان الاتصال بالوحدة التي كُلِّفت احتلال «موقعي هتسومت» قائما، لكن منذ لحظة عبورها طريق المجدل ــ الفالوجة الى الغرب من «هتسومت»، توقف الاتصال وأصبح مصيرها مجهولا. وفشلت ايضا محاولات اقامة الاتصال عن طريق الوحدات العاملة في القطاع ١١٣، لكن هذه الوحدات ابلغت عن ضجيج معركة من ناحية «موقعي هتسومت». وجوبهت وحدة جيبات تحركت على الطريق الرئيسي لاعادة الاتصال، بنيران مدفعية من المجدل وبنيران مضادة للدبابات من موقع «هتسومت» الشمالي. واتضح ان هذا الموقع كان لا يزال بيد المصريين. لكن ماذا حدث للسرية؟ وهل احتل الموقع الجنوبي؟

في هذه الاثناء، تدفقت بشكل متواصل مواد للتحصينات وأسلحة مساندة وذخائر وأغذية ومشروبات ساخنة على المقاتلين في الموقع ١١٣، وتم إخلاء الجرحى. وخوفا من الالغام في الطريق الرئيسي بين جولس والموقع، مهد المهندسون وخبراء التفجير طريقا ترابيا من نيغبا الى التل ١١٣، وسارت الحركة عليه.

وانتقلت قيادة الكتيبة الى الموقع ١١٣. وفي داخل الخنادق العميقة والدشم الممتازة، خلف السياجات وحقول الالغام المصرية، نظم الرجال صفوفهم للدفاع. ولم يأت اي نبأ من سرية «هتسومت». وبعد منتصف الليل وصل من طرفها عدد من الكشافة، ذكروا ان جهاز الاتصال قد تعطل، وقالوا انهم يعرفون ان موقع «هتسومت» الجنوبي اصبح في يدنا وأن معركة تدور على موقع «هتسومت» الشمالي. لكن لم يكن في الامكان استخلاص شيء واضح منهم.

وبعد وقت قصير، أعلن ضابط الاتصال ان الاتصال عاد ثانية؛ فقد تم اصلاح جهاز سرية «هتسومت».

وعلم ما جرى للسرية: وصلت الى مواقع التمركز، جنوبي موقع «هتسومت» الجنوبي، بالقرب من الطريق ــ من دون ان يفتضح امرها، مع ان احد أفرادها اصيب في الطريق. وفي ضوء معلومات ــ اتضح خطؤها خلال المعركة ــ بأن قوات مصرية ضعيفة فقط تحمي موقعي «هتسومت»، اللذين كانا يشكلان بالنسبة الى المصريين خط دفاع ثانيا، قررت السرية احتلال الموقع الشمالي بفصيلة واحدة، والجنوبي بفصيلة اخرى. ونتيجة فقدان الاتصال لم يكن في الامكان تنسيق القصف بمدافع الهاون من عيار ٨١ ملم على الموقعين، لكنه ابتدأ في الساعة المحددة بموجب الخطة. واكتشف جنود الموقع الجنوبي امر السرية المكلفة احتلال موقع «هتسومت» الشمالي وهي في طريقها الى هناك، مما اضطر قائد الفصيلة الى تعديل الخطة ومهاجمة هذا الموقع. وبعد معركة بالقنابل اليدوية والرشيشات اخترق الموقع. واصطدمت الفصيلة الثانية المهاجمة من ناحية الجنوب بسياج معقد، وأوقفتها نيران مدافع رشاشة متوسطة، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وواصلت التقدم بمساندة من زميلتها. والتقت الفصيلتان عند رأس التل، ووزعتا فيما بينهما قطاعات الدفاع والتمركز. ووجدت في

الموقع غنائم كثيرة: ٧ مجنزرات، ورشاشان من طراز «فيكرز»، و ٦ مدافع «بيات»، وعددا كبيرا من رشاشات «برن»، وكميات كبيرة من الذخيرة.

303 لكن احتلال الموقع لم يكن قد اكتمل. ففي احد أطرافه كانت النيران لا تزال تطلق من مدفع من عيار رطلين ومن مدفعين رشاشين بالقرب منه. واستغل المصريون هذه النيران غطاء لشن هجوم مضاد سريع وعنيد.

ولم ينجح الهجوم المضاد الفوري في اخراج السرية من الموقع، لكنه تسبب بنحو ٢٠ اصابة، ما بين قتيل وجريح. وكان رجالها منهكين تعبين.

واستمر هذا الهجوم المضاد ثلاث ساعات، مما اضطُر قائد السرية الى ان يزج في معركة الدفاع ايضا الفصيلة الثالثة، فصيلة الاسناد. وبذلك فقد الفرصة الاخيرة لاحتلال موقع «هتسومت» الشمالي في تلك الليلة.

في ظل هذا الوضع اعيد، كما ذكرنا اعلاه، الاتصال بعد ان اصلح الجهاز بكماشة وجدت في الموقع المصري. وقد شجع نبأ احتلال الموقعين ١١٣ و ١٠٠ سرية «هتسومت»؛ ومع ذلك كان ينتظرها ــ في حال عدم انسحابها ــ وضع صعب، ما دام الموقع الشمالي يفصل بينها وبين الموقعين اللذين احتللناهما في الشمال. ان وضع المصريين في الموقع الاخير لم يكن، في الحقيقة، مريحا على الاطلاق في ضوء سيطرة رجالنا على المواقع الموجودة امامه وخلفه. لكن الفجر كان على وشك البزوغ؛ وقد علمتنا تجاربنا في الحرب حتى الآن ان الليل بالنسبة الينا هو للهجوم، وأنه في النهار لا يتنازل المصريون عن هجوم مضاد. وقُدم اقتراح بالانسحاب من موقع «هتسومت» والاكتفاء موقتا بالسيطرة على التلين ١١٣ و ١٠٠ فقط، لكن قائد السرية في «هتسومت» عارض الانسحاب، لأن ٣٠٪ تقريبا من رجاله كانوا جرحى، وبينهم معظم القادة وحتى هو نفسه. ولم يكن هناك من يحملهم. ولاح اول ضوء من الفجر، وكان معنى الانسحاب في وضح النهار تعريض السرية للقضاء عليها قضاء مبرما. وكان قائد موقع «هتسومت» واثقا من انه يستطيع الصمود الى ان ننجح، في الليلة التالية، في احتلال الموقع الشمالي فنتصل به. وعلى الرغم من وضعه الخطر، اذ كان يفتقر الى المضمد الذي تركه في منتصف الطريق (لانه عاد مع مصاب كانت جروحه بليغة)، والى مواد تضميد وطعام ومياه وذخيرة، وعلى الرغم من انه لم يكن امامه اية فرصة لتلقي اي شيء قبل احتلال الموقع الشمالي، فقد تمت الموافقة على القرار بالتمسك بالموقع خلال النهار. ووُعِد القائد بتقديم مساندة له بالنيران في حال حدوث هجوم مضاد. وتم الاتفاق على اسلوب اتصال مختصر، كما وضعت سرية مرتاحة في حالة استعداد تحسبا للاضطرار الى احتلال الموقع الشمالي خلال النهار.

وطلع النهار. وبدأ قصف مدفعي على جميع المواقع التي احتلت. لكن بسبب نوعية الاستحكامات المصرية الممتازة، لم تنجم عنه إلا اصابات قليلة، وبعد ذلك بدأت الهجمات

المصرية المضادة على موقع مفترق الطرق الجنوبي، بالآليات والمشاة، من ناحية المجدل. وقد حدثت اربع هجمات صدت بنيران مدافعنا المصوبة بدقة وبنيران المدافعين عن «هتسومت». كما شن المصريون هجوما على جناح نظامنا الدفاعي في جولس، وتم صدّه. واتسم ذلك اليوم ايضا بنشاط للطائرات المصرية المقاتلة، التي استردت انفاسها بعد الضربة التي نزلت بها في الهجوم على مطار العريش.

وبعد حلول الظلام ارسلت وحدة استطلاع، مزودة بجهاز لاسلكي ومضمد ومواد طبية وذخيرة، الى موقع «هتسومت» الجنوبي، لتقديم الاسعافات الاولية للجرحى ولاخطار القائد بأنه في الساعة المحددة سيهاجَم موقع «هتسومت» الشمالي الذي كان يعزل سريته. وبعد الاحتلال سيتم ابدال سريته بوحدة مرتاحة اكثر.

لكن احتلال موقع «هتسومت» الشمالي لم يضطرنا الى خوض معركة اخرى. فعندما رأى المصريون فشل كل الهجمات المضادة التي شنتها قواتهم، ويئسوا من الحصول على نجدات او الاتصال مجددا بنظام الدفاع الرئيسي، تسللوا مع هبوط الظلام ــ قسم الى المجدل وقسم الى عراق سويدان. ووجدت دورية خرجت لاستطلاع الموقع في اول الليل، المكان خاليا.

304

وتم الاتصال بالمؤخرة، واستبدلت السرية التي ظلت معزولة يوما كاملا ــ وهي جريحة وفخورة. ونقل احد المصابين الى المستشفى بمجنزرة مصرية وقعت غنيمة في ايدينا.

وفي تلك الليلة (١٧ ــ ١٨ تشرين الاول/اكتوبر)، واصلت قوات لواء «غفعاتي» التقدم في العمق نحو الجنوب، واحتلت المواقع التي تركها المصريون شمالي كوكبا.

أما الكتيبة الاولى التابعة للواء «يفتاح»، والتي حاولت احتلال حليقات ومرتفعاتها من الجنوب، فقد فشلت في ذلك. لقد كان الهدف الرئيسي لهجومها المرتفع ١٣٨، الذي كان اعلى المرتفعات وأفضلها تحصينا. وقد جاء الهجوم من الجهة الجنوبية الغربية، من جهة غيفر عام، ومُـهّد له بقصف من الجو ومن مدافع الهاون. واخترقت قوة الاقتحام سياجا شائكا واحدا، لكن قائدها قتل. ووصلت تعزيزات الى المصريين في حليقات من ناحية بيت طيما، وانسحبت وحدة «يفتاح» مع الفجر. وبقي الطريق الى النقب مغلقا. وظلت مواقع حليقات تفصل بين الجنوب والنقب.

القتال في القطاعات الاخرى للعملية

لا شك في ان الفضل في نجاحنا في منطقة «هـتسـومت» يعود، الى حد غير قليل، للعمليات التي جرت في الوقت ذاته في قطاعات اخرى، وخصوصا في منطقة وتد بيت حنون. وكما سبق ان ذكرنا، دق هذا الوتد في ليل ١٥ ــ ١٦ تشرين الاول/اكتوبر. وفي اليوم التالي، بدأت المدافع المصرية المنصوبة بالقرب من ياد مردخاي تدك المواقع المحتلة. لقد كلفنا احتلال مواقع «هتسومت» التي كانت مجهزة ومستعدة للدفاع ضحايا كثيرة، لكن

الدفاع عنها ـ بفضل الاستحكامات المصرية ـ كان سهلا نسبيا. أما بالنسبة الى مواقع الوتد، فقد كان الامر معكوسا: لقد كان احتلالها سهلا لأنها لم تكن بيد المصريين، لكن الدفاع عنها كلفنا ضحايا كثيرة، اذ انها لم تكن مجهزة ومحصنة. وقد سقط معظم الضحايا في اليومين الاولين ـ قبل ان تتمكن وحدات الهندسة والمشاة من حفر الخنادق، وخصوصا قبل ان تتمكن من حمايتها بأغطية واقية للرأس اذ استخدم المصريون هنا، في الاساس، قذائف الشظايا (Shrapnel)، التي تنفجر في الجو وتسبب في اصابات كثيرة. وزيادة على ذلك: كانت الطرق الى المؤخرة ايضا عرضة لقصف دائم وكان اخلاء الجرحى صعبا.

لكن الذين دقـوا الوتد أدوا مهمتهم. فهم لم يسمروا في المكان قوة مدفعية شغلت بالقصف، وقوة مدرعة حاولت مرتين القيام بهجمات مضادة، وقوة مشاة حاولت احتلال موقع بقصد اقتلاع الوتد فحسب، بل انهم هددوا ايضا شرايين مواصلات العدو في المؤخرة ـ وهذه كانت مهمتهم الرئيسية. ان خطر العزل الذي تربص بقوات العدو في المجدل وشماليها، اصاب القيادة المصرية بالذهول. وقررت ـ بعد عدة ايام، عشية معارك حليقات ـ ان تسحب جميع القوات الموجودة على طول الساحل الى الشمال من الوتد. وفي البداية، انسحبت قيادة قوات الحامية المصرية، وتبعتها الوحدات الاخرى. ومـع هذا الانسحاب اتت فرصة الوتد الكبرى.

روى ضابط مصري ما يلي عن الانسحاب: «بينما كان الضغط على الخطوط الامامية للجيش المصري يشتد باطراد، هاجم [أفراد] المستعمرات اليهودية الجيش المصري من الخلف، مما ارغم القيادة على تقصير خط الامدادات. كما ادى هذا الهجوم الى الانسحاب من اشدود والمجدل، والى التفكير في تجميع القوات المصرية في قطاع رفح ـ غزة. وفي اثناء الانسحاب ترك في المؤخرة ٥٠٠٠ جندي مصري، لم يكن في الامكان ان ينضموا الى الجيش المصري المنسحب». 305

في الساعة ٠٨,٠٠ تقريبا من يوم ١٧ من الشهر، مرت قافلة الانسحاب الاولى بالقرب من الوتد، فأطلقت مدافعنا النار على مناطق الجسـور المنسوفـة، جنوبـي بيت حنـون وشماليها، لايقاف التحرك المصري الملتف حول انقاض الجسور. وفتحت نيران المدافع الرشاشة الثقيلة من مواقع الوتد على الآليات المتحركة على الطريق. وأصيب عدد كبير من آليات العدو، وبقيت بجانب الطريق لكن معظمها نجح في الافلات والمرور.

وعندما اتضح لرجال «يفتاح» ان الوتد لم يغلق تماما القطاع، احتلوا في ليل ١٧ ـ ١٨ من الشهر موقعا مرتفعا آخر، اقرب الى الطريق الرئيسي، هو الموقع ٨١. وفشلت محاولات العدو لطردنا منه. لكن هذا لم يكن ايضا كافيا لاغلاق الطريق تماما. واستمرت طوال يوم ١٨ من الشهر حركة الانسحاب المصرية ـ بخسائر، لكن بنجاح. وفي ظهر يوم ١٩، كثفت نيران المدافع ومدافع الهاون الصادرة عن مواقع الوتد، وألقت الطائرات ستارا من الدخان

على الطريق. وكانت قافلة كبيرة للعدو ـ تضم كما يبدو قيادة القوات المصرية التي كان مقرها في المجدل ـ تتحرك صوب الجنوب، وعبرت المنطقة من دون خسائر.

306 وبعد ذلك، في ٢١ من الشهر، عندما اتضح ان هذا الاغلاق ـ الاقرب الى الطريق ـ ليس محكما، قرر رجالنا مواصلة التقدم و«التمركز» في الطريق نفسه. واحتل الموقع ٧٠، على بعد ٦٠٠م تقريبا من الطريق، والموقع ٥٧ المجاور للطريق نفسه. وفي النهاية احتلت ايضا بيت حنون الواقعة الى الغرب منه. واعتقدنا انه قد تم الآن اغلاق الطريق امام المصريين بصورة محكمة.

لكن المهندسين المصريين أظهروا في هذه الاثناء قدرة على المبادرة وفطنة غير متوقعتين. اذ فتحوا لجيشهم المهزوم والمعزول طريقا على شاطىء البحر. فبعمل محموم وجريء ثبتوا في الرمال شبكات وعوارض وجذوع اشجار وما شابه ذلك، ومكنوا جزءا من وحداتهم من المرور الى غزة عبر طريق غير الطريق الذي سيطرنا عليه. وفي الوقت نفسه، تعرضت مواقعنا في الوتد لقصف مدمر.

وفي هذه الاثناء، بدأت تحدث تغييرات حاسمة في قطاع طريق المجدل ـ الفالوجة. فبعد ان تم في ليل ١٥ ـ ١٦ دق وتد خربة مساره، بين عراق المنشية وبيت جبرين، واحتلت في اليومين التاليين مواقع «هتسومت» بدأت ترتسم معالم حدود الجيب الذي عرف لاحقا باسم «جيب الفالوجة». لكن تطويق القوة الموجودة فيه لم يكن محكما، اذ نجح الجنود الموجودون في عراق المنشية في الالتفاف بسهولة حول وتد خربة مساره والوصول الى بيت جبرين. ولم يكن خط مواقعنا جنوبي هذا الجيب متواصلا. لكن المشكلة التي كانت تزعجنا اكثر من مشكلة تطويق الجيب، كانت الطريق الى النقب. لقد استمرت العملية بضعة ايام، وكان مجلس الامن على وشك الانعقاد، وكان من السهل تخمين نتائج المناقشات ـ وطريق النقب لا يزال مغلقا.

الهجوم على مرتفعات كرتيا

في اثناء ذلك، اتضح ان لا داعي للخوف من تدخل الجيوش العربية الاخرى. وفي ضوء هذا الوضع، وفي اثر الضربة التي تلقاها تشكيلنا المدرع في عراق المنشية، قررت القيادة العليا ان تضم الى الجبهة الجنوبية لواء آخر من الشمال (هو لواء «عوديد»)، الذي ادخل للعمل في ليل ١٨ ـ ١٩ من الشهر.

وكانت المهمة العاجلة الآن كما كانت في البداية: شق طريق واسع ودائم الى النقب، في ابكر وقت ممكن، وفي الوقت نفسه ابادة اكبر عدد ممكن من قوات العدو.

بعد ان احتلت قوات الجيش الاسرائيلي الموقع ١١٣ ومواقع «هتسومت»، بقيت حليقات ومواقعها تسد الطريق الرئيسي الى النقب. وتقرر عدم مهاجمة هذه المواقع مباشرة، وانما محاولة شق طريق بالهجوم على جبهة اخرى. واختيرت أهدافا للاقتحام مواقع كرتيا.

في أواخر معارك «الايام العشرة»، احتلت وحدات الجيش الاسرائيلي قرية كرتيا المجاورة لطريق المجدل ـ بيت جبرين، بين عراق سويدان والفالوجة. وكما ذكرنا سابقا، لم يحقق هذا الاحتلال الهدف العملياني منه ـ شق طريق الى النقب ـ لأن المصريين أقاموا قبالة مواقعنا مواقع خاصة بهم، وفتحوا لأنفسهم «طريق بورما» يلتف حول الجزء المقطوع من الطريق.

وصدر في هذا الوقت امر الى لواء «عوديد» باحتلال مواقع كرتيا ــ التي هي «طريق بورما» المصري ــ وفتح الطريق بذلك الى النقب. وانطلق اللواء من قاعدته في كرتيا، لكن السرعة التي ادخل بها في المعركة وقلة خبرته القتالية بمناطق الجنوب، كان لهما اثرهما. وفعلت نيران المدفعية المصرية الدفاعية التي تميزت من قبل في معركة عراق المنشية، فعلها الآن ايضا في اثناء هجومنا على «طريق بورما» هذا. ولم تسقط مواقعها. وظل طريق النقب مغلقا. 307

احتلال مواقع حليقات

ذكرنا اعلاه انه بعد فشل هجماتنا على عراق المنشية في ١٠/٦، اتخذ القرار بالتجرؤ على مهاجمة «هتسومت»، على افتراض انه اذا لا بد من بذل ضحايا كثيرة فمن الافضل ان تبذل من اجل مكان يكون في احتلاله حسم للموقف. وأيضا بعد فشلنا في مرتفعات «طريق بورما»، وخشية ان تفرض الهدنة علينا قريبا، تقرر مرة اخرى شن هجوم على المواقع المصرية في اصعب مكان وتحطيمها. وأصبح الهدف، بالتالي، احتلال حليقات وجميع مواقعها، من اجل ضمان طريق فعلي الى النقب، وتقويض نظام انتشار القوات المصرية تماما.

وأُسندت المهمة الى لواء «غفعاتي». وتكوّن التشكيل القتالي المهاجم من الوحدات التالية: الكتيبة ٢ التابعة للواء، ووحدة من الكتيبة ٤، ومدافع، ومدافع هاون ثقيلة، ووحدة من مستعمرة غيفر عام لاغلاق الطرق. 308

وكانت فرص القوة حسنة جدا، لأن العدو المصري كان منهارا ومضروبا في جميع الاماكن. «إربا إربا يتلوى الآن جسد الثعبان المصري» ــ ورد في منشور قتالي للواء «غفعاتي» يحمل تاريخ ١٠/١٩. «المجدل ــ عراق سويدان: شلو مبتور. المجدل ــ غزة: شلو مبتور. بيت جبرين ــ عراق المنشية: شلومبتور. الى متى يستطيع ان يعيش رأس الثعبان بعد؟».

كانت القوة المصرية المدافعة عن مواقع حليقات تتشكل من ثلاث سرايا، احداها للمساندة. وكانت هذه القوة موزعة على ستة مواقع، كان يساند بعضها بعضا بالنيران. وكانت جميعها محصنة جيدا.

ونفذ الهجوم على محورين: الاول من بيت طيما من الجهة الشمالية الغربية، والآخر من كوكبا من جهة الشمال.

وعند بدء اطلاق نيران المدفعية السريعة، كانت سرايا المشاة قد اصبحت في مواقع الانطلاق، جاهزة للهجوم. ومع توقف نيران المدفعية اعطيت اشارة بدء الهجوم ــ في آن واحد ــ على جميع مواقع العدو. ودارت معارك طاحنة. وفي جزء من المواقع، دارت معارك بالسلاح الابيض وقتال التحام بلغ حد العض بالاسنان. وبدأ المصريون بالفرار مستخدمين البطانيات برميها على الاسلاك الشائكة لاجتيازها. وأُسر قسم منهم، ووجدت غنائم كثيرة في المكان، من ضمنها ثلاثة رشاشات «فيكرز». واكتشفنا انه في احد المواقع حدث خلل في الرشاش الذي كان مصوبا نحو الموضع الذي اقتحمنا الموقع منه. ودرب رقيب مصري اسير رجالنا على استخدام هذه الرشاشات، وساهمت في الهجوم ذاته في احتلال المواقع المجاورة.

وفي فجر يوم ٢٠ من الشهر، اصبحت حليقات وجميع مواقعها في قبضتنا. وفتح الطريق الى النقب على اتساعه.

محاولة اخرى لاحتلال مركز شرطة عراق سويدان

في الوقت نفسه الذي وقع فيه الهجوم على حليقات هاجمت الكتيبة ١/غفعاتي مركز شرطة عراق سويدان، لكننا لم ننجح هذه المرة ايضا في احتلال «الوحش». وكانت الخطة هذه المرة تقضي بايصال سيارة مملوءة بالمواد المتفجرة الى حائط المبنى لنسفه. وأوقفت السيارة، التي كان من المقرر ان تصل عبر الشارع، بالقرب من حاجز على بعد ٣٠ مترا من المبنى. وبينما كانت تحاول الوصول الى الهدف عبر شوارع اخرى، اصيبت بقذيفة «بيات» وانفجرت محدثة دويا هائلا، وانهار برج المياه المجاور للمبنى فقط. واقترب عدد من خبراء التدمير من مركز الشرطة، ووصلوا الى جدار المبنى واقتحموا البوابة، لكن لم يكن هناك من يدخل لأن قواتنا كانت قد انسحبت.

احتلال بئر السبع

في عصر يوم ٢٠ من الشهر، بعد مضي اقل من ١٢ ساعة على فتح الطريق الى النقب، اعطيت الاوامر باحتلال بئر السبع. وحشدت للعملية كتيبتان من لواء «النقب» ــ كتيبة المشاة وكتيبة الكوماندو ٩ ــ والكتيبة ٢ التابعة للواء المدرع.

واستعدادا للعملية تجمعت قوات المشاة والمدرعات في مشمار هنيغف، والمدفعية ومدافع الهاون في كلتا التي هي حتسريم. وتحددت ساعة الصفر في البداية في منتصف الليل. ثم اجلت الى الساعة ٠٤,٠٠ من يوم ١٠/٢١.

309

تحركت القوة الرئيسية من مشمار هنيغف على طريق غزة ــ بئر السبع الرئيسي حتى الجسر الواقع بالقرب من بير ابو إرقيق. ومن هناك انتقلت الى طريق ممتد بموازاة الطريق حتى التلة الواقعة على بعد ٣ كلم شمالي المدينة. وسمع المدافعون عن المدينة هدير محركات

السيارات، ووجهوا اليها قصفا خفيفا غير دقيق. ولم يعرقل ذلك تحركها، ووصل الطابور الى منطقة التمركز.

وفي الساعة ٠٤,٠٠، بدأت بطاريات مدافع الهاون والمدافع، التي نُصبت غربي المدينة، بقصفها. وفي الوقت نفسه، بدأت عملية للتضليل نفذتها فصيلة مدرعات، قدمت من ناحية جنوب ـ جنوب غرب، من جهة حزاله ـ التي هي علوميم ـ وسرية جيبات تضم خبراء تدمير تحركت من جهة حلوتساه، وخرّبت الجسر الواقع على طريق بئر السبع ـ الخليل، على بعد ٢٠ كلم تقريبا شمالي بئر السبع. وبعد ذلك مباشرة، احتلت فصيلة مجنزرات الحي الحديث في المدينة وواصلت التقدم، ومعها فصائل السرية الاخرى، حتى وصلت الى الخندق المضاد للدبابات المواجه للساتر الترابي المحاذي لسكة الحديد المشيدة في عهد الاتراك، والواقعة شمالي المدينة. وترجل أفراد المجنزرات° بالقرب من الخندق واجتازوا تحت النيران منطقة المدافن المكشوفة، وسيطروا على كتلة المنازل في شمال المدينة التي تمتد حتى الطريق الذي يقطعها. وتقدمت على طول الطريق ووصلت حتى صف البيوت الاخير قبل الساحة الكبيرة، التي يقع في احد طرفيها قلعة الشرطة، وفي طرفها الآخر المسجد والمدرسة، وعلى بعد مسافة ما منها تقع محطة القطار المحصنة.

310 وفي هذه المرحلة، كان قد بقي على طلوع الفجر ربع ساعة فقط، ولم تكن قد وصلت بعد التعزيزات التي كان من المقرر وصولها.

لقد كانت مهمة هذه التعزيزات ان تشكل موجة ثانية، تستولي على المنطقة الحيوية: المباني المجاورة للساحة. وكان من المقرر، بحسب الخطة الاصلية، ان تتحرك هذه التعزيزات في اعقاب الموجة الاولى عبر المدافن، إلا انه قبيل طلوع الفجر عُدلت الخطة، وتقرر استخدام التعزيزات لاختراق سلسلة التحصينات المحيطة بالمدينة في نقطة اخرى بالقرب من محطة القطار. وتقدمت سرية مجنزرات ثانية الى مسافة ١٠٠ متر من سور محطة القطار، لكن ٤ من مجنزراتها اصطدمت بألغام، فاضطرت السرية الى التراجع الى الحي الحديث.

وأصبح وضع السرية المقتحمة الاولى خطرا جدا. لقد كان من المحتمل ان تجد نفسها عند طلوع الفجر في مواقع غير مريحة وغير محصنة، وحيدة داخل مدينة معادية، ٦٠ فردا منا في مواجهة ٥٠٠ من أفراد العدو المتمركزين في مواقع مريحة على بعد عشرات من الامتار فقط. وقد وصف قائد السرية المقتحمة وضعه على النحو التالي: «اننا عرضة لخطر ان نصبح كالفئران في مصيدة، وكل الجهد الذي بذلناه في الليل عرضة للضياع».

وبدأ المصريون هجمات مضادة على المباني المحتلة. وفي اثناء ذلك، مع طلوع الفجر، دخلت المدينة سرية اخرى، عبر المقبرة، ومعها مدرعات لاغلاق الطريق وحماية الجزء المحتل. واستعدت السرية الجديدة للهجوم على محطة القطار، عند حد كتلة البيوت، إلا ان العدو في هذه الاثناء شوهد ينسحب من محطة القطار عبر المقبرة العسكرية نحو المدرسة ومركز الشرطة.

وفي ذلك الوقت، ابلغت فصيلة الاغـلاق التي وضعت في طريق عسلوج، انها اصطدمت بمدفع مضاد للدبابات من عيار ٦ ارطال، وأن رجال المربض ينسحبون نحو الجنوب.

وفي الساعة ٠٨,٠٠، ادخلنا الى المدينة مدفعا مضادا للدبابات نصبناه قبالة مركز الشرطة، الذي واصل امطارنا بنيران كثيفة من اسلحة خفيفة، مما جعل من الصعب على سرايا المشاة التأهب لشن هجوم عليه. وأطلق المدفع ٤ قذائف فقط، ورفع المصريون الموجودون في مركز الشرطة، الذي كان حصنا لا يقل في مناعته عن مركز عراق سويدان، العلم الابيض. وفي تلك اللحظة بالذات، سقط ايضا في ايدينا المسجد الواقع قبالته، ورفع عليه علم اسرائيل.

وفي الساعة ٠٩,١٥، تلقت قيادة العملية النبأ التالي: «بئر السبع بيدنا».

وفي الساعة ٠٩,٤٥، دخلت جميع القوات المقاتلة المدينة. وبعد فترة قصيرة خرجت منها قوات المشاة والمدرعات وتمركزت في المواقع المحيطة بها للدفاع عنها. وبقيت في المدينة فقط حامية صغيرة وقوة من الشرطة العسكرية للمحافظة على النظام.

ان احتلال بئر السبع كان نموذجا لا مثيل له في حرب الاستقلال لسرعة استغلال النجاح. وقد اتضح لاحقا ان قائد المدينة المصري لم يكن يعرف اننا اقتحمنا طريق النقب، ولم يقدر المسؤولون عنه ـ الذين كانوا من دون شك يعرفون ذلك ـ كما ينبغي جرأة التخطيط وسرعة التنفيذ في الجيش الاسرائيلي، ولم يخطروه بالأمر. ولذا لم تكن بئر السبع في حالة استعداد. وعندما هوجمت لم تجد من ينجدها، او من يشن هجوما مضادا ـ لا من الشمال من ناحية الخليل، ولا من الجنوب من ناحية بير عسلوج. وحققت ايضا عملية التضليل من ناحية الجنوب هدفها. فقد نقل مدفع مصري مضاد للدبابات، كان منصوبا شمال المدينة، بسرعة الى جنوبها.

ب - عَمَليَّة « هـهَار »

في اثناء عملية «يوآف» ـ بعد ان دقت الاوتاد، لكن قبل ان تفتح الطريق الى النقب ـ شرع ايضا في نشاطات ضد القوات المصرية الموجودة جنوبي ممر القدس. وكان هدف العملية: أ) توسيع الممر؛ ب) تثبيت المصريين في القطاع، مع الحرص الشديد على عدم جرّ الفيلق الى التورط في معارك.

وقد نفذ الجزء الرئيسي من النشاطات جنوبي خط سكة حديد اللد ـ القدس، في اطار عملية «ههار» [الجبل]، بواسطة لواء «هارئيل» الذي كان موجودا في الممر. وأشرك ايضا في العملية لواء «عتسيوني» لليلة واحدة فقط.

وجرت المعركة الاولى في هذا القطاع في ليلة ١٨ ـ ١٩ تشرين الاول/اكتوبر (في اليوم التالي لاحتلال كوكبا، واستكمال احتلال «هتسومت»)، في «التل المشترك» الواقع الى الغرب من ذربان حيث كان جنودنا وجنود العدو يتمركزون طوال الاشهر السابقة على بعد ٦٠ مترا من بعضهم البعض. وعندما بدأ هجومنا الكبير ضد المصريين في الجنوب، عرف جنود فاروق ايضا في هذا القطاع ما يمكن ان يحدث لهم. لكن بسبب المفاجأة، التي حققها أفراد الكتيبة ٤ التابعة لنا بالالتفاف حول العدو من الجانب، وبسبب الاستخدام المركز للاسلحة المساندة ـ مدافع ومدافع هاون ومدافع دافيدكا ـ تم احتلال التل بسهولة نسبية.

وفي الليلة نفسها، واصلت قوات الكتيبة الرابعة التابعة للواء «هارئيل» هجماتها في اتجاه الجنوب والشرق؛ في الجنوب احتلت بيت شيمش وبيت جمّال من دون مقاومة تقريبا، اذ انسحب المقاتلون العرب الكثيرو العدد الموجودون في المكان امامها. وفي الشرق احتلت دير الهوا ـ وهي قرية واقعة على رأس جبل، على بعد نحو ٢ كلم فقط من قرية ذربان، لكنها اعلى منها بـ ٣٠٠ متر. وكان الصعود الى القرية في حد ذاته يتطلب مجهودا كبيرا؛ ولو كان للعدو القدرة على الصمود لكان من دون شك تسبب لنا بصعوبات كثيرة. لكن هنا ايضا انسحب المقاتلون فور قصف المكان، لانهم فقدوا الثقة بقدرتهم على الصمود، ولأن الخوف من جيشنا دب في قلوبهم. واحتلت الكتيبة السادسة التابعة للواء «هارئيل» هنا قرى جرش وسفلى والقبو ووادي فوكين.

وفي تلك الليلة، ٢١/١٠، نشطت قواتنا ضد المصريين ايضا عند جناحي لواء «هارئيل»؛ في الجناح الايسر تحركت الكتيبة ٨ من لواء «عتسيوني» واحتلت الولجة الواقعة

غربـي القدس، الى الشمال من ناحال سوريك قبالة بتير القديمة. وفي الجناح الايمن للواء «هارئيل» اغارت الكتيبة ٤ من لواء «غفعاتي» على بيت جبرين وعجور، ووسعت قطاع عملية «يوآف». ونتيجة ذلك، اصبح مجال العمل على الجبهة الجنوبية والجبهة الوسطى من الناحية العملية واحدا. 312

وفي اليوم التالي، ١٠/٢٢، واصلت الكتيبة ٤ التابعة للواء «هارئيل» تقدمها صوب الشرق والجنوب. وبعد مقاومة خفيفة في الجنوب احتلت بيت نتيف، قرية الذين قتلوا الـ ٣٥، وبذلك اغلقت طريق بيت لحم ـ عجور ـ بيت جبرين، شريان المواصلات المهم بالنسبة الى نظام القوات المصرية في هذا القطاع. وعثر في بيت نتيف على صرر السكان الذين كانوا ينوون، كما يبدو، ترك القرية من قبل، لكن لم يتح لهم الوقت لأخذ امتعتهم معهم.

وفي الشـرق وصلت قوات «هـارئيل» الى «الشـوكة» (طـريق متفرع من طـريق بيت لحم ـ بيت نتيف، يصل الى دير الهوا)، والى قرية حوسان على بعد ١٠ كلم تقريبا من بيت لحم. ولاحت في الجهة الشمالية الشرقية القدس، وبدت في ناحية الجنوب جدران كفار عتسيـون المحترقة. وفي ذلك الـوقت تحركت كتيبـة من لواء «غفعـاتي» ووصلت الى بيت جبرين.

وبعد ستة اشهر من ذلك تحدد في رودس خط الهدنة في هذا القطاع، وهو الخط نفسه الذي وصلت اليه قوات الجيش الاسرائيلي خلال هذه الايام من تشرين الاول/اكتوبر.

وفي الساعة ١٥,٠٠ من يوم ١٠/٢٢، صدر الامر بوقف اطلاق النار. وبذلك انتهت عملية «يوآف» (بما في ذلك عملية «ههار»).

جـ - النتائج

فتح الطريق الى النقب وهزم العدو المصري. أُربك نظام تمركز الجيش المصري تماما. بتر الشريط العرضي الممتد من المجدل حتى بيت جبرين، ونشأ جيب الفالوجة الممتد من مركز شرطة عراق سويدان في الغرب حتى عراق المنشية في الشرق. الشريط الساحلي بيت حنون ـ اشدود كان في قيد الاخلاء. وفي الايام التالية للعملية، احتلت قوات الجيش الاسرائيلي كل هذا الشريط. في ١٠/٢٧ دخلت قواتنا اشدود والتل ٦٩ ونيتسانيم. وفي ١١/٥ دخلت المجدل وياد مردخاي. وتجمع الجيش المصري بعد هذا التاريخ في قطاع غزة ـ رفح، على طول طريق العوجا ـ بير عسلوج الصحراوي، وفي جيب الفالوجة.

واستمر استغلال النجاح ايضا شرقي القطاع. في ١٠/٢٣ احتلت عجور وزكريا. وفي ١٠/٢٧، احتلت بيت جبرين، بعد ان فشل هجوم عليها في اليوم السابق. وفي ١٠/٢٨، احتلت القبيبة ولاخيش. واتحدت في هذه المنطقة قوات «غفعاتي» وقوات «هارئيل» وشكلت خطا واحدا.

وجرت ايضا خلال العملية نشاطات جوية وبحرية قوية.

د - مَيدان القِتَال الجوّيّ

كانت المهمات التي حددتها القيادة العامة لسلاح الطيران هي التالية:

أ) القضاء على القوات الجوية للعدو؛

ب) مهاجمة أهداف تكتية للعدو؛

ج) تقديم مساندة مباشرة للوحدات المقاتلة؛

د) قصف أهداف استراتيجية للعدو.

وفي اجتماع للقادة في ١١ تشرين الاول/ اكتوبر، عرض قائد سلاح الطيران خطة العملية. وأصدر أوامره الاخيرة بالتأهب الكامل، وطلب من كل الوحدات بذل اقصى الجهود للقضاء على قوة العدو الجوية وتطهير أجواء النقب من طائراته.

وتقرر زج كل القوة الجوية للعمل في اطار عملية «يوآف». وفي اليوم الاول للعملية، وجهت ضربة صاعقة الى القواعد الجوية التابعة للعدو. وفي اثناء سير العملية، قصفت حشوده المختلفة في العريش، وغزة، والمجدل، ورفح، وبئر السبع، ومنطقة عراق المنشية، وعراق سويدان، وبيت حنون، وبيت جبرين، الخ. كما جرت بضع معارك جوية. وكانت الغلبة لنا في معظمها، لكننا ايضا تكبدنا عددا من الخسائر. ونزلت بنا ضربة قاسية جدا بمقتل قائد السرب المقاتل التابع لنا. وقد حدثت الكارثة كما يلي:

في احدى جولات الاستطلاع التي كانت تقوم بها طائرات الـ «ميسرشميدت»، اصيبت طائرة قائد السرب بنيران مضادة للطائرات كما يبدو. ولم يتعطل جهاز الاتصال اللاسلكي. فطلب من برج المراقبة في المطار التابع لنا اتخاذ الاستعدادات لهبوط اضطراري، ونجح في الاقتراب من المدرج لكنه فقد السيطرة على الطائرة كما يبدو في لحظة الهبوط بالذات. وعندما اخرجوه من الطائرة المحطمة كان قد فارق الحياة، فعم القاعدة حزن عميق.

ان سلاح الطيران لم يتكبد خسائر كثيرة في الارواح، ولذا كانت هناك حساسية لفقد كل شخص. ومما هو جدير بالذكر قصة طيار آخر لقي مصرعه:

كان مسيحيا كنديا، جاء متطوعا واستصعب اصدقاؤه فهم دوافعه الى ذلك. كان هادئا دمث الطباع، وكُلِّف فور وصوله تنظيم سرب جديد من الطائرات. وانكب بحيوية على أداء مهمته الشاقة. ولم تكن قطع الغيار لهذه الطائرات قد وصلت بعد، فضلا عن ان هذه الطائرات بحد ذاتها لم تكن في حالة جيدة جدا عندما اشتريت. وصرف عمل كثير لجعلها صالحة للقيام

بمهمات عمليانية. وأشار القائد على ضباط التسليح بالتخطيط لتزويد طائراته بقنابل حارقة (نابالم)، مع انه كان يدرك مدى فداحة الخطر الكامن في ذلك، ناهيك بأن جهاز اطلاق القنابل كان غير سليم ولم يفلح طاقم المهندسين في تطويره. وحدث مرة ان عادت «بوفايتر» من عملية وقنابلها ما زالت مثبتة فيها. اذ ان الطيار على الرغم من كل المحاولات التي بذلها لم يفلح في تحريرها، واضطر الى الهبوط وهي معه. وحدث مرارا عديدة ان تعطلت مدافع الطائرات.

315

وقبيل مساء يوم ٢٠ تشرين الاول/اكتوبر، انطلقت طائرتان لمهاجمة مركز شرطة عراق سويدان. وكان عليهما، بموجب خطة العملية، ان تقصفا المركز من ارتفاع منخفض، وأن تطلقا النار عليه بعملية «انقضاض» واحدة. وشوهدت طائرة الكندي وهي تقترب من الهدف وتطلق قنابلها ثم تبتعد عنه لتعود بعد دقائق فتنقض وتطلق النار من مدافعها. ولم تنجح الطائرة الاخرى في اطلاق قنابلها فغادرت المنطقة. وبعد عدة دقائق، اصيبت الطائرة الاولى وشوهدت وهي تهوي نحو المنطقة العربية والدخان يتصاعد منها. وكان في داخلها الطيار الكندي، وطيار مساعد شارك في العملية، والملاح الذي كان هو ايضا متطوعا من الخارج، من يهود انكلترا. ولم يعثر على جثثهم حتى يومنا هذا.

وفيما يلي وصف لغارات اخرى نفذت خلال هذه العملية، وهي تلقي ضوءا على طابع القتال الجوي في تلك الايام. ان ذلك الطيار الكندي ــ المسيحي الذي قتل في اثناء الغارة على عراق سويدان، كان قد نجح في اليوم السابق للغارة في اسقاط طائرة مصرية من طراز «فيوري»، من دون ان يطلق عليها النار. وقد حدث الامر كما يلي:

اقلعت الطائرة الاسرائيلية، بناء على معلومات وردت من قيادة سلاح البحرية، لقصف سفن للعدو استدارت وفرت من امام سفننا. وعندما اصبح الطيار قريبا من الساحل قبالة غزة، شاهد فجأة طائرة مقاتلة وموجودة فعلا على «ذنبه». وفيما كان يطلق قنابله، استدار استدارة حادة نحو الاسفل والـ«فيوري» في اثره. ونجحت طائرتنا في «الاستقامة» بينما غرقت الـ «فيوري» في البحر من دون ان يستطيع طيارها القفز منها. وكانت هذه الطائرة احدى الطائرات التي قدمها العراقيون الى سلاح الطيران المصري في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨. وكانت هذه هي مساهمتهم المتواضعة في معارك النقب.

وقصة اخرى: اكتشف قائد احدى القاذفات، وهو في طريق عودته من الهدف المحدد له، ان ثلاثا من قنابله لم تفلت من حمالاتها. ونفذ فوق البحر عدة تمارين طيران لتحريرها، لكنه اخفق في ذلك. وعندها اقترب احد أفراد الطاقم من «جسر العبور» الضيق الموجود فوق خزان القنابل، وهو مكان محظور جدا الاقتراب منه عندما تكون أبواب الخزان مفتوحة، وبجهد بدني خارق بدأ بتحرير القنابل الثلاث برفسها بقدميه. وفي اثناء رفسه اياها كان متمسكا بحبل «جسر العبور». وكانت حياته معلقة بشعرة. وعندما نجح في تحرير القنابل كافة، سحبه رفاقه الى داخل الطائرة.

قصة اخرى ايضا: قاذفة قنابل، كانت تشارك في قصف مطار العريش، علقت فجأة في نقطة التقاء الحزم الضوئية الصادرة عن مصابيح المطار الكاشفة. وفتحت عليها نيران مصوبة بدقة؛ وقامت القاذفة بمناورات حادة في محاولة للافلات من الاضواء الكاشفة التي لازمتها. وأطلقت باقي قنابلها، وبسرعة ٢٠٠ ميل تقريبا بدأت تهبط في اتجاه البحر، من ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم، الى ان وصلت تقريبا الى سطح الماء، وعندها عدّلت وضعها واستقامت.

وطوال وقت العملية كان هناك سؤال واحد على لسان الجميع: اين سلاح الطيران المصري؟ اين قاذفاته التي لم تنطلق واحدة منها للهجوم؟ اين مقاتلاته التي لا تظهر إلا في فترات متباعدة؟

316 وفي الحقيقة، ساد وضع من الفوضى والتنظيم السيىء قاعدته الامامية، العريش، التي كانت تُقصف ليلا نهارا. واستغلت قواتنا هذا الوضع جيدا.

وقصة اخرى: قاذفة كانت متجهة لقصف بيت جبرين وحولت الى العريش. ووصلت الى فوق المطار في الساعة ٢٣,٤٠. وعلى الفور وجهت اليها نيران كثيفة، لكنها نجحت في القاء قنابلها على الرغم من النيران. وبعد نصف ساعة تقريبا، اي في الساعة ١٢,١٥ تقريبا، ظهرت قاذفة اخرى فوق العريش. وفي هذه المرة لم تطلق النيران عليها، بل اضيئت أنوار المدرج، وأحس طيارنا فورا بأنهم يعتقدونه واحدا منهم، فهبط بطائرته وألقى قنابله فوق المدرج، فتسببت بأضرار جسيمة فيه.

وأيضا خلال الهجمات على المجدل وغزة التي نفذت في تلك الليلة، بين الساعة ٢٣,٥٩ والساعة ٠١,٠٠، لم تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها على طائراتنا، نتيجة للارتباك وسوء التنظيم.

وفي المقابل، لم تنفذ اية هجمات جوية ليلية ضد المستعمرات العبرية.

ان نشاطات سلاح الطيران في عملية «يوآف» تظهر لنا مدى التقدم الذي بلغه سلاح الطيران، وهو تقدم كبير قياسا بعملياته السابقة.

وخلال القيام بعملية «يوآف»، شُل نشاط سلاح طيران العدو، ولم ينجح إلا في القيام بعدد قليل من الغارات.

هـ - ميدان القتال البحري

خلال عملية «يوآف» استخدم سلاح البحرية، لأول مرة، بصورة منسقة مع خطة العملية البرية.

وكانت المهمة الرئيسية لسلاح البحرية، في اطار العملية، اكمال التطويق العملي من ناحية البحر للقوات المصرية الموجودة في الشريط الساحلي، اي قطع الطريق البحرية بين مصر وشاطىء ارض ـ اسرائيل الذي تحتله قوات العدو. وكان الاسلوب الذي اختير من اجل تحقيق هذه المهمة: (أ) نشاط ضد سفن العدو الراسية في الشريط الساحلي؛ (ب) قصف الشواطىء؛ (ج) تجول سفن الاسطول بمحاذاة شواطىء العدو.

وبالاضافة الى مهمات المساندة المذكورة اعلاه، قام سلاح البحرية بحماية الشواطىء (بواسطة اسطول من سفن خفر السواحل)، وبالوقوف على اهبة الاستعداد للدفاع عن سفن المهاجرين والسفن التي نقلت المشتريات العسكرية الى البلد.

وكان معظم عمليات سلاح البحرية مرتبطا من ناحية الوقت بظهور وحدات من الاسطول المصري بمحاذاة الشواطىء. ولذا لم تحدد تواريخها سلفا.

١ ـ عمليات مختلفة

كان من بين العمليات المختلفة التي نفذت خلال فترة العملية [«يوآف»]، قيام سفننا بقصف الساحل والبحث عن سفن العدو.

في ١٩ من الشهر، اكتشف الاسطول سفينة معادية «كورفيت» [طرادا] بالقرب من غزة. وفتحت عليها نيران المدافع، وشوهدت اصابات في جسمها وفي احد الزوارق. وفي اثناء المعركة، تعطلت مدافع سفننا فتوقفت عن العمل. وبعد ربع ساعة، بدأ هجوم جوي بطائرات* «سبيتفاير» على اسطولنا، وسقطت القنابل بالقرب من السفن، وقتل بشظاياها وبنيران مدافع الطائرات الرشاشة احد رجالنا وجرح ثلاثة. وردت سفننا بنيران قوية فأسقطت طائرة. وفي المساء عاد الاسطول الصغير الى القاعدة، وأنزل المصابين وتزود بكل ما يلزمه لمواصلة نشاطه.

٢ ـ اغراق «الامير فاروق»

اثمرت جهود وحداتنا البحرية في البحث عن سفن العدو في نهاية ايام العملية. ففي اليوم الاخير، ٢٢ من الشهر، اكتُشفت سفينتان للعدو في غزة. وفي البداية حظر على قواتنا مهاجمتها، اذ ان الهدنة كانت على وشك الحلول. لكن الموافقة اتت فيما بعد. وعلى الفور انطلقت الوحدات البحرية لتنفيذ المهمة. وقرر القائد تأجيل العملية حتى طلوع القمر، في 318 الساعة ٢١,٠٠. وفي الليل، خلال الرحلة، استلم المنفذون أوامرهم. وبعد ابحار استمر ساعة، التقت الوحدة سفينتين حربيتين للعدو: «الامير فاروق» التي كانت بارجة اميرال الاسطول المصري؛ والسفينة الثانية كاسحة ألغام. وعندما اقتربت سفننا، بدأت سفينتا العدو تتحرك ببطء نحو الشمال. وتحسبا لابتعادهما، هاجمتها وحدتنا فورا.

كانت الخطة تقضي بأن تهاجم قوة اولى «فاروق»، وقوة ثانية كاسحة الالغام، وتبقى قوة ثالثة احتياطا لاحتمال عدم قيام احدى تينك القوتين بمهمتها. وفي حال أداء القوتين الاوليين لمهمتهما كما ينبغي، تشن القوة الثالثة ايضا هجوما آخر على «فاروق».

وبعد صدور الامر ببدء العملية، وجهت القوات بسرعة الى الهدف، وبدأت بالتحرك بسرعة. وفي الساعة ٢٢,١٠، حدث الانفجار الاول، تبعه الثاني بعد ست ثوان والثالث بعد ثماني ثوان. وارتفع عمود من الدخان والمياه ٥٠ ـ ٦٠ مترا. وفتحت سفينتا العدو نيرانا غير مركزة من جميع الاسلحة الموجودة على متنها. وفي اثناء ذلك بدأت «الامير فاروق» تميل على جانبها من ناحية المؤخرة، وبعد دقائق معدودة انتصبت حتى بلغ جسر السفينة مستوى الماء، وغرقت. واستغرق غرقها ٤ دقائق تقريبا. ولف دخان كثيف كاسحة الالغام. لقد اصيبت اصابة مباشرة، لكنها لم تغرق. وفتحت من الشاطىء نيران من مدفع ثقيل في اتجاه البحر، ومن مدافع مضادة للطائرات في اتجاه الجو والبحر، من دون تصويب على هدف محدد. وبعد ذلك سُلط نور كاشف من الشاطىء على البحر، لكنه لم يكتشف شيئا. وفي الساعة ٢٣,١٠، عاد كل رجال وحدتنا الى قاعدتهم سالمين.

٣ ـ تلخيص

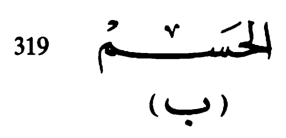
كان نشاط سلاح بحريتنا الفني، في المحصلة، ايجابيا جدا. لقد اربك، بصورة تامة تقريبا، تحركات اسطول العدو بالقرب من شواطىء الشفيلا، وخفف باغراقه «الامير فاروق» واصابته لكاسحة الالغام من تفوق الاسطول المصري. ان ظهور الاسطول الاسرائيلي بكل قوته، في مياه العدو، لم يظهر للمصريين ان امامهم اسطولا ناشطا يمكن ان يلحق بهم خسائر فحسب، بل برهن لهم ايضا ان الطريق البحرية الى غزة ليست آمنة أبدا، في ضوء نشاط الاسطول الاسرائيلي ضدها، وأن تأمينها يستلزم قوات كبيرة ونشاطا مدروسا.

ولم تنحصر انجازات العملية في القطاع البحري القتالي فحسب. اذ انه بعد بضعة

اسابيع من العملية، خفضت شركات التأمين العالمية في انكلترا والولايات المتحدة رسوم التأمين البحري لدولة اسرائيل، بعد أن كانت قد رفعتها مع بداية الحرب بنسبة كبيرة.

اذن، كانت نتائج عملية «يوآف» بكل فروعها كالتالي: ١) اقامة اتصال بري دائم بالنقب؛ ٢) سيطرتنا على مناطق في الجنوب والنقب وفي ممر القدس؛ ٣) ابادة جزء كبير من قوات الغزو المصرية، وتطويق لواء في «جيب الفالوجة»؛ ٤) ثبوت القـدرة العمليانيـة لسلاحي الطيران والبحرية الناشئين واللذين كانا قليلي العتاد.

إلا ان الجيش المصري لم يدمر تماما. وبقي الامر يتطلب عملية اخرى، لكن اهتمامنا انصرف في هذه الاثناء الى جبهات اخرى.



الحَسْمُ 319
(ب)

أ ـ عَمَليّة « حِيرَام »

١ ـ التخطيط

ما ان التقط البلد انفاسه عقب انجازات عملية «يوآف» حتى بدأت في الشمال عملية «حيرام». وكان الدافع الاخير الى بدء العملية هجوم القاوقجي على مرتفع شيخ عبد، ومحاولته الهجوم على المنارة القريبة من المرتفع. ان تصريحات القاوقجي نفسه بأنه ليس عضوا في الامم المتحدة، وبالتالي لا تنطبق عليه أحكام الهدنة، استغلت كسيف ذي حدين وسهلت على الجيش الاسرائيلي، من ناحية سياسية، شن هجوم ضده ــ في اثناء الهدنة.

لقد بقيت قوات القاوقجي ــ اي «جيش الانقاذ» ــ في الجليل الاعلى وفي جزء من الجليل الاسفل. وكان خط الحدود يمر من حانيتا في الشمال ويسير بمحاذاة هضاب الجليل الغربي حتى البروه ومن هناك الى الطرف الغربي لسهل بيت نطوفة [البطوف]. وفي الجنوب، كان خط الحدود يمر محاذيا هذا السهل حتى طرفه الشرقي، ومن هناك ينحرف شمالا بخط عيلبون ــ المغار ــ فراضية ــ ميرون، ومن هناك بخط مستقيم الى قدس ــ المالكية.

وكان هدف عملية «حيرام» ابادة العدو في هذه المنطقة من الجليل الاوسط والسيطرة عليها، وتثبيت خط دفاعي على طول حدود الانتداب الشمالية لأرض ــ اسرائيل.

وتضمنت خطة التنفيذ في المرحلة أ: تطويق العدو في «جيب» بحركة كماشة منسقة، من صفد في الشرق ونهاريا في الغرب، في اتجاه سعسع؛ التحرك، في المرحلة ب، في اتجاه المالكية الواقعة في الجهة الشمالية الشرقية وفي اتجاه سهل ايلون الواقع في الغرب، حتى البحر.

وكانت القوات التي وضعت في تصرف قائد الجبهة الشمالية: اللواء «شيفع» وقوامه كتيبة مدرعة، وكتيبتا مشاة وسرية من الشركس؛ لواء «عوديد»، الذي كان قد عاد للتو من عملية«يوآف»، وضمنه ايضا سرية دروز؛ جزء من لواء «غولاني»، وجزء من لواء «كرملي». هذه كانت هي الالوية التي كلفت تنفيذ العملية، وكان عليها ان تخصص بعض قواتها للاحتفاظ بالخطوط.

وكان توزيع القوات بالنسبة الى الاهداف كالتالي: (أ) اللواء «شيفع» يتولى الجناح الايمن، اي التحرك صوب سعسع من الشرق؛ (ب) اللواء «عوديد» كُلِّف التحرك في اتجاه سعسع من الغرب؛ (ج) اللواء «غولاني» يقوم بحماية الحد الجنوبي للجبهة من العراقيين (خط غلداع)، وفي اطار عملية «حيرام» امر بالقيام بعمليات تضليل والاستيلاء على مناطق تقع الى الجنوب منه، في خط الشجرة ــ عيلبون ــ المغار، وأيضا ان يشكل احتياطيا جبهويا؛ 322 (د) اللواء «كرملي»، يقف في مواجهة تجمعات قوات القاوقجي في منطقة المنارة (راميم)، وقبالة رأس الجسر السوري في الشرق.

وبدأت العملية في ليل ٢٨ ــ ١٠/٢٩، واستغرق انجازها ٦٠ ساعة.

٢ ــ التنفيــذ

المرحلة أ ــ القوة أ

في ساعة «الصفر» تحرك اللواء «شيفع» من قاعدته في صفد بثلاث قوى: قوة اولى (فصيلة مدرعة من الكتيبة ٩/شيفع، وسرية شركس) تحركت واستولت على القرى الواقعة شمالي طريق صفد ــ ميرون، وشرقا حتى صفصاف. قوة ثانية (السرية ب من الكتيبة ٢/شيفع، وفصيلة من الكتيبة ١/كرملي، وفصيلة من الكتيبة ٩/شيفع) انطلقت لاحتلال ميرون الواقعة جنوبي الطريق ولنسف الجسر الواقع الى الجنوب منها، وذلك بغية تأمين الجناح الايسر ومؤخرة الكتيبة المدرعة التي كان من المقرر ان تتحرك شمالا. وكانت القوة الثالثة الكتيبة المدرعة ٩/شيفع ذاتها. وتحركت امامها وحدة هندسة لنسف الحواجز الموجودة على طريق صفد ــ ميرون، وفتح الطريق امامها.

وفي الساعات الاولى من الليل، ووفقا للخطة، استولت سرية الشركس على المواقع شمالي الطريق. ونسف الجسر قبل ساعة واحدة من منتصف الليل. لكن الوحدة التي هاجمت ميرون فشلت في احتلالها وتأخرت عملية وحدة الهندسة اكثر مما كان مقدرا لها. ولم تفتح الطريق امام تحرك الكتيبة المدرعة إلا في الساعة الثالثة فجرا.

لم تكن ميرون قد سقطت بعد في ايدينا. وبدأ التفكير في الامر: هل ينبغي التأخر بسببها ام يصدر الامر الى الطابور المدرع بتركها في المؤخرة؟ وأخيرا، تقرر مواصلة التقدم.

وقبيل الصباح، هاجمت فصيلتا مصفحات وسرية مجنزرات (من الكتيبة ٩/شيفع) صفصاف واحتلتها بعد معركة قصيرة. وفي الوقت نفسه تقريبا، سقطت ايضا ميرون بعد ان أبيد معظم سرية العدو التي كانت تدافع عنها.

وبعد احتلال صفصاف مباشرة جرت محاولة لاحتلال الجش ــ غوش حالاف القديمة. «كانت المقاومة عنيفة» ــ كتب نائب قائد الكتيبة واصفا المعركة ــ «وبدا الامر كما لو انه كانت

في الجش قوة اكبر كثيرا مما دلت عليه المعلومات المتوفرة لدينا. وكشفت الشمس عندما اشرقت عن سر الجلبة في الجش: في ساحة القرية، بالقرب من مبنى حجري كان يستخدم في حينه مستوصفا تابعا لوزارة الصحة في حكومة الانتداب ــ والآن يستعمل مركزا لقيادة «كتيبة اليرموك الثانية» ــ كان يقف صف من الباصات اللبنانية المطلية بألوان صارخة، وعليها كتابات. وكانت تلك باصات جلبت في تلك الليلة، قبل ساعات معدودة من الهجوم على الجش، كتيبة سورية قوامها ٤٠٠ جندي، من مرجعيون، حيث كانت موجودة طوال الوقت من اجل شن هجوم مضاد. ويبدو ان هؤلاء قد هوجموا قبل ان يكونوا مستعدين لذلك فعمت الفوضى في صفوفهم. وكان الجنود انفسهم مرتدين بزاتهم ومسلحين جيدا، ويتراكضون بين البيوت في ازقة القرية وبساتين التين المجاورة، أفرادا وجماعات، ويحاولون ان يردوا على اطلاق النار، في منطقة يجهلونها تماما.

323 «وفر رجال القاوقجي صوب الجرمق والتلال المحيطة بالجش من الناحية الغربية، وهم يوجهون نيرانا غير فعالة الى الطابور المدرع المتقدم. وتصاعدت ألسنة اللهب من شاحنة محملة بالذخيرة اصيبت عند مدخل القرية، فأضافت مزيدا من الجلبة الى أصوات المعركة. وانتهى الامر بضربة نيران قوية واندفاع سرية من قوات المشاة الى داخل القرية، قامت بتصفية اوكار المقاومة المنفردة في داخلها. وغُنِمَ بالاضافة الى الباصات: مصفحتا «ساندويش» كان العدو قد اخذهما من قافلة «يحيعام» ورسم عليهما شعار جيش التحرير (خنجر معقوف يقطر دما، غارز في قلب نجمة داوود)؛ مدفع مضاد للطائرات، من عيار ٣٧ ملم وجد في الصباح ملقيا وجاهزا للاطلاق في موقع خال؛ اسلحة وذخيرة فرنسية وكميات كبيرة من المؤونة. وأُخِذَت من داخل قيادة «الكتيبة» الثانية اكياس من الوثائق. وفي وقت لاحق بدأ الاسرى بالتدفق: رجال القاوقجي وقد انهارت معنوياتهم، وضباط وجنود سوريون مذعورون، وقفوا بازدحام ينظرون الينا بعيون كابية. وبكى ضابط سوري شاب وهو يتمتم طوال الوقت بالانكليزية: • «لقد امضيت عامين في الكلية الحربية».».

وعلى اية حال ــ الكتيبة السورية هزمت. وأصبحت صفصاف وغوش حالاف بيد اللواء «شيفع». وفشلت كل الهجمات المضادة التي شنها العدو في ذلك اليوم لاستردادها منا. وأيضا لم يسبب القصف المدفعي، من ناحية سعسع، في أضرار تذكر. وفي ساعات العصر اخلى العدو الجرمق، اعلى جبل في ارض ــ اسرائيل الغربية. واتضح ان قرار القيادة بعدم احتلال الجبل في المرحلة الاولى ــ وانما التحرك على طول الطريق فقط لكسب الوقت ــ كان في محله؛ وفي ساعات العصر خفت الهجمات المضادة في هذا القطاع، واستعد اللواء «شيفع» لمواصلة تقدمه الى سعسع، حيث كان يتوقع ان يجد المقاومة الرئيسية. وقد تطابق التنفيذ مع جدول المواعيد الموضوع.

عملية «حيرام»: المرحلة أ ــ القوة ب

لم تسر الامور على هذا النحو في الغرب، في قطاع لواء «عوديد». لقد كُلِّف اللواء الذي انطلق من نهاريا في اتجاه ترشيحا ان يحتل في الليلة الاولى (الليلة السابقة لـ ٢٩ تشرين الاول/اكتوبر) عددا من المواقع المشرفة على ترشيحا: «غفعات هعيتس» [تل الشجرة] و «غفعات هسيلاعيم» [تل الصخور]. وفي الوقت نفسه، كان على وحدة الهندسة تنظيف الطريق من العوائق لتمكين المصفحات والمشاة من اقتحام البلدة من ناحية الغرب. وكان من المعتقد ان البلدة ستسقط تحت ضغط منسق من ناحية المرتفعات ومن ناحية الطريق وتحتل قبل الصباح، وتتمكن القوة من مواصلة التقدم غربا نحو سعسع، فتلتقي القوة أ وتعزل قوات القاوقجي في الجليل الاوسط عن مؤخرتها في لبنان.

وكان على سرية درزية ان تستولي على يانوح، القرية الدرزية الكبيرة الواقعة جنوبي ترشيحا، وتشق طريقها منها قبيل الصباح الى داخل البلدة.

كما ذكرنا سابقا، وقعت اشتباكات عديدة خلال الهدنة الثانية في منطقة ترشيحا. وبالتالي كانت هذه مستعدة جيدا للدفاع. ولذا حشدت هنا قوة مدفعية كبيرة. وقصفت البلدة طوال الليل بالمدفعية، لكن الكتيبة التي كانت مكلفة احتلال الموقعين المرتفعين المدافعين عنها اصطدمت بمقاومة وفشلت في مهمتها. وعادت قبيل الصباح الى قاعدتها. ومن غير احتلال الموقعين لم تكن هناك فرصة للهجوم على محور الطريق. وصدر الامر بايقاف التقدم ايضا على هذا المحور.

324 وتعرضت السرية الدرزية لحادث خطر. فقد نجحت في دخول قرية يانوح وسيطرت عليها بمساعدة المدفعية، بعد ان انسحبت سرية القاوقجي منها. وقبيل الصباح انقطع الاتصال بها ولم تتلق الامر بالانسحاب. وعندما طلع النهار استردت قوات العدو الموجودة في ترشيحا انفاسها، بعد نجاحها في الليل. وعادت وحدة القاوقجي فاحتلت يانوح. واضطرت السرية الدرزية الى الانسحاب بعد ان منيت بخسائر بلغ مجموعها عشرة قتلى، بينهم طبيب يهودي وقائدان من قادتها.

وتجدد الاتصال بالسرية قبيل المساء فقط، وانقذت بمساعدة من المدفعية. وهكذا وجدنا انفسنا مساء يوم ٢٩/١٠ في الغرب في المكان نفسه الذي كنا فيه ساعة «الصفر».

المرحلة ب

بعد حلول الظلام بدأت المرحلة الثانية للعملية. تحرك اللواء «شيفع» في اتجاه سعسع، وكانت دهشته بالغة اذ احتلها من دون مقاومة تقريبا. وكما ذكرنا، شكلت سعسع في بداية الحرب هدفا لواحدة من اجرأ الغارات في عمق منطقة العدو.

وأصبحت سعسع، ملتقى الطرق الرئيسية في شمالي البلد، بيد الجيش الاسرائيلي. ونظم اللواء «شيفع» صفوفه للدفاع عن ملتقى الطرق، ولغم الطريقين الآتيين من الغرب،

ومكث ينتظر الاوامر: هل يتحرك غربا لاحتلال ترشيحا من الخلف، ام يستغل النجاح فيتحرك نحو الشمال الشرقي، الى المالكية والنبي يوشع؟

وفي الغرب، استعدت في هذه الاثناء الكتيبة ١ من لواء «عوديد» لمهاجمة ترشيحا مرة اخرى، لكن لم يكن هناك داع الى ذلك. فعندما طلع الفجر شوهدت الرايات البيض على سطوح المنازل. واستسلمت البلدة، بعد ان انسحبت منها قوات «جيش الانقاذ» بسرعة تاركة وراءها معظم العتاد الثقيل ـ بما في ذلك مدافع من عيار ٢٠ ملم كانت لاتزال منصوبة في مواقعها. وقد استخدمت قوات العدو طريقا ترابيا ـ لم تكن قيادة الجبهة على علم به كطريق تم اعداده لحركة الآليات ـ يمتد من ترشيحا الى الطريق الشمالي، مرورا بدير القاسي (الكوش)، ومن هناك الى رميش في لبنان. ومنذ ذلك الوقت دعي هذا الطريق باسم «طريق القاوقجي».

وفي ضوء ذلك، أُمر اللواء «شيفع» بمواصلة التقدم في اتجاه الشمال الشرقي. وفي ليل ٢٩ ـ ١٠/٣٠، انسحب جيش الانقاذ ايضا من جنوبي المنطقة التي احاطت بها قواتنا، وتحولت تقريبا الى «جيب». واحتلت قوات «غولاني» (وحدات من الكتائب ٢ و٣ و٥)، التي كانت تشكل القوة الجنوبية (القوة ج)، عيلبون في بداية الليل. وواصلت وحدة معادية صغيرة الاحتفاظ بقرية المغار بمساعدة المدفعية وخاضت معركة لحماية انسحابها من الخلف. وكانت مهمة هذه الوحدة منع وحدات الجيش الاسرائيلي من الوصول الى مفترق طرق الرامة، ومن السيطرة على الطريق المؤدي الى البقيعه (بكيعين)، الذي كانت تتم عبره كل حركة الانسحاب من القطاع الجنوبي. وفي ساعات الصباح، عندما وصلت وحدات «غولاني» الى المغار، كانت قوات القاوقجي قد غادرت شرقي الرامة وغربيها.

ووقع جزء صغير من القوات العربية المنسحبة من الجنوب، لم يكن قد تمكن من اجتياز الرامة قبل وصول وحدات الكتيبة ١/غولاني اليها، في مصيدة طلائع وحدات اللواء المتقدمة من ناحية الغرب، عند وصوله الى مفترق طرق سحماتا، على طريق ترشيحا. ووقعت جميع السيارات والاعتدة بيد الجيش الاسرائيلي، لكن أفراد العدو نجحوا في الافلات.

325 وفي البداية اظهرت قرية سحماتا مقاومة، لكنها احتلت بعد ان طوقتها سرية مشاة. وفي ساعات الظهيرة التقت طلائع اللواءين ـ الشرقي والغربي ـ في سعسع.

استغلال النجاح

انتهت بذلك المرحلة الثانية من العملية. وعلى الرغم من تعب جنودنا، اذ انهم لم يناموا منذ بدء العملية تقريبا، فقد أُمروا باستغلال النجاح بسرعة والانتشار على طول خط الحدود السياسي، خشية ان ينظم العدو صفوفه للدفاع، او ان تفرض هدنة اخرى.

ومعنى ذلك استمرار تحرك لواء «عوديد» من الشرق الى الغرب على طول طريق الحد الشمالي: طريق تربيخا؛ واستمرار تحرك اللواء «شيفع» شمالا الى المالكية والنبي يوشع. 326

وعمليا لم يواجه التحرك غربا اية مقاومة. واستسلمت القريتان الرئيسيتان الواقعتان على الطريق: اقرت وتربيخا. وقبيل الصباح شاهد أفراد مستعمرة ايلون، التي كانت وقتئذ اقصى موقع لنا في الشرق، وحداتنا الآتية من الشرق.

أما اللواء «شيفع»، فقد تعرض خلال تحركه لرصاص القنص في مارون الراس، وواجه مقاومة خفيفة بالقرب من الصالحية (يرءون). ووصلت الكتيبة المدرعة ٩/شيفع الى المالكية، التي دارت بشأنها معارك عنيفة في الماضي. وكانت المالكية مستعدة للدفاع من ناحية الشرق ـ لجهة النبي يوشع وراموت نفتالي، ففاجأها مفاجأة تامة الهجوم من الجنوب. ولم يقاوم العدو. وساعد سلاح الطيران في مطاردة فلول المنسحبين. وأصبحت سيطرتنا على طول الحدود اللبنانية كاملة، من النبي يوشع حتى رأس الناقورة في الغرب. وبذلك زال ايضا الضغط عن المنارة (راميم).

وبسقوط «الجيب» الشمالي انهارت قوة العدو التي كانت موجودة في الشيخ عبد والمرتفعات الصخرية المسيطرة على طريق المنارة (راميم). وجاء الآن دور لواء «كرملي» (القوة د) كي يتحول من مهاجَـم الى مهاجِـم. فاجتاز خط الحدود وبحركة سريعة سيطر على القرى الواقعة غربي طريق المنارة، والبالغ عددها ١٤ قرية، معظمها في دولة لبنان. ووصلت قوات اللواء الى وادي دوبا في الغرب والى نهر الليطاني في الشمال.

٣ ـ النتائج

وهكذا انتهت عملية «حيرام». ان ابادة «جيش الانقاذ» بأسره لم تتحقق بصورة كاملة، لكن الهدف الرئيسي ـ السيطرة على الجليل كله ـ تحقق فعلا.

وبلغت خسائر العدو في هذه العملية ٤٠٠ قتيل تقريبا، منهم ٢٠٠ من الكتيبة السورية التي هوجمت في الجش. ووقع ٥٠٠ اسير تقريبا في قبضة الجيش الاسرائيلي. وبعد الهزيمة بدأت عملية فرار واسعة من صفوف جيش القاوقجي. وبقي فيه نحو ١٠٠٠ رجل فقط. ولم يعد «جيش الانقاذ» يُعتبر عاملا خطرا.

واشتملت الغنائم التي وقعت بيد الجيش الاسرائيلي على ١٥٠٠ بندقية تقريبا، و٣ مدافع، ومصفحتين، و٢٠ سيارة تقريبا، و٤ رشاشات متوسطة، و٣ بنادق مضادة للدبابات، وذخيرة وكميات كبيرة من الاغذية.

وكانت عملية «حيرام» اكبر عمليات الحرب على الجبهة الشمالية. واستخدمت فيها اربعة ألوية، في محاور بعيدا بعضها عن بعض، لغرض عملياني واحد. وتميزت العملية بتنسيق بين قوات كثيرة، وبسرعة التنفيذ، وبالروحية والمبادرة اللتين اظهرتهما جميع قواتنا.

كما كانت عملية «حيرام» ايضا آخر عملية على الجبهة الشمالية خلال الحرب. وبعدها ـ بفارق زمني كبير ـ اتت اتفاقيتا الهدنة مع سورية ولبنان.

ب - بين "يوآف" و "حوريف" على الجبهة الجنوبية

جنبا الى جنب مع عملية «حيرام»، استمر استغلال نجاح عملية «يوآف». وقد ذكرنا اعلاه احتلال اشدود وبيت جبرين، وتصفية الشريط الساحلي المصري شمالي غزة، والسيطرة على أطراف جبل الخليل. وقد ادى هذا الاحتلال الى إحكام الطوق حول «جيب» الفالوجة. وفي البداية، اشتمل «الجيب» على مركز شرطة عراق سويدان والقرية الواقعة بالقرب منه. ونظرا الى ان هذين كانا يقعان بالقرب من «هتسومت» [مفترق الطرق] ويشكلان تهديدا خطرا للطريق المؤدي الى النقب، فقد تقرر السيطرة نهائيا على مركز الشرطة، الذي صد سبع هجمات قمنا بها عليه سابقا.

١ ــ احتلال مركز شرطة عراق سويدان

اسباب فشل الهجمات السابقة

ان اسم عراق سويدان بحد ذاته كان يبعث على الاحترام لدى مقاتلي وحدات الجيش الاسرائيلي. اذ لم يحدث في تاريخ حرب الاستقلال بأسره ان هوجم مكان مرات كثيرة كما هوجم هذا المكان، وفشلت جميع الهجمات عليه. ولذا كان لا بد، قبل شن هجوم آخر، من العودة الى تحليل اسباب فشل الهجمات السبع السابقة.

لخص المرحوم الجنرال يتسحاق ساديه، في مقدمته لكتاب «كيف وقع الحصن في الفخ»، الهجمات التي شنت حتى ذلك الوقت على مركز شرطة عراق سويدان وحللها: «في مكان ضيق المساحة كمبنى مركز الشرطة، يحميه عدد من الرجال كبير بالنسبة الى مساحته، وسرية جنود مع كل تجهيزات السرية، اي يحميه ٢٠٠ ونيف من الرجال؛ في مكان مسوّر بجدران سميكة، ومحاط بمنطقة مكشوفة تماما ومعدة جيدة للدفاع، لا مجال هناك أبدا للمفاجأة. وأية سرعة بلماحية معززة بتخطيط دقيق ومدروس للواء «غفعاتي»، لن يكون في امكانها المساعدة هنا. ومهما تكن الساعة التي تأتيهم فيها، حتى لو اتيت في أشد الليالي حلكة، فسيشعرون بذلك؛ انهم يراقبونك من كل شق ونافذة ويشعرون بمجيئك. وكل

مكان مستعد لاطلاق النار. رشاشات على الابراج مصوبة الى خطوط ثابتة، وعندما تبدأ العمل، كل واحد في اتجاهه، فان طريق التقدم الى الجدران يغلق بسور من النيران. وبعد ذلك تنضم ايضا نيران البنادق والرشيشات والرشاشات من كل موقع ومن كل سطح.

فلا عجب اذن في ان رجالنا لم يدخلوا الحصن ولم يحتلوه؛ العجب هو انهم وصلوا الى المنطقة، الى الاسلاك، بل الى الجدران؛ والاعجب من العجب، هو كيف تمكن من وصل وتطلع وأصيب، لكنه لم يقتل، من الانسحاب بمساعدة رفاقه الى خطوطنا. وعلى جانبي الحصن، 328 على بعد مسافة معينة منه، يبدو انه كانت منصوبة في قريتي عراق سويدان وبيت عفه اسلحة العدو المضادة للدبابات والمدافع من عيار ٦ ارطال، وكانت هي التي منعت البطل المجهول، السائق اليمني، من الوصول بمصفحته المحملة بالمواد المتفجرة الى الجدار وتفجيره. فقد اصاب المدفع المضاد للدبابات المصفحة قبل وصولها الى هناك، وهي على بعد ٣٠ مترا من الجدار. وخرج البطل المجهول ــ الذي لم ترو قصته بعد ولم تنشد له الاشعار ــ منها زحفا للاتصال بقائده. وانفجر الحمل وأصيب بجروح بليغة. ولم يتضرر الحصن.

«ودلني التحليل على ان جميع هجماتنا فشلت، وكان مكتوبا لها الفشل مسبقا لأنها لم تحاول ان تسكت اولا نيران العدو، وأن تقضي على مرابض رشاشاته قبل الهجوم. ومن البديهي ان ذلك لم يحدث بسبب جهلنا للأمر، وانما لأنه لم تكن لدينا الوسائل اللازمة لذلك.

«ان الحرب العالمية الاولى جافلة بمحاولات هجمات فاشلة كهذه، مع انه كانت لدى المهاجمين وسائل اكثر بما كان لدينا. وأيضا عندما كان المهاجمون ينجحون في ابادة جزء من قوة نيران المدافعين، كانت القوة الباقية كافية ــ في جميع الحالات تقريبا ــ لصد الهجوم. وفي الحقيقة، فان القوة الدفاعية المتوفرة اليوم لقوات المشاة، تفوق أضعافا عدة ما كان متوفرا لمثيلاتها خلال الحرب السابقة».

التخطيط

ادى تحليل الهجمات السابقة الى تغيير الخطوط الاساسية لخطة الهجوم. وتقرر حشد اسلحة ثقيلة متفوقة في قوة نيرانها على اسلحة العدو، وقادرة على خرق جدران الحصن. ومن اجل ذلك، تقرر لأول مرة استخدام مدافع الـ ٧٥ ملم، بتصويب مباشر. ومن اجل إحكام التسديد كان من الضروري تنفيذ العملية هذه المرة في وضح النهار. وتقرر ان يكون موعد بدء الهجوم في العصر، لتبهر الشمس الغاربة اعين المدافعين فتسهل مهمة المهاجمين القادمين من جهة الغرب. واشتملت الخطة على قصف مدفعي ممهد بقوة لا مثيل لها من قبل، وبعد ذلك هجوم بالمشاة والدبابات. وتضمنت الموجة الاولى من الكتيبة المهاجمة ــ الكتيبة ٩/ اللواء المدرع ــ سرية مشاة واحدة محمولة على نصف مجنزرات، مع خبراء تدمير، ودبابتين مساندتين من الجانبين مهمتهما ان تسكتا بمدافعهما كل مربض مدفع رشاش يطلق النار.

وتقرر ان تكون الموجة الثانية قوة مساندة في حال فشل الاولى. وتشكلت هذه القوة

من مشاة محمولين بمصفحات ومزودين بقاذفات اللهب. وكقوة مساندة اخرى، في حال فشل الموجتين الاولين، خصصت وحدة مشاة وكُلفت شن هجوم بعد هبوط الظلام.

التنفيــذ

تحدد يوم ٩ تشرين الثاني/نوفمبر موعدا للهجوم. وفي الساعة ١٤,٠٠، بدأ القصف المدفعي الممهد. وبقي الحصن، لساعتين تقريبا، محاطا بسحب الدخان. وشوهدت اصابات من مدافع الهاون في السطح والساحة، واصابات من المدافع ـ المصوبة تصويبا مباشرا ـ في الجدران، واصابات من المدافع الرشاشة المتوسطة في النوافذ، وفي كل المواقع المجاورة، المحيطة بمنطقة المعركة، وقف الجنود والقادة في وحداتنا يراقبون المشهد. لم يحدث من قبل ان رأوا نيرانا كهذه منصبة على هدف واحد.

329 وعند الساعة ١٦,٠٠ تقريبا بدأ الهجوم؛ بدأ المشاة المحمولون بالمجنزرات يتقدمون نحو الهدف بمرافقة الدبابتين. وتم اختراق سياج الاسلاك الشائكة من دون مقاومة، بعد فتح ثغرة فيه بشحنة ناسفة. كما لغم خبراء التفجير الجدار وفجروه من دون مقاومة ايضا. وبدأت الوحدات المهاجمة الاقتراب من الجدار لعبور الثغرة، لكن المعركة كانت قد حسمت. فقد خرج المصريون من الحصن مذهولين ومصدومين واستسلموا. وهب الجنود في المواقع المحيطة واقفين وأطلقوا صيحات الفرح: لقد سقط «الوحش».

وصف التنفيذ

وصف المرحوم يتسحاق ساديه، في كتابه «كيف وقع الحصن في الفخ»، احتلال مركز الشرطة:

«بدأت الاوركسترا؛ كل الاسلحة تطلق النار. كلنا متوترون. في البداية الاصابات قليلة، وأحيانا بعيدة جدا عن الهدف. يمزح احدنا: «خطأ صغير ويصيبوننا».

«لماذا المدافع الرشاشة صامتة؟ لكنها ليست صامتة أبدا، وانما لا نسمع صوتها وسط دوي المدافع ومدافع الهاون. وها هي مجموعة مدافع هاون من عيار ٣ بوصات تحقق اصابات قريبة. «الحلو» لا يصيب لكنه يصب حممه قريبا جدا. لكن قريبا جدا لا تكفي لتدمير مركز الشرطة. المطلوب اصابات مباشرة، في داخل الساحة على وجه التحديد. وها هي اصابة في السطح. انها مدافع الهاون الثقيلة خاصتنا. القذيفة ثقيلة بما فيه الكفاية، والسقوف المصابة لا بد من ان تنهار، واصابات اخرى، وهذه اصابة مباشرة ومرة اخرى اصابات قريبة. والمبنى بأسره يلفه الدخان.

«صعّدوا القصف!

«القذائف تصيب، والنيران تزداد كثافة. اصابة مباشرة في البوابة من ناحية نيغبا.

إخطار: «البوابة انفتحت. نشاهد الساحة!» وبعد لحظات معدودة: «البوابة اغلقت». كيف استطاعوا اغلاقها؟ ان القائد الذي في الداخل «حبّوب» ـ انه سيقاوم بكل قوته.

«وفي الساعة الثالثة إخطار بأنهم يرون شيئا ابيض. ربما علامة الاستسلام؟ يهرب عدة جنود الى قرية عراق سويدان والنيران تلاحقهم؛ نيراننا تدركهم.

«صعّدوا، صعّدوا، صعّدوا القصف! كل شيء يغلي حول مركز الشرطة. سحابة رمادية تنأى وسحابة سوداء تحل محلها. وقبل ان يتبدد دخان القذيفة، يلتف ويتصاعد دخان القذيفة التالية. وانصب اتون من النار على الاسلاك الشائكة وبالقرب من السور وعلى السطوح وداخل الساحة وحواليها. والرشاشات تكنس السطوح بـحُـزَم كثيفة وتضرب الجدران والنوافذ، وحتى الكوات.

«ويتصاعد دخان كثيف من السطح، من البرج الجنوبـي الشرقي، اعلى الابراج. وعندما اختفى الدخان اختفت الراية ايضا. لم نعد نراها. اصيبت السارية، وسقطت الراية ارضا. ويعم الفرح الخنادق، ويقفز الرفاق منها الى الخارج، ونضطر الى طردهم الى داخلها: من فرط السرور يحتمل ان يصابوا.

«من نيغبا يخطروننا: في الساعة ١٥,٤٧ سقطت الراية. الراية رمز، ورجالنا «القساة» يحسون ـ على ما يبدو ـ باحترام للرموز. وعندما سقطت الراية بدا لهم النصر مضمونا.

330 «لكن المعركة استمرت والنيران اشتدت. ويتوجه الـيّ قائد قوة الهجوم بطلب: انه يريد تقديم موعد الهجوم ربع ساعة. ـ الامر عائد لك.

«وألمح في عينيه انه هو ايضا يعتبر الامر منتهيا. وعلى الرغم من ذلك تحركت الوحدة وفقا لكل قواعد الاحتراس المقررة. الدبابات تتحرك في الخط المرسوم لها، وصف طويل من المجنزرات يعلو ويهبط، يلوح ويختفي في ثنيات الارض. انها تقترب، ويخيل الينا انها تتحرك ببطء شديد. لكن الساعة تظهر لنا انها تتحرك بالسرعة القصوى. تتخذ الدبابات مواقعها، وتفتح النار الواحدة تلو الاخرى. من بين المجنزرات تتقدم اثنتان: خبراء التدمير. انهم يفتحون ثغرة في سياج الاسلاك الشائكة بمساعدة متفجرة «بنغلور». وها هم بجانب الجدار، ذلك الجدار الذي ضحى عدد كبير من شبابنا بحياته من اجل خرقه. ينسحب خبراء التدمير. صوت انفجار هائل. سحابة كثيفة تعلو ومعها تتصاعد ذرات الغبار. يتلاشى الدخان ونشاهد فتحة في الجدار! تقترب الوحدات المهاجمة، وتتأهب لعبور الثغرة. وحتى لو اعد المصريون دشمة او موقعا قبالة الباب الحديدي الضيق لما كان في ذلك خلاص لهم، لان الثغرة فتحت في موضع لم يكونوا يتوقعونه. وأنا اعرف ان الشبان في المجنزرات يعيشون الآن لحظات التوتر الاخيرة. هناك ثغرة من اجلهم! الايدي مشدودة على الاسلحة الى درجة الالم. الارجل كالنوابض. الثغرة تجذبهم. لحظات ويندفعون، وعندها القول الفصل لمعركة بالايدي، بالسلاح الابيض، قاسية جدا.

«وتتقدم المجنزرات بسرعة مذهلة. وتطلق الدبابات نيرانا شديدة بصورة متواصلة.

لحظات ويهدم الجدار. الشبان مستعدون للوثوب، للاندفاع الاخير. لكن فجأة يحدث أمر ما قرب الثغرة: ماذا يجري؟ وفجأة صوت: يا شباب! المصريون يخرجون من الحصن! المصريون يخرجون من دون سلاح! ايديهم مرفوعة؛ النصر! النصر!.

«وفجأة ينهض كل الحشد الكبير ـ آلاف! كل من كان في الخنادق يقفز ويأخذ في الصراخ والرقص، ويبارك الجنود بعضهم بعضا. ان النصر نصرهم! وليس نصر الذين أطلقوا النار وتقدموا فقط. انه نصر كل جندي مقاتل على هذه الجبهة، من النفر الى قائد الجبهة. ان هذه الجبهة هي رزمة كبيرة واحدة، ونحن نفردها من أطرافها المختلفة، بواسطة الالوية العاملة فيها. والجميع يشعرون بأننا خطونا خطوة كبيرة الى الامام».

لم تتكبد الوحدات في احتلال مركز الشرطة اية اصابة، لكن عددا من الجنود قتل وعددا جرح في عملية تضليل ضد قرية عراق سويدان. وبسقوط مركز شرطة عراق سويدان تقلصت حدود «الجيب»، واقتصر على المنطقة الواقعة بين الفالوجة وعراق المنشية. وظلت هذه المنطقة بيد المصريين المحاصرين حتى توقيع اتفاقية الهدنة معهم.

٢ ـ «جيب» الفالوجة

الحصــار

لا يزال النقاش في مصر مستمرا لغاية الآن فيما يتعلق بتطويق اللواء في الفالوجة. ان أنصار سيد طه، «النمر السوداني»، قائد اللواء المحاصر، يتهمون القائد العام بأنه انسحب من المجدل الى غزة من دون ان يمكّن اللواء في الفالوجة من الانضمام اليه قبل الانسحاب. 331
وفي المقابل يدعي أنصار القائد العام ان لواء الفالوجة تلقى أوامر صريحة ـ عندما كان الامر لا زال ممكن التنفيذ ـ بالانسحاب من الفالوجة، ليس الى غزة فعلا وانما الى بئر السبع، والمساعدة في ذلك على تدعيم خط مصري جديد قائم على طريق غزة ـ بئر السبع. وبحسب أقوال هؤلاء لم يحرك قائد اللواء المحاصر ساكنا لتنفيذ هذا الانسحاب، وانتظر حتى فات الاوان.

وسواء أكان الامر هذا ام ذاك فان اللواء بقي محاصرا في «الجيب»، الذي اشتمل في البداية على منطقة انتشار القوات من عراق المنشية حتى عراق سويدان، لكنه تقلص ـ كما ذكرنا ـ بعد احتلال «الحصن» واقتصر على منطقة الفالوجة ـ عراق المنشية فحسب.

وكان وضع المحاصرين سيئا جدا. وفي ١٠/٢٨ حددت حصص الجنود من الطعام والذخيرة. وبناء على حسابات القائد كان من المفروض ان يكفي الطعام الـ ١٠٠٠ جندي مدة عشرة ايام فقط. وانضم، فيما بعد، الى جنوده ايضا الجنود الموجودون

في عراق سويدان، الذين كانوا يتلقون مؤونتهم يوميا من المجدل، ومنذ ذلك اليوم قدمت للجنود وجبتان فقط في اليوم: الاولى في الساعة ١٠,٠٠، والثانية في الساعة ١٦,٣٠. وفي ١٠/٢٠، سجل القائد في يومياته ان هناك ضائقة ملموسة في مؤونة السجائر.

وفي ١٠/٢٤، ذكر في يومياته: بسبب النقص في معدات العمليات الجراحية اضطر القائد الى اجراء عملية لجريح بموسى. ان وضع الجنود يزداد خطورة بسبب النقص في المواد الطبية.

اجتماع القادة

على الرغم من الهجمات الجوية والمضايقات المستمرة من الارض والحرب النفسية، فقد رفض القادة المصريون الاستسلام. وفي البداية رفضوا حتى عقد اجتماع مع قائد الجبهة وضباطه. ولاحقا، بعد سقوط مركز شرطة عراق سويدان، وافقوا على عقد الاجتماع. وعقد الاجتماع في غات، ووصفه طه في مذكراته: «في الساعة ١٥,١٥، انطلقتُ وأربعة من ضباط هيئة اركاني في سيارتي جيب. وقابلتنا في الطريق سيارة ترفع راية بيضاء. ونزل من داخلها كابتن، وبعد ان ادى التحية طلب منا ان نتبعه. وواصلنا السير حتى وصلنا الى غات، وهي كيبوتس يقع على بعد ٥ كلم من الفالوجة. واستقبلنا هناك القائد اليهودي وضباط هيئة اركانه. وفي حديثه الذي ترجم الى الانكليزية امتدح القائد اليهودي بيرنشتاين* شجاعة الجنود المصريين وبطولتهم. وبعد ذلك بدأ يعدد فوائد الاستسلام، وذكر امامنا استسلام القائد الالماني فون باولوس** مع نصف مليون جندي. لكنني اجبت القائد اليهودي على الفور ان الهدف من مجيئي لم يكن مناقشة شروط الاستسلام، وانما السماح لرجال «الصليب الاحمر» بنقل جرحانا من الفالوجة الى الخطوط المصرية كما تم اشتراط ذلك سلفا. . . لكن هذا رفض واقترح نقل الجرحى لمعالجتهم في مستشفيات يهودية. وانتهت المقابلة بعد نصف ساعة تقريبا وعدت الى الفالوجة، وعندها وصلت الينا رسالة الملك فاروق التي شجعت المقاتلين وقوّت معنوياتهم».

وهناك وصف للاجتماع ذاته، الذي شارك فيه ايضا جمال عبد الناصر، الحاكم الحالي لمصر، في مقال لضابط اسرائيلي شارك فيه:

332 «استهل اللواء آلون الكلام وقال: «كولونيل، اسمح لي بأن اعبر عن اعجابي بالقدرة القتالية لجنودك الشجعان. لقد كلفنا احتلال حصن عراق سويدان ونصف «الجيب» مجهودا كبيرا، وان لم يكلفنا ضحايا كثيرة».

---

* كان هذا احد الالقاب السرية للواء يغآل آلون، وبهذا اللقب ظهر في الاجتماع.

** قائد القوة الالمانية التي هاجمت ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية.

«شكرا جزيلا يا سيدي» ـ اجاب الكولونيل طه ـ «يجب ان اذكر ان جنودك المتميزين ببطولتهم فعلوا العجائب ووضعونا في وضع صعب جدا».

اللواء آلون: «أليس من المأساوي ان الجانبين، اللذين لا يوجد هناك اي داع لاقتتالهما، يقتل بعضهما بعضا بلا رحمة!».

«ان الامر مأساوي فعلا» ـ اجاب المصري ـ «لكن هذه هي حال الدنيا. انه القدر يا سيدي، ولا مفر منه».

اللواء آلون: «آمل بأن تدرك ان الحرب فرضت علينا، فهي تدور على ارضنا وليس في مصر. اعتقد ان المعركة قد حسمت ومن الافضل الاسراع في وضع حد للحرب».

اجاب المصري: «هذا صحيح. لكني كضابط ليس امامي سبيل آخر سوى تنفيذ أوامر حكومتي».

اللواء آلون: «يجدر ان تنتبهوا الى انه بينما معظم جيشكم مشغول بحرب لا امل منها في ارض ـ اسرائيل، فان بلدكم بالذات يسيطر عليه الجيش البريطاني الذي تخلصنا منه قبل فترة وجيزة. ألا تعتقد انكم وقعتم في مكيدة استعمارية اجنبية يدعمها حلفاء مصر؟»

الكولونيل طه بانفعال خارق: «لقد فعلتم أمرا مدهشا بطردكم البريطانيين. عما قريب سنخرجهم من مصر ايضا».

«لكن كيف تطردونهم؟» ـ سأل اللواء آلون ـ «اذا كان كل جيشكم عالقا هنا، بعد هزيمة كبيرة وعشية هزيمة نهائية. ألا تعتقد ان من الافضل لكم ان تعودوا الى مصر وتهتموا بشؤونكم بدلا من ان تتورطوا في مغامرات في ارض ليست لكم؟».

وبدت على محيا جمال [عبد الناصر]، الذي كان يتابع الحوار طوال الوقت باهتمام خاص، ردة فعل يقظة.

وبدا الكولونيل طه، الذي حُشر في الزاوية، كما لو انه يزن في ذهنه كيف يمكن ان يتخلص من الورطة، ولم يجد طريقا آخر سوى الجواب الروتيني: «ما دامت حكومتي تأمرني بالقتال هنا فسأقاتل. وعندما تأمرني بعقد سلام اعقده. واذا امرتني بالعودة الى مصر ومحاربة البريطانيين، فسأفعل ذلك بكل سرور وكما ينبغي».

وقال له اللواء آلون: «انا اقدر جدا امتثالك للأوامر، كولونيل. هذا هو طريق الجندي. وأنا ايضا اخضع لأوامر حكومتي من دون تردد. لكن على الرغم من ذلك يبدو لي ان من واجبك ان تطلع قائدك او تبرهن له ان حربك لا امل فيها. انني لست معتادا على اخفاء افكاري وبواعث قلقي او استعدادي للقتال امام حكومتي. ان هذا لا يتعارض مع الانضباط، وبتعاون كهذا فقط تنشأ وحدة صحيحة بين السياسة والاستراتيجية العسكرية».

«بلا شك» ـ اجاب طه ـ «الوضع على الجبهة وفي مصر واضح تماما لحكومتي، وأنا واثق من انها ستفعل كل ما يلزم».

اللواء آلون: «لقد كان هذا هو اعتقادك بالتأكيد عندما غزوتم ارض ــ اسرائيل، وانظر كم كان زعماؤك مخطئين. لولا تدخل الامم المتحدة لكان قضي على الجيش المصري بكامله، بما في ذلك وحدتك الشجاعة الجديرة بالثناء. يجب ان تدرك، كولونيل، ان الوضع على الجبهة قد حسم. ان وحدتك محاصرة بصورة محكمة ولا فرصة امامها للنجاة. ومن واجبي ان استغل اية فرصة للقضاء على وحدتك. ما الفائدة، اذن، من صمودك اليائس؟ ان مصير النصف الثاني من «الجيب» سيكون كمصير النصف الذي سقط بيدنا اول امس».

وصمت طه لحظات قبل ان يجيب: «نعم، سيدي، لكن ما دام عندي جنود وذخيرة فليس هناك سبب لان اكف عن القتال».

وشعر اللواء آلون بأن أمامه محاربا عنيدا. وعلى الرغم من ذلك فقد جرب مرة اخرى قدرته الدبلوماسية، وقال: «انا احترم شجاعتك جدا، ايها الكولونيل، لكن ألا تعتقد ان حياة الرجال غالية، وانه من غير المنطقي ان تضحي برجالك في حرب مع شعب لا يرى نفسه عمليا عدوا لكم ونواياه طيبة تجاهكم؟ انني لا اعرض عليكم استسلاما مذلا بل اعرض استسلاما بشرف، من خلال الشرف العسكري والتقدير الكامل، مع امكان العودة الفورية الى الوطن. فكر في الموضوع. دعنا نصون دم جنودنا ونوقف الاقتتال. انني لا استطيع الكف عن القتال ما دام على ارضنا جيش اجنبي. لكنك لا تقاتل على ارضك، وسترى بالتالي انني على حق».

وساد صمت ثقيل، وبدا المصري غارقا في افكاره. لقد قدر بالتأكيد ان الامل معدوم بالنسبة الى وضعه. وبدا كما لو انه في سره يتفق في الرأي مع اللواء آلون. وحدقنا جميعا فيه، وخصوصا زملاءه المصريين. من يعرف ماذا كان يدور في خلد هؤلاء.

ورفع طه وجهه، وحدق في اللواء آلون وقال بصوت منفعل: «سيدي، لا شك في ان وضعك افضل من وضعي. ان التخطيط للعملية وشجاعة جنودكم مدهشان حقا. لقد اخترتم اقوى خطوطنا، وأحاق العار بالجيش المصري الذي لم يهزم. انني لا اخادع نفسي بأنني استطيع بصمودي ان اغير ميزان القوى وأنقذ الوضع على جبهتنا، لكن في استطاعتي ان انقذ شيئا واحدا وهو شرف الجيش المصري. ولذا سأحارب هنا حتى الرصاصة الاخيرة والرجل الاخير، إلا اذا تلقيت أمرا مغايرا من حكومتي».

اللواء آلون: «اني كجندي افهمك جيدا. لكن عليك ان تدرك انه في ظروف استثنائية ينبغي للقائد في الموقع ان يأخذ على عاتقه المسؤولية بالنسبة الى القرارات مثلما فعل فون باولوس مثلا. صدقني، كولونيل، ان حكومتك ليست جديرة بأن توجه ضابطا شجاعا مثلك. فكر في مصلحة جنودك ومصر ودع السلاح جانبا».

وسارع المصري هذه المرة الى الاجابة: «كلا، سيدي، ليس امامي سوى طريق الحرب. وبالتأكيد انت تدرك انني بذلك انقذ شرف الجيش المصري».

وأجاب اللواء آلون مبتسما: «هل تسمح لي بأن اطلب منك ان تنقل الى حكومتك او الى القائد صورة حقيقية للوضع، وتطلب موافقته على الاستسلام».

طه: «سأرسل تقريرا عن محادثتنا».

وخف التوتر. وتحدث يغآل باللغة العربية الى الضيوف ودعاهم الى جولة اخرى من الضيافة».

ومما لا شك فيه ان عناد الجيش المصري كان راجعا الى حقيقة اننا على الرغم من محاولاتنا فرض حصار محكم تماما على «الجيب»، فان قوات [مصرية] نجحت من حين الى آخر في التسلل الى داخله او الى خارجه، واستعان المصريون ايضا بالوسيلة نفسها التي استفادت منها مستعمراتنا المعزولة منذ بداية الحرب حتى عملية «يوآف» ــ القاء المؤونة من الجو. وفي مفكرة قائد «الجيب» ليوم ١٠/٣٠ هناك رنة مألوفة لدينا، مشابهة لصيغة مفكرة 334 احد المستوطنين العبريين المعزولين في بداية الحرب: «في الساعة ١٠,٠٠ صباحا ظهرت الطائرات المصرية الست التي ألقت الرزم وسط هتاف السكان والجنود. لقد كانت زيارة الطائرات هي التي قوّت معنوياتنا. وكانت مفاجأة لليهود. . . واشتملت الرزم على مواد طبية مختلفة، بالاضافة الى ذخيرة وسجائر. واهتم الجنود بالسجائر اكثر مما اهتموا بحالة الذخيرة».

استمرار الحصار

في ١٠/٣١، وصلت الى «الجيب» قافلة قوامها عشر سيارات. نقلت جنودا كانوا في اجازة وأعيدوا الى الفالوجة من غزة. وقد مرت على طريق العوجا ــ بير عسلوج، والتفت على ما يبدو حول بئر السبع، ووصلت بعد ذلك الى عراق المنشية عبر الظاهرية وإدنا. ومنذ ذلك التاريخ لم تعد تصل اية قوافل سيارات، انما كان يصل الى «الجيب» من حين الى آخر متسللون سيرا على الاقدام من غزة، وقوافل جمال كانت تقودها قوات من المتطوعين المعسكرين في جبل الخليل. وروي في ١١/٢١ عن ثلاثة من البدو وصلوا حاملين سجائر وكميات من الفجل.

وفي ١٠/٢٤ ورد في المفكرة: «اليوم وصلت قافلة من بيت لحم تحمل ذخيرة ومواد طبية، وأيضا كمية من المعلبات. وقد وصلت القافلة البالغ عدد جمالها ٤٥ جملا الى الفالوجة رغم انف اليهود وغيظهم. . . وسرنا هذا الحدث جدا وخفف من ضائقتنا قليلا».

وقد مكّنت الامدادات التي وصلت الى «الجيب» المحاصرين من الصمود، لكن بصعوبة. وكان واضحا للمصريين انه لا يمكن الاستمرار على هذا النحو مدة طويلة. ودرست القيادة المصرية امكانات عديدة لحل المشكلة. وكان من بين الحلول التي اقترحت خطة دعيت وقتئذ باسم عملية «دمشق»، تقوم بموجبها قوات اردنية وعراقية بهجوم تضليلي على بيت جبرين، وفي اثناء ذلك يشق اللواء المحاصر في «الجيب» طريقه نحو جبل الخليل، بعد اتلاف العتاد الثقيل. لكن هذه الخطة لم تنفذ بسبب نزاعات بين الاردن ومصر وصلت

الى حد تبادل رسائل حادة. وظلت القوات المصرية مطوقة في «الجيب»، وانتشرت الوحدات الاسرائيلية حولها في مواقع كثيفة. وتم اسر عدد من الجنود المصريين الذين حاولوا التسلل الى خارجه.

عملية «حيسول» [التصفية]

وهكذا استمر جيب الفالوجة في الصمود، واشتد حصار الجيش الاسرائيلي المضروب حوله. وحتى منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، كان لواء «غفعاتي» هو المكلف بالحصار، ومن ثم حل محله لواء «ألكسندروني». وكان هذا الاخير معسكرا قبل ذلك في منطقة الشارون ويتمتع بحالة من الهدوء النسبي بعد معارك «الايام العشرة». وفي مقابل ذلك، واجه «غفعاتي» صراعا صعبا خلال عملية «يوآف»، ولذا تقرر استبداله فأرسل «ألكسندروني» لمحاصرة «الجيب» وانتقل «غفعاتي» الى الشارون لاعادة تنظيم صفوفه وأخذ قسط من الراحة.

وعلى الرغم من الامطار والوحول التي اعاقت الحركة في مناطق معينة، وعلى الرغم من فقدان عدد لا بأس فيه من الآليات ذات الاندفاع الامامي، فان اللواء فرض على «الجيب» حصارا فعالا جدا عن طريق تمسكه بمواقع وتسيير دوريات فيما بينها. وتم اسر عدد من القوافل المصرية التي حاولت شق طريقها الى «الجيب».

335

وقد استمر هذا الحصار حتى عملية «حوريف»، التي جرت فيها محاولة لتصفية «الجيب». ومع ان وصف عملية «حوريف» بأكملها سيتم في حينه، فاننا سنصف محاولة تصفية «الجيب» هنا، من اجل استكمال الصورة، وقد جرت المحاولة في ١٩٤٨/١٢/٢٨.

في سياق عملية «حوريف» كُلِّف لواء «ألكسندروني» القضاء على العدو المحاصر في اطار عملية «حيسول» (كجزء من عملية «حوريف»). وكان الاسلوب: التمهيد بقصف عنيف بالمدفعية ومدافع الهاون ومن ثم هجوم بالمشاة.

واختيرت عراق المنشية الهدف الاول لعملية «حيسول» هذه. وتقرر مهاجمتها هذه المرة من الناحية الجنوبية الغربية، عبر واد يمكن الوصول منه خفية الى حدود القرية ذاتها. وكلفت الكتيبة ٣ التابعة للواء «ألكسندروني» الهجوم في هذا المحور. وكلفت سرية من الكتيبة ٥ التابعة للواء القيام بعمليات ازعاج وتضليل من الشرق، وسرية ثانية من الكتيبة ٣ قطع الطريق باحتلال «موقع الجسر» الكائن على الطريق من الفالوجة الى عراق المنشية. وتحدد ليل ٢٧ ــ ١٢/٢٨ موعدا لشن الهجوم.

وفشلت سرية قطع الطريق في مهمتها، ولم تنجح في احتلال الموقع المحدد لها فانسحبت بعد معركة من دون نظام. وعلى الرغم من هذا الفشل قررت قيادة اللواء الاستمرار في العملية.

وفتحت سرية التضليل النيران من الشرق واقتحمت السرايا الثلاث التابعة لكتيبة الاقتحام القرية. وقاتلت اثنتان منها في داخلها، وانتظرت الثالثة طلوع الفجر للقيام بهجوم على التل المجاور لها.

ونظم طابور مدرع مصري مع قوة مشاة صفوفه في الفالوجة لنجدة القرية. ولما فشل قطع الطريق، ولم تنجح الاسْلحة المساندة التي نصبت بدلا منه هي الاخرى في قطع الطريق وايقاف تقدم الطابور، شق الطابور طريقه الى خلف القوات التي كانت تقاتل في عراق المنشية. وللأسف الشديد اعتقدت وحدات «ألكسندروني» في البداية ان هذه القوة المدرعة هي تعزيزات تابعة للجيش الاسرائيلي فتركتها تتقدم نحوها. حتى ان طائرة تابعة لسلاح الطيران كانت تحلق في الجو اعتقدت هي ايضا ان الطابور المتقدم صوب عراق المنشية هو طابور عبري. واندفعت المدرعات الى الشارع الرئيسي للقرية، واتحدت مع فلول القوات المصرية في القرية وعزلت وحداتنا التي كانت في داخلها. واسترد العدو انفاسه وبدأ بصورة منهجية ابادة قوات «ألكسندروني» المشتتة في الساحات المختلفة، من دون قيادة موحدة ومن دون مساندة ومن دون اتصال.

وفي الساعة ٠٩,٣٠، عندما اتضح لقائد الكتيبة الوضع الذي اصبحت فيه قواته، اصدر الامر الى سراياه الثلاث بالانسحاب. ونجح معظم أفراد السرية أ و ب وفصيلة واحدة من السرية ج في الانسحاب على الرغم من كل شيء، من الثغرة نفسها التي دخلوا منها. لكن أحدا لم يعد من باقي أفراد السرية ج الذين ظلوا مطوقين في الساحة التي استعدوا للصعود منها الى التل.

وفي الساعة ١٠,٣٠، توقف اطلاق النار، ووصل أواخر المنسحبين الى الموقع.

خــلاصــة

في اثر ذلك مباشرة بدأت تصل الى قائد اللواء في الفالوجة برقيات التهنئة. لقد وقع هجومنا على عراق المنشية غداة سقوط العوجا وفي اعقاب انتصارات الجيش الاسرائيلي الكبيرة في الجنوب والنقب. وكان في صد هجومنا على عراق المنشية بعض العزاء للقيادة المصرية. وبعد عملية «حوريف» لم تدر معارك ضد المصريين، ولم يهاجم «جيب» الفالوجة مرة اخرى. اذ ادت الانتصارات الكبيرة في الجنوب الى توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر وحلت مسألة «الجيب». فتم اخلاؤه وعادت قواته الى مصر. والى حين توقيع الاتفاقية، استمرت قواتنا في تضييق حلقة الحصار، بالتمركز في المواقع وتسيير الدوريات فيما بينها.

336

٣ ــ عملية «لوط»

كانت لعملية «يوآف» نتائج ايضا في طرف آخر من الجبهة: تجديد الاتصال البري بسدوم. فبعد احتلال بئر السبع شرع في التخطيط لتحقيق اتصال [بري] بسدوم من خلال عملية دعيت باسم «لوط».

لقد كانت مشكلة العملية في اساسها مشكلة ادارة وحركة. كانت هناك ضرورة لشق طريق امام الآليات من بئر السبع الى كرنب (ممشيت). ومن هناك، عبر معاليه هعكرفيم وعين حصب (حتسفاه) الى سدوم*.

وفي ٢٣/١١/١٩٤٨، انطلقت دوريات من لواء «النقب» واحتلت مخفر شرطة كرنب من دون معركة. وفي اليوم التالي، وصلت قافلة تابعة للكتيبة ووزعت قواتها على المرتفعات المحيطة به. وفي ٢٥/١١، وصلت قافلة ثانية اجتازت كرنب وهبطت مرورا بمعاليه هعكرفيم الى وادي عربة (هعرفاه). واحتل مخفر شرطة عين حصب من دون قتال. وعندما وصل رجالنا الى مشارف سدوم كان في انتظارهم عشرات من السكان المحليين الذين استقبلوهم بسرور، بعد ستة اشهر من الانقطاع والعزلة التامين.

337

٤ ــ عملية «اساف»

التهديد المصري

بعد عملية «يوآف» بدأت قيادة الجيش المصري تفكر في استعادة بعض المواقع. وكان معظم الجيش المصري محتشدا في ذلك الوقت في قطاع غزة. وبدأت محاولة لتوسيع القطاع بالتدريج، كان الهدف منها ايضا العودة لاحتلال بئر السبع وعزل النقب الغربي على طول خط خان يونس ــ بئر السبع. واحتل الجيش المصري عددا من التلال ودق شبه وتد بين قواتنا الموجودة في بئيري شمالي القطاع، وبين تلك الموجودة في نيريم جنوبيه. واتخذت [قواتنا] قرارا بقلع هذا الوتد، وتثبيت الخط، وازالة التهديد المتمثل في احتمال تحرك مصري نحو بئر السبع.

التخطيـط

كُلف اللواء المدرع قيادة العملية، ووضعت في تصرفه كتيبة مشاة من لواء «غولاني» نقلت من الشمال الى النقب.

---

* حتى الحرب لم يكن هناك اتصال بري بالجنوب، فالطريق بين عين حصب وسدوم لم تكن مستخدمة.

كان الاتجاه العام للهجوم من الشمال الى الجنوب. وكانت الخطة تقضي بالاستيلاء على الامكنة التالية: شيخ نوران وخربة ماعين وتل فارة وتل جامة وكل المنطقة الواقعة جنوبي وادي الشلالة. وكلفت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع القيام بالاحتلال وعملية الالهاء. وكلفت كتيبة المشاة التمركز في المواقع، بعد احتلالها، وصد الهجمات المضادة.

التنفيـذ

في عملية مسبقة بتاريخ ١٩٤٨/١٢/٥ طـهّرت الكتيبة ٢/اللواء المدرع، قريـة شوعوط. ومن هناك تحركت القوات في اتجاه شيخ نوران وهاجمت المجنزرات الموقع وفوجىء المصريون ولاذوا بالفرار. وتمركزت قوات مشاتنا التي اتت في اعقاب المجنزرات في المكان، وواصلت سرية المجنزرات تقدمها نحو خربة ماعين فوجدتها خالية. ووجد رجال الاستطلاع الذين وصلوا الى تل فارة التل خاليا ايضا. وفي اليوم التالي صعدت قوات من الكتيبة ٩/اللواء المدرع الى تل جامة وأغارت على عبسان. وقد اربكت هذه الغارة استعدادات العدو للقيام بهجوم مضاد. وقد احتُل تل جامة من دون قتال، لكن وحدة المشاة التي كان من المفروض ان تأتي الى المكان وتتمركز فيه لم تصل، لانها بقيت في شيخ نوران بعد ان اتضح ان المصريين يعدون لهجوم مضاد كبير على هذا الموقع.

وفي الساعة ١١,١٥، بدأ قصف مصري على خربة ماعين وشيخ نوران. وبعد فترة وجيزة من ذلك ظهرت قوات مشاة ومدرعات في قطاع الموقعين. وتحركت دبابات من طراز «لوكوست» جنوبا في اتجاه شيخ نوران.

وقد وُجه الجهد الرئيسي في هجوم العدو، بقوة قوامها كتيبة مشاة وبمساندة ١٥ ــ ١٨ دبابة من طراز «لوكوست» وبطارية مدافع من عيار ٢٥ رطلا، نحو شيخ نوران، بينما كانت مهمة القوة التي قوامها ١ ــ ٢ سرية من سلاح المشاة بمساندة ٤ ــ ٦ دبابات، والتي كانت تعمل في قطاع خربة ماعين، تغطية الهجوم على شيخ نوران وتحييد خربة ماعين في اثناء الهجوم.

338

وقد تعرضت شيخ نوران لهجومين مضادين: الاول في الساعـة ١٢,٠٠، شنته ٢ ــ ٣ سرايا من قوات المشاة تقدمت نحو الموقع من ناحية الجنوب الغربـي مستغلة مزارع اللوز وسياجات الصبّار التي كانت تصل الى سفوح الموقع تقريبا. ووصلت قوات المشاة الى مسافة ١٠٠ ــ ٢٠٠ متر تقريبا وأوقفت بفعل نيران المدافعين. وجرى هذا الهجوم بمساندة ١٢ ــ ١٥ دبابة كانت تظهر من حين الى آخر في طرفي الموقع.

وفي هجوم مضاد قامت به حاملة مدفع من عيار ٦ ارطال وفصيلة جيبات، كانت تشكل فصيلة استطلاع تابعة للكتيبة ٣/غولاني، دمرت ٤ دبابات مصرية. وتم صد هجوم العدو.

وبعد توقف دام ساعة ونصف الساعة، ظهرت قوات المشاة [المصرية] مرة اخرى امام الموقع. وأعادت الدبابات المصرية تنظيم صفوفها وقامت بتحركات حول الموقع، لمنع وصول نجدات اليه على ما يبدو. وفي الساعة ١٦,٠٠، تجدد الهجوم المصري. وانصبت نيران مدفعية قوية على الموقع، وفي الوقت ذاته تقدمت قوة مشاة مصرية الى مسافة ١٠٠ متر من السياج وتوقفت.

وانتظمت الدبابات في رتلين، قوام كل واحد منهما ٦ ــ ٨ دبابات. وتقدم رتل دبابات واحد نحو سياج الموقع، فاخترقته احدى الدبابات وحاولت الوصول الى داخل شيخ نوران، لكن قذيفة بيات دمرتها. واستدارت الدبابة وهي مشتعلة بالنيران عائدة الى السياج، حيث انقذتها دبابة ثانية بينما غطت ثالثة انسحابها. وصد الهجوم الثاني. وعندما خيم الظلام انسحب العدو، وفي الوقت نفسه عنف قصفه المدفعي على خربة ماعين وشيخ نوران.

وكانت خسائر العدو فادحة: فقد ٥ دبابات من اصل ١٢ دبابة.

واستعدادا للهجوم الاول على شيخ نوران، تحركت الدبابات المصرية ملتفة حول خربة ماعين. وفتحت المدافع المضادة للدبابات التابعة لنا في خربة ماعين النار لمنع تقدم الدبابات في اتجاه الجنوب، لكن مدى النيران كان اطول من اللازم فانكشفت [مصادرها] بسرعة للدبابات المصرية. ووجهت نيران الدبابات الى المدافع فأعطبتها. وواصلت الدبابات نفسها التقدم نحو الجنوب، في اتجاه شيخ نوران.

ويصف قائد طاقم المدافع المضادة للدبابات هجوم الدبابات: «... الساعة ١١,٣٠، انذار: دبابات للعدو تشاهد في الافق. منذ الصباح نسمع دوي المدافع من ناحية شيخ نوران. يبدو ان الوضع بالنسبة الى السرية الثانية ساخن قليلا. سريتي تتخذ مواقعها الى جانب المدافع وتنتظر الاوامر. يتضح ان الدبابات تريد ان تلعب معنا لعبة «القط والفأر» او تريد ان ترينا انها تعرف ما هو تكتيك المدرعات. دبابتان انفصلتا عن المجموعة بحثا عن مكان تختبئان فيه فوجدتاه على بعد كيلومتر وربع الكيلومتر منا. وتبدأ الدبابات الباقية، ثلاث دبابات وآلية استطلاع «دينغو»، القيام بمناورات في المنطقة: تتقدم مرة وتبتعد مرة اخرى. ومن حين الى آخر تطلق علينا قذيفة تخرش الاذن من عيار رطلين تقريبا. ومن الواضح لنا انها تستدرجنا لكشف مواقع أسلحتنا المضادة للدبابات. فقررتُ التريث حتى تقترب اكثر كي افتح النار عليها. ويغض النظر عن كل الاعتبارات التكتية، فان الدافع الى اتخاذ هذا القرار هو النقص في القذائف. وفي اثناء ذلك اصبح رنين الهاتف في موقعي اكثر تكرارا وأكثر اثارة للاعصاب. مرة بعد اخرى يطلب قائد السرية ان نفتح النار، لأن هذه هي اول مرة يشاهد فيها رجاله دبابات، ويرتعبون. ويصدر ايضا من الخنادق المجاورة نغم واحد من حناجر الجميع: المدافع المضادة للدبابات. اين انتم؟ ما العمل، في هذه اللحظة يحتمل ان تنهار المعنويات. وأصدر الى المدفع من عيار ٢٠ ملم الامر باطلاق النار: المسافة ٩٠٠، هناك الى اليسار دبابة، نار. وتكشط ثلاث رشقات ملونة الدهان من على احدى

339

الدبابات في مجموعة الدبابات الثلاث. وغيرت الدبابات اتجاهها وتحركت بسرعة نحو جناحنا الايمن. وانسحبت الـ «دينغو» مسافة ٢ كلم وخرج رجالنا لمشاهدة «السينما». وهنا اصبح من الضروري استخدام المدفع من عيار ٦ ارطال. أطلقنا قذيفتين خارقتين للدروع اخترقتا عجلات الدبابة الاولى من اليمين من دون ان تعطلها. وانسحبت المجموعة كلها الى بعد كيلومتر منا، وهنا بدأ الجحيم الحقيقي. الدبابتان اللتان انفصلتا عن المجموعة واختبأتا، بدأتا بقصفنا بدقة. وبعد عدة دقائق تقريبا كان المدفع من عيار ٦ ارطال قد دمر. قذيفة خارقة للدروع من عيار رطليـن تصيبه وتنفجر. وبعد ذلك اعطب ايضا المدفع الثاني المضاد للدبابات في خربة ماعين، وبقيت السرية في المكان مع مدفعين «عليلين» من اجل الحفاظ على معنويات قوات المشاة».

كانت خسائر وحدات الجيش الاسرائيلي في شيخ نوران، ٢٥ جريحا و٣ قتلى، وفي خربة ماعين قتيلين وجريحين.

وفي الليل اخلي الجرحى، وجرت اعمال تمركز وتحصن بصورة حثيثة. وفي صباح يوم ١٢/٧، بدأ تبادل القصف المدفعي. شوهدت تحركات للعدو في المنطقة واتضح ان المصريين يستعدون لهجوم قد يكون هدفه مرة اخرى خربة ماعين. واحتشدت القوة المصرية في بستان الى الغرب من خربة ماعين، وقوامها كتيبة مشاة وكتيبة مدرعات. واستعدت قوة اخرى قبالة شيخ نوران.

340 وفي اثناء ذلك استعدت كتيبة الكوماندو ٩/اللواء المدرع خلال الليل، للقيام بهجوم مضاد استباقي. وكان قوام الكتيبة آنذاك: ١١ آلية «نصف مجنزرة» مسلحة بمدافع رشاشة ثقيلة، وعدد منها كان مسلحا ايضا بمدافع رشاشة متوسطة من طراز «بازيه» وببنادق مضادة للدروع؛ سريتي جيبات قوام كل واحدة منهما ١٠ جيبات، وكل جيب مسلح بمدفعين رشاشين متوسطين من طراز «بازيه»، ولدى كل سرية ثلاث قطع سلاح مضادة للدرع؛ سرية مصفحة قوامها مصفحتان مسلحتان بمدافع رشاشة من طراز «براوننغ»؛ مدرعة واحدة مجهزة بمدفع من عيار ٣٧ ملم، ومدرعة واحدة مجهزة بمدفع من عيار ٦ ارطال؛ آليتين «نصف مجنزرة» مسلحتين بمدفعين خفيفين مضادين للدبابات.

وهاجمت هذه الكتيبة تجمعات العدو الذي استعد للهجوم المضاد. وسُمِّرت القوة المصرية الموجودة قبالة شيخ نوران في مكانها. وبحماية الساتر الترابي لسكة الحديد التركية اقتربت الكتيبة من تجمعات العدو الموجودة قبالة خربة ماعين. وانتشرت قوتنا واندفعت مقتحمة مواقع العدو من الجانبين. وداست المجنزرات العدو، قتلته وبعثرته في مهب الريح. وصدمت ايضا عددا من حاملات الـ «برن» التابعة للعدو فأعطبتها. وخلف العدو في ساحة المعركة اسلحة وذخيرة وآليات ونحو ١٠٠ قتيل.

وبعد ذلك تحركت وحدات كتيبة الكوماندو لمهاجمة تجمعات العدو الاخرى الموجودة قبالة شيخ نوران، لكن هذه القوة كانت قد انسحبت. وطاردت الوحدات العدو المتمعن في

الفرار حتى أبواب عبسان. وهناك توقفت عندما جوبهت بنظام مدافع مضادة للدبابات وبألغام على جانبي الطريق.

وكان الانتصار كاملا. وكانت خسائر كتيبة الكوماندو ٩/اللواء المدرع جريحين.

«تقبل تهنئتي» ــ ورد في برقية ارسلها رئيس شعبة العمليات لقائد اللواء المدرع ــ «على عملية كتيبة الكوماندو الجسورة والتنفيذ الفعال ضد المصريين، في يوم ١٩٤٨/١٢/٧».

وهكذا انتهت عملية «اساف»، التي امنت للجيش الاسرائيلي السيطرة على المواقع الاستراتيجية المهمة الواقعة غربي قطاع غزة، وأزالت التهديد المصري بالتقدم نحو بئر السبع، وكانت بمثابة مرحلة تحضيرية للعملية الكبيرة التالية التي كان يزمع القيام بها في جبهة الجنوب، في ذلك الشهر نفسه، وهي عملية «حوريف».

وفي ١٩٤٨/١٢/١٥، اخرج اللواء المدرع من المنطقة، وأصبحت قيادة قطاع تل جامة ــ نيريم بيد لواء «غولاني». وكان ذلك جزءا من إعداد الجبهة الجنوبية للعملية الكبيرة: عملية «حوريف».

٥ ــ تطورات تنظيمية وسياسية بين عملية «يوآف» وعملية «حوريف»

شراء السلاح

بدأ فتور ما في نشاطات شراء السلاح في الاشهر الاخيرة لسنة ١٩٤٨. فقد ازدادت ديون الدولة المالية باطراد وأصبحت الخزينة خاوية. ومع ذلك تمت، حتى في هذه الفترة، مشتريات عدة مهمة.

اشتريت قطع بحرية وقطع غيار في عدد من الدول لصالح سلاح البحرية. وقد قطرت السفينة الاولى الى البلد بسفينة صيد تابعة لأحد الكيبوتسات.

وبالنسبة الى شراء اسلحة للقوات البرية، لم توقع عقود اخرى في هذه الفترة. وخفت بالتدريج الشحنات المرسلة بموجب عقود وقعت سابقا.

التطورات السياسية

341

ادى قرار مجلس الامن بتاريخ ١٠/١٩ الى ايقاف المعارك في النقب. لكن خرق «الهدنة» المتكرر اظهر انها قد لا تستمر طويلا. وبالاضافة الى ذلك، فان ابقاء قوات عسكرية كبيرة في ساحة المعركة، لفترة غير محدودة، كان صعبا على الطرفين.

وحاول القائم بأعمال الوسيط، الدكتور بانش، اقناع الطرفين بالتفاوض للتوصل الى سلام او هدنة، لكن جهوده كلها لم تثمر. فعلى الرغم من امر مجلس الامن وعلى الرغم من الاخفاقات العسكرية التي منيت بها الدول العربية، فقد رفضت هذه اجراء مفاوضات

للتوصل الى هدنة. واعترفت الدول الكبرى بحقيقة قيام دولة اسرائيل، لكن لا بحدودها. وكان الخطر الرئيسي من تقليص الحدود يهدد النقب. وألزمنا هذا الوضع بالقيام بعملية عسكرية اخرى في النقب، من اجل تحقيق هدفين سياسيين: أ) ازالة التهديد بفصل النقب عن دولة اسرائيل عن طريق تسوية سياسية؛ ب) ارغام مصر على البدء فورا بمحادثات في شأن اتفاقية هدنـة معنا، مفتـرضين انـه في اعقاب مصر ـ وهي اكبر الـدول العربيـة وأغناها ـ ستسير أخواتها الاخريات.

وفي ضوء هذين الهدفين جرى التخطيط لعملية «حوريف». وكان الهدف العسكري للعملية: طرد العدو المصري الى خارج حدود البلد، وخلال ذلك القضاء على اكبر عدد ممكن من قواته.

الحَسَــــمُ 343

(ج)

أ- عَمليَّة "حُوريف" أوعَمليَّة "عايـن" *

بدأت عملية «حوريف» في ١٩٤٨/١٢/٢٢، وسبقها اعلان ان اسرائيل تعتبر نفسها حرة في العمل ضد المصريين بسبب رفضهم البدء بمحادثات تتعلق بعقد هدنة.

هدف العملية: طرد العدو المصري نهائيا من أراضي اسرائيل وابادته.

وكان نظام انتشار قوات الجيش المصري بعد عمليتي «يوآف» و«اساف» مرتكزا على قطاعات في الطريقين الرئيسيين: في النقب، في الطريق الساحلي وفي قسم من قطاع غزة؛ وفي الطريق الصحراوي، في قطاعات العوجا (نيتسانا) ـ عسلوج (مشأفي ـ ساديه).

وكان هذان الطريقان متصلا بعضهما ببعض بواسطة طريق في منطقة سيناء، هو طريق العوجا ـ رفح. وكان المصريون يحتفظون بقوات اخرى جنوبي هذا الطريق: في قطاع الطريق الصحراوي: العريش ـ ابو عجيلة ـ العوجا، وعلى طول طريق العريش ـ رفح الذي هو امتداد للطريق الساحلي.

والتقدير السائد اليوم هو ان المصريين حشدوا على طول الطريق الصحراوي لواءين تقريبا، وعلى طول الطريق الساحلي لواءين**. وكان اللواء الخامس التابع لهم مطوقا في «جيب» الفالوجة.

وكان قوام قوات الجيش الاسرائيلي التي حشدت في الجنوب للقيام بعملية «حوريف»: ١) لواء «غولاني» الذي كان متمركزا في الجزء الغربي من القطاع؛ ٢) لواء «النقب»؛ ٣) اللواء المدرع؛ ٤) لواء «هارئيل»، ولواء «ألكسندروني» الذي حل محل لواء «غفعاتي» واتخذ مواقع له حول «جيب» الفالوجة.

---

* الاسم «عاين» التصق بالعملية لأن اسماء معظم أهدافها المهمة ـ الـ (عوجا)، عسلوج، الـ (عريش)، ابو (عجيلة) ـ كانت تبدأ بحرف «عاين» [ع].

** في قطاع عملية «حوريف» كان للمصريين نحو ١٦ كتيبة من قوات المشاة، وكتيبتا مدرعات، و١٠ بطاريات مدافع ميدان.

١ ــ خطة العملية

كان الهدف في المرحلة الاولى لعملية «حوريف» تقويض نظام انتشار المواقع المصرية في القطاع الشرقي، مع القيام بعمليات تثبيت وإلهاء في القطاع الغربي. وكان القطاع الشرقي مزروعا بمجموعات من المواقع المصرية المرتفعة، من معسكر الشرف شمالي عسلوج حتى عوجا الحفير. ومن اجل التمكن من القضاء على العدو بأقصر وقت ممكن، بحث مخططو العملية عن وسيلة يمكن بواسطتها مهاجمة كل مواقع العدو في آن واحد. وكانت المشكلة الرئيسية: كيف يمكن الوصول الى العوجا (قاعدة القوة الموجودة في عمق منطقة العدو) بغتة وقبل ان تبدأ عمليات اخرى في القطاع. وكان من المعروف انه يوجد هناك الطريق الروماني القديم الممتد من حلوتساه وروحيفا بخط مستقيم الى العوجا، عبر الرمال، لكن ثار شك فيما اذا كان هذا الطريق صالحا لمرور الآليات. ونفذت رحلات استطلاعية كثيرة، وأبلغ ضابط عمليات الجبهة الذي قام بجولة استطلاعية فيها ان المرور على هذا الطريق صعب جدا، لكنه ممكن. وبالتالي تقرر احتلال العوجا عن طريق تطويقها عبر وادي الابيض، باستخدام الطريق الروماني القديم.

346

وأنجز وضع الخطة بصورة نهائية: في المرحلة الاولى يتقدم اللواء المدرع بالاشتراك مع كتيبة مشاة من «هارئيل»، ويهاجم العوجا عبر وادي الابيض، ويقيم حواجز على الطرق المتجهة نحو رفح وأبو عجيلة. وفي الوقت نفسه يهاجم لواء «النقب» مواقع الثميلة، الواقعة جنوبي عسلوج، فيحتلها ويهاجم عسلوج من الجنوب. وتصعد سيارات جيب من كتيبة الكوماندو التابعة [للواء] «النقب» من الشرق، في طريق غير ممهد الى «المشرفة» ــ موقع مرتفع يسيطر على الطريق الواقعة بين مواقع الثميلة والعوجا. وبعد ذلك يواصل اللواء المدرع تقدمه في اتجاه سيناء، ويهاجم ابو عجيلة ويغير على العريش.

وكان القصد من الخطة ضرب القوة الشرقية، في عدة اماكن في آن واحد، من اجل انهيارها بأكملها.

وبهدف التضليل يهاجم لواء «غولاني»، في تاريخ ابكر، قطاع غزة لجذب انتباه العدو الى الغرب، وبذلك تتمكن قواتنا في الشرق من تنظيم صفوفها سرا، ومن إعداد الطريق الروماني، والاحتفاظ بعامل المفاجأة.

وفي المرحلة الثانية للعملية كان على القوات التي عملت في المحور الشرقي، بالاشتراك مع قوات اخرى من «غولاني» و«هارئيل»، ان تعمل ضد القوات المصرية في الشريط الساحلي.

وفي ٢٢ كانون الاول/ديسمبر، انتهى الاعداد للعملية. وأصدر قائد الجبهة أمرا يوميا، ذكر فيه:

«ان الغزاة محشورون في خطي دفاع ضيقين: الاول على طول الساحل بين غزة ورفح؛

والثاني في الجنوب الشرقي بين بير عسلوج وصحراء سيناء. ان قواتهم بعيدة عن مراكز المؤخرة والتعزيزات. وقد استبد الخوف بجنود العدو من جيشنا المظفر.

«لكن العمل لم ينته بعد. لقد خففت الهدنة التي فرضتها علينا الجمعية العامة التابعة للامم [المتحدة] من سرعة الحرب، وكبحت جماح تفتت العدو. ولن نلخص المعركة ونتائجها الكبيرة، لأنها لم تنته بعد.

«ان العدو يستجمع قواه، وهو ينوي انزال ضربة بنا لانقاذ شرفه المهان. سنحبط اذن مكيدته بضربة موجهة وساحقة. سنطرد جيوشه الى ما وراء حدود دولة اسرائيل، ونحرر باقي مناطق النقب التي لا تزال واقعة بين براثنه.

347 «ان هذه العملية ينبغي ان تنهي ما بدىء به في العمليات السابقة. ومثلما تغلبنا على العدو ــ بفضل قوة وروحية جنودنا من سلاح المشاة وباقي الاسلحة والخدمات، التي اتحدت جميعا في جيش متكامل يعمل وفقا لأمر واحد ــ سنتغلب عليه حتما الآن ايضا.

«ايها الرفاق المقاتلون، ان شعب اسرائيل في البلد والشتات يثق بجيشه، والشعب يؤمن بمقاتلي الجبهة الجنوبية ويتمنى لهم نصرا نهائيا وحاسما على الغزاة.

«من اجل تدمير الغزاة المصريين نهائيا، من اجل تسريع السلام ــ نحو النصر ــ سنهاجم العدو».

وفي الليلة ذاتها بدأت العملية في الغرب، بعمليات لواء «غولاني».

٢ ــ التضليل: هجوم لواء «غولاني» 348

كانت المهمة التي كلف بها لواء «غولاني»: القيام بهجوم تضليلي كبير في اتجاه قطاع غزة. وتقرر في الخطة ان تحافظ الكتيبة ٢ التابعة له على المواقع التي احتلت في عملية «اساف» ــ شيخ نوران وخربة ماعين ــ بينما تتقدم الكتيبة ٣ غربا وتحتل الموقع المرتفع ٨٦ فتتمركز فيه وتوقف حركة العدو على طريق غزة ــ رفح.

وظهر يوم ١٢/٢٢ ــ بعد امطار غزيرة عطلت الطرق وخصوصا طريق سعد الترابي ــ بدأ الهجوم. وشاغلت مدافع من عيار ٧٥ ملم خط رفح ــ غزة بأكمله، لصرف انتباه العدو عن المرتفع ٨٦. وتحت غطاء هذه المشاغلة انطلقت في الظلام الكتيبة ٣ التابعة للواء «غولاني» من قاعدتها في شوعوط نحو [المرتفع] ٨٦. وفي البداية تحركت بالآليات، وبعد ذلك مشيا على الاقدام. وأخذ المقاتلون معهم السلاح والعتاد اللازمين للهجوم فقط، اذ ان السلاح المساند والاسلحة المضادة للدروع والذخيرة ومواد التحصينات وما شابه ذلك، كان من المقرر ان تصل الى الموقع بعد فترة وجيزة من احتلاله.

وصلت القوة الى بعد ١٥٠ مترا من مواقع العدو من دون ان تنكشف. ومن هناك انقضت واحتلت المرتفع بغتة. وعلى الفور نظمت صفوفها للدفاع. وصدت الهجمات

المضادة التي شنت بصورة متقطعة، في تلك الليلة، من المواقع المجاورة في سلسلة المرتفعات نفسها. وبدأت بحفر الخنادق والاستعداد لقدوم الصباح. وكان عدد من مدافع الهاون التابعة للعدو قد وقع في قبضتنا فنصب محل اسلحتنا المساندة التي لم تصل ـ بسبب القصف الذي وجهه العدو الى طريق تقدمنا وبسبب الاودية المغمورة بالمياه. وبقي المدافعون وفي حيازتهم فقط الاسلحة التي احضروها معهم وهم راجلون.

وفي الصباح ظهرت دبابات العدو وبدأت بمشاغلة الموقع. وازداد عددها الى ان وصل الى عشرين تقريبا. ولم تصل الاسلحة المضادة للدروع، كما ذكرنا، وأصبح وضع وحدة الكتيبة ٣ سيئا جدا. وكان لدى المدافعين في الموقع اربعة مدافع «بيات»، استخدمت بفعالية.

وعند الظهر اتضح انه بتغطية من هجمات المدرعات ووراء ستار من سياجات الصبار التي تبعد ١٥٠ مترا تقريبا عن مواقع المرتفع، كانت قوات المشاة المصرية تستعد للهجوم. ونجحت احدى الدبابات في اقتحام مواقع الدفاع، وعزلت احد المواقع. وأعطبت بقذيفة من [مدفع] «بيات»، وجرح معظم رجال الـ «بيات»، وأوشكت الذخيرة على النفاد.

كما اصيب كثير من المضمدين في اثناء تنقلهم بين أجزاء الموقع المختلفة. وجرت المحافظة على الاتصال بين الاجزاء عن طريق الصوت فقط. فأجهزة الهاتف لم تصل، وأجهزة الاتصال اللاسلكية لم تعمل. ولم يكن هناك ضابط لتوجيه نيران المدفعية في الموقع، وبالتالي لم تقدم نيران مساندة من المؤخرة للمدافعين.

وفي الساعة ١٤,٣٠، بدأت الامطار تهطل. وبسبب الغبار والرمل قبل ذلك والوحل الآن تعطل كثير من الاسلحة. وبعد المطر تعطلت ايضا قاذفات اللهب. وظهرت وراء سياج الصبار الواقع في الغرب اربع مجنزرات، بدأت تصب نيرانها على الموقع. وكانت هذه اول مرة يظهر فيها هذا السلاح لدى المصريين منذ بداية الحرب. وأشعلت نيران قاذفات اللهب النار في ثياب عدد من الموجودين في المواقع. وفي هذه المرحلة بدأ انسحاب جزئي.

349

لكن المدافعين عادوا فتمالكوا انفسهم، وهاجموا المجنزرات بالقنابل اليدوية وهم يصرخون، وأصيب طاقم احدى المجنزرات المصرية بقاذفة اللهب التابعة له، وانسحب المصريون من الموقع.

وعلى الرغم من الخسائر والمطر وقلة الاسلحة الصالحة للاستخدام، والنقص في قذائف الـ «بيات» ــ اذ بقي منها واحدة فقط ــ فقد نظم قسم من الوحدة صفوفه للقيام بهجوم مضاد على امل ان يرجح الكفة. وفي اثناء التقدم لتنفيذ هذا الهجوم اكتشف احتياطي كبير من المدرعات المصرية لم يزج بعد في المعركة. وبالتالي، لم تعد هناك اية فرصة للنجاح امام هذا الهجوم المضاد فألغي.

وصدر الامر بالانسحاب من الموقع. وكان المصريون قد اصبحوا مسيطرين على مواقعه

المتطرفة. ولم يكن في الامكان اخلاء قسم من الجرحى. ولم تكن هناك فسحة من الوقت لتنظيم الافراد للانسحاب. وكانت الساعة قد قاربت الـ ١٥,٠٠.

ومثلما حدث في حالات اخرى خلال حرب الاستقلال، رافق الانسحاب في وضح النهار هذه المرة ايضا خسائر كبيرة. وكان بين المصابين قائد الموقع ــ نائب قائد الكتيبة ٣. «بين جميع معارك اللواء لا اذكر معركة واحدة» ــ كتب قائد «غولاني» ــ «تبدى فيها، خلال مثل هذا الوقت القصير، مثل هذا العدد الكبير من مظاهر التضحية والبطولة التي اظهرها الجنود وقادتهم في اثناء دفاع كتيبة غدعون عن الموقع ٨٦ وانسحابها منه».

لقد انتهت المعركة على [الموقع] ٨٦ اذن بالفشل، لكن قتال جنود «غولاني» العنيد لم يكن عبثا. اذ تحقق الهدف العملياني العام للعملية. فبسبب هذا الهجوم وغارة الكتيبة ٩ «غولاني» على قرية عبسان، وبسبب المضايقات المتكررة التي نفذت في الغرب في الايام التالية، انصرف اهتمام العدو الى هذا القطاع ــ وكان هذا هو الهدف الرئيسي.

٣ ــ هجمات السلاحين الجوي والبحري

في الوقت الذي بدأ فيه «غولاني» العملية في الغرب بدأ ايضا سلاح الطيران نشاطه. فقصفت جميع القواعد الرئيسية في القطاع الغربي: رفح والعريش وخان يونس، وأيضا الفالوجة في قطاع «الجيب». ولم تقصف أهداف العدو في القطاع الشرقي، وذلك من اجل تعزيز فرصنا في تضليله ومفاجأته هناك.

وقد قصفت غزة من البحر.

وأدت عملياتنا في البر وفي الجو وفي البحر الى تضليل العدو تماما. وأصبح مقتنعا بأن هدف الجيش الاسرائيلي هو احتلال غزة. وضللت ايضا الصحافة العبرية في البلد اذ اعتقدت ذلك هي الاخرى.

٤ ــ الاستعدادات للهجوم في القطاع الشرقي

في هذه الاثناء جرى في القطاع الشرقي نشاط محموم لكنه هادىء. فخلال النهار لم يكن يلمس اي نشاط تقريبا في المنطقة، لكن خلال الليل كانت تجري حركة نشيطة للقوات والمعدات. وانتقلت قوافل اللواء المدرع، ولواء «النقب» من دون انارة المصابيح من بئر السبع نحو الجنوب، الى مناطق التأهب في حلوتساه وفي روحيفا (رحوفوت القديمة). وفي الوقت نفسه اعد المهندسون الجزء من الطريق الواقع بين حلوتساه وروحيفا لمرور الدبابات والمصفحات.

350

وفي صباح يوم ٢٤ من الشهر، كانت الوحدات جاهزة في قواعد الانطلاق. لكن

بسبب فيضانات حدثت تأجلت ساعة «الصفر» ٢٤ ساعة، وانطلقت الوحدات الى أداء مهماتها في يوم السبت، ١٩٤٨/١٢/٢٥.

٥ ـ احتلال موقعي الثميلة والمشرفة

كان على قوات لواء «النقب»، كما ذكرنا، ان تحتل مواقع العدو على طريق بئر السبع ـ العوجا. واختيرت من بين مجموعات المواقع الموزعة على طول هذا الطريق للمهاجمة في ليلة الـ «ع» [«العملية»]: مواقع الثميلة المجاورة فعلا للطريق، وبير الثميلة الواقعة على بعد ٢ كلم تقريبا في اتجاه رفيفيم، والمشرفة الواقعة الى الجنوب الشرقي من هناك، في الطريق الى العوجا. وكانت تحمي هذا القطاع قوة من سلاح المشاة قوامها ست سرايا، منها نحو ٣ سرايا في نطاق منطقة الثميلة والمشرفة. وافترض ان احتلال هذه المواقع سيمزق خط مواقع المصريين، الممتد على طول الطريق، ويسهل علينا فيما بعد الاستيلاء عليه كله.

وكُلِّفت فصيلتا جيبات وفصيلة مشاة، نقلت في سيارات كوماندكار تابعة للكتيبة ٩، احتلال المشرفة. وعملت هذه الوحدة، منذ خروجها من قاعدتها، بصورة مستقلة. انطلقت من بئر السبع نحو الشرق في صباح يوم ١٢/٢٥، عابرة نفاطيم. وبعد سفر نحو ٣٠ كلم في الطريق الى كرنب انحرفت عن الطريق الى الصحراء، بموازاة طريق العوجا جنوبيها وعلى بعد نحو ١٠ كلم منها. وذلك من اجل الوصول في النهاية من ناحية الصحراء ومهاجمة المشرفة من الجنوب. وبسبب عطل في السيارات تأخرت القوات في الطريق، وهبط الظلام قبل ان تتمكن من استطلاع المشرفة نفسها، ولم تقترب من الهدف إلا في منتصف الليل. واستطلع [الهدف] في الليل وشوهدت علامات دلت على وجود تحصينات. ووضعت حواجز على الطريق الرئيسي من الناحيتين الغربية والشرقية للمكان. ثم هاجمت فصيلة مشاة الموقع واحتلته من دون مقاومة.

وفي الوقت نفسه كانت المعركة على مواقع الثميلة، التي خصص لاحتلالها باقي قوات لواء «النقب»، قد بدأت.

وكانت خطة الهجوم على هذه المواقع كالتالي:

المرحلة أ

كان على كتيبة المشاة ٧ ان تحتل في الساعة ٢٢,٣٠ مواقع بير الثميلة، وأن يحتل الكوماندو «الفرنسي»* الموقع ١٣، وهو اقصى موقع الى الغرب بين مواقع الثميلة، الواقعة قرب الطريق. وكان الهدف اقامة رأس جسر في الليل على الطريق نفسه.

---

* وحدة في لواء «النقب» كانت نواتها وقائدها من المتطوعين الفرنسيين، وجزء منها من قدامى المقاومة السرية الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية.

وقبيل الصباح كان على كتيبة الكوماندو التابعة للواء «النقب» التقدم لتطهير مواقع الثميلة في جوار الطريق.

351

المرحلة ب

مرحلة استغلال النجاح: تطهير الطريق غربا حتى المشرفة ومنها حتى العوجا ، ومن الشرق والشمال عبر بير عسلوج الى بئر السبع. وكان الهدف النهائي هو فتح الطريق من بئر السبع الى العوجا امام قوات الجيش الاسرائيلي.

وفي الساعة ١٧,٠٠ من يوم ١٢/٢٥، انطلق لواء «النقب» من حلوتساه في اتجاه رفيفيم ومواقع الثميلة وتوزع وفقا للخطة.

وفي الساعة ٢٢,٣٠، بدأ الهجوم على مواقع بير الثميلة وعلى الموقع ١٣، في آن واحد.

واحتلت مواقع بير الثميلة من دون اية صعوبة. وفي المقابل دارت في الموقع ١٣ الواقع بالقرب من الطريق معركة عنيفة. وقد نجحت قواتنا ــ «الكوماندو الفرنسي» ــ ايضا هنا في مفاجأة العدو واحتلال الموقع. لكن هذا الاحتلال كبدنا خسائر فادحة لأن المواقع المجاورة، التي لم تهاجم، اصابت الوحدة المهاجمة من الجانب. كما بدأت هجمات مضادة قوية من ناحية هذه المواقع في اتجاه الموقع ١٣. وأصبح وضع من فيه صعبا جدا، وأخذت تزداد خسائرهم وتناقص مخزون الذخيرة. وفي هذه الاثناء، بدأت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» التحرك ــ للاغارة على باقي مواقع الثميلة ــ لكن مصفحاتها غاصت في الرمل فتأخرت. وعندما وصلت الى مسافة قريبة من المواقع التقت بقايا الكوماندو «الفرنسي»، التي انسحبت بفعل ضغط العدو. وكان اكثر من نصف [الوحدة] قد قتل او جرح. وعندما بزغ الصباح شوهد جنود مصريون يرقصون من نشوة النصر في الموقع ١٣ ، الذي عادوا فاحتلوه.

352

ولم تطل فرحة المصريين، اذ هاجمت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» المواقع. واجتازت سرية مصفحات الطريق عبر الوادي وهاجمت من الخلف. ووصلت سرية نصف المجنزرات الى الساتر الترابي لسكة الحديد العثمانية حيث نزل أفرادها ارضا وهاجموا المواقع من الشمال. وبفعل هذا الضغط المشترك بدأ انسحاب المصريين من الموقع ١٣ الى ١٤ والى ١٦ ، ومن هناك الى الشمال نحو بير عسلوج.

وتم صد هجوم مضاد شنته مدرعات مصرية من ناحية الجنوب.

وفي الساعة ٠٩,٠٠، انجز احتلال مرتفعات الثميلة. وقطع خط المصريين في مكان آخر.

٦ ـ احتلال عوجا الحفير (نيتسانا)

في الليلة الاولى لم ينجح اللواء المدرع في مهمته.

لقد استغرق إعداد الطريق الروماني وقتا اكثر مما كان مقدرا. القسم الاول من الطريق ـ من حلوتساه حتى روحيفا ـ انجز في الوقت المقرر. لكن بالنسبة الى ما تبقى منه كانت هناك ضرورة لمغادرته وعبور وادي الابيض الى طريق العوجا ـ رفح. وكان السبب في ذلك كامنا في حقيقة ان استمرار التقدم على الطريق الروماني نفسه كان من المحتمل ان يؤدي الى انكشاف الوحدة للعدو. ولم ينته إعداد ذلك الجزء من الطريق، المار بالوادي، حتى ساعة «الصفر»، واستغرق التحرك عليه وقتا طويلا. ولم تصل القوات الى مواقع العوجا إلا عصر يوم ١٢/٢٦. وفي اثناء ذلك، كان سلاح الطيران الاسرائيلي قد اغار على الهدف، وكانت القوات المصرية في المنطقة مستعدة. وتم احتلال الموقع الاول ـ الاقصى من ناحية الغرب ـ وهو الموقع ج، قبيل المساء فقط. وحاولت سرية نصف مجنزرات شق طريق الى المواقع الاخرى، على طريق بئر السبع. لكن هجوم السرية صُد وقتل قائدها.

وفي الوقت نفسه، تقريبا، اسرعت نجدة مصرية من قوات المشاة والمدرعات من ناحية رفح صوب العوجا. ووصلت هذه النجدة الى مؤخرة القوة الرئيسية. ولم يحقق الحاجز الاول الذي وضع في اتجاه رفح الهدف منه واستمرت النجدة في الاقتراب من العوجا. وهنا اصطدمت بحاجز ثان تمكن من ايقافها. واشترك قسم من المدرعات التي انسحبت بعد فشل الهجوم على العوجا هو ايضا في المعركة مع هذه النجدة المعادية وكبّدها خسائر كبيرة. وانسحبت النجدة وبقي اللواء المدرع في المنطقة. واتخذ قرار بالقيام في اليوم التالي بمحاولة ثانية لاحتلال العوجا. ومن اجل ضمان احتلالها كلف ايضا لواء «النقب»، الذي كان قد سيطر في هذه الاثناء على الثميلة، التقدم على طريق بئر السبع ـ العوجا. كما كلف السيطرة على جميع المواقع الباقية الواقعة على الطريق بينها وبين المشرفة التي كانت لم تحتل بعد، ومن المشرفة مهاجمة العوجا من جهة الشمال الشرقي.

وتحركت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» في طريقها هذا مع المساء، للسيطرة على المواقع الفاصلة بين الثميلة والمشرفة، التي دعيت [جميعها] باسم الموقع ١٠. ولتحقيق المفاجأة اختار قائد كتيبة الكوماندو طريقا صحراويا، يمر بالسبيطة (شبتا) في اتجاه المشرفة. وهناك كان عليها ان تنضم الى القوات التي كانت تحافظ على المشرفة منذ ليل العملية الاول، وأن تهاجم المواقع الوسطى من الجنوب، من الناحية التي لم يكن العدو يتوقع هجوما منها. وطال الطريق الى المشرفة. ولم تصل كتيبة الكوماندو التابعة للواء «النقب» الى المكان، إلا عند فجر يوم ١٢/٢٧. وكان أفرادها متعبين وجزء من آلياتها بحاجة الى اصلاح. وقدر قائد الكتيبة انه لن يستطيع احتلال الموقع ١٠ إلا في ساعات الظهر. لكن تبين ان لا ضرورة لمهاجمته. فعندما اتضح للمصريين في الموقع ان الجيش الاسرائيلي موجود امامهم (في الثميلة) وخلفهم (في المشرفة)، فضلوا اخلاء الموقع. وليس هذا فحسب بل لم يعد احتلال العوجا

353

يتطلب تعزيزا ايضا. وجدد العدو مع الفجر محاولاته لارسال نجدات الى المكان، من جهة رفح ومن جهة ابو عجيلة، واصطدمت النجدات في الطريقين بحواجز فُرِّدَت على اعقابها. وفي الوقت نفسه تجدد هجوم اللواء المدرع على العوجا نفسها. وقد كُلفت القيام بالمهمة كتيبة الدبابات ووحدات الجيبات ومشاة من كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع من بين الذين لم يصابوا امس. ومهد لعمليتهم هذه بقصف مدفعي مركز وبقصف جوي. وكلفت كتيبة الدبابات احتلال المنطقة الحيوية ــ منطقة التل ــ وكلفت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع تطهير القرية. وتحركت الكتيبة على طول الطريق ببطء نحو القرية. وردت الموجة الاولى على اعقابها بفعل نيران العدو التي اطلقت من طائراته ومواقعه. وتقدمت الموجة الثانية، محاذية خط سكة الحديد القديم، فاقتحمت الخطوط الاولى وبدأت باحراق المعسكر الحربي في القرية نفسها. وفي اثناء ذلك، احتلت الكتيبة المدرعة البيوت. وفي الساعة ٠٧,١٥ من يوم ١٢/٢٧، ابلغ القائد المصري في العوجا بتعرضه لهجوم بالدبابات والمصفحات على طريق ابو عجيلة. وفي الساعة ٠٧,٤٠، ابلغ بأن مدرعات الجيش الاسرائيلي وصلت الى مواقعه، وأنه بحاجة الى نجدة وخصوصا الى طائرات. وفي الساعة ٠٨,٠٥، ابلغ بأن الجيش الاسرائيلي احتل المواقع. وبعد ذلك انقطع الاتصال بينه وبين قائده. واستمرت المقاومة في التل لفترة من الوقت، وفي الساعة ٠٩,٠٠ تم احتلاله ايضا. وذكرت البرقية التي ارسلت الى قيادة الجبهة باختصار: «العوجا في قبضتنا».

354

وفي ذلك اليوم، ١٢/٢٧، بينما لا يزال الوقت صباحا ــ قبل ان تحتل العوجا ــ بدأ انسحاب القوات المصرية من المواقع الكائنة شمالي العوجا (في اتجاه المشرفة). وفي الساعة ٠٨,٠٠، ظهرت ٨ سيارات مصرية على الطريق، بالقرب من المشرفة، متجهة الى العوجا. وكانت طليعة قافلة قوامها ٤٠ سيارة تقريبا. وفتحت عليها نيران قوية. ونجحت سيارتان في شق طريق لهما ومرتا. بينما وقع الباقي في قبضة أفراد لواء «النقب». وعندما رأى العدو انه لا يستطيع شق طريقه الى العوجا مباشرة قرر مغادرة الطريق الرئيسي والتحرك على الطريق الذي استخدمته كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» في الليلة السابقة: طريق السبيطة. وعندما اكتشفت كتيبة الكوماندو التابعة للواء النقب ذلك، انطلقت بسرعة مطاردة الطابور المصري المنسحب، وفي المقدمة سرية المصفحات وخلفها سرايا المجنزرات والسرية المساندة. وترجل جنود العدو من سياراتهم وتخندقوا في التلال، لكن عندما اقتربت طليعة الكتيبة ٩ عادوا الى سياراتهم وواصلوا الفرار، بينما حاولت المصفحات الموجودة ضمن المجموعة عرقلة تقدم كتيبة الكوماندو. وواصلت الكتيبة المطاردة. ونزل العدو مرة اخرى من السيارات وبدأ يأخذ مراكز له على المرتفعات الواقعة على جانبي الطريق. وفي اثناء ذلك وصلت الاسلحة المساندة التابعة لكتيبة الكوماندو، وبدأت بتوجيه نيرانها. وأوقف جنود العدو تمركزهم وفروا نحو التلال الجنوبية. ووقعت في قبضة الكتيبة غنائم اشتملت على ٦ مصفحات و ٢٠ شاحنة محملة بالاعتدة.

وفي الوقت نفسه، تحركت قوات لواء «النقب» الاخرى من الثميلة في اتجاه الشمال الى مواقع عسلوج. وبعد ان طُوق المصريون الموجودون في المكان من جميع الجهات فرّوا واحتلت المواقع من دون قتال. ثم عادت قوات اللواء جنوبا في اتجاه العوجا، ووجدت جميع المواقع على طول الطريق خالية. وعند العصر وصلت قوات «النقب» الى العوجا وانضمت الى اللواء المدرع.

وفي ذلك اليوم نفسه، فتح طريق بئر السبع ـ العوجا امام حركة الجيش الاسرائيلي. وخلال ايام عدة تالية استمر استسلام المصريين، وبينهم ضباط برتب عالية. وفي البداية فر كثيرون منهم نحو الصحراء، للوصول بأية طريقة الى مصر. لكن عندما شعروا بقساوة البرد والجوع عادوا الى الطريق واستسلموا بالمئات.

وبذلك انتهى عمليا بنجاح القسم الاول من عملية «حوريف». لقد فوجىء العدو تماما، وساد الارتباك صفوف قادته. وكان من الضروري استغلال هذا الارتباك بسرعة، بغض النظر عن تعب الوحدات التي بذلت جهودا مضنية في الايام السابقة، لأنه لو اعطي العدو مهلة لتثبيت نظام دفاعي جديد، فلربما تمكن من حصر نجاح الجيش الاسرائيلي في المرحلة الاولى ومنعه من تحقيق الهدف الاساسي وهو إلحاق الهزيمة المطلقة بالجيش الغازي وطرده خارج حدود البلد. واتُخذ قرار بمحاولة شن هجمات وغارات لتكون بمثابة مقدمة للمرحلة الثانية من العملية. وكان القصد القيام بالتفاف في العمق مرورا بأبو عجيلة للوصول الى العريش.

355

تقرر اذن مواصلة التقدم بحركة سريعة نحو ابو عجيلة في سيناء. وكان من المفروض، بموجب الخطة الاصلية، ان تنفذ هذه المهمة كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء المدرع، لكن بما ان هذه الكتيبة منيت باصابات فادحة خلال احتلال العوجا جرى تغيير في الخطة وكلف تنفيذ المهمة لواء «النقب» بالتعاون مع الكتيبة ٢ التابعة للواء المدرع. وكان من المقرر تنفيذ العملية في تلك الليلة نفسها، ليلة ٢٨ ـ ١٢/٢٩.

وعند ظهر يوم ١٢/٢٨، استعدت القوة التي ستهاجم ابو عجيلة. وتحركت كتيبة الكوماندو من لواء «النقب» كطليعة، وتحركت خلفها قيادة لواء «النقب» والكتيبة ٢ التابعة للواء المدرع والمدافع ومدافع الهاون وكتيبة المشاة ٧ التابعة للواء «النقب».

وفي الساعة ١٤,٠٠، اجتاز الطابور العوجا المحتلة. وبعد فترة قصيرة اخترق الحدود السياسية ودخل الاراضي المصرية.

٧ ـ العمليات داخل سيناء

على بعد مسافة ما من العوجا، هوجم الطابور من قبل طائرات اسرائيلية لم تكن تعرف بعد، بسبب وتيرة العملية السريعة، ان قوات الجيش الاسرائيلي اصبحت موجودة في الجانب المصري من الحدود، خصوصا وأنه شوهدت في الطابور المتقدم آليات مصرية غنمت في الايام

السابقة. وقد قتل جندي واحـد وجرح آخر في هذا الهجوم، الذي اوقف عندما جرى التلويح براية اسرائيلية ــ راية الكتيبة التابعة للواء اليهودي الذي حارب خلال الحرب العالمية الثانية («البريغيد»)، وكان احد الجنود يحملها في جعبته.

وواصل الطابور سيره ببطء على الطريق. وطوال ساعتين ونصف الساعة، لم يشاهد اي عدو في المنطقة. ومن اليمين كانت تمتد كثبان الرمال، ومن اليسار سلاسل جبال سيناء. وقدمت طائرات سلاحنا الجوي الغطاء لتقدمه.

وفي الساعة ١٦,٣٠، جوبهت طليعة الطابور بنيـران، على مسـافة ١٢ كلم من ابو عجيلة. وأصيبت المصفحة التي كانت تسير في المقدمة بقذيفة مضادة للدروع وبدأت تحترق، على بعد ٨٠٠ متر من موقع العدو*. وحاولت كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب» المناورة وتطويق الموقع، لكن مصفحاتها غاصت في الرمال. وأرسلت مدافع هاون من عيار ١٢٠ ملم الى الامام لمساعدة الكتيبة، وفي اثناء ذلك بدأ الظلام يخيم. وتقرر احتلال الموقع بهجوم يشنه المشاة. وأرسلت سرية من كتيبة المشاة ٧ الى الأمام. وبتغطية من المدافع ومدافع الهاون، مع مشاغلة الموقع الامامي بواسطة فصيلة جيبات، تقدمت السرية خفية على امتداد السلاسل الواقعة الى الشرق حتى وصلت الى الخطوط الخلفية للعدو فانقضت عليه. ودارت معركة عنيفة على الموقع. ولم يستطع المصريون الصمود فاستقلوا سياراتهم وانسحبـوا نحـو ابـو عجيلة. وغنم الجيش الاسـرائيـلي مـدفعـين مضـادين للدروع، و ١٠ سيارات، و ٣٣ «بيات»، وأسلحة اخرى. 356

وفي الساعة ٠٢,٣٠ بعد منتصف الليل، انتهى تطهير الموقع. وأبقيت فيه سرية واحدة، بينما واصل باقي القوة التحرك. وكانت هذه المعركة احدى انجح معارك الالتحام ــ تخللتها مطاردة ــ التي خضناها خلال الحرب، وأظهرت فيها قواتنا فطنة وسرعة في العمل**.

وعند طلوع الفجر دخلت طليعة كتيبة الكوماندو ٩ من لواء «النقب» ابو عجيلة، من دون ان تصطدم بالعدو. وشوهدت قافلة للعدو منسحبة نحو العريش.

ونظم لواء «النقب» صفوفه للدفاع في ابو عجيلة. واكتشف بالقرب من المكان معسكر للسجناء السياسيين تابع للعدو. واتضح من استجواب احد الاسرى المصريين انه يوجد على بعد نحو ٧٠ كلم الى الجنوب، في اتجاه الاسماعيلية، في بير حمة، مطار مصري للطائرات المقاتلة. وتقرر شن غارة على هذا المطار، وشن غارة اخرى اكبر على العريش. وكلفت فصيلة من كتيبة المشاة ٧ التابعة للواء «النقب» وفصيلتا جيبات شن الغارة على المطار. وتقرر ان تتحرك الى العريش الكتيبة ٢ التابعة للواء المدرع سوية مع الوحدات الاخرى الباقية من

---

* الموقع هو منطقة ام كتف، وقد قاتل الجيش الاسرائيلي فيها في حملة «قادش» [حملة سيناء].

** حتى ان قائد السرية لم يتح له الوقت لاستطلاع المنطقة قبل الهجوم. وصُوبت المدافع في الظلام في ضوء مصفحتنا المحترقة.

كتيبة الكوماندو ٩ التابعة للواء «النقب». وكان على وحدات كتيبة المشاة ٧ من لواء «النقب» الاخرى ان تتمركز في ابو عجيلة.

في الساعة ١٢,٣٠، بدأ التحرك في اتجاه العريش، فتحركت الكتيبة ٢/اللواء المدرع في المقدمة، وقيادة لواء «النقب» في الوسط، وشكلت كتيبة الكوماندو ٩ هذه المرة المؤخرة. وتحركت [القوة] ساعتين في الصحراء من دون ان يظهر العدو. وفي الساعة ١٥,٠٠، احتلت الكتيبة ٢/اللواء المدرع مطار العريش الواقع على بعد ١٥ كلم الى الجنوب منها. وكان المطار خاليا من قوات العدو. ووقعت في قبضتنا طائرة مقاتلة ـ «سبيتفاير» ـ وأيضا عدد من هياكل وهمية للطائرات. وبدأت الكتيبة ٩/لواء «النقب» بنقل الغنائم، بينما واصلت الكتيبةالمدرعة سيرها نحو العريش. وعلى بعد عدة كيلومترات شمالي المطار، وعلى مسافة ١٣ كلم تقريبا جنوبي العريش، عند بير لحفان، اصطدم رجال استطلاع الكتيبة ٢/اللواء المدرع بقوة مصرية بحجم كتيبة، على وجه التقريب، متخندقة في مواقع على جانبي الطريق. واستعدت الكتيبة للهجوم. ولم يكن رجال المدفعية قد تمكنوا من الوصول وتصويب مدافعهم، ولذا تقرر الاستغناء عن المساندة وشن الهجوم فورا. وتم احتلال الموقع على الرغم من كثافة النيران المضادة للدروع المتواصلة، التي واجهت المدرعات المهاجمة. وأوشك الليل على الحلول فأوقفت المطاردة، في اتجاه العريش، وقواتنا على بعد ١٠ كيلومترات تقريبا منها. وقد اعطبت في هذا الهجوم دبابة تابعة للكتيبة المدرعة المهاجمة.

لقد كان الغرض من التحرك نحو العريش الاغارة لا الاحتلال. ولذا لم تضم الى القوة المهاجمة (التي قوامها دبابات ومصفحات وسيارات جيب) وحدات مشاة للتمركز في الامكنة التي سيتم احتلالها. وطال الطريق لأن القوة امضت بعض الوقت في البداية في المطار، ولاحقا في بير لحفان، وكانت نتيجة ذلك ان المغيرين لم يصلوا الى العريش في اليوم نفسه. ودرست خطة للبقاء في الموقع المحتل خلال الليل، على ان يبدأ التحرك منه الى الشمال في صباح اليوم التالي، لكن سرية المشاة التي كان من المقرر ان تحافظ على الموقع لم تصل في الموعد، فأمرت الكتيبة ٢/اللواء المدرع بالعودة الى ابو عجيلة. وأمضت الكتيبة عدة ساعات في المكان، في محاولة لتشغيل او سحب الدبابة المعطوبة. وكان رجال الكتيبة واثقين من ان الانسحاب موقت، وأنهم سيعودون الى العريش في غضون يوم او يومين. لكن الامر لم يكن كذلك.

357

في صباح يوم ١٢/٣٠، عادت الكتيبة ٢/اللواء المدرع الى ابو عجيلة. وحال وضع المدرعات التقني دون الاستمرار في العملية. وبعد ساعات قليلة من ذلك، كانت الكتيبة في طريق عودتها الى الاراضي الاسرائيلية، للتمركز في جوار بئر السبع.

وفي الوقت نفسه شنت فصيلتا جيبات وفصيلة حملة بنادق منقولة في سيارات كوماندكار من الكتيبة ٧ الغارة على المطار في بير حمة، الواقع في الطريق الى الاسماعيلية، على بعد نحو

٦٥ كلم جنوبي ابو عجيلة. وكان الهدف هو احتلال المطار والتمركز فيه حتى صباح اليوم التالي، وبعد ان يتم اخراج الطائرات التي يجدونها فيه يصار الى اتلاف العتاد الارضي والانسحاب.

ونجحت القوة في الوصول الى المكان، لكن امرها افتضح قبل ان تهاجم وفقدت عنصر المفاجأة. ومع ذلك شنت هجومها وجوبهت بنيران مدافع مضادة للدروع ورشاشات متوسطة، فانسحبت في اتجاه ابو عجيلة بعد ان فشلت عمليتها.

وفي اليوم التالي، وصلت قوة تابعة للواء «هارئيل» وسرية من الكتيبة العاشرة، الى القصيمة الواقعة بين العوجا وايلات، داخل الاراضي المصرية. وبعد معركة صغيرة احتل المكان، وتم اسر العشرات، بينهم فلول المنسحبين من بير عسلوج. كما شُنّت غارة على الحسنة. فأرسلت فصيلة من الكتيبة العاشرة في ٣١ كانون الاول/ديسمبر لاخذ اسرى من بين الجنود المصريين الذين فروا. واستسلم في القرية نحو ٢٠٠ جندي مصري.

احدث التغلغل العميق في الاراضي المصرية، بلا شك، تأثيرا شديدا على القيادة المصرية. وفيما يلي نموذج يوضح كيف رأى ضابط مصري، ضابط في قيادة منظمة «الاخوان المسلمين»، كمال اسماعيل الشريف، الامور:

«اتخذ انسحاب الجيش المصري، في هذه الاثناء، شكل فرار بكل ما في هذه الكلمة من معنى. لم يحدث خلال الحرب الفلسطينية بأسرها فرار كهذا الفرار، ولم ينشأ وضع فقدت فيه القيادة السيطرة على جنودها مثلما حدث في هذه الحالة...».

وبذلك انتهت المرحلة أ من عملية «حوريف».

ان محصلة العملية حتى الآن تدل على انجازات حاسمة. لكن نشاطا كبيرا حدث في هذه الاثناء في جبهة اخرى ـ الجبهة السياسية ـ وأحدث تغييرات كبيرة ايضا في الجبهة العسكرية.

٨ ـ التطورات السياسية في عملية «حوريف»

عشية عملية «حوريف»، أبلغت دولة اسرائيل الامم المتحدة بأنها ترى ان من حقها العمل ضد المصريين لأن هؤلاء يرفضون بدء مفاوضات في شأن الهدنة، مما يتناقض وقرار مجلس الامن الصادر بتاريخ ١١/١٦. ولم يقبل مجلس الامن هذا التفسير لقراره السابق، وفي جلسته التي عقدت يوم ١٢/٢٩ ـ يوم احتلال ابو عجيلة ـ اصدر امره مرة اخرى بايقاف اطلاق النار فورا في المنطقة، وبانسحاب الطرفين الى المواقع التي كانا يحتلانها قبل بداية الاعمال العدائية.

358

وفي اثناء ذلك، بدأت مصر نشاطات محمومة للحصول على مساندة عسكرية من باقي الدول العربية. لكن هذه خافت، او انها كانت غير معنية بالتدخل، فبقيت واقفة على الحياد.

وجاء الفرج والانقاذ للمصريين باقتراح من جانب آخر ـ من جانب البريطانيين ـ اذ سارعوا الى النجدة، مع ان المصريين لم يطلبوا منهم ذلك. وقد ادعى البريطانيون انه يتوجب عليهم، وفقا للمعاهدة الانكلو ـ المصرية التي عقدت سنة ١٩٣٦، الدفاع عن مصر (ربما اعتقدوا انهم بذلك يجددون سريان مفعول تلك المعاهدة التي لم يرد المصريون الاعتراف بها).
وأرسلت بريطانيا انذارا نهائيا الى اسرائيل، طلبت فيه منها سحب قواتها الى خارج الحدود المصرية. ونظرا الى عدم وجود تمثيل دبلوماسي لبريطانيا في اسرائيل، في تلك الفترة، سلم الانذار بواسطة واشنطن. وألحقت واشنطن نفسها الانذار البريطاني بتحذير شديد اللهجة من جانب رئيس الولايات المتحدة. وأحدث هذا الضغط اثره، فتلقت قوات الجيش الاسرائيلي الموجودة خارج حدود البلد (الطابور الذي تمركز في ابو عجيلة ونشط منها في اتجاهات مختلفة) أمرا بالانسحاب من منطقة شبه جزيرة سيناء، على ان تتم انسحابها هذا قبل صباح يوم ١/٢. وقبل ان تنسحب القوات احدثت تخريبا في ابو عجيلة، وشنت ايضا غارة على بير حسنة.
وجرت في هذه المرحلة من عملية «حوريف» عملية «حيسول» ـ وهي المحاولة الفاشلة لتصفية «جيب» الفالوجة.

٩ ـ المرحلة ب من عملية «حوريف»

بعد الانسحاب من سيناء تقرر البدء فورا بالمرحلة ب من عملية «حوريف». وبسبب الانسحاب من ابو عجيلة لم يكن ممكنا التخطيط لالتفاف في العمق وخلق «جيب» باحتلال العريش. ولذا، كان هدف العملية هذه المرة: رفح، مقر القيادة المصرية العامة. ان احتلال رفح كان سيؤدي الى عزل كل القوات المصرية الموجودة شماليها، وبعد ذلك كان ينبغي ابادة هذه القوات.
وخطط للهجوم على رفح في محورين: شمال شرقي، وجنوب شرقي.
وكلف العمل في محور الشمال الشرقي لواء «غولاني» الذي أُمر بالخروج من قاعدته في النقب الغربي ـ في منطقة العمارة ومفطاحيم ـ واحتلال موقع المقبرة الكائن شرقي رفح والمواقع المجاورة له.
وكلف العمل في محور الجنوب الشرقي لواء «هارئيل»، وضمت اليه الكتيبة ٩ التابعة للواء «النقب». وكان عليه ان ينطلق من العوجا صوب الشمال ليحتل في المرحلة الاولى مفترق طرق رفح ومواقعه، الى الجنوب من المدينة، وفي الوقت نفسه يغلق طريق رفح ـ العريش.
وبعد احتلال موقع المقبرة في الشرق ومفترق الطرق في الجنوب، كان على اللواءين مواصلة التقدم بصورة منسقة ـ «غولاني» من الشرق و«هارئيل» من الجنوب ـ لتطهير المعسكر الحربي وبلدة رفح.

وتحدد دور اللواء المدرع كاحتياطي [لصد] ضربات مضادة، ولواء «النقب» لمشاركة جزئية في المرحلة الاولى ولاستغلال النجاح فيما بعد. وتحدد ليل ٣ ـ ١٩٤٩/١/٤ موعدا للهجوم.

359 وبدأ لواء «غولاني» الهجوم. وكلفت الكتيبة ٢/غولاني بالمجهود الهجومي في الليلة الاولى. وكانت خطة الكتيبة: تهاجم سرية موقع المقبرة، وتهاجم سرية اخرى الموقع ١٠٢ القريب منه. وتنتظر سرية ثالثة كقوة مساندة. واحتل موقع المقبرة في معركة بالسلاح الابيض، لكن الهجوم على الموقع ١٠٢ فشل. فقد وصلت القوة المعدة لاحتلاله، بعد رحلة منهكة، الى جوار الهدف في منتصف الليل. ولم تكن المساندة المدفعية فعالة. وتكبدت الفصيلة الامامية اصابات فانسحبت قبل ان تعبر السياج. وفي اثر ذلك، اعاد قائد السرية سريته بكاملها الى موقع القيادة. وفشلت محاولتان اخريان قامت بهما السرية نفسها لاحتلال الهدف، جرت احداهما قبيل الصباح بمساندة فريق من احدى السرايا المدرعة التابعة للكتيبة ٩/غولاني. وبقي الموقع ١٠٢ بيد العدو.

وفي مقابل ذلك، نجحت الوحدة التي احتلت المقبرة في الصمود امام هجمات مضادة عنيفة قام بها العدو بمساندة الدبابات والمدفعية والطائرات، وصدتها منزلة بالعدو خسائر فادحة في الدبابات والمصفحات والمشاة.

وهاجمت الكتيبة ٤ من لواء «هارئيل» ووحدات من لواء «النقب» رفح من الجنوب. وبما ان المهلة التي اعطيت لهذه القوة من اجل الاعداد للعملية كانت قصيرة جدا، فانها اضطرت الى «الذهاب الى المواقع من دون ان تعرف اين هي» ـ على حد قول احد قادتها. وكانت لدى القادة معلومات قليلة جدا فقط مفادها ان هناك جنوبـي مفترق الطرق ستة مواقع مصرية منظمة بصورة مزدوجة على كلا جانبـي الطريق. وبسبب عدم وجود خيار آخر وضعت ابسط خطة للهجوم: التقدم على طول الطريق واحتلال المواقع واحدا في اثر الآخر.

وتم احتلال المواقع الاربعة الاولى. وبقي بيد المصريين في ليلة ٤ ـ ١٩٤٩/١/٥ الموقعان الخامس والسادس، اللذان كانا عمليا موقعا واحدا ـ موقع مفترق الطرق. وفشلت محاولة احتلاله في هذه الليلة، واشتد ضغط الوقت بسبب دنو وقت فرض الهدنة وأصبح من الضروري القيام بجهد اخير. وتقرر القيام بمحاولة لاحتلاله في الليلة التالية، ليلة ٥ ـ ١٩٤٩/١/٦، لتمكين المدرعات من عبور مفترق الطرق واقتحام البلدة والمعسكر الحربـي وتطهيرهما، يوم الخميس، ١٩٤٩/١/٦.

وكلفت سريتان من الكتيبة ٥ التابعة للواء «هارئيل» احتلال موقع مفترق الطرق، ونجحتا في ذلك؛ احتل الموقع في معركة جرت بالقنابل اليدوية والسلاح الابيض، بسبب عاصفة رملية هبت وحالت دون استخدام اي سلاح آخر. وفي الساعة ٠٢,٠٠، تم تطهير الموقع ونظمت القوة صفوفها للدفاع. وفي اثناء ذلك، انقطع الاتصال بين الموقع وقيادة الكتيبة. ولم تعرف قيادة الكتيبة و[الافراد] في الموقع ان اللواء المدرع تأخر في القدوم عن

الوقت المقرر في الخطة. وفي الحقيقة تحركت وحدات من هذا اللواء في تلك الليلة على طريق غير ممهد في اتجاه مفترق الطرق، لكن تقدمها كان بطيئا بسبب العاصفة التي استمرت طوال الليل.

وقبل طلوع الفجر، سمع من في الموقع هدير دبابات آتيا من الجهة الشمالية الشرقية، وهي الجهة التي كان من المفترض أن يأتي منها اللواء المدرع. وكانت الرؤية سيئة ويصعب تمييز القوة بوضوح. وفي البداية، حاول الجنود في الموقع توجيه الدبابات، لكن عندما توقفت العاصفة للحظة وأصبح في الامكان تمييز الدبابات، اتضح ان هذه هي دبابات وحاملات برن مصرية، منتشرة لخوض المعركة، وتتقدم بحمايتها سريتان من المشاة تقريبا. وبدأت القوة المصرية الهجوم بينما ارسلت قاذفات اللهب المنقولة على حاملات البرن ألسنة نيرانها. وللأسف تعطل، بسبب العاصفة، معظم الاسلحة الموجودة في الموقع. وصدر الامر بالانسحاب على عجل، لكنه لم يكن انسحابا منظما كما ينبغي.

360 وبعد عدة ساعات، في ساعات العصر الباكرة، جرت محاولة لاحتلال الموقع من جديد ــ وهذه المرة بواسطة اللواء المدرع ــ من اجل فسح المجال لاقتحام رفح. وكان قوام القوة المهاجمة ٣ دبابات متوسطة وسريتين منقولتين بمجنزرات. وشنت القوة الهجوم اولا بسرية مشاة من الكتيبة ٩/اللواء المدرع محمولة بمجنزرات، بينما قدمت الدبابات مساندة لها. وأصابت النيران المضادة للدبابات مجنزرتين وأوقف الهجوم. كما اوقف الهجوم الثاني ايضا بعد ان عجزت الدبابات عن تقديم مساندة لقوات المشاة المهاجمة. وبقي الموقع بيد العدو.

ومن اجل المساعدة في الهجوم على منطقة مفترق الطرق، كان لواء «هارئيل» قد افرز، قبل يوم من ذلك، وحدة كلفت اغلاق طريق رفح ــ العريش، على بعد ٣ كلم تقريبا الى الغرب من مفترق الطرق. ونجحت هذه الوحدة في اغلاق الطريق امام جميع التحركات طوال ذلك اليوم، وأوقعت خسائر بين المصريين الذين حاولوا اقتلاعها من المكان. وفي الليلة التالية، ليلة ٦ ــ ١٩٤٩/١/٧، احتلت بالقرب من مكان الاغلاق ثلاثة مواقع لسرايا، بواسطة كتيبة من لواء «هارئيل». وأوقفت القوة الحركة على الطريق، وعطلت عددا من السيارات وأخذت اسرى. وقصف العدو المواقع طوال اليوم، حتى انه حاول القيام بهجمات مضادة، اوقف معظمها بنيران مدافعنا بينما كان لا يزال في منطقة التأهب. وأوقفت محاولات مصرية للهجوم بقوة مدرعة وبقوات مشاة من ناحيتي الشمال الشرقي والغرب، بفعل نيران مدافعنا الرشاشة ومدافعنا المضادة للدبابات، وتجدر الاشارة وينبغي التنويه، بصورة خاصة، الى نيران المدافع المضادة للدبابات التي دمرت ٩ عربات مدرعة، والى بطارية مدفعية من عيار ٧٥ ملم اطلقت نيرانا كثيفة وفعالة على حشود قوات المشاة والمدرعات.

وفي اليوم نفسه، وسعت الكتيبة ٩ التابعة للواء «غولاني» المعركة في اتجاه الجنوب، باحتلالها موقع «هكيرم» [الكرم]، واقتربت من المواقع المتطرفة للواء «هارئيل» الى ان اوجدنا نظام انتشار متواصل تقريبا، ممتد من الجنوب والشرق الى معسكر الجيش في رفح. وكان هذا

المعسكر صالحا للاستخدام نقطة انطلاق مريحة لمواصلة الاندفاع نحو رفح. لكننا لم نصل الى مرحلة هذا الاندفاع على الاطلاق. فقد حالت العاصفة الرملية، التي هبت طوال ذلك اليوم، ١/٦، دون القيام بأي شيء على طول الجبهة. وفي اليوم ذاته، اعلنت حكومة مصر استعدادها للبدء فورا بمفاوضات في شأن اتفاقية هدنة. وكانت هذه الحقيقة بمثابة انجاز كبير، ينبغي رد الفضل فيه الى الانجازات العسكرية لعملية «حوريف». ان مصر ــ اكبر دولة عربية ــ التي وعدت قبل ثمانية اشهر من ذلك بتصفية دولة اسرائيل والقاء اليهود في البحر خلال اسبوعين، ارغمت عمليا على الاعتراف بقيام دولة اسرائيل، وعلى الاجتماع الى ممثليها ضمن وضع اعتبر فيه المصريون، وان لم يعترفوا بذلك، مهزومين. ان هذا الانجاز السياسي، والرغبة في استغلاله بسرعة، بالاضافة الى ضغط الامم المتحدة لايقاف اطلاق النار، الذي جاء في اعقاب موافقة المصريين على وقف اطلاق النار، كل هذا منع الوحدات على الجبهة الجنوبية من استغلال النجاحات العسكرية والحاق الهزيمة الكاملة بالجيش المصري. ومنذ ذلك الوقت، لم تجد حكومة اسرائيل مفرا من الموافقة على وقف اطلاق النار، الذي امر به مجلس الامن قبل ثمانية ايام. وبدأ سريان مفعول وقف اطلاق النار هذا في الساعة ١٤,٠٠ من يوم ١٩٤٩/١/٧. ودارت المعارك الاخيرة حول موقع الحاجز على طريق رفح ــ العريش. وكان هذا هجوما شنّته مجنزرات ومدرعات، وانتهى في الساعة ١٩,٠٠ من اليوم نفسه. وبعد ذلك عم الهدوء جميع انحاء النقب.

١٠ ــ اسقاط الطائرات البريطانية

361

قبل ساعات معدودة من ذلك، عشية انتهاء الحرب «الساخنة» في البلد، وقع حادث كاد يؤدي الى صــدام واسع النطاق بين الجيش الاسرائيلي والجيش البريطاني؛ كما نذكر، فقد امتنعنا منذ بداية الحرب عن الاصطدام بالبريطانيين، قبل الجلاء وبعده على حد سواء. فقد انطلقت من منطقة القناة خمس طائرات مقاتلة بريطانية، حلقت فوق ساحة المعركة للتأكد من الانسحاب الفعلي لقوات الجيش الاسرائيلي من الاراضي المصرية، واعترضتها طائراتنا وأسقطتها بالقرب من نيريم. وتحركت وزارة الخارجية البريطانية ــ برئاسة بيفن ــ بسرعة، فطلبت تفسيرات وتعويضات من دولة اسرائيل. وخلال فترة قصيرة ارسلت على جناح السرعة تعزيزات للجيش البريطاني المعسكر في العقبة. وتشجع المصريون من نشاط البريطانيين وأعلنوا انهم لن يبدأوا المفاوضات ما دام الجيش الاسرائيلي على الاراضي المصرية*. واذا كان بيفن قصد من وراء ارسال طائراته منع المفاوضات بشأن الهدنة، فقد كاد ينجح في ذلك.

---

* لقد كانت المواقع التي تمركز فيها الجيش الاسرائيلي الى الجنوب من رفح واقعة داخل الاراضي المصرية. كما ان معظم طريق العوجا ــ رفح، محور الحركة الوحيد المفضي الى هذه المواقع، كان يمر عبر الاراضي المصرية.

لكن بيفن ارتكب خطأ آخر في سلسلة الاخطاء الكثيرة التي ارتكبها في اثناء معالجته مشكلات ارض ـ اسرائيل، التي تعهد بحلها وفقا لهواه. ففي هذه المرة تحفظت حكومة الولايات المتحدة بوضوح من موقف بريطانيا. وانتقد رئيس الولايات المتحدة بحدة تحليق الطائرات الاستطلاعية البريطانية فوق منطقة المعارك، وزيادة القوات في العقبة. وأيضا في بريطانيا ذاتها، وجهت انتقادات شديدة الى وزير الخارجية، الذي يعرض من دون داع حياة الطيارين البريطانيين للخطر.

ومن ناحية اخرى، لفت هذا الحادث الانتباه الى حقيقة استمرار وجود وحدات اسرائيلية فيما وراء الحدود، مع انها كانت على بعد مسافة قريبة منها. واضطرت القيادة العليا مرة اخرى الى اصدار الامر الى كل وحدات الجيش الاسرائيلي الموجودة خارج الحدود السياسية في قطاع طريق العوجا ـ رفح، وفي قطاع رفح نفسه، بالعودة والتمركز عند الحد السياسي تماما. وأدى ذلك الى خسارة ميزة تكتية كبيرة، وخصوصا بسبب ازالة الحاجز من طريق رفح ـ العريش. ان السيطرة على هذا الطريق كان من شأنها ان تمنح دولة اسرائيل «ميزة مهمة» خلال المفاوضات في المستقبل. لقد كان من شأنها ان تحول قطاع غزة ـ رفح الى قطاع معزول واقع تحت رحمتنا، كما كانت واضحة الاهمية الحيوية لهذه السيطرة في حال تجدد المعارك. لكن، كما جاء في الامر الذي اصدره قائد الجبهة، «لم يكن هناك مجال لأي طعن او تأجيل مهما يكن بالنسبة الى تنفيذ الامر، مع ان ذلك كان صعبا».

١١ ـ القتال الجوي في عملية «حوريف»

كانت عملية «حوريف» اختبارا صعبا لسلاح الطيران، اذ كلف القيام بمهمات في ظروف جوية صعبة. ومع ذلك نفذ السلاح معظم المهمات التي انيطت به، وبنجاح كبير.

في الفترة بين ١٩٤٨/١٢/٢٢ و١٩٤٩/١/٧، شن سلاح الطيران ٢٤٣ غارة، ألقى خلالها ٢٢٦ طنا من القنابل على ١٢ هدفا للعدو. وكان عدد الغارات في عملية «حوريف» مساويا تقريبا لعدد الغارات في عملية «يوآف»، لكن كمية القنابل التي ألقيت خلال عملية «حوريف» كانت اكبر كثيرا (٢٢٦ طنا في مقابل ١٥١ طنا). وكان هذا انجازا حسنا، اذا اخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه اعلاه عن حالة الطقس الرديئة. 362

وحالف الحظ الطائرات المقاتلة ايضا في هذه العملية. ففي الساعة ١٠,٤٥ من يوم ١٢/٢٨، اشتبكت طائرتا «سبيتفاير» تابعتان لنا مع طائرتي «فيات» كانتا قد قصفتا للتو العوجا التي كنا نحتلها، وأطلقنا عليهما نيران المدافع الرشاشة، فأصيبت احداهما وشوهدت وهي تنسحب والدخان الاسود يتصاعد منها. كما هاجمت طائرتانا بعد قليل الطائرة الاخرى التي شوهدت، بعد عدد من الرشقات، تهوي في اتجاه الارض.

وفي الساعة ٠٧,٤٥ من يوم ١٢/٣١، اقلعت ثلاث طائرات «سبيتفاير» تابعة لنا

لمهاجمة مطار بيرحمة. وعندما اصبحت فوق المطار بدأت اثنتان باطلاق رشاشاتها بينما حلقت الثالثة فوقهما للحماية. وشاهد طيار الحماية طائرة «فيات» واحدة في الجو فاتجه لمهاجمتها. وأصيبت الـ «فيات»، وشاهدها طيارو الـ «سبيتفاير» الثلاثة وهي تتحطم على الارض، على بعد ٦ كلم تقريبا من المطار. وبعد ذلك هوجمت طائرة «فيات» اخرى كانت جاثمة على الارض، وطائرة «فيات» ثالثة كانت تسير على المدرج استعدادا للاقلاع. وأصيبت الاثنتان بأضرار.

ودارت معركة جوية اخرى في ٥/١، عندما اقلعت طائرة «سبيتفاير» وطائرة اخرى تابعتان لنا في عملية اعتراض التقتا خلالها في أجواء رفح ثلاث طائرات من طراز «فيات». وفرت طائرة «فيات». ودارت معركة مع الاثنتين الاخريين. وشوهدت احدى طائرتي العدو وهي تتحطم. وهناك شكوك بصدد اسقاط الثانية.

وفي ١٩٤٩/١/٧، يوم وقف اطلاق النار، التقت مرتين طائرات احد أسراب سلاح الطيران، الذي انضمت اليه طائرات اخرى من طراز «سبيتفاير»، تشكيل طائرات اتضح من تطورات الوضع انه كان تابعا لـ «سلاح الطيران الملكي» البريطاني. وفي المعارك الجوية التي دارت معها اسقطت، بمساندة مدافعنا المضادة للطائرات، خمس طائرات بريطانية، من دون ان نتكبد اية خسائر.

١٢ ـ القتال البحري في عملية «حوريف»

نستطيع تلخيص مهمات سلاح البحرية في عملية «حوريف» كالتالي:

أ ـ فرض حصار كامل على شاطىء قطاع غزة، اي منع اية حركة نقل بحرية بين قطاع غزة ومصر، وقرب شواطىء «القطاع» نفسه.

ب ـ قصف شواطىء العدو بين العريش وغزة.

ج ـ قطع خط سكة الحديد بين رفح والعريش.

وتم انجاز مهمتين من هذه المهمات الثلاث بصورة كاملة. فقد كان الحصار على قطاع غزة تاما، وخلال العملية لم تصل اية سفينة للعدو من مصر الى القطاع، ولم تتم اية عملية نقل على طول شواطئه.

وحقق قصف الشواطىء ايضا هدفه، اذ حول العدو قوة كبيرة من المدافع والمصابيح الكاشفة والدوريات من جبهته الشرقية الى الساحل. ان المضايقات الكثيرة من البحر لم تتسبب بأضرار فعلية كثيرة فحسب، بل اوجدت ايضا ما يشبه خط جبهة ثانيا في مؤخرة الجبهة البرية، ابقى العدو في حالة تأهب دائم تحسبا لقيامنا بعملية من ناحية البحر. وأشارت مصادر الاستخبارات الى التأثير النفسي القوي الذي احدثه القصف البحري على غزة ورفح، وخصوصا في اوساط المدنيين.

363

وفي مقابل نشاط سلاح البحرية الاسرائيلي، جدد الاسطول المصري ايضا، بعد توقف

طويل (منذ شهر حزيران/يونيو)، نشاطه الهجومي. وحاول هذه المرة التعرض للنقل البحري المتجه الى البلد. فقد وصل نبأ مفاده ان سفينتين مصريتين توقفان السفن المتجهة الى اسرائيل وتفتشانها. وفور تلقي النبأ بدأ البحث عن سفينتي العدو. لكن هاتين السفينتين نجحتا في الوصول الى شواطىء تل ابيب، في ١٩٤٩/١/١، وأطلقتا على المدينة نحو ٣٠ قذيفة من مسافة تبعد عن الشاطىء ٣ ــ ٤ كلم، وانفجرت جميع القذائف في الماء من دون ان تسبب في اية اضرار. وبعد عشر دقائق اتجهت السفينتان غربا، وبدأت مطاردتهما فورا. وفي الساعة ٠٩,٢٠، اكتشف الاسطول الاسرائيلي سفينتي العدو في نقطة تبعد ٦٧ ميلا الى الغرب من تل ابيب. وبدأت سفينتا العدو ترسلان اشارات «نحن الاسطول المصري، من انتم؟» ولم يتأخر الجواب. فبعد دقائق معدودة فتح الاسطول [الاسرائيلي] النيران. ورد العدو فورا باطلاق النار وابتعد، وبما ان سفينتيه كانتا اسرع من سفن سلاح البحرية الاسرائيلي، فقد نجح في الاختفاء. وانتهت المعركة ظهرا من دون ان تصاب بأضرار اي من السفن المشاركة.

١٣ ــ النتائج

انتهت عملية «حوريف» («عاين») من دون ان تحقق هدفها تماما؛ فقد بقي العدو في قطاع غزة وفي «جيب» الفالوجة. وقد انتهت العملية، كما ذكرنا، بفعل ضغط من قوى عظمى اجنبية. وفي المحصلة خفف هذا الضغط من الضغط السياسي ومن القدرة على المساومة التي كانت بيد دولة اسرائيل في مفاوضات الهدنة.

ومع ذلك اعتبرت عملية «حوريف»، من الناحية العسكرية، عملية ذات انجازات كبيرة جدا وثمار سياسية مهمة. فقد اظهر جيش الدفاع الاسرائيلي، بكل اذرعه وأسلحته، قدرة على التخطيط والتنفيذ، ومستوى مهنيا وروحية قتالية فعالين ورفيعين. وأبيد جزء كبير من الجيش المصري. وطرد العدو من معظم مواقعه في البلد، وأنقذ النقب العبري من المكائد السياسية التي كانت تشكل خطرا على بقائه.

والاهم من ذلك ان مصر ــ اقوى الدول العربية ــ التي تتفاخر بأنها قائدتها، ارغمت على البدء بمفاوضات مع دولة اسرائيل، وأدى ذلك الى انهاء الحرب.

ب - العَمليّات الأخيرة وَاتفاقيّات الهُدنَة

١ ـ اتفاقية الهدنة مع مصر

بعد مفاوضات مضنية ومعقدة تم في رودس، يوم ١٩٤٩/٢/٢٤، توقيع اول اتفاقية للهدنة مع دولة عربية ـ مع مصر. وكنتيجة لذلك اخلي «جيب» الفالوجة، وبقي النقب بأسره في نطاق دولة اسرائيل، باستثناء «قطاع غزة» الممتد من رفح حتى بيت حنون. وجردت منطقة عوجا الحفير من السلاح وعينت مقرا للجنة الهدنة المشتركة.

وجنبا الى جنب مع المحادثات مع مصر اجريت محادثات تمهيدية لعقد اتفاقيتين للهدنة مع لبنان (في رأس الناقورة)، ومع مملكة شرق الاردن في القدس وفي قصر الملك عبد الله في الشونة.

٢٠ ـ عملية «عوفدا»

خلال المفاوضات مع الاردنيين اتضح ان هؤلاء يدعون السيطرة على النقب الجنوبي، ويطالبون بضمه اليهم. وأصبح من الضروري ايقافهم على حقيقة ان هذه المنطقة، التي تشمل ايلات، موجودة ضمن نطاق سيطرتنا، وأن من الافضل لهم التنازل عن طلبهم هذا.

وكانت الخطة تقضي بالتقدم نحو ايلات بقوتين: الاولى تتحرك في وسط النقب سالكة اودية وطرقا وعرة، بينما تتحرك القوة الثانية على الطريق المار بعربة (هعرفاه) في اتجاه ايلات.

وتركزت الاستعدادات للعملية، في الاساس، في دوريات الاستطلاع الارضية والجوية لتفحص طريق تقدم القوة الداخلية، وفي الاستعدادات الادارية المرتبطة بتحرك القوات اياما كثيرة في الصحراء، على طرق صعبة بعيدا عن القاعدة، والقتال من دون اي امكان لتلقي نجدة او مساندة من قوات برية اخرى.

وارتكزت الخطة الادارية للعملية، فيما يتعلق بالقوة الداخلية، في الاساس على مدرج هبوط موقت ـ مطار «أبراهام» ـ جرى التفكير في إعداده لهبوط الطائرات في بقعة تبعد نحو ٥٠ كلم الى الشمال من ايلات، بما في ذلك طائرات النقل الثقيلة.

وتقرر ان تتقدم برا الى مطار «أبراهام» قوات صغيرة بقدر الامكان، هي اللازمة لانشاء مدرج الهبوط وحمايته، بالاضافة الى الآليات اللازمة لمواصلة التقدم منه، والتي

لا يمكن نقلها بطريق الجو. أما وحدات هذه القوة الاخرى، فينقلها سلاح الطيران الى المدرج.

365 وكان اللواءان اللذان كلفا المشاركة في هذه العملية، هما لواء «غولاني» ولواء «النقب». وكان على لواء «غولاني» ان يتحرك في طريق عربة (هعرفاه)، ولواء «النقب» في الطريق الداخلي عبر جبل النقب.

وفي ساعات الصباح الباكرة من ٣/٥، تحركت طليعة الطابور التابع للواء «النقب»، ومعها الطاقم الارضي التابع لسلاح الطيران، من بئر السبع. فتحركت في البداية على طريق بئر السبع – العوجا، وبعد ذلك نزلت عن الطريق الى الطريق الترابي المؤدي الى عبدة، وواصلت سيرها الى مختيش رامون، ومنها اتجهت نحو الجنوب. وكان الطريق وعرا جدا، وسدت صخور كبيرة طريق طليعة الطابور مما تسبب بتأخرها، الى حين عثورها على ممر او الى ان يفجر سلاح الهندسة الصخور. وبذل السائقون مجهودا كبيرا، اذ اضطروا احيانا الى قيادة آلياتهم عبر فتحات عرضها تقريبا عرض الآلية تماما. وكان التقدم بطيئا، وبلغت السرعة في جزء صعب بصورة خاصة ٢ كلم في الساعة. وتسببت اعطال في السيارات بين حين وآخر بحدوث تأخر. وتركت سيارة تعذر اصلاحها في الطريق. ومع ذلك وصلت طليعة الطابور، تستقل سيارات جيب، ومعها أفراد سلاح الجو، الى المكان المحدد لاعداد مدرج الهبوط، في عصر يوم ٣/٦. وعندما وصل الطابور نفسه، الذي تحرك في سيارات كوماندكار، وجد المدرج ممهدا وجاهزا لاستقبال طائرات النقل.

وفي ساعات العصر الباكرة، شوهد عدد من الطائرات يحلق جنوبا، على بعد كبير من مدرج الهبوط. وبما ان رجالنا كانوا يجهلون ان هذه هي طائراتنا، فانهم لم يساعدوها في الاستدلال على المدرج. واتضح فيما بعد انها كانت طائرات النقل الأولى، وأنها كانت تبحث عن «مطار أبراهام». وتحسبا لافتضاح امر العملية قبل موعدها كان من المفروض ان تحضر هذه الطائرات معها مصابيح لانارة المدرج، تسهيلا لعملية الهبوط خلال الليل. وبما ان هذه الطائرات لم تهبط ولم تأت طائرات اخرى خلال النهار، فقد جمعت علب اغذية محفوظة، وملئت برمل اشبع بالبنزين وأشعلت، وهكذا أُنير المدرج. وعند الساعة السادسة تقريبا، شوهدت طائرتان من طراز «كوماندو» تحلقان غربي المدرج. وبواسطة شرارات ملونة وطائرة استكشاف كانت ملازمة للواء تم توجيههما الى المدرج وحطتا بسلام. وكانتا تقلان رجال سلاح الطيران والاعتدة اللازمة للمطار.

وفي اليوم ذاته، جرت الاستطلاعات الاولى لتحديد الطريق من المدرج الى ايلات. وجرى معظم نشاط سلاح الطيران في الليل. ووصلت الطائرات واحدة في اثر اخرى، وأحضرت معها السرية المكلفة احتلال المرتفعات الواقعة في الطريق الى ايلات، وكل الاعتدة والمؤونة اللازمة لها.

وفي الوقت نفسه انطلق الطابور الشرقي المشكل من قوات «غولاني» في طريقه. وكانت

منطقة التجمع في كرنب. وكان قوام **مقدمة الطابور**: وحدات مدرعات وسيارات جيب تابعة للكتيبة المؤللة ٩/غولاني، ومشاة منقولين بمجنزرات، وأيضا اسلحة مساندة منقولة ومدافع مضادة للدبابات تجرها سيارات كوماندكار، ومهندسين ايضا. وأوكلت الى هؤلاء المهمة الخطرة وهي إزالة الالغام التي سيتم اكتشافها في الطريق، ومد شبكات على الرمال.

وفي ٣/٧، وصلت مقدمة الطابور الى **عين حصب** (عين حتسفاه)، النبع الكبير الواقع عند مفترق طرق بئر السبع ــ سدوم ــ ايلات. وفي ساعات الغسق من اليوم نفسه، عندما حطت على مدرج «مطار أبراهام» الطائرات الاولى، انطلقت الجيبات الاولى من عين حصب نحو الجنوب لاحتلال عين الويبة (عين ياهف)، الواقعة على بعد ٢٥ كلم تقريبا الى *367 الجنوب من هناك. وكان معلوما قبل فترة قصيرة من ذلك ان منطقة العين بيد العدو. لكن عندما وصلت الوحدة الى المكان وجدته خاليا. وبقيت قوة مخصصة لذلك للتمركز فيه.
وابتداء من فجر ٣/٨ تحولت عملية «عوفدا» الى نوع من السباق بين القوتين المتقدمتين، من منهما تفوز وتسبق الاخرى في الوصول الى ايلات. وواجهت القوة الغربية ــ لواء «النقب» ــ التي كانت مقدمتها على بعد نحو ٥٠ كلم تقريبا شمالي ايلات، في اثناء تقدمها، عقبات هندسية خطرة وصعبة متعلقة بايجاد طريق للمرور. اما القوة الشرقية، لواء «غولاني»، التي كانت مقدمتها في عين الويبة، على بعد ١٢٠ كلم من ايلات، فقد كان طريق تقدمها في العربة سهلا جدا، إلا انه كان متوقعا لها ان تشتبك مع قوة العدو الموجودة في المنطقة.

وفي ٣/٨ سيطرت القوة الشرقية («غولاني») على الغمر (عين غامر) الواقعة على بعد ١٠ كلم جنوبي عين الويبة، بعد ان اصطدمت بمقاومة للعدو تقدر قوتها بفصيلة. وبسبب الامر الصادر بالامتناع عن خوض أية معركة، امتنعت الوحدة عن الرد على اطلاق النار بالمثل، ونجحت في دفع العدو الى الفرار بحركة تطويق سريعة من الناحية الشرقية للطريق، اذ خشي عزله عن قواته الرئيسية. ووجدت مدرعة للعدو متروكة الى جانب الطريق. وتسببت سحابة من الغبار تصاعدت من الوادي بتريث القوة وانتشارها، الى ان اتضح ان هذا الغبار ليس ناتجا عن حركة للعدو وانما نجم عن زوبعة من الرياح. ووصلت الوحدة الى منبع الجرافي ــ نهر باران ــ المنحدر الى العربة من جبل النقب. وفي اليوم ذاته سيطرت مقدمة القوة على بير الملحة ــ بئير منوحاه ــ وتقدمت الى منبع الحياني: نهر حيون.

وفي ذلك اليوم لم تتقدم القوة الغربية («النقب») إلا قليلا. تمركزت السرية الخاصة، المعدة لاحتلال المرتفعات الصخرية، في واد يبعد ١٥ كلم تقريبا الى الجنوب من «مطار أبراهام»، وطلبت الانتقال منه الى الجنوب. ووصل قائد الجبهة الى المكان، وتم الاتفاق معه على الخطوات التالية. واستطلعت المرشرش من الجو، وحددت المواقع التي كان يحتلها الفيلق [العربي] بالقرب من المكان، شمال غربي مخفر الشرطة وعلى الطريق المؤدي الى الكنتيلا، الواقعة في شبه جزيرة سيناء.

* الصفحة 366 في الاصل تحتوي على خريطة عملية «عوفدا»، ٦ ــ ١٩٤٩/٣/١٠. (المترجم)

وفي فجر يوم ٣/٩، واصلت القوة الشرقية («غولاني») سيرها. وكان الهدف الاول لذلك اليوم الغرندل.

ووجدت مواقع الغرندل مهجورة. واعتقد أفراد طليعة القوة ان الطريق مفتوح امامهم الى عين الغضيان (يوتفاتا). لكن سرعان ما اتضح ان العدو نقل قواته الى الجنوب من الغرندل، الى سفوح جبل القطار (كيتوره)، ونصب هناك كمينا مسلحا بمدافع مضادة للدبابات ومدافع هاون. وبكر كمين الفيلق في البدء باطلاق النار، وبالتالي لم يلحق بالقوة المتقدمة اية اصابات. وأصبح الطريق مغلقا، لكن لا لفترة طويلة. وبحلول الظلام ارسلت مرة اخرى وحدات خفيفة للقيام بعملية التفاف في اتجاه مؤخرة العدو، وخوفا من الانعزال انسحب جنود الفيلق تحت جنح الظلام. ونظمت طليعة القوة صفوفها للمبيت في الغرندل والمواقع الكائنة جنوبيها.

وطوال ليل ٨ ـ ٣/٩ واليوم التالي له، قامت دوريات راجلة تابعة للقوة الغربية («النقب») باستطلاعات لاكتشاف طريق الى خليج ايلات او الى مكان ملائم للمراقبة. وشاركت في الاستطلاع وحدات من الجيبات ايضا. ووصلت دورية استطلاع راجلة في الليل الى «موقع الشقيف» (نقطة التقاطع ١٣٨٥٨٨٨٥)، ووجدت هناك موقعا للعدو فانسحبت. كما صادفت دورية استطلاع اخرى ـ كانت تفتش عن طريق للعبور بين الصخور ـ جنديا اردنيا على الحدود المصرية.

368 وفي ذلك اليوم، علم ان الفيلق نقل قوات من المرشرش الى عين الغضيان (يوتفاتا). لكن في الساعة ١٠,٣٠ من صباح اليوم التالي، اتضح ان العدو اخلى رأس النقب والمرشرش (ايلات) ونقل قواته الى العقبة. وأظهر استطلاع جوي ان المواقع الصخرية المرتفعة في المرشرش خالية من البشر. وعلى الفور انطلق رجال السرية الخاصة سيرا على الاقدام لاحتلال مرتفعات رأس النقب. وبعد سير مضن وحثيث، وصلوا ظهرا الى المرتفعات الصخرية وأطلوا من هناك اول مرة على خليج ايلات. وواصل قسم من رجال السرية سيرهم نحو الخليج، وفي الساعة ١٥,٠٠ دخلوا مركز الشرطة. وكانت المرشرش عبارة عن عدة بيوت من الطين، سقوفها مرتكزة على دعائم من جذوع النخيل، وبضعة أكواخ، ولافتة زرقاء كتب عليها «مخفر شرطة» بالانكليزية والعربية والعبرية.

وبعد ساعتين من ذلك وصلت الى المكان ايضا طليعة لواء «غولاني»، بعد ان سيطرت خلال النهار على عين الغضيان من دون قتال. وأرسلت الى هيئة اركان الجبهة برقية: «انقلوا الى حكومة اسرائيل ما يلي: بمناسبة يوم الهاغاناه، يوم ١١ آذار [عبري]، يهدي لواء النقب/البلماح ولواء غولاني دولة اسرائيل خليج ايلات».

٣ ـ احتلال عين جدي

ادت عملية نفذت في قطاع آخر، وكانت جزءا لا يتجزأ من عملية «عوفدا»، الى توسيع منطقة سيطرة اسرائيل في الجزء الشمالي الشرقي من النقب، والى تثبيت خط عين جدي ــ رأس الزويرة ــ الموقع ٤٣٢ ــ ام برج. وقد كلف لواء «ألكسندروني» تنفيذ هذا الجزء من العملية. فانطلق من بئر السبع واحتل المواقع الكائنة على المرتفعات الجنوبية والشرقية لجبال يهودا، وسيطر على عين جدي.

وقد تمت هذه السيطرة من ناحية البحر. فقد انطلقت القوة، التي قوامها سرية مشاة وفصيلة خبراء تدمير، في زوارق من سدوم، في ٨ آذار/مارس، مع حلول الليل. وميزت شاطىء عين جدي على الرغم من الظلام الدامس. وتمركزت فصيلة واحدة عند النبع، وسيطرت فصيلة اخرى على التل القديم المجاور له، بينما سارت فصيلة ثالثة على الدرب الجبلي الشديد الانحدار والالتواء حتى قمة المرتفع الصخري. وكان بحث الدليل عن الطريق في الليل، وصعود الفصيلة في الظلمة والمطر ــ بحد ذاتهما ــ عملا عظيما. وفي الصباح كانت عين جدي والمرتفع الصخري المشرف عليها في يد «ألكسندروني».

٤ ــ اتفاقية الهدنة مع لبنان

بعد انتهاء عملية «عوفدا» مباشرة وقعت اتفاقيتا الهدنة مع لبنان والاردن. وقد وقعت اتفاقية الهدنة مع لبنان في رأس الناقورة في ١٩٤٩/٣/٢٣. وكانت اسرائيل تمسك بيدها، خلال المفاوضات مع لبنان، ورقة كبرى: ١٤ قرية لبنانية احتلها الجيش الاسرائيلي في اثناء عملية «حيرام». وفي مقابل اخلائها طالبنا نحن باخلاء السوريين للمناطق التي احتلوها في رأس الجسر في مشمار هايردين. وكانت حجتنا ان سورية ولبنان عملا ضدنا بصورة منسقة وأن قوات سورية استخدمت الاراضي اللبنانية قاعدة لعملياتها. ولم يقبل الوسيط بهذا الطلب، واضطرت دولة اسرائيل الى التخلي عنه واعادة القرى من دون مقابل كبير. وتم توقيع الاتفاقية، وتحدد خط حدود الانتداب خطا للهدنة.

369

٥ ــ اتفاقية الهدنة مع الاردن

كانت المفاوضات مع الاردن طويلة وصعبة ايضا. فقد تشكل الخط على الجبهة الوسطى في بداية الهدنة الثانية. ومنذ ذلك الوقت لم تجر على هذه الجبهة عمليات كبيرة على غرار العمليات التي جرت على الجبهتين الشمالية والجنوبية. وكان هذا الخط العفوي، الطويل والمتعرج، والفاصل بين قوات الجيش الاسرائيلي والجيشين الاردني والعراقي، يفصل ايضا بين معظم السكان اليهود ومعظم السكان العرب في ارض ــ اسرائيل، ويقسم القدس الى قسمين. وبالتالي كانت نقاط الخلاف بصدده كثيرة، واستمرت المفاوضات للتوصل الى اتفاق بشأنه زمنا طويلا.

وفي اثناء ذلك جرت عملية «عوفدا»، ووافق الاردنيون على الاعتراف بسلطة اسرائيل في جنوب النقب. وحُلت مشكلة اخرى؛ فقد قرر العراقيون، الذين رفضوا حتى ذلك الوقت الدخول في مفاوضات بشأن الهدنة، سحب قواتهم من ارض ـ اسرائيل. وكانت تلك لحظة ملائمة لعبد الله ملك الاردن، الذي سنحت له من دون مجهود عسكري فرصة لبسط سلطانه على مزيد من المناطق كان العراقيون يحتفظون بها قبل ذلك. لكن هذه السيطرة استلزمت مزيدا من التجزئة لقوات الفيلق القليلة العدد اصلا. ومن اجل تجنيد قواته لهذه المهمة طلب عبد الله الوصول الى اتفاق فوري مع اسرائيل. وعندما علمت حكومة اسرائيل بالامر، ارسلت على الفور للقائم بأعمال الوسيط إخطارا، ذكر فيه بوضوح ان استبدال العراقيين بأردنيين، الذي يمكن ان يمنح احد الاطراف ميزة عسكرية، هو بمثابة خرق للهدنة، ولن تعترف اسرائيل بذلك. وارتدع الاردن ووافق على تنازلات كبيرة. وبعد ان وافق الاردن على نقل خط مواقعه في الشارون الى الشرق، الى ما وراء سلسلة الهضاب الاولى، وعلى ان يبقي ضمن نطاق اسرائيل وادي عارة وطريق الخضيرة ـ العفولة المار بها، وافقت اسرائيل على التنازل عن مناطق معينة كانت في قبضتنا، على المنحدرات الغربية والجنوبية لجبال الخليل.

ونصت الاتفاقية على: حرية المرور في طرقات حيوية (من ضمنها المرور في طريق القدس ـ بيت لحم بالنسبة الى العرب، والمرور في طريق اللطرون ـ القدس بالنسبة الينا)؛ استئناف العمل المنتظم في المؤسسات التعليمية والطبية الموجودة على جبل المشارف وحرية الوصول اليها؛ حرية الوصول الى الاماكن المقدسة والاماكن التعليمية والمقبرة على جبل الزيتون؛ استئناف تشغيل محطة الضخ في اللطرون؛ تزويد البلدة القديمة بالكهرباء؛ استئناف حركة النقل في خط سكة الحديد الى القدس.

وينبغي لنا ان نذكر انه باستثناء استئناف حركة النقل في خط سكة الحديد، لم ينفذ اي بند من هذه البنود حتى الآن.

وقد وضعت الاتفاقية في رودس في ١٩٤٩/٤/٣.

وفي الاسابيع التالية لذلك ثبتت الخطوط وفقا للاتفاقية؛ فدخلت قوات الجيش الاسرائيلي، من دون قتال: ام الفحم وعارة وعرعرة وباقة الغربية في منطقة وادي عارة؛ الطيرة الواقعة بالقرب من رامات هكوفيش، وجلجولية والطيبة وقلنسوة بالقرب من طولكرم؛ كفر قاسم بالقرب من بيتح تكفا وبيت صفافا وبتير والقبو والولجة جنوبي سكة الحديد، في منطقة القدس (وهكذا اصبح كل خط سكة الحديد من الساحل الى القدس بيد اسرائيل). وفي مقابل ذلك، اخلى الجيش الاسرائيلي منطقة الظاهرية في الطريق من بئر السبع الى الخليل.

370

وفي ١٩٤٩/٥/٢٢، استكمل احتلال المواقع الجديدة. وفي الوقت ذاته، حل الفيلق محل العراقيين في مواقعهم، من اليرموك حتى روش هعاين [رأس العين]. وآنذاك فتح طريق وادي عارة امام حركة المواصلات الاسرائيلية.

٦ ــ اتفاقية الهدنة مع سورية

استغرقت المفاوضات من اجل توقيع الاتفاقيات الثلاث المذكورة اعلاه ما يزيد على الشهرين، بينما استغرقت المفاوضات مع سورية وحدها ثلاثة اشهر ونصف الشهر تقريبا. وكانت هذه ايضا المفاوضات الاصعب، في الاساس بسبب الحقيقة انه من بين كل الجيوش التي غزت البلد، كان الجيش السوري هو الوحيد الذي احتل منطقة اسرائيلية ــ «رأس الجسر» في مشمار هايردين ــ ونجح في الاحتفاظ بها حتى الهدنة الثانية. ان هذه المنطقة لم تكن حقا كبيرة، إلا ان اهميتها العسكرية والاقتصادية كانت فائقة. وفي البداية اصر السوريون بشدة على ان من حقهم الاستمرار في الاحتفاظ بالمنطقة المحتلة من دون شروط. وفيما بعد، وافقوا على الانسحاب الى خط نهر الاردن (وليس الى الحد السياسي للانتداب، الواقع وراءه من ناحية الشرق). وازاء الموقف المبدئي الواضح لدولة اسرائيل من هذه المسألة، بدأت فترة ازمات وتوقف في المحادثات. وفي النهاية قدم القائم بأعمال الوسيط اقتراحا بحل وسط، هو نزع السلاح من المنطقة. وكان لا بد من ان تشمل المنطقة المنزوعة السلاح ايضا دردرا (اشموراه) الواقعة شرقي الحولة وعين غيف (الواقعة شرقي بحيرة طبريا). فقد ادعى السوريون انه اذا لم تشمل المنطقة المنزوعة السلاح النقطتين الاخيرتين، فان امن سورية سيكون مهددا لكون هاتين النقطتين تشكلان رأس جسر لغزو سورية.

وعلى اساس هذه المقترحات تجددت المحادثات. وبعد مزيد من المفاوضات، تم التوصل ايضا الى اتفاق في شأن الحكم المدني في المنطقة المنزوعة السلاح.

وفي ١٩٤٩/٧/٢٠ وقعت، في خيمة نصبت في حقل في المنطقة الحرام بالقرب من محنايم، الاتفاقية مع السوريين ــ الاتفاقية الاخيرة للهدنة مع العرب.

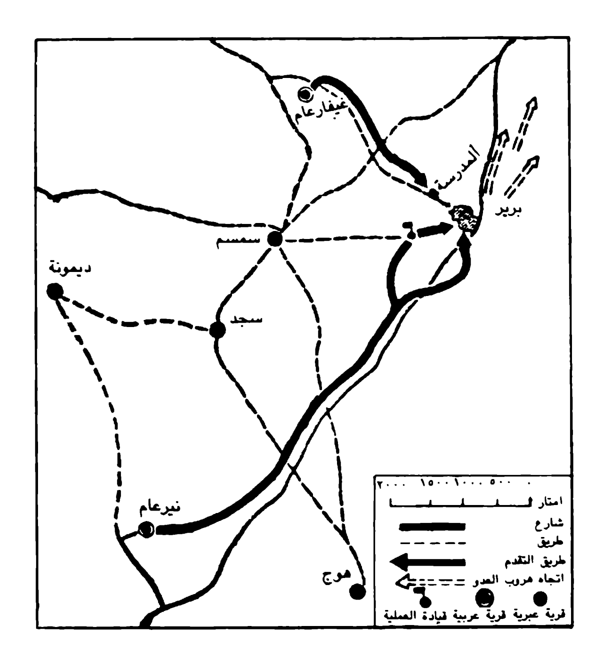
وفي الاسابيع التالية لذلك سحب السوريون قواتهم الى ما وراء الحدود الدولية، وجردت اسرائيل عين غيف ودردرا من السلاح.

٧ ــ الخلاصة

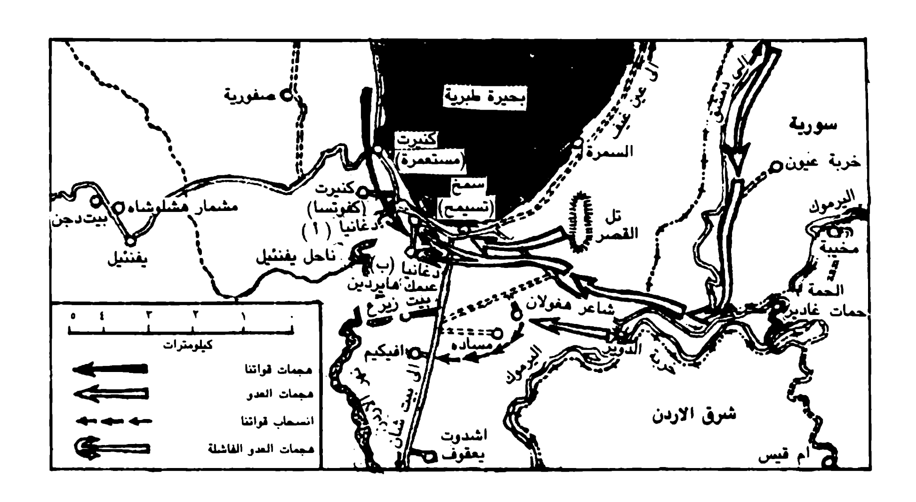
في المرحلة الاخيرة من حرب الاستقلال، اي من بداية الهدنة الثانية في ١٩٤٨/٧/١٨ حتى اتفاقيات الهدنة، سقط في المعارك ٢١٢٣ جنديا. وقد فقدنا في حرب الاستقلال بأسرها ٤٠٧٤ جنديا ونحو ٢٠٠٠ مدني ــ وهو الثمن الاغلى الذي دفعناه من اجل استقلالنا.

ويشكل تاريخ توقيع الاتفاقية مع السوريين النهاية الفعلية لحرب الاستقلال. وكان ذلك نهاية فصل وبداية فصل آخر. لقد خطت الدولة الفتية المنتصرة ــ ولكن المضرجة بالدماء ــ الى حقبة جديدة، حقبة استيعاب المهاجرين والاستيطان، وتطوير الثروات والمصادر، وبلورة أنماط المجتمع والنظام السياسي، وتنمية الثروة الروحية والعلمية، وبناء قوتها العسكرية وتعاظمها.

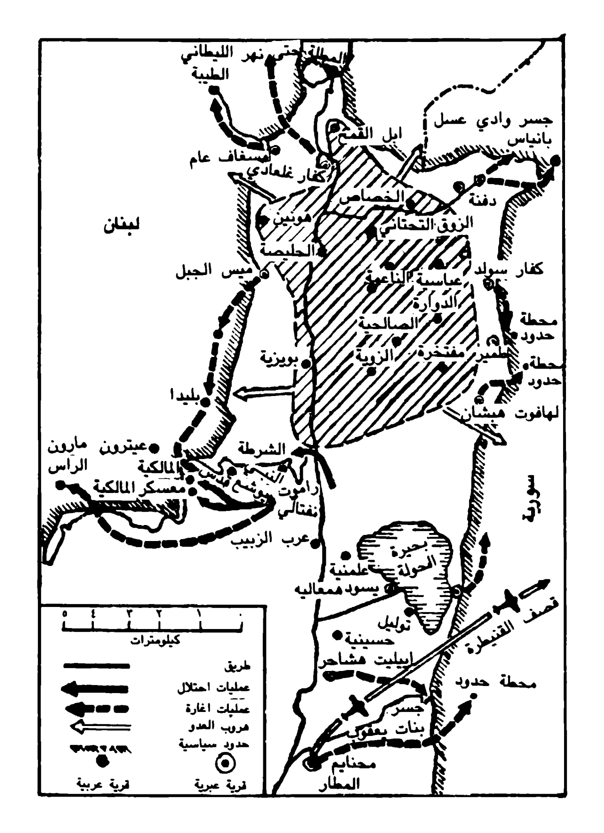
خَرائط



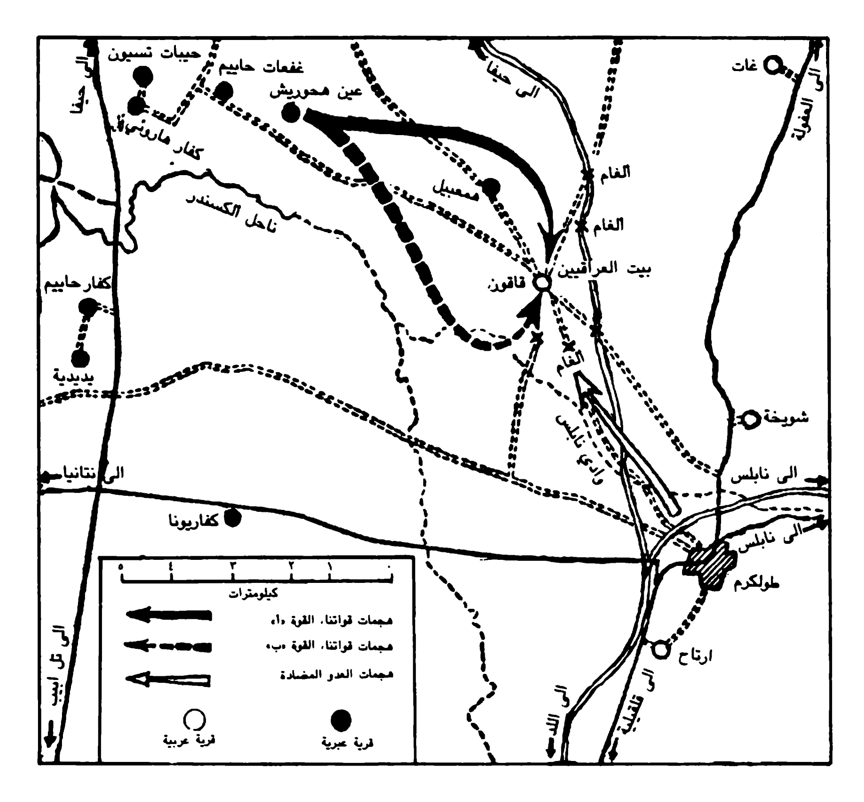
خريطة رقم ١ ــ معركة برير، ١٣/٥/١٩٤٨



خريطة رقم ٢ ــ المعركة في غور الاردن

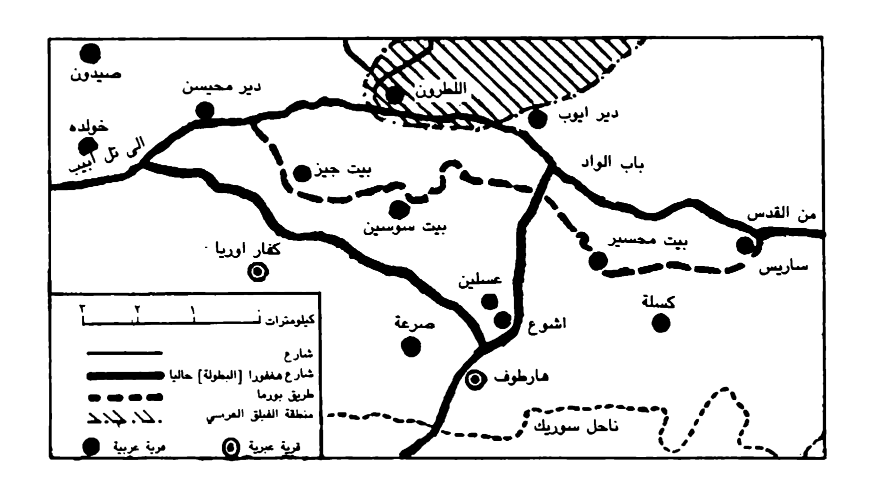


خريطة رقم ٣ ـ عملية «يفتاح» (القطاع الشمالي)



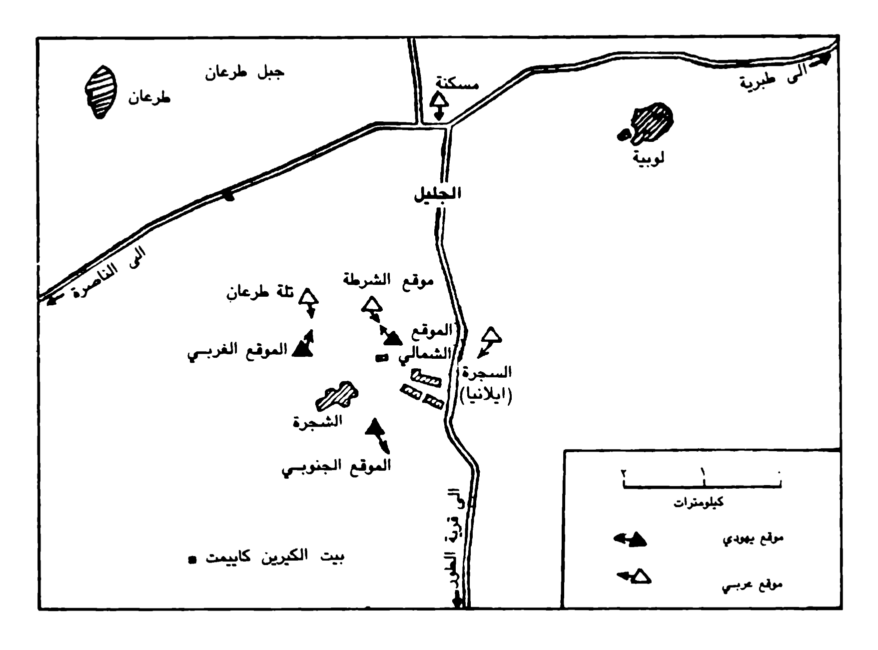
خريطة رقم ٤ ـــ احتلال قاقون

خريطة رقم ٥ ــ الهجوم الاول على اللطرون، ١٩٤٨/٥/٢٥

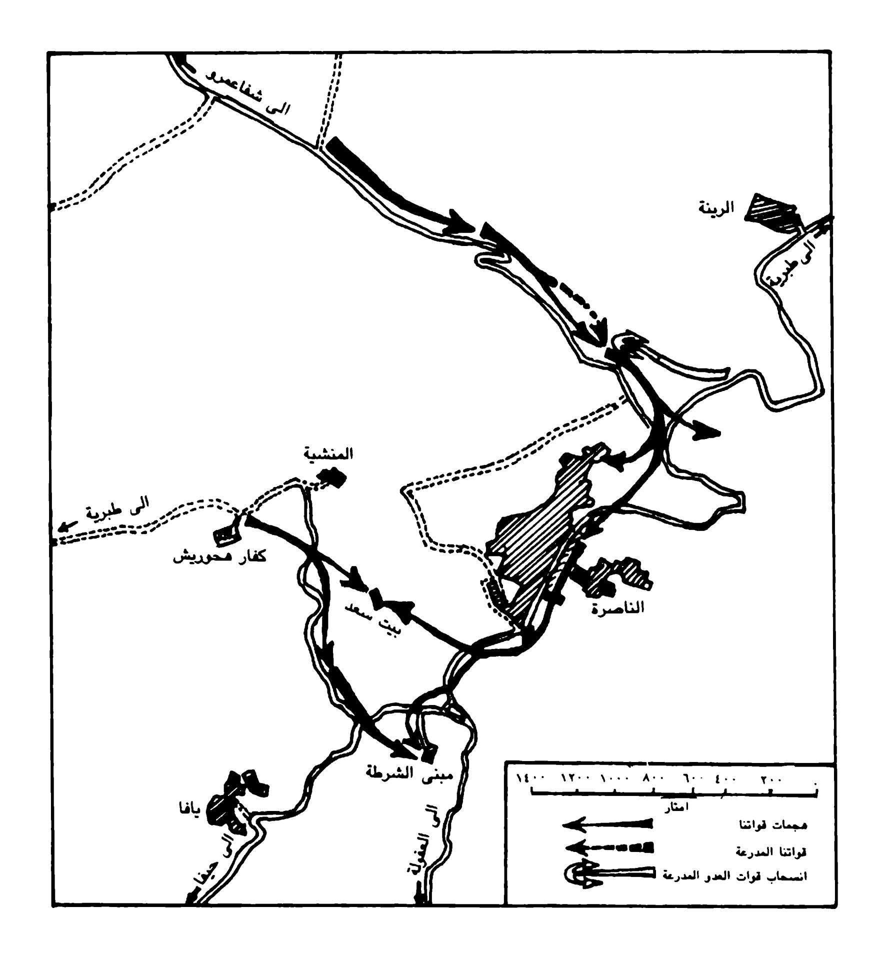


خريطة رقم ٦ ــ طريق «بورما»

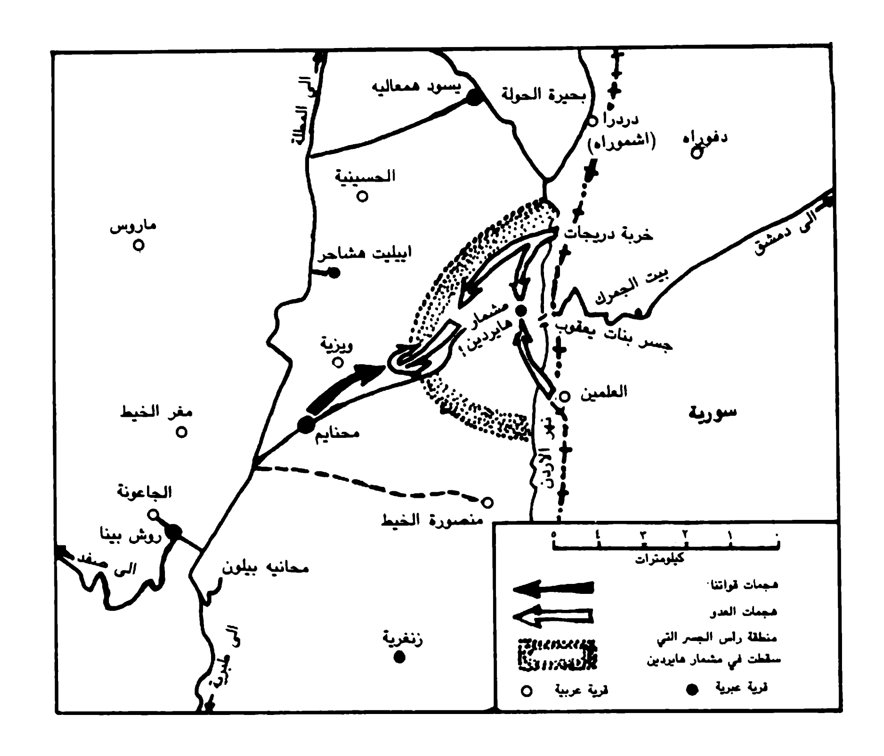
الخريطة رقم ٧ ـ الهجوم على كفار داروم



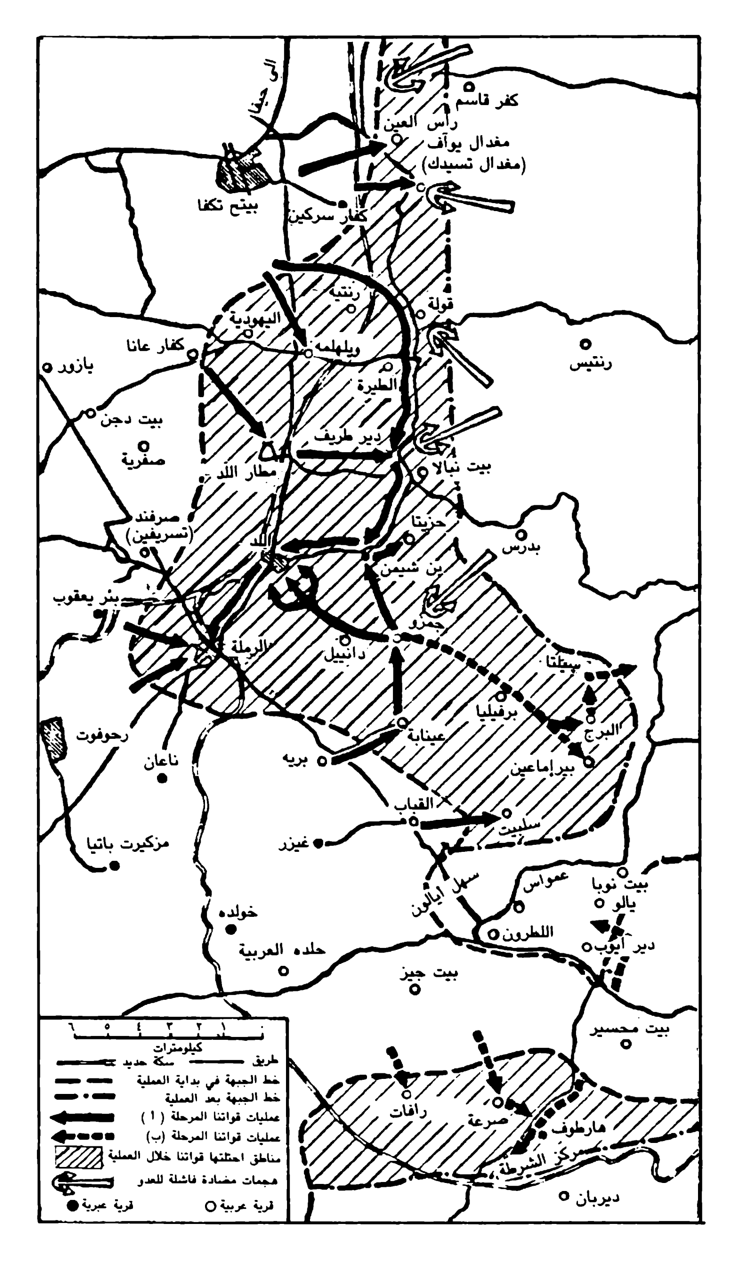
خريطة رقم ٨ ـ مواقع السجرة



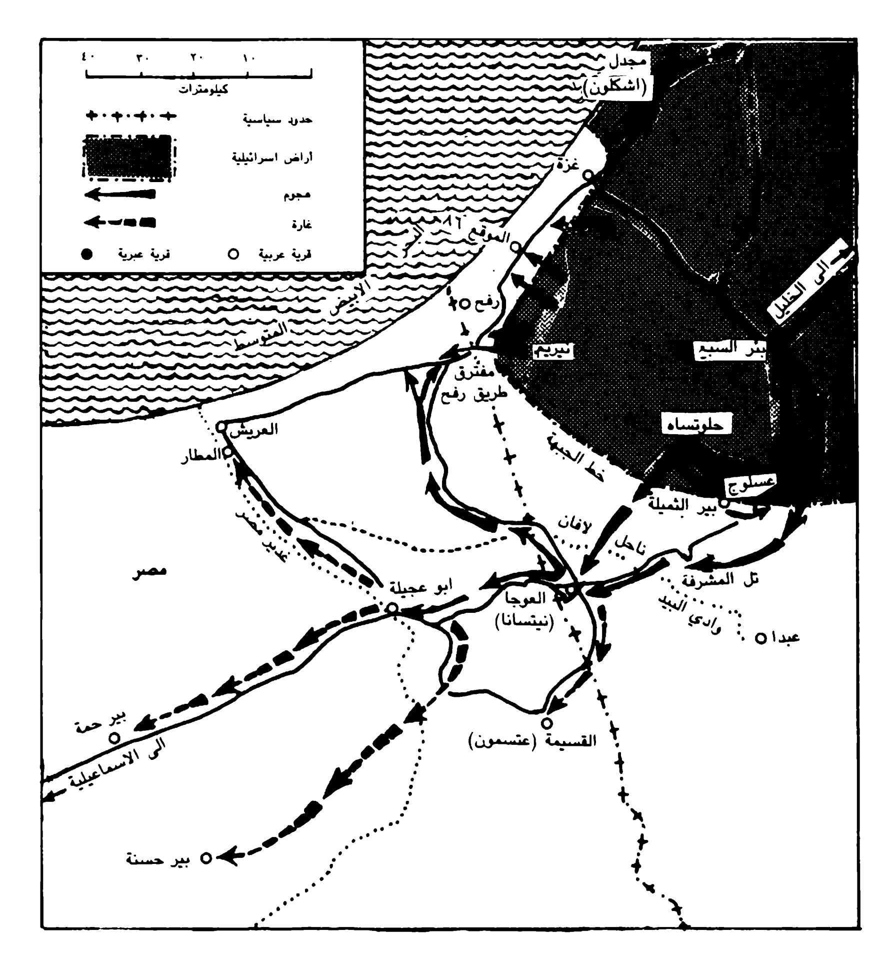
خريطة رقم ٩ ــ اقتحام الناصرة واحتلالها، ١٦/٧/١٩٤٨



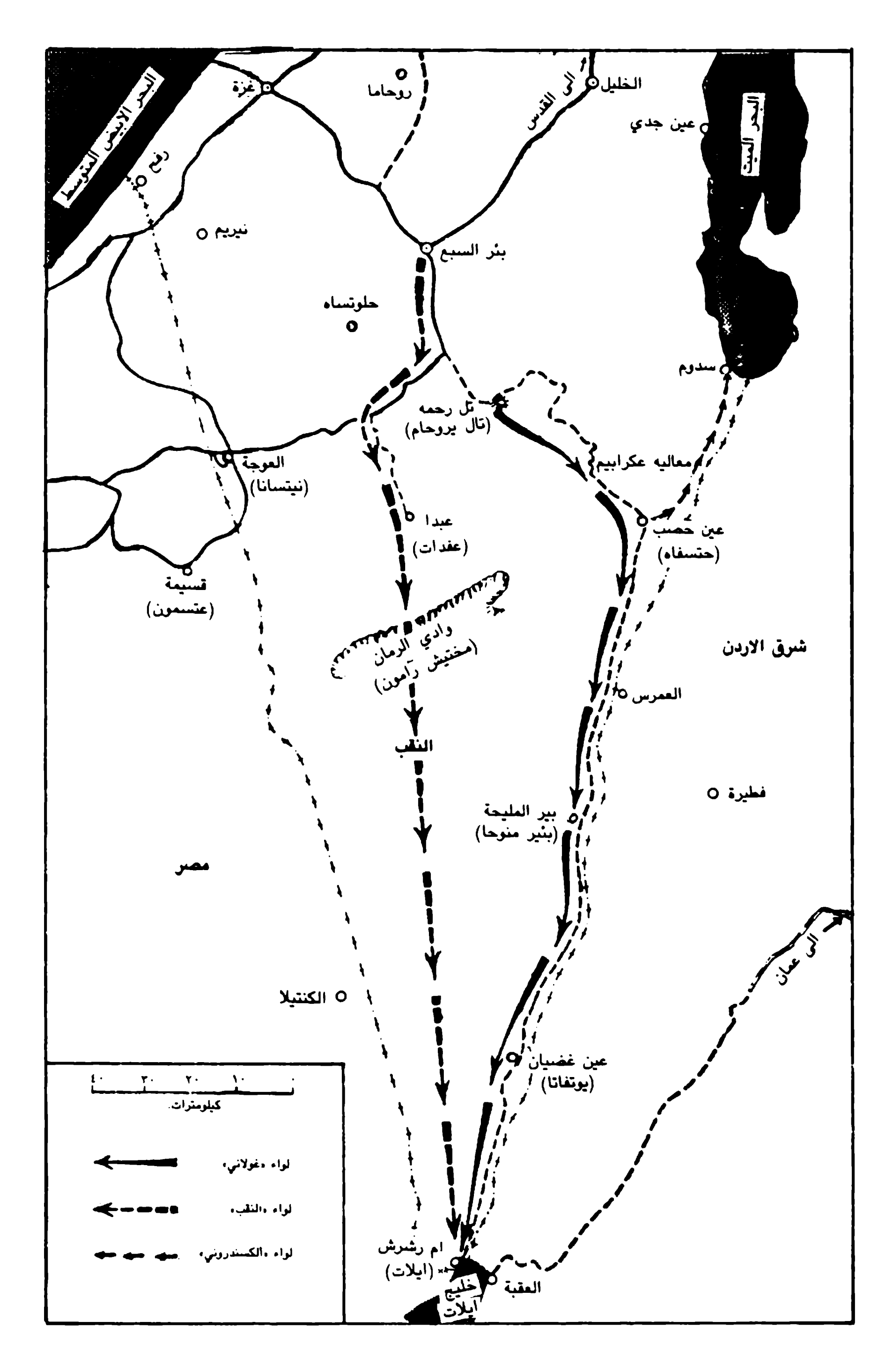
خريطة رقم ١٠ ــ معركة مشمار هايردين



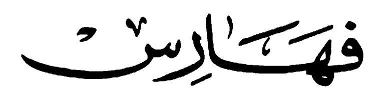
خريطة رقم ١١ ــ عملية «داني» (الجبهة الغربية)



خريطة رقم ١٢ ــ عملية «حوريف» («عاين»)



خريطة رقم ١٣ ـ عملية «عوفدا»، ٦ ـ ١٠/٣/١٩٤٩


فهارس

فهرست الأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ر ـ

— ز —

— س —

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

— ف —

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

— و —

— ي —

فهرست المؤسسات والهيئات

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

- ح -

- خ -

- د -

ـ س ـ

ـ ش ـ

ــ ص ــ

ــ ط ــ

ــ ع ــ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ــ و ــ

فهرست الأماكن والبلدان

— ب —

ـ ت ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ د ـ

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

ــ ص ــ

ــ ط ــ

ـ ظ ـ

ـ ع ـ

– غ –

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ــ ك ــ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ هـ ـ

ــ و ــ

ــ ي ــ